

شَرْحُ
كِتَابِ التَّوْحِيدِ
مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ

تأليف

عبدالله بن محمد الغنيمان

رئيس قسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ

توزيع

مَكْتَبَةُ الدَّارِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

شارع الستين . أمام مسجد الإجابة

ص ب (٢٠٨) هاتف (٨٣٨٣٠٩٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له فى ألوهيته وربوبيته ولا ند له ، فى أسمائه وصفاته .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أسأله بالهدى ، ودين الحق ، فدعا إلى توحيد الله الخالص من كل شائبة شرك ، فى حقه ، أو فعله ، أو أسمائه وصفاته ، وجاهد فى هذا السبيل حتى وضع الحق ، واستبان وكمل به الدين ، وتمت النعمة ، فترك الأمة على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

وسار على نهجه صحابته ، فلم يغيروا ، أو يبدلوا ، بل بذلوا جهدهم فى دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده ، حتى مضوا لسبيلهم .

فصلاة الله وسلامه على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ، إمام الخلفاء وسيد الأصفياء ، ورضى الله عن صحابته أجمعين ، وعمن سلك نهجهم إلى يوم الدين .

كامل الهداية وتمام على النعمة على هذه الأمة

أما بعد ، فقد علم أن الله - بعث رسوله محمداً - ﷺ على حين فترة من الرسل ، « وفى جاهلية لا تعرف من الحق رسماً ، ولا تقم به فى مقاطع الحقوق حكماً » (١) وإنما ينتحلون ماتهوا نفوسهم ، وما تزينه لهم شياطينهم ، وما

(١) انتزاعاً من خطبة الاعتصام للشاطبي ص ٢ .

وجدوا عليه آباءهم ، فجاهدهم وجادلهم بالدين والحكمة ، وقارعهم باللسان والحجة ، لمن كابر وعاند ، وكان نصر الله حليفه ، فاستقام أمره ، وانتصر على عدو الله ، وظهر دينه ، فجاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وبعد تمام نعمة الله - تعالى - عليه وعلى أمته ، وظهور ما جاء به من الحق ، ووضوح الطريق توفاه الله إليه ، فقام بعده صحابته بأمره خير قيام ، فجاهدوا في الله القريب والبعيد ، حتى تحقق ما أخبر به رسولهم - ﷺ - فيما رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « إن الله زوى (١) لى الأرض فرأيت مشارقها ، ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازرى لى منها - وأعطيت الكنزين ، الأحمر ، والأبيض (٢) ، وأنى سألت رى لأمتى أن لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم (٣) ، وإن رى قال : يا محمد ، إنى إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكتهم بسنة عامة (٤) ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلكهم بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا » (٥) .

فتحت بلاد الروم ، وفارس فى عهد الخليفة الثانى ، وأنفقت كنوزها فى سبيل الله - تعالى - وواصلت جحافل التوحيد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، تفتح القلوب إلى معرفة الله وتوحيده قبل البلاد ، حتى تمت نعمة الله على أكثر أهل

(١) معناه جمعها لى فرأيت أقصاها من الشرق ومن الغرب .

(٢) المقصود بالكنزين كنوز الفرس ، والروم ، الأحمر الذهب ، والأبيض الفضة .

(٣) أى يهلكهم جميعا ، ويستولى على بلادهم ، وذرائعهم ، وأموالهم .

(٤) أى لا أرسل عليهم عذابا يعمهم ، ويستأصلهم .

(٥) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ رقم ٢٨٨٩ .

الأرض ، فاتجهوا إلى عبادة الله وحده ، بعد ما كانوا يعبدون كل شيء ، وكانت تستعبدهم شياطين الجن والإنس .

ولكن كثيرا من الناس لا يعجبهم ذلك ، بل يسؤوهم ويحزنهم .

ومن حكمة الله تعالى - أن جعل للباطل جنودا يناصرونه ، ويدافعون الحق ويردونه ، كما جعل للحق أنصارا يتفانون في الذياد عنه ، والدعوة إليه .

وقد كان ذلك منذ بقاء إبليس اللعين بالطرد عن رحمة الله ، والبعد عن كل خير ، فأقسم بعزة الله ليغوين بني آدم أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين ، كما قال الله تعالى عنه : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) (١) .

ومن المعلوم أن الله تعالى لم يقبض نبيه محمدا - ﷺ - حتى أكمل له دينه ، وأظهره على من عاداه بالحجج والبراهين ، وبقوة القتال لمن وقف في وجهه وعاند الحق ، كما قال تعالى في آخر ما أنزله الله عليه : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (٢) فإذا كان الله قد أكمل لهم دينهم ، فلا بد من أنه وضعه لهم بحيث لا يبقى فيه أى التباس أو اشتباه ، ولا بد من أنهم فهموه واعتقلوه على ما أريد منهم وعملوا به ، ولا بد من الاستغناء به عن كل ماسواه ، فلا يحتاجون معه إلى غيره ، وأعظم ما يحتاجونه وأشرفه هو معرفتهم ربهم بأسماء وصفاته ، وما يجب له ويستحقه ، ويحمد ويمجد به ، ويشئى به عليه ، لأن هذا من أفضل العبادة التى أوجبها الله عليهم ، كما قال تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) (٣) .

(١) الآيتان ٨٢ و ٨٣ من سورة ص .

(٢) جزء من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

قد أوضح الله ورسوله العقيدة وضوحاً جلياً

فلا بد من إيضاح الواجب لله تعالى ، والممتنع عليه ، والجائز عليه ، حتى نكونوا على بينة من دينهم ، ومعبودهم ، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من الوحي ، إذ هو من الغيب ، الذى لا يعلم بالقياس ، ولا بالعقل .

وقد بين الله لنا طريقة الأنبياء التى كانوا يدعون بها أممهم ، كما قص الله تعالى عنهم فى القرآن ، فقد اتفقت طريقتهم فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده ، وختامهم جاء مقتفا أثرهم فى ذلك ، فدعا أمته إلى مادعت إليه الرسل قبله ، من توحيد الله ومعرفته ، فلم يفارقهم حتى وضح لهم الطريق ، واستبان الحق من الباطل .

روى ابن ماجه عن أبى الدرداء ، قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال : « آلفقر تخافون ؟ والذى نفسى بيده لتصبن عليكم الدنيا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلاهيه ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء »

قال أبو الدرداء : صدق والله رسول الله - ﷺ - « تركنا على مثل البيضاء ، ليلها ، ونهارها سواء » (١)

وقال الله تعالى : (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٢) ، وقال تعالى : (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٣) وقال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون) (٤) .

(١) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤ رقم ٥ .

(٢) النحل الآية ٨٩ .

(٣) سورة النحل الآية ٦٤ .

(٤) النحل الآية ٤٤ .

فالإيمان بالله وأسماء وصفاته أعظم الأشياء وكذلك عبادته ، فلا بد أن يبين الكتاب الذى هو تبيان لكل شىء ذلك أوضح البيان .

ولابد أن يدل على أعظم الهدى الذى هو معرفة الله - تعالى بأسماءه وصفاته - كما أن من أعظم ما وقع فيه الخلاف فى الأمة هو فى هذا الباب ، فلا بد أن يكون قد بينه ، لأنه تعالى أخبرنا أنه نزله ليبين لنا ما اختلفنا فيه ، ولابد أن نجد فيه ما يزيل كل شك ولبس ، لأنه هدى ورحمة - لكن ليس لكل أحد بل للمؤمنين فقط .

وأعظم ما أنزل إلينا هو الإيمان بالله ، ومعرفته ، وقد أخبرنا تعالى أنه أنزل الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم ، فكيف يترك أعظم الأشياء المنزلة إلينا بدون بيان .

فعلم بهذا ونحوه أن الله تعالى بين على لسان رسوله - ﷺ - للأمة كل ما تحتاج إليه فى دينها ، ومعرفة ربها ، ولم يكل ذلك إلى عقولهم ، أو قياساتهم . قال ابن عباس فى قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) (١) أخبر الله نبيه والمؤمنين ، أنه أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً » (٢) .

فإذا كان الله تعالى قد أكمل لهم الإيمان ، فكل ما لم يقله رسول الله - ﷺ - فى باب الإيمان ، ولم يأمر به وبيّنه للأمة فهو باطل ، وليس من الدين الكامل الذى جاء به .

وأصل الدين وأساسه معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ومعرفة ما يجب له على عباده .

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) رواه ابن جرير بسنده ، انظر تفسيره ج ٩ ص ٥١٨ ط المعارف .

ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله ، واليوم الآخر أن يظن برسول الله ﷺ أنه لم يبين ما يعتقد العبد في ربه ، لأن هذا هو الذي أمر بتبليغه .

قال شيخ الإسلام : « من المحال في العقل والدين أن يكون الرسول الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبا ، ولم يميز بين ما يجب لله ، من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع عليه ، فإن معرفة هذا أصل الدين ، وأفضل الأعمال ، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة - وهم أفضل الخلق بعد النبيين - لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا .

ومحال أن يعلم النبي - ﷺ - أمته أدب الأكل والشرب ، وقضاء الحاجة ، ونحو ذلك ، ويترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ، وما يعتقدونه في قلوبهم ، في ربهم ومعبودهم ، مع كون ذلك غاية المعارف ، وأشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، مع قوله - ﷺ - : « ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » (١) .

ومحال أن يكون الذين كان فيهم رسول الله - ﷺ - والذين يلونهم غير علمين للحق في باب معرفة الله ، وغير قائلين به .

ومعلوم أن من في قلبه حياة ومحبة للعبادة ، أنه يحرص أشد الحرص على معرفة ذلك .

وقد صح عنه - ﷺ - أنه قال (٢) : « خير الناس قرني ، ثم الذين

(١) انظر صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٣٣ شرح النووي في الإمارة باب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ، وابن ماجه في الفتن ، انظر ج ٢ ص ١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦ ، والنسائي في البيعة ج ٧ ص ١٥٣ .

(٢) البخاري ، انظر الفتح ج ٧ ص ٢ وج ١١ ص ٢٤٤ و ٥٤٣ .

يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » (١) .

بدء الانحراف

لما سيطر حكم الإسلام على أكثر البلاد ، في آسيا ، وأفريقيا ، وغيرهما . دخل تحت حكمه أمم كثيرة ، رغبة ورهبة ، وكان لها أديان مختلفة ، من يهودية ، ومجوسية ، ونصرانية ، ووثنية ، وغير ذلك ، وقد كان لكثير من هذه الأمم سلطان كبير ، مثل المجوس ، والرومان ، فسلبهم المسلمون ذلك ، وكان عند هؤلاء من الكبر والاستعلاء ما يجعلهم يأنفون من كونهم تحت سلطان المسلمين ، ولاسيما وقد كانوا يرون العرب من أحقر الأمم ، وأقلها شأنًا ، كما أن اليهود واجهوا الإسلام ورسوله من أول أمره بالعداء ، وحاولوا القضاء عليه بأنواع من المكائد ، والمؤامرات . ولما يأس هؤلاء جميعاً من قدرتهم في مجابهة الإسلام بالقوة وجها لوجه انصرف جهدهم وكيدهم إلى الدسائس ، والمؤامرات ، والاعتيالات لرجال العظام .

ودخل في الإسلام ظاهراً من هؤلاء من قصده إفساده ، وتمزيق وحدة أهله ، ولا بد أن يكون ذلك عن دراسة ، وإعمال فكر وتخطيط . وربما يكون هناك جمعيات متعاونة ، من المجوس واليهود ، والنصارى والهنود ، وغيرهم ، وقد تكون لكل طائفة مؤسسات تعمل لإفساد عقائد المسلمين ، لتيقنهم أنه لا يمكن هزيمة المسلمين ، إلا بإفساد عقيدتهم . فبدأت آثار تلك المؤامرات تظهر ، شيئاً فشيئاً ، فقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأيدي مجوسية ، وربما بمؤامرة مجوسية يهودية .

ثم قتل الخليفة بعده ، بأيدي مشبوهة ، من غوغاء ، يدفعهم بعض دهاة اليهود والمجوس .

(١) الفتوى الحموية ، ملخصاً ، انظر مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٧٠٦ .

ثم ظهر القول بنفى القدر ، وأول من عرف بذلك رجل مجوسى يقال له : سيسويه ، من الأساورة ، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهنى (١) .

ثم أوقدت نار الفتنة بين المسلمين ، وقتال بعضهم بعضا .
ثم خرجت الخوارج بجهلهم ، وعتوهم ، وتكفيرهم المسلمين ، وقتلهم إياهم .

ثم نجم التشيع الشنيع ، من قبل يهود ومجوس يوقدون ناره ، وأظهروا القول بأن للرسول - ﷺ - وصياً ، هو عليّ بن أبى طالب ، ولكن الصحابة تمالؤا على ظلمه ، وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب .

ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه ، وتشعبه ، حتى صار ملجئاً لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين ، وظهر فيه القول بأن القرآن مبدل ومحرف ، ومزبد فيه ، ومنقوص منه ، وأن أعظم الصحابة ارتدوا بعد إسلامهم إن لم يكونوا كلهم ، ماعدا عليّ بن أبى طالب ونفر قليل معه .

وقد يصل الضلال ببعضهم والجرأة على الله تعالى ، إلى أن يقول بخيانة جبريل للرسالة ، وأنه أرسل إلى علي فعدل بها إلى محمد .

ولم يزل الرفض يبتعد بأهله عن الدين . والعقل والفطرة إلى يومنا هذا .

ثم ظهر القول بإنكار الصفات لله تعالى ، وأنه لا يجب أحداً من عباده ولا يحبه أحد ، ولا يتكلم ، وليس له يد ، ولا وجه ، ولا شيء مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله .

(١) معبد الجهنى البصرى تابعى كان داعية فى ضلال ، قال الدارقطنى : حديثه صالح ومذهبه ردىء . تكلم فيه كثير من السلف من أجل قوله بنفى القدر ، قتله عبد الملك سنة ثمانين ، انظر تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٢٥ .

وكان أول من عرف بذلك ، رجل يقال له : الجعد بن درهم . (١)

قال شيخ الإسلام : « أصل مقالة تعطيل الصفات ، مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام - أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة ، وأن الاستواء بمعنى الاستيلاء ونحو ذلك - هو الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه .

وقد قيل : إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر ، الذي سحر النبي ﷺ (٢) وهذه سلسلة يهودية لها سوابق في محاربة الإسلام .

وقال البخارى : « حدثنا قتيبة ، حدثنى القاسم بن محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيبة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : شهدت خالد بن عبد الله القسرى بواسط في يوم أضحى ... وقال : ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله علواً كبيراً عما يقول ابن درهم ، ثم نزل فذبحه »

قال أبو عبد الله : قال قتيبة : بلغنى أن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعد بن درهم » (٣) .

فتبين أن هذا الإلحاد جاء من قبل اليهود الذين أرادوا إفساد دين الإسلام ،

(١) عداده في التابعين ، قتله خالد بن عبد الله القسرى على الزندقة يذكر أنه جعل في قارورة ، ماء وتراباً ، فاستحال دوداً ، فقال : أنا خلقت وهو فارسي ، قتل سنة ١٢٤ . انظر البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٩٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٠ .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٩ - ٣٠ . ورواه عثمان بن سعيد في الرد على الجهمية

كما أن الرفض أول من عرف من دعائه يهودى ماكر ، حاقد وهو ابن سبأ ، يقال له ابن السوداء ، واسمه عبد الله بن وهب بن سبأ من يهود صنعاء ، ولابد أن هؤلاء الأفراد الذين شهروا بدعواتهم المنحرفة ، وراءهم من يدعمهم ، ويخطط لهم ، وهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة فاحصة ، تبين الأمر بوضوح ، وهذا الذى أشرت إليه تدل عليه كثير من الوقائع ، والآثار عن السلف ، وغيرهم .

فكان هذا هو سبب التفرق الحقيقى ، إذ هو تفرق فى الاعتقاد ، وهو منشأ الخلافات ، والحروب الكلامية الممزقة ، التى لم تزل تنخر فى كيان المسلمين إلى يومنا هذا .

وقد ينضم إلى ذلك عوامل جديدة فى كل فترة زمنية ، من أنواع الإلحاد ومحاربة الإسلام بأساليب شتى ، وأسلحة مختلفة ، مقروءة ، ومرئية ومسموعة ، ولولا أن الله تعالى تكفل ببقاء هذا الدين إلى آخر وقت من الدنيا ، لقصى عليه منذ زمن بعيد ، وهذا بالإضافة إلى ما هو كامن فى طباع البشر مما يبعدهم عن الحق ، مثل التقليد ، واتباع المألوفات ، وما يكون عليه رؤساء القوم وعظماؤهم ، كما ذكر الله تعالى عن الأمم السابقة مع أنبياءهم قال تعالى : (أم آتيناهم كتابا من قبله ، فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) (١) فهذا يدل على أن الإنسان يصعب عليه ترك المألوف له ، كما أن شيخه ، ومن يعظمه قد يسيطر على توجيهه إلى مايعتقده ، كما هى طريقة المتكلمين ، حيث يأخذون بآراء شيوخهم ومعظمهم ، مع مخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله .

ومن ذلك الجهل ، واتباع الهوى ، كما هو حال أكثر الخوارج ، فإنهم

(١) الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من سورة الزخرف .

جهلوا معاني الكتاب ، وأرادوا من عموم الأمة أن لا يكون لهم ذنوب ، وإلا أصبح عندهم كافراً مخلداً في النار .

وأما الهوى فبابه واسع ، وقد قال الله تعالى : (أفرايت من اتخذ إلهه هواه) (١)

وقال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) (٢) إلى غير ذلك من الدوافع نحو الانحراف ، وسأذكر شيئاً مما ذكره أهل العلم يؤيد ما ذكر هنا :

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى : « وقد روى أن أول من ابتدع [القول بنفى القدر] بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له : سيسويه من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهني » (٣)

وقال الإمام ابن حزم : « الأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر في أنفسهم ، حتى إنهم يسمون أنفسهم الأحرار ، والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم ، على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاضمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالحاربة ، في أوقات شتى ، ففى كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق ، وكان من قائمتهم « منقاد » و « المقنع » ، و « استابين » ،

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص .

(٣) مجموع الفتاوي ج ٧ ص ٣٨٤ ، وذكره المقرئ في الخطط ج ٣ ص ٣٦٠ ، وسيأتي ، وأما ما ذكره أبو لبابة حسين في كتابه « موقف المعتزلة من السنة » أن معبداً أخذ مقالته عن نصراني من أهل العراق أسلم ثم تنصر ، نقلها عن أدب المعتزلة ففیه نظر ، إذ هو خلاف المشهور .

و « دبابك » (١) ، وغيرهم ، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب « خدasha » ،
و « أبو مسلم السراج » .

فأروا أن كيدته على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستأثروا أهل
التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله - ﷺ - واستشناع ظلم (٢) علي -
رضي الله عنه - ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام ، فقوم
منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدي ، عنده حقيقة الدين ، إذ
لا يجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار .

وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة .

وقوم سلكوا بهم المسلك الذي ذكرنا ، من القول بالحلول ، وسقوط
الشرائع .

وآخرون تلاعبوا بهم ، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة .
وآخرون قالوا : بل هي سبع عشرة صلاة ، في كل صلاة خمس عشرة
ركعة .

وهذا قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندي ، قبل أن يصير خارجيا ،
صفريا (٣)

(١) هذه الأسماء فيها اختلاف بين النسختين من الفصل المحققة والمطبوعة سابقاً ،
ففي القديمة « ستقادة » و « استاسيس » والملقب « بخدasha » و « أبو مسلم السراج » ولم
يشر المحققان إلى هذا الاختلاف .

(٢) لم يقع على علي بن أبي طالب ظلم من الصحابة كما زعمته الرافضة ، وإنما هو
شيء اختلق للتشيع والوصول إلى المقصد الخبيث .

(٣) يجوز أن يكون عبد الله هذا يهوديا ، لم يشف حقه مافعله من إفساده دين من
أفسد دينه ، فدخل في الخوارج ليروي ظمناً حقه بدماء المسلمين . فالله أعلم .

وقد سلك هذا المسلك أيضا عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى (١) فإنه لعنه الله ، أظهر الإسلام ليكيد أهله ، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان - رضى الله عنه ، وحرق علي بن أبى طالب طوائف أعلنوا بإهتيه .

ومن هذه الأصول الملعونة ، حدثت الاسماعيلية ، والقرامطة ، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة ، ثم مذهب مزدك الموبد ، الذى كان على عهد أنو شروان بن قباد ، ملك الفرس ، وكان يقول بوجود تواسى الناس في النساء ، والأموال .

قال أبو محمد : فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوهم عن الإسلام كيف شاؤوا ، إذ هذا هو غرضهم فقط » (٢)

وهذا الذى ذكره أبو محمد ابن حزم - رحمه الله - ظاهر في أنه كان هناك جمعيات تنظيمية تخطط لهدم عقيدة المسلمين ، بشتى الوسائل .

قال البخارى رحمه الله - تعالى - : « حدثنا محمد بن عبد الله - أبو جعفر البغدادي قال : سمعت أبا زكريا ، يحيى بن يوسف الزمى ، قال : كنا عند عبد الله بن إدريس ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا محمد ، ماتقول في قوم يقولون : القرآن مخلوق ؟ فقال : أمن اليهود ؟ قال : لا ، قال : فمن النصرارى ؟ قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ قال : لا ، من أهل التوحيد ، قال : ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء الزنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقول الله - تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ، فالله لا يكون مخلوقا ، والرحمن لا يكون مخلوقا ، والرحيم لا يكون مخلوقا .

(١) إن فعل هذين الرجلين يدلنا على أن هناك منظمات تتعاون على حرب الإسلام من اليهود والمجوس وغيرهم ، كما أشرت إليه قبل ذلك .

(٢) الفصل ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ ، وانظر المحققة ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وهذا أصل الزندقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله ، لاتجالسوهم ، ولا تناكحوهم « (١) .

وقال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله تعالى : « لم يزل [أهل الباطل] مقموعين أذلة ، مدحورين ، حتى كان الآن بآخرة ، حيث قلت الفقهاء ، وقبض العلماء ، ودعا إلى البدع دعاة الضلال ، فشد ذلك طمع كل متعوذ في الإسلام من أبناء اليهود ، والنصارى ، وأنباط العراق ، ووجدوا فرصة للكلام ، فجدوا في هدم الإسلام ، وتعطيل ذى الجلال والإكرام ، وإنكار صفاته وتكذيب رسله ، وإبطال وحيه ، إذ وجدوا فرصتهم ، وأحسوا من الرعاع جهلا ، ومن العلماء قلة ، فنصبوا عندها الكفر للناس إماما ، بدعوتهم إليه . وأظهروا لهم أغلوطات من المسائل ، وعمايات من الكلام ، يغالطون بها أهل الإسلام ، ليوقعوا في قلوبهم الشك ، ويلبسوا عليهم أمرهم ويشككوهم في خالقهم ، مقتدين بأئمتهم الأقدمين « (٢)

وقال البخارى : « حدثنى أبو جعفر ، حدثنى يحيى بن أيوب ، قال : سمعت أبا نعيم البلخى ، قال : كان رجل من أهل « مرو » صديقاً للجهم ، ثم قطعه وجفاه فقيلاً له : لم جفوته ؟ فقال : جاء منه مالا يحتمل ، قرأت يوماً آية كذا وكذا ، نسيها يحيى - فقال : ما كان أظرف محمداً ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة طه فلما قال : (الرحمن على العرش استوى) قال : أما والله لو وجدت سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة القصص فلما انتهى إلى ذكر موسى ، قال : ما هذا ؟ ذكر قصته في موضع فلم يتمها ، ثم ذكرها ها هنا فلم يتمها ، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه ، فوثبت عليه « (٣)

(١) خلق أفعال العباد ص ٣٠ .

(٢) الرد على الجهمية ص ٢٥٩ عقائد السلف .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٣٨ ، وانظر عقائد السلف ١٢٨ - ١٢٩ .

فهذه الوقائع - ومثلها كثير جداً - تدل على حقد دفين ، على هذا الدين ، وأنه دخل في المسلمين الدخيل ، ذى القلب الموتور ، والصدر الموغور ، والنفس التى تأكلها نار عداوة الإسلام ، ونبي الإسلام ، وأن هؤلاء يحاولون اجتثاث الإسلام من قلوب الناس ، بالتشكيك فى أصوله ، وأن كثيراً من علماء السلف علموهم ، وعرفوا أن مرادهم صدّ الناس عن الإسلام ، وإفساد عقائدهم . وأن تعاونوا يهوديا ، ومجوسيا ، ونصرانيا وإلحاديا لم يزل ينتهز الفرص ، جاهدا فى إطفاء نور الله - وبأى الله إلا أن يتم نوره .

ولاشك أن الصراع بين الحق والباطل قديم ، وأنه لا يخلو زمان ، ولا مجتمع من ذلك ، وأن الله تعالى جعل للباطل هواة ومحبين ، ينفقون أموالهم ويبدلون نفوسهم فى الدفاع عنه ، كما جعل للحق أنصاراً ، وهذا أمر ظاهر كما قال تعالى : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (١)

وإذا كان الإنسان متظاهرا بمساندة الباطل ونصرته ، فأمره أسهل ممن يخفى ذلك ، ويتظاهر بالخير والإيمان ، وهو من أبعد الناس عنه ، وأشدهم عداوة له ، وإنما مقصده معرفة مواطن الضعف من الإسلام وأهله ، والمداخل التى تنفذ سمومه منها فيهم ، ثم يرميهم بكل ما يستطيع .

وربما يكون هناك تنظيمات تلبس لباس العلم والمعرفة ، والإصلاح ، والتجديد ، والمقصود منها القضاء على الدين ، وهم ينوعون أساليبهم فى كل وقت بما يناسبه ، وإن مصائب الإسلام بهؤلاء وأمثالهم ، من فجروه إلى يومنا هذا تتوالى ، وقد وصف ذلك المقرئى - رحمه الله - وصفا مفيدا ألخصه فيما يلى :

قال :

(١) سورة النساء الآية ٧٦ .

« لما بعث الله محمداً - ﷺ - إلى الناس ، وصف لهم ربهم بما وصف به نفسه ، فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم ، قروبيهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك ، كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة ، وشرائع الإسلام . إذ لو سأله أحد منهم عن شيء من الصفات لنقل ، كما نقلت أحاديث الأحكام وغيرها .

ومن أمعن النظر في دواوين الحديث والآثار عن السلف ، علم أنه لم يرد قط لا من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم ، أنه سأل النبي ﷺ عن معنى شيء ، مما وصف الرب سبحانه به نفسه ، في القرآن وعلى لسان نبيه ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا سكوت فاهم مقتنع ، ولم يفرقوا بين صفة وأخرى ، ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شيء منها ، بل أجروا الصفات كما وردت بأجمعهم ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به سوى كتاب الله ، وسنة رسوله .

ومضى عصرهم - رضی الله عنهم - على هذا ، وحدث القول بنفى القدر في عهد آخرهم .

وكان أول من فاه بذلك معبد الجهني ، أخذه عن رجل من الأساورة ، يقال له : أبو يونس سنسويه ، ويعرف بالأسواري ، وتبرأ من هذه المقالة الصحابة . ثم خرجت الخوارج ، وكفروا بالذنوب ، فقاتلهم أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب .

وحدث التشيع لعلي ، وغلا فيه طائفة بدعوة ابن سبأ اليهودي فحرقهم في النار ، كما أحدث ابن سبأ القول بالوصية لعلي بالإمامة من بعد الرسول - ﷺ - والقول بالرجعة - أي رجعة علي بعد موته ، وأن فيه جزء من الإلهية .

ومن دعوة هذا اليهودي تشعبت الغلاة من الرافضة ، كالإمامية الاثنى عشرية ، والإسماعيلية ، والقرامطة ، والنصيرية ، وغيرهم ، وهو الذي أثار الفتنة على أمير المؤمنين ، عثمان حتى قتل ، ولم يزل مذهب الرفض يستفحل حتى ملأ الدنيا فساداً .

ثم حدث مذهب الجهمية ، وتعطيل الرب - تعالى - عن صفاته ، والقول بخلق القرآن ، وغير ذلك من العظائم ، وعربت كتب الفلاسفة في عهد المأمون ، فعظمت الفتنة والضلال .

ثم ظهر الأشعري ، وكان أخذ عن الجبائي الاعتزال ، ولازمه دهرًا طويلًا ، ثم سلك طريق ابن كلاب في الصفات ، والقدر وغير ذلك .

وسلك طريقه جماعة من العلماء ، مثل الباقلاني ، وابن فورك ، والاسفرائيني والشيرازي ، والغزالي ، والشهرستاني ، والرازي وغيرهم ، وملئوا الدنيا بتصانيفهم ، يحتجون ، ويدعون أن طريقتهم هي طريقة أهل السنة والجماعة ، فانتشر هذا المذهب في البلاد الإسلامية ، وجاءت دولة بني أيوب ، وكانوا على هذا المذهب ، ثم مواليهم الأتراك ، وأخذ ابن تومرت إلى المغرب ، ونشره هناك ، فصار هذا المذهب هو المعروف في الأمصار ، بحيث نسي ماعداه من المذاهب ، أو جهل ، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة .

حتى جاء تقي الدين - أبو العباس ابن تيمية - ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ورد على الأشاعرة ، والرافضة ، والصوفية ، فافترق الناس فيه فريقان : فريق يقتدى به ، ويعول على أقواله ، ويرى أنه شيخ الإسلام حقا ، ومن أجل حفاظ أهل الملة الإسلامية .

وآخر يبذعه ، ويضله ، ويزري عليه إثبات الصفات وغيرها .

ثم قال المقرئ :

« فهذا أعزك الله بيان ما كانت عليه عقائد الأمة من ابتداء الأمر إلى وقتنا ، قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار ، وأجملت ما فصلوا ، فدونك طالب العلم تناول ما قد بذلت فيه جهدي ، وأطلت بسببه سهري وكدي ، في تصفح دواوين الإسلام ، وكتب الأخبار ، فقد وصل إليك صفوا » (١)

(١) الخطط للمقرئ ملخصا ج ٣ ص ٣٠٩ - ٣١٤ .

وقال أحمد أمين في كلامه على ابن سبأ : « والذي يؤخذ من تاريخه ، أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نياته » (١)

وذكر الطبري : « أن ابن السوداء لما وصل إلى الشام لقي أباذر - رضى الله عنه - فقال له : ياأباذر ألا تعجب لمعاوية ، يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، يريد أن يحتججه دون المسلمين ، فذهب أبو ذر إلى معاوية وقال له : مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله » ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهوديا ، وأتى عبادة بن الصامت فأخذه عبادة ، وذهب به إلى معاوية ، وقال له : هذا والله الذي بعث عليك أباذر » (٢)

فإذا كان هذا اليهودى قد طمع بالصحابة ، فكيف بغيرهم .

ومن استقرأ التاريخ يرى أن أعداء الإسلام لم يدخروا وسعاً في محاولة القضاء عليه ، إلى يومنا هذا .

كبريات الفرق الإسلامية

كان من نتائج التآمر على عقيدة المسلمين من جهات متعددة ، كما سبقت الإشارة إليه ، أن انشطر من الأمة الإسلامية عدة فرق ، انحرفت عن الطريق الصحيح ، الذى رسمه لها نبيها - ﷺ - وأخذت بنيات الطريق ، كما سبق فى حكم الله القدرى الكونى قال تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين * إلا من رجم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (٣)

(١) فجر الإسلام ص ٢٦٩ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٣ .

(٣) الآيتان ١١٨ و ١١٩ من سورة هود عليه السلام .

روى ابن جرير عن الحسن « قال : الناس مختلفون على أديان شتى ، إلا من رحم ربك ، فمن رحم غير مختلفين »

وروى عن مجاهد : قال : « ولايزالون مختلفين » أهل الباطل ، (إلا من رحم ربك) أهل الحق « (١)

وقال : « معنى ذلك : ولايزال الناس مختلفين في أديانهم ، وأهوائهم ، على أديان وملل ، وأهواء شتى ، إلا من رحم ربك ، فأمن وصدق رسله ، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله « وتصدق رسله ، وما جاءهم من عند الله » (٢)

وقال ابن كثير : « يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة ، من إيمان أو كفران ، كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) (٣) .

وقوله : « ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك » أى : ولايزال الخلف بين الناس في أديانهم ، واعتقاداتهم في مللهم ونحلهم ، ومذاهبهم ، وآرائهم . إلا المرحومون من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذى جاءت به رسل الله إليهم ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية « (٤)

وقد أخبر النبي ﷺ بوقوع هذا الاختلاف ، محذرا منه ، فروى أبو داود ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « افتقرت اليهود على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » (٥)

(١) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٥٣٤ ط المعارف .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣٤ .

(٣) الآية ٩٩ من سورة يونس عليه السلام .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٠ - ٢٩١ ملخصا ط الشعب .

(٥) السنن ج ٥ ص ٤ رقم ٤٥٩٦ ، ورواه الترمذى التحفة ج ٧ ص

٣٩٧ ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه ج ٢ ص ١٣٢١ رقم ٣٩٩١ .

ورواه أيضا من حديث معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب ، افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة » (١) .

قال ابن كثير : « روى هذا الحديث فى السنن ، والمسانيد من طرق يشد بعضها بعضا » (٢) .

وأصل الفرق الذى ترجع إليه أربع كما قاله طائفة من السلف ، وهم الروافض ، والخوارج ، والقدرية [المعتزلة] ، والمرجئة ، وبعض العلماء يجعلها خمسا ويدخل أهل السنة ، كما قال أبو محمد بن حزم : « فرق المقرين بجملة الإسلام خمس : وهم : أهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، ثم افترت كل فرقة من هذه على فرق » (٣) .

ومراد غير أهل السنة فإنهم فرقة واحدة ، وهم الذين تمسكوا بكتاب الله واتبعوا سنة رسوله ﷺ .

وقال الطرطوشى : « اعلم أن علماءنا قالوا : أصول البدع أربعة ، وسائر الأصناف الاثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا ، وتشعبوا . وهم : الخوارج : وهى أول فرقة خرجت على علي بن أبى طالب ، والروافض والقدرية ، والمرجئة » (٤)

(١) السنن ج ٥ ص ٥ ، والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو مع بعض الاختلاف فى اللفظ ، وقال : حديث حسن مفسر ، انظر تحفة الأحوذى ج ٧ ص ٣٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩١ .

(٣) الفصل ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الحوادث والبدع ص ٣١ .

ومن هذه الفرق تشعبت سائر الفرق ، وقد أُلّف فيها وفي بيان نحلها مؤلفات قديما وحديثا .

وكان من أول هذه الفرق الشيعة فإنها حدثت في آخر عصر الصحابة ، ثم تطور التشيع الى الرفض ، ومبدأه من ابن سبأ اليهودى ، وغيره من المجوس ممن دخل في الإسلام ظاهرا وفي الباطن هم إما يهود ماكرون ، أو مجوس موتورون ، قصدهم إفساد الدين الإسلامي ، كما تقدم .

فكان الرفض في أوله يسمى التشيع ، فاشتهروا بالشيعة - أى شيعة علي ابن أبى طالب ، وكانوا في زمنه ثلاث فرق .

فرقة تقول : إنه إله ، وقد صرحوا له بذلك فحرق الذين تمكن منهم بالنار .

والثانية : الذين يسبون أبا بكر وعمر ، وقد توعد علي - رضى الله عنه - من فعل ذلك بأن يقيم عليه الحد - قيل : إنه القتل .

والثالثة المفضلة ، الذين يفضلون علياً على أبى بكر ، وعمر ، وبقيّة الصحابة ، وقد روى عنه أنه قال : « لا أتى برجل يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته الحد » (١) .

ولما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية ، سأله الشيعة عن أبى بكر وعمر ، فترضى عنهما ، وبين أنه يتولاهما ، تبرأ منه عند ذلك أكثرهم ، فقال : رفضتمونى ، فسموا الرافضة ، والذين اتبعوه سمو زيدية .

وأما القدريّة : فأصلهم فيما يبدو والله أعلم ، من المجوسية المتعاونة مع اليهودية والنصرانية على حرب الإسلام .

(١) انظر فضائل الصحابة للإمام أحمد ج ١ ص ٨٣ .

وحدثت هذه الضلالة أيضا في آخر عهد الصحابة - رضى الله عنهم - ثم تطورت إلى الاعتزال .

وقد اغتر بهذا المبدأ كثير من الناس ، الذين عجزت عقولهم عن استيعاب الإيمان بقدر الله ، وأمره ونهيه ، ووعدته ووعيده ، وظنوا امتناع الجمع بين ذلك ، فنفوا علم الله بالمستقبل لظنهم أنه لا يحسن أن يأمر من يعلم أنه يعصى أمره ثم يعذبه على ذلك ، حيث جعلوا هذا ظلما لا يجوز فقابلتهم الجبرية ، الذين هم صنو منهم ، ثم تطورت إلى التجهم ، والتعطيل بتغذية اليهودية ، المفسدة في الأرض .

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا عن الحق من جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهم كذلك كان ظهورهم في آخر عهد الصحابة رضى الله عنهم . وهم إنما أتوا من سوء فهمهم للنصوص ، ولم يقصدوا مخالفة القرآن ، ولكن فهمهم أدهم إلى ما لم يدل عليه القرآن ، وهو تكفير أهل الذنوب ، والقول بخلودهم في النار ، ولابد أنه اندس في صفوفهم من يضلهم من منظمات المتورين ، والحاقدين على دين الله وعباده المؤمنين .

وأما الإرجاء ، فإنه وإن كان أخف هذه البدع ، ومعتقوه من أقربهم إلى أهل السنة ، ففيه من الضلال ، والمخالفة لشرع الله تعالى ما هو معروف في مواطنه .

الأشعرية

من نتائج الافتراق والتشتت ، برزت الأشعرية ، وهى عبارة عن خليط من مذاهب عدة فرق ، كالمعتزلة ، والكلاية ، والجهمية ، وقد كان إمام هذه النحلة - أبو الحسن الأشعري - تلميذاً لأبي علي الجبائي ، قرأ عليه أصول المعتزلة ، ولازمه ما يقرب من أربعين عاما ، ولهذا كان خبيراً بمذاهب المعتزلة ، ثم انتقل إلى طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهى أقرب إلى مذهب أهل السنة من طريقة

المعتزلة ، وجعل يبين فساد مذهب الاعتزال ويرد عليهم ، ويوضح فساد أصولهم .
وتناقضهم ، ويعددهم عن الحق ، ومثلهم الرافضة والفلاسفة ، ولهذا صار له ذكر
حسن وقدر عند المسلمين .

والذين ينتسبون إليه من المتأخرين ليسوا على طريقته ، مع أنه لم يكن من
أهل السنة المحضة ، إذ لم يستطع أن يتخلص من بعض مسائل أهل الكلام .

قال شيخ الإسلام : « لا ريب أن الأشعرية إنما تعلموا الكتاب والسنة من
اتباع الإمام أحمد ، ونحوه ، ولهذا يوجد أكثر ألفاظه التي يذكرها عن أهل السنة
والحديث ، إما ألفاظ زكريا بن يحيى الساجي ، التي وصف بها مذهب أهل
السنة ، أو ألفاظ أصحاب الإمام أحمد ، وما ينقل عن أحمد في رسائله الجامعة
في السنة ، وإلا فالأشعري لم يكن له خبرة بمذهب أهل السنة ، وأصحاب
الحديث ، وإنما يعرف أقوالهم من حيث الجملة ، لا يعرف تفاصيل أقوالهم ،
وأقوال أئمتهم ، وقد تصرف فيما نقله عنهم باجتهاده في مواضع يعرفها البصير .
وأما خبرته بمقالات أهل الكلام فكانت تامة على سبيل التفصيل .

ولهذا لم يذكر عن أهل السنة في كتاب « مقالات الإسلاميين » إلا جملة
مقالاتهم ، مع أن لهم في تفاصيل تلك ما ليس لأهل الكلام .

ولا ريب أن للأشعري في الرد على أهل البدع كلاما حسناً ، هو من الكلام
المقبول ، الذي يحمد قائله إذا أخلص فيه النية .

وله أيضا كلام خالف به بعض السنة هو من الكلام المردود ، الذي يذم
قائله إذا أصر عليه بعد قيام الحجة « (١) والله يغفر لنا وله .

وقد انتسب إلى الأشعري أكثر العالم الإسلامي اليوم من أتباع المذاهب
الأربعة ، وهو يعتمد على تأويل نصوص الصفات تأويلا يصل أحيانا إلى

(١) التسعينية ج ٥ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ من الفتاوى المصرية . ملخصا .

التحريف ، وأحيانا يكون تأويلا بعيداً جداً ، وقد امتلأت الدنيا بكتب هذا المذهب ، وادّعى أصحابها أنهم أهل السنة ، ونسبوا من آمن بالنصوص على ظاهرها إلى التشبيه والتجسيم .

هذا ولابد لعلماء الإسلام - ورثة رسول الله ﷺ - من مقاومة هذه التيارات الجارفة ، على حسب ماتقتضيه الحال ، من مناظرات ، أو بالتأليف ، وبيان الحق بالبراهين العقلية والنقلية ، وقد يصل الأمر أحيانا إلى شهر السلاح .

وقد أكثر علماء السنة من التأليف في الرد على أهل الأهواء والانحراف ، كما ظهر بعض الطوائف المقابلة لتلك البدع كالسالمية والكلابية ، الذين تولوا أيضا الرد على أهل تلك الانحرافات ، غير أنهم كثيراً ما يردون البدع بيدع مماثلة لما يرد أو قريبا منها ، فيزداد من أجل ذلك التباس الحق على كثير من الناس ، بخلاف ما إذا كان الرد بما دل عليه كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، كما هو نهج أهل السنة بالإضافة إلى المعقول الصريح .

ومن كبار علماء السنة الذين ردوا على أهل البدع ، الإمام البخارى - رحمه الله تعالى - في كتاب أفرد لذلك سماه « خلق أفعال العباد » ، ولم يقتصر فيه على ما يفهم من الاسم ، بل ردّ فيه على الجهمية والقدرية وغيرهم ، كما رد على المرجئة في كتاب الإيمان من الجامع الصحيح ، ورد على الجهمية والمعتزلة ومن سلك طريقهم في كتاب التوحيد ، الذى ختم به كتابه الجامع الصحيح ، وسلك فيه طريقا واضحا في الرد ، إذ اقتصر على ذكر النصوص ، من الكتاب والسنة ، التى فيها بيان بطلان مذاهب هؤلاء المشار إليهم ، فكأنه يقول : هذا كتاب ربنا الذى أنزله علينا وأمرنا باتباعه ، وحضّنا على تدبره وفهمه ، وجعله هدى ونورا وشفاء للمؤمنين به ، وهذه سنة نبينا الذى كلفنا بطاعته ، ومتابعته ، وفيهما العصمة عن الخطأ ، وهما صريحان في بيان الحق ، الذى ضل عنه هؤلاء المبتدعة ، وقد تكفلا يرد ماجاؤا به ، فلا يسع المسلم إلا الأخذ بهما ، ورد ما خالفهما ، فقيهما الهدى والنور ، وفي تركهما الضلال والهلاك ، والله تعالى لم يكلنا إلى

عقولنا ، بل أرسل إلينا رسولا بين لنا كل ما نحتاج إليه من أمور ديننا ، وأنزل عليه كتابه ، فيه تبيان لكل شيء ، فرّق فيه بين الحق والباطل ، فلسنا نحتاج معه إلى غيره ، فإن تمسكنا به أوصلنا إلى الله من أقرب طريق وأهداه ، وإن أعرضنا عنه تخطفنا الشياطين من كل جانب كما قال الله تعالى : (ومن يَعِشْ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنيهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بُعدَ المشرقين فبئس القرين) (١) .

الإمام البخارى

هو أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه (٢) .

قال النووى : « اتفق العلماء على أنه ولد بعد صلاة الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ، سنة أربع وتسعين ومائة ، وتوفى ليلة السبت ، عند صلاة العشاء ليلة الفطر ، سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن يوم الفطر بعد الظهر » (٣) .

طلب العلم من صغره ، وتبينت نجابته وذكاءه ، وفطنته ، وحفظه ، ونبهه من صغره ، وقد طوف البلاد مراراً لطلب الحديث ، وأخباره مشهورة ، واتفق العلماء على جلالة ، وإمامته في الحديث ، وفقهه ، وتميز بذلك عن غيره ، وقد كتب في ترجمته كثيرا ، في كتب الرجال ، والشروح ، وأفرد لذكر فضائله ، وشمائله كتب خاصة ، فلا نطيل في ذلك .

وأما كتابه « الجامع الصحيح » فقال النووى - رحمه الله - : « اتفق

(١) الآيات من ٣٦ - ٣٨ من سورة الزخرف .

(٢) هدى السارى ج ٢ ص ٢٥٠ ، وتاريخ بغداد ج ٢ ص ٤ .

(٣) شرح النووى للبخارى ص ٤ .

العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخارى ومسلم ، واتفق الجمهور على أن صحيح البخارى أصحهما صحيحا ، وأكثرهما فوائد « (١) »

قلت : هو كتاب عظيم ونافع جدا لمن قرأه ، وتدبره ، وقد أودعه من التراجم التي تعين على الفهم الشيء الكثير ، وهي تدل على عظيم فقهه في الحديث ، ودقة استنباطه ، وقد بلغت ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنين وثمانين ترجمة ، وتزيد على ذلك في بعض النسخ .

هذا ، وقد اعتنى العلماء به عناية فائقة ، قراءة ، وحفظاً ، وتديراً ، وشرحاً . فحظي بشروح كثيرة جدا ، فذكر في كشف الظنون ما يقرب من ثمانين شرحا للبخارى (٢) ، وله أكثر من ذلك بكثير .

ومع هذا ، فإن كتاب التوحيد منه بحاجة إلى شرح يبين مقاصد البخارى - رحمه الله تعالى - ووجه الرد منه على أهل البدع ، لأن غالب من قام بشرحه ، على المذهب الأشعري ، ولاسيما الشروح المتداولة اليوم ، ولهذا تجد أحدهم يوجه الكلام من النصوص ، ليتفق مع ما يعتقده ، ولو بالتعسف .

وكثير من الصفات التي يثبتها البخارى ، مستدلا عليها بنص من كتاب الله ، أو عن رسوله ، يحاولون ردها ، إما بالتحريف الذي يسمونه تأويلا ، أو بدعوى الإجماع على خلافها ، كما ذكر الحافظ - رحمه الله تعالى - عن ابن بطال ، في قوله - صلى الله عليه وآله : « لا شخص أغير من الله » .

قال : « أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شخص » (٣) .

(١) شرح النووى للبخارى ص ٧ .

(٢) انظر كشف الظنون ج ١ ص ٥٤٥ .

(٣) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٠٠ وسيأتى إن شاء الله الكلام عليه وذكر من رواه .

وذكر عن الخطابي : أنه رد وصف الرب - تبارك وتعالى - بالأصابع كما في حديث عبد الله بن مسعود في ذكر الخبير الذي سأل رسول الله - ﷺ - ونسب ذلك إلى تخليط اليهود ، وتشبيههم ، وقال في قوله في الحديث « فضحك رسول الله - ﷺ - تصديقا لقوله » أنه ظن من ابن مسعود ، وحسبان ، وحاول عكس الأمر ، وأن الضحك من جرأة اليهود على التشبيه (١) ، وأمثال ذلك كثير ، مما هو خلاف ما أراد إثباته مؤلف الكتاب .

ولذلك أرى من الواجب أن يتولى شرح هذا الكتاب العظيم ، الذى ألفه ذلك الرجل السلفى الفاهم للحق تمام الفهم ، من هو على نهج المؤلف فى العقيدة ، ويفهم مقصده ، وماذا يريد من إيراده للنصوص .

ولما أعوزنى وجود شرح على هذا الوصف ، ولم يسعبنى من طلبت منه القيام بذلك من مشائخنا ، تطفلت على كتب العلماء ، وقمت بجمع ما أراه مناسباً لشرح ما أورده البخارى - رحمه الله تعالى - وأرجو من الله الإمداد بالعون والسداد ، فإنه لا ينجيب سألته ، ولا يحرم أمله ، ولست أزعم أننى أفهم من كتاب البخارى - رحمه الله - مالا يفهمه شارحوه ، أمثال ابن حجر ، والعينى والخطابى وابن بطلال ، والقسطلانى وغيرهم ، ولكن لكل منهم نهجه الخاص ، وعقيدته التى تلى عليه مسلماً معيناً .

١ - وطريقتى فيه أنى أذكر نص الحديث بسنده ، ثم أتبعه بترجمة لراويهِ من الصحابة موجزة جداً .

٢ - أحاول بيان مراد البخارى - رحمه الله - من إيراده للنص ، وبيان وجه استدلاله بذلك ، حسب المستطاع .

(١) انظر الفتح ج ١٣ ص ٣٩٨ . وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ذلك فى موضعه ، وإبطاله بالبراهين المعتمدة على الحق البقينى ، لا ظنون المتكلمين وشكوكهم ، والله المستعان .

٣ — أعزو الكلام إلى قائله ، مبينا مكانه من المصدر ، بالجرء والصفحة .
وأذكر رقم الآية واسم السورة ، ومكان الحديث في المصدر ، وأما صحيح البخارى
فغالبا أعزوما فيه إلى الفتح .

٤ — لا أتطرق إلى الكلام على رجال السند ، إذ هو أمر مفروغ منه ،
فكل ما فى البخارى ثابت ، عن المصطفى ﷺ . وقد تلقته الأمة بالقبول . فلا
يطعن فيه إلا من له غرض . أو فى قلبه مرض ، خلا بعض المعلقات ، وقد تولى
الحافظ رحمه الله وصل أسانيدها ، والإجابة عما قيل فيها فى كتابه تعليق
التعليق .

٥ — أحاول جهدى بيان مذهب السلف ، فى أسامى الله تعالى ،
وأوصافه ومدى تمسكهم بالكتاب والسنة ، مستعينا على ذلك بنقل ما تيسر لى
من كلامهم على سبيل الإيجاز .

٦ — أحاول رد القول الباطل ، أو الضعيف ، الذى لا تؤيده النصوص ،
إذ أن مبنى أوصاف الله تعالى على ثبوت النص فى ذلك ، ولادخل لقياس وعقل
فى ذلك ، وكل ذلك حسب المستطاع .

قال البخارى - رحمه الله تعالى :

« باب ماجاء فى دعاء النبى - ﷺ أمته إلى توحيد الله - تبارك وتعالى »

* * *

مقصده بهذا أن يبين أن النبى - ﷺ - قد أوضح مايجب على المسلم أن يعتقد فى حق الله - تعالى نفيا و إثباتا ، وأوضح مايجب لله على عباده ، من توحيد القصد والنية ، لأن قوله : « توحيد الله » يعم أنواع التوحيد ، فلم يترك الأمر مشتتها ، بل بينه ، فيجب أن يتبع بيانه فى ذلك ، فلا يصر إلى رأى متكلم ، أو عقل متفلسف ، أو قول مؤول .

وقوله : « دعاء النبى - ﷺ - أمته » أى الدعوة التى كلفه الله بها وأمره بإبلاغها .

يعنى : أن هذا مقصود الرسالة ، فلا بد أن يبينه ، ويبلغه أمته ، البلاغ المبين ، بحيث لا يبقى فيه التباس ، أو اشتباه .

وقد قام - صلوات الله وسلامه عليه - بهذا الواجب خير قيام ، فأوضحه غاية الإيضاح ، فلا عذر لمن انحرف عنه ، وتلقى توحيديه من الفلاسفة والمتكلمين الذين كثر فى هذا الباب اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله تعالى حجابهم (١) .

وهو بهذا يبين أن معرفة التوحيد ، الذى جاء به رسول الله - ﷺ -

(١) اقتباس من كلام شيخ الإسلام فى أول الحموية ، انظر ص ٥ بتعليقات محمد عبد الرزاق حمزة .

ودعا أمته إليه ، لا يمكن الوصول إليها إلا بما جاء به - ﷺ - من كتاب الله تعالى ، وسنته التي هي شارحة ومبينة لكتاب الله تعالى .
والأمة هنا يقصد بها الأمة المطلقة - أى أمة الدعوة .

* * *

١ - « حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن يحيى ابن عبد الله بن صيفى ، عن أبى معبد ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي - ﷺ - بعث معاذًا إلى اليمن . »

٢ - وحدثنى عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا الفضل بن العلاء ، حدثنا إسماعيل بن أمية ، عن يحيى بن عبد الله بن صيفى ، أنه سمع أبا معبد مولى ابن عباس يقول : سمعت ابن عباس يقول : « لما بعث النبي - ﷺ - معاذًا إلى نحو أهل اليمن ، قال له : إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ماتدعوهم ، إلى أن يوحدوا الله تعالى . فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم ، أن الله فرض عليهم خمس صلوات ، في يومهم وليلتهم فإذا صلوا ، فأخبرهم ، أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم ، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم فإذا أقرؤا بذلك ، فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس . »

* * *

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، الهاشمى ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وخبير هذه الأمة ، من المكثرين عن النبي ﷺ ، وجل ما يرويه بواسطة أحد الصحابة ، دعا له النبي ﷺ - بأن يفقهه الله في الدين ، ويعلمه التأويل ، فظهرت عليه آثار دعوته - ﷺ - حتى عرف بأنه ترجمان القرآن .

توفي النبي ﷺ - وهو ابن خمس عشرة سنة ، على الراجح .

وقد توفي سنة ثمان وستين - في الطائف (١) .

ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، الأنصاري ، الخزرجي ، من علماء الصحابة وساداتهم قال له رسول الله - ﷺ فيما رواه أبو داود ، والنسائي بإسناد صحيح : « والله يا معاذ إني أحبك » (٢)

وقال ابن مسعود : « إن معاذاً كان أمة ، قانتاً لله حنيفياً ، ولم يكن من المشركين إنا كنا لنشبه معاذاً بإبراهيم ، عليه السلام » (٣)

شهد العقبة ، والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - توفي في الشام بطاعون عمواس ، سنة ثمان عشرة ، وكان عمره ثمان وثلاثون سنة (٤)

قوله : « بعث معاذاً إلى اليمن » أى أرسله مبلغاً عنه ، وداعياً إلى عبادة الله وتوحيده

« وأصل البعث إثارة الشيء ، وتوجيهه .

ويختلف باختلاف ماعلق به .

فبعثت البعير : أثرته من مبركه ، وسيرته ، وقوله تعالى : (والموتى بيعثهم

(١) انظر الإصابة ج ٤ ص ١٤١ ، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٧ ، أسد الغابة ج ٣ ص ٢٩٠ ، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٣١ وغيرها كثير .

(٢) السنن ج ٢ ص ١٨٠ الحديث رقم ١٥٢٢ ، وانظر المجتبى ج ٣ ص ٥٣ .

(٣) انظر الإصابة ج ٦ ص ١٣٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٤٤٣ ، أسد الغابة ج ٥ ص ١٩٤ ، الإصابة ج

٦ ص ١٣٦ .

الله (١) أى يخرجهم من الأرض أحياء ، ويسيرهم إلى المحشر .
 وقوله تعالى : (ولكن كره الله انبعاثهم) (٢) أى توجههم ، ومضيهم معك .
 وقوله تعالى : (فبعث الله غربا يبحث فى الأرض) (٣) أى قيضه لذلك .
 وقوله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) (٤) أى أرسلناهم لدعوة قومهم ، إلى الله تعالى ، فالبعث ضربان :

أحدهما يتعلق بفعل المخلوق ، كبعث البعير ، وبعث الإنسان فى حاجة .
 والثانى : إلهى ، وهو قسمان :

الأول إيجاد الأعيان ، والأجناس ، والأنواع من العدم ، على غير مثال سابق ، وهذا خاص بالله تعالى .

والثانى : إحياء الموتى ، وهذا قد أعطى جل وعلا بعض من يشاء من عباده شيئا منه ، كعيسى - عليه السلام - ليكون آية على صدقه « (٥) »

و « اليمن » اسم البلاد المعروفة الواقعة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب .

قال فى القاموس : « اليمن ماكان عن يمين القبلة من بلاد الغور » (٦) وفى المراصد : « سميت اليمن لتيانهم إليها ، لما تفرقت العرب من مكة ، كما سميت

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٥) المفردات للراغب بتصرف ص ٥٢ .

(٦) القاموس ج ٤ ص ٢٧٩ .

الشم لأخذهم الشمال» (١) .

قلت : وفيه نظر . وذلك أن اليمن قديم ، قبل وجود مكة على يدي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، إلا أن تكون التسمية حادثة وقال قطرب : « سمي اليمن ليمنه » (٢) .

قال الحافظ : « كان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر ، قبل حجة الوداع » (٣) . وعند أهل المغازي ، أن ذلك في ربيع الآخر ، من سنة تسع ، والصحيح ما قاله الحافظ . وقد أشار البخاري - رحمه الله - إلى ذلك بقوله : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع » (٤)

وقيل : كان ذلك في اواخر سنة تسع ، عند منصرفه - صلى الله عليه وسلم من تبوك ، رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك ، وحكى ابن سعد أنه كان في ربيع الآخر سنة عشر » (٥) فالله أعلم .

قوله : « إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب » . تقدم بفتح الدال ماضيه ثلاثي مكسور العين ، ومصدره قدوما ، لأنه يدل على معالجة .

« القوم » الجماعة من الرجال ، والنساء ، أو من الرجال خاصة وتدخل النساء على التبعية . قاله في القاموس (٦) .

« وأهل الكتاب » هم اليهود والنصارى ، « والمقصود هنا اليهود ، وكان

(١) المراصد ج ٣ ص ١٤٨٣ .

(٢) تاج العروس ج ٩ ص ٣٧١ .

(٣) الفتح ج ٣ ص ٣٥٨ .

(٤) انظر البخاري ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٥) انظر الفتح ج ٣ ص ٣٥٨ .

(٦) انظر القاموس ج ٤ ص ١٦٨ .

ابتداء دخولهم اليمن في زمن « أسعد ذى كرب » تبع الأصغر ، كما ذكر ذلك ابن إسحاق في السيرة « (١) » .

والمقصود بالكتاب : الجنس ، والمراد : التوراة ، والإنجيل .

وسمى اليهود ، والنصارى أهل الكتاب ، لأن الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل ، فيهما أوامر الله ، ونواهيه ، ليعملوا بهما - وهدى من الله ونور يخرجهم من ظلمات النقي والشهوات قال الله تعالى : (وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس) (٢) . فتوارثوه جيل عن جيل ، ثم إنهم حرفوه ، وغيروا فيه وزادوا ونقصوا ، فاختلف حقه في باطلهم ، ثم نسخه الله تعالى بالقرآن الذي أنزله على خاتم الرسل - ﷺ .

قال الحافظ : قوله : « إنك تقدم » الخ . كالتوطئة للوصية ، لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب ، أهل علم في الجملة ، فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبة أهل الجهل من عبدة الأوثان « (٣) » . ولا يدل على أن كل من يقدم عليهم من أهل الكتاب ، بل أغلبهم من عبدة الأوثان ، كما هو معلوم .

قوله : « فليكن أول ماتدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى » اللام للأمر ، وإذا اقترنت بالفاء أو الواو فهي ساكنة في الغالب الأكثر .

وقوله : « إلى أن يوحدوا الله تعالى » ذكره في الزكاة بلفظ : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » (٤) .

وفي رواية : فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله

(١) فتح الباري ج ١٣ ص ٣٤٨ .

(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة آل عمران .

(٣) الفتح ج ٣ ص ٣٥٨ .

(٤) انظر الفتح ج ٣ ص ٢٦١ .

فأخبرهم « الخ (١)

وفي أخرى : « فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » (٢) .

وفي رواية لمسلم : « فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله - عز وجل - فإذا عرفوا الله فأخبرهم » الخ (٣) .

وهذه الروايات متفقة في المعنى .

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله ، توحيد الله بالعبادة ، والبعد عن عبادة ما سواه ، وهذا هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، الذى قال الله تعالى فيه : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) (٤) .

والطاغوت : كل ما عبد من دون الله ، كما قال مالك - رحمه الله (٥) سواء كان من البشر ، أو من الحجر ، أو الشجر ، أو الحيوان ، أو الأضرحة والعتبات .

والكفر به : الابتعاد عن عبادته ، التى هى طلب البركات منه ، أو

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧ وج ٨ ص ٦٤ الفتح .

(٣) انظر مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٩٩ .

(٤) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٥) قال ابن جرير : « الطاغوت كل ذى طغيان على الله لمن عبده من دونه ، إما بقره لمن عبده أو بطاعة من العباد له ، إنسانا كان ذلك المعبود ، أو شيطانا ، أو وثنا ، أو صنما ، أو كائنا ما كان من أى شئ » انظر تفسير الطبرى ج ٥ ص ٤١٩ تحقيق أحمد ومحمود شاکر .

الشفاعات أو دفع البليات ، أو إنالة الحاجات ، أو التوجه إليه بالدعاء ، ولا بد من بغضه وعداوته ، وعداوة عابديه ومقاطعتهم ، والتبرئ منهم . لقول الله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُؤاؤن من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (١)

والإيمان بالله - تعالى - هو : إفراده بالعبادة ، التي تتضمن غاية الحب ومنتهاه مع غاية الذل وأقصاه ، والانقياد لأمره ، والتسليم له .

وهذا هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، كما قال ﷺ لوفد عبد القيس « آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا إله إلا الله » الخ (٢) .

وقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) (٣) ، أخذ البخارى رحمه الله من هذه الآية وجوب العلم قبل العمل ، فقال : باب العلم قبل القول والعمل . لقول الله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (٤)

فالعلم بمعنى هذه الشهادة التي لا بد لكل داخل في دين الإسلام أن يشهد بها هو الإيمان المطلوب من العباد ، وهو معرفة حق الله على عباده ، الذي لا يجوز الإخلال بشيء منه ، وإلا استحقوا عذابه .

وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، فهو : العلم اليقيني بأنه رسول من الله كلفه إبلاغه العباد أوامر الله ونواهيه ، وطاعته في كل ما أمر به ، واجتناب ما نهاهم عنه ، وأن لا يعبد الله إلا بما جاء به ، وأن كل من سلك طريقاً غير سنته

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) انظر الفتح البخارى ج ١ ص ١٢٩ ، ومسلم بشرح النووي ج ١ ص

(٣) الآية ١٩ من سورة محمد ﷺ

(٤) انظر الفتح ج ١ ص ١٥٩ .

فمصيره إلى النار ، وأنه بلغ العباد ما أرسل به ، وبين لهم دينهم أتم بيان ، وأنه عبد الله أكرمه بالرسالة ، وليس له من العبادة شيء ، بل العبادة كلها لله تعالى .

وهاتان الشهادتان متلازمتان ، لا تقبل إحداهما دون الأخرى ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ، ولم يشرك به شيئاً ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله ، فهو كافر بالله وخالد في النار ، وإن جاء بعبادة أهل الأرض .

ومن شهد أن محمداً رسول الله ، وأشرك بالله شيئاً شركاً كبيراً ، فهو كافر خالد في النار ، فلا بد من اجتماع هاتين الشهادتين في العبد حتى يكون موحداً .

✓ وأما مجرد النطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، مع عبادة غير الله وتعلق القلب بمن يعتقدهم أولياء ، وطلب الحاجات منهم التي لا يقدر عليها إلا الله ، ومع مخالفة أوامر رسول الله - ﷺ - وارتكاب ما نهى عنه ، فإن ذلك لا يفيد شيئاً ، ولا يكون للإنسان به مسلماً .

قال النووي - رحمه الله : « واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء ، والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة ، ولا يخلد في النار ، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام ، اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ، ونطق مع ذلك بالشهادتين ، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل القبلة أصلاً ، بل يخلد في النار ، إلا أن يعجز عن النطق للخلل في لسانه » (١) .

وهذه الشهادة أيضاً تتضمن الإيمان بأسماء الله وصفاته ، لأن ذلك من عبادة الله التي تعبد الخلق بها .

وهذا الحديث دليل ظاهر على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده ، والبعد عن عبادة ما سواه ، والإيمان بأسمائه وصفاته كما جاءت في وحيه إلى رسوله - هو أول واجب على العباد .

(١) شرح النووي للبخارى ص ١١٣ .

لا كما يقول أهل الكلام ، من المعتزلة ، والأشعرية ، وغيرهم : أن أول ما يجب على العبد ، النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ، أو القصد إلى النظر أو الشك ، فهذا الحديث وأمثاله من نصوص الكتاب والسنة يبطل هذا الزعم الخاطيء .

« وذلك أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ، هو الإيمان بالله ورسوله ، والاهتداء بوجيهه ، كما قال تعالى : (قل إن ضللتُ فإنما أضلّ على نفسي ، وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي إنه سميع قريب) (١) . وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) (٢)

وقال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها » (٣)

ولهذا ابتدأ البخارى - رحمه الله تعالى - صحيحه ببدأ الوحي ونزوله ، الذى يحصل به الهدى ، والنور ، ثم أتبعه بكتاب الإيمان ، الذى هو الإقرار بالوحي والانقياد له ، ثم أتبعه كتاب العلم الذى هو معرفة ما جاء به الرسول ﷺ ، وفقهه ، فهذا هو الترتيب الحقيقى .

والمطلع على أقوال أهل الكلام يعجب مما جعلوه أصل الدين الإسلامى ، وبنوا عليه أن من لم يعرفه فليس بمسلم .

(١) الآية ٥٠ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٣) رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ، انظر الفتح ج ١ ص

٧٥ ، وانظر مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٢١٢ ، وروى من حديث جماعة من الصحابة فى الصحيحين وغيرهما .

قال القرطبي : « لو لم يكن في الكلام إلا مسألتان ، هما من مبادئه لكان حقيقا بالذم ، إحداهما قول بعضهم : إن أول واجب الشك ، إذ هو اللازم لوجوب النظر ، أو القصد إلى النظر .

والثانية : قول جماعة منهم : من لم يعرف الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام ، لم يصح إيمانه .

والقائل بهاتين المسألتين كافر ، لجعله الشك في الله - تعالى - واجبا ، ومعظم المسلمين كفارا ، حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين ، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة ، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضرورى » (١) .

وقال الغزالي : « أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين ، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر ، فضيقوا رحمة الله الواسعة ، وجعلوا اللجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين » (٢) .

وقوله : « فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم » .

أى إذا عرفوا توحيد الله ، وعملوا به ، بأن أخلصوا عبادتهم لله وحده ، واجتنبوا عبادة كل معبود سواه ، عند ذلك يخبرون بفرائض الإسلام ، ويؤمرون بها ، وأعظمها بعد التوحيد الصلوات الخمس .

وفى هذا دليل على أنه لا يجب على العبد من الصلاة غير الخمس المذكورة .

ومعلوم أن بعث معاذ إلى اليمن في آخر حياة الرسول - ﷺ - كما سبق .

(١) من الفتوح ج ١٣ ص ٣٥٠ بتصرف .

(٢) نفس المصدر ج ١٣ ص ٣٤٩ بتصرف أيضا .

كما فيه : أنه يجب على إمام المسلمين بعث الدعوة إلى توحيد الله تعالى ،
وتعليم الناس شرائع الإسلام ، وأمرهم بالتزامها ، وجباية الزكاة ، ودفعها إلى
مستحقيها ، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)
الآية (١) .

وفيه : أن الإنسان لا يصير مسلماً إلا إذا وحّد الله تعالى بالعبادة ، بأن
لا يقصد بعبادته غير الله أحداً ، بل تكون عبادته كلها لله وحده ، وهذا هو معنى
شهادة أن لا إله إلا الله ، وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله هو أن يعبد الله
بما جاء به الرسول - ﷺ ، والإيمان بأن الله أوحى إليه أوامره ، ونواهيه ، وكلفه
إبلاغ الثقيلين ذلك .

وفيه : أن أى تعبد يتعبد به العبد غير معتبر ، ولا معتدّ به بدون التوحيد .

وفيه : أن أخذ خيار المال في الزكاة ظلم يجب اجتنابه .

وقصد البخارى - رحمه الله - بيان أن النبى - ﷺ - قد بين للناس
التوحيد بأنواعه ، وأنه أول واجب ، وأول ما يدعى إليه ، فلا حاجة بعد بيانه إلى
بيان أحد من الناس ، كما تقدم .

قال شيخ الإسلام : « وقد علم بالاضطرار من دين الرسول - ﷺ -
واتفقت عليه الأمة ، أن أصل الإسلام ، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدو ولياً ، والمباح دمه
وماله ، معصوم الدم والمال ، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان .

وإن قاله بلسانه دون قلبه ، فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان » (٢)
والبخارى - رحمه الله - في بدائة كتاب التوحيد بهذا الحديث ، يشير إلى الرد على

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة .

(٢) نقلاً من يثير العزيز الحميد ص ١٠١ .

المتكلمين الذين جعلوا عمدتهم ، في إثبات ما يشبتون ، ونفى ما ينفون العقل .
 فهذا الحديث دل على أن أول ما يجب على العبد ، عبادة ربه تعالى بامتثال
 أوامره ، واجتناب ما نهى عنه ، وأن المقصود من الدعوة : وصول العباد إلى ما خلقوا
 له ، من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له .

ولا سبيل إلى ذلك إلا باتباع الوحي الذى جاء به محمد - ﷺ - فيجب
 أن يتبع ، وأن يكون هو الأصل المعول عليه في معرفة عبادة الله ، والإيمان به ،
 وبرسوله . وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها ،
 خلافاً لطريقة المتكلمين ، الذين جعلوا عمدتهم عقولهم في إثبات وجود الله
 تعالى ، بناء على حدوث الكون ، ثم إثبات صفاته نفياً وإثباتاً بالقياس العقلى ، ثم
 إثبات النبوات ، ثم بعد ذلك يتكلمون في السمعيات .

وهذه طريقة المعتزلة ، والكرامية ، والكلابية ، والأشعرية ، غير أن الأشعرية
 سلكوا هذه الطريقة في الأصول الاعتقادية العلمية ، دون العملية .

وأما المعتزلة فلم يفرقوا بين العقيدة ، والعمل في القياس العقلى . حتى إنهم
 ينظرون إلى القدر المشترك في الأفعال بين الرب والعباد ، فما كان حسناً من العباد
 في نظرهم ، فهو عندهم حسن من الله تعالى ، وما كان قبيحاً منهم ، فهو من الله
 تعالى قبيح ، ولهذا سماهم أهل السنة مشبهة الأفعال نفاة الصفات .

٣ - «حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن
أبي حصين ، والأشعث بن سليم ، سمعا الأسود بن هلال ، عن معاذ بن
جبل - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يامعاذ بن
جبل ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن
يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا . أتدرى ما حقهم عليه ؟ قال الله ورسوله
أعلم ، قال : أن لا يعذبهم » .

* * *

جاء بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس ، وأبلغ في التعليم ، لأن
الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه ، ثم أخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك
أدعى لفهمه وحفظه .

وهذا من حسن تعليمه ، وإرشاده ﷺ ، وهذا الأسلوب ورد عنه ﷺ
كثيرا .

يقال : درى يدري ، دراية : إذا عرف ، فالدراية هى المعرفة .
و « الحق » : كل موجود متحقق ، أو ما سيوجد لا محالة ، ويقال للكلام
الصدق حق ، لأن وقوعه متحقق ، لا تردد فيه ، ولأنه مطابق للواقع ، وكذا
المستحق على الغير ، إذا كان لا تردد فيه ، فهو حق .
والمراد هنا « ما يستحقه الله تعالى على عباده ، مما جعله متحتما عليهم ،
وألزمهم إياه بخطابه » (١) .

فحقه تعالى على عباده ، أن يعبدوه ، مخلصين له العبادة ، ممثلين ما أمرهم
به وأوجبه عليهم ، وأعظمه التوحيد ، ومجتنبين ما نهاهم عنه ، وحرمة عليهم

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٣٣٩ .

وأعظمه الشرك ، فإذا فعلوا ذلك ، فحقهم عليه أن يغفر لهم ، ولا يعذبهم وأن يدخلهم الجنة ، وقد وعدهم ذلك ، ووعدهم حق لا يخلف .

قوله : « الله ورسوله أعلم » يؤخذ منه حسن الأدب في التعلم ، وأنه لا ينبغي لمن سئل عما لا يعلمه أن يتكلف الجواب بدون يقين ، ولكن يكمل العلم إلى عالمه .

« ذكر يعقوب بن سفيان بإسناده ، عن ربيعة قال : قال ابن خلدو : إذا جاءك الرجل يسأل ، فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه ، وليكن همك أن تتخلص مما سألك عنه » (١)

قوله : « أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً » المراد بالعبادة : فعل الطاعات ، واجتناب المعاصي .

والعبادة في اللغة هي : الذل ، والخضوع .

قال الأزهري : « معنى العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع ، يقال طريق معبد ، إذا كان مذلاً بكثرة الوطاء ، ويعبر معبداً إذا كان مطلياً بالقطران » (٢)

وقال الجوهري : « أصل العبودية : الخضوع والذلة ، والتعبيد التذليل ، والعبادة الطاعة . والتعبد النسك » (٣) .

وأما العبادة الشرعية فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال ، والأعمال الباطنة ، والظاهرة » (٤)

(١) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٤٤٣ .

(٢) تهذيب اللغة ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) الصحاح ج ٢ ص ٥٠٣ ، هذا متفقة عليه كتب اللغة .

(٤) انظر أول فقرة من رسالة العبودية .

وقيل : هى كمال الحب مع كمال الخضوع . لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب ، والانقياد له ، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبهه ، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذلله له .

وعطف على العبادة عدم الشرك ، لأن العبادة لاتنفع عند الله ، ولاتعتبر إلا إذا كانت خالصة من الشرك .

والمشركون كانوا يعبدون الله ، ويعبدون معه غيره ، ولهذا اشترط نفى الشرك . والجمله حالية ، والتقدير : يعبدونه فى حال عدم الإشراك به .

قال ابن حبان : عبادة الله : إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح .

ولهذا قال فى الجواب : « فما حق العباد إذا فعلوا ذلك . فعبر بالفعل ، ولم يعبر بالقول » (١)

قوله : « أتدرى ما حقهم عليه ؟ » فسره بقوله : أن لا يعذبهم .

وفى الرواية الأخرى : « أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » (٢) ، والتقدير : أن لا يعذب من يعبده ، ولا يشرك به شيئاً ، لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لاينفع ، وهذا معلوم من نصوص الشرع .

قال الحافظ : « اقتصر على نفى الشرك ، لأنه يستدعى التوحيد بالافتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، أو هو مثل قول القائل : من توضع صحت صلته . أى مع سائر الشروط ، فالمراد : من مات حال كونه مؤمناً

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٣٣٩ .

(٢) انظر الفتوح ج ٦ ص ٥٨ .

بجميع ما يجب الإيمان به » (١) .

وحق العباد على الله تعالى هو من فضله وكرمه ، وليس استحقاق عوض ،
وجزاء كما تقول المعتزلة .

والناس في هذه المسألة ثلاث فرق .

منهم من يقول : للمخلوق على الله حق يعلم بالعقل .

فهم يقيسون الخالق تعالى على المخلوق - كما تقدمت الإشارة إليه .

ومنهم من يقول : لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال ، ولكن يعلم
مايفعله [بعبدته] بحكم وعده وخبره . وهذا قول أتباع جهم ، والأشعري ، وبعض
من ينتسب إلى السنة .

ومنهم من يقول : بل أوجب الله تعالى على نفسه حقاً لعباده المؤمنين ، كما
حرم الظلم على نفسه ، ولم يوجب ذلك عليه مخلوق .

ولا يقاس بمخلوقاته تعالى ، بل هو برحمته ، وحكمته ، وعدله كتب على
نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم . كما في الحديث الذى فى صحيح مسلم
وغيره (٢) « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا
تظالموا » .

وقال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (٣) . وقال تعالى : (وكان
حقاً علينا نصر المؤمنين) (٤) .

فمن قال : ليس للمخلوق على ربه حق ، فهو صحيح ، إذا أراد أنه ليس

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٤ الحديث رقم ٢٥٧٧ .

(٣) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٤٧ من سورة الروم .

عليه حق بالاعتبار والقياس على خلقه ، كما يجب للمخلوق على مثله ، وكما يظن جهال العباد أن لهم على الله حقاً بعبادتهم ، لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسان بعبادته ، وعلمه يصير له على الله حق ، من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق (١) كمن يطيع سيده ورئيسه فيجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، ويبقى يتقاضى العوض ، والمجازاة على ذلك ، ويقول عند الجفاء والإعراض : ألم أفعل كذا ؟ بمن عليه بما فعل معه ، وإن لم يقله بلسانه ، كان ذلك في قلبه ، وتخيل مثل هذا في حق الله من جهل الإنسان وظلمه .

ولهذا بين تعالى أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه ، وأن الله غنى عن الخلق .

قال تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غنى كريم) (٢)

وقال تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (٣)

ومن قال للمخلوق على الله حق فهو صحيح ، إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته . (٤) .

(١) ولهذا نجد الجهال ، وأنصاف المتعلمين يلهجون إلى الله تعالى بسؤاله بحق فلان ، وفلان . ويعتقدون أن هذا أقرب إلى حصول مطلوبهم ، وهو من جهل الإنسان بربه ، وعدم تقديره حق قدره ، وأكثر ما يقع الشرك في المسلمين من هذا الباب .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التمل .

(٣) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٤) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٢١٣ بتصرف .

وهذا القول : هو الحق الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وأما القول الأول فهو ضلال بئىن ، حيث لم يفرق قائله بين مايجب على الخالق تعالى ، ومايجب على المخلوق .

« والفروق بين الخالق والمخلوق لا تخفى إلا على من عميت بصيرته .

منها : أن الرب تعالى غنى بنفسه عن كل ماسواه ، ويمتنع أن يكون محتاجا إلى غيره ، بوجه من الوجوه ، وأما الخلق فسادتهم وملوكهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم ، حاجة ضرورية .

ومنها : أن الرب تعالى وإن كان يجب الأعمال الصالحة ، ويفرح بتوبة التائبين . فهو الذى يخلق ذلك ، وييسره ، فلا يحصل مايجبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته ، والمخلوق كثيرا ما يحصل له مايجبه بغير فعله بل بفعل غيره

ومنها : أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ، ونهاهم عما يفسدهم .

قال قتادة : « إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم ، بل أمر بما ينفعهم ، ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذى يأمر غيره بما يحتاج إليه هو وينهاه بخلاً عليه .

ومنها : أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحواس ، وغير ذلك مما يحصل به العلم والعمل الصالح . وهو الهادى لعباده ، والمخلوق لايقدر على شئ من ذلك .

ومنها : أن نعمه تعالى على عباده أعظم من أن تحصى ، فلو قدر أن العبادة جزاء لنعمه لم نقم بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمه .

ومنها : أن العباد لايزالون مقصرين فى حقه ، محتاجين إلى عفوه ، ومغفرته ،

فلن يدخل أحد الجنة بعمله (١) ، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة ربه ؛ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) (٢) فممن ظن أنه قائم بما يجب عليه ، وأنه غير محتاج إلى مغفرة ربه وعفوه وهدايته وتوفيقه فهو ضال » (٣)

والمقصود من الحديث هنا : بيان أن حق الله على عباده هو عبادته تعالى الخالصة من الشرك ، وهي طاعته بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، فلا يخالف ماجاء عن الله ، أو جاء عن رسوله لغرض أو منفعة عاجلة أو آجلة : وغير ذلك .

ومن ذلك - يعنى حق الله على عباده - اتباع ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله من غير تحريف ، ولا إلحاد فيه ، ولهذا ترجم على هذا الحديث في كتاب الرقاق بقوله : باب من جاهد نفسه في طاعة الله .

ومراده : أن الرسول ﷺ قد بين ما يجب لله على عباده من عبادته باتباع أمره ، واجتناب نهيه ، وعبادته بأسمائه وصفاته ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوق ، وما يستحقه من فعل ذلك .

★ ★ ★

(١) في صحيح مسلم ، عن جابر ، سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يخرج من النار ، ولا أنا إلا برحمة من الله » ج ٤ ص ٢١٧١ رقم الحديث ٢٨١٧ وأخرجه البخارى في عدة مواضع من صحيحه من حديث أبى هريرة وعائشة . انظر الفتوح ج ١١ ص ٢٩٤ .

(٢) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٣) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٢١٦ .

٤ - « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي - ﷺ - فذكر له ذلك ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله - ﷺ : - والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي سعيد - أخبرني أخي قتادة بن النعمان ، عن النبي ﷺ .

* * *

أبو سعيد الخدري هو : سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن الأبحر - وهو خدرة - الذي ينسب إليه ، أنصاري خزرجي ، بايع تحت الشجرة ، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات عدّة ، وكان أبوه من شهداء أحد . وأبو سعيد من علماء الصحابة وفقهائهم ، والمكثرين الحديث عن رسول الله ﷺ .

توفى رضى الله عنه سنة أربع وسبعين (١)

قوله : « أن رجلا سمع رجلا » السامع هو أبو سعيد راوى الحديث ، والقارى هو قتادة كما بينه البخارى بقوله : « زاد إسماعيل » الخ . وقد جاء مصرحا به فى مسند أحمد .

ولفظه : « بات قتادة بن النعمان يقرأ من الليل كله : قل هو الله أحد ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال ﷺ : والذي نفسي بيده : لتعدل نصف القرآن أو ثلثه » (٢)

(١) الإصابة ج ٣ ص ٧٨ ، أسد الغابة ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) المسند ج ٣ ص ٨٥ ، وانظر الفتح الربانى ج ١٨ ص ٣٤٦ .

« وقتادة هو أخو أبي سعيد لأمه ، وكانا متجاورين في السكن » (١)

قوله : « وكان الرجل يتقالها » بتشديد اللام أى يعدها قليلة بالنسبة إلى غيرها من سور القرآن « يقال : تقلل الشيء واستقله ، وقاله إذا رآه قليلا . والمراد أنه رآها قليلة في العمل . لا أنه عدّها ناقصة (٢)

قوله : « والذي نفسى بيده » كان ﷺ أكثر ما يحلف بهذه الصيغة ، وقد ذكر البخارى - رحمه الله - فى الأيمان والنذور ، فى باب كيف كانت يمين النبى ﷺ - عدة أحاديث بهذا اللفظ .

وقد روى الطبرانى ، وابن ماجه ، عن رفاعه بن عرابه : « كان النبى - إذا حلف ﷺ إذا حلف قال : والذي نفسى بيده » .

وروى ابن أبى شيبه ، عن أبى سعيد ، كان النبى - إذا اجتهد فى اليمين قال : « لا والذي نفس أبى القاسم بيده » . ورواه ابن ماجه من وجه آخر ، بلفظ : « كانت يمين رسول الله التى يحلف بها - أشهد عند الله - والذي نفسى بيده » (٣)

قلت : وحديث أبى سعيد رواه أبو داود فى السنن (٤)

فقوله : « والذي نفسى بيده » أى روحى ، وحياتى وموتى ، يتصرف فى كيف يشاء . وسيأتى إن شاء الله تعالى الكلام على صفة اليد ، وأنها من صفات الله الثابتة قطعاً ، وأنها يد حقيقة تليق بعظمة الرب وقدره تعالى وتقدس عن مشابهة الخلق ، وعن الظنون السيئة التى أوجبت لأصحابها تعطيل الله - تعالى - عن

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٦١ .

(٢) المنهل العذب المورود ج ٨ ص ١١٣ .

(٣) فتح البارى ج ١١ ص ٥٢٦ .

(٤) انظر الحديث رقم ٣٢٦٤ .

صفاته ، ودعتهم إلى الإلحاد في أسمائه وصفاته .

قوله : « إنها لتعدل ثلث القرآن » عدل الشيء بفتح العين ، ما عادله من غير جنسه ، والعدل بكسر العين : المثل ، تقول : عندي عدل شاتك ، أو عدل مالك ، إذا كان عندك شاة مثل شاة من تخاطبه ، ومال مثل ماله ، فإن أردت ما يعادل ذلك من غير جنسه فتحت العين ، ذكر ذلك أهل اللغة (١) .

ومعنى كونها تعدل ثلث القرآن : - أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام :

ثلث منه الأحكام وبيان الحلال من الحرام .

وثلث منه الوعد والوعيد ، والجزاء ، وما وقع بمن كذب الله ورمله ، وما سيقع بهم في الآخرة ، وكذا ومن أطاعه .

وثلث منه في أسماء الله تعالى وصفاته ، وهذه السورة خالصة في الأسماء والصفات ، قاله أبو العباس ابن سريج ، وغيره من السلف .

واعترض ابن عبد البر على هذا : بأن في القرآن آيات كثيرة اشتملت على أكثر مما في هذه السورة من التوحيد ، كآية الكرسي ، وآخر سورة الحشر ، وأول سورة الحديد - قد أجاب عنه القرطبي في شرحه لمسلم : بأن سورة الإخلاص قد اشتملت على اسمين من أسماء الله متضمنين جميع أوصاف الكمال ، ولم يوجد في غيرها من السور ، وهما « الأحد » و « الصمد » .

« والقرآن باعتبار معانيه ثلاثة أقسام : توحيد ، وقصص ، وأمر ونهي ، وكله كلام الله تعالى والكلام - إما انشاء ، وإما إخبار .

فالإنشاء : هو الأمر والنهي ، وما يتبع ذلك كالإباحة .

والإخبار : إما عن الخالق تعالى ، أو عن المخلوق ، فالإخبار عن الخالق ،

(١) انظر ترتيب اللسان ج ٣ ص ٧٠٧ .

هو التوحيد وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته .

والإخبار عن المخلوق ، هو القصص ، وهو الخبر عما كان ، وما يكون .

« وقل هو الله أحد » هي صفة الرحمن خالصة لذلك ، وبهذا الاعتبار عدلت ثلث القرآن ، لما فيها من التوحيد ، الذي هو ثلث معاني القرآن ، وليس معنى ذلك أنه يكتفى بها عن سائر القرآن ، بمعنى أن من قرأها ثلاثا كفاها عن قراءة القرآن ، لأن النبي ﷺ قال : « إنها تعدل ثلث القرآن » .

وقد تقدم أن عدل الشيء - بالفتح - يطلق على ما ليس من جنسه ، كما

قال تعالى :

(أو عدل ذلك صياما) فجعل الصيام عدل الكفارة ، وهما جنسان .

فتواب قراءة « قل هو الله أحد » وإن كان يعدل ثواب قراءة ثلث القرآن في القدر ، فلا يلزم أن يكون مثله في النوع والصفة ، لأنها لا تغني عما اشتمل عليه القرآن من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، وسائر ما يحتاج إليه العباد . فالناس محتاجون إلى جميع القرآن . ومنتفعون به منفعة لا تغني عنها سورة الإخلاص ، وإن كانت تعدل ثلث القرآن (١)

وفي هذا الحديث دلالة ظاهرة على تفاضل كلام الله تعالى ، وصفاته ، وهو المأثور عن السلف ، وعليه أئمة الفقهاء وغيرهم ، ونصوص الكتاب والسنة تؤيد ذلك .

قال الله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) (٢) فأخبر تعالى أنه يأتي بخير منها أو مثلها ، فدل على أن الآيات تماثل مرة ، وتتفاضل أخرى ، والتوراة ، والإنجيل والقرآن كلها كلام الله تعالى ، وقد أجمع

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ بتصرف .

(٢) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .

المسلمون على أن القرآن أفضلها كما قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) (١) أى هو المؤمن ، والشاهد ، والحاكم على ما سبقه من الكتب .

وأما الأحاديث فكثيرة . من جملتها هذا الحديث ، ومن تأمل كلام السلف ، ومن سار على نهجهم علم أن هذا من الأمور المستقرة في نفوسهم ، ولم يعرف من السلف من قال : لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، لأنه كله من صفات الله ، وإنما حدث ذلك لما ظهرت البدع من المعتزلة ، والجهمية ، ومن سلك طريقهم ، الذين اختلفوا في القرآن ، وجعلوه عضيين .

وتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه - سواء كان خيرا أو إنشاء - أمر معلوم بالفطرة ، والشرع ، فليس الخبر المتضمن حمد الله والثناء عليه بأسمائه الحسنى ، كالخبر المتضمن لذكر إبليس ، وفرعون وأبى لهب ، ونحوهم ، وإن كان الكل كلاما عظيما تكلم الله به .

وكذلك ليس الأمر بالتوحيد ، والإيمان بالله ورسله ، والنهى عن الشرك وقتل النفس بغير حق ، والزنا وغير ذلك مما أمرت به الشرائع كلها ، أو حرمتها كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، أو الأمر بالإنفاق على الحامل ، والنهى عن قول : « راعنا » وإن كان الكل واجبا .

وليس تفاضل الكلام باعتبار نسبه إلى المتكلم به ، فإنه سبحانه واحد ، ولكن باعتبار معانيه التى يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه الميينة لمعانيه .

قال شيخ الإسلام : « الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضا ، فقل هو الله أحد ، و « تبت يدا أبى لهب » كلاهما كلام الله تعالى ، وهما مشتركان من هذه

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

الجهة ، ولكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، « فقل هو الله أحد » كلام الله وخبره الذى يخبر به عن نفسه ، وصفته التى يصف بها نفسه ، وكلامه الذى يتكلم به عن نفسه .

و « وتبت يدا أبى لهب » كلام الله الذى يتكلم به عن بعض خلقه ، ويصف به حاله ، فهما من هذه الجهة متفاضلان » (١) .

ولا يلزم من كثرة الحروف أفضلية ذلك ، كما توهمه بعض العلماء ، لأن الفضل يتبع تفاضل المعانى .

فحروف الفاتحة لقارئها بكل حرف حسنة أعظم من حسنات حروف (تبت يدا أبى لهب) .

فلا يلزم من مماثلة الشيء مساواته فى الفضل ، كما أخبر النبى ﷺ « أنه لو أنفق من جاء بعد السابقين مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مُدَّ أحد السابقين إلى الإسلام ، ولا نصيفه » (٢)

قال شيخ الإسلام : « فإذا قرأ الإنسان (قل هو الله أحد) حصل له من الثواب بقدر ثلث القرآن ، لكن لا يلزم أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل بقراءة ثلث القرآن ، لأن الإنسان يحتاج إلى ما يحصل له من ثواب الأمر ، والنهى والقصص وغير ذلك ، و « قل هو الله أحد » لا تسد مسد ذلك ، ولا تقوم مقامه ، مع أن فضل القراءة والذكر والدعاء وغير ذلك ، يختلف باختلاف حال الإنسان ، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر ، والصلاة بخشوع وحضور قلب ، أفضل من الصلاة بدون ذلك ، فإذا كانت « قل هو الله أحد » يعدل

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٥٧ .

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ولفظه : « لاتسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » انظر الفتوح ج ٧ ص ٢١ ، ورواه مسلم فى الفضائل ج ٤ ص ١٩٦٧ .

ثوابها ثواب ثلث القرآن ، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات ، وإلا فقراءة غيرها مع التدبر والخشوع أفضل من قراءتها مع الغفلة والجهل .

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة ، وما اشتملت عليه ، كما هم متفاضلون في فهم سائر القرآن » (١) .

وهذا الحديث يدل أيضا على تعدد صفات الرب تعالى ، وتفاضلها ، لأن القرآن كله كلامه ، وكلامه من صفاته .

والتفاضل إنما يقع بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء ، وقد دلت النصوص الكثيرة على تعدد أسمائه تعالى وصفاته ، وأن لها معان متعددة ، وهذا المعنى هو الذى قصده البخارى بهذا الحديث ، فيما ظهر لى ، ولاشك أن فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من أوصاف الله تعالى . ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

وقال الحافظ : « مراده ما فيه من التصريح بلفظ الأحديّة في وصفه تعالى ، كما في الذى بعده » (٢)

وقول ابن بطال : « ومذهب الأشعري ، وأبى بكر بن الطيب ، وابن أبى زيد ، والداودى ، وأبى الحسن القابسى ، وجماعة علماء السنة : أن القرآن لايفضل ، بعضه بعضا ، إذ كله كلام الله وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا في المخلوقات »

ومثله قول ابن الدراج : « أجمع أهل السنة على أن ماورد مما ظاهره المفاضلة بين أى القرآن وسوره ، ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض ، إذ هو

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ١٣٨ - ١٤٠ بتلخيص وتصرف .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٥٥ بالمعنى .

كله كلام الله ، وصفة من صفاته » (١)

فهذا النقل عن ذكرهم ، والزعم بأن هذا مجمع عليه من أهل السنة هو بحسب ظن هؤلاء - يعنى ابن بطلال ومن يقول ذلك - لأنهم ظنوا : أن هذا القول الذى هو عدم المفاضلة لازم لمن يقول : إن القرآن كلام الله ، فهو من صفاته ، والتفاضل لا يكون إلا فى المخلوقات ، والقرآن عندهم غير مخلوق .

وهو ظن خطأ ، فلم ينقل عن أحد من السلف أنه نفى المفاضلة بين آيات القرآن وسوره ، ونحن نطالب مدعى الإجماع على نفي ذلك بالدليل ، ولن نجد ذلك ، والنصوص من الكتاب والسنة تبطل هذه الدعوى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وابن بطلال - عفا الله عنا وعنه - كثيراً ما يدعى الإجماع على مسائل ، الحق خلافها ، كما ستأتى الإشارة إلى بعضها إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٧٣ .

٥ - حدثنا محمد ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا عمرو ، عن ابن أبي هلال ، أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن - وكانت في حجر عائشة زوج النبي - ﷺ - عن عائشة ، « أن النبي ﷺ ، بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته ، فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي - ﷺ - فقال : - سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسأله ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي - ﷺ - : أخبروه إن الله يحبها »

* * *

عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وزوجة رسول الله - ﷺ - وحييته . كانت فقيهة ربانية ، وعالمة بأشعار العرب ، وأنسابهم ، وأيامهم . أكثرت عن رسول الله - ﷺ - الرواية ، فلذلك صارت مرجعاً للصحابة في كثير من أمور الدين ، فهي من حفاظ الصحابة وعلمائهم . روى عنها خلق كثير من الصحابة ، والتابعين .

ولدت - رضی الله عنها - سنة أربع من البعثة النبوية ، وتزوجها رسول الله - ﷺ - بعد موت خديجة رضی الله عنها بثلاث سنوات ، ودخل بها في المدينة ، وهي ابنة تسع ، وتوفى عنها ولها من العمر ثمانى عشرة سنة ، ومات ﷺ وهي حاضنته على صدرها .

مناقها كثيرة ، توفيت في المدينة سنة سبع أو ست وخمسين ، وقيل ثمان

وخمسين ، وصلّى عليها أبو هريرة ، ودفنت في البقيع رضی الله عنها . (١)
 قوله : « بعث رجلا على سرية » هذا غير الرجل المتقدم ذكره في باب
 الجمع بين السورتين في ركعة واحدة ، للفروق الواضحة بين القصتين .
 والسرية قطعة من الجيش ، يقال : خير السرايا أربعمائة رجل ، وفي اللسان
 ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة ، سميت سرية لأنها تسرى ليلا في خفية لئلا ينذر
 بهم فيحذر الأعداء ويمتنعوا » (٢) .

قوله : فيختم بقل هو الله أحد » قال ابن دقيق العيد : يدل على أنه كان
 يقرأ بغيرها ، والظاهر أنه كان يقرأ : « قل هو الله أحد » ، مع غيرها في ركعة
 واحدة ، ويختم بها في تلك الركعة ، وإن كان اللفظ يحتمل أن يكون يختم بها في
 آخر ركعة يقرأ فيها السورة » (٣) .

وقوله : « لأنها صفة الرحمن » قال ابن دقيق العيد : « يحتمل أن يراد : أن
 فيها ذكر صفة الرحمن ، كما إذا ذكر وصف ، فعبر عن ذلك الذكر بأنه
 الوصف ، وإن لم يكن ذلك الذكر نفس الوصف ، ويحتمل أن يراد به غير
 ذلك ، إلا أنه لا يختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » ، ولعلها خصت بذلك
 لاختصاصها بصفات الرب تعالى دون غيرها » (٤) .

قلت : يريد بيان وجه تخصيص الصحابي لها بما ذكر ، أنها خالصة للذكر
 وصف الرحمن تعالى وتقدس

-
- (١) انظر الحلية ج ٢ ص ٤٣ ، أسد الغابة ج ٧ ص ١٨٨ ، الاستيعاب ج ٤
 ص ١٨٨١ ، الإصابة ج ٤ ص ، سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٣٥ .
 (٢) ترتيب اللسان ج ٢ ص ١٤١ .
 (٣) شرح العمدة ج ١ ص ٢٤٦ .
 (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٧ .

وقوله : إلا أنه لا يختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » . يعنى أن أوصاف الرحمن تعالى موجودة فى آيات كثيرة من القرآن .

وهذه السورة وسائر سور القرآن هى صفة الرحمن ، لأنها كلامه ، وكلامه من صفاته ، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن تعالى - وهذا هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابى - رضى الله عنه - أى أنها خالصة لوصف الرحمن - تعالى - دون غيره .

« قال ابن التين : إنما قال : لأنها صفة الرحمن لأن فيها أسماءه ، وأسماءه مشتقة من صفاته » .

وقال غيره : يحتمل أن الصحابى قال ذلك : مستنداً إلى شيء سمعه من النبى ﷺ - إما بالنص ، أو بالاستنباط .

وروى البيهقى فى الأسماء والصفات ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن اليهود أتوا النبى ﷺ - فقالوا : صف لنا ربك ؟ فأنزل الله - عز وجل « قل هو الله أحد » إلى آخرها ، فقال : هذه صفة ربي - عز وجل (١)

وفى الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفات ، وهو قول الجمهور ، وشذ ابن حزم فقال : هذه لفظة اصطلاح عليها أهل الكلام ، من المعتزلة ، ومن تبعهم ولم يثبت عن النبى ﷺ - ولا عن أحد من أصحابه ، فإن اعتراضوا بحديث الباب ، فهو من أفراد سعيد بن أبى هلال ، وفيه ضعف ، وعلى تقدير صحته فـ « قل هو الله » صفة الرحمن ، كما فى هذا الحديث ، ولا يزداد عليه ، بخلاف الصفة التى يطلقونها ، فإنها فى لغة العرب لاتطلق إلا على جوهر ، أو عرض (٢) وسعيد متفق على الاحتجاج به ، فلا يلتفت إلى تضعيفه .

(١) انظر الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢٧٩ ، وفيه تسمية بعضهم وقد ذكر عدة أحاديث بمعناه .

(٢) انظر الفصل ج ٢ ص ٢٨٤ ، وقد أطال الكلام على هذا المعنى ، واحتج بأشياء لا تدل على مراده .

وكلامه الأخير مردود ، باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنی ، قال الله تعالى : (والله الأسماء الحسنی فادعوه بها) . وقال تعالى : (له الأسماء الحسنی) والأسماء المذكورة فيها صفات ، ففي إثبات أسمائه إثبات صفاته (١)

قلت : كلام ابن حزم - رحمه الله - باطل ، ولا حجة له فيما ذكر ، لأن الصفة : مصدر وصفت الشيء أصفه وصفا ، وصفة ، مثل : وعد ، وعداً ، وعدة .

فإذا قيل : إن الله بكل شيء عليم ، وهو رحمن رحيم ، وعلى كل شيء قدير ، فالمعاني القائمة بالرب تعالى - التي دل عليها هذا الكلام ، من العلم ، والرحمة والقدرة ، هي الصفات المقصودة ، وإنكار ذلك مكابرة ، أو عناد وضلال ، وإلحاد .

وقد دلت نصوص كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - والفتوة والعقل على ذلك ، قال الله تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه) (٢) .

وقال تعالى : (أنزله بعلمه) (٣) ، وقال تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٤)

وقال تعالى : (والله العزة ورسوله وللمؤمنين) (٥)

وقال تعالى : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) (٦) .

(١) فتح الباری ج ١٣ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٦٦ من سورة النساء .

(٤) الآية ٥٨ من سورة الذاریات .

(٥) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٦) سورة غافر الآية ٧ .

وفي الحديث الصحيح « اللهم إني أستخريك بعلمك ،
وأستقدرك بقدرتك » (١)

وفي حديث عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ : « واللهم بعلمك الغيب
وقدرتك على الخلق » (٢) .

وفي صحيح البخارى فى قصة أيوب : « قال : بلى وعزتك ، ولكن لاغنى
لنى عن بركتك » (٣)

وقال البخارى : « باب الحلف بعزة الله وصفاته ، وكلماته » . وقال ابن
عباس : كان النبي ﷺ - يقول : أعوذ بعزتك . وقال أبو هريرة : عن النبي
ﷺ : يبقى رجل بين الجنة والنار ، فيقول : يارب اصرف وجهى عن النار ، لا
وعزتك لا أسألك غيرها ، ثم ذكر حديث أنس : « لاتزال جهنم تقول : هل من
مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قط قط ، وعزتك » (٤)

وفي هذا الحديث الذى نحن بصدد الكلام عليه : « لأنها صفة الرحمن »
وقال الله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (٥) وهذا من إضافة
الموصوف إلى صفته ، فثبت بهذه النصوص ، وغيرها كثير ، أن لله صفات ، وأن كل
اسم تسمى الله به يدل على الصفة ، لأن الأسماء مشتقة من الصفات .
وبهذا يتبين بطلان قول المعتزلة ، الذين ينفون أن يكون لله علم ، وقدرة
ومشيئة ، ويجعلون هذه الصفة هى الأخرى ، أو الصفة هى الموصوف . كما يتبين

(١) هو حديث جابر ، انظر البخارى ج ٢ ص ٥٠ ، وسنن أبى داود رقم
١٥٣٨ ، والترمذى رقم ٤٨٠ وسيأتى .

(٢) انظر سنن النسائى ج ٣ ص ٥٤ و ٥٥ فى السهو فى باب نوع آخر من
الدعاء .

(٣) صحيح البخارى كتاب التهجد باب ٢٠ ج ١ ص ٥٤ وفى مواضع أخرى
وسياتى .

(٤) الصحيح ، كتاب الأيمان والنذور باب ١٢ ج ٨ ص ١١٤ وسيأتى ذلك .

(٥) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

بهذا أيضا الفرق بين الأسماء والصفات .

١ — فالأسماء تدل على الذات ، والصفات تدل على معنى قائم بالذات ، وهذه المعاني أيضا أسماء .

٢ — وتقدم أن الأسماء مشتقة من الصفات .

قوله : « أخبروه أن الله يحب » قد يكون سبب محبة الله له ، محبته لهذه السورة أو محبته ذكر صفات الرب عز وجل ، وحسن فهمه وعقيدته في ذلك ، أو لمجموع الأمرين ، وهو الأولى .

وفيه ثبوت محبة الله تعالى لأهل طاعته من عباده ، والأدلة عليه كثيرة جداً ، فلذلك صار إنكاره ضلالاً بيناً .

قال المازري ، ومن تبعه : محبة الله لعباده : إرادته ثوابهم ، وتنعيمهم .

وقيل : هي نفس الإثابة ، والتنعيم .

ومحبتهم له ، لا يبعد فيها الميل منهم إليه ، وهو مقدس عن الميل .

وقيل : محبتهم له : استقامتهم على طاعته .

والتحقيق : أن الاستقامة ثمرة المحبة .

وحقيقة المحبة له : ميلهم إليه ، لاستحقاقه سبحانه المحبة من جميع

الوجوه .

قال الحافظ : « وفيه نظر ، لما فيه من الإطلاق في موضع التقييد » (١)

ومقصده من الإطلاق ، قوله : « لاستحقاقه - سبحانه - المحبة من جميع

الوجوه » لأنه قد يدخل فيه الحب المتضمن للشهوة ، ونحو ذلك .

وقول المازرى : إن محبة الله لعباده إرادته ثوابهم ، ونعيمهم ، أو هي نفس الثواب والنعيم ، ظاهر البطلان ، والنصوص فيه لا تقبل هذا التأويل لكثرتها ، وتواطؤها على أن الحب فيها هو ما يفهمه المخاطب الذى لم تفسد فطرتها بالعقائد المنحرفة عن الحق .

وهذه طريقة أهل التأويل فى كثير من صفات الله - تعالى - إما أن يجعلوها إرادة الثواب أو العقاب ، أو هي نفس الثواب ، والعقاب .
ومعلوم أن الثواب ، والعقاب ونحوهما مخلوق .

والإرادة التى يرجعون المحبة ، والرحمة ونحوهما من صفات الله - تعالى - إليها ، يلزمهم فيها نظير ما فروا منه فى المحبة والرحمة ، حيث قالوا : إن المحبة هي : الميل إلى المحبوب ، فيقال : والإرادة هي : ميل المرید إلى من يوافقه فى إرادته .
وأما تفسيرها بالثواب والعقاب ، فيلزم منه أن تكون صفته تعالى مخلوقة ، ثم نقول لسنا بحاجة إلى مثل هذا التأويل السخيف البارد ، لأن الله تعالى : ليس كمثل شئ فى صفاته ، كما أنه لا مثل له فى ذاته .

ومحبته تبارك وتعالى لعبده المؤمن شئ فوق إنعامه ، وإحسانه ، وعطائه وإثابته ، فإن هذا أثر المحبة وموجبها ، أما هي فأعظم من ذلك ، وأشرف . وهي التى يتسابق إليها أنبيائه وملائكته وأوليائه ، وعباده الصالحون . وكفى فى كتاب الله وسنة رسوله من نص صريح بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، كقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (١) وقوله تعالى : (إن الله يحب المتطهرين) (٢) (بلى من أوفى بعهده واتقى ،

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة .

فإن الله يحب المتقين (١) (والله يحب المحسنين) (٢) (فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) (٣) والآيات في هذا كثيرة .

وأما الأحاديث عن رسول الله ﷺ التي تنص على أن الله يحب عباده المؤمنين فأحصاءها عسير ، كقوله ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله » (٤) وقوله - ﷺ : « إن الله يحب العبد التقي الغنى الخفى » (٥)

وأما محبة العباد لربهم فعجيب إنكارها ، إذ هي من الضروريات الثابتة بالشرع ، والعقل ، والفطرة ، وإنكارها إنكار للواقع المحسوس .

كما أن تأويل المخرفين بأنها الاستقامة على الطاعة ، كما ذكره المازني ، أو أنها إرادتهم أن ينفعهم كما نقله الحافظ عن ابن التين (٦) مخالف للشرع ، والعقل ، والواقع المحسوس ، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام ، لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله .

ومعنى الإله : المحبوب الذي تأله القلوب ، وتجه ، وتعظمه وتجله ، وتقصده بالإنابة والخضوع والذل ، والافتقار إليه ، والخوف منه ، ورجاءه .

فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله ، فقد أنكر حقيقة الإسلام . وهل الشرك الذي حرمت الجنة على صاحبه إلا أن يجعل للمخلوق

(١) الآية ٧٦ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران ، والآية ٩٣ من سورة المائدة . والآية ١٤٨

من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٥٩ من آل عمران .

(٤) رواه صاحبها الصحيحين ، انظر الفتح ج ٦ ص ١١١ وأماكن أخرى .

ومسلم ج ٤ ص ١٨٧١ و ١٨٧٢ .

(٥) رواه مسلم في الزهد ج ٤ ص ٢٢٧٧ رقم ٢٩٦٥ .

(٦) انظر الفتح ج ١٣ ص ٣٥٧ .

نصيباً مع الله تعالى في هذا الحب كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) (١)

فبين تعالى أن الذى يجب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ الله نداً ، وأخبر تعالى عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم في النار : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين) (٢) ولا يجوز أن تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا في الحب ، لأنه لا يمكن أن يقول عاقل أن أحداً من الخلق يساوى الله تعالى في الفعل والتصرف .

وقول ابن التين الذى نقله الحافظ : « إن معنى محبة المخلوقين لله : إرادتهم أن ينفعهم (٣) » من أبطل الكلام المخالف للواقع ، وللشرع والعقل ، ولولا أن هذا مسجل في الكتب المتداولة بين المسلمين ، لم يجز ذكره ، وهل يوجد أحد من الخلق لا يريد أن ينفعه الله ، حتى إبليس ، ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد ، من الأولين والآخريين ، بل كلهم يريد أن ينفعهم الله ، فهل يقال : إنهم يحبون الله ؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله ، ونقص الإيمان بذلك .

« وإلا فإن من تيقن أن الله أصدق القائلين ، وأن قوله الحق الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وأن قوله الفصل ، ليس بالهزل ، وأنه الهدى ، والنور ، والشفاء لما في الصدور ، من الجهل والشكوك ، وأنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره من خلقه .

وعلم أن الرسول - ﷺ - أعلم الخلق بالحق ، وأفصح الخلق في النطق

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٩٧ و ٩٨ من سورة الشعراء .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٥٧ .

والبيان . وأنه أنصح الخلق للخلق ، من علم ذلك تيقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق ، وكال القدرة على بيانه ، وكال الإرادة له ، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة ، يجب وجود المطلوب على أكمل وجه .

فيجب أن يعلم أن كلام الله ورسوله ، أبلغ مما يمكن ، وأتم ما يكون ، وأعظمه بيانا لأمر الدين ، من حقوق الله وأسمائه ، وصفاته ، وغير ذلك .

فمن وقر هذا في قلبه لم يجراً على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرها العاقل المنصف ، وجدها أبعد شيء عن كتاب الله ، وعن صفات الرسول ﷺ - وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص في علمه ، وإيمانه بكلام الله ، وكلام رسوله - ﷺ « (١)

وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هي حياة القلوب ، ونعيم الروح ، بل هي أعلى نعيم في الدنيا والآخرة ، وهي فوق كل محبة تفترض ، ولا نسبة لسائر المحاب إليها ، وهي حقيقة لا إله إلا الله ، وبتامها وإكلاها تتفاوت منازل العباد عند الله في الدنيا والآخرة ، وقد جاء في الحديث عنه - ﷺ - أنه قال : « أحبوا الله من كل قلوبكم » (٢) يعنى لا يبقى في القلب موضع لغير محبة الله تعالى .

وفي الصحيحين : مرفوعاً : « ثلاث من كنَّ فيه ، وجد بهنَّ حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » (٣)

وأصل التأله التعبد ، والتعبد هو آخر مراتب الحب ، يقال : عبده

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ١٢٩ بتصرف وزيادة .

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة انظر مختصرها لابن هشام ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) انظر الفتح ج ١ ص ٧٢ وج ١٠ ص ٤٦٣ ، ومسلم ج ١ ص ٦٦ .

الحب وتيمه إذا ملكه ، وذلكه لمحبوئه .

فالحبة هى حقيقة العبودية ، ولا يمكن وجود العبادة التى يريدنا الله ويأمر بها عباده بدونها أبداً ، بل لا يوجد أى نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعا بدونها ، مثل الإنابة ، والخشية ، والخوف ، والرجاء ، والحمد ، والشكر ، والصبر ، والدعاء ، والاستغاثة ، والاستعانة ، وغير ذلك من أنواع العبادة ، فمنكر الحبة فى الحقيقة منكر لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهؤلاء المحرفين لمثل هذا النص فى الحبة ، يغالطون أنفسهم . وهذا الحديث يدل على حسن فهم الصحابة لمعانى القرآن ، حيث قالوا عن سورة الصمد : إنها صفة الرحمن ، ووجه ذلك : أن هذه السورة تضمنت أنواع التنزيه لله تعالى والتحميد ، ونفى النقائص كلها ، وإثبات الكمال جميعه . ولهذا عدلت ثلث القرآن - كما تقدمت الإشارة إليه .

(الكلام على معنى أحد و صمد)

فالصمدية تثبت الكمال المنافى لكل نقص وعيب ، والأحدية تثبت الانفراد بذلك الكمال ، فهى تدل على أنه - تعالى - أحد ليس من جنس شىء من المخلوقات ، « وأنه صمد ليس من مادة ، بل هو صمد لم يلد ولم يولد ، وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد ؛ فلأن ينفى عنه أن يكون من سائر المواد أول وأخرى ، فإن المولود من نظير مادته أكمل من المولود من مادة أخرى » (١)

وقال أيضا : « وقد فسر السلف الصمد بأنه الذى لا جوف له ، كما فسروه : بأنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج ؛ والأول قول أكثر السلف ، من الصحابة ، والتابعين ، وطوائف من أهل اللغة .

والثانى : قول جمهور أهل اللغة ، وطوائف من السلف والخلف .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٤٥٢ .

قال الجوهرى : صمده يصمده صمداً إذا قصده ، والصمد بالتحريك : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج (١)

وقوله - تعالى - : (قل هو الله أحد ، الله الصمد) أدخل اللام في « الصمد » ولم يدخلها في « أحد » لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله تعالى ، بخلاف النفى ، وما في معناه كالشروط ، والاستفهام .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد في الدار ، ولا تقول : فيها أحد .
وأما « الصمد » فأدخل عليه الألف واللام ليبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال .

فالمخلوق وإن كان قد يطلق عليه بأنه صمد ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه فإنه يقبل التجزئة ، وهو محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله فقير محتاج إلى الله ، وليس أحد يصمد كل شيء إليه (٢) ، وهو لا يصمد إلى شيء إلا الله تعالى . وليس في المخلوقات شيء إلا يقبل التجزئة ، ويتفرق ، وينفصل بعضه من بعض ؛ والله سبحانه هو الصمد ، الذى لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكألها له وحده واجبة ولازمة ، لا يمكن عدمها بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تشية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه (٣) .

فقوله تعالى : « أحد » مع قوله : « لم يكن له كفواً أحد » ينفى المماثلة ، والمشاركة .

-
- (١) انظر الصحاح ج ٢ ص ٤٩٩ وتامه : « قال : علوته بحسام ثم قلت له : خذها حذيف فأتى السيد الصمد وبيت مصمد - بالتشديد - أى مقصود » .
(٢) الصمود هنا هو الطلب والقصد والتوجه إلى المصمود إليه بالحاجة .
(٣) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٢٣٧ ملخصاً .

وقوله تعالى : « الصمد » يتضمن إثبات جميع صفات الكمال . فالنقائص منتفية عن الله تعالى ، وكل ما يختص به المخلوق فهو من النقائص التي تنزه ربنا عنها جل وعلا .

وأما ما يوصف به العبد من بعض الكمالات مثل العلم ، والقدرة ، والرحمة ، ونحو ذلك ، فالذى يثبت لله تعالى من هذه المعاني يكون على وجه لا يقاربه فيه أحد من الخلق ، فضلاً عن أن يماثله فيه .

وقد ثبت أن ما خلقه الله في الجنة من المآكل وغيرها ، لا يماثل ما خلقه في الدنيا ، وإن اتفقا في الاسم ، مع أن كليهما مخلوق ، فالخالق تعالى وتقدس أبعد عن مماثلة المخلوقات .

والمعنى الصحيح الذى هو نفى المثل ، والشريك ، والند ، قد دل عليه قوله سبحانه (لم يكن له كفواً أحد) وقوله : (قل هو الله أحد) وقوله تعالى : (هل تعلم له سمياً)^(١) وأمثال ذلك ، فالمعاني الصحيحة لصفات الله نفيًا وإثباتًا ، ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك .

وقول بعض أهل الكلام : الأحد ، والصمد ، هو الذى لا ينقسم ، ولا يتفرق ، أو ليس بمركب ، ونحو ذلك من العبارات ، إن عنى بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهو حق ، وإن عنى بها أنه لا يشار إليه بحال ، فهذا يمتنع وجوده ، وإنما يقدر وجوده في الذهن تقديراً .

وقد علمنا أن العرب حين أطلقوا لفظ الواحد ، والأحد نفيًا ، وإثباتًا لم يريدوا هذا المعنى .

ولهذا لما قال الذين جادلوا الإمام أحمد ، في نفى الصفات - مستدلين باسم الواحد - : لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا : كان الله ولا شيء .

(١) جزء من الآية ٦٥ سورة مريم .

قال أحمد : قلنا نحن نقول : كان الله ولا شيء ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها ، أليس إنما نصف إلهاً واحداً ؟ .

وضربنا لهم في ذلك مثلاً ، فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، ونخوص ، وجمار ؟ . واسمها شيء واحد ؟ سميت نخلة بجميع صفاتها ؟ . فكذلك الله - وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد .

ولا نقول : إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه قدرة ، أو كان ولا علم له ، حتى خلق له علماً ، ولكن نقول : لم يزل عالماً ، قادراً ، مالكا ، لا متى ، ولا كيف « انتهى (١) »

وقال أيضاً : « ودل قوله تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد) على أنه لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولهذا فسر الصمد بأنه الذي لم يلد ، ولم يولد .

فإن الصمد : هو الذي لا جوف له ، ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ؛ فلا يأكل ولا يشرب ، كما قال تعالى : (وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ) (٢) وفي قراءة بفتح الياء الأخيرة .

وفسر بعض السلف « الصمد » بأنه الذي لا يخرج منه شيء ، وليس مرادهم أنه لا يتكلم فإنه يقال في الكلام : خرج منه ، كما في الحديث : « ما تقرب

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٤٤٩ ، وانظر رد الإمام أحمد في مجموع عقائد السلف ص ٩١ .

(٢) الآية ١٤ من سورة الأنعام .

العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه « انتهى (١)

ودل الحديث على استحباب قراءة الآيات التي تشتمل على صفات الله تعالى ، خلافا للمبتدعة الذين يكرهون قراءة آيات الصفات عند العامة ، وفيه التصريح بأن الله يحب ذلك ويحب من يحبه .

★ ★ ★

(١) المصدر السابق والحديث أخرجه الترمذى ج ٤ ص ٢٤٩ ، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص ٢٠ .

« باب قول الله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (١) »

* * *

قال الطبري - رحمه الله تعالى - « يقول تعالى ذكره لنبية : قل يا محمد لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن (ادعو الله) أيها القوم ، (أو ادعوا الرحمن ، أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) بأى أسمائه جل جلاله تدعون ربكم فإنما تدعون واحداً ، وله الأسماء الحسنى وإنما قيل ذلك له ﷺ - لأن المشركين فيما ذكر ، سمعوا النبي - ﷺ - يدعوا ربه : ياربنا الله ، وياربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعوا إلهين ، فأنزل الله الآية ، ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وعن مكحول (٢) قال ابن حجر « كأنه لمح في هذه الترجمة بهذه الآية إلى ماورد في سبب نزولها ، وهو ما أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف ، عن ابن عباس : أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعوا يا الله يارحمن ، فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد ، وهو يدعوا إلهين . فنزلت ، وأخرج عن عائشة بسند آخر نحوه » (٣) .

قلت : يظهر لي أن مقصود البخاري - رحمه الله - بالترجمة بهذه الآية بيان اختصاص الله - تبارك وتعالى - بالأسماء الحسنى ، وأن أسمائه كاملة المعاني ، لا يلحقها نقص ، أو عيب ، وأن اتصاف المخلوق ببعض ما يتصف الرب تعالى به من المعاني ، لا يلزم منه نقص أو عيب في أسمائه ، وصفاته - تعالى - لأنها حسنى

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) تفسير الطبري ج ١٥ ص ١٨٢

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٦٠ .

كاملة تناسب عظمته ، وكبريائه ، فلا يتوهم أن في ذلك تشبيها كما يزعمه أهل البدع الذين ظنوا أن مجرد المشاركة في الاسم ، أو المعاني يفيد التشبيه . فنفوا صفات الله تعالى من أجل ذلك .

وأما المخلوق فأسمائه وصفاته ليست حسنى ، ولا كاملة فهى تناسب ضعفه وعجزه ، والذي يوضح مراد البخارى بذلك الحديثان اللذان ذكرهما « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » وفي الآخر « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، فإذا كان المخلوق يرحم ، ويسمى رحيمًا ، والله تعالى يرحم ويسمى رحيمًا ، فليس ما يخص الله تعالى من هذا الاسم أو الفعل مماثلا أو مقاربا لما يخص المخلوق ، فلا يجوز تأويل أو نفى رحمة الله تعالى وغيرها من صفاته ، من أجل توهم أن مجرد المشاركة في المعنى يلزم منها التشبيه ، والله أعلم .

قال ابن القيم : « أسماءه - تعالى - كلها مدح وثناء وتمجيد ، ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال » (١) .

وما ذكره بعض الشراح : من أن البخارى ذكر هذا الباب ليكون كالأصل لما بعده من الأبواب ، وما بعده كالفرع عليه ، وقال : إنه قصد الاسمين المذكورين في الآية وهما « الله » ، و « الرحمن » ، لأنهما خاصان بالله تعالى .

فليس بظاهر ، وهذان الاسمان جاء ذكرهما كثيرا فيما بعد ، والظاهر لى - والله أعلم - ما أشرت إليه فيما سبق قبل قليل ، يوضح ذلك ما جاء في سبب النزول كما قال الحافظ ، والرحمن يأتي تابعا « لله » كغيره من الأسماء الحسنى .

فهو أراد بهذا الباب ما دلت عليه الآيات الأخرى كقوله - تعالى - : « هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى » (٢) وقوله : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (٣) وقوله « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » (٤) .

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٨ من سورة طه .

٦ — قال : « حدثنا محمد ، أخبرنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد ابن وهب ، وأبي ظبيان ، عن جرير بن عبد الله ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس »

* * *

جرير هو أبو عمرو ، جرير بن عبد الله بن جابر البجلي ، الأحمسي ، وأحمس بطن من بجيلة ، وبجيلة وختعم أخوان ، وهما من قحطان ، وقيل : من ربيعة بن نزار .

قدم جرير على النبي ﷺ في آخر حياته ، فبشّر به أصحابه ، وبسط له رداءه .

وكان - رضى الله عنه - صادق الإيمان ، صادقاً بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان يقول كما في الصحيحين ، وغيرهما « بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم » (١)

وبعته النبي - ﷺ - لهدم ذى الخلصة ، وهو صنم كبير كان لدوس ، فهدمه .

ودعا له النبي ﷺ ، ولخيل أحمس ورجاله .

وكان حسن الوجه حيث كان يقال له : يوسف هذه الأمة ، وكان طويلاً إذا ركب الفرس تكاد تخط رجلاه في الأرض .

نزل الكوفة ، فأرسله علي رسولاً إلى معاوية ، ثم اعتزل الحروب بينهما وتحول إلى جزيرة ابن عمر ، توفي بقرقيسيا سنة إحدى وخمسين ، وقيل بعدها رضى

(١) انظر الفتح ج ١ ص ١٣٧ وغيره ، ومسلم ج ١ ص ٧٥ في الإيمان رقم

الله عنه . (١)

« قوله : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » في رواية لمسلم « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله »

وعند الطبراني « من لا يرحم من في الأرض ، لا يرحمه من في السماء » ورواته ثقات .

ولأبي داود ، والترمذي ، والحاكم « ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء » .

وفي الطبري « من لا يرحم المسلمين لم يرحمه الله » (٢) .

قلت : ومعنى هذه الروايات واحد ، ففي هذه الأحاديث وأمثالها كثير ، دليل على أن الرحمة صفة تقوم بمن يشاء الله من عباده ، الذين يريد جل وعلا رحمتهم ، وتتخلف عن الأشقياء ، الذين لا يرحمهم الله تعالى .

وقد روى البخاري في الأدب المفرد ، من حديث أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (٣) .

وقد علم من دين الرسل ، وكتب الله تعالى أن الله متصف بالرحمة ، وليست رحمته ثوابه وجزاؤه ، كما يقوله أهل التحريف المؤولة ، من الأشعرية وغيرهم .

(١) انظر أسد الغاية ج ١ ص ٣٣٣ ، والاستيعاب ج ١ ص ٢٣٦ ، والإصابة ج ١ ص ٤٧٥ ، وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٥٣٠ .

(٢) الفتح ج ١٠ ص ٤٤٠ .

(٣) انظر الأدب المفرد ص ١٣٦ ، قال محققه أخرجه الترمذي ٢٥ كتاب البر والصلة ١٦ باب ما جاء في رحمة المسلمين وأبو داود ، كتاب الأدب ٥٨ باب في الرحمة ، وأحمد في المسند رقم ٧٩٨٨ ، ٩٧٠٠ ، ٩٩٤١ ، ٩٩٤٦ ، ١٠٦٤ وسنده صحيح وغيرهم .

وقد قال الله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) (١)

فعطف الرحمة على الفضل يدل على المغايرة ، وفضل الله - تعالى - الذى هو الثواب والجزاء مخلوق ، ليس من صفات الله - تعالى - القائمة به .

وإذا كان الإجماع حاصل بين الأمة ، بأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شئ فى ذاته المقدسة ، فيجب أن تكون صفاته ليست كصفات خلقه ، لأن الصفة تتبع الموصوف ، فصفات الله - تعالى - من الرحمة ، والرضا ، والغضب وغير ذلك . تليق بعظمته ، وتناسبه ، وصفة المخلوق من ذلك وغيره تليق بضعفه ، وعجزه وفقره .

وإن من الضلال ، والبعد عن كتاب الله ، وهدى رسوله ، وسبيل المؤمنين حقا ، نفى صفات الله - تعالى - وتعطيله منها اعتلالا بأنها تفيد التشبيه . لأن المخلوق يوصف بتلك الصفات ، وهل هذا إلا مثل من يقول : أنا لا أقر بوجود الله تعالى لأن المخلوق موجود ؟ .

وقد تقدمت الإشارة إلى أن مجرد الاشتراك فى الاسم أو فى المعانى العامة لا يقتضى تشبيها ، وسيأتى لذلك مزيد إن شاء الله تعالى .

٧ - قال : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي ، عن أسامة بن زيد ، قال : كنا عند النبي ﷺ - إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها في الموت ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فأخبرها ، أن الله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ، ولتحتسب . فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأتيناها ، فقام النبي ﷺ - وقام معه سعد ابن عباد ، ومعاذ بن جبل ، فدفع الصبي إليه ، ونفسه تقعقع كأنها في شن ، ففاضت عيناه ، فقال له سعد : يارسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »

* * *

أسامة بن زيد بن حارثة بن سراهيل ، الكلبي ، حب رسول الله - ﷺ - وابن حبه ومولاه ، وابن مولاته أم أيمن .
أمره رسول الله - ﷺ - على جيش فيه كبار المهاجرين ، والأنصار ، منهم أبو بكر وعمر ، وقال فيه ﷺ : « وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة » (١)
وفي البخارى ، وغيره أنه ﷺ قال له ، وللحسن : « اللهم إني أحبهما ، فأحبهما » (٢)

وزوجه فاطمة بنت قيس ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وتوفى رسول الله - ﷺ - وهو ابن تسع عشرة سنة ، وفضلّه عمر رضى الله عنهما في العطاء على

(١) أخرجه البخارى في مواضع من الصحيح ، انظر الفتح ج ٧ ص ٤٩٨ ، ٨٦ ،

و ج ١١ ص ٥٢١ .

(٢) انظر الفتح ج ٧ ص ٨٨ ، ٩٤ و ج ١٠ ص ٤٣٤ .

ابنه عبد الله ، وحين راجعه قال له : إنه أحبُّ إلى رسول الله - ﷺ منك . واعتزل الحروب بين أهل الشام وأهل العراق ، ومات بوادى القرى سنة أربع وخمسين ، وقيل غير ذلك (١) .

قوله : « إحدى بناته » قال الحافظ : هي زينب ، كما جاء في مصنف ابن أبي شيبة (٢)

قلت : يشير إلى ما رواه ابن أبي شيبة بالسند المذكور هنا . قال : « دمعت عين رسول الله ﷺ حين أتى بابنة زينب ، ونفسها تقعقع كأنها في شن ، قال : فبكى قال : فقال له رجل : تبكى وقد نهيت عن البكاء » فذكر بقية الحديث كما ذكره البخارى (٣)

ثم قال الحافظ : « ووجدت في الأنساب للبلاذرى ، أن عبد الله بن عثمان ابن عفان من رقية بنت النبي - ﷺ - لما مات ، وضعه النبي ﷺ - في حجره وقال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، وفي مسند البزار ، عن أبي هريرة ، قال : ثقل ابن لفاطمة ، فبعثت إلى النبي ﷺ . فذكر نحو الحديث المذكور هنا .

فعلى هذا ، فالابن هو محسن بن علي بن أبي طالب ، وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيرا ، في حياة النبي - ﷺ - فهذا أولى أن يفسر به الابن لكن الصواب أن المرسله ؛ زينب ، وأن الولد صبية ، كما ثبت في مسند أحمد بالسند المذكور ، ولفظه : « أتى النبي - ﷺ - بأمامة بنت زينب ، ونفسها تقعقع

(١) انظر الإصابة ص ١ ص ٤٩ تحقيق الجاوى ، وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٩٦ وغيرها .

(٢) انظر الفتح ج ٣ ص ١٥٦ .

(٣) انظر مصنف ابن أبي شيبة ج ٣ ص ٣٩٢ .

كأنها في شن « وذكر بقية الحديث (١) . ومثله في معجم الطبراني ، وقد شفاها الله تعالى - فعاشت زمنا بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وتزوجها على بن أبي طالب ، بعد وفاة فاطمة ، وقتل وهى عنده رضى الله عنهم جميعا » (٢) .

قوله : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى » . قال النووى - رحمه الله - : هذا أحسن ما يعزى به . ثم قال : « وهذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام ، لاشتماله على مهمات كثيرة من أصول الدين ، وفروعه ، والآداب ، والصبر على النوازل كلها ، والهموم ، والأسقام وغير ذلك ، ومعنى قوله : « إن لله ما أخذ » أن العالم كله ملك لله تعالى ، فلم يأخذ ما هو لكم ، بل أخذ ما هو له عندكم ، فى معنى العارية .

ومعنى : « وله ما أعطى » أن ما وهبه لكم ليس خارجا عن ملكه ، بل هو له يفعل فيه ما يشاء ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فلا تجزعوا فإن من قبض فقد انقضى أجله المسمى ، فمحال تأخره أو تقدمه عنه ، فاعلموا ذلك ، واصبروا ، واحتسبوا ما نزل بكم » (٣)

وقوله : « وكل شئ عنده بأجل مسمى » من فقد محبوب ، أو حصول مرغوب ، وتصرف فى هذا الكون الذى هو بأسره ملك لله يفعل فيه ما يريد ، والأجل المسمى : هو المقدر بوقت معين لا يتأخر عنه ، ولا يتقدم .

وفى هذه الجملة من الحديث دليل واضح على أن الله تعالى قدر كل شئ وكتبه ، وعلم وقته وحاله ، وأن الحوادث كلها تقع على تقدير دقيق ، لا تتأخر عن ذلك لحظة ولا تتقدم ، وهذا أصل عظيم من أصول الدين الإسلامى ، يجب

(١) انظر المسند ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٢) الفتح ج ٣ ص ١٥٦ .

(٣) انظر الأذكار ص ٢١٢ - ٢١٣ .

أن يعلم . والإيمان به من أركان الدين لا بد منه ، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة .

قوله : « فلتصبر ، ولتحتسب » الصبر : حبس النفس عن الجزع ، والتسخط ، وحبس الجوارح عما نهى عنه الشرع من شق الثياب ، وخمش الوجوه ولطمها ، والكلام الذى ينافى التسليم لرب العالمين ، وما أشبه ذلك مما يدل على تسخط الأقدار ، والاعتراض على القضاء الذى قضاه الله قبل وجود الخلق .

والاحتساب : هو نية طلب الثواب من الله على الإيمان بالقدر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، والإيمان بوعد الله تعالى ، فإنه وعد على الصبر الجزاء .

قال ابن القيم : « حقيقة الصبر : أنه حُلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ، ولا يجمل » (١)

قوله : « فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأنيها » جاء فى بعض الروايات أنها راجعته ثلاث مرات ، وإنما ذهب إليها بعد الثالثة .

وإلحاحها لما علمت من أن حضور النبي ﷺ فيه الخير والبركة ، وأنه يتوقع أن يرفع الله ببركة دعائه وحضوره ماهى فيه وابتها من ألم وتوجع . وقد حقق الله تعالى أملها ورغبتها ، فشفها مريضها كما سبق .

ولا يعترض بهذا على أن القدر لا بد من وقوعه ، فكيف يتخلف من أجل الدعاء أو غيره ، فإن الله تعالى جعل لكل شئ سبباً ، ورتب المسببات على أسبابها فقدر أن هذا الشئ يقع فى وقت معين إذا تخلف السبب من دعاء أو غيره ، وإذا وجد ، هذا السبب مثلاً فإنه يتأخر إلى وقت آخر ، أى أن الله تعالى قد يجعل لوقوع هذا الحادث أجلين ، أجل إذا لم يفعل السبب - مثل الدعاء والعمل الصالح - وأجل آخر إذا فعل ذلك ، وقد علم الله أيهما يقع ، وهو جل

(١) عدة الصابرين ص ١٢ .

وعلا : يتلى خلقه بالمصائب ، تأديبا لهم ، وتكفيراً لذنوبهم ، رحمة منه بهم .
 قوله : « ونفسه تققعع كأنها في شن » القعقة صوت الشئ اليابس الجاف الخفيف إذا حرك . يعنى بذلك صوت نفسه عند صعوده ونزوله في صدره من شدة الألم .

والشن : بفتح الشين وتشديد النون ، القرية الخلقة اليابسة .

قوله : « ففاضت عيناه » أى ذرفت عينا رسول الله - ﷺ - بالدموع رحمة لهذا الضعيف ، وتوجعا لما نزل به من الألم الشديد .

« فقال سعد : يارسول الله ما هذا » كان ﷺ ينهى عن البكاء على الميت ، فظن سعد - رضى الله عنه وغيره أن النهى يدخل فيه دمع العين ، وحزن القلب ، فبين لهم النبي ﷺ أن النهى عنه هو التسخط من المقدور ، ودعوى الجاهلية من العويل والنوح ، وتعداد محاسن الميت ، وما أشبه ذلك من لطم الوجه وشق ونحوه ، مما يدل على السخط من الواقع ، وعدم الصبر .

وأما دمع العين وحزن القلب ، فهو من الرحمة للضعفاء التى هى سبب رحمة أرحم الراحمين جل وعلا .

قوله : « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده » أى الدمع الذى رأته من أقر الرحمة التى جعلها الله تعالى في قلوب عباده ، الذين أراد تعالى رحمتهم ، لأن الجزء من جنس العمل ، والإضافة هنا خاصة أى الذين عبدوه باتباع أمره ، واجتناب نهيه .

قوله : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » أى رحمة الله تعالى للمحسنين إلى عباده برحمتهم ، والرحماء من صيغ المبالغة ، ولهذا قال بعض الشراح : « المعنى أن الله تعالى لا يرحم من عباده إلا كثير الرحمة ، فالرحماء جمع رحيم ، وهو من صيغ المبالغة » (١)

(١) المنهل العذب المورود ج ٨ ص ٢٧٧ .

قلت : هذا الحصر لا ينبغي ، وإن كان التركيب في الحديث يفيدُه ولكن فيما يظهر لي - والله أعلم - أنه غير مقصود للأدلة على أن رحمة الله وسعت كل شيء ، وإنما المقصود هنا رحمة خاصة بمن هذه صفتهم .

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد الذي سيق الحديث من أجله ، مع قوله « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده » وذلك أن القدر المشترك بين أسماء الله تعالى وصفاته ، وبين أسماء المخلوقين وصفاتهم في اللفظ والمعنى لا يقتضى المشابهة ، لأن أسماء الله تعالى حسنى ، لا يلحقها نقص ، ولا عيب . بخلاف أسماء المخلوقين - وإن كان منها الحسن - فليست بحسنى ، ولأن الصفات تابعة للموصوف ، وكذلك الأسماء ، فالرحمن اسمه تعالى . والرحمة صفة ، والمخلوق يتصف بالرحمة التي يرحم بها ، وهى تابعة له في الخلق والمعنى ، فهى مخلوقة فيه ، لأنه مخلوق فصفاته مخلوقة ، وهو ضعيف فقير محتاج ، وصفاته تناسبه في ذلك مع أنه يسمى رحيم ، وراحم ، والله تعالى موصوف بالرحمة ويسمى رحيم ، ولا يكون في ذلك تشبيه ، لأن المخلوق اسمه وصفته يختص به ، والله تعالى اسمه وصفته يختص به ، فرحمة الله صفة له عليا صفة كمال ، وسالمة من كل نقص أو عيب يمكن أن يلحق المخلوق ، فليست رحمته تعالى عن ضعف أو عجز ، بل عن كمال فضله وإحسانه . ولا يجوز أن تؤول بالتوابع أو العطف ، أو إرادة ذلك وما أشبهه مما يقوله أهل التأويل . كما ذكر الحافظ ابن حجر عن شرح البخارى . وغيرهم ، كقول ابن بطال : « إن المراد برحمته إرادته تقع لمن سبق في علمه أنه ينفعه ، وأما الرحمة التي جعلها في قلوب عباده ، فهى من صفات الفعل (١) وصفها بأنه خلقها في قلوب عباده وهى رقة على المرحوم ، وهو سبحانه منزّه عن

(١) صفات الفعل عند الأشعرية : ما فعله تعالى منفصلا عنه - يعنى مخلوقاته التي وجدت بصفة الخلق ، وليس هناك اشتباه بين ما يسميه ابن بطال صفات فعل ، وبين صفات الله حتى يلزم ما ذكره .

الوصف بذلك ، فتأول بما يليق به « (١) .

وذكر من هذا النوع أشياء تخالف نصوص كتاب الله ، ونصوص سنة رسوله ﷺ - كما هي عادته ، لأنه عفا الله عنا وعنه ، على المذهب الأشعري الذى يعتمد على تأويل صفات رب العالمين - وإن كان أحيانا يذكر مذهب السلف فيما ينقله ، ولكنه لا يتبناه ، بل يخلط بينه وبين ما يخالفه .

وهذا المذهب - يعنى مذهب الأشعرية الذى عليه أكثر المتأخرين - خالف لما عليه رسل الله صلى الله عليه وسلم ، ومخالف لكتبه ، ولما عليه أتباع الرسل ، كما اعترف بذلك بعض كبار علماء هذا المذهب ، كالفخر الرازى ، والجوينى ، والغزالى ، والشهرستانى ، وغيرهم كما يأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وهكذا تبرر الأشعرية تأويل صفات رب العالمين بما تعرفه من صفات المخلوقين . فكأنهم لم يعرفوا من الرحمة إلا أنها رقة على المرحوم ، ولا من الغضب إلا أنه غليان دم القلب ثم طلب الانتقام ، وما أشبه ذلك ، ولهذا لجأوا إلى التحريف الذى يسمونه تأويلا ، وجعلوه واجبا ضروريا ، حتى لا يلزم التشبيه ، فيسلم المسلم من التشبيه والتجسيم على ما زعموا .

زعموا هذا مع أنهم ينكرون على الفلاسفة تأويلهم نصوص المعاد ، وعلى الباطنية تأويلهم الشرائع أشد الإنكار ، فما الذى سَوَّغ لهم تأويل نصوص الصفات مع كثرتها ووضوحها ؟ وما ادعوه أن العقل يوجب ذلك بإمكان كل مبطل أن يدعيه .

فليس هناك عاصم من الضلال ، إلا الوقوف مع نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك فى المقدمة .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٨ .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى البجائي - رحمه الله تعالى : « الأمر الثاني وهو النقص في الدين ، برد النصوص والظواهر ، ورد حقائقها إلى المجاز ، من غير حجة قاطعة ، تدل على ثبوت الموجب للتأويل ، إلا مجرد التقليد لبعض أهل الكلام في قواعد لم يتفقوا عليها ، وأفحش ذلك مذهب القرامطة الباطنية في تأويل الأسماء الحسنى كلها ، ونفيها عن الله تعالى ، على سبيل التنزيه له عنها ، وتحقيق التوحيد بذلك ، ودعوى أن إطلاقها يقتضى التشبيه ، حتى قالوا : لا يقال إنه موجود ، ولا معدوم .

فكما أن كل مسلم يعلم أن هذا كفر صريح ، فكذلك المحدث الذي طالت مطالعته للآثار ، قد يعلم أن تأويل بعض المتكلمين مثل ذلك .

ومن الضروري ورود أسماء الله الحسنى في كتابه على سبيل التمدح بها والثناء العظيم عليه بها ، ألا ترى - مثلاً أن الرحمن الرحيم متلوان في جميع الصلوات المذكوران في أكثر محافل المسلمين ، مجتمعين على أنهما أحسن الثناء على الله تعالى متقربين إلى الله تعالى بمدحه بهما .

وكرر تعالى التمدح بالرحمة في كتابه أكثر من خمسمائة ، مرة باسمه الرحمن أكثر من مائة وستين مرة ، وباسمه الرحيم أكثر من مائتى مرة ، وجمعهما مائة وستين مرة . وجاء الرحيم مقترنا مع التواب مراراً ، ومراراً مع الرؤوف ، والرأفة أشد الرحمة . ومراراً مع الغفور ، وهى كثيرة ، عرفت منها سبعة وستين موضعاً . وقد فطر الله العقول على معرفة رحمة الله ، وسعة علمه ، وكإل قدرته .

فما هو المانع من إثبات صفة الرحمة ونحوها مما أثبتته الله ورسوله ، مع نفي النقائص المتعلقة بصفات المخلوقين في حياتهم ، وكذلك كل صفة يتصف بها الرب ، تعالى ويوصف بها العبد . فإنه جل وعلا يوصف بها على أكمل وجه ، خالية عن جميع النقائص ، والعبد يوصف بها على ما يناسبه ، من نقص وضعف ، وبهذا فسر أهل السنة نفي التشبيه ، ولم يفسروه بنفى الصفات كما فعل المعطلة .

ومما يدل على بطلان التأويل ، كون المعتزلة يسخرون من تأويل الأشعرية للحكيم والأشعرية تسخر من تأويل بعض المعتزلة للسميع البصير ، وأهل السنة يسخرون من تأويل الفريقين للرحمن الرحيم ، وما أشبههما ، والكل يسخر من تأويل القرامطة . فيجب إثبات ما وصف الله به ذاته الكريمة ، من غير تأويل ، ولا تعطيل .

ولا يجوز القول بأن ظاهر هذه الأسماء كفر ، وضلال ، وأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك ، أو أنهم فهموه ولم يقوموا بالواجب من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق ، لأمرين :

الأول قاطع ضرورى ، وهو أن العادة توجب أن ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه ، من رسول الله - ﷺ - ومن أصحابه ، ويتواتر أعظم من تحذيرهم من الدجال الكذاب ، ولا يجوز مع كمال عقولهم ، وأديانهم أن يتركوا صبيانهم ونساءهم ، وعامتهم يسمعون ما ظاهره كفر ، منسوباً إلى الله - تعالى - ورسوله ويسكنون عليه ، مع بلادة الأكثرين .

ولو تركوا بيان ذلك ، ثقة بنظر العقول الدقيق ، لتركوا التحذير من فتنة الدجال ، فإن بطلان ربوبيته أظهر في العقول من ذلك ، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر ، تواتر عنهم التحذير عنها ، وتأويلها ، فصنفوا في ذلك ، وأيقظوا الغافلين ، وعلموا الجاهلين ، وكفروا المخالفين ، وأشاعوا ذلك بين المسلمين ، بل بين العالمين ، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين ، وأنصار الدين ، لو كان ذلك حقاً .

الثانى : أنه ثبت تحريم الزيادة في الدين ، فلا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه ، من مهمات الدين ، فالإسلام متبع ، لا مخترع ، ولذلك كفر من أنكر شيئاً من أركان الدين ، لأنها معلومة ضرورة ، فأولى وأحرى أن لا يجيء الشرع بالباطل منطوقاً متكرراً من غير تنبيه على ذلك ، لاسيما إذا كان ماسموه باطلا ، هو المعروف في جميع كتب الله ، ولم يأت ما يعارضه من طريق شرعى ، ولا عقلى ، حتى يجب التأويل .

وكثير منهم يزعم أنه ما جاء التصريح بالحق في آية واحدة تكون هي المحكمة التي رد إليها جميع المتشابه ، والله تعالى ذكر أنه أنزل في كتابه آيات محكمات ، ترد إليها المتشابهات ، ولم يذكر أن جميع كتابه متشابه ، فبطل ما يقولون .

وقد اعترف الرازي - في كتابه الأربعين ^(١) - وهو من أكبر خصوم أهل السنة : أن جميع الكتب السماوية جاءت بصفات الله - تعالى - ولم ينص الله - تعالى - في آية واحدة على أنه منزه عن الوصف بالرحمة ، والحلم والحكمة ، وما أشبه ذلك ، والأمر ظاهر وإن لم يعترف به ، وهذه الكتب السماوية موجودة . وهبك تقول : هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء » ^(٢)

قلت : دعوى المجاز في اسمه تعالى « الرحمن » وغيره من الأسماء الحسنى - - من أبطل الدعاوى ، لأن ذلك يتضمن إنكار حقيقة صفة الرحمة ، وهو أعظم من إنكار الكفار لاسمه تعالى « الرحمن » ، كما ذكر الله تعالى عنهم ذلك ، قال تعالى : (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) ^(٣)

وقال تعالى : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن) ^(٤) فهؤلاء الذين كفروا بالرحمن ، وأنكروه ، لم يكفروا بذاته تعالى ، وربوبيته ولم ينكروا ما يدعيه المؤولة - أن معنى اسمه الرحمن هو الإحسان والإنعام إلى خلقه ،

(١) كتاب الأربعين في أصول الدين في علم الكلام .

(٢) إثبات الحق على الخلق ، بتلخيص وتصرف ص ١٢٩ - ١٣٩ .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٦٠ من سورة الفرقان .

وإنما أنكروا اسمه تعالى « الرحمن » أن يسمى به .

وإنكار صفة الرحمة أعظم من إنكار الاسم ، وهو من أعظم الإلحاد في أسماءه تعالى ، لأن وضع الاسم مقصود به الدلالة على المعنى المراد منه ، وهو الرحمة كما هو معلوم في جميع أسماءه تعالى .

وتعليقهم لنفى الرحمة عن الله تعالى بأنها رقة القلب التى تحمل على الميل إلى المرحوم .

جوابه : أن هذه رحمة المخلوق ، ووصفه ، وأما رب العالمين ، فليس كمثله شئ في ذاته وصفاته ، فليست رحمته تعالى من جنس رحمة خلقه جل وعلا .
ومما يعجب منه أن أهل التأويل (١) يجعلون الرحمة بالنسبة للمخلوق حقيقة ، وبالنسبة لله تعالى مجازا ، فكيف تكون رحمة أرحم الراحمين التى وسعت كل شئ مجازا ، ورحمة المخلوق الضعيف حقيقة ؟ .

وكل العقلاء يدركون آثار رحمة الله تعالى فى الخلق ، كما يدركون آثار ربوبيته أو أعظم ، وهذا من أظهر الأشياء وأوضحها .

ومعلوم أن الأسماء التى تسمى الرب - تعالى بها وهى كلها حسنى - لها معانٍ يستدل بها عليها ، لأنها مشتقة من تلك المعانى ، وهذه المعانى هى الصفات ، وليست أسماءه تعالى . مجرد إعلام ، فالرحمن يدل على الرحمة ، والعليم يدل على العلم ، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا جميع أسماءه تعالى .

★ ★ ★

(١) أقصد الذين يؤولون الصفات كما هى طريقة أكثر الأشعرية .

قال : باب قول الله تعالى : (أنا الرزاق ذو القوة المتين)

٨ — « حدثنا عبدان ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي عبد الرحمن السلمى ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال النبي - ﷺ - : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافهم ، ويرزقهم » .

* * *

أبو موسى الأشعري : هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري .
وأمه ظبية بنت وهب بن عك . هاجر إلى الحبشة قديماً ، ثم قدم على النبي ، ﷺ في خيبر ، مع جعفر وأصحابه ، وهو من سادات الصحابة وعلماءهم . عرف بالشجاعة والاجتهاد في طلب الخير ، وكان قارئاً حسن الصوت ، حتى قال فيه النبي ﷺ « لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود » (١)
توفى رضى الله عنه بمكة ، وقيل بالكوفة سنة اثنتين ، أو أربع وأربعين ، عن ثلاث وستين سنة (٢) .

أما الآية فهكذا قرأها ابن مسعود ، وقال : إنه أقرأه إياها رسول الله ﷺ « كما رواه الإمام أحمد بسند صحيح » (٣) وأبو داود ، والنسائي ، والترمذى ، وقال : حسن صحيح (٤) .

(١) انظر البخارى ج ٦ ص ١٦١ فضائل القرآن .

(٢) انظر الاستيعاب ج ٣ ص ٩٧٩ ، أسد الغابة ج ٣ ص ٣٦٧ ، الإصابة ج

٦ ص ١٩٤ .

(٣) انظر المسند ج ١ ص ٣٩٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٠٢ ، وانظر سنن أبى داود ج ٤ ص ٢٩١ وفيه

« إني أنا الرزاق » الخ ، ومثله فى الترمذى ج ٤ ص ٢٦٢ .

وهذه الآية مرتبطة بالآية قبلها في المعنى ، وهى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (١) . والمعنى : أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، فمن أطاعه فى ذلك جازاه أتم الجزاء وأحسنه ، ومن أنى وعصاه عذبه أشد العذاب .

وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم « (٢) » .

فهو جل وعلا لم يخلقهم ليستعين بهم أو ليقوى بهم ، كما يقصد السادة من عبيدهم .

قوله : « إن الله هو الرزاق » هذه القراءة المجمع عليها ، المتواترة ، وقراءة ابن مسعود تنفق معها فى المعنى .

والمعنى : أن الله تعالى هو المتكفل بأرزاق الخلق وحاجاتهم ؛ وأكد الجملة بإن ، والضمير ، لقطع توهم من يعتمد على قوته ، أو علمه وصنعتة ، أو غير ذلك فى أمور الرزق ، ليصرف اعتمادهم إلى الله وحده .

« ذو القوة » أى القوة العظيمة التى لا تضاهى ، ولا تقاس بقوة خلقه مهما بلغت قوتهم ، فهو تعالى على كل شئ قدير ، لا يمتنع عليه شئ .

« والمتين » الشديد القوة ، الذى لا يطرأ عليه عجز أو ضعف ، تعالى وتقدس ، وهذا المروى عن ابن عباس كما ذكره الطبرى (٣)

قال ابن الجوزى : « والمتين : الشديد القوة الذى لا تنقطع قوته ،

(١) الآيات من سورة الذاريات من الآية ٥٦ - ٥٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٢ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ١٣ .

ولايلاحظه في أفعاله مشقة» (١) .

ورفع « المتين » على أنه وصف لـ « الرزاق » أو لذو ، أو خير مبتدأ محذوف ، أو خير بعد خير ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش بجر « المتين » على أنه صفة للقوة .

وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله - تعالى - موصوف بالصفات العليا ، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى ، فالقوة صفته ، والرزاق اسمه ، وتقدم أن كل اسم لا بد أن يتضمن الصفة ، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات ، كما سبقت الإشارة إليه . والله أعلم .

وأما معنى الحديث : فقال النووي : « قال العلماء : معناه : أن الله تعالى واسع الحلم حتى على الكافر الذى ينسب إليه الولد والند ، قال المازرى : حقيقة الصبر : منع النفس من الانتقام أو غيره ، فالصبر نتيجة الامتناع ، فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى » (٢) .

قال القاضى : والصبور من أسماء الله تعالى ، وهو الذى لايعاجل العصاة بالانتقام . وهو بمعنى الحليم فى أسمائه سبحانه وتعالى ، والحليم : هو الصفوح مع القدرة على الانتقام » (٣)

قلت : قوله : « فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى » . فيه نظر ، وذلك أن رسول الله - ﷺ - أطلق على ربه الصبر ، وأنه ما أحد أصبر منه وهو ﷺ أعلم الخلق بالله - تعالى - وأخشاهم له ، وأقدرهم على البيان عن

(١) تفسير ابن الجوزى ج ٨ ص ٤٤ .

(٢) قلت : هذا الكلام فيه نظر فقد جاء فى أسمائه تعالى الصبور ، وفى هذا الحديث : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى » .

(٣) شرح النووي على مسلم ج ١٧ ص ١٤٦ .

الحق ، وأنصحهم للخلق ، فلا استدراك عليه ، فيجب أن يبقى ما أطلقه ﷺ على الله تعالى بدون تأويل ، إلا إذا كان يريد بذلك تفسير معنى الصبر ، ولكن الأولى أن يبقى كما قال ، لأنه واضح ليس بحاجة إلى تفسير .

قوله في الحديث : « أصبر » أفعال تفضيل من الصبر ، ومن أسمائه الحسنی « الصبور » ومعناه : الذى لا يعاجل العصاة بالعقوبة ، وهو قريب من معنى الحلیم . والحلیم أبلغ فى السلامة من العقوبة » (١) .

وقال الزجاج : « أصل الصبر فى الكلام : الحبس ، يقال : صبرته على كذا صبرا إذا حبسته ، ومعنى الصبر ، والصبور فى اسم الله - تعالى - قريب من معنى الحلیم » (٢)

وقال ابن الأثير : « الصبور : هو الذى لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم ، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى ، فمعنى الصبور فى صفة الله - تعالى - قريب من معنى الحلیم ، إلا أن الفرق بين الأمرين أنهم لا يأمنون العقوبة فى صفة الصبور ، كما يأمنون منها فى صفة الحلیم » (٣) .

يقصد أن صفة الحلیم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده ، من صفة الصبور . والله أعلم .

قوله : « على أذى سمعه من الله » لفظ الأذى فى اللغة هو لما خف أمره ، وضعف أثره من الشرك والمكروه ، ذكره الخطابى ، قال شيخ الإسلام : وهو كما قال بخلاف الضرر ، فقد أخبر - سبحانه - أن العباد لا يضرونه ، كما قال تعالى (ولا يجزئك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا) (٤) فبين أن

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٦١ .

(٢) تفسير أسماء الله الحسنی ص ٦٥ .

(٣) جامع الأصول ج ٤ ص ١٨٣ .

(٤) الآية ١٧٦ من سورة آل عمران .

الخلق لا يضرونه ، لكن يؤذونه » (١)

فأبن آدم يؤذى الله تعالى ، ويسببه بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه ، مثل نسبة الولد إليه - تعالى - والند ، والشريك في العبادة ، التي يجب أن تكون خالصة له وحده ، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره . من الدهر ، والطبيعة ، والكون والمخلوقات ، وغير ذلك ثم يسبون ما أسندوا تلك الحوادث إليه ، فيقولون أصابهم قوارع الدهر ، وأبادتهم حوادثه ، وأهلكتهم كوارث الطبيعة ، وياخية الدهر ، وهذا زمان سوء ، وما أشبه ذلك .

وفي الصحيحين عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ : يقول الله - تعالى - « يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (٢) .

وأذية الله - تعالى - بنسبة الحوادث ، والكوارث إلى الدهر ، أو الطبيعة ، وتوجيه اللوم ، والقدح والسب إلى ذلك كثيرة في كلام أهل الأدب وغيرهم ، مع أن ذلك صنع الله وفعله ، ولذلك يرجع السب إليه ، تعالى عن قولهم علواً كبيراً ، كقول ابن المعتز :

يادهر ويحك ما أبقيت لى أحداً وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقول أبى الطيب المتنبي :

قبحاً لوجهك يازمان كأنه وجه له من كل قبيح يرقع

وقول الطرقي :

إن تبلى بلثام الناس يرفعهم عليك دهر لأهل الفضل قد خاننا

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٥٤٢ .

(٢) انظر البخارى ج ٦ ص ١٦٦ وتفسير سورة الجاثية ج ٨ ص ٥٧٤ ، وج

١٠ ص ٥٦٤ الأدب وج ٩ ص ١٧٩ التوحيد ، ومسلم الأدب ج ٧ ص ٤٥ .

وقول التهامي :

ليس الزمان وإن حرصت مسالما خلق الزمان عداوة الأحرار

وقول الآخر :

وغاض رزقي ، وعاداني الزمان ، ولم ينظر لما بي من العليا ، ولا حسبي

وقول الحريري :

ولا تأمن الدهر الخؤون ، ومكره فكم عالم أخنى عليه ، ونابه

وقوله أيضا :

ولما تعامى الدهر ، وهو أبو الردى عن الرشد ، فى إيجابه ومقاصده
تعاميت ، حتى قيل : إني أخو عمى ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

وقوله أيضا :

ولو أنصف الدهر فى حكمه لما ملك الحكم أهل النقيصة

وقول موفق الدين ، عبد الله بن عمر الأنصارى فى تخميسه مقصورة ابن

دريد :

يا زمنى ماذا العمى فوقت لى من الرزايا أسهما

يا دهر كم هذى الحقود والإحس (١)

وقال تميم بن المعز :

يا دهر ما أقساک من متلون فى حالتیک ، وما أقلک منصفاً
أتروح للنكس الجهول ممهدا وعلى الحر اللبيب سيفاً مرهفا
وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضیک ، وإن کرمت لأننى أدرى بأنک لاتدوم على الصفا

(١) انظر تخميس مقصورة ابن دريد ص ٤٢ .

زمن إذا أعطى ، استرد عطاءه وإذا استقام ، بدا له فتحرفا
 ما قام خيرك يازمان بشره أولى بنا ما قل منك ، وما كفى

وقال عبد الرحيم الاسطنبولى :

أرى الدهر يسعف جهاله وأوفر حظ به الجاهل

ومثل هذا كثير جدا فى أشعار أهل الأدب قديما وحديثا ، وهو لا يجوز لما دل عليه هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه ، وللأحاديث الأخرى الصحيحة الصريحة فى النهى عن ذلك ، كحديث أنى هريرة الآتى : « يقول الله تعالى : يؤذنى ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، وأقلب ليله ونهاره » (١)

يعنى أن الدهر الذى هو الليل والنهار مخلوق لله مسخر ، وهو مؤتمر بأمر الله تعالى مطيع له ، فإذا سبه الساب ، فإن السب يعود إلى فاعل الدهر وخالقه . ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالى لأنها ظرف لوقوع الحوادث ، وما يؤلم ، فوجب اللوم إلى الدهر لذلك ، وإلا فغالب هؤلاء ، إن لم يكن كلهم لا يعتقدون أن الليل والنهار هو المصرف المدير ، والموجد لما يقع فيه ، فرجع اللوم فى الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة فى الليل والنهار ، فبذلك يعلم أن اللوم والسب يعود إلى مقدرها وموجدها ، وهو الله - تعالى - خالق كل شئ ، فليحذر المسلم من مجازات هؤلاء الذين سلكوا طريق أهل الجهل من الكفار ، وغيرهم ، فى القدح فى أفعال الله تعالى ، وسخط أقداره وتدبيراته .

قال ابن الجوزى - رحمه الله - تعالى - : « ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان ، وعيهم للدهر ، وقد كان هذا فى الجاهلية ، ثم نهى رسول الله ﷺ عنه ، فقال : لاتسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » (٢)

(١) سيأتى هذا فى باب قول الله « يريدون أن يبدلوا كلام الله » .

(٢) رواه مسلم فى الألفاظ من الأدب وغيره ج ٤ ص ١٧٦٢ رقم الحديث

٢٢٤٦ وله عدة طرق عنده .

ومعناه : أتم تسبون من فرّق شملكم ، وأمات أهليكم ، وتنسبونهم إلى الدهر ، والله - تعالى - هو الفاعل لذلك .

وهؤلاء إن أوردوا بالدهر ، مرور الزمان ، فذلك لا اختيار له ، ولا مراد ، ولا يعرف رشداً من ضلال ، ولا ينبغي أن يلام ، فإنه زمان مدبر ، ولا يعقل أن يكون ذم هؤلاء يقصد به الزمان الذى لا تصرف له ، فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربة الإسلام ، ونسبوا القبائح إلى الله - تعالى - فاعتقدوا قصور حكمته ، وأنه يفعل مالا يصلح كما اعتقده إبليس فى تفضيل آدم ، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا الزيغ اعتقاد إسلام ، ولا فعل صلاة ، بل هم شر من الكفار » (١)

قلت : أكثر هؤلاء من الشعراء والأدباء لا يقصدون نسبة القبائح إلى الله - تعالى - من الجور والظلم ، وإنما ساروا فى ذلك على سبيل المتابعة لأهل الجاهلية والتقليد ، بدون تبصر لذلك . والله أعلم .

وكذلك يؤذى ابن آدم ربه بمخالفته أوامره تعالى - وارتكابه نهيهِ ، والإصرار على ذلك ، وأذية رسله ، وأوليائه ، وعباده الصالحين ، بعيبيهم ، وتنقصهم ، كما فى مسند الإمام أحمد ، من حديث عبد الله بن مغفل المزنى - رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « الله ، الله ، فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم ، فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم ، فقد آذانى ، ومن آذانى ، فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » (٢) .

وقد قال الله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً) (٣) .

(١) صيد الخاطر ص ٤٩٠ باختصار وتصرف يسير .

(٢) المسند ج ٤ ص ٨٧ .

(٣) الآية ٥٧ من سورة الأحزاب .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى : « أى الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه ،
وركوبهم ما حرم عليهم » (١) .

وفي قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » دليل واضح على
تسميته تعالى بذلك ، أعنى « الصبور » كما جاء فى حديث الأسماء الحسنى .
قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « فقد أطلق عليه - تعالى - أعرف الخلق
به ، وأعظمهم تنزيها له - هذه الصفة : وما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » ،
كما أن ما ورد فى الأسماء الحسنى « الصبور » من أمثلة المبالغة ، فهو أبلغ من
« الصابر » والصابر .

ومعنى الصبر معلوم فى اللغاة ، والشرع ، والعرف ، فلنسا بحاجة إلى
تأويلات المتكلمين ، التى تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب .

وصبر الله - تعالى - لا يماثل صبر المخلوق ، بل يختلف عنه من وجوه .
منها : أنه عن قدرة تامة .

ومنها : أنه لا يخاف الفوت ، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت .

ومنها : أنه - تعالى - لا يلحقه بصبره ألم ، ولا حزن ، ولانقص بوجه من
الوجوه .

وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود فى العالم بالعيان ، كظهور اسمه -
تعالى - الحليم .

والفرق بين الصبر والحلم : أن الصبر ثمرة الحلم ، وموجبه ، والحلم فى
صفاته تعالى - أوسع من الصبر ، ولهذا جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، وجاء
مقرونا مع اسمه العليم ، كقوله تعالى - : (وكان الله عليما حليما) (٢) ، وقوله -
تعالى : (والله عليم حليم) (٣) ، وحلمه تعالى من لوازم ذاته .

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٤٤ .

(٢) الآية ٥١ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية ١٢ من سورة النساء . وقد جاء اقترانه باسمه الغفور فى مواضع عدة =

وأما صبره - تعالى - فمتعلق بكفر عباده ، وشركهم ، ومسيبتهم له -
تعالى - وتقدس - وسائر معاصيهم ، وفجورهم ، فلا يدعوه ذلك إلى تعجيل
عذابهم ، بل يصبر عليهم ويمهلهم ، ويرفق بهم ، ويستصلحهم بحلمه وصبره
ونعمه ، حتى إذا لم يبق فيهم موضع للصنيعة ولا يصلحون على الإمهال ، ولم
ينبوا إليه ، لامن باب الإحسان والنعم ، ولا من باب البلاء والنقم أخذهم أخذ
عزيز مقتدر ، بعد غاية الإعذار إليهم ، وبذل النصيحة لهم ، ودعاءهم من كل
باب .

وهذا كله من موجبات صفة حلمه ، وهي صفة ذاتية له لاتزول .
وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة
وتزول بزوالها ، فتأمله ، فإنه فرق لطيف قل من تنبه له .
وقد أشكل على كثير من العلماء مجيء هذا الاسم في أسماء الله الحسنى ،
وقالوا : لم يأت في القرآن ، فأعرضوا عن الاشتغال به .
ولو أنهم أعطوه حقه لعلموا أن الرب - تعالى - أحق به من جميع خلقه ،
كما هو أحق باسم العليم ، والرحيم ، والقدير ، والسميع ، وسائر أسمائه الحسنى
من المخلوقين ، وأن التفاوت الذي بين صبره - تعالى - وبين صبرهم كالتفاوت
الذي بين حياته وحياتهم ، وعلمه وعلمهم ، وهذا في سائر صفاته - تعالى -
ولهذا قال أعرف خلقه به : « لا أحد أصبر على أذى ، سمعه من الله » تعالى -
فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته ، وعفوه وستره ، مع أنه صبر
مع كمال علم وقدر ، وعظمة وعزة ، وهو صبر على أعظم مصبور عليه ، فإن
مقابلة أعظم العظماء ، وملك الملوك ، وأكرم الأكرمين ، ومن إحسانه فوق كل
إحسان - بغاية القبح ، وأعظم الفجور ، وأفحش الفواحش ، ونسبته تعالى إلى
كل مالا يليق به ، والقدح في كماله ، وفي أسمائه وصفاته ، والإلحاد في آياته ،
وتكذيب رسله - عليهم السلام - ومقابلتهم بالسب والشتم ، والأذى وتحريق
أوليائه ، وقتلهم وإهانتهم . أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه ،
ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه وتعالى .

= من القرآن كقوله تعالى : (ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حلیم) ١٥٥ آل عمران .

ومما يعين على معرفة صبره - تعالى - وحلمه ، والفرق بينهما ، تأمل قوله تعالى : (إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً) (١) وقوله - تعالى - : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً) (٢) وقوله - تعالى : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) (٣) . على قراءة فتح اللام .

فأخبر تعالى أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض ، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر ، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه .

وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال ، لعظم ما يأتى به العباد ، فيمسكهما بحلمه ، ومغفرته ، وذلك حبس عقوبته عنهم ، وهو حقيقة صبره - تعالى .

فالذى صدر عنه الإمساك ، هو صفة الحلم ، والإمساك هو الصبر ، وهو حبس العقوبة ، ففرق بين حبس العقوبة ، وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله « (٤) .

قال ابن المنير : « وجه مطابقة الحديث للآية (٥) اشتماله على صفتي الرزق والقوة الدالة على القدرة ، أما الرزق ، فواضح من قوله : « ويرزقهم » ، وأما القوة فمن قوله : « أصبر » فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم ، مع إساءتهم بخلاف طبع البشر ، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسيء إلا من جهة تكلفه

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر .

(٢) الآيات من ٨٨ إلى ٩٢ من سورة مريم .

(٣) الآية ٤٦ من سورة إبراهيم .

(٤) عدة الصابرين ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥) في الفتح : مطابقة الآية للحديث - والمناسب ما أثبتته .

ذلك شرعا ، وسبب ذلك أن خوف القوت يحمله على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة ، والله سبحانه قادر على ذلك حالا ، ومآلا ، لا يعجزه شيء ولا يفوته « (١) .

قلت : ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط ، بل ولأنه لا يستطيعه ولا يتحملة ، لأن ذلك يضره في نفسه أو غير ذلك .

والذى يظهر أن ما أراده البخارى - رحمه الله - من الحديث ، هو البيان بأن الله تعالى مسمى بالأسماء الحسنى ، ومتصف بالصفات العليا حقيقة على ما يليق به تعالى ، وعلى ما يفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة - الذى أطلقه تعالى على نفسه أو أطلقه عليه رسوله ، دون تكلف تأويل ، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم ، أو متفلسف كما بين ذلك قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافيم ويرزقهم » فهذا هو حقيقة الصبر المعروف من اللغة ، ونصوص الشرع فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التى تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ ، ودل قوله : « ثم يعافيم ، ويرزقهم » على فضله على عباده بالعافية والرزق ، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه ، فهو الذى هيا أسبابه ويسر طرقه .

وقوله : « ثم يعافيم ويرزقهم » أى أنه تعالى يقابل إساءتهم بالإحسان ، فهم يسيئون إليه - تعالى - بالعيب والسب ، ودعوى ما يتعالى عنه ويتقدس ، وتكذيب رسله ومخالفة أمره وفعل ما نهاهم عن فعله ، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم ، وشفاءهم من أسقامهم ، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم ، ويرزقهم بتسخير ما فى السماوات والأرض لهم ، وهذا غاية الصبر والحلم ، والإحسان ، والله أعلم .

قال : « باب قول الله - تعالى - : (عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا) (١) و (إن الله عنده علم الساعة) (٢) و (أنزله بعلمه) (٣) وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) (٤) (إليه يرد علم الساعة) (٥) .

* * *

أراد البخارى رحمه الله بيان ثبوت علم الله - تعالى - وعلمه تعالى من لوازم نفسه المقدسة ، وبراهين علمه تعالى ظاهرة مشاهدة فى خلقه ، وشرعه ، ومعلوم عند كل عاقل أن الخلق يستلزم الإرادة ، ولا بد للإرادة من العلم بالمراد ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (٦)

والخالق هو : المبدع بتقدير سابق الوجود فى الخارج ، وهذا يتضمن تقدير المخلوقات فى العلم قبل إيجادها فى الخارج ، وهو أيضا يستلزم الإرادة والمشئقة ، والإرادة مستلزمة تصور المراد والعلم به .

ووصف نفسه تعالى فى هذه الآية بأنه (لطيف) يدرك الدقيق ، (خبير) يدرك الخفى .

والأدلة على وصف الله بالعلم كثيرة ، ولا ينكرها إلا ضال أو معاند مكابر . وفى هذه الآيات التى ذكرها البخارى مدح الله سبحانه وتعالى فيها نفسه

(١) سورة الجن الآية ٢٦ .

(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٣) جزء من الآية ١٦٦ من سورة النساء .

(٤) الآية ١١ من سورة فاطر والآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٦) الآية ١٤ من سورة الملك .

بأنه عالم الغيب ، وأنه استأثر به دون خلقه ، فكان ذلك دليلا على أنه لا يعلم الغيب سواه ، فعلمه تعالى وسع كل شيء في الماضي ، والمستقبل ، والحال . وفي الآية الأولى استثنى تعالى من ارتضاه من رسله ، فأطلعهم على ما يشاء من غيبه ، عن طريق الوحي إليهم ، وأعلامهم به ، وجعل ذلك معجزة لهم ، ودليلا على نبوتهم وصدقهم .

وليس المنجم والكاهن ، ومن ضاهاهما كالضارب بالحصى ، والناظر في الكتب والأكف ، وما أشبه ذلك ممن ارتضاه الله من الرسل ، حتى يطلعهم على ما يشاء من الغيوب ، بل هم مفترون على الله ، يصطادون أموال الجهلة من الناس بالتليس والحسد والتخمين الكاذب والادعاء الفارغ .

« والغيب » مصدر غاب ، إذا استتر عن العين ، قال تعالى : (أم كان من الغائبين) ^(١) واستعمل في كل غائب عن الحاسة ، وعما يغيب عن علم الإنسان ، قال تعالى : (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) ^(٢) ويقال للشيء : غيب ، وغائب باعتبار تعلقه بالناس .

أما الله تعالى فإنه لا يغيب عنه شيء ، وقوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) ^(٣) أى ما يغيب عنكم ، وما تشهدونه ، والغيب في قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) ^(٤) مالا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بدائه العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام ^(٥) .

(١) الآية ٢٠ من سورة النمل .

(٢) الآية ٧٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٣ من سورة البقرة .

(٥) المفردات للراغب ص ٣٦٦ .

وقوله : « عالم الغيب » قال الحلیمی : معناه أنه يدرك الأشياء على ما هي عليه ، وإنما وجب أن يوصف - عز اسمه - لأنه قد ثبت أن ماعده من الموجودات فعل له ، وأنه لا يمكن أن يكون فعل إلا باختيار ، وإرادة ، والفعل على هذا الوجه لا يظهر إلا من عالم ، كما لا يظهر إلا من حي » (١) .

فقوله : « عالم الغيب » أى المختص بعلم الغيب ، فلا يشاركه فيه أحد .

قال ابن جرير : عالم ما غاب عن أبصار خلقه ، فلم يروه ، « فلا يظهر على غيبه » أحدا فيعلمه أو يريه إياه إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يظهره على ما شاء من ذلك » (٢)

وقال القسطلاني : « عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه إلا من ارتضى من رسول لاطلاعه على بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له » (٣)

وقوله : و « إن الله عنده علم الساعة » الواو ليست من الآية وإنما جاء بها للعطف .

والمعنى : أن علم وقت مجيء الساعة - الذى هو النفخ فى الصور - لا يعلمه إلا الله تعالى ، وحده ، فهو خاص به تعالى لا يشاركه فيه أحد .

قال الخازن : « ومعنى الآية ، أن الله عنده علم الساعة ، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم ، فى أى سنة ، أو أى شهر ، أو أى يوم ، ليلا أو نهارا » (٤)

وقوله : « أنزله بعلمه » أى أنزل القرآن عالما بما يترتب على إنزاله من الخير

(١) المنهاج ج ١ ص ١٩١ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١٢١ .

(٣) إرشاد السارى ج ١٠ ص ٣٦٣ .

(٤) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٠ .

والفلاح وغير ذلك ، وعالما بمن يؤمن به ويقبله ، ويسعد بذلك ، ومن يكفر به ويرده ويشقى بذلك .

أو المعنى : أنزله فيه علمه الذى أراد أن يطلع عليه من يشاء من عباده من الإيمان به ، ومعرفة تعالى بأسمائه وصفاته ، وما رتب على ذلك من الجزاء فى الدنيا والآخرة ، ومعرفة حقه ، وأمره ونهيه ، والآية تدل على كلا المعنيين .

وقال ابن الجوزى : « فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنزله وفيه علمه ، قاله الزجاج .

الثانى : أنزله من علمه ، ذكره أبو سليمان الدمشقى .

الثالث : أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه ، قاله ابن جرير ^(١) .

وقال الخازن : « يعنى أنه تعالى لما قال : لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، بين صفة ذلك الإنزال ، وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام ، وحكمة بالغة .

وقيل معناه : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك ، وأنتك مبلغه إلى عباده » ^(٢)

وقال ابن كثير : « أنزله بعلمه » أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه ، من البينات والهدى ، والفرقان ، وما يحبه ويرضاه ، وما يكره ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب ، من الماضى والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما يشاء) ، وقال تعالى : (ولا يحيطون به علما) ^(٣)

(١) زاد المسير ج ٢ ص ٢٥٧ ، وانظر تفسير الطبرى ج ٦ ص ٣١ .

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٨ .

قوله : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) اقتصر البخارى - رحمه الله تعالى على محل الشاهد من الآية ، وتامها :

(والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من مُعَمَّرٍ ، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير) (١) يخبر تعالى العباد بأنه ابتداء خلقهم بخلق أبيهم آدم من تراب ، ثم جعل خلق ذريته من نطفة - من ماء مهين - وجعلهم أزواجا أى ذكرا وأنثى رحمة منه تعالى ولطفاً ، ثم أخبر تعالى أنه عالم بأطوار خلقهم ، لا يخفى عليه شيء من مبدأه ، ووضعه ، ونوعه ، وعمره وعمله ، وزيادة عمره ، ونقصانه ، وأن ذلك عنده فى كتاب ، وهو سهل عليه يسير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ففى هذه الآية بيان شمول علمه تعالى لكل شيء ، فلا تكون حياة ، ولا موت ، ولا حركة ، ولا سكون إلا بعلمه وتصريفه ومشيئته .

قوله : « إليه يرد علم الساعة » أى هو تعالى المختص بعلم الساعة أى وقت مجيئها .

قال ابن جرير - رحمه الله - تعالى - : « إلى الله يرد العالمون به علم الساعة ، فإنه لا يعلم قيامها غيره » (٢) .

ففى هذه الآيات ونحوها دلالة ظاهرة على ثبوت صفة العلم لله ، بحيث لا ينكر ذلك إلا معاند مكابر يجادل بالباطل ، ليدحض به الحق ، أو جاهل قد تنهى جهله ، ومن أوجه البيان فى ذلك أنه تعالى أضاف العلم إلى نفسه الكريمة إضافة حقيقة ، والمضاف إلى الله تعالى إما أن يكون أعيانا قائمة بنفسها كبيت

(١) الآية ١١ من سورة فاطر وقال - تعالى : (إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) الآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٥ ص ٢ .

الله ، وناقة الله ، ورسول الله ، وعرش الرحمن ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع من إضافة المخلوق إلى خالقه ، لتفضيلها على غيرها من المخلوقات .

وإما إضافة معان كعلم الله وقدره الله ، وحياة الله ، وسمع الله وبصره ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع لا يكون الإضافة صفة إلى من تقوم به لأنها لا تقوم بأنفسها كما هو معلوم .

ومراد البخارى - رحمه الله - فى إرادته هذه الآيات إثبات هذه الصفة لله - تعالى - والرد على من ينكرها من المعتزلة ، ونحوهم ممن عميت بصائرهم ، فابتعدوا عن الحق ، مغترين بعقولهم .

قوله : قال يحيى : « الظاهر على كل شىء علما ، والباطن على كل شىء علما » .

قال الحافظ : « يحيى هو ابن زياد الفراء النحوى المشهور ، ذكر ذلك فى كتاب « معانى القرآن له » (١)

قلت : هو يحيى بن زياد بن عبد الله ، بن مروان الديلمى ، أبو زكريا المعروف بالفراء إمام العربية ، وصفه مترجموه بأنه متدينا ورعا ، وكان ثقة ، له مصنفات كثيرة ، ضاع أكثرها ، توفى سنة ٢٠٧ سبيع ومأتين .

وقول الفراء هذا ، جزء من معنى هذين الاسمين الكريمين ، وقد كان من عادة السلف أنهم يفسرون الشىء بجزء من معناه . وإلا فهو تعالى الظاهر على كل شىء ذاتا ، وقوة وقهرا ، وعلما وحكما ، والباطن على كل شىء إحاطة وقربا وعلما ، وقد صح عن رسول الله ﷺ كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ - أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٦٢ ، وانظر معانى القرآن للفراء ج ٣ ص ١٣٢ .

شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ » (١) .

فهذا أحسن ما يفسر به هذه الأسماء ، وأوضحه ، وأقربه إلى معنى الكلام مع كونه من المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، فلا ينبغي العدول عنه إلى كلام الناس ، الذى هو عرضة للخطأ .

★ ★ ★

(١) انظر مسلم ج ٤ ص ٢٠٨٤ رقم ٦١ .

٩ — قوله : « حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ - قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ماتغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم مافى غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى »

* * *

ابن عمر : هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل ، القرشى ، العدوى . وأمه : زينب بنت مظعون الجمحية ، ولد سنة ثلاث من البعثة النبوية ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن عشر سنين ، وأول مشاهدته مع رسول الله ﷺ - الخندق ، وكان من سادات الصحابة ، وعبّادهم المجدين ، وهو من المكثرين فى الحديث عن رسول الله ﷺ - ، عرف بالعزوف عن الدنيا ، والاستعداد للآخرة ، كما عرف بشدة تمسكه بسنة رسول الله ﷺ - ، وتتبع آثاره . له فى الصحيحين مائتان وثمانون حديثا . توفى سنة ثلاث وسبعين فى مكة ، وقد بلغ من العمر سبعا وثمانين سنة رضى الله عنه (١)

« قوله : « مفاتيح الغيب » ذكر البخارى هذا الحديث فى الاستسقاء بلفظ « مفتاح » وفى بعض النسخ « مفاتيح » وفى تفسير سورة الأنعام ، وسورة الرعد بلفظ « مفاتيح » وفى بعض النسخ « مفاتيح » .

والمفاتيح جمع مفتاح ، بكسر الميم ، اسم الآلة التى يفتح بها ، مثل منجل ، ومناجل . وهى لغة قليلة ، والمشهور : مفتاح ، وجمعه « مفاتيح » ، وقد قرأ بها .

(١) الإصابة ج ٤ ص ١٨١ والرياض النظرة ص ١٩٤ .

ابن السميع ، ويطلق المفتاح على ما كان محسوسا مما يحل غلقا ، كالقفل ، وعلى ما كان معنويا ، كما جاء في الحديث الذى صححه ابن حبان : « إن من الناس مفاتيح للخير » الخ (١) .

قوله : « مفاتيح الغيب خمس ، لا يعلمها إلا الله » . قد بين هذه الخمس ، بأنها : ما يغيض من الأرحام - أى ما ينقص - ، وما يكون فى الغد من الحوادث ، والأعمال ، وغيرها ، ومجىء المطر ، والمكان الذى يموت به الإنسان ؛ ووقت مجىء الساعة .

وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح . لتقريب الأمر من السامع ، لأن كل شئ جعل بينك وبينه حجاب ، فقد غيب عنك ، والتوصل إلى معرفته فى العادة من باب الحجاب ، فإذا كان المفتاح الذى لا يمكن الوصول إلى ما فى داخل الحجاب إلا بمعرفته لا يعلم ، فكيف بما فى داخل الحجاب ؟ .

ودل الحديث على أن هذه الأمور ليست هى الغيب ، وإنما هى منه ؛ وأن علم الغيب من خصائص الله تعالى .

وأما ماجاء عن الأنبياء من الأخبار ببعض المغيبات ، كماخبر الرسول - ﷺ - بما يقع بعده من الفتن ؛ والفتوح على أمته ؛ وبعض أشراف الساعة ، وكماخبر عيسى عليه السلام - بما يأكله بنو إسرائيل ، ومايدخرونه فى بيوتهم ، ونحو ذلك ، فإن هذا مما استثناه الله تعالى بقوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربه) (٢) ، وهو من معجزاتهم التى تدل على صدقهم .

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٢٩١ .

(٢) الآية من ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .

وبهذا ، وغيره يتبين ضلال الذين يزعمون أن فريقا من الناس ممن يدعون لهم الولاية . أنهم يعلمون الغيب ، وكذا الذين يدعون ذلك لرسول الله - ﷺ - فإنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ، وقد أمره الله أن يعلم الناس أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى : (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون) (١) فنفى تعالى علم الغيب عن الخلق عموما من في السماوات كالملائكة ، ومن في الأرض كالأنبياء ، فكيف يدعى علم ذلك لغيرهم .

وأما أصحاب الدجل والتمويه ، الذين يحتالون على اكل أموال الناس بالباطل ، كالذين يزعمون معرفة ما في المستقبل ، بواسطة النجوم ، أو بقراءة الكف ، أو فنجان القهوة ، ونحو ذلك . فهؤلاء لا يخفى ضلالهم ، وكذبهم إلا على أجهل الناس ، والمغفلين منهم .

وأما الإخبار عما يسمى « بالطقس » أحوال الجو من أمطار ، أو رياح أو غيوم أو صحو أو غير ذلك ، فهي توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مراصد الأحوال الجوية التي تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك ، ولهذا كثيرا ما يكون الأمر على خلاف ما قالوا .

« وأراد بالغيب في الحديث المذكور ، الغيب الحقيقي ، إذ لبعض الغيوب علامات ومقدمات يستدل بها على شيء من ذلك ، وهذا ليس غيبا حقيقيا ؛ فالغيب الحقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى .

ثم الغيب نوعان : أحدهما ما يتعلق بذات الله تعالى وحقائق صفاته . والثاني يتعلق بمخلوقاته ، وهي كلها لديه معلومة ، وقد قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (٢) .

(١) الآية ٦٥ من سورة النمل .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

فلما كان كل شيء محصى في كتاب كتبه الله تعالى عنده ، وعلمه محيط وسابق لكل شيء ، شبه الرسول - ﷺ - ذلك بالمخازن التي لها أبواب ، والباب له مفتاح ، فإذا كان المفتاح لا يعلمه أحد ولا يصل إليه ، فكيف بما وراءه ؟ .
وقد قال تعالى : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (١) وحصر - ﷺ - مفاتيح الغيب بالخمس لأنها تشمل العوالم كلها .

فقوله : « ما تغيض الأرحام » إشارة إلى ما يزيد في النفوس ، وما ينقص منها ؛ وذكر الأرحام لأن للناس عليها عوائد يعرفونها ؛ وتجارب أدركوها . وقد قرر عليها أحكام شرعية ، ومع ذلك لا يعلم حقيقتها ، ومتى تزيد ومتى تنقص إلا الله تعالى ، فغيرها مما هو أخفى أولى بأن لا يعلمه الخلق .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله تعالى » إلى أمور العالم العلوى ، فذكر منه المطر لأن له مقدمات ، وعلامات يستدل بها عليه عادة ، أجراها الله تعالى ، ومع ذلك لا يعلم حقيقة الحال إلا الله تعالى - فكيف بما وراء ذلك مما في السماوات ، وما بينهما ، وما يجد هناك من المخلوقات ، والحوادث ، والأوامر التي يريدتها الله - تعالى - ويأمر بها ؟ .

وأشار بقوله : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » إلى الحوادث الأرضية ، وذكر موضع الموت من الأرض ، مع أن العادة قد جرت في الغالب أن الإنسان يموت في الأرض التي يستقر فيها ؛ ومع ذلك لا أحد يتيقن أنه يموت في مكانه الذي يعيش فيه ، ولا يدري أين موضعه الذي يوارى فيه .

فإذا كان الأمر في مثل هذا غير معلوم ، فكيف بالأمور الأخرى التي لا علامات لها ، ولا مقدمات يستدل بها عليها ؟ .

(١) الآية ٢١ من سورة الحجر .

وأشار بقوله : « ولا يعلم ما في غد إلا الله » إلى أنواع الزمان ، وما فيه من الحوادث والتقلبات الطارئة ، وخص منه غداً لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب ، فإذا خفى ما فيه فما بعده أخفى ، وأبعد عن معرفته .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » إلى أمور الدار الآخرة . وذكر منها يوم القيامة لأنه أولها وأقربها إلى الدنيا ، ولا يعلم وقت مجيئه إلا الله ، فما بعده أولى بأن لا يعلم ، فهذا من أبداع الكلام ، وأبلغه ، فقد حصر فيه جميع أنواع الغيوب ، وأبطل جميع الدعاوى الفاسدة ^(١) .

ويقصد بالدعاوى الفاسدة كل من يدعى شيئاً في علم الغيب ، وهذا الحديث إيضاح لقوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) ^(٢) .

(١) انتهى ملخصاً من بهجة النفوس ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

١٥ - « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة - رضی الله عنها - قالت : من حدثك أن محمداً - ﷺ - رأى ربه فقد كذب ، وهو يقول : لا تدركه الأبصار ، ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول : « لا يعلم الغيب إلا الله » .

* * *

« كأن سبب هذا القول من عائشة - رضی الله عنها - ما أخرجه عبد الرزاق في هذا الحديث من طريق مجالد عن الشعبي ، قال : لقي ابن عباس كعباً ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم نقول : إن محمداً رأى ربه مرتين ، فكبر كعب ، وقال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد ، فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين ، قال مسروق : فدخلت على عائشة ، فقلت : هل رأى محمد ربه « ؟ فذكر الحديث .

قال النووي - تبعاً لغيره - : لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع ، ولو كان معها لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية ، وقد خالفها غيرها من الصحابة ، والصحابي إذا قال قولاً ، وخالفه غيره منهم ، لم يكن ذلك حجة اتفاقاً .

والمراد بالإدراك : الإحاطة ، وهو لا ينافي الرؤية .

وهذا عجيب من النووي رحمه الله - فإن في صحيح مسلم الذي شرحه هو : « قال مسروق وكنت متكئاً ، فجلست فقلت : ألم يقل الله : (ولقد رآه نزلة أخرى) (١) » ؟

(١) الآية ١٣ من سورة النجم .

فقلت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله - ﷺ - عن ذلك ، فقال : إنما هو جبريل .

وأخرجه ابن مردويه بسند مسلم . فقلت : « أنا أول من سأل رسول الله ﷺ - عن هذا . فقلت : يارسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لا ، إنما رأيت جبريل منهبطا » (١)

قلت : أعجب من كلام النووى ما قاله ابن خزيمة - رحمه الله - فإنه ذكر هذا الحديث بعينه - أعنى قول عائشة : « أنا سألت رسول الله - ﷺ - عن هذا قال : رأيت جبريل نزل فى الأفق ، على خلقه ، وهيمته ، ساداً ما بين الأفق » ثم بعد أسطر قال : « إن عائشة لم تحك أن النبى ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه » (٢) فهذا ونحوه هو الذى غير النووى - رحمه الله - ودعاها إلى رد قول عائشة من غير تأمل للأدلة ؛ والله المستعان .

وكثير من العلماء يذكر الخلاف فى أن النبى ﷺ - رأى ربه ليلة - المعراج . « وليس فى الأدلة ما يقضى بأنه رآه بعينه ، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة صريحاً ، ولا فى الكتاب والسنة ما يدل على ذلك ، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل ، كما فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، قال : سألت رسول - الله ﷺ - هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » (٣)

وقد قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) . ولو كان قد رأى ربه بعينه لكان ذكر ذلك أولى ، وكذلك قوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٤) . لو كان رآه لكان ذكر ذلك أولى .

(١) الفتح ج ٨ ص ٦٠٧ .

(٢) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٢٢٦ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٢ بشرح النووى .

(٤) الآية ١٨ من سورة النجم .

وفي الصحيحين ، عن ابن عباس ، في قوله - تعالى - : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن) (١) قال : هي رؤيا عين ، أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسرى به ، وهذه رؤيا الآيات ، لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج ، فكان ذلك فتنة لهم ، حيث صدقه قوم ، وكذبه قوم ، ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه ، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك ، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه « ١ هـ (٢) »

وبهذا تبين أن قول عائشة - رضی الله عنها - هو الراجح ، الذي تؤيده الأدلة والله أعلم ، وظاهر أن مرادها أنه تعالى لا يرى في الدنيا .

قوله : « وهو يقول : ولا تدركه الأبصار » استدلت عائشة - رضی الله عنها - بظاهر الآية على نفي الرؤية ، وقد قال بذلك بعض المفسرين ، كما رواه ابن جرير بسنده ، عن السدي ، قال : « لا يراه شيء ، وهو يرى الخلائق » (٣) .
وذكر ابن كثير ما رواه ابن أبي حاتم بسنده إلى إسماعيل بن علي أنه قال : « هذا في الدنيا ، وعن هشام بن عبيد الله نحوه (٤) » .

وذكر السيوطي : أن الحسن قال مثل ذلك ، قال : أخرجه أبو الشيخ ، والبيهقي في كتاب الرؤية . (٥)

وبهذه الآية تعلق المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى في الآخرة ، ووجه ذلك أنه جعل متعلق الإدراك البصر ، فلما نفاه عنه كان ظاهر ذلك نفي الرؤية . والحق ثبوت رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة ، كما تواترت النصوص في ذلك .

(١) سورة الإسراء الآية ٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٥٨٠ .

(٣) انظر تفسير الطبري ج ٧ ص ٣٠١ قال السيوطي : أخرجه ابن أبي حاتم .

الدر المنثور ج ٣ ص ٣٣٥ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٥) الدر المنثور ج ٣ ص ٣٣٥ .

والجواب عما استدلووا به : أن الرؤية ثبتت في آيات أخر ، كقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (١) ، وقوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) (٢) والأخبار بذلك ثابتة عن رسول الله - ﷺ - بل متواترة ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

فيتعين أن المراد بالإدراك المنفى في الآية هو الإحاطة . وبذلك فسره ابن عباس - رضى الله عنه - وغيره من السلف .

قوله : « ومن حدثك ، أنه يعلم الغيب فقد كذب ، وهو يقول : ولا يعلم الغيب إلا الله » الضمير في قوله : « أنه يعلم » يعود على محمد - ﷺ - أى من زعم أن محمداً - ﷺ - يعلم الغيب ، فقد كذب ، لأن علم الغيب يختص بالله تعالى . كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ وأمرأ له أن يقول : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) (٣) والآيات في هذا كثيرة .

وعلم الغيب من خصائص الرب تعالى التى بعث رسله وأنزل كتبه لبيانها ، ونفى ذلك عن سواه تعالى .

وأما قوله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) (٤) فهى كقوله تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٥) فهى تبين أن الله تعالى يطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات ، وذلك بوحيه إليهم ، مثل إخباره عما جرى من الأمم الماضية ، وما أصيبوا به من

(١) الآية ٢٢ من سورة القيامة .

(٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .

(٣) الآية ٥٠ من سورة الانعام .

(٤) الآية ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

(٥) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

العذاب وغيره ، كما قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) (١) وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد ، والجنة والنار ، التي أطلع الله عليها رسوله فأمن بها المؤمنون ، وعرفوها من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ﷺ إجمالاً .

وأما الإحاطة بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ما كان منها ، وما يكون . فهذا إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من الخلق ، فمن ادعى شيئاً من ذلك لغير الله تعالى ، فقد أعظم الفرية على الله تعالى ، وعلى رسوله ﷺ .

« فعلم الغيب لله وحده ، ولا يقال لغيره عالم الغيب ، ومن أطلع على شيء منه بواسطة الوحي أو غيره يقال : أطلعه الله عليه ، كالإخبار عن حال البرزخ ، والحساب ، والجنة والنار ، وما أشبه ذلك ، وما يدعيه المتصوفة في مشايخهم هو من تلاعب الشيطان بهم ، وكذا ما يسمونه الكشوف لا أصل له » اهـ (٢)

« وقول الداودي : (ما أظن قوله : من حدثك أن محمداً يعلم الغيب محفوظاً ، وما أحد يدعي أن رسول الله ﷺ يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى) متعقب بأن بعض من لم يرسخ إيمانه يظن ذلك ، حتى ظن بعضهم أن صحة النبوة تستلزم اطلاع النبي ﷺ على جميع المغيبات ، كما في مغازي ابن إسحاق ، أن ناقة النبي ﷺ ضلت ، فقال ابن الصلبي : يزعم محمد أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته ، فقال النبي ﷺ : « إن رجلاً يقول : كذا وكذا ، إني والله لا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دنى الله عليها ، وهي في شعب كذا ، قد حبستها شجرة ، فذهبوا فجاءوا بها » فأخبر ﷺ أنه

(١) الآية ٤٩ من سورة هود عليه السلام .

(٢) غاية الأمان بتصرف / ح ١ / ص ٣٤ .

لا يعلم من الغيب إلا ما علّمه الله « (١)

قلت : قد ادعى كثير من المتصوفة ، والغلاة أن مشايخهم ومعبودهم من دون الله تعالى ، يعلمون الغيوب وكتبهم مشحونة بذلك مثل الطبقات الكبرى للشعراني ، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ، وغيرهما من الكتب الخرافية

★ ★ ★

(١) القسطلاني بعض التصرف ج ١٠ / ص ٣٦٥ .

قال : باب قول الله تعالى : (السلام المؤمن)

* * *

أي أن ذلك من أسماء الله تعالى التي سمي بها نفسه ، ومعناه :
السلام من كل نقص وعيب . وسيأتى بيان ذلك

(قال ابن بطال : غرضه بهذا الباب إثبات أسماء من أسماء الله تعالى ،
قال الحافظ : وفيما ذكره نظر ، ولو سلم له ذلك ، فإن وظيفة الشارح بيان وجه
تخصيص هذه الأسماء بالذكر ^(١) دون غيرها ، وإفرادها بالترجمة ، ويمكن أنه أراد
بهذا القدر جميع الآيات الثلاث ، في آخر سورة الحشر ، فإنها ختمت بقوله
تعالى : (له الأسماء الحسنى) .

وقد قال في سورة الأعراف : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ^(٢) وكأنه
رحمه الله تعالى بعد إثبات القدرة ، والقوة ، والعلم ، أشار إلى أن الصفات
السمعية ليست محصورة في عدد معين ، بدليل الآية المذكورة ^(٣)

أو أراد الإشارة إلى ذكر الأسماء التي تسمى الله تعالى بها ، وأطلقت بعد
ذلك على المخلوقين ، والسلام ثبت في القرآن ^(٤) وفي الحديث « أنه من أسماء الله
تعالى » .

(١) يعني أنه قصر في بيان وجه إيراد البخارى هذين الإسمين من بين الأسماء
الأخرى .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) هي قوله تعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

(٤) كما في الآية المترجم بها .

وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين .

والمؤمن يطلق على من اتصف بالإيمان ، وقد وقعا معاً من غير تخلل بينهما في الآية المشار إليها ، فناسب أن يذكرهما في ترجمة واحدة (أ . هـ (١)

قلت : ما ذكره من أن السلام أطلق على المخلوقين ، كالتحية الواقعة بين المؤمنين غير ظاهر ، لأن السلام الذى جعل تحية للمؤمنين اسم من أسماء الله تعالى ، كما رواه البخارى - رحمه الله تعالى - فى الأدب المفرد ، من حديث أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله فى الأرض ، فافشوا السلام بينكم » (٢) وإسناده صحيح ، وترجم به البخارى فى الصحيح فقال : [باب السلام اسم من أسماء الله تعالى] (٣)

وفى حديث عبد الله بن مسعود المتفق عليه « إن الله هو السلام فإذا جلس أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات لله » وسيدكره فى الباب . وقال ابن عباس : « السلام اسم الله وهو تحية أهل الجنة » أخرجه البيهقى فى الشعب (٤) ويدل على ذلك حديث المهاجر بن قنفذ ، لما سلم على النبى ﷺ لم يرد حتى توضع ، وقال : « إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر » رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه (٥)

قال الحافظ : صححه ابن خزيمة وغيره (٦) .

(١) فتح البارى ج ١٣ / ص ٣٦٦ .

(٢) الأدب المفرد ص ٣٤٣ .

(٣) انظر الفتح ج ١١ / ص ١٣ .

(٤) انظر الفتح ج ١١ / ص ١٢ .

(٥) انظر سنن أبى داود ج ١ / ص ٢٣ الحديث السابع عشر ، النسائى ج ١ /

ص ٣٧ ، ابن ماجه رقم ٣٥٠ .

(٦) انظر الفتح ج ١١ / ص ١٣ .

قال الخطابي « وفيه دليل على أن السلام الذى يحيى به الناس بعضهم بعضاً اسم من أسماء الله تعالى » (١)

وقد اختلف فى معناه . فنقل عياض أن معناه : اسم الله أي كلاءته عليك وحفظه كما يقال : الله معك ومصاحبك .

وقيل : معناه : أن اسم الله يذكر على الأعمال ، توقعاً لاجتماع معاني الخيرات فيها ، وانتفاء عوارض الفساد .

وقيل معناه : السلامة . كما قال تعالى : (فسلام لك من أصحاب اليمين) (٢) أن المسلم أعلم من سلم عليه أنه سالم منه ، والأخوف عليه منه (٣)

قلت : هذه المعاني متلازمة ، لأنه إذا حصل حفظ الله لعبده وكلاءته ، وكان معه ، فقد حصل له الخير ، والبركة والسلامة .

قال ابن دقيق العيد : « السلام يطلق على معان ، منها السلامة ، ومنها التحية ، ومنها أنه اسم من أسماء الله تعالى ، قال : وقد يأتي بمعنى التحية محضاً ، وقد يأتي بمعنى السلامة محضاً ، وقد يأتي متردداً بين المعنيين ، كقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم) (٤)

فإنه يحتمل التحية ، والسلامة وقوله تعالى : (ولهم ما يدعون ... سلام قولاً من رب رحيم) ا . هـ (٥)

(١) معالم السنن على هامش السنن / ج ١ / ص ٢٣ .

(٢) الآية ٩١ من سورة الواقعة .

(٣) الفتح ج ١١ ص ١٣ .

(٤) الآية ٩٤ من سورة النساء ، فى الآية قراءتان فى إحداهما السلم بمعنى الاستسلام والانقياد أى استسلم وانقاد لطاعة الله وتوحيده ، والأخرى السلام ، وفسرت بالتحية بأن يقول : السلام عليكم .

(٥) الفتح ج ١١ / ص ١٣ والآيتان من سورة يس رقم ٥٧ - ٥٨ .

قلت : يمكن إرجاع هذه الإطلاقات إلى معنى واحد ، إذ كلها في الحقيقة تدور على طلب السلامة ، والخلاص من الشر والأذى ، وهذا ما تضمنته التحية المشروعة بين المسلمين .

فالصواب : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى كما تقدم . وقد أمر المسلمون أن يفشوه فيما بينهم ، فعندما يُلقى المسلم على أخيه ذلك ، فإنه يذكر الله تعالى طالباً منه السلامة متوسلاً إليه بذكر اسمه تعالى المناسب لطلبه ، فكأنه يقول : أنا مسالم لك أيها الأخ محب وداع لك وطالب حصول البركة والخير ، والسلامة من كل مؤذٍ ، ممن يملك ذلك متوسلاً إليه في حصول ذلك باسمه السلام .

فتضمن ذلك ثلاثة أشياء : أحدها ذكر اسم الله تعالى .

الثاني : إعلام المسلم عليه : أنه مسالم له لا يناله منه أذى .

الثالث : طلب السلامة والخير له ، وبهذا يظهر أن قول من قال : إنه يطلق على التحية بين المخلوقين ، أنه لا يخالف كونه اسماً من أسماء الله ، أي أنه ليس قسيماً له ، بل التحية الواقعة بين المؤمنين هي ذكر اسم الله تعالى ، المطلوب به حصول السلامة ، وذلك أن السائل يسأل في كل مطلوب من بالاسم المناسب لمطلوبه ، كما يعلم ذلك عند تأمل الأدعية الواردة في كتاب الله تعالى ، وفي أحاديث رسوله ﷺ . والله أعلم .

والصواب : أن مراد البخارى - رحمه الله تعالى - بهذه الترجمة : تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوق ، وأن اشتراكه تعالى مع المخلوق في الاسم ، أو في معنى من المعاني لا يكون فيه تشبيه ، نحو اليد ، والرجل ، والاستواء ، والحجى ، والضحك ، والسخط ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك مما أثبتته تعالى لنفسه ، وأثبتته له رسوله ، لأنه تعالى السلام ، أي السالم من كل عيب ونقص يلحق المخلوق .

« قال ابن قتيبة : سمي نفسه سلاماً لسلامته مما يلحق المخلوق من العيب والنقص والفناء ، وقال الخطابي : (معناه ذو السلام ، والسلام في صفة الله تعالى هو الذي سلم من كل عيب ، وبرأ من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين ، وقد قيل : هو الذي سلم الخلق من ظلمه » ا . هـ (١)

قلت : هذا القول الأخير لا ينافي الذي قبله ، بل كلاهما يدخل في اسمه تعالى : السلام .

قال ابن كثير : « السلام من جميع العيوب والنقائص بكماله في ذاته وصفاته وفي أفعاله » (٢)

فالسلم من الكلمات الجامعة . وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذا اللفظ ، فمن ذلك (سلمك الله) وسلم فلان من الشر ، ومنه دعاء الرسل على الصراط « اللهم سلم سلم » وسلم الشيء لفلان أي خلص له وحده من ضرر الشركة فيه ، قال تعالى : (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً مسلماً لرجل) (٣) أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره . والسلم ضد الحرب قال تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) (٤) لأن كل واحد من المتحاربين يسلم من أذى الآخر ويخلص منه ، والقلب السليم هو النقي من الغل والدغل ، الذي قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فاستقام على حب الله وحسن معاملته . ولذلك ضمن له النجاة من عذابه ، والفوز بكرامته .

(١) زاد المسير ج ٨ / ص ٢٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ / ص ١٠٥ .

(٣) آية ٢٩ سورة الزمر .

(٤) آية ٦١ سورة الأنفال .

والإسلام أخذ من هذا المعنى ، فإنه الاستسلام لله والانقياد له والتخلص من شوائب الشرك ، والبدع المضلة .

والجنة دار السلام ، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر فإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه أولى من هذا كله ، وهو أحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته تعالى من كل عيب ونقص من كل وجه ، فهو تعالى السلام الحق بكل اعتبار سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم .

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص ، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة ، فهو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار ، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ، ونزهه به رسوله ، فهو السلام من الصاحبة والولد ، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل ، والسلام من الشريك .

ولهذا إذا نظرت إلى أفراد صفات كإله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كإلهها .

فحياته تعالى سلام من الموت ، والسنة والنوم ، وقيومته وقدرته سلام من الحاجة والتعب واللغوب ، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر أو تفكير ، وإرادته تعالى ، سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة ، وكلماته تعالى سلام من الكذب ، والخلف ، والظلم ، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً وغناه تعالى سلام من الحاجة إلى غيره في وجه من الوجوه ، بل كل ماسواه ، فقير إليه محتاج ، وملكه تعالى سلام من منازع فيه أو مشارك ، أو معاون مظاهر ، أو شافع عنده بدون إذنه . وإلهيته تعالى سلام من مشارك له فيها ، بل هو الله الذي لا إله إلا هو وحلمه ، وعفوه ، وصفحته ، ومغفرته ، وتجاوزه ، سلام من أن تكون عن حاجة ، أو ذل ، أو مصانعة ، كما يكون من غيره ، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه .

وكذلك عذابه ، وانتقامه ، وشدة بطشه ، وسرعة عقابه ، سلام من أن يكون ظلماً ، أو تشفياً ، أو غلظة أو قسوة ، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها ، فهو يستحق عليه الحمد والثناء ، كما يستحق على إحسانه ونعمه .

وقدره وقضاؤه سلام من العبث والجور ، والظلم .

وشرعه ودينه ، سلام من التناقض والاختلاف ، والاضطراب وعدم مصلحة العباد ورحمتهم « (١)

وهكذا جميع صفاته وأفعاله سلام من كل ما يتوهمه معطل أو تخيله مشبه - تعالى ربنا السلام - عما يضاد كإله .

وأما ذكره (المؤمن) مع السلام فليبين أن ما تسمى الله به ، وأطلق على غيره من خلقه ، فإنه لا يكون بينه وبين من أطلق عليه مشابهة ، فالله تعالى سمي نفسه المؤمن ، ومن اتصف بالإيمان من عباده يسمى مؤمناً ، ولكن الله تعالى سالم من النقائص والعيوب التي تلزم الخلق لأنه تعالى هو السلام .

وهكذا كل ما يطلق على غيره تعالى مما سمي به نفسه أو اتصف به نحو العزيز ، والكريم ، والرؤوف ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ، والعليم . وهو كثير . فله تعالى ما يليق به من المعاني الكاملة السالمة من النقائص والعيوب وللمخلوق ما يناسبه ويليق بضعفه ، فهو محل كل عيب ونقص . والله أعلم .

المؤمن من أسمائه تعالى وهو على أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم ، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون للدلائل التي دل بها على صدقهم - قضاءً وخلقاً - فإنه سبحانه أخبر - وخبره الصديق وقوله الحق - أنه لا بد أن يرى

(١) بدائع الفوائد ملخصاً ج ٢ / ص ١٣٢ - ١٣٦ .

عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما بين لهم أن الوحي الذى بلغته رسله حق كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) (١) فشهد لرسوله أن ما جاء به حق ، ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية والحلقية : ما يشهد بذلك أيضاً ، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته تعالى على كل شىء ، فإن من أسمائه « الشهيد » الذى لا يغيب عنه شىء ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . بل هو مطلع على كل شىء وشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، الأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته » (٢)

وقال ابن الجوزي : « فأما المؤمن ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنه الذى أمن الناس ظلمه ، وأمن من آمن به عذابه .

الثانى : أنه المحيب .

الثالث : أنه الذى يصدق المؤمنين إذا وحّدوه .

الرابع : أنه الذى وحّد نفسه ، لقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا

هو) (٣)

الخامس : أنه الذى يصدق عباده وعده .

السادس : أنه الذى يصدق ظنون عباده المؤمنين ، ولا يخيب آمالهم «

ا.هـ (٤)

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) مدارج السالكين ج ٣ / ص ٤٦٦ .

(٣) الآية ١٨ سورة آل عمران .

(٤) زاد المسير / ج ٨ / ص ٢٢٥ .

قلت : هذه الأقوال كلها حق ، ويدل عليها اسمه تعالى « المؤمن » فهو المصدق الذى يصدق رسله بما يقيمه من الدلائل التى تدل على صدقهم ، فيما جاؤا به وبلغوه عنه تعالى ، ويصدقهم وعده بنصره إياهم على عدوهم ، ويصدق عباده ما أخبرهم به من توفيتهم ما يستحقونه جزاء أعمالهم ، ولا يضيع أجر أحد منهم ويؤمنهم من الظلم ، فلا يخافون ظلماً ولا هضماً ، فهو الذى يجير عباده وينجيهم من المهالك والمخاوف ، وهو الذى شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

★ ★ ★

١١ — قال : « حدثنا أحمد بن يونس ؛ حدثنا زهير ، حدثنا مغيرة ، حدثنا شفيق بن سلمة قال : قال عبد الله : كنا نصلي خلف النبي - ﷺ - فنقول : السلام على الله ، فقال النبي - ﷺ - : « إن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين ؛ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » .

* * *

عبد الله ، هو عبد الله بن مسعود بن غافل ، الهذلي ، من أهل السوابق ، هاجر قديما إلى الحبشة ، وقد شهد مع رسول الله - ﷺ - جميع غزواته ، ولازمه ، وخدمه فكان يقال له : صاحب السواك ، والنعل ، لأنه كان يحمل سواك رسول الله - ﷺ - ونعله .

وفي الصحيحين أن أبا موسى قال : « قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حينما وما نرى ابن مسعود ، وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - ﷺ - لما نرى من كثرة دخولهم على رسول الله - ﷺ - ولزومهم له »

وقال حذيفة : « ما نعلم أحداً أقرب سمياً ، ودلاً ، وهدياً برسول الله - ﷺ - من عبد الله بن مسعود ، ولقد علم المحظوظون من أصحاب رسول الله - ﷺ - أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة » .

وهو من علماء الصحابة ، وفقهاءهم ، توفي في الكوفة ، وقيل : في المدينة سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين ، وله بضع وستون سنة هـ (١)

(١) الرياض المستطابة ملخصاً ، وانظر الإصابة ج ٤ ص ٢٣٣ ، وتهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٧ ، وسير أعلام النبلاء ج ١ ص ٤٦١ .

قوله : « فنقول : السلام على الله » . كأنهم رأوا السلام من قبيل الحمد ، والشكر ، فجوزوا ثبوته لله تعالى - وهو تعالى السلام ، والسلام منه بدأ وإليه يعود ، إذ هو تعالى واهب السلام لعباده ، الذى به يسلمون من شرور أنفسهم ، وشرور أعدائهم من الجن والإنس ، وهو تعالى السالم من كل ما فيه نقص أو شين ، فلا يطلب له السلام ، ولهذا قال لهم معلم الهدى ﷺ : « إن الله هو السلام » أى السالم من أن يلحقه حاجة ، أو يناله تغير أو آفة ، بل هو الكامل فى أوصافه العليا ، وأسمائه الحسنى ، وهو الغنى بذاته عن كل ما سواه .

وهذا الجزء من الحديث هو محل الشاهد الذى سيق من أجله ، لأنه يدل على أن الله - تعالى - سالم من جميع العيوب ، والنواقص التى تلحق الخلق ، فإذا سمى نفسه باسم قد يتسمى به بعض خلقه ، أو وصف نفسه بصفة قد يتصف بها بعض خلقه ، فالمعاني التى يدل عليها اسمه أو صفته تخصه تعالى لا يشاركه فيها المخلوق .

وكل نقص فى المخلوق فهو - تعالى - سالم منه ، ومنتزه عنه كما تقدم ، فهو السلام المؤمن .

قوله : « التحيات لله » قال فى اللسان : « التحيات لله » معناه : البقاء لله ، والسلامة من الآفات كلها التى تلحق العباد من العناء ، وأسباب الفناء ^(١) .

وكذا قال غيره من أهل اللغة .

وجيء بلفظ الجمع ليدل على أن الله تعالى يستحق جميع الكمالات ، من العظمة ، والبقاء ، والملك ، والسلامة من الآفات والنقص ، وغير ذلك .

قال الخطاىي : « لم يكن فى تحياتهم شئ يصلح به الثناء على الله تعالى ،

(١) لسان العرب ج ١ ص ٧٧٥ - المرتب .

فلهذا أبهت ألفاظها ، واستعمل منها معنى التعظيم ، فقال : « قولوا التحيات لله » أى أنواع التعظيم له « اهـ (١) .

وقوله : « لله » يفيد وجوب الإخلاص فى العبادة ، أى أن ذلك لا يجوز أن يكون لغير الله منه شىء .

« والصلوات » أى جميع العبادات له استحقاقا بمقتضى العقل ، وبالشرع ، وذلك مثل الركوع ، والسجود ، والقيام ، والدعاء ، وأنواع العبادة له وحده لا شريك له فى ذلك .

« والطيبات » أى الأعمال الطيبات له تعالى يتوسل بها إليه ، وهو تعالى لا يقبل إلا طيبا ، « وما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله ، دون ما لا يليق بصفاته » (٢) ، والوصف بالطيب يفيد خلوصها من الشرك ، وشوائبه ، وسلامتها من البدع .

« السلام » اسم الله - تعالى - الدال على سلامته من كل نقص وعيب ، فيدعى الله - تعالى - به ليسلم من ذكر عليه هذا الاسم الشريف ، من المكاره ، والمخاوف .

« عليك أيها النبى » أمرهم أن يفرده بالسلام ، ويقدموه على أنفسهم لوجوب حقه عليهم ، ووجوب محبته التى يجب أن تكون مقدمة على النفس ، وما دونها .

والأحاديث متفقة على لفظ الخطاب ، وذكر حرف النداء « عليك أيها النبى » وقد عدل بعض الصحابة بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - إلى لفظ خطاب الغائب فقالوا : « السلام على النبى » كما ذكره البخارى فى الاستئذان (٣) وأبو عوانة فى

(١) فتح البارى ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر الفتح ج ١١ ص ٥٦ .

مسنده (١) ، وغيرهما .

وقال عبد الرزاق : « عن ابن جريج ، عن عطاء : أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا يسلمون - والنبي - صلى الله عليه وسلم - حي - السلام عليك أيا النبي ورحمة الله ، وبركاته ، فلما مات قالوا : السلام على النبي ورحمة الله وبركاته » (٢)

وبهذا السند أيضا ، سمعت ابن عباس ، وابن الزبير ، يقولان في التشهد في الصلاة : التحيات ، المباركات لله ، الصلوات ، الطيبات لله ، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته » (٣) .

والأولى : اتباع لفظ الحديث كما عليه الجمهور من الصحابة . ومن بعدهم من أهل العلم ، وكما أنه لا فرق بين الحاضر معه في وقت حياته ، وبين من كان غائبا فكذلك بعد وفاته .

والنداء لطلب استحضر المنادى في القلب ، فيخطبه كأنه شاهد في قلبه ، ومثل هذا معروف في كلام العرب ، وأشعارهم ، يخاطب أحدهم من يتصوره في نفسه ، وإن لم يكن في الخارج من يسمع خطابه ، قال حسان بن ثابت رضى الله عنه - في رثائه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

كحلت مآقيها بكحل الأرمد	ما بال عينك لا تنام كأنها
ياخير من وطىء الحصى لاتبعد	جزعا على المهدي ، أصبح ثاويا
غيبت قبلك ، في بقيع الغرقد	وجهى يقيق ، لهفى ، ليتنى
يالتيتنى صبحت سم الأسود (٤)	أقيم بعدك بالمدينة بينهم

(١) انظر مسند أبى عوانة ص ٢٢٩ .

(٢) انظر المصنف ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

(٤) انظر ديوان حسان ص ٩٧ .

وقال امرؤ القيس :

يأبها الساعى ليدرك مجدنا ثكلتك أمك هل ترد قتيلاً (١)

وقالت الخنساء فى أخيها صخر :

ألا ياصخر إن أبكيت عيني لقد أضحكتنى دهرأ طويلا
بكيتك فى نساء معولات وكنت أحق من أبدا العويلا
دفعت بك الجليل وأنت حى فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا (٢)

وهذا كثير جدا ، ولا يحتاج إلى ذكر الشواهد عليه ، لشهرته .

وبهذا وأمثاله يتبين ضلال المغرورين الذين يستغيثون بالأنبياء ، والأولياء ويتعلقون بشبه واهية ، مثل استدلالهم بلفظ النداء ، والخطاب المذكور فى هذا الحديث ، على حضور النبى - ﷺ - عند كل من يناديه ، ويخاطبه ولذلك جَوَّزوا التوجه إليه ، ومناداته ، فى كل ملة فضلوا بذلك وأضلوا كثيرا .

مع أن هذه الصيغة هى التى كان النبى ﷺ - يقولها فى تشهده والأمة تبع له ، تقول مثل ما كان يقول ، كما فى شرح الآثار للطحاوى بسنده إلى عبد الله بن الزبير ، قال : « إن تشهد رسول الله - ﷺ - الذى كان يتشهد به .

بسم الله ، وبالله خير الأسماء ، التحيات ، الطيبات ، الصلوات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيرا ، ونذيرا ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اللهم اغفر لى

(١) انظر ديوان امرؤ القيس ص ١٧٨ .

(٢) انظر ديوان الخنساء ص ١٢٠ .

واهدنى « اهـ (١) .

وهو أيضا عند البزار (٢) .

قال الحافظ : « فإن قيل : لم عدل عن الوصف بالرسالة إلى الوصف بالنبوة ، مع أن الوصف بالرسالة أعم في حق البشر ؟
أجاب بعضهم : بأن الحكمة فيه أن يجمع له الوصفين ، لأنه وصفه بالرسالة في آخر التشهد ، وإن كانت الرسالة تستلزم النبوة ، لكن الجمع بينهما أبلغ » (٣) ولأنها وجدت في الخارج مقدمة على الرسالة في الوحي كما في قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) .

★ ★ ★

(١) شرح معاني الآثار ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) انظر كشف الأستار ج ١ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح ج ٢ ص ٣١٤ .

قال : « باب قول الله تعالى : « ملك الناس » .

* * *

الملك هو المتصرف بالأشياء حسب إرادته ، ومشئته ، لا راداً لأمره ، ولا معقّب لحكمه .

وخص الناس لأنهم الذين يملكون بعض الأشياء ، وفيهم ملوك . فهو تعالى ملك من يملك ، وملك الملوك ، فدخل غيرهم في المعنى وملكه تعالى دائم لا يزول .

قال الطبري : أخبر أنه ملك الناس « وهو ملك جميع الخلق ، إنسهم وجنهم وغير ذلك ، إعلاما منه بذلك من كان يعظم الناس ، تعظيم المؤمنين ربهم - أنه ملك من يعظمه ، وأن ذلك في ملكه وسلطانه ، تجرى عليه قدرته ، وأنه أولى بالتعظيم ، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ، وتعبد له من الناس » اهـ (١)

قال الراغب : « الملك هو المتصرف بالأمر والنهي » (٢) .

وقال الزجاج : « قال أصحاب المعاني : الملك : النافذ الأمر في ملكه ، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه ، فالملك أعم من المالك ، والله تعالى مالك المالكين كلهم ، والملاك إنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى » (٣) .

(١) تفسير الطبري ج ٣٠ ص ٣٥٤ .

(٢) المفردات ص ٤٧٢ .

(٣) تفسير الأسماء الحسنی ص ٣٠ .

وقال الطبري : « ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن الملك من المُلْك مشتق ؛ وأن المالك من المِلْك (١) مأخوذ ، فتأويل قراءة من قرأ « ملك يوم الدين » أن لله الملك يوم الدين خالصا ؛ دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكا جبابرة ، ينازعونه الملك ، ويدافعونه الانفراد بالكبراء ، والعظمة والسلطان والجبرية ، فأيقنوا بقاء الله يوم الدين أنهم الصغرة . الأذلة ، وأن له - دونهم ودون غيرهم - الملك والكبرياء ، والعزة والبهاء ، كما قال جل ذكره وتقدسست أسماءه : (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار) (٢) ، فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالملك ، دون ملوك الدنيا ، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار ، ومن دنياهم في معادهم إلى خسار » (٣)

قوله : « فيه ابن عمر » أى يدخل في هذا الباب حديث ابن عمر ، وهو كحديث أبي هريرة المذكور في هذا الباب سواء ، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) الأول بضم الميم والثاني بكسرها .

(٢) الآية ١٦ من سورة غافر .

(٣) تفسير الطبري ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

١٢ — قال : « حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن سعيد - هو ابن المسيب - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء يمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ »

* * *

أبو هريرة عرف بكنيته ، واختلف في اسمه واسم أبيه اختلافا كثيرا ، وصحح البخارى والنوى وغيرهما من الحفاظ أن اسمه عبد الرحمن بن صخر .
قدم على النبي - ﷺ - مسلماً - وهو يقسم غنائم خيبر ، ثم لازم رسول الله ﷺ - حضرا وسفرا ، فلم يشغله عن ملازمته أهل ولا مال .
وهو أحفظ الصحابة ، بل أحفظ الأمة ، ولهذا صار هدفا لأهل الإلحاد بسبب كثرة ما يغضبهم من مروياته .

قال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث دهرا (١) .

جاء فى صحيح مسلم فى قصة إسلام أمه ، أنه قال : قلت : يارسول الله ادع الله أن يجيبني الله أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ، ويجيبهم إلينا ؟ فقال النبي ﷺ : « اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهما المؤمنين . »

قال أبو هريرة : فما خلق الله مؤمنا يسمع لى ، ولا يرانى إلا أحنى (٢) .
ولهذا صار حبه علامة الإيمان ، وبغضه علامة النفاق والكفر .

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات ص ١ ص ٢٧٠ .

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٣٩ .

توفى - رضى الله عنه - فى المدينة ، وقيل بالعقيق ، سنة سبع أو تسع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة . (١) .

قوله : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء يمينه » . المقبض هو أخذ الشئ باليد وجمعه ، والطفى هو ملاقة الشئ بعضه على بعض ، وجمعه وهو قريب من القبض . وهذا من صفات الله تعالى الاختيارية ، التى تتعلق بمشيئته وإرادته ، وهى ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ ، وهى مما يجب الإيمان به . لأن ذلك داخل فى الإيمان بالله تعالى ، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها ، وقد دل على ثبوتها لله تعالى العقل أيضاً ، فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد ، لأن الفعل لا بد له من فاعل ، والفاعل لابد له من فعل ، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل ، سواء كان لازماً كالنزول والحجى ، أو متعدياً كالقبض والطفى . فحدث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى .

وهو تعالى حى قيوم ، فعال لما يريد ، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به تعالى (٢) فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد ، وغير المشاهد وينكر قوله إنه على كل شئ قدير ، فالعقل دل على ما جاء به الشرع (٣) .

وما صرح به فى هذا الحديث من القبض والطفى ، قد جاء صريحاً أيضاً فى كتاب الله تعالى ، كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) . (٤) .

(١) انظر الإصابة ج ٧ ص ٤٢٥ ، سير أعلام النبلا ج ٢ ص ٥٧٨ ، الاستيعاب ج ٤ ص ١٧٦٨ ، أسد الغابة ج ٦ ص ٣١٨ وغيرها .

(٢) قلنا الاختيارية لأنها تقع باختيارية تعالى وإرادته ومشيئته .

(٣) أنصح القارئ إلى الرجوع فى هذه المسألة العظيمة : إلى كتب شيخ الإسلام

ابن تيمية كدرء تعارض العقل والنقل والرسالة الكمالية وغيرها من كتبه .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

والأحاديث والآثار عن السلف في صريح الآية ، والحديث المذكور في الباب كثيرة وظاهرة جلية ، لا تحتمل تأويلاً ولا تحتاج إلى تفسير ، ولهذا صار تأويلها تحريفاً وإلحاداً فيها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ما تيسر من ذلك في باب قوله تعالى : (لما خلقت بيدي) .

وقوله : « ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » أى أنه تعالى ينفرد بالملك ، فهو الملك حقاً الذى لا منازع له ، ولا معاون ، ولا ظهير ولا شريك ، وفي ذلك اليوم ، عندما يقبض الأرض بيده ، ويطوى السموات يمينه ، ويصبح كل شيء في قبضته ، ينادى الذين كانوا ينازعونه في الدنيا ملكه ، ويتعدون على سلطانه ، من المتكبرين ، والمتجبرين ، من ملوك الدنيا ، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار ، ذى السلطان - وهو متفرد به في كل آن - غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً - فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم - أين ملوك الدنيا ؟ فهل يستطيعون منعاً أو رداً ؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى ؟ لقد ذهب منهم كل شيء ، وبقيت التبعات والذلل والحسرات .

قال بعض شراح البخارى : « قوله ملك الناس داخل في معنى التحيات لله أى الملك لله ، وكأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بأن يقولوا التحيات ، امثالاً لأمر ربه (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس)

ثم قال : « وفي الحديث إثبات اليمين صفة لله تعالى ، من صفات الذات ، وليست جارحة ، خلافاً للمجسمة » (١) .

قلت : قوله : « وليست جارحة » من كلام أهل البدع ، الذين عدلوا عما جاء في الكتاب والسنة من الألفاظ إلى ما ابتدعوه من الألفاظ الموهمة للنقص - تعالى الله - توهماً منهم أن تلك الألفاظ الواردة في كتاب الله ، وسنة رسوله ،

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٦٨ .

يتضمن ظاهرها التشبيه لصفات الخلق ، وهذا من ظن السوء بالله وبكتابه وبرسوله الذى أرداهم فضلوها سواء السبيل ، وأضلوا كثيراً من عباد الله .

وقوله : « خلافاً للمجسمة » يقال له : من هم المجسمة الذين تقصدهم ؟ وهل تستطيع أن تعين طائفة تؤمن بكتاب الله وسنة رسوله تقول : إن يمين الله جارحة ؟ أو أن الله جسم ؟ (١) فهؤلاء لا وجود لهم ، ولكن مراده الذين آمنوا بمثل هذا النص على ظاهره ، وقالوا : إن لله يدين حقيقتين بدون تأويل ، كما هو الواجب على المسلم ، لأنه صريح النصوص ، وأيقنوا أن تأويل اليد واليمين ، ونحوها من صفات الله ، بالقوة أو القدرة ، أو النعمة ، أو ما أشبه ذلك ، تحريف كتحرير اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه .

فهذا الشارح ومن على نهجه إلى اليوم يسمون هؤلاء مجسمة ، ظناً منهم أن من أثبت هذه الصفات على ظاهرها ، لزمه أن يكون مجسماً ، لربه ومشبهاً له بأجسام الخلق تعالى الله أن يكون له مثل أو شبيه .

قال شيخ الاسلام : (وليس هناك من أطلق لفظ الجسم ، لكن نفات الصفات يسمون كل من أثبتها مجسماً ، بطريق اللزوم ، إذ كانوا يقولون : إن الصفات لا تقوم إلا بالجسم ، وذلك أنهم اصطالحوا في معنى الجسم على غير المعنى المعروف في اللغة ، فإن الجسم في اللغة هو البدن ، وهم يسمون كل ما يشار إليه مجسماً ، فيلزم على قولهم أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وما فطر الله عليه عباده ، وما [عليه] سلف الأمة ، وأئمتها تجسيماً ، فهم يطلقون لفظ المجسمة والمشبهة ، على اتباع السلف » . (٢)

(١) الذين نسوا إلى التجسيم وذكرهم أصحاب المقالات بأسماءهم هشام ابن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقي ومقاتل بن سليمان ، وداود الجوارى ، وكلهم رافضة .

(٢) بيان تلبس الجهمية ج ١ ص ٦٢٦ .

وقال : « لفظ الجسم لم يتكلم به أحد من الأئمة والسلف ، في حق الله تعالى - لا نفيًا ولا إثباتًا ، ولا ذموا أحداً ولا مدحوه بهذا الاسم ، ولا ذموا مذهباً ولا مدحوه بهذا الاسم ، وإنما تواتر عنهم ذم الجهمية ، الذين ينفون الصفات وذموا طوائف منهم ، مثل المشبهة وبينوا مرادهم بالمشبهة » (١) .

قال الحافظ : « الذى يظهر لى أنه أشار [بهذه الترجمة] إلى ما قاله شيخه نعيم بن حماد : « يقال للجهمية أخبرونا عن قول الله تعالى بعد فناء خلقه ، (لمن الملك اليوم) فلا يجبه أحد ، فيرد على نفسه ، (لله الواحد القهار) ، وذلك بعد انقطاع ألفاظ خلقه بموتهم ، أفهذا مخلوق ؟ » (٢) .

قلت : يظهر لى أن مراده بهذا الباب كالباب الذى قبله أن هذا الاسم الكريم (الملك) من أسماء الله الحسنى ، وقد أطلق على بعض خلقه ولم يكن في ذلك تشبيه ، إذا المعنى الذى يختص به الله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، فهو مالك الملك ، وله الملك التام المطلق ، وهو الذى يهب للمخلوق الملك ، مع أن ملك المخلوق ناقص يناسب نقصه ، قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) (٣) .

وأما التوفيق بين الحديث ، والترجمة فظاهر ، وهو أن الناس الذين يوجد

(١) نفس المصدر ح ١ ص ٤٧ ، ومراد السلف بالمشبهة : الذين يمثلون صفاته تعالى بصفات خلقه ، نحو اليد والوجه فيجعلون يده تعالى كيد المخلوق ووجهه كوجه المخلوق - تعالى الله عن ذلك .

(٢) الفتح ح ١٣ ص ٣٦٨ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

منهم الملوك والجبابة ، والذين يذل لهم ويخضع بعض العباد ، وقد يصرفون لهم ما هو خالص حق الله من العبادة ، هؤلاء ملك له ، تحت قهره ، آخذ بنواصيهم ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، ويظهر ذلك جلياً لكل أحد ، يوم يقبض الله الأرض ويطوى السموات يمينه ، ويقول أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذى أورثهم الذل والصغار . والله أعلم .

★ ★ ★

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو العزيز الحكيم (١) - سبحان ربك رب العزة عما يصفون (٢) والله العزة ، ولرسوله - (٣) ومن حلف بعزة الله ، وصفاته »

* * *

« العزيز » هو الذى له العزة التامة ، والقوة الكاملة ، فلا يعجزه شئ ، القاهر لكل شئ ، فلا يمتنع من قوته شئ ، المنيع الذى لا ينال ولا يغالب . « فالعزة تتضمن القوة ، والله القوة جميعا ، يقال : عز يعزُ بفتح العين إذا اشتد وقوى ، ومنه الأرض العزاز - الصلبة الشديدة - ويعز يعز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه ، ويعز يعز بضم العين إذا غلب وقهر . فأعطوا أقوى الحركات - وهى الضمة - لأقوى المعانى - وهو الغلبة ، والقهر للغير ، وأضعفها - وهى الفتحة لأضعف هذه المعانى - وهو كون الشئ فى نفسه صلبا ، والحركة المتوسطة - وهى الكسرة للمعنى المتوسط - وهو القوى الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ، ويغلبه .

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم و ٦٠ من سورة النحل و ٢٦ من سورة العنكبوت ، و ٤٢ منها أيضا و ٢٧ من سورة الروم و ٩ من سورة لقمان و ٢ من سورة فاطر و ١ من سورة الحديد و ١ من سورة الحشر والأخيرة منها ، والأولى من سورة الصف ، و ٣ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

(٣) الآية ٨ من سورة المنافقون .

والعز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضى كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ، ولا يكون ذمًا له ، بخلاف الكبير .

قال رجل للحسن البصرى : « إنك متكبر ، فقال : لست بمتكبر ، ولكنى عزيز » .

وقال تعالى : (والله العزة لرسوله وللمؤمنين) (١) .

وقال ابن مسعود : « ما زلنا أعزة ، منذ أسلم عمر » (٢) .

وقال النبى ﷺ - « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين ، عمر ابن الخطاب ، أو أبى جهل بن هشام » (٣) .

وفى بعض الآثار : « إن الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا فى طاعة الله - عز وجل » .

وفى الحديث : « اللهم أعزنا بطاعتك ، ولا تذلنا بمعصيتك » .

وقال بعضهم : « من أراد عزاً بلا سلطان ، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة » .

فالعزة من جنس القوة « اهـ (٤) » .

قال الحافظ : « العزيز الذى يقهر ولا يقهر ، فأن العزة التى لله - تعالى - هى الدائمة الباقية ، وهى العزة الحقيقية الممدوحة ، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة ، فيوصف بها الكافر والفاستق ، وهى صفة مذمومة ، ومنه قوله تعالى (أخذته العزة بالإثم) (٥) ، وأما قوله : (من كان يريد العزة فلله

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) رواه البخارى وغيره ، انظر الفتح ج ٧ ص ٤١ .

(٣) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير ، والأوسط ، انظر مجمع الزوائد ج ٩ ص ٦١ .

(٤) طريق الهجرتين ص ١٠٩ .

(٥) الآية ٢٠٦ من سورة البقرة .

العزة جميعا) (١) فمعناه : من كان يريد أن يعز ، فليكتسب العزة من الله ، فإنها لا تنال إلا بطاعته ، ومن ثم أثبتنا لرسوله وللمؤمنين ، فقال تعالى : (والله العزة ، ولرسوله وللمؤمنين) (٢) . وقد ترد العزة بمعنى الصعوبة ، كقوله تعالى : (عزيز عليه ما عنتم) (٣) ، وبمعنى الغلبة ومنه (وعزني في الخطاب) (٤) ، وبمعنى القلة : كقولهم : شاة عزوز إذا قلّ لبنها وبمعنى الامتناع ، ومنه قولهم : أرض غزاز ، بفتح أوله مخففا « اهـ (٥)

« الحكيم » هو الذى يضع الأشياء مواضعها التى يحسن أن توضع فيها ، ولا يدخل تديبه خلل ولا زلل ، وهذا من أسماءه تعالى الحسنى التى كثر ذكرها ، فى القرآن ، وما جاء عن رسول الله - ﷺ - وهو تعالى موصوف بالحكمة ، وقد دل على ذلك شرعه - تعالى - وخلقه ، فمن الضلال إنكار ذلك ، وكفى بالمرء ضلالا أن ينفى عن الله تعالى ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله .

« سبحان ربك » « أصل التسييح عند العرب ، التنزيه لله عن إضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرى من ذلك ، كما قال أعشى بن ثعلبة :

أقول لما جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر

أى سبحان الله من فخر علقمة ، أى تنزيها لله مما أتى علقمة من الافتحار على وجه التكبر منه لذلك » (٦) .

(١) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٨ من سورة المنافقين .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٤) جزء من الآية ٢٣ من سورة ص .

(٥) الفتح ج ١٣ ص ٣٦٩ وذكر أن هذا كلام الراغب ، ولكن الحافظ تصرف

فيه وغير وزاد ونقص ولهذا أضفته إليه .

(٦) ابن جرير الطبرى فى تفسيره ج ١ ص ٢١١ .

وقال أيضا : « وسبحان : مصدر ، لا تصرف له ، ومعناه :
نسبحك » (١)

وفي تاج العروس : « وسبحانه تنزيها لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به ، قال الزجاج : سبحان في اللغة تنزيها لله - عز وجل عن السوء » (٢) .
فالتسبيح : تنزيه الله تعالى عمالا يليق بعظمته ، مأخوذ من السبح ، وهو الأبعاد والسرعة في السير ، يقال فرس سبوح إذا كانت تسرع في السبح الذي هو السير والجرى ، ومنه قوله تعالى : (والسابحات سبحا) فسرت بالخيال ، وبالسفن ، وبالنجوم ، وكلها تسبح وتبعد في سبحها .

وقوله : « رب العزة » أى ذى العزة وصاحبها ، فرب هنا بمعنى ذى وصاحب ، والعزة صفته فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وأخذ اسمه تعالى « العزيز » منها .

وقوله : « عما يصفون » أى تنزيها وتقديساً لذى العزة التى لا ترام ، عن الذى يصفه به المشركون ، من أن له صاحبة أو ولدا ، أو شريكا ، أو وليا من الذل ، أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن أحدا يتصرف فى ملكه بدون إرادته ومشيقته .

وتنزيها لذى العزة التى غلب بها كل شىء عما يقوله المعطلون لصفاته ، حيث أنكروها أو أولوها تأويلا يؤول إلى إنكارها ، وتنزيها له تعالى عما يقوله المحرفون الملقدون فى صفاته الظانون بالله ظن السوء ، حيث توهموا أن اتصافه - تعالى - بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله - ﷺ - يقتضى التشبيه ، فحرفوا صفاته عما أراد بناء على أوهامهم الباطلة .

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) تاج العروس ج ٢ ص ١٥٦ .

وقوله : « والله العزة والرسوله وللمؤمنين » أى لله القوة والغلبة والقهر .

والعزة من صفات ذاته تعالى التى لا تنفك عنه ، فغلب بعزته وقهر بها كل شئ وكل عزة حصلت لخلقه فهى منه ، وكل من كان إليه أقرب وله أطوع كانت عزته أتم وأكمل من غيره ، ولهذا قال تعالى : (والله العزة والرسوله وللمؤمنين) وسبب نزول هذه الآية الكريمة قول رأس المنافقين : عبد الله بن أبى بن سلول الذى ذكره الله عنه : (لكن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) (١) ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما (٢) ، يقصد بالأعز نفسه وذويه ، وبالأذل رسول الله - ﷺ - وأصحابه .

وقوله : « ومن حلف بعزة الله وصفاته » . وصفاته من عطف العام على الخاص . ومراده : أنه قد ثبتت النصوص بالحلف بعزة الله وبصفاته نحو كلماته ، وقد تقرر فى دين الإسلام أنه لا يحلف بغير الله - تعالى - وأن الحلف بغيره شرك كما صح عن الرسول ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك » (٣) وعند أبى داود ، « من حلف بغير الله فقد أشرك » (٤) .

وعنده أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ، ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » (٥)

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) انظر البخارى مع الفتح ج ٨ ص ٦٤٤ ، ومسلم ج ٤ ص ١٩٩٩٨ .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن ، انظر الترمذى مع تحفة الأحمدي ج ٢ ص

. ٣٧١

(٤) السنن ج ٣ ص ٥٧٠ ، ورواه أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٤ .

(٥) السنن ج ٣ ص ٥٦٩ .

وفي الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله - ﷺ - أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب ، يحلف بأبيه ، فقال : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » (١) .

وهذا يتبين أن الحلف بقدره الله ، وعزته وسائر صفاته ، أنه كالحلف به تعالى ، وأن صفاته ليست مخلوقة ، لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق ، ولا منفصلة عنه تعالى .

وهذا يظهر مراد البخارى - رحمه الله - بهذا الباب وهو إثبات الصفات لله تعالى ، والرد على من أنكروها كالمعتزلة ، ومن تابعهم ، وقد تقدم الكلام في ذلك .

قال الحافظ : « والذي يظهر أن مراد البخارى بالترجمة إثبات العزة لله راداً على من قال : إنه عزيز بلا عزة ، كما قالوا : العليم بلا علم » (٢) .
قلت : لا يقصد إثبات العزة بخصوصها ، بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر .

قوله : « وقال أنس : عن النبي - ﷺ - تقول جهنم قط قط وعزتك »
وقال أبو هريرة : عن النبي - ﷺ - يبقى رجل بين الجنة ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة ، فيقول : رب اصرف وجهي عن النار ، لا أسألك غيرها .
قال أبو سعيد : أن رسول الله - ﷺ - قال : « قال الله : عز وجل - : لك ذلك وعشرة أمثاله » .

وقال أيوب : « وعزتك لا غنى لى عن بركتك » .

هذه المعلقات قد رواها مؤصلة ، فحديث أنس سيذكره في هذا الباب

(١) انظر البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٥٣٠ ، ومسلم ج ٤ ص ١٢٣٩ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٠ .

موصولا ، وحديث أبي هريرة يأتي كذلك ، وقد تقدم أيضا في الرقاق ، وقول أيوب عليه السلام قد رواه في الوضوء ، وفي أحاديث الأنبياء .

والمراد من هذه الأحاديث هنا ظاهر ، إذ فيها الحلف بعزة الله تعالى ولا يحلف الا بالله أو بصفاته . ولكن حديث أبي هريرة لم يذكر محل الشاهد منه ، وإنما أشار إليه وهو قول الرجل يخاطب رب العالمين « وعزتك لا أسألك غيرها » .

★ ★ ★

١٣ — قال : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا حسين المعلم ، حدثني عبد الله بن بريدة ، عن يحيى بن يعمر ، عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ - كان يقول : « أعوذ بعزتك ، الذي لا إله إلا أنت ، الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون » .

* * *

قوله : « كان يقول » يدل على أنه سمع ذلك من النبي ﷺ مراراً ، لما يفهم من لفظة « كان » .

وقوله : « أعوذ بعزتك » العوذ : هو الالتجاء والاعتصام ، وحقيقته الهرب من المخوف إلى المحير العاصم ، فالعائد بالله - تعالى - قد هرب مما يخافه ، ويؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكة العزيز الذي لا يغالب ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويجير من احتضى به .

فالاستعاذه هي : الالتجاء إلى الله ، والاحتفاء بجنابه من شر كل ذي شر ، والعوذ يكون لدفع الشر ، واللوذ يكون لطلب الخير ، كما قال بعض الشعراء :
يا من ألوذ به فيما أمله ويا من أعوذ به فيما أحاذره

وعزة الله تعالى صفته كما تقدم ، فالنبي - ﷺ - وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له - يتعوذ بصفاته تعالى ، لأن ذلك من عبادة الله بل هو من أفضلها امتثالاً لقوله - تعالى - : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) . ومثل الاستعاذة بصفات الله - تعالى - الحلف بها كما مر قريباً .

وقوله : « الذي لا إله إلا أنت » أي أنت الإله الحق ، الذي تجب عبادته على عباده وكل تأله لغيره فهو ضلال ، يوجب الشقاء الأبدى ، والخلود في النار ، فلذلك لا أتوجه بتألهي إلا إليك يارب . فلا إله لي غيرك ، فبك أعوذ ، وإليك ألوذ .

« الذى لا يموت » أى فأنت ياإلهى الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لا مبدأ لوجودك ولا منتهى لبقائك ، وأنت الغنى بذاتك عن كل ما سواك ، والخلق كلهم فقراء إليك ، وكانوا عدما قبل إيجادك إياهم ، وهم عرضة للأمراض ، والآفات والتغيرات والفناء ، وأنت يارب الباقى وحدك ، والخلق كلهم يموتون ، فلارب سواك يتصرف بالخلق كيف يشاء ، ويغير ولا يتغير جل وعلا .

قوله : « والجن والإنس يموتون » . المقصود بذكر الجن والإنس جنس الخلق ، والمعنى أن الخلق كلهم يموتون ، ولا يبقى إلا الحى القيوم كما قال تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) وسمى الجن جناً لاستتارهم عن أعين الناس . من الاجتنان ، كما قال تعالى : (إنه يراكم هو وقيبله من حيث لا ترونهم) (٢) وأما الإنس فسموا بذلك لأن بعضهم ينأس ببعض غالباً ، أو لأنهم يرون ويؤنسون أى يحس بهم ويشاهدون ، وذكر الجن والإنس لا ينفى عن الملائكة الموت ، لأن هذا خاص قصد به الجن والإنس ، أو على ما تقدم ذكر الجنس ، والمقصود عموم الخلق . وقد جاء ما يدل على هلاك عموم الخلق كقوله تعالى : (كل شىء هالك إلا وجهه) (٣)

وقد قيل : إن الملائكة يدخلون فى الجن ، لاجتنانهم واستتارهم عن أعين الناس فالله اعلم .

★ ★ ★

(١) الآية ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) آخر آية من سورة القصص .

١٤ — قال : « حدثنا ابن أبي الأسود ، حدثنا حرمي ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : « يلقى في النار . ح .

وقال لي خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ح .

وعن المعتمر ، سمعت أبي ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : « لا يزال يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد ، بعزتك ، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة » .

* * *

أنس هو ابن مالك بن النضر ، بن ضمضم ، الأنصاري ، الخزرجي ، خادم رسول الله - ﷺ - وأحد المكثرين من الرواية عنه ؛ قدم النبي - ﷺ - المدينة وهو ابن عشر سنين ، فأتمت به أمه إلى رسول الله - ﷺ - وعرضت عليه أن يخدمه ، فقبل ذلك النبي - ﷺ - فلأزم النبي في السفر ، والحضر عشر سنوات ، ودعا له رسول الله - ﷺ - بأن يكثر ماله وولده ، وأن يدخله الجنة ، قال أنس « قد رأيت اثنتين ، وأنا أرجو الثالثة » توفي في البصرة سنة ثلاث وتسعين ، وله مائة وثلاث سنوات ، وهو آخر من مات في البصرة من الصحابة » (١)

(١) الإصابة ج ١ ص ١٢٧ .

قوله : « لا يزال يلقي فيها » الضمير « فيها » يعود إلى جهنم ، والمعنى أنه يستمر إلقاء من يستحق النار فيها ، وهي تطلب الزيادة منهم ، قال الله تعالى : (يوم نقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟) (١)

قال ابن كثير : يخبر تعالى : أنه يقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين . فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى [فيها] وهي تقول : هل من مزيد ؟ أى هل بقى شئٌ يزيدنى ، هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث « (٢) يقصد بالأحاديث مثل هذا الحديث ، فإن ظاهره أن الاستفهام لطلب الزيادة ، وهو الصحيح الذى يدل عليه ظاهر القرآن ، والأحاديث الصحيحة .

قوله : « حتى يضع فيها رب العالمين قدمه » فى رواية « حتى يضع رب العزة فيها قدمه » وهذه الرواية هى المناسبة لهذا الباب ، ولكن البخارى اكتفى بالإشارة إليها على عادته ، وفى رواية أبى هريرة : « يقال لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها » ، وفى رواية « حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ » وفى أخرى « حتى يضع رجله ، فتقول قط قط » وهذه الروايات كلها فى البخارى واتفق معه مسلم عليها (٣)

وعند الدارقطنى فى الصفات : « فأما النار فليلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد - ثلاث مرات - حتى يأتها تبارك وتعالى فيضع قدمه عليها ، فتنزوى ، وتقول فدى فدى » (٤) .

(١) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨١ .

(٣) انظر مسلم ج ٤ ص ٢١٨٧ و ٢١٨٨ .

(٤) الصفات ص ١٤ و ١٧ .

وفي رواية « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع الجبار تبارك وتعالى - فيها قدمه ، فهناك تنزوى » (١)

وأخرج حديث أنس هذا أبو نعيم في المستخرج بلفظ « حتى يضع الله فيها قدمه » (٢) ففي مجموع هذه الروايات البيان الواضح بأن القدم والرجل - وكلاهما عبارة عن شيء واحد - صفة لله تعالى حقيقة على ما يليق بعظمته .

كما فيها إبطال تأويل المؤولة نحو قولهم : « إن القدم : عبارة عن إذلال جهنم إذا بلغت في الطغيان ، وقولهم : إن المراد بالقدم ، الفرط السابق من المعذنين - أى يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب ، وقولهم : المراد بالقدم : قدم بعض المخلوقين ، وقولهم : يجوز أن يكون مخلوقا اسمه القدم ، وقولهم المراد بالقدم الأخير من أهل النار ، وقولهم : إنه اسم مكان عصى الله فيه ، فيلقى في النار .

وقول الداودي : إن المراد بالقدم ، قدم صدق ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - والإشارة بذلك إلى شفاعته ، وقال بعضهم : إن المراد بالقدم : قدم إبليس إلى غير ذلك من السخافات المضحكة ، الدالة على ضلال قائلها .

وزعم ابن الجوزي ، وابن فورك : أن لفظ الرجل محرف من بعض الرواة عن القدم وذهب مرة إلى التحريف المسمى بالتأويل ، فقال : يحتمل أن يراد بالرجل الجماعة » (٣) فهذه التأويلات الباردة يكفى العاقل المنصف مجرد ذكرها عن تكلف ردها بالدليل لظهور بطلانها ، فهي في الحقيقة تحريف للكلام الواضح البين ، كتتحريف اليهود حينما قيل لهم : « ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » فدخلوا يزحفون على أعجازهم وقالوا : حبة حنطة .

(١) الصفات للدارقطنى ص ١٥ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٠ .

(٣) انظر الفتح فقد ذكر جميع هذه التأويلات وسكت عليها ج ٨ ص ٥٩٦ .

فبطلان قول هؤلاء المعطلة ، الذين جعلوا صفات الله تعالى نوعا من المخلوقات ، وحاولوا إبطالها بالتأويلات البعيدة السخيفة - واضح وظاهر وذلك من وجوه :

« الأول : أن النبي - ﷺ - قال : حتى يضع ، ولم يقل حتى يلقى [فيها] كما في قوله : « لا يزال يلقى في النار » .

الثاني : أن قوله : « قدمه » لا يفهم منه هذا [الذى قالوه] لا حقيقة ، ولا مجازا كما تدل عليه الإضافة .

الثالث : أن أولئك المؤخرين ، إن كانوا من الأصاغر المعذنين ، فلا وجه لانزواتها واكتفائها بهم ، فإن ذلك ، إنما يكون بأمر عظيم ، وإن كانوا من الأكابر المجرمين ، فهم في الدرك الأسفل من النار ، وفي أول المعذنين ، لا في أواخرهم .

الرابع : أن قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم ، من دون أن يلقى فيها شيء .

الخامس : أن قوله : « لا يزال يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها قدمه » جعل وضع القدم الغاية التى إليها ينتهى الإلقاء ، ويكون عند ذلك الانزواء ، فيقتضى أن تكون الغاية أعظم مما قبلها ، وليس في قول [هؤلاء] المعطلة معنى للفظ [قدمه] إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر ، والأول أحق به من الآخر « (١)

يضاف إلى ذلك : أن هذا الكلام الواضح البين الذى إذا سمعه السامع لم يتبادر إلى ذهنه إلا ظاهره اللائق بجلال الله تعالى ؛ فلو كان ظاهره غير مراد للمتكلم ، وأن المراد منه ما ذكره هؤلاء المحرفون ، لصار إلى الألباس والتعمية أقرب ، ولا يكون المتكلم بذلك قد أدى ما وجب عليه من البلاغ والبيان ؛ وهذا

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٧ .

من أبطل الباطل . وقد علم أن المتكلم بهذا الكلام أفصح الناس وأقدرهم على الإيضاح والبيان لما يريد ، وهو أيضا أنصحهم لأمته ، وأعلمهم بالله وبما يجب له ، وما يمتنع عليه ، وهو أيضا أحرصهم على إيصال الخير والنفع إلى الخلق ، ودفع الشر عنهم ، فيستحيل مع هذه الأمور أن يكون ظاهر كلامه باطلا يدل على الكفر والتشبيه - كما زعم المعطلة المؤولة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) (١) فظهر بذلك بطلان قول المعطلة والحمد لله رب العالمين

قال أبو سعيد الدارمي : « وأما دعوى المعطل بأن القدم ، أهل الشقوة الذين تقدم في علم الله أنهم يلقون في جهنم ، واستدلالة بما روى عن ابن عباس ، في قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » (٢) قال : ما قدموا من أعمالهم .

فيقال : من المشهور عن ابن عباس ، أنه قال : « الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله » . وهذا صحيح مشهور عن ابن عباس . (٣) ودعوى المعطل أنها لا تمتلىء حتى يلقى الله فيها الأشقياء ، الذين هم قدم الجبار - عند أهل التأويل - دعوى باطلة ، وهل استزادت إلا بعد مصير الأشقياء إليها ؟ أفيلقيهم فيها ثانية ؟ أو أنه تعالى حبس عنها الأشقياء ، وألقى فيها السعداء ؟ فلما استزادت ألقى فيها أهل الشقوة ؟ .

وأما ردهم الحديث بقوله - تعالى : « لأملأن جهنم من الجنة والناس

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٢ من سورة يونس عليه السلام .

(٣) رواه أبو سعيد الدارمي في الرد المرسى ص ٤٢٥ مجموع عقائد السلف ، والحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي ج ٢ ص ٢٨٢ وابن جرير في التفسير ج ٥ ص ٣٩٨ .

أجمعين» (١) قالوا : إن جهنم لا تمتلئ بغير الجن والإنس ، ومن زعم غير ذلك فقد كفر . فيقال : إن هذه الآية لا تخالف قوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » (٢) ؟ . ويصح في الكلام أن يقال للمتلئ : استزاد ، كما يمتلئ الرجل من الطعام ، والشراب ، وهو يقدر أن يستزيد ، ويقال : امتلأ المسجد من الناس وفيه فضل وسعة ، وامتلاً الوادى ماءً ، وهو يحتمل أكثر مما فيه ، وكما في الحديث « يخرج المهدي ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً » وفي الأرض سعة لأكثر من ذلك ، فكذلك جهنم تمتلئ بما يلقي الله فيها من الجن والإنس ، وتقول : هل من مزيد ؟ لفضل فيها ، غضباً لله - تعالى على الكفار ، حتى يفعل الجبار بها ما أخبر به رسوله ، من وضعه قدمه فيها كما يشاء ، وكما عنى رسول الله ، فحينئذ تقول : حسبي حسبي ، ولها خزنة يدخلونها غير معذيين بها ، وفيها حيات ، وعقارب .

وقال - تعالى : « عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » (٣) .

فقوله تعالى : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » لا يخالف هذه الآية ، كما أنه لا يخالف قول الرسول - ﷺ : « يضع الجبار فيها قدمه ، وإذا كانت جهنم لاتضر الخزنة الذين يدخلونها ، ويقومون عليها فكيف يستنكر وضع رب العالمين عليها قدمه » (٤) .

وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - تدل على أن كلامها حقيقة ، فلا وجه للعدول عن ذلك ، كقوله ﷺ - : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا الضعفاء ، وقالت النار : مالي يدخلني

(١) الآية ١١٩ من سورة هود عليه السلام .

(٢) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٣) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة المدثر .

(٤) رد عثمان ابن سعيد على بشر المريسي ملخصاً بتصرف .

الجبارون ، والمتكبرون » (١) أخرجاه في الصحيحين .

وفي مسند الإمام أحمد بسند فيه عطية العوفى - وهو ضعيف - عن أبى سعيد عن النبى - ﷺ - « أنه قال : يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة ، بكل جبار ، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر ، وبمن قتل نفساً بغير نفس ، فينطوى عليهم ، فيقذفهم فى غمرات جهنم » (٢)

وفيه أيضاً من طريق ابن لهيعة - وفيه كلام معروف - عن عائشة رضى الله عنها عن النبى - ﷺ - أنه قال : « يخرج عنق من النار ، فينطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ، فتنطوى عليهم وتطرحهم فى غمرات جهنم » (٣) وقد ذكر ابن رجب أحاديث بهذا المعنى (٤) وقد صح عن النبى - ﷺ - أن حجراً كان يسلم عليه (٥) ، كما صح أن الصحابة كانوا يسمعون تسييح الطعام وهم يأكلونه ، ومن المشهور حين الجذع الذى كان النبى ﷺ يخطب عليه حين تركه ، فكيف يستنكر كلام جهنم ؟ .

قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » أى يلتصم بعضها على بعض ، وتتضايق على من فيها ، فلا يبقى فيها متسع لغير من فيها .

(١) انظر البخارى مع الفتح ١٣ ص ٤٣٤ وج ٨ ص ٥٩٥ ، ومسلم ج ٤ ص

. ٢١٨٦

(٢) المسند ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) المسند ج ٦ ص ١١٠ .

(٤) انظر التخويف من النار ص ١٣٠ .

(٥) انظر فتح البارى ج ١٣ ص ٣٧١ .

قوله : « وتقول : قَدْ قَدْ » بفتح القاف ، وسكون الدال ، وفي رواية « قط قط » وهو اسم فعل ، ومعناه حسى ، وكفانى ما ألقى فنى ، فلا متسع لغيرهم أى قد امتلكت .

قوله : « بعزتك وكرمك » هذا محل الشاهد من الحديث لما ترجم به ، وهو قسم من النار بعزة الله وكرمه ، أنها قد امتلكت ، وأصبحت ليس فيها متسع . وقد تقرر عند المسلمين أن القسم بغير الله لا يجوز .

قوله : « لا يزال يلقي فيها ، وتقول » هذا القول من جهنم حقيقة ، فالله تعالى ينطقها بكلام مسموع منها ، كما ينطق جل وعلا الجوارح وغيرها . والله على كل شيء قدير ، وأمور الآخرة أعظمها على خلاف ما يعرفه الناس في الدنيا ، والقسم بأسماء الله وصفاته قسم به - تعالى - والمقصود أن الله تعالى متصف بالصفات ، فأراد أن يبين ذلك بما ثبت منها في كتاب الله تعالى ومنها العزة ، وبالأحاديث التي تبين ذلك وتوضحه ، وقد تقدم البحث فيها في الباب الأول .

قال الحافظ : « يؤخذ منه مشروعية الحلف بكرم الله ، كما شرع الحلف بعزة الله » (١)

قوله : « ولا تزال الجنة تفضل ، حتى ينشئ الله لها خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة »

أى أن أهل الجنة الذين يدخلونها ينتهون ، وفيها فضل مساكن لم يصبا أحد لعظم سعتها ، قال الله تعالى : (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض) (٢) وقال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) (٣)

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٧١ .

(٢) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٢١ من سورة الحديد .

وقد وعد الله تعالى : « الجنة والنار أن يملأهما من الجنة والناس ، ومما يشاء فأما النار . فإن الله تعالى لا يدخل فيها إلا من يستحقها ، ولا يظلم أحداً ، ولسعتهما أيضا ينتهي أهلها دخولا فيها مع كثرتهم ، وهي تطلب الزيادة ، وتسأل الله وعده ، فعند ذلك يضع عليها تعالى قدمه . فتضايق على أهلها . وينزوى بعضها إلى بعض - أى تجتمع - فتصبح ليس فيها موضع لأحد فيحصل بذلك ملكها .

وأما الجنة فإن الله تعالى يخلق لها خلقا جديدا فيسكنهم فضلها ، أى المساكن التى فضلت عن دخلها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لا راد لفضله ، ولا مانع لعطائه .

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق » (١)

* * *

قال القرطبي : « بالحق - أى بكلمة الحق - يعنى قوله كن » (٢)
ومثله قال القسطلانى ثم قال : « وقال ابن عادل فى لبابه ، قيل الباء بمعنى اللام أى إظهاراً للحق ، لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته ، فهو نظير قوله تعالى :

(ما خلقنا هذا باطلا) (٣) .

وقال الخازن : « يعنى إظهاراً للحق ، فعلى هذا تكون الباء ، بمعنى اللام ، لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته ، وقيل خلقها بكمال قدرته ، وشمول علمه ، وإتقان صنعه ، وكل ذلك حق .

وقيل خلقها بكلامه الحق ، وهو قول « كن » وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق ، لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق » (٤)

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٩ .

(٣) هدى السارى ج ١٠ ص ٣٦٩ .

(٤) تفسير الخازن ج ٢ ص ١٤٧ .

وقال ابن الجوزى : « فيه أربعة أقوال :

أحدها : خلقهما للحق .

والثاني : خلقهما حقا .

والثالث : خلقهما بكلامه ، وهو الحق .

والرابع : خلقهما بالحكمة « (١) .

قلت هذه الأقوال ليس فيها اختلاف ، وهي داخلة في معنى الآية ، إلا أن الطبرى جعل القول الثانى والرابع قولاً واحداً كما سيأتى . وهو الأظهر .

وقال ابن جرير : « واختلف أهل التأويل فى قوله : « بالحق » .

فقال بعضهم : معنى ذلك : وهو الذى خلق السماوات والأرض حقا وصواباً ، لا باطلاً وخطأً كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) (٢) وأدخلت الباء والألف ، كما فى قولك : فلان يقول بالحق - يعنى - أنه يقول الحق ، أى يصيب فى قوله ، فالحق صفة للقول ، فخلق السماوات والأرض حكمة من حكم الله تعالى ، والله موصوف بالحكمة فى خلقهما ، وخلق ما سواهما من سائر الخلق .

وقال آخرون : معنى ذلك : خلق السماوات والأرض بكلامه ، وقوله لهما :

(اثبتا طوعاً أو كرهاً) (٣) فالحق فى هذا الموضع معنى به كلامه .

(١) زاد المسير ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .

(٣) جزء من الآية ١١ من سورة فصلت .

واستشهد لذلك بقوله : (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) (١) . فالحق هو قوله وكلامه ، فالله تعالى خلق الأشياء بكلامه وقوله ، فما خلق به الأشياء فهو غيرها ، فكلام الله - تعالى - الذى خلق به الخلق غير مخلوق « (٢) .

قلت : وبهذا يظهر مراد البخارى - رحمه الله تعالى - فقول الله تعالى حق ، وهو صفة له ، وما وجد بقوله فهو غير القول ، بل هو المفعول المخلوق ، فقوله تعالى الذى خلق به الأشياء ، لا يجوز أن يكون ماثلا لها ، فلا بد من التفريق بين قوله الذى هو صفته وبين مفعولاته التى وجدت بقوله ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض .

وهو تعالى خلق السماوات والأرض وغيرها بقوله لها : كوني كما قال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين) (٣) .

قال الحافظ : « كأنه أشار بهذه الترجمة إلى ما ورد فى تفسير هذه الآية ، أن معنى قوله : « بالحق » أى بكلمة الحق ، وهو قوله : « كن » ويدل عليه ما فى أول الحديث - « وقولك الحق » فكأنه أشار إلى أن القول [فى الحديث] الكلمة ، وهى « كن » والله أعلم « (٤) .

وقال ابن المرتضى : « هذا إشارة من البخارى إلى مذهب أهل السنة فى إثبات الحكمة » (٥)

(١) جزء من الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ تحقيق محمود شاكر ملخصا .

(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٣٧١ .

(٥) إثبات الحق على الخلق ص ٢٠٥ .

قلت : هذا لاينافي ما ذكرنا ، فيجوز أن يقصد المعنيين ولكنه في الأول أظهر وأليق بمراد البخارى ، لأن القول بنفى الحكمة في خلق الله وفعله ظاهر البطلان .

قال البخارى : « الفعل إنما هو إحداث الشيء ، والمفعول ، هو الحدث . لقوله تعالى (خلق السماوات والأرض) (١)

قلت : يريد بذلك التفريق بين ما هو صفة لله تعالى ، وبين ما هو مفعول له مخلوق .

وقال الراغب : « أصل الحق : المطابقة والموافقة ، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة ، والحق يقال على أوجه :

الأول : يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل في الله تعالى - هو الحق - قال تعالى - : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) (٢) ، (فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون) (٣) .

الثاني : يقال لما وجد بمقتضى الحكمة ، ولهذا يقال : فعل الله تعالى - كله حق ، قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) (٤) .

الثالث : الاعتقاد المطابق لما عليه الشيء في نفسه ، كما في الحديث « ووعدك حق ، ولقائك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق » قال الله تعالى : (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) (٥) .

(١) خلق أفعال العباد ص ٢١٠ ضمن العقائد السلفية .

(٢) الآية ٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .

(٤) الآية ٥ من سورة يونس .

(٥) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

الرابع : الفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، ويقدر ما يجب ، وفي الوقت الذى يجب ، قال الله تعالى : (كذلك حققت كلمة ربك) (١) (حق القول منى لأملأن جهنم (٢)) (٣) .

قلت : يأتى أيضا موصوفا به دين الله وشرعه ، وأمره . كما فى قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى ورى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين) (٤) أى وعده أن يعثنكم ويجازيكم . وقال : - تعالى - (وتكتمون الحق) (٥) (الحق من ربك) (٦) (وإنه للحق من ربك) (٧)

قال الحلیمی : « الحق » ما لايسع إنكاره ، ويلزم إثباته والاعتراف به .

وجود البارى - تعالى - أولى مايجب الاعتراف به ، ولا يسع جحده ، إذ لامثبت تظاهرت عليه الدلائل البينة مثل ما تظاهرت على وجود البارى جل جلاله « (٨)

وقال أيضا : « الحق فى الأسماء الحسنى معناه : كما قال ابن برجان : الواجب الوجود بالبقاء الدائم ، الجامع للخير والمجد ، والمحامد كلها ، والثناء الحسن ، والأسماء الحسنى والصفات العلى »

(١) الآية ٦ من سورة غافر .

(٢) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٣) المفردات ص ١٢٥ بتصرف .

(٤) الآية ٥٣ من سورة يونس .

(٥) الآية ٧١ من آل عمران .

(٦) الآية ١٤٧ من سورة البقرة و ٦٠ من آل عمران .

(٧) الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

(٨) المنهاج ج ١ ص ١٨٨ .

ومعنى واجب الوجود : أنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفة وجوده ، وهو الذى أوجدها ، قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير) (١) . ولما أظهر جملة المخلوقات التى خلقها بالحق وللحق قال تعالى : (خلق الله السماوات والأرض بالحق) (٢) .

فإنه تعالى هو الحق المبين ، ووجوده الحق ، وقوله الحق ، وصفاته الحق ، وأسماؤه الحق « ١ هـ (٣) .

★ ★ ★

(١) الآية ٦ من سورة الحج .

(٢) الآية ٣ من سورة النحل .

(٣) المنهاج ج ١ ص ٣٦٩ .

١٥ — قال : « حدثنا قبيصة ؛ حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن سليمان ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، قال : كان النبي ﷺ يدعو من الليل : اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، قولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وأسرت ، وأعلنت ، أنت إلهي لا إله لي غيرك » .

* * *

حدثنا ثابت بن محمد ، حدثنا سفيان بهذا وقال : « أنت الحق ، وقولك الحق » .

كان النبي ﷺ - يقول هذا الدعاء بعد أن يكبر تكبيرة الإحرام في تهجده كما بينه ابن خزيمة حيث قال :

« باب ذكر الدليل على أن النبي - ﷺ - كان يحمد بهذا التحميد بعد أن يكبر . ثم ساق بالسند إلى ابن عباس ، قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا قام للتهجد قال بعد ما يكبر : اللهم لك الحمد الخ » (١) .

قوله : « اللهم لك الحمد » . الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية و« ال » فيه للاستغراق ، والاستقصاء ، أى جميع الحمد واجب ، ومستحق لله تعالى . فهو المحمود على صفاته ، وأسمائه ، وعلى نعمه ، وأياديه ، وعلى خلقه وأفعاله ، وعلى أمره وحكمه ، وهو المحمود أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

(١) صحيح ابن خزيمة ج ٢ ص ١٨٤ .

وأما الشكر : فلا يكون إلا على الصفات المتعدية ، ويكون بالقلب ،
واللسان والجوارح ، قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) (١) .

وقال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني ، والضمير المحجبا

قوله : « أنت رب السماوات والأرض » أى أنت مالكهما ومن فيهما ،
والمتصرف بهما بمشيئتك ، وأنت موجدتهما من العدم ، فالملك لك ، وليس لأحد
معك اشتراك أو تدبير ، تباركت وتعاليت .

قوله : « لك الحمد أنت قيم السماوات ، والأرض ومن فيهن » أى أنت
الذى أقمتهما من العدم ، والقائم عليهما بما يصلحهما ويقيمهما ، فأنت الخالق
الرازق ، المالك المدبر ، المحي المميت ، الغنى عن كل شئ ، وكل من سواك فقير
إليك ، ومصيره إليك ، كما أنك أنت الذى أوجدته ، فلك الحمد .

وفى رواية « قيام » ، وفى أخرى « قيوم » ، وكلها من أبنية المبالغة .

« والقيم معناه : القائم بأمور الخلق ، ومدبرهم ، ومدبر العالم فى جميع
أحواله .

والقيوم : هو القائم بنفسه مطلقا ، لا بغيره ، ويقوم به كل موجود ، حتى
لا يتصور وجود الشئ ولا دوام وجوده إلا به .

وقال النوربشتى : معناه : أنت الذى تقوم بحفظهما ، وحفظ من أحاطتا
به واشتملتا عليه ، وقال « من » تغليبا للعقلاء على غيرهم « اهـ (٢)

قوله : « لك الحمد أنت نور السماوات والأرض » قال الحافظ : أى

(١) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٢) من القسطلانى ج ١٠ ص ٣٦٩ .

منورهما ، وبك يهتدى من فيها » (١) .

وقال القاضي عياض : « معناه ذو النور أى خالقه »

وقيل : منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم .

وقيل : منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة » (٢) .

قلت : هذا تأويل باطل كما سيأتى بيان بطلانه .

قال شيخ الإسلام : فى جواب من قال : إنه يجب تأويل قوله : « الله نور السماوات والأرض » قطعاً . قال : « لانسلم أنه يجب تأويله ، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعى ، بل جماهير المسلمين لايتأولون هذا الاسم ، وهذا مذهب السلفية وجهور الصفاتية ، من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم ، وهو قول أبى سعيد بن كلاب ، ورد على الجهمية تأويلهم « اسم النور » وكذا الأشعري » اهـ (٣)

وقد نص الله تعالى فى كتابه أنه نور السماوات والأرض ، وزاد ذلك رسول الله ﷺ إيضاحاً وبياناً كما فى هذا الحديث وغيره .

وقد أخبر تعالى : أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره ، وصحت النصوص عن رسول الله ﷺ بأنه يحتجب بالنور ، فاذا كانت الأرض تشرق من نوره ، فهو جل وعلى نور كما قاله رسوله « أنت نور السماوات والأرض »

وقال تعالى : (الله نور السموات والأرض) (٤) وقال تعالى : (وأشرق

(١) الفتح ج ٣ ص ٤ .

(٢) المشارق ج ٢ ص ٣١ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٧٩ .

(٤) الآية ٣٥ من سورة النور .

الأرض بنور ربها) (١) .

وفي الحديث الذى رواه ابن إسحاق فى السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : فى دعائه « أعود بنور وجهك الذى أشرفت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » (٢) .

وقال ابن مسعود : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه » (٣)

وفى حديث أبى ذر فى صحيح مسلم ، قال : سألت رسول الله ﷺ - هل رأيت ربك ؟ قال : « نورٌ أتى أراه » وفى رواية « رأيت نورا » (٤) .

وفى حديث أبى موسى فى صحيح مسلم قال : قام فىنا رسول الله ﷺ بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولا يئسى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٥) .

السبحات هى : نوره ، وبهاؤه وجلاله .

(١) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

(٢) انظر مختصر السيرة لابن هشام ج ١ ص ٤٢٠ وقال شيخ الإسلام : رواه الطبرانى وغيره . انظر مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٣) رواه الدارمى فى الرد على بشر ص ٤٤٩ . وابن منده فى الرد على الجهمية ص ٩٩ ، قال ابن القيم رواه الطبرانى فى المعجم وفى السنة انظر اجتماع الجيوش ص ٦ .

(٤) انظر مسلم ج ١ ص ١٦١ .

(٥) مسلم ج ١ ص ١٦٢ .

فأخبر ﷺ أنه تعالى احتجب عن المخلوقات بحجابه النور ، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، ومعلوم أن بصره لا يفوته شيء ، ولا يستره ساتر ، ولا يحول دونه حائل .

وفي الترمذى عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » (١) .

فقد جاءت النصوص « بتسمية الرب نورا ، وبأن له نورا مضافا إليه ، وبأنه نور السماوات والأرض ، وبأن حجابه النور ، فهذه أربعة أنواع :

فالأول : يطلق عليه تعالى اسما له ، فإنه النور الهادى .

والثانى يضاف إليه كما تضاف إليه حياته ، وسمعه وبصره ، وعزته وقدرته وعلمه ، ومرة يضاف إلى وجهه الكريم ، وأخرى يضاف إلى ذاته المقدسة . فإضافته إلى وجهه تعالى - كقوله ﷺ - : « أعوذ بنور وجهك » وقوله : « نور السماوات والأرض من نور وجهه » .

وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) (٢) .

(١) انظر تحفة الأحوذى ج ٧ ص ٤٠١ وقال : حسن ورواه أحمد بسند صحيح انظر المسند ج ٢ ص ١٧٦ ، وانظر تحقيق أحمد شاكر ج ١٠ ص ١٢٧ ، وأخرجه الحاكم وصححه الذهبي انظر المستدرک ج ١ ص ١٠ ، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ج ١ ص ١٠٧ .

(٢) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

وكما في حديث عبد الله بن عمرو : « أن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره » الحديث .

ويضاف نوره تعالى إلى السماوات والأرض ، كقوله : (الله نور السماوات والأرض) (١)

وقوله في هذا الحديث : « أنت نور السماوات والأرض » .

وكذا حجاباه النور كقوله : « حجاباه النور - أو النار » كما في حديث أبي موسى « اهـ (٢)

قلت : المضاف إلى السماوات والأرض ، ليس هو صفته تعالى ، وكذلك قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) على القول بأن الضمير يعود إلى الله تعالى .

قال ابن القيم : « إضافة النور الى الله تعالى على أحد وجهين :

إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول : كقوله - عز وجل : « وأشرق الأرض بنور ربها » ، فهذا يكون يوم القيامة ، تشرق بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء بين عباده .
ومنه قوله في الدعاء المشهور : « أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا انت » . (٣)

وفي الأثر الآخر : « أعوذ بنور وجهك ، الذي أشرقت له الظلمات » (٤) .

(١) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٢) من الصواعق ملخصا من ٣٥٩ .

(٣) هو الحديث المتقدم ذكره ص ١٧٢ قال في الفتح الكبير : خرجه الطبراني .

انظر لفظه فيه ج ١ ص ٢٣٥ .

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل .

فأخبر - ﷺ - أن الظلمات أشرقت لنور وجهه ، كما أخبر الله تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

الوجه الثاني : ما ذكر في قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ، وقد اختلف على من يعود الضمير في « نوره » ، فقيل : على محمد - ﷺ - وقيل : على المؤمن ، والصحيح عوده على الله تعالى .

والمعنى : مثل نور الله في قلب عبده المؤمن ، وأعظم عباده نصيباً من هذا النور رسوله - ﷺ - .

فهذا النور يضاف إلى الله تعالى على أنه معطيه لعبده ، وواهبه ، كما يضاف إلى العبد لأنه محله وقابله « اهـ (١) .

فإن الله تعالى سمي نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه في الآخرة نورا يتلأأ . قال تعالى : (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج كأنها كوكب دري ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ، ولاغربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) (٢) ، قال أبي ابن كعب : بدأ الله بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن « (٣)

وفسر بكونه منور السماوات والأرض ، وبأنه هادي أهل السماوات والأرض ، وهذا لا يمنع أنه - تعالى - في نفسه نور ، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر - بضم الميم - من الأسماء ، أو بعض أنواع ذلك المفسر ، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات له .

(١) اجتماع الجيوش بتلخيص وتصرف ص ٦ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره ج ١٨ ص ١٣٥ .

فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض ، وهذا إنما هو فعله ، وأما النور الذى هو وصفه فهو قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور ، الذى هو أحد الأسماء الحسنى ، كما دلت على ذلك النصوص ، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات الباطلة .

وأما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها ، فلم تأت إضافتها إلى الله تعالى أبداً ، فلا يقال لأنوار المصاييح ، أو نور الشمس أو القمر أو الكواكب ، أنها نور الله .

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسماوات والأرض .

وهى : ربوبيتهما ، وقيوميتهما ، ونورهما .

فكونه سبحانه - رباً لهما ، وقيوما لهما ، ونوراً لهما أوصاف له تعالى ، وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما .

فأثر الربوبية : الخلق والإيجاد ، وأثر القيومية : صلاحهما ، وانتظامهما .
وأثر نوره - تعالى - استنارة السماوات ، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة .

وأما صفة الربوبية ، والقيومية ، والنور فهى قائمة به تعالى - كما أن صفة الرحمة ، والقدرة ، والإرادة ، والرضى ، والغضب قائمة به - تعالى - والرحمة الموجودة فى العالم ، والإحسان ، والخير ، والنعمة ، والعقوبة آثار تلك الصفات .
وهكذا علمه - تعالى - القائم به هو صفته ، وأما علوم عباده فمن آثار علمه ، وقدرتهم من آثار قدرته .

وبذلك يعلم أن قول المعطلة : « كل عاقل يعلم بالبديهة أن الله - سبحانه ليس هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر ، والمصاييح ، فلا بد من حمل قوله : « أنت نور السماوات والأرض » على معنى أنه منور السماوات والأرض أو هادى أهل السماوات والأرض » يعلم أنه باطل من جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله كما هو نهجهم .

ونحن نقول لهم أيضا : أسأتم الظن بكلام الله ، وكلام رسوله - ﷺ - حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع على الحيطان ، وغيرها ، وهذا الفهم الفاسد هو الذى أوجب لكم إنكار حقيقة نوره - تعالى - وجحده .

فجمعتم بين الفهم الفاسد ، وإنكار المعنى الحق .

وليس ما ذكرتم هو نور الرب - تعالى - القائم به ، الذى هو صفته ، وإنما هو مخلوق له منفصل عنه ، فإن هذه الأنوار المخلوقة ، تكون فى محل دون محل ، فنور الشمس والقمر ينور بعض الأرض لاجملتها ، ولا ينور السماوات .

فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما ، هو المراد بقوله - تعالى - : (الله نور السماوات والأرض) وقول الرسول - ﷺ - « أنت نور السماوات والأرض » فقد كذب على الله ورسوله . (١)

قوله : « وقولك الحق » أى أنت قلته حقا ، فهو صفتك . وما قاله الله تعالى - فهو صدق وحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، لا فى خبره ، ولا فى حكمه وتشريعته ، ولا فى وعده ووعدته .

وهذه الجملة هى محل الشاهد من الحديث ، حيث وصف قوله - تعالى - بأنه الحق ، فلا يجوز أن يكون مخلوقا كما تزعم الفرق الضالة من المعتزلة وغيرهم .

قال سفيان فى تفسيره : « إن كل شئ مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه ، لأنه يقول للشئ كن فيكون ، فلا يكون شئ أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله » (٢)

وقال أبو ذر - رضى الله عنه - : قال رسول الله - ﷺ - : « قال الله تعالى

(١) هذا مقتبس من كلام شيخ الإسلام . انظر مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٧٤ .

(٢) خلق أفعال العباد للبخارى ص ١٢٤ مجموع عقائد السلف .

عطائي كلام ، وعذابي كلام ، وإذا أردت شيئا فإنما أقول له : كن فيكون » (١) .
والذين أراد البخارى - رحمه الله - الرد عليهم من الجهمية والمعتزلة ونحوهم
ينكرون أن يكون لله - تعالى - كلام تكلم به يكون صفة له ، لأن هذا -
يزعمهم يقتضى أن يكون جسما حادثا ، لأن الكلام - زعموا - من الصفات
الدالة على حدوث من قام به ، لما فيه من الترتيب ، والتقديم والتأخير ، والتعاقب .
ولما رأوا اتفاق الرسل على إثبات الكلام لله تعالى ، وأن القرآن مملوء بذلك ،
قالوا : إن الله متكلم ، بمعنى أنه خالق الكلام .

ثم جاءت الأشعرية ، فقالوا : إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه . وليس
لله كلام منطوق به ، مسموع منه ، كما سيأتى إن شاء الله تفصيل ذلك في أبواب
الكلام .

وهم بذلك يتفقون مع المعتزلة على إنكار ثبوت الكلام لله حقيقة ، كما أنهم
يوافقونهم فى المعنى على أنه مخلوق ، وعلى هؤلاء جميعا اتجه الرد فيما قصده
البخارى وغيره من أهل السنة .

ومعلوم « أن : الإيمان الذى جاءت به الرسل عن الله - تعالى - وجاء به
خاتمهم مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، هو أن كلام الله صفة له غير مخلوق .
وأن القرآن والتوراة ، والإنجيل ، وغيرهما من كتب الله هى كلامه .

وكلام الله لا يكون مخلوقا منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم
منفصلا عنه ، فإن من أنكر ذلك فقد جحد كلام الله الذى هو رسالته ، وأنكر
حقيقة ما أخبرت به الرسل ، وعلمته أممها ، والحد فى أسماء الله وآياته ، ومثله
بالمعدوم ، والميت ، فإن الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحو ذلك صفات

كمال ، والله تعالى أحق بكل كمال ، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به ، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه ، لأنه هو الذى أعطى الكمال للكاملين .

ومن لم يتصف بصفات الكمال ، من الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك .

فإما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به .

أو غير قابل للاتصاف به .

فإن قبله ولم يتصف به ، كان موصوفا بصفات النقص ، كالموت والجهل ، والعمى والصمم ، والعجز ، والبكم .

فإن لم يقبل الإلتصاف بهذه الصفات ، كان أنقص من القابل الذى لم يتصف بها .

فالحيوان الذى يكون تارة سميعا ، وتارة أصم ، وتارة بصيرا ، وتارة أعمى وتارة متكلما ، وتارة أخرس ، أكمل من الجماد الذى لا يقبل لا هذا ، ولا هذا . فمن لم يصف الله تعالى بصفات الكمال ، لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص ، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص « (١) » .

قوله : « ووعدك الحق » أى لابد من وقوعه ، على ما وعدت ، فلا خلف فيه ولا تبديل .

« ولقاؤك حق » أى لابد للعباد من ملاقاتك ، فتجازيهم على أعمالهم ، واللقاء يتضمن الرؤية ، والمعانية ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

« والجنة حق ، والنار حق » أى ثابتتان ، موجودتان ، كما أخبرت بذلك أنهما معدتان لأهلها ، فهما دار البقاء ، وإليهما مصير العباد .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٣٥٥ .

« والساعة حق » أى مجيء يوم القيامة حق لا مرية فيه ، فهو ثابت لا بد منه ، وهى نهاية الدنيا ، ومبدأ الآخرة ، وفى ضمن هذه الأخبار - الأخبار عن إيمانه بما ذكر ، إيمانا لا يتزعزع ، والساعة يعبر بها عن البعث ، أى الساعة التى يبعث الله فيها الموتى من قبورهم أحياء ، فيجمعهم بعد تفرق أجزائهم وتشتتها ، بل واستحالتها ترابا ، وهباء ، وغير ذلك .

فيجمعهم ، ويحييهم ، كما كانوا فى الدنيا ، ويجازيهم بعد حسابهم ، وحشرهم . وأدخلت الألف واللام فى الساعة ، لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها ، وأنها مقصود بها قصد الساعة التى وصفت ، قاله الطبرى (١) .

« اللهم لك أسلمت » أى أذعنت لأمرك ، وانقدت له ، وخضعت لحكمك .

« وبك آمنت » أى صدقت ، وعملت بمقتضى ذلك ، بعد تحققى بالإيمان بك .

« وعليك توكلت » أى اعتمدت عليك ، ووكلت أمورى إليك ، راضيا بما قضيته لى ، بعد أن فعلت الأسباب التى جعلتها لى ، دينية كانت ، أو دنيوية . فالتوكل : هو الاعتماد على الله تعالى ، والثقة به ، وفعل الأسباب التى ربت عليها الأشياء ، والتى يستطيع العبد فعلها ، وهو من أفضل العبادة ، بل جاء ما يدل على أنه شرط فى حصول الإيمان كما فى قوله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (٢) .

(١) انظر تفسيره ج ١١ ص ٣٢٤ ، ولكثرة ما أخبروا بها ووصفت لها ، وخوفوا بقرها صارت معلومة لهم ، فأدخلت عليها الألف واللام لذلك .

(٢) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

« وإليك أنبت » أى رجعت إليك طائعا منقادا ، مذعنا ، خاضعا لك فى جميع أمورى .

« وإليك حاكمت » أى كل من أبى قبول الحق ، أو جحدده ، حاكمته إليك وجعلتك الحكم بينى وبينه ، مجانبا بذلك حكم كل طاغوت ، من قانون وضعى ، أو كاهن أو غيره ، مما يتحاكم إليه البشر ، من الأوضاع الباطلة شرعا .
وقدم صلوات هذه الأفعال كلها لإرادة التخصيص والحصر ، أى أحصك يارب وحدك فيما ذكر ، ولا أعدو ذلك بحال من الأحوال .

فى هذا الحديث قدم الثناء على الله - تعالى - بأن له الحمد ، وبما ذكر من صفاته ثم توسل إليه - تعالى - بإيمانه بأن قوله حق ، ووعدده حق إلى آخر ما ذكر ، وأنه مذعن لأمره ، منقاد لطاعته ، وأنه معتمد عليه ، وبه يخاصم وإليه يحاكم ، ثم بعد ذلك سأل حاجته ، وهى أن يغفر له ما قدم من خطأ ، أو تقصير ، وما أحر ، وما أسر ، وما أعلن .

ثم ختم ذلك بأنه لامفزع ، ولا ملجأ له غير ربه تعالى ، فهو إله الذى يعبدده بما ذكر ، ويخاف عقابه ، ويؤمل فضله ونواله ، فقال : « أنت إلهى لا إله لى غيرك » فلا أتوجه إلى سواك ، إذ كل مألوه غيرك باطل ودعوته ضلال ، وبال ، وهذا هو التوحيد الذى جاءت به رسل الله وفرضه تعالى على عباده .
قوله : « فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وأسرت ، وأعلنت » .

أصل الغفر : الستر مع الوقاية ، ومنه المغفر ، لأنه يستر الرأس ويقيه من السلاح .

« ما قدمت » أى قبل وقتى هذا .

« وما أخرت » أى بعد وقتى هذا ، أى اغفر لى ما عملت من الذنوب ،

وماسأعمله وماظهر منها لأحد من خلقك ، وماخفى عنهم ، ولم يعلمه غيرك .
 وقوله فى الرواية الأخرى : « أنت الحق ، وقولك الحق » فيها البيان بأن اسم
 الحق يقع على ذات الله - تعالى - اسما كما سبق بيانه ، ويقع على صفاته كما فى
 قوله « وقولك الحق » .

وفى هذا الحديث وأمثاله دليل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، إذ لو لم
 يكن له ذنب كيف يسأل المغفرة ، وقد قص الله تعالى ما وقع لبعض الرسل من
 المخالفات ، وهذه مسألة مشهورة عند العلماء . وقد ألف فيها مؤلفات خاصة ،
 وقد اتفق أهل السنة على أن مايلغونه من أمر الله وشرعه أنهم معصومون فيه من
 الخطأ ، وأما وقوع الذنوب منهم ففيه الخلاف . وقد بالغ بعض الناس ، وكفر من
 قال بوقوع الذنب منهم . وهذا جهل من قائله .

قال : « باب وكان الله سميعاً بصيراً »

* * *

يريد بهذه الترجمة بيان أن هاتين الصفتين - السمع والبصر - ثابتتان لله بالكتاب والسنة ، وإجماع أتباع الرسل ، وبالعقل ، والفطر ، وبيان أن الله - تعالى - لم يزل بصفاته ، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضلَّ عن كتاب الله ، وسنة رسوله ، واتبع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل .

قال القسطلاني : « وقد علم بالضرورة من الدين ، وثبت في الكتاب والسنة بحيث لا يمكن إنكاره ، ولا تأويله أن الباري - تعالى - حتى سميع بصير ، وانعقد إجماع أهل الأديان ، بل جميع العقلاء على ذلك » (١) .

« فالسمع والبصر ، والحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحوها صفات كمال لانقص فيها ، فمن اتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها ، والنقص في انتفائها لافي ثبوتها بإجماع العقلاء ، والقابل للاتصاف بها كالحَيوان أكمل ، ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجماد » (٢) .

قلت : الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله - تعالى - والقياس الفاسد حيث قاسوا ذلك على ما يعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل . قالوا : هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام .

(١) إرشاد السارى ج ١٠ ص ٣٧٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٨٨ .

فيقال لهم : هذه صفة أسمعكم وأبصاركم ، أمارب العالمين فصفاته تابعة لذاته ، وذاته ليس لها نظير أو شبيه ، فكذلك صفاته تعالى .

وكيفية صفاته تعالى مجهولة للخلق ، وكيفينا أن نعلم أنه تعالى متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسله حقيقة ، وأنه في ذلك ليس له مثل ، كما قال تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

قال الحافظ : « قال ابن بطال : غرض البخارى في هذا الباب الرد على من قال : إن معنى « سميع بصير » عليم ، قال : ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذى يعلم أن السماء خضراء ، ولايراهها ، والأصم الذى يعلم أن فى الناس أصواتا ، ولا يسمعها ، ولاشك أن من سمع ، وأبصر أدخل فى صفة الكمال ، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر .

فصح أن كونه سميعا بصيرا يفيد قدراً زائداً على كونه عليما .

وكونه سميعا بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ، ويصر ببصر ، كما تضمن كونه عليما أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين إثبات كونه سميعا بصيرا ، وبين كونه ذا سمع وبصر ، وهذا قول أهل السنة قاطبة » (١)

وقال البيهقي : « السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، وكل منهما فى حق البارى صفة قائمة بذاته » (٢)

وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله - تعالى ومن سنة رسوله - ﷺ - على إثبات السمع والبصر صفتين لله - تعالى - حقيقتين على مايليق بعظمته تعالى - قال الله تعالى : (إن الله كان سميعا بصيرا) (٣) ، (وكان الله

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٣ .

(٢) الاعتقاد ص ٥٨ .

(٣) الآية ٥٨ من سورة النساء .

سميعاً بصيراً) (١) (ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير) (٢) (إنه هو السميع البصير) (٣) ، (إن الله سميع بصير) (٤) ، (إن الله هو السميع البصير) (٥) ، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٦) ، (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) (٧) ، (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) (٨) .

في آيات كثيرة ، قد ذكر الله تعالى في القرآن السمع والبصر واصفاً بهما نفسه فيما يقرب من مائة آية ، مرة يجمع بين السمع والبصر ، ومرة بين السمع والعلم ، ومرة يذكر البصر وحده متعلقاً بعمل العباد كقوله : (بما تعملون بصير) ، (والله بصير بالعباد) .

وقد تقرر في الفطر والعقول ، أن عدم السمع والبصر ، والأرجل والأيدي نقص وعيب يمتنع معه دعوة الفاقد لذلك ، لامتناع كونه إلهاً ، إذ الإله يجب أن يكون سميعاً بصيراً حياً قادراً ، كاملاً ، لا نقص فيه ، ولا عيب ، قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله ، عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا

-
- (١) الآية ١٣٤ من سورة النساء .
 - (٢) الآية ٦١ من سورة الحج .
 - (٣) الآية ١ من سورة الإسراء .
 - (٤) الآية ٧٥ من سورة الحج .
 - (٥) الآية ٢٠ من سورة غافر .
 - (٦) الآية ١١ من سورة الشورى .
 - (٧) الآية ٥٦ من سورة غافر .
 - (٨) الآية ١ من سورة المجادلة .

لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها) (١)

وقال تعالى عن خليله إبراهيم في دعوته أبيه إلى الله تعالى : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) (٢) .

وأما سنة رسول الله - ﷺ - فقد جاءت موافقة لما في كتاب الله ومبينه له ، وهي كثيرة جداً ، نكتفي بذكر يسير منها بالإضافة إلى ما ذكره البخاري في الباب .

فمن ذلك ما رواه أبو داود بسند على شرط مسلم ، عن أبي هريرة أنه قرأ قول الله تعالى : (وكان الله سميعاً بصيراً) فوضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينه ، وقال : رأيت رسول الله ﷺ يقرأ ويضع إصبعيه « (٣)

قال البيهقي عقب روايته لهذا الحديث : « والمراد بالإشارة في هذا الخبر تحقيق الوصف لله - عز وجل - بالسمع والبصر ، فأشار إلى محل السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله - تعالى - ، وأفاد هذا الخبر أنه سمع بصير ، له سمع وبصر ، لا على معنى أنه عليم ، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب ، لأنه محل العلوم منا » (٤) .

ثم ذكر البيهقي لحديث أبي هريرة هذا شاهداً ، من حديث عقبة بن عامر ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على المنبر : « إن ربنا سمع بصير ،

(١) الآيتان من ١٩٤ - ١٩٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٤٢ من سورة مريم .

(٣) انظر سنن أبي داود ج ٥ ص ٩٧ .

(٤) الأسماء والصفات من ١٧٩ ملخصاً .

وأشار بيده إلى عينيه « (١) قال الحافظ : سنده حسن (٢) ، وروى اللالكائي عن ابن عباس أنه قرأ قوله تعالى (تجرى بأعيننا » فأشار بيده إلى عينيه « (٣)

قال ابن خزيمة : « نحن نقول : لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى ، وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما في السماوات ، وما بينهما من صغير وكبير ، لا يخفى عليه خافية فهو تعالى يرى ما في جوف البحار ، ولججها كما يرى عرشه الذى هو مستو عليه « (٤)

فالسمع والبصر من الصفات الثابتة لله - تعالى - بقوله عن نفسه ، ويقول رسوله - ﷺ - وبالعقل ، والفطرة ، وإجماع أهل العلم والإيمان ، ولم ينكر ذلك إلا شواذ الطوائف المارقة من الحق ، كالجهمية ، وإخوانهم من بعض المعتزلة ، وليس معهم على ذلك إلا التحذلق ، والكلام الفارغ ، من الحق والمعنى الصحيح أو التوهم بأن إثبات الصفات يقتضى التشبيه ، حيث توهموا أن صفات الله كصفات خلقه تعالى الله .

قوله تعالى : (وكان الله سميعا بصيرا) ، كان هنا تدل على الدوام ، والاستمرار الذى يعم جميع الأوقات ، كما قال علماء النحو : « إن كان تستعمل بمعنى : بقى على حاله ، واستمر شأنه ، وسيستمر من غير انقطاع ، ولا تقيد بزمن ، نحو : كان الله غفورا رحيفا « (٥)

قال ابن جرير : « إن الله لم يزل سميعا بما تقولون ، وتنطقون ، وهو سميع لذلك منكم إذا حكمتم بين الناس ، ولما تحاورونهم به .

(١) هذا الحديث لم أجده فى الصفات المطبوع فىكون فى النسخة التى نقل منها

الحافظ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٣ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج ٢ ص ٤١١ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٥٠ .

(٥) النحو الواضح ج ١ ص ٥٤٩ ، وانظر المقتضب للمبرد ج ٤ ص ١١٩ .

« بصيرا » بما تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأمواهم ،
وماتقضون به بينهم من أحكامكم ، بعدل تحكمون أو جور ، لا يخفى عليه شيء
من ذلك حافظ ذلك كله ، حتى يجازى محسنكم بإحسانه ، ومسيئكم بإساءته ،
أو يعفو بفضله » (١)

قوله : « قال الأعمش ، عن تميم ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : الحمد
لله الذى وسع سمعه الأصوات ، فأنزل الله - تعالى - على النبي - ﷺ - : (قد
سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) .

هذا الحديث رواه أحمد فى المسند موصولا (٢) وابن ماجه فى السنن (٣)
والنسائى (٤) . وكلهم يأتى مما ذكر البخارى .

ولفظهم : « أنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد
جاءت الجادلة - وللنسائى - خولة - إلى النبي - ﷺ - وأنا فى ناحية البيت ،
وما أسمع ماتقول ، فأنزل الله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) إلى
آخر الآية .

ورواه ابن ماجه فى كتاب الظهار من السنن بأتى مما هنا (٥) .

قال ابن عبد البر : « روينا من وجوه عن عمر بن الخطاب ، أنه خرج
ومعه الناس فمرَّ بعجوز ، فاستوقفته ، فجعل يحدثها وتحديثه ، فقال له رجل :
يأمر المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ، فقال : ويلك ، أتدرى من هذه ؟

(١) تفسير الطبرى ج ٨ ص ٤٩٤ بتحقيق محمود شaker .

(٢) انظر المسند ج ٦ ص ٤٦ ، وانظر الفتح الربانى ج ١٨ ص ٢٩٨ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٧ .

(٤) المجتبى ج ٦ ص ١٦٨ .

(٥) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٦٦ .

هذه امرأة سمى الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه حولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله) والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقها إلا الصلاة ، ثم أرجع إليها « (١)

قال ابن كثير : ورواه ابن أبي حاتم ، وساقه بسنده (٢) .

قوله : « وسع سمعه الأصوات » أى استوعبها وأدركها فلا يفوته منها شئ وإن خفى ، فحينما ذكرت المرأة قصتها لرسول الله - ﷺ - وقال لها : « قد حرمت عليه ، جعلت تقول : بصوت منخفض - يخفى على عائشة مع قربها منها - بعد ما كبرت سننى ظاهر منى ؟ إلى الله أشكو حال صبية إن ضممتهم إليّ جاعوا ، وإن تركتهم عنده ضاعوا ، فهذه مجادلتها لرسول الله - ﷺ - التي ذكرها الله تعالى - بقوله : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) وهذا من أبلغ الأدلة على اتصاف الله تعالى بالسمع ، وهو أمر معلوم بالضرورة من الدين ، لا ينكره إلا من ضلَّ عن الهدى .

وقول عائشة هذا يدل على أن الصحابة - رضى الله عنهم - آمنوا بالنصوص على ظاهرها الذى يتبادر إلى الفهم ، وأن هذا هو الذى أراد الله منهم ومن غيرهم من المكلفين ورسوله ، إذ لو كان هذا الذى آمنوا به واعتقدوه خطأ لم يقرؤا عليه ولبين لهم الصواب ، ولم يأت عن أحد منهم تأويل هذه النصوص عن ظواهرها ، لا من طريق صحيح ولا ضعيف ، مع توافر الدواعى على نقل ذلك مما يبين قطعاً أن الذى أريد منهم ، ومن كل مؤمن هو ظاهر الخطاب ، وهذا واضح لمن تأمل النصوص ، وعرف حال الصحابة .

وبهذا يتبين بطلان التأويل ، وأنه سلوك غير سبيل الرسول - ﷺ - وصحابته ، والتابعين لهم إلى نهاية الدنيا .

(١) الاستيعاب ج ٤ ص ١٨٣١ بتحقيق الجاوى .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٦٠ مطبعة الشعب .

١٦ — قال : « حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبي عثمان ، عن أبي موسى ، قال : كنا مع النبي - ﷺ - في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا فقال : « اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا ، قريبا ، ثم أتى عليّ ، وأنا أقول في نفسي : لا حول ، ولا قوة إلا بالله . فقال : يا عبد الله بن قيس ، قل لا حول ، ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة ، أو قال : ألا أدلك . به »

* * *

قوله : « كنا مع النبي - ﷺ - في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا » هذا مما كان النبي ﷺ يفعله ، فكان يكبر إذا علا نشزا ، ويسبح إذا هبط في منخفض من الأرض ، وقد بوب البخارى - رحمه الله - على الأمرين في الجهاد والدعوات من صحيحه فقال : باب التسبيح إذا هبط وادياً وبعده باب التكبير إذ علا شرفا . قال المهلب : « تكبيره ﷺ عند الارتفاع ، استشعار لكبرياء الله عز وجل ، وعندما يقع عليه العين من عظيم خلق الله أنه تعالى أكبر من كل شيء . والتسبيح في الأماكن المنخفضة استشعار بتنزيهه تعالى عن صفة السفلى والانخفاض » (١) .

وفيه دليل على علو الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه لا يجوز أن يكون شيء من خلقه فوقه تعالى وتقدس . وسيأتى البحث فيه إن شاء الله تعالى .
قوله : « فقال : « اربعوا على أنفسكم » أى ارفقوا بأنفسكم ، فلا تكلفوها

(١) فتح البارى ج ٦ ص ١٣٦ .

يرفع أصواتكم ، فإنه لاجاجة إلى ذلك ، فإن من تكبرونه ، وتسبحونه سميع بصير ، يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الجهرية ، ويرى الأشياء وإن دقت ، فلا يخفى عليه شيء .

قوله : « فإنكم لا تدعون أصم ، ولا غائبا » قال صاحب القاموس : « الصمم انسداد الأذن ، وثقل السمع بحيث لا يسمع الأصوات إلا إذا كانت مرتفعة عالية » (١) .

وقيل : هو انسداد الأذن ، وذهاب سمعها .

قوله : « ولا غائبا » أى ليس بعيداً ومستور الرؤية والسمع عنكم ، فيحتاج إلى المناداة ورفع الأصوات ، كما قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون) (٢)

ولهذا قال : « تدعون سميعا بصيرا قريبا » وهذه صيغ مبالغة ، لأن له تعالى تمام الكمال من هذه الصفات ، فلا يفوت سمعه أى حركة وإن خفية ، فيسمع دبيب التملة على الصفاة الصماء فى ظلمة الليل ، وأخفى من ذلك كما أنه - تعالى - لا يجيب بصره شيء من الحوائل ، فهو يسمع نغماتكم وأصوات أنفاسكم وجميع ما تلتفظون به من كلمات ، ويبصر حركاتكم ، وهو معكم قريب من داعيه ، وهو أيضا مع جميع خلقه باطلاعه ، وإحاطته ، وهم فى قبضته ، ومع ذلك هو على عرشه عال فوق جميع مخلوقاته ، ولا يخفى عليه خافية فى جميع مخلوقاته مهما كانت ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله فى مكانه .

قوله : « قل لاحول ، ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز ، من كنوز الجنة » الكنز هو المال النفيس المحفوظ ، والجمع والادخار يسمى كنزاً .

(١) انظر القاموس ج ٤ ص ١٤٠ .

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

وكنز الجنة : الأعمال الصالحة ، الفضيلة ، التي يقبلها الله ويرضاها فيحفظها ويدخرها لصاحبها ، فيكون سببا في دخوله الجنة ورفع منزلته فيها ، وهو دليل على تفاضل الأعمال ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً .

ومعنى هذه الكلمة : لانتقال من حالة إلى أخرى ، ولا انتقال من أمر إلى آخر ولا قوة على ذلك ، ولا قدرة إلا بالله ، فهو المعين عليه والمهيء لأسبابه والموجد لها ، فهي استسلام لله ، وإذعان لقدرة وإرادته ، وإقرار بأنه لا يقع حركة أو سكون إلا بمشيئته جل وعلا .

★ ★ ★

١٧ — قال : « حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثني ابن وهب ، أخبرني عمرو ، عن يزيد ، عن أبي الخير ، سمع عبد الله بن عمرو ، أن أبا بكر الصديق - رضی الله عنه - قال للنبي - ﷺ : يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي ؟ قال : قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي من عندك مغفرة ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

* * *

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي ، السهمي ، أبو محمد أسلم قديما ، وكان من أفاضل الصحابة وعبادهم ، ومن العلماء المكثرين عن رسول الله ﷺ ، فقد ثبت عن حافظ الأمة أبي هريرة رضي الله عنه قوله : « ما كان أحد أكثر مني حديثا عن رسول الله ﷺ إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب » (١) .

ومع ذلك فالمروى عنه أقل بكثير من المروى عن أبي هريرة ، وقد قيل : إن السبب في ذلك أن عبد الله سكن مصر والوارد إليها من الناس قليل ، وأبو هريرة سكن المدينة وهي مجمع الناس .

قيل : إنه توفي في مصر ، وقيل في الطائف ، وقيل في مكة ، وقيل في فلسطين سنة ثلاث وستين ، أو خمس وستين ، عن اثنتين وسبعين سنة ، رضي الله عنه ، وعن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين .

وأما أبو بكر فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة ، القرشي ، كان أبيض نحيفا خفيف العارضين ، وهو أفضل من صحب رسول الله ﷺ ، وهو أعلم الصحابة بالله ورسوله ، وهو أول من أسلم من الرجال ، ولسرعته إلى تصديق الرسول ﷺ وشدة قبوله لقوله سمى الصديق ، وهو رفيق رسول الله ﷺ في الهجرة ، وصاحبه في الغار ، كما قال الله

(١) رواه البخارى انظر الفتح ج ١ ص ٢٠٦ .

تعالى : (إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) (١) ، وقد أخبر النبي ﷺ أنه أمنَّ الناس عليه ، وأنه لو اتخذ من الناس خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً ، كما ثبت في الصحيحين ، وأخبر أنه أحب الناس إليه من الرجال ، وأن ابنته عائشة زوج رسول الله ﷺ أحب الناس إليه من النساء .

أمره رسول الله ﷺ أن يؤم الناس في مرض موته ، ولما روجع في ذلك غضب ، وقال : مروا أبا بكر فليصلَّ بالناس .

وفضائله كثيرة ، وقد كتب فيه مؤلفات ، توفي رضى الله عنه سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، ودفن جوار رسول الله ﷺ (٢)

قوله : « إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً » الظلم هو : وضع الشيء في غير موضعه .

« وهذا يدل على أن الإنسان لا ينفك عن الذنوب ، والتقصير في حقوق الله كما في الحديث : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٣) لأنه أطلق هذا الظلم ولم يقيده ، أو يخصصه بزمن دون آخر ، أو بحالة دون حالة ، فلو كان هناك حالة أو زمن من عمر الإنسان لا يكون فيه ظلم ماصح هذا الإطلاق ، ولأصار مطابقاً للواقع » (٤) .

قوله : « ولا يغفر الذنوب إلا أنت » تقدم معنى الغفر في اللغة ، والمقصود محو الذنوب ووقاية تبعاتها ، وهذا لجوء إلى التوحيد ، وأنه لا مفر ولا ملجأ يفزع

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) أسد الغابة ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٣) رواه ابن ماجه في السنن الزهد ج ٢ ص ١٤٢٠ الحديث رقم ٤٢٥١ ، والترمذى ج ٤ ص ٧٠ ، وأحمد في المسند ج ٣ ص ٩٨ .

(٤) شرح العمدة لابن دقيق العيد ج ٢ ص ٧٨ .

إليه في غفران الذنوب ، ووقاية شرها إلا الله وحده ، ولا طريق يسلك لذلك إلا الانطراح بين يدي رب العالمين ، والافتقار إليه ، والتوجه بكلية العبد إليه ، وإخلاص الدعاء له وحده ، رغبة ورهبة . كما قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (١).

فعلم العبد بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله يضطره إلى اللجوء إليه تعالى والإخلاص له ، وليس هناك طريق للنجاة إلا هذا الطريق ، ولهذا قيل : « إن التوحيد مفزع أولياء الله ، وأعدائه » أما أولياء الله فأمرهم ظاهر وأما أعداؤه ، فكانوا إذا وقعوا في الشدائد أحلصوا الدعاء لله وحده ، كما ذكر الله عنهم في القرآن ، ونظر العقل يؤدي إلى هذا دائما .

قوله : « فاغفر لي من عندك مغفرة » أى أنه لا حيلة لي ولا خلاص إلا بأن تمنّ على أنت وحدك بالمغفرة ، فتستر ذنوبي ، وتعفو عني ، وتقيني ما يترتب عليها من تبعات وشرور .

وقال : « من عندك » ليعين الاختصاص ، أى أن المغفرة منك وحدك تفضل بها عليّ ، بدون استحقاق ، بل هي محض جودك وكرمك .

وقوله : « إنك أنت الغفور الرحيم » ختم هذا الدعاء ، بهذين الاسمين الكريمين ، لمناسبتهما للمطلوب ، فالغفور يناسب طلب المغفرة .

والرحيم يناسب طلب التفضل والجود ، وهو قريب من الأول . وهذا من معاني دعاء الله بأسمائه الحسنی .

« وقد جمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه - عز وجل - بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ، ثم

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران .

سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا ، وهكذا أدب الدعاء ، وأدب
العبودية « (١)

والمقصود من الحديث في هذا الباب أن المدعو لا بد أن يكون سميعا يسمع
دعوة الداعي إذا دعاه ، بصيراً بحاله فيوصل إليه ما طلب بقدرته ، وإلا تكون
دعوته ضلال وسدى ، ففي الدعاء واستجابة الله تعالى لعبده الداعي برهان على
أنه سميع ، بصير ، قادر ، حى ، عليم ، وقد قال الله تعالى فيمن يدعو من
لا يسمع ، ولا يبصر : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى
يوم القيامة وهم عن دعاءهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا
بعبادتهم كافرين » (٢)

وقال تعالى عن خليله إبراهيم في دعوته لأبيه : (ياأبت لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » (٣)

« قد قال ابن عقيل : قد ندب الله تعالى إلى الدعاء ، وفي ذلك معان .

أحدها : الوجود ، فإن من ليس بوجود لا يدعى .

الثانى : الغنى ، فإن الفقير لا يدعى .

الثالث : السمع ، فإن الأصم لا يدعى .

الرابع : الكرم ، فإن البخيل لا يدعى .

الخامس : الرحمة ، فإن القاسى لا يدعى .

السادس : القدرة ، فإن العاجز لا يدعى .

(١) الوابل الصيب ص ١١٨ .

(٢) الآيتان ٥ و ٦ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ٤٢ من سورة مريم .

ومن يقول بالطبائع ، يعلم أن النار ، لا يقال لها كفى ، ولا النجم يقال له : أصلح مزاجي . لأن هذه عندهم مؤثرة طبعا لا اختيارا ، فشرع الدعاء ، وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع « (١)

و « فعل السمع يراد به أربعة معان :

أحدها : سمع إدراك ، ومتعلقه الأصوات .

الثاني : سمع فهم ، وعقل ، ومتعلقه المعاني .

الثالث : سمع إجابة وإعطاء ماسئل .

الرابع : سمع قبول ، وانقياد ، فمن الأول ، (سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) ، و (لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ، ونحن أغنياء) (٢) ، ومن الثاني : قوله : (لاتقولوا : راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا) (٣) أى سمع فهم وعقل ، ومن الثالث : سمع الله لمن حمده ، ومن الرابع : قوله : سماعون للكذب ، أى قابلون له ، ومنقادون ، فسمع الإدراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول يتعدى باللام ، وبمن ، وإجابته بمن « (٤) .

★ ★ ★

(١) شرح الطحاوية ص ٤٥٧ الطبعة الثالثة .

(٢) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة البقرة .

(٤) بدائع الفوائد ج ٢ ص ٧٥ .

١٨ - قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، حدثني عروة ، أن عائشة - رضي الله عنها - حدثته ، قال النبي - ﷺ : « إن جبريل - عليه السلام - ناداني . قال : إن الله قد سمع قول قومك ، وما ردوا عليك » .

* * *

اختصر البخارى هذا الحديث هنا - فذكر الشاهد منه ، وقد ذكره بتمامه في بدء الخلق ، ولفظه : « قالت للنبي - ﷺ - هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ » .

قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت - وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل فناداني ، فقال - : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يا محمد - فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال : النبي - ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً « (١)

ففي هذا الحديث البيان الواضح في أن الله - تعالى - يسمع أقوال عباده ، وأنه لا يخفى عليه - تعالى - من ذلك شيء .

(١) انظر البخارى مع الفتح ج ٦ ص ٣١٢ .

وصفة السمع والبصر من الصفات اللازمة لله - تعالى - وقد تقدم بيان
ثبوت ذلك له - تعالى - عقلا ، وشرعا ، وفطرة ، وأن من أنكر ذلك عرف به
وأعلم إن كان جاهلا ، وإلا حكم عليه بالكفر لإنكاره الحق الواضح ، الواجب
اعتقاده والإيمان به ، لأنه أنكر ما ثبت ، وتواترت عليه كتب الله ، وجاءت به
جميع رسله ، فهو أمر ضرورى .

★ ★ ★

قال : « باب قول الله - تعالى - « قل هو القادر »

* * *

هذا الخطاب الكريم ، وأمثاله كثير في كتاب الله - تعالى - عام شامل ، يجب أن يفهم على عمومه ، كما يجب أن يفهم مراد الله - تعالى - فيه ، وفي غيره من خطاباتة - تعالى - .

« وقد اتفق المسلمون ، وسائر أهل الملل على أن الله - تعالى - على كل شيء قدير كما في نصوص القرآن الكريم ، وغيره من كتب الله - تعالى - ، وما وجد من أفراد مسائل وقع الخلاف فيها ، فهو بسبب عدم فهم النصوص ، كقول من يدخل في هذا العموم ، الممتنع لذاته ، مثل الجمع بين الضدين ، ككون الشخص ميتا ، حيا في آن واحد ، والجمع بين الحركة ، والسكون ، والسواد والبياض وما أشبه ذلك .

وكذا من لا يدخل ذلك في هذا العموم ، فلا يكون ذلك داخلا عندهم في عموم القدرة .

والحق أن الممتنع لذاته ليس شيئا ، ولا وجود له في الخارج ، بل لا يتصوره الفكر ثابتا في خارج الذهن ، ويمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في الأذهان ، إلا على وجه التمثيل ، فهو ليس بشيء ، لا في الأعيان ، ولا في الأذهان ، فلا يصلح أن يقال : إنه خارج من هذا العموم ، أو داخل فيه ، لأن هذا يجعل له وجودا ولو في الفرض ، فيوقع في الشبه والشكوك ، بل يقال : (إن الله على كل شيء قدير) وهذا ليس بشيء .

وأما المعدوم ، فليس بشيء أيضا في الوجود الخارجى ، ولكنه شيء في

التصور ، والذهن ، وما علم الله - تعالى - أنه سيكون ، فهو شيء في التقدير ،
والعلم والكتاب ، وإن لم يكن شيئا في الخارج ، كما قال الله تعالى : (إنما أمره إذا
أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون) (١) .

فلفظ الشيء في الآية يتناول ما وجد ، وما يتصوره الذهن موجودا ولايستثنى
من ذلك شيء ، لا أفعال العباد ، ولا أفعاله - تعالى - سواء المتعدية ، أو
اللازمة ، كما قال تعالى : - (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم
استوى على العرش) « (٢) . فجمع فى الآية بين النوعين من الأفعال ، المتعدية
واللازمة .

والقدرة تتعلق بكل ما تتعلق به المشيئة ، فإن ما شاء الله كان ، ولا يكون
شيء إلا بقدرته - تعالى - : ولهذا قال - تعالى : (وهو على جمعهم إذا يشاء
قدير) (٣) (وهو على كل شيء قدير) (٤) .

والشيء فى الأصل ، مصدر شاء ، يشاء ، شيئا ، كنال ، ينال ، نيلا ، ثم
وضعوا المصدر موضع المفعول ، فسموا « المشاء » شيئا ، كما سمو المنال نيلا ،
فقالوا : نيل المعدن ، كما يسمى المقذور ، قدرة ، والمخلوق خلقا فقوله
تعالى : (على كل شيء قدير) أى على كل مايشاء ، فمنه ماقد شاءه فوجد ،
ومنه ما لم يشأه [فلم يوجد] وهو شيء فى العلم ، بمعنى أنه قابل لأن يشاءه .

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) انتهى من مجموع الفتاوى ملخصا ج ٨ ص ٧ - ١١ .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الشورى .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

فهذا العموم يتناول ما كان شيئاً في الخارج ، والعلم ، وما كان في العلم فقط ، بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة ، وهو الحق - تعالى - وصفاته ، أو الممتنع لنفسه ، فإنه غير داخل في العموم ، ولهذا اتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء» اهـ (١)

(١) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

١٩ - قال - « حدثني إبراهيم بن المنذر ، حدثنا معن بن عيسى ، حدثني عبد الرحمن بن أبي المولى ، قال : سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن ، يقول : - أخبرني جابر بن عبد الله ، السلمى ، قال : كان رسول الله - ﷺ - يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلم السورة من القرآن ، يقول : إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم يسميه بعينه - خيرا لى ، فى عاجل أمرى وآجله - قال : أو فى دينى ومعاشى ، وعاقبة أمرى - فاقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال : فى عاجل أمرى وآجله - فاصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به » .

* * *

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى الخزرجى ، من أكابر علماء الصحابة ، والحريصين على تحصيل العلم ، فقد ذكر له عدة رحلات فى طلب الحديث . منها أنه رحل من المدينة إلى مصر من أجل حديث واحد ، كما ذكره البخارى فى صحيحه معلقا ، وكان حافظا كثيرا عن رسول الله ﷺ . وهو مفتى المدينة فى زمانه . له مناقب كثيرة .

قال الواقدى : توفى سنة ثمان وسبعين ، وقال صاحب الحلية : سنة سبع وسبعين . قيل إنه عاش أربعاً وتسعين سنة رضى الله عنه وعن سائر صحابة رسول

قوله : « يعلمنا الاستخارة » أى صلاتها ودعاءها ، وهذا من تمام شفقتة على أمته ، وحرصه على حصول الخير لهم ، ودفع كل شر عنهم ، ويمثل هذا يعلم أنه ﷺ . ما كان ليترك باب ما يعتقدونه فى ربهم ، من الإيمان بأسماءه وصفاته ، وما يجب له ، وما يمنع عليه ما كان ليترك ذلك بدون إيضاح وبيان لا يحصل معه أى التباس أو اشتباه ، وهذا واضح جلى من دعوة الرسول ﷺ ، ومن حاله ، وهو موجب الرسالة ، ومن حالة أصحابه أيضا .

الاستخارة : طلب الخير من أحد الأمرين ، الفعل لما همَّ به ، أو الترك ، وهى مشروعة فى عامة الأمور ، كما يدل عليه هذا الحديث ، لا يخرج من عموم ذلك إلا الواجب ، والمحرم ، أما المستحب والمكروه ، ففيهما تفصيل ، يذكر فى كتب الآداب الشرعية ، وكتب الفروع .

وقوله : « كما يعلمنا السورة من القرآن » بيان لشدة الاهتمام بها والاعتناء . وهذا من محاسن الإسلام الظاهرة لكل عاقل ، وقد كان العرب قبل ذلك إذا همَّ أحدهم بالأمر ذهب يستقسم بالأزلام ، أو ذهب يزجر الطير ليستدل بطيرانه أو نعباه على ما سيحصل له فى المستقبل ، أو ذهب إلى الكهنة وإخوان الشياطين ، وهذا كله رجم بالغيب ، وشرك بالله . فعوضه الإسلام عن ذلك بالفزع إلى من بيده أزمة الأمور كلها ، ومن يملك الخير ، والشر ، فيقدمون بين يدي ذلك ركعتين ، لتكونا وسيلة بين يدي الطلب ، ثم يتوجهون إلى ربهم بهذا الدعاء ، الذى فيه التوسل إليه تعالى بأسماءه وصفاته ، وتوحيد الطلب ، والنية والقصد .

وقوله : « ليركع » أمر بالركوع ، ويحمل على الندب للأدلة الدالة على عدم الوجوب .

(١) انظر سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٨٩ ، والإصابة ج ١ ص ٢١٣ ، وأسد الغاية ج ١ ص ٢٥٦ ، والاستيعاب ج ١ ص ٢١٩ .

قوله : « من غير الفريضة » يدل على عدم حصول سنة الاستخارة بالدعاء عقب صلاة الفرض ، بل لا بد أن تكون بركعتين غير الفريضة ، ثم يدعو بهذا الدعاء .

قوله : « اللهم إني أستخيرك » أى أطلب منك بيان ماهو خير لى .

قوله : « بعلمك » أى أسألك ، وأتوسل إليك بصفتك ، صفة العلم أن ترشدنى إلى الخير فيما أريد ، فإنك عالم به لا يخفى عليك شىء .

وهذا صريح فى إثبات صفة العلم لله - تعالى - ودعاءه به ، والأدلة عليه لا حصر لها كما سبقت الإشارة إليه .

وقوله : « وأستقدرك » أى أسألك أن تجعلنى قادراً على فعل ما أريد ، وتبهيء أسباب ذلك لى .

وقوله : « بقدرتك » وهذا سؤال لله تعالى بصفته التى هى القدرة - أى أنت القادر الذى لا يعجزه شىء ، فأسألك بهذه القدرة العظيمة أن تنيلنى ما أريد ، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب كما هو ظاهر .

ثم عاد إلى التوسل بهاتين الصفتين ، بقوله : « فإنك تقدر ، ولا أقدر » الخ . يعنى - لك القدرة الكاملة الشاملة ، فأسألك بها ، كما أنى أسألك بفقرى إليك وعجزى ، فليس لى قدرة على شىء حتى تجعلنى قادراً عليه ، وتيسر لى أسبابه ، وأنت تعلم عواقب الأمور ، وما تؤول إليه ، بل لا يخفى عليك شىء فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فعلمك شامل لكل شىء ولا علم لى بشىء من ذلك إلا ما علمتنى .

وقوله : « وأنت علام الغيوب » أى ذلك خاص بك لا يعلمه سواك .

قوله : « ثم يسميه بعينه » ظاهر فى أنه يتلفظ به معينا له باسمه ، ليكون بذلك أقوى على اجتماع العزم على طلبه .

« في عاجل أمرى وآجله » أى فى دنياى ، وآخرى .

« أو فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى » شك من الراوى هل قال الأول أو الثانى ، والمعنى واحد .

وقوله : « فاقدرة لى ، ويسرّه لى » أى اقض به لى ، واجعلنى قادراً على الحصول عليه ، وسهل لى أسبابه بحيث أناله بلا مشقة وكلفة . وفى هذا ، أنه لا يحصل شئ إلا بسبب .

« ثم بارك لى فيه » أ جعل فيه بركة تنميه وتزيده ، وفيما يترتب عليه .
« اللهم إن كنت تعلم أنه شرّ لى ، فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى - أو قال : عاجل أمرى ، وآجله فاصرفنى عنه » أى هبىء الأسباب التى تصرف قلبى وتثنى عزمى عن فعله .

« وقدر لى الخير حيث كان » أى قدر لى فعل ما فيه خير لدينى ودنياى فى أى مكان ، وفى أى وقت .

« ثم رضنى به » أى اجعلنى رضيا به ، قانعا . ناعم البال ، مستغنيا عن خلقك مستعينا به على طاعتك ، وشاكرا لك منقادا لأمرك .

ومراد البخارى إثبات صفة القدرة لله تعالى ، وأن قدرته تعالى عامة لكل مقدر ، والرد على القدرية نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم الذين يقيدون قدرة الله تعالى بما اخترعوه من عند أنفسهم ، ولهذا اقتصر على هذا القدر من الآية أى القادر على كل شئ .

فالله تعالى يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، لا مانع له ، ولا يقدر غيره أن يمنعه مراده « فهو قادر على كل مقدر » .

وكل ممكن يكون مقدورا له ، فما من ممكن فى نفسه إلا والله قادر عليه .
وأما الممتنع لنفسه ، فإنه ليس بشئ عند جميع العقلاء وإن تنازعا فى المعلوم

الممكن مثل إيمان الكافر هل هو شيء أولاً ؟

فأما الممتنع لنفسه فلم يقل أحد أنه شيء في الخارج ، والممتنع هو ما لا يمكن وجوده في خارج الذهن ، مثل كون الشيء موجوداً معدوماً (١) فإنه لا يعقل ثبوت ذلك ، وكذا كون الشيء أسود كله وأبيض كله وكون الجسم الواحد بعينه في الوقت الواحد في مكانين ، والممتنع يراد به الممتنع لنفسه مثل هذه الأمور ، ويراد به الممتنع لغيره مثل ما علم الله أنه لا يكون ، وأخبر أنه لا يكون ، وكتب ذلك فهذا ممتنع لأنه لو كان للزم أن يكون علم الله متخلف عن معلومه ، وخبره بخلاف الواقع تعالى عن ذلك ، ولكن هو ممكن بنفسه والله قادر عليه ، كما قال تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) (٢) وقال تعالى : (وإنا على ذهاب به لقادرون) (٣) ، وقال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) (٤) (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) (٥) .

وأمثال ذلك مما يخبر تعالى أنه لو شاء لفعله ، فإن هذه الأمور التي أخبر أنه لو شاء لفعلها يلزم أنها ممكنة مقدورة له ، فإيمان من علم الله أنه لا يؤمن مقدور له ممكن ، لكنه لا يقع ، وقد علم الله أنه لا يؤمن ، مع كونه مستطيع الإيمان ، كمن علم أنه لا يحج مع استطاعته الحج .

(١) ومن ذلك قول بعض الملاحدة : هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه ، فهذا ممتنع لنفسه ، وإنما يورده جاهل لا يتصور ما يقول ، أو ملبس معاند يريد إفساد عقائد عوام المؤمنين أو التشكيك في قدرة الله تعالى .

(٢) الآية ٤ من سورة القيامة .

(٣) الآية ١٨ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٥) الآية ١١٨ من سورة هود عليه السلام .

قال الله تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (١) .
 وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله به في غير موضع من كتابه أنه على كل
 شيء قدير ، وهذا هو ما يعتقدُه أهل السنة المثبتون للقدر « (٢)

★ ★ ★

(١) الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

(٢) منهاج السنة ج ٢ ص ١١٨ - ١٢٢ ملخصا ببعض التصرف .

قال : « باب مقلب القلوب »

وقول الله - تعالى - : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) (١)

قال الراغب : « تقلب الشيء : تغييره من حال إلى حال ، والتقلب التصرف - وتقلب الله القلوب والبصائر : صرفها من رأى إلى رأى » (٢) .

قال ابن عباس : « لما جحد المشركون ما أنزل الله ، لم تثبت قلوبهم على شيء ، وردت عن كل أمر » (٣) .

وقال مجاهد : « وتحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة » (٤) .

قال الحافظ : « المراد بتقلب القلوب : تقلب أعراضها ، وأحوالها ، لا تقلب ذات القلب » (٥) .

أخبر - تعالى - أنه يعاقب من لا يقبل الحق ، أو يرده أول ما يبلغه بتقلب القلب ، وتركه يعمه في ضلاله وغيه ، كما في هذه الآية المذكورة في الباب وكما في قوله تعالى - : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٦) وفي هذا بيان أن الله تعالى إذا منع فضله الإنسان ، بالهداية ، أنه يكون منحرفا ضالا .

(١) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .

(٢) المفردات ص ٤١١ .

(٣) رواه الطبري انظر التفسير ج ١٢ ص ٤١ ، ٤٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٤ .

(٥) الفتح ج ١١ ص ٥٢٧ .

ومراد البخارى - رحمه الله - وصف الله - تعالى - بأنه المنفرد بالتصرف فى خلقه حتى قلوب العباد التى تنطوى على آراءهم ، ونياتهم ، وما يخططون لمستقبلهم حيث يرى كثير منهم أو أكثرهم فى الظاهر أنهم أحرار فى أفكارهم ، وما يريدونه ، والواقع أن الله تعالى هو الذى يصرفهم فى ذلك ، فلا قدرة لهم إلا بعد مشيئة ، وبهذا يشير البخارى رحمه الله إلى تمام قدرة الله التى سبق ذكرها فى الباب قبل هذا ، حيث بين بهذا أن الله هو المتصرف بالقلوب ، فإن شاء جعلها مريدة للخير ، وإن شاء جعلها مريدة للشر . وبذلك يعلم أنه لا قدرة لأحد على شئ إلا بعد أن يجعله الله قادرا عليه ، خلافا لما يقوله الضالون عن الحق ، من أهل البدع ، والانحراف .

٢٠ - قال : « حدثنا سعيد بن سليمان ، عن ابن المبارك ، عن موسى ابن عقبة ، عن سالم ، عن عبد الله ، قال : « أكثر ما كان النبي ﷺ - يحلف : لا ، ومقلب القلوب »

* * *

ذكر البخارى رحمه الله - هذا الحديث فى كتاب القدر ، بلفظ : « كثيرا ما كان النبي ﷺ - يحلف ، لا ، ومقلب القلوب » (١) .

وذكر عن ابن عمر - أيضا - « كانت يمين النبي ﷺ : لا ومقلب القلوب » (٢)

وفى رواية ابن ماجه : « كان أكثر أيمان رسول الله - ﷺ : لا ومصرف القلوب » (٣) .

قال الحافظ : « فى هذا الحديث ، دليل على أن أعمال القلب ، من الإرادات ، والدواعى وسائر الأعراض ، بخلق الله - تعالى - وفيه جواز تسمية الله تعالى بما ثبت من صفاته على الوجه الذى يليق به » (٤) .

ففى هذا الحديث ، وما هو نحوه من الدلائل أن الله تعالى هو الذى يتولى قلوب العباد يصرفها كيف يشاء ، وهذا من تمام ملكه ، فلا ينافى أحد فى التدبير والتصرف ، ولا يقع فى الوجود إلا ما أراده ، وبهذا يعلم مدى حاجة العبد إلى ربه ، وأنه لاغنى له عنه طرفة عين ، فلا بد له من هدايته ، وتوفيقه وإلا ضل

(١) انظر البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٥١٣ .

(٢) انظر المرجع المذكور ص ٥٢٣ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٧٧ رقم ٢٠٩٢ .

(٤) فتح البارى ج ١١ ص ٥٢٧ .

وتاه في مهامه نهايتها الهلاك ، والعذاب المؤبد ، وهذا لا ينافي تكليف العباد ، بالأعمال التي يترتب عليها الجزاء ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى في موضعه .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين ، من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفه كيف يشاء ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك » (١) .

(١) انظر مسلم كتاب القدر ج ٤ ص ٢٠٤٥ رقم الحديث ٢٦٥٤ .

قال : « باب إن لله مائة اسم إلا واحدة »

* * *

مراده بهذا الباب وجوب إثبات أسماء الله - تعالى - على ماورد في كتاب الله ، وعن رسوله ، وأن ذلك من التوحيد الذى بينه الرسول - ﷺ - ودعا أمته إلى الإيمان به ، ووجوب اعتقاده ، قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) (١) وقال جل وعلا : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيأماً تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٢) . وقال تبارك وتعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى) (٣) .

فهذه الآيات وغيرها مما فى معناها ، تدل على وجوب الإيمان بما لله تعالى من الأسماء الحسنى ، الدالة على عظيم جلاله ، وسعة أوصافه . فكل اسم من أسمائه دال على كمال عظمته ، وبذلك كانت حسنى ، أما الأسماء التى لاتدل على صفات الكمال ، فليست بحسنى ، وكذلك إذا اشتركت دلالتها بين الكمال والنقص ، أو دلت على مجرد علمٍ محض ، مثل إبراهيم ، وزيد . فلا تكون حسنى حتى تدل على كمال الصفة التى اشتقت منها الاسم ، مثل « العليم » فإنه يدل على أن له علماً عاماً محيطاً بجميع الأشياء ، لا يخرج عنه مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ومثل « القدير » الدال على قدرته التى لايعجزها شئ ، و « الرحيم » الدال على رحمته العظيمة التى وسعت كل شئ .

(١) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

وهكذا كل أسمائه جل وعلا ، وهذا تفصيل ، وبيان للباب الثاني من الكتاب ولكونها حسنى أوجب على عباده ، دعاءه بها ، كما يأتي في الباب بعد هذا ، ونوعد الملحدين بها .

فيدعى بكل مطلوب بما يناسبه منها ، فيقال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وتب عليّ إنك عفو كريم ، والطف بى يا لطيف ، وارزقنى يارزاق ، وهكذا .

« قوله : « إن لله مائة اسم إلا واحدة » التأنيث فى لفظة « واحد » نظراً إلى التسمية أو الكلمة ، كما يقول النحاة : « الكلمة اسم أو فعل أو حرف » .
وقال ابن مالك : أنت باعتبار معنى التسمية ، أو الصفة ، أو الكلمة » (١)

وفى بعض رواياته « إلا واحداً » .

قال ابن عباس : « ذو الجلال ، العظمة ، البر اللطيف » .

فى رواية : « ذو الجلال ، العظيم » ، فىكون « العظيم » تفسيراً « لذو » ، وعلى الأولى تفسيراً « للجلال » .

فدو الجلال ، صاحب العظمة ، الذى لانتقاس عظمته بشيء من خلقه جل وعلا .

وأما « البر » فهو المحسن غاية الإحسان إلى خلقه ، من غير استحقاق ولا مقابل ، فهو بليغ الإحسان إلى خلقه ، وإحسانه شامل لهم .

وأما اللطيف . فهو العالم بالخفيات ، ودقائق الأمور ، وغوامضها ، والله أعلم .

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٢١٩ .

وقال الزجاج : « اللطيف » المحسن إلى عباده في خفاء ، وستر من حيث يعلمون « (١) .

★ ★ ★

(١) تفسير الأسماء الحسنی ص ٤٤ .

٢١ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة » . « أحصيناه » حفظناه .

* * *

« قال جماعة من العلماء : الحكمة في قوله : « مائة إلا واحدا » بعد قوله : « تسعة وتسعين » أن يقرر ذلك في نفس السامع ، جمعا بين جهتي الإجمال والتفصيل ، أو دفعا للتصحيف الخطي ، أو اللفظي » (١)

قوله : « إن لله تسعة وتسعين اسما » هذا لا يقصد به حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد المذكور ، وإنما قصد الإخبار عن ما يترتب على إحصائها وجزائه كما تقول : عندي مائة كتاب أعددتها للإعارة . فلا ينفي أن يكون عندك كتب غيرها ، فالتقييد بهذا العدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بهذه الصفة وهي قوله : « من أحصاها دخل الجنة » فهذه الجملة محلها النصب صفة « لتسعة وتسعين » ، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء ، والمعنى « إن لله أسماء بقدر هذا العدد ، من أحصاها دخل الجنة » .

فأسماء الله تعالى ، لا تدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد ، بدليل ما رواه الإمام أحمد في المسند ، حدثنا يزيد ، أنبأنا ابن مرزوق ، حدثنا أبو سلمة الجهني (٢) ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله ، قال : قال

(١) الفتح ج ١١ ص ٢١٩ .

(٢) يزيد ، هو ابن هارون إمام حافظ مشهور ، وابن مرزوق ، هو فضيل بن مرزوق الأغر الرقاشي الكوفي من رجال مسلم ، وأبو سلمة هو موسى بن عبد الله أو ابن عبد الرحمن .

رسول الله ﷺ - : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ، ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل في قضاءك ، أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً » (١) سنده صحيح .

قال ابن كثير : « وأخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان في صحيحه بمثله » (٢)

فهذا يدل على أن لله أسماء غير التسع والتسعين .

وقوله في هذا الحديث : « أو استأثرت به في علم الغيب عندك » ، معناه انفردت بعلمه فلم تطلع عليه أحداً ، لا ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا .

وقسم أسماء الله تعالى في هذا الحديث ثلاثة أقسام :

أحدها : ماسمى به نفسه ، فأظهره لمن شاء ، من ملائكته أو غيرهم ولم ينزله في كتبه .

والثاني : أنزله في كتبه ، أو في بعضها ، فتعرف به إلى عباده .

والثالث : استأثرت به في علم الغيب عنده ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولهذا قال : « أو استأثرت به في علم الغيب عندك » أى جعلته من الغيب الذى لا يعلمه غيرك ، وليس المراد أنه - تعالى - انفرد بالتسمي به لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التى أنزلها في كتبه .

(١) المسند ج ١ ص ٣٩١ ، ٤٥٢ ، وانظر الفتح الرباني ج ١٤ ص ٢٦٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥١٧ ط الشعب .

ومن الأدلة على عدم حصرها فيما ذكر ، قوله : - ﷺ - في حديث الشفاعة « فيفتح عليّ من محامده مالا أحسنه الآن » وتلك المحامد ، هي الثناء عليه - تعالى - بماله من أسماء حسنى وصفات عليا .

ومن الأدلة أيضا قوله - ﷺ - : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) وأحسن الثناء ما كان بأسماء الحسنى وصفاته العلية .

وهذا يتبين أن الأسماء الحسنى غير محصورة في العدد المذكور ، وإنما خص ذكر هذا العدد لما رتب عليه من الحكم ، وهو من أحصاها دخل الجنة ، فليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى ، ولا يدل على أنه ليس لله اسم غير هذه التسع والتسعين ، وإنما أريد به الإخبار بدخول الجنة لمن أحصاها ، لا الإخبار بحصرها ، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ، كما ذكره الحافظ ، ونقل النووى الاتفاق على ذلك . (٢)

قال شيخ الإسلام : « والصواب الذى عليه جمهور العلماء ، أن قول النبى ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » معناه أن من أحصى التسعة والتسعين ، من أسمائه دخل الجنة ، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسما ، فإن في الحديث الآخر الذى رواه أحمد وأبو حاتم في صحيحه « أسألك بكل اسم هو لك » الحديث . وفي الصحيحين : « لا أحصى ثناء عليك » ولو أحصى جميع أسمائه ، لأحصى صفاته فكان يحصى الثناء عليه ، لأن صفاته يعبر عنها بأسمائه » (٣)

قوله : « من أحصاها دخل الجنة » اختلف في المقصود من الإحصاء ، وربما فهم من صنيع البخارى أنه يرى أن إحصاءها هو حفظ ألفاظها ، كما فهم

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة ج ١ ص ٣٥٢ ، وأبو داود في الوتر ج ٢ ص

١٣٤ وغيرهما .

(٢) انظر فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٠ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ج ٣ ص ٣٣٢ .

ذلك الحافظ ابن حجر ، وعندى فيه نظر ، وذلك أن عادة البخارى التى سار عليها فى كتابه هذا ، أنه إذا جاء لفظ فى الحديث ، وفى القرآن لفظ يوافقهما فى اللفظ والاشتقاق ، أنه يذكره وإن كان لا يوافقهما فى المعنى ، وأمثلة ذلك كثيرة . فهو فى قوله : « أحصيناه حفظناه » يشير إلى قوله تعالى : (وكل شئ أحصيناه فى إمام مبین) قال الأصيلي : « إحصاءها العمل بها ، لاعدّها وحفظها ، لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق ، كما فى حديث الخوارج : « يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم » (١)

وذكر العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - لإحصاءها ثلاث مراتب :

الأولى : إحصاء ألفاظها ، وعددها .

الثانية : فهم معانيها ومدلولها .

الثالثة : دعاؤه - تعالى - بها كما قال : (والله الأسماء الحسنى فادعوه

بها)

والدعاء نوعان : دعاء ثناء وعبادة .

ودعاء مسألة وطلب ، وكلا النوعين ورد بهما القرآن بكثرة .

فلا يثنى عليه تعالى إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، كما لا يسأل إلا بها ، ويسأل بها فى كل مطلوب بما يناسبه ، ويقتضيه من الأسماء الحسنى ، والصفات العلية الكريمة ، كما تقدمت الإشارة إليه .

وهذا من أعظم الوسائل إلى الله تعالى ، وأنفعها ، ولهذا جاءت أدعية

الرسول مطابقة لذلك » (٢)

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر بدائع الفوائد ج ١ ص ١٦٤ .

وبهذا يتبين أن إحصاءها الموعود عليه دخول الجنة ، يتضمن حفظها وفهمها ، ودعاء الله بها ، والله أعلم .

قال أبو عمر الطلمنكى : « من تمام المعرفة بأسماء الله - تعالى - وصفاته التي يستحق بها الداعى والحافظ ما قال رسول الله - ﷺ - المعرفة بالأسماء والصفات ، وما تتضمنه من الفوائد ، وتدل عليه من الحقائق ، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني » (١)

★ ★ ★

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٦ .

قال : « باب السؤال بأسماء الله تعالى ، والاستعاذة بها »

* * *

السؤال : هو الطلب بذل وخضوع وافتقار ، والاستعاذة هي : العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه ، ويرفع البلاء بعد نزوله . وهما من أفضل أنواع العبادة ، فالبخارى رحمه الله - أراد بهذا الباب أن يبين معنى دعاء الله تعالى بأسماءه الذى أمر الله به ، وأن الرسول - ﷺ - قد بينه .

قال ابن بطال : « مقصوده بهذه الترجمة ، تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى ، فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم ، كما تصح بالذات » (١)

قلت : هذا بعيد عن مقصود البخارى ، وإنما مقصوده بيان كيفية دعاء الله وعبادته بأسماءه التى أمر أن يدعى بها ، ويعبد بقوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ، وبين ذلك الرسول ﷺ بفعله ، وأمره ، كما فى الأحاديث التى ذكرت فى هذا الباب وغيرها .

وأما مسألة : هل الاسم هو المسمى ، أو غيره ؟ فهى من بدع الكلام ، التى حدثت بعد القرون المفضلة ، والتى اختلط فيها الحق بالباطل .
والبخارى - رحمه الله - من أبعد الناس عن مثل ذلك .

قال ابن جرير الطبرى - رحمه الله : « وأما القول . فى الاسم أهو المسمى أم هو غيره ؟ فإنه من الحماقات الحادثة ، التى لا أثر فيها فيتبع ، ولا قول من إمام فيستمع ، فالخوض فيه شين ، والصمت عنه زين . وحسب امرئ من العلم به والقول أن ينتهى إلى قوله جل ثناؤه الصادق وهو قوله : - تعالى - (قل ادعوا

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٩ .

الله ، أو ادعوا الرحمن ، أيًّا مَا تدعوا فله الأسماء الحسنى (١) وقوله : « والله الأسماء الحسنى » (٢) .

« وكان سبب حدوث هذه المسألة ، أن الجهمية قالوا : إن الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره ، وما كان غيره فهو مخلوق ، لأن الله - تعالى - وحده هو الخالق ، وماسواه مخلوق ، فإذا كانت أسماء غيره ، فهي مخلوقة . فرد عليهم السلف ، واشتد نكيرهم عليهم ، لأن أسماء الله من كلامه ، وكلام الله غير مخلوق ، فهو الذى سمي نفسه بهذه الأسماء .

فكان مراد الذين يقولون الاسم غير المسمى [من أهل السنة] هو هذا .

ولهذا روى عن الشافعى ، والأصمعى ، وغيرهما أنهم قالوا : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى ، فاشهد عليه بالزندقة » (٣)

وللناس فى هذه المسألة ثلاثة أقوال :

أحدها : ما ذكره ابن بطال ، وإليه ذهب كثير من المنتسبين إلى السنة كأبى القاسم الطبرى اللالكائى ، والبغوى ، وغيرهما .

قال البغوى : « والاسم هو المسمى ، وعينه ، وذاته ، قال الله تعالى : (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) (٤)

فأخبر أن اسمه يحيى ، ثم نادى الاسم ، فقال : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) (٥) .

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) عقيدة الطبرى ص ١٢ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ١٨٧ .

(٤) الآية ٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ١٢ من سورة مريم .

وقال تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتوها) (١) وأراد الأشخاص المعبودة ، لأنهم كانوا يعبدون المسميات .

وقال تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) ، وقال : (تبارك اسم ربك) .
والقول الثاني : أن الاسم غير المسمى .

والثالث : أن الاسم للمسمى ، وهذا القول دل عليه الكتاب ، والسنة قال تعالى - (والله الأسماء الحسنى) (٢) وقال : (أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٣) وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) (٤) وقال تعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى) (٥) .

ومن السنة هذا الحديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » .

وقوله - ﷺ - : « إن لي خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأحمد ، والمأحى ، والحاشر ، والعاقب » (٦) .

هذا مذهب أكثر أهل السنة .

فلا يطلقون بأنه المسمى ، ولا غيره ، بل يفصلون ، حتى يزول اللبس .
فإذا قيل لهم : أهو المسمى أم غيره ؟ قالوا : ليس هو نفس المسمى ، ولكن يراد به المسمى .

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٨ من سورة طه .

(٥) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

(٦) رواه البخارى ، انظره مع الفتح في التفسير ج ٨ ص ٦٤٠ ، وفي المناقب ج

٦ ص ٥٥٤ ، ومسلم في الفضائل ج ٤ ص ١٨٢٨ رقم ٢٣٥٤ ورقم ٢٣٥٥ .

وإن أريد بأنه غيره ، كونه بائناً عنه ، فهو باطل ، لأن أسماء الله من كلامه وكلامه صفة له ، قائمة به ، لا تكون غيره .

واسم الله - تعالى - في مثل إذا قيل : « الحمد لله » أو « بسم الله » يتناول ذاته وصفاته ، لا ذاتاً مجردة عن الصفات ، ولا صفات مجردة عن الذات . وقد نص الأئمة على أن صفاته ، داخلة في مسمى أسمائه ، فلا يقال : إن علمه وقدرته ، زائدة عليه .

ومن قال من أهل السنة : إن الصفات ، زائدة على الذات .

فمراده : أنها زائدة على ما أثبتته أهل التعطيل ، الذين أثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات ، لأنه ليس في الوجود ، ذات مجردة عن الصفات ، كما لا يمكن وجود صفات بلا ذات ، تقوم بها ، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس .

ثم إن الذين قالوا : إن الاسم هو المسمى ، ليس مرادهم ، أن مجرد اللفظ هو الذات ، التي وضع لها هذا الاسم ، فإن هذا لايقوله عاقل .

كما أن الذين قالوا : إن الاسم غير المسمى ، لم يريدوا أن مجرد اللفظ غير الذات ، فإن هذا لاجدال فيه .

وما ذكره البغوى - رحمه الله - محتجاً به على أن الاسم هو المسمى ، فهو لايدل على ما قاله .

فقوله - تعالى - : (وإنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) ثم قال : (يا يحيى خذ الكتاب) فاللفظ الذى هو « الياء والحاء والياء » ليس هو ذات المسمى به ، فمن زعم ذلك فقد كابر .

فالقصد نداء المسمى لانداء اللفظ ، والمتكلم لايمكنه نداء من يريد مناداته إلا ذكر اسمه ، إلا أن يكون ذلك بالإشارة .

وأما قوله - تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتوها ، أنتم وآبائكم ^(١))

فليس المراد : أنكم تعبدون الأوثان المسماة ، فهم معترفون بذلك .
بل المراد : نفى ما كانوا يعتقدونه فيها من الإلهية ، والواقع أنه ليس فيها شيء من ذلك .

فإذا عبدوها ، معتقدين ثبوت إلهيتها ، مسميها آلهة ، لم يكونوا في حقيقة الأمر عبدوا إلا أسماء ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس فيها من معنى الإلهية شيء ، فعبادتهم لما تصوروه في أنفسهم من معنى الإلهية وعبروا عنه بالستهم .

وهذا التصور خيالي ، لاحقيقة له ، فهم لم يعبدوا في الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد ، الذى تصوروه ، وسموه إلهاً ، فكان مجرد تسمية فقط ، ليس له من معنى الإلهية شيء .

وأما قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) . فالمراد به ، تسبيحه تعالى وتنزيهه عما لا يليق به ، معتقداً ذلك بقلبه ، متلفظاً باسمه بلسانه ، قائلاً : « سبحان ربى الأعلى » ، والمراد المسمى بهذا الاسم ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى .

ومن قال : المراد بتسبيح الاسم ، أنك لاتسمى به غير الله ، ولا تلحد في أسمائه . فهذا المعنى مما يستحقه اسم الله تعالى ، وهو داخل في المراد بالآية ، ولكن المقصود المعنى الأول . والله أعلم .

وأما قوله - تعالى : (تبارك اسم ربك) فالمعنى : أن البركة تكتسب ، وتنال بذكر اسمه .

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

ولو كان لفظ الاسم يراد به المسمى ، لكفى قوله : تبارك ربك ، لأن نفس الاسم عندهم هو الرب ، فيكون بذكر الاسم تكرر .

وبهذا يتبين أن الشبهة التي دعت كثيراً من العلماء إلى القول بأن الاسم هو المسمى أنها باطلة ، وهي : أن الله - تعالى - وحده هو الخالق ، وما سواه مخلوق ، فإذا قيل : إن أسماء الله غيره ، لزم أن تكون مخلوقة (١) .

(١) هذا البحث من أول صفحة ١٦١ كله مقتبس من رسالة شيخ الإسلام في الموضوع المثبتة في المجلد السادس من الفتاوى ، انظر ص ١٨٥ .

٢٢ — قال : « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى مالك ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ - قال : « إذا جاء أحدكم فراشه ، فليفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات ، وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

* * *

العبد الصادق العبودية ، لايفك عن عبادة ربه ، فى أمور حياته كلها ، فى خروجه من بيته ، وفى دخوله ، وفى أكله وشربه ، وفى نومه ويقظته ، وفى مقارنته لأهله ، ومعاملته للناس ، ولذلك أرشد الرسول ﷺ إلى هذا النوع من العبادة ، فى هذا الحديث وغيره عند النوم ، والاستيقاظ منه ، وهو من عبادة الله ودعائه بأسمائه .

قوله : « فليفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات » صنفة الثوب طرفه من الداخل ، لما فى الرواية الأخرى : « داخلة إزاره » . ولو فعل ذلك بغير طرف ثوبه حصل المقصود ، والحكمة فى ذلك إزالة مالعه يكون فيه مما يؤذيه ، وأمر بأن يكون ذلك ثلاث مرات ، للمبالغة ، وليكون ذلك وترا إذ الوتر معتبر فى الشرع .

« وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه » لما كان النوم نوعاً من الموت ، وقد يموت فيه حقيقة ، لجأ إلى ربه ، بذكر اسمه داعياً ، ومتبركاً به ، وسائلاً به المغفرة ، وهى ستر الذنوب ، والعمو عنها إن أمسك نفسه - أى قبضها فى النوم - فلم يردها إلى بدنها .

قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى ، إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك

لآيات لقوم يتفكرون» (١) .

« وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » أى إن رددتها إلى
بدنها ، فاحفظها من الشياطين ، والضلال ، والمؤذيات ، بحفظك وحمایتك ، التى
تحمى بها أولياءك الذين تتولى حفظهم من كل مضر ومؤذى .

ففى هذا الحديث مشروعية ذكر الله تعالى عند النوم ، ليكون موته الأصغر
على اسمه ، فيدخل بذلك فى العمل بقوله تعالى : (قل : إن صلاتى ونسكى
ومحياى ومماتى لله رب العالمين) (٢) .

وفيه الاستسلام لله ، والافتقار إليه ، وسؤاله ما لا غنى له عنه ، وهذا كله
من عبادة الله تعالى ودعاءه بأسمائه ، فهو تفسير لقوله تعالى : (والله الأسماء
الحسنى فادعوه بها) (٣) . وهذا هو وجه ذكر البخارى له ولما يأتى من
الأحاديث .

★ ★ ★

(١) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

(٢) الآية ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

٢٣ — قال : « حدثنا مسلم ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك ، عن ربي ، عن حذيفة رضى الله عنه : « كان النبي ﷺ - إذا آوى إلى فراشه ، قال : « اللهم باسمك أحيا وأموت ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور »

* * *

حذيفة هو ابن اليمان ، واسم اليمان حسيل أو حسيل ، وهو عيسى .
كان من كبار أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن الفقهاء النجباء أهل الفتوى ، وضح عنه أنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر - مخافة أن أقع فيه - ولهذا اقتص بمعرفة الفتن ، كما أنه عرف بصاحب السر ، حيث أسرَّ إليه رسول الله ﷺ أسماء المنافقين ، وأمره أن يكتم ذلك وسأله رجل عن أشد الفتن فقال : أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيهما تختار ، توفي رضى الله عنه سنة ست وثلاثين (١)

« إذا آوى إلى فراشه » أى رجع إليه بعد عمل النهار .

« اللهم باسمك أحيا ، وأموت » أى ذكرا اسمك فى حياتى ، مطمئنا به قلبى إذ لا راحة لى ، ولا اطمئنان إلا بذكر اسمك ، ولا حياة نافعة إلا بذلك . وعلى ذكر اسمك يارب أموت ، متوسلا به إليك أن تتولانى ، وتحفظنى فى جميع أحوالى .

« وإذا أصبح قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور »

النوم نوع من الموت ، واليقظة حياة ، وهو نعمة من الله على عباده حتى

(١) انظر الاستيعاب ج ١ ص ٣٣٤ ، الرياض المستطابة ص ٤٩ .

ترتاح أبدانهم ، وأفكارهم ، وقد ينام الإنسان فلا ترجع إليه روحه ، فإذا استيقظ سالماً ، قد رجع إليه نشاطه وقوته ، استوجب ذلك شكر الله - تعالى - والثناء عليه ، فناسب قوله بعد يقظته « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا » أى أرجع إلينا أرواحنا بفضله ومنته .

والنشور : هو البعث بعد الموتة الكبرى ، فمصيرنا إلى ربنا ، حتى يجازينا على أعمالنا كما وعدنا .

ففى هذا الحديث كالذى قبله ، ذكر اسم الله - تعالى - عند النوم ، والتوسل به ، والثناء عليه بأن له الحمد ، وهذا من الدعاء بأسماء الله الحسنى .

★ ★ ★

٢٤ — قال : « حدثنا سعد بن حفص ، حدثنا شيبان ، عن منصور ، عن ربيعي بن خراش ، عن خرشة بن الحر ، عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : كان النبي - ﷺ - إذا أخذ مضجعه من الليل قال : باسمك نموت ونحيا ، فإذا استيقظ قال : الحمد لله ، الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »

* * *

أبو ذر الغفارى اختلف فى اسمه ، واسم أبيه ، وصحح الحفاظ أنه جندب ابن جنادة ، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، غير أنه ذهب إلى قومه فتأخرت هجرته ، ففاته غزوات الرسول - ﷺ - الأولى ، وكان عازفاً عن الدنيا ، راغباً بما عند الله ، وقصة إسلامه فى الصحيحين وكان من الخنفاء قبل أن يسلم ، له أخبار كثيرة ، ومناقب شهيرة . توفى فى الربرة سنة اثنتين وثلاثين رضى الله عنه (١)

هذا الحديث ليس فيه زيادة على الذى قبله ، إلا قوله : « من الليل » والأول يدخل فيه نوم الليل ، والنهار .

★ ★ ★

(١) انظر الاستيعاب ج ١ ص ٢٥٢ ، والرياض المستطابة ص ٢٧٢ .

٢٥ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن سالم ، عن كريب ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله . فقال : بسم الله ، واللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً »

* * *

هذا نوع آخر من الدعاء بأسماء الله - تعالى - .
 « بسم الله » أى أفعّل ذلك ، ذاكراً اسم الله ، عابداً رى بهذا الذكر ، ومتبركا به .
 « اللهم جنبنا الشيطان » أى أبعدنا عنه ، فلا يشاركنا ، ولا يحضرنا .
 « وجنب الشيطان مارزقتنا » أى أبعد الشيطان عن الرزق الذى تقدره لنا من الولد ، فى هذا الاتصال .
 ولابد من الصدق فى ذلك من القلب ، والرغبة ، والإيمان ، والثقة بما قاله الرسول - ﷺ - حتى يحصل الموعود ، وهو عدم مضرة الشيطان للمولود .
 والمقصود ، ذكر الله - تعالى - عند مقاربة الزوجة ، والاستعاذة به من الشيطان ، أن يشاركه ، أو يحضره ، أو يضر المولود بحال من الأحوال .
 وهذا كما تقدم من بيان معنى قوله تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

★ ★ ★

٢٦ — قال : « حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا فضيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - سألت النبي ﷺ - قلت : أرسل كلابى المعلمة ؟ قال : « إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله ، فأمسكن فكل ، وإذا رميت بالمعراض فخرق فكل »

* * *

عدى بن حاتم : هو أبو طريف ، الجواد بن الجواد ، قدم على رسول الله ﷺ فى شعبان سنة تسع ، بسبب كتابة أخته ، فأسلم ، وقد فرح رسول الله ﷺ بإسلامه ، وهو ممن ثبت الله قومه على الإسلام ، حين ارتد الناس بسببه ، شهد فتوح العراق ، وساهم فيها .

وكان شريفا فاضلا ، جواداً عابداً ، روى عنه أنه يقول : مادخل على وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها ، ومن أقواله : « كثرة الكلام أوضع شئ لمقادير الرجال ، وأمضى الأشياء عندى رد السؤال بغير نوال » له أخبار كثيرة وفضائل ، توفى فى الكوفة سنة ثمان وستين ، وقيل غير ذلك ، وكان عمر طويلا ، قيل : كان عمره لما مات مائة وعشرون سنة رضى الله عنه (١)

وأما الحديث . فيدل على نوع آخر من أنواع عبادة الله تعالى بذكر اسمه على الصيد . والكلاب المعلمة . هى التى تقبل التعليم ، فإذا أمرت فعلت ، وإذا نهيت انتهت ، فإذا أرسلها صاحبها أمسكت الصيد له ، وليس لنفسها فلا تأكل منه .

ومفهوم الحديث أنه إذا لم يذكر اسم الله - تعالى - عند الإرسال أنه

(١) الاستيعاب ج ٣ ص ١٠٥٧ ، وأسد الغابة ج ٣ ص ٣٩٢ ، الإصابة ج ٢

لا يأكل مما أمسكت الكلاب المعلمة ، وكذا إذا لم يخزق المعراض - وهو السهم -
أى لم يجرح ، ولم يصب الصيد بحده ، بأن أصابه بعرضه فإنه لا يأكل . لأن
الصيد حيثئذ يكون وقيدة .

★ ★ ★

٢٧ — قال : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، قال : سمعت هشام بن عروة يحدث ، عن أبيه ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قالوا : يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك ، يأتونا بلحمان ، لاندري يدكرون اسم الله عليها أم لا ؟ قال : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » .

* * *

في هذا الحديث أن ذكر اسم الله على الذبيحة شرط في حل الأكل منها . وأنه إذا كان ظاهر الذابح الإسلام ، لايلتفت إلى الاحتمال بأنه ذبحها على غير اسم الله ، أو أنه لايعرف الحكم ، وما أشبه ذلك .

وقوله ﷺ : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » ليس معناه أن ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل يجعلها حلالا إذا كانت قد ذبحت على غير اسم الله تعالى ، ولكن أمرهم بذكر اسم الله عند الأكل لأنه الذى يلزمهم ، ومطيبا بذلك قلوبهم ، ومشيراً بذلك إلى اطراح الشك ، إذ الأصل خلافه ، وهو أن ظاهر الذابح الإسلام .

وهذا الحديث يدل على نوع آخر من عبادة الله - تعالى - بذكر اسمه على الذبيحة ، وعلى الأكل فهو من جنس ما تقدم .

★ ★ ★

٢٨ — قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : « ضحى النبي ﷺ بكبشين ، يسمّى ويكبر »

* * *

الأضحية هي : النسك الذى يذبح تقرباً إلى الله تعالى ، فى الوقت المحدد له .

والكباش : هو الذكر من الضأن .

و « قوله : « يسمّى ويكبر » يعنى عند الذبح ، يقول : بسم الله ، والله أكبر أى أذبح بسم الله متقرباً إليه عبادة له .

فهذا أيضاً من عبادة الله تعالى ودعائه بذكر اسمه تعالى . فى النسك الذى هو من أفضل القرب إلى الله تعالى .

٢٩ — قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن الأسود بن قيس ، عن جندب ، أنه شهد النبي - ﷺ - يوم النحر ، صلى ثم خطب ، فقال : « من ذبح قبل أن يصلى ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يذبح فليذبح باسم الله »

* * *

جندب ، هو : جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي العلقى ، نسبة إلى علقة بن عبقر بن أثمار ، سكن الكوفة ، ثم البصرة ، وتوفي بعد الستين رضى الله عنه (١)

المراد من الحديث قوله : « فليذبح باسم الله » أى ذاكراً اسم الله على الذبيحة ، عبادة له بذكر اسمه وبالذبح له ، متقرباً إليه بذلك ، كما أمر الله تعالى عباده ، بأن يخلصوا ذلك له وحده (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا أشريك له ، وبذلك أمرت) (٢)

وقال تعالى (فصل لربك وانحر) (٣) .

★ ★ ★

(١) انظر الاستيعاب ج ١ ص ٢٥٦ ، والرياض المستطابة ص ٤٦ .

(٢) الآيتان ١٦٢ و ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢ من سورة الكوثر .

٣٠ — قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا ورقاء ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر - رضی الله عنهما - قال : قال النبي - ﷺ - : « لا تحلفوا بأبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله »

* * *

المقصود بالحلف ، تأكيد الخير بذكر اسم العظيم ، الذي يوقع بالكاذب العقوبة ، ففي ضمن ذلك ، أن المحلوف به مطلع على حقيقة الأمر ، ولذلك صار الحلف بغير الله شركاً ، لما في الحديث الذي رواه الترمذی ، « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » (١)

ومراد البخاری من هذا الحديث أن ذكر اسم الله - تعالى - أو صفته لتأكيد الخير مشروع في الجملة ، وأنه لا يجوز ذلك لغير الله ، فيكون ذلك من العبادة بأسماء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) انظر سنن الترمذی ج ٣ ص ٤٥ ، وقال بعد ذكره : هذا حديث حسن ، وفيه أن ابن عمر سمع رجلاً يحلف بالكعبة ، فقال : لا يحلف بغير الله . ثم ذكره .

ورواه أحمد في المسند ج ٢ ص ١٢٥ وهو صحيح .

ورواه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٢٩٧ . وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ورمز له في حاشية الذهبي خ م يعني عند البخاری ومسلم ، وليس كذلك .

ورواه البيهقي في السنن الكبرى ج ١٠ ص ٢٩ .

قال : « باب ما يذكر في الذات ، والنعوت ، وأسامي الله عز وجل »

* * *

قال الحافظ : « أي ما يذكر في ذات الله ونعوته ، من تجويز إطلاق ذلك عليه ، كإطلاق أسمائه عليه ، أو منعه ، لعدم ورود النص » (١)

وقال عياض : « ذات الشيء وحقيقته ، وقد استعمل أهل الكلام الذات ، بالألف واللام ، وغلطهم أكثر النحاة ، وجوزه بعضهم ، لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء ، واستعمال البخاري لها على أنها حقيقة الشيء على ما استعملها المتكلمون في حق الله - تعالى - ولهذا قال : ماجاء في الذات والنعوت ، ففرق بينهما على طريقة المتكلمين » (٢)

وقال الراغب : « ذات تأنيث « ذو » ، وهي كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس ، والأنواع ، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافاً ، وقد استعاروا الذات ، فجعلوها عبارة عن عين الشيء ، جوهرًا كان أو عرضاً واستعملوها مفردة ، ومضافة ، [وأدخلوا عليها] الألف واللام . وأجروها مجرى النفس ، والخاصة ، وليس ذلك من كلام العرب » (٣)

وقال ابن برهان : « إطلاق المتكلمين الذات في حق الله تعالى من جهلهم ، لأن ذات تأنيث ذو ، وهو جلت عظمتة لا يصح له إلحاق تاء

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٨١ .

(٢) مشارق الأنوار ج ١ ص ٢٧٣ ملخصاً .

(٣) المفردات ص ١٨٢ بتصرف .

التأنيث . وقولهم : الصفات الذاتية ، جهل منهم أيضا لأن النسب إلى ذات ، ذوى « (١)

وقال الكندى : « ذات بمعنى صاحبة ، تأنيث ذو ، وليس لها في اللغة مدلول غير ذلك ، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين » (٢) .

قال الحافظ : « وتعقب بأن الممتنع استعمالها بمعنى صاحبة ، أما إذا قطعت عن هذا المعنى ، واستعملت بمعنى الاسمية ، فلا محذور ، لقوله تعالى : (إنه علم بذات الصدور) (٣) أى بنفس الصدور .

وقد حكى المطريزى كل ذات ، شئ ، وليس كل شئ ، ذات ، وأنشد ابن فارس :

فنعم ابن عم القوم فى ذات ماله إذا كان بعض القوم فى ماله وفر (٤)

وقال النووى : « مرادهم بالذات الحقيقة ، وهذا اصطلاح للمتكلمين ، وقد أنكره بعض الأدباء عليهم ، وقال : لا يعرف ذات ، فى لغة العرب بمعنى حقيقة ، وإنما ذات ، بمعنى صاحبة ، وهذا الإنكار ، منكر ، بل الذى قاله الفقهاء ، والمتكلمون صحيح ، وقد قال الإمام أبو الحسن الواحدى ، فى أول سورة الأنفال فى قوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) : (٥)

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ، ثعلب : معنى ذات بينكم - أى الحالة التى بينكم ، فالتأنيث عنده للحالة ، وهو قول الكوفيين .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٢ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) المرجع المذكور .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٢ .

(٥) الآية الأولى من سورة الأنفال .

قال : وقال الزجاج : معنى ذات بينكم ، حقيقة وصلكم ، والبين الوصل .

قال الواحدى : فذات عنده بمعنى النفس ، كما يقال : ذات الشيء ونفسه « (١)

قلت : وهذا الذى ذكره النووى هو مايقصده البخارى رحمه الله - ولهذا قال : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى أقام الذات ، مقام اسمه تعالى .

قال الحافظ : « واستعمال - البخارى - لها ، دال على أن المراد بها نفس الشيء على طريقة المتكلمين - فى حق الله تعالى - ، ففرق بين النعوت ، والذات « (٢)

وقال شيخ الإسلام : « لفظ ذات تأنيث ذو ، وذلك لا يستعمل إلا فيما كان مضافا إلى غيره ، فهم يقولون : فلان ذو علم ، وذو قدرة ، ونفس ذات علم ، وقدرة ، وحيث جاء فى القرآن أو لغة العرب ، لفظ « ذو » ولفظ « ذات » لم يجيء إلا مقرونا بالإضافة ، كقوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » وقوله : (علم بذات الصدور) ، وقول حبيب : وذلك فى ذات الإله » ونحو ذلك .

لكن لما صار النظار ، يتكلمون فى هذا الباب ، قالوا : إنه يقال : إنها ذات علم وقدرة ، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة ، وعرفوه ، فقالوا : « الذات » وهو لفظ مولد ، ليس من لفظ العرب العرباء ، ولهذا أنكروه طائفة من أهل العلم ، كأبى الفتح ابن برهان ، وابن الدهان ، وغيرهما ، وقالوا : ليست هذه اللفظة عربية .

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١١٣ القسم الثانى .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٢ .

ورد عليهم آخرون ، كالقاضي ، وابن عقيل ، وغيرهما .

وفصل الخطاب : أنها ليست من العربية العرياء ، بل من المولد ، كلفظ الموجود ، والماهية ، والكيفية ونحو ذلك .

فهذا اللفظ ، يقتضى وجود صفات ، تضاف الذات إليها ، فيقال : ذات علم ، وذات قدرة ، وذات كلام ، فإنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج ، لا يتصف بصفة ثبوتية أصلاً ^(١) .

وقال ابن القيم : « وأصل هذه اللفظة ، هو تأنيث « ذو » ، بمعنى صاحب فذات كذا ، صاحبة كذا ، فى الأصل .

ولهذا لا يقال : ذات الشيء ، إلا لماله صفات ، ونعوت تضاف إليه ، فكأنه يقول : صاحبة هذه الصفات ، والنعوت .

ولهذا أنكر جماعة من النحاة ، على الأصوليين قولهم : « الذات » ، وقالوا : لمدخل للألف واللام هنا ، كما لا يقال : « الذو » فى ذو ، وهذا إنكار صحيح . والاعتذار عنهم : أن لفظة الذات فى اصطلاحهم ، قد صارت عبارة عن نفس الشيء ، وحقيقته ، وعينه .

فلما استعملوها استعمال النفس ، والحقيقة ، عرفوها باللام ، وجردوها من الإضافة ، وهذا أمر اصطلاحى ، لا لغوى .

فإن هذا اللفظ يقال لما هو منسوب إليه ، أو من جهته ، كجنب الشيء فإذا قالوا : هذا فى جنب الله ، لا يريدون إلا ما ينسب إليه ، وفى سبيله ، ومرضاته وطاعته ، لا يريدون غير هذا .

فلما اصطلاح المتكلمون على إطلاق الذات ، على النفس ، والحقيقة ، ظن من ظن أن هذا هو المراد بمثل قوله : « ثلاث كذبات فى ذات الله » ،

(١) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٩٨ - ٩٩ .

وقوله : « وذلك في ذات الإله » ، وهذا غلط ، بل الذات هنا كالجنب ، في قوله : « يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » ، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال : فرطت في نفس الله ، وحقيقته ويحسن أن يقال : فرطت في ذات الله ، كما يقال : قتل في ذات الله ، وصبر في ذات الله » (١)

وبهذا يتبين أن هذا الاستعمال صحيح لا ينكر ، لأنه أمر اصطلاحى على معنى مفهوم معين .

وبعض الناس يظن أن إطلاق الذات على الله - تعالى - كإطلاق الصفات ، أى أنه وصف له ، فينكر ذلك بناء على هذا الظن ، ويقول : هذا ماورد . وليس الأمر كذلك ، وإنما المراد التفرقة بين الصفة ، والموصوف .

وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ ، أنهم يريدون ، نفس الموصوف وحقيقته ، فلا إنكار عليهم في ذلك ، كما وضحه كلام شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم .

قال القسطلانى : « والظاهر جواز إطلاق لفظ ذات ، لابلالمعنى الذى أحدثه المتكلمون ، ولكنه غير مردود ، إذا عرف أن المراد النفس ، لثبوت لفظ النفس في القرآن » (٢)

وأما « النعوت » فهو جمع نعت ، وهو الوصف ، يقال : نعت فلانا نعتا ، أى وصفه وصفاً ، وزنه ومعناه واحد ، ومنه الحديث « لاتباشر المرأة المرأة ، فتنتعها لزوجها ، كأنه يراها » (٣) .

(١) بدائع الفوائد ج ٢ ص ٧ ببعض التصرف .

(٢) رشاد السارى ج ١٠ ص ٣٧٩ .

(٣) رواه البخارى في كتاب النكاح ، انظر البخارى مع الفتح ج ٩ ص ٣٣٨ .

وأما الأسماء ، فهي جمع اسم ، وتجمع أيضا على أسماء .
 قوله : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى ذكر الله بلفظ الذات ، وسمعه
 النبي ﷺ فلم ينكره ، فصار دليلا على جواز ذلك .
 واعترض على استدلال البخارى بذلك ، لأن خبيثاً لم يرد الحقيقة ،
 والنفس . وإنما يعنى بقوله : « وذلك فى ذات الإله » أى فى سبيله ، وطاعته .
 والجواب : أن إطلاق لفظ الذات على الله تعالى جائز فى الجملة ، لورود
 الآثار ، فىكون ذلك أصلا للجواز ، وفى الحديث الصحيح المتفق عليه ، « أن
 إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات ، اثنتين فى ذات الله » (١)
 وفى حديث ابن عباس : « تفكروا فى كل شئ ، ولا تفكروا فى ذات
 الله » (٢)

قال الحافظ سنده جيد .

وقال ابن الدرداء : « لاتفقه كل الفقه ، حتى تمتت الناس فى ذات الله »

قال الحافظ إسناده ثقات ، إلا أنه منقطع (٣)

وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الأسماء والصفات فى الباب الأول .

وقد ذكر البخارى - رحمه الله - قصة خبيب وأصحابه فى كتاب
 المغازى ، وهى مشهورة ، فنكتفى بنص ما ذكره البخارى هنا .

(١) رواه البخارى ، انظره مع الفتح ج ٤ ص ٤١٠ و ج ٥ ص ٢٤٦ ،
 ومواضع أخر عدة ، ومسلم فى الفضائل .

(٢) قال فى كشف الخفا : رواه أبو نعيم فى الحلة ، وابن أبى شبة فى العرش ص

٣١١ ج ٤ ص ١٨٤٠ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٣ .

٣١ - قال « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عمرو بن أبى سفيان بن أسيد بن جارية ، الثقفى - حليف لبنى زهرة - وكان من أصحاب أبى هريرة أن أبا هريرة قال : بعث رسول الله ﷺ - عشرة منهم خبيب الأنصارى ، فأخبرنى عبيد الله بن عياض ، أن ابنة الحارث أخبرته ، أنهم حين اجتمعوا ، استعار منها موسى يستحد بها ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيب الأنصارى :
ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى شق كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزوع
فقتله ابن الحارث ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه خبرهم يوم
أصيبوا »

قال : « باب قول الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » وقوله - جل ذكره : « تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك »

* * *

المراد بالنفس في هذا الله تعالى ، المتصف بصفاته ، ولا يقصد بذلك ذاتا منفكة عن الصفات ، كما لا يراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس ، وسيأتي بيان ذلك من كلام السلف .

قال ابن جرير - رحمه الله تعالى - : « ويحذركم الله نفسه » أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم ، فتوافونه يوم (تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) وهو عليكم ساخط فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به » (١) .

وقال : « ويخوفكم الله من نفسه ، أن تركبوا معاصيه ، أو توالوا أعداءه ، فإن إلى الله مرجعكم ، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه ، فإنه شديد العقاب » (٢)

وقال ابن خزيمة : « أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا ذكر نفسه جل ربنا عن أن تكون نفسه ، كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدماً لانفس له » (٣)

(١) تفسير الطبري ج ٦ ص ٣٢١ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) المرجع المذكور ج ٦ ص ٣١٧ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٥ .

ثم ذكر بعض النصوص في ذلك كقوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) ثم ذكر ما رواه البخارى في هذا الباب . وحديث ابن عباس : « أن النبي - ﷺ - حين خرج إلى صلاة الصبح وجويرية جالسة في المسجد رجع حين تعالى النهار ، قال : لم تزالى جالسة بعدى ؟ قالت : نعم . قال : قد قلت بعدك : أربع كلمات ، لو وزنت بهن لوزنتهن (١) : سبحان الله العظيم وبحمده ، عدد خلقه ، ومداد كلماته ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه » (٢)

وذكر أيضا حديث محاجة موسى لآدم ، وفيه : « قال آدم لموسى : أنت الذى اصطفاك الله برسالاته ، واصطنعتك لنفسه » (٣) . ثم قال : « فالله جل وعلا أثبت في آى من كتابه أن له نفساً ، وكذلك قد بين على لسان نبيه - ﷺ - أن له نفساً » (٤)

وفي صحيح مسلم في حديث أبى ذر ، الطويل : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا » (٥) .

وفي السنن عن علي - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يقول في آخر وتره : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من

(١) يعنى لو وزنت هذه الأربع بماقلتيه منذ فارقتك لوزنتهن ، رواه مسلم في كتاب الذكر .

(٢) كتاب التوحيد ص ٧ ، رواه مسلم كتاب الذكر رقم ٢٧٢٦ ج ٤ ص ٢٠٩٠ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٩ وهو في الصحيحين ، انظر الفتح ج ٦ ص ٤٤١ و ٨ ص ٤٣٤ . وج ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ و ٢٠٤٤ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٨ .

(٥) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٤ .

عقوبتك ، وأعوذ بك ، منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) .

وتقدم ذكر حديث ابن مسعود في المسند مرفوعا : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك » (٢)

فهذه النصوص واضحة في أن المراد بالنفس هو الله تعالى كما قلنا . ولا يخالف ذلك ما قاله ابن خزيمة والأئمة ، لأن مقصودهم إثبات ما أثبتته الله من غير تعرض له بتأويل أو تمثيل ، تعالى الله عن الأمثال والأنداد ، والتمسك بالنصوص التي قالها الله ، ورسوله ، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل ، وأصحاب الوسوس الشيطانية ، التي تعود على النصوص بالإبطال ، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة ، ومن سلك طريقهم . وليس معنى ذلك الإعراض عن معاني النصوص ، كما يتوهمه بعض الناس من مذهب السلف ، ويعبرون عنه بالتفويض .

بل المقصود إثبات ما أثبتته الله لنفسه ، أو أثبتته له رسوله مع فقه المعنى اللائق بعظمة الله تعالى ، وفهمه ، على ما دل عليه قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . ونحوها من الآيات المحكمات ، والأمر في هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة .

روى ابن جرير ، عن مجاهد ، في قوله تعالى : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) (٣)

(١) سنن أبي داود ج ٢ ص ١٣٤ ، والترمذي ج ٥ ص ١٨٧ رقم ٣٥٦٢ ، والنسائي ج ٣ ص ٢٤٩ ، وابن ماجه ج ١ ص ٣٧٣ رقم ١١٧٩ ، ورواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٣٥٢ رقم ٢٢٢ .

(٢) المسند ج ٥ ص ٢٦٧ و ج ٦ ص ١٥٣ تحقيق أحمد شاكر .

(٣) الآية ١٥ من سورة طه .

قال : من نفسى . وأصله عن ابن عباس .

وروى عن أبى صالح : « أكاد أخفيها » ، قال : يخفيها من نفسه .

وعن قتادة ، « أكاد أخفيها » . وهى فى بعض القراءات « أخفيها من نفسى » (١) لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء المرسلين » (٢)

وقال ابن كثير : « أكاد أخفيها » قال الضحاك : عن ابن عباس أنه كان يقرؤها : « أكاد أخفيها من نفسى » ، يقول : لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً ، وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس ، « من نفسه » ، وكذا قال مجاهد وأبو صالح ، ويحيى بن رافع .

وقال السدى : ليس أحد من أهل السماوات والأرض ، إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهى فى قراءة ابن مسعود : « إني أكاد أخفيها من نفسى » . (٣)

وقال ابن جرير فى قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) . يقول : أنك يارب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسى مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحى ، فكيف بما نطقت به وأظهرته بجوارحى ، لو كنت قد قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله « كنت قد علمته ، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما نطقت به « ولا أعلم ما فى نفسك » يقول : ولا أعلم أنا ما أخفيته عنى فلم تطلعنى عليه ، لأنى إنما أعلم من الأشياء ما علمتته » (٤) .

-
- (١) هى قراءة ابن مسعود كما سيأتى عن ابن كثير وابن عباس .
 (٢) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٤٩ طبعة الحلبي .
 (٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٢ طبعة الشعب .
 (٤) تفسير ابن الطبرى ج ١١ ص ٢٣٨ تحقيق محمود شاكر .

وقال في قوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) أنعمت عليك يا موسى هذه النعم ، ومننت عليك ، هذه المنن اجتناءً منى لك ، واختياراً لرسالاتى ، والبلاغ عنى ، والقيام بأمرى ونهيبى « (١) .

وقال ابن كثير : « أى اصطفيتك واجتبتك رسولا لنفسى ، أى كما أريد وأشاء » (٢) .

وقال أبو سعيد الدارمى : « وادعى المعارض : أن الله لا يوصف بالضمير ، والضمير منفى عن الله ، وهى كلمة خبيثة قديمة ، من كلام جهم ، عارض بها جهم قول الله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) ، يدفع بذلك أن يكون الله تعالى سبق له علم فى نفسه ، من الخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم .

فرد عليه بعض العلماء ، وقالوا : كفرت بها من ثلاثة أوجه :

الأول : أنك نفيت عن الله العلم السابق فى نفسه قبل حدوث الخلق .

الثانى : أنك استجهلت المسيح ابن مريم - عليه السلام - بأنه وصف ربه بأن له خفايا علم فى نفسه ، إذ يقول : « ولا أعلم ما فى نفسك » .

الثالث : أنك طعنت به على محمد - ﷺ - إذا جاء به مصداقاً لعيسى .

قال أبو سعيد : وقول جهم هذا أصل كبير فى تعطيل النفس والعلم السابق ويرد عليه بقوله : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ، فذكر المسيح أن الله علماً سابقاً فى نفسه ، يعلمه الله ، ولا يعلمه هو .

ثم روى عن أبى البحتري أنه قال : « لايقولن أحدكم : اللهم أدخلنى مستقر رحمتك ، فإن مستقر رحمته نفسه » (٣) .

(١) تفسير الطبرى ج ١٦ ص ١٦٨ مطبعة الحلبي .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٧ طبعة الشعب .

(٣) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي ص ٥٥٠ عقائد السلف

ملخصاً بتصرف .

وقال الراغب : « نفسه ، ذاته ، وهذا وإن كان قد حصل من حيث اللفظ مضاف ، ومضاف إليه ، يقتضى المغايرة ، وإثبات شيئين من حيث العبارة ، فلا شيء ، من حيث المعنى سواء - سبحانه - عن الاثنوية من كل وجه » (١)

قال الحافظ : قال البيهقي : والنفس فى كلام العرب على أوجه .

منها الحقيقة ، كما يقولون فى نفس الأمر ، وليس للأمر نفس منفوسة . ومنها الذات ، قال : وقد قيل فى قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك) أن معناه : تعلم ما أكنه ، وما أسره ، ولا أعلم ماتسره عنى » (٢) « وقال أبو إسحاق الزجاج فى قوله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) أى إياه .

وحكى صاحب المطالع فى قوله تعالى : (ولا أعلم ما فى نفسك) ثلاثة أقوال :

أحدها : لا أعلم ذاتك .

ثانيها : لا أعلم ما فى غيبك .

ثالثها : لا أعلم ما عندك ، وهو بمعنى قول غيره : لا أعلم معلومك أو إرادتك ، أو سرك ، أو ما يكون منك » (٣)

قال ابن بطال : فى هذه الآيات والأحاديث ، إثبات النفس لله تعالى . وللنفس معانٍ ، والمراد بنفس الله تعالى ذاته ، وليس بأمر مزيد عليه فوجب أن يكون هو » (٤) .

(١) المفردات ص ٥١١ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٤ ، ذكر الحافظ كلام البيهقي بالمعنى ، فصار أحسن من كلام البيهقي ولهذا أثرته وهو فى الأسماء . والصفات ص ٢٨٦

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع نفسه .

وقال شيخ الإسلام : « ونفسه هي ذاته المقدسة » (١)

وقال أيضا : « ويراد بنفس الشيء ذاته ، وعينه ، كما يقال : رأيت زيدا نفسه ، وعينه ، وقد قال تعالى : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) وقال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال : (ويحذركم الله نفسه) وفي الحديث : « سبحان الله رضا نفسه » ، وفي الآخر : « إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » .

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء ، الله نفسه التي هي ذاته ، المتصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات .

وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات .

كما يظن طائفة ، أنها الذات المجردة عن الصفات ، وكلا القولين خطأ » (٢)

★ ★ ★

(١) مجموع الفتاوى ج ١٤ ص ١٩٦ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٩ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ باختصار قليل .

٣٢ - قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : مامن أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ، ومامن أحد أحب إليه المدح من الله »

* * *

هذا الحديث ذكره البخارى فى مواضع متعددة ، فتقدم فى تفسير سورة الأنعام . وفيه : « ولا شىء أحب إليه المدح ، من الله ، ولذلك مدح نفسه » (١) « فذكر النفس ثابت فى هذا الحديث ، وإن كان لم يقع فى هذه الطريق ، لكنه أشار إليه ، كعادته ، فإنه - رحمه الله - كثيراً ما يترجم ببعض ماورد فى طرق الحديث الذى يورده » (٢) .

قلت : وهذه الجملة من الحديث المذكورة فى التفسير هى محل الشاهد ، فهو يشير إليها .

وسياتى الكلام إن شاء الله فى الغيرة بعد أربعة أبواب غير هذا ، وتقدم الكلام فى النفس ، مافيه كفاية .

قوله : « من أجل ذلك حرم الفواحش » . الحرام هو الممنوع ، وتحريم الله تعالى - للشىء ، هو منعه منه شرعاً ، أو قدراً ، فالشرع نحو مافى هذا الحديث وهو كثير جدا - أى أمثلته .

وأما القدر فكقوله - تعالى : (وحرام على قرية أهلكتها أنهم

(١) انظر الفتح ج ٨ ص ٢٩٥ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٥ .

لا يرجعون (١) وقوله : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) (٢)

والفواحش : جمع فاحشة ، وهى : ما عظم قبحه من الأفعال ، والأقوال فى الشرع ، أو فى العقل أو فى العرف .

قوله : « وما أحد أحب إليه المدح من الله » كلمة « أحد » لا يوصف بها فى الإثبات شىء من الأعيان إلا الله تعالى ، ولكنها تستعمل فى غير الله ، فى النفى وما فى معناها ، كالشرط ، والاستفهام ، وتستعمل فى أول العدد ، كأحد اثنين وأحد عشر ، ولهذا لم يجيء فى القرآن استعمالها لغير الله ، إلا فى غير الموجب ، أو فى الإضافة ، كقوله تعالى : (فابعثوا أحدكم) .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد فى الدار ، ولا تنقل : فيها أحد (٣)
والمدح : هو الثناء الحسن ، قال الجوهري : « المدح : الثناء الحسن ، وقد مدحه وامتدحه ، بمعنى ، وكذلك المدحة ، والمديح ، والأمدوحة » (٤)

وفى كليات أبى البقاء ، بعد ما ذكر قول الجوهري قال : « وقيل المدح الثناء باللسان على الجميل مطلقاً ، سواء كان من الفواضل ، أو من الفضائل ، وسواء كان اختيارياً ، أو غير اختيارياً ، ولا يكون إلا قبل النعمة » (٥) .

فالمدح ذكر محاسن المدوح ، والإخبار عنها على سبيل الثناء ، والتعظيم بذلك ، فإن اقترن بالحب ، والإرادة ، فهو حمد ، لأن الحمد هو ذكر محاسن المحمود ، والإخبار عنها مع حبه ، وإجلاله ، وتعظيمه ، فهو خير يتضمن الإنشاء (٦) .

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ١٢ من سورة القصص .

(٣) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ١٣٧ .

(٤) انظر الصحاح ج ١ ص ٤٠٣ .

(٥) الكليات ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٦) بدائع الفوائد ج ٢ ص ٩٣ .

ومدح الإنسان نفسه نقص يلام عليه ، وكذلك طلبه من الناس ، وتكلفه لذلك ، يدل على نقصه ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن المدح ولاسيما في الوجه ، لأن ذلك مظنة الفتنة والاعتزاز ، وقد يكون المدح بالكذب ، وربما حمله المدح على ظلم من لم يمدحه .

وفي صحيح مسلم عن همام بن الحارث أن رجلا جعل يمدح عثمان ، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه ، وكان رجلا ضخما - فجعل يجثو في وجهه الحصباء ، فقال له عثمان : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله - ﷺ - قال : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب » (١)

وروى ابن ماجه ، عن معاوية قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إياكم والتماذج فإنه الذبح » (٢) وسنده حسن ، وفي ذلك أحاديث كثيرة .

قال النووي : « قال العلماء : الجمع بين هذه الأحاديث وما جاء دالا على الجواز أن النهي محمول على المجازفة في المدح ، والزيادة في الأوصاف أو على من يخاف عليه الفتنة ، من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح ، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ، ورسوخ عقله ، ومعرفته ، فلا نهى في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة » (٣) .

أما الله - تعالى - فلكمال المطلق مدح نفسه ، لأنه أهل المدح والثناء ولأن الخلق لا يقدر على مدحه بما يستحق ، كما قال الرسول - ﷺ - : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٤) .

(١) مسلم ج ٤ ص ١٢٩٧ ، وابن ماجه ج ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٢ .

(٢) السنن ج ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٣ .

(٣) شرح مسلم ج ١٨ ص ١٢٦ .

(٤) سبق تخرجه قريبا .

قال النووي : « حقيقة مدح العباد لله تعالى : هو مصلحة للعباد ، لأنهم
يشنون عليه سبحانه فيثيبهم ، فينتفعون ، وهو سبحانه غنى عن العالمين ، لا ينفعه
مدحهم ، ولا يضره تركهم ذلك ، وفيه تنبيه على فضل الثناء عليه سبحانه
وتسبيحه ، وتهليله ، وتحميده ، وتكبيره ، وسائر الأذكار » (١)

★ ★ ★

(١) شرح مسلم ج ١٥ ص ٧٧ .

٣٣ - قال : « حدثنا عبدان ، عن أبي جمرة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : قال : « لما خلق الله الخلق ، كنت في كتابه - وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش - إن رحمتي تغلب غضبي »

* * *

قوله : « لما قضى الله الخلق » قضى : يأتي بمعنى حكم ، وأمر ، وقدر ، وفرغ وأمضى ، وأتقن ، ومعناه هنا : فرغ من خلق الخلق ، فهو نحو قوله تعالى : (فقضاهن سبع سماوات) أو فرغ من تقدير الخلق ، ويدل لذلك الرواية الآتية في آخر الكتاب « قبل أن يخلق الخلق » .

قوله : « كتب في كتابه » يجوز أن يكون المعنى : أمر القلم أن يكتب ، كما قال الحافظ . ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب تعالى بدون واسطة ، ويجوز أن يكون قال : « كن » فكانت الكتابة ، ولا محذور في ذلك كله ، وقد ثبت في سنن الترمذى ، وابن ماجه في هذا الحديث : « أن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي » (١)

ولا يصح أن يراد بالكتابة : الحكم الذى قضاه ، نظير قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) لقوله : (فهو عنده فوق العرش) .

وكتابه تعالى ذلك . لتأكيد هذا الحكم ، وإخبار عباده به حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه ، أو لحكمة الله أعلم بها ، وليس خوفا من النسيان - تعالى الله .

قوله : « وهو يكتب على نفسه » جملة حالية يقصد بها بيان أن كتابته

(١) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢١٠ ، وابن ماجه ج ٢ ص ١٤٣٥ الحديث

تعالى لم يحمله عليها أحد ، وإنما وقعت بمحض إرادته ، تفضلا منه ، وجوداً على خلقه كتبه على نفسه ، كما قال - تعالى - (كتب ربكم على نفسه الرحمة)
 وقوله : « وهو وضع عنده على العرش » وضع : بفتح الواو ، وسكون الضاد ، أى موضوع ، وكذا جاء فى الجمع بين الصحيحين للحميدى (١) ، وضبط أيضاً بفتح الضاد ، على أنه فعل ماضى ، وبضم الضاد أيضاً ، والأول أظهر وأشهر .

وقوله : « عنده على العرش » أى أنه تعالى وضع الكتاب عنده فوق عرشه وسيأتى فى باب « وكان عرشه على الماء » بهذا اللفظ « عنده فوق عرشه » . وذلك للإهتمام به ، حيث وضعه معه على عرشه الذى استوى عليه .

كما يدل على أن الله على العرش ، مستوٍ عليه كما قال - تعالى - عن نفسه فى مواضع كثيرة من كتابه ، وأخبرت به رسله ، ويدل على علوه تعالى . وسيأتى ذكر ذلك مستوفى إن شاء الله فى موضعه .

وما نقله الحافظ - عفا الله عنا وعنه - عن شراح كتاب البخارى من تأويل هاتين اللفظتين بالتأويلات الباطلة ، المبنية على فساد العقيدة سيأتى ردها إن شاء الله هناك بالبراهين .

قوله : « إن رحمتى تغلب غضبى » . الرحمة ، والغضب كلاهما من أوصاف الله تعالى ، ولكن الرحمة أوسع وأشمل ، فرحمته تعالى وسعت كل شىء ، كما قال عن حملة العرش ، ومن حوله من الملائكة فى دعوتهم للمؤمنين . أنهم يقولون (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) (٢) ، وقال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء) (٣) وهذا هو معنى غلبها للغضب .

(١) قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح ج ١٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الآية ٧ من سورة غافر .

(٣) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

وفي هذه النصوص ونحوها كثير أبلغ دليل على ثبوت صفة الرحمة لله تعالى ، وكذا صفة الغضب ، وبذلك يتبين بطلان قول أهل التأويل في هذه الصفة الكريمة ، من صفات ربنا تبارك وتعالى - وقولهم : « إن الرحمة رقة القلب وهي تدل على الضعف والخور في طبيعة الراحم ، وتألمه على المرحوم » وهذا قول باطل بالنسبة إلى صفة الله تعالى ، وبيان ذلك من وجوه :

الأول : أن هذا وصف رحمة بعض المخلوقين . من النساء ونحوهن .

وقد علم التفاوت العظيم بين الخالق - تعالى - والمخلوق بالشرع ، والعقل والإجماع وقد تقرر أن الصفة تتبع الموصوف في الكمال ، وضده - كما تقدم . الثاني : أن الضعف ، والخور مذموم ، وهو نقص ، وأما الرحمة فممدوحة كما قال تعالى : (وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة) (١) . مع نهيه - تعالى - عباده عن الوهن ، والحزن ، قال تعالى : (ولا تنهوا ، ولا تحزنوا) (٢) وحثهم على الرحمة ، وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث في ذلك ، كقوله ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم » ، وقوله : « لاتنزح الرحمة إلا من شقى » ، وقوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من الأرض يرحمكم من في السماء » .

ومستحيل أن يقول : لاينزع الضعف ، والخور ، إلا من شقى .

ولما كانت الرحمة في حق كثير من الناس ، تقارن الضعف ، والخور ، ظن من غلط في ذلك أنها كذلك مطلقا .

الثالث : أن أسماء الله تعالى حسنى ، لايلحقها نقص بوجه من الوجوه ، وصفاته عليا عن النقص أيضا ، والله تعالى قد تمدح بهذه الأسماء ، والصفات ، لأنها تدل على الكمال ، فمن المحال أن يلحقها مايلحق رحمة المخلوق .

★ ★ ★

(١) الآية ١٧ من سورة البلد .

(٢) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

٣٤ - قال : « حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، سمعت أبا صالح ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال النبي ﷺ :- يقول الله - تعالى :- أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة . » .

* * *

هذا الحديث من الأحاديث القدسية : وهى ما يذكره الرسول - ﷺ - مضافا إلى الله - تعالى - أنه قاله ، ولكنه غير متعبد بتلاوته ، ولا هو معجز متحدى به كالقرآن .

والظن يأتى بمعنى العلم ، واليقين ، كقوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) (١)

ويأتى واسطة بين الشك والعلم ، أو بمعنى الشك كقوله تعالى عن الكفار (وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) (٢) . والقرائن تبين ذلك وتحدهه .

قوله : « أنا عند ظن عبدى بى » ، قال صاحب المرعاة : « يجوز أن يكون على ظاهره . والمعنى : أنا أعامله على حسب ظنه بى ، وأفعل به مايتوقعه منى ، من خير أو شر ، والمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف ، وحسن الظن بالله تعالى على ما دل عليه قوله - ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »

(١) الآية ٤٦ من سورة البقرة .

(٢) المرعاة جـ ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

ويجوز أن يكون المراد بالظن : العلم الموقن ، ويكون المعنى : أنا عند علمه
بى ويقينه بأن مصيره إلى ، وحسابه علي ، وأن ما قضيت به له ، أو عليه من خير
أو شر ، لا مرد له ، لا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت « (١) .

وقال الحافظ : « أنا عند ظن عبدى بى » أى قادر على أن أعمل به ما
ظن أن أعامله به ، وقال الكرماني : وفى السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء
على الخوف ، وكأنه أخذه من أن العاقل يختار لنفسه وقوع الخير ، وهو مقيد
بالمختصر ، لما فى الحديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » (٢) .

قلت : قول الحافظ هذا خلاف ظاهر الحديث ، إذ هو خبر عن الله
تعالى أنه عند ظن عبده به ، يعنى أنه - تعالى - يفعل بعبده ما ظنه العبد أنه
يفعله به ، وقد جاءت أحاديث مصرحة بذلك كما فى المسند من حديث وثالة بن
الأستقع ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « قال الله : أنا عند ظن عبدى
بى ، إن ظن خيراً فله ، وإن ظن شراً فله » (٣) ورواه ابن حبان ، وهذا لفظه ،
وفى هذا أحاديث كثيرة .

وقال فى المفهم : « معنى : « أنا عند ظن عبدى بى » . ظن الإجابة عند
الدعاء ، والقبول عند التوبة ، والمغفرة عند الاستغفار ، والإثابة على العمل ، إيمانا
بوعده - تعالى - لما فى الحديث « ادعوا الله ، وأنتم موقنون بالإجابة » (٤)
ولذلك ينبغى للمرء أن يجتهد فى العمل ، موقناً بأن الله يقبله ، ويغفر له
لأنه وعد بذلك ، وهو لا يخلف وعده .

(١) المرعاة ج ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

(٢) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٣) انظر المسند ج ٣ ص ٤٩١ و ج ٤ ص ١٠٦ ، وانظر موارد الظمان ص

١٨٤ .

(٤) رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، انظر

السنن ج ٥ ص ١٨٠ .

قلت : هو ضعيف لأن فى سنده صالح المرى .

هذا إذا أتى بالعبادة بشروطها ، فإن اعتقد أن الله لا يقبلها ، وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس ، وهو من الكبائر ، وأما ظن المغفرة مع الإصرار على الذنوب ، فهو محض الجهل ، والغرور (١) .

والحديث معناه واضح كما تقدم ، وما ذكره صاحب المفهم من معناه ووراء ذلك معنى أدق وهو قرب الله من عبده المنيب إليه ، وخير ما يفسر به كلام الرسول ﷺ كلامه ، ولكن لا يعارض النصوص الكثيرة ، المحذرة من عذاب الله تعالى ، وعقابه فالأمر كما قال تعالى : (نبأ عبادي أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) (٢) ، وحسن الظن يكون مع حسن العمل . وقد تشعر الإضافة في قوله : « عبدى » بحسن العمل ، أى أنه عبد الله ، وليس للشيطان أو للدنيا أو غيرها . والله أعلم .

قوله : « وأنا معه إذا ذكرنى » أى معه بالإجابة ، والتوفيق ، وبسماع كلامه واثابته عليه أو بحسب ما قصد في ذكره ، مالم يكن إثماً أو قطيعة رحم ، فهذه المعية هى المعية الخاصة المذكورة فى مثل قوله تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) (٣)

ومعية الله تعالى بالنسبة لعباده نوعان : معية عامة للخلق كلهم ، كما قال تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) (٤)

وقال تعالى : (يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم) (٥) ومن مقتضى هذه المعية اطلاعه تعالى

(١) من الفتح ج ١٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٥) الآية ٤ من سورة الحديد .

وعلمه بكل شيء ، ومراقبته ، وشهوده أفعال عباده ، فتفيد الخوف منه تعالى .
والنوع الثاني : المعية الخاصة ، وهي المذكورة في هذا الحديث ، ونحوه
كقوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (١) وقوله : (إذ يقول
لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) (٢) ومن مقتضى هذه المعية النصر والتأييد والهداية ،
والحماية .

« ومعيته تعالى لخلقه ، لا تخالف علوه ، واستوائه على عرشه ، فكل ذلك
حق على ظاهره ، وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة كما جمع
بينهما في قوله تعالى : (هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى
على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ،
ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) (٣) . فأخبر تعالى أنه
فوق العرش يعلم كل شيء ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبي ﷺ فى حديث
الأوعال (والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه) (٤)

وذلك أن كلمة مع فى اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة
المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال .
فإذا قيدت بمعنى من المعانى دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه
يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى لمجمعته لك ، وإن كان
فوق رأسك .

فإنه مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) رواه أبو داود فى باب فى الجهمية ج ٥ ص ٥٣ ، والترمذى ج ٥ ص ٩٧ ،
وابن ماجه ج ١ ص ٦٩ الحديث رقم ١٩٣ ، وقد صححه ابن القيم ، وأبطل حجج
المضعفين له ، انظر تهذيب السنن ج ٧ ص ٩١ .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله : (وهو معكم أينما كنتم) (١) دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ومقتضاها ، أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته .

وقوله : (لا تخزن إن الله معنا) (٢) حق على ظاهره ، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية الاطلاع والنصر والتأييد ، ومثل ذلك قوله : (إننى معكما أسمع وأرى) (٣) وقوله : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (٤) « (٥) وسيأتى لذلك بقية .

قوله : « فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » أى إن ذكر ربه سراً فى نفسه ، فإن الله تعالى يذكره سراً فى نفسه ، من غير اطلاع أحد من خلقه على ذلك .

وهذا هو محل الشاهد من الحديث ، حيث أثبت النفس لله - تعالى - على ما سبق توضيحه .

قوله « وإن ذكرنى فى ملاء ، ذكرته فى ملاء ، خير منهم » الملاء ، الجماعة ، والمعنى أن العبد إذا ذكر ربه ظاهراً فى جماعة يسمعون ذكره لربه ، فإن الله تعالى يذكره ويشئى عليه فى جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم ، لأن الذين يذكر الله عبده فيهم فى الملاء الأعلى عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٥) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٠٢ - ١٠٤ ملخصاً .

وهذا من أقوى أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحى بنى آدم . وهى مسألة مشهورة ، والراجح فيها أن الأنبياء ، والصدّيقين والشهداء ، والصالحين أفضل من الملائكة ، وتفضيل فرد من النوع لا يلزم منه تفضيل النوع كله على الآخر . والله أعلم .

قوله : « وإن تقرب إلي شبرا ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشى أتيته هرولة » .

قرب الله - تعالى - من عابده ، وداعيه ثبت فى نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنيّ ، فإني قريبٌ أجيبُ دعوة الداع إذا دعانِ) (١) .

وقوله ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (٢)

فالعبد إذا قرب إلى الله تعالى بالتوجه والمحبة ، وإخلاص العمل ، والصدق فى ذلك ، فإن الله - تعالى - يقرب إليه أكثر من قرّبه ، فكلما زاد قرب العبد إلى ربه بالطاعة والإنابة والحب والإخلاص . زاد قرب الله إليه حتى يكون قلب العبد بين يدى ربه ، كأنه يشاهده بعينه ، وهو جل وعلا على عرشه .

قال شيخ الإسلام : « فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر ، زاده الرب قرباً إليه ، حتى يكون كالتقرب إليه بذراع ، فكذلك قرب الرب من قلب العابد ، وهو ما يحصل فى قلب العبد من معرفة الرب ، والإيمان به ، وهو المثل الأعلى » (٣)

وبهذا يتبين أن معنى قوله « إذا تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعاً » أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعته والإقبال عليه ، أن الرب تعالى يزيده قرباً إليه ، جزاءً من جنس عمله ، وأكثر من قرب العبد الذى حصل باختياره .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) رواه مسلم انظر ج ١ ص ٣٥٠ ، وأبو داود ج ١ ص ٥٤٥ ، والنسائى ج

٢ ص ٢٢٦ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥١٠ .

وقال : « فإذا قرب العبد من ربه بالإجابة إليه ، قرب الرب إليه ، فيدنو قلبه من ربه ، وإن كان بدنه على الأرض ، ومتى قرب أحد الشيعيين من الآخر ، صار الآخر إليه قريباً بالضرورة ، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته ، كما أن من قرب من مكة ، قربت مكة إليه » (١)

وقال أيضاً : « ومن الناس من غلط فظن أن قربه - تعالى - من جنس حركة بدن الإنسان إذا مال الى جهة انصرف عن الأخرى .

والإنسان يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه ، فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس ، من غير أن ينصرف عمن هي قريبة منه ، وكذلك يجد نفسه تبعد بعيداً عن بعض النفوس بعداً غير مايقوم بالبدن » (٢) .

وقال أيضاً : « وليس بين الرب والعبد إلا محض العبودية ، فكلما كمل العبد عبودية ربه قرب إليه - تعالى - لأنه سبحانه - برُّ ، جواد ، محسن ، يعطى العبد مايناسبه فكلما عظم فقره إليه ، كان أغنى له ، وكلما عظم ذله له ، كان أعز له ، فإن النفس - لما فيها من أهوائها المتنوعة - وتسويل الشيطان لها - تبعد عن الله - تعالى - حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة ، واللعنة هي البعد عن الله ورحمته .

ومن أعظم ذنوب العبد علوه في الأرض ، ونسيانه ربه ، ولهذا لما كان السجود هو غاية سفول النفس - صار أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وكذلك الذكر المتضمن للإقبال على الله ، والخضوع له » (٣) .

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥٠٩ .

(٢) المرجع ببعض التصرف ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع المذكور بتصريف ص ٢٣٨ .

« وقوله : من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا الخ » هذا قربه تعالى من عابده . وأما قربه من داعيه فكما في الآية : (وإذا سألك عبادي عني ، فأني قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دعانِ) (١) ، وقربه تعالى من عابد ، وداعيه قرب خاص ، أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة ، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه » (٢)

« فالداعي ، والساجد تتوجه روحه إلى الله تعالى » والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله - تعالى - بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب ، فيكون الله - عز وجل - منها قريبا ، قريبا يلزم منه قربها .

ويكون منه قرب آخر ، كقربه عشية عرفة ، وفي جوف الليل ، وإلى من تقرب منه شبرا ، تقرب منه ذراعا » (٣) .

قلت : وبهذا يتبين أن قربه - تعالى - من عبادته نوعان :

أولهما : قربه - تعالى - من قلوب المؤمنين ، وقرب قلوبهم منه ، وهذا أمر معروف لا يجهل ، فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة به تعالى ، وذكره ، وخشيته ، والتوكل عليه ، وهذا متفق عليه بين الناس لم ينكره منهم أحد .

والثاني : ما دل عليه هذا الحديث - الذي نحن بصدد شرحه - ونحوه ، مثل قربه عشية عرفة ، وقربه آخر الليل ، كما ثبتت بذلك النصوص ، وهذا القرب ينكره أكثر المتكلمين ، من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشعرية ، وإنكاره منكر .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) بدائع الفوائد ج ٣ ص ٨ ملخصا .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٤١ .

قال شيخ الإسلام : « وقربه - سبحانه - ودنوّه من بعض مخلوقاته ، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال ذلك من قاله من السلف . وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، قال - تعالى - : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقريناه نجياً) (١) .

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته ، وهو القول المعروف للسلف ، والأئمة وهو قول الأشعري ، وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته . وأما دنوه نفسه ، وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبت من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، وهو مذهب أئمة السلف ، وأئمة الإسلام المشهورين ، وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر » (٢)

وقوله : « وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » . الهرولة السرعة في المشي ، بين المشي والعدو . وهو تمثيل لكرم الله وجوده على عبده ، وأنه أقبل إليه ، فهو - سبحانه - أسرع إقبالا وتفضلا على عبده ، من غير مقابل يناله من العبد ، بل هو الغنى بذاته عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه . ويؤخذ من الحديث : عظم فضل الله وكرمه ، وعظم فضل الذكر .

(١) الآية ٥٢ من سورة مريم .

(٢) مجموع الفتاوى باختصار ج ٥ ص ٤٦٠ - ٤٦٦ .

قال : « باب قول الله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه)

* * *

أراد البخارى بهذا الباب إثبات صفة الوجه لله - تعالى - وهو ثابت لله تعالى فى آيات وأحاديث كثيرة . سيأتى ذكر شيء منها .

قال ابن كثير : (كل شيء هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقي ، الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله ها هنا : (كل شيء هالك إلا وجهه) ، أى إلا إياه » (٢) .

قلت : قوله : « فعبر بالوجه عن الذات ، لا يقصد نفى صفة الوجه عن الله تعالى ، وإنما مراده : أن الذات تابعة للوجه ، فاكتفى تعالى بذلك .

وقد ذكر البخارى - رحمه الله - هذه الآية فى التفسير ، وأعقبها بقوله : « إلا ملكه ويقال : إلا ما أريد به وجهه » (٣) . ولم يذكر غير هذا ، فقد يقال : إن هذا تأويل سلك البخارى فيه طريق أهل التأويل ، وليس الأمر كذلك .

قال الحافظ : « فى رواية النسفى (٤) ، وقال معمر : فذكره ، ومعمر هذا هو أبو عبيدة [معمر] بن المثنى ، وهذا كلامه فى مجاز القرآن ، لكنه بلفظ :

(١) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح ج ٨ ص ٥٠٥ .

(٤) النسفى من رواة الصحيح عن البخارى .

إلا هو ، وكذا نقله الطبري عن بعض أهل العربية ، وكذا ذكره الفراء « (١) »
قلت : الذي في كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة يخالف ما ذكره البخاري ،
وزعم الحافظ أنه كلامه . فإنه قال على الآية : (كل شيء هالك إلا وجهه)
مجازه : إلا هو ، وما استثنوه من جميع فهو منصوب « (٢) » ، وكذا ما ذكره الفراء في
معاني القرآن فإنه قال : (كل شيء هالك إلا وجهه) إلا هو قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل
أى « إليه أوجه عملي » (٣)

وبهذا يتبين أن الأمر ليس كما قال الحافظ ، لأن ما ذكره البخاري يختلف
عما ذكره الفراء ، وأبو عبيدة لفظاً ومعنى .

قال الحافظ : « قال ابن التين : قال أبو عبيدة : إلا وجهه إلا جلاله ،
وقيل إلا إياه . تقول : أكرم الله وجهك ، أى أكرمك الله .

وقوله : ويقال « إلا ما أريد به وجهه » نقله الطبري - أيضاً - عن بعض
أهل العربية ، ووصله ابن أبي حاتم من طريق خصيف ، عن مجاهد - مثله . ومن
طريق سفيان الثوري قال : إلا ما ابتغى به وجه الله من الأعمال
الصالحة « اهـ (٤) »

وفي الدر المنثور : « وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس : (كل شيء
هالك إلا وجهه) إلا ما أريد به وجهه

(١) الفتح ج ٨ ص ٥٠٥ .

(٢) مجاز القرآن ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) معاني القرآن ج ٢ ص ٣١٤ .

(٤) الفتح ج ٨ ص ٥٠٥ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد (كل شيء هالك إلا وجهه) . قال :
إلا ما أريد به وجهه .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن سفيان : (كل شيء هالك إلا
وجهه) قال : « إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة » (١)

« قوله : (كل شيء هالك إلا وجهه) بعد قوله : (فلا تكونن ظهيرا
للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى ربك ،
ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك
إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » (٢)

فإن ذكر ذلك بعد نبيه عن الإشراك ، وأن يدعو معه إلهاً آخر ، وقوله :
لا إله إلا هو . يقتضى في أظهر الوجهين ، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان
لوجهه من الأعيان ، والأعمال .

روى عن أبي العالية قال : إلا ما أريد به وجهه .

وعن جعفر الصادق : « إلا دينه - ومعناها واحد » (٣)

قال ابن كثير : « وقال مجاهد ، والثوري في قوله : « كل شيء هالك إلا
وجهه » أى : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى في صحيحه كالمقرر له .
وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها
باطلة إلا ما أريد به وجه الله - عز وجل - من الأعمال الصالحة ، المطابقة .
والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة ، وزائلة إلا ذاته تعالى -
فإنه الأول ، والآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء » (٤)

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٤٤٧ .

(٢) الآيات ٨٦ إلى ٨٨ من سورة القصص .

(٣) مجموع القناوى ج ٢ ص ٤٢٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧٢ .

والقول الأول هو ما ذكرناه عنه في أول الباب .

فعلى هذا لا يكون قوله « ماأريد به وجهه » تأويلا للوجه الذى هو صفة لله - تعالى - بل هو من المعانى المستنبطة من الآية ، كما يشير إليه سياق الآية ، فإنه تعالى - يقول : (ولايصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون) (١)

وأما قوله « إلا ملكه » فهذا تأويل بعيد ، وهو مخالف . لصنعه هنا حيث ذكر الآية ، ثم أتبعها بحديث جابر ، وفيه قوله - صلى الله عليه وسلم - : « أعوذ بوجهك » . فهذا ظاهر جدا فى أنه أراد إثبات الوجه صفة لله تعالى .

ومما يدل على بطلان ذلك أن الأشياء كلها ملك الله تعالى ، فهل يجوز أن يقال : كل شيء هالك إلا كل شيء ؟ بخلاف قوله : إلا ما أريد به وجهه ، فإن هذا مما تدل عليه الآية عن طريق المفهوم مع بقاءها نصا فى إثبات الوجه لله - تعالى - والله أعلم .

★ ★ ★

(١) الآيات ٨٧ و ٨٨ من سورة القصص .

٣٥ - قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عمرو ، عن جابر بن عبد الله ، قال : لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) (١) قال النبي - ﷺ - : أعوذ بوجهك ، فقال : « أو من تحت أرجلكم » فقال النبي ﷺ : أعوذ بوجهك ، قال : « أو يلبسكم شيئا » فقال النبي - ﷺ - هذا أيسر »

* * *

يخوف الله - تعالى - عباده إن لم يطيعوه ، ويعبدوه وحده لا شريك له ، ويتبعوا رسوله . بأنه قادر على أن يرسل عليهم عذاباً من السماء ، كما أرسل على قوم لوط وقوم شعيب ، وغيرهم ، أو نوعاً آخر مما يشاء .

وهو كذلك قادر بأن يبعث العذاب من تحتهم ، إما بخسف أو زلزال ، وبراكين أو غير ذلك مما يشاء ، كما قال تعالى : (ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) (٢) وعندما سمع الرسول - ﷺ - وهذا التهديد من الله تعالى - عاذ بوجه ربه الكريم أن يكون ذلك .

قال الحافظ : « وقد روى ابن مردويه ، من حديث ابن عباس ، ما يفسر به حديث جابر ، ولفظه : « عن النبي - ﷺ - قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعاً ، فرفع عنهم اثنين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين :- دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيئا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض . فرفع عنهم الخسف ، والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين » .

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة تبارك الذي بيده الملك .

فيستفاد من هذه الرواية ، المراد بقوله : « من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم » . ويستأنس له بقوله تعالى : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حصبا) (١) . وقد وقع أصرح من ذلك ، عند ابن مردويه ، من حديث أبي بن كعب ، قال : في قوله - تعالى - : (عذابا من فوقكم) قال : الرجم ، (أو من تحت أرجلكم) قال : الخسف .

وروى ابن أبي حاتم ، من طريق السدى ، عن شيوخه . أن المراد بالعذاب من فوق : الرجم ، ومن تحت : الخسف .

وأخرج عن ابن عباس : « أن المراد بالفوق . أئمة السوء ، وبالتحت ، خدام السوء » انتهى (٢) .

وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أحاديث ، وآثاراً كثيرة .

قلت : في هذه الآية الكريمة التي ترجم بها البخارى ، والحديث الذى ذكره - دليل واضح على وجوب الإيمان بوجه الله الكريم ، وقد جاءت نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله تثبت ذلك ، ولم يزل أهل العلم والإيمان يسألون ربهم بوجهه الكريم ، ويدعونه بأن يرزقهم النظر إليه في الجنة .

ولم ينكر ذلك إلا الجهمية ، ومن شايعهم على مذهبهم الفاسد .

قال الله تعالى :- (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (٣)

و « ذو » في الآية . وصف للوجه ، فوصف - تعالى - وجهه الكريم بأنه ذو الجلال والإكرام . وهذا يبطل دعوى أن المراد بالوجه الذات ، كما يبطل دعوى كونه زائداً في الكلام .

(١) الآية ٦٨ من سورة الإسراء .

(٢) الفتح ج ٨ ص ٢٩٢ .

(٣) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي موسى الأشعري . قال : قام فينا رسول الله - ﷺ - بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولا يبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (١) سبحات وجهه هي نوره ، وبهاؤه ، وجلاله .

وقال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله - : « حدثنا سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عمار بن ياسر ، أن رسول الله - ﷺ - كان يدعو : « اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » .

حدثنا موسى بن إسماعيل ، وغيره ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن صهيب ، عن النبي - ﷺ - « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : النظر إلى وجه الله تعالى (٢) .

حدثنا أحمد بن يونس ، عن أبي شهاب الحنات ، عن خالد بن دينار ، عن حماد بن جعفر ، عن ابن عمر ، رفعه الى النبي - ﷺ - « أن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ ، وظنوا أن لانعيم أفضل منه ، تجلى لهم الرب ، فنظروا إلى وجه الرحمن ، فنسوا كل نعيم عاينوه ، حين نظروا إلى وجه الرحمن » .

وذكر بن إسحاق في السيرة حديثا طويلا - فيه - « أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين » (٣) .

(١) انظر مسلم ج ١ ص ١٦٢ رقم ٢٩٣ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه بلفظ : « النظر الى الله تعالى » ، انظر ج ١ ص ١٦٣

الحديث رقم ١٨٠ .

(٣) ذكره ابن كثير في تاريخه ج ٣ ص ١٩٦ .

قال أبو سعيد : وعلى تصديق هذه الآثار ، والإيمان بها ، أدركنا أهل الفقه والعلم « (١) وذكر أحاديث في ذلك .

وقد تكاثرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بالاستعاذة بوجه الله تعالى كما في هذا الحديث الذى ذكره البخارى ، وكما فى الموطأ ، ومسند أحمد أنه - ﷺ - كان يقول : « أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات » (٢) وفى هذا أحاديث كثيرة .

وكذلك صح عنه - ﷺ - سؤاله لذة النظر إلى وجه الله الكريم كما فى الحديث السابق وغيره .

وبهذا يتبين أن إثبات الوجه والإيمان به متعين ، وأنه داخل فى الإيمان بالله تعالى - وهو كسائر صفات الله الثابتة ، يجب معرفتها والإيمان بها بدون تأويل ، أو تشبيه ، بل على ما يجب لله من الإجلال والتعظيم ليس كمثله شىء لافى ذاته ولا فى أسمائه وصفاته ، ولا فى أفعاله تعالى وتقدس . عن ظنون أهل الانحراف والزيغ من المؤولين والمعطلين الذين جعلوا أنفسهم هى الأصل فقاوسوا عليها ما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبر عنه رسوله فحرفوا وعطلوا .

★ ★ ★

(١) الرد على بشر المريسي ص ٥١٨ عقائد السلف .

(٢) الموطأ ج ٢ ص ٩٥٠ - ٩٥١ مرسل ، والمسند موصولاً ج ٢ ص ٤١٩

قال : « باب قول الله تعالى : (ولتصنع على عيني) (١) - تغذى -
وقوله - جل ذكره : (تجرى بأعيننا) (٢)

* * *

قد دل كتاب الله - تعالى - ، وسنة رسوله - ﷺ - صراحة ، وإجماع
أهل العلم بالله والإيمان به ، على أن الله - تعالى - موصوف بأن له عيتين ،
حقيقة على ما يليق بجلاله ، وعظمته .

وقد جاء ذكر العين وصفاً لله - تعالى - في القرآن مفردة ، مضافة إلى
الضمير المفرد ، كما جاءت مجموعة ، مضافة إلى ضمير الجمع ، كما في هاتين
الآيتين اللتين ذكرهما البخارى .

ولم يأت ذكر العين وصفاً لله - تعالى - في القرآن مثناة ، ولكن جاء
ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ ، والحديث إذا صح عن الرسول - ﷺ -
- وجب الإيمان بما دل عليه ، والعمل به .

قال ابن القيم : « ذكر العين مفردة ، لا يدل على أنها عين واحدة ، ليس إلا
كقولك : افعل هذا على عيني ، لا يريد أن له عيناً واحدة .

ولما أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهراً ، أو مضمراً حسن جمعها
مشاكلة للفظ كقوله تعالى :- (تجرى بأعيننا) (٢) وقوله تعالى : (واصنع الفلك
بأعيننا) (٣) .

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة اقتربت الساعة .

(٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلى المفرد ، كقوله : (بيده الملك) (١) و (بيدك الخير) (٢) ولما أضيفت إلى ضمير الجمع جمعت ، كقوله : تعالى - (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) (٣) .

وقد جاء في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - ذكر العين مضافة إلى الله - تعالى - مفردة ، ومجموعة .

وجاءت السنة بإضافتها إليه تعالى مثناة ، كما قال عطاء : عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ - : « إن العبد إذا قام في الصلاة ، قام بين عيني الرحمن ، فإذا التفت قال له ربه : إلى من تلتفت ؟ إلى خير لك مني » .

وقوله - ﷺ : « إن ربكم ليس بأعور » صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة ، فإن ذلك عور ظاهر ، تعالى الله عنه .

وهل يفهم من قول الداعي : اللهم احرسنا بعينك التي لاتنام ، أنها عين واحدة ليس إلا ، إلا ذهن أقلف ، وقلب أغلف ؟

وقد استدل السلف على إثبات العينين لله - تعالى - بقوله جل وعلا : (تجرى بأعيننا) ، ومن صرح بذلك أبو الحسن الأشعري في الإبانة ، والموجز ، والمقالات « (٤) »

قوله : تعالى : (ولتصنع على عيني) فسر البخاري « تصنع » بتغذى ، من التغذيةية يقال صنعت الفرس إذا أحسنت القيام عليه « (٥) » .

(١) جزء من الآية مفتتح سورة تبارك الذي بيده الملك .

(٢) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مختصر الصواعق ص ٢٤ ط الإمام .

(٥) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٩ .

قال ابن كثير : (ولتصنع على عيني) قال أبو عمران الجوني : ترى بعين الله تعالى .

وقال قتادة : تغذى على عيني .

وقال معمر بن المثنى : (ولتصنع على عيني) بحيث أرى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « يعنى أجعله فى بيت الملك ، ينعم ويترف غداؤه عندهم غداء الملك ، فتلك الصنعة » (١)

وأسند ابن جرير هذه الأقوال ، وروى عن ابن جرير : أنت بعينى إذ جعلتك أمك فى التابوت ، ثم فى البحر . واختار قول قتادة .

وقال : « وعنى بقوله : « على عيني » برأى منى ، ومحبة ، وإرادة » (٢) .

قوله « تجرى بأعيننا » قال ابن جرير : « يقول - جل ثناؤه : تجرى السفينة التى حملنا نوحا فيها ، برأى منا ، ومنظر » (٣)

قلت : وكذا قال غيره من المفسرين ، ومن لازم الرؤية والنظر وجود العين فى هاتين الآيتين ، وغيرهما من نصوص كتاب الله وحديث رسوله كثير . إثبات العينين لله تعالى اللتين ينظر بهما إلى ما يريد ، ولا يحجب نظره حاجب . وقد تقدم وجه الجمع والإفراد فى ذلك .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٦ ص ١٦٢ - ١٦٣ ط الحلبي .

(٣) المرجع ج ٢٧ ص ٦٤ .

٣٦ - قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا جويرة ، عن نافع ، عن عبد الله ، قال : ذكر الدجال عند النبي ﷺ - فقال : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينه ، وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبه طافية »

* * *

الدجال : الكذاب ، ودجله ، سحره وكذبه ، لأنه يدجل الحق بالباطل - أى يغطيه ، وهو رجل من اليهود ، يخرج فى آخر هذه الأمة كما جاءت الأحاديث بذلك عن النبي ﷺ .

قال أبو على القالى : عن ابن دريد : « كل شىء غطيته فقد دجلته ، ومنه اشتقاق دجلة ، كأنها غطت الأرض إذ فاضت عليها .

والدجال من هذا الاشتقاق ، لأنه يغطى الحق بالباطل .

وقال قوم : سمى بذلك لأنه يغطى الأرض بكثرة جموعه .

وقال آخرون : « يغطى على الناس بكفره » (١) .

وقال الحافظ : الدجال : فعال بفتح أوله ، والتشديد ، من الدجل ، وهو التغطية وسمى الكذاب دجالاً لأنه يغطى الحق بباطله .

وقال ثعلب : « الدجال : المموه » (٢) .

قوله : (إن الله لا يخفى عليكم) المؤمن بالله وبأوصافه التى تعرف بها إلى عباده لا يخفى عليه رب العالمين ، فهو تعالى (ليس كمثل شىء وهو السميع البصير) ليس له كفو ولا نِد ، فلا يمكن أن يشابه المخلوق الضعيف ، المحتاج

(١) البارع ص ٣٥ .

(٢) الفتح ١٣ ص ٩١ .

الناقص ، وكل مخلوق له صفة الضعف والحاجة والنقصان ، ولا بد ، تعالى عن مشابهة خلقه علوا كبيرا .

قوله : « إن الله ليس بأعور » هذه الجملة هي المقصودة من الحديث في هذا الباب . فهذا يدل على أن الله عينين حقيقة ، لأن العور فقد أحد العينين ، أو ذهاب نورها .

قال في القاموس : « العور ذهاب حسن إحدى العينين ، والردىء من كل شيء . والضعيف الجبان البليد الذي لا يدل ، ولا يندل ، ولا خير فيه » (١)

وعلى كل العور نقص وعيب في الاتفاق ، والمقصود أنه في اللغة هو ذهاب ضوء إحدى العينين .

ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات ثنية العين لله تعالى ويزيد ذلك وضوحا ، إشارته ﷺ إلى عينه لتحقيق الوصف . يعنى أن الله عينين سالمتين من كل عيب كاملتين ، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه ، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه .

قال ابن المنير : « وجه دلالة الحديث على إثبات العين لله ، من حديث الدجال من قوله : « إن الله ليس بأعور » من جهة أن العور عرفا عدم العين ، وضد العور ثبوت العين ، فلما نزعنا هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها وهو وجود العين » (٢) .

قلت : الحديث فيه إثبات العينين لله تعالى ، لا عين واحدة كما قد يوهمه كلامه .

وقوله : « عرفا » بل هو لغة قبل العرف .

(١) القاموس ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٠ .

« وقال شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له : أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله ، الاستواء ، والنزول ، والنفس ، واليد ، والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيهه ، ولا تعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ، ماتجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى » .

« قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح » .

وقال غيره : لم ينقل عن النبي ﷺ . ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع من ذكره .

ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم) ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز ، مع حضه على التبليغ عنه بقوله : « ليبلغ الشاهد الغائب » حتى نقلوا أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، وصفاته ، وما فعل بحضرته .

فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها ، على الوجه الذي أراده الله منها .

ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، بقوله : تعالى - (ليس كمثله شيء) فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم ، فقد خالف سبيلهم ، وبالله التوفيق « انتهى (١) »

قال الإمام ابن خزيمة : « بين النبي ﷺ - أن الله عينين ، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل » .

ثم ذكر بسنده حديث أبي هريرة ، وقرأ قوله تعالى - : (إن الله نعمنا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) . رأيت رسول الله ﷺ - يضع إبهامه على أذنه ، وإصبعه التي تليها على عينه « (٢) » .

(١) المرجع المذكور .

(٢) كتاب التوحيد ص ٤٢ ، ٤٣ .

قوله : « كأن عينه ، عينة طافية » أى قد ذهب ماءها ، فهي ضامرة ، ملتوية ولهذا جاءت الأحاديث بوصفه ، بأنه ممسوح العين ، كما فى سنن أبى داود ، عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إني قد حدثتكم عن الدجال ، حتى خشيت أن لاتعقلوا إن مسيح الدجال رجل قصير ، أفحج ، جعد ، أعور ، مطموس العين ، ليست بناتئة ، وجحراء ، فإن لبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور » (١)

فى هذا بيان أن عينه - قبحه الله - قد ذهب ماءها ، فضمرت ، وبقيت سادة مكانها ، لم تكن غائرة ، ولاناتئة ، مرتفعة ، وهذا هو وصف العنبة إذا ذهب ماؤها .

★ ★ ★

(١) سنن أبى داود ج ٤ ص ٤٩٦ .

٣٧ - قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، أخبرنا قتادة ، قال : سمعت أنسا - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « مامن نبي إلا أنذر قومه ، الأعمور الكذاب أنه أعمور ، وأن ربكم ليس بأعمور ، مكتوب بين عينه كافر » .

* * *

الإنداز : هو الإخبار مع التخويف ، وفي قوله : « مامن نبي » عموم يشمل جميع النبيين ، وهو يدل على عظم فتنته ، وخطره .
وقوله : « الأعمور الكذاب » تقدم أن الأعمور ، من عميت إحدى عينيه بآفة ، فأصبح لا يرى إلا بعين واحدة .

ووصف بأنه الكذاب لعظم كذبه ، حيث زعم أنه رب الناس ، مع ظهور كذبه وهو يتدرج في كذبه ، فأولا : يدعى أنه مصلح ، ثم يدعى أنه نبي ، ثم يدعى أنه إله ، وهذا أعظم الكذب ، وأبينه .

وقد عين رسول الله - ﷺ - عينه العوراء ، أنها اليمنى ، كما في حديث عبد الله بن عمر ، الذى قبل هذا وغيره .

واعلم أن المتكلمين من المعتزلة ، والأشعرية ، ونحوهم ، يزعمون أن من أثبت لله عينين ، ويدين ، ووجه ، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص ، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ . أنه يثبت جوارح ، تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم ، تعالى الله وتقدس عن زعمهم ، وظنهم السوء في الله ورسوله ، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه ، وظاهر وصف رسوله إياه يقتضى التشبيه ، ولهذا تجرد الذين تلقوا هذا الفكر ، وتأثروا به ، من الذين يشتغلون بالحديث إذا جاء ذكر ذلك قالوا : مثلا إثبات صفة اليد لامن حيث الجارحة ، إثبات صفة الوجه ، لا من حيث الجارحة ونحو ذلك كما يقوله البيهقي في كتابه الأسماء

والصفات ، وسائر شراح الحديث الذين لايجرؤون على رد النصوص ، فهم عند مايتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفى الجارحة ، كما قال بعض زعماءهم مايلي :

« زعم قوم ، أن لله عينا ، يريدون كجارحة العين ، من الإنسان ، وأرادوا التركيب ، واحتجوا بقوله تعالى - : (ولتصنع على عيني) (١) ، (واصنع الفلك بأعيننا) (٢) (واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا) (٣) .

قال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله - تعالى - في الرد عليه : « أما ما ادعت أن قوما يزعمون أن لله عينا ، فإننا نقوله ، لأن الله - تعالى قاله ، ورسوله .

وأما زعمك أنهم يثبتون جارحة كجارحة العين ، من الإنسان ، على التركيب . فهذا كذب ، ادعيته علينا عمداً ، وأنت تعلم أن أحداً لم يقله ، ولكنك تريد التشنيع ، ليكون هنالك مقبولاً لدى الجهال ، والكذب لا يصلح منه جد ولاهزل ، فمن الذي قال : إنها جارح مركب ؟ اذكره ، فإن قائله كافر .

وكم تشنع بما تقرر ، من قولك : جسم مركب ، وجوارح ، وأجزاء ، وأبعض تريد أن يكف المؤمنون ، عن وصف الله - تعالى - بما وصف به نفسه ، في كتابه وما وصفه به رسوله .

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلوقين ، ولا بعضو ، ولا بجارحة . لكننا نصفه بما يغيبك من هذه الصفات ، التي أنت ودعاتك لها منكرون فنقول : إنه الواحد الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ذو الوجه الكريم ، والسمع السميع ، والبصير البصير « (٤) .

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

(٤) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي بتصرف ص ٥٤٥ - ٥٤٦ عقائد

وقوله : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » اشتملت هذه الجملة على تأكيد وصف الدجال ، الكذاب ، بأنه أعور العين ، أى أنه ناقص ، معيب ، قد لحقه الضر لفقد إحدى عينيه ، فمثله محال أن يكون إلهاً ، لأنه فقير محتاج إلى غيره ، بالإضافة إلى النقص والعيب الذى فيه ، وقد جاء بأعظم الكذب والبهتان ، حيث ادعى أنه إله ، يتوجه إليه ، بطلب الإسعاد ، وصرف الشقاء .

كما اشتملت هذه الجملة من الحديث ، على وصف الله تعالى بكمال العينين . ولهذا قال - ﷺ - : « وإن ربكم ليس بأعور » .

فهذا بيان واضح بوصف الله - تعالى - بأن له عينين كاملتين ، على ما يليق بعظمته .

قال النووى : « هذه علامة بينة تدل على كذب الدجال ، دلالة قطعية ، بديهية ، يدركها كل أحد » (١)

قوله : « مكتوب بين عينيه كافر » وفي رواية « يقرأه كل مؤمن ، كاتب ، وغيره كاتب »

قال النووى : « والصحيح الذى عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقية ، جعلها الله آية ، وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره ، وكذبه وإبطاله ، يظهرها الله - تعالى - لكل مسلم كاتب ، وغير كاتب ، ويخفيها عن من أراد شقاوته وفتنته ولا امتناع في ذلك » (١) .

وهذا من رحمة الله بعباده ، حيث أظهر علامات كذبه ، إظهاراً لا يخفى إلا على من أريد فتنته ، وعمى قلبه ، واشرب بحب الباطل ، نسأل العافية في الدنيا والآخرة .

(١) شرح مسلم ج ١٨ ص ٦٠ .

قال : « باب قول الله تعالى : « هو الله الخالق البارئ المصور »

* * *

قال ابن جرير : يقول - تعالى ذكره - : هو المعبود الخالق ، الذى لا معبود تصلح له العبادة غيره ، ولاخالق سواه ، البارئ الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ، المصور خلقه كيف شاء ، وكيف يشاء ^(١)

ومراد البخارى بهذا بيان أن الله - تعالى - متصف بأنه الخالق ، البارئ ، المصور فى الأزل ، والأبد ، فهو الخالق قبل وجود المخلوق ، وهو البارئ قبل وجود المبرئ ، وهو المصور قبل وجود المصور ، فهو تعالى لم يزل بصفاته ولا يزال ، كما يريد أيضا بيان أن الخلق الذى هو وصفه تعالى غير المخلوق ، خلافا لأهل البدع الذين يشير بهذا إلى الرد عليهم .

قال الزجاج : « أصل الخلق فى الكلام : التقدير ، يقال : خلقت الشيء خلقا ، إذا قدرته ، كما قال زهير :

لأنت تفرى ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفرى

يعنى : أنك إذا قدرت الأمر مضيت فى عزمك وفعلته ، ولست ممن يقدر الأمر ثم لا يعزم على فعله ، بل يثنى عن ذلك .

فالخلق فى اسم الله - تعالى - هو ابتداء تقدير النشاء .

فالله تعالى خالقها ، ومنشئها ، وهو متممها ، ومدبرها ، فتبارك الله أحسن

الخالقين

« البارئ » يقال : برأ الله الخلق إذا فطرهم .

والبرء خلق على صفة ، فكل مبروء . مخلوق ، وليس كل مخلوق مبروء ، لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء ، كما يقال برأت من المرض ، ومن الدين .

(١) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٥٦ .

فإذا فصل بعض الخلق من بعض ، سمي فاعله بارئاً .

فهو المعنى الذى به انفصلت الصورة بعضها من بعض ، فصورة زيد مفارقة لصورة عمرو ، وصورة حمار مفارقة لصورة فرس ، فتبارك الله خالقاً بارئاً .
« المصور » أى مصور كل صورة ، لا على مثال احتذاه ، ولا رسم ارتسمه « تعالى عن ذلك علواً كبيراً » (١) أى أنه لم يتقدمه أحد فعل ذلك ، لاتقديراً ، ولا إظهاراً ، وإيجادا .

وقال الحافظ : « قال الطيبي : قيل : الألفاظ الثلاثة مترادفة ، وهو وهم .
فإن الخالق : من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، ويطلق على الإبداع ، وهو إيجاد الشيء على غير مثال ، كقوله تعالى : (خلق السماوات والأرض) .
وعلى التكوين ، كقوله - تعالى :- (خلق الإنسان من نطفة) .

و « البارئ » من البرء ، وأصله خلوص الشيء عن غيره ، إما على سبيل الخلوص منه ، كبرء الرجل من مرضه ، والمديون من دينه .
أو على سبيل الإنشاء كبرء الله النسمة .

و « المصور » مبدع صور المخترعات ، ومرتبها على حسب مقتضى الحكمة ، فالله - تعالى - خالق كل شيء بمعنى أنه موجد من أصل ، ومن غير أصل ، وبارئه ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، من غير تفاوت ، ولا اختلال ، ومصوره فى صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله .

فالتقدير يقع أولاً ، ثم الأحداث على الوجه المقدر يقع ثانياً ، ثم التصوير بالتسوية يقع ثالثاً « (٢) .

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ببعض التصرف ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) فتح البارئ ج ١٣ ص ٣٩١ ملخصاً .

وبهذا يتبين الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة : فالخالق : مبدع الأشياء على غير مثال سابق ، والبارئ ، وموجد الأشياء ، ومظهرها إلى الوجود ، من أصل ومن غير أصل ، والمصور : الذى خص كل مخلوق بما يميزه عن الآخر ، وما تحصل به مصلحته ، كما قال تعالى : (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) (١) ويظهر أن « البارئ » أخص من « الخالق » كما تقدم فى كلام الزجاج ما يشير إلى ذلك ، وإذا أضيف الخلق إلى الإنسان ، فمعناه التقدير ، ويأتى بمعنى الكذب .

★ ★ ★

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .

٣٨ - قال « حدثنا إسحاق ، حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا موسى - هو ابن عقبة - حدثني محمد بن يحيى بن حبان ، عن ابن محيريز ، عن أبي سعيد الخدرى ، فى غروة بنى المصطلق ، أنهم أصابوا سبايا ، فأرادوا أن يستمتعوا بهن ، ولا يحملن ، فسألو النبي ﷺ - عن العزل ، فقال : ما عليكم أن لاتفعلوا ، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : عن فرعة ، سمعت أبا سعيد ، فقال : قال النبي ﷺ : « ليست نفس مخلوقة ، إلا الله خالقها » .

* * *

« العزل » : هو إنزال الماء خارج فرج المرأة ، خوفاً أن تحمل .
 قال الحافظ : « هو النزع بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج » (١) .
 « قوله : ما عليكم أن لاتفعلوا » أى لا يضركم عدم العزل ، لأن ما قدره الله - تعالى - من الخلق ، فلا بد من وجوده ، عزل الإنسان أو لم يعزل ، يوضحه ما فى رؤية مسلم فقال : « لاعليكم أن لاتفعلوا ، ما كتب خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » (٢) .
 وفى قصة الرجل الذى سأل عن العزل ، عن جاريته ، فقال رسول الله - ﷺ : « إن ذلك لن يمنع شيئاً أراه الله » (٢) .
 قال الحافظ : وفى رواية « لا عليكم أن لاتفعلوا » أى لاجرح عليكم أن لاتفعلوا العزل . ففيه نفى الجرح عن عدم الفعل ، فأفهم ثبوت الجرح فى فعل العزل .

(١) الفتح ج ٩ ص ٣٠٥ .

(٢) مسلم مع النووى ج ١٠ ص ١٠ .

ولو أراد نفى الحرج عن العزل لقال : « لا عليكم أن تفعلوا » (١) .
 وفي مسلم لما ذكر هذا الحديث « قال محمد : وقوله : « لا عليكم » أقرب
 إلى النهي . ومحمد هذا هو ابن حاتم . وفيه أيضا وقال ابن عون : فحدثت به
 الحسن . فقال : والله لكأن هذا زجر » (٢) .

وقوله : « فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة » . هذا يبين
 عدم فائدة العزل ، لأن كل نفس قدر الله - تعالى - خلقها ، لا بد أن يخلقها ،
 عزلتم أم لا ، ومالم يشأ خلقها ، لا يقع ولو لم يعزلوا ، فإن كان الله أراد أن يخلق في
 تلك المقارنة وذلك الوقت ، فلا بد من وجود ذلك ولو حرصتم كل الحرص على
 عدم الإنزال في الرحم ، فلا غالب على أمره ، وهو الخالق وحده .

وهذا هو وجه استدلال البخارى في الحديث ، فإن الله تعالى هو الخالق
 البارئ المصور وحده ، وأن كلا من الأب والأم ، لا دخل لهما في ذلك ، بل الله
 تعالى ، هو الذى يقدر خلق هذا المخلوق شاء الناس ذلك أو لم يشاؤوا وأنه
 تعالى - هو بارئ النسمة من الذكر والأنثى ، أو مما يشاء ، والخلق كلهم
 لا يستطيعون فعل شيء من ذلك .

وهو تعالى ، المصور لهذا الإنسان ، السوى ، من نطفة متساوية الأجزاء لو
 اجتمع عليها أمهر الأطباء ، بكل ما أوتوا من علوم ، وآلات ، وإمكانيات لم
 يستطيعوا أن يصوروا منها شيئا حياً ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فإن قيل : قد يتحكم الإنسان بالحمل إما بالعقاقير أو بوسائل أخرى .
 فجوابه أن ذلك من تقدير الله تعالى ، ولا يمكن أن يكون شيء خارجا عن مشيئته
 وتقديره ، وإذا أراد أن يخلق مخلوقاً فلا بد من وجوده ، وإن استعملت الوسائل
 الممانعة لذلك .

(١) الفتح ج ٩ ص ٣٠٧ .

(٢) مسلم مع النووى ج ١٠ ص ١١ .

« قال ابن بطال : الخالق في هذا الباب ، يراد به المبدع المنشئ لأعيان المخلوقين ، وهو معنى ، لا يشارك الله فيه أحد » .

« وقال الكرمانى : « معنى قوله : إلا وهى مخلوقة ، أى مقدرة الخلق ، أو معلومة الخلق عند الله - تعالى - لا بد من إبرازها إلى الوجود » (١) .

قال شيخ الإسلام : « والذى عليه جماهير المسلمين من السلف ، والخلق : أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الخالق ، والمخلوق مفعوله ، ولهذا كان النبى ﷺ يستعيد بأفعال الرب وصفاته ، كما فى قوله ﷺ : - « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٢) فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره ، على أن كلام الله غير مخلوق ، بأنه استعاذ به ، فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة ، لأنه استعاذ بهما ، والعافية القائمة بيدن الإنسان مخلوقة ، فإنها نتيجة معافاته » (٣) .

وسياتى إن شاء الله تعالى بسط ذلك وإيضاحه فى محله .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٢ .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

قال : باب قول الله - تعالى - : « لما خلقت بيدي »

* * *

أراد رحمه الله - بهذه الترجمة بيان ما أثبتته الله - تعالى - لنفسه ، من صفة اليدين ، وأثبتته له رسوله - ﷺ - على ظاهر ما نطقت به النصوص ، المتنوعة الدلالة في ذلك ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

قاله الله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء) (١) .

وقال - تعالى - : (وما قدرنا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢) .

وقال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) (٣) (بيدك الملك) (٤) (بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) (٥) في آيات كثيرة ، وقد ذكر البخارى في ذلك عدة أحاديث .

★ ★ ★

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة الفتح .

(٤) فاتحة سورة الملك .

(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

٣٩ - قال : « حدثني معاذ بن فضالة ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس ، أن النبي ﷺ - قال : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة ، كذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا .
 فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، أما ترى الناس ؟ خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئته التي أصاب ، ولكن اتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله ، إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا ، فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئته التي أصاب ، ولكن اتوا إبراهيم - خليل الرحمن - ، فيأتون إبراهيم فيقول : لست هناك ، ويذكر خطاياها التي أصاب ، ولكن اتوا موسى ، عبدا آتاه التوراة وكلمه تكليما ، فيأتون موسى ، فيقول : لست هناك ، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب ولكن اتوا عيسى - عبد الله ورسوله - وكلمته ، وروحه .

فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناك ، ولكن اتوا محمداً ، عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فيأتوني ، فأنطلق ، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً ، فيدعني ماشاء الله أن يدعني .

ثم يقال لي : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع .

فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً ، فيدعني ماشاء الله أن

يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة .

ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال : ارفع محمد ، قل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة .
ثم أرجع فأقول : ياربي ما بقى في النار إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود .

قال النبي - ﷺ - : يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة .

ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة .

ثم يخرج من النار ، من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ، ما يزن من الخير ذرة «

* * *

هذا حديث الشفاعة المشهور ، وقد ذكره البخاري في أماكن متعددة من جامعه . والمقصود منه هنا ، قوله : « خلقتك الله بيده » حيث جعل ذلك ميزة لآدم من بين الخلق ، فدل على أن اليد هنا على ظاهرها ، يد ، حقيقة ، ولو كانت كما يقول أهل التأويل : أنها القدرة ، لم يكن لآدم اختصاص بذلك ، إذ الخلق كلهم مخلوقون بقدرة الله تعالى .

قوله : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك » قال الحافظ : « هكذا للجميع ، وأظن أول هذه الكلمة لام - أى لذلك - والإشارة ليوم القيامة ، أو لما يذكر بعد .

وعند مسلم : « يجمع الله المؤمنين ، يوم القيامة ، فيهتمون لذلك - وفي رواية « يلهمون لذلك » ^(١)

ومعنى : يهتمون ، ويلهمون متقارب - أى أنهم يعنون بسؤال الشفاعة وإزالة الكرب ، الذى هم فيه ، أو أن الله تعالى يلهمهم سؤال ذلك ، والإلهام : أن يلقي الله - تعالى - فى النفس أمراً يحمل على فعل الشئ أو تركه ^(٢) .

قوله : « فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا » هذا هو الذى يهتمون له - أو يلهمون - أى لو طلبنا ممن هو موجود معنا من الرسل الذين لهم مقام عند الله من يشفع لنا عند ربنا ، ليريحنا من عناء هذا الموقف وكرباتة ، فيحاسبنا ربنا ، ويجزينا بأعمالنا ، وما نستحق ، ثم نصير إلى منازلنا .

قوله : فيأتون آدم « إلى عيسى ، وكلهم يعتذر ، ويذكر لهم ذنبه .

فآدم عليه السلام يقول : نهانى عن الأكل من الشجرة فعصيته ، ونوح - عليه السلام يقول : دعوت على قومي ، فأغرقوا ، وسألت ما ليس لى به علم ، وإبراهيم عليه السلام يقول : كذبت ثلاث كذبات ، مع أنهم فى سبيل الله ، وهن : قوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله : (إني سقيم) وقوله : للظالم العنيد لما سأله عن زوجته ، قال إنها أختى ، لأنها أخته فى الإسلام ، ولو قال : إنها زوجته لأخذها منه ذلك الظالم .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) النووى على مسلم ج ٣ ص ٥٣ .

وموسى - عليه السلام - يقول : قتلت نفسا بغير حق ، ولم يذكر لعيسى عليه السلام ذنباً ، وهذا كله مع قوله عيسى عليه السلام « ولكن اتنوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر » يدل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، وهؤلاء المذكورون هم أفضل الأنبياء ، وهى مسألة مشهورة ، ولا خلاف أن الكفر بعد النبوة غير واقع منهم ، كما أنه لا خلاف فى عصمتهم فيما يبلغونه عن طريق القول . وأما الفعل ، فقد يقع منهم السهو أو النسيان ، أو الخطأ الذى لا يقرون عليه كما أنهم محفوظون من الذنوب ، التى ترى بفاعلها ، وتسقط مروءته .

وأما الصغائر فجائز وقوعها منهم ، كما دل عليه هذا الحديث فى الجملة ، وغيره من النصوص الكثيرة . والله أعلم . وقد تطرف بعض شراح الكتاب وزعم أن من قال بهذا أنه كافر .

ويدل على عظم الأمر ، كيف اعتذر من هم أفضل البشر عن الشفاعة معتلين بذنوب ، أكثر الخلق لايعدها ذنوباً ، وهم قد تابوا منها ، واستغفروا ربهم فغفر لهم . وهذا يدل على عظم الله وعظيم قدره فى قلوبهم ، وعلى صعوبة الموقف بين يدى الله وشدته ، فهل يفهم هذا من يهرع إلى قبور الموتى يطلبون منهم مالا يطلبه أولوا العزم من الرسل .

وقول كل واحد منهم : « لست هناكم » أى لست كما تظنون أنى أستطيع أن أشفع لكم ، فليس ذلك عندى .

قوله : « فأنطلق ، فاستأذن على ربي ، فيؤذن لى عليه » يدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - يقصد مكاناً معيناً ، يرى فيه ربه ، وسيأتى فى باب الرؤية فى هذا الحديث « فاستأذن على ربي فى داره » وقد قيل : إن المراد بداره هنا الجنة . فالله أعلم .

قوله : « فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً » صريح فى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرى ربه عياناً فى ذلك الموقف ، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » أي أن الله تعالى يمهل له في السجود ، فيبقى ساجدا وقتا طويلا ، يسبح ربه ، ويمجده ، ويشئ عليه ، ويحمده ، فلا يرفع رأسه من سجوده حتى يأمره الله تعالى برفعه ، ثم يأذن له - تعالى - بأن يطلب من ربه مراده وقد علم الله مقصده ، ولهذا قال له : واشفع تشفع ، وهذا كله من رحمته تعالى . فهو الذي ألهم عباده طلب الشفاعة من الأنبياء ، وهو الذي أذن في الشفاعة وقبلها ، وحقيقة الأمر هو إرادة الله تعالى رحمة الخلق وإراحتهم من عناء الموقف ، وإظهار كرامة محمد ﷺ للخلق في ذلك الموقف العظيم ، وإلا فالشفاعة كلها لله .

قوله : « فأحمد ربي بمحامد علمنيها » قد تقدم أن هذا يدل على عدم حصر أسماء الله الحسنى ، في تسع وتسعين ، لأن هذه المحامد بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وقد جاء في الرواية الأخرى : « فيفتح الله عليّ من المحامد والثناء مالا أحسنه الآن » .

قوله : « ثم أشفع ، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة » أي أن الله تعالى يعين له من يشفع فيهم ، وهذا من الأدلة الواضحة على أن الرسول - ﷺ - لا يشفع فيمن يريد ، بل لمن يأذن الله له في الشفاعة فيهم ، وبذلك يتبين أن الشفاعة لله جميعا ، كما صرحت بذلك آيات من كتاب الله تعالى : قال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون) (١) .

وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ، ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الزمر .

الحق وهو العلي الكبير (١) .

بهذه الآية يتبين أن المدعو يجب أن يكون مالكا لما يدعى من أجله ، وإلا كانت دعوته ضلالاً مبيهاً ، فإن لم يكن مالكا يكون مشاركاً للمالك ، فإن انتفى الأمران ، يكون معاوناً ، وظهيراً مساعداً للمالك فإن لم يكن ذلك ، فلا أقل من أن يكون شافعاً مقبول الشفاعة عند من يملك المطلوب ، فنفى الله - تعالى - عن المدعويين من دونه هذه الأمور الأربعة ، وبين أن الشفاعة لا تنفع إلا بعد إذنه ، وهو جل وعلا ، لا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى عمله ، وهم أهل الإخلاص ، ومتابعة الرسول . وهو تعالى لا يرضى عن المشرك ، الذي يدعو غير الله تعالى .

فيجب على العاقل الذي تعز عليه نفسه أن لا يغتر بما اغتر به كثير من الناس الذين يعتمدون على الشفاعة ، مع ما هم فيهم من المعاصي ، فأفضل الشفعاء يحمد الله له حداً ، يقول : هؤلاء اشفع فيهم .

قوله : « فأقول : يارب ما بقى إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود » - أى أن أهل التوحيد الذين استحقوا دخول النار بذنوبهم قد خرجوا منها بالشفاعة التي حقيقتها رحمة الله إياهم ، بواسطة الشفاعة ليظهر كرامة الشافع كما تقدم ، وبقي من نص القرآن على أنه من أهل النار ، الذين لا تنالهم شفاعة الشافعين .

قوله : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة إلى قوله - ما يزن برة » يدل على أن مجرد قول لا إله إلا الله ، من دون أن يقوم في القلب شيء من الإيمان ، لا ينفع ، ولا يخرج من النار ، فالمقصود بالخير ، الإيمان الذي يقوم في القلب ، وإن قل .

كما أنه يدل دلالة واضحة على تفاوت الإيمان وتفاضله ، وأن أهل الكبائر من المؤمنين يدخل من يدخل منهم النار ثم يخرجون منها . والله أعلم .

★ ★ ★

(١) الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة سبأ .

٤٠ - قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « يد الله ملامى ، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغيض ما فى يده . وقال : عرشه على الماء ، ويده الأخرى الميزان ، يخفض ، ويرفع » .

* * *

جاء فى أول هذا الحديث فى تفسير سورة هود (أنفق أنفق عليك) (١) وسيأتى كذلك ، فى باب قوله تعالى : (يريدون أن يدلوا كلام الله) . وهو عند مسلم بلفظ « أن الله قال لى : أنفق أنفق عليك - وقال رسول الله ﷺ :- « يمين الله ملامى » إلى آخره (٢) .

وسياتى فى باب « وكان عرشه على الماء » . بلفظ : « إن يمين الله ملامى ، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء ، ويده الأخرى الفيض - أو القبض يرفع ويخفض » وهو أبلغ فى الدلالة على إثبات اليمين لله تعالى من ماها هنا . وقد اضطرب أهل التأويل فى تأويلهم اليد اضطرابا يدل على أنهم على باطل .

والعاقل المنصف يعجب إذا رأى ما كتبه ابن حجر فى شرحه لهذا الباب ،

(١) انظره مع الفتح ج ٨ ص ٣٥٢ .

(٢) انظر مسلم ج ٢ ص ٦٩١ الحديث رقم ٣٧ ، وص ٦٩٠ الحديث رقم

فإنه ذكر بعض أقوال أئمة الأشعرية ، ثم قال : « واليد في اللغة تطلق لمعان كثيرة ، اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى » (١) . والنصوص في هذا الباب جاءت معينة معنى واحدا لاغير هو يدا الله الكريمتين ، وماعدا ذلك فهو بهتان عظيم .

قوله : « يد الله ملامى » ذكرنا أنها عند مسلم ، وعند البخارى في مواضع غير هذا بلفظ « يمين الله » بدل : يد الله ، قال الحافظ : « يتعقب بهذه الرواية على من فسر اليد بالنعمة ، وأبعد منه من فسرها بالخزائن » (٢)

قلت : هذا التفسير باطل ، ولا يصح أن يسمى تفسيراً ، وإنما هو تحريف للكلام عن مواضعه ، كفعل اليهود ، كما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى . و « ملامى » بفتح الميم ، وسكون اللام ، وهمزة ، مع القصر ، أى أنها شديدة الامتلاء بالخير .

قوله : « لا يغيضها » أى لا ينقصها ، يقال غاض الماء ، يغيض إذا نقص .

قوله : « سحاء » بفتح السين والحاء المشددة ، ممدودا ، أى دائمة

الصب .

« الليل والنهار » منصوبان على الظرفية - أى يد الله دائمة السح في الليل

والنهار .

قوله : « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض » ؟ استدلال ،

وإيضاح لكثرة نفقته تعالى . وتنبه لمن له بصيرة إلى ذلك .

قوله : « فإنه لم يغيض ما فى يده » . أى هذا الإنفاق الهائل ، المستمر الدائم

بدون توقف ، لم ينقص ما فى يده - تعالى - لأن بيده الخير كله ، لا مانع لما

أعطى ، ولا معطى لمن منعه ، وإذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون .

قوله : « وعرشه على الماء » . قال الحافظ : « مناسبة ذكر العرش هنا ، أن

(١) انظر فتح البارى ج ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٥ .

السامع يتطلع من قوله « منذ خلق السماوات والأرض » ماذا كان قبل ذلك ؟
فذكر أن عرشه قبل خلق السماوات والأرض ، كان على الماء » (١)

قوله : « وبيده الأخرى ، الميزان ، يخفض ، ويرفع » . الميزان : العدل ،
الذى به يرفع من يكون أهلا لأن يرفع ، ومن هو موضع له . فيفضل عليه برفعه
بالإيمان وقبول الحق ، بأن يجب إليه الإيمان ، ويزينه في قلبه ، ويكره إليه الكفر
والفسوق ، والعصيان ، ويجعله من الراشدين ، وهذا أعظم الرفع . ويخفض من
ليس أهلا لذلك ، بأن يمنع فضله عنه ، ويكمله إلى نفسه ، فيضل ويتولاه عدوه ،
فيصبح خاسرا ، وهذا أعظم الخفض ، لأنه يصير إلى أسفل سافلين ، في جهنم .
نعوذ بوجه الله منها ، وأمور الدنيا تبع لذلك .

« قال الطيبي : يجوز أن يكون « ملآى » و « لا يغيضها » و « سحاء »
و « أرأيتم » أخبار مترادفة ليد الله ، ويجوز أن تكون الثلاثة أوصافا « ملآى »
ويجوز أن يكون « أرأيتم » استثناء ، فيه معنى الترقى ، كأنه لما قيل : « ملآى »
[خشى] إيهام جواز النقصان ، فأزيل بقوله : « لا يغيضها » ، وقد يمتلىء الشيء
ولا يغيض ، فقيل : « سحاء » إشارة إلى الفيض ، وهو كثرة العطاء - وقرنه بما
يدل على الاستمرار ، من ذكر الليل والنهار ، ثم أتبعه بما يدل على أن ذلك ظاهر
غير خافٍ على ذى بصير وبصيرة ، بقوله : « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات
والأرض » وهذا الكلام إذا أخذته بجملته أبان عن زيادة الغنى ، وكال السعة
والجود ، والبسط في العطاء » (٢) .

قلت : الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت اليدين لله تعالى ، حقيقة ظاهر
جدا . وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله في آخر الباب .

★ ★ ★

(١) المصدر المذكور .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٥ .

٤٩ - قال : « حدثنا مقدم بن محمد ، قال : حدثني عمي ، القاسم ابن يحيى ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض ، وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » . رواه سعيد عن مالك .

* * *

القبض : « إمساك الشيء بجميع كف اليد ، فقبض اليد على الشيء جمعها بعد تناوله » (١) فقبض الشيء هو جمعه في الكف .

فقوله : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض » أى يجمعها بيده ، فتكون قبضته كما قال تعالى : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) .

وقوله : « وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » أى أنه تعالى يطوى السماوات بيده اليمنى ، والأرض مقبوضة بيده الأخرى ، وأنه يهزمن ثم يقول :- يعظم نفسه - أنا الملك - أى الذى يتصرف فى كل شيء كيف يشاء ، لا يشاركه فى ذلك أحد ، ولهذا جاء فيه : أنه - تعالى - إذا قبضهن ، يهزمن ، ويقول : أنا الملك أنا الملك ، أين ملوك الدنيا ؟

وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢)

وفيه الدليل الواضح على ثبوت اليدين لله - تعالى - وهو نص لا يقبل تأويلا . ولهذا صارت تأويلات المعطلين ليدى رب العالمين ، شبه اللعب فى كلام الله وكلام رسوله ، الذى يترفع عنه العقلاء ، فضلا عن أهل التقى .

★ ★ ★

(١) انظر المفردات للراغب ص ٣٩١ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٢ - قال : « وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة ، أن أبا هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « يقبض الله الأرض »

* * *

تقدم تفسير القبض . وهذا الحديث مر في باب قوله تعالى : (ملك الناس) .

★ ★ ★

٤٣ - قال : « حدثنا مسدد ، سمع يحيى بن سعيد ، عن سفيان ، حدثني منصور ، وسليمان عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، أن يهوديا جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : يا محمد ، إن الله يمسك السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره) (١) » .

وقال يحيى بن سعيد : وزاد فيه فضيل بن عياض ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله : « فضحك رسول الله - ﷺ - تعجبا وتصديقا له »



(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٤ - قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، سمعت إبراهيم قال : سمعت علقمة يقول : قال عبد الله : جاء رجل إلى النبي - ﷺ - من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، فرأيت النبي - ﷺ - ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : (وما قدروا الله حق قدره) (١) .

* * *

هذا الحديث يدل على عظمة الله - تعالى - حيث يضع السموات كلها على إصبع من أصابع يده ، الكريمة العظيمة ، وعدد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة ، وأخبر أن كل نوع منها يضعه - تعالى - على إصبع ، تعالى - لوضع السموات والأرضين ومن فيهن على إصبع واحدة من أصابع يده - جل وعلا - .

وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقى عن الوحي من الله - تعالى - ، ولهذا صدقه رسول الله - ﷺ - بل وأعجبه ذلك وسرَّ به ، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه ، تصديقاً له ، كما قال عبد الله بن مسعود ، ولا التفات إلى قول من تبنى التعطيل ، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة ، التي تعرف الله بها إلى عباده - هو ما يعرفونه من أنفسهم . فحملهم ذلك على تعطيل الله - تعالى - من هذه الأوصاف ، مرة برد هذه النصوص ، والظعن في روايتها بلا حجة سوى روايتهم لها ، ومرة بتأويلها التأويل الباطل ، الذي يخرجها عن مراد المتكلم بها . « قل أنتم أعلم أم الله » .

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

هذا وقد تنوعت النصوص من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - على إثبات اليمين لله - تعالى - وإثبات الأصابع لهما ، وإثبات القبض بهما وتثنيتهما ، وأن إحداهما يمين كما مر ، وفي نصوص كثيرة - والأخرى شمال كما في صحيح مسلم ^(١) ، وأنه - تعالى - ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وبالنهار ليتوب مسيء الليل ^(٢) ، وأنه - تعالى - يتقبل الصدقة من الكسب الطيب بيمينه فريها لصاحبها ^(٣) وأن المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ^(٤) ، وغير ذلك مما هو ثابت عن الله ورسوله . وسأذكر شيئاً يسيراً من ذلك إن شاء الله . وبعضه يكفى المؤمن المرید للحق .

وهذا الذى أشرت إليه كله يمنع تأويل اليمين بالنعمة أو القوة ، أو الخزائن ، أو القدرة ، أو غير ذلك ، ويجعل التأويل فى حكم التحريف ، بل هو تحريف .

وقد آمن المسلمون بهذه النصوص ، على ظاهرها ، وقبلوها ، ولم يتعرضوا لها بتأويل تبعاً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته ، وأئمة الهدى ، بل وكل من قبل ماجاءت به الرسل ، وآمن به .

قال الإمام ابن خزيمة معلقاً على هذا الحديث : « معناه أن الله - جل وعلا - يمسك ما ذكر فى الخبر على أصابعه ، على ما فى الخبر سواء ، قبل تبديل الله الأرض غير الأرض ، لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء ، وهو مفهوم فى اللغة التى حوطيناها ، لأن الإمساك على الشيء بالأصابع ، غير القبض

(١) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٢) سيأتى تخرجه .

(٣) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٤) سيأتى ذكره فى هذا الباب .

على الشيء» (١) قال الحافظ في شرحه لهذا الحديث : « زاد ابن خزيمة ، عن محمد ابن خلاد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن الأعمش ، فذكر الحديث ، قال محمد : عدها علينا يحيى بأصابعه وكذا أخرجه أحمد في السنة ، عن يحيى بن سعيد ، وقال : وجعل يحيى يشير بأصبعه يضع إصبعها على أصبع ، حتى أتى على آخرها ، قال :

ورواه الخلال في كتاب السنة ، عن أبي بكر المروزي ، عن أحمد . وقال : ورأيت أبا عبد الله يشير بإصبع إصبع » (٢)

قلت : تبعوا في ذلك ما وقع من الخبر الذى حدث رسول الله - ﷺ - حيث كان يشير بأصابعه ولم ينكر عليه رسول الله - ﷺ - بل أقره ، وصدقه . فهذه النقول عن هؤلاء المذكورين من السلف ، تدل على أنهم فهموها على ظاهرها ، وأنها أصابع حقيقة .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : « قال أبى : قال يحيى : قال فضيل بن عياض ... فضحك رسول الله تعجباً وتصديقاً ، سمعت أبى يقول : حدثنى يحيى ابن سعيد ، بحديث سفيان ، عن الأعمش ، ومنصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، عن النبى - ﷺ - : « إن الله يمسك السموات على إصبع » . قال أبى : وجعل يحيى يشير بأصابعه ، وأرانى أبى كيف جعل يحيى يشير بأصابعه . يضع إصبعها إصبعها حتى أتى على آخرها » (٣) .

وفى الترمذى عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى بالنبى - ﷺ - فقال له - النبى - ﷺ - : يا يهودى حدثنا ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم : إذا

(١) كتاب التوحيد ص ٧٩ .

(٢) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٩٧ .

(٣) كتاب السنة ص ٥٤ .

وضع الله السموات على ذه والأرضين ، على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ؟

وأشار محمد بن الصلت - أبو جعفر - بخصره أولاً ، ثم تابع حتى بلغ الإبهام فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح ^(١) .

ورواه ابن جرير في تفسيره . وسنده حسن ^(٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : « حدثني أبي ، حدثنا حسين بن حسن ، حدثنا أبو كريمة ، عن عطاء ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى برسول الله - ﷺ - وهو جالس ، قال : كيف تقول ياأبا القاسم : يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلائق على ذه - وجعل يشير بأصابعه - فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) .

حدثني عبد الله بن عمر ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى على النبي - ﷺ - فقال له النبي - ﷺ - : يا يهودى خوفنا ، فقال : ياأبا القاسم كيف بيوم تكون الأرضون على هذه ، والسموات على هذه ، والماء على هذه ، والخلق على هذه - يعنى أصابعه ، ثم قرأ رسول الله - ﷺ - (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) ^(٣) .

فمثل هذه الأحاديث هي مسند السلف في الإشارة بالأصابع ، تحقيقاً لإثبات أصابع الرحمن - جل وعلا - ، وقدوتهم رسول الله - ﷺ .

(١) سنن الترمذى ج ٥ ص ٤٩ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج ٢٤ ص ٢٦ .

(٣) كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٥٥ .

وهذه النصوص التي فيها ذكر الأصابع تدل دلالة قاطعة - عند المؤمنين الذين يحكمون الشرع - على ثبوت اليدين لله - تعالى - ، وقد تنوعت الدلائل على ذلك - كما أشرنا إليه آنفا - من ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، والثنية ، وذكر اليمين والشمال .

ففي الموطأ ، والترمذى ، وسنن أبى داود : أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله - تبارك وتعالى - خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذريته » (١) ورواه أحمد

وفي الترمذى وسنن أبى داود مرفوعا « أن الله - تبارك وتعالى - خلق آدم من قبضة ، قبضها من جميع الأرض » (٢) .

وفيه أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا ، فى حديث طويل فى خلق آدم ، وفيه : « فقال الله له : ويدها مقبوضتان ، اختر أيهما شئت ، قال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين ، مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها ذريته » (٣)

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يطوى الله - عز وجل - السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » (٤) .

وفيه أيضا عنه مرفوعا ، « قال : يأخذ الله - عز وجل - سماواته ، وأرضيه

(١) الموطأ ج ٢ ص ٨٩٨ - ٨٩٩ ، والترمذى فى التفسير رقم ٣٠٧٧ ، وسنن أبى داود فى السنة رقم ٤٧٠٣ ، والمسند ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) الترمذى رقم ٢٩٤٨ فى التفسير ، وأبو داود فى السنة فى القدر رقم ٤٦٩٣ .

(٣) سنن الترمذى فى التفسير فى باب من سورة المعوذتين رقم ٣٣٦٥ . وابن

خزيمة فى التوحيد ص ٦٧ .

(٤) مسلم ج ٤ ص ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨ .

بيديه فيقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ، ويبسطها - أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله - ﷺ - « (١) ورواه أحمد .

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن المقسطين عند الله ، على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم ، وأهليهم ، وما ولوا » (٢) .

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ - : « وماتصدق أحد بصدقة ، من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن ، حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يرى أحدكم فلوه ، أو فضيله » (٣) .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربها لصاحبها ، كما يرى أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل » (٤) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، قال رسول الله - ﷺ - : « ينزل الله في السماء الدنيا ، لشطر الليل ، أو لثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ أو يسألني فأعطيه ؟ ثم يبسط يديه - تبارك وتعالى - يقول : من يقرض غير عدوم ، ولا ظلوم » (٥) .

(١) صحيح مسلم الموضع المذكور وانظر المسند ج ٢ ص ٧٢ ، ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ رقم ١٨٢٧ .

(٣) مسلم ج ٢ ص ٧٠٢ رقم ١٠١٤ .

(٤) انظر البخارى مع الفتح ج ٣ ص ٢٧٨ و ج ١٣ ص ٤١٥ ، ومسلم ج ٢

ص ٧٠٢ ، وابن خزيمة في التوحيد ص ٦١ - ٦٣ .

(٥) مسلم ج ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة في التوحيد عن عبد الله بن مسعود ص

وفيه من حديث المغيرة بن شعبه في سؤال موسى ربه ، عن أدنى أهل الجنة منزلة . قال : « رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن » (١)

وفي الصحيحين مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري . قال النبي - ﷺ - : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر ، نزلاً لأهل الجنة » (٢) .

وفيهما من حديث أبي هريرة ، قال رسول الله - ﷺ - : « واحتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبونا ، خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة . فقال آدم : أنت موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن يخلقني بأربعين سنة » (٣) .

وفي رواية لمسلم « احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته » (٤)

وروى البيهقي في الأسماء والصفات بسنده « أن النبي - ﷺ - قال : « لما خلق الله - تعالى - آدم وذريته ، قالت الملائكة : يارب خلقتهم يأكلون ويشربون ، وينكحون ، ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال الله - تعالى - : لأجعل من خلقتهم بيدي ، ونفخت فيه من روحي كمن قلت له : كن فيكون » (٥) .

(١) مسلم ج ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة في التوحيد ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٣٧٢ ، ومسلم ج ٤ ص ٢١٥١ رقم

. ٢٧٩٢

(٣) البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم ج ٤ ص ٢٠٤٢ .

(٤) مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ .

(٥) الأسماء والصفات ص ٣١٧ .

وروى بسند حسن، عن أنس، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خلق الله - تعالى - جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده ، فقال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » (١) .

ورواه ابن جرير موقوفا (٢) ، وذكره الحافظ ابن كثير ، عن ابن أبي الدنيا مرفوعا (٣)

وقال ابن جرير في قوله - تعالى - : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول - تعالى - ذكره - والأرض كلها قبضته في يوم القيامة ، والسماوات كلها « مطويات يمينه » ثم روى عن ابن عباس ، قال : « ما السماوات السبع ، والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم » .

وروى عن ربيعة الجرشى قال : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات يمينه » قال : ويده الأخرى خلو ليس فيها شيء .

وعن ابن عباس ، قوله : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول : قد قبض الأرضين ، والسماوات جميعا يمينه ، ألم تسمع أنه قال : « مطويات يمينه » يعنى الأرض والسماوات جميعا ، قال ابن عباس : وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه .

وعن الحسن : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » قال : كأنها جوزة بقضها وقضيضها »

حدثنا الربيع ، قال حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني أسامة بن زيد ، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمر ، أنه رأى رسول الله - ﷺ - على المنبر ، يخطب الناس فمر بهذه الآية : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم

(١) المصدر المذكور ص ٣١٨ .

(٢) تفسير الطبرى مفتاح الجزء ١٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥ ط الشعب .

القيامة) فقال رسول الله - ﷺ - : « يأخذ السموات ، والأرضين السبع فيجعلها في كفه ، ثم يقول بهما ، كما يقول الغلام بالكرة ، أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز ، حتى لقد رأينا المنير ، وإنه ليكاد أن يسقط به » (١) .
 وذكر أحاديث ، وآثاراً في هذا .

والأحاديث ، والآثار عن السلف في ذلك كثيرة .

وروى ابن ماجه ، قال في الزوائد وسنده صحيح ، والإمام أحمد ، عن النواس بن سمعان ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : مامن قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاعه » (٢) .

وهذا وغيره كثير لم نذكره ، يعلم خطأ الخطابي ، وفريق أهل التأويل قطعاً حيث يقول : « لم يقع ذكر الإصبع في القرآن ، ولا في حديث مقطوع به . وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف ، أطلقه الشارع ، فلا يكيف ، ولا يشبه ، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودي ، وأما ضحكك - ﷺ - من قول الحبر ، فيحتمل الرضا والإنكار ، وأما قول الراوي : « تصديقا له » فظن منه وحسبان » (٢) .

ونحن نجيبه بما أجاب به عبد الله بن مسعود ، لما قيل له : إن المنع من تعليق التهمة ليس في كتاب الله .

فنقول : بلى إن ذكر الأصابع قد وقع في القرآن ، لأن الله - تعالى - : يقول فيه : (وما آتاكم الرسول فخذوه) . وقد أتانا - ﷺ - بذكر الأصابع ،

(١) تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٧٢ رقم ١٩٩ ، والمسند ج ٤ ص ١٨٢ ، والآجری فی الشریعة ص ٣١٧ ، والحاكم ج ٤ ص ٣٢١ ، وابن أبي عاصم في السنة ج ١ ص ٩٨ ، وذكر عدداً من الأحاديث بهذا اللفظ .

(٣) من الفتح ج ١٣ ص ٣٩٨ .

وذكر الكف ، وذكر اليمين ، والشمال ، واليدين مرة مثناة ، ومرة منصوص على واحدة أنه يفعل بها كذا وكذا ، وأن الأخرى فيها كذا ، كما تقدمت النصوص بذلك . وهو تبع لأهل الكلام - المذموم - ينكر وصف الله - تعالى - باليدين حقيقة ، مع أن القرآن قد جاء بذلك صراحة ، كما قال - تعالى - : (يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدي) (١) (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) (٢) (بل يدها مبسوطتان) (٣) . وهو مع ذلك لا يقبله ، لأنه على خلاف ما تلقاه عن أهل البدع ، ولهذا نراه - عفا الله عنا وعنه - يحاول رد النصوص بدون حجة ، وكل ما يمكن أن يعتمد عليه هو - وكل من سلك مسلكه - من أهل التأويل ادعائهم أن العقل بخلاف ذلك وأنه محال في العقل - وهو أمر غير منضبط ، كما سنشير إليه - إن شاء الله - ودعوى بدون برهان .

قوله : « ولا حديث مقطوع به » . هذا عجيب من الخطابي - الذي كثر اشتغاله بالحديث تأليفا ، ورواية ، وشرحا لمتونه ، وأسانيده ، ثم يقول هذا القول ، الذي هو عنوان لأهل البدع ، فهم كلما ألجأتهم الحجج إلى المضائق رموها بهذه الدعوى - « أنها أدلة غير مقطوع بها » - .

فإذا كانت أحاديث الرسول - ﷺ - مع ثبوت أسانيدها غير مقطوع بها ، فما هي الحجج المقطوع بها في نظر هؤلاء ؟ هل هي أقوال أقوام متهمين على الدين الإسلامي ؟ - وتحوم حولهم شكوك كثيرة ؟ كالجعد بن درهم ، وجهم ابن صفوان ، وبشر المريسي ، وأحمد بن أبي دؤاد ، وابن الثلجى ونحوهم ، فإن هؤلاء هم سلف متأخرى الأشعرية في تأويلاتهم .

وإننا نربأ بالخطابي أن يسلك هذا المسلك المنحرف عن الهدى .

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

وهذا دليل على ضعف مسلك التأويل في هذه النصوص ، وأنه غير مقنع .
ثم هو يقصد بقوله : غير مقطوع به . عدم التواتر ، لأنه لا يقبل من الحديث في
باب الصفات إلا ما كان في القرآن ، أو تواتر عن الرسول - ﷺ - كما ذكر
ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد علم أن القرآن جاء بصفة اليدين لله
صراحة .

ومعلوم أن الصحابة ومن سلك نهجهم لم يفرقوا بين أصول الدين وفروعه في
الثبوت ، ومعظم الدين الإسلامى ثبت بأخبار الآحاد .

وهذه الصفات التي ينكرها هؤلاء ، قد ثبتت في أحاديث مقطوع
بصحتها عند أهل العلم ، وإذا صح الحديث وجب قبوله ، والعمل به ، والإيمان
بما دل عليه وحرمت مخالفته .

ولا فرق بين كونها في العمليات ، أو الاعتقادات ، خلافا لأهل البدع
الذين يفرقون بين ذلك .

ومعلوم أن الذي جاء بهذه النصوص - في الصفات - هو الذي جاء
بالأمر بعبادة الله ، وتحريم الشرك ، وبيان عدد ركعات الصلوات الخمس ، وأنصاء
الزكاة ، وبيان واجبات كثيرة ، ومحرمات كثيرة لم يأت تفصيلها في القرآن ، ولا في
أخبار متواترة ، فلماذا يقبل هذا ، ويرد ذاك ؟ إن هذا التفريق فعل الذين جعلوا
دينهم شيعا ، وآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

وقد تقدم ما فيه كفاية لمن قصده الحق من ذكر النصوص في هذه المسألة
وغيرها من مسائل الصفات نظيرها ، وقد يكون أوضح منها دليلا كما سيأتى
بعض ذلك .

وقوله : « وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت
الأصابع » حقيقة هذا الكلام : أن اليد ليست يدا ، حتى يلزم ثبوت الأصابع .
ومعلوم أن الله - تعالى - خاطبنا باللغة العربية ، وبألفاظ معلومة المعانى
للمخاطبين فالمخاطبون بهذه النصوص ، علموا أن المراد بها ما دلت عليه بظاهرها .

وكذلك المخاطب أراد منهم ذلك ، ولهذا لم يأت عنه - ﷺ - ولا من طريق ضعيف أنه قال : لاتعتقدوا ظاهرها ، ولاسيما وظاهرها عند الخطابي وفريقه كفر وتشبيه .

فهل يعقل أن الله ورسوله يخاطبان العباد بما ظاهره الكفر ، ثم لايين ذلك لهم ، ويحذرهم من اعتقاده ؟ ولو كان لهذه النصوص معنى عند رسول الله غير ظاهرها لبينه ، لأنه واجب عليه بمقتضى الرسالة .

والصحابا سمعوا هذه النصوص ، ورووها ، ولم يسألوا عن معان لها غير ظاهرها ، فلما سكتوا دل ذلك على أنهم علموا أن المراد بها هو الظاهر ، فوجب علينا أن نسكت حيث سكتوا ، وأن نقبل ونسلم كما قبلوا وسلموا لها بدون تأويل . ونحن نسأل هؤلاء من ، من المسلمين الذين يعتد بقولهم ، قال : إن يد الله جارحة ؟ وهل جاء ذلك . ولو بحديث ضعيف ؟ إن هذا لاوجود له ، ولكنها الأوهام . والاتجاهات الفاسدة ، وإرادة التشنيع على اتباع الرسل .

ونحن بحمد الله وله المنة ، وكل من تلقى عن رسول الله - ﷺ - بالقبول والتسليم ، وفهم المراد - نعتقد مطمئنين أن لله يدين حقيقتين لهما أصابع يضع عليها السموات والأرض ، وماشاء يوم القيامة ، وإن رغمت أنوف الأشعرية وإمامنا في ذلك رسولنا محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - . وأصحابه ، وأتباعه إلى يوم القيامة ، وهو معلم الخير والهدى .

قال الإمام أحمد : « الحديث عندنا على ظاهره ، كما جاء عن النبي - ﷺ - والكلام فيه بدعة ، ولكن نؤمن به كما جاء على ظاهره » (١) .

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٤٢ .

ويقصد بالكلام فيه : التأويل الذى يخرجه عن ظاهره .

وقال البريهارى (١) : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، ولا يقبلها ، أو ينكر شيئاً من أخبار رسول الله - ﷺ - فاتهمه على الإسلام ، لأننا إنما عرفنا الله ورسوله ، وعرفنا القرآن ، والخير ، والشر بالآثار » (٢) .

وقال : « واعلم أنها لم تكن زندقة ، ولا كفر ، ولا شكوك ، ولا بدعة ، ولا ضلالة ، ولا حيرة فى الدين إلا من الكلام وأهل الكلام ، والجدل ، والمراء ، والخصومة . وكيف يجترىء الرجل على المراء ، والخصومة ، والجدال ، والله يقول : (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) (٣) .

وقال أيضا : « واعلم أنما جاء هلاك الجهمية . من أنهم فكروا فى الرب - عز وجل - فأدخلوا ، لم ، وكيف ، وتركوا الأثر ، ووضعوا القياس ، وقاسوا الدين على رأيهم ، فجاؤوا بالكفر عيانا ، لا يخفى أنهم كفروا ، وكفروا الخلق ، واضطروهم الأمر إلى أن قالوا بالتعطيل » (٤) .

وقال : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، أو يردّها ، ويريد غيرها ، فاتهمه على الإسلام ، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع » (٥) .

وقال القاضى ، أبو الحسين محمد بن أبى يعلى : « قرأت على المبارك ، عن على بن عمر البرمكى ، قال أخبرنا أحمد بن عبد الله المالكى ، حدثنا أبى ،

(١) هو شيخ الحنابلة فى وقته الحسن بن على بن خلف ، كان شديد الإنكار على أهل البدع ، وكان حافظا ثقة ، وأصوليا متقنا له تصانيف كثيرة مفقودة توفى سنة ٣٢٩ شذرات الذهب ج ٢ ص ٣١٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) المرجع المذكور ص ٢٧ .

(٤) المرجع المذكور ص ٣٠ .

(٥) المرجع المذكور ص ٣٦ .

حدثنا محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب بن زوران - لفظا - حدثنا أبو العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب بن عبد الله الفارسي ، الاضطخري ، قال : قال أبو عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل ، وذكر العقيدة - إلى أن قال : « وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء ، ويوعيتها ماأراد ، وخلق آدم بيده ، على صورته ، والسموات ، والأرض يوم القيامة في كفه ، ويضع قدمه في النار ، فتنزوي » وذكر عقيدة طويلة جامعة (١)

وقال الحسن بن علي بن خلف البرهاري : « وكل ماسمعت من الآثار شيئا لم يبلغه عقلك ، نحو قول رسول الله - ﷺ - قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن - وقوله : « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، وينزل يوم عرفة وينزل يوم القيامة ، وأن جهنم لايزال يطرح فيها ، حتى يضع عليها قدمه - وقوله للعبد : إن مشيت إلّى ، هرولت إليك » وقوله : خلق الله آدم على صورته ، وقول الرسول - ﷺ - : رأيت ربي في أحسن صورة » (٢) - وأشباه هذه الأحاديث ، فعليك بالتسليم ، والتصديق ، والتفويض (٣) والرضا ، ولا تفسر شيئا من هذه بهواك (٤) ، فإن الإيمان بهذا واجب . فمن فسر شيئا من هذا بهواه ، أو رده ، فهو جهمي » (٥) .

وهذا الذى ذكره الإمام أحمد ، والبرهاري هو مذهب السلف ، الذين تلقوا عن الرسول - ﷺ - ولم يزل السلف يوصى بعضهم بعضا بالتمسك به ، والتحذير ممن يخالفه ، لأنه الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

(١) طبقات الخنابلة ج ١ ص ٢٤ - ٢٩ .

(٢) هذه رؤية منام كما هو مصرح به في الرواية .

(٣) المقصود بالتفويض : تفويض الحقيقة ، والكيف ، فهو يوكل إلى الله -

تعالى - فإن الخلق لا علم لهم بذلك .

(٤) مراده بالتفسير : التأويل ، وتعيين معنى لا يدل عليه اللفظ إلا بتكلف أو

بغرابة .

(٥) طبقات الخنابلة ج ٢ ص ٢٣ .

وقوله : « بل هو توقيف أطلقه الشارع ، فلا يكييف ، ولا يشبه » - يعنى أن لفظ اليد الثابت بكتاب الله ، وبالسنة توقيف أطلقه الشارع ، فلا يوقف له على معنى فهو عنده - لا يدل على ما وضعت له كلمة « يد » فى اللغة ، ومضمون ذلك أن آيات الصفات ، وأحاديثها لا يعلم لها معانى تطابق ألفاظها ، وتؤخذ منها ويلزم على هذا أن الشارع خاطب الناس بما ظاهره غير مقصود ، ولا مطلوب منهم الإيمان بظاهره ، بل قد يكون ظاهره باطلا وكفراً ، فمعنى قوله : « لا يكييف ، ولا يشبه » أى لا يثبت لها معنى مطابقاً للفظها فى وضع اللغة ، فلا يوصف الله - تعالى - باليد الحقيقية التى أثبتنا لنفسه ، وأثبتنا له رسوله - ﷺ - لأن هذا تشبيه ، فهذه النصوص فى هذا الباب ونحوه فيها تشبيه - لله تعالى - عند هؤلاء ، ولهذا صار تأويلها متعينا .

فضاعت النصوص التى تعرف الله بها إلى عباده بين مردود (١) ومؤول .

وقوله : « ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى » . وجواب ذلك أنه قد تقدم من ذكر بعض النصوص التى تبطل هذا الهرى ، والقول الجائر . إن الخطأى - عفا الله عنا وعنه - بهذا القول إنما يشنع فى الحقيقة على رسول الله - ﷺ - . والله المستعان .

وقوله : « فإن اليهود مشبهة ، وفيما يدعون من التوراة ألفاظ . تدخل فى باب التشبيه ، ولا تدخل فى مذاهب المسلمين » . ونحن لانبرىء اليهود من الباطل ، ولكن نقول : إن الحق يجب أن يقبل ممن قاله ، سواء كان من اليهود أو من غيرهم .

وهو لم يبين هذه الألفاظ التى تدخل فى باب التشبيه على حد قوله .

(١) القاعدة عند الخطأى : أن الأحاديث الموافقة للقرآن ، أو المتواترة هى التى تقبل فى الصفات ، أما ما عدا ذلك ، فإنه لا يثبت به صفة لله - تعالى - وهذه القاعدة أخذت من كلامه كما سبق قوله فى الأصابع أنه لم يثبت فيه حديث .

ولكن نعلم من طريقته ، أن كل من أثبت لله من الصفات ما ينكره هو ومن سلك نهجه ، أنهم يسمونه مشبها ، ولو كان متمسكا بالكتاب والسنة فعنده من أثبت لله يداً حقيقة فهو مشبه ، وكذلك الوجه ، والرجل ، والأصابع والعينين ، ونحو ذلك .

وقوله : « وأما ضحكك - ﷺ - من قول الخبر ، فيحتمل الرضا ، والإنكار »

فجوابه : أن الحق الذي لانشك فيه أنه لا يحتمل إلا الرضا ، والموافقة ، لأن الرسول - ﷺ - لا يضحك من الباطل ، والكفر الذي هو تشبيه رب العالمين بالخلق ، كما هو مقتضى مذهب الخطائي .

ومقتضى الإيمان بالرسول - ﷺ - يمنع من أن يكون ضحكك من أجل التشبيه الذي يقوله اليهودي - كما زعم الخطائي - عفا الله عنا وعنه .

إن ما يقوله هؤلاء في الحقيقة قلب للحقائق ، حتى تسلم عقيدة الأشعرية من معاول النصوص ، التي تأتي على أسسها بالافتلاع ، (١) ولو استطاع كثير منهم الرد على الله ، ورسوله لفعلوا ، ولكن كما يقول الله - تعالى - : (بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) (٢) .

وأما قوله : « وأما قول الراوي : « تصدقا له ، فظن وحسبان » يعني أن عبد الله بن مسعود ظن ظناً أخطأ الحق ، وأبعد عن الصواب حيث خالق عقيدة أهل الكلام ، فيرد قوله .

(١) قال ابن خزيمة : « وقد أجل الله قدر نبيه ، عن أن يوصف البارئ بحضرتة بماليس من صفاته ، فيسمعه فيضحك عنده ، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكا حتى تبدو نواجذه . تصديقا وتعجبا لقائله ، لا يصف النبي - ﷺ - بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته » كتاب التوحيد ص ٧٦ .

(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

ونحن نقول : أيهما أولى عند الله ، وعند المؤمنين بالفهم عن رسول الله - ﷺ - صحابته الذين عايشوه ، وتربوا بين يديه ، ونقلوا لنا ديننا عنه ، أم الخطأ وذويه ؟ ولو سلم ذلك لأمكن كل مبطل أن يقول في أى نص جاء عن الرسول - ﷺ - وصحابته كقولك هذا : أنه ظن وحسبان ، وأن الصواب خلافه فتبطل الشريعة كلها . تقدم ذكر بعض الآيات الدالة صراحة على وصف الله - تعالى - باليدين .

« وقد تواتر في السنة مجيء اليد - وصفاً - لله تعالى - فعلم من ذلك أن الله - تعالى - يدين مختصتان به ، ذاتيتان له ، كما يليق بجلاله ، وأنه - تعالى - خلق آدم بيده دون الملائكة ، وإبليس ، وأنه سبحانه يقبض الأرض ، ويطوى السموات بيده اليمنى ، وأن « يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » . (١)

ومعنى بسطهما : بذل الجود ، وسعة العطاء ، لأن العطاء ، والجود في الغالب يكون ببسط اليد ومدّها .

فإذا قيل : هو مبسوط اليد فهم منه يد حقيقة ، وكان ظاهره الجود والبذل . وقد اعتمد أهل التأويل ، في تأويلهم اليد ، أنها النعمة والعطية ، تسمية للشيء باسم سببه ، كما يسمى المطر والنبات سماء ، ومن ذلك قولهم : لفلان عندي أياد ، وقول أبي طالب لما فقد النبي - ﷺ - :

يارب رد راكبي محمداً رده علي ، واصطنع عندي يدا

وقول عروة بن مسعود ، لأبي بكر يوم الحديبية : لولا يدي ذلك عندي ، لم أجرك بها لأجبتك .

وقد تكون اليد بمعنى القدرة ، تسمية للشيء باسم مسببه ، لأن القدرة هي تحرك اليد ، يقال : فلان له يد في كذا وكذا ، أى له قدرة ، ومنه قول زياد

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

للمعاوية : إني قد أمسكت العراق بإحدى يدي ، والأخرى فارغة ، يريد نصف قدرته . وقد يضاف الفعل إلى اليد إضافته إلى الشخص نفسه ، لأن غالب الأفعال تكون بها . فصار ذكر اليد إشارة إلى أنه فعل بنفسه ، كما قال - تعالى - : (ذلك بما قدمت أيديكم) (١) .

وتقول العرب : « يداك أوكنا ، وفوك نفخ » توبيخاً لكل من جرّ إلى نفسه شراً ، لأن أول من قيل له ذلك ، فعل بيديه وفمه .

ولذلك قالوا في مثل قوله - تعالى - : (بل يدها مبسوطتان) أى نعمته في الدنيا والآخرة . واللفظ كناية عن نفس الجود ، من غير أن يكون هناك يد حقيقة ، بل هذه اللفظة صارت حقيقة في العطاء والجود .

وقالوا في قوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) (٢) أى خلقتة أنا ، وليس هناك يد حقيقية - ونحو هذه التأويلات .

والجواب : أننا لاننكر لغة العرب التى نزل بها القرآن ، وأن ما ذكر معروف في اللغة ، ولكن ننكر تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد في أسماء الله وصفاته .

فإن لفظ « اليدين » بصيغة التثنية ، لم يستعمل في النعمة ، ولا في القدرة . لأن من لغة العرب استعمال الواحد في الجمع ، كقوله - تعالى - : (إن الإنسان لفي خسر)

ولفظ الجمع في الواحد كقوله - تعالى - : (الذين قال لهم الناس إن الناس) (٣) والقاتل واحد .

ولفظ الجمع في الاثنين كقوله - تعالى - (فقد صغت قلوبكما) (٤) .

(١) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٣) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٤ من سورة التحريم .

أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين ، والاثنين في الواحد ، فلا أصل له في اللغة . لأن هذه الألفاظ عدد ، وهي نصوص في معناها ، لا يتجاوز بها ، فلا يجوز أن تقول : عندي رجل ، وأنت تريد اثنين ، ولا عندي رجلان وأنت تريد واحدا ، ولا عندي رجلان وأنت تريد الجنس ، لأن اسم الواحد يدل على الجنس ، والجنس فيه شياع وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس ، والجنس يحصل بمحصل الواحد . فقوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) لا يجوز أن يراد به القدرة ، لأن القدرة صفة واحدة ، ولا يجوز أن يراد به النعمة ، لأن نعم الله لا تحصى ، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية .

ولا يجوز أن يكون كما قالوا : لما خلقت أنا ، لأن العرب إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد ، فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفاعل . كقوله : (بما قدمت يداك) (١) (ذلك بما قدمت أيديكم) (٢) ، ومن هذا قوله - تعالى - : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) (٣) . أما إذا أضيف الفعل إلى الفاعل ، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الجر كقوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) فإنه يكون نصا في أنه فعل ذلك بيديه . ولهذا لا يجوز لمن تكلم ، أو مشى أن يقول : فعلت ذلك بيدي ، ولكن يقال : فعلته يداك ، لأن مجرد قوله : « فعلت » كافٍ في الإضافة إلى الفاعل . فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان قوله : « بيدي » زيادة لافائدة فيها . ولا تجد في كلام العرب أن فصيحا يقول : فعلت هذا بيدي ، إلا وأنه فعله بيديه حقيقة ، ولا يجوز أن يقول ذلك وهو ليس له يد « (٤)

(١) الآية ١٠ سورة الحج .

(٢) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٦٣ - ٣٦٦ .

وأما تعليله لإنكاره إثبات اليد لله - تعالى - والأصابع . بأن اليد المتعارف عليها هي الجارحة ، وذلك ممتنع على الله - تعالى - .

فالجواب أن هذا ممتنع لو كانت اليد التي أثبتها الله لنفسه من جنس أيدي المخلوقين ، أما إذا كانت يدا تناسب ذاته وتليق بعظمته ، فما هو المانع من ذلك في العقل والشرع ، وما هو الموجب لتلك التمحلات .

وكل ما يذكر أهل التأويل إنما يدل على امتناع وصفه - تعالى - بما يستحقه المخلوق ، وخصائص المخلوقين منفية عنه - تعالى - . وكل ما أثبت لله - تعالى - من الصفات فهي كمال ، وفقدتها نقص - تعالى - عنه .

ثم هل يجوز مع كثرة ما في كتاب الله ، وسنة رسوله من ذكر اليد دالاً على الحقيقة ، مثل ذكر خلق آدم بيديه ، وأنها مبسوطتان ، وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، وأن السموات مطويات بيمينه ، وأن يده الملك .

وفي السنة مالا يحصى إلا بمشقة مثل ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، واليمين ، والشمال ، وأن يديه كلتاهما يمين ، ثم لايين الرسول - ﷺ - أن هذا غير مراد منه الظاهر والحقيقة ، مع حظه لنا على الفهم . وهل يجوز أن يفهم صحابته ، والتابعون لهم من هذه النصوص غير الحق المراد منها ، ولا يعرف الحق فيها إلا جهنم بن صفوان - بعد انقراض عهد الصحابة - وبشر بن غياث ، وأشباههما ممن هو مغموص عليه في النفاق ، مع أن الرسول - ﷺ - قد علم أمته كيف يقضون الحاجة ، وكيف يأكلون ويشربون ، وينامون ، ويدخلون بيوتهم ويخرجون . حتى أنزل الله - تعالى - عليه في آخر ما أنزل : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي) (١) والرسول - ﷺ - يقول : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » (٢) .

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخرجه .

هل يجوز مع هذا كله وغيره أن يترك الكتاب المنزل عليه ، وستته الغراء ، مملوءان بما يزعم أهل التأويل أن ظاهره تشبيهه وتجسيمه ومن اعتقد ظاهره - بزعمهم - فهو ضال مشبه لله ومجسم ، ثم لا يبين ذلك ولا يوضحه ، بل يكثر من ذكر ما يؤيد الظاهر بكل صراحة . إنه لا يعتقد ذلك ويقول ، إلا ضال في دينه لم يعرف ما أنزل الله على رسوله ، ولم يعرف الرسول حق المعرفة .

قال ابن القيم : « واطراد لفظ اليد في موارد استعمالها ، وتنوع ذلك يوجب أن تكون اليد حقيقة كقوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) ^(١) (بل يدها مبسوطتان) ^(٢) (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) ^(٣) .

فلو كان المراد القدرة ، أو النعمة لم يستعمل منه لفظ يمين ، كما في الحديث « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » ^(٤) ، فلا يصح أن تكون يد القدرة ، والنعمة ، وقوله : « يقبض الله سماواته بيده ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك » ^(٥) فالهز والقبض ، وذكر اليدين يمنع ذلك .

ولما ذكر ذلك رسول الله - ﷺ - جعل يقبض يديه ويسطهما ، تحقيقاً للصفة لاتشبيها لها ، كما أنه - ﷺ - لما قرأ قوله - تعالى - : (وكان الله سميعاً بصيراً) ^(٦) وضع إصبعه على عينه والأخرى على أذنه تحقيقاً لصفة السمع والبصر .

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم تخريجه ص ٢٢١ .

(٦) الآية ١٣٤ من سورة النساء والآية ٥٨ منها .

وقوله - ﷺ - : « لما خلق الله آدم قبض بيديه ، وقال : اختر ، فقال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يديه يمين ، ففتحتها ، فإذا فيها أهل اليمن من ذريته » (١)
 وقوله - ﷺ - : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (٢) اهـ .

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض النصوص في ذلك .
 فاقتران الطي والقبض ، والإمساك باليد جعل تأويلها بالقدرة ، والنعمة تحريفاً باطلاً .

قال الإمام ابن خزيمة : « نحن نقول : الله - جل وعلا - له يدان ، كما أعلمنا الباري في محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه المصطفى - ﷺ - ونقول : كلتا يدي ربنا يمين ، على ما أخبر النبي - ﷺ - ونقول : إن الله - عز وجل - يقبض الأرض بإحدى يديه ويطوى السماء بيده الأخرى » (٣) .

فمن أثبت لله - تعالى - يدين ، وأثبت لهما أصابع على ما جاء في النصوص الصحيحة لا يكون مشبهاً ، بل يكون متبعاً لكتاب الله وسنة رسوله ، مطيعاً لله ورسوله في ذلك ، لأنه أثبت لله ما أثبت لنفسه ، وأثبت له رسوله - ﷺ - .

والله - تعالى - ليس كمثلته شيء لافي ذاته ولا في أوصافه ، لأن الوصف تابع للموصوف .

وقال البغوي : « الإصبع المذكورة في الحديث صفة ، من صفات الله - عز وجل - وكذلك كل ما جاء به الكتاب ، أو السنة من هذا القبيل ، في صفات الله - تعالى - ، كالنفس ، والوجه والعين ، واليد ، والرجل ، والإتيان ، والحجىء ،

(١) مضى تحريجه ص ٢٢١ .

(٢) مختصر الصواعق ص ٣٣٧ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٨٣ .

والنزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش ، والضحك ، والفرح .

قال الله - تعالى - لموسى : (واصطنعتك لنفسى) (١) ، وقال - عز وجل - : (ولتصنع على عيني) (٢) وقال - سبحانه وتعالى - : (كل شيء هالك إلا وجهه) (٣) ، وقال - عز وجل - (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (٤) وقال - تعالى - : « بل يدهاه مبسوطتان » (٥) ، وقال - جل وعلا - : (يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدي) (٦) وقال - تعالى - : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) (٧) ، وقال - تعالى - : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) (٨) ، وقال - سبحانه وتعالى - : (وجاء ربك والملك صفا صفا) (٩) وقال - تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (١٠) ، وقال - تعالى - : (ثم استوى على العرش الرحمن) (١١) وقال رسول الله - ﷺ - : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر » (١٢) وروى أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : « لاتزال جهنم يلقي فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع

-
- (١) الآية ٤١ من سورة طه .
 - (٢) الآية ٣٩ من سورة طه .
 - (٣) الآية ٨٨ من سورة القصص .
 - (٤) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .
 - (٥) الآية ٦٤ من سورة المائدة .
 - (٦) الآية ٧٥ من سورة ص .
 - (٧) الآية ٦٧ من سورة الزمر .
 - (٨) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .
 - (٩) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
 - (١٠) الآية ٥ من سورة طه .
 - (١١) الآية ٥٩ من سورة الفرقان .
 - (١٢) سيأتي شرحه إن شاء الله .

رب العزة فيها قدمه » ، وفي رواية أوى هريرة : « حتى يضع الله رجله » (١) . وفي حديث أوى هريرة فى آخر من يخرج من النار : « فيضحك الله منه ، ثم يأذن له فى دخول الجنة » (٢) وفى حديث جابر : « فيتجلى لهم يضحك » (٣) ، وفى حديث أنس وغيره : « الله أفرح بتوبة عبده ، من أحدكم يسقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة » (٤) .

فهذه ونظائرها صفات لله - تعالى - ، ورد بها السمع ، يجب الإيمان بها ، وإمرارها على ظاهرها ، معرضا فيها عن التأويل ، محتثبا عن التشبيه ، معتقدا أن البارى - سبحانه وتعالى - لا يشبه شىء من صفاته صفات خلقه ، كما لا تشبه ذاته ذوات خلقه ، قال - تعالى - : (ليس كمثل شىء وهو السميع البصير) (٥) .

وعلى هذا مضى سلف الأمة ، وعلماء السنة ، تلقوها جميعا بالإيمان والقبول ، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل ، ووكلوا العلم فيها إلى الله - عز وجل - .

قال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله - تعالى - به نفسه فى كتابه ، فتفسيره قراءته ، والسكوت عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله - تعالى - ورسوله .

وقال الزهري : على الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم . وقال بعض السلف : « قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم » (٦) ومراده بقوله : « ووكلوا العلم فيها إلى الله » علم الكيفية ، وأما ما يفهم منها فى الوضع اللغوى فهو ظاهر ، ومعلوم ، وكذا ما ذكره عن سفيان أنها لا تفسر أى تؤول ، وتطلب معرفة كفييتها .

(١) تقدم وهو فى مسلم رقم ٢٨٤٨ .

(٢) متفق عليه وسيأتى إن شاء الله .

(٣) رواه مسلم فى الإيمان رقم ١٩١ .

(٤) انظره فى مسلم ج ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٢٧٤٧ .

(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٦) شرح السنة ج ١ ص ١٦٨ - ١٧١ .

وهذا كثير في أقوال العلماء والسلف من أهل السنة .

وقال ابن القيم : « ورد لفظ اليد في القرآن ، والسنة ، وكلام الصحابة ، والتابعين ، في أكثر من مائة موضع ، وروداً متنوعاً ، متصرفاً فيه ، مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقية ، من الإمساك ، والطفى ، والقبض ، والبسط ، والمصافحة ، والحشيات ، والنضح باليد ، والخلق باليدين ، والمباشرة بهما ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم بيده ، ووقوف العبد بين يديه ، وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله - ﷺ - يوم القيامة عن يمينه ، وتخيير آدم بين مافى يديه ، فقال : اخترت يمين ربى ، وأخذ الصدقة بيمينه ، يريها لصاحبها ، وكتابته بيده على نفسه ، أن رحمته تغلب غضبه ، وأنه مسح ظهر آدم بيده ، ثم قال له : ويداه مقبوضتان : اختر ، فقال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يديه يمين مباركة ، وأن يمينه ملائ لا يغيضها نفقة سحاء الليل ، والنهار ، وبيده الأخرى القسط ، يرفع ويخفض وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، وأنه يطوى السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يطوى الأرض باليد الأخرى ، وأنه خط الألواح التى كتبها لموسى بيده » (١) .

★ ★ ★

(١) مختصر الصواعق ص ٣٤٨ .

قال : « باب قول النبی - ﷺ - : « لاشخص أغير من الله »

* * *

الغيرة بفتح الغين ، وإسكان الياء ، وهى فى اللغة مأخوذة من التغير الحاصل من الأنفة ، والحمية .

والشخص : هو ماشخص وبان عن غيره .

ومقصد البخارى أن هذين الاسمين يطلقان على الله - تعالى - وصفا له ، لأن الرسول - ﷺ - أثبتها لله ، وهو أعلم الخلق بالله - تعالى - .

قال النووى : « قال العلماء : الغيرة بفتح العين ، وأصلها المنع ، والرجل غيور على أهله ، أى يمنعهم من التعلق بأجنبى بنظر ، أو حديث ، أو غيره . والغيرة صفة كمال » (١) .

قال الحافظ : « وقد فسر الرسول - ﷺ - غيرة الله فى قوله : « إن الله يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله » (٢) .

ومعناه أن الله يغار إذا انتهكت محارمه ، وليس انتهاك المحارم هو غيرة الله لأن انتهاك المحارم فعل العبد ، ووقوع ذلك من المؤمن أعظم من وقوعه من غيره . وغيرة الله - تعالى - من جنس صفاته التى يختص بها ، فهى ليست مماثلة لغيرة المخلوق ، بل هى صفة تليق بعظمته ، مثل الغضب ، والرضا ونحو ذلك من خصائصه التى لا يشاركه الخلق فيها .

(١) شرح مسلم ج ١٠ ص ١٣٢ .

(٢) الفتح ج ٩ ص ٣١٩ .

وقد تقرر أنه - تعالى - ليس كمثل شئ في ذاته ، فكذلك في صفاته ، وأفعاله ، ولكن لا بد من الاشتراك في ألفاظ الأسماء التي تضاف إلى الله صفات له ، وبين ألفاظ الأسماء التي يوصف بها العباد ، لأنه لا يمكن معرفة ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه ، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد .

فلولا أننا نجد من أنفسنا جوعاً ، وعطشاً ، وشبعاً ، ورئياً ، وحباً ، وبغضاً ، ولذة ، وألماً ، ورضى ، وسخطاً ، لم نعرف حقيقة ما نخطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن غيرنا .

ولو لم نعلم ما في المشاهد من الحياة ، والقدرة ، والعلم ، والكلام ، لم نفهم ما نخطب به من ذلك في الغائب .

فلا بد فيما شهدناه ، وما غاب عنا من قدر مشترك ، هو مسمى اللفظ . وقد أخبرنا عن نعيم الآخرة ، وعذابها مما يؤكل ، ويشرب ، ويفرح ، ويحزن ، وينعم ، ويؤلم ، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا ، لم نفهم ما وعدنا به من ذلك ، مع علمنا أن حقائق ما في الآخرة ليست كحقائق ما في الدنيا ، كما قال ابن عباس في تفسير قوله - تعالى - : (وأتوا به متشابهاً) ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ^(١) ولكن بين ما في الدنيا ، وما في الآخرة مشابهة واشتراك من بعض الوجوه . وبذلك نفهم المراد ، فنحب النعيم ، ونرغب فيه ، ونكره المؤلم ، وننفر عنه ، فنعرف معنى العسل ، واللبن ، والحزير ، والذهب ، ونفرق بينهما ، لما عرفناه من نظيرها في الشاهد ، وإن كانت حقائقها فيما هي عليه لا يعلمها إلا الله - تعالى - كما قال - جل وعلا - : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ^(٢) .

(١) رواه ابن جرير في تفسيره انظر ج ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ بتحقيق محمود

شاكر .

(٢) الآية ١٧ من سورة السجدة .

فإذا كان هذا في صفات المخلوق ، فكيف في صفات الخالق - جل وعز - فإنها أشد مباينة مثال ذلك : إذا قال نفاة الصفات : النزول ، والاستواء ، من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل إلا لجسم مركب ، والله منزه عن ذلك .
 فيقال لهم : وكذلك الحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والكلام هي من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل من يسمع ، ويبصر ، ويريد ، ويعلم ويقدر ، ويتكلم ، ويكون حياً ، إلا الجسم .
 فإن قالوا : سمعه ليس كسمعنا ، وعلمه ليس كعلمنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وكذا البقية .

قيل : فكذلك نزوله ، واستواؤه ، وغضبه ، وفرحه ، وحبه ، وغيرته ، وسائر صفاته ، والذين يؤولون النصوص في ذلك ، مخالفون لها ، ومتناقضون .
 قوله : « وقال عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الملك : « لاشخص أغير من الله » قال الحافظ : « يعنى أن عبيد الله بن عمرو ، روى الحديث المذكور ، عن عبد الملك ، بالسند المذكور فقال : « لاشخص » بدل كلمة « لا أحد » وقد وصله الدارمي ، ثم ذكر سنده ، وساقه أبو عوانة - يعقوب الإسفرائيني - في صحيحه ، عن محمد بن عيسى العطار ، عن زكريا بتامه ، وقال في المواضع الثلاثة : « لاشخص » .

قال الإسماعيلي - بعد أن أخرجه - من طريق عبيد الله بن عمرو القواريري ، وأبي كامل - فضيل بن حسين الجحدري - ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، ثلاثهم عن أبي عوانة - الوضاح البصرى - بالسند الذى أخرجه [به] البخارى ، ولكن قال في المواضع الثلاثة : « لاشخص » بدل « لأحد » .

ثم ساقه من طريق زائدة بن قدامة عن عبد الملك كذلك .

فكأن هذه اللفظة لم تقع في رواية البخارى في حديث أبي عوانة ، عن

عبد الملك ، فلذلك علقها عن عبيد الله بن عمرو ، قلت : وقد أخرجه مسلم ،
عن القواريري ، وأبى كامل ، كذلك « اهـ (١) .

ولفظ مسلم ، بعد ذكر السند : « قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا
مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح عنه ، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ -
فقال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، من
أجل غيرة الله حرم الفواحش مظهر منها وما بطن ، ولا شخص أغير من الله . ولا
شخص أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين
ومنذرين ، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله ، من أجل ذلك وعد الله
الجنة » (٢) .

ورواه الإمام أحمد في المسند بهذا اللفظ (٣) قال عبد الله بن الإمام أحمد
بعد ذكره ، قال عبيد الله القواريري : ليس حديث أشد على الجهمية من هذا
الحديث .

وبهذا يتبين خطأ ابن بطلال في قوله : « أجمعت الأمة على أن الله -
تعالى - لا يجوز أن يوصف بأنه شخص ، لأن التوقيف لم يرد به » اهـ ذكره
الحافظ (٤) .

وهذه مجازفة ، ودعوى عارية من الدليل ، فأين هذا الإجماع المزعوم ومن
قاله ؟ سوى المتأثرين بيدع أهل الكلام ، كالخطاب ، وابن فورك ، وابن بطلال -
عفا الله عنا وعنهم - .

وقوله : لأن التوقيف لم يرد به « يطله ماتقدم من ذكر ثبوت هذا اللفظ
عن رسول الله - ﷺ - بطرق صحيحة لامطعن فيها .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٠ .

(٢) صحيح مسلم ج ٢ ص ١١٣٦ رقم ١٤٩٩ .

(٣) المسند ج ٤ ص ٢٤٨ ورواه الدارمي في سننه ج ٢ ص ٧٣ .

(٤) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٠ .

وإذا صح الحديث عن رسول الله - ﷺ - وجب العمل به ، والقول
بموجبه سواء كان في مسائل الاعتقاد ، أو في العمليات ، وقد صح عنه - ﷺ -
إطلاق هذا الاسم - أعنى الشخص - على الله تعالى - فيجب اتباعه في ذلك
على من يؤمن بأنه رسول الله . وهو - ﷺ - أعلم بربه وبما يجب له وما يمتنع
عليه - تعالى - من غيره من سائر البشر .

وتقدم أن الشخص في اللغة : ماشخص ، وارتفع ، وظهر .

قال في اللسان : « الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور » (١) .

والله - تعالى - أظهر من كل شيء ، وأعظم ، وأكبر ، وليس في إطلاق
الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله ورسوله .

★ ★ ★

(١) انظر لسان العرب ج ٢ ص ٢٨١ المرتب .

٤٥ - قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكى ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا عبد الملك عن وراذ ، كاتب المغيرة ، عن المغيرة ، قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » .

* * *

نكتفى بما تقدم من الكلام على معنى الحديث ، ونذكر موجزا من الكلام مما فيه فائدة ، وتقدم معنى الغيرة ، وأنها صفة كمال ، كما تقدم أنا لا يمكن أن نفهم ماخوطينا به إلا بواسطة المعلوم كذا في الشاهد ، المشارك له في المعنى في الجملة ، وإن كان البون شاسعاً .

قال النووي : « أخبر - ﷺ - أن سعدا غيور ، وأنه أغير منه ، وأن الله أغير منه ، وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش ، فهذا تفسير لمعنى غيرة الله - تعالى - ، أى أنها منعه - سبحانه وتعالى - الناس من الفواحش » (١) .

قلت : ليس هذا هو غيرة الله - تعالى - ولكنه مقتضى الغيرة ، كما يوضحه قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش » فبين أن تحريم الفواحش ، والمنع منها ليس هو الغيرة وإنما هو من آثارها .

قوله : « لورأيت رجلا مع امرأتى ، لضربته بالسيف غير مصفح » أى

(١) شرح مسلم ج ١٠ ص ١٣٢ .

لضربته بحد السيف لأبصفحه ، يعنى لقتله بدون توقف ، وقد أقره رسول الله - ﷺ - على ذلك ، وأخبر أنه أغير من سعد ، وأن الله أغير منه ، وأما قول القرطبي وغيره : أن قوله : « ولا أحد أحب إليه العذر من الله » إشارة إلى الإنكار على سعد فغير صحيح ، بل مدلول الحديث خلافه ، ولا بد من الغيرة ، والذي لاغيرة له ديوث ، والديوث لا يدخل الجنة كما في سنن النسائي (١) وغيرها .

ولهذا قال - ﷺ - : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأننا أغير منه ، والله أغير منى » الخ .

قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ، مظهر منها ، وما بطن » أى من أثر غيرة الله منع عباده من قربان الفواحش ، - وهى ما عظم وفحش في النفوس الزاكية والعقول السليمة مثل الزنا . والظاهر يشمل ما فعل علناً ، وما باشرته الجوارح وإن كان سرا .

والباطن يشمل ما فى السر ، وما انطويت عليه القلوب .

قوله « ولأحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين »

العذر : هو طلب العفو عن فعل سابق مع الاعتراف بالذنب والتدم على وقوعه منه ، ويراد به الأعذار . وهو إقامة البيئات ، والحجج ، وإيضاح طريق الخير والشر ، وكلاهما يدخل فيما ذكر ، والمبشرون ، والمنذرون هم الرسل ، وفى رواية مسلم « بعث المرسلين مبشرين ومنذرين » وفى رواية له أيضا « ولذلك أنزل الكتب ، والرسل »

قال عياض : « المعنى بعث المرسلين للأعذار ، والإنذار لخلقهم . قبل

(١) المجتبى ج ٥ ص ٨٠ رواه أحمد فى المسند ج ٢ ص ١٣٤ وفى سننه عبد الله ابن يسار ، روى له النسائى ، وذكره ابن حبان فى الثقة ، وبقية رجاله ثقة مشهورون .

أخذهم بالعقوبة وهو كقوله - تعالى - : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (١)

قوله : « ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » هذا لكماله المطلق ، فهو - تعالى - يحب من عباده أن يشنوا عليه ويمدحوه على فضله وجوده ، ومن أجل ذلك جاد عليهم بكل نعمة يتمتعون بها ، ويرضى عنهم إذا حمدوه عليها .

ومهما أثنوا عليه ومدحوه لا يمكن أن يصلوا إلى ما يستحقه من المدح والثناء . ولهذا مدح نفسه كما تقدم ، فوعد الجنة ليكثر سؤاله ، والثناء عليه من عباده ، ومدحه ويجهدوا في ذلك غاية ما يستطيعون لأن الجنة هي منتهى الإنعام .

★ ★ ★

(١) من المنتج ج ١٣ ص ٤٠٠ .

قال : باب « قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله »

* * *

« فسمى الله - تعالى - نفسه شيئا ، وسمى النبي - ﷺ - : القرآن شيئا ، وهو صفة من صفات الله ، وقال : « كل شىء هالك إلا وجهه » يريد بهذا أنه يطلق على الله - تعالى - أنه شىء ، وكذلك صفاته ، وليس معنى ذلك أن « الشىء » من أسماء الله الحسنى . ولكن يخبر عنه - تعالى - بأنه شىء ، وكذا يخبر عن صفاته بأنها شىء ، لأن كل موجود يصح أن يقال : إنه شىء .

قال الحافظ : « الشىء يساوى الموجود ، لغة ، وعرفا . وأما قولهم : فلان ليس بشىء ، فهو على طريق المبالغة فى الذم ، فلذلك وصف بصفة العدم » (١)
وقال : « أى إذا جاءت استفهامية ، اقتضى الظاهر أن تسمى باسم ماضف إليه ، فعلى هذا صح الاستدلال بها على تسمية الله - تعالى - شيئا .
واسم الجلالة خير مبتدأ محذوف ، أى ذلك الشىء هو الله .
ويصح أن يكون مبتدأ ، محذوف الخبر ، والتقدير : الله أكبر شهادة . والله أعلم » (٢) وقوله - تعالى - : « كل شىء هالك إلا وجهه » قال الحافظ : الاستدلال بهذه الآية للمطلوب ، ينبى على أن الاستثناء متصل ، فإنه يقتضى اندراج المستثنى فى المستثنى منه ، وهو الراجع . على أن لفظ شىء يطلق على الله - تعالى - وهو الراجع أيضا » (٣)

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

قال الإمام عبد العزيز الكناني ، في محاجته لبشر المريسي ، لما سأله بشر عن القرآن ، أهو شيء أم ليس بشيء ؟ قال : « فقلت : لبشر : سألت عن القرآن ، هو شيء أم غير شيء فإن كنت تريد أنه شيء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، فنعم هو شيء .

وإن كنت تريد أن الشيء اسم له ، وأنه كالأشياء ، فلا .

فإن الله أجرى كلامه على ماأجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ، ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يحمل الشيء اسماً من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، وتكديبا للزنادقة ، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته ، من سائر الأمم ، فقال لنبيه - ﷺ - : (قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم) (١) فدل على نفسه أنه شيء ، لا كالأشياء ، وأنزل في ذلك خبرا خاصا مفردا لعلمه السابق أن جهما وبشراً ، ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه وصفاته ، ويشبهون على خلقه ، ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة ، فقال - عز وجل - : (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) (٢) فأخرج نفسه ، وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر ، تكديبا لمن ألد في كتابه ، وافترى عليه ، وشبهه بخلقه . وعدد أسمائه في كتابه ، ولم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه » (٣)

ونقل الحافظ عن ابن بطال : « أن الآيات والآثار المذكورة في هذا الباب ترد على من زعم أنه لايجوز أن يطلق على الله - تعالى - أنه شيء ، كما صرح به

(١) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) الحيدة ص ٢٤ - ٢٥ مطابع القصيم .

عبد الله الناشئ المتكلم (١) وغيره .

كما ترد على من زعم أن المعدوم شيء ، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ شيء يقتضى إثبات موجود ، وعلى أن لفظ « لاشيء » يقتضى نفى موجود إلا ما تقدم من إطلاقهم « ليس بشيء في الذم » (٢) .

وهذا الذى ذكره الحافظ عن ابن بطال واضح ، وقد تقدم ما يدل عليه .

★ ★ ★

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ الشاعر المتكلم يعرف بابن شرشير ، أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم خرج إلى مصر وتوفى بها سنة ثلاث وتسعين ومائتين . الشذرات جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

٤٦ - قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال النبي - ﷺ - : لرجل « أمعك شيء من القرآن ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها » .

* * *

سهل بن سعيد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري ، من مشاهير الصحابة ، ذكر ابن حبان أن اسمه حزن ، فعُيِّر رسول الله - ﷺ - اسمه ، توفي رسول الله - ﷺ - وهو ابن خمس عشرة سنة وعمّر طويلا ، فكان آخر من مات في المدينة من الصحابة على أحد الأقوال ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وله أحاديث كثيرة في كتب الحديث ، مات سنة إحدى وتسعين من الهجرة (١) .

هذا الحديث مختصر من قصة الواهبة نفسها للنبي - ﷺ - لما قال له رجل من أصحابه : إن لم يكن لك بها حاجة ، فزوجنيها يارسول الله ، قال له - ﷺ - : « أمعك شيء تعطها إياه ؟ قال : لا ، قال : التمس ولو خاتما من حديد ، فلما لم يجد ، قال له : هل معك شيء من القرآن ؟ أي هل تحفظ شيئا منه ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها . فقال النبي - ﷺ - : زوجتكها على مامعك من القرآن « أي يكون تعليمه لها مامعه من سور القرآن صداقا لها .

والمقصود هنا أنه أطلق الشيء على القرآن ، بقوله : « أمعك شيء من القرآن » وهو صفة من صفات الله - تعالى - والصفة لها حكم الموصوف ، فيصح إطلاق ذلك على الله - تعالى - .

وقد تقدم في كلام عبد العزيز الكناني « أن لفظ الشيء يطلق على القرآن

(١) الإصابة ج ٢ ص ٨٧ ، الاستيعاب ج ٢ ص ٩٤ .

إثباتا لوجوده ، وحقيقته ، ونقيا لعدمه ، وليس لفظ الشيء اسما له . كما أنه يطلق
على الله - تعالى - كذلك .

وأن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ،
ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه ، ولكنه دل على
نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء إثباتا للوجود ، ونقياً للعدم ، وتكذيباً للزنادقة
ومن تقدمهم ، ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم » (١)

★ ★ ★

قال : « باب : « وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم »

* * *

قال الأزهرى : « العرش فى كلام العرب : سرير الملك ، يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ ، سماه الله - جل وعز - عرشا ، فقال : (إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم » (١) .

قلت : والعرش فى كلام العرب - أيضا - سقف البيت ، وجمعه عروش ، ومنه قول الله - جل وعز - : (أو كالذى مرَّ على قرية ، وهى خاوية على عروشها) (٢)

قال الكسائى « على عروشها » على أركانها ، وقال غيره من أهل اللغة : على سقفها أراد أن حيطانها قائمة ، وقد تهدمت سقفها ، فصارت فى قرارها ، وانقعدت الحيطان من قواعدها ، فتساقطت على السقف المتهدمة قبلها » (٣) .

« وقال الليث : العرش : السرير للملك ، والعرش ، والعريش : ما يستظل

به .

قال : وعرش الرجل : قوام أمره ، فإذا زال قوام أمره ، قيل : « ثل عرشه » (٤) .

وقال الجوهرى : « العرش سرير الملك ، وعرش البيت سقفه ، والعرش ،

(١) الآية ٢٣ من سورة النمل .

(٢) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) تهذيب اللغة ج ١ ص ٤١٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٥ .

والعرش ما يستظل به ، وعرش القدم : مانتاً في ظهرها . وفيه الأصابع ، وعرش البئر : طيها بالخشب ، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامة ، فذلك الخشب هو العرش والجمع عروش .

وعرش ، يَعْرِش وَيَعْرِشُ عَرْشاً ، أى بنى بناء من خشب » (١) .

ويظهر مما ذكره أهل اللغة : أن العرش اسم للسريز المرتفع العظيم ، الذى يجلس عليه الملك ، ويطلق على السقف ، وعرش الرب جل وعلا له المعنيان فهو محل استوائه تعالى ، وهو سقف المخلوقات .

قوله : (وكان عرشه على الماء) (٢) قال ابن جرير : « يقول - تعالى - وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، وما فيهن » .

ثم روى عن مجاهد : وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئاً .

وروى بسنده عن قتادة « وكان عرشه على الماء » ينبعكم ربكم - تبارك وتعالى - كيف كان بدء خلقه ، قبل أن يخلق السموات والأرض .

ثم روى حديث أبى رزين العقيلي : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان فى عماء ، مافوقه هواء ، وماتحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء » .

وفى رواية : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض » الخ (٣)

(١) الصحاح ج ٣ ص ١٠١٠ .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) رواه الإمام أحمد فى المسند ج ٤ ص ١١ و ١٢ ، والترمذى فى التفسير من سننه ج ٤ ص ٣٥١ وقال : هذا حديث حسن ، وابن ماجه فى السنن ج ١ ص ٦٤ رقم ١٨٢ ، والطبرى أيضا فى التاريخ ج ١ ص ١٩ .

ثم روى عن ابن عباس ، أنه سئل : « وكان عرشه على الماء ، على أى شىء كان الماء ؟ قال : على متن الريح » (١) .

وقال الترمذى : « حدثنا أحمد بن منيع ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن يعلى بن عطاء ، عن وكيع بن حدىس (٢) ، عن عمه أبى رزین ، قال : قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ماتحته هواء ، وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء » ، قال أحمد : « قال يزيد : العماء ، أى ليس معه شىء » (٣) .

قال أبو عبيد : « العماء فى كلام العرب ، السحاب الأبيض » ، قال الأصمعى ، وغيره : هو ممدود

وقال الحارث بن حلزة الشكرى :

وكأن المنون تردى بنا أعصم ينجاب عنه العماء

يقول : هو فى ارتفاعه ، قد بلغ السحاب ينشف عنه ، يقول : نحن فى عزنا مثل الأعصم ، فالمنون إذا أردتنا ، فكأنما تريد أعصم .

وإنما تأولنا هذا الحديث . على كلام العرب المعقول عنهم ، ولاندرى كيف كان ذلك العماء ، وماملغه ، والله أعلم .

وأما العمى فى البصر ، فإنه مقصور ، وليس هو من معنى الحديث فى شىء « اهـ (٤) نقل هذا الكلام الأزهرى ، ثم قال : « قلت : وقد بلغنى ، عن أبى الهيثم ، ولم يعزه لى ، إلى ثقة - أنه قال فى تفسير هذا الحديث ، ولفظه : أنه كان فى عمى مقصور ، قال : وكل أمر لاتدرکه القلوب بالعقول ، فهو عمى ، والمعنى : أنه كان حيث لاتدرکه عقول بنى آدم ، ولايلغ كنهه وصف .

(١) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٢٤٥ - ٢٤٩ بتحقيق محمود شاکر .

(٢) قال الترمذى : هكذا يقول حماد بن سلمة : وكيع بن حدىس .

(٣) سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٥١ .

(٤) الغريب ج ٢ ص ٨ - ٩ .

قلت أنا (١) : والقول عندي ، ما قاله أبو عبيد ، أنه العماء ، ممدود ، وهو السحاب ولا يدري كيف ذلك العماء ، بصفة تحصره ، ولانعت يحده ، ويقوى هذا القول قول الله - جل وعز - (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل (٢) من الغمام) (٣) فالغمام معروف في كلام العرب .

إلا أنا لاندري ، كيف الغمام الذي يأتي الله - عز وجل - يوم القيامة في ظلل منه فنحن نؤمن به ، ولانكيف صفته ، وكذلك سائر صفات الله عز وجل « ا هـ (٤) .

فعلى ما ذكره يزيد بن هارون ، وأقره الترمذى ، يكون المعنى : ليس مع الله شيء ، فيدل على أن الله - تعالى - كان ، ولم يكن معه شيء ، كما سيأتى في حديث عمران إن شاء الله تعالى .

وعلى قول من فسر العماء بالسحاب الرقيق ، ورجحه الأزهرى ، لا يدل على قول الفلاسفة الدهرية ، القائلين بقدم العالم ، وتبنى مذهبهم الماديون اليوم وذلك أن الله - تعالى - أخبرنا في كتابه ، بابتداء الخلق ، وإعادة خلقه كما قال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) (٥) ، كما أخبر بخلق السماوات ، والأرض وما بينهما في ستة أيام ، في مواضع كثيرة من كتابه - تعالى (٦) .

(١) القائل هو الأزهرى .

(٢) فيه « ظل » وهو خطأ مطبعى .

(٣) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٤) تهذيب اللغة ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٥) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٦) انظر نقض تأسيس الجهمية ج ١ ص ١٥٤ .

وقوله : (وهو رب العرش العظيم) (١) أى هو تعالى المالك للعرش ، الذى هو أكبر المخلوقات ، وأعظمها ، وهو المتصرف فيه ، وهو عرشه الذى استوى عليه ، فاختره لذلك .

فالإضافة تقتضى اختصاصا للعرش من بين المخلوقات ، فهو تعالى رب كل مخلوق . فإضافة العرش إليه - تعالى - ووصفه بأنه عظيم ، يدل على خصوصية للعرش ، ليست لغيره من سائر المخلوقات ، كما يدل على أنه - تعالى - مالك لكل مادون العرش بطريق الأولى ، والمتصرف فيه كيف يشاء .

قال ابن جرير : « وإنما عنى بوصفه - جل ثناؤه - نفسه بأنه « رب العرش العظيم » الخبر عن جميع مادونه ، أنهم عبيده ، وفى ملكه وسلطانه ، لأن العرش إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه الملك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه ، فى سلطانه وملكه ، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه » (٢) .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شىء ، وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم ، الذى هو سق المخلوقات ، وجميع المخلوقات ، من السموات والأرضين ، ومافيهما ، وما بينهما تحت العرش ، مقهورون بقدره الله - تعالى - وعلمه محيط بكل شىء ، وقدره نافذ فى كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل » (٣) . « قال - جل وعلا - : (ذو العرش المجيد) (٤) ، وقال - جل عظمته - : (وترى الملائكة حافين من حول العرش) (٥) ، وقال - تعالى - : (الذين يحملون العرش ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربهم) (٦) ، وقال

(١) آخر آية من سورة التوبة .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٤ ص ٥٨٧ بتحقيق محمود شاكر .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ ط الشعب .

(٤) الآية ١٥ من سورة البروج .

(٥) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٧ من سورة غافر .

تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) (١) .

وأقوال أهل التفسير [متفقة] على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه ، والطواف به ، كما خلق في الأرض بيتا ، وأمر بنى آدم بالطواف به ، واستقباله في الصلاة .
وفي الآيات المتقدمة دلالة على صحة ما ذهبوا إليه « ا هـ (٢) .

والأخبار عن رسول الله - ﷺ - والصحابة ، والتابعين لهم في ذكر العرش ووصفه ، وأن الله تعالى مستوٍ عليه كثيرة جدا ، وسيأتى طرف يسير منها إن شاء الله تعالى .

ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد » (٣)

« وقال ابن مسعود في قوله : « ثم استوى على العرش » قال العرش على الماء ، والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » (٤)

وقال سليمان التيمي : لو سئلت ، أين الله ؟ لقلت في السماء ، فإن قال : أين كان عرشه قبل السماء ؟ لقلت : على الماء ، فإن قال : فأين كان عرشه قبل خلق الماء ؟ لقلت : لا أعلم .

قال البخارى : وذلك لقوله - تعالى - : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) « يعنى إلا بما بين » (٥)

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ص ٣٩٢ . والمفروض أن يقول : خلقه الله واستوى عليه وأمر ملائكته الخ . ولكن أبى عليه المذهب ذلك .

(٣) البخارى مع الفتح . ج ٧ ص ١٢٣ ، ومسلم ج ٤ ص ١٩١٥ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٧ .

وقال أبو نصر السجزي في الإبانة : « وأئمتنا كسفیان ، ومالك ، والحمادين ، وابن عيينة ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ، متفقون على أن الله - سبحانه - فوق العرش ، وعلمه بكل مكان ، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ويتكلم بما يشاء » (١)

والنصوص في ذكر العرش ، وأن الله - تعالى مستوٍ عليه ، كثيرة جدا . وآمن الصحابة وأتباعهم بذلك ، على ما دلت النصوص عليه ظاهرا ، دون تأويل أو تحريف ، وبلا تشبيه ، ولا تمثيل ، كما سيأتى بعض ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « قال أبو العالية : « استوى إلى السماء » أى ارتفع ، « فسواهن خلقهن . وقال مجاهد : « استوى : علا على العرش » .

هذا الذى ذكره البخارى عن أبى العالية ، ومجاهد ، هو الذى يقوله ، ويعتقده عامة السلف من الصحابة وأتباعهم إلى اليوم .

وهو الحق الذى دلت عليه النصوص ، وجاءت تعبيراتهم فى ذلك فى أربعة ألفاظ ما ذكره البخارى هنا ، وثالثها « صعد » ، ورابعها « استقر » . وسوف أذكرها مع أسانيدها إليهم .

قال ابن جرير : « حدثت ، عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « ثم استوى إلى السماء » يقول : ارتفع إلى السماء » (٢) .

وروى اللالكائى بسنده ، عن بشر بن عمر ، قال : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون : « الرحمن على العرش استوى : ارتفع » (٣) .

(١) نقلا عن سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٦٥٠ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج .

قال ابن عبد البر : « الاستواء : الاستقرار في العلو ، وهذا خاطبنا الله عز وجل - فقال : (لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) (١) ، وقال : (واستوت على الجودي) (٢) وقال : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) (٣) . وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد ، استوى ، لأن النجم لا يستوى .

وقد ذكر النضر بن شميل (٤) . وكان ثقة مأمونا ، جليلا في علم الديانة ،

واللغة .

قال : حدثني الخليل - وحسبك بالخليل - قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال لنا : استووا فبقينا متحيرين ، ولم ندر ما قال ؟ قال : فقال لنا أعرابي إلى جنبه : إنه أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله - عز وجل - : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) (٥) فصعدنا إليه ، فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء نمير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاما ، فلم ندر ما قال ، فقال الأعرابي : إنه سألكم متاركة لا خير فيها ، ولا شر ، قال الخليل :

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٢) جزء من الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٢٨ من سورة (قد أفلح المؤمنون) .

(٤) النضر بن شميل بن خرشة المازني ، كان إماما حافظا جليلا الشأن ، صاحب سنة . كان رأسا في الحديث ، وفي اللغة والنحو ضاقت به معيشته في البصرة ، فخرج منها إلى مرو ، ونشر بها السنة ، توفي سنة ٢٠٣ هـ ، انظر الشذرات ج ٢ ص ٧ .

(٥) الآية ١١ من سورة فصلت .

هو من قول الله - عز وجل - : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (١)
 اهـ (٢) .

قال البغوى : « ثم استوى على العرش » قال الكلبي ، ومقاتل : استقر .
 وقال أبو عبيدة : صعد .

ثم قال : « وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء ، وأما أهل السنة ، فيقولون
 الاستواء على العرش ، صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على العبد الإيمان به ،
 ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل » (٣) .

وقال البخارى : « حدثت عن يزيد بن هارون ، قال : من زعم أن الرحمن
 على العرش استوى ، على خلاف ما يقر فى قلوب العامة ، فهو جهمى » (٤)
 ومراده أن الاستواء من الأمور الواضحة ، التى يفهمها عامة المسلمين إذا
 كانوا من أهل اللغة العربية .

كما أن مراد البغوى فى قوله : « ويكل العلم فيه إلى الله - عز وجل - »
 علم الكيفية . وأما معناه فى اللغة ، فهو معلوم ظاهر ، كما يأتى فى كلام الإمام
 مالك ، وشيخه ربيعة ، وأم سلمة .

قال ابن جرير : الاستواء فى كلام العرب يأتى على وجوه :

منها انتهاء شباب الرجل ، وقوته ، فيقال إذا صار كذلك : قد استوى
 الرجل . ومنها استقامة ما كان فيه أود ، من الأمور ، والأسباب ، يقال منه :
 استوى لفلان أمره ، إذا استقام بعد أود ، ومنه قول الطرماح بن حكيم :
 طال على رسم مهتد أبده وعفا ، واستوى به بلده

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٢) التمهيد ج ٧ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣) تفسير البغوى ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ١٢٧ مجموعة عقائد السلف .

يعنى استقام به .

ومنها : الإقبال على الشيء ، يقال : استوى فلان ، على فلان بما يكرهه ،
ويسوءه بعد الإحسان إليه .

ومنها الاحتياز ، والاستيلاء ، كقولهم : استوى على المملكة ، بمعنى احتوى
عليها ، وحازها

ومنها العلو ، والارتفاع ، كقول القائل : « استوى فلان على سريره ، يعنى
به علوه عليه » (١)

قلت : قد أنكر أهل اللغة المعنى الثالث ، والرابع مما ذكره ابن جرير في
الاستواء المعدى بعلى .

قال ابن القيم : ولفظ الاستواء في كلام العرب الذى خاطبنا الله به ، وأنزل
به كلامه نوعان ، مطلق ، ومقيد .

فالملق ، مالم يوصل معناه بحرف ، مثل قوله : (ولما بلغ أشده
واستوى) . وهذا معناه : كمل ، وتم ، يقال : استوى الزرع ، واستوى الطعام .

وأما المقيد فثلاثة أضرب :

أحدها مقيد بإلى ، كقوله : (ثم استوى إلى السماء) (٢) ، واستوى فلان
إلى السطح وقد ذكر تبارك - وتعالى - هذا المعدى بإلى في موضعين من كتابه
في البقرة في قوله - تعالى - : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى
إلى السماء) (٢) .

والثانى في سورة حم السجدة ، قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى
دخان) (٢) ، وهذا بمعنى العلو ، والارتفاع بإجماع السلف .

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) الآية ٢٩ من سورة البقرة ، والآية ١١ من سورة فصلت .

الثاني مقيد بعلی ، كقوله تعالى : (لتستووا على ظهوره) (١) ،
 وقوله : (واستوت على الجودی) (٢) وقوله : (فاستوى على سوقه) (٣) وهذا
 معناه أيضا العلو ، والارتفاع والاعتدال ، بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بواو المعية ، التي تعدى الفعل إلى المفعول معه ، نحو :
 استوى الماء والخشية . بمعنى ساواها .

فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ، ليس فيها استولى ألبتة ، ولانقله
 أحد من أئمة اللغة ، الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخرو النحاة ، ممن سلك
 طريق المعتزلة ، والجهمية .

والذين قالوه ، لم يقولوه نقلا ، فإن ذلك مجاهرة بالكذب ، ولكن قالوه
 استنباطا وحملًا منهم للفظه استوى ، على استولى ، ولذلك لما سمع أهل اللغة ذلك
 أنكروه ، غاية الإنكار .

قال ابن الأعرابي - وقد سئل هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى ؟ .

فقال : « لاتعرف العرب ذلك ، وهو من أكابر أئمة اللغة » اهـ (٤) .

قال ابن جرير : « وأولى المعان بقول الله - جل ثناؤه - : (ثم استوى إلى
 السماء فسواهن) . علا عليهن ، وارتفع ، فدبرهن بقدرته ، وخلقهن سبع
 سماوات .

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم ، من كلام العرب ، في تأويل قول الله
 تعالى : (ثم استوى إلى السماء) . الذى هو بمعنى العلو ، والارتفاع ، هربا عند
 نفسه من أن يلزمه بزعمه - إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك - أن يكون إنما علا ،

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٤) مختصر الصواعق ص ٣٢٠ ببعض التصرف .

وارتفع بعد أن كان تحتها - إلى تأويله بالمجهول ، المستكبره ، ثم لم ينج مما هرب منه . فيقال له : زعمت أن تأويل قوله : « استوى » . أقبل ، أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إليها ؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ، ولكنه إقبال تدبير . قيل له : فكذلك فقل : علا عليها ، علو ملك ، وسلطان ، لا علو انتقال وزوال ، ثم لن يقول : في شيء من ذلك ، قولاً ، إلا لزم في الآخر مثله » (١)

قوله : « فقل : علا عليها علو ملك وسلطان ، لاعلو انتقال وزوال » هو من جنس كلام أهل البدع ، فلا ينبغي ، وهو خلاف الظاهر من النصوص ، بل هو من التأويل الباطل .

قال ابن القيم : « نقل معنى الاستواء ، كنقل لفظه ، بل أبلغ ، فإن الأمة كلها تعلم بالضرورة أن الرسول - ﷺ - أخبر عن ربه بأنه استوى على عرشه ، من يحفظ القرآن منهم ، ومن لا يحفظه ، كما قال مالك ، وأئمة السنة : الاستواء معلوم ، غير مجهول ، كما أن معنى السمع ، والبصر ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، وسائر ما أخبر به - تعالى - عن نفسه معلوم ، وإن كانت كيفيته غير معلومة للبشر ، فإنهم لم يخاطبوا بالكيفية ، ولم يرد منهم العلم بها .

فإخراج الاستواء عن حقيقته المعلومة ، كإنكار لفظه ، بل أبلغ ، وهذا مما يعلم أنه مناقض لما أخبر الله به ورسوله ، فإن فهم معنى اللفظ هو المراد منه ، وهو المقصود بالذات ، لا اللفظ ، فإن اللفظ مقصود قصد الوسائل للتعريف بالمراد ، فإذا التقى المعنى ، وكانت إرادته محال - كما زعموا - لم يبق لذكر اللفظ فائدة ، بل كان تركه أنفع من الإتيان به ، فإن الإتيان به يحصل منه إيهام التشبيه ، ويوقع الأمة في اعتقاد الباطل - على حد زعمهم - ولا ريب أن هذا إذا نسب إلى آحاد الناس كان ذمه أولى من مدحه ، فكيف يجوز أن ينسب إلى من في كلامه الهدى ، والشفاء . ومن المتفق عليه أنه لا يجوز أن يتكلم الله ورسوله

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٤٣٠ بتحقيق محمود شاكر .

بالشئ ويريد خلاف ظاهره» (١) .

وقال أيضا - « وظاهر الاستواء العلو ، والارتفاع ، كما نص عليه جميع أهل اللغة ، وأهل التفسير المقبول ، فلا يحتمل استواء الرب تبارك وتعالى على عرشه ، المعدى بعلى ، المعلق بالعرش ، المعرف بالألف واللام ، المعطوف على خلق السماوات والأرض ثم مطرداً في موارده ، بهذا الأسلوب - لا يحتمل إلا معنى واحداً ، لامعنيين ، ولا كما يقول صاحب القواصم والعواصم : (٢)

إذا قال لك الجسم : (الرحمن على العرش استوى) (٣) ، فقل : استوى على العرش يستعمل على خمسة عشر وجهها ، فأياها تريد ؟ .

فيقال له : كلا والذي استوى على العرش ، لا يحتمل هذا اللفظ معنيين ألبتة . والمدعى للاحتمال عليه الدليل ، والأصل عدم الاشتراك والمجاز ، ولم تذكر على دعواك دليلاً ، ولم تبين الوجوه المحتملة ، مع ذكر الدليل عليه .

والمقصود أن استواء الرب - تعالى - على عرشه ، المختص به الموصول بأداة على نص في معناه ، لا يحتمل سواه « اهـ (٤) .

وقال الحافظ : « نقل أبو إسماعيل الهروي ، في كتابه الفاروق ، بسنده إلى داود بن علي بن خلف ، قال : كنا عند أبي عبد الله بن الأعرابي - يعني يحيى بن زياد اللغوي فقال له رجل : (الرحمن على العرش استوى) (٥) ، فقال : هو على العرش كما أخبر قال : يا أبا عبد الله ، إنما معناه : استولى ، فقال : أسكت ، لا يقال : استولى على شيء إلا أن يكون له مضاد .

(١) مختصر الصواعق ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) هو ابن العربي المالكي .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) مختصر الصواعق ملخصاً ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٥) الآية ٥ من سورة طه .

ومن طريق محمد بن أحمد بن النضر ، الأزدي ، سمعت ابن الأعرابي يقول :
أرادني أحمد بن أبي دؤاد ، أن أجد له في لغة العرب ، (الرحمن على العرش
استوى) (١) بمعنى استولى ، فقلت : والله ما أصبت هذا (٢) .

وقال غيره : لو كان بمعنى استولى لم يختص بالعرش ، لأنه غالب على جميع
المخلوقات « اهـ (٣) .

وروى اللالكائي بسنده من طريق الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة ، في
قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (١) ، قالت : كيف غير معقول ،
والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر .

وروى عن مالك ، جاء إليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، (الرحمن على
العرش استوى) (١) كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكا وجد من شيء ،
كموجدته من مقالته ، وعلاه الرضا - يعنى العرق - قال : وأطرق القوم ،
وجعلوا ينظرون ما يأتي منه فيه ، فسرى عن مالك ، فقال : كيف غير معقول ،
والاستوى منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإني أخاف
أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج (٤)

وذكر بسنده ابن عينية ، قال : سئل ربيعة ، عن قوله « الرحمن على العرش
استوى » (١) كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ،
ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » (٥)

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) ورواه اللالكائي في شرح أصول السنة ج ٢ ص ٣٩٩ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٦ وذكر آثارا كثيرة بهذا المعنى فليراجع .

(٤) شرح أصول السنة اللالكائي ص ٣٩٨ .

(٥) شرح أصول السنة ج ٢ ص ٣٩٨ .

وذكر البيهقي بسنده ، عن الأوزاعي ، قال : كنا والتابعون متوافرون ، نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة ، من صفاته (١) .

قال الحافظ : سنده جيد (٢) .

وقال : « وأخرج الثعلبي ، من وجه آخر ، عن الأوزاعي ، أنه سئل عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (٣) . فقال : هو كما وصف نفسه » (٤)

« قال أبو بكر الأثرم ، في كتاب السنة : حدثنا إبراهيم بن الحارث - يعنى العبادى - حدثنى الليث بن يحيى ، سمعت إبراهيم بن الأشعث ، قال أبو بكر - هو صاحب الفضيل - سمعت الفضيل بن عياض ، يقول : ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف ، لأن الله وصف نفسه فأبلغ ، فقال : « قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » فلا صفة أبلغ مما وصف الله - عز وجل - نفسه وكل هذا النزول ، والضحك ، وهذه المباهاة ، وهذا الاطلاع ، كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يباهى ، وكما شاء أن يطلع ، وكما شاء أن يضحك ، فليس لنا أن نتوهم فيه كيف ، وكيف ، وإذا قال لك الجهمي : أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل أنت : أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء .

وقال الخلال : وأنبأنا محمد بن علي الورّاق ، حدثنا أبو بكر الأثرم ، حدثنى محمد بن إبراهيم القيسى ، قال : قلت لأحمد بن حنبل : يحكى عن ابن المبارك ، قيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : في السماء السابعة على عرشه بجد ، فقال أحمد : هكذا هو عندنا .

(١) الأسماء والصفات ص ٤٠٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٦ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٦ .

وأخبرني حرب بن إسماعيل ، قال : قلت لإسحاق - يعني ابن إبراهيم -
هو على العرش بحد ؟ قال : نعم بحد .

وذكر عن ابن المبارك ، قال : هو على عرشه ، بائن من خلقه ، بحد .
وأخبرنا المروزي ، قال : قال إسحاق بن إبراهيم بن راهويه : قال الله -
تعالى (الرحمن على العرش استوى) (١) ، إجماع أهل العلم أنه فوق العرش ،
استوى ويعلم كل شيء ، في أسفل الأرض السابعة ، وفي قعور البحار ،
ورؤوس الآكام وبطون الأودية ، وفي كل موضع ، كما يعلم علم مافوق السماوات
السبع ، وما فوق العرش ، أحاط بكل شيء علما ، فلا تسقط من ورقة إلا
يعلمها ، ولا حبة في ظلمات البر ، والبحر ، ولا رطب ، ولا يابس إلا قد عرف
ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره » (١)

ومعنى قولهم : « بحد » أنه - تعالى - بائن من خلقه ، غير حال فيهم ،
ولا مخالط لهم - تعالى وتقدس - وقد قيدوا الحد ، بأنه لا يعلمه إلا هو -
تعالى - وهو قريب من قول الإمام مالك وغيره : « الاستوى معلوم ، والكيف
مجهول » ، فبين أن كيفية استوائه - تعالى - على العرش مجهولة للعباد ، ولكنه لم
ينف ثبوت ذلك في نفس الأمر فكذلك قولهم : له حد لا يعلمه إلا هو ، والله
أعلم .

قال الإمام عثمان ابن سعيد الدارمي - رحمه الله تعالى - في رده على بشر
المريسي : « والله - تعالى - له حد ، لا يعلمه غيره ، ولا يجوز أن يتوهم لحد
غاية في نفسه ، ولكن نؤمن بالحد ، ونكل علم ذلك إلى الله - تعالى - .
ولمكانه حد ، وهو على عرشه ، فوق سماواته ، فهذان حدان » (٢) .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الكنانى ، صاحب الحيدة في الرد على
الزنادقة ، والجهمية : « زعمت الجهمية في قوله تعالى : (الرحمن على العرش

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٢ ص ٢٤ و ٣٤ - ٣٥ .

(٢) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسي ص ٣٨٢ مجموع عقائد السلف .

استوى (١) إنما المعنى استولى كقول العرب : استولى فلان على مصر ، استولى فلان على الشام ، يريد استولى عليها .

فيقال له : هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستولى عليه ؟ فإذا قال : لا .

قيل له : فمن زعم ذلك ؟ فمن قوله : من زعم ذلك ، فهو كافر . يقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش قد أتت عليه مدة ليس الله بمستولى عليه ، وذلك أن الله - تبارك وتعالى - أخبر أنه خلق العرش قبل خلق السموات والأرض ، ثم استوى عليه بعد خلق السموات والأرض .

قال - تعالى - : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) (٢) فأخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وقال - تعالى - : (خلق السموات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) (٣) وقال : (ثم استوى إلى السماء فسواهن) (٤) .

فأخبر أنه استوى على العرش ، فيلزمك أن تقول : المدة التى كان على العرش فيها ، قبل خلق السموات ، والأرض ، ليس الله بمستولى عليه ، إذ كان استوى على العرش معناه عندك : استولى .

فإنما استولى بزعمك فى ذلك الوقت لاقبله » - ثم ذكر حديث عمران الآتى وحديث أبى رزين المتقدم ، ثم قال :

« فقال الجهمى : أخبرنى كيف استوى على العرش ؟ أهو كما يقال : استوى فلان على السرير ، فيكون السرير قد حوى فلانا وحده إذا كان عليه ، لأننا لا نعقل الشيء على الشيء إلا هكذا .

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٤ من سورة آلم السجدة .

(٤) الآية ٢٩ من سورة البقرة .

فيقال له : أما قولك : كيف استوى ؟ فإن الله لا يجرى عليه كيف ، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش ، ولم يخبرنا كيف استوى ، فوجب على المؤمنين أن يصدقوا بهم ، باستوائه على العرش ، وحرم عليهم أن يصفوا كيف استوى ، لأنه لم يخبرهم كيف ذلك ، ولم تره العيون في الدنيا فتصفه بما رأيت ، وحرم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون .

فآمنوا بخبره عن الاستواء ، ثم ردوا علم كيف استوى إلى الله .

ولكن يلزمك أيها الجهمي أن تقول : إن الله محدود ، وقد حوته الأماكن ، إذا زعمت في دعواك ، أنه في الأماكن ، لأنه لا يعقل شيء في مكان ، إلا والمكان قد حواه ، كما تقول العرب : فلان في البيت ، والماء في الجب ، فالبيت قد حوى فلانا ، والجب قد حوى الماء .

ويلزمك أشنع من ذلك ، لأنك قلت : أفضع مما قالت به النصراني ، وذلك أنهم قالوا : إن الله - عز وجل - في عيسى ، وعيسى بدن إنسان واحد ، وكفروا بذلك وأنتم تقولون : إنه في كل مكان ، وفي بطون النساء كلهن ، و[في] بدن عيسى ، وأبدان الناس كلهم .

ويلزمك أيضا أن تقول : إنه في أجواف الكلاب ، والخنازير ، لأنها أماكن وعندك ، أن الله في كل مكان - تعالى الله - عن ذلك علوا كبيرا ^(١) .

وقال أبو الحسن الأشعري في الإبانة : « إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ قيل : نقول : إن الله عز وجل - مستوي على عرشه ، كما قال : (الرحمن على العرش استوى) ^(٢) وقال - تعالى - : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) ^(٣) ، فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٦ ص ١١٥ - ١١٨ .

(٢) الآية ٥ من سورة طه .

(٣) الآية ١٦ من سورة الملك .

العرش فوق السموات قال : « أأمنتم من في السماء » لأنه مستوٍ على العرش ، الذى فوق السموات ، وكل ماعلا فهو سماء ، فالعرش أعلى السموات وليس إذا قال : « أأمنتم من في السماء » يعنى جميع السموات ، وإنما أراد العرش ، الذى هو أعلى السموات ، ألا ترى أن الله - عز وجل - ذكر السموات ، فقال : (وجعل القمر فيهن نورا) (١) ، ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا ، وأنه فيهن جميعا .

ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا ، نحو السماء ، لأن الله - عز وجل - مستو على العرش ، الذى هو فوق السماوات ، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض .

ولو كان كما تقوله المعتزلة ، والجهمية ، أن معناه : استولى ، وملك ، وقهر ، لم يكن هناك فرق بين العرش ، والأرض السابعة ، ولكان مستويا على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش ، والأقذار (٢) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقال الباقلانى - وهو من أئمة الأشاعرة - : « فإن قال قائل : أتقولون : إنه فى كل مكان ؟ قيل : معاذ الله ، بل هو مستوٍ على عرشه ، كما أخبر فى كتابه ، فقال : (الرحمن على العرش استوى) (٣) وقال : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) (٤) وقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) (٥) .

(١) الآية ١٦ من سورة نوح عليه السلام .

(٢) الإبانة ص ٨٥ - ٨٧ ملخصا .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .

ولو كان في كل مكان ، لكان في بطن الإنسان ، وفمه ، وفي الحشوش ،
والمواضع التي نرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة ، إذا خلق منها
مالم يكن خلقه وينقص بنقصانها إذا بطل منها ماكان ، ولصح أن يرغب إليه إلى
نحو الأرض ، وإلى خلفنا ، وإلى يميننا ، وشمائلنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على
خلافه ، وتخطئة قائله « (١) .

وقال شيخ الإسلام : « وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول : إن
السموات ثقله ، أو تظله ، لما في ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته ، فمن قال : إنه
في استوائه على العرش محتاج إليه ، كاحتياج المحمول ، إلى حامله ، فإنه كافر ، لأن
الله غنى ، عن العالمين حي ، قيوم ، الغنى المطلق ، وماسواه فقير إليه .

مع أن أصل الاستواء على العرش ، ثابت بالكتاب ، والسنة ، واتفاق
سلف الأمة ، وأئمة السنة ، بل ثابت في كل كتاب ، أنزل على كل نبي
أرسل « (٢) .

وذكر عن أبي عمر الطلمنكي : أنه قال : « قال أهل السنة ، في قوله -
تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (٣) : أن الاستواء من الله على عرشه
المجيد ، على الحقيقة لا على المجاز « (٤) .

وقال ابن عبد البر في شرح حديث النزول : « وفيه دليل على أن الله في
السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة ، وهو من حججهم
على المعتزلة ، في قولهم : إن الله في كل مكان ، وليس على العرش .

(١) التمهيد ص ٢٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٢٦١ .

ومن الدليل على صحة ماقاله أهل الحق ، قول الله - تعالى - : (الرحمن تلى العرش استوى) (١)

قال شيخ الإسلام : « وفي الفقه الأكبر ، المروى عن الإمام أبى حنيفة - رحمه الله - قال : « من قال : لا أعرف ربى فى السماء ، أم فى الأرض ، فقد كفر ، لأن الله - تعالى - يقول : (الرحمن على العرش استوى) (٢) وعرشه فوق سبع سماواته »

قلت : فإن قال : إنه على العرش استوى ، ولكنه يقول : لا أدرى ، العرش فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون فى السماء ، لأنه - تعالى - فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .
وفى لفظ : سألت : أبأ حنيفة : عمن يقول : لأعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : قد كفر ، لأن الله - تعالى - يقول : (الرحمن على العرش استوى) (٣) وعرشه فوق سبع سموات .

قال : فإنه يقول : على العرش استوى ، ولكن لا يدرى العرش فى الأرض ، أو فى السماء ؟ قال : إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر . ثم قال :
« ففى هذا الكلام المشهور عن أبى حنيفة ، عند أصحابه ؛ أنه كفر الراقف ، الذى يقول : لا أعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض .
فكيف يكون الجاحد ، النافى ، الذى يقول : ليس فى السماء ، أو ليس فى السماء ولا فى الأرض ؟ .

واحتج على كفره بقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (٣) قال :
وعرشه فوق سبع سموات ، وبين بهذا أن قوله - تعالى - : (الرحمن على

(١) التمهيد ج ٧ ص ١٢٩ .

(٢) الآية ٥ من سورة طه .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

العرش استوى) (١) يبين أن الله ، فوق السماوات ، فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش ، دل على أن الله بنفسه فوق العرش .

ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال : إنه على العرش استوى ، ولكن توقف في كون العرش في السماء ، أم في الأرض ؛ قال : لأنه أنكر أنه في السماء ، لأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وهذا تصریح من أبى حنيفة - رحمه الله - بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء .

واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك ، فقال : « إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر » (٢) وكلام العلماء من أهل السنة ، من السلف وأتباعهم في هذا الموضوع كثير جدا . فنكتفى بهذا الطرف اليسير ، لأن العاقل المنصف ، الذى يريد الحق ، ويطلبه إذا بان له الدليل ، كفاه اليسير ، وأما من ضل ، وعاند ، فلا يفيدته البيان والإكثار ، من الكلام ، والله الهادى ، وهو المستعان . قوله : « وقال ابن عباس : المجيد ، الكريم ، والودود : الحبيب ، يقال : حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود من حمد »

قول ابن عباس انتهى عند قوله : يقال . قال الحافظ : « وصله ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى : « ذو العرش المجيد » . قال : المجيد الكريم وبه أى بالسند - عن ابن عباس في قوله تعالى : « وهو الغفور الودود » . قال : الودود الحبيب » (٣) .

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٤٧ - ٤٩ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٨ .

وذكر السيوطى أنه خرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الصفات ، فى الموضوعين « (١) .

قلت : يقصد البخارى - رحمه الله - أن العرش أضيف إلى الله - تعالى - الإضافة الدالة على المصاحبة ، والاختصاص ، حيث قال : « ذو العرش » أى صاحب العرش . فدل ذلك على اختصاص العرش المذكور بالله دون سائر المخلوقات . والمجيد قرأ بالرفع صفة لذو ، الذى هو الله - تعالى - ، وقرأ بالجر صفة للعرش .

قال ابن جرير : « قرأ عامة قراء المدينة ومكة ، وبعض الكوفيين بالرفع ، ردا على قوله : « ذو العرش » ، على أنه صفة الله - تعالى ذكره - وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة خفضا ، على أنه من صفة العرش .

والصواب من القول : أنهما قراءتان ، معروفتان ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب « (٢) .

قال أبو حيان : « ذو العرش » خص العرش بإضافة نفسه ، تشريفا للعرش ، وتنبها على أنه أعظم المخلوقات « (٣) .

و « المجيد » فسر ابن عباس ، بالكريم - وقد جاء فى القرآن وصف العرش بأنه كريم ، قال - تعالى - : (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) (٤) فوصف العرش بأنه كريم لسعته وحسنه ، وهو فى وصف الله ، الجواد ، واسع العطاء كثير الخير ، حميد الصفات .

(١) الدر المنثور ج ٨ ص ٤٧١ ، وانظر الطبرى ج ٣٠ ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٣٠ ص ١٣٩ .

(٣) البحر المحيط ج ٨ ص ٤٥٢ .

(٤) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون .

قال في القاموس : « المجيد » الرفيع العالى ، والكريم ، والشريف
الفعال « (١) .

قوله : « الودود » الحبيب ، تقدم أن هذا التفسير مروى عن ابن عباس
بسند متصل ، والود خالص الحب وصافيه .

وفي القاموس : « الودود » كثير الحب . وقد تقدم الكلام في صفة المحبة .

« الودود » فعول ، من الود ، قال شعيب عليه السلام : « إن ربي رحيم
ودود » (٢) ، وقال - تعالى - : (وهو الغفور الودود) (٣) فقرنه بالرحيم في
موضع ، وبالغفور في موضع .

قال أبو بكر بن الأنبارى : « الودود » معناه المحب لعباده ، من قولهم :
وددت الرجل أوده ، وداً ، وودا ، وودا .

ويقال : وددت الرجل ، وداً ، وداداً ، ووداداً ، وودادة .

وقال الخطائى : هو اسم مأخوذ من الود ، وفيه وجهان : أحدهما أن يكون
فعالاً في محل مفعول ، كما قيل : رجل هيوب ، بمعنى مهيب ، وفرس ركوب ،
بمعنى مركوب . والله - سبحانه وتعالى - مودود في قلوب أوليائه ، لما يعرفونه من
إحسانه إليهم . والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود ، أى أنه تعالى يود عباده
الصالحين .

قال تعالى : (سيجعل لهم الرحمن وداً) (٤) فسرت بأنه يحبهم ، ويحبهم
إلى عباده .

(١) ج ١ ص ٣٣٦ .

(٢) الآية ٩٠ من سورة هود .

(٣) الآية ١٤ ن سورة البروج .

(٤) الآية ٩٦ من سورة مريم .

ويؤيده الحديث الصحيح « إذا أحب الله عبداً نادى يا جبريل ، إني أحب فلانا ، فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض » وسيأتى إن شاء الله تعالى .

والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري ، أنه فعول بمعنى فاعل ، أى هو الواد ، كما قرنه بالغفور ، الذى يغفر ، وبالرحيم وهو الذى يرحم ^(١) .

وقوله : « يقال حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود ، من حمد » قال الحافظ : « أصل هذا قول أبى عبيدة ، فى مجاز القرآن ، فى قوله : « عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » أى محمود ماجد ^(٢) .

قال الكرماني : « غرضه منه ، أن مجيدا بمعنى فاعل ، كقدير بمعنى قادر ، حميدا بمعنى مفعول ، فلذلك قال : « مجيد من ماجد ، حميد من ماجد ، حميد من محمود ، قال : وفى بعض النسخ : محمود من حميد ، وفى أخرى : من حمد ، مبنى للفاعل ، والمفعول أيضا ، وذلك لاحتمال أن يكون حميد بمعنى حامد ، ومجيد بمعنى موجد ، ثم قال : وفى عبارته تعقيد ^(٣) .

قال الحافظ : « قلت : وهو فى قوله : « محمود من حمد » . وقد اختلفت الرواة فيه ، والأولى فيه ما وجد فى أصله ، وهو كلام أبى عبيدة ^(٤) »

« فالحميد الذى له من الصفات ، وأسباب الحمد ما يقتضى أن يكون محمودا ، وإن لم يحمده غيره ، فهو حميد فى نفسه .

(١) النبوات ص ٧١ - ٧٢ ملخصا .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٨ .

(٣) شرح الكرماني على البخارى ج ٢٥ ص ١٢٩ .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٨ .

والمحمود من تعلق به حمد الحامدين ، والحمد ، والمجد إليهما يرجع الكمال كله ، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود ، فمن أحببته ولم تثن عليه لم تكن حامداً له .

وهذا الثناء والحب ، يتبع الأسباب المقتضية له ، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، والإحسان إلى الغير ، فإن هذه ، هي أسباب المحبة وكلما كانت هذه الصفات أجمع ، وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم .

والله سبحانه له الكمال المطلق ، الذي لانقص فيه بوجه ، والإحسان كله له ومنه ، فهو أحق بكل حمد ، وبكل حب ، فهو أهل أن يحب لذاته ، ولصفاته ولأفعاله وأسمائه ، ولإحسانه ، ولكل ما صدر منه .

والمجد مستلزم للعظمة ، والسعة ، والجلال ، كما يدل عليه موضوعه في اللغة «^(١) يقال : استمجد المرخ والعفار ، لكثرة النار فيهما .

قال ابن القيم : ومن أسمائه - تعالى - ما هو دال على جملة أوصاف عديدة ، لا يختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه ، لا على معنى مفرد ، نحو المجيد ، العظيم ، الصمد . فإن المجيد ، من اتصف بصفات متعددة ، من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع في اللغة للسعة ، والكثرة ، والزيادة ، فمنه استمجد المرخ والعفار ، وأمجد الناقة علفا ، ومنه « ذو العرش المجيد » صفة للعرش ، لسعته ، وعظمته وشرفه «^(٢) .

★ ★ ★

(١) جلاء الأفهام ص ١٨٧ .

(٢) بدائع الفوائد ج ١ ص ١٦٠ .

٤٧ - قال : « حدثنا عبدان ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن جامع ابن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حصين ، قال : « إني عند النبي - ﷺ - إذ جاءه قوم من بني تميم ، فقال : اقبلوا بشرى يابنى تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا بشرى يأهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا ، جئناك لتتفقه في الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : كان الله ، ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم أتاني رجل ، فقال : ياعمران أدرك ناقتك ، فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها ، فإذا السراب ينقطع دونها ، وأيم الله لو ددت أنها ذهبت ولم أقم » .

* * *

عمران ، هو أبو نجيذ بضم النون ، وفتح الجيم ابن حصين ، الخزاعي ، البصري ، أسلم عام خيبر ، سنة سبع ، وشهد مابعداها من غزوات رسول الله - ﷺ - . وكان من فضلاء الصحابة ، وكانت الملائكة تسلّم عليه مواجهة ، وكان مجاب الدعوة ، بعثه عمر إلى أهل البصرة يفقههم ، وكان الحسن البصري يخلف بالله ما قدمها مثله ، اعتزل الناس في الفتنة ، فلم يشهد شيئا من حروبها . مات في البصرة سنة اثنين وخمسين رضى الله عنه (١) .

قوله : إني عند النبي - ﷺ - في الرواية التي ذكرها في بدء الخلق : « دخلت على النبي - ﷺ - وعقلت ناقتي بالباب » (٢) .

(١) الرياض المستطابة ص ٢١٩ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح ج ٦ ص ٢٨٦ .

ويظهر أن هذه الواقعة في المدينة ، في آخر حياة النبي ﷺ ، ولهذا ذكرها البخارى في آخر المغازى ، في ذكر الوفود ، على النبي ﷺ .

قوله : « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » وفي رواية : « أبشروا يا بنى تميم » ، والمراد بهذه البشرى الخير العظيم ، الذى يترتب على الإسلام ، والنجاة من العذاب العظيم ، الذى يترتب على عدم الدخول فى الإسلام ، وذلك فى الدنيا والآخرة . قال الحافظ : « المراد بهذه البشارة ، أن من أسلم نجا من الخلود فى النار ، ثم بعد ذلك يترتب جزاؤه على وفق عمله ، إلا أن يعفو الله » (١) .

« وتميم اسم رجل ، وهو تميم بن مر بن إدا بن طابخة - واسم طابخة - عمرو ابن إلياس ابن مضر ، والتميم فى اللغة الشريد » (٢) .

« قالوا : بشرتنا فأعطنا » يظهر أنهم ما فهموا مقصد الرسول - ﷺ - بما أراده بالبشرى ، أو أن رغبتهم فى العاجلة ، فعلقوا بها آمالهم ، فقدموا ذلك على التفقه فى الدين ، والإقبال على تفهّم ماقاله الرسول - ﷺ - ولهذا كره رسول الله - ﷺ - قولهم كما فى الرواية الأخرى ، وتغير لون وجهه حيث استشعر قلة فقههم فى الدين ، ورغبتهم فى الآخرة . والله أعلم .

« فدخل ناس من أهل اليمن » تقدم ذكر اليمن ، وسبب تسميته فى شرح حديث معاذ . « فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » . البشرى اسم من البشير ، وهى الإخبار بما يسر ، ويفرح غالبا ، وسميت بذلك لأنه يظهر أثرها على بشرة الوجه .

قال الحافظ : « أى اقبلوا منى ما يقتضى أن تبشروا بالجنة إذا أخذتم به » (٣) ويؤخذ من هذا أنه ينبغى ، بل يتعين قبول ماجاء عن الله ، ورسوله ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٩ .

(٢) انظر نهاية الأرب ص ١٨٨ و ٣٢٢ .

(٣) الفتح ج ٦ ص ٢٨٨ .

بدون توقف أو استفسار ، أو طلب للعللة ، والسبب ، لأن قول بنى تميم : بشرتنا فأعطنا . لا يدل بظاهرة على أنهم لم يقبلوها ، ومع ذلك جعل عدم فهمهم للمقصود وطلبهم لأمر عاجل ، عدم قبول للبشرى .

قوله : « جئناك لتفقه في الدين » الفقه هو الفهم ، أى فهم المراد ، أى أننا قد آمننا بك ، وبما جئت به ، وأتينا إليك لتفهمنا ديننا الذى جئت به وتعلمنا مانعته ، ونعمل به ، وهذا من توفيق الله لعبده ، أن يهتم بالتفقه في دينه ، حتى يعبد ربه على علم وبصيرة .

قوله : « ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان » ؟ الإشارة في قوله : هذا تعود إلى شيء مشاهد ، حاضر ، موجود ، وهو هذا الخلق المرئى ، من السموات والأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ، والمعنى : جئنا نسأل ، عن مبدأ خلق هذه المخلوقات المشاهدة ، وهذا هو الظاهر .

قال الحافظ : « كأنهم سألوا عن أحوال هذا العالم ، وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكونوا سألوا عن أول جنس المخلوقات » (١) .

قلت : الاحتمال الثانى بعيد ، بل باطل كما يأتى بيانه فى كلام شيخ الإسلام وقوله فى الحديث « عن أول هذا الأمر » يرد ، لأن الإشارة إلى المخلوقات المشاهدة كما تقدم ، وجواب السؤال يدل على أنهم سألوا عن مبدأ هذا العالم المشاهد . والأمر يطلق ويراد به المأمور ، ويراد به المصدر ، الذى هو حكم الأمر والأول هو المراد هنا قطعاً .

وقد رد شيخ الإسلام احتمال كونهم سألوا عن أول جنس المخلوقات من وجوه كثيرة ، وبين أن ذلك باطل ، وذكر أن الحديث روى بثلاثة ألفاظ :

أحدها المذكور هنا : « كان الله ولم يكن شيء قبله » .

والثانى : « كان الله ، ولم يكن شيء معه » .

والثالث : « كان الله ، ولم يكن شيء غيره » . ثم قال : « لا بد أن يكون الرسول - ﷺ - قال أحدها ، لأن المجلس كان واحدا ، وسؤالهم ، وجوابهم في ذلك المجلس ، وعمران الذي روى الحديث لم يبق في المجلس إلى انقضائه بل ذهب لما أخبر بذهاب راحلته ، وهو أخبر بلفظ الرسول - ﷺ - ولم يرو هذا الحديث غيره - فدل ذلك على أن الرسول - ﷺ - قال واحدا من هذه الألفاظ ، والآخرون رويها بالمعنى ، فيكون ماقاله : هو لفظ « القبل » لما في صحيح مسلم ، من قوله - ﷺ - : « أنت الأول فليس قبلك شيء » (١) .

وأكثر أهل الحديث يرويه بهذا اللفظ ، وهو ذكر الجمل الثلاث بالواو ،

وهي

١ - « قوله كان الله ، ولم يكن شيء قبله » .

٢ - « وكان عرشه على الماء » .

٣ - « وكتب في الذكر كل شيء » .

ولم يذكر شيئا منها بثم ، وإنما جاء ذلك في خلق السموات والأرض .
والواو ، لاتفيد الترتيب ، على الصحيح ، فلا يكون في ذلك ذكر أول المخلوقات ، بل ولا فيه الإخبار بخلق العرش ، والماء ، وإن كان ذلك كله مخلوقا ، ولكن المقصود أن جوابه لأهل اليمن ، عن بدء خلق السموات والأرض ، وما بينهما وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام ، لا ابتداء ماخلقه الله قبل ذلك .

ويدل على ذلك ، أنه أخبر عن تلك الأشياء بما يدل على وجودها ، ولم يتعرض لابتداء خلقها ، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقها ، سواء قال : « وخلق السموات والأرض » أو قال : « ثم خلق السموات والأرض » فعلى التقديرين ، أخبر بخلق ذلك ، وكل مخلوق ، محدث كائن بعد أن لم يكن .

فتبين أنه لم يكن مقصوده الإخبار عن أول جنس المخلوقات ، بل ولا الإخبار عن خلق العرش والماء ، وإنما مقصوده الإخبار عن بدء خلق السموات.

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٨٤ الحديث رقم ٢٧١٣ .

والأرض ، وما بينهما ، حين كان عرشه على الماء » (١) .

وقد ثبت في حديث عبد الله بن عمرو ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء » (٢) .

ولما كان شيخ الإسلام يقرر هذا ، وهو أن الله لم يزل فعال لما يريد ، ويرد على من يقول : المعنى : كان الله ، ولا شيء معه أى لا مخلوق ، ولا فعل ، ولا مفعول ، ثم صار يخلق ويفعل بعد أن لم يكن يفعل ، ويخلق ، وهذا هو قول الجهمية ، والمعتزلة .

لما كان يقرر ذلك ، ويرد قول الجهمية والمعتزلة ، ظن كثير ممن لم يفهم مراده ولم يعرف مذهب أهل السنة في هذه المسألة ، ظن أنه يقول بقدم العالم لأنه يقول بحدوث لا أول لها ، لأنهم يسمون أفعال الله الاختيارية ، التى يفعلها بإرادته حوادث .

وما علم هؤلاء أن لازم قولهم ، أشنع ، وأفزع ، وهو أن الرب تعالى كان معطلا عن الفعل ، ثم صار فعلا لأفعاله بعد أن لم يكن كذلك .

مع أن ما قاله شيخ الإسلام هو مذهب السلف مثل الإمام أحمد ، والدارمي والبخارى وغيرهم .

قال الإمام أحمد في رده على الجهمية : « فلما ظهرت عليه الحجة ، قال : إن الله يتكلم ، ولكن كلامه مخلوق » .

قلنا : وكذا بنو آدم كلامهم مخلوق ، فقد شبهتم الله بخلقه ، حين زعمتم أن كلامه مخلوق .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٨ ص ٢١٦ - ٢٢٢ بتصرف .

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

ففى مذهبكم ، قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم ، حتى خلق التكلم . وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاما .

وقد جمعتم بين كفر ، وتشبيه ، وتعالى الله عن هذه الصفة .

بل نقول : إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء ، ولا نقول : إنه كان ، ولا يتكلم حتى خلق الكلام ، ولا نقول : إنه قد كان لا يعلم ، حتى خلق علما فعلم ، ولا نقول : إنه قد كان ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه القدرة ، ولا نقول : إنه كان ولا نور له ، حتى خلق لنفسه نورا ، ولا نقول : إنه كان ولا عظمة له ، حتى خلق لنفسه عظمة . فقالت الجهمية ، لما وصفنا الله بهذه الصفات : إن زعمتم ، أن الله ونوره ، والله وقدرته ، والله وعظمته ، فقد قلتم بقول النصارى ، حين زعموا أن الله لم يزل ونوره ، ولم يزل وقدرته .

قلنا : لا نقول : إن الله لم يزل ، وقدرته ، ولم يزل ، ونوره ، ولكن نقول : لم يزل بقدرته ، ونوره ، لا متى قدر ، ولا كيف .

فقالوا : لا تكونوا موحدين أبداً ، حتى تقولوا : قد كان الله ولا شيء .

فقلنا : نحن نقول : قد كان الله ، ولا شيء ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهًا واحدًا بجميع صفاته ؟ .

وضربنا لهم مثلا فى ذلك ، فقلنا : أخبرونا ، عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، وخصوص ، وجمار ، واسمها اسم شيء واحد ، وسميت نخلة ، بجميع صفاتها ، فكذلك الله - وله المثل الأعلى بجميع صفاته ، إله واحد .

ولانقول : إنه كان فى وقت من الأوقات ، ولا قدرة له ، حتى خلق له . والذى ليس له قدرة ، هو عاجز .

ولانقول : قد كان في وقت من الأوقات ، لا يعلم حتى خلق له علما ،
والذى لا يعلم هو جاهل « (١) »
بين الإمام - رحمه الله - تعالى - أنه - تعالى - لم يزل متكلماً ، قادراً ،
فعالاً لما يريد . فلم يكن قبل وجود الخلق معطلا عن الفعل ، كما هو مقتضى قول
الذين أنكروا وجود حوادث لا أول لها ، وزعموا أن هذا قول الفلاسفة الدهرية .
وفي الواقع هو قول السلف ، وهو الذى دلت عليه نصوص الشرع ، وأيده
العقل .

قال الإمام أبو سعيد الدارمى - رحمه الله - : « والله - تعالى - وتقدس
اسمه - كل أسمائه سواء ، لم يزل كذلك ، ولا يزال ، لم تحدث له صفة ، ولا
اسم ، لم يكن كذلك كان خالفاً قبل المخلوقين ، ورازقاً قبل المرزوقين ، وعالماً قبل
المعلمين ، وسميماً قبل أن يسمع أصوات المخلوقين ، بصيراً قبل أن يرى أعيانهم
مخلوقة » (٢) .

والمقصود أن الله - سبحانه وتعالى - لم يزل فعالاً لما يريد ، وأنه لم يكن
معطلا عن الفعل حتى خلق هذا الكون ، المشهود الذى سئل عن مبدأه أهل
اليمن ، قال شيخ الإسلام :

« لا نزاع بين أهل الملل أن الله - سبحانه - كان قبل أن يخلق هذه
الأمكنة والأزمنة ، وأن وجوده لا يجب أن يقارن هذه الأزمنة ، والأمكنة » (٣)
قوله : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله » تقدم فى كلام شيخ الإسلام أن
هذا اللفظ هو الذى قاله الرسول - ﷺ - وأن اللفظين ، الآخرين رويهما بالمعنى
وهما « لم يكن شيء غيره » و « لم يكن شيء معه » ، وأيد ذلك بأنه من معنى
قوله - تعالى - : (هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء
عليم) (٤) .

(١) الرد على الجهمية ص ٩٠ - ٩٢ عقائد السلف .

(٢) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي .

(٣) نقض التأسيس ج ١ ص ٥٦٢ .

(٤) الآية ٣ من سورة الحديد .

فقوله تعالى : « هو الأول » هو الذى ليس قبله شيء ، كما فى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » (١) .

وأما قول الحافظ : « قضية الجمع بين الروایتين ، تقتضى حمل هذه على رواية « ولا شيء غيره » ، لا العكس ، والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق » (٢) فيقال له : هذا لو احتمل أن يكون الحديث صدر منه - ﷺ - فى مقامين ، أما إذا كان فى مجلس واحد ، والراوى واحد ، وقد أخبر أنه لم يبق إلى نهاية المجلس بل قام لما سمع هذا القول من النبى - ﷺ - ولحق براحلته ، فلا بد أن اللفظ الذى سمعه أحد هذه الألفاظ الثلاثة ، والأخران روى بالمعنى ، فأصبح الجمع لا وجه له .

وحمل هذه الرواية على رواية « ولا شيء غيره » تحكّم بلا دليل ، حمل عليه التعصب للمذهب ، وإلا فالواجب حملها على المعروف من كلام النبى - ﷺ - الموافق لكلام الله - تعالى - كما تقدمت الإشارة إليه .

وأما قوله : إن هذه المسألة من مستشنع ما ينسب لابن تيمية ، فقد تقدم أن هذا هو مذهب السلف ، وأن ما يريد ترجيحه الحافظ هو مذهب الجهمية والمعتزلة ، والأشعرية من أهل البدع ، والله أعلم .

وكلمة « كان » هنا تفيد الأزلية ، والأزلية . هى ما لا بداية له . قال الطيبى : « لفظة كان فى الموضوعين - يعنى « كان الله » و « كان

(١) تقدم تحريجه فى ص ٣٧٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤١٠ .

عرشه على الماء » بحسب حال مدخولها ، فالمراد بالأول الأزلية والقدم ، وبالتالي الحدوث بعد العدم « (١) .

« وقال ابن عباس : « كان ولا يزال » . ولم يقيد كونه بوقت دون وقت ، ويمتنع أن يحدث له غيره صفة ، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره سبحانه فهو المستحق لغاية الكمال ، وذاته هي المستوجبة لذلك الكمال المطلق وهو المحمود على ذلك ، أزلا وأبداً ، لا يحصى الخلق ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه « (٢) .

وقال الراغب : « كان : عبارة عما مضى من الزمان ، وفي كثير من وصف الله - تعالى - تنبىء عن معنى الأزلية ، قال : (وكان الله بكل شيء عليماً) (٣) (وكان الله على كل شيء قديراً) (٤) ، وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقاً بوصف له هو موجود فيه . فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له ، قليل الانفكاك منه نحو قوله في الإنسان (وكان الإنسان كفوراً) (٥) وإذا استعمل في الزمان الماضي ، فقد يجوز أن يكون المستعمل فيه على حالته ، ويجوز أن يكون قد تغير ، نحو كان فلان كذا ثم صار كذا « (٦) .

ومعنى قوله : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله » أنه - تعالى - هو الأول قبل كل شيء ، الذي لا يتصور لأوليته مبدأ ، حتى يمكن أن يتصور قبله شيء ، بل هو الأول بلا بداية ، كما أنه الآخر بلا نهاية فما من غاية يقدرها العقل إلا وأزليته - تعالى - قبلها ، بلا غاية محدودة والأزل معناه عدم الأولية ، فليس الأزل

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤١٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ١٨ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الفتح والآية ٤٠ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٢٧ من سورة الأحزاب ، والآية ٢١ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .

(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٤٤٤ .

شيئا محدودا فلو قدر أن الأرض كلها وعاء مملوء ذرات ، وبعد مليون سنة تفنى ذرة واحدة فقط ، لفنية الذرات كلها ، والأزل باقٍ ، بل لو فرض أضعاف أضعاف ذلك بالملايين ، والمقصود بذلك التقريب إلى الفهم فقط ، وإلا فالأزل ليس له بداية أبدا .

قوله : « وكان عرشه على الماء » أى وقت خلق السموات والأرض ، كان عرشه على الماء . والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء ، عند ابتداء خلق السموات والأرض .

قال ابن خزيمة : « معنى قوله : وكان عرشه على الماء ، كقوله : « وكان الله عليما حكيما » (١) يعنى أن كان هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى ، وانقضى ، بل تدل على ثبوته فهو كان ، ولا يزال على ما كان ، و « ليس معنى ذلك أن شيئا من مفعولاته قديم معه ، بل هو خالق كل شيء ، وكل شيء سواه مخلوق له ، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، مع أنه - تعالى - لم يزل بصفاته خالقا فعلا لما يريد » .

ومن المعلوم أن الخلق صفة كمال ، كما قال - تعالى - : (أفمن يخلق ، كمن لا يخلق) (٢) فلا يجوز أن ينفك عن هذه الصفة ، ولكن كل مخلوق محدث ، مسبق بالعدم وليس مع الله شيء قديم ، ولا شك أن هذا أبلغ في الكمال ، من أن يكون معطلا غير قادر على الفعل .

وأما جعل المفعول المعين مقارنا له - تعالى - أزلا وأبدا ، فهو باطل عقلا وشرعا ولا يقوله إلا جاهل أو معطل .

« والأدلة على بدء خلق الأفلاك ، وخلق الزمان الذى هو مقدار حركة الفلك كثيرة ، أخبرت بها الرسل ، كما أخبرت أنها خلقت من مادة موجودة قبلها ، وفي زمان قبل هذا الزمان ، فإن الله - تعالى - أخبر أنه خلق السموات

(١) كتاب التوحيد ص ١٠٣ .

(٢) الآية ١٧ من سورة النحل .

والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وسواءً قيل : إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المعروفة بطلوع الشمس وغروبها ، أو أنها أكبر منها ، وأن كل يوم قدره ألف سنة .
والحق أن تلك الأيام ، التي خلقت فيها السماوات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك ، وأن تلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السماوات والأرض .

وقد أخبر - سبحانه وتعالى - أنه (استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها ، قالتا أتينا طائعين) (١) فخلقت من الدخان

وقد جاءت الآثار عن السلف ، أنها خلقت من بخار الماء ، وهو الماء الذي كان العرش عليه ، قبل وجود هذا الخلق ، كما قال تعالى : (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) (٢) فأخبر - تعالى - أنه خلق السماوات والأرض في مدة ، ومن مادة ، ولم يذكر القرآن أنه خلق شيئا من لا شيء ولا يعارض هذا بقوله تعالى : (وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا) (٣) . لأنه تعالى قد أخبر أنه خلقه من نطفة (٤) وخلق أباه من تراب ، وقد أخبر الرسول ﷺ - أن الملائكة خلقت من نور ، والجن من النار .
وهذه الجملة من الحديث هي محل الشاهد ، وهو دليل على عظم العرش ،

وأن له شأنًا غير شأن السماوات والأرض ، وأن وجوده قبل وجودهما .

وقوله : « ثم خلق السماوات ، والأرض » نص في ذلك لأن ثم تفيد الترتيب

مع التراخي ، أى ترتيب خلق السماوات والأرض على وجود العرش والماء .

ولا شك أن العرش ، والماء مخلوقان ، ولم يذكر الله جل وعلا لنا وقت خلق

العرش والماء ، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما ، ولكن النصوص من الوحي ، والفطر ، والعقل السليم تدل على أن الله - تعالى - لم يزل يفعل ما يشاء ، ويتكلم

(١) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٩ من سورة مريم .

(٤) مجموع الفتاوى ج ١٨ ص ٢٣٥ بتصرف .

بما يشاء ، وهذا من الكمال الواجب له ، والذي يليق به تعالى .
وما يقوله المتكلمون من المعتزلة ، والأشاعرة ، ومن تبعهم ، من أن هذا
الكون المشاهد لنا ، وما يتصل به - من السموات والأرض ، وكذلك العرش والماء ،
هو مبدأ فعله وخلقه ، وليس قبله شيء من مفعولاته - يخالف كماله الواجب له
تعالى .

فإن وصفه - تعالى - بأنه لم يكن قادرا على الفعل ، والكلام ونحوهما من
صفات الكمال - ثم صار قادرا على ذلك - فيه نقص يجب أن ينزه عنه ، وقدرته
التامة الكاملة التي هي من لوازم ذاته - تعالى - تفيد خلاف هذا القول وهي من
أظهر صفات الكمال ، ولا يجوز أن تقيد صفاته - تعالى - ، وأفعاله بوقت دون
وقت .

وباليتين العقلي يمتنع أن يكون قادرا بعد أن لم يكن كذلك ، إلا بأمر
جعله قادرا ، ومن المحال أن يؤثر فيه شيء غيره ، فإذا لم يكن هناك إلا العدم
المحض استحال كونه قادرا ، بعد أن لم يكن كذلك .
كما يمتنع أن يكون عالما بعد أن لم يكن كذلك ، وأن يكون سميعا بصيرا إن
لم يكن . أما المخلوق المفعول ، مثل الإنسان ، فإنه كان غير عالم ، ولا قادر ،
فجعله الله عالما قادرا .

وقوله : « وكتب في الذكر كل شيء » الكتابة هنا أضيفت إلى الله تعالى ،
ولا يتعين منه أنه تعالى مباشرة الكتابة بنفسه ، بل يجوز أن يأمر بذلك ما يشاء .
وقد جاء الحديث عن رسول الله - ﷺ - موضحا ذلك ، كما في
حديث عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أول
ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وما أكتب ؟ قال : اكتب
مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » (١) .

والمقصود بالذكر هنا محل الكتابة - وهو اللوح المحفوظ .

(١) رواه أبو داود في السنن ج ٥ ص ٧٦ رقم ٧٤٠٠ .

« والمراد أنه تعالى كتب كل ما أراد إيجاداه من تلك الساعة التي جرت فيها الكتابة إلى قيام الساعة .

ولفظة « كل شيء » يعم في كل موضع بحسب ماسيقت له ، كما في قوله - تعالى - : (بكل شيء عليم) (وعلى كل شيء قدير) (الله خالق كل شيء) .

و « تدمر كل شيء » « وأوتيت من كل شيء » (١) .

وقوله : « فإذا السراب ينقطع دونها » أى يشاهدها من خلف السراب ، فهو ينقطع بينه وبينها لبعدها ، فيراها مرة ، وأخرى يكاد يخفيها السراب .
وقوله : « وأيم الله » قيل معناه : يمين الله ، فهو قسم مشهور عند العرب وفيه لغات عدة .

وقوله : « لوددت أنها ذهبت ، ولم أقم » يقول : إن رغبتى والأحب إليّ أنى بقيت فى مجلسى عند رسول الله - ﷺ - أتعلم منه الإيمان والعلم ولم أقم فى طلب راحلتى ، بل أتركها مؤثراً ما أسمعته من رسول الله - ﷺ - من غذاء القلب والروح ، على راحلتى ، وهذا شأن صحابة رسول الله - ﷺ - ورضى الله عنهم - فى حرصهم على التعلم منه ، والبحث عن الهدى والخير ، ولهذا حفظوا كل ما قاله الرسول - ﷺ - وما فعله ، حتى نقلوا لنا شعر لحيته وهو يصلى ، وغير ذلك فجزاهم الله خيراً ، وقاتل من يبغضهم ويتنقصهم .

★ ★ ★

٤٨ - قال : « حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، حدثنا أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « إن يمين الله ملاءى ، لا يغيبها نفقة - سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء ، ويده الأخرى الغيضة - أو القبض - يرفع ، ويخفض » .

* * *

قد تقدم هذا الحديث فى باب قول الله - تعالى - « لما خلقت بيدى » وتقدم الكلام عليه وما هنا يختلف عن الماضى فى سنده ، وفى بعض ألفاظه ، على عادة المؤلف رحمه إذا كرر الحديث ، فلا بد أن يأتي بما يغير السابق ، إما فى السند والمتن ، أو فى أحدهما - إلا إذا لم يتيسر له ذلك ، وهو نادر .

والذى تقدم فيه « يد الله ملاءى » وما هنا « إن يمين الله ملاءى » .

وما تقدم فيه « وقال : أرأيتم » . وهنا كلمة « قال » ليست موجودة .

وماتقدم فيه « فإنه لم يغض ما فى يده » وما هنا « فإنه لم ينقص ما فى يمينه »

وماتقدم فيه « وقال : عرشه على الماء » وهنا لفظة « قال » غير موجودة .

وماتقدم « ويده الأخرى الميزان » وهنا « ويده الأخرى الغيضة :-

أو القبض » هذا فى المتن ، وأما السند فهو غير المتقدم .

والمقصود قوله : « وعرشه على الماء » أى أنه - تعالى - لما خلق السماوات

والأرض ، كان عرشه على الماء ، فوجود العرش ، والماء سابق وجود السماوات

والأرض بزمن طويل جدا ، الله أعلم بمقداره .

★ ★ ★

٤٩ - قال « حدثنا أحمد ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : جاء زيد بن حارثة ، يشكو ، فجعل النبي - ﷺ - يقول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال (١) أنس : لو كان رسول الله - ﷺ - كاتماً شيئاً لكم هذه ، قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبي - ﷺ - تقول : زوّجكن أهاليكن ، وزوّجني الله - تعالى - من فوق سبع سماوات .

وعن ثابت (وتخفي في نفسك ما لله مبديه ، وتخشي الناس) نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة » .

* * *

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ، مولى رسول الله - ﷺ - .

ذكر الحافظ في الإصابة ، نقلاً عن الكلبي بسنده ، قال : « زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها ، فأغارت خيل لبني القين بن جسر ، على أبيات بنى معن ، فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة ، فأتوا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ، فاشتره حكيم بن حزام لعتمته خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله - ﷺ - وهبته له ، ثم جاء والده حارثة ، وعمه كعب ، يريدان فدائه ، فطلبوا ذلك من رسول الله - ﷺ - فقال لهما رسول الله : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فاختار زيد رسول الله - ﷺ - فقال له والده وعمه : ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية ؟ فقال : إني رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحدا .

(١) في بعض نسخ البخارى : قالت عائشة .

فلما رأى رسول الله - ﷺ - ذلك خرج به إلى الحجر ، وقال :
اشهدوا أن زيداً ابني ، عند ذلك طابت نفس والده وعمه .

وزوجه رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته أميمة
بنت عبد المطلب ، ثم لم يتلاءما ، فطلقها زيد ، فزوجها الله - تعالى - نبيه
لحكمة ذكر الله - تعالى - فى القرآن .

قال ابن عمر : « إن زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا
ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند
الله) (١)

كان زيد هو الأمير فى غزوة مؤتة ، واستشهد فيها رضى الله عنه « (٢)
قوله : « جاء زيد بن حارثة يشكو » أى جاء إلى رسول الله - ﷺ -
يشكو زوجه زينب ويستشيريه فى طلاقها ، لأنها كانت تترفع عليه ، وتقابله ببعض
الكلام غير المناسب لحدة كانت فيها ، كما (روى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن
قتادة ، قال جاء زيد بن حارثة فقال : يارسول الله إن زينب اشتد على لسانها ،
وأنا أريد أن أطلقها ؟ فقال له : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » (٣) . وهذا
منقطع ، وقد ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين أثاراً موضوعة ، مكذوبة على
رسول الله - ﷺ - فى قصة زواجه - ﷺ - بزينب ، وبعضها ضعيف ،
لا يثبت به حكم .

ثم استغل تلك الأخبار بعض أعداء الرسل ، من زنادقة ، وكفار ملاحدة
متقدمون ، ومتأخرون ، واغتر بذلك كثير من الجهلة .

(١) الآية ٥ من سورة الأحزاب ، ورواه البخارى ، انظره مع الفتح ج ٨ ص

(٢) الإصابة ج ٢ ص ٥٩٩ - ٦٠١ .

(٣) الفتح ج ٨ ص ٥٢٤ .

وقد بين الله - تعالى - المقصود من زواج رسوله - ﷺ - بزینب بقوله : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً) (١) .

المعنى : لما فرغ زيد منها وطابت نفسه عنها ، وطلقها ، أمرناك بتزوجها لئلا يبقى في قلوب المؤمنين حرج في تزوج زوجات أدعياءهم ، الذين تبنوهم ، فصاروا يدعون إليهم ، فيقال : ابن فلان ، وليس ابناً له إذا فارقوهن .

وهذا إمعان في إبطال هذا التبني ، الذي كان معروفاً في الجاهلية الأولى كما عرف في الجاهلية الحاضرة ، حيث أمر الله - تعالى - إمام المسلمين وقوتهم بذلك . وكان زيد بن حارثة ، قد تبناه رسول الله - ﷺ - كما تقدمت الإشارة إليه ، فكان يدعى بزید بن محمد ، فأبطل الله - تعالى - ذلك بقوله : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهتدي السبيل ادعوهم لأبائهم ، هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفوراً رحيماً) (٢) .

فهو - تعالى - يعلم عباده أن أدعياءهم الذين هم مواليتهم ، ودعوهم أبناء لهم ، إنهم ليسوا لهم بأبناء ، لأنهم أبناء رجال آخرين .

وقد أوحى الله - تعالى - إلى رسوله بأنه سوف يتزوج زينب ، أوحى الله بذلك إليه قبل أن يطلقها زيد ، فلما جاء يشكوها إليه ، ويستشيرها في طلاقها ، قال له : « اتق الله يا زيد وأمسك عليك زوجك ، فعاتبه الله - تعالى - على ذلك ، وعلى ما كان يخشاه من أقوال الناس في ذلك فقال - تعالى - : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآيتان ٤ و ٥ من سورة الأحزاب .

في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) الآية (١)

والذى كان - ﷺ - يخفيه ، هو كراهيته لزواجها خوفاً من قالة الناس أنه تزوج زوجة ابنه .

قال ابن حجر : « والحاصل أن الذى كان يخفيه هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه ، وأراد الله إبطال ما كان الجاهلية عليه ، من أحكام التبني بأمر لأبلى في الإبطال منه ، وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابناً [له] ، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ، ليكون أدعى لقبولهم .

وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية ، والله أعلم » (٢) . يشير إلى ما ذكره بعض المفسرين من أقوال باطلة ، وقصص موضوعة مكذوبة .

قوله : « قال أنس : لو كان رسول الله - ﷺ - كاتماً شيئاً لكم هذه » أى لو قدر على سبيل الفرض الممتنع شرعاً كتم شيئاً من الوحي ، لكان في هذه الآية ، ولكنه غير واقع ، بل ممتنع شرعاً .

وهذه الآية من أعظم الأدلة لمن تأملها على صدق الرسول - ﷺ - فالله - تعالى - يخبر عما وقع في نفسه من خشية الناس ، فيبلغه كما قال الله - تعالى - مع ما تضمنه من لومه ، بخلاف حال الكذاب ، فإنه يتجنب كل ما يمكن أن يكون فيه عليه غضاضة ، ومثل ذلك قوله - تعالى - : (عبس وتولى) إلى آخر الآيات ونظائرها في القرآن .

وقوله : « فكانت زينب تفخر على أزواج النبي - ﷺ - » .

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الفتح ج ٨ ص ٥٢٤ .

الفخر : هو ذكر المحاسن ، وعدّها ، مباهاة بها غيره .

قال الجوهري : « الفخر : الافتخار ، وعد القديم » (١)

فزينب رضی الله عنها - تعتد بأن زواجها برسول الله - ﷺ - كان بأمر الله له بذلك ، وأنه من أعظم فضائلها ، وأنه لايساويها في ذلك من أزواجه أحد .

قوله « تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله - تعالى - من فوق سبع سماوات » هذا القدر من الحديث هو محل الشاهد ، وهو ثبوت علو الله - تعالى - وتقرره لدى المؤمنين ، فهو أمر مسلم به بين عموم المسلمين ، بل بين عموم الخلق إلا من غيرت فطرته ، فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، والعقل ، والفتوة عند كل من لم تنحرف فطرته .

وأما الاستواء على العرش فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، لا بالعقل كما نبه على ذلك شيخ الإسلام (٢) ، وغيره من الأئمة .

ومعنى قولها : « وزوجنى الله » أى أمر رسوله بأن يتزوجها بقوله - تعالى - : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها)

وقوله في الرواية الأخرى : « نزلت آية الحجاب ، في زينب بنت جحش » . آية الحجاب هي قوله - تعالى - : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ، إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ ، فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ، فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) إلى آخر الآية (٣) .

قوله : « وأطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً » أى صنع وليمة لزواجه بها ، من

(١) الصحاح ج ٢ ص ٧٧٩ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٢٧ .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

الخبز ، واللحم ، وهذا النوع من الطعام هو أعلى ما يملكون في زمنه - ﷺ - .
 قوله : « تقول : إن الله أنكحني في السماء » هو كقولها السابق « وزوجني
 الله من فوق سبع سماوات » . وكثير ماتأتى « في » بمعنى على أى إن زواجى صدر
 من الله - تعالى - حيث أمر رسوله به ، والله في السماء .

فإما أن تكون « في » بمعنى على ، أو يراد بالسماء العلو ، وكلاهما صحيح
 مستقيم جاءت به النصوص ، قال - تعالى - : (وأنزلنا من السماء ماء
 طهوراً) (١) وقال - تعالى - : (فليمدد بسبب إلى السماء) (٢) .

« ولما كان مستقراً في نفوس المخاطبين أن الله - تعالى - هو العلى الأعلى ،
 وأنه فوق كل شىء ، كان المفهوم من قوله : « أنه في السماء » أنه في العلو ، وأنه
 فوق كل شىء ولهذا قالت : « من فوق سبع سماوات » .

وكذلك الجارية ، لما قال لها النبي - ﷺ - : « أين الله ؟ قالت : في
 السماء » (٣) إنما أرادت ، العلو ، وإذا قيل : العلو ، فإنه يتناول ما فوق المخلوقات
 كلها ، فما فوقها كلها هو في السماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون هناك ظرف
 وجودى يحيط به ، إذ ليس فوق العالم شىء موجود إلا الله - تعالى - .

وكذلك إذا قيل : العرش في السماء ، فإنه لا يقتضى أن يكون العرش في
 شىء آخر موجود مخلوق ، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك ، كان المراد أنه
 عليها كما قال : (فسيحوا في الأرض) (٤) وقال : (لأصلبنكم في جنوع
 النحل) (٥) وقال : (فسيروا في الأرض) (٦) ويقال : فلان في الجبل ، وفي

(١) الآية ٤٨ من سورة الفرقان .

(٢) جزء من الآية ١٥ من سورة الحج .

(٣) رواه مسلم وغيره .

(٤) الآية ٢ من سورة براءة .

(٥) جزء من الآية ٧١ من سورة طه .

(٦) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران .

السطح ، وإن كان على أعلى شيء منه . فإن حرف « في » يتعلق بما قبله ، وبما بعده ، فيكون بحسب المضاف إليه .

ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان ، وكون الماء في الإناء ، وكون الوجه في المرآة ، وكون الكلام في الكتاب ، وكون العرش ، والجنة في السماء ، فإن لكل نوع من هذه خاصة يتميز بها عن غيره .

★ ★ ★

٥٠ - قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتي سبقت غضبي » .

* * *

تقدم هذا الحديث في باب قول الله - تعالى - : (ويحذركم الله نفسه) وقد غاير بين سنده هنا وهناك ، وفي متنه بعض الاختلاف ، ففي الرواية المتقدمة « لما خلق الله الخلق » وهنا « إن الله لما قضى الخلق » ، وهناك « كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش » وهنا « كتب عنده ، فوق عرشه » وهناك ، « إن رحمتي تغلب غضبي » ، وهنا ، « سبقت غضبي » .
وقد مضى شرحه ، والمقصود هنا ، قوله : « عنده ، فوق عرشه » هذان ظرفان مختصان بالمكان ، وقد أضيفا إلى الله - تعالى - ، فلا بد أن هذه الإضافة تقتضي تخصيصا للعرش على غيره من السموات والأرض .

« إضافة العرش إلى الله إضافة مخصوصة ، وقد قال - تعالى - : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) (١) فإذا كان العرش مضافا إلى الله في هذه الآية ونحوها إضافة اختصاص ، فذلك بوجب أن يكون بينه وبين الله - تعالى - من النسبة ما ليس لغيره ، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء ، والقدرة ، وغير ذلك أمر مشترك بين العرش ، وسائر المخلوقات » (٢)

ومافى هذا من قوله : « عنده فوق عرشه » . والآيات نحو « ذو العرش » « عرش ربك » ينفي أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك بين سائر

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) نقض التأسيس ج ١ ص ٥٧٠ - ٥٧٧ .

المخلوقات كما تقوله الجهمية وأتباعهم ، ويوجب اختصاصا للعرش بالله ليس لغيره من سائر المخلوقات وقد علم المسلمون أنه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته ، كما أخبرهم ربهم بذلك ، ونبههم ﷺ .

ومانقله الحافظ عن الخطابي أن معنى « فوق العرش » أى عنده علم ذلك فهو لا ينسأه ، ولا يبده « هو من تخطيات أهل التأويل ، ويقال له : وهل علم الله يختص بهذا الكتاب ، فهو الذى لا ينسأه ، ولا يبده ، وأما سائر الكون فليس عنده علمه أو ينسأه ويبده ؟ إن الأجدى بالخطابي ومن يشتغل بالحديث أن يتبع كلام رسول الله - ﷺ - ولا يحمله على المذاهب الباطلة ، بل يجب أن يصونه عن مثل هذه التحريفات الباردة ، والحق أن قوله : « عنده فوق عرشه » على ظاهره ، وأن كل تأويل له عن ظاهره ، تبديل للمعنى الذى أراده رسول الله - ﷺ - ، ونحن نؤمن إيماناً يقيناً قاطعاً وكل المؤمنين أن الرسول - ﷺ - أحرص على عقيدة المسلمين ، وعلى تنزيه الله - تعالى - من هؤلاء المحرفين لكلامه . وهو كذلك أقدر على البيان والإيضاح منهم ، وهو كذلك أعلم بالله ، وما يجب له وما يمتنع عليه من هؤلاء المتخطبين .

فهذا كتاب خاص ، وضعه عنده فوق عرشه ، مثبتاً فيه ما ذكر ، لزيادة الاهتمام به ولا ينافى ذلك أن يكون مكتوباً أيضاً فى اللوح المحفوظ .

وهو كتاب حقيقة ، كتبه - تعالى - كما ذكر لنا رسولنا - ﷺ - حقيقة ، وهو عند الله حقيقة ، فوق عرشه حقيقة ، والمقصود أن الله - تعالى - مستو على عرشه على الحقيقة ، وعرشه فوق مخلوقاته كلها عالٍ عليها .

٥١ - قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثني محمد بن فليح ، قال : حدثني أبي ، حدثني هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة - رضى الله - عنه . عن النبي - ﷺ - . قال : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، قالوا : يا رسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

* * *

قوله : « من آمن بالله ورسوله » هذا هو الأساس الذى يبنى عليه العمل ، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله أولاً قبل العمل ، فكل عمل مشروط لصحته أن يكون العامل مؤمناً قال الله - تعالى - : (ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) (١) .

وقال - تعالى - : (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه) (٢) .

وقد ذكر الله - تعالى - عن رسله الذى أرسلهم إلى الناس أنهم دعوهم إلى الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، وهو معنى قوله - ﷺ - : « أمرت أن أقاتل

(١) الآية ٤٠ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآية ٩٤ من سورة الأنبياء .

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » كما سبق ، وتقدم حديث معاذ ، حين بعثه النبي - ﷺ - إلى اليمن ، وقال له : « فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » الخ

والإيمان بالله - تعالى - يدخل فيه الإيمان بأنه المالك لكل شيء ، المتصرف كيف يشاء ، وأنه الإله الحق ، الذى يجب أن يعبد وحده ، لا شريك له فى ذلك ، لا ملك ولا نبي ، ولا أحد من الخلق مهما علت منزلته ، وحسنت عبادته .

ويدخل فيه الإيمان بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وأن يثبت له ماأثبتته لنفسه ، وأثبتته له رسله ، من غير تحريف ولا تمثيل ، ولا تكييف ولا تعطيل ، بل ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير .

قوله : « وأقام الصلاة » إقامة الصلاة الإتيان بها على وفق أمر الله - تعالى - وأمر رسوله كاملة فى أفضل أوقاتها .

قوله : « وصام رمضان » الصيام فى اللغة : هو الإمساك ، وفى الشرع إمساك مخصوص ، عن أشياء مخصوصة من طلوع الفجر ، إلى غروب الشمس . قال الحافظ : وسقط ذكر الحج . على أحد الرواة ، لأنه قد جاء ذكره فى الترمذى والحديث لم يذكر لبيان الأركان ، فيجوز أنه اقتصر على ذكر البعض ، لأنه هو المتكرر غالباً ، وأما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال ، بشرطه ، والحج لايجب إلا مرة على التراخي » (١)

والمقصود من الحديث : أن من حصل له الإيمان بالله ، وما يلزم له ، من إيمان برسله ، وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، وبقضاء الله وقدره ، مع التزام ماشرعه الله لعباده من الأمر ، والنهى ، وجاهد فى سبيل الله مع ماذكر استحق دخول الجنة على الله ، ولا بد أن يوفى الله - تعالى - بذلك .

(١) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

قوله : « كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » قد تقدم الكلام على حق العباد على الله في حديث معاذ ، في الباب الأول ، وهو حق أحقه الله - تعالى - على نفسه كما قال - تعالى - : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (١) .
قال الحافظ : « ليس معنى ذلك ، أنه لازم له لأنه لا أمر له ، ولا ناهى يوجب عليه ، ويلزمه المطالبة به ، وإنما معناه إنجاز ما وعد به من الثواب ، وهو لا يخلف الميعاد » (٢) .

قلت : لا يلزم من كونه حقاً واجباً ، أن يكون له أمر وناهى يوجب عليه ذلك بل هو - تعالى - الذى أوجبه على نفسه ، فلا بد من وقوعه ، كما أحب - تعالى - .

قوله : « هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التى ولد فيها » الهجرة في اللغة هى : الترك ، والمفارقة . والمقصود بها هنا : الانتقال ، من بلد الشرك والكفر إلى بلد الإسلام ، وهى واجبة على المسلم إذا خاف الفتنة في دينه ، أو منع من ممارسة شعائر دينه ، وإعلانه ظاهراً .

وتكون الهجرة بالنية والقصد ، وتكون باللسان ، وبالبدن .

قال الراغب : « الهجر ، والهجران : مفارقة الإنسان غيره ، إما بالبدن ، أو باللسان ، أو بالقلب . قال - تعالى - : (واهجروهن في المضاجع) (٣) كناية عن عدم قربهن .

وقال - تعالى - : (إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) (٤) فهذا هجر بالقلب واللسان .

وقوله : (واهجروهم هجراً جميلاً) (٥) يحتمل الثلاثة ، وقوله : (والرجز

(١) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤١٣ .

(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٤) الآية ٣٠ من سورة الفرقان .

(٥) الآية ١٠ من سورة المزمل .

فاهجر (١) حث على المفارقة بالوجوه كلها .

والمهاجرة في الأصل ، مصارمة الغير ، ومتاركنه ، من قوله عز وجل :
 (والذين هاجروا وجاهدوا) (٢) وقوله : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من
 ديارهم وأموالهم) (٣) وقوله : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله) (٤)
 وقوله (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله) (٥) فالظاهر منه
 الخروج من دار الكفر ، إلى دار الإيمان ، كمن هاجر من مكة إلى المدينة » (٦)
 ويدخل في ذلك هجران المعاصي ، والشهوات ، والأخلاق الذميمة ، وجميع
 المعاصي ورفضها واجتنابها .

قال ابن القيم : « وللعبد في كل وقت ، هجرتان إلى الله بالطلب والمحبة ،
 والعبودية والتوكل ، والإنابة ، والتسليم والتفويض ، والخوف والرجاء ، وصدق
 اللجوء . وهجرة إلى رسوله - ﷺ - في حركاته وسكناته ، الظاهرة ، والباطنة
 بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب الله ، ومرضاته ، ولا يقبل الله
 من أحد دنيا سواه » (٧) .

وسبيل الله طاعته ، واتباع أمره ، واجتناب نهيه ، واتباع رسوله - ﷺ -

(١) الآية ٤ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٨ من سورة الحشر .

(٤) الآية ١٠٠ من سورة النساء .

(٥) الآية ٨٩ من سورة النساء .

(٦) المفردات ص ٥٣٦ - ٥٣٧ .

(٧) طريق المهجرتين ص ٧ .

قوله : « أو جلس في أرضه التي ولد فيها » وفي رواية « في بيته » ، والمعنى : أنه بقى في بلده يعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، ولم يهاجر إلى المدينة النبوية ، وذلك أن الهجرة كانت فرضا على كل قادر ، فلما فتحت مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأصبحت جزيرة العرب كلها دار إسلام ، إلا القليل ، نسخت الهجرة لأجل ذلك ، ولكن حكمها باق إلى يوم القيامة .

قال الحافظ : « فيه تأنيس لمن حرم الجهاد ، وأنه ليس محروما من الأجر ، بل له من الإيمان ، والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة ، وإن قصر ، عن درجة المجاهدين » (١) .

قوله : « فقالوا : يارسول الله أفلا تنبئ الناس بذلك ؟ » رأوا أن هذا فيه بشارة للمسلمين ، وتسهيل عظيم عليهم ، في عدم لزوم الهجرة ، فإن ترك الوطن ، والأهل والأقارب ، والمألوفات ، كل ذلك يشق على النفس ، ولا يقوى عليه كل أحد .

قال الحافظ « الذى خاطبه بذلك هو معاذ بن جبل ، كما في رواية الترمذى ، أو أبو الدرداء ، كما وقع عند الطبرانى ، وأصله في النساء ، لكن فيه ، فقلنا » (٢) .

قوله : « إن في الجنة مائة درجة » جاء في رواية الترمذى ، عن معاذ ، « قلت يارسول الله ألا أخبر الناس ؟ قال : « ذر الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة » (٣) .

فظهر أن المراد : لاتبشر الناس ، بما ذكر ، من دخول الجنة ، لمن آمن ، وعمل الأعمال المفروضة عليه ، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد ، وهذه هى النكتة في قوله : « أعدها الله

(١) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

(٢) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

(٣) انظر السنن للترمذى ج ٤ ص ٨٢ .

للمجاهدين» ، وفي هذا تعقب على بعض شراح المصاييح ، في قوله : « سَوَّى النبي - ﷺ - . بين الجهاد في سبيل الله ، وبين عدمه ، وهو الجلوس في الأرض التي ولد فيها ، لأن التسوية ليست على عمومها ، وإنما هي في أصل دخول الجنة ، لا في تفاوت الدرجات » (١)

وهذه الدرجات للمجاهدين في سبيل الله خاصة ، ولا ينفي هذا وجود ، درجات أحر لغير المجاهدين في الجنة ، كما جاء في سنن أبي داود ، والترمذى ، وصححه : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتنق ، ورتل ، كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » (٢) وعدد آيات القرآن ست وثلاثون ، ومائتان ، وستة آلاف على اختلاف في ذلك .

ولهذا قال : « أعدها الله للمجاهدين في سبيله » . قال ابن القيم : « يجوز أن تكون هذه المائة من جملة الدرج . ويجوز أن تكون نهايتها هذه المائة » (٣) ورجح الأول .

« الجهاد : استفراغ الوسع في مدافعة العدو . وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس » (٤) ، وتدخلكلها في الجهاد في سبيل الله ، ويشملها قوله - تعالى - : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) (٥) ونحوها من الآيات .

(١) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

(٢) انظر سنن أبي داود ج ٢ ص ١٥٣ ، والترمذى ج ٤ ص ٢٤٨ ، فضائل القرآن رقم ٢٩١٥ .

(٣) حادى الأرواح ص ٦ .

(٤) المفردات ص ١٠١ .

(٥) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .

وقال الحافظ : « الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة المشقة ، يقال : جهدت جهادا ، بلغت المشقة ، وشرعا : بذل الجهد في قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق .

فأما مجاهدة النفس ، فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان ، فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات .

وأما مجاهدة الكفار ، فتقع باليد ، والمال ، واللسان ، والقلب .

وأما مجاهدة الفساق : فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب » (١)

قوله : « كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض » المقصود بالدرجة المنزلة المعدة لمن يستحقها من أهل الإيمان ، والعمل ، ودرجات الجنة كثيرة ، كما تقدمت الإشارة إليه ، ولا شك أن كل درجة تختلف عن التي دونها بما فيها من أنواع النعيم ، والحسن .

وهذا التفاوت العظيم في الدرجات لتفاوت أعمال العاملين في الإيمان ، والمقاصد ، والخشية والإخلاص ، والمحبة والإنابة ، والجد ، وكثرة العمل وغير ذلك قال الحافظ : « عند الترمذى : ما بين كل درجتين مائة عام ، وللطبراني خمسمائة عام ، فإن كانتا محفوظتين ، كان اختلاف العدد بالنسبة إلى اختلاف السير ، وفي رواية للترمذى : لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم » (٢).

وقال ابن القيم : لاتناقض ، بين تقدير ما بين الدرجتين ، لاختلاف السير في السرعة ، والبطء ، والنبي - ﷺ - . ذكر هذا تقريبا للإفهام » (٣) .

(١) الفتح ج ٦ فاتحته .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢ - ١٣ .

(٣) حادى الأرواح ص ٦١ .

قوله : « فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس » . الفردوس : اسم يطلق على جميع الجنة ويطلق على أفضلها ، وأعلىها كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات .

قال - تعالى - : (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (١)

وقال - تعالى - : (إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) (٢) .

وأصل الفردوس : البستان ، والفراديس : البساتين ، قال الليث : الفردوس : الجنة ذات الكروم ، يقال : كرم مفردس ، أى معرش .

وقال الضحاك : هى الجنة الملتفة بالأشجار ، واختاره المبرد ، وقال : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف ، والأغلب عليه العنب .

وقال مجاهد : هو البستان بالرومية ، واختاره الزجاج ، وقال : حقيقته : البستان الذى يجمع كل مايكون فى البساتين » (٣) .

وفى اللسان : « الفردوس : البستان ؛ قال الفراء هى عربى ، قال ابن سيده : الفردوس الوادى الخصيب عند العرب ، وهو بلسان الروم ، البستان » (٤) وذكر نحو ماتقدم

قوله : « فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة » قال الخافظ : « المراد بالأوسط

(١) الآيتان ١٠ و ١١ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الكهف .

(٣) حادى الأرواح ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤) لسان العرب ج ٢ ص ١٠٦٩ .

هنا : الأعدل والأفضل : كقوله - تعالى - (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) (١)
فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد .

وقال الطيبي : المراد بأحدهما العلو الحسى ، وبالأخذ العلو المعنوى .

وقال ابن حبان : المراد بالأوسط : السعة ، وبالأعلى الفوقية » (٢) .

قلت : الظاهر أن المراد أن الفردوس ، هو وسط الجنة ؛ وهو أعلاها على
ظاهر النص ، يعنى أن الجنان الأخرى عن جوانبه ، ومن تحته ، وهو أعلاها ،
ويدل على ذلك قوله : « وفوقه عرش الرحمن » فليس فوق الفردوس إلا عرش
الرحمن - جل وعلا ، كما يدل عليه أيضا قوله : « ومنه تفجر أنهار الجنة » لأن
الأنهار عادة تنبع من الأعلى ، والله أعلم .

قوله : « وفوقه عرش الرحمن » هذه الجملة هي المقصود ، من سياق
الحديث لأنه يدل على أن أعلى مخلوق هو العرش ، وليس فوق العرش مخلوق ولكن
الرحمن - جل وعلا - فوقه .

قال ابن خزيمة : « فالخبر يصرح أن عرش ربنا - جل وعلا - فوق جنته ،
وقد أعلمنا - عز وجل - أنه مستور على عرشه ، فخالقنا عال فوق عرشه ، الذى
هو فوق جنته » (٣) .

وذكر بسنده ، عن عبد الله بن مسعود : « قال : ما بين كل سماء إلى
الأخرى ، مسيرة خمسمائة عام ، وما بين السماء والأرض ، مسيرة خمسمائة عام ،
وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي ، إلى
الماء ، مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم
أعمالكم » (٤) .

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٢) الفتح ج ٦ ص ١٣ .

(٣) كتاب التوحيد ص ١٠٤ .

(٤) كتاب التوحيد ص ١٠٥ .

وذكر له طرقا عدة ، وهو صحيح ، ورواه البيهقي ، عن أبي ذر ، مرفوعا قريبا من لفظه (١) .

وعلو الله - تعالى - واستواؤه على عرشه ، مجمع عليه بين الصحابة ، والتابعين وأئمة المسلمين ومن تبعهم ، ولم يخالف فيه إلا من هو متهم على الإسلام أو مغرور بالتقليد لمن يحسن به الظن .

« وأول من ابتدع القول بأن الله - تعالى - ليس فوق العرش في الإسلام هو الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وشيعتهما ، وهم عند أئمة المسلمين من شرار أهل الأهواء ، وقد أطلق السلف من القول بتكفيرهم ، مالم يطلقوه على أحد وقالوا : نحكى كلام اليهود ، والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية ، كما قال عبد الله بن المبارك ، وقالوا : اتفق المسلمون ، واليهود ، والنصارى ، على أن الله - تعالى - فوق العرش ، وقالت الجهمية : ليس الله فوق العرش » (٢) .

★ ★ ★

(١) انظر الأسماء والصفات ص ٤٠١ .

(٢) نقض التأسيس ج ١ ص ١٢٧ .

٥٢ - قال : « حدثنا يحيى بن جعفر ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، هو التيمي - عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : « دخلت المسجد ، ورسول الله - ﷺ - جالس ؛ فلما غربت الشمس قال : ياأباذر ، هل تدري أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن في السجود ، فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، ثم قرأ : (ذلك مستقر لها) في قراءة عبد الله » .

* * *

قوله : « أتدري أين تذهب هذه » هذا الأسلوب من التعليم كان النبي - ﷺ - يستعمله مع أصحابه ، وهو من الأساليب التي ترسخ المعلومات في الذهن لأن المستول يبقى بعده يتطلع إلى الجواب ، بإقبال ولطف ، فإذا ورد عليه الجواب وهو بهذه الحال ، ثبت في قلبه ، ورسخ لديه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « ذلك مستقرها » هذا تفسير لقوله - تعالى - : (والشمس تجري لمستقر لها) (١) قال ابن كثير : « فيه قولان : أحدهما أن المراد ، مستقرها المكاني ، وهو تحت العرش مما يلي الأرض ، من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي تحت العرش ، هي وجميع المخلوقات ، لأنه سقفاها ، وليس بكرة ، كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم ، تحملها الملائكة ، وهو فوق العالم ، مما يلي رؤوس الناس . فالشمس إذا كانت في قبة الفلك ، وقت الظهيرة ، تكون أقرب ماتكون إلى العرش ، فإذا استدارت في فلكها الرابع ، إلى مقابلة هذا

(١) الآية ٣٨ من سورة يس .

المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ماتكون من العرش ، فحينئذ تسجد ، وتستأذن في الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث » ثم ذكر هذا الحديث بطرقه ، ثم قال : والقول الثاني : أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتكْوَر ، وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وهذا مستقرها الزماني « (١) .

قوله : « تستأذن في السجود ، فيؤذن لها » أى تطلب من الله الإذن ، في مواصلة سيرها في حالة سجودها ، فيأذن الله - تعالى - لها ، إلى الوقت الذى تستأذن ثم لا يؤذن لها ، فتبقى في مكانها ، ثم يقال لها : ارجعى من حيث جئت ، فينعكس سيرها ، حيث تطلع على الناس من المغرب ، ولابد أن تطلع على كل الناس من مغربها ، وعند ذلك يؤمنون ، ولكن لا ينفعهم إيمانهم كما أخبر الله - تعالى - بذلك ، وهذا إيذان بانقضاء هذه الدار .

قال الكرمانى : « القراءة المشهورة المتواترة هي : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وقراءة عبد الله بن مسعود : ذلك مستقرها » (٢) هكذا قال ، والذي في البخارى ، مستقر لها ، ولم يقرأ بها أحد من القراء . قال ابن كثير : « قرأ ابن مسعود ، وابن عباس : (والشمس تجرى لامستقر لها) أى لا قرار لها ، ولا سكون ، بل هى سائرة ليلاً ونهاراً ، لاتفتقر ، ولاتقف » (٣) .

فعلى هذا يكون لابن مسعود فيها قراءتان ، وافقه ابن عباس على إحداها وهما شاذتان .

وقد ذكر البخارى - رحمه الله - هذا الحديث في بدء الخلق ، وفيه « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش » .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

(٢) الكرمانى ج ٢٥ ص ٦٣٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٣ .

وسياتى فى آخر الباب بعد هذا ، وفيه ، « قال مستقرها تحت العرش » ، وذكر أيضا هذين اللفظين فى تفسير سورة يس ، وبذلك تظهر مناسبة الحديث للباب فذكره لأجل ما فيه من قوله : « تذهب حتى تسجد تحت العرش » ، وقوله : « مستقرها تحت العرش » فى غير هذه الرواية هنا .

قال الحافظ : « وأخرجه النسائى بلفظ : « تذهب حتى تنتهى تحت العرش ، عند ربه » (١) وهو واضح فى أن سجودها فى أرفع ماتكون ، وأقرب ماتكون إلى العرش . ومعلوم أنها دائم تحت العرش ، ولكن سجودها فى مكان معين من مسيرها وهو دليل واضح على علو العرش ، وارتفاعه العظيم ، وهذا هو مراد البخارى رحمه الله من الحديث ، ومعلوم أن الله - تعالى - فوق العرش كما سبق .

قال الحافظ : « قوله : تحت العرش » قيل : معناه هى حين محاذاتها ، ولا يخالف هذا قوله تعالى : (وجدها تغرب فى عين حمئة) (٢) فإن المراد بها نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب ، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب . قال - وفى الحديث رد على من زعم أن المراد بمسقرها غاية ماتنتهى إليه فى الارتفاع وذلك أطول يوم فى السنة .

وقيل : مسقرها : منتهى أمرها ، عند انتهاء الدنيا .

وقال الخطابى : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش ، أنها تستقر تحته ، استقرارا لا تحيط به نحن ، وليس فى سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق سيرها ودورانها فيه .

قلت : وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه فى كل ليلة ويوم عند سجودها ، ومقابل الاستقرار ، المسير المعبر عنه بالجرى « انتهى » (٣) .

(١) الفتح ج ٨ ص ٥٤١ .

(٢) الآية ٨٦ من سورة الكهف .

(٣) الفتح ملخصا ج ٨ ص ٥٤٢ .

وقال أيضا : « وظاهر الحديث أن الشمس هي التي تسير ، وتجرى .

وقال ابن العربي : أنكر قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأوله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم ، ولأمانع من أن تخرج عن مجراها ، فتسجد ثم ترجع .

قلت : إن أراد بالخروج ، الوقوف فواضح ، وإلا فلا دليل على الخروج «

ا هـ (١)

قلت : وكونها تسجد تحت العرش ، لا يقتضى ، مفارقتها لفلكها وانتظامها في مسيرها بالنسبة للأرض ، فهي دائمة الطلوع على جزء من الأرض ، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض تختلف بمقدار سيرها .

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما يترتب على مسيرها ، فربما يقول قائل أين سجودها تحت العرش ؟ ومتى يكون ؟ وسيرها مستمر ، وبعدها عن الأرض لا يختلف في وقت من الأوقات ، كما أن سيرها لا يتغير كما هو مشاهد .

والجواب : أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، كما أخبر به الصادق المصدوق ، وهي طالعة على جانب من الأرض ، مع سيرها في فلكها ، وهي دائما تحت العرش ، في الليل والنهار ، بل وكل شيء من المخلوقات تحت العرش ، ولكنها في وقت من سيرها ، وفي مكان معين ، يحصل سجودها ، الذى لا يدركه الخلق ، ولكن علم بالوحى ، وهو سجود حقيقى ، يناسبها على ظاهر النص .

أما التسخير : فهي لا تنفك عنه أبدا . والله أعلم .

قال شيخ الإسلام : « فإذا كان النبي - ﷺ - قد أخبر أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، فقد علم اختلاف حالها بالليل والنهار ، مع كون سيرها في

فلكها من جنس واحد ، وأن كونها تحت العرش لا يختلف في نفسه ، وإنما ذلك اختلاف بالنسبة والإضافة ، علم أن تنوع النسب ، والإضافة لا يقدر فيما هو ثابت في نفسه لاختلاف ^(١) .

يعنى أن اختلاف السير يكون بالنسبة لمن في الأرض ، فهى تطلع على جانب منها وتغرب عن جانب آخر ، مع أن سيرها في فلکها ليس فيه هذا الاختلاف ، فلا يختلف سجودها باختلاف الليل والنهار ، لأن هذا الاختلاف يكون بالنسبة إلى من في الأرض ، وبالإضافة إليهم ، أماهى فسجودها في مكان معين من سيرها ، وفي وقت معين لا يختلف .

ثم قال رحمه الله - : « ومن هنا يظهر الجواب عما ذكره ابن حزم ، وغيره في حديث النزول ^(٢) ، حيث قالوا : قد ثبت أن الليل يختلف بالنسبة إلى الناس ، فيكون أوله ونصفه ، وثلثه بالشرق قبل أوله ، ونصفه ، وثلثه بالمغرب ، قالوا : فلو كان النزول هو النزول المعروف ، للزم أن ينزل في جميع أجزاء الليل ، إذ لا يزال في الأرض ليل ، قالوا : أو لا يزال نازلا ، وصاعدا ، وهو جمع بين الضدين .

وهذا إنما قالوه لتخليهم من نزوله - تعالى - مايتخيلونه من نزول أحدهم ، وهذا عين التمثيل ، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم ، الذى لا يمكنه أن يجمع من الأفعال مايعجز غيره عن جمعه .

وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة ، كل منهم يراه مخليا به ، ويناجيه ، لا يرى أنه متخليا لغيره ، ولا مخاطبا لغيره ^(٣) .

وسأأتى إن شاء الله - تعالى - إيضاح الرد على شبههم هذه وغيرها في

(١) بيان تلبيس الجهمية ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) سأتى شرحه إن شاء الله تعالى ، وهذا الكلام محله شرح حديث النزول ، ولكن لشدة ارتباطه بما ذكر في سير الشمس أحببت إثباته هنا .

(٣) بيان تلبيس الجهمية ج ٢ ص ٢٢٨ .

شرح الحديث . وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر - رضى الله عنه - « قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن قول الله - تعالى - : « والشمس تجري لمستقر لها » ؟ قال : « مستقرها تحت العرش » (١)

وهذا يعين المقصود بالمستقر ، وأنه الموضع الذى تسجد فيه لربها ، وتستأذن بمواصلة سيرها ، وأن هذا يكون كل ليلة بالنسبة إلينا ، ويجوز أن يكون بالنهار بالنسبة لغيرنا كأمریکا مثلاً .

وقد روى مسلم هذا الحديث مبسوطاً مبيناً حيث قال : بعد ذكر السند « عن أبي ذر - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال يوماً : « أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى . ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة ، من مطلعها ، ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، ولا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهى إلى مستقرها ، تحت العرش ، فيقال لها : ارتفعى ، أصبحت طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها . فقال رسول الله ﷺ - : « أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » (٢) .

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أن الشمس والقمر يسجدان له تعالى فقال : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر » (٣)

★ ★ ★

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩ .

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٨ ، وانظر شرح النووى ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

٥٣ - قال : « حدثنا موسى ، عن إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب ، عن عبيد الله بن السباق ، أن زيد بن ثابت .

وقال الليث : حدثني عبد الرحمن بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن ابن السباق ، أن زيد بن ثابت حدثه ، قال : أرسل إلى أبو بكر ، ففتبعت القرآن ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره . (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) (١) حتى خاتمة براءة » .

* * *

زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوزان ، النجاري ، الأنصاري ، أبو سعيد ، ويقال أبو خارجة ، قدم النبي - ﷺ - المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وكان يكتب الوحي ، قال الشعبي : غلب زيد الناس على اثنتين ، الفرائض ، والقرآن . وكان أحد أصحاب الفتوى من الصحابة .

وقال مسروق : قدمت المدينة ، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم . وفضائله كثيرة ، توفي سنة ٤٨ وقيل ٥١ ، وقيل ٥٥ وقيل غير ذلك » (٢)

ومقصود البخاري - رحمه الله - من هذا الحديث . هو ذكر العرش في الآية الكريمة حيث قال تعالى : (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) (٣) .

(١) الآية ١٢٨ من سورة براءة .

(٢) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣٩٩ .

(٣) آخر آية من سورة براءة .

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله تعالى - : « يقول - تعالى ذكره - : فإن تولى ، يا محمد ، هؤلاء الذين جئتكم بالحق ، من عند ربك ، من قومك ، فأدبروا عنك ، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله ، ومادعوتهم إليه ، من النور والهدى ، فقل حسبى الله ، يكفينى ربي ، لا إله إلا هو » لامعبود ، سواء « عليه توكلت » وبه وثقت ، وعلى عونه اتكلت وإليه وإلى نصره استندت ، فإنه ناصرى ، ومعينى ، على من خالفنى ، وتولى عنى منكم ومن غيركم من الناس ، « وهو رب العرش العظيم » الذى يملك ما دونه ، والملوك كلهم مماليكه ، وعبيده .

وإنما عنى بوصفه - جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم - الخبر عن جميع مادونه أنهم عبيده ، وفى ملكه ، وسلطانه ، لأن العرش العظيم إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه المالك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه فى سلطانه ، وملكه ، جار عليه حكمه وقضاؤه « (١) .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شئ ، وخالقه ، لأن العرش العظيم ، الذى هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السماوات والأرضين ، وما فيهما وما بينهما ، تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شئ ، وقدره نافذ فى كل شئ ، وهو على كل شئ وكيل « (٢) .

وثبت عن أنى بن كعب - رضى الله عنه - أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن (٣)

وقد تقدم أن تخصيصه - تعالى - العرش بأنه ربه ، وإضافته إليه - تعالى - يدل على أمر زائد على ما فى المخلوقات غيره ، من السماوات والأرض بأنه ربه .

(١) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٧٧ - ٧٨ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ ط الشعب .

(٣) انظر المصدرين المذكورين هنا .

وكذلك وصفه إياه بأنه عظيم وكريم ، ومجيد ، وهذه الأوصاف ، والإضافة لم تأت في غير العرش من المخلوقات ، وهذا لأنه تعالى اختاره لقربه ، واستوائه عليه .

قوله : « حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أى خزيمية الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره » يعنى أنه ماوجدها مكتوبة ، مثبتة بالكتابة ، إلا عند أى خزيمية .

وليس معنى ذلك أنه لم يحفظها إلا أى خزيمية ، فإن زيدا وأبياً ، وأبا بكر ، وغيرهم من الصحابة كانوا يحفظون القرآن كله ، وهو يريد من كتبها عن الرسول ﷺ بدون واسطة .

قال الحافظ : « قوله : لم أجدها مع أحد غيره » أى مكتوبة ، لما تقدم من أنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة .

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبى - ﷺ - وإنما زيد كان يطلب الثبوت عن تلقاها بغير واسطة .

ولعلمهم لما وجدها زيد عند أى خزيمية تذكروها ، كما تذكرها زيد ، وفائدة التتبع المبالغة فى الاستظهار ، والوقوف عند ماكتب بين يدى النبى ﷺ .

قال الخطائى : هذا مما يخفى معناه ، ويوهم أنه كان يكتفى فى إثبات الآية بخبر الشخص الواحد ، وليس كذلك ، فقد اجتمع فى هذه الآية زيد بن ثابت ، وأبو خزيمية ، وعمر .

ثم علق الحافظ على كلام الخطائى بقوله :

« وكأنه ظن أن قولهم : لا يثبت القرآن بخبر الواحد ، أى الشخص الواحد ، وليس كما ظن ، بل المراد بخبر الواحد ، خلاف التواتر ، فلو بلغت رواية

الخبر عددا كثيرا وفقد شيئا من شروط المتواتر (١) ، لم يخرج عن كونه خبرا لواحد .

والحق أن المراد بالنفى ، نفي وجودها مكتوبة ، لانفى كونها محفوظة » (٢) ثم ذكر أحاديث تؤيد ما قال .

وقال في موضع آخر : « والذي يظهر أن الذى أشار إليه أنه فقده ، فقد وجودها مكتوبة ، لافقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده ، وعند غيره ، ويدل على هذا قوله : في حديث جمع القرآن « فأخذت أتتبعه ، من الرقاع والعسب » (٣)

وقال أيضا : « والأرجح أن الذى وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمه بالكنية والذى وجد معه الآية من سورة الأحزاب خزيمه ، وأبو خزيمه ، قيل : هو ابن أوس بن يزيد بن أحرم ، مشهور بكنيته ، دون اسمه ، وقيل : هو الحارث بن خزيمه ، وأما خزيمه ، فهو ابن ثابت ذو الشهادتين » (٤) .

(١) من كون الناقلين عددا كثيرا ، يمتنع تواطعهم على الكذب ، من أول السند إلى نهايته .

(٢) فتح البارى ج ٩ ص ١٥ .

(٣) الفتح ٨ ص ٥١٨ .

(٤) الفتح ج ٩ ص ١٥ .

٥٤ - قال : « حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا وهيب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس - رضی الله عنهما - قال : كان النبی - ﷺ - يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العليم الخليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ، ورب الأرض ، ورب العرش الكريم » .

* * *

قوله : « يقول عند الكرب » الكرب بفتح الكاف ، وسكون الراء ، قال الأزهرى : « هو الغم الذى يأخذ بالنفس ، يقال كربه الغم ، وإنه لمكروب النفس ، والكربة الاسم ، والكريب : المكروب » (١) .

وقال الجوهري : « الكربة بالضم : الغم الذى يأخذ بالنفس ، وكذلك الكرب ، على مثال الضرب ، تقول منه : كربه الغم ، إذا اشتد عليه ، والكرائب ، الشدائد الواحدة كربية » (٢) .

قوله : « كان يقول عند الكرب » كان ، تدل على كثرة وقوع ذلك منه ﷺ - لأن لفظه « كان » تدل على الاستمرار غالبا .

وقوله : « لا إله إلا الله » الإله هو المعبود الذى تأله القلوب ، وتذل له وتحيه ، وتعظمه وتخافه ، وترجوه ، فالإله هو الذى يقصد بالخوف ، والرجاء ، مع الذل والتعظيم ، وكلما زاد الخوف والرجاء ، والذل ، والتعظيم ، صارت العبادة أكمل .

(١) تهذيب اللغة ج ١٠ ص ٢٠٥ .

(٢) الصحاح ج ١ ص ٢١١ .

قال شيخ الإسلام : « الإله هو الذى يؤله ، فيعبد ، محبة وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما » (١)

فقوله : « لا إله إلا الله » أى لا أتوجه بقلبي عابدا وخاضعا ، متذلا ، خائفا راجيا إلا إلى الله وحده ، فهو إلهى ، ومعبودى ، الذى يملك نفعى ، وضرى ، وبإخلاص التأله له كمال حياتى ، وسعادتى ، وفى عدم ذلك الشقاء والهلاك .

« فالعبد كلما كان أذل لله ، وأعظم افتقاراً إليه ، وخضوعاً له ، كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره عنده ، فأساعد الخلق أعظمهم عبودية لله تعالى . فأما المخلوق فكما قيل : احتج لمن شئت تكن أسيره ، واستغن عن من شئت تكن نظيره ، وأحسن لمن شئت تكن أميره .

فأعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم ولو بشرية ماء ، نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ، ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، لا يشرك به شئ . والرب تعالى أكرم ماتكون عليه أحوج ماتكون إليه ، وأفقر ماتكون إليه وهو - تعالى - يعلم ما يصلح عبده ، ويقدر على ذلك ، ويريد ، رحمة منه وفضلا ، وذلك صفته من جهة نفسه ، لاشئ آخر جعله مريدا ، راحما ، بل رحمته من لوازم نفسه ، فإنه كتب على نفسه الرحمة ، ورحمته وسعت كل شئ » (٢)

قوله : « العليم الخليم » أى هو تعالى العليم بكل شئ ، فيعلم حالى وما نزل به ، ويعلم أسبابه ، وما يترتب عليه ، لا يخفى عليه خافية ، فعلمه محيط بكل شئ .

(١) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٢٢ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٣٩ - ٤٠ .

وهو تعالى حلیم لا یعجل بالعقوبة ، لمن يستحقها ، بل يعفو ، ويتجاوز ، وحلمه عن علم وحكمة ، فله تعالى الكمال المطلق ، قال تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذأ لابتغوا إلى ذی العرش سبیلا ، سبحانه وتعالى عما یقولون علوا کبیرا ، تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فیهن ، وإن من شیء إلا یسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبیحهم إنه كان حلیمًا غفورًا) (١) وكثیراً ما یأتی وصفه - تعالى - بالحلم مقرونا بالمغفرة ، مما یدل علی أن الحلم هو عدم المعاجلة لمن استحق العقوبة ، وأنه تعالى یحلم علی عباده ، ویغفر لهم جرائمهم ، ولهذا أخبر - تعالى - أنه لو یؤاخذ الناس بظلمهم ، وما کسبت أیدیهم ماترك علی ظهر الأرض من دابة ، قال تعالى : (ولو یؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك علیها من دابة) (٢) .

قوله : « لا إله إلا الله رب العرش العظيم » کرر التوسل بإیهتیه تعالى ، والتبریء من کل ماسواه من مألوه ، وهذا أعظم الوسائل إلى الله - تعالى - ، وهو إخلاص العبادة والتوجه إلى الله بصدق ، ورغبة ، ورهبة .

ولهذا صار إخلاص التأله والدعاء لله وحده ، مفرع جمیع العقلاء من المؤمنین والکفار ، فی کل کرب وشدة ، كما ذکر الله تعالى هذا المعنى عن السابقین من الکفار ، وغيرهم من أهل الإیمان .

قال تعالى : (قل من ینجیکم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاکرین ، قل الله ینجیکم منها ومن کل

الآیات من ٤٢ - ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .

كرب ثم أنتم تشركون (١) وقال تعالى عن الطاغية الجبار : (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) (٢)

وقال تعالى : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه) (٣) ، وقال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) (٤) وهذا كثير فى القرآن ، وقد تقدمت الإشارة إلى شىء من ذلك .

قوله : « لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم » هذا تكرير للتوسل إلى الله تعالى بألوهيته وربوبيته ، فبدأ بما يدل على إخلاص التأله له تعالى ، ثم توسل باسميه الكريمين العليم والحليم ، ثم بأنه رب العرش العظيم ، ثم بأنه رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم .

فاشتمل هذا الدعاء العظيم على التوجه إلى الله تعالى بأنواع التوحيد الثلاثة ، توحيد الإلهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

والربوبية نوعان : عامة ، وخاصة ، فهو تعالى رب كل شىء ومليكه ، المتصرف فيه كيف يشاء ، وهو القائم على كل مخلوق بما يصلحه ، ويربيه ، « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . وقد جمع النوعين فى هذا الحديث ، فتوسل بأنه رب العرش العظيم ، الكريم وبأنه رب السماوات والأرض ، والرب هو المالك المتصرف ، القائم على كل مربوب بما يحتاجه من تربية فى شئون حياته كلها .

والمقصود من الحديث قوله : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش

(١) الآيتان ٦٣ و ٦٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس .

(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

الكريم» وكلاهما وصف للعرش، وصفه بأنه عظيم، وبأنه كريم، والعظمة تدل على الكبر. والسعة، والكرم يدل على الحسن، والجمال، والسعة أيضا.

قال الكرمانى: « وصف العرش بالعظمة، هو من جهة الكمية، وبالكرم أى الحسن من جهة الكيفية، فهو ممدوح ذاتاً وصفة، وخص بالذكر لأنه أعظم أجسام العالم، فيدخل الجميع تحته، دخول الأذى، تحت الأعلى، وذكر لفظ الرب من بين سائر الأسماء الحسنى ليناسب كشف الكروب، الذى هو مقتضى التربية، ولفظ « الحليم » لأن كرب المؤمن غالباً إنما هو على نوع تقصير أو غفلة فى الطاعات » (١)

وربوبيته تعالى للعرش، مع وصفه بأنه عظيم، وكريم تفيد تخصيصاً له عن غيره من السماوات والأرض، وذلك لأنه قد خصه بقربه، واستوائه تعالى عليه ذكر شيخ الإسلام، عن أبى عمرو الظلمنكى - وهو من أئمة أهل السنة - أنه قال: « وأجمعوا - يعنى أهل السنة والجماعة - على أن لله عرشاً، وعلى أنه مستوٍ على عرشه، وعلمه، وقدرته، وتدييره بكل ما خلقه .

قال: فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) (٢) ونحو ذلك فى القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ على عرشه، كيف شاء .

قال: وقال أهل السنة فى قوله: (الرحمن على العرش استوى) (٣): الاستواء من الله تعالى على عرشه المجيد، على الحقيقة، لا على المجاز. واستدلوا بقول الله - تعالى - (فإذا استويت أنت ومن معك على

(١) شرح الكرمانى على البخارى ج ٢١ ص ١٤٩ .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

الفلك) (١) ويقولوه (لتستووا على ظهوره) (٢) ، ويقولوه : (واستوت :بلى الجودى) (٣) إلا أن المتكلمين من أهل الإثبات فى هذا على أقوال .

فقال مالك - رحمه الله تعالى - : إن الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال عبد الله بن المبارك ، ومن تابعه من أهل العلم ، وهم كثير : إن معنى استوى على العرش : استقر ، وهو قول القتيبي .

وقال غير هؤلاء : استوى : أى ظهر .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : استوى بمعنى علا .

وتقول العرب : استويت على ظهر الفرس ، بمعنى علوت عليه ، واستويت على سقف البيت ، بمعنى علوت عليه .

ويقال : استويت على السطح بمعناه .

فقلوه تعالى : (استوى على العرش) بمعنى علا على العرش .

وقول الحسن (٤) وقول مالك من أنبل جواب وقع ، فى هذه المسألا ، وأشده استيعاباً لأن فيه نيد التكييف ، وإثبات الاستواء المعقول ، وقد ائتم أمل العلم بقوله واستجوده ، واستحسنوه « (٥) .

ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى ، وقد مضى ما يبنى عن ذكره .

(١) الآية ٢٨ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٤) الحسن يقول معنى استوى : ارتفع .

(٥) إلى هنا ينتهى كلام الظلمكى .

ثم قال : « وقال الثعلبي : قال الكلبي ، ومقاتل : « ثم استوى على العرش » يعني استقر ، قال : وقال أبو عبيدة : صعد .

وقيل استولى ، وقيل ملك ، واختار هو (١) ماحكاه عن الفراء ، وجماعة أن معناه أقبل ، على خلق العرش ، وعمد إلى خلقه ، قال : ويدل عليه قوله : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) (٢) أى عمد إلى خلق السماء .

وهذا من أضعف الوجوه (٣) فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات ، والأرض ، وكما مر في حديث عمران : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السماوات ، والأرض » .

فإذا كان العرش مخلوقا ، قبل خلق السماوات والأرض ، فكيف يكون معنى استوائه عليه ، بعد خلق السماوات والأرض ، هو عمدته إلى خلقه ، مع أنه لا يعرف في اللغة « استوى » بمعنى عمد إلى فعل كذا ، لاحقيقة ، ولا مجازا ، لا في النثر ، ولا في النظم .

ومن قال : استوى ، بمعنى عمد ، ذكره في قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) (٢) لأنه عدى بحرف الغاية ، كما يقال : عمدت إلى كذا ، وقصدت إلى كذا ، ولا يقال : عمدت على كذا ، ولا قصدت عليه ، مع أن هذا أيضا غير معروف في اللغة ، ولا هو قول أحد من مفسري السلف ، بل المفسرون من السلف ، بخلاف ذلك .

(١) يعنى الثعلبي وهذه الأقوال منقولة من تفسيره ، وهو يجمع فيه بين المتناقضات وليس لديه تمييز لمذهب السلف .

(٢) الآية ١١ من سورة حم فصلت .

(٣) بل هو باطل مخالف للنصوص الواضحة ، وقد تقدم بيان بطلانه . وهذا الذى اختاره الثعلبي هو قول الجهمية والمعتزلة ، ومن تبعهم من الأشعرية وغيرهم من أهل البدع .

وإنما هذا القول ، وأمثاله ابتدع في الإسلام ، لما ظهر إنكار أفعال الرب تعالى - التي تقوم به ، ويفعلها بقدرته ، ومشيئته ، واختياره ، فصار كل يفسر القرآن على ما يوافق قوله ، واعتقاده .

وأما السلف فأقوالهم في هذا الباب متفقة ، وإن اختلفت عباراتهم ، فمقصودهم واحد ، وهو إثبات علو الله واستواؤه على عرشه .

فإن قيل : إذا كان الله لا يزال عاليا على المخلوقات ، فكيف يقال : ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان ؟ أو يقال : ثم علا على العرش ؟ .

فالجواب : أن هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد ، وروى : ثم يعرج وكما أخبر أنه يجيء لفصل القضاء بين عباده ، وهو سبحانه لم يزل فوق ، فإن صعبه من جنس نزوله ، ومجيئه ، وهو تعالى في نزوله ومجيئه ، لا يصير شيء من المخلوقات فوقه ، فهو سبحانه يصعد ، وإن لم يكن منها شيء فوقه .

فإن قيل : فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، فقبل ذلك هل كان على العرش ، أو لم يكن ؟

قيل : الاستواء علو خاص ، فكل مستو على شيء عال عليه ، وليس كل عال على شيء مستو عليه ، ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره أنه مستو عليه . ولكن كل ما قيل : إنه استوى على كذا فهو عال عليه .

والذي أخبر الله - تعالى - أنه كان بعد خلق السماوات والأرض ، الاستواء ، لا مطلق العلو ، مع أنه يجوز أنه كان مستويا عليه قبل خلق السماوات والأرض ، لما كان عرشه على الماء ، ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا على العرش ، ولم يكن مستويا عليه ، ثم استوى عليه بعد ذلك (١) .

والأصل أن علوه على المخلوقات ، وصف لازم له كما أن عظمته ، وكبريائه

(١) أو يقال إن الاستواء بعد خلق السماوات والأرض ، استواء خاص غير الذي

وقدرته كذلك ، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه بمشيئته ، وقدرته ولهذا قال فيه : ثم استوى « (١) .

وقال ابن عبد البر : « وأما ادعائهم المجاز في الاستواء ، وقولهم في تأويل استوى : استولى .

فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر في اللغة ، ومعنى الاستيلاء في اللغة : المغالبة ، والله لا يغالبه ، ولا يعلوه أحد ، وهو الواحد الصمد .

ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله - عز وجل - إلى الأشهر ، والأظهر من وجوهه ، مالم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم .

ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ، ما ثبت شيء من العبارات ، وجل الله عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها ، وهو العلو ، والارتفاع ، على الشيء ، والاستقرار واتمكن فيه « (٢) .

وقد تقدم ذكر بعض ما قاله السلف والأئمة في ذلك ، في أول الباب ، والجواب عما اعتمده أهل التأويل .

★ ★ ★

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥١٩ - ٥٢٣ ببعض التصرف .

(٢) التمهيد ج ٧ ص ١٣١ .

٥٥ - قال : « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وآله - قال النبى : « يصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة ، من قوائم العرش » .

★ ★ ★

٥٦ - « وقال الماجشون : عن عبد الله بن الفضل ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى - صلى الله عليه وآله - قال : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش »

* * *

« الصعق : غشى يلحق من يسمع صوتا شديدا أو يرى شيئا هائلا مفرعا » (١) وفي الأبي : « الصعق ، والصعقة ، والصاعقة ، والهلاك ، والموت ، وقيل : كل عذاب مهلك ، وهو أيضا : الغشية تعترى من فرع لسماع صوت [مفرع أو رأى مهولا] » (٢) وقد اختلف في هذا الصعق المذكور في هذا الحديث ، أهو نفخة الصور للبعث ، أو غيرها .

فقيل : إنها نفخة البعث ، لأن النفخة الأولى ، لا يحس بها الأموات ، وإنما هى لموت من كان حيا ، وإنهاء الدنيا ، وابتداء الآخرة .

ولكن يشكل على هذا قوله - صلى الله عليه وآله - « فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلى ، أم جوزى بصعقة الطور » ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات ، فلا يجوز أن يكون المعنى : « فلا أدري هل موسى مات ، أم جوزى عن الموت بصعقة الطور » . وقد اختلف في النفخ في الصور هل هو مرتان أو ثلاث .

(١) الفتح ج ٦ ص ٤٤٤ .

(٢) شرح الأبي على مسلم ج ٦ ص ١٦٧ .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى : (وله الملك يوم ينفخ في الصور) (١) :

اختلف في الصور في هذا الموضع .

فقال بعضهم : هو قرن ينفخ فيه نفختان ، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض ، والثانية لنشر كل ميت ، واعتلوا لقولهم ذلك ، بقوله : (ونفخ في الصور ، فصعق من في السماوات ، ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون) (٢) (٣)

وقال على قوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) (٤)

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله : (فإذا نفخ في الصور) من النفختين ، أيهما عنى بها ؟ فقال بعضهم : « عنى بها النفخة الأولى » . ثم ذكر عن ابن عباس : قال : فذلك في النفخة الأولى ، فلا يبقى على الأرض شيء وروى ذلك أيضا عن السدى .

ثم ذكر القول الثاني : أن المراد بذلك النفخة الثانية ، وروى ذلك عن ابن مسعود وغيره « (٥)

وهذا الذى ذكره الطبرى - رحمه الله - يدل على أن النفخ في الصور مرتين . الأولى لموت من كان حياً على وجه الأرض ، والثانية ، لبعث الموتى . وعليه يكون الإشكال في الحديث ظاهراً ، وسيأتى ذكر ألفاظ الحديث في البخارى ومسلم .

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر .

(٣) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٤٦٢ بتحقيق محمود شاكر .

(٤) الآية ١٠١ من سورة المؤمنون .

(٥) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٥٤ ط الحلبي .

وقد أجاب القرطبي عن الإشكال بقوله : « المعنى فلا أدري أبعثه الله قبله ؟ تفضيلاً له ، من هذا الوجه ، كما فضل بالدنيا بالتكليم أو كان جزءاً له بصعقة الطور قدم بعثه على بعث الأنبياء ، الآخرين ، بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل » (١)

فعلى هذا يكون المعنى في قوله : « أو جوزى بصعقة الطور » أى قدم بعثه على جزء له بما حصل من صعقته في الطور ، وهذا غير صحيح لأمر عدة .
 منها أن الحديث على هذا يصبح فيه تكرار لا معنى له ، إذ يكون المعنى على قول القرطبي « فلا أدري أبعث قبل ؟ أم جوزى ببعثه قبل بصعقة الطور » .
 ومنها أن ظاهر الحديث يرد هذا ، لأن قوله : « فلا أدري أبعث قبل ؟ أم جوزى بصعقة الطور ؟ » ظاهره ، فلا أدري أصعق فبعث قبلي أم أنه لم يصعق ، وإنما جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، ولهذا لم يقتنع القرطبي بهذا الجواب فذكر جواباً آخر سيأتي ثم قال :

« وقال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبي - ﷺ - يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية ، نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولهذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى - عليه السلام - ممن لم يميت من الأنبياء ، وهذا باطل بما صح من النصوص بذكر موته .

قال : وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع ، بعد النشر حين تنشق السماوات والأرض ، قال : فتستقل الأحاديث والآيات ، والله أعلم .

ثم قال : قال شيخنا أبو العباس : وهذا يرده ما جاء في الحديث أنه عليه

(١) التذكرة ج ١ ص ٢٠٨ ، وهو أخذ هذا عن الحلبي كما في المنهاج ، انظر الورقة ٢١٤ من المخطوطة وانظر المطبوع ج ١ ص ٤٣٢ .

السلام حين يخرج من قبره يلقي موسى ، وهو متعلق بالعرش ، وهذا عند نفخة البعث .

قلت : وسيأتي ما يوضح ذلك في روايات الحديث التي أذكرها إن شاء الله .

ثم قال : « قال شيخنا أحمد بن عمر : والذي يزيح هذا الإشكال ، إن شاء الله - تعالى - أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال ، إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم ، أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ، مستبشرين . وهذه صفة الأحياء في الدنيا .

وإذا كان هذا في الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق ، وأولى ، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق ، صعق كل من في السماوات ، والأرض ، إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء ، فموت ، وأما صعق الأنبياء ، فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور ، نفخة البعث ، فمن مات ، حيا ، ومن غشى عليه أفاق » (١)

قلت : وحاصل هذا الجواب ، أن الصعقة المذكورة في الحديث هي الأولى ، وأن الصعق يكون للأرواح ، وكل ذلك باطل ، لأنه سيأتي أن الحديث ينص على أنها نفخة البعث ، ومعلوم أن الأرواح لاتموت ، فكيف يكون صعق غير الأنبياء موت مع أنه زعم أن الصعق للأرواح ، وكل ذلك يفتقر إلى دليل ، والأدلة خلافه .

ولهذا قال ابن القيم : « وحمل الحديث على هذا ، لا يصح ، لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله ، أو لم يصعق ، بل جوزى بصعقة الطور . فالعنى : لا أدري أصعق أم لم يصعق .

وقد قال في الحديث : « فأكون أول من يفيق » . وهذا يدل على أنه - ﷺ - يصعق فيمن يصعق ، وأن التردد حصل في موسى ، هل صعق وأفاق قبله من صعقته ، أو لم يصعق .

(١) التذكرة ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

ولو كان المراد به ، الصعقة الأولى ، وهي صعقة الموت ، لكان ﷺ قد جزم بموته ، وتردده هل مات موسى ، أو لم يموت ، وهذا باطل ، لوجوه كثيرة . فعلم أنها صعقة فرع ، لاصعقة موت ، والآية لاتدل على أن الأرواح كلها تموت ، عند النفخة الأولى ، وإنما تدل على أن من لم يذق الموت قبلها يموت ، وأما من مات ، أو من لم يكتب عليه الموت ، فلا يموت ^(١) .

وقال السفاريني : « وصعق الأرواح عند النفخ في الصور ، لا يلزم منه موتها . ففي الصحيحين : « أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أم جوزى بصعقة يوم الطور » ؟

فهذا صعق في موقف القيامة ، إذ جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ ، يصعق الخلائق كلهم ، قال تعالى : (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) ^(٢) .

ولو كان هذا الصعق موتا ، لكانت موتة أخرى ^(٣) ثم ذكر كلام ابن القيم السابق . وقال ابن القيم بعد ماقرر أن هذا الصعق المذكور ، إنما هو في الموقف ، إذا جاء رب العالمين - جل وعلا - لفصل القضاء بين عباده .

قال : « فإن قيل : فكيف تصنعون بقوله في الحديث : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش » ؟ قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوى ، حديث في حديث ، فركب بين اللفظين ، فجاء هكذا والحديثان هكذا أحدهما :

(١) الروح ص ٣٦ .

(٢) الآية ٤٥ من سورة الطور .

(٣) لواعع الأنوار البهية ج ٢ ص ٣٨ .

« أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق »

والثانى : « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، يوم القيامة » . فدخل على الراوى هذا الحديث ، فى الحديث الآخر ، وكان شيخنا أبو الحجاج المزى يقول : ذلك « (١)

قلت : وهذا احتمال بعيد جداً . ويحتاج إلى دليل ، ولا وجود له إذ لا يجوز تخطئة الراوى بمجرد إشكال يعرض للإنسان فى لفظ الحديث ، فما قال ابن القيم رحمه الله هنا غير صحيح ، وسيتبين ذلك عند ذكر روايات الحديث .

فلفظ حديث أبى سعيد فى البخارى : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى ، آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى ، أكان فىمن صعق ؟ أم حوسب بصعقة الأولى » (٢) ثم رواه فى أماكن متعددة من صحيحه بألفاظ متقاربة ، ليس فيها فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، إلا فى هذا الموضع .

ولكن فى رواية أبى هريرة : أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تفضلوا بين أولياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور ، أم بعث قبلى » (٣)

قال الحافظ : « وقع فى رواية إبنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية » وفى أخرى « إبنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة » (٤)

ورواه فى التفسير بسند آخر ، مختصراً ، ولفظه : « إبنى أول من يرفع

(١) الروح ص ٣٧ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح ج ٥ ص ٧٠ .

(٣) انظر الفتح ج ٦ ص ٤٥١ .

(٤) الفتح ج ٦ ص ٤٤٤ .

رأسه ، بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى ، متعلق بالعرش ، فلا أدري ، أكذلك كان ، أم بعد النفخة » (١) ثم ذكره معلقا ، فى الموضوع نفسه بلفظ : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش » ورواه مسلم ، ولفظه : « لاتفصلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، قال ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، أو فى أول من بعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور ، أو بعث قبلى ؟ » .

ثم رواه بسند آخر - وفيه « فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق » (٢) .

وأما حديث أبى سعيد المتقدم ، فى ذكر الانشقاق ، فقد رواه أيضا الإمام أحمد : فقال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبىه ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا تخيروا بين الأنبياء ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأفبق ، فأجد موسى متعلقا بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أجزى بصعقة الطور ، أو أفاق قبلى » (٣)

وذكر الحافظ أن فى رواية محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة - عند ابن مردويه - « أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأنفض التراب عن رأسى ، فأتى قائمة العرش فأجد موسى قائما عندها ، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » (٤)

فهذه الرواية تدل على أن الصعق المذكور هو النفخة الثانية فى الصور ، فإن قوله فى رواية أبى هريرة : « فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات

(١) الفتح ج ٨ ص ٥٥١ .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٨٤٤ - رقم ٢٣٧٣ .

(٣) المسند ج ٣ ص ٣٣ .

(٤) الفتح ج ٦ ص ٤٤٥ .

ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بالعرش « وفي الرواية الأخرى : « إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش » ، وفي أخرى « إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية »

وفي رواية مسلم « ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث » .
فهذا واضح وصریح ، في أن المقصود البعث من الموت الحاصل بنفخ الصور النفخة الثانية ، وبه يتبين أن مقاله القرطبي وغيره مما سبق ذكره ، وكذا ماذهب إليه ابن القيم كله غير صحيح كما سبق ، وكذا قول الحلبي في المنهاج : « أن ظاهر الحديث أن هذه صعقة غشي يوم القيامة ، لاصعقة الموت ، الحادث عن نفخ الصور » (١) مردود بما صرح به الروايات المذكورة .

فالصواب ما نصت عليه هذه الروايات من أن موسى عليه السلام يبعث قبل نبينا - ﷺ - وأما ترده أصابه الصعق فبعث قبله ، أو كان ممن استثنى الله تعالى ، أو جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، كل ذلك يقتضى أنه بعث قبله .

ولكن يبقى الإشكال في أن النفخة التي استثنى الله تعالى منها هي الأولى . ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات قبلها ، فكيف يصح استثناءه منها ؟

فيقال ، وكذا نبينا ﷺ وسائر الأنبياء لا ينالهم ذلك ، وإنما ينال من كان حياً في ذلك الوقت ، ويكون الأقرب مقاله الحلبي : « أن المعنى إذا نفخ في الصور مرة أخرى ، كنت أول من بعث ، فأجد موسى مبعوثاً قبلي ، فلا أدري أفضل بذلك على سائر الخلق ، أو أن ذلك جزاء له بصعقة الطور » (٢)

(١) انظر المنهاج المخطوط ورقة ٢١٤ . وانظر المطبوع ج ١ ص ٤٣٢ وهو كثير التحريف .

(٢) انظر المنهاج ورقة ٢١٤ أو المطبوع ج ١ ص ٤٣٢ وهذا معنى كلامه وليس لفظه .

وهذا بناء على أن النفخ في الصور مرتان ، وهو الذى تؤيده الأدلة الصحيحة ، كما مر فى هذه الروايات السابقة .

قال الحافظ : « ثبت فى صحيح مسلم أنهما نفختان ، ولفظه فى أثناء حديث مرفوع : « ثم ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها ، ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

وفى حديث أبى هريرة المتفق عليه « بين النفختين أربعون » ، وفى ذلك دلالة على أنهما نفختان فقط ، والتغاير فى كل منهما باعتبار من يسمعهما ، فالأولى يموت بها كل من كان حياً ، ويغشى على من لم يموت ممن استثنى الله تعالى .

والثانية يعيش بها من مات ، ويفيق بها من غشى عليه » (١)

وقد ذهب إلى أنها ثلاث نفخات بعض العلماء ، كالحافظ ابن كثير وحمل قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض) على أنها نفخة الفرع ، ومن ذهب إلى ذلك القرطبى وابن العرنبى وغيرهم ، وعمدتهم فى ذلك حديث الصور ، حيث صرح فيه أن النفخات ثلاث ، ولكنه حديث ضعيف مضطرب ، كما بينه الحافظ ابن حجر رحمه الله فلا يعتمد عليه لذلك ، وآية الزمر واضحة الدلالة فى أن النفخ فى الصور مرتين .

قوله : « فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » وفى رواية أبى هريرة : « آخذ بالعرش » أى أنه - صلى الله عليه وسلم - يجد موسى عليه السلام بعد ما بعث ، ممسكا بأحد قوائم العرش ، والمراد بالعرش : عرش رب العالمين .

(١) انظر فتح البارى ج ١١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ و ج ٦ ص ٤٤٦ ، وانظر الحديث الذى يشير إليه فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٥٨ و ٢٢٥٩ رقم ٢٩٤٠ ، وانظر حديث أبى هريرة فى البخارى مع الفتح ج ٨ ص ٥٥١ و ٦٨٩ ، وفى مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٠ رقم ٢٩٥٥ .

ففى هذا فضل لموسى عليه السلام ، حيث بعث قبل نبينا - ﷺ -
وهذه القبلية إما مجرد فضيلة خصه الله بها كما خص بالتكليم ، وإما جزء بالصعقة
التي أصابته ، يوم سأل ربه الرؤية عندما تجلى الله تعالى للجبل . والله أعلم .
ومما تقدم من النصوص التي ذكرها البخارى - رحمه الله - هنا وغيرها ،
يعلم أن الله تعالى خص العرش من بين مخلوقاته ، بأنه استوى عليه ، وأنه فوق
جميع المخلوقات ، وأن له حملة ، اليوم ، ويوم القيامة ، وأنه تعالى تعبد من شاء من
ملائكته بأن يحفوا به ، ويطوفوا به ، وأن حملته ومن حوله من الملائكة يسبحون الله
تعالى - ويستغفرون للمؤمنين ، وأنه أول المخلوقات المعلومة لنا ، فقد أخبر تعالى أن
عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض كما قال - تعالى - : (وهو
الذى خلق السماوات والأرض ، فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) (١) .
وأنه - تعالى - كان ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى
الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض .

وقد تقدم ذكر حديث عبد الله بن عمرو : « إن الله قدر مقادير
الخلائق ، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على
الماء » وهو فى صحيح مسلم كما فى هذه النصوص ، وصف العرش بأنه عظيم ،
وأنه كريم ، وأنه مجيد .

وكثيرا ما يمدح الله - تعالى - نفسه بأنه ذو العرش ، كما قال - تعالى - :
(قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سيلا . سبحانه
وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فىهن ،
وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليفا
غفورا) (٢)

(١) الآية ٧ من سورة هود .

(٢) الآيات ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ من سورة الإسراء .

وقال - تعالى - : (رفيع الدرجات ذو العرش) (١) . وقال - جل وعلا - : (وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد) (٢) وقال - تعالى - : (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) (٣) إلى غير ذلك .

كما جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أنه أثقل الأوزان ، كما في قوله - ﷺ - لجويرية : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت ، منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » (٤) .

كما في النصوص المتقدمة أنه سقف أعلى الجنان ، وهي الفردوس ، وأن له قوائم ، وغير ذلك مما بينته النصوص التي جاءت بها الرسل ، وكل ذلك يدل على أن الله فوق العرش مستوٍ عليه ، وقد اتفق على هذا الأنبياء كلهم ، وذكر في كل كتاب أنزل على كل نبي ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف ، إلا من ضل الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية ، والمعتزلة والأشعرية وغيرهم .

★ ★ ★

(١) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآيتان ١٤ و ١٥ من سورة البروج .

(٣) الآية الأخيرة من سورة براءة .

(٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٠ .

قال : « باب قول الله - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) (١)

وقوله - جل ذكره - : (إليه يصعد الكلم الطيب) (٢)

* * *

قال الأزهري : فى عرج : « قال الله - جل وعز - : (تعرج الملائكة ، والروح إليه) (١) أى تصعد ، يقال : عرج ، يعرج ، عروجا .

وقوله - جل وعز - : (من الله ذى المعارج) (٣) قال قتادة : ذى المعارج : ذى الفواضل ، والنعم ، وقيل : معارج الملائكة ، وهى مصاعدها ، التى تصعد ، وتعرج فيها ، ذكر ذلك أبو إسحاق .

وقال الفراء : ذى المعارج ، من نعت الله ، لأن الملائكة ، تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك (٤) .

وقال الليث : عرج يعرج ، عروجا ، ومعروجا ، قال : والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى تصعد فيه الملائكة .

(١) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٢) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٤) انظر معانى القرآن للفراء ج ٣ ص ١٨٤ .

قال : والمعراج : يقال : شبه السلم ، أو درجة ، تعرج فيه الأرواح ، إذا قبضت « (١)

وقال الجوهري : « عرج في الدرجة ، والسلم ، يعرج ، عروجا ، إذا ارتقى .

والمعراج : السلم ، ومنه : ليلة المعراج ، والجمع معارج ، ومعارج « (٢) .

وقال الراغب : « العروج : ذهاب في صعود . قال : (تعرج الملائكة والروح) (٣) (فظلوا فيه يعرجون) (٤) ، والمعارج : المصاعد ، قال : (ذى المعارج) (٥) وليلة المعراج ، سميت لصعود الدعاء فيها ، إشارة إلى قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) (٦)

قوله : سميت ، لصعود الدعاء فيها يعنى : المعارج سميت لذلك ، ولا يعنى ليلة المعراج

وقال الطبرى ، فى قوله - تعالى - : (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون) (٤) « وأما قوله : « يعرجون » ، فإن معناه : يرقون فيه ، ويصعدون ، يقال : منه عرج يعرج ، عروجا ، إذا رقى ، وصعد « (٧) .

(١) تهذيب اللغة ج ١ ص ٣٥٥ .

(٢) الصحاح ج ١ ص ٣٢٨ .

(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٤) الآية ١٤ من سورة الحجر .

(٥) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٦) المفردات ص ٣٢٩ .

(٧) تفسير الطبرى ج ١٤ ص ١١ ط الحلبي .

وقال في قوله - تعالى - : (ذى المعارج) (١) يعنى ذا العلو ،
والدرجات ، والفواضل والنعم « - ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وقتادة . وروى
عن مجاهد ، قال : معارج السماء .

ثم قال : « وقوله - تعالى - : (تعرج الملائكة ، والروح إليه) : يقول -
تعالى ذكره - : تصعد الملائكة ، والروح - وهو جبريل - عليه السلام « إليه »
يعنى : إلى الله - جل وعز - والهاء في قوله : « إليه » عائدة على اسم الله « (٢)
قوله : والروح - هو جبريل - هذا هو الظاهر من سياق الآية ، فيكون
من عطف الخاص على العام .

وقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » وقال مجاهد : « العمل الصالح
يرفع الكلم الطيب »

قال الحافظ : « وصله الفرياني من رواية ابن نجيح ، وأخرج البيهقي من
طريق علي بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « الكلم الطيب ، ذكر الله ، والعمل
الصالح ، أداء فرائض الله ، فمن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه » (٣) ورواه
ابن جرير (٤)

قلت : أثر مجاهد ، رواه ابن جرير في تفسيره ، ولفظه : « الكلام الطيب
ذكر الله ، والعمل الصالح أداء فرائضه ، فمن ذكر الله في أداء فرائضه ، حمل عليه
ذكر الله ، فصعد به إلى الله . ومن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على
عمله ، فكان أولى به » (٤)

(١) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ٧٠ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤١٦ .

(٤) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ١٢١ ط الحلبي ، وانظر الأسماء والصفات ص

وقال ابن جرير : « إليه يصعد الكلم الطيب » يقول - تعالى ذكره - : إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه ، وأداء فرائضه ، والانتهاه إلى ما أمر به » (١)

ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : « إذا حدثناكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله - تعالى - إن العبد المسلم ، إذا قال : سبحان الله ، وحمده ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك ، فجعلهن تحت جناحيه ، ثم صعد بهن إلى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة ، إلا استغفروا لقاتلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن ، ثم قرأ عبد الله : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » (٢) .

ثم روى قول مجاهد الذى ذكره البخارى ، وروى عن الحسن ، وقتادة : « لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، من قال ، وأحسن العمل ، قبل الله منه » (٣)

ومقصود البخارى بهذا الباب ، ذكر بعض الأدلة على علو الله - تعالى - وبيان أن ذلك ثابت بكتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ ، وبالعقل ، والفترة . فقد فطر الله تعالى العباد على الإيمان بذلك ، وآمن الصحابة به ، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل .

فالإيمان بعلو الله تعالى وفوقيته ، فطرى عقلى شرعى ، ومن خالف ذلك فقد انحرف عن طريق الرسل ، وسلك فى ذلك غير سبيل المؤمنين .

ولبيان أن الإيمان بذلك . فطرى ، عقلى ، ذكر قول أبى ذر ، قبل أن يسلم أنه قال لأخيه : « اعلم لى ، علم هذا الرجل ، الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء » كما يأتي بيانه .

(١) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ١٢٠ .

(٢) المرجع المذكور .

(٣) الطبرى ج ٢٢ ص ١٢١ .

ومعلوم أن الخير ، لا يأتي إلا من مخبر ، والمخبر الذي يرسل الرسل بأوامره ، ونواهيه ، هو الله - جل وعلا - وهو في السماء ، أى في العلو بائن من خلقه . وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية ، ومع ظهورها ، وكثرة الأدلة عليها وتنوعها ، واتفاق الرسل ، والكتب وأتباع الرسل عليها ، ضل فيها طوائف كثيرة كالجهمية ، والمعتزلة ، وأكثر الأشعرية ، ولا يزال على الضلال فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية ، والماتريدية ، معتقدين ، أن ذلك الضلال هو الحق وأنه مذهب أهل السنة ، وأن أدلة كتب الله ، ووحيه إلى رسله ، ظواهر تدل على التشبيه بظواهرها ، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر .

ويرى هؤلاء أن من اعتقد ما دل عليه القرآن ، والسنة بظاهرهما ، أنه مشبه ومجسم ، مع أن العقل ، والفطر السالمة من الانحراف ، يتفقان على ما دل عليه وحى الله تعالى ، ولهذا ترمى الأشعرية كل من اعتقد علو الله ، واستواءه على عرشه على الحقيقة ، بالتشبيه ، والتجسيم ، وأحيانا يصرحون بكفرهم كما هو عقيدتهم في قرار نفوسهم ، ومع هذا ترى كثيرا منهم رافعا عقيرته داعيا إلى الاتفاق والوثام ، وهذا لن يكون أبدا مادام في الأرض معتقد للحق ، لأنه لاتفاق بين الهدى ، والضلال ، والباطل ، وكيف يكون اتفاق مع من يرى أن من اعتقد ما دلت عليه النصوص الصريحة ، الواضحة الكثيرة ، أنه ضال ، ومشبه ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله : « وقال أبو حمزة : عن ابن عباس ، لما بلغ أباذر مبعث النبي - ﷺ - فقال لأخيه : اعلم لي علم هذا الرجل ، الذي يزعم أنه يأتيه الخير من السماء » هذا التعليق قد تقدم تاما موصولا ، في المناقب ، وفي الفضائل (١) .

ومقصوده من ذلك ، بيان أن علو الله تعالى على خلقه ، أمر مفطور على الخلق ، ومعلوم بالعقل ، والوحى جاء مؤيدا لذلك ، وموضحا له .

(١) انظر الفتح ج ٦ ص ٥٤٩ و ج ٧ ص ١٧٣ .

٥٧ - قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « يتعاقبون ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون »

* * *

« يتعاقبون » . التعاقب : إتيان فريق ، عقب فريق ، ثم يعود الأول ، بعد إتيان الثانى .

وإنما يكون التعاقب بين طائفتين ، أو رجلين ، ومنه . تعقيب الجيوش ، بأن يرسل طائفة من الجيش إلى مدة ، ثم يرسل مكانهم طائفة أخرى ، ويرجع الأولون .

والضمير فى قوله « فيكم » يعود إلى المخاطبين ، وهم الأمة المستجيبة للرسول - ﷺ - .

والأظهر أن هؤلاء الملائكة غير الحفظة ، كما قاله القرطبى ، وأيده الحافظ ، بأنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد ، ولا أن حفظة الليل ، غير حفظة النهار ، وبغير ذلك (١)

« ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر » أى يجتمع فى صلاة العصر ، الهابطون ليبيتوا مع العباد ، والذين كانوا معهم فى النهار ، فالفريقان يحضران صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، فيصعد الذين صحبوا العباد بالنهار ،

(١) انظرالفتح ج ٢ ص ٣٤ - ٣٥ .

عقب صلاة العصر ويبقى الذين يبيتون معهم ليلا ، ثم بعد اجتماع الفريقين أيضا ، في صلاة الفجر يصعد الذين باتوا مع العباد ، ويبقى الذين نزلوا في صلاة الفجر من السماء . والله تعالى يسأل كل فريق ، عن العباد ، يقول : كيف تركتم عبادى ، أى على أى حال تركتموهم - وهو - جل وعلا - أعلم من الملائكة المصاحبين لهم ، بهم . ولكن يسأل تعالى الملائكة عنهم ، لإظهار كرامتهم ، فضلا منه ، وإحسانا إليهم ، وبهذا يعلم أهمية المحافظة على هاتين الصلاتين في الجماعة .

قوله : « ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم ، وهم يصلون »

تقدم معنى العروج ، وأنه الصعود ، والارتفاع ، والذهاب إلى العلو ، وهذا هو محل الشاهد ، من الحديث ، لأن السؤال حصل بعد صعودهم ، حيث يصلون إلى المكان المحدد لهم ، والله تعالى فوقهم ، وهو تعالى يخاطبهم بذلك ، بدون واسطة ، كما هو ظاهر النص ، ولو كان ذلك بوحي لم يكن هناك فرق بين كونهم في السماء ، أو في الأرض .

وهذا الحديث يتفق في المعنى مع قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه » وكأن البخارى يشير بذلك إلى تفسيرها ، وأن عروج الملائكة المذكور في هذا الحديث ، داخل في مدلولها .

ودل قوله : « وهو أعلم بهم » أن المقصود من السؤال ، إظهار كرامة المؤمنين من بنى آدم ، بطاعتهم لربهم ، وعبادتهم إياه ، والتنويه بفضلهم ، عند الملائكة الذين في السماء ، والملائكة المسئولون ، فهموا من الله تعالى ماأراده . ولهذا قالوا في الجواب : « تركناهم ، وهم يصلون ، وأتيناهم ، وهو يصلون »

وفي هذا دليل على أن من جلس في مصلاه ، يذكر الله ويدعوه أنه في صلاة لأن الملائكة يحضرون الصلاة معهم ، وبعد الفراغ منها يصعدون .

قال الحافظ : « ويستفاد منه أن الصلاة أعلى العبادات ، لأنه عنها وقع السؤال والجواب ، وفيه الإشارة إلى عظم هاتين الصلاتين ، لكونهما تجتمع فيهما الطائفتان ، وفي غيرهما طائفة واحدة .

والإشارة إلى شرف الوقتين المذكورين ، وقد ورد أن الرزق يقسم بعد صلاة الصبح ، وأن الأعمال ترفع آخر النهار ، فمن كان حينئذ في طاعة ، بورك في رزقه ، وفي عمله .

ويترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما ، والاهتمام بهما .

وفيه تشریف هذه الأمة ، على غيرهما ، ويستلزم تشریف نبيها على غيره .

وفيه الإخبار بالغيوب ، ويترتب عليه زيادة الإيمان .

وفيه الإخبار بما نحن فيه ، من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ، ونتحفظ في الأوامر والنواهي ، ونفرح في هذه الأوقات بقدم رسل ربنا ، وسؤال ربنا عنا . وفيه إعلامنا بحب ملائكة الله لنا ، لنزداد فيهم حباً ، ونتقرب إلى الله - تعالى - بذلك .

وفيه كلام الله تعالى مع الملائكة ، وغير ذلك من الفوائد « (١) .

وفيه كثرة الملائكة ، وأن لكل منهم وظائف مكلفون بها ، وبيان نصحتهم لبنى آدم ، وحبهم الخير لهم ، وأن استقرارهم في السماء ، وإنما ينزلون إلى الأرض حسب أوامر الله لهم .

★ ★ ★

٥٨ - قال : « وقال خالد بن مخلد : حدثنا سليمان ، حدثني عبد الله ابن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله - ﷺ - من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها ؛ بيمينه ، ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فله ، حتى تكون مثل الجبل »

* * *

« الصدقة : ما يخرج الإنسان من ماله ، على وجه القرية ، كالزكاة ، لكن الصدقة في الأصل ، تقال : للمتطوع به ، والزكاة ، للواجب ، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها ، الصدق في فعلها » (١) .

وسميت صدقة ، من الصدق ، لأنها تدل على صدق إيمان المتصدق غالبا .

قوله : « بعدل تمرة » بفتح العين ، قال القاضي عياض : « العدل بالفتح المثل وما عادل الشيء ، وكافأه ، من غير جنسه ، وبالكسر ، ما عادله ، من جنسه وكان نظيره ، وقيل : الفتح ، والكسر لغتان فيها ، وهو قول البصريين » (٢) . والمعنى : من تصدق بقدر تمرة ، أو بقيمتها .

قوله : « من كسب طيب » أى تصدق بمال حلال ، جيد ، وإن كان قليلا .

« ولا يصعد إلى الله إلا الطيب » . تقدم هذا الحديث في الزكاة بسند

(١) المفردات للراغب ص ٢٧٨ .

(٢) المشارق ج ٢ ص ٦٩ .

متصل غير هذا وفيه « ولا يقبل الله إلا الطيب » (١) .

فالذى يقبله الله - تعالى - يصعد إليه ، فيبارك به لصاحبه ، وينميّه .

وهذه الجملة من الحديث هي المقصود منه هنا ، حيث دل على علو الله - تعالى - وأنه فوق ، وماقبله الله من الأعمال ، فإنه يصعد إليه ، وقد تقدم أن الملائكة تصعد إلى الله - تعالى - وتعرج إليه ، والصعود ، والعروج سواء في المعنى ، كما تقدم في كلام ابن جرير .

وقد اختار البخارى بعض النصوص في هذا الباب ، التي فيها ذكر الصعود والعروج ونحوهما لوضوح الدلالة في ذلك على علو الله - تعالى - كما أنه نوع الأدلة في ذلك كما تقدم للإيضاح ، وأدلة علو الله تعالى كثيرة جداً ، ومتنوعة كما ستأتى الإشارة إلى ذلك .

« قوله : « فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربها لصاحبها ، كما يرى أحدكم فلوه » أى أن الله - تعالى - يقبلها من صاحبها ، فيأخذها بيده اليمنى ، وكلتا يديه يمين ، فينميها لصاحبها ، ويبارك فيها ، ويعتنى بها عناية بالغة ، كما يعتنى أحدنا بأعلى ماله من المال ، وأنفسه ، وهو ولد الفرس ، الذى يعد للدفاع الأعداء وقتالهم ، وحماية الأعراض ، والنفوس ، والأموال ، حتى يصير ماهو بقدر الثمرة - لشدة عناية الله - تعالى - به مثل الجبل .

وقد تحبب شرح الحديث ممن سلك طريق الأشاعرة ، في شرح هذه الجملة ، وجاءوا بما ليس له وجه ، مع أن المتكلم به قد أعطى من الفصاحة والبيان والنصح للسامع ، والحرص على وصول الخير إليه ما ليس عليه مزيد ، فيجب أخذ كلامه على ظاهره ، والإيمان به ، وإحسان الظن به ، فهو صلوات الله وسلامه عليه أقدر على إيضاح ما يريد من هؤلاء ، كما أنه صلى الله عليه وسلم أعلم بالله منهم ، فليس

(١) انظر الفتح ج ٣ ص ٢٧٨ .

كلامه بحاجة إلى تلك التأويلات الباردة ^(١) ، والتمحلات المتكلفة ، كالتى ذكر
ابن حجر ، - عفا الله عنا وعنه - .

★ ★ ★

(١) انظر بعض مقاله هؤلاء المؤولة فى فتح البارى ج ٣ ص ٢٨٠ .

٥٩ - ثم ذكر حديث ابن عباس : في دعاء الكرب ، وقد تقدم في الباب قبل هذا ، وفيه اختلاف في سنده ومنتنه ، كما هي عادته .

* * *

والمقصود منه هنا قول : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش الكريم » وقد تقدم أن العرش هو سقف المخلوقات كلها ، وليس فوقه مخلوق . وقد وصفه - تعالى - بأنه عظيم ، وبأنه كريم ، وأضافه - تعالى - إليه مما يدل على أن له خصوصية دون غيره ، من السماوات والأرض كما تقدم .
وقد أخبرنا - تعالى - بأنه استوى عليه ، فهو من دلائل علوه تعالى فوق خلقه .

★ ★ ★

٦٠ - قال : « حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبي نعم ، أو أبي نعم - شك قبيصة - ، عن أبي سعيد ، قال بعث إلى النبي ﷺ بذهبية ، فقسمها بين أربعة » .

وحدثني إسحاق بن نصر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبي نعم ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : « بعث علي ، وهو في اليمن إلى النبي ﷺ - بذهبية في تربتها ، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بنى مجاشع ، وبين عيينة بن بدر ، الفزاري ، وبين علقمة بن علاقة العامري ، ثم أحد بنى كلاب ، وبين زيد الخيل ، الطائي ، ثم أحد بنى نبهان . فتغيظت قريش ، والأنصار ، فقالوا : يعطيه صنادر أهل نجد ، ويدعنا - ؟ قال : إنما أتألفهم ، فأقبل رجل ، غائر العينين ، ناقيء الجبين ، كث اللحية ، مشرق الوجنتين ، محلوق الرأس ، فقال : يا محمد : اتق الله ، فقال النبي ﷺ - : فمن يطيع الله إذا عصيته ؟ ، فيأمنني على أهل الأرض ، ولاتأمنوني . فسأل رجل ، من القوم قتله - أراه خالد بن الوليد - فمنعه النبي ﷺ - فلما ولي ، قال النبي ﷺ - : إن من ضئضئ هذا قوما يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لكن أدركتهم لأقتلنهم ، قتل عاد » .

* * *

أرسل النبي ﷺ - علي بن طالب إلى اليمن ، يدعو إلى الله تعالى - ويقبض الزكاة من أصحابها ، ويقضى في المنازعات ، وكان ذلك قبل حجة الوداع ، كما ذكره البخاري في آخر المغازي ، ثم إن علياً وافى رسول الله ﷺ - بمكة ، في حجة الوداع راجعاً من اليمن ، وكان قد أرسل إليه ، بذهبية ، تصغير

ذهبة ، أى قطعة من الذهب ، فقسمها رسول الله - ﷺ - بين هؤلاء الأربعة المذكورين ، رجاء إسلامهم ، وكانوا رؤساء قبائلهم ، فإذا أسلموا ، أسلم تبعاء لهم خلق كثير ، ولهذا أعطاهم النبي - ﷺ - المال ترغيباً لهم فى الإسلام ، وتأليفاً لقلوبهم عليه ، كما بينه - ﷺ - فى جوابه للصحابة ، الذين قالوا : « يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » .

وقوله : « فى ترتيبها » أى أنها لم تخلص من ترابها ، فليست ذهباً خالصاً ، لأنها مختلطة بالتراب .

قيل : إنها من الخمس ، واستبعد ابن حجر أن تكون من أصل الغنيمة ، ويمكن أن تكون زكاة .

قوله : « فتغيظت قريش ، والأنصار » من الغيظ ، أى غاظها ذلك ، حيث لم يعطهم منها ، وفى رواية « فغضبت » من الغضب .

« فقالوا : يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » الصناديد ، جمع صناديد ، وهو الرئيس ، وفى القاموس : الصندد [بفتح الصاد ، وإسكان النون ، وكسر الدال الأولى] ^(١) السيد ، الشجاع ، أو الحلیم ، أو الجواد ، أو الكريم « ا هـ .

قوله : « إنما أتألفهم » أى أعطيتهم ليألفوا الدين ، ويجتمعوا على حبه ، والرغبة فيه ، فأرغبهم فيه على طريق الإحسان إليهم ، بالدنيا حتى يصل إلى قلوبهم ، فيحبوه ويرغبوا فيه ، أو لأجل مايتحصلون عليه من الدنيا ثم بعد ذلك لما يرجونه من جزاء الله وثوابه فى الآخرة .

والتأليف من الألف ، وهو الاجتماع ، والالتئام مع الحب .

والمعنى : أنى أعطيتهم ليكون ذلك داعياً لهم إلى حب الإسلام ، والرغبة فيه والاجتماع عليه ، حتى يكونوا من أنصاره ، ويتبعهم على ذلك أقوامهم وعشائريهم ،

(١) ما بين المعقوفين من حاشية القاموس ج ١ ص ٣٠٩ .

فيحصل بذلك عز الإسلام ، ونصره ، فهذا العطاء مما يجبه الله ويشيب عليه ، وهو من الإنفاق في سبيل الله - تعالى - ، بل من أفضله .

ووصفه الرجل المعترض على رسول الله - ﷺ - هي أمور اتفقت فيه ، وليست هذه الأوصاف الظاهرة في هذا الهالك مذمومة لذاتها .

وقوله : « فمن يطيع الله ، إذا عصيته » يعنى أنه - ﷺ - هو أحق الناس وأولاهم بطاعة الله - تعالى - وتقواه .

وهذا هو الضلال أن يتصور الإنسان الطاعة ، معصية ، فهذا الرجل المعترض تصور أن فعل رسول الله - ﷺ - معصية ، وأنه من الجور ، فنصب نفسه أمرا يتقوى الله ، فقال للرسول - ﷺ - : اتق الله ، مع أن فعل رسول الله - ﷺ - هو تقوى ، ومن أعظم الطاعات له ، فهو يعطى الله ، ولنصر دينه ، وهداية عباده .

قوله : « فيأمننى على أهل الأرض ، ولا تأمنونى » أى يأمننى الله - تعالى - على الرسالة التى أرسلنى بها إلى أهل الأرض ، ولا تأمننى أنت أيها المعترض ، ومن على شاكلتك ممن ضل طريق الرشد ، لا تأمنونى على حطام الدنيا أن أضعه حيث يجب أن يوضع ، على وفق أمر الله تعالى .

والرواية التى ذكرها فى المغازى : « فقال : ألا تأمنونى ، وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء » (١)

وهذا اللفظ أظهر ، وأوضح فى المقصود ، من الرواية المذكورة هنا .

قال الحافظ : « وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة ، لكنه جرى على عادته فى إدخال الحديث فى الباب ، للفظة تكون فى بعض طرقه هى المناسبة

(١) انظر الفتح ج ٨ ص ٦٧ .

لذلك الباب ، يشير إليها ، ويريد بذلك شحذ الأذهان ، والبعث على كثرة الاستحضار» (١)

قلت : ولا يخلو اللفظ المذكور من الدليل على المقصود الذى هو علو الله - تعالى - لأن قوله : « فيأمننى على أهل الأرض » يدل على أن الآمن الذى هو الله - تعالى - فى السماء .

ومعنى قوله : « من فى السماء » أى الله الذى فى السماء ، و « فى » هنا بمعنى « على » كما ذكر البيهقى ، عن أبى بكر ، أحمد بن إسحاق الضبيعى : « أن العرب قد تضع « فى » بموضع « على » ، قال الله - تعالى - : (فسيحوا فى الأرض) (٢) ، وقال : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) (٣) ومعناه : على الأرض ، وعلى جذوع النخل .

فكذلك قوله : (فى السماء) أى على العرش ، فوق السماء ، كما صحت الأخبار عن النبى - ﷺ - « (٤) .

وهذا الحديث مثل قول الله تعالى - : (أمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) (٥) .

فإما أن تكون « فى » بمعنى « على » كما تقدم ؛ أو يقصد بالسماء العلو أى أمنتم من فى العلو ، وكلاهما صحيح سائغ فى اللغة والمعنى .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٨ .

(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٧١ من سورة طه .

(٤) الأسماء والصفات ص ٤٢١ .

(٥) الآيتان ١٦ و ١٧ فى سورة الملك .

قوله : « فسأله رجل من القوم قتله ، أراه خالد بن الوليد ، فمنعه النبي ﷺ » أى استأذن الرسول فى ذلك ، وقد تقدم فى المناقب أن السائل هو عمر ابن الخطاب (١) .

قال الحافظ : « لاتنافية بين الروایتين ، إذ يجوز أن يكون كل واحد منهما طلب ذلك » (٢) .

وقد جاء أن سبب منعه من قتله ، خوف أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه ، فيصير بذلك تنفيراً عن الدخول فى الإسلام .

قوله : « إن من ضئضىء هذا ، قوم يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم » قال فى النهاية : « الضئضىء : الأصل ، يقال : ضئضىء صدق ، وضوضؤ صدق ، يريد أنه يخرج من نسله ، وعقبه » (٣) .

وفى اللسان : « الضئضىء ، والضوضؤ : الأصل ، والمعدن » (٤) .

والمقصود ، الإخبار بأنه يأتى من جنس هذا الرجل ، الضال ، قوم يسلكون مسلكه يقرأون القرآن ، ولكن لا يصل إلى قلوبهم ، فهم لا يفهمونه ، على ما أريد ، بل يضعونه فى غير موضعه ، لأنهم ضالون ، وجاهلون ، ولهذا يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، أى يخرجون من الإسلام ، بسرعة ، وسهولة ، غير متأثرين به ، كأنهم لم يدخلوه ، وهذا يدل على أنهم دخلوا فى الإسلام ، ولكن لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، ولم يفهموه على وجهه ، ولهذا صار من أوصافهم ، أنهم يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون الكفار عباد الأوثان ، ومن أجل ذلك قال - ﷺ - لئن أدركتهم ، لأقتلنهم ، قتل عاد - أى لا أبقى منهم

(١) انظر الفتح ج ٦ ص ٦١٨ .

(٢) المرجع المذكور ج ٦ ص ٦١٨ .

(٣) النهاية ج ٣ ص ٦٩ .

(٤) لسان العرب ج ٢ ص ٥٠٣ المرتب .

أحدا يشير بذلك إلى قوله : في وصف هلاك عاد (فهل ترى لهم من باقيه) (١) ولم يرد أنه يقتلهم بالشيء الذي قتلت به عاد بعينه .

ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ، ويراد به القتل الشديد القوى ، ويكون في ذلك إشارة إلى وصفهم بالشدة ، والقوة ، ويؤيده أنه وقع في طريق أخرى « قتل ثمود » (٢) .

★ ★ ★

(١) الآية ٨ من سورة الحاقة .

(٢) قاله الحافظ في الفتح ج ٦ ص ٣٧٧ .

٦١ - ثم ذكر حديث أبي ذر الذى تقدم فى الباب قبل هذا فقال :
 « حدثنا عياش بن الوليد ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن
 إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : سألت النبي - ﷺ -
 عن قوله : (والشمس تجري لمستقر لها) ؟ قال : « مستقرها تحت
 العرش » . قد تقدم شرحه ، والشاهد منه هنا . أن الشمس فى ارتفاعها ، وأبعد
 ماتكون عن الأرض التى عليها المخاطبين آن ذاك تكون تحت العرش ، فالخلوقات
 كلها تحته ، والله - تعالى - فوق العرش ، فهو عال على خلقه كلهم وفوقهم .

* * *

فى هذا الباب ، والذى قبله قصد البخارى - رحمه تعالى - إثبات علو
 الله ، واستواءه على العرش ، كما هو ثابت فى نفس الأمر ، وتضافرت عليه أدلة
 الوحى ، والعقول والفطر ، وكما هو مذهب السلف من الصحابة ، وأتباعهم إلى
 اليوم .

والنصوص التى ذكرها البخارى ظاهرة الدلالة على ذلك ، وهى نزر يسير
 جدا من النصوص الكثيرة ، المتنوعة فى ذلك .

قال ابن أبى العز : « ومن سمع أحاديث الرسول - ﷺ - ، وكلام
 السلف وجد منه فى إثبات الفوقية ما لا ينحصر .

ولارىب أن الله - سبحانه - لما خلق الخلق ، لم يخلقهم فى ذاته المقدسة ،
 فإنه الأحد ، الصمد ، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته .

ولو لم يتصف - سبحانه - بفوقية الذات ، مع أنه قائم بنفسه ، غير
 مخالط للخلق لكان متصفا بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من
 ضده ، وضد الفوقية ، السفول ، وهو مذموم على الإطلاق .

فإن قيل : لانسلم أنه قابل للفوقية ، حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها .
 قيل : لو لم يكن قابلاً للعلو ، والفوقية ، لم يكن له حقيقة ، قائمة بنفسها
 فمتى أقررتم ، أنه موجود ، قائم بنفسه ، ليس وجوده ذهنياً ، بل وجوده خارج
 الأذهان قطعاً .

تعين أن يكون متميزاً عن خلقه ، عالياً عليهم .

وقد علم العقلاء كلهم ، بالضرورة ، أن ما كان وجوده ، خارج الأذهان ،
 فهو إما أن يكون داخلاً في الخلق ، أو بائناً منهم ، خارجاً عنهم .
 وإنكار ذلك إنكار لما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات ، الضرورية ،
 بلا ريب ، فلا يستدل بدليل على وجوده ، إلا كان العلم بالمبانيّة أظهر منه ،
 وأوضح وأبين .

وإذا كانت صفة العلو ، والفوقية صفة كمال ، لانقص ، ولاتستلزم نقصاً
 ولامحذور فيها ، ولاتخالف كتاباً ، ولا سنة ، ولا إجماعاً ، فنفي حقيقتها يكون عين
 الباطل ، والحال ، الذي لاتأتى به شريعة أصلاً ، فكيف إذا كان لايمكن الإقرار
 بوجوده - تعالى - ، وتصديق رسله ، والإيمان بكتابه ، وما جاء به رسوله إلا
 بذلك ؟ .

فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة ، والفطر المستقيمة .
 والنصوص الواردة ، المتنوعة في الدلالة ، على علو الله - تعالى - على خلقه وكونه
 فوق عباده ، التي تقرب من عشرين نوعاً .

أحدها : التصريح بالفوقية ، مقروناً بأداة « من » المعينة للفوقية بالذات
 كقوله - تعالى - : (يخافون ربهم من فوقهم) (١) .

(١) الآية ٥٠ من سورة النحل .

الثاني : ذكر الفوقية ، مجردة عن الأداة ، كقوله - تعالى - : (وهو القاهر فوق عباده) (١)

الثالث : التصريح بالعروج إليه ، كقوله - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) (٢) وقوله - ﷺ - « فيعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم » كما تقدم .

الرابع : التصريح بالصعود إليه ، كقوله - تعالى - : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) (٣)

الخامس : التصريح برفعه - تعالى - بعض خلقه إليه ، كقوله : - تعالى - : (بل رفعه الله إليه) (٤) وقوله : (إني متوفيك ، ورافعك إلیّ) (٥) .

السادس : التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتا وقدرا وشرفا ، كقوله - تعالى - : (وهو العلى ، العظيم) (٦) وقوله - تعالى - : (وهو العلى الكبير) (٧) وقوله - تعالى - : (إنه عليّ حكيم) (٨) .

(١) الآية ١٨ و ٦١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٣) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٤) الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(٥) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٢٣ من سورة سبأ .

(٨) الآية ٥١ من سورة الشورى .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله - تعالى - : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (١) وقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) (٢) وهو كثير .

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات ، بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، كقوله - تعالى - : (إن الذين عند ربك) (٣) وقوله - تعالى - : (وله من في السموات والأرض . ومن عنده) (٤) ففرق تعالى بين من له عموماً وبين من عنده من الملائكة . وقد تقدم قوله - ﷺ - : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق عرشه » .

التاسع : التصريح بأنه - تعالى - في السماء ، كقوله . - تعالى - : (أأنتم من في السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور) (٥) ، وتقدم أن ذلك ، على وجهين ، إما أن تكون « في » بمعنى « على » ، أو يراد بالسماء العلو ، لا يجوز غير ذلك .

العاشر : التصريح : برفع الأيدي إلى الله - تعالى - : كقوله - ﷺ - : (إن الله يستحي من عبده ، إذا رفع إليه يديه ، أن يردهما صفرًا) (٦)

الحادى عشر : التصريح بالاستواء ، مقروناً بأداة « على » مخصوصاً بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات .

(١) الآية الأولى من سورة الزمر .

(٢) الآية ٢ من سورة غافر الذنب .

(٣) آخر آية من سورة الأعراف .

(٤) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .

(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن ج ٢ ص ١٦٥ رقم ١٤٨٨ ، والترمذى في

الدعوات ج ٥ ص ٢١٧ ، وابن ماجه في السنن ج ٢ ص ١٢٧١ الحديث رقم

الثاني عشر : التصريح بنزوله - تعالى - كل ليلة إلى سماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل .

الثالث عشر : الإشارة الحسية إليه في العلو ، كما فعل ذلك رسول الله - ﷺ - في خطبته في حجة الوداع ، حيث قال : « إنكم مسئولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فرفع إصبعه إلى السماء ، وقال : اللهم اشهد » (١)

الرابع عشر : سؤال الرسول - ﷺ - بلفظ « أين الله » وإخباره عن قال : « الله في السماء » بأنه مؤمن (٢)

الخامس عشر : اتفاق الكتب المنزلة من الله والرسول على أن الله فوق عباده عال عليهم ، كما قال - تعالى - عن فرعون : (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ، لعلی أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً » (٣) لأن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله في السماء ، فقال هذا القول ليموه على السذج أتباع كل ناعق بدون بصيرة .

السادس عشر : عروج النبي - ﷺ - إليه - تعالى - ، وإخباره ، أنه تردد نبيه - تعالى - وبين موسى ، يطلب التخفيف من عدد الصلوات » (٤)

وقد غلط أكثر المتكلمين في مسمى السماء ، حيث ظنوا أن السماء يقصد به مكان معين محاط ، فتوهموا أن من قال : إن الله في السماء أن مكاناً يحيط به أو يحويه - تعالى - وتقدس .

(١) رواه مسلم في صحيحه وغيره ، انظر مسلم ج ٢ ص ٨٩٠ الحديث رقم ١٢١٨ ، وهو حديث جابر الطويل في صفة الحج .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٢ الحديث رقم ٥٣٧ .

(٣) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة غافر الذنب .

(٤) شرح الطحاوية بتصرف ص ٢٥٦ - ٢٦٠ الطبعة الثالثة .

قال شيخ الإسلام : « من توهم أن كون الله في السماء أن السماء تحيط به ، أو تحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره ، وضال إن اعتقده في ربه .

ومافهم هذا أحد من النصوص ، ولم ينقل عن أحد ، ولو سئل سائر المسلمين ، هل تفهمون من قول الله ، ورسوله : أن الله في السماء ، أن السماء تحويه ؟ لبادروا إلى القول : بأن هذا شيء ماخطر بالبال .

فمن الضلال أن يجعل ظاهر نصوص الكتاب والسنة في ذلك دالة على الباطل والتشبيه .

بل عند الناس قولك : إن الله في السماء ، وقولك : الله فوق العرش ، سواء إذ السماء إنما يراد به العلو ، فالمعنى : أن الله في العلو . لافي السفلى . وقد علم المسلمون أن كرسیه ، سبحانه - وتعالى - وسع السموات ، والأرض ، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن العرش ، خلق من مخلوقات الله ، لانسبة له إلى عظمة الله تعالى .

فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقا يحصره أو يحويه ؟ وقد قال - تعالى - :
(ولأصلبكنم في جذوع النخل) (١) وقال - تعالى - : (فسيروا في الأرض) (٢) . بمعنى على الأرض ، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً ، وهذا يعلمه من عرف حقائق الحروف » (٣)

وعلو الله - تعالى - ظاهر جداً ، وقد تقدم أن البخاري - رحمه الله - أشار بما ذكره في هذا الباب ، إلى أن علو الله - تعالى - وفوقيته ثابت بالكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطر ، أما ثبوته بالكتاب والسنة فواضح .

(١) الآية ٧١ من سورة طه .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ، والآية ٣٦ من سورة النحل .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٠٦ .

وأما الإجماع فأشار إليه بقصة زينب ، أنها كانت تفتخر ، على أزواج النبي - ﷺ - تقول : زوّجكن أهاليكن ، وزوّجنى الله ، من فوق سبع سماوات . فهذا يدل على الإجماع ، لأن ذلك متقرر عندهم ، ولم ينكر ذلك أحد ، بل يذكر في كل مناسبة ، ومن ذلك هذا الذى قالته زينب ، فالإجماع عليه ظاهر ، والإجماع لا يكون على خلاف المعقول .

وأما الفطرة ، فأشار إليها بما ذكره ، عن أبى ذر أنه قال لأخيه . قبل أن يسلم : « اعلم لى علم هذا الرجل ، الذى يأتيه الخير من السماء » أى يأتيه الخير من الله الذى فى السماء ، لأنه يقول . للناس : أنا رسول الله إليكم .

قال شيخ الإسلام : « تبين وجوب إثبات العلو لله - تعالى - من وجوه .

أحدها : أن القرآن ، والسنن المستفيضة ، المتواترة ، وغير المتواترة ، وكلام السابقين والتابعين ، وأهل القرون الثلاثة ، مملوء بما فيه إثبات العلو لله ، وأنه مستوي على عرشه ، بأنواع من الدلالات .

فالله - تعالى - يخبرنا تارة ، أنه خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ثم استوى على العرش .

وتارة يخبر بعروج الأشياء ، وصعودها ، وارتفاعها إليه ، كقوله - تعالى - : (بل رفعه الله إليه) (١) (إني متوفيك ورافعك إلیّ) (٢) (تعرج الملائكة والروح إليه) (٣) (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) (٤) .

(١) الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

وتارة يجبر بنزولها منه ، أو من عنده ، كقوله - تعالى - : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) (١) (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) (٢) (حمّ تنزيل من الرحمن الرحيم) (٣) (حمّ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (٤) .

وتارة يجبر بأنه العلى الأعلى ، كقوله - تعالى - : (سبح اسم ربك الأعلى) (٥) وقوله - تعالى - : (وهو العلى العظيم) (٦) .

وتارة يجبر بأنه في السماء ، كقوله - تعالى - : (أأمنتم من في السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) (٧) فذكر السماء دون الأرض ، وكقوله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا تأمنوني ، وأنا أمين من في السماء » وقوله للجارية : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : اعتقها ، فإنها مؤمنة « ولم يعلق ألوهية أو غيرها كما في قوله - تعالى - : (وهو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله) (٨) وقوله : (وهو الله فى السموات والأرض) (٩) أى هو المألوه المعبود فى السموات والأرض .

وتارة يجعل بعض الخلق عنده ، دون بعض ، كقوله : (وله من فى

(١) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة النحل .

(٣) فاتحة سورة فصلت .

(٤) فاتحة سورة الجاثية والأحفاف .

(٥) فاتحة سورة الأعلى .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

(٧) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة الملك .

(٨) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٩) الآية ٣ من سورة الأنعام .

السموات ، والأرض ومن عنده ، لا يستكبرون عن عبادته) (١)
فلو كان موجب العندية ، معنى عاما كدخولهم تحت قدرته ، ومشيتته ،
ونحو ذلك لكان كل مخلوق عنده ، ولم يكن أحد مستكبرا ، عن عبادته .
وأما الأحاديث ، والآثار عن الصحابة ، والتابعين ، فلا يحصيها إلا
الله - تعالى - .

فلا يخلو أن يكون ما اتفقت عليه هذه النصوص ، من إثبات علو الله
تعالى . على خلقه هو الحق ، أو الحق ، نقيضه ، إذ الحق لا يخلو عن النقيضين .
فإن كان نفى العلو هو الحق ، فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا ، لانصاً ،
ولامفهوماً . وكذلك الرسول - ﷺ - ولا أحد من الصحابة ، وأتباعهم ، ولا
أحد من أئمة المسلمين ، ولا يمكن أحد أن ينقل عن واحد منهم شيئاً من ذلك ،
بل نقيضه هو المستفيض عنهم ، كما هو الموافق للكتاب ، والسنة .

ويلزم على ذلك أن يكون الله ورسوله ، والمؤمنون ، لم ينطقوا بالحق في هذا
الباب ، بل تكلموا بما يدل على الضلال ، إما نصاً ، أو ظاهراً .

فإن قيل : هذه النصوص ما أريد بها إثبات علو الله على خلقه ، وإنما أريد
بها علو المكانة ، والقدر .

قيل : فكان يجب على المتكلم بها أن يبين للناس الحق ، الذي يجب أن
يؤمن به ويعتقد ، ظاهراً وباطناً ، وأنه لم يرد بهذا الكلام مفهومه ، ومقتضاه .

فإن قيل : إنه تكلم بالمجاز ، المخالف للحقيقة .

قيل : من المعلوم باتفاق العقلاء أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز ، فلا
بد أن يقرن بمخاطبه ما يدل على إرادة المعنى المجازى ، فإذا كان الرسول - ﷺ -

(١) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .

الذى بين للناس ما نُزِّل إليهم ، يعلم أن المراد بالكلام خلاف مقتضاه وظاهره ، وجب عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرد ، ولا سيما إذا كان ذلك المعنى باطلا ، ولا يجوز اعتقاده فى الله - تعالى - . وهذا يجب ولو لم يخاطبهم بما يفهم منه خلاف الحق ، الذى يجب اعتقاده ، إذا كان مخوفا عليهم ، فكيف إذا كان فى كلامه ما يفهم منه خلاف الحق » (١)

فلا عذر لمن أنكر علو الله ، ونفاة العلو ، والصفات ، يقولون : إن هذه النصوص لم يرد بها الحقيقة . والظاهر المفهوم منها ، والقرينة الصارفة عن ذلك هى دلالة العقل ، فاكتفى المتكلم بهذه القرينة ، لأنها عقلية ، عند كل عاقل .

فيقال لهم : إذا كان ماتكلم به الله ورسوله ، إنما يفيد مجرد الضلال ، الهدى إنما يستفاد من العقول ، فلماذا ينزل الله الكتاب ، ويرسل الرسول ؟ للعناء والشقاء ؟ فإن تركهم على جاهليتهم خير لهم من أن ينزل عليهم الكتاب ، ويرسل إليهم الرسول ، هذا هو لازم هذا القول الباطل .

ويقال أيضاً : الرسول جاء بإثبات العلو ، والصفات ، وذلك أظهر فى العقل من قولكم .

ثم الرسول - ﷺ - إما أن يتكلم بالهدى ، أو بالضلال ، أو يسكت عنهما .

ومعلوم أن السكوت عنهما خير من التكلم بالضلال .

وبذلك يعلم بالعقل ، أنه لم يسكت عن بيان الحق ، والهدى ، والتحذير من اعتقاد الباطل ، وبذلك يتفق ما جاء به الرسول - ﷺ - مع العقل الصحيح ، الذى لم تفسده الشياطين ، والهوى المضل .

فالعقل يوافق ما جاء به الرسول - ﷺ - لا ما يقوله نفاة الصفات ،

وليس بين العقل الصريح ، والنقل الصحيح تناقض أصلاً ، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل وغيره .

فقولهم : إن القرينة الصارفة عن الظاهر ، هي العقل ، خطأ محض ، إذ العقل يوافقها لا يخالفها كما توهموه ، كما أن إثبات الصفات ليس فيه تشبيه كما زعموا ولكن الأوهام ، وسوء الظن بالله ، ورسوله أرادهم .

ومن حججهم الباطلة التي حملتهم على صرف النصوص ، عن ظاهرها ، ورأوا وجوب تأويلها لذلك ، هي قاعدتهم ، في أن جميع الأجسام حادثة لملازمتها للأعراض التي هي الصفات ، فوجب تنزيه الرب - تعالى - عن كل صفة تستلزم التركيب ، أو الجسمية . لأن الأعراض لا تكون إلا في جسم ، والجسم لا بد أن يكون مركباً من الجواهر - كما زعموا - ولهذا قالوا : إن الاستواء ، والعلو يلزم منهما النقلة ، والمكان والحركة ، وهذه من صفات الأجسام .

فيقال لهم : الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، مما جوزتم لأنفسكم أن تصفوه به ، لا يعقل أن تقوم إلا بجسم مع أنكم تسمون ، الصفات أعراضاً ، ولا فرق بين ما أثبتتموه ، وما نفيتتموه في المعنى ألا يجوز لغيركم أن يصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله بأنه - تعالى - مستوي على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، وبأن له وجهاً ويدين حقيقة . ونحو ذلك مما تسمونه أبعاضاً ، تستلزم التركيب ، والجسمية ، كما افترتتموه ، على رب العالمين ، ورميت من وصف الله - تعالى - بما وصف به نفسه بالتشبيه ، والتجسيم ، مع أنهم أقرب إلى المعقول منكم ، وقد سلم لهم المنقول بدون تحريف .

قال شيخ الإسلام : « ولا ريب أن الله موجود ، قائم بنفسه ، وترفع إليه الأيدي عند الدعاء ، كما فطر على ذلك جميع عباده ، ولا ريب أنه تجوز رؤيته في الآخرة كما أخبر بذلك في كتابه ، فإذا سمو هذه المعاني تجسيمياً ، فلا ينبغي لنا أن نترك ما أخبر الله به عن نفسه ، في كتابه ، ونذهب إلى تأويلها ، لمجرد هذه

التسميات الحادثة المبتدعة» (١) .

وقال أيضا : « ولفظ الظاهر فيه إجمال ، واشترك ، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين ، أو ما هو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد .

والسلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ، ولا يترضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً ، وباطلاً .

والله سبحانه - وتعالى - أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه ، لا يظهر منه الا ما هو كفر ، أو ضلال .

والذين يجعلون ظاهرها ذلك ، يغلطون من وجين :

أحدهما : أنهم جعلوا المعنى الفاسد ، هو ظاهر نص كلام الله وكلام رسوله ، ولذلك أوجبوا تأويله ، ليخالف الظاهر الذى زعموا ، وليس الأمر كذلك .

الثانى أنهم ردوا المعنى الصحيح الذى هو ظاهر اللفظ ، لاعتقادهم أنه باطل كقولهم فى الحديث : « قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن » . قالوا : لا يجوز أن يراد به الظاهر ، فليس فى قلوبنا أصابع .

ومعلوم أنه ليس ظاهره أن القلوب متصلة بالأصابع ، ولا ماسة لها ، ولا أن أصابع الرحمن فى جوف العبد ، ولا يفهم من قول القائل : هذا بين يدي ، ما يقتضى مباشرته ليديه .

وإذا قيل : إن السحاب بين السماء والأرض ، لم يقتضى أن يكون مماساً للسماء ، أو الأرض ونظائر ذلك كثيرة» (٢)

(١) مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٤٣ - ٤٥ ملخصاً .

(٢) المصدر المشار إليه .

وقال أبو نصر السجزي في الإبانة : وأئمتنا كسفيان ، ومالك ،
والحمادين ، وابن عينية ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ،
متفقون على أن الله فوق العرش ، وعلمه في كل مكان ، وأنه ينزل إلى السماء
الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ، ويتكلم بما يشاء » (١)

وقال ابن عبد البر في شرحه لحديث النزول : « وفيه دليل على أن الله - عز
وجل - في السماء على العرش ، من فوق سبع سماوات ، كما قالت الجماعة ، وهو
من حجبتهم على المعتزلة والجهمية ، في قولهم : إن الله - عز وجل - في كل
مكان ، وليس على العرش . والدليل على صحة ما قال أهل الحق : قوله -
تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (٢) وقوله - تعالى - : (ثم استوى على
العرش ، مالكم من دونه من ولي ، ولا شفيع) (٣) وقوله - تعالى - : (ثم استوى
إلى السماء وهي دخان) (٤) وقوله - تعالى - : (إذا لا تبغوا إلى ذي العرش
سبيلا) (٥) وقوله - تعالى - : (إليه يصعد الكلم الطيب) (٦) وقوله -
تعالى - : (فلما تجلى ربه للجبل) (٧) وقوله - تعالى - : (أأمنتم من في
السماء أن يخسف بكم الأرض) (٨) وقوله - تعالى - : (سبح اسم ربك
الأعلى) ، وهذا من العلو ، وكذلك قوله - تعالى - : (العلى العظيم) (٩)

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٦٥٦ .

(٢) الآية ٥ من سورة طه .

(٣) الآية ٤ من سورة الم سجدة .

(٤) الآية ١١ من سورة حم فصلت .

(٥) الآية ٤٢ من سورة الإسراء .

(٦) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٧) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٨) الآية ١٦ من سورة الملك .

(٩) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

وقوله - تعالى - : (الكبير المتعال) ^(١) ، وقوله - تعالى - : (رفيع الدرجات ذو العرش) ^(٢) وقوله - تعالى - : (يخافون ربكم من فوقهم) ^(٣) ، والجهمى يزعم أنه أسفل .

وقال جل ذكره : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) ^(٤) وقال - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) ^(٥) وقال - تعالى - لعيسى : (إني متوفيك ورافعك إليّ) ^(٦) وقال - تعالى - : (بل رفعه الله إليه) ^(٧) وقال - تعالى - : (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار) ^(٨) وقال - تعالى - (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) ^(٩) وقال - تعالى - : (ليس له دافع . من الله ذى المعارج) ^(١٠) والعروج الصعود . وأما قوله - تعالى - : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم) فمعناه : من على السماء ، يعنى على العرش ، وقد يكون « فى » بمعنى « على » ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) ^(١١) وقوله - تعالى - : (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) ^(١٢) أى على الأرض وهذا كله يعضده قوله - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) ^(٥) وما كان مثله مما تلونا من الآيات فى هذا الباب ^(١٣) ا هـ

-
- (١) الآية ٩ من سورة الرعد .
 - (٢) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .
 - (٣) الآية ٥٠ من سورة النحل .
 - (٤) الآية ٥ من سورة الم سجدة .
 - (٥) الآية ٤ من سورة المعارج .
 - (٦) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
 - (٧) الآية ١٥٨ من سورة النساء .
 - (٨) الآية ٣٨ من سورة فصلت .
 - (٩) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .
 - (١٠) الآيتان ٢ و ٣ من سورة المعارج .
 - (١١) الآية ٧١ من سورة طه .
 - (١٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
 - (١٣) التمهيد ج ٧ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

وقال أيضا : « وما روى عن ابن عباس في قوله - تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (١) أنه قال : على جميع برئته ، فلا يخلو منه مكان » .
 فالجواب : أنه منكر ، ونقلته مجهولون ، وضعفاء . وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول ، فكيف يحتاجون بمثل هذا الأثر الساقط . وأما تعلقهم بقوله - تعالى - : (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) (٢) وقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الآية (٣) وزعمهم أن الله - تبارك وتعالى - فى كل مكان بنفسه وذاته .

فيقال لهم : أنتم لاتخالفون بأنه ليس فى الأرض دون السماء ، بذاته ، فيجب حمل هذه النصوص على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وهو أنه فى السماء إله معبود ، من أهل السماء ، وفى الأرض ، إله معبود ، من أهل الأرض ، وهو الذى قاله أهل العلم بالتفسير .

وقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) (٣) الآية ليس فيها حجة لهم ، لأن علماء الصحابة ، والتابعين ، الذين روى عنهم التفسير ، قالوا فى هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، ولم يخالفهم فى ذلك من يعتد به .

ثم ذكر عن ابن مسعود : قال : « الله فوق العرش ، لا يخفى عليه شئ من أعمالكم . وذكر عن الضحاك ، وسفيان الثورى مثله » (٤) .

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٤) التمهيد ج ٧ ص ١٣٣ - ١٣٩ ملخصا .

فتبين بما ذكره أن هذه الآيات التي تعلق بها نفاة العلو ، تدل على عكس قولهم ، فهي متفقة مع النصوص الصريحة في الدلالة على علو الله تعالى .
ومن الحجج القاطعة أن الله تعالى فوق السماوات على عرشه ، أن كل داع يدع الله - تعالى - يجد في نفسه دافعا يدفعه إلى الاتجاه إلى الله فوقه ، وهو أمر ضرورى وقطعى ، فلا يمكن لأى سائل يسأل الله ويطلب منه إلا رفع يديه ، واتجه بقلبه ، ونظره إلى من يستغيث به الذى هو عال فوق جميع مخلوقاته مستوي على عرشه ، فالعلم بذلك فطرى ضرورى عقلى ، ونصوص الشرع جاءت مؤيدة ذلك مقررة له .

قال شيخ الإسلام : « ذكر محمد بن طاهر المقدسى ، عن الشيخ الجليل أبى جعفر الهمداني ، أنه حضر مجلس أبى المعالى الجوينى ، وهو يقول : كان الله ، ولاعرش [ولامكان] وهو على ما [كان] عليه [قبل خلق المكان] أو كلام من هذا المعنى ، فقال : ياشيخ ، دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قط : ياالله إلا وجد من قلبه ضرورة ، بطلب العلو ، ولا يلتفت يمينه ، ولايسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ .
فصرخ أبو المعالى ، ولطم رأسه ، وقال : « حيرنى الهمداني ، حيرنى الهمداني » (١)

وقد تعلق نفاة العلو أيضا : بأن الله - تعالى - لوكان في مكان ، لأشبهه المخلوقات لأن ماأحاطت به الأمكنة ، فهو مخلوق .
فيقال : هذا نشأ عن القياس الفاسد ، والتشبيه المستكن في نفوس هؤلاء إذ لو آمنوا بأن الله على كل شيء قدير ، وأنه ليس كمثل شيء ، ماانطلت هذه الشبه وهذا الهراء على نفوسهم .
ويقال أيضا : أستم تقرون بأن الله - تعالى - موجود قبل خلق الكون ،

(١) الاستقامة ج ١ ص ١٦٧ .

فهو تعالى كما قال رسول الله - ﷺ -: « كان الله ، ولم يكن شيء معه » (١)
 ونحن وأنتم وكل العقلاء ، لا نعقل وجود أحد منا ، إلا في مكان ، وماليس
 في مكان ، فهو عدم ، والله بخلاف ذلك ، فلا يجوز أن يقاس بخلقه كما فعلتم
 قلمت : لو كان في مكان ، لأشبهه خلقه .

فإن زعموا أنه يلزم من كونه تعالى في العلو ، التغير ، والانتقال ، لأنه تعالى
 كان ، ولا مكان ، فلما خلق المكان ، صار في العلو ، فزال عن صفته في الأزل
 وصار في مكان .

قيل : وأنتم يلزمكم أقبح من ذلك ، وهو زعمكم أنه - تعالى - كان ،
 لافي مكان ، ثم صار في كل مكان ، فقد تغير عندكم معبودكم ، وانتقل من
 لامكان ، إلى كل مكان . وهذا لازم لكم ، لانفكاك لكم منه .

وقولهم : كان الله ، ولا مكان ، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق
 المكان . كلام فاسد ، متناقض ، وذلك أن النفاة للاستواء والعلو ، وغيرهما ، على
 قسمين :

قسم يقول : إن الله لا فوق ، ولا تحت ، ولا يمين ، ولا شمال ، ولا أمام ،
 ولا خلف ولا داخل العالم ، ولا خارجه ، وهذا لا يفهم منه إلا العدم المحض ،
 فليس له وجود فعلي على هذا الوصف ، فهو إذاً ليس له مكان أصلاً ، إذ لا
 وجود له .

وقسم يقول : إنه في كل مكان ، فيلزم أنه كان في كل مكان ، قبل خلق
 المكان ، فهو إذاً في هذا الكون كله ، قبل خلقه له ، وهذا قول ظاهر الفساد ،
 إذ معناه : كان في الأمكنة ، قبل خلقها .

فالحق « أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في نفسه ، ولا في فعله ، وفي

(١) تقدم هذا الحديث مشروحا ، وبين أن هذا اللفظ مروى بالمعنى ، وأن

الصواب « ولم يكن شيء قبله » .

صفاته ، ولا في مفعولاته فإذا رام الإنسان أن ينفي شيئاً مما يستحقه ، لعدم نظيره في الشاهد المحسوس ، صار ما يثبتته بدل نفيه أبعد عن المعقول ، والمشهود « (١) .
ومن الحجج المشهورة على وجوب علو الله تعالى : ماتقدم في كلام ابن أبي العز : وهو أن يقال : لما خلق الله الخلق ، لا بد أن يكون خلقه بائناً منه ، فلا يجوز أن يكون الخالق - جل وعلا - في المخلوق ، وأن يكون المخلوق حاوياً له ، - تعالى عن ذلك ، فلا بد أن يكون بائناً عنه ، ولا يجوز أن يكون المخلوق فوق الخالق - تعالى - وتقدس ، فلا بد أن يكون عالياً فوق خلقه .

قال شيخ الإسلام : « معرفة القلوب ، وإقرارها بفطرة الله التي فطرها عليها ، أن ربهما فوق العالم ، ودلالة الكتاب والسنة على ذلك ، وظهور ذلك في خاصة الأمة وعامتها ، وكلام السلف في ذلك ، أعظم من كونه - تعالى - يرى بالأبصار يوم القيامة ، أو أن رؤيته بالأبصار جائزة .

ويشهد لهذا أن الجهمية ، أول ماظهروا في الإسلام ، في أوائل المائة الثانية . وكان حقيقة قولهم في الباطن ، تعطيل الرب - تعالى - من الصفات كلها ، ولا يصفونه - تعالى - إلا بالسلب المحضة ، التي لا تنطبق إلا على المعدوم ، وكانوا في الباطن ينكرون أن يرى ، أو يتكلم ، أو أنه فوق العرش ، أو أن يكون موصوفاً بالصفات التي جاءت بها كتب الله ، أو دلت عليها مع ذلك الدلائل العقلية ، لكن ما كانوا يظهرون من قولهم للناس ، ما هو ظاهر البطلان ، وما ليس فيه شبهة مثل نفى العلو المعروف ، المتيقن من الدين بالضرورة عند العامة ، والخاصة ، وإنما يظهرون ما فيه شبهة ، وهم عليه حجة ، ويكونون فيه أقل مخالفة لما يعلمه الناس من الحجج القطرية ، الشرعية . وهذا شأن كل من أراد أن يظهر خلاف ما عليه أمة من الأمم من الحق ، فإنهم لا ينقضون الأصول العظيمة ، الظاهرة ابتداءً « (٢) .

ومن المؤسف أن بعض ضلالات الذين ذكرهم الشيخ ، قد ورثها كثير من علماء المسلمين كالأشعرية ، الذين يزعمون أنهم أعداء لهم وخصوم ، مع أنهم

(١) بيان تلبس الجهمية ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) بيان تلبس الجهمية ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ بتصرف .

يتفوقون معهم على إنكار علو الله تعالى ، واستوائه على عرشه ، ومجيئه لفصل القضاء بين عباده ، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة ، كما أخبر به رسول الله - ﷺ .

كما أنهم يؤولون الصفات إلا قليلا ، تأويلا يؤول إلى الإنكار ، مثل اليدين ، والرجلين ، والوجه ، والرحمة ، والمحبة ، والضحك ، والرضا ، والغضب ، والسخط ، والمقت . وغير ذلك .

ويوافقون الجهمية في كون القرآن مخلوقا ، فإنهم يجعلون الكلام قسمين : نفسى ، وهو المعنى القائم بالنفس ، وهذا هو الذى يصفون الله به ، ولفظى حرفى وهو المكتوب فى المصاحف ، وهو ليس كلاما لله عندهم ، بل هو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق ، وهذا قول الجهمية ، الذين كفرهم السلف من أجله .

والمقصود أن علو الله - تعالى - واستواءه على عرشه ثابت بنصوص الكتب المنزلة على رسل الله ، وبالفطر ، التى عليها عباده ، وبالعقول التى لم تنتكس بفعل الشياطين ، وبإجماع أهل العلم والإيمان ، من جميع الأمم ، كما تقدمت الإشارة إليه . ولم يعرف خلاف فى هذه المسألة ، ونحوها إلا بعد ما دخل كثير من الزنادقة فى الإسلام نفاقا ، وقصدوا لإفساد الدين ، بعد المائة الأولى للهجرة ، وإن كان قد وجد قبل ذلك بعض المفسدين ، المتطرفين ، الذين كان لهم الأثر السئ فى الأمة .

قال شيخ الإسلام : « افترق الناس ، فى علو الله ، واستوائه ، أربع فرق :

الأولى : الجهمية ، النفاة ، يقولون : ليس داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا فوق ، ولا تحت ، وجميع الطوائف من أهل البدع يتمسكون بنصوص ، إلا الجهمية .

وقسم ثان منهم يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، ويدخل فيهم الأشاعرة ، وهؤلاء هم الفرقة الثانية .

الثالثة : من يقول : إنه فوق العرش ، وهو في كل مكان ، ويزعم أنه بذلك يجمع بين النصوص .

الرابعة : المتبعون للكتاب ، والسنة ، الذين أثبتوا ما أثبتته الله ، ورسوله ، من غير تحريف ، فأمنوا بأن الله فوق سماواته ، مستوٍ على عرشه « (١) »

وقد تقدم ذكر بعض الآيات الدالة على علو الله تعالى صراحة ، وبعض الأحاديث مما ذكره البخارى ، وغيره .

ومما لم يذكره ، قصة معراج الرسول - ﷺ - إلى ربه فوق السماوات كلها ، وهى ثابتة ثبوتاً قطعياً بدون ريب .

وفى حديث الرقية : « ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك » (٢)

وفى حديث الأوعال : « والعرش فوق ذلك ، والله فوق عرشه ، وهو يعلم ما أنتم عليه » (٣)

وفى سنن أبى داود ، عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول الله - ﷺ - أعرابى فقال : يارسول الله ، جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله ﷺ . حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، وقال : ويحك أتندرى ما الله ؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سماواته وأرضه هكذا ، وقال بأصابعه ، مثل القبة « (٤) »

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١ ملخصاً .

(٢) رواه أبو داود فى السنن ج ٤ ص ٢١٨ رقم ٣٨٩٢ ، وأحمد فى المسند ج ٦ ص ٢١ .

(٣) رواه أبو داود ج ٥ ص ٩٣ والترمذى وقال : حسن غريب ج ٥ ص ٤٢٤ رقم ٣٣٢٠ وبين ماجه ج ١ ص ٦٩ وأحمد فى المسند ج ١ ص ٢٠٦ و ٢٠٧ وغيرهم .

(٤) أخرجه أبو داود فى السنن ج ٥ ص ٩٤ ، وأبو سعيد الدارمى فى الرد على الجهمية ص ٢٧٢ ، وفى الرد على المريسي ص ٤٤٧ .

وفي خطبته صلى الله عليه وسلم - في عرفة ، في أعظم جمع اجتمع له صلى الله عليه وسلم بعدما أمر ، ونهى ، جعل يقول : « ألا هل بلغت » ؟ فيقولون : نعم . عند ذلك يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكها إليهم ، ويقول : اللهم أشهد غير مرة (١) .

والنصوص في ذلك كثيرة جدا ، والحق في هذه المسألة واضح جلي ، بل وفي كل ما يجب لله تعالى ، وما يمتنع عليه ، ومعلوم أن الله - تعالى - قد أكمل لهذه الأمة دينها على لسان رسوله ، وأتم عليها النعمة بذلك ، وأنزل كتابه فيه تبيان كل شيء ، ومعرفته تعالى بما له من الأوصاف ، ومعرفة ما يمتنع عليه هي أجل أمور الدين وأعظم أصوله ، فلا بد أن يكون هذا قد بين غاية البيان .

ثم إنه ليس بين علو الله تعالى على جميع خلقه ، ومعيته لخلقه ، وقربه من عباده ، منافاة فعلوه - تعالى - واستواؤه على عرشه ، ثابت ثبوتا قطعياً ، كما وضح ذلك تعالى في كتابه ، وبينه رسوله - صلى الله عليه وسلم - وكذلك معيته تعالى لخلقه ، قد وضحها وبينها رسوله ، فوجب الإيمان بذلك ، فكما أنه تعالى مستوٍ على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، حقيقة ، فهو كذلك موصوف بالقرب ، والمعية على الحقيقة .

قال شيخ الإسلام : « لا يخالف ما ثبت من علو الله ، وأنه فوق العرش ، معيته لخلقه ، الثابتة بمثل قوله : (وهو معكم أينما كنتم) (٢) .

وقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة ، فإن الله قبَل وجهه » (٣) ونحو ذلك .

وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة ، كما جمع الله بينهما في

(١) تقدم أنه أخرجه مسلم .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) رواه البخارى في الصلاة باب ٣٣ ص ٧٥ وفي أماكن متعددة ، ومسلم ج

قوله - تعالى - : (هو الذى خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعلمون بصير) (١) فأخير - تعالى - أنه فوق العرش ، يعلم كل شئ ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبى - ﷺ - فى حديث الأوعال « والله فوق العرش ، وهو يعلم ماأنتم عليه » (٢) .

وذلك أن كلمة مع فى اللغة ، إذا أطلقت ، لم يكن ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة ، أو محاذاة ، عن يمين أو شمال ، فإذا قيدت بمعنى من المعانى ، دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى ، لمجامعته لك ، وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله - تعالى - : (وهو معكم أينما كنتم) (٣) دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ، ومقتضاها : أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ، ومهين ، عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف : إنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب ، وحقيقته .

وقوله : (لاتخزن ، إن الله معنا) (٤) حق على ظاهره ، ودلت الحال ، على أن حكم هذه المعية : الاطلاع ، والنصر ، والتأييد ، ومثلها قوله : (إننى معكما أسمع وأرى) (٥) وقوله - تعالى - : (إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٢) تقدم ذكر من خرجه ص ٤٧٦ .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٥) الآية ٤٦ من سورة طه .

محسنون (١) حق ، وحكمها النصر ، والتأييد « (٢) .

والمعية نوعان : عامة ، وخاصة .

فالأولى ، هي المذكورة في مثل قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) (٣) ،

والثانية هي المذكورة في مثل قوله تعالى : (إنني معكما أسمع وأرى) (٤) ، فهذه خاصة بأنبيائه وأوليائه ، وعباده المؤمنين ، فهو - تعالى - معهم دون أعدائهم ، معهم بسمعه ، ورؤيته ونصره ، وتأيدته ، كما أنه - تعالى - معهم بإحاطته وقبضته .

والمعية لاتدل على المخالطة ، والممازجة ، وإنما تدل على المصاحبة ، كما قال رسول الله - ﷺ - : « اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل » (٥) .

فهو - سبحانه - مع المسافر في سفره ، ومع أهله في وطنه ، وهو فوق عرشه ، وكل ذلك على ظاهره ، غير محتاج إلى تأويل ، ولا يلزم منه أن تكون ذاته مختلطة بذوات خلقه تعالى الله وتقدس عن ذلك ، وذلك لأن المفهوم من المعية في اللغة العربية المصاحبة والمقارنة ، حكمها حسب مورد الخطاب ، فقوله - تعالى - (محمد رسول الله والذين معه) (٦) أى على الإيمان ، لا أن ذواتهم حالة في ذاته ، بل هم مصاحبون له ، ومتبعون له على الإيمان ، وقوله : « فأولئك مع المؤمنين » يدل على موافقتهم ، في الإيمان ، وموالاتهم .

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٥) رواه مسلم في الصحيح ج ٢ ص ٩٧٨ الحديث رقم ١٣٤٢ ورواه غيره .

(٦) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

فإنه - تعالى - مع عباده ، يراهم ، ويسمع كلامهم ، وهو محيط بهم ، وعلمه بهم من لوازم معيته لهم ، وليست المعية هي العلم كما يتوهمه بعض الناس ، فعلمه تعالى محيط بكل شيء ولا يختلف أو يتغير ، ولذلك صارت المعية إلى خاصة ، وعامة ، وكل واحدة لها مقتضاها وحكمها ، فمن مقتضى العامة : المراقبة ، والتخويف ، والاطلاع على جميع التصرفات ، وماتكنه الصدور .
ومن مقتضى الخاصة : النصر ، والتأييد ، والحفظ .

وتفسير من فسرها بالعلم من السلف ، يقصد بيان أن الله ليس مختلطاً بخلقه أو حالاً فيهم ، أو أن شيئاً من مخلوقاته تحويه ، أو تظله ، أو تقله - تعالى - وتقدس .

وأما القرب ، فقد جاء على صيغتين : الإفراد نحو قوله تعالى - : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا لى لعلمهم يرشدون) (١) وكما فى حديث أبى موسى المتقدم : « إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وهو تعالى فوق عرشه ، ويقرب ممن يشاء من خلقه ، كيف يشاء ، كما قرب من موسى - عليه السلام - حين كلمه ، وهو فوق عرشه ، فوق السماوات كلها فلا تنافى بين علوه ، وقربه ومعيته ، لأنه تعالى أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، وهو محيط بكل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير . - تعالى - الله عن ظنون السوء الكاذبة .

فعلو الله العلى العظيم ، واستوائه على عرشه ، ومعيته وقربه كل ذلك ثابت له حق على ظاهره ، كما أخبر به تعالى عن نفسه ، وأخبرت به رسله فالكل ثابت لله تعالى فى الكتب الإلهية ، وفى نصوص الأنبياء .

وأهل الفطرة العقلية السليمة ، من الأولين والآخرين ، يقولون : إنه تعالى فوق عرشه ، عالٍ على خلقه ، وهو معهم ، بعلمه ورؤيته ، وسمعه وإحاطته ، وقبضته وهيمته عليهم .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

ومع أنبياءه ، وأوليائه بذلك وينصره ، وتأيدته ، وحفظه .

ومعيته تعالى من صفاته الخاصة به .

وأما الصيغة الأخرى للقرب : صيغة الجمع كقوله تعالى : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (١) وهذا يقصد به في لغة العرب ، الواحد العظيم ، الذى له عبيد يطيعونه ، ويسارعون في أمره وإذا وقع الفعل منهم عن أمره قال : نحن فعلنا ، كما يقول الرئيس نحن أمرنا بكذا . والله تعالى رب الملائكة ، وخالقهم ، وخالق أفعالهم ، وهم يمثلون لأمره ، (لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون) (٢) ، (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (٣) مع أنه تعالى غنى بذاته عن ملائكته ، وجميع خلقه ، وهو الذى أقدر خلقه على ما يفعلون ، وأعطاهم القدرة على ذلك ، وإذا شاء سلهم ذلك ، فإذا قال تعالى - : (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) (٤) إذا كان المراد الملائكة كان من هذا الباب .

والمقصود أن علو الله - تعالى - ثابت له بالعقل ، وأدلة الكتاب ، وما بلغه الرسول - ﷺ - أمته ، وثابت بالضرورة الفطرية ، والأدلة عليه لا تحصى ومنكره ، منكر للمعلوم بالضرورة من الدين ، والمعلوم بالضرورة العقلية الفطرية وليس بين علو الله واستواءه على عرشه ، وبين معيته لخلقه ، ولأوليائه وأنبياءه ، وقربه منهم تعارض .

★ ★ ★

تم الجزء الأول من الشرح ويليهِ الجزء الثانى وأوله :
باب قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة » .

(١) الآية ١٦ من سورة ق .

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم .

(٣) الآية ٢٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

١ - فهرس الآيات التي استدل بها البخارى

- ١ - (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) الآية
٧٥ من سورة الإسراء
- ٢ - (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الآية ٥٨ من سورة الذاريات ٩٢
- ٣ - (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية ٢٦ من سورة الجن ١٠٣
- ٤ - (إن الله عنده علم الساعة) الآية ٣٤ من سورة لقمان . ١٠٣
- ٥ - (أنزله يعلمه) الآية ١٦٦ من سورة النساء . ١٠٣
- ٦ - (وما تحمل من أثنى ولا تضع إلا يعلمه) الآية ١١ من سورة فاطر ،
١٠٣ والآية ٤٧ من سورة حم فصلت .
- ٧ - (إليه يرد علم الساعة) الآية ٤٧ من سورة فصلت . ١٠٣
- ٨ - (السلام المؤمن) الآية ٢٣ من سورة الحشر . ١٢١
- ٩ - (ملك الناس) الآية ٢ من سورة الناس . ١٣٧
- ١٠ - (وهو العزيز الحكيم) أول سورة الحديد وفي مواضع كثيرة من القرآن ١٤٥
- ١١ - (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) الآية ١٨٠ من سورة الصافات ١٤٥
- ١٢ - (والله العزة ولرسوله) الآية ٨ من سورة المنافقون . ١٤٥
- ١٣ - (وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق) الآية ٧٣ من سورة الأنعام . ١٦٣
- ١٤ - (وكان الله سميعا بصيرا) الآية ٥٨ و ١٣٤ من سورة النساء . ١٨٣
- ١٥ - (قل هو القادر) الآية ٦٥ من سورة الأنعام . ٢٠١
- ١٦ - (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) الآية ١١٠ من سورة الأنعام . ٢١١
- ١٧ - (ويحذركم الله نفسه) الآية ٢٨ و ٣٠ من سورة آل عمران . ٢٤٩
- ١٨ - (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) الآية ١١٦ من سورة المائدة ٢٤٩
- ١٩ - (كل شئ هالك إلا وجهه) الآية ٨٨ من سورة القصص . ٢٧٣
- ٢٠ - (ولتصنع على عينى) الآية ٣٩ من سورة طه . ٢٨١
- ٢١ - (تجرى بأعيننا) الآية ١٤ من سورة القمر . ٢٨١
- ٢٢ - (هو الله الخالق البارئ المصور) الآية ٢٤ من سورة الحشر . ٢٩١
- ٢٣ - (لما خلقت بيدي) الآية ٧٥ من سورة ص . ٢٩٧

- ٢٤ - (وكان عرشه على الماء) الآية ٧ من سورة هود . ٣٤٩
- ٢٥ - (وهو رب العرش العظيم) الآية ١٢٩ من سورة التوبة . ٣٤٥
- ٢٦ - (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله) الآية ١٩ من سورة الأنعام . ٣٤٣
- ٢٧ - (تعرج الملائكة والروح إليه) الآية ٤ من سورة المعارج . ٤٣٩
- ٢٨ - (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) الآية ١٠ من سورة فاطر . ٤٣٩

٢ - الأحاديث المشروحة ، التي استدلت بها البخارى على ترتيب الكتاب

- ١ - حديث معاذ : « إنك تقدم على قوم ، من أهل الكتاب ، فليكن أول ماتدعوهم إليه ، إلى أن يوحدوا الله » . ٣٢
- ٢ - حديثه أيضا : « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » . ٤٤
- ٣ - حديث أبى سعيد الخدرى : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد يريدها » ٥١
- ٤ - حديث عائشة : « أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هو الله أحد » . ٥٩
- ٥ - حديث جرير بن عبد الله : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » . ٧٧
- ٦ - حديث أسامة بن زيد : « كنا عند النبي ﷺ . إذ جاء رسول إحدى بناته » . ٨٠
- ٧ - حديث أبى موسى : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » . ٩١
- ٨ - حديث عبد الله بن عمر : « مفاتيح الغيب خمس » . ١١٠
- ٩ - حديث عائشة : « من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب » . ١١٥
- ١٠ - حديث ابن مسعود : « إن الله هو السلام ، ولكن قولوا التحيات لله » ١٣٠
- ١١ - حديث أبى هريرة : « إن الله يقبض الأرض يوم القيامة » . ١٣٩
- ١٢ - حديث أنس : « تقول جهنم قط قط وعزتك » ١٥٠
- ١٣ - حديث أبى هريرة : « يبقى رجل بين الجنة والنار » . ١٥٠
- ١٤ - حديث ابن عباس : « أن النبي ﷺ - كان يقول : أعوذ بعزة الذى لا إله إلا أنت » . ١٥٢
- ١٥ - حديث أنس مكرر : « لا يزال يلقي فيها وتقول : هل من مزيد » ١٥٤
- ١٦ - حديث ابن عباس : « كان النبي ﷺ يدعو من الليل : اللهم لك الحمد » ١٦٩
- ١٧ - حديث عائشة موقوفا : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات » . ١٨٨
- ١٨ - حديث أبى موسى : « أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا » ١٩٠
- ١٩ - حديث أبى بكر : « علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى قال : قل : اللهم إني ظلمت نفسى » . ١٩٣
- ٢٠ - حديث عائشة : « أن جبريل نادانى ، قال : إن الله قد سمع قول قومك لك » ١٩٨
- ٢١ - حديث جابر : « كان يعلم أصحابه الاستخارة » . ٢٠٤
- ٢٢ - حديث ابن عمر : « أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف : لاومقلب القلوب » . ٢١٣
- ٢٣ - حديث أبى هريرة : « إن لله تسعة وتسعين اسما » . ٢١٨

- ٢٢٩ - حديث أبى هريرة : « إذا جاء أحدكم فراشه فلينبضه » .
- ٢٥ - حديث حذيفة : « كان النبي ﷺ - إذا آوى إلى فراشه قال : اللهم باسمك أحيأ وأموت » .
- ٢٦ - حديث أبى ذر : « كان النبي ﷺ - إذا أخذ مضجعه من الليل قال : اللهم باسمك نموت ونحيا » .
- ٢٧ - حديث ابن عباس : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله » .
- ٢٨ - حديث عدى بن حاتم : « قلت : أرسل كلابى المعلمة » .
- ٢٩ - حديث عائشة : « قالوا : يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك . قال : اذكروا اسم الله وكلوا » .
- ٣٠ - حديث أنس : « ضحى النبي ﷺ بكيشين » .
- ٣١ - حديث جندب : « من ذبح قبل أن يصلى ، فليذبح مكانها أخرى » .
- ٣٢ - حديث ابن عمر : « لاتحلفوا بأبائكم » .
- ٣٣ - حديث أبى هريرة : فى قصة قتل حبيب .
- ٣٤ - حديث عبد الله بن مسعود « ما من أحد أغير من الله » .
- ٣٥ - حديث أبى هريرة : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه » .
- ٣٦ - حديثه أيضا : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى » .
- ٣٧ - « حديث جابر : « لما نزلت : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال النبي ﷺ : أعوذ بوجهك » .
- ٣٨ - حديث ابن مسعود : « إن الله لا يخفى عليكم ، أن الله ليس بأعور » .
- ٣٩ - حديث أنس « ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب » .
- ٤٠ - حديث أبى سعيد فى العزل : « ما عليكم أن لاتفعلوا » .
- ٤١ - حديث أنس فى الشفاعة : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا » .
- ٤٢ - حديث أبى هريرة : « يد الله ملى لأبغض نفقة » .
- ٤٣ - حديث ابن عمر مكرر : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض » .
- ٤٤ - حديث أبى هريرة : « يقبض الله الأرض » .
- ٤٥ - حديث ابن مسعود « أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله يمسك السماوات على إصبع » .

- ٤٦ - حديث المغيرة : « قال سعد : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربتته بالسيف ، فقال رسول الله ﷺ : تعجبون من غيرة سعد » الخ . ٣٤٠
- ٤٧ - حديث سهل بن سعد : « قال لرجل : أمعك شيء من القرآن ؟ » . ٣٤٦
- ٤٨ - حديث عمران بن حصين : « كان الله ولم يكن شيء قبله » . ٣٧٥
- ٤٩ - حديث أبي هريرة : « إن يمين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة » . ٣٨٨
- ٥٠ - حديث أنس : « جاء زيد يشكو ، فجعل النبي ﷺ - يقول : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » . ٣٨٩
- ٥١ - حديثه أيضا « نزلت آية الحجاب في زينب ، وأطعم عليها » ٣٩٣
- ٥٢ - حديث أبي هريرة : « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه » . ٣٩٦
- ٥٣ - حديث أبي هريرة : « من آمن بالله ، ورسوله ، وأقام الصلاة » الخ . ٣٩٨
- ٥٤ - حديث أبي ذر : « يا أباذر ، هل تدري أين تذهب هذه » يعنى الشمس ٤٠٨
- ٥٥ - حديث زيد بن ثابت : « أرسل إلى أبو بكر ، فتتبع القرآن » . ٤١٤
- ٥٦ - حديث ابن عباس : « كان النبي ﷺ - يقول : عند الكرب : لا إله إلا الله العليم الخليم » . ٤١٨
- ٥٧ - حديث أبي سعيد : « يصعقون يوم القيامة ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش » . ٤٢٧
- ٥٨ - حديث ابن عباس : « بلغ أباذر مبعث النبي ﷺ - فقال لأخيه : اعلم لى علم هذا الرجل » . ٤٤٢
- ٥٩ - حديث أبي هريرة : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار » . ٤٤٤
- ٦٠ - حديثه أيضا : « من تصدق بعدل ثمرة ، من كسب طيب » . ٤٤٧
- ٦١ - حديث ابن عباس : في دعاء الكرب المتقدم . ٤٥٠
- ٦٢ - حديث أبي سعيد : « بعث إلى النبي ﷺ بذهبية قسمها بين أربعة - وفيه فقال له رجل : يا محمد اتق الله » . ٤٥١
- ٦٣ - حديث أبي ذر مكرر : « سألت النبي ﷺ - عن قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها) » . ٤٥٧

٣ - فهرس الأبواب : حسب ترتيب البخارى رحمه الله

- ١ - باب ماجاء فى دعاء النبى ﷺ - أمتة إلى توحيد الله - تبارك وتعالى . ٣١
- ٢ - باب قول الله تبارك وتعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا
فله الأسماء الحسنى) ٧٥
- ٣ - باب قول الله تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . ٩١
- ٤ - باب قول الله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد) . ١٠٣
- ٥ - باب قول الله تعالى : (السلام المؤمن) . ١٢١
- ٦ - باب قول الله تعالى : (ملك الناس) . ١٣٧
- ٧ - باب قول الله تعالى : (وهو العزيز الحكيم) . ١٤٥
- ٨ - باب قول الله تعالى : (وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق) . ١٦٣
- ٩ - باب : (وكان الله سميعا بصيرا) . ١٨٣
- ١٠ - باب قول الله تعالى : (قل هو القادر) . ٢٠١
- ١١ - باب : مقلب القلوب . ٢١١
- ١٢ - باب : إن لله مائة اسم إلا واحدة . ٢١٥
- ١٣ - باب : السؤال بأسماء الله تعالى ، والاستعاذة بها . ٢٢٣
- ١٤ - باب : ما يذكر فى الذات ، والنعوت ، وأسامى الله عز وجل . ٢٤١
- ١٥ - باب قول الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) . ٢٤٩
- ١٦ - باب قول الله - عز وجل : (كل شىء هالك إلا وجهه) . ٢٧٣
- ١٧ - باب قول الله تعالى : (ولتصنع على عيني) . ٢٨١
- ١٨ - باب قول الله تعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور) . ٢٩١
- ١٩ - باب قول الله تعالى : (لما خلقت بيدي) . ٢٩٧
- ٢٠ - باب قول النبى ﷺ : « لاشخص أغير من الله » . ٣٣٥
- ٢١ - باب : (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله) . ٣٤٣
- ٢٢ - « وكان عرشه على الماء » . ٣٤٩
- ٢٣ - باب قول الله تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه) . ٤٣٩

٤ - فهرس بأهم المراجع للشرح

- ١ - اجتماع الخيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، للإمام ابن قيم الجوزية ، المطبعة المنيرية بتصحيح الشيخ عبد الله بن حسن وإبراهيم الشورى عام ١٣٥١ هـ .
- ٢ - إرشاد السارى ، المجلد العاشر منه - وهو شرح القسطلانى على البخارى ، صورته دار الفكر فى بيروت عن الطبعة السادسة مطبعة بولاق عام ١٣٠٦ هـ
- ٣ - الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .
- ٤ - إثثار الحق على الخلق ، لأبى عبد الله محمد بن المرتضى اليماني ، صورته دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة الأولى .
- ٥ - الاستيعاب لأبى عمر ابن عبد البر ، تحقيق البجاوى .
- ٦ - الإصابة للحافظ ابن حجر ، تحقيق البجاوى .
- ٧ - بدائع الفوائد لابن القيم ، الطبعة المنيرية .
- ٨ - بيان تليس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة المكرمة عام ١٣٩١ هـ
- ٩ - التمهيد شرح الموطأ - لابن عبد البر ، المجلد السابع طبعة المغرب
- ١٠ - التمهيد فى علم الكلام ، للباقلانى .
- ١١ - تفسير البغوى « معالم التنزيل » على هامش تفسير الخازن ، مطبعة مصطفى البانى الحلبى عام ١٣٧٥ هـ
- ١٢ - تفسير ابن كثير ، تحقيق عبد العزيز غنيم ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم البنا ، مطبعة الشعب بمصر .
- ١٣ - تفسير الطبرى ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المعارف بمصر .
- ١٤ - تفسير الطبرى ، مطبعة الحلبى ، الطبعة الثالثة عام ١٣٨٨ هـ
- ١٥ - تفسير أسماء الله الحسنى ، للزجاج .
- ١٦ - تهذيب الأسماء واللغات للنوى ، تصوير دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة المنيرية .
- ١٧ - تهذيب اللغة ، للأزهري ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .
- ١٨ - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، نشرته المكتبة العلمية بالمدينة عن المطبعة المنيرية .

- ١٩ - جلاء الأفهام لابن القيم ، المطبعة المنيرية عام ١٣٥٧ هـ .
- ٢٠ - حادى الأرواح لابن القيم .
- ٢١ - الحيدة فى الرد على المعتزلة ، لعبد العزيز الكنانى ، مطابع القصيم فى الرياض .
- ٢٢ - خلق أفعال العباد ، للبخارى ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشره على سامى النشار ، وعمار جمعى الطالبى .
- ٢٣ - درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم ، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .
- ٢٤ - الأذكار للنووى ، تحقيق محمد رضا خورشيد .
- ٢٥ - الروح لابن القيم ، مطبعة محمد صبيح ، الطبعة الثانية عام ١٣٧٦ هـ .
- ٢٦ - رد الإمام أحمد على الزنادقة والجهمية . ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشر على سامى النشار وزميله .
- ٢٧ - زاد المسير لابن الجوزى ، طبعة المكتب الإسلامى .
- ٢٨ - الأسماء والصفات لليهقى .
- ٢٩ - السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة .
- ٣٠ - السنة لابن أنى عاصم . تحقيق وتخرىج الألبانى .
- ٣١ - سنن أبى داود ، إعداد عزت عبيد الدعاس .
- ٣٢ - سنن الترمذى ، نشر المكتبة السلفية فى المدينة .
- ٣٣ - سنن النسائى « المجتبى » الطبعة الأولى ، المطبعة المصرية فى الأزهر .
- ٣٤ - سنن ابن ماجه ، رقم أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى .
- ٣٥ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، للالكائى ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان .
- ٣٦ - شرح الطحاوية ، لابن أبى العز ، الطبعة الثالثة .
- ٣٧ - شرح الكرماتى على البخارى ، صورة عن الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث ببيروت .
- ٣٨ - شرح مسلم للنووى ، المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ .
- ٣٩ - شرح العمدة [أحكام الأحكام] لابن دقيق العبد ، تحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة أنصار السنة .
- ٤٠ - شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى للنووى .
- ٤١ - الصحاح للجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية .
- ٤٢ - صحيح مسلم ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

- ٤٣ - طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ، مطبعة أنصار السنة .
- ٤٤ - عدة الصابرين لابن قيم الجوزية .
- ٤٥ - غريب الحديث ، لأبى عبيد ، طبعة حيدر آباد .
- ٤٦ - غريب الحديث للخطابى ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغزناوى ، من منشورات مركز البحث العلمى فى جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢ هـ .
- ٤٧ - فتح البارى ، للحافظ ابن حجر العسقلانى . المطبعة السلفية .
- ٤٨ - القاموس المحيط ، لمجد الدين الفيروزابادى . مطبعة السعادة بمصر .
- ٤٩ - كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة . تحقيق الهراس .
- ٥٠ - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، طبعة الرياض .
- ٥١ - مسند الإمام أحمد ، صورة المكتب الاسلامى عن الطبعة الأولى فى مصر .
- ٥٢ - مسند الإمام أحمد ، تحقيق وشرح أحمد شاكر ١٦ جزءاً ولم يكمل ، مطبعة المعارف بمصر .
- ٥٣ - مشارق الأنوار ، للقاضى عياض ، صورته دار الجيل عن الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٣ هـ .
- ٥٤ - المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى مطبعة مصطفى البابى .
- ٥٥ - منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طبعة بولاق .
- ٥٦ - منهاج السنة ، الجزء الأول والثانى ، تحقيق محمد رشاد سالم .
- ٥٧ - منهاج فى شعب الإيمان للحلبى ، مصور عن ثلاث نسخ مخطوطة ومطبوع فى بيروت .
- ٥٨ - موطأ الإمام مالك ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٥٩ - نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي ، ضمن مجموعة عقائد السلف سابقة الذكر .
- ٦٠ - النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة المنيرية عام ١٣٤٦ هـ .

٥ - فهرس الموضوعات

- مقدمة ، فيها بيان أن الله تعالى أتم على هذه الأمة نعمته ، وأن رسوله بين للناس الدين أتم بيان .
- ٣ - ٥
- ٥ ذكر بعض أسباب اختلاف الأمة ، في أصول الدين .
- ٦ أوضح الله تعالى ورسوله مسائل العقيدة أتم إيضاح .
- ٩ بدء الانحرافات عن النهج السوى .
- ١٢ أصابع يهودية ، ومجوسية تحطط لهدم الإسلام بالخفاء .
- ١٧ وصف المقرئى اختلاف الأمة ، متبعاً ذلك من مبدأ الإسلام إلى زمنه
- ٢٠ أكبر الفرق التي تنتسب إلى الإسلام ، وقد فارقت الحق في الجملة ، وهي أربع
- ٢٤ الأشعرية ، ومبدأ وجودها —
- ٢٦ مقاومة أهل البدع ، من قبل علماء السنة .
- ٢٧ الإمام البخارى ، وكتابه الجامع الصحيح .
- شروح الصحيح الموجودة بأيدى الناس اليوم غالبها على غير منهج البخارى
- ٢٨ خصوصاً في العقيدة
- ٢٩ المنهج المتبع في هذا الشرح
- ٣١ الرسول ﷺ بلغ أمته أنواع التوحيد ، وبينها لهم غاية البيان
- ٣٢ ترجمة معاذ بن جبل ، وعبد الله بن عباس
- ٣٤ اليمن ، لماذا سمى باليمن
- ٣٥ من هم أهل الكتاب الذين كانوا باليمن ؟ وما سبب مجيئهم إليه .
- ٣٧ معنى شهادة ألا إله إلا الله
- ٣٨ معنى شهادة أن محمداً رسول الله
- ٤٠ مبدأ العلم الإلهى وأصله
- ٤٠ أول ما يجب على العبد
- ٤١ انحراف المتكلمين في جعلهم أول واجب الشك أو النظر ، أو القصد إليه
- ٤٤ حق الله على العباد ، وحقهم عليه ، ومعنى العبادة
- ٤٧ معنى الإيجاب على الله تعالى - عند من يقول به
- ٤٩ الفروق بين الخالق ، والمخلوق
- ٥٣ قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، ومعنى ذلك

- ٥٥ تفاضل كلام الله - تعالى - وصفاته
- ٥٩ معنى كون « قل هو الله أحد » صفة الرحمن
- ٦١ ثبوت الصفات لله تعالى ، والرد على منكرها
- ٦٤ الفرق بين الأسماء ، والصفات .
- ٦٤ ثبوت صفة المحبة لله - تعالى - ووجوبه على عباده ، والرد على من أنكر ذلك
- ٦٩ الكلام على معنى الصمد ، والأحد
- ٧٥ أسماء الله تعالى كلها حسنى ، ومعنى ذلك
- ٧٨ صفة الرحمة ، وأدلة ثبوتها ، والرد على من أنكرها أو أولها
- ٩١ صفة القوة ، والمتانة .
- ٩٣ صفة الصبر ، والفرق بين الصبر ، والحلم
- ٩٥ ضلال الذين يسبون الدهر
- ١٠٠ الله تعالى يتأذى بفعل العبد ، ولكن لا يضره شيء
- ١٠٣ صفة العلم ، بيان أنه لا يعلم الغيب غيره تعالى
- ١٠٥ معنى قوله : (أنزله بعلمه)
- ١١٠ مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ، وبيان معنى تسميتها بذلك
- ١١٢ كذب الخراصين الدجاجلة ، الذين يلبيسون على الناس
- ١١٥ الرسول ﷺ - لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله
- ١١٦ لم ير النبي ﷺ ربه ليلة المعراج
- ١١٩ ضلال مدعى علم الغيب للرسول ﷺ
- ١٢١ معنى وصف الله تعالى بأنه السلام المؤمن
- ١٣٠ معنى قوله : « التحيات لله »
- ١٣٢ ذكر القول الصواب في معنى (السلام)
- ١٣٣ لا يلزم فيمن يخاطب أن يكون سامعا
- ١٣٤ الصواب : أن صيغة السلام على النبي ﷺ في الصلاة كما في حديث عبد الله ١٣٤
- ١٣٧ معنى الملك ، والفرق بينه وبين المالك
- ١٤٠ ثبوت الأفعال الاختيارية لله تعالى مثل القبض ، والبسط ، والنزول ، والمجيء
- ١٤١ خطأ من توهم في صفات الله تعالى ما في المخلوق
- ١٤٢ من هم المشبهة ، وهل تكلم بلفظ الجسم أحد من السلف

- ١٤٥ صفة العزة ، ومعناها . ومعنى قوله (رب العزة)
 ١٤٩ لا يخلف إلا بالله أو صفاته
 ١٥٢ التعوذ بصفات الله تعالى .
 ١٥٦ ثبوت القدمين لله تعالى ، والرد على من أنكرهما
 ١٦١ كلام جهنم ، وأدلة ذلك
 ١٦٥ كلام الله حق ، وهو من صفاته ، ويقوله أوجد الأشياء المخلوقة
 ١٦٦ الحق يطلق على عدة أمور
 ١٦٩ معنى الحمد ، والفرق بينه وبين المدح ، والشكر
 ١٧١ وصف الله تعالى بالنور ، وأدلة ذلك والرد على من أنكره
 ١٧٣ أنواع المضاف إلى الله تعالى
 ١٧٨ الرد على من أنكر أن الله تعالى يتكلم
 ١٨١ شرح حديث ابن عباس : « اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض » الخ .
 ١٨٢ صفة السمع والبصر وأدلة ذلك
 ١٩٠ شرح حديث أبي موسى : « أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم » الخ .
 ١٩٣ شرح حديث أبي بكر : « قلت علمني دعاء أدعو به في صلاتي » الخ
 ١٩٨ شرح حديث عائشة : « إن الله قد سمع قول قومك لك »
 ٢٠١ عموم قدرة الله - تعالى - وشموها لكل شيء
 خطأ الذين يدخلون المتضادات تحت قوله : (على كل شيء قدير) ثم يقولون إنه
 لا يقدر عليه ، وبيان أن المعلوم ليس شيئاً في الوجود
 ٢٠٢ حرص الرسول ﷺ على هداية أمته بمنعه أن يترك باب معرفة الله غير مبين
 ٢٠٥ موضح
 ٢٠٥ معنى الاستخارة ، وفيه تكون ، وأهميتها
 الله تعالى قادر على كل شيء ممكن ، الممتنع لنفسه ، والمعلوم ليس بشيء وبطلان
 تلييس الملاحظة في قولهم : « هل يقدر على خلق مثل نفسه » ، والفرق بين الممتنع
 لنفسه ، والممتنع لغيره

- ٢١١ لا يقدر العبد على الاهتداء حتى يجعله الله قادرا
- ٢١٥ معنى كون أسماء الله تعالى حسنى ✓
- ٢٢١ معنى قوله من أحصاها دخل الجنة ، وبيان أنها غير محصورة بهذا العدد
السؤال والاستعاذة بأسماء الله تعالى ، مراد البخارى ، وذكر الخلاف فى الاسم
والمسمى .
- ٢٢٣
- ٢٢٦ هل يقال : الصفات زائدة على الذات
- ٢٢٩ ذكر الله عند النوم ، واليقظة ، وسر ذلك
- ذكر الله تعالى عند الاتصال بالزوجة ، وبيان دخول ذلك فى قوله تعالى (والله
- الأسماء الحسنى فادعوه بها)
- ٢٣٤
- ٢٣٥ من عبادة الله تعالى ذكر اسمه على الصيد ، والذبح ، والأكل
- ٢٤٠ من عبادة الله تعالى الحلف باسمه صادقا ، خائفا من عقابه لو كذب
- ٢٤١ الكلام على لفظ ذات ، وهل تطلق على الله ، وبيان الصواب
- ٢٤٩ وصف الله تعالى بأن له نفسا ، وأدلة ذلك
- ٢٥٧ كلمة أحد لا يوصف بها إلا الله تعالى فى الإثبات .
- ٢٥٨ مدح الإنسان نفسه نقص ، نهى عنه الشرع
- ٢٦٠ معنى « قضى » ، ومعنى كتابة الله على نفسه
- ٢٦٢ صفة الرحمة ، والرد على منكرها
- ٢٦٣ معنى قوله : « أنا عند ظن عبدى بى »
- ٢٦٥ معية الله تعالى لخلقه ، ومعناها ، وأقسامها
- ٢٦٧ معنى « الملاء » وقرب الله تعالى من عبده ، معناه ، وأقسامه
- ٢٧٣ صفة الوجه ، وأدلة ذلك
- ٢٧٦ بيان بطلان تأويل الوجه بالملك
- ٢٨١ لله تعالى عينان ، وبيان وجه ورود العين مفردة ، ومجموعة
- ٢٨٤ الدجال أعور ، وهذا نقص ظاهر ، ومع ذلك يدعى الربوبية
- ٢٨٨ المتكلمون يرمون من أثبت الصفات بالتشبيه ، وهذا علامة أهل البدع
- ٢٩١ وصف الله تعالى بأنه الخالق البارئ المصور
- ٢٩٢ الفرق بين هذه الأوصاف الثلاثة
- ٢٩٥ كل ماهو كائن فقد سبق علم الله به ، وكتابته له ، وولاد من وجوده

- ٢٩٦ الخلق غير المخلوق ، أدلة ذلك
- ٢٩٧ أدلة ثبوت اليمين ، وبطلان قول المؤولين .
- ٢٩٨ حديث الشفاعة ، والكلام عليه
- ٣٠٤ يد الله ملامى لا يغيضها نفقة
- ٣٠٧ إن الله يقبض يوم القيامة الأرض ، ويطوى السماوات يمينه
- ٣١٠ ثبوت أصابع الرحمن ، وإبطال قول أهل التأويل
- ٣١٤ ذكر بعض النصوص في اليمين
- ٣١٨ الرد على الخطائي ، ومن سلك طريقه فلا إنكار أصابع الله ، وماتهم به
- ٣١٨ عبد الله بن مسعود من عدم الفهم عن رسول الله ﷺ
- ٣٣٥ وصف الله تعالى بالغيرة ، ومعناها
- ٣٣٨ خطأ ابن بطال في زعمه إجماع الأمة على أن الله لا يوصف بأنه شخص
- ٣٤٣ يخبر عن الله تعالى بأنه شيء ، وموجود ، ولكن لا يوصف بذلك
- ٣٤٦ يطلق على صفات الله تعالى - أنها شيء ، دليل ذلك
- ٣٤٩ معنى العرش وذكر بعض أقوال السلف فيه
- ٣٥٥ صفة الاستواء ، وأقوال السلف فيه ، وأدلته ✓
- ٣٥٧ بطلان تأويل الاستواء بالاستيلاء ، ونحوه ✓
- ٣٦٢ نفى كيفية الاستواء ✓
- ٣٦٩ بعض السلف كفر من أنكر الاستواء ✓
- ٣٧٢ معنى الودود ، والمجيد
- ٣٧٥ شرح حديث عمران بن حصين : « كان الله ولم يكن شيء قبله »
- ٣٧٨ روى الحديث بثلاثة ألفاظ : قبله ، ومعه ، وغيره ، وذكر الراجح
- ٣٨٩ كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ : تقول : زوجني الله في السماء
- ٣٩٤ معنى أن الله في السماء
- ٣٩٦ معنى قوله : عنده فوق عرشه
- ٣٩٨ معنى الإيمان بالله تعالى
- ٤٠٠ معنى الهجرة ، وأقسامها
- ٤٠٠ أقسام الجهاد
- ٤٠٥ معنى الفردوس

- ٤٠٨ الكلام على حديث أبي ذر ، في سجود الشمس تحت العرش كل ليلة
 معنى قول زيد بن ثابت في الآية آخر سورة التوبة : لم أجد لها إلا مع أبي خزيمه١٦٦
 ٤١٨ دعاء الكرب ، ودلالته على علو الله تعالى
 ٤٢٧ ذكر صعق الناس يوم القيامة ، والإشكال فيه وبيان الصواب
 ٤٣٩ معنى العروج
 ٤٤٢ علو الله تعالى على جميع خلقه ، ثبوت ذلك بالشرع والعقل والفترة
 ٤٥٣ مبدأ ضلال الخوارج ، بضلال أولهم الذى اعترض على قسمة الرسول ﷺ
 ٤٥٨ أنواع الأدلة على علو الله تعالى
 ٤٦٢ الرد على من نفى علو الله حقيقة وجعله معنى
 ٤٦٤ بعض النصوص على علو الله تعالى
 ٤٧٤ ضلال الأشعرية فى علو الله تعالى
 ٤٧٧ ليس بين علو الله تعالى وبين معيته خلقة ، وقربه منهم منافاة
 ٤٧٩ المعية نوعان
 ٤٨٠ قربه تعالى إلى بعض خلقه لاينافى علوه على عرشه

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجي

مطبعة المدنى - القاهرة

دار المدنى للنشر والتوزيع

جدة : ص ب ١٨٤٨٥ - ت : ٦٤٣٢٣٦٢

تصويبات « شرح كتاب التوحيد »

صوابه	الخطأ	س	ص	صوابه	الخطأ	س	ص
غر	غير	١٠	١١٦	أرسله	الأسله	٦	٣
مطلوب	مطلوب من	١٥	١٢٤	وتمام النعمة	وتمام على النعمة	١٥	«
الجامعة وحقيقته	الجامعه وحقيقته	٩	١٢٥	أنا خلقت	أنا خلقت	١٩	١١
ما بين	ما بين	١	١٢٨	ثم يرميهم	ثم يرميهم	١٦	١٧
وصفاته والأول	وصفاته الأول	٨	«	في ذكر الخبر	في ذكر الخبر	٢	٢٩
وقفهاهم	وقفهاهم	١٧	١٣٠	سأله	سأله	«	«
أيا النبي	أيا النبي	٣	١٣٣	آمله	أمله	١٣	«
القبض	المقبض	٣	١٤٠	الإيجاز	الإيجار	١١	٣٠
باختياره	باختيارية	٢١	«	حنيفيا	حنيفيا	٦	٣٣
أرض عزاز	أرض غزاز	٥	١٤٧	الفتح	الفتح البخارى	٢٠	٣٨
بنى ثعلبة	بن ثعلبة	١٣	«	إبلاغ العباد	إبلاغه العباد	١٧	«
واستارهم	واستنارهم	١٥	١٥٣	تيسير العزيز	يثير العزيز	٢٢	٤٢
امتألت	امتكت	٣	١٦١	وكذا من	وكذا ومن	٩	٥٣
امتألت	امتكت	٥	«	اللهم	واللهم	٣	٦٣
ملؤها	ملتها	٦	١٦٢	المازرى	المازنى	٩	٦٦
ما خلقت	ما خلقنا	٧	١٦٣	شراحيل	سراحيل	١٠	٨٠
فيها	فيها	١	١٧١	المنهى	المنهى	١٠	٨٤
وعلا	وعلى	١٦	«	بالتواب	بالتواب	١٦	٨٥
بفتح السين	بضم الميم	١٩	١٧٥	هذا مع	زعموا مع	١٦	٨٦
ينور	ينور	٨	١٧٧	ويسكتون	ويسكتون	١٣	٨٨
هذه الأخبار	هذه الأخبار	٢	١٨٠	فوجه	فوجب	١٢	٩٧
الإخبار	الأخبار			القوت	القوت	١	١٠٢
ووبال	وبال	١٦	١٨١	إعلامهم	وأعلامهم	٤	١٠٤
بأتم	يأتم	٩	١٨٨	وما يكرهه	وما يكره	١٥	١٠٦
سمع	سمه	١	١٨٩	شاء	يشاء	١٨	«
إلا الصلاة	إلا الصلاة	٣	«	حقيقية	حقيقية	١٩	١٠٧
خفيت	خفيه	١٣	١٩١	لا يكون إلا إضافة	لا يكون الاضافة	٤	١٠٨
وقد قال	قد قال	١٢	١٩٦	إيراده	إرادة	٦	«
وسمع القبول	وسمع القبول	١٢	١٩٧	بأنه كان متدينا	بأنه متدينا	١٤	«
يتعدى	بنعدى			النضرة	النظرة	٢٠	١١٠
ونحول	ونحول	٧	٢١١	السميفع	السميفع	١	١١١
مشيخته	مشيئة	٥	٢١٢	الإخبار	الأخبار	١٤	«

صوابه	الخطأ	س	ص	صوابه	الخطأ	س	ص
ينشق	ينشف	١٢	٣٥١	اشتق	اشتقت	١٣	٢١٥
سالكم	سألکم	١٤	٣٥٣	وتوعد	ونوعد	٣	٢١٦
فإذا اتقى	إذا التقى	١٥	٣٥٦	من حيث لا	من حيث	١	٢١٧
موارده	مواره	١٨	٣٦٠	إلا بذكر	إلا ذكر	٢١	٢٢٦
بسند عن أبي	بسنده أبي	٥	٣٦١	صفحة ٢٢٤	صفحة ١٦١	٦	٢٢٨
استولى فلان على	استولى فلان على	١	٣٦٥	اللهم	واللهم	٣٤	٢٣٤
مصر استولى	مصر استولى			شبية	شبة	١٩	٢٤٦
من التبشير	من التبشير	١٧	٣٧٦	أبو	ابن	١٢	“
لم يزل فعلا	لم يزل فعال	٥	٣٧٩	واختيارا	واختبارا	٢	٢٥٣
بعيران بعد أن	بعيران	١٤	٣٨٦	المرء	المرأ	١٧	٢٦٤
رحمه الله	رحمه	٩	٣٨٨	صالحا	صالح	٢٤	“
يوجب	بوجب	١٤	٣٩٦	نبي	بنأ	٧	٢٦٥
أخبر	أحب	٩	٤٠٠	واستواءه	واستواه	٦	٢٦٦
دينا	دنيا	١٣	٤٠١	عابده	عابد	٣	٢٧٠
تنبئ	تنبيء	٩	٤٠٢	وأنه إذا أقبل	وأنه أقبل	١١	٢٧١
وبالآخر	وبالأخذ	٣	٤٠٦	فاكتفى بذلك	فاكتفى تعالى بذلك	٩	٢٧٣
أنها دائما يبحث فيها	أنها دائم	٧	٤١٠	بقائها	مع بقاءها	١٢	٢٧٦
واستوائه	واستواؤه	٥	٤٢٥	هذا	وهذا	١٢	٢٧٧
موتا	موت	١٧	٤٣٠	اثنتين	اثنين	١٦	٢٧٧
التيان	اتيان		٤٤٤	غيره	وغيره	١٣	٢٩٠
“	“	٨	“	نسأل الله العافية	نسأله العافية	١٩	“
بينه	نيه	١٥	٤٦١	قرعة	فرعة	٦	٢٩٤
والهدى	الهدى	١٠	٤٦٦	رواية	رؤية	١٢	“
أللعناء	للنعاء	١١	“	الخلف	الحلق	٦	٢٩٦
وجهين	وجين	٩	٤٦٨	الوقوف	الموقوف	١٣	٣٠١
ربكم	ربكم	٢	٤٧٠	ولو شاء تعالى لوضع	تعالى - لوضع	١٠	٣١٠
واستواؤه	واستوائه	١٩	٤٨٠	مستند السلف	مستندالسلف	١٩	٣١٣
يردها	بردها	٥	٤٨٤	الحدرى	الحدرى	٤	٣١٦
بعزتك الذى	بعزة الذى	١٧	“	هما مملوءان	مملوءان	٢	٣٣٠
فى إنكار	فلا إنكاره	٨	٤٩٥	العين	العين	٧	٣٣٥
				ولكن بخير	ولكن بخير	٥	٣٤٣
				سعد	سعيد	٤	٣٤٦

شَرْحُ
كِتَابِ التَّوْحِيدِ
مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ

تأليف
الدكتور عبد الله بن محمد الفينحان

رئيس قسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الثاني



دمهورت . ٣٢٨١٩٩ / ٥٥

حقوق الطبع محفوظه

الطبعه الأولى

١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م

شَرْح
كُتَابِ التَّوْحِيدِ
مِنْ صَيِّحِ الْبُخَارِيِّ

Handwritten text, possibly bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and difficult to decipher but appears to contain several lines of cursive script.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ .

قال ابن جرير : « يقول — تعالى — ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعنى يوم القيامة ، ﴿ نَاضِرَةٌ ﴾ . حسنة جميلة من النعيم ، يقال : نَضُرَ وجه فلان ، إذا حسن من النعمة ، ونَضَّرَ الله وجهه ، إذا حسنه كذلك » (١) .

ثم روى ذلك بأسانيده عن المفسرين من السلف .

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أى : تلك الوجوه النضرة ، تنظر بأبصارها إلى ربها ، وذلك أعلى نعيم الآخرة .

روى ابن جرير ، عن عكرمة ، والحسن ، وعطية العوفى : ينظرون إلى

• ٣٣ •

وروى عن مجاهد ، وأبى صالح : تنتظر ثواب ربها .

ثم قال : والصواب القول الأول ، أنها تنظر إلى خالقها ، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ .

حدثنى على بن الحسين بن أبجر ، قال : حدثنا مصعب بن المقدم ، قال : حدثنا إسرائيل بن يونس ، عن ثوير ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة ، لمن ينظر فى ملكه ألفى سنة ، قال :

(١) انظر تفسير ابن جرير ج ٢٩ ص ١٩١ .

وإن أفضلهم منزلة ، لمن ينظر في وجه الله كل يوم مرتين ، ثم تلا : ﴿ وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ . قال : البياض ، والصفاء ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ تنظر كل يوم في وجه الله — عز وجل .

حدثنا محمد بن منصور الطوسي ، وإبراهيم بن سعيد الجوهري ، قالا : حدثنا علي بن الحسن بن شقيق ، قال : حدثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوي^(١) عن عكرمة : ﴿ وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ ، قال : تنظر إلى ربها نظرًا .

حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق ، قال : سمعت أبي يقول : أخبرني الحسين بن واقد ، في قوله : ﴿ وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴾ من النعم ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ .

أخبرني يزيد النحوي ، عن عكرمة ، وإسماعيل بن أبي خالد ، وأشياخ من أهل الكوفة . قال : تنظر إلى ربها نظرًا .

حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري ، قال حدثنا آدم ، قال : حدثنا المبارك ، عن الحسن في قوله : ﴿ وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴾ قال : حسنة ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ قال : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنظر ، وهي تنظر إلى الخالق^(٢) .

وقال ابن كثير : « ﴿ وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴾ من النصارة ، أي حسنة بيهية ، مشرقة مسرورة : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أي تراه عيانا ، كما رواه البخاري في صحيحه ، إنكم سترون ربكم عيانا » [أي معاينة ينظرون إليه] .

(١) هو يزيد بن أبي سعيد ، أبو الحسن القرشي بالولاء ، المروزي ، ثقة عابد . قتل ظلما سنة إحدى وثلاثين ومائة انظر التقريب ج ٢ ص ٣٦٥ وتهذيب التهذيب ج ١١ ص ٣٣٢ .

(٢) تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة ، في الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ، ولا منعها^(١) . ثم ذكر طرفا منها .

وقال البغوى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ نَاصِرَةٌ ﴾ قال ابن عباس : حسنة وقال مجاهد : مسرورة ، وقال ابن زيد : ناعمة ، وقال مقاتل : بيض يعلوها النور . وقال السدى : مضيئة .

وقال يمانٌ : مسفرة ، وقال الفراء : مشرقة بالنعيم ، يقال : نضر الله وجهه ، ينضر نظرا ، ونضره الله ، وأنضره ، ونَضُرَّ وجهه ، ينضر نضرة ، ونضارة قال تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾^(٢) .

﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ قال ابن عباس ، وأكثر الناس : تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب .

قال الحسن : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنضّر وهي تنظر إلى الخالق .

ثم روى بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه ، وأزواجه ، ونعيمه ، وخدمته ، وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾^(٣) .

وهذا الحديث هو الذى نقلته عن تفسير الطبرى قريبا ، وفيه نوير بن أبى

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٠٤ .

(٢) الآية رقم ٢٤ من سورة المطففين .

(٣) تفسير البغوى على هامش الخازن ج ٧ ص ١٨٥ — ١٨٧ .

فاختة . سعيد بن جهمان ، ضعيف ، قال الحافظ : « أطبقوا على تضعيفه »^(١) .

وقال ابن عدى : « أثر الضعف بين على رواياته ، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى غيره »^(٢) .

وهذا لا يمنع من الاستشهاد بحديثه كما هي طريقة العلماء فيما لا يخالف الثابت الصحيح ، بل يوافقه .

وفي الدر المنثور : « أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يُؤْمِنُ تَأْخِذَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ قال : تنظر إلى وجه ربها »^(٣) . وذكر أحاديث في ذلك ، وآثارا كثيرة .

والأحاديث في رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كثيرة جدا ، وقد تواترت عن رسول الله ﷺ وتلقاها أتباعه بكل قبول ، وارتياح وانسراح لها ، وكلهم يرجو ربه ويسأله أن يكون ممن يراه في جنات عدن ، يوم يلقاه .

ولم يرد هذه الأحاديث إلا أهل البدع والضلال ، الذين اعتاضوا بهداية كتاب الله وسنة رسوله ﷺ آراء فاسدة ، زعموا أنها معقولات وهي ضلالات وجهالات و شبهات ، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

وقد أفرد كثير من أهل السنة هذه المسألة بمؤلفات خاصة .

قال البيهقي : « لا يخلو النظر أن يكون الله تعالى عنى به نظر الاعتبار ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٢٤ .

(٢) انظر الكامل ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٣) ج ٨ ص ٣٥٠ .

كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ آلِإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾^(١) .

أو عنى به نظر التعطف والرحمة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾^(٢) .

أو عنى به نظر الانتظار ، كقوله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾^(٣) .

أو عنى به الرؤية ، كقوله تعالى : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَعْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾^(٤) .

ولا يجوز أن يكون عنى بقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ نظر التفكير والاعتبار ، لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار ، وإنما هى دار اضطرار .

ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار ، لأنه ليست فى شىء من أمر الجنة انتظار ، لأن الأنتظار معة تنغيص وتكدير ، والآية خرجت مخرج البشارة ، وأهل الجنة فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من العيش ، فهم ممكنون مما أرادوا ، وإذا خطر ببالهم شىء ، أتوا به ، مع خطوره ، فلم يجز أن يكون الله أراد بقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ نظر الانتظار .

ولأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين فى الوجه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ تَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾^(٥) ، أراد بذلك تقلب عينيه نحو السماء ، ولأنه قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ .

(١) الآية ١٧ من سورة الغاشية .

(٢) الآية ٧٧ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٤٩ من سورة يس .

(٤) الآية ٢٠ من سورة محمد .

(٥) الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

ونظر الانتظار لا يكون مقرونا بإلى ، لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا في نظر الانتظار « إلى » إذا كان معناه الانتظار ، قالت بلقيس فيما أخبر الله تعالى عنها : ﴿ فَتَاطَرَّةٌ بِمَنْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾^(١) .

ولا يجوز أن الله تعالى أراد نظر التعطف والرحمة ، لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم ، فإذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة ، صح القسم الرابع من أقسام النظر ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إِلَٰهِي رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ ، أنها رائية ترى الله عز وجل .

ولا يجوز أن يكون معناه إلى ثواب ربها ناظرة ؛ لأن ثواب الله غير الله والله تعالى قال : ﴿ إِلَٰهِي رَبِّهَا ﴾ ، ولم يقل إلى غير ربها ناظرة .

والقرآن على ظاهره ، وليس لنا أن ننزله عن ظاهره ، إلا بحجة .

ألا ترى أنه لما قال : « اعبدوني ، واشكروا لي » لم يجوز أن يقال : أراد ملائكتي أو رسلي .

ثم نقول : إن جاز لكم أن تدعوا هذا ، في قوله : ﴿ إِلَٰهِي رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ جاز لغيركم أن يدعيه في قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾^(٢) ، فيقول : أراد بها لا تدرك غيره ، ولم يرد أنها لا تدركه هو ، وإذا لم يجوز ذلك لم يجوز هذا^(٣) .

٦٢ — قال : « حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا خالد وهشيم ، عن إسماعيل ، عن قيس ، عن جرير ، قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : « إنكم سترون ربكم ،

(١) الآية ٣٥ من سورة النمل .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٣) الاعتقاد للبيهقي ص ٧٤ — ٧٥ .

كما ترون هذا القمر ، لا تُضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » .

٦٣ — حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عاصم بن يوسف اليربوعي ، حدثنا أبو شهاب ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس ابن أبي حازم ، عن جرير بن عبد الله ، قال : قال النبي ﷺ : « إنكم سترون ربكم عيانا » .

٦٤ — حدثنا عبدة بن عبد الله ، حدثنا حسين الجعفي ، عن زائدة ، حدثنا بيان بن بشر ، عن قيس بن أبي حازم ، حدثنا جرير ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر ، فقال : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته » .

هذا حديث واحد ذكر هنا من ثلاثة طرق إلى قيس بن أبي حازم ، اقتصر على المقصود في الطريقتين الأخيرين ، وقد رواه في الصلاة ، وفي التفسير . قوله : كنا جلوسا عند النبي ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، هذا يدل على أنه ﷺ بدأهم بذلك ، وسيأتي في حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد ، أن الناس سألوه عن ذلك ، فهي قضية أخرى .

فهو ﷺ أخبرهم ابتداء بأنهم يرون ربهم يوم القيامة ، ووقع من بعضهم السؤال ، فأجابهم بأنهم يرونه .

وليلة البدر : هي ليلة أربعة عشر ، سميت ليلة البدر لأن القمر يكمل فيها ويبدر ، وإبداره : كماله وتمامه .

قوله : « وإنكم سترون ربكم ، كما ترون هذا القمر » ، هذا بيان بليغ ، وتأکید عجيب ، فأكدته بأن ، وبالفعل المضارع المسبوق بالسين ، وبقوله :

« كما ترون هذا القمر » مع إشارته إليه ، فليس بعد هذا البيان بيان ، ولا مزيد على هذه التأكيدات ، فمن حاول تأويل رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة بعد ما سمع هذا البيان من رسول الله ﷺ ، فهو يجادل بالباطل ليدحض به الحق ، قد اختار الباطل على الحق ، وسوف يوله الله ما تولى .

وإذا دخلت السين على الفعل ، صار وقوعه في المستقبل .
ورؤية العباد لربهم تعالى لا تقع إلا في الآخرة . كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قوله : « أما إنكم ستُعْرَضُونَ على ربكم فَتَرَوْنَهُ »^(١) .

ففى كلا اللفظين تأكيد بليغ منه ﷺ بأن المؤمنين يرون ربهم رؤية حقيقية بأبصارهم ، مؤكدة كما سيأتى بيان ذلك إن أراد الله تعالى .

قوله : « لا تضامون فى رؤيته » يروى بضم التاء وتخفيف الميم ، والمعنى : لا ينالكم فى رؤية ربكم ضم ، أى ظلم وهضم .

ويروى بفتح التاء ، وتشديد الميم ، والمعنى : أنكم ترون ربكم رؤية واضحة لا تحتاجون فى رؤيته أن ينضم بعضكم إلى بعض لتتساعدوا على الرؤية كما يقع عند رؤية الأمور الخفية .

ويروى أيضا « تضارون » بفتح التاء ، وضمها ، والمعنى : لا يضر بعضهم بعضا فى رؤية الله تعالى ، فيراه بعضهم ، ويحجب عن رؤيته آخرون منهم ، بل يراه المؤمنون رؤية واضحة ، كوضوح الشمس والقمر .

قال الحافظ : « تضارون » بضم أوله ، وبالضاد ، وتشديد الراء ، بصيغة

(١) انظر مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ١٣٤ .

المفاعلة من الضرر ، وأصله : تضاررون ، بكسر الراء وفتحها ، أى لا تضرون أحدا ، ولا يضركم ، بمنازعة ولا مضايقة .

وجاء — أيضا — بتخفيف الراء ، من الضير ، وهى لغة فى الضر ، أى لا يخالف بعض بعضا ، فيكذبه وينازعه ، فيضيره بذلك ، يقال : ضاره ، يضره .

وقيل المعنى : لا يحجب بعضكم بعضا عن الرؤية ، فيضر به ^(١) .
والمقصود من هذا كله أنهم يرون ربهم ، رؤية واضحة ، لا يلحقها نقص وليس فيها خفاء ، ولا يحتاجون معاونة عليها .

قوله : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا » تعقيب الخبر عن رؤيتهم لربهم بالفاء المقترنة بالحث على فعل الصلاة المذكورة ، يدل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب حصول الرؤية .

وعلق ذلك بالاستطاعة ، لأنها مناط التكليف ، فالله تعالى لا يكلف إلا بالمستطاع ، كما تدل لذلك النصوص من الكتاب والسنة .

ولهذا قال : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » .

والمقصود بالصلاة قبل طلوع الشمس ، صلاة الفجر ، والصلاة قبل غروبها ، صلاة العصر .

وقد جاءت أحاديث عن رسول الله ﷺ بالحض على زيادة الاعتناء بهاتين الصلاتين .

(١) الفتح ج ١١ ص ٤٤٦ ، وانظر النووى على مسلم ج ٣ ص ١٨ و ج ٥ ص ١٣٤ والفتح ج ١٣ ص ٤٢٧ .

ففى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري ، أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى البردين دخل الجنة » .

وفى صحيح مسلم ، عن عمارة بن رؤية ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها — يعنى صلاة الفجر والعصر »^(١) .

وفى ذلك أحاديث كثيرة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْاَوْسَطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ اَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ اِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ اِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾^(٤) .

قوله : « إنكم سترون ربكم عيانا » هذا اللفظ من أبلغ النصوص فى إثبات الرؤية فقد أكد رؤية المؤمنين لربهم عدة تأكيدات كما سبق فى الطريق الأولى غير أنه هنا قال : « عيانا » وهو لا يحتمل أى تأويل .

ومعنى عيانا : معاينة مقابلين له تعالى ينظرون إليه بأعينهم ، وفى هذا أبلغ الرد على منكرى الرؤية الحقيقية ، كما فيه الرد على المتطرفين من الصوفية الذين يزعمون بأنهم يرون الله فى الدنيا ، لأنه قال : « سترون ربكم » وهذا

(١) مسلم ج ١ ص ٤٤٠ رقم ٦٣٤ .

(٢) سورة ق الآية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٨ .

(٤) الآية ٧٨ من سورة الإسراء .

يكون في المستقبل ، وفي الرواية الأخرى قيد الرؤية بيوم القيامة ، وفي صحيح مسلم : « وتعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت »^(١) .

والواقع أن هؤلاء الأدعياء ، يرون آلهتهم من الشياطين الذين أضلوهم . قال الأزهرى : « رأيت فلانا عيانا ، أى مواجهة »^(٢) .

وهذا التفسير لقوله : « سترون ربكم عيانا » متفق عليه عند أهل الأثر ، وأهل اللغة ، وهو من الأمور الواضحة ، ولكن لما جاء أهل البدع والتحرير احتيج في ذلك إلى ذكر أقوال العلماء ، وسيأتى لذلك مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة ، كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته » قيد الرؤية بيوم القيامة لئلا يتوهم أحد أنه يرى ربه قبل يوم القيامة . وقوله : « كما ترون هذا » الإشارة إلى القمر تلك الليلة التى هى ليلة البدر والقمر فيها أتم ما يكون ، وأوضح ما يكون ، فشبه الرسول ﷺ رؤية المؤمنين لربهم تعالى برؤيتهم القمر تلك الليلة فى تمامه واستوائه ، ووضوحه ، والمعنى : أنكم ترون ربكم يوم القيامة رؤية واضحة جلية ، لا لبس فيها ، ولا خفاء ، كما ترون القمر وقت تمامه وكاله ليلة أربع عشرة من الشهر ، ليس بينكم وبينه حائل ولا قتر .

وهذا غاية البيان والإيضاح فى أن المؤمنين يرون الله — تعالى — يوم القيامة ، ومع هذا يأبى من غلبت عليه شقوته ، وضلاله الإيمان بذلك ، ويحاول تحريف النصوص الواضحة ، لتتفق مع مذهبه الفاسد .

٦٥ — قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن

(١) مسلم ج ٤ ص ٢٢٤٥ رقم ٢٩٣١ .

(٢) تهذيب اللغة ج ٣ ص ٢٠٦ .

سعید ، عن ابن شهاب ، عن عطاء بن يزيد الليثي ، عن أبي هريرة ،
أن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟
فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ » .
قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فهل تضارون في الشمس ليس
دونها سحاب ؟ » .

قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك » .
يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ،
فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ،
ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة ، فيها
شافعوها — أو منافقوها — شك إبراهيم ، فيأتيهم الله فيقول : أنا
ربكم ؟

فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ،
فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون :
أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون
أنا وأمتي أول من يجيزها .

ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم
سلم .

وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم السعدان ؟ قالوا :
نعم يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم
ما قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق ، بقى
بعمله ، أو الموثق بعمله ، ومنهم المخردل ، أو المجازى — أو نحوه — .

ثم يتجلى حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ، ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار بأثر السجود ، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون تحته ، كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، هو آخر أهل النار دخولا الجنة .

فيقول : أى رب ، اصرف وجهي عن النار ، فإنه قد قشبنى ريحها ، وأحرقنى ذكاؤها ، فيدعو الله بما شاء أن يدعوه ، ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيره ؟

فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء ، فيصرف وجهه عن النار ، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أى رب قدمنى إلى باب الجنة ، فيقول الله : ألسنت قد أعطيت عهودك ، ومواثيقك أن لا تسألنى غير الذى أعطيت أبداً ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك .

فيقول : أى رب ، ويدعو الله ، حتى يقول : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره ؟

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، ويعطى ما شاء من عهود ، ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة .

فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة ، فرأى ما فيها من الحبرة ،

والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت .

ثم يقول : أى رب أدخلنى الجنة ، فيقول الله : أأنت قد أعطيت
عهودك وموائيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ؟

فيقول : ويلك يا بن آدم ما أغدرك .

فيقول : أى رب لا أكونن أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى
يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه ، قال له : ادخل الجنة ، فإذا
دخلها قال الله له : تمنه .

فسأل ربه وتمنى ، حتى إن الله ليذكره ، يقول : كذا وكذا ،
حتى انقطعت به الأمانى ، قال الله : ذلك لك ، ومثله معه .

قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد الخدرى مع أبى هريرة ، لا يرد
عليه من حديثه شيئا ، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله — تبارك
وتعالى — قال : ذلك لك ، ومثله معه ، قال أبو سعيد الخدرى :
وعشرة أمثاله معه ، يا أبا هريرة .

قال أبو هريرة : ما حفظت إلا قوله : ذلك لك ، ومثله معه .

قال أبو سعيد الخدرى : أشهد أنى حفظت من رسول الله ﷺ
قوله : ذلك لك ، وعشرة أمثاله .

قال أبو هريرة : فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة .

قوله : « إن الناس قالوا : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » .

هذا السؤال تكرر من الصحابة فى مجالس متعددة ، كما تدل على ذلك
الأحاديث ، وسبب ذلك الدافع الإيماني ، والاشتياق من المؤمنين صادق

الإيمان ، إلى رؤية ربهم تبارك وتعالى .

وقد أجابهم رسول الله ﷺ جوابا شافيا ، وواضحا غاية الوضوح حتى لو تكلف أحد أن يوضحه أكثر من إيضاح الرسول ﷺ له ما استطاع .
فلذلك صار من لم يقبل ذلك تاركا للحق عنادا وقصدا ، والله يوليه ما تولى .

ولذلك قال : « هل تضارون في القمر ليلة البدر » أى هل يضر بعضكم بعضا في مشاهدة القمر ، فى أتم ما يكون ، وأكمل ما يكون ، وهذا أمر واضح جدا .

ولهذا قالوا : لا .

ثم قال ﷺ : « فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ » أى لم يحجب دونها حجاب ، مع صحة أبصاركم ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك » أى أنكم ترون ربكم ، رؤية واضحة كرؤيتكم للقمر ليلة أربع عشرة ، وكوضوح الشمس طالعة ليس دونها ما يحول بينكم وبينها .
فأى وضوح أوضح وأجلى من ذلك .

قوله : « يجمع الله الناس يوم القيامة » أى أنه تعالى يبعثهم من قبورهم أحياء ، ثم يجمعهم جميعا فى مكان واحد ، من أولهم الذى هو أبوهم آدم عليه السلام — إلى آخر مولود منهم ، ثم يقفون فى ذلك المكان ، وقوفا طويلا جدا ، ينتظرون ربهم يأتهم فيقضى بينهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) فيأتهم تعالى . « فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه » يعنى من كان فى الدنيا يعبد شيئا غير الله فإنه يمثل له ، أو يأتى بذلك المعبود

(١) الآية ٦ من سورة المطففين .

نفسه إن لم يكن ممن يطيع الله كهيئته في الدنيا ، سواء كان ذلك المعبود رجلا ، أو صنما ، أو مالا ، أو شهوة ، أو غير ذلك ، ثم يؤمر بتلك المعبودات إلى النار .

« فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الطواغيت هي : كل معبود من دون الله ، وتطلق على الأصنام ، والأوثان ، والقبور التي يتجه إليها بالعبادة ، قال الأزهرى : « قال أبو إسحاق : كل معبود من دون الله ، جبت وطاغوت .

وقيل : الجبت ، والطاغوت الكهنة والشياطين .

وفي بعض التفسير : الجبت ، والطاغوت حيي بن أخطب ، وكعب بن الأشرف اليهوديان ، وهذا غير خارج مما قال أهل اللغة ، لأنهم إذا اتبعوا أمرهما فقد أطاعوهما من دون الله »^(١) .

وقال ابن القيم : « الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله تعالى . ورسوله ﷺ أو يعبدونه ، من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله ، فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملت ، وتأملت أحوال الناس رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله ، وإلى الرسول ، إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته »^(٢) .

قلت : أكثر الخلق اليوم واقعون فيما ذكره ابن القيم ، فهم يعبدون

(١) تهذيب اللغة ج ٨ ص ١٦٨ .

(٢) إعلام الموقعين ج ١ ص ٥٠ .

الطواغيت من الأحياء والأموات ويتحاكمون إليها ، ويدينون لها بالولاء والطاعة ، ويجعلون السيادة للقانون الذى هو طاغوت يحكمونه من دون الله ، ويستخفون بشرع الله وحكمه ، مع تيسر الوصول إليه ، ولكنهم لا يريدون حكم الله ، وإنما يريدون حكم الجاهلية وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

قوله : « تبقى هذه الأمة فيها شافعوها — أو منافقوها — شك إبراهيم » قال ابن أبي جمرة : « يحتمل أن يكون المراد بالأمة ، أمة محمد ﷺ ويحتمل أن يدخل فيه جميع أهل التوحيد ، حتى من الجن ، ويدل عليه ما فى بقية الحديث : « ممن كان يعبد الله من بر وفاجر » (٢) .

قال الحافظ : « ويدل له أيضا قوله : « فأكون أول من يجيز » فإن فيه إشارة إلى أن الأنبياء يجيزون أممهم بعده » (٣) .

وفى رواية أبى سعيد : « حتى يبقى من يعبد الله من بر وفاجر » كما سيأتى .

قوله : « فيها شافعوها أو منافقوها » هذه رواية إبراهيم بن سعد .

قال الحافظ : « والمعتمد ، رواية « منافقوها » كما هى رواية الأكثر » (٤) .

ويأتى فى رواية أبى سعيد : « حتى يبقى من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، وغبرات من أهل الكتاب » وفى رواية مسلم : « وغبر » وكلاهما جمع غابر ، والغبرات جمع غبر ، وغبر جمع غابر ، ويجمع أيضا على أغبار ، والمراد البقية

(١) الآية ٦٥ من سورة النساء .

(٢) بهجة النفوس ج ٢ ص ٢٤ وما نقل هنا بالمعنى .

(٣) الفتح ج ١١ ص ٤٤٩ .

(٤) المرجع المذكور .

— أى بقايا قليلة من اليهود والنصارى ، الذين كانوا يعبدون الله تعالى وحده — ، أما معظمهم ، فقد ذهب بهم إلى جهنم ، عندما قال الله : « ليتبع كل عابد ما كان يعبده » .

وفى قصة لوط صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ ^(١) .

والمراد أن كل من يعبد — غير الله تعالى — يحضر له معبوده الذى كان يعبده فى الدنيا أو يمثل له ، فيقال اتبعه ، ويذهب به إلى النار ، ويبقى الذين لا يعبدون إلا الله من المؤمنين الصادقين ، والمنافقين .

قوله : « فيأتيهم الله » هذا من أوصاف الله وأفعاله التى يفعلها إذا شاء ، وهى مما يجب الإيمان به على ظاهر النص ، كما هى طريقة سلف هذه الأمة الذين تلقوا ذلك عن الله ورسوله بالقبول ، والتسليم ، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أغير على الله ، وأعظم تعظيما له ، وأعلم به وبما يجب له ، وما يتمتع عليه ، من أهل التأويل الذين يزعمون أنهم ينزهون الله عن أوصاف المحدثين ، كما يقولون ، ولهذا تجدهم يجهدون أنفسهم فى تحريف كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم زاعمين أنه لو أجرى على ظاهره لأفاد التشبيه ، والتجسيم ، فلذلك جعلوا تأويله واجبا .

والواقع أن ما يسمونه من ذلك تأويلا هو تحريف ، وإلحاد . كما أشرنا إليه فيما سبق .

وفى هذه الجملة من الحديث ، وهى قوله : « فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : « هذا مكاننا حتى يتأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه » شاهد للباب ، لأن ظاهره أنهم يرونه ، غير أنهم فى هذه المرة لم يعرفوه ،

(١) الآية ١٧١ من سورة الشعراء .

لأنه تعالى لم يظهر لهم بأوصافه التي يعرفونه بها ، وقد جاء في رواية أبى سعيد الآتية : « فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » . ولهذا قالوا : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه .

قوله : « فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه » وهذه الجملة أيضا هي المرادة من سياق الحديث في الباب ، لأن فيها دلالة واضحة على رؤية المؤمنين ربهم في ذلك الموقف ، وسيأتى بحث ذلك والرد على شبه النفاة إن شاء الله تعالى .

وفي هذه الجملة من الحديث ، والتي قبلها كثر اضطراب شراح الحديث ، وتخطوا كثيرا ، لأنهم على عقيدة الأشاعرة ، وسأذكر بعض أقوالهم في ذلك ، للعبرة ، ثم أذكر ما يبين بطلانها مستعينا بالله تعالى .

ثم إنه يجب على كل مسلم أن يعلم بأن الله تعالى قد أكمل لهذه الأمة دينها ، وبينه بيانا لا يحتاج معه إلى استدراك أحد من الناس ، وسيأتى دليل ذلك . ورسول الله ﷺ قد أقام الحجة وأوضح المحجة ، فيجب على المسلم أن يؤمن بأنه أكمل الخلق هداية ، وأنه بلغ عن الله ما أمره الله بتبليغه ، وأنه أفصح الناس ، وأقدرهم على بيان مراده ، وأنه أنصح الخلق لأمته وأحرصهم على هدايتهم ، وهو أعظم الناس خوفا من الله ، وتعظيما له ، وهو أعلم الناس بالله ، وبما يجب له تعالى — وما يمتنع عليه .

فلا بد أن يبين لأمته ما يجب عليهم أن يعتقدوه في ربهم ، بيانا لا لبس فيه ، ولا غموض ، فلا يحتاجون معه إلى بيان غيره ، وإلا لا يكون بلغ البلاغ المبين ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾^(١) ، وقد سأل الناس ﷺ هل بلغ رسالة

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

ربه ، فشهدوا له بأنه بلغ البلاغ المبين .

وأخبر صلوات الله وسلامه عليه أنه ترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك^(١) .

ولا يعقل أنه يبين لأمته آداب الأكل والشرب والنوم ، ودخول المنزل والخروج منه ، وركوب الدابة ، ولبس النعل والثوب ، وقضاء الحاجة وغير ذلك ، مما لو تركه المسلم لم يأثم على تركه .

ثم يترك معرفة الله ، وما يجب أن يعتقد ويثبت له تعالى ، وما يجب أن ينفي عنه مجهولا ، أو ملتبسا حقه بباطله .

إن من يترك التعصب ، ويتخلص من التقليد الأعمى ، وينظر بعقل وإنصاف فلا بد أن يقتنع بأن الذى قاله الرسول ﷺ وبلغه هو الحق .

ثم صحابة الرسول ﷺ الذين تلقوا العلم والإيمان منه لا بد أن تكون هدايتهم أتم وأكمل ممن جاء بعدهم ، لا يخالف فى هذا إلا ضال أو مضلل تائه ، لا يعرف الإسلام .

ولم يأت عنهم — رضوان الله عليهم — كما لم يأت عن الرسول ﷺ ما يشير ، ولو إشارة إلى أن ظاهر النصوص التى فيها أوصاف الله — تعالى — أنه لا يجوز اعتقاد ما دلت عليه ظاهرا ، أو أنه ينبغي تأويلها .

قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

(١) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤ .

(٢) الآية ٣ من سورة المائدة .

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ ، وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٤) ، ولا
يشك مسلم بأن الرسول ﷺ قد امتثل أمر ربه ، فبلغ البلاغ المبين ، حتى
ترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا لبس فيها ، ولا غموض .
وأعظم ذلك باب معرفة الله تعالى بأسمائه ، وصفاته .

وبهذا يتبين أن قول أهل التأويل باطل قطعاً ، وأن الحق فيما قاله الله تعالى
عن نفسه ، وما قاله رسوله ﷺ وأن ظاهر قول الله تعالى وقول رسوله حق
وهدى .

ولكن يجب أن يفهم مراد الله تعالى في خطابه لعباده ، ومراد رسوله ﷺ
من غير تقصير ، ولا غلو .

وأن من الخذلان أن ينصرف العبد عما تعرف الله به إلى عباده ، من أسمائه
وأوصافه ، ويعتقد أنها تدل على خلاف الحق ، وأن الحق والهدى في كلام
أهل الجدل ، والفلسفة ، الذين يعتمدون على آرائهم ، وعقولهم ، فيما يجب
لله ، وما يمتنع عليه ، مع أنهم لم يجنوا من ذلك إلا الحيرة ، والشك ، فإذا
حضرهم الموت ، أقرروا على أنفسهم بأنهم لم يعلموا شيئاً .

قال شيخ الإسلام : « بلغني بإسناد متصل ، عن بعض رؤوسهم ، وهو الخونجي .

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل .

(٢) الآية ٨٩ من سورة النحل .

(٣) الآية ٦٤ من سورة النحل .

(٤) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

وهو عند كثير منهم ، غاية في هذا الفن^(١) ، أنه قال عند الموت :
« أموت ، وما علمت شيئا إلا أن الممكن يفتقر إلى الواجب ، ثم قال :
الافتقار ، وصف عدى ، أموت وما علمت شيئا » .

قال : وذكر الثقة ، عن الآمدى أنه قال : « أمعنت النظر في الكلام ، وما
استفدت منه شيئا إلا ما عليه العوام » .

وقال الأصبهاني : للشيخ إبراهيم الجعبرى : بت البارحة أفكر إلى الصباح ،
في دليل على التوحيد سالم عن المعارض ، فما وجدته^(٢) .

وحدثنى من قرأ على ابن واصل الحموى ، أنه قال : « أبيت بالليل ،
وأستلقى على ظهري ، وأضع الملحفة على وجهي ، وأبيت أقابل أدلة هؤلاء ،
بأدلة هؤلاء ، وبالعكس ، وأصبح وما ترجح عندى شيء » كأنه يعنى أدلة
المتكلمين والفلاسفة^(٣) .

ولهذا وأمثاله قال الشافعى : « لئن يتلى العبد بكل ذنب نهى الله عنه ما خلا
الشرك بالله خير له من أن يتلى بالكلام » .

بعض أقوال شراح الحديث :

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « نسبة الإتيان إلى الله ، عبارة عن رؤيتهم
إياه . وقيل : الإتيان فعل ، من أفعال الله^(٤) يجب الإيمان به مع تنزيه الله عن
سمات الحدوث .

(١) يعنى فن الكلام الذى يسمونه التوحيد .

(٢) يعنى ما يسمونه بالأدلة العقلية ، وهى جهالات توصل إلى ظلمات الشك .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ج ٣ ص ٢٦٢-٢٦٤ .

(٤) تقدم أن الفعل عند الأشاعرة المراد به المفعول المخلوق المنفصل عن الله تعالى .

وقيل : فيه حذف ، تقديره : يأتيهم بعض ملائكته ، ورجحه عياض ،
ولعل هذا الملك ، جاءهم في صورة أنكروها ، لما رأوا فيها من سمة الحدوث .
ويحتمل وجها رابعا : وهو أن المعنى : يأتيهم الله بصورة — أى بصفة —
تظهر لهم ، من الصور المخلوقة ، التى لا تشبه صفة الإله ، ليختبرهم بذلك
فإذا قال لهم هذا الملك : أنا ربكم ، رأوا عليه من علامة المخلوقين ما يعلمون
به أنه ليس ربهم ^(١) .

وقال الرازى : « الكلام على هذا الحديث من وجوه :

الأول : أن تكون فى معنى الباء ، والتقدير : فيأتيهم الله بصورة ، غير
الصورة التى عرفوها فى الدنيا ، وذلك بأن يريهم ملكا من الملائكة ، ونظيره
قول ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من
الغمام ﴾ أى : بظلل من الغمام .

ثم إن تلك الصورة تقول أنا ربكم ، وكأن ذلك آخر محنة تقع للمكلفين
فى دار الآخرة .

أما قولهم : « إذا جاء ربنا عرفناه » فيحمل على أن يكون المراد : فإذا جاء
إحسان ربنا عرفناه .

وقوله : « فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفونها » فمعناه : فيأتيهم بالصورة
التى يعرفون أنها من أمارات الإحسان .

الثانى : أن يكون المراد من الصورة ، الصفة ، والمعنى : أن يظهر لهم من
بطش الله ، وشدة بأسه ما لم يألفوه ، ولم يعتادوه ، من معاملة الله تعالى
معهم ، ثم يأتيهم بعد ذلك بأنواع الرحمة ، والكرامة على الوجه الذى اعتادوه

(١) الفتح جـ ١١ ص ٤٥٠ وانظر كلام النوى فى شرح مسلم جـ ٣ ص ١٩ فإنه متفق مع ما هنا .

وَأَلْفَوْهُ»^(١) .

وقال الخطابي : « الذى يجب على كل مسلم أن يعلم أن ربنا ليس بذى صورة ، ولا هيئة ، فإن الصورة تقتضى الكيفية ، وهى عن الله ، وعن صفاته منفية ، وقد يتأول معناها على وجهين :

أحدهما : أن تكون الصورة بمعنى الصفة ، كقول القائل : صورة هذا الأمر كذا وكذا ، يريد صفته ، فوضع الصورة موضع الصفة .

والثانى : أن المذكور من المعبودات فى أول الحديث إنما هو صور وأجسام ، كالشمس والقمر ، والطواغيت ، ونحوها ، ثم لما عطف عليها ذكر الله — سبحانه — خرج الكلام فيه على نوع من المطابقة ، فقيل : يأتهم الله فى صورة كذا»^(٢) .

وهذا كثير فى كلام أهل التأويل ممن يتصدى لشرح الحديث ، وغيرهم ممن يتكلم فى العقائد ، حتى لا تكاد تجد من تكلم على هذا الحديث بالصواب .

لهذا سأجعل الكلام على هذه الجملة من الحديث فى أربعة فصول :

الأول : فى ذكر ما تيسر من روايات الحديث .

الثانى : فى تعيين المراد من الحديث .

الثالث : فى تعيين المراد من الحديث .

الرابع : فى رد التأويل الباطل الذى يُؤول به الحديث ، كما ذكرت أمثلة منها .

(١) تأسيس التقديس ، ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) نقلا من الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢٩٦ .

فأما الفصل الأول : فحديث أبي هريرة هذا رواه البخارى فى الصلاة ، فى باب فضل السجود ، ولفظه : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا » إخل^(١) ورواه فى الرقاق ، ولفظه : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه » ورواه فى التوحيد : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب « إخل وقد مضى ذكر لفظه .

وأخرجه مسلم ، ولفظه : « وتبقى هذه الأمة ، فيها منافقوها ، فيأتيهم الله — تبارك وتعالى — فى صورة غير صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله — تعالى — فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه » . إخل^(٢) .

وذكر الدارقطنى له عدة ألفاظ بطرق عدة ، فى إحداها : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء الرب — عز وجل إلى المؤمنين ، فوقف عليهم والمؤمنون على كوم — قالوا لعقبة : وما الكوم ؟ قال : المكان المرتفع ، فيقول : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : إن عرفنا نفسه عرفناه ، فيقول لهم الثانية : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : إن عرفنا نفسه عرفناه ، قال : فيتجلى

(١) البخارى ج ١ ص ١٣٣ من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى عن أبي هريرة .

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١١٣ .

لهم — عز وجل — فيضحك في وجوههم فيخرون له سجدا»^(١) . وذكر روايات كثيرة كلها تتفق مع لفظ البخارى ومسلم . وفي بعض رواياته : « فيأتهم الله — عز وجل — في غير صورته ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتهم الله — عز وجل — في صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا » إلخ^(٢) .

ورواه البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى وسيأتى إن شاء الله تعالى ، ولفظ الشاهد منه : « فيأتهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء » .

ورواه فى التفسير ، ولفظه : « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة ، من التى رأوه فيها ، فيقول : ماذا تنتظرون » ولم يذكر بقيته^(٣) .

ورواه فى الرقاق ، وفى الإيمان مختصرا جدا .

ورواه مسلم مطولا ، « حدثنى سويد بن سعيد ، قال : حدثنى حفص ابن ميسرة عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى : أن ناسا فى زمن رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم ، قال : هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحب ؟ وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « ما تضارون

(١) كتاب الرؤية ص ٦٤ رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية .

(٢) المرجع المذكور ص ٩٩ .

(٣) البخارى مع الفتح ج ٨ ص ٢٤٩ ، ٦٦٣ و ج ١ ص ٧٢ و ج ١١ ص ٤١٦ و ٤٤٦ .

في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة ، أذن مؤذن ، ليتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه ، من الأصنام والأنصاب ، إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، وغُبر أهل الكتاب ، فيدعى اليهود ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد عزيرا بن الله ، فيقال : كذبتُم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار ، كأنها سراب ، يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار .

ثم يدعى النصراني ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم : كذبتُم ، ما اتخذ الله من صاحبة ، ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم ، ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار .

حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين — سبحانه وتعالى — في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد .

قالوا : يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم . فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا مرتين ، أو ثلاثا ، حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب .

فيقول : هل بينكم وبينه آية ، فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ، ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة

واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه .

ثم يرفعون رؤوسهم ، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا ^(١) وذكر بقية الحديث .

ورواه ابن أبي عاصم في السنة ، وفيه « فيبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ثم يتبدى الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناها فيها أول مرة ، فيقول : أيها الناس لحقت كل أمة ما كانت تعبد ، وبقيتم ، فلا يكلمه يومئذ إلا الأنبياء ، فارقنا الناس ونحن إلى صحبتهم أحوج ، لحقت كل أمة ما كانت تعبد ، تنتظر ربنا الذي كنا نعبد .

فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيقول : هل بينكم وبين الله آية تعرفونها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فيخرون سجداً أجمعين ولا يبقى أحد كان يسجد في الدنيا سمعة ، ولا رياء ، ولا نفاقاً إلا على ظهره ^(٢) طبق كلما أراد أن يسجد خر على قفاه .

ثم يرفع ربنا ومسيئنا ، وقد عاد لنا في صورته التي رأيناها فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ، فنقول : نعم ^(٣) .

وفيه مع رواية مسلم التصريح بأنهم قد سبق أن رأوه مرة قبل هذه . وفي هذه المرة تنكر لهم في غير صورته التي تبدى لهم بها قبلها ، وذلك للامتحان ولهذا قالوا : نعوذ بالله منك ، لا نشرك بالله شيئاً ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، الساق ، فيكشف عن ساقه ، عند ذلك يعرفونه ، فيخرون

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) هكذا في المطبوعة بتحقيق الألباني ويظهر أنها محرفة من « إلا عاد ظهره طبقاً » والمطبوعة كثيرة التحريف .

(٣) السنة لابن أبي عاصم ج ١ ص ٢٨٥ .

له سجدا فإذا رفعوا رءوسهم من السجود إذا هو قد عاد في صورته التي رأوه فيها أول مرة .

وهذا الحديث كما يقول ابن فورك : « يدخل في باب المستفيض الذي تلقاه أهل العلم بالقبول ، ولم ينكره منهم منكر »^(١) .

وقد جاء ذكر الصورة في أحاديث أخرى ، ثابتة لا مطعن فيها ، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ . قال : « خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحينك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن »^(٢) .

وفيها أيضا من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا قاتل أحدكم فليجنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته »^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته »^(٤) .

وقال أيضا : « حدثنا يحيى ، عن ابن عجلان ، عن سعيد ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه ، ولا تقل : قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله تعالى

(١) مشكل الحديث ص ٤ .

(٢) البخارى ج ٨ ص ٤٣ ومسلم ج ٤ ص ٢١٨٣ وأحمد فى المسند ج ٢ ص ٣١٥ .

(٣) البخارى كتاب العتق ج ٣ ص ١٣١ وليس فيه ذكر الصورة ، ولفظه لمسلم ج ٤ ص ٢٠١٧ .

(٤) المسند ج ٢ ص ٢٤٤ وإسناده فى أعلى درجات الصحة .

خلق آدم على صورته»^(١) وفي رواية الدارقطني «فإن الله خلقه على صورته» .

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، قال حدثنا المثني بن سعيد ، وبهز ، قال :
حدثنا همام ، عن قتادة ، عن أبي أيوب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ
قال : « إذا قاتل أحدكم ، فليجتنب الوجه ، قال ابن مهدي : فإن الله تعالى
خلق آدم على صورته »^(٢) .

قال : حدثنا سليمان بن سليمان بن داود ، أخبرنا المثني ، عن قتادة ، عن
أبي أيوب عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « إذا قاتل أحدكم فليقت الوجه
فإن الله — عز وجل — خلق آدم على صورته »^(٣) .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا يحيى بن سعيد
عن ابن عجلان ، حدثنا سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا
ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، ولا يقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه
وجهك »^(٤) .

وقال أيضا : « كتب إلى قتيبة بن سعيد ، يذكر أن الليث حدثهم ، عن
ابن عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « لا
يقولن أحدكم : قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق
آدم على صورته »^(٥) .

(١) المسند ج ٢ ص ٢٥١ ، ٤٣٤ وسنده حسن ، ورواه ابن أبي عاصم في السنة ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) المسند ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٣) المسند ج ٢ ص ٥١٩ .

(٤) السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ص ١٦١ .

(٥) السنة ص ١٦٩ .

وقال أيضا : حدثني أبو معمر ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن حبيب ابن أبي ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن »^(١) .

وقال : حدثني أبو بكر الصاغاني ، حدثنا أبو الأسود ، وهو النضر بن عبد الجبار ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إذا قاتل أحدكم فليجنب الوجه ، فإن صورة الإنسان على وجه الرحمن »^(٢) .

وقال ابن أبي عاصم : « حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء ، حدثني عمي محمد بن سواء عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قاتل أحدكم فليجنب الوجه ، فإن الله — تعالى — خلق آدم على صورة وجهه »^(٣) هذا إسناد صحيح ، وهو ظاهر في إبطال قول من جعل الضمير في قوله « على صورته » عائدا إلى آدم .

وقال : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن حبيب ابن أبي ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقبحوا الوجوه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن »^(٤) .

هذا حديث صحيح صححه الأئمة ، الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وليس لمن ضعفه دليل إلا قول ابن خزيمة ، وقد خالفه من هو أجل منه .

(١) كتاب السنة ص ١٧٠ ورواه ابن خزيمة في التوحيد وقد اشترط أنه لا يدخل فيه إلا حديثا صحيحا ورواه ابن أبي عاصم في السنة وسيأتي والبيهقي في الصفات ص ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٥ .

(٣) السنة ج ١ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ وقول الألباني : لكنني في شك من ثبوت قوله « على صورة وجهه » لا وجه له ، وإن كان هو في شك من ذلك فالحفاظ من أهل الحديث لم يشكوا فيه .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

« قال شيخ الإسلام — رحمه الله — : « وأما تضعيف ابن خزيمة لحديث ابن عمر بأن الثورى أرسله ، فخالف فيه الأعمش ، وأن الأعمش وحبيبا مدلسان .

فيقال : قد صححه إسحاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل ، وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس .

وأيضاً فمن المعلوم أن عطاء بن أبى رباح إذا أرسل هذا الحديث عن النبي ﷺ فلا بد أن يكون قد سمعه من أحد ، فإذا كان فى إحدى الطريقين قد بين أنه أخذه عن ابن عمر ، كان هذا بيانا وتفسيرا لما تركه وحذفه فى الطريق الأخرى ، ولم يكن هذا اختلافا أصلا^(١) ويأتى بقبته إن شاء الله .

وقال ابن أبى عاصم أيضا : « حدثنا عمر بن الخطاب ، حدثنا ابن أبى مریم ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبى يونس — سليم بن جبیر — ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « من قاتل فليجتنب الوجه ، فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن^(٢) » وسنده أقل درجاته الحسن ، فابن لهيعة ، روى بسوء الحفظ ، وهو فى هذا لم يخالف غيره من الثقات كما فى الذى قبله .

وقال الخلال : أخبرنا على بن حرب الطائى ، حدثنا زيد بن أبى الزرقاء ، عن ابن لهيعة ، عن أبى يونس ، والأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن عز وجل^(٣) » .

(١) نقض التأسيس ج ٢ ص ٢٣٦ والجزء مكتوب عليه أنه الثالث وهو خطأ .

(٢) السنة لابن أبى عاصم ج ١ ص ٢٣٠ .

(٣) نقض التأسيس ج ٢ ص ٢٢٣ ورواه ابن أبى عاصم فى السنة ج ١ ص ٢٣٠ والدارقطنى فى

الصفات ص ٣٧ .

وروى الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن خزيمة ، من حديث معاذ بن جبل قال : احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة ، عن صلاة الصبح ، حتى كدنا نترأى قرن الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ سريعا ، فتوب بالصلاة ، فصلى ، وتجاوز فيها ، فقال : « إنما حبسنى أنى رأيت ربي — عز وجل — فى أحسن صورة »^(١) .

وأخرج الدارمى ، عن عبد الرحمن بن عائش ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت ربي عز وجل فى أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملائة الأعلى يا محمد ؟ قلت : أنت أعلم أى رب ، فوضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين ثدى ، فعلمت ما فى السماوات والأرض » وذكر بقية مطولا^(٢) .

وأخرج الترمذى عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ قال أتانى ربي فى أحسن صورة .

فقال : يا محمد فيم يختصم الملائة الأعلى ؟

قلت : لا أدري يارب . أعادها ثلاثا .

فأرأته وضع كفه بين كتفى ، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى ، فتجلى لى كل شىء ، وعرفت .

(١) المسند ج ٥ ص ٢٤٣ والترمذى فى تفسير سورة ص ج ٥ ص ٣٦٩ رقم ٣٢٨٨ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث ؟ فقال : هذا صحيح وقال : هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم . ورواه الدارقطنى فى كتاب الرؤية وذكر له طرقا عدة ص ٣٨٥ — ٣٩٤ رسالة دكتوراه فى الجامعة الإسلامية .

(٢) ورواه الحاكم فى المستدرک ج ١ ص ٥٢٠ وابن جرير فى التفسير وابن منده فى الرد على الجهمية ص ٩٠ ، والآجرى فى الشريعة ص ٤٩٧ والدارقطنى فى الرؤية ص ٣٩٥ — ٤١١ وذكر له طرقا متعددة .

فقال : يا محمد فيم يختصم الملاء الأعلى ؟ قلت : في الكفارات»^(١) إلى
آخره وروى هذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس ، وأبو أمامة ،
وعمران بن حصين ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وثوبان مولى رسول
الله ﷺ وغيرهم ، ذكر أحاديثهم الدارقطنى في الرؤية وغيره .

(١) الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ج ٥ ص ٤٥ رقم ٣٢٨٧ ، ورواه
ابن أبى عاصم فى السنة ج ١ ص ٢٠٤ ، والآجرى فى الشريعة ص ٤٩٦ ، والدارقطنى فى الرؤية
وذكر له عدة طرق رقم ٢٤٤ ص ٤١١ رسالة دكتوراه فى الجامعة الإسلامية .

الفصل الثاني في معنى الصورة في اللغة

« وهو شكل الشيء ، وحقيقته ، وهيئته » . وفي متن اللغة : « الصورة : الشكل ، وهيئة ، والحقيقة »^(١) .

قال في القاموس : « الصورة ، بالضم الشكل ، جمعها صور » .
وقال في شرحه : « الصورة بالضم : الشكل ، وهيئة ، والحقيقة ، والصفة »^(٢) .

وقال الراغب : « الصورة ما ينتقش به الأعيان ، ويتميز بها عن غيرها ، وذلك ضربان : أحدهما محسوس ، يدركه الخاصة والعامة ، بل يدركه الإنسان ، وكثير من الحيوان ، كصورة الإنسان ، والفرس والحمار بالمعينة والرؤية .

والثاني معقول ، يدركه الخاصة دون العامة ، كالصورة التي اختص الإنسان بها ، من العقل والروية ، والمعاني التي خص بها ،

وإلى الصورتين أشار بقوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾
﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ﴾ فالصورة المراد بها ما خص الإنسان بها من الهيئة المدركة بالبصر ، والبصيرة ، وبها فضله على كثير من خلقه »^(٣) .

(١) متن اللغة ج ٤ ص ٥١٤ .

(٢) تاج العروس ج ٣ ص ٣٤٢ .

(٣) المفردات ص ٢٨٩ .

وقال ابن الأثير : « الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيء ، وهيته ، وعلى معنى صفته »^(١) .

وقال ابن فارس : « الصورة جمعها صور ، وهي هيئة خلقته »^(٢) وبهذا يتبين أن الصورة في اللغة هيئة الشيء القائم بنفسه ، وشكله ، وكل موجود غير مفتقر لغيره يكون قائما بنفسه ، تصح رؤيته ومشاهدته يكون له صورة وحقيقة ، والله جل وعز أعظم موجود وأكبره ، وهو مستغن بنفسه عن غيره ، وهو القائم بنفسه والقائم على كل شيء بما يصلحه ، فهو تعالى حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ورؤيته تعالى جائزة في العقل في الدنيا ، لأن كليم الله موسى سألها ولا يسأل نبي الله إلا ما هو جائز ، وواقعة في الآخرة للمؤمنين والمنافقين أيضا في الموقف كما نطقت بذلك الأحاديث .

وأما في الجنة فلا يراه إلا المؤمنون ، والمنافقون لا يدخلون الجنة .

قال شيخ الإسلام : « الصورة : هي الصورة الموجودة في الخارج ، ولفظ « ص وَ رَ » يدل على ذلك ، وما من موجود من الموجودات إلا له صورة في الخارج ، وما يكون من الوقائع يشتمل على أمور كثيرة لها صورة موجودة في الخارج ، ثم تلك الصورة الموجودة ترسم في النفس صورة ذهنية ، فمثلا صورة الواقعة ، أو صورة المسألة ، إما أن يراد بها الصورة الخارجية ، أو الصورة الذهنية »^(٣) .

وقد يقصد بالصورة الوجه ، كما في المسند من حديث ابن عمر مرفوعا : « ونهى أن تضرب الصور . يعنى الوجه »^(٤) .

(١) النهاية ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) مقاييس اللغة ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٣) نقض التأسيس ج ٣ ص ٢٤٥ .

(٤) المسند ج ٢ ص ١١٨ .

وفيه أيضا عن ابن عمر أنه كان يكره العلم في الصورة ، أو قال : « نهى رسول الله ﷺ عن ضرب الوجه »^(١) .

وقال شيخ الإسلام أيضا : « لفظ الصورة في الحديث كسائر ما ورد من الأسماء والصفات ، التي قد يسمى المخلوق بها ، على وجه التقييد ، وإذا أطلقت على الله اختصت به ، مثل العليم ، والقدير ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ، ومثل خلقه بيديه ، واستواءه على العرش ، ونحو ذلك »^(٢) .

وقال أيضا : « وكما أنه لا بد لكل موجود من صفات تقوم به ، فلا بد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها ، ويمتنع أن يكون في الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها »^(٣) .

وبهذا يتبين أن الصورة كالصفات الأخرى ، فأى صفة ثبتت لله تعالى بالوحي وجب إثباتها والإيمان بها .

(١) المسند ج ٨ ص ١٨٩ رقم ٥٩٩١ تحقيق أحمد شاكر .

(٢) نقض التأسيس ج ٣ ص ٣٩٦ .

(٣) نقض التأسيس ج ٣ ص ٢٧٥ .

الفصل الثالث

في المعنى المراد من حديث الصورة

إن من يتتبع روايات هذه الأحاديث يتبين له بوضوح المعنى المراد بها وقد تقدم ما فيه الكفاية من ذكر الروايات ، لمن كان قصده الحق .

قال ابن قتيبة : « الصورة ليست بأعجب من اليدين ، والأصابع ، والعين ، وإنما وقع الألف لتلك لحيئها في القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن ، ونحن نؤمن بالجميع ، ولا نقول في شيء منه بكيفية ، ولا حد »^(١) .

قال شيخ الإسلام : « وقد ذكر الخلال في السنة ما ذكره إسحاق بن منصور الكوسج ، عن أحمد ، وإسحاق ، أنه قال لأحمد : لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته ، أليس تقول : بهذه الأحاديث ؟ قال أحمد : صحيح ، وقال إسحاق : صحيح .

وذكر عن يعقوب بن بختان ، أن أبا عبد الله ، أحمد بن حنبل ، سئل عن حديث النبي ﷺ : « خلق الله آدم على صورته ؟ قال : الأعمش يقول : عن حبيب بن أبي ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عمر »^(٢) .

وقد رواه أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ « على صورته » . فنقول كما جاء الحديث .

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٢١ .

(٢) يعنى حديثه : « فإن آدم خلق على صورة الرحمن » . فأحمد يشير بذلك إلى أن الواجب القول بظاهر الحديث ، لأنه ظاهر مراد المتكلم به ، وقوله : صحيح يعنى أن الحديث صحيح فيجب اعتقاد ما دل عليه ، والقول بموجبه ، وفي ذلك رد لقول ابن خزيمة ومن قلده ، وسيأتى ذلك .

قال : وسمعت أبا عبد الله ، يقول : لقد سمعت الحميدى بحضرة سفيان ابن عيينة ، وذكر هذا الحديث : « خلق الله آدم على صورته » ، فقال : من لا يقول بهذا الحديث ، فهو كذا وكذا — يعنى من الشتم ، وسفيان ساكت ، لا يرد عليه شيئا .

قال المروزي : أظن أنى ذكرت لأبى عبد الله ، عن بعض المحدثين بالبصرة أنه قال : قول النبي ﷺ : « خلق الله آدم على صورته » . قال : صورة الطين ، قال : هذا جهمى ، وقال نسلم للخبر كما جاء .

وروى الخلال ، عن أبى طالب ، من وجهين ، قال : سمعت أبا عبد الله — يعنى أحمد بن حنبل يقول : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمى . وأى صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه .

قال الخلال : أخبرنى حرب بن إسماعيل الكرماني ، قال : سمعت إسحاق — يعنى أحمد بن حنبل — يقول : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم

قال إسحاق : حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن عطاء عن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن » .

فقد صحح إسحاق حديث ابن عمر مسندا ، خلاف ما قاله ابن خزيمة .

وقال الخلال : أخبرنا على بن حرب الطائى ، حدثنا يزيد بن أبى الزرقاء ، عن ابن لهيعة ، عن أبى يونس ، والأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه ، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن عز وجل »^(١) .

(١) نقض التأسيس المخطوط ج ٣ ص ٢٢٣ .

وقال الحافظ : « الأكثر على أن الضمير يعود على المضروب ، لما تقدم من الأمر بإكرام وجهه ، ولولا أن المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها » .

وقال القرطبي : أعاد بعضهم الضمير على الله متمسكا بما ورد في بعض طرقه « إن الله خلق آدم على صورة الرحمن » ، قال : وكأن من رواه أورده بالمعنى ، متمسكا بما توهمه ، فغلط .

وقد أنكروا المازري ، ومن تبعه صحة هذه الزيادة .

ثم قال : وعلى تقدير صحتها فيحمل على ما يليق بالبارئ سبحانه وتعالى . قلت : الزيادة أخرجها ابن أبي عاصم في السنة ، والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات ، وأخرجها ابن أبي عاصم أيضا من طريق أبي يونس ، عن أبي هريرة ، بلفظ يرد التأويل الأول^(١) ولفظه : « من قاتل فليجنب الوجه ، فإن صورة وجه الإنسان ، على صورة وجه الرحمن » . فتعين إجراء ما في ذلك على ما تقرر بين أهل السنة ، من إمراره كما جاء من غير اعتقاد تشبيه^(٢) أو من تأويله على ما يليق بالرحمن^(٣) جل جلاله . وزعم بعضهم أن الضمير يعود على آدم^(٤) أى على صفته أى خلقه موصوفا بالعلم الذى فضل به على الحيوان ، وهذا محتمل .

وقال حرب في كتاب السنة : « سمعت إسحاق بن راهويه يقول : صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن » .

(١) وهو كون الضمير يعود إلى المضروب .

(٢) مذهب السلف اعتقاد ما دلت عليه النصوص بلا تفويض ولا تشبيه ولا تأويل .

(٣) التأويل باطل وهو مذهب المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية ونحوهم .

(٤) سيأتى إبطال ذلك إن شاء الله .

وقال إسحاق الكوسج : سمعت أحمد يقول : هو حديث صحيح .
وقال الطبراني : في كتاب السنة : حدثنا عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل
قال : قال رجل لأبي : إن رجلا قال : خلق الله آدم على صورته أى صورة
الرجل ، فقال : كذب هو قول الجهمية^(١) .

(١) الفتح ج ٥ ص ١٨٣ .

الفصل الرابع في بيان بطلان قول أهل التأويل الفاسد

فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر — رحمه الله — في تأويل إتيان الله — تعالى — بأنه رؤيتهم إياه ، أو أنه مجاز حذف ، تقديره : « يأتيهم بعض ملائكة الله ، أو أن يأتيهم بصورة من الصور المخلوقة » إلى آخر ما ذكر .
والجواب أن هذه التأويلات مخالفة لكتاب الله تعالى ، ولأحاديث رسول الله ﷺ مخالفة صريحة ، بحيث يجوز أن نقول : إنها تكذيب لكلام الله وكلام رسوله ، ورد له ، وفتح لباب الزندقة والكفر .

لأن النصوص في ذلك جلية واضحة ، فإذا صح تأويلها بما ذكر ، أمكن كل مبطل أن يؤول ما شاء من التأويل .

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾^(٢) .

فبين تعالى أن إتيانه غير إتيان الملائكة ، وغير إتيان الآيات .

وقال جل وعلا : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٣) .

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٥٨ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

وغير ذلك من الآيات ، وأما الأحاديث ، فكثيرة جدا ، وسيأتى ذكر بعضها إن شاء الله تعالى .

فالحق الذى دلت عليه نصوص الوحي أن الله — تعالى — أفعالا اختيارية يفعلها بمشيئته ، كالاستواء ، والنزول ، والحجىء ، والخلق ، والرزق ، ونحو ذلك .

قال ابن كثير : قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ . يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخريين ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَالِىَّ اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾^(١) .

وقال ابن جرير : « والأولى بالصواب من وجه قوله : ﴿ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ أنه من صلة فعل الله — تعالى — وأن معناه : « هل ينظرون إلا أن يأتهم الله فى ظلل من الغمام ، وتأتهم الملائكة » لما حدثنا به محمد بن حميد ، قال حدثنا إبراهيم بن المختار ، عن ابن جريج ، عن زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ قال : « إن من الغمام طاقات يأتى الله فيها محفوفاً » ، وذلك قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾^(٢) .

ثم ذكر حديث الصور الطويل ، المشهور ، وفيه : « فيقول الله لى : يا محمد . فأقول : نعم ، وهو أعلم ، فيقول : ما شأنك ؟ فأقول : يا رب وعدتني الشفاعة ، فشفعني فى خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول : قد شفعتك ، أنا آتيكم فأقضى بينكم فبيننا نحن وقف سمعنا حسا من السماء شديدا ،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

فهلنا فنزل أهل السماء الدنيا ، بمثل من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرفت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، فقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا وهو آت .

ثم ذكر مثل ذلك فى كل سماء ، ثم قال : « حتى نزل الجبار فى ظلل من الغمام ، والملائكة ، ولهم زجل من تسييحهم ، يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان رب العرش ذى الجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبحان قدوس ، رب الملائكة والروح ، قدوس ، قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة ، سبحانه أبدا أبدا ، فينزل تبارك وتعالى ، يحمل عرشه يومئذ ثمانية »^(١) .

وهذا صريح فى أن إتيان الله تعالى على ظاهره ، يأتى إلى الأرض ، يفصل بين عباده ، ويتولى حسابهم بنفسه — تعالى — ، وكل واحد منهم سوف يخاطبه ، كما سيأتى فى حديث عدى بن حاتم .

وهذا الحديث الذى استشهد به الإمام الطبرى وإن كان سنده ضعيفا إلا أن هذا القدر منه قد دلت عليه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة ، فوجب قبوله ، والإيمان به .

والله عز وجل ليس كمثل شىء لا فى ذاته ، ولا فى أوصافه ، ولا فى أفعاله فمحيى الله — تعالى — ونزوله ، وعلوه ، واستواؤه خاص به ، على ما يليق بعظمته .

« والجىء والإتيان ، والصعود والنزول توصف به روح الإنسان التى تفارقه بالموت ، وتوصف به الملائكة ، وليس نزول الروح وصعودها من جنس نزول

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٩١ طبعة بولاق الأولى .

البدن وصعوده ، فإن روح المؤمن تصعد إلى فوق السماوات ، ثم تهبط إلى الأرض فيما بين قبضها ووضع الميت في قبره .

وهذا زمن يسير لا يمكن صعود البدن ، ثم نزوله في مثله .

وكذلك صعودها في النوم ، وذهابها إلى أماكن نائية ، ثم عودها إلى البدن في اليقظة ، لا يمكن للبدن مثل ذلك .

فإذا كانت الروح تعرج إلى السماء في هذا الوقت القصير ، فهذا يدل على أن عروجها ، ومجيئها ليس من جنس عروج البدن ومجيئه ، ومثل ذلك يقال في الملائكة .

فمجيء الرب تعالى ، وصعوده ، واستواؤه . فوق ذلك كله وأجل منه وأعظم ، فإنه تعالى أبعد عن مماثلة كل مخلوق ، من مماثلة مخلوق لمخلوق كالروح والبدن مثلاً^(١) .

وقوله : « نسبة الإتيان إلى الله عبارة عن رؤيتهم إياه » .

فنقول : هذا من التحريف الجلي ، فالناس كلهم يفرقون بين الإتيان والرؤية ، فإن الإتيان المذكور في الحديث فعل لله تعالى يفعلُه إذا شاء ، وأما الرؤية فهي تقع من الخلق .

وقد ذكرت في أول الحديث في قوله : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » وذلك بعد مجيئه تعالى إليهم في الموقف ، وقوله لأهل ذلك الموقف : « ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، فتمثل لهم معبوداتهم ، ثم يتبعونها إلى النار » .

فهذا التأويل بطلانه ظاهر ، وهو أشبه باللعب في كلام رسول الله ﷺ ،

(١) شرح حديث النزول ص ٧٥ ، ٩٢ ، ٩٣ بتلخيص وتصرف .

بل هو تحريف كتحرير الباطنية والفلاسفة وأهل الزندقة .

وأما قوله : « وقيل الإتيان فعل من أفعال الله يجب الإيمان به مع تنزيه الله عن سمات الحدوث » . فيقال : لو أن الحافظ رحمه الله اقتصر على هذا القول الذى ذكره بصيغة التمريض ، لكان أولى له وأعذر عند الله — تعالى — وعند عباده المؤمنين ، لأنه لا يخالف لفظ الحديث ، وإن كان الفعل عند الأشعرية يقصد به المفعول ، كما تقدم .

وأما قوله : « وقيل فيه حذف ، تقديره : يأتيهم بعض ملائكة الله ، ورجحه عياض » فيقال : بطلان هذا أظهر مما تقدم .

وكل من قبل ما جاء به الرسول ﷺ وسلم له متقادا فإنه يعلم يقينا بطلان هذا القول ، بل هذا يعلمه كل عاقل يتصور ما يقول .

ونحن نسأل أصحاب هذا القول الذى رجحه عياض : هل يجوز للملك الذى يأتيهم — كما زعموا — أن يقول لأهل ذلك الموقف : أنا ربكم وقد قال الله — تعالى — عن الملائكة أجمعين : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

والله — تعالى — لا يأمره بذلك ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، فإن هذا شرك وكفر ، والله — تعالى — لا يأمر به .

ومثل هذا ، التأويل الرابع ، الذى جعله محتملا له ، وهو قولهم : إن الله — تعالى — يأتيهم بصورة مخلوقة ، تقول لهم : أنا ربكم « فهذا كلام سخيف مضحك ، وشر البلية ما أضحك .

فلولا أنه مسطور فى الكتب المتداولة بين طلبة العلم لتزهد كتابى عن ذكره

(١) الآية ٢٩ من سورة الأنبياء .

فإن مثله يجب أن تنزه عنه كتب العلم ، لأنه منكر من القول وزور ، وهو أقرب إلى السخرية والتهكم بكلام رسول الله ﷺ من كونه يَحتمله ، ولا يشك من يعرف معاني الكلام أن هذا تحريف لكلام رسول الله ﷺ ، وتعطيل لله تعالى عن الإتيان ، والصعود والاستواء ، أو فعل ما يريد من ذلك .

ولكن هؤلاء المحرفون يجهدون أنفسهم ويبدلون وسعهم في تحريف كلام الله وكلام رسوله ، وصد الناس عن قبوله على ظاهره ، ثم يغلبون وتكون جهودهم عليهم حسرة ، وسوف يندمون عند ظهور الحقائق .

قال شيخ الإسلام — رحمه الله تعالى — :

« وأما أهل التحريف والتأويل ، فهم الذين يقولون : إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر ، وأن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا .

ثم يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات ، التي يحتاج فيها إلى إخراج اللغات عن طريقها المعروفة وإلى الاستعانة بغرائب المجازات ، والاستعارات .

وهم في أكثر ما يتأولونه قد يعلم عقلاؤهم علما يقينا أن الأنبياء لم يريدوا بقولهم ما حملوه عليه .

وهؤلاء كثيرا ما يجعلون التأويل من باب دفع المعارض ، فيقصدون حمل اللفظ على ما يمكن أن يريده متكلم ، لا يقصدون طلب مراد المتكلم به ، وحمله على ما يناسب حاله .

وكل تأويل لا يقصد به صاحبه بيان مراد المتكلم ، وتفسير كلامه بما يعرف به مراده ، وعلى الوجه الذي يعرف مراده ، فصاحبه كاذب على من تأول كلامه .

ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل ، بل يقولون : يجوز أن يراد كذا ،
وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ .

فهذه طريق خلق كثير من المتكلمين ، وغيرهم ^(١) .

ومن تأمل هذه الأحاديث التي تقدم ذكر بعضها ، وتفهم سياقها ،
وما دلت عليه من المعاني ، وما اتفقت عليه من الأخبار بأن الله يأمر كل من
عبد غيره أن يتبعه ، بعدما يمثل له ذلك المعبود ، وأنه لا يبقى في الموقف إلا
من يعبد الله وحده ، من ير وفاجر ، فيأتيهم الله في صورة لا يعرفونه فيها ،
امتحانا ، فيثبتهم ، ثم يتجلى لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة ، وذلك
بعد أن كشف لهم عن ساقه فسجدوا له ، هل يصح عند عاقل أنهم يسجدون
لصورة مخلوقة ؟ .

فمن تأمل ذلك علم قطعا أن الذي يأتيهم هو رب العالمين ، وليس ملك ،
ولا شيء آخر مما ذكره المحرفون ، وعلم قطعا بطلان تأويلهم .

وأما قوله : « يحتمل أن المعنى : يأتيهم الله بصورة ، تظهر لهم من الصور
المخلوقة » ، فهذا الاحتمال هو ما ذكره الرازي في تأسيسه ، وقد تكفل شيخ
الإسلام بدحض باطله . قال — رحمه الله — :

« الوجه الثاني : أن قوله تكون « في » بمعنى الباء ، والتقدير : فيأتيهم الله
بصورة ، غير الصورة التي عرفوها في الدنيا » إلى آخره .

يقال : أولا هذا تبديل للغة ، وقلب [لها] ، فإن الباء في مثل قولك جئت
بكذا تكون لتعدية الفعل ، فالجورور بالباء في مثل هذا اللفظ يدل دلالة صريحة
على أنه أوقع الفعل من غيره ، فهو جعل غيره آتيا ، كقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ١ ص ١٢ .

اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴿١﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيَكُم بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ ﴿٢﴾ .

وقوله : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ ﴾ ﴿٣﴾ فليس في هذا النظم إشعار بأن المأتى به ظرف للفاعل ، ولا أنه فوقه ، أو في جوفه ، أو غير ذلك من المعاني التي يدل عليها لفظ « في » ، ولذلك لا تصلح أن توضع « في » موضع الباء في هذا الاستعمال ، فلا تقول : « عسى الله أن يأتيني فيهم » « إنما يأتاكم فيه الله » .

وأما قوله : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ ﴾ ، فإذا كان هو الذاهب بالجنود ، فإنه يصح أن يقول « فلنأتيهم في جنود » ، وإلا لم يصح ، وهذا من المشهور في اللغة يعرفه عامة علماء اللغة .

فلذلك صار هذا التأويل تحريفا لكلام الله ، وكلام رسوله ، فإن قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ ﴾ ﴿٤﴾ ، لا يصلح أن يراد به أنه يرسل ذلك ، ولا يأتي هو .

ثم قال : « الوجه الثالث : أن قوله : « فيأتي الله في صورته التي يعرفون » وقوله : « فيأتيهم الله في صورة غير صورته »

وقوله : « أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها أول مرة » .

وقوله : « في صورة ، غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » ، ونحو ذلك

(١) الآية ٨٣ من سورة يوسف عليه السلام .

(٢) الآية ٣٣ من سورة هود عليه السلام .

(٣) الآية ٣٧ من سورة النمل .

(٤) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

لو احتمل أن يكون بمعنى : فيأتيهم بصورة ، فإن لفظ الصورة المضاف إلى شيء هو من باب الإضافة النفسية ، لا الخلقية ، فإن الإضافة تكون فيما هو قائم بنفسه ، كما في قوله « ناقة الله » و « بيت الله » و « أرض الله » ونحو ذلك مما فيه دلالة على أنه منفصل عن المضاف إليه ، وأما الصفات ، مثل العلم ، والقدرة ، ونحو ذلك ، فإذا أضيفت كانت إضافته إضافة نفسية ، إذا لم يتبين خلاف ذلك .

والصورة صفة قائمة بذى الصورة ، فليست من الأعيان المنفصلة عن المضاف إليه ، حتى تجعل بمعنى الملك ، فلا يمكن أن تكون صورة الله التي يأتي فيها مخلوقا منفصلا عنه .

الوجه الرابع : أنه قال : « فيأتيهم الله في صورة غير صورته ، التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا » ، وفي لفظ : « أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم » .

ومعلوم أن أحدا من الملائكة لا يقول للخلق أنا ربكم ، بل لا يدعى هذه الدعوى إلا كافر بالله كفرعون ، والدجال ، والشيطان .

بل الملائكة عباد مطيعون لله تعالى ، لا يدعون الربوبية ، ولا الإلهية كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ولا يأمر الله أحدا من الخلق أن يقول لجميع العباد : أنا ربكم ، فإنه تعالى لا يأمر بالشرك .

(١) الآية ٢٩ من سورة الأنبياء .

ومن زعم أن الله يأمر بهذا ، فهو مفتر على الله .

وإن كان الملك يقوله امتحانا ، فهذا لا يصلح ، كما لا يصلح أن يقول أحد من الأنبياء ، والمرسلين للناس : أنا ربكم ، على سبيل الامتحان .

ولسنا ننكر الامتحان في القيامة ، فإن المحنة لا تنقطع إلا بدخول دار الجزاء ، الجنة أو النار ، ولكن المحنة من الملائكة أن يقول للعبد من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ .

الوجه الخامس : أنه لو كان الممتحن لهم في ذلك الموقف ، ملكا من الملائكة لقال لهم : من ربكم ؟ ومن تعبدون ؟ ويقال لهم : هلا تذهبون مع ربكم إذ من الممكن أن يظهر لهم صورة ، ويقول لهم الملك : هلا تذهبون مع هذه الصورة ، كما أنه في أول الحديث قال : وأذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد .

فلو كان المخاطب لهم عن الله تعالى — لقال ما يصلح له ، كما في نظائر ذلك ، ولكن من شأن الجهمية أنهم يجعلون المخاطب للعباد — بدعوى الربوبية غير الله ، كما قالوا : إن الخطاب الذي سمعه موسى ، بقوله : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾^(١) كان قائما بمخلوق ، كالشجرة ، وكما قالوا : في قوله : « من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني ؟ فأغفر له »^(٢) . إنه يقول : هذا : ملك من الملائكة .

وهذا كله من الكفر والإلحاد ، وكما يزعم الرازي في قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٣) أن ربه ملك من الملائكة .

(١) الآية ١٢ من سورة طه .

(٢) الحديث سيأتي .

(٣) الآية من سورة الفجر رقم ٢٢ .

الوجه السادس : أنه قال : « فيأتيهم الله في صورة ، غير صورته التي رأوه فيها أول مرة »^(١) ، وهذا نص في أنهم رأوا الله قبل هذا الخطاب في صورة غير الصورة [التي ظهر لهم فيها ، حال الخطاب] ، فلو كان المخاطب لهم ملكا لكان المرئى قبل ذلك هو الملك ، لا الله ، والحديث نص في أنهم رأوا الله قبل هذه المرة .

الوجه السابع : أنه قال : « فيأتيهم الله في صورة غير صورته ، التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه »^(٢) .

وفي الحديث الآخر : « إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، من بر وفاجر ، أتاهم الله ، في أدنى صورة ، من التي رأوه فيها »^(٣) .

وفي رواية : « إنا سمعنا مناديا ينادى : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما تنتظر ربنا ، فيأتيهم الجبار ، في صورة ، غير صورته ، التي رأوه فيها أول مرة »^(٤) .

وفي رواية : « أتاهم رب العالمين ، في أدنى صورة ، من التي رأوه فيها » فيقال : ماذا تنتظرون ؟ فيقولون : فارقنا الناس أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، ونحن ننتظر ربنا ، الذى كنا نعبد ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : لا نشرك بالله شيئا ، مرتين ، أو ثلاثا ، فيقول : هل بينكم وبينه آية ، فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساقه ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه ، إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد

(١) سيأتى ذلك في حديث أبى سعيد .

(٢) سيأتى ذلك في حديث أبى سعيد .

(٣) تقدم ذلك في حديث أبى هريرة وهى متفق عليها .

(٤) في حديث أبى سعيد وهو متفق عليه .

اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ،
ثم يرفعون رؤسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة ، فقال :
أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا»^(١) .

وهذا صريح بأن الذى أتاهم ، وقال : أنا ربكم ، هو الذى أراهم العلامة
حتى عرفوه فسجدوا له ، بعد ذلك ، وعرفوا أنه رب العالمين ، ولو كان
القائل : أنا ربكم ملكا ، لكان الملك هو الذى اعترفوا آخرا أنه رب العالمين
وهو الذى سجدوا له ، وهذا من أعظم الكفر والضلال .

الوجه الثامن : أن قوله : « فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم في الصورة التى
يعرفون ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا » وأنه يبدى العلامة التى
ذكرها ، فيسجدون له ، صريح بأن الذى يسجدون له ، قد جاء في الصورة
التى يعرفون ، ويتجلى لهم في الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، وذلك صريح
بأن الله هو الآتى ، في الصورة التى عرفوه فيها ويسجدون له لما عرفوه^(١) .

وقولهم : « يحتمل أن يكون المراد ، إذا جاء إحسان ربنا عرفناه » ، وقوله :
« فيأتيهم الله في الصورة التى يعرفون » ، معناه : بالصورة التى يعرفون أنها
من أمارات الإحسان .

فيقال : هذا باطل ، فإن معرفة آياته تكون في الإحسان ، والعقاب ، في
الدنيا ، والآخرة ، والله تعالى هو الخالق لكل شيء كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ ﴾^(٣) .

(١) نقض التأسيس ج ٣ ص ٢٢٣ — وكل هذه الروايات التى ذكرها في الصحيحين .

(٢) الآية ٩٣ من سورة النمل .

(٣) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

فمعرفة الله بآياته ليست موقوفة على الإحسان ، فبطلان هذه الدعوى واضح ، كما أن الأوجه التي ذكرها شيخ الإسلام كلها تبطل هذا الزعم .
ومما يبطله أيضا ما ذكر في الأحاديث ، أنه إذا قال لهم أولا : أنا ربكم يقولون : لا نشرك بالله شيئا ، أو نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء عرفناه ، فيقول : هل بينكم وبينه آية ، فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى ممن كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود » إلى آخره .

وقد قال أهل التأويل الباطل : إن المراد بقوله : « فيكشف عن ساق » الشدة ، كما يقال كشفت الحرب عن ساق .

كما قالوا في قوله : « فيأتهم في الصورة التي يعرفون » إنها أمارات الإحسان » وهذا تناقض ، حيث جعلوا ما تتوقف معرفته عليه — مرة — الإحسان ، ومرة أخرى هو الشدة والعذاب .

ومما يبطل قولهم أيضا ما في حديث جابر : « ثم يأتينا ربنا ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم يضحك ، قال : فينطلق بهم ويتبعونه »^(١) ، وهذا صريح أن الذي أتاهم ، والذي تجلى لهم هو ربهم تعالى وأنهم عرفوه لما تجلى لهم يضحك .

ثم إن جميع ألفاظ الحديث صريحة في أن الذي يأتي ، وجاء إليهم ، وقال : أنا ربكم ، ورأوه ، هو الذي سجدوا له ، فافتضى ذلك أن يكون المتجلى لهم ، المسجود له هو الذي جاءهم في الصورة ، وتكرر ذلك ، فلا يجوز أن يكون ذلك ملكا ، أو بعض النعم المخلوقة ، أو شدة أو غير ذلك مما زعمه المبطلون .

(١) رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٧٧ رقم ٣١٦ ورواه الإمام أحمد انظر المسند ج ٣ ص ٣٤٥ .

ولهذا كان الإمام أحمد يحتج على إثبات الرؤية بالجمي ، والإتيان ، كما ذكر الخلال في السنة ، عن أبي طالب ، قال : وقول الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴾ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فمن قال : إن الله لا يرى فقد كفر .

فبين أن هذه الآيات تدل على أنه يأتي ، ويحيى ، وذلك يقتضى الرؤية كما صرح به الأحاديث المفسرة لكتاب الله تعالى .

ومما يبين فساد قول المؤولين : أن في حديث ابن مسعود فرقا بين إتيان الرب نفسه ، وإتيان سائر المعبودات ، وذلك يفسر ما ورد في بقية الأحاديث فإنه قال :

(ثم ينادى مناد يا أيها الناس ألا ترضون من ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، وأمركم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا أن يولى كل إنسان منكم ما كان يتولاه ، ويعبده فى الدنيا ، أليس ذلك عدلا من ربكم ؟ قالوا : بلى . قال : فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، ويتولون فى الدنيا قال : فينطلقون ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون .

فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر ، وإلى الأوثان من الحجارة ، وأشباه ما كانوا يعبدون قال : ويتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويتمثل لمن كان يعبد عزيزا شيطان عزيز .

قال : فيتمثل لهم الرب فيأتيهم فيقول : ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا إلها ما رأيناها بعد ، فيقول : وهل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، بينا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناه ، فيقول ما هى ؟ قال : فيقولون : يكشف عن ساقه ، قال : فعند ذلك يكشف عن ساقه

قال : فيخر من كان يسجد له طوعًا ويبقى قوم ظهورهم كأنها صياصي البقر^(١) .

فلما ذكر تلك المعبودات ، ذكر أنه يمثل أشباهها ، وأن المعبود من الأنبياء تأتي شياطينهم لأنهم قد اتبعوها في الدنيا وعبدوها ، وذكر أن الرب تعالى لما امتحن العباد هو الذي يتمثل لهم وهو الذي أظهر لهم العلامة التي عرفوه بها حتى سجدوا .

فلو كان الآتي هو ملك من ملائكة الله ، أو شيء من مخلوقاته ، لكان بيان هذا أولى من بيان أن أولئك إنما جاءت أشباههم ، إذ في هذا من المحذور ما ليس في ذلك ، بل هذا التفريق بين هذا وهذا دليل واضح على أن الذي أتاهم هو رب العالمين ، الذي تمثل لهم في الصورة والذي اتبعه المشركون هو أشباه المعبودات ، وشياطين الأنبياء .

ومما يبين ذلك ما أخبر به أنه بعد إتيانه إياهم في الصورة التي يعرفون ، وإظهار الآية التي عرفوه بها ، وسجود المؤمنين له دون المنافقين أنهم اتبعوه حتى مروا على الصراط كما بين ذلك في حديث أبي هريرة وأبي سعيد وجابر وابن مسعود ، فلو كان الذي جاء في هذه المرة الثانية هو بعض النعم كما زعم المحرفون لكانوا قد اتبعوا تلك النعمة المخلوقة وليس الرب الذي عبده ، وهو خلاف نصوص الأحاديث وخلاف العدل الذي أخبر به الحديث ، وذلك أن العبادة مستلزمة كمال المحبة للمعبود ، وكال التعظيم له ، فإن المعبود هو الذي يقصد ويحب لذاته ، والمرء مع من أحب ، وهذا حقيقة العدل أن يكون الإنسان مع المحبوب الذي يحبه محبة كاملة بحيث يحبه لذاته .

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ج ٢ ص ٥٢١ فقرة ١٢٠٣ ، ورواه الدارقطني في كتاب الرؤية انظر ص ٢٩٧ رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية .

وإذا كان كذلك فيمتنع أن يكون المؤمنون متبعين لغير الله ، والذي جاءهم هو الذي اتبعوه ، وهو الله ، وهو الذي جاءهم في الصورة التي عرفوه فيها . ولا ريب أن عند الجهمية ممتنعاً أن يكونوا متبعين لله ، كما يمتنع أن يكون هو الآتي ، وكما يمتنع أن يكون قد أتاهم في صورة ، وكما يمتنع أن يتجلى لهم ضاحكاً ، وكما يمتنع أن يكشف عن ساقه ، بل أن يكون له ساق . فأحد الأمرين لازم إما أن يكون ما أخبر به الرسول ﷺ هو الحق ، أو ما يقوله هؤلاء الجهمية — المحرفون — .

وهما متناقضان غاية التناقض ، ومن عرف ما جاء به الرسول ﷺ ثم وافقهم فلا ريب أنه منافق^(١) .

وأما قولهم : يحتمل أن يراد بالصورة الصفة^(٢) ، والمعنى أنه يظهر لهم من بطش الله وشدة بأسه ما لم يألفوه ، ولم يعتادوه ، ثم يأتيهم بعد ذلك بأنواع الرحمة والكرامة ، على الوجه الذي اعتادوه وألفوه^(٣) .

قال شيخ الإسلام : (هذا التأويل أفسد من الذي قبله ، وأكثر الوجوه التي أبطل بها التأويل السابق تبطل هذا ، ولهذا خصائص تظهر بوجوه : أحدها : أن تفسير الصورة بمجرد الصفة فاسد^(٤) ، فحيث دل لفظ الصورة على صفة قائمة بالموصوف ، أو على صفة قائمة بالذهن واللسان فلا بد مع ذلك أن يدل على الصورة الخارجية .

الثاني : أن إظهار الشدة في تسمية ذلك صفة ، كما إظهار النعمة ، وكإظهار

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٣٦٥ — ٣٧٥ المخطوط ببعض التصرف .

(٢) هذا التأويل عين التأويل المشهور ، الذي يظن كثير من الناس أنه قول أهل السنة ، وهو أن المراد بالصورة أن خلق فيه السمع والبصر والعلم والإرادة ونحو ذلك . وسيأتي بطلانه .

(٣) هذا من كلام الرازي في تأسيسه .

(٤) سيأتي بيان فساده .

الملك ، إذ جميع ذلك عبارة عن خلق شيء من الأجسام وإظهاره .

فتسمية هذا صفة دون الملك والإحسان تحكم باطل .

الثالث : أن الناس ما زالوا يألّفون أن الله يبتليهم بالسراء والضراء ، فدعوى أن أحدهما مألوف دون الآخر باطل .

الرابع : أن الله إذا أظهر عذابه وشدته ، لم يجز الامتناع من السجود له في هذه الحال ، ولا يجوز إنكار ربوبيته ، حتى يقول الأنبياء والمؤمنون نعوذ بالله منك ، وينكرون أن يكون هو ربهم ، ومعلوم أن السجود في حال إظهار الشدة أولى منه في حال إظهار النعمة ، كما في الكسوف والخسوف ونحوهما .

الخامس : أن هذا يكون قبل مرورهم على الصراط ، وقبل تميز المنافقين من المؤمنين ، والنعم والعذاب والشدّة بعد ذلك ، إذا مروا على الصراط وتميز السعداء من الأشقياء .

السادس : أنه أخبر في الأحاديث أن المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً آخر قد صاروا إلى العذاب ، وبعد ذلك يأتي المسلمين ربهم في غير صورته ، التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفونها . فلم يظهر الشدة والبطش والعذاب إلا للكفار من المشركين وأهل الكتاب .

السابع : أن في الأحاديث : « إذا سجد المسلمون ، لم يتمكن من السجود المنافقون » ، وفي أحاديث أخرى^(١) أنهم يعطون بعد هذا الأنوار ، على قدر أعمالهم ، ثم يبرون على الصراط ، فجاج مسلم ، وهو الذي ينجو بلا أذى — وناج مخدوش — وهو الذي يصيبه من لفتح النار ، ومكدوس ، في نار

(١) كحديث جابر ، وحديث ابن مسعود وقدم ذكر من خرجهما .

جهنم وهم المعذبون .

فلم يكن العذاب والشدة إلا بعد هذا كله ، حيث المرور على الصراط ، فكيف يقال : إن إتيانه أولاً ، في غير صورته التي يعرفون ، هو إتيان عذابه وبأسه ، وهو لم يأت منه شيء بعد .

الثامن : أنهم تأولوا كشفه عن ساقه بأنه إظهار الشدة ،

وفي نفس هذه الأحاديث أنه إذا أتاهم في الصورة التي [لا] يعرفونها يكشف لهم عن ساقه فيسجدون له ، فإذا تأولوا مجيئه في الصورة التي يعرفون على إظهار رحمته وكرامته ، كان هذا من التحريف والتناقض في تفسير الكتاب والسنة .

التاسع : أنه ليس فيما ذكره إلا أنه يجيء بعض مخلوقاته إما التي تسر وإما التي تضر ، ومن المعلوم أن الله تعالى لا يوصف بنفس مخلوقاته ، بل كونها ليست صفات له أظهر من كونها ليست صورة له فقول القائل : يأتهم الله في صورته التي يعرفون ، أو التي لا يعرفون أى في صفته التي يعرفون ، أو التي لا يعرفون ثم يؤول ذلك بمجىء بعض ما يخلقه من الضراء أو السراء ، من أفسد الكلام ، فإن النعم والنقم ليست من صفات الله التي يوصف بها ، وإنما يوصف بأنه يخلقها ويحدثها ويفعلها ، فلا يصح أن يكون مجيئها مجىء الله في صفته .

العاشر : أن أكثر هؤلاء المؤولة أشاعرة وعندهم أن الخلق هو المخلوق ، كما سيأتى إن شاء الله بيانه ، فليس الخلق صفة لله تعالى عندهم ، كالمعتزلة ، فإذا كان كذلك كيف يكون المخلوق المكون من صفات الله تعالى .

الحادى عشر : أنه لو كان اللفظ فيأتيهم الله في صورة عظيمة أو في صفة عظيمة كما يقال : وجاء الملك في صورة عظيمة ودخل المدينة على صفة عظيمة ، ونحو ذلك لأمكن صحة دعواهم ، أن الصورة أو الصفة من

المخلوقات ، لأن قوله في صورة أو صفة نكرة مثبتة لم يعين صاحبها .
فإذا قيل في صورته التي يعرفون ، أو صورته التي لا يعرفون ، أو في صورة
غير صورته التي رأوه فيها أول مرة ، وقيل : إن الصورة بمعنى الصفة ، كان
ذلك صفة له ، فيمتنع أن يكون عائداً إلى غيره .

الثاني عشر : أن ألفاظ الحديث في هذا كلها مصرحة بأن الله تعالى هو
الآتي ، وهي بذلك موافقة للدلالة القرآن مفسرة له ، حيث أخبر النبي ﷺ
في أول الأحاديث بأنهم يرون ربهم ، كما يرون الشمس صحواً ليس دونها
سحاب ، وكما يرون القمر ليلة البدر صحواً ليس دونه سحاب ، جواباً لهم
لما سألوه : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

وأخبرهم أيضاً ابتداءً بدون سؤال ، فإنه ﷺ كان يحدثهم بهذا الحديث
مرات متعددة .

ثم وصف هذه الرؤية ، فأخبر أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد لتتبع كل
أمة ما كانت تعبد ، وأخبر باتباع المشركين لما كانوا يعبدونه ، ثم قال وتبقى
هذه الأمة فيها مناققوها ، فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون ،
فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا
جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون
نعم أنت ربنا فيتبعونه .

وفي الحديث الآخر يقال لهم هل بينكم وبينه علامة فتعرفونه بها ؟
فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان
يسجد لله رباً وسمعة ، فيذهب كيما يسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً ،
ثم يرفعون رؤوسهم ، وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة .

وفي الحديث الآخر : ثم يأتينا ربنا ، بعد ذلك ، فيقول : من تنتظرون ؟
فيقولون : ننتظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجـ

لهم يضحك ، قال فينطلق بهم فيتبعونه .

وفي الحديث الآخر : قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات^(١) يوم معلوم ، قيامًا ، أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم ، إلى السماء ، ينتظرون فصل القضاء ، قال وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ، ثم ينادى مناد ... إنلخ وإذا كانت الأحاديث مصرحة بمجيء الرب نفسه تصريحًا يعلمه الخاص والعام ، ويزيل كل شبهة ، علم أن هذه التحريفات ، تكذيبًا للرسول ﷺ ، لا تصدر إلا من جاهل بما أخبر به أو منافق ، ليس بمؤمن به . فأما من آمن به ، وعلم ما جاء به ، فلا يكون إلا مصدقًا بمضمونها .

ومضمون ما يقوله هؤلاء المخرفون : أن العبادة تكون لغير الله ، وهذا من جملة شركهم فإنهم دخلوا في الشرك من وجوه : منها إثباتهم خصائص الربوبية لغير الله ، حتى جعلوه يدعى الربوبية ، ويحاسب العباد ، ويسجدون له^(٢) .

واعلم أن لهم تأويلات غير ما ذكر هنا ، من ذلك ما ذكره الإمام ابن خزيمة في كتاب التوحيد ، وما ذكره الفخر الرازي في تأسيسه ، وتبعه على ذلك كل من جاء بعده ، من شراح الحديث ، إلا من شاء الله تعالى ، فلذلك نقل ما فيه شبهة قد تشكل على من قرأ كلامهم ، ونقل رد شيخ الإسلام عليهم ، أما ما هو ظاهر البطلان ، فلا حاجة إلى ذكره .

قال الرازي : اعلم أن الصورة ما وردت في القرآن ولكنها واردة في الأخبار ، عن النبي ﷺ كقوله : « إن الله خلق آدم على صورته » وقوله : « لا يقولن أحدكم لعبدك قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته » ، ثم قال والجواب : اعلم أن الهاء في قوله على صورته ،

(١) وكل هذه الروايات ثابتة في الصحاح وغيرها وسبقت الإشارة إلى ذكر من رواها .

(٢) نقض التأسيس ج ٣ ص ٣٧٧ إلى ٣٨٣ مخطوط .

يحتمل أن تكون عائدة على شيء غير صورة آدم ، وغير الله ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى آدم ويحتمل أن تكون عائدة إلى الله ، فهذه طرق ثلاث .

ثم ذكر الطريقتين الأولين والتأويل فيهما ولظهور بطلان ما ذكره نعرض عنهما ، لأننا قد ذكرنا فيما تقدم ما يبين بطلان كون الضمير عائداً إلى غير الله تعالى .

ثم قال الطريق الثالث أن يكون ذلك الضمير عائداً إلى الله تعالى وفيه وجوه :

الأول : المراد من الصورة الصفة ، فيكون المعنى أن آدم عليه السلام امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالماً بالعقولات ، قادراً على استنباط الحرف ، والصناعات ، وهذه صفات شريفة ، مناسبة لصفات الله من بعض الوجوه ، فصح قوله ﷺ : إن الله خلق آدم على صورته بناءً على هذا التأويل .

فإن قيل : المشاركة في صفات كمال تقتضى المشاركة في الإلهية .

قلنا : المشاركة في بعض اللوازم البعيدة مع حصول المخالفة في الأمور الكثيرة لا تقتضى المساواة في الإلهية ، ولهذا المعنى قال الله تعالى : ﴿ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ (١) ، وقال ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله » (٢) .

الثاني : أنه كما يصح إضافة الصفة إلى الموصوف ، فقد يصح إضافتها إلى الخالق ، والموجد ، فيكون الغرض من هذه الإضافة الدلالة على أن هذه الصورة ممتازة عن سائر الصور ، بمزيد الكرامة والجلالة .

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٢) سيأتي أنه حديث باطل لا أصل له .

قال : والخير الثاني : ما رواه ابن خزيمة في كتابه الذى سماه التوحيد بإسناده عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن » ، قال : واعلم أن ابن خزيمة ضعف هذه الرواية ، ويقول : إن صحت هذه الرواية فلها تأويلان :

الأول : أن يكون المراد بالصورة : الصفة ، على ما بيناه .

الثاني : أن يكون المراد من هذه الإضافة ، بيان شرف هذه الصورة ، كما فى قوله : « بيت الله » ، و « ناقة الله »^(١) .

وقد تولى شيخ الإسلام رحمه الله رد هذه التأويلات ، ردا مقنعا ، عن علم ، وبإنصاف ، ولخطورة هذه المسألة ، ومكانة شيخ الإسلام فإنى أكتفى بنقل كلامه هنا ، وهو كاف واف .

قال رحمه الله بعدما نقل الكلام المتقدم عن الرازى :

فيقال : هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من وجوه ؛

فقى الصحيحين عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ، ثم قال له : اذهب فسلم على أولئك الملائكة فاستمع ما يجيبونك به فإنها تحيتك ، وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم »^(٢) .

قال فى رواية جعفر بن محمد بن رافع على صورته .

وروى البخارى من حديث أبى سعيد المقبرى ، ويحيى بن همام عن

(١) تأسيس التقديس للرازى ص ٨٣ - ٩١ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح ج ٦ ص ٣٦٢ و ج ١١ ص ٢ ومسلم ج ٤ ص ٢١٨٣ رقم ٢٨٤١ .

أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه »^(١) .
 وذكر بعض ما تقدم من روايات الحديث . ثم قال : لم يكن بين السلف ،
 من القرون الثلاثة نزاع ، في أن الضمير في هذا الحديث عائد إلى الله تعالى ،
 فإنه مستفيض من طرق متعددة ، عن عدد من الصحابة ، وسياق الأحاديث ،
 كلها تدل على ذلك ، وهو أيضاً مذكور فيما عند أهل الكتابين ، من الكتب ،
 كالنوراة ، وغيرها ، وما كان من العلم الموروث عن نبينا محمد ﷺ ، فلنا
 إن نستشهد عليه بما عند أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا
 بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾^(٢) .

ولكن كان من العلماء ، في القرن الثالث ، من يكره روايته ، ويروى
 بعضه ، كما يكره رواية بعض الأحاديث ، لمن يخاف أن يلزم نفسه ويفسد
 عقله ، أو دينه ، كما قال عبد الله بن مسعود : ما من رجل يحدث قومًا حديثًا ،
 لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة لبعضهم^(٣) .

وفي البخاري ، عن علي بن أبي طالب ، أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ،
 ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله^(٤) .

وإن كانوا مع ذلك ، لا يرون كتمان ما جاء به الرسول ﷺ مطلقًا ، بل
 لا بد أن يبلغوه ، حيث يصلح ذلك ، ولذلك اتفقت الأمة على تبليغه ،
 وتصديقه ، وإنما دخلت الشبهة في الحديث لتفريق ألفاظه ، فإن من ألفاظه

(١) انظر الفتح ج ٥ ص ١٨٢ ورواه مسلم من حديث المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبي الزناد عن
 الأعرج عن أبي هريرة وفيه إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته ج ٤ ص
 ٢٠١٧ .

(٢) آخر آية من سورة الرعد .

(٣) رواه مسلم في مقدمة الصحيح ج ١ ص ١١ .

(٤) رواه في كتاب العلم باب من خص بالعلم فقومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا انظر الفتح ج
 ١ ص ٢٢٥ .

المشهورة : « إذا قاتل أحدكم فليتنق الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته ، ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته »^(١) .

وهذا فيه حكم عملي ، يحتاج إليه الفقهاء ، وفيه الجملة الثانية الخبرية المتعلقة بالإخبار ، عن خلق آدم ، فكثير من الفقهاء روى الجملة الأولى فقط ، وهى قوله : « فإذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه » ولم يذكر الثانية .

وعامة أهل الأصول والكلام ، إنما يروون الجملة الثانية وهى قوله : « خلق الله آدم على صورته » ، ولا يذكرون الجملة الطلبيه فصار الحديث متواتراً بين الطائفتين ، وصاروا متفقين على تصديقه ، لكن مع تفريق بعضه عن بعض ، وإن كان هو محفوظاً عند آخرين من علماء الحديث وغيرهم .

وقد ذكره النبي ﷺ ابتداءً في إخباره بخلق آدم ، فى ضمن حديث طويل ، إذا ذكر على وجهه زال كثير من الأمور المحتملة .

ولكن لما انتشرت الجهمية فى المائة الثالثة ، جعل طائفة الضمير فيه عائداً إلى غير الله تعالى ، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة ، فى عامة أمورهم ، كأبى ثور ، وابن خزيمة ، وأبى الشيخ الأصبهاني وغيرهم ، ولذلك أنكروا عليهم أئمة الدين وغيرهم ، من علماء السنة .

قال الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجى الشافعى فى كتاب الفصول فى الأصول « فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة ، فغير مقبول ، وإن صدر ذلك التأويل عن إمام معروف ، غير مجبول ، نحو ما ينسب إلى أبى بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ، فى تأويل الحديث : « خلق الله آدم

(١) رواه عبد الرزاق فى المصنف ج ٩ ص ٤٤٥ والدارقطنى فى الصفات ص ٣٥ ، ٣٦ ، وابن عاصم فى السنة ج ١ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ وابن خزيمة فى التوحيد ج ١ ص ٨١ - ٨٦ .

على صورته » ، فإنه يفسر ذلك ، بذلك التأويل ، ولم يتابعه عليه من قبله ، من أئمة الحديث ، كما روينا عن أحمد رحمه الله ، ولم يتابعه أيضاً من بعده ، حتى رأيت في كتاب الفقهاء للعبادى الفقيه : أنه ذكر الفقهاء ، وذكر عن كل واحد منهم مسألة ، انفرد بها ، فذكر الإمام ابن خزيمة ، وأنه انفرد بتأويل هذا الحديث ، « خلق الله آدم على صورته » على أنى سمعت عدة من المشايخ رووا أن ذلك التأويل مزور مربوط على ابن خزيمة ، وإفك مفترى عليه ، فهذا وأمثال ذلك من التأويل لا تقبله ولا يلتفت إليه .

قلت ذكر الحافظ أبو موسى المدينى فيما جمعه من مناقب إسماعيل بن محمد التيمي ، قال سمعته يقول : أخطأ محمد بن إسحاق بن خزيمة ، في حديث الصورة ، ولا يطعن عليه ذلك ، بل لا يؤخذ عنه هذا فحسب ، قال أبو موسى : أشار بذلك إلى أنه قلَّ من إمام إلا وله زلة ، فإذا ترك ذلك الإمام لأجل زلته ، ترك كثير من الأئمة .

إذا عرف ذلك فيقال : أما عود الضمير إلى غير الله تعالى ، فباطل من وجوه :

أحدها : ما في الصحيحين ابتداءً « أن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعاً » .

وفي أحاديث أخر : « أن الله خلق آدم على صورته » ولم يقدم ذكر أحد يعود الضمير إليه .

وما ذكر بعضهم : من أن النبي ﷺ رأى رجلاً يضرب رجلاً ، ويقول قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فقال : « خلق الله آدم على صورته » ، أى صورة هذا المضروب .

فهذا شيء لا أصل له ، ولا يعرف فى شيء من كتب الحديث .

الثانى : أن الحديث الآخر لفظه : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن

الله خلق آدم على صورته»^(١) وليس في هذا ذكر أحد يعود الضمير إليه .

الثالث : أن اللفظ الذى ذكره ابن خزيمة ، وتأوله ، وهو قوله : « لا يقولن أحدكم ، قبح الله وجهه ، ووجهها أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته »^(٢) ليس فيه ذكر أحد يصلح عود الضمير إليه ، وقوله في التأويل أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذى أمر الضارب باجتئاب وجهه بالضرب ، والذى قبح وجهه ، فزجر ﷺ أن يقول ووجه من أشبه وجهك .

فيقال له : لم يتقدم ذكر مضروب ، فيما رواه عن النبي ﷺ ، ولا في لفظه ذكر ذلك ، بل قال : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » ، ولم يقل إذا قاتل أحدكم أحدًا ، أو إذا ضرب أحدًا ، والحديث الآخر ذكرته^(٣) من رواية الليث بن سعد ، ولفظه : « ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ووجهها أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته »^(٤) .

وليس في هذا ذكر مضروب ، حتى يصلح عود الضمير إليه ، فإن قيل : قد يعود الضمير إلى مادل عليه الكلام ، وإن لم يكن مذكورا كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾^(٥) أى البخل ، لأن لفظ البخل ، يدل على المصدر الذى هو البخل ، ومنه قول الشاعر :

(١) تقدم تخريجه قريبا .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) الخطاب لابن خزيمة فإنه رواه من هذا الطريق .

(٤) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ج ١ ص ٨١ - ٨٦ .

(٥) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

إذا نهي السفية جرى إليه وخالف ، والسفيه إلى خلاف
أى إلى السفه .

قيل : إنما يكون ذلك فيما لا لبس فيه ، حيث لم يتقدم ما يصلح لعود
الضمير إلا ما دل عليه الخطاب ، فيكون العلم بأنه لا بد للظاهر من مضمير
يدل على ذلك ، أما إذا تقدم اسم صريح قريب إلى الضمير ، فلا يصلح أن يترك
عوده إليه ، ويعود إلى شيء متقدم ، لا ذكر له في الخطاب ، وهذا مما يعلم
بالضرورة فساده في اللغات .

الرابع : أنه في مثل هذا لا يصلح إفراد الضمير ، فإن الله خلق آدم على
صورة بنيه كلهم ، فتخصيص واحد لم يتقدم له ذكر ، بأن الله خلق آدم
على صورته في غاية البعد .

لاسيما وقوله : « إذا قاتل أحدكم » ، و « إذا ضرب أحدكم » عام في كل
مضروب .

والله خلق آدم على صورهم جميعهم ، فلا معنى لإفراد الضمير .
وكذلك قوله : « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه
وجهك » ، عام في كل مخاطب ، والله قد خلقهم كلهم على صورة آدم .

الخامس : أن ذرية آدم خلقوا على صورة آدم ، لم يخلق آدم على صورهم .
فإن مثل هذا الخطاب إنما يقال فيه ، خلق الثاني المتأخر في الوجود على
صورة الأول ، المتقدم في الوجود ، لا يقال : إنه خلق الأول على صورة
الثاني ، المتأخر في الوجود ، كما يقال : خلق الخلق على غير مثال ، أو نسج
هذا على منوال هذا ، ونحو ذلك ، فإنه في جميع هذا إنما يكون المصنوع المقيس
متأخرا في الذكر ، عن المقيس عليه .

وإذا قيل خلق الوالد على صورة ابنه ، أو على خلق ابنه ، كان كلاما

فاسدا ، بخلاف ما إذا ذكر التشبيه بغير لفظ الخلق ، وما يقوم مقامه ، مثل أن يقال : الوالد يشبه ولده ، فإن هذا سائغ ؛

لأن قوله : « خلق » إخبار عن تكوينه ، وإبداعه ، على مثال غيره ، ومن الممتنع أن الأول كون على مثال ما لم يكن بعد ، وإنما يكون على مثال ما قد كان .

السادس : أنه إذا كان المقصود أن هذا المضروب ، والمشتوم يشبه آدم ، فمن المعلوم أن هذا من الأمور الظاهرة ، المعلومة للخاص والعام فلو أريد التعليل بذلك لقليل : « فإن هذا يدخل فيه الأنبياء ، إذ هذا يدخل فيه آدم ، أو نحو ذلك من العبارات ، التي تبين قبح كلامه ، وهو اشتغال لفظه على ما يعلم هو وجوده » .

أما مجرد إخباره بما يعلم وجوده كل أحد ، فلا يستعمل في مثل هذا الخطاب .

السابع : أنه إذا أريد مجرد المشابهة لآدم وذريته لم يحتج إلى لفظ « خلق » على كذا ، فإن هذه العبارة إنما تستعمل فيما فعل على مثال غيره ، بل يقال : « فإن وجهه يشبه وجه آدم » ، أو « فإن صورته تشبه صورة آدم » .

الثامن : أن يقال : مثل هذه تصلح لقوله : « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك » فكيف يصلح لقوله : « إذا قاتل أحدكم فليجنب الوجه » .

ومعلوم أن كون صورته تشبه صورة آدم ، لا توجب سقوط العقوبة عنه ، فإن الإنسان لو كان يشبه نبيا من الأنبياء ، أعظم من مشابهة الذرية لأبيهم في مطلق الصورة والوجه ، ثم وجبت على ذلك الشبيه بالنبي عقوبة ، لم تسقط عقوبته بهذا الشبه باتفاق المسلمين ، فكيف يجوز تعليل تحريم العقوبة بمجرد المشابهة المطلقة لآدم .

التاسع : أن في ذرية آدم من هو أفضل منه ، وتناول اللفظ لجميعهم واحد ، فلو كان المقصود بالخطاب ليس ما يختص به آدم ، من ابتداء خلقه على صورته بل المقصود مجرد مشابهة المضروب المشتوم له ، لكان ذكر سائر الأنبياء أولى ، كإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإن كان آدم أباهم ، فليس هذا المقام مقاما له به اختصاص — على زعم هؤلاء .

العاشر : وهو قاطع أيضا — أن يقال : كون الوجه ، يشبه وجه آدم ، هو مثل كون سائر الأعضاء تشبه أعضاء آدم ، فإن رأس الإنسان ، يشبه رأس آدم ، ويده تشبه يده ، ورجله تشبه رجله ، وبطنه ، وظهره ، وفخذه ، وساقه ، يشبه ظهره ، وفخذه وساقه ، فليس للوجه بمشابهة آدم اختصاص . بل جميع أعضاء البدن بمنزلته في ذلك ، فلو صح أن يكون هذا علة لمنع الضرب ، لوجب أن لا يجوز ضرب شيء من أعضاء بنى آدم ، لأن ذلك جميعه على صورة أبيهم آدم .

وفي إجماع المسلمين على وجوب ضرب هذه الأعضاء ، في الجهاد للكفار والمنافقين ، وإقامة الحدود — مع كونها مشابهة لأعضاء آدم ، وسائر النبيين — دليل على أنه لا يجوز المنع من ضرب الوجه ، ولا غيره لأجل هذه المشابهة . الحادى عشر : أنه لو كان علة النهى عن شتم الوجه ، وتقييحه أنه يشبه وجه آدم ، لنهى أيضا عن الشتم والتقييح لسائر الأعضاء [فيقال] : « لا يقولن أحدكم : قطع الله يدك ، ويد من أشبه يدك » .

الثانى عشر : أن ما ذكره من أنه إبطال لقول من يقول : إن آدم كان على صورة أخرى ، مثل ما يقال : عظيم الجثة ، طويل القامة ، وإن النبى ﷺ أشار إلى إنسان معين ، وقال : إن الله خلق آدم على صورته أى كان شكل آدم مثل شكل هذا الإنسان ، من غير تفاوت البتة .

فيقال لهم : الحديث المتفق عليه في الصحيحين ، مناقض لهذا التأويل ،

مصرح فيه بأن خلق آدم أعظم من صور بنيه بشيء كثير ، وأنه لم يكن على شكل أحد من أبناء الزمان .

فمن همام بن منبه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، وطوله ستون ذراعا ، ثم قال له : اذهب فسلم على أولئك الملائكة ، فاسمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحيمة ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم .

قال : فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» (١) .

قال : في رواية يحيى بن جعفر ، ومحمد بن رافع : « على صورته » ، وذكر فيه ، طوله ستون ذراعا ، وأن الخلق لم يزل ينقص حتى الآن ، وأن أهل الجنة يدخلون على صورة آدم .

ولم يقل : إن آدم على صورتهم ، بل قال : على صورة آدم .

وقد روى أن عرض أحدهم سبعة أذرع ، فهل في تبديل كلام الله ورسوله أبلغ من هذا ، أن يجعل ما أثبتته النبي ﷺ وأخبر به ، وأوجب التصديق به ، قد نفاه ، وأبطله ، وأوجب تكذيبه ، وإبطاله ؟

الثالث عشر : أنه قد روى من غير وجه « على صورة الرحمن » (٢) .

وأما عود الضمير على آدم ففاسد ، وبيان ذلك من وجوه :

أحدها : أنه إذا قيل : « إذا قاتل أحدكم فليجنب الوجه ، فإن الله خلق

(١) تقدم الحديث ص ٦٧ .

(٢) تقدم تخريجه وانظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ج ٢ ص ٨٥ وذكر من خرجه هناك غيره ورواه الدارقطني في الصفات ص ٣٦ - ٣٧ وهو حديث ثابت

آدم على صورة آدم» أو « لا يقل أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورة آدم » .

كان هذا من أفسد الكلام ، فإنه لا يكون بين العلة والحكم مناسبة أصلا ؛ فإن كون آدم مخلوقا على صورة آدم ، فأى تفسير فسر ، فليس فى ذلك مناسبة للنهى عن ضرب وجوه بنيه ، ولا عن تقبيحها ، وتقبيح ما يشبهها . وإنما دخل التلبيس بهذا التأويل حيث فرق الحديث .

فروى قوله : « إذا قاتل أحدكم ، فليتق الوجه » وحده مفردا .

وروى قوله : « إن الله خلق آدم على صورته » مفردا .

أما مع أداء الحديث على وجهه ، فإن عود الضمير إلى آدم ، يمتنع فيه ؛ وذلك أن خلق آدم على صورة آدم ، سواء كان فيه تشرىف لآدم ، أو كان مجرد إخبار بالواقع ، لا يناسب الحكم .

الوجه الثانى : أن الله خلق سائر أعضاء آدم على صورة آدم ، فلو كان ذلك مانعا من ضرب الوجه ، وتقبيحه لوجب أن يكون مانعا من ضرب سائر الأعضاء ، وتقبيح سائر الصور ، وهذا معلوم الفساد ، فى العقل والدين ، وتعليل الحكم الخاص بالعلة المشتركة ، من أقبح الكلام .

وإضافة ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم لا يصدر إلا عن جهل عظيم ، أو نفاق شديد ، إذ لا خلاف فى علمه ، وحكمته ، وحسن كلامه .

فإن هذا مثل أن يقال : لا تضربوا وجوه بنى آدم ، فإن أباهم له صفات يختص هو بها ، دونهم ، مثل كونه خلق من غير أبوين .

أو يقال : لا تضربوا وجوه بنى آدم ، فإن أباهم خلق من تراب .

الوجه الثالث : أن هذا تعليل للحكم بما يوجب نفيه ، وهذا من أعظم

التناقض ، وذلك أنهم تأولوا الحديث على أن آدم لم يخلق من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وعلى أنه لم يتكون في مدة طويلة ، بواسطة العناصر ، وبنوه قد خلقوا من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، وخلقوا في مدة من عناصر الأرض .

فإن كانت العلة المانعة من الضرب للوجه ، وتقييحه كونه خلق على هذا الوجه ، وهذه العلة منتفية في بنيه ، فينبغي أن يجوز ضرب وجوه بنيه ، وتقييحها ، لانتفاء العلة فيها ، فإن آدم هو الذى خلق على صورته دونهم إذ هم لم يخلقوا على صورهم التى هم عليها ، كما خلق آدم ، بل نقلوا من نطفة إلى علقه ، ثم إلى مضغة .

الوجه الرابع : ما أبطل به الإمام أحمد هذا التأويل ، حيث قال : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم ، فهو جهمى ، وأى صورة كانت لآدم قبل أن يخلق ؟

وهذا الوجه الذى ذكره الإمام أحمد يعم الأحاديث كلها . قوله ابتداء : « إن الله خلق آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا » .

وقوله : « لا تقبحوا الوجه » إلى آخره ، « وإذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » .

وذلك أن قوله : « خلق آدم على صورته » يقتضى أنه كان له صورة قبل الخلق [خلقه] عليها .

فإن هذه العبارة لا تستعمل إلا في مثل ذلك ، وبمثل هذا أبطلنا قول من يقول : إن الضمير عائد إلى المضروب ، فإن المضروب متأخر عن آدم فجميع ما يذكر من التأويلات ، مضمونها أن صورته تأخرت عنه ، فتكون باطلة . وأيضا . فمن المعلوم بالضرورة أنه لم تكن لآدم صورة خلق عليها قبل صورته التى خلقها الله تعالى .

الوجه الخامس : أن جميع ما يذكر من التأويلات ، كقولهم : خلق آدم على صورة آدم ، موجود نظيره في جميع المخلوقات ، سواء أريد بذلك الصورة الثابتة قدرا في علم الله ، وكتابه ، أو غير ذلك .

وأما كونه خلق على صورته ابتداء ، أو في غير مدة ، فإنه ليس كذلك ، بل خلقه تنقل من حال إلى حال ، من التراب إلى الطين ، ثم إلى الصلصال ، كبنية فإنهم من نطف ، إلى علق ثم إلى مضغ .

فإذا جاز أن يقال في أحدهما خلق على صورته ، مع تنقله إلى هذه الأطوار جاز ذلك في الآخر .

ولا شك أن هذه الأحاديث وردت في تخصيص آدم ، بأنه خلق على صورته دون غيره من الخلق ، وإن كان بنوه تبعًا له في ذلك .

ولكن هذا كخلق بيده ، وإسجاد ملائكته له ، وبهذا علم بطلان ما يوجب الاشتراك ، ويزيل الاختصاص .

الوجه السادس : أن المعنى الذى تدل عليه هذه العبارة التى ذكروها هى من الأمور المعلومة ببديهية العقل ، التى لا يحسن بيانها ، والخطاب بها لتعريفها ، فإن قول القائل : إن الشيء الفلانى خلق على صورة نفسه . لا يدل لفظه على غير ما هو معلوم بالعقل ، إن كان مخلوقا على الصورة التى خلق عليها .

وهذا مثل أن يقال : أوجد الله الشيء ، كما أوجده ، وخلق الله الأشياء ، على ما هى عليه ، وعلى الصورة التى هى عليها ، ونحو ذلك ، مما هو معلوم ببديهية العقل ، ومعلوم أن بيان هذا ، وإيضاحه قبيح جدا .

الوجه السابع : أن ما ذكروه من كون آدم خلق على صورة آدم ، أو أنه خلق من غير نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، أو أنه لم يخلق من مادة ، أو بواسطة القوى ، والعناصر — كما يدعون — لا دليل عليه ، وليس في هذه

الأحاديث ما يدل عليه بحال من الأحوال .

الوجه الثامن : أن الحديث ، روى من وجوه ، بألفاظ تبطل عود الضمير إلى آدم ، مثل قوله : « لا تقبحوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن »^(١) .

وقوله في الطريق الآخر ، من حديث أبي هريرة : « إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن »^(٢) .

وقول ابن عباس فيما ذكره عن الله تعالى : « تعمد إلى خلق من خلقي ، خلقتهم على صورتي ، فتقول لهم : اشربوا يا حمير »^(٣) .

وأما تضعيف ابن خزيمة لحديث ابن عمر ، بأن الثوري أرسله ، فخالف فيه الأعمش ، وأن الأعمش وحبيبا مدلسان .

فيقال : قد صححه إسحاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل ، وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس .

وأیضا فمن المعلوم أن عطاء بن أبي رباح ، إذا أرسل هذا الحديث ، عن النبي ﷺ فلا بد أن يكون قد سمعه من أحد .

فإذا كان في إحدى الطريقتين ، قد بين أنه أخذه عن ابن عمر ، كان بيانا ، وتفسيرا لما تركه ، وحذفه في الطريق الأخرى ، ولم يكن هذا اختلافا أصلا .

ولو قدر أن عطاء لم يذكره إلا مرسلا ، عن النبي ﷺ فمن المعلوم أن عطاء من أجل التابعين قدرا ، فإنه هو ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم النخعي ، والحسن البصرى من أئمة التابعين في زمانهم .

(١) تقدم تخريجه ص ٣٦ ، ٧٥ .

(٢) تقدم أيضا ذكر من رواه

(٣) روى أن هذا الخطاب موجه إلى موسى ﷺ لما ضرب الحجر وانفجر منه اثنتا عشرة عينا .

ومن المعلوم أن مثل عطاء ، لو أفتى في مسألة فقه ، بموجب خبر أرسله ،
لكان ذلك يقتضى ثبوته عنده .

ولهذا يجعل الفقهاء احتجاج المرسل بالخبر دليلا على ثبوته عنده .

والأخبار التي توجب العلم ، أعظم من التي توجب العمل .

فإذا كان عطاء ، قد جزم بهذا الخبر العلمى ، عن النبي ﷺ في هذا الباب
العظيم ، فلا يمكن أن يستجيز ذلك من غير أن يكون ثابتا عنده .

واتفاق السلف على رواية هذا الخبر ، ونحوه ، مثل عطاء ، وحبيب بن
أبي ثابت ، والأعمش ، والثورى ، وأصحابهم من غير تكبير سمع من أحد لمثل
ذلك ، في ذلك العصر ، مع أن هذه الروايات المتنوعة في مظنة الاشتهار ،
دليل على أن علماء الأمة [لا] تنكر إطلاق القول بأن الله خلق آدم على
صورة الرحمن ، بل كانوا متفقين على إطلاق مثل هذا .

وكرهة بعضهم لرواية ذلك ، في بعض الأوقات ، له نظائر ، فإن الشيء
قد يمنع سماعه لبعض الجهال ، وإن كان متفقا عليه بين علماء المسلمين .

والله تعالى قد وصف هذه الأمة ، بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وأنها
تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فمن الممتنع أن يكون في عصر التابعين ،
يتكلم أئمة ذلك العصر بما هو كفر ، وضلال ، ولا ينكر عليهم أحد .

فلو كان قوله : « خلق آدم على صورة الرحمن » ، باطلا ، لكانوا مقرين
للباطل ، غير منكرين له .

وقد روى بهذا اللفظ من طريقين مختلفين ، كما روى عن أبي هريرة ، فيؤيد
أحدهما الآخر ، ويشهد له ، ويعتبر به ، بل قد يفيد ذلك العلم ، إذا خيف
في الرواية من تعمد الكذب ، أو من سوء الحفظ .

فإذا كان الرواة ممن لا يتواطئون في العادة على الكذب ، لم يبق إلا سوء

الحفظ ، فإذا تبين أن كل واحد منهم حفظ مثل ما حفظ الآخر ، كان ذلك دليلاً على أن الحديث محفوظ ، ولهذا منع من منع بالاحتجاج بالمرسل ، إذا روى من وجه آخر احتج به .

ولهذا الترمذى وغيره ، يجعل الحسن ما روى من وجهين مختلفين ، وليس في طريقه متهم بالكذب ، ولم يكن مخالفاً للأخبار المشهورة ، وأدنى أحوال هذا الحديث ذلك .

ويؤيده أن الصحابة تكلموا بمعناه كما تقدم عن ابن عباس .

وليس ذلك مأخوذاً عن أهل الكتاب ، لأنه كان ينهى عن الأخذ عنهم ، كما في البخارى ، وغيره ، ولا يجوز أن يكون ذلك من قبيل الرأى .

وهذه الوجوه كلها مبطلّة لقول من يعيد الضمير إلى آدم ،

فهى أدلة مستقلة فى الأخبار بأن الله خلق آدم على صورة نفسه تعالى .

وبهذا يحصل الجواب عما يذكر من كون الأعمش ، وحبیب مدلسين ، فقد أخذهم عنهما الأئمة ، ووافقهما الثورى ، وتلقاه العلماء ، مثل أحمد وإسحاق ، وسفيان ، وغيرهم بالقبول .

وقد قدمنا أنه يجوز الاستشهاد بما عند أهل الكتاب ، مما هو موافق لما أثار عن نبينا ﷺ فى السفر الأول من التوراة : « سنخلق بشرًا على صورتنا ، يشبهنا »^(١) .

وأما قول المؤولة : إن الله لم يغير صورة آدم ، ولم يمسخها كما مسخ غيره كالحية ، والطاوس ، ولهذا قيل : خلق آدم على صورته ، أى على صورة آدم .

(١) هذا النص يوجد فى التوراة السامرية هكذا : « وقال الله نصنع إنسانا يشبهنا وصورتنا ، ليستولى على سمك البحر » ص ٣٦ طبعة السقا .

فيقال : العبارة المعروفة عن هذا المعنى أن يقال : أبقى آدم على صورته ، أو تركه على صورته ، أو لم يغير صورة آدم ، لا يقال : خلقه على صورة نفسه ، فإن هذا اللفظ لا يستعمل في مثل هذا المعنى .

ولهذا قال الله تعالى عن الذين مسخ منهم قرده ، وخنازير : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدََّةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾^(١) ، ولم يقل وخلق منهم .

كما أن من المعروف ، الظاهر لكل أحد أن صورة آدم كانت كهذه الصور لبنيه لم تمسخ ، وما ذكروه من مسخ غير آدم غير معلوم ، ولا مذكور . وأما قولهم : إنه أراد به بيان بطلان قول الدهرية ، في أن الإنسان لا يتولد إلا من نطفة ، ودم الطمث .

فيقال لهم : قد أخبر الله تعالى أنه خلق آدم من الماء والتراب ، ومن الطين ، ومن الحمأ المسنون ، فهذه نصوص ظاهرة ، متواترة ، يسمعها العام والخاص ، تبين أنه لم يخلق من نطفة ، ودم الطمث ، وتبطل هذا القول إبطالا بينا معلوما بالاضطرار .

وأما قوله : إن آدم خلق على صورة آدم ، فليس فيه دلالة على إبطال قول الدهرية ولا غيرهم .

وقولهم : خلق آدم ، ابتداء من غير تقدم نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغه . يقال لهم : بعد تقدم ، تراب ، وطين ، وصلصال .

وأما قولهم : إن الصورة تذكر ويراد بها الصفة ، يقال : شرحت له صورة هذه الواقعة ، وذكرت له صورة هذه المسألة .

والمراد : أن الله — تعالى — خلق آدم من أول الأمر كاملا ، تاما ، في علمه ، وقدرته ، وكونه سعيدا ، عارفا ، تائبا .

(١) الآية رقم ٦٠ من سورة المائدة .

فيقال : الصورة : هي الصورة الموجودة في الخارج ، ولفظ « صَوَّرَ » يدل على ذلك ، وما من موجود من الموجودات إلا [له] صورة في الخارج . وما يكون من الوقائع ، يشتمل على أمور كثيرة ، لها صور موجودة . وكذلك المسئول عنه من الحوادث ، وغيرها ، له صور موجودة في الخارج ، ثم تلك الصور الموجودة ، ترسم في النفس صورة ذهنية .

فقوله : شرحت له صورة الواقعة ، وأخبرني بصورة المسألة .

إما أن يكون المراد به الصورة الخارجية ، أو الصورة الذهنية .

وأما الصفة : فهي في الأصل ، مصدر ووصفت الشيء ، أصفه ، وصفا ، ثم يسمون المفعول ، باسم المصدر [صفة] .

وإذا كان ما في النفس من العلم بالشيء ، يسمى مثلاً له ، وصفة .

فالصورة الذهنية : هي المثل الذي يسمى أيضا صفة ، ومثلا .

ولهذا يقال تصورت الشيء ، وتمثلت الشيء ، وتخيلته ، إذا صار في نفسك صورته ومثاله ، وخياله .

كما يسمى مثاله الخارجي ، صورة ، كما قال النبي ﷺ : « لعن الله المصورين »^(١) .

كما يسمى ذلك تمثالا ، في مثل قول علي : « بعثني رسول الله ﷺ فأمرني أن لا أدع تمثالا ، إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا ، إلا سويته »^(٢) .

وقوله : لفظ الصورة يذكر ويراد به الصفة .

(١) سيأتي الحديث مشروحا إن شاء الله وهو متفق عليه .

(٢) رواه مسلم انظر رقم ٩٦٩ ج ٢ ص ٦٦٦ .

إن أراد به أن الصورة توصف بالقول ، وأن لفظ الصورة ، يراد به ما يوصف
بالقول من الصورة الخارجية ، أو ما يطابقه من الصورة الذهنية ، فهذا قريب .
ولكن هذا يوجب أن يكون له صورة خارجية ، وإن طابقتها الصورة
الذهنية .

وإن أراد به أن لفظ الصفة قد لا يراد به إلا ما يقوم بالأعيان ، كالعلم ،
والقدرة ، فهذا باطل ، لا يوجد في الكلام أن قول القائل — مثلا — : صورة
فلان يراد بها مجرد الصفات القائمة [به] ، من العلم ، والقدرة ، ونحو ذلك .
بل هذا من البهتان على اللغة وأهلها .

وأیضا فقول القائل : خلق آدم ، على صورة آدم ، بمعنى على صفة آدم ،
لا يدل على أنه خلق على صفات الكمال ابتداء ، ولو أريد بالصورة ما يتأخر
عن وجوده ، فإن المخلوق على صفة من الصفات ، يخلق عليها في وقت خلقه
وبعده ، يبين ذلك أنه جعل أحد الحملين كونه خلق عارفا ، تائبا ، مقبولا
عند الله — تعالى — ومعلوم أن هذه الصفة تأخر وجودها عن ابتداء خلقه ،
فإن التوبة كانت بعد الذنب .

فإذا كان لا ينافي كونه مخلوقا عليها تأخرها ، فكذلك صفة العلم ، والقدرة
لا ينافي كونه مخلوقا عليهما تأخرهما عن ابتداء خلقه ، وإذا كان كذلك ، فلا
فرق بينه وبين غيره .

وعلى كلي فما ذكره من أن معنى الحديث : أنه خلق كاملا ، باطل ، فإن
آدم لم يجعل ابتداء على صفة الكمال ، بل بعد أن خلقه الله تعالى علمه الأسماء
التي لم يكن بها عالما ، كما علم بنيه البيان ، بعد أن خلقهم .

فهذه التأويلات تارة يكون المعنى المحمول عليه النص فيها باطلا ، وتارة
يكون غير دال عليه ، وتارة يكون النص دالا على نقيض ما يقوله المؤول ،
ومضادا له .

وتارة يجمع من ذلك ما يجمع ، وهذا شأن أهل التحريف ، والإلحاد ، ومن ذلك ما ذكر لأحمد ، فقال : إن قائل ذلك جهمي ، وهو قوله : « خلق على صورة الطين » ، وهذا وإن كان أجود من هذه التأويلات المذكورة ، فإنه فاسد ، فإن هذا يقتضى أن تكون له صورة أخرى ، خلقت على تلك الصورة ، وآدم بعينه هو تلك الصورة ، التي خلق فيها الروح .

بل تصويره هو خلقه من تراب ، ثم من طين ، كما قال — تعالى — : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾^(١) فقدم الخلق على التصوير ، فكيف تكون الصورة لآدم سابقة على الخلق ، حتى يقال : خلق آدم على تلك الصورة .

ولو أريد أنه خلق من صورة الطين ، لا من أبوين ، لقل كما قال الله تعالى ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾^(٣) .

وكذلك لو تأوله متأول على الصورة المقدره له ، وهى ما سبق له فى علم الله — تعالى — وكلامه ، وكتابه — أى خلق آدم على الصورة التى قدرها له ، فهذا لا يصح وإن كان الله — تعالى — خلق كل شىء على ما سبق من تقديره ، فتأويل الحديث بذلك باطل ، لأن جميع الأشياء خلقها الله تعالى على ما قدره ، فلا اختصاص لآدم بذلك كما أنه لا يصح أن يقول : لا تقبحوا الوجه ، ولا يقول أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على ما قدره ؛ فإن الوجه وسائر المخلوقات خلقها الله على ذلك ، فينبغى أن لا يصلح تقبيح شىء من الأشياء البتة لعموم العلة .

(١) الآية ١١ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٧١ من سورة ص .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الحجر .

وقوله في الحديث : « فكل من يدخل الجنة يدخلها على صورة آدم » صريح في أنه أراد صورة آدم المخلوقة ، لا المقدره .

وتسمية ما قدر « صورة » ليس له أصل في كلام الله وكلام رسوله ﷺ . وإن كان بعض المتأخرين يقول : لفلان عند فلان صورة عظيمة ، وهذا الأمر مصور في نفسى ، لكن مثل هذا لا يجوز أن يحمل عليه كلام رسول الله ﷺ ولا خطابه لأمته ، لأنه ليس من لغته ^(١) .

وأما قوله : المراد من الصورة الصفة ، كما بيناه ، فيكون المعنى : أن آدم امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالما بالمعقولات ، قادرا على استنباط الحرف والصناعات ، وهذه صفات شريفة مناسبة لصفات الله من بعض الوجوه فصح قوله : إن الله خلق آدم على صورته على هذا التأويل . فالكلام عليه من وجوه : أحدها : أنه تقدم أن لفظ الصفة سواء عنى به القول الذى يوصف به الشيء ، وما يدخل في ذلك من المثال العلمى الذهنى ، أو أريد به المعانى القائمة بالموصوف .

فإن لفظ الصورة لا يجوز أن يقتصر به على ذلك ، بل لا يكون لفظ الصورة إلا لصورة موجودة في الخارج ، أو لما يطابقها من العلم والقول ، وذلك المطابق يسمى صفة ، ويسمى صورة .

وأما الحقيقة الخارجية ، فلا تسمى صفة ، كما أن المعانى القائمة بالموصوف لا تسمى وحدها صورة .

وإذا كان كذلك ، فقوله « على صورته » لا بد أن يدل على الصورة الموجودة في الخارج ، القائمة بنفسها ، التى ليست مجرد المعانى القائمة بها ، من العلم والقدرة ، وإن كان لتلك [المعانى] صورة ، وصفة ذهنية ؛ إذ

(١) نقض التأسيس ج ٣ ص ٢٠٢ - ٢٥٠ .

وجود هذه الصورة الذهنية مستلزم لوجود [الصورة الخارجية] وإلا [كانت الصورة الذهنية] جهلا لا علما .

فسواء عنى بالصورة ، الصورة الخارجية ، أو العلمية ، لا يجوز أن يراد به مجرد المعنى القائم بالذات ، والمثال العلمى المطابق لذلك .

الوجه الثانى : أن قوله : إن آدم امتاز عن سائر الأشخاص ، والأجسام بالعلم والقدرة ، إن أراد به امتيازَه عن بنيه ، فليس كذلك ، وإن أراد امتيازَه عن الملائكة والجن ، فهو لم يتميز بنفس العلم ، والقدرة ، فإن الملائكة قد تعلم ما لا يعلمه آدم ، كما أنها تقدر على ما لا يقدر عليه ؛ وإن كان علمه الله ما لم تكن الملائكة تعلمه .

فقد ثبت باتفاق الطوائف ، أن آدم لم يخلق على صفة من العلم ، والقدرة امتاز بها عن سائر الأشخاص ، والأجسام ، بل فيها من كان امتيازَه عن آدم بالعلم ، والقدرة أكثر .

الوجه الثالث : أن يقال : المشاركة فى بعض الصفات ، واللوازم البعيدة ، إما أن يصحح قول القائل : إن الله خلق آدم على صورة الله ، أو لا يصحح ذلك ، فإن لم يصحح ذلك ، بطل قولك .

وإن كانت تلك المشاركة تصحح هذا الإطلاق ، جاز أن يقال : إن الله خلق كل ملك من الملائكة على صورته ، بل خلق كل حى على صورته ؛ إذ ما من شىء من الأشياء ، إلا وهو يشاركه فى بعض اللوازم البعيدة ، كالوجود ، والقيام بالنفس ، وحمل الصفات .

فعلى هذا يصح أن يقال فى كل جسم ، وجوهر ، إن الله خلقه على صورته .

[فبطل هذا التأويل على التقديرين] .

الوجه الرابع : أن لفظ الحديث : « إذا قاتل أحدكم ، أو ضرب أحدكم فليجنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » فهي عن ضرب الوجه ؛ لأن الله خلق آدم على صورته ، فلو كان المراد مجرد خلقه عالما قادرا ، ونحو ذلك لم يكن للوجه بذلك اختصاص ، بل لا بد أن يريد الصورة التي يدخل فيها الوجه ، ومثل ذلك يقال في اللفظ الآخر : « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته » ، فهو يقتضى النهى عن ذلك ، لتناوله الله تعالى ، وأن وجه ابن آدم داخل فيما خلقه الله على صورته .
 فإن قيل : هذا تصريح بأن وجه الله يشبه وجه الإنسان ، كما ورد « صورة الإنسان على صورة الرحمن »^(١) .

فالجواب : أن هذا أيضا لازم للمنازع ، ولهذا أورده الرازي ، وأجاب عنه ، بقوله : فإن قيل المشاركة في صفات الكمال ، تقتضى المشاركة في الإلهية ، قلنا : المشاركة في بعض اللوازم البعيدة ، مع حصول المخالفة في الأمور الكثيرة ، لا تقتضى المساواة في الإلهية ، ولهذا المعنى قال تعالى : ﴿ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾^(٢) ، وقال ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله »^(٣) .

فيقال : لا ريب أن كل موجودين ، لا بد أن يتفقا في شيء يشتركان فيه ، وأن أحدهما أكمل فيه وأولى من الآخر ، وإلا إذا قدر أنهما لا يتفقان في شيء أصلا ، ولا يشتركان فيه ، لم يكونا موجودين ، وهذا معلوم بالفطرة البديهية ، التي لا يتنازع فيها العقلاء ، الذين يفهمونها .

وهذا الذى جاءت به السنة من ثبوت هذا الشبه من بعض الوجوه ، وقد أخبر به الرسول ﷺ فوجب قبوله ، والإيمان به ، والله — تعالى — هو الذى

(١) تقدم ذكر من رواه .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٣) أساس التقديس ص ٨٦ — ٨٧ والحديث غير معروف بل هو موضوع كما قاله شيخ الإسلام انظر نقض التأسيس ج ٣ ص ٢٧٢ .

خلق آدم على صورته ، وهذا لا يناقض قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ لأن المماثلة منفية عن الله تعالى على كل حال ، فهو جل وعلا ، لا يماثله شيء ، وليس له سمى ، ولا ند ، ولا كفاء ، وكل ذلك لا يمنع المشابهة من بعض الوجوه البعيدة ، كالوجود مثلا ، والعلم ، والحياة ونحو ذلك .

الوجه الخامس : أن يقال : المحذور الذى فروا منه إلى تأويل الحديث ، على أن الصورة بمعنى الصفة ، أو الصفة المعنوية ؛ أو الروحانية ، ونحو ذلك ، يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا [منه] .

فإذا كان مثل هذا لازما على التقديرين ، لم يجز ترك مقتضى الحديث ، ومفهومه ، مع أنه لا محذور فيه .

وذلك أن كون الإنسان على صورة الله — تعالى — التى هى صفته ، أو صورته المعنوية ، أو الروحانية ، فيه نوع من المشابهة .

كما أنه إذا أقر الحديث كما جاء فيه نوع من المشابهة ، غايته أن يقال : المشابهة هنا أكثر ، ولكن مسمى نوع من المشابهة لازم على التقديرين .
والتشبيه المنفى بالنص ، والإجماع ، والأدلة العقلية الصحيحة ، منتف على التقديرين .

وإذا ادعى المنازع أن هذا فيه نوع من التجسيم المقتضى للتركيب ، فقد تقدم أن ما يسمونه تركيبا لازما على القول بثبوت الصفات ، بل على القول بنفس الوجود الواجب ، بل هو لازم لمطلق الوجود .

وتقدم بيان ذلك ، وبيان أن جميع ما يدعى من الأدلة العقلية المانعة من ذلك أنها فاسدة ، ومتناقضة .

ومعنى فسادها ظاهر . ومعنى تناقضها : أن ما يدعيه يلزمه من الإثبات نظير ما نفاه ، فيكون جامعا بين النفي ، وإثباته ، وإثبات نظيره .

الوجه السادس : أن يقال : إذا كان مخلوقا^(١) على صورة الله — تعالى —

(١) التقدير : إذا كان آدم مخلوقا .. إلخ .

المعنوية فلا يخلو إما أن يكون ذلك مقتضيا لكون صفات العبد المعنوية ، من جنس صفات الله ، بحيث تكون حقيقتها من جنس حقيقتها ، أو لا يقتضى ذلك ، بل يقتضى المشابهة فيها مع تباين الحقيقتين .

فإن كان مقتضى الحديث الأول ، فهو تصريح بأن الله له مثل ، وهذا باطل ، وهو أيضا ممتنع فى العقل .

فإن المتماثلين فى الحقيقة ، يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

والمخلوق يجب أن يكون معدوما ، محدثا ، مفتقرا ، ممكنا .

والمخالق يجب أن يكون قديما ، واجب الوجود ، غنيا .

[فيلزم] أن يكون الشيء الواحد واجبا ، ممكنا ، غنيا فقيرا ، موجودا معدوما ، وهذا جمع بين النقيضين .

فثبت أن الحديث لا يجوز حملة على هذا [المعنى] .

وأیضا فإنه على هذا التقدير لا يكون فى حملة على الصورة الظاهرة محذور .

ولم يكن ذلك مقتضيا لكون صفات العبد من [جنس] صفات الرب تعالى .

بحيث تكون الحقيقة من جنس الحقيقة ، مع كون هذا عالما ، وهذا عالما ، وهذا حيا ، وهذا حيا ، وهذا قادرا ، وهذا قادرا ، وهذا سميعا بصيرا ، وهذا سميعا بصيرا ، بل هذا موجود ، وهذا موجود ، مع كون الحقيقتين ، والعلم ، والقدرة متشابهات .

وكذلك لا يجب إذا كان لهذا وجه ، وصورة ، ولهذا وجه ، وصورة أن تكون الحقيقة من جنس الحقيقة ، مع تشابه الحقيقتين .

يوضح ذلك أنه على التقديرين ، لا بد أن يكون بين الذات والذات مشابهة

إذا كان على الصفة المعنوية ، فإن كون هذا عالما قادرا ، وهذا عالما قادرا ، وهذا موجودا ، وهذا ذاتا لها صفات ، وهذا ذاتا لها صفات ، لا بد أن يثبت التشابه كما تقدم .

الوجه السابع : أن الأدلة الشرعية ، والعقلية ، التي يثبت بها تلك الصفات يثبت بنظرها هذه الصورة .

فإن وجود ذات ليس لها صفات ممتنع في العقل ، وثبوت الصفات الكمالية معلوم بالشرع ، والعقل .

كذلك ثبوت ذات ، لا تشبه الموجودات بوجه من الوجوه ممتنع في العقل . وثبوت المشابهة من بعض الوجوه ، في الأمور الكمالية ، معلوم بالشرع والعقل .

وكما أنه لا بد لكل موجود من صفات تقوم به ، فلا بد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها ، ويمتنع أن يكون في الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها .

الوجه الثامن : أن هذا المعنى الذي ذكره ، وإن كان ثابتا بنفسه^(١) ويمكن أن يكون الحديث دالا عليه باللزوم ، والتضمن ، لكن قصر الحديث عليه باطل قطعاً ، كما تقدم .

الوجه التاسع : أن ثبوت الوجه ، والصورة لله — تعالى — قد جاء في نصوص كثيرة من الكتاب ، والسنة المتواترة ، واتفق على ذلك سلف الأمة .

[وقد تقدم بعض النصوص التي فيها إثبات الوجه والصورة لله تعالى] مع أن النصوص في الوجه لا يمكن استقصاؤها .

(١) يعني أن آدم متصف بالعلم ، والقدرة ، والحياة وغير ذلك من الصفات .

فإن قيل : قوله ﷺ : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال له : اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة ، فسلم عليهم واستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، قال : فذهب ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله .

قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، طوله ستون ذراعا ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» (١) .

وهذا الحديث إذا حمل على صورة الله تعالى ، كان ظاهره أن الله طوله ستون ذراعا ، والله — تعالى — كما قال ابن خزيمة : جل أن يوصف بالذرعان ، والأشبار .

ومعلوم أن هذا التقدير في حق الله تعالى باطل على قول من ثبت له حدا ، ومقدارا من أهل الإثبات ، وعلى قول النفاة كذلك .

أما النفاة فظاهر ، وأما المثبتة ، فعندهم قدر الله — تعالى — أعظم ، وحده لا يعلمه إلا هو ، وكرسیه قد وسع السماوات والأرض ، والكرسى في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والعرش لا يعرف قدره إلا الله تعالى .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ ، من حديث أبي هريرة ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، أن الله يقبض السماوات والأرض بيديه .

قال ابن عباس : « ما السماوات السبع ، وما بينهما ، وما فيهما في يد

(١) تقدم ذكر من رواه .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

الرحمن إلا كخردة في يد أحدكم»^(١) .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان — جل وعلا — أكبر وأعظم من أن يقدر بهذا المقدار .

وهذا من المعلوم بالضرورة ، من العقل والدين .

[وليس ما ذكر هو ظاهر الحديث] ، ومن زعم أن الله طوله ستون ذراعا ، فهو مفتر كذاب ، ملحد ، وفساد هذا معلوم بالضرورة ، ومعلوم عدم ظهور ذلك من الحديث ، فإن الضمير في قوله : « طوله » عائد إلى آدم ، الذى قيل فيه « خلق آدم على صورته » ثم قال : « طوله ستون ذراعا » ، أى طول آدم ، ولفظ الطول وقدره ، ليس داخلا فى مسمى الصورة ، حتى يقال : إذا قيل : خلق الله آدم على صورته ، وجب أن يكون على قدره .

ومن المعلوم أن الشيعين المخلوقين يكون أحدهما على صورة الآخر ، مع التفاوت العظيم فى جنس ذواتهما ، وقدر ذواتهما .

والإضافة تتنوع دلالتها بحسب المضاف إليه ، فلما قال فى آخر الحديث :

« فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، طوله ستون ذراعا » ، اقتضى ذلك مشابهة الجنس فى القدر ، لأن صورة المضاف ، من جنس صورة المضاف إليه ، وحقيقتهما واحدة .

وأما قوله : « خلق الله آدم على صورته » . فإنها تقتضى نوعا من المشابهة فقط ، لا تقتضى تماثلا فى حقيقة ، ولا قدر .

وأما قول ابن خزيمة : فإن الإضافة [فيه] إضافة خلق ، كما فى « ناقة الله » و « بيت الله » و « أرض الله » ، و « فطرة الله » .

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره ج ٢٤ ص ٢٥ .

فالكلام عليه من وجوه : أحدها : أنه لم يكن قبل آدم صورة مخلوقة ، خلق عليها ، فقول القائل : خلق على صورة مخلوقة لله — وليس هناك إلا صورة آدم — بمنزلة قوله : على صورة آدم ، وقد تقدم إبطال هذا من وجوه كثيرة .

الثاني : أن إضافة المخلوق جاءت في الأعيان القائمة بنفسها ، كالناقة والبيت ، والأرض ، والفطرة ، التي هي [السنة] المطردة .

فأما الصفات القائمة بغيرها ، مثل العلم ، والقدرة ، والكلام ، والمشية ، إذا أضيفت كانت إضافة صفة إلى موصوف .

وهذا هو الفرق بين [الإضافتين] ، وإلا التبست الإضافة التي هي إضافة صفة إلى موصوف ، والتي هي إضافة مملوك ومخلوق إلى المالك والمخلوق ، وذلك هو ظاهر الخطاب في الموضعين .

لأن الأعيان القائمة بنفسها قد علم المخاطبون ، أنها لا تكون قائمة بذات الله — تعالى — فيعلمون أنها ليست إضافة صفة .

وأما الصفات القائمة بغيرها ، فيعلمون ، أنه لا بد لها من موصوف تقوم به ، وتضاف إليه .

وعلى هذا ، فالصورة قائمة بالموصوف بها ، المضافة إليه .

فصوره الله ، كوجه الله ، ويد الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، ومشية الله ، وكلام الله ، ويمتنع أن تقوم بغيره .

الوجه الثالث : أن الأعيان المضافة إلى الله ، لا تضاف إليه لعموم كونها مخلوقة مملوكة له ؛ إذ ذلك يوجب إضافة جميع الأعيان إلى الله — تعالى — لأنها كلها مخلوقة له ، مملوكة .

فلو كان قوله : في ناقة صالح : « ناقة الله » بمعنى : الله خلقها ، وهي

ملكه ، لوجب أن تضاف سائر النوق إلى الله بهذا المعنى ، فلا يكون حينئذ لها اختصاص بالإضافة ، وكذلك قوله : « وطهر بيتي » لو كان المراد به ، خلقي ، وملكى لوجب إضافة سائر البيوت إلى الله — تعالى — لمشاركتها في هذا المعنى .

فلا بد أن يكون في العين المضافة معنى يختص بها ، تستحق به الإضافة ، فبيت الله هو الذى اتخذ لذكر الله — تعالى — وعبادته ، وهذه إضافة من جهة كونه معبودا فيه ، فهو إضافة إلى إلهيته ، لا إلى عموم ربوبيته ، وخلقته ، كما في لفظ العبد ، فإن قوله : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾^(١) ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾^(٢) هو إضافة إليه لأنهم عبدوه ، لا لعموم كونه عبدهم بخلقه لهم ، فإن هذا يشركهم فيه جميع الناس .

وهو تعالى قد خص بقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾^(٣) وقوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾^(٤) ونحو ذلك [خصهم من بين الناس بالإضافة إليه] .

كذلك الناقة فيها اختصاص بكون الله — تعالى — جعلها آية ، ففيها معنى الإضافة إلى إلهيته .

وأما قوله تعالى : ﴿ يَعْْبُدِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّيَ فَاعْبُدُونِ ﴾^(٥) .

(١) الآية ١٩ من سورة الجن .

(٢) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ٤٢ من سورة الحجر .

(٤) الآية ٦ من سورة الإنسان .

(٥) الآية ٥٦ من سورة العنكبوت .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾^(١) ففى الإضافة تخصيص للأرض التى هى باقية على ما خلقها الله — تعالى — فلم يستول عليها الكفار ، والفجار من عباده ، ويمنعوا باستيلائهم عليها من عبادة الله عليها . ولهذا لم تدخل أرض الحرب فى هذا العموم .

وقد يقال : الإضافة لعموم الخلق ، لأن الأرض واحدة لم تعدد ، كما تعددت النوق ، والبيوت ، والعبيد .

وقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾^(٢) تضاف إلى الله — تعالى — من الوجهين ، من جهة أن الله خلقها ، فتكون إضافة إلى جهة ربوبيته .

ومن جهة أنه — تعالى — فطرها على الإسلام ، الذى هو عبادة الله ، فتكون الإضافة إلى ألوهيته .

وأما الصورة المخلوقة ، فهى مشاركة لجميع الصور فى كون الله خلقها من جميع الوجوه ، فما الموجب لتخصيصها بالإضافة إلى الله تعالى ؟

وأىضا فسائر الأعضاء مشاركة للصورة التى هى الوجه فى كون الله — تعالى — خلق ذلك جميعه ، فينبغى أن يضاف سائر الأعضاء إلى الله — تعالى — بهذا الاعتبار ، حتى يقال [ليد الإنسان] يد الله ، ولوجهه ، وجه الله ، ولقدمه ، قدم الله ، ونحو ذلك ، لأن الله خلقه .

الوجه الرابع : أن قوله : « إذا قاتل أحدكم فليجنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » . لو كانت الإضافة ، إضافة خلق ، وملك ، لوجب أن

(١) الآية ٩٧ من سورة النساء .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

لا يضرب شيء من الأعضاء ، لأن إضافته إلى خلق الله — تعالى — وملكه
كإضافة الوجه سواء .

الوجه الخامس : أن قوله « لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ، ووجه من
أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته » ، يدل على أن المانع هو مشابهة
وجهه لصورة الله تعالى .

فلو أريد صورة يخلقها الله — تعالى — لكان كونه هو مخلوقا لله أبلغ من
كونه مشبها لما خلقه الله ، فيكون عدولا عن التعليل بالعلة الكاملة ، إلى
ما يشبهها .

الوجه السادس : أن العلم بأن الله خلق آدم ، من أظهر العلوم ، عند العامة
والخاصة ، فلو لم يكن في قوله : « على صورته » معنى إلا أن الله — تعالى —
خلقها ، وهي ملكه ، لكان قوله : « خلق آدم » كافيا .

إذ على هذا التقدير ، خلق آدم ، « وخلق آدم على صورته » سواء ولا
فرق بين قول القائل : « هذا مخلوق الله ، وقوله : هذا خلقه الله على الصورة
التي خلقها الله » ، ومثل هذا الكلام لا يجوز أن يضاف إلى أدنى الناس ،
من يعرف اللغة ، فكيف يضاف إلى النبي ﷺ .

الوجه السابع : أن قوله : « خلق آدم على صورته » أو « على صورة
الرحمن » يقتضى أنه برأه ، وصوره على تلك الصورة .

فلو أريد الصورة المخلوقة ، المملوكة ، التي هي صورة آدم المضافة إليه
تشريفًا ، لقيل : « صورة آدم صورة الله » ، أو « صورة الإنسان صورة
الله » ، ونحو ذلك من الألفاظ ، الدالة على الإضافة المجردة ، وإن كان في ذلك
ما فيه .

أما إذا قيل : « خلقه على صورته » ، ولم يرد إلا أن صورته المخلوقة هي

المضافة إلى الله ، لكونها مخلوقة له ، فهذا تناقض ظاهر ، لا يحتمله اللفظ»^(١) وأكتفى بهذا النقل المطول عن شيخ الإسلام رحمه الله ، وقد اختصرته كثيرا وتصرفت فيه قليلا جدا ، لأجل الإيضاح ، ومن أراد الاستيعاب فليرجع إليه ، فإن فيه علما غزيرا ، وإبطالا لتأويل المتكلمين ، بحجج وبراهين مقنعة لمن يريد الحق .

قوله : « وضرب الصراط بين ظهري جهنم » معنى ضرب : نصب ووضع فوق النار . والصراط : هو الجسر الذى يعبر عليه ، كما هو معلوم فى حياة الناس اليوم .

ومعنى قوله : « بين ظهري جهنم » يعنى فوقها ، ويمتد من طرفها إلى طرفها الآخر .

يقال : أقام الرجل بين ظهرائى القوم ، إذا أقام معهم فى أرضهم ، كما فى الحديث : « أنا برىء من مسلم أقام بين ظهرائى المشركين »^(٢) .

ومعنى ذلك أن الصراط الذى يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة يؤتى به ، فى ذلك اليوم فىوضع فوق النار ، فيعبرون عليه ، فليس لهم طريق إلى الجنة ، إلا من فوق جهنم ، ومع ذلك ، فقد جاء وصف الصراط بأنه دقيق جدا ، وغير ثابت ، بل هو متحرك ، ومضطرب ، وهو فى منتهى الحرارة ، لأنه فوق جهنم فالعبور عليه شديد جدا ، والحقيقة أن العبور بالأعمال ، فمن كان مستقيما على صراط الله فى الدنيا الذى هو دينه ، استقام على ذلك الصراط . وأما تثنية الظهر فى قوله : « بين ظهري جهنم » فإنه يدل على أن الصراط مستوعب جهنم ، يعنى يمر عليها كلها ، والله أعلم .

(١) نقض التأسيس جـ ٣ ص ٢٧٣ — ٢٨٥ مخلصا .

(٢) رواه أبو داود فى الجهاد باب : النهى عن قتل من اعتصم بالسجود جـ ٣ ص ١٠٥ والترمذى فى السير باب : كراهة المقام بين أظهر المشركين رقم ١٦٠٤ جـ ٤ ص ١٥٥ .

قوله : « فأكون أنا ، وأمتي أول من يجيز » يعنى رسولنا محمدا ﷺ ، وأمته الذين هم أتباعه على دينه هم أول من يعبر الصراط ، إلى الجنة ، وفيه دليل على فضله ﷺ على سائر الأنبياء ، وفضل أمته على الأمم .

ثم تعبر الأمم الأخرى من أتباع الرسل مع رسلهم ، فكل أمة معها رسولها .
قوله : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » وذلك لهول الموقف ، وعظم ذلك المنظر ، وشدة الأمر ، فالطريق الذى يمكن أن ينجو من سلكه من فوق جهنم ، وهو كما مر دقيق ، وغير ثابت ، وفى منتهى الحرارة ، وعليه كلاليب تحطف بعض الناس ، فإذا لابد من النار ، ومن أجل ذلك خرس الألسن ، فلا أحد يستطيع أن يتكلم ، وإنما ينفرد بالتكلم رسل الله ، حيث آمنوا بأمان الله لهم ، وكلامهم هو تضرع إلى الله — تعالى — بقولهم : « اللهم سلم سلم » .

قوله : « وفى جهنم كلاليب » جمع كلوب ، وهو حديدة معقوف رأسها ومحدد بحيث تدخل فى الشيء الذى يراد إمساكه بها ، وقد يقسم رأسها إلى عدة كلاليب يستخرج بها ما يسقط فى البئر ، أو غيرها ، وقد يعلق بها اللحم .

ولكن هذه الكلاليب على خلاف المعهود للناس من كلاليب الدنيا ، ولهذا قال : « مثل شوك السعدان » ، السعدان عشب تحبه الإبل ، وتسمن عليه له شوك مفلطح ، يشبه القرص ، وعلى دائرته شويكات كثيرة معقفة ، وفى أحد جانبيه شويكات كذلك معقفة ، إذا أمسكت شيئا يصعب استخراجها ، ولما كان شوك السعدان ليس كبيرا قال : « غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله » . يعنى لا أحد يستطيع وصف كبيرها ، وقدرتها على خطف من أمرت بخطفه ، وإنما يعلم ذلك خالقها وحده .

قوله : « تحطف الناس بأعمالهم » أى بسبب أعمالهم ، التى عصوا الله بها

وخالفوا أمره ، ولهذا قال : « فمنهم الموبق » أى الهالك الذى أهلكته ذنوبه ، وهو من سقط فى النار .

« والمخردل » وهو من يلقى فى النار ، ويرمى به فيها ، والمعنى : أن الكلاب تمسكه فتلقيه فى النار صريعا ، إلقاء بقوة وشدة .

قوله : « أو المجازى ، ونحوه » هو شك من الراوى هل قال : « المخردل ، أو المجازى » والمجازى هو الذى يجزى بعمله ، فإذا لم يعف الله تعالى عن عبده فإنه يهلك .

قوله : « ثم ينجلى » أى ينجلى ذلك الأمر الهائل ، وينكشف ، وهو العبور على النار ، والمحاسبة ، وغير ذلك من عظام يوم القيامة .

قوله : « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد » كل عمل له بداية ونهاية ، ونهايته الفراغ منه ، والمعنى : أن الله تعالى يتولى محاسبة عباده بنفسه وينتهى من ذلك ، وهو تعالى أسرع الحاسبين ، وجاء وصف الله تعالى بذلك فى كثير من النصوص ، وهو من أوصاف الفعل ، وهى كثيرة .

قوله : « وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار » المقصود بأهل النار هنا : أهل التوحيد ، الذين دخلوا النار بذنوبهم ، وموبات أعمالهم وهم كثيرون .

أما المشركون ، والكافرون ، فإنهم لا يخرجون من النار ، بل هم خالدون فيها ، وأوضح ذلك بقوله :

« أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يشهد أن لا إله إلا الله » فهذا صريح فى أنه يدخل النار خلق كثير ممن لا يشرك بالله شيئا ، ولكنهم عصوا الله بفعل المحرمات ، غير الشرك ، وبترك الأوامر ، ولهذا قال : « ممن يشهد أن لا إله إلا الله » يعنى

يعبد الله وحده ، ولا يشرك معه غيره في العبادة .

قوله : « فيعرفونهم في النار ، بأثر السجود ، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ؟ حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود » وهذا أيضا صريح وواضح في أنهم كانوا يصلون ، ويسجدون لله — تعالى — ويعبدونه وحده .
وأثر السجود هي الأعضاء التي يسجد عليها ، وهي : الجبهة والأنف ، وبطن الكفين ، والركبتان ، وأطراف القدمين .

وفي هذا دليل على فضل السجود لله — تعالى — وهو من آيات الله تعالى الدالة على قدرته الباهرة ، حيث تأكل النار جسم ابن آدم إلا هذه المواضع المختلفة في البدن ، فإنها لا تضرها ، ولا تغيرها ، لأن الله حرمها عليها والنار لا تأكل إلا ما أمرها الله بأكله .

قوله : « فيخرجون من النار قد امتحشوا » امتحشوا : يعني احترقوا ، وقد استدل بهذه الجملة من يقول : إنهم يموتون في النار ، وقيل : إنهم لا يموتون فالله أعلم ، أما قوله : « فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون تحته ، كما تنبت الحبة في حميل السيل » فالمراد نبات لحومهم ، وغيرها التي أحرقتها النار ، ولا يلزم من ذلك أنهم ماتوا ، وفارقتهم الحياة ، بل الظاهر أنهم بقوا أحياء يذوقون العذاب ، جزاء لإجرامهم ، وسيأتي أنهم يموتون موتا حقيقيا . فالله أعلم .
وماء الحياة ، جاء تفسيره ، بأنه نهر من أنهار الجنة ، وسيأتي في حديث أبي سعيد : أنهم يلقون في ذلك النهر ، ثم ينبتون على حافتيه .

« والحبة » هي : البذرة التي ينبت منها الزرع وغيره .

وحميل السيل هو ما يحمله من الغناء ، ويلقيه على جوانب الوادي ، والنبات يكون فيه أسرع ، وأقوى لما فيه من الأسمدة .

قوله : « ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار » يعني أنه أخرج من النار

وأوقف قريبا منها ، وجعل وجهه إليها ، لا يستطيع أن يصرف وجهه عنها ، وذلك من بقية عذابه ، ولهذا يدعو ربه بأن يصرف وجهه عن النار ، ويكون ذلك هو أعظم ما يتمناه ويريده ، بل هو مراده .

قوله : « هو آخر أهل النار دخولا الجنة » أهل النار قسمان ؛ قسم خلق للنار ، وهم المشركون ، والكفار باختلاف أنواعهم ، فهؤلاء لا يخرجون من النار أبدا .

وقسم يكون من أهل النار مؤقتا ، وهؤلاء هم عصاة المؤمنين من الذين لا يعبدون إلا الله وحده ، إلا أنهم ارتكبوا ذنوبا عظاما استوجبوا بها النار ، وهم خلائق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ويتفاوتون في لبثهم في النار تفاوتا عظيما ، ولكن لا يبقى في النار منهم أحد وإن طال لبثه وهذا الرجل المذكور في الحديث هو آخر من يخرج من النار من الموحدين الذين أدخلوا النار ، وهو أدنى أهل الجنة منزلة ، كما سيأتى التصريح بذلك ، في هذا الحديث .

قوله : « قشبنى ريحها » قال النووى : معنى قشبنى : سمنى ، وآذانى ، وأهلكنى قاله جماهير أهل اللغة .

وقال الخطابى : قشبه الدخان ، ملاً خياشيمه وأخذ يكظمه ، وأصل القشب خلط السم بالطعام ، يقال قشبه إذا سمه ^(١) .

والمعنى أن ريح النار الكريه عذبه ، وبلغ منه مبلغ الهلاك .

قوله : « وأحرقنى ذكاؤها » ذكاؤها : حرها ووهجها .

« ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألنى غيره ؟ فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، ويعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء » .

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٤٥٩ .

هذا الرجل الذى هو آخر من يخرج من النار ، من أهل الإيمان ، يخاطبه الله — تعالى — بعد أن يدعوه ، ويسأله بأن يصرف وجهه عن النار ، فهو قد قصر مسأله لله ، على صرف وجهه عن النار فقط .

ولهذا : يقول الله له : لعلك إذا أعطيتك ما سألتنى ، أن تسأل غيره وليس ذلك لأن الله — تعالى — يكبر عليه شئ ، بل لتحصل هذه المحاوره بين رب العالمين وبين هذا الرجل الذى هو أدنى أهل الجنة منزلة ، وليظهر ضعف العبد ، وقصر نظره ، وغنى الرب تعالى ، وكال حلمه وعلمه ، وحكمته ، ورحمته . وسيعيد البخارى هذا الحديث مستدلا به على وقوع الكلام من الله تعالى لمن يشاء من عباده يوم القيامة .

قوله : « فإذا أقبل على باب الجنة ، ورآها ، سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أى رب : قدمنى إلى باب الجنة » أى أنه يرى الجنة ، ظاهرا ، فيحاول أن يفى بعهوده ، وموآئقه التى أعطاها ربه ، فيسكت وقتا ، ولكن لضعفه وفقره ، وحاجته إلى فضل ربه ، لا يستطيع الصبر ، فيعود مرة أخرى ناكثا لعهوده ، وموآئقه بأنه لا يسأل غير ما سأل أول مرة ، ولكن الله تعالى يعفو عنه ويعذره ، لأنه لا يستطيع الصبر على ما يرى .

وقول الله تعالى له : « ويلك يا ابن آدم ما أغدرك » يعنى أنك كثير الغدر والخيانة ، فقد نكثت بالعهود والموآئق التى أعطيتها بأنك لا تسأل غير ما سألت مرات متعددة .

قوله : « انفهقت له الجنة » أى : انفتحت ، وانزاحت الستائر التى تحجب الرؤية قوله : « الحبرة والسرور » أى : يرى أنواع النعيم ، من المأكولات ، وغيرها ، فالخير كله يجذافيره فى الجنة .

قوله : « لا أكون أشقى خلقك » يقول ذلك لأنه يشاهد أهل الجنة يتنعمون بأنواع النعيم ، وما هم فيه من الفرح والسرور ، وهو ممنوع عن دخولها ،

فتصور عند ذلك أنه أشقى خلق الله ، وليس كذلك .

قوله : « حتى يضحك الله منه » . صفة الضحك تكاثرت عليها الأدلة ، وهى صفة من صفات الفعل ، يجب الإيمان بها على ظاهر ما دلت عليه النصوص ، ولا يجوز تأويل الضحك بلازمه — كما يقوله أهل الباطل ، من الجهمية ومن سار على نهجهم ، من أن الضحك هو الرضى أو العطا ، ونحو ذلك مما هو من مخلوقات الله تعالى .

قال أبو سعيد الدارمى — رحمه الله — [« وادعى المعارض أن ضحك الرب ، رضاه ورحمته ، وصفحه ، عن الذنوب ، كقولك : رأيت زرعاً يضحك .

فيقال له : كذبت بأحاديث رسول الله ﷺ إذ شبهت ضحكه بضحك الزرع ، لأن ضحك الزرع ليس بضحك ، وإنما هو خضرته ونضارته ، ولم تسبق إلى هذا التفسير ، فأنت محرف لقول رسول الله ﷺ فكيف تجعل ضحك الرب ، إلى أوليائه ، كضحك الزرع ، الذى هو عبارة عن نضارته ، وخضرته ، فهو ما دام كذلك فهو يضحك لكل من رآه ، لمن يسقيه ، ومن يحصده .

وقولك : إن ضحكه رضاه ورحمته ، تصديق لبعض الحديث ، وتكذيب للبعض الآخر ، حيث رددت الضحك وقبلى الرضا ، والله تعالى لا يضحك لأحد إلا عن رضا ، فيجتمع منه الضحك والرضا .

ولم نسمع عن أحد من أهل السنة أنه يشبه ضحك الله — تعالى — أو شيئاً من أفعاله بشيء من فعل المخلوقين ، كما ادعيت أيها المعارض .

بل نقول : إن الله — تعالى — يضحك كما يشاء ، وكما يليق به .

ثم ادعيت تفسيراً أوحش من هذا ، فقلت يحتمل أن يكون ضحكه أن يظهر من خلقه ضاحكاً ، يأتهم يبشرهم .

مع أن الحديث الذى ذكره المؤول يرد عليه ، وفيه قول أبى رزين : « قلت يا رسول الله : أويضحك ربنا ؟ قال : نعم » ، ولم يقل يخلق ربنا من يضحك .

ثم قال أبو رزين : « لن نعدم من رب يضحك خيرا » فجعل الضحك من الرب — تعالى — دليلا على حصول الخير .

ثم ادعى المعارض ما هو أبعد من هذا كله ، فزعم أن معنى : يضحك الله من كذا ، أى يجعله ضاحكا .

فيقال : إذا تحولت اللغة العربية إلى لغتك ، ولغة أصحابك جاز فيها أنكر من هذا التأويل ، وأفحش .

ولو كان كما ذكر ، لكان سؤال أبى رزين ، لرسول الله ﷺ يدل على الجهل ، حيث سأل ، « أويضحك ربنا الخلق ؟ » وهو يعلم أن كل الخلق الذى يضحكهم هو الله تعالى . وقد قرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾^(١) .

ثم ذكر بسنده حديث ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : « آخر رجل يدخل الجنة رجل يمشى ، يكتب على الصراط مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى أنجانى منك ، فترفع له الجنة ، فيقول : يا رب أدنى إليها — وفيه « ألا تسألونى مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ فقال : من ضحك رب العالمين »^(٢) .

وذكر الحديث : « ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره »^(٣) .

(١) الآية ٤٣ من سورة النجم .

(٢) رواه مسلم فى الصحيح ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ فى الإيمان .

(٣) رواه الإمام أحمد فى المسند ج ٤ ص ١١ ، ١٢ .

وحدیث أبی سعید ، عن النبی ﷺ قال : « ثلاثة یضحک الله تعالى إلیهم یوم القیامة ، رجل قام من اللیل ، والقوم إذا صفوا للقتال ، والقوم إذا صفوا للصلاة »^(١) .

وحدیث نعیم بن عمار « جاء رجل إلی النبی ﷺ فقال : أی الشهداء أفضل ؟ قال : « الذین یلقون فی الصف ، ولا یلفتون وجوههم حتی یقتلوا ، أولئك الذین یتلبطون^(٢) فی الغرف العلی من الجنة ، یضحک إلیهم ربک ، وإذا ضحک ربک إلی عبد فی موطن فلا حساب علیه »^(٣) .

وحدیث عبد الله بن عمرو : « یضحک الله إلی صاحب البحر ثلاث مرات ، حین یرکبه ، ویخلى من أهله ، وحین یمید متشطحا ، وحین یرى البر » .

وحدیث ابن مسعود : « إن الله یضحک إلی اثین ، رجل قام من جوف اللیل ، فتوضأ وصلی ، ورجل کان مع قوم ، فلقوا العدو فانهمزموا وحمل علیهم ، فالله یضحک إلیه »^(٤) .

وحدیث أبی هريرة : « یضحک الله من رجلین قتل أحدهما صاحبه ، وكلاهما دخل الجنة »^(٥) .

وحدیث أسماء بنت یزید بن السكن : لما توفي سعد بن معاذ ، صاحت أمه ، فقال لها رسول الله ﷺ : « ألا یرقأ دمعک ، ویذهب حزنک ؟ فإن

(١) رواه الإمام أحمد فی المسند ج ٣ ص ٨٠ وابن ماجه ج ١ ص ٧٣ والبغوی فی شرح السنة ج ٤ ص ٢ .

(٢) قاله فی الفاموس : تلبط ، تحیر ، وعدا ، واضطجع ، وتمرغ ، فمعناه تبوأ المكان واستقر فیها .

(٣) قال المنذری : رواه الطبرانی بإسناد حسن انظر الترغیب والترهیب ج ٢ ص ٣١٩ .

(٤) رواه ابن ماجه فی سننه من حدیث أبی سعید الخدری ج ١ ص ٧٣ .

(٥) متفق علیه انظر الفتح ج ٦ ص ٣٩ . ومسلم ج ٣ ص ١٥٠٤ و ١٥٠٥ .

ابنك أول من يضحك الله إليه»^(١) [٢].

«والضحك في موضعه المناسب له ، صفة مدح وإكمال ، وإذا قدر حيان ، أحدهما يَضْحَكُ مما يُضْحَكُ منه ، والآخر لا يضحك ، فان الأول أكمل من الثاني .

ولهذا قال النبي ﷺ : « ينظر إليكم الرب قنطين ، فيظل يضحك . يعلم أن فرجكم قريب » .

فقال له أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ، أويضحك الرب ؟ قال : نعم قال : لن نعدم من رب يضحك خيرا » .

فجعل الأعرابي العاقل — بصحة فطرته — ضحكه دليلا على إحسانه وإنعامه ، فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود ، وأنه من صفات الكمال ، والشخص العبوس ، الذي لا يضحك ، مذموم بذلك .

وإذا كان الضحك فينا مستلزما لشيء من النقص ، فالله — تعالى — منزه عن ذلك ، فضحكه — تعالى — يليق به ، لا يلزم عليه شيء من النقص»^(٣) .

ولأصحاب التأويل ، تأويلات مضحكة ، وحجج متهافئة ، سخيفة ، يحاولون أن ينفوا عن الله — تعالى — ما أثبتته له رسوله ﷺ كقولهم : لو كان يضحك ، لكان هذا القول — مثلا — مضحكا له ، وقولهم : لو جاز عليه الضحك لجاز عليه البكاء .

وهكذا تكون حجج أهل الضلال والهوى ، وطرده قولهم أن يقال : لو جاز عليه العلم ، لجاز عليه الجهل ، ولو جاز أن يكون حيا ، لجاز أن يموت .

(١) قال في مجمع الزوائد رواه الطبراني ج ٩ ص ٣٠٩ .

(٢) الرد على بشر المريسي لعثمان بن سعيد الدارمي ص ٥٣٠ — ٥٣٦ ملخصا في عقائد السلف .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ١٢١ — ١٢٢ بشيء من التصرف .

فكيف تجعل صفات الكمال مستلزمة لثبوت صفات النقص ؟ أليس هذا هو قلب الحقائق ، وعين المحال ؟ سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم .

ومن لا يكفى بما جاء به الرسول ﷺ ويتخذه إماما هاديا ، اجتالته الشياطين ، وتقاذفته الأهواء ، ومن حكم عقله على الوحي فسوف يلقيه في مكان سحيق .

قوله : « فإذا ضحك منه ، قال له : ادخل الجنة » الضحك دليل على الرضا ، ولهذا لما ضحك الله تعالى من هذا الرجل ، رضى عنه فأمره بدخول الجنة ، وهذا مما يبطل قول أهل التأويل الذين يفسرون الضحك من الله — تعالى — بالثواب .

قوله : « فإذا دخلها قال الله له : تمنه » أى اسأل ما تريد ، واطلب ما يخطر على بالك .

قوله : « فسأل ربه ، وتمنى » السؤال لما يتوقع حصوله ، والتمنى لما لا يتوقع حصوله ، بل هو بعيد المنال .

قوله : « حتى إن الله ليذكره ، يقول : كذا وكذا » أى يقول له : اسأل كذا وكذا من الأشياء التي لم تخطر على فكره .

قوله : « حتى إذا انقطعت به الأمانى ، قال الله : ذلك لك ومثله معه » كان أبو سعيد الخدرى يستمع لأبى هريرة ، فلما قال : « ذلك لك ومثله معه » قال له : « وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة » يعنى : أن الله — تعالى — يعطى هذا الرجل كل ما سأل وتمنى ، ومعه عشرة أمثاله ، قال أبو هريرة : « ما حفظت إلا قوله : « ذلك لك ، ومثله معه » ، قال أبو سعيد : « أشهد أنى حفظت من رسول الله ﷺ قوله : « ذلك لك ، وعشرة أمثاله » .

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ حدث أصحابه بهذا الحديث مرات

متعددة ، في بعضها ذكر ما حفظه أبو هريرة ، حيث حضر ذلك المجلس الذي قال فيه : « ذلك لك وعشرة أمثاله » ، وغاب عنه أبو هريرة ، ولا منافاة ، ومثل ذلك يحصل كثيرًا .

قوله : « قال أبو هريرة : فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة » . وهو أدنى أهل الجنة منزلة ، ومع ذلك يعطى ما ذكر ، وقد جاء في بعض الروايات أنه يعطى عشر مرات .

٦٦ — قال : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث بن سعد ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن زيد ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

قال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما » .

ثم قال : « ينادى منادٍ ، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغبرات من أهل الكتاب .

ثم يؤتى بجهنم ، تعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال : كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ، ولا ولد ، فما تريدون ؟

قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون في جهنم .
ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح
ابن الله ، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟
فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون [في
جهنم] .

حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر ، فيقال لهم : ما
يجبسكم وقد ذهب الناس ؟

فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنما سمعنا مناديا
ينادى ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا .

قال : فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة ،
فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول : هل بينكم
وبينه آية تعرفونه ؟

فيقولون : الساق .

فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد
لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا .

ثم يؤتى بالجسر ، فيجعل بين ظهري جهنم ، قلنا : يا رسول الله
وما الجسر ؟ قال : مدحضة ، مزلة ، عليه خطاطيف ، وكلايب ،
وحسكة مفلطحة ، لها شوكة عقيفاء ، تكون بنجد ، يقال لها
السعدان .

المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ،
والركاب ، فجاج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكدوس في نار جهنم ،
حتى يمر آخرهم يسحب سحباً فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق تبين
لكم من المؤمن يومئذ للجبار .

وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم ، يقولون : ربنا إخواننا الذين
كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا .

فيقول الله — تعالى — : اذهبوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال دينار
من إيمان فأخرجوه ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم ، وبعضهم
قد غاب في النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من
عرفوا .

ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال نصف
دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من
إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

قال أبو سعيد : فإن لم تصدقوني ، فاقرأوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴾ (١) .

فيشفع النبيون ، والملائكة ، والمؤمنون .

فيقول الجبار جل جلاله . بقيت شفاعتي ، فيقبض قبضة من النار

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

فيخرج أقواما قد امتحشوا ، فيلقون في نهر بأفواه الجنة ، يقال له ماء الحياة ، فينبتون في حافتيه ، كما تنبت الحبة في حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض .

فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، في رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة .
فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه . ولا خير قدموه .

فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه .

قوله : « قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » في رواية مسلم : « أن ناسا في زمن رسول الله ﷺ قالوا إنلخ » . فما هنا تفسير لها .

قوله : « قال : هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ » في رواية مسلم : « في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحب » يعني في وقت خلو السماء من السحاب والقطر ، فقوله : « ليس معها سحب » زيادة إيضاح لقوله : « صحوا » .

قوله : « ثم ينادى مناد ، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون » تقدم في حديث أبي هريرة قوله : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه » . فيكون المنادى هو الله تعالى ، ومعلوم أن النداء هو رفع الصوت بالكلام ، فما أبلغ هذا في إثبات تكلم الله تعالى حقيقة .

قوله : « فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم » يعني عباد الصليب ، وهم النصراني كما هو معلوم .

« والأوثان هي الأصنام ، وقد تطلق على كل معبود من دون الله تعالى .

قال ابن الأثير : « الفرق بين الوثن ، والصنم ، أن الوثن كل ماله جثة معمولة ، من جواهر الأرض ، أو من الخشب ، أو الحجارة ، كصورة الآدمي تعمل وتنصب ، فتعبد .

والصنم الصورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما ، وأطلقهما على المعنيين ، وقد يطلق الوثن على غير الصورة »^(١) .

وقد جاء في قصة عدى بن حاتم أنه قال : « قدمت على النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : « ألق هذا الوثن عنك »^(٢) وهذا يدل على أن الوثن يطلق على كل ما عبد من دون الله ، وقد قال الأعشى :

تطوف العفاة بأبوابه كطوف النصارى بيت الوثن^(٣)

يريد بالوثن : الصليب .

قوله : « وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم » قال الله تعالى : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾^(٤) والمقصود بأزواجهم نظراءهم وإخوانهم في العمل .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٥) .

فالله تعالى يحشر كل عابد مع معبوده ؛ لأنهم كانوا في الدنيا يزعمون أن معبوداتهم من دون الله سوف تتولاهم ، وتشفع لهم وتنفعهم ، فجمعهم الله مع معبوداتهم ليظهر كذبهم وغرورهم ، وفقر كل من العباد والمعبود .

(١) النهاية ج ٥ ص ١٥١ .

(٢) أخرج قصته أحمد ج ٤ ص ٣٧٨ والترمذي رقم ٢٩٥٦ وابن هشام في السيرة ج ٢ ص ٥٧٨ .

(٣) انظر ديوان الأعشى ص ٢٠٩ .

(٤) الآيات من ٢٢ — ٢٥ من سورة الصافات .

(٥) الآية ١٧ من سورة الفرقان .

وفى رواية عبد الله بن مسعود ، « يقول الله — تعالى — للناس فى ذلك الموقف أليس عدل منى أن أولى كل عابد ما كان يعبد » .

قوله : « حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، وغبرات من أهل الكتاب » .

البر : هو المطيع لله ، المتبع لرسوله ، والفاجر هو : الخارج عن الطاعة ، ولو فى بعض الأمور .

والغبرات جمع غير ، بضم الغين وفتح الباء ، والمقصود ، بقايا من اليهود ، والنصارى قليلة ، وأما معظمهم وجلهم فقد ذهب بهم مع أوثانهم إلى جهنم .

قوله : « ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب » فى ذلك الموقف أمور عظام ومهولة وله أحوال متعددة ، وحقائقها لا تعلم إلا بالمعينة ، ولكن الرسل ، ولا سيما خاتمهم جاؤا بما يكفى المؤمن فى الإيقان من أوصاف ذلك اليوم .

وفى هذا : « أن جهنم يؤتى بها كأنها سراب » وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »^(١) .

فيؤتى بجهنم بهذه الصفة تعرض على الناس فى ذلك الموقف ، وهناك ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَاهُم بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾^(٢) .

والسراب : هو ما يرى فى الأرض الخالية المستوية وقت ما تشتد حرارة الشمس من أثر انعكاس أشعتها على الأرض ، فيرى فى القيعان كأنه ماء ، فإذا قرب إليه الرأى أبعد عنه ، فهو كما قال الله تعالى :

(١) انظر صحيح مسلم ج ٨ ص ١٤٩ .

(٢) الآية ٢ من سورة الحج .

﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ (١) .
قوله : « فيقال لليهود ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيزاً ابن الله ،
فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبه ولا ولد » السؤال لتبكيتهم ، وتقريرهم بما
يستحقون به العذاب ، وهو عبادتهم لغير الله .

وفيه دليل على أن الناس في ذلك اليوم يكونون على عقائدهم في الدنيا لأن هؤلاء
اليهود والنصارى لما سئلوا عما كانوا يعبدون قالوا عزيزاً ابن الله والمسيح ابن الله ،
فهم لا يزالون يعتقدون أن عزيزاً ابن الله ، وكذلك النصارى يظنون ذلك في المسيح .
والكذب الذى أضيف إليهم هو قولهم : عزيز ابن الله ، والمسيح ابن
الله ولهذا قال : لم يكن لله صاحبة ولا ولد .

قوله : « فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ،
فيتساقطون في جهنم » في ذلك الموقف يشتد الظمأ لتوالي الكربات ، وترادف
الشدائد المهولات ، ولهذا صار أول مطلبهم الماء ، وقد مثلت لهم جهنم كأنها
ماء كما سبق في قوله : « كأنها سراب » فيقال لهم : اذهبوا إلى ما ترون ،
وتظنونوه ماء ، فاشربوا ، فيذهبون فيجدون جهنم يحطم بعضها بعضاً ،
فيتساقطون فيها ، ومثل ذلك يقال للنصارى بعدهم .

قوله : « حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر » تقدم في الحديث
قبله : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » ، وما هنا أعم ، وتقدم الكلام عليه .
قوله : « فيقال لهم : ما يحبسكم ، وقد ذهب الناس ؟ فيقولون :
فارقناهم ، ونحن أحوج منا إليه اليوم » الذى يخاطبهم بذلك هو رب العالمين ،
كما هو واضح في السياق .

والرواية التى ذكرها البخارى في التفسير : « حتى إذا لم يبق إلا من كان
يعبد الله من بر أو فاجر ، أتاهم رب العالمين » (٢) ، وهذا من الامتحان

(١) الآية ٣٩ من سورة النور .

(٢) انظر البخارى ج ٦ ص ٥٦ .

والابتلاء ، ليتبين ثباتهم وصدقهم ، ولذلك قالوا : فارقنا الناس في الدنيا ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وذلك لأنهم عصوا الله وخالفوا أمره وناصبوا من أطاعه العداوة ، فعاديناهم لذلك ، وزايلناهم بغضا لهم في الله ، وإيثارا لطاعة ربنا ، كما قال إبراهيم عليه السلام ، والذين آمنوا معه : ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ (١) .

قوله : « إليه » قال مصححو الطبعة البولاقية : « هكذا في جميع النسخ متنا وشرحا بضمير الأفراد ، وهو مخالف لما ذكره الشارح [يعنى القسطلاني] نقلا عن البرماوى والكرمانى والعينى ، حيث قال : « وكنا في ذلك الوقت أحوج إليهم » وتقدم في تفسير سورة النساء بضمير الجمع » (٢) .

وقد أشار الحافظ إلى صحة الأفراد ، وأن عياضا رجحه ، وجعل الضمير عائدا إلى الله تعالى ، والمعنى : « فارقنا الناس في معبوداتهم ، ولم نصاحبهم ، ونحن اليوم أحوج إلى ربنا من أى يوم كان ، أى إنا محتاجون إليه » (٣) .

قوله : « وإنا سمعنا مناديا ينادى ليلاحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا » يعنى أنهم امثلوا قول المنادى ، وليسوا ممن يعبد تلك المعبودات التى أحضرت إلى عابديها ، ثم سيقوا معها إلى النار ، وقد علموا أن ربهم تعالى سيأتيهم .

قوله : « فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » قد تقدم الكلام في الصورة بما يكفى ، وفي الرواية التى ذكرها في التفسير : « أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التى رأوه فيها أول مرة » وهو لفظ

(١) الآية ٤ من سورة الممتحنة .

(٢) حاشية البخارى طبعة بولاق ج ٩ ص ١٥٩ .

(٣) انظر فتح البارى ج ١١ ص ٤٥٠ .

رواية مسلم^(١) ، وفي السنة لابن أبي عاصم : « ثم يتبدى الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناها فيها أول مرة » وفي رواية عنده أيضا « ثم يرفع برنا ومسيئنا ، وقد عاد لنا في صورته التي رأيناها فيها أول مرة »^(٢) وقد تقدم .

وفي صحيح مسلم في هذا الحديث : « ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا »^(٣) .

ففى هذه الألفاظ بيان صريح بأنهم قد رأوه في صورة عرفوه فيها ، قبل أن يأتهم هذه المرة ، وفي ذلك رد لما قاله الإمام أبو سعيد الدارمي رحمه الله حيث جعل معرفتهم إياه بصفاته التي تعرف بها إليهم في الدنيا .

وكذلك قوله : « إن هذا التحول من صورة إلى صورة ، هو تمثيل يمثله الله في أعينهم .

أما هو — تعالى — فلا يتحول من صورة إلى صورة ، وهذا خلاف ما صرحت به الأحاديث كما ذكرنا^(٤) .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول أبي سعيد هذا ، ورده من وجوه عدة ، فقال بعد ما ذكر أقوال أهل التأويل ، من الجهمية ، والحلولية لحديث الصورة وإتيان الرب — تعالى — إلى أهل الموقف بصورته ، قال :

« وأقرب ما يكون عليه إتيان الله — تعالى — في صورة بعد صورة — وإن كان تأويلاً باطلاً — أيضا ما ذكره بعض أهل الحديث ، مثل أبي عاصم

(١) انظر صحيح مسلم مع النووي ج ٣ ص ٢٧ .

(٢) انظر السنة ج ١ ص ٢٨٥ .

(٣) صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٩ رقم ٣٠٢ .

(٤) انظر الرد على المريسي ص ٤٢١ مجموعة عقائد السلف .

النبيل ، أنه كان يقول : ذلك تغيير يقع في عيون الرائيين ، كنعو ما يخيل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو به ، فيتوهم الشيء على الحقيقة .

وقال عثمان بن سعيد في نقضه على بشر المريسي : « وأما إنكارك على رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله يترأى لعباده المؤمنين يوم القيامة ، في غير صورته ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، ثم يترأى في صورته التي يعرفونها ، فيتبعونه ، فزعمت أن من أقر بهذا فهو مشرك .

فيقال لهم : أليس قد عرفتم ربكم في الدنيا ، فكيف جهلتموه عند العيان ، وشككتم فيه ؟

وقد صح بهذا الخبر عن رسول الله ﷺ كأنك تسمعه يقوله من جودة إسناده . ولو أن الله تجلى لهم أول مرة في صورته التي عرفهم صفاتها في الدنيا ، لاعترفوا بما عرفوا ، ولكنه يرى نفسه في أعينهم ، لقدرته ، ولطف ربه بعباده في صورة غير ما عرفهم الله صفاتها في الدنيا ؛ ليمتحن الله بذلك إيمانهم ، ثانية في الآخرة ، أنهم لا يعترفون بالعبودية في الدنيا والآخرة إلا للمعبود الذي عرفوه في الدنيا بصفاته التي أخبرهم بها في كتابه ، واستشعرتها قلوبهم حتى ماتوا على ذلك .

فإذا مثل في أعينهم غير ما عرفوا من الصفة نفروا ، وأنكروا ، إيماناً منهم بصفة ربه التي امتحن قلوبهم في الدنيا بها ، من غير أن يتحول الله من صورة إلى صورة .

ولكن يمثل ذلك في أعينهم ، كما مثل جبريل مع عظم صورته ، في صورة دحية الكلبي ، وكما مثل لمريم بشرًا ، وكما شبه عيسى في أعين اليهود ^(١)

(١) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي ص ٤٢١ - ٤٢٣ وانظر نقض التأسيس ج ٣ ص ٣٩٧ - ٤٠١ المخطوط .

وهذا باطل من وجوه :

أحدها : أن في حديث أبي سعيد المتفق عليه « فيأتيهم في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » .

وفي لفظ : « في أدنى صورة من التي رأوه فيها » ، وهذا يفسر قوله في حديث أبي هريرة : « فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون » ، ويبين أن تلك المعرفة كانت لرؤية منهم متقدمة ، في صورة غير الصورة التي أنكروه فيها .

وفي هذا التفسير قد جعل صورته التي يعرفون ، هي التي عرفهم صفاتها في الدنيا ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه أخبر أنها الصورة التي رأوه فيها أول مرة ، لا أنهم عرفوها بالنعث في الدنيا .

ولفظ الرواية صريح في ذلك ، وقد بينا أنه في غير حديث ما يبين أنهم رأوه قبل هذه المرة .

الثاني : أنهم لا يعرفون في الدنيا لله صورة ، ولم يروه في الدنيا في صورة ، فإن ما وصف الله — تعالى — به نفسه ، ووصفه به رسوله لا يوجب لهم معرفة صورة يعرفونه فيها ، ولهذا قال — تعالى — : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾^(١) فلو أرادوا الصفات المخبر بها في الدنيا لذكروا ذلك .

فعلم أنهم لم يطبقوا الصورة التي رأوه فيها أول مرة [على ما علموه في الدنيا]^(٢) .

وقد قال النبي ﷺ في سدره المنتهى : « فغشيها من أمر الله ما غشيها ، حتى لا يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها »^(٣) ، فالله أعظم من أن يستطيع

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) ليست من كلام الشيخ وإنما زدتها للإيضاح .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٦ الحديث رقم ٢٥٩ .

أحد أن ينعت صورته ، وهو سبحانه وصف نفسه لعباده بقدر ما تحتمله أفهامهم .

ومعلوم أن قدرتهم على معرفة الجنة بالصفات أيسر ، ومع هذا فقد قال : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) فالخالق أن لا يكونوا يطبقون معرفة صفاته كلها أولى .

الوجه الثالث : أن في حديث أبي سعيد : « فيرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة » فقوله : « لا يتحول من صورة إلى صورة ولكن يمثل ذلك في أعينهم » مخالف لهذا النص .

الوجه الرابع : أن في حديث ابن مسعود ، وأبي هريرة ، من طريق العلاء : « أنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدون » وفي لفظ « أشباه ما كانوا يعبدون » .

ثم قال : « ويبقى محمد وأمه ، فيتمثل لهم الرب - تبارك وتعالى - فيأتيهم فيقول : « ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا إلهما ما رأيناه بعد » ، فقد أخبر أن الله - تعالى - هو الذي يتمثل لهم ، ولم يقل لهم كما قال في معبودات المشركين ، وأهل الكتاب .

الوجه الخامس : أن في عدة أحاديث ، كحديث أبي سعيد ، وابن مسعود : « قال هل بينكم وبينه علامة ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساقه ، فيسجدون له » . وهذا بين أنهم لم يعرفوه بالصفة التي وصف لهم في الدنيا ، بل بآية وعلامة عرفوها في الموقف .

وكذلك في حديث جابر : « قال : فيتجلى لنا يضحك » ، ومعلوم أنه وإن

(١) رواه البخارى في عدة مواضع من صحيحه وسيأتى ومسلم انظر ج ٤ ص ٢١٧٤ رقم ٢٨٢٤ .

وصف بالدنيا بالضحك فصورته لا تعرف بغير المعاينة .

الوجه السادس : أنه مثل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾^(١) وبقوله : ﴿ وَلَكِنْ شَبَّهَ لَهُمْ ﴾^(٢) ، وهذا غير مناسب لأن اليهود غلطوا في الذى رأوه ، حيث ظنوه المسيح ، ولم يكن هو ، ولكن ألقى شبهه عليه ، وكذا الذى رآه مريم ، ومحمد ﷺ هو جبريل نفسه في صورة آدمى ، فكيف يقاس ما رأى هو نفسه في صورة على ما لم ير ؟

وأما التقليل والتكثير في أعينهم فهو في المقدار ، ليس في نفس المرئى ، ولكن في صفته .

الوجه السابع : أن هذا المعنى كان مقيدا بالرأى ، لا بالمرئى ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾^(٣) فقيد ذلك بأعين الرائين ، يقال : كان هذا في عين فلان رجلا ، فظهر امرأة ، وكان كبيرا ، فظهر صغيرا ونحو ذلك .

لا يقال جاء فلان في صورة كذا ، ثم تحول في صورة كذا ، ويكون التصوير في عين الرأى فقط^(٤) .

قوله : « فيقولون : الساق ، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن » : الضمير في قوله : « فيكشف عن ساقه » يعود إلى الله تعالى ، ففي ذلك إثبات الساق صفة لله تعالى ، ويكون هذا الحديث ونحوه تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .

(٢) جزء من الآية ١٥٧ من سورة النساء .

(٣) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .

(٤) نقض التأسيس ج ٣ ص ٣٩٧ — ٤٠٤ المخطوطة .

يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١﴾ .

قال البخارى فى التفسير من صحيحه : « باب : « يوم يكشف عن ساق » :

حدثنا آدم ، حدثنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد — رضى الله عنه — قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا حديث متفق على صحته ، وفيه التصريح فى أن الله تعالى يكشف عن ساقه ، وعند ذلك يسجد له المؤمنون . ومن تأوله التأويلات المستكرهه ، فقد استدرك على رسول الله ﷺ ولم يرض بما جاء به عن ربه تبارك وتعالى .

ومعلوم أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ ^(١) ليس نصا فى أن الساق صفة لله تعالى لأنه جاء نكرة غير معرف بالإضافة إلى الله — تعالى — ، فيكون قابلا كونه صفة ، وكونه غير صفة ، وتعينه لواحد من ذلك يتوقف على الدليل وقد دل الدليل الصحيح على أنه صفة لله — تعالى — فلا يجوز تأويله بعد ذلك .

أما ما جاء عن ابن عباس ، وغيره أن ذلك : الشدة والكرب يوم القيامة ، فهذا بالنظر إلى لفظ الآية ، لأنها كما قلنا لم تدل على الصفة بلفظها ، وإنما الدليل هو الحديث المذكور ، مع أنه جاء عن أبى سعيد ، راوى الحديث وجاء عن غيره أيضا أنهم جعلوها دالة على الصفة .

قال شيخ الإسلام : « وقد طالعت التفاسير المنقولة ، عن الصحابة ،

(١) الآية ٤٢ من سورة ن .

وما رواه من الحديث ، ووقفت على أكثر من مائة تفسير ، فلم أجد عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات ، أو أحاديثها بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف ، إلا في مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ فروى عن ابن عباس ، وطائفة ، أن المراد به : الشدة ، أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة ، وعن أبي سعيد ، وطائفة ، أنهم عدوها في الصفات ، للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين .

ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات ، فإنه قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ نكرة في الإثبات لم يضيفها إلى الله ، ولم يقل عن ساقه ، فمع عدم التعريف بالإضافة ، لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر ^(١) .

وقال أيضا : « الصحابة قد تنازعوا في تفسير هذه الآية ، هل المراد به الكشف عن الشدة ، أو المراد أنه يكشف الرب عن ساقه .

ولم يتنازع الصحابة ، والتابعون فيما يذكر من آيات الصفات ، إلا في هذه الآية بخلاف [قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي ﴾ ﴿ وَيَقِي وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ ونحو ذلك فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون] ، وذلك أنه ليس في ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله — تعالى — [يعنى قوله — تعالى — : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾] لأنه قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ ، ولم يقل عن ساق الله ولا قال : يكشف الرب عن ساقه ، وإنما ذكر ساقا نكرة غير معرفة ، ولا مضافة .

وهذا اللفظ بمجرد ، لا يدل على أنها ساق الله ، والذين جعلوا ذلك من صفات الله — تعالى — أثبتوه بالحديث الصحيح ، المفسر للقرآن ، وهو

(١) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٩٤ — ٣٩٥ .

حديث أبي سعيد الخدرى ، المخرج فى الصحيحين ، الذى قال فيه : « فى كشف الرب عن ساقه » .

وقد يقال : إن ظاهر القرآن يدل على ذلك ، من جهة أنه أخبر أنه يكشف عن ساق ، ويدعون إلى السجود ، والسجود لا يصلح إلا لله ، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه .

وأىضا فحمل ذلك على الشدة ، لا يصلح ؛ لأن المستعمل فى الشدة أن يقال : كشف الله الشدة — أى أزالها — كما قال : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾^(١) وقال : ﴿ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُورِ فِي طُعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(٢) .

وإذا كان المعروف من ذلك فى اللغة أنه يقال : كشف الشدة — أى أزالها — فلفظ الآية ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ ، وهذا يراد به الإظهار ، والإبانة وأىضا هناك ، تحدث الشدة ، لا إزالتها ، فلا تكشف الشدة يوم القيامة .

لكن هذا الظاهر [من كون القرآن دالا على الصفة] ليس ظاهراً من مجرد لفظة « ساق » ، بل بالتركيب ، والسياق ، وتدبر المعنى المقصود^(٣) وبهذا يتبين بطلان قول من يقول : المراد بالساق : الأمر الشديد المهول ، أو أنه ملك يجعله الله علامة يعرفونها ، ونحو ذلك من التأويلات الباردة السخيفة التى يجب أن ينزه عنها كلام العقلاء فضلا عن كلام رسول الله ﷺ .

وكل من جرد نفسه لله ، وطرح عنه التعصب ، والتقليد ، فإنه يعلم بطلان هذه التأويلات ، وسخافتها .

قوله : « فىسجد له كل مؤمن ، ويبقى من يسجد لله رياء وسمعة ، فيذهب

(١) الآية ٥٠ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٧٥ من سورة المؤمنون .

(٣) نقض التأسيس ج ٣ ص ١٥ — ١٦ .

كيما يسجد ، فيعود ظهره طبقا واحدا » ، وهذا مما يدل على أن الساق صفة لله — تعالى — حيث عرفه المؤمنون بذلك فسجدوا له ، ومعلوم أن الشدائد في ذلك اليوم متوالية ، من النفخ في الصور ، وجمع الناس في صعيد واحد من أولهم إلى آخرهم ، فيطول وقوفهم ، شاخصة أبصارهم ، حفاة ، عراة ، غرلا ، جياعا عطاشا ، ثم يؤتى إليهم بجهنم ، تُجر بسبعين ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك ، ثم تتوالى الأهوال من نصب الموازين ، والصراط والعبور على النار ، حتى ينجو المؤمنون إلى الجنة ، وأما من عداهم فلا يخرجون من شدة إلا إلى ما هو أشد منها ، وكل هذه الأمور وغيرها لم توجب للمؤمنين السجود .

فلما مثل لكل قوم ما يعبدون ، وأمروا باتباع معبوداتهم إلى النار ، وبقي المؤمنون ينتظرون معبودهم ، حتى إذا جاءهم في صورة لا يعرفونه فيها ، وقال أنا ربكم ، فيتعوذون بالله منه ، خوفا أن يكون غير ربهم لأنهم لم يكونوا يشركون به شيئا ، ثم يقول لهم : هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، الساق ، عند ذلك يكشف عن ساقه جل وعلا ، فيخرون له سجدا .

وأما المنافقون الذين يراءون الناس بعبادتهم ، فمنعوا من السجود ، وجعلت ظهورهم طبقا واحدا ، لا يستطيعون الانحاء ، ولا السجود ؛ لأنهم ما كانوا في الحقيقة يسجدون لله في الدنيا ، وإنما كانوا يسجدون لأغراضهم الدنيوية .

قوله : « ثم يؤتى بالجسر ، فيجعل بين ظهري جهنم ، قلنا : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مدحضة ، مزلة » المدحضة : الذى لا تستمسك فيه الأقدام ، ومزلة صفة لمدحضة ، يعنى أن القدم إذا وطىء عليه لا يثبت ، بل يزل ، والمدحض : هو الموضع الذى فيه طين وأصابه الماء ، فأصبح يدحض ، من وطىء عليه — أى يزله ولا يثبت عليه قدم .

قوله : « عليه خطاطيف » هو الحديدة المعقوفة ، المحددة ، لأجل أن تمسك

من أريد خطفه بها ، فهي قرية من الكلوب ، وتقدم شرحها وتفسير السعدان .

قوله : « المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، والركاب » يعنى مرورهم على النار ، يختلف باختلاف إيمانهم وأعمالهم ، فمن كان إيمانه كاملا ، وعمله صالحا خالصا لله ، فإنه يمر من فوق جهنم كلمح البصر ، ومن كان دون ذلك يكون مروره بحسب إيمانه وعمله ، كما فصل ذلك في الحديث ، ومثل بالبرق ، والريح إلى آخره . قوله : « فجاج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكدوس في نار جهنم ، حتى يمر آخرهم يسحب سحبا » جعل المارين على الصراط أربعة أصناف :

الأول : الناجى المسلم من الأذى ، وهؤلاء يتفاوتون في سرعة المرور عليه كما سبق .

والثانى : الناجى المخدوش ، والخدش هو المرح الخفيف ، يعنى أنه أصابه من لفق جهنم ، أو أصابته الكلاب ، والخطاطيف ، التى على الصراط بخدوش .

والثالث : المكدوس فى النار ، الملقى فيها بقوة ، قال ابن الأثير : « كأن الإنسان تجمع يده ، ورجلاه ، ويشد ، ويلقى فى النار ، وهو بمعنى المكردس وجاء فى بعض نسخ مسلم « مكدوش »^(١) .

والرابع : الذى يسحب على الصراط سحبا قد عجزت أعماله عن حمله . قوله : « فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم ، من المؤمن يومئذ للجبّار » هذا من كرم الله ، ورحمته حيث أذن لعباده المؤمنين فى مناشدته وطلب عفوه عن إخوانهم الذين ألقوا فى النار ، بسبب جرائمهم التى كانوا

(١) جامع الأصول ج ١١ ص ٣١٤ مطبعة أنصار السنة .

يبارزون بها ربهم ، ومع ذلك أهتم المؤمنين الذين نجوا من عذاب النار وهول الصراط ، أهتمهم مناشدته ، والشفاعة فيهم ، وأذن لهم في ذلك رحمة منه لهم تبارك وتعالى .

« يقولون : ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا » مفهوم هذا أن الذين لا يصلون مع المسلمين ، ولا يصومون معهم ، لا يشفعون فيهم ، ولا يناشدون ربهم فيهم .

وهو يدل على أن هؤلاء الذين وقعت مناشدة المؤمنين لربهم فيهم كانوا مؤمنين ، موحدين ، لقولهم : « إخواننا كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا » ، ولكن ارتكبوا بعض المآثم ، التي أوجبت لهم دخول النار .

وفي هذا رد على طائفتين ، ضالتين ، الخوارج ، والمعتزلة ، في قولهم إن من دخل النار ، لا يخرج منها ، وإن صاحب الكبيرة في النار .

« فيقول الله تعالى : اذهبوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم ، وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ، قال أبو سعيد : فإن لم تصدقوني فاقروا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴾^(١) أما كون المؤمنين يذهبون إلى النار ، وكيف يستطيعون الوصول إليها ؟ وكيف يعرفون من في قلبه مثقال دينار ، أو نصف دينار ، أو مثقال ذرة من إيمان ؟ هذه كلها من أمور الآخرة ، التي لا تقاس بما تعارف

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

عليه الناس في الدنيا ، ولا يستطيع عقل البشر الحكم عليها ، وإنما تعرف حقائقها يوم القيامة ، فهناك يأتي تأويلها ، وإنما يجب علينا تصديقها ، والتيقن منها .

وليس بمستنكر في قدرة الله — تعالى — أن يجعل النار غير مؤذية لهؤلاء المؤمنين الذاهبين إلى إخوانهم في النار ، كالملائكة الذين فيها .

والمقصود بالصور في قوله : « ويحرم صورهم على النار » وجوههم ، وقد تقدم أن الله يحرم على النار مواضع السجود ، وذلك من آيات الله وعظيم قدرته .

واستشهاد أبي سعيد بالآية ظاهر في أن العبد إذا كان معه مثقال ذرة من إيمان ، فإن الله يضاعفه له ، فينجيه بسببه .

قوله : « فيشفع النبيون ، والملائكة ، والمؤمنون » صريح في أن هؤلاء الأقسام الثلاثة يشفعون ، ولكن يجب أن يعلم أن شفاعة أى شافع ، لا تقع إلا بعد أن يأذن الله فيها ، كما تقدم في مناشدتهم ربهم وسؤالهم إياه ، ثم يأذن لهم فيقول : اذهبوا فممن وجدتم إلى آخره .

قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (١) .

ولا تقع أيضا إلا لمن يرضى الله — تعالى — عنه ، وهو تعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد والإخلاص ، أما المشركون ، ومنهم عباد الأولياء والقبور فحرام عليهم الشفاعة ، كحرمة الجنة عليهم ، كما هو معلوم من نصوص الشرع .

قوله : « فيقول الجبار : بقيت شفاعتى ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

أقواما قد امتحشوا» الله تعالى هو مالك الشفاعة ، والأمر له في كل شيء ، والملائكة ، والرسل ، والمؤمنون ، يطلبون منه أن يشفعهم في من دخل النار من المؤمنين بأن يخرجهم ، وهو — تعالى — الذى يلقى هذا الطلب في نفوسهم كما سبق ، والمراد بشفاعته — تعالى — رحمته لهؤلاء المعذبين ، فيخرجهم من النار .

قال تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ﴿٢﴾ .

والعهد : هو شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، صادقا مخلصا ، وعمل بما دلت عليه هذه الشهادة .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٣﴾ .

ففى هذه الآيات — ونحوه كثير — البيان الواضح فى أن الشفاعة لله وحده ، وأنها لا يمكن أن تقع من أحد عند الله إلا بعد أن يأذن لمن يشفع ، ويرضى عن المشفوع له ، وحقبة الشفاعة أن الله يكرم الشافع بإذنه له فى ذلك ، ويرحم المشفوع فيه .

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٨٧ من سورة مريم .

(٣) الآية ٤ من سور آلّم السجدة .

قوله : « فيقبض قبضة » فيه إثبات القبض لله تعالى ، ومن لازمه إثبات اليد التي يقبض بها ، وكَم في كتاب الله — تعالى — وسنة رسوله ﷺ من نص يثبت ذلك ، ولكن أهل التأويل الفاسد المحرفون يأبون قبول ذلك ، والإيمان به ، وسوف يعلمون أن الحق ما قاله الله وقاله رسوله ، وأنهم قد ضلوا السبيل في هذا الباب .

قوله : « قد امتحشوا » يعنى احترقوا ، وفي رواية مسلم : « قد عادوا حمما » أى صاروا حمما ، والحمم بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة هو الفحم .

والامتحاش : احتراق الجلد ، وظهور العظم ، وليس المقصود هنا أن عظامهم ظهرت ، وإنما المقصود احتراقهم ظاهرا .

وبهذا استدل على أن من يدخل النار من الموحدين يموتون فيها ؛ لأنهم احترقوا ، وصاروا حمما ، وفي صحيح مسلم من حديث أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ، ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما ، أذن في الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة في حميل السبيل »^(١) .

قال ابن رجب : « وظاهر الحديث يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة ، وتفارق أرواحهم أجسادهم ، ويدل على ذلك ، ما أخرجه البزار ، من حديث عبد الله بن رجاء ، حدثنا سعيد بن مسلمة ، أخبرني موسى بن جبير ، عن أبى أمامة بن سهل ، عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن أدنى أهل

(١) صحيح مسلم ج ٣ ص ٢٧ مع شرح النووي .

الجنة حظا — أو نصيبا — قوم يخرجهم الله من النار ، فيرتاح لهم الرب — تعالى — أنهم كانوا لا يشركون بالله شيئا ، فينبذون بالعراء ، فينبتون كما تنبت البقلة ، حتى إذا دخلت الأرواح إلى أجسادها ، قالوا : ربنا كما أخرجتنا من النار ، وأرجعت الأرواح إلى أجسادها ، فاصرف وجوهنا عن النار ، فيصرف وجوههم عن النار»^(١) .

قال النووي : قوله صلى الله عليه وسلم : « لَكُنْ ناس أصابتهم النار » إلى آخره ، معناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله — تعالى — إماتة بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله — تعالى — ، وهذه الإماتة ، إماتة حقيقية ، يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ، ثم يميتهم ، ثم يكونون فحما ، فيحملون ضبائر ، كما تحمل الأمتعة ، ويلقون على أنهار الجنة ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فيحيون ، وينبتون نبات الحبة في حميل السيل ، في سرعة نباتها ، وضعفها ، فتخرج لضعفها صفراء ، ملتوية ، ثم تشتد قوتهم ، ويصيرون إلى منازلهم ، وتكمل أحوالهم ، هذا هو ظاهر الحديث .

وحكى القاضى عياض فيه وجهين ، أحدهما : أنها إماتة حقيقية ، والثانى ليس بموت حقيقى ، ولكن يغيب عنهم إحساسهم بالألم ، والمختار ما قدمناه»^(٢) .

قوله : « فينبتون في حافتيه ، كما تنبت الحبة في حميل السيل » المقصود نبات لحومهم وأبصارهم ، وعظامهم التى احترقت في النار ، ولا يلزم عند من يقول أنهم لا يموتون موتا حقيقيا — أنهم ماتوا في النار بحيث تفارق أرواحهم أجسامهم . والله أعلم .

(١) التخويف من النار ص ١٥٢ .

(٢) شرح النووي على مسلم ج ٣ ص ٣٨ ..

و « الحبة » بكسر الحاء ، قال الحافظ : « هي بزور الصحراء ، وجمعها حب بكسر الحاء ، وأما الحبة بفتح الحاء ، وهو ما يزرعه الناس فجمعها حبوب »^(١) .

« في حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان إلى الظل كان أبيض » يعنى بذلك سرعة خروج لحومهم ؛ لأن النبت في حميل السيل — كما ذكر — يخرج بسرعة ، ولهذا يكون من جانب الظل أبيض ، ومن جانب الشمس أخضر ، وذلك لضعفه ورقته ، ولا يلزم أن يكون نبتهم كذلك ، كما قاله بعضهم : بأن الذى من جانب الجنة يكون أبيض ، والذى من جانب النار يكون أخضر ، بل المراد تشبيهم بالنبت المذكور فى سرعة خروجه ، ورقته ، ولذلك قال : « فيخرجون كأنهم اللؤلؤ » يعنى فى صفاء بشرتهم ، وحسنا .

قوله : « فيجعل فى رقابهم الخواتيم » خواتيم ، جمع خاتم ، وهذه الخواتيم يكتب فيها « عتقاء الرحمن من النار » ، كما ذكر فى الرواية الأخرى .

قوله : « فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة ، بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه » يعنى : أنهم لم يعملوا صالحا فى الدنيا وإنما معهم أصل الإيمان ، الذى هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والإيمان برسولهم .

قال الكرماني : « ليس معهم إلا مجرد الإيمان ، دون أمر زائد عليهم ، من الأعمال والخيرات ، وعلم منه أن شفاعة الملائكة ، والنبيين ، والمؤمنين ، فيمن كان له طاعة غير الإيمان الذى لا يطلع عليه إلا الله »^(٢) وتقدم فى الحديث

(١) انظر الفتح ج ١١ ص ٤٥٨ .

(٢) شرح الكرماني ج ٢٥ ص ١٥٠ .

أنهم يخرجون من كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان ، ومن كان في قلبه مثقال نصف دينار ، ومن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، والله أعلم .
قوله : فيقال لهم : « لكم ما رأيتم ، ومثله معه » يظهر أنهم يدخلون أماكن من الجنة خالية ، ولهذا قيل لهم ذلك .

ومحل الشاهد من الحديث قوله : « فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته ، التي رآوه فيها أول مرة » ، وقوله : « فيكشف عن ساق ، فيسجد له كل مؤمن » مع قوله : « فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ ، إلا كما تضارون في رؤيتهما » جوابا لسؤالهم : « هل نرى ربنا يوم القيامة » وهي كما ترى أدلة واضحة صريحة وهذا من أوضح الأدلة على أن عموم أهل الموقف من الرجال ، والنساء ، والمنافقين ، والكفار ، يرونه ، فإن الناس يعمهم ، والحشر مشترك بينهم .

فقد ظهر مراد النبي ﷺ لكل عاقل عارف باللغة بقوله :

« إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحاب » أن مراده رؤيتهم إياه بأبصارهم ، لا يستريب في ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعاني ، وليس في الممكن عبارة أوضح من هذا .

٦٧ — وقال حجاج بن منهال : حدثنا همام بن يحيى ، حدثنا قتادة ، عن أنس — رضي الله عنه — أن النبي ﷺ قال : « يجبس المؤمنون يوم القيامة ، حتى يهيموا بذلك .

فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم . فيقولون : أنت آدم أبو الناس ، خلقتك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، لتشفع لنا عند ربك ، حتى يريحنا من مكاننا هذا » .

قال : فيقول : لست هناكم ، قال : ويذكر خطيئته التي أصاب ،
أكله من الشجرة وقد نهى عنها ، ولكن ائتوا نوحا ، أول نبي بعثه
الله — تعالى — إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا ، فيقول : لست
هناكم ، ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربه بغير علم .

ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن ، قال : فيأتون إبراهيم ، فيقول :
إني لست هناكم ، ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ، ولكن ائتوا موسى ،
عبدا آتاه الله التوراة ، وكلمه وقربه نجيا .

قال : فيأتون موسى ، فيقول : إني لست هناكم ، ويذكر خطيئته
التي أصاب قتله النفس ، ولكن ائتوا عيسى ، عبد الله ورسوله ،
وروح الله وكلمته .

قال فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمدا
ﷺ ، عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ، فيأتوني
فأستأذن علي ربي في داره ، فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت
ساجدا ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، فيقول : ارفع محمد ، وقل
يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعط .

قال : فأرفع رأسي ، فأثنى على ربي بثناء ، وتحميد يعلمنيه ، فيحد
لي حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة .

قال قتادة : وسمعت أيضا يقول : « فأخرج ، فأخرجهم من النار ،
وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأستأذن علي ربي في داره ، فيؤذن لي عليه ،
فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول :
ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه .

قال : فأرفع رأسي ، فأثنى على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ، قال :
ثم أشفع ، فيحد لي حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة ، قال قتادة :
وسمعته يقول : فأخرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

ثم أعود الثالثة ، فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه ، فإذا
رأيته وقعت ساجدا ، فيدعني ، ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول :
ارفع محمد ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه .

قال : فأرفع رأسي ، فأثنى على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه .

قال : ثم أشفع فيحد لي حدا ، فأخرج ، فأدخلهم الجنة ، قال
قتادة : وقد سمعته يقول : فأخرج ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم
الجنة ، حتى ما يبقى في النار ، إلا من حبسه القرآن — أى وجب
عليه الخلود — ، ثم تلى الآية : ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا ﴾ .

قال : وهذا المقام المحمود ، الذي وعده نبيكم ﷺ .

هذا حديث الشفاعة المشهور ، وقد تقدم في باب قوله تعالى : ﴿ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ .

وقد جاء من رواية عدد من الصحابة ، « وأول حديث أبي هريرة : « أنا
سيد الناس يوم القيامة ، يجمع الله الناس ، الأولين ، والآخرين ، في صعيد
واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من
الغم والكرب ما لا يطيقون ، ولا يحتملون » .

وزاد في رواية إسحاق بن راهويه ، فتدنو الشمس من رؤوسهم ، فيشتد

عليهم حرها ، ويشق عليهم دنوها ، فينطلقون من الضجر والجوع مما هم فيه .
وأول حديث أبى بكر : « عُرض على ما هو كائن من أمر الدنيا ،
والآخرة ، يجمع الله الأولين والآخرين ، فى صعيد واحد ، فيفزع الناس
لذلك ، والعرق كاد يلجمهم » .

وفى حديث عبادة بن الصامت : « إنى لسيد الناس يوم القيامة — بغير
فخر — ، وما من الناس إلا من هو تحت لوائى ، ينتظر الفرج ، وإن معى
لواء الحمد »^(١) .

وبهذا يتبين أن قوله فى رواية أنس : « يجبس المؤمنون يوم القيامة » أن قبله
كلاماً محذوفاً ، وأن المقصود الخلق عامة ، ولهذا جاءت أكثر الروايات بالتعبير
« بالناس » .

وفى هذه الرواية — زائداً على ما تقدم — ذكر الذنوب التى يعتذر بها
الأنبياء وتقدم أن هذا من الأدلة على وقوع الذنوب فى الجملة من الأنبياء ،
وتقدم الكلام فى هذه المسألة .

ومن ذلك قوله : « فاستأذن على ربي فى داره » ، وتكرر ذلك ثلاثاً ،
قيل : المراد الجنة ، والظاهر أن المراد مكان معين ، كما فى حديث الشفاعة
الطويل « فأتى تحت العرش » ، وفى حديث الصور ، « فأتى مكاناً تحت
العرش ، يقال له الفحص » ، فيكون المعنى ، المكان الذى تحت عرشه .

وما ذكره الحافظ نقلاً ، عن الخطابى أن قوله : « فاستأذن على ربي فى
داره » يوهم المكان ، والله منزه عن ذلك ، وإنما معناه فى داره التى اتخذها
لأوليائه ، وهى الجنة ، أضيفت إليه إضافة تشريف ، مثل بيت الله وحرم

(١) انظر الفتح ج ١١ ص ٤٣٢ .

الله»^(١) فيقال له : ماذا تقصد بالمكان ؟ إن كنت تريد مكانا يحويه ويحيط به ، فالله تعالى منزه عن ذلك .

وإن كنت تريد أنه ليس فوق عرشه ، عال على خلقه ، كما هو مذهب أهل الباطل من أشعرية ، ومعتزلة ، وغيرهم ، فقد أثبت الله تعالى ذلك لنفسه وأثبتته له رسله ، واتفقت عليه كتبه ، وأجمعت عليه أتباع الرسل ، وفطر الله — تعالى — عليه خلقه ، فإنكار ذلك عناد ، ومكابرة للعقول السليمة من الانحراف ، ومخالفة للشرع ، وقد تقدم من الأدلة على ذلك ما يكفى بعضه لمن يريد الحق .

ومما لم يتقدم في الرواية السابقة قوله : « فأخرج ، فأخرجهم من النار »
يعنى يخرج من المكان الذى استأذن فى الدخول فيه .

وفيه ألفاظ آخر تختلف عما سبق ، ولكن المعنى متقارب .

والمقصود منه هنا قوله : « فأستأذن على ربي فى داره ، فإذا رأيته وقعت ساجدا » كرر ذلك ثلاث مرات ، وهو صريح فى أن الرسول ﷺ يرى ربه عيانا فى ذلك المكان ، فيسجد له ، وإذا رآه جاز أن يراه غيره .

وأما تلاوة الآية إلى آخر قول أنس ، فهو تفسير للمقام المحمود وسيأتى .
وفى هذا الحديث إشكال ظاهر ، حتى قال الداودى : « أول هذا الحديث ليس متصلا بآخره ، بل بقى بين طلبهم الشفاعة ، وبين قوله : « فأستشفع » ، أمور كثيرة من أمور القيامة»^(٢) ، وقال : « وكأن راوى الحديث ركب شيئا على غير أصله ، وذلك أن أول الحديث فى ذكر الشفاعة ، فى الإراحة من كرب الموقف ، وآخره فى الشفاعة لإخراج بعض العصاة من النار ، وهذا إنما يكون

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٢٩ .

(٢) ذكره الحافظ فى الفتح ج ١٣ ص ٤٢٦ .

بعد انتهاء الوقوف ، والقضاء بين الخلق ، وذهاب أهل الجنة إليها ، وأهل النار إليها ، قال الحافظ : « وهذا إشكال قوى »^(١) .

ثم ذكر جوابه ، عن القاضي عياض ، قال : وتبعه عليه النووي .
وحاصله : أن الحديث فيه اختصار ، وحذف ، وذكر بعض الروايات التي تبين ذلك .

منها ما في حديث أبي بن كعب ، عند أبي يعلى : « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط ، وهو منصوب بين ظهرائي جهنم ، فيمرون » .

ومنها ما في رواية ابن عباس عند الإمام أحمد : « فيقول — عز وجل — يا محمد ما تريد أن أصنع في أمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم » .
وذكر جواب القرطبي ، « بأن قوله في حديث أبي هريرة : « أَدْخَلَ مِنْ أَمْتِكَ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عَذَابَ » ، فهذا يدل على الشفاعة في تعجيل الحساب »^(٢) .

وذكر غير ذلك مما هو مخالف لظواهر الأحاديث ، فلا يعول عليه .
وقال ابن أبي العز : « والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، ولا يذكرون أمر الشفاعة الأولى ، في إتيان الرب — تعالى — لفصل القضاء ، مع أنه المقصود من سياق الحديث .
فإن الناس يطلبون الشفاعة ليقضى بينهم ، فيستريحوا من عناء الموقف .
وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور المشهور ، فإن فيه :

(١) الفتح ج ١١ ص ٤٣٧ — ٤٣٨ ببعض التصرف .

(٢) انظر الفتح ج ١١ ص ٤٣٨ .

« فأذهب فأسجد تحت العرش ، في مكان يقال له : الفحص ، فيقول الله : ما شأنك ؟ وهو أعلم — فأقول : يا رب وعدتني الشفاعة ، فشفعني في خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول سبحانه ، شفعتك ، أنا آتيكم فأقضى بينهم ، قال : فأرجع فأقف مع الناس » ، ثم ذكر « انشقاق السماوات ، وتنزل الملائكة ، ثم يجيء الرب — تعالى — لفصل القضاء » إلى آخره . وكأن السلف اقتصروا على هذا القدر من الحديث ، للرد على الخوارج ، ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار ، بعد دخولها ، فذكروا القدر الذي فيه التصريح بذلك ^(١) .

وبذلك يزول الإشكال ، فإن حديث الصور مشهور ، وإن كان سنده ضعيفاً ، ولكن له شواهد كثيرة صحيحة ، فيصح أن يكون جواباً لهذا الإشكال ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » فقال ابن جرير : « يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : أقم الصلاة المفروضة ، في أوقاتها التي أمرتك بإقامتها فيها ، ومن الليل فتهجد فرضاً فرضته عليك ، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تقوم فيه محموداً ، تحمده ، وتغبط فيه .

قال أكثر أهل العلم : إنه الشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه ، من شدة ذلك اليوم — ثم ذكر الآثار في ذلك .

وذكر بسنده ، عن مجاهد ، أن المقام الحمود أن يجلسه معه على عرشه . ثم قال : الصواب ، ما صح به الخبر ، أنه الشفاعة ، وذكر بعض أحاديث الشفاعة ، ثم قال : « وما قاله مجاهد ، غير مدفوع صحته سنداً ، ولا نظراً ،

(١) شرح الطحاوية ص ١٩٣ .

إذ لا خير عن رسول الله ﷺ ، ولا عن صحابته ، ولا التابعين بإحالة ذلك»^(١) .

قال الحافظ : « الجمهور على أن المراد بالمقام المحمود ، الشفاعة ، وبالغ الواحدى ونقل فيه الإجماع .

ثم قال : والراجح أن المراد به الشفاعة ، لكن الشفاعة التى وردت فى الأحاديث المذكورة فى المقام المحمود نوعان : الأول : العامة فى فصل القضاء .
والثانى : الشفاعة فى إخراج المذنبين من النار »^(٢) .

٦٨ — قال : حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم ، حدثنى عمى ، حدثنا أبى ، عن صالح ، عن ابن شهاب ، قال : حدثنى أنس بن مالك — رضى الله عنه — « أن رسول الله ﷺ أرسل إلى الأنصار ، فجمعهم فى قبة ، وقال لهم : اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فأبى على الخوض » .

ذكر البخارى — رحمه الله — هذا الحديث من رواية أنس — رضى الله عنه — فى سبعة مواضع غير هذا الموضوع ، منها فى غزوة الطائف ، ولفظه : « قال ناس من الأنصار — حين أفاء الله على رسوله ﷺ — ما أفاء ، من أموال هوازن ، فطفق النبى ﷺ يعطى رجالا المائة من الإبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم .
قال أنس : فحدث رسول الله ﷺ بمقاتلتهم ، فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم فى قبة من آدم ، ولم يدع معهم غيرهم .

(١) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ١٤٣ — ١٤٧ ملخصا .

(٢) الفتح ج ١١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧ ملخصا .

فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال : « ما حديث بلغني عنكم ؟ » .
 فقال فقهاء الأنصار : أما رؤسائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا ، وأما
 أناس منا ، حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا
 ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبي ﷺ : « فإني أعطى رجلا
 حديثي عهد بكفر ، أتألفهم .

أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟
 فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » ، قالوا : يا رسول الله قد رضينا ،
 فقال لهم النبي ﷺ : « ستجدون أثره شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله
 ورسوله ، فإني على الخوض »^(١) .

وله ألفاظ وروايات متعددة ، من رواية أنس وغيره .

والأثر : اختصاص غيرهم واستبدادهم بما يستحقونه هم ، والمعنى : أن
 الناس يختصون بالدنيا ، ويستأثرون بها ، دون الأنصار ، مع استحقاق الأنصار
 لها ، وهم الذين اجتمعوا على نصرة رسول الله ﷺ وآووه إلى بلادهم ،
 وعاقده على أن ينصروه ، ويمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأولادهم منه ، فلنصرهم
 الله ورسوله سمو الأنصار ، وهو أشرف أسمائهم ، وقد وقع لهم ما أخبرهم
 به رسول الله ﷺ وذلك تقدير الحكيم العليم ، حيث استأثر الناس عليهم
 بالدنيا ، مع أنهم الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ، وهذا من فضل الله عليهم ،
 حتى يجازيهم ، على أعمالهم الدرجات العالية في جنات عدن ، فتظهر هناك
 فضيلتهم ، ويغبطهم الناس الذين استأثروا عليهم بالدنيا أعظم غبطة ، وذلك
 فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قوله : « جمعهم في قبة من آدم » القبة : كل ما كان مقببا ، وفي الأصل

(١) انظر الفتح ج ٨ ص ٥٢ .

أن يكون عال الوسط متداني الأطراف ، والأدم : الجلود .
وتقدم تفسير الصبر .

وقوله : « حتى تلقوا الله ورسوله » هذا هو محل الشاهد من الحديث لأن اللقاء يتضمن الرؤية والمعاناة كما قال أهل اللغة .
قال الأزهرى : « كل شيء استقبل شيئا ، أو صادفه ، فقد لقيه من الأشياء كلها »^(١) .

وقال ابن فارس : « اللقاء : الملاقاة ، وتوافق الاثنين متقابلين ، ولقيته لقيًا ، ولقيانا ، واللقيّة : فُعْلَةٌ من اللقاء ، والجمع : لقيء ، قال :
وإني لأهوى النوم من غير نعسة لعل لقاكم في المنام تكون »^(٢)
وقال الراغب : « اللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته معا ، وقد يعبر به على كل واحد منهما ، يقال : لقيه يلقاه لقاء ، ولقيًا ، ولقية .

ويقال ذلك : في الإدراك بالحس ، وبالبصر ، وبالبصيرة ، قال تعالى :
﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ [فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ] ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾^(٤) .

وملاقاة الله عبارة ، عن القيامة ، وعن المصير إليه ، قال تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا
أَنْكُمْ مُّلْقَوُهُ ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلِقُوا اللَّهَ ﴾^(٦)

(١) تهذيب اللغة ج ٩ ص ٢٩٩ .

(٢) مقاييس اللغة ج ٥ ص ٢٦١ .

(٣) الآية ١٤٣ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٦٢ من سورة الكهف .

(٥) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

(٦) جزء من الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

واللقاء : الملاقاة قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلِّقِيهِ ﴾^(٢) وقال : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾^(٣) أى نسيتم القيامة ، والبعث والنشور^(٤) .

وقد ذكر لقاء الله في القرآن في أكثر من عشرين موضعا ، كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾^(٦) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٨) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾^(٩) وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾^(١٠) وقوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾^(١١) وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾^(١٢) وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ

(١) جزء من الآية ١٥ من سورة يونس .

(٢) الآية ٦ من سورة الانشقاق .

(٣) الآية ١٤ من سورة السجدة .

(٤) المفردات ص ٤٥٣ .

(٥) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ٧٧ من سورة التوبة .

(٧) الآية ٣١ من سورة الأنعام .

(٨) الآية ١٥٤ من سورة الأنعام .

(٩) الآية ٤٥ من سورة يونس .

(١٠) الآية ٥ من سورة العنكبوت .

(١١) الآية ٢ من سورة الرعد .

(١٢) الآية الأخيرة من سورة الكهف .

النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ إِلَّا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ مِمَّا رَحِمْتَنِي ﴾ (٤) .

فمن قرأ هذه الآيات ونحوها مما لم نذكره مؤمنا بها علم يقينا أن مضمونها إخبار الله تعالى بأن العبد سيلقى ربه ، لقاء يتضمن المحاسبة والكلام والمقابلة ، والمعاناة ، والجزاء بالعمل الذى كان العبد يعمل به فى الدنيا .

ولم يزل أهل السنة من السلف ، وأتباعهم ، يستدلون بمثل هذه الآيات على رؤية الله تعالى .

وسأأتى حديث عدى بن حاتم ، وفيه : « واعلموا أن كل واحد منكم سيلقى ربه ليس بينه وبينه ترجمان » (٥) .

فمن أنكر ذلك فقد خالف كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وسلك غير سبيل المؤمنين .

والله تعالى جعل التكذيب بلقائه كفرا ، لا ينفع معه عمل كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ مِمَّا رَحِمْتَنِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) .

قال ابن بطه : « سمعت أبا عمر الزاهد اللغوى يقول : سمعت أبا العباس ، أحمد بن يحيى يقول : فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ * تَحِيَّتُهُمْ

(١) الآية ٨ من سورة الروم .

(٢) الآية ٥٤ من سورة فصلت .

(٣) الآية ١٠٥ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت .

(٥) انظر ص ١٥٠ .

يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴿١﴾ : أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرة بالأبصار ﴿٢﴾ .

وقال شيخ الإسلام ، رحمه الله تعالى : « اللقاء » فسرهُ طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، والمشاهدة ، بعد السلوك والسير ، وقالوا : إن لقاء الله يتضمن رؤيته — سبحانه وتعالى — واحتجوا بآيات اللقاء على من أنكروا رؤية الله في الآخرة ، من الجهمية ، والمعتزلة وغيرهم .

وجعلوا اللقاء يتضمن معنيين ، أحدهما : السير إلى الملك .

والثاني : معاينته ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ ﴿٣﴾ .

فذكر أنه يكدح إلى الله ، فيلاقيه ، والكدح يتضمن السلوك والسير إليه ، واللقاء يعقبهما .

وأما المعاينة من غير سير إلى المعاین — كمعاينة الشمس ، والقمر — فلا يسمى لقاء .

وقول الذين يجعلون المراد من اللقاء ، هو الجزاء ، دون لقاء الله ، معلوم الفساد بالاضطرار ، بعد تدبر الكتاب والسنة .

ويظهر فساده من وجوه .

أحدهما : أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين .

الثاني : أن حذف المضاف إليه لا بد أن يقارنه قرائن تبين ذلك ، كما في

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الأحزاب .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٤٨٨ .

(٣) الآية ٦ من سورة الانشقاق .

قوله تعالى : ﴿ وَسَمِعَ الْغُرَبَاءَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾^(١) ، ولو قال قائل : رأيت زيدا أو لقيته ، وأراد بذلك أنه رأى غلامه ، أو أباه ، أو لقيهما ، لم يجز ذلك في لغة العرب بلا نزاع .

ولقاء الله — تعالى — قد ذكر في كتاب الله وسنة رسوله في مواضع كثيرة مطلقا غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله بعض مخلوقاته من ثواب وغيره .

الثالث : أن اللفظ إذا تكرر ذكره في الكتاب ، ودار مرة بعد مرة على وجه واحد ، وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الإطلاق ولم يبين ذلك كان تدليسا وتليسا يجب أن يصابن كلام الله عنه . الذي أخبر أنه شفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، وأنه بيان للناس .

وقد علم أن الرسول ﷺ بلغ البلاغ المبين ، وأنه بين للناس ما نزل إليهم . وأما قول أهل البدع : إن القرينة الدالة على أن لقاء الله غير مراد من هذه النصوص : هو ما في العقل من امتناع ذلك وإحالاته .

فهو مردود من وجهين : أحدهما : أنه ليس في العقل ما يمنع ذلك بل البراهين العقلية تتفق مع القرآن ، كما قال الله — تعالى — : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾^(٢) .

وما يدعيه نفاة لقاء الله ورؤيته من الحجج العقلية التي تخالف ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ، ليست حججا ، وإنما هي شبهات فاسدة ، عند من له خبرة جيدة بالمعقولات ، وإنما تنطلي على المقلدين .

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف .

(٢) الآية ٦ من سورة سبأ .

الثاني : أنه لو فرض أن هناك دليلا عقليا ينافي مدلول القرآن لكان خفيا ، له مقدمات طويلة ، متنازع فيها ، ليس فيها واحدة متفق عليها ، والواقع أنها شبهات فاسدة ، أورثها صدودهم عن كتاب الله .

ومن الضروري أن الذى أخبر أنه بيان للناس ، وأن كلامه هدى ورحمة ، وشفاء ، وبلاغ مبين ، إذا أراد بكلامه الموصوف بما ذكر ما يقوله هؤلاء المتكلمون ، فإنه بعكس تلك الأوصاف ، فيكون فيه الضلال ، واللبس ، لأنه لا يدل على قولهم .

واتفاق المسلمين على وجوب تنزيه كلام الله ورسوله من ذلك أمر ضرورى .

الوجه الرابع : أنه سيأتى فى حديث ابن عباس ، قول الرسول ﷺ : « أنت الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق » . ففرق بين لقائه ، وبين الجنة والنار .

ومعلوم أن الجنة والنار ، تتضمن جزاء المطيعين ، والعصاة ، فعلم أن لقاء الله غير لقاء الثواب ، والعقاب .

الوجه الخامس : ما بينه رسول الله ﷺ فى أحاديث كثيرة أن العباد سوف يلقون ربهم ، وقد ذكر البخارى فى هذا الباب قليلا منها مثل حديث عدى ابن حاتم « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه حاجب يحجبه ، ولا ترجمان » .

الوجه السادس : أنه لو أريد بقاء الله ما يخلقه من ثواب أو عقاب أو غير ذلك ، لكان ذلك واقعا فى الدنيا والآخرة ، كما فى عقاب الأمم المكذبة ، ونصر المؤمنين ، وإسعادهم .

وقد علم أتباع رسول الله ﷺ أن لقاء الله — تعالى — لا يكون إلا بعد الموت .

كما علموا بطلان قول أهل البدع : أن لقاء الله هو لقاء بعض مخلوقاته .
وعلى قولهم ، فليس في اللفظ ما يدل على تعيين مخلوق دون مخلوق ، فإذا
قالوا : إن لقاء الله هو الجنة ، أو النار ، جاز أن يقال : بل هو بعض ملائكته
أو بعض الشياطين ، أو غير ذلك إذ ليس دلالة اللفظ على تعيين هذا بأولى
من دلالة على تعيين هذا ، فبطل قولهم .

الوجه السابع : أن لقاء الله لم يستعمل في لقاء غيره ، لا حقيقة ولا مجازا ،
بل وفي المخلوق كذلك ، فلا يقال : لقيت زيدا ، وأنت تريد عمرا .

الوجه الثامن : النصوص الكثيرة التي تفرق بين لقاء الله وثوابه ، وجزائه
كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (١) فلو
كان لقاءه هو لقاء جزائه ، لكان هو الأجر الكريم ، ولا يحسن أن يخبر بأنه
أعده لهم بعد ما حصل لهم ، لأنهم لقوه ، فلقاؤه وسيلة ، وإعداد الأجر الكريم
مقصود ، فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود .

ومثل هذا يصاب عنه كلام أوسط الناس ، فضلا عن كلام رب العالمين ،
ولا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية ، التي لا تكون إلا في اللقاء .

الوجه التاسع : ما في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحب لقاء الله ، أحب
الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » (٢) ، فلو كان لقاء الله هو
جزاءه ، لامتنع أن يجب جزاء عبده ، ويكره جزاء آخر .

والله تعالى لا يكره جزاء عباده بما يستحقون ، بل يجب ذلك ، ولا يجزيهم
إلا بما يستحقون ، والجزاء لا يلقاه الله — تعالى — ، ودلائل بطلان هذا القول

(١) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

(٢) رواه البخارى انظر الفتح ج ١١ ص ٣٥٧ في الرقاق ورواه مسلم في الذكر والدعاء ج ٤

ص ٢٠٦٥ و ٢٠٦٦ و ٢٠٦٧ .

لا حصر لها»^(١) فيكتفى بما ذكر ، وبذلك يتضح أن معنى قوله ﷺ
للأنصار : « اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله » يتضمن معانيهم لربهم ، وتكليمه
لهم ومجازاتهم ، وتكريمه لهم بمخاطبتهم قبل أن يدخلهم دار النعيم الأبدي .
فهو ﷺ يقول لهم : تسلوا عما فاتكم من الدنيا ، مما تستحقونه بما يكون
لكم بعد البعث من الموت ، عندما تلقون ربكم ، فيكرمكم بتحيته لكم
ومخاطبتكم ، ورؤيتكم إياه ، فذلكم اليوم الذى تسعدون فيه حقا .
وكذلك تلاقون نبيكم على حوضه ، الذى من الله به عليه ، فأكرمه به
فى الموقف الذى يشتد فيه الظمأ ، فأنتم أحق من يرد ذلك الحوض ، فتشربون
منه دون معوق ، أو مكدر ، فلا ينالكم بعد ذلك نصب ، ولا وصب ، ولا
ظمأ ، ولا أذى .

٦٩ — قال : « حدثني ثابت بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن ابن
جريج ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس ، عن ابن عباس — رضى
الله عنهما — قال : كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال : اللهم
ربنا لك الحمد ، أنت قيّم السموات والأرض ، ولك الحمد ، أنت
رب السماوات والأرض ، ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور
السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك
الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم
لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك خاصمت ،
وبك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وأسررت ،
وأعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، لا إله إلا أنت » .

(١) مجموع الفتاوى بتصرف وتلخيص ج ٦ ص ٤٦٢ — ٤٧٥ .

قال أبو عبد الله : قال قيس بن سعد ، وأبو الزبير ، عن طاوس :
قيام .

وقال مجاهد : القيوم : القائم على كل شيء ، وقرأ عمر : القيام ،
وكلاهما مدح .

تقدم شرح هذا الحديث ، والمقصود منه هنا قوله : « أنت الحق ، وقولك
الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة
حق » ففرق بين لقائه وجزائه ، بقوله : « ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والنار
حق » .

فلقاؤه غير وعده ، وغير جزاءه ، الذى هو الجنة والنار .

فدل على أن تفسير لقائه بثوابه أو نحو ذلك تفسير باطل ، لم يدل عليه
لا كتاب ولا سنة ، بل الأدلة من الكتاب والسنة تبين بطلانه .

وبذلك يتبين أن لقاءه — تعالى — يتضمن رؤيته ، ومعانيته ، وهو ما أراده
البخارى من هذا الحديث ، وذلك ما قاله السلف ، وهو واضح :

٧٠ — قال : « حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو أسامة ،
حدثنى الأعمش ، عن خيثمة ، عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه
وبينه ترجمان ، ولا حجاب يحجبه » .

قوله : « ما منكم من أحد » الخطاب للصحابة ، ويتناول جميع المؤمنين ،
سابقهم ولا حقهم ، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة .

والترجمان : هو الوساطة بين اثنين أو أكثر الذى ينقل الكلام من لغة إلى
أخرى ، أو يبلغ عن المتكلم كلامه .

والمقصود هنا أنه ليس بين العبد وربّه أحد يبلغه عنه ، لا من الملائكة ولا من البشر .

بل الله — تعالى — هو الذى يتولى كلام عباده فى ذلك الموقف بنفسه ، فيحاسبهم على أعمالهم ، وقد بين ذلك فى لفظ الحديث ، لكن الإمام البخارى — رحمه الله — اختصره ، واقتصر على محل الشاهد منه .

ولفظه : « بينا أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل ، فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل .

فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد نبئت عنها . قال : فإن طال بك حياة لتَرَيْنَ الظعينة^(١) ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحدا إلا الله .

قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دعار طيء^(٢) الذين سعروا البلاد ؟ ولئن طال بك حياة ، لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز .

ولئن طال بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من الذهب أو الفضة ، يطلب من يقبله منه ، فلا يجد أحدا يقبله منه .

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولون : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى .

فيقول : ألم أعطك مالا ، وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى .

(١) الظعينة : الهودج فيه المرأة ، وهو شبه الفرقة الصغيرة يوضع فوق البعير ، فتركب فى وسطه المرأة ليسترها ، والظعن هو : الخروج من المكان والسير .

(٢) الدعار : بضم الدال مأخوذ من الدعارة ، وهى الخبث ، والتلصص وقطع الطريق .

فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم .
قال عدى : سمعت النبي ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمره فمن لم يجد شق تمره فبكلمة طيبة .

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولكن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي ﷺ يخرج ملء كفه» (١) .

وفي رواية : « كنت عند رسول الله ﷺ فجاء رجلان ، أحدهما يشكو العيلة ، والآخر يشكو قطع السبيل . فقال رسول الله ﷺ : « أما قطع السبيل فإنه لا يأتي عليك إلا قليل حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير» (٢) .

وأما العيلة ، فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه .

ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، ثم ليقولن له : ألم أوتك مالا ؟ فليقولن : بلى ، ثم ليقولن : ألم أرسل إليك رسولا ؟ فليقولن : بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمره ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة» (٣) .

ففي هاتين الروايتين بيان جلي بأن الله — تعالى — يتولى كلام عباده ومحاسبتهم بنفسه بدون واسطة بينه وبينهم ، وفي ضمن ذلك رؤيته — تعالى — وسماع كلامه .

قوله : « ولا حجاب يحجبه » أى ليس بين العبد وبين ربه ما يمنع رؤيته ومشاهدته . وهذا ظاهر الدلالة على رؤية المؤمن ربه يوم يحاسبه ، وعلى سماعه كلامه .

(١) انظر البخارى ج ٦ ص ١١٠ وانظر فتح البارى ج ٦ ص ٦١٠ .

(٢) الخفير : هو من يحمى سالك الطريق ويجريه ممن يريد به سوء .

(٣) انظر فتح البارى ج ٣ ص ٢٨١ .

وفيه دليل على أن الله تعالى حجابا يحتجب به عن خلقه ، والأدلة على ذلك كثيرة ، وأهل البدع ينكرون حجاب الله تعالى ، فهو عندهم كما يقول الفخر الرازى : « هو عبارة عن الجسم المتوسط بين جسمين آخرين — وهذا محال على الله »^(١) .

ونقل الحافظ عن ابن بطال ، أن الحجاب هو الآفة المانعة من النظر التى تكون على أبصار المؤمنين ، ومعنى رفع الحجاب : إزالة الآفة من أبصار المؤمنين المانعة لهم من الرؤية ، فيرونها لارتفاعها عنهم ، بخلق ضدها فيهم^(٢) ومقتضى هذا الكلام أن الذى يمنع المؤمنين فى الدنيا من رؤية الله تعالى هو الآفة التى على أبصارهم ، ولو زالت تلك الآفة لرأوه .

فالحجاب عند هؤلاء : هو عدم الإدراك فى أبصار الخلق ، وما وصف به الله — تعالى — من الحجاب راجع إلى الخلق . وشبهتهم : أن ما ستر بالحجاب ، فالحجاب أكبر منه ، ويكون متناهيا ، ومحاذيا للحجاب ، وهذا لا يكون إلا للأجسام .

نقل ابن حجر ، عن العلاءى قوله : « المراد بالحجاب ، والحجاب : نفى المانع من الرؤية » ثم قال : « وقد ورد ذكر الحجاب فى عدة أحاديث صحيحة . والله — سبحانه — منزه عما يحجبه ، إذ الحجاب إنما يحيط بمقدر محسوس ، ولكن المراد بحجابه : منعه أبصار خلقه ، وبصائرهم ، بما شاء متى شاء كيف شاء ، وإذا شاء كشف ذلك عنهم »^(٣) .

وهكذا شراح الحديث وغيرهم — الأشاعرة — ساروا على هذا المتوال .

(١) تأسيس التقديس ص ٩٩ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٣٠ .

(٣) المرجع المذكور ص ٤٣١ .

ويلزم من ذلك أن الله — تعالى — وصف نفسه وكذلك رسوله وصفه بما يجب أن ينزه عنه ، فهؤلاء المتبدعة أعلم من الله ، ومن رسوله بالله ، وأحرص على تنزيه الله من الله ورسوله ، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (١) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ (٣) وعدم الإدراك الذى زعموا ليس شيئا موجودا فيكون حائلا دون رؤيتهم ربهم ، بل هو عدم ، والعدم لا وجود له .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

فتجليه للجبل يدل على أنه محتجب بحجاب كشف للجبل منه ما جعله دكا وفى صحيح مسلم ، عن أبى موسى الأشعري ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٥) .

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٣) الآية ١٥ من سورة المطففين .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٢ الحديث رقم ١٧٩ .

ومعلوم أن بصر الله تعالى لا ينتهى دون شيء ، ولا يحول دونه شيء ، فهو بكل شيء بصير ، فلولا الحجاب الذى احتجب به لما بقى شيء من المخلوقات إلا ذاب واحترق ، فكيف جاز لهؤلاء الذين جعلوا أقيستهم وعقولهم هى الحكم على ما يوصف الله — تعالى — به ، وما يمتنع عليه .

وسياتى حديث أبى موسى ، وفيه : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

وفى صحيح مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله — تبارك وتعالى — : « تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم — عز وجل »^(١) .

والنصوص فى إثبات الحجب لله تعالى كثيرة ، يؤمن بها أتباع رسول الله ﷺ ويعلمون بما ورثوه من نور النبوة بأن الله تعالى احتجب بالنور ، وبالنار وبما شاء من الحجب ، وأنه لو كشف عن وجهه الكريم الحجاب لما قام لنوره شيء من الخلق — بل يحترق ولكنه تعالى فى الدار الآخرة يكمل خلق المؤمنين ويقويهم على النظر إليه — تعالى — فينعمون بذلك ، بل هو أعلى نعيمهم يوم القيامة .

وقد تولى شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — إبطال شبه هؤلاء المنكرين لحجب الله تعالى ، فى كتابه « نقض تأسيس الجهمية ، وإبطال بدعهم الكلامية » بوجوه كثيرة ، أكثر من أربعين وجهاً ، كل وجه منها كاف فى إبطال قولهم .

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٣ الحديث رقم ١٨١ .

قال — رحمه الله — : « أحدها : أنهم يقولون : إن الحجاب هو ما يخلقه الله في العين من الرؤية المتعلقة به تعالى » .

وهذا باطل بالضرورة ، لأنهم فسروا الحجاب بعدم الإدراك في أبصارهم ، والعدم لا يخلق ولا وجود له ، فهو ليس شيئا .

الثاني : أنه ثبت في الحديث قوله : « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » . وكشف الشيء إزالته ورفع ، وهذا لا يوصف به المعدم ، فإنه لا يزال ، ولا يرفع ، وإنما الذى يزال ويرفع الموجود .

الثالث : أنه قال : « فيكشف الحجاب فينظرون إليه » فجعل النظر متعقبا لكشف الحجاب ، وعند هؤلاء المبتدعة : الحجاب هو عدم خلق الرؤية ، وضده خلق الرؤية ، فيكون زوال ذلك العدم هو عين الرؤية ، لا يكون شيئا يتعقب [كشف] الحجاب ، وتقدم أن العدم ليس شيئا .

الرابع : أن في الحديث : « حجاب النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » .

ولو كان كما زعموا هو خلق الرؤية لم يكن كشف ذلك يحرق شيئا . فالمؤمنون يرون ربهم في عرصات القيامة ، وفي الجنة ولا تحرق رؤيتهم شيئا .

الخامس : [أنه] ثبت في الصحيحين : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، في جنة عدن » .

وعلى قول هؤلاء : ما بينهم وبين أن ينظروا إليه إلا زوال ذلك العدم بخلق الرؤية في أعينهم .

ومعلوم أن عدم خلق الرؤية فيهم ليس هو رداء الكبرياء ، ولا هو على وجه الله الكريم ، ولا هو في جنة عدن ، ولا هو شيء أصلا حتى يوصف بصفات الموجود .

السادس : أن من تأمل نصوص الكتاب والسنة ، وما ورد في ذلك من الآثار عن الصحابة والتابعين ، علم بالضرورة علما يقينيا لا يستريب فيه أن لله حجابا ، وحجبا منفصلة عن العباد ، يكشفها إذا شاء ، فيتجلى ، وإذا شاء لم يكشفها .

وإذا كان الحجاب كما يقول الرازى وذووه : « هو الجسم المتوسط بين جسمين » فلازم الحق حق ، لا يمكن أن يدفع حيث علم بالاضطرار من دين المرسلين فلا يدفع بما أحدثه سلف الرازى ، وأئمته ، ولا بما يشنعون به على أهل السنة من اصطلاحات ، وألفاظ ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان . فإن من أعظم بدعهم : قولهم : إن الله ليس بجوهر ولا جسم ، وهذا هو الصنم الأكبر الذى صدوا به عباد الله عن معرفته ، والإيمان به . وهو الذى عُطِلَ الله به من أسمائه وصفاته .

بل هو أساس الشرك والردة ، والنفاق ، وإن كان قد اغتر به طوائف من أهل الإيمان ، لم يعلموا ما قصده واضعوه الذين أفسدوا به فطرة العباد التى فطرهم الله عليها ، وأفسدوا به معانى كتاب الله ، وصدوا به عن سبيل الله . وهو لهؤلاء المبتدعة كاللغات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى للمشركين القدماء .

فإن الله — تعالى — لم ينزل فى شىء من كتبه ، ولا قال أحد من رسله ، ولا أحد من ورثتهم : إن الله ليس بجوهر ولا جسم ، وإن كان إثبات ذلك أيضا بدعة وضلالة ، إلا أن نفيه أعظم وأضل .

السابع : أن الله — تعالى — قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ومعلوم أن هذا التكليم مثل ما حصل لموسى ، وهو أرفع درجة من التكليم بالوحى ، وإرسال الرسول باتفاق المسلمين ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

فإذا كان الحجاب كما يقول هؤلاء : هو عدم خلق الرؤية ، فذلك مشترك بين الأقسام الثلاثة ، فلا يكون لمن كلم من وراء حجاب ميزة .
وبطلان ذلك ظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ مَن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ معناه من خلف حجاب ، وعدم خلق الرؤية عدم محض ، ليس له خلف ، ولا أمام ، فعلم أن الحق إثبات الحجاب لله حقيقة ، لأنه موجود .

والتقدير على قولهم : أن يقال : « أو من وراء عدم خلق الرؤية » وهذا يشبه كلام المجانين ، ولا يجعل هذا معنى كلام الله إلا زنديق متلاعب بالقرآن .

الثامن : أنه تعالى قال في الكفار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾^(١) فجعل حجابهم يوم القيامة ، ولو كان الحجاب هو عدم خلق الرؤية لكانوا محجوبين في الدنيا والآخرة ، ولكان المؤمنون أيضا داخلين في ذلك ، معذنين بهذا الحجاب الذى عذب به الكفار في الآخرة .
ولكنه حجاب خاص يحجب الله به الكفار حين يتجلى للأبرار .

ثم هذا الذى قالوه في الحجاب حمل للفظ على ما لا تحتمله اللغة بوجه من الوجوه فهو تبديل للغة ، كما هو تحريف للقرآن وتبديل لمعانيه^(٢) .

قوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه » .

وفي رواية « حاجب » وهذا يدل على وجود الحاجب كما تقدم ، ويدل على جواز أن يكون له ترجمان يبلغ عنه .

(١) الآية ١٥ من سورة المطففين .

(٢) نقض التأسيس بتصرف وتلخيص وانظر بقية الوجوه فيه جـ ٣ ص ١٤٥ — ١٥٤ مخطوط .

وقد جاء نص القرآن بأن التكليم يكون من وراء حجاب ، وعلى قول المنكرين للحجاب لا يمكن أن يكون بينه وبين عباده حجاب حقيقى ، ولا ترجمان ، وهذا يلزم منه إما إنكار وجود الله ، أو أنه حال مع خلقه ، تعالى الله عن ذلك .

ومذهبهم فى المسألتين من أعظم الباطل — أعنى الرؤية والكلام — لأنهم يقولون : التكليم : هو خلق إدراك الكلام ، لأن كلام الله معنى قائم بنفسه . كما أنهم يقولون : الرؤية هى رفع الموانع ، وخلق الرؤية فى العين ، فعلى هذا يكون الذى يراه المؤمنون فى الجنة شيئا مخلوقا ، والنصوص تبطل ذلك ، وكذلك العقل والفطر إذا سلمت من الانتكاس ، والتغيير .

٧١ — قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد ، عن أبى عمران ، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبىه ، عن النبى ﷺ قال : « جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

قال الحافظ : فى رواية الحارث بن عبيد ، عن أبى عمران الجوفى ، فى أول هذا الحديث : « جنان الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب » ... إلخ . وهذا يبين أن الحديث قد حذف شىء من أوله .

وهو يدل على تفاوت منازل الجنة ودرجاتها ، فبعضها أعلى من بعض حسا ومعنى ، حيث يكون بناؤها من الذهب ، وأوانها من الذهب ومعلوم أن الذهب هو أعلى المعادن وأنفسها لدى المخاطبين بالقرآن عند نزوله ، ويجوز أن يكون فيها ما هو أعلى من الذهب وأرفع ، لأن الله تعالى أخبر أن فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وتقدم البحث فى درجات الجنة .

قوله : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » .

هذا الشاهد من الحديث للباب ، إذ فيه التصريح بقرب نظرهم إلى ربهم فإذا أراد تعالى أن ينعمهم ويزيد في كرامتهم رفع رداء الكبرياء عن وجهه فنظروا إليه ، وفي الرواية التي ذكرها في التفسير ، « رداء الكبر على وجهه »^(١) .

لقد تخط شراح الحديث هنا من الأشاعرة — تخطهم في كثير من صفات الله — تعالى — فأخرجوا كلام رسول الله ﷺ عن ظاهره إلى المجازات البعيدة ، وطلبوا له التأويلات المستكرهة ، تحريفا له وتعطيلا لله من أوصافه ، ظانين أن ما وصفه به رسوله في مثل هذا الحديث فيه تجسيم وتشبيه ، كما هي طريقتهم .

نقل الحافظ كثيرا من كلامهم على هذا الحديث ، فنقل عن القاضي عياض قوله : « من أجرى هذا الكلام على ظاهره أفضى به إلى التجسيم » .

وقال الكرمانى : « هذا من التشابهات ، فإما مفوض ، وإما متأول بأن المراد من الوجه الذات ، والرداء صفة من صفات الذات اللازمة ، المنزه عما يشبه المخلوقات » ، وقال المازرى : « عبر عن زوال الموانع ، ورفعها عن أبصارهم برداء الكبرياء »^(٢) .

ونحن نجيبهم عما قالوا بجوابين ، أحدهما مجمل ، والآخر مفصل .

أما المجمل ، فنقول : نحن لا نشك ، ولا يشك مسلم عرف رسول الله ﷺ وعرف قدره ، أنه أفصح منكم ، وأقدر على بيان الحق وإيضاح ما يريد

(١) انظر البخارى ج ٦ ص ١٢١ تفسير سورة الرحمن .

(٢) انظر بقية كلامهم في الفتح ج ١٣ ص ٤٣٣ فإني اختصرته .

بلاغه منكم ومن أئمتكم ، وأنه أنصح للأمة وأشفق عليها وأحرص على هدايتها ، وسد طرق الكفر والضلال عنها منكم ومن غيركم ، وأنه أعلم بالله وما يجب له وما يمتنع عليه ، وأنه أخشى لله وأتقى له ، فمع ذلك يمتنع أن يتكلم بما ظاهره الكفر والضلال ، أو بما يؤدي إلى الباطل ، بل كلامه فيه الهدى والنور والعصمة من الضلال والانحراف لمن آمن به واتبعه .

بخلاف كلام غيره من الناس فإنه لا بد من عرضه على قول الله وقول رسوله ، فإن وافقه قبل ، وإلا رد على قائله .

فالحق قطعاً فيما قاله رسول الله ﷺ وليس في قول من خالفه ممن يتلقى عقيدته عن أهل الكلام والفلسفة المبنية على آراء الرجال وتخرصاتهم .

وأما الجواب المفصل : فمن وجوه :

أحدها : أن ما قالوه خلاف ظاهر النصوص ، كما صرحوا بذلك ، وليس في اللفظ المذكور ولا في غيره مما جاء عن الرسول ﷺ ما يدل على ما قالوه . ومعلوم أن صرف اللفظ عن ظاهره يحتاج إلى دليل يدل على ذلك ، وإلا صار التأويل تحريفاً وتلاعباً .

أما ما يدعون من قرينة دلالة العقل ، فمجرد دعوى تفتقر إلى برهان ، والحق أن العقل يدل على ما دل عليه نص الشرع .

الوجه الثاني : أنه قال : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » ، ومن المعلوم أن الكبرياء من صفات الله — تعالى — ولا يجوز للعباد أن يتصفوا بها ، فقد توعد الله المتكبرين بهم ، كما قال تعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١) .

(١) الآية ٧٢ من سورة الزمر .

وفي الحديث : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »^(١) .
فلا يجوز أن يكون رداء الكبرياء إلا وصفا لله — تعالى — فبطل قولهم :
« إن المقصود من رداء الكبرياء ، زوال الموانع » .

الوجه الثالث : أنه أضاف رداء الكبرياء إلى وجه الله الكريم حجبا له .
فقال : « إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » ، فلا يجوز أن يكون
رداء الكبرياء ما في أعين العباد من المانع الذي منعهم من رؤية الله كما يقوله
هؤلاء ، وقيد ذلك في جنة عدن .

وعلى مقتضى قولهم أنه لو زال المانع عن أعين العباد لرأوه في الدنيا .
الوجه الرابع : أنه ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال :
قال الله تعالى : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منها
قذفته في النار »^(٢) .

ورواه مسلم ، ولفظه : « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني
عذبه »^(٣) .

ورواه ابن ماجه ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله سبحانه :
الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، من نازعني واحدا منهما ألقيته في
جهنم »^(٤) .

ووصف الله تعالى بأن العظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه كسائر صفاته تثبت
على ما يليق به ، ويجب أن يؤمن بها على ما أفاده النص دون تحريف ولا تعطيل .

(١) رواه مسلم ج ١ ص ٩٣ .

(٢) رواه أبو داود في السنن ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ .

(٤) انظر ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ .

قوله : « في جنة عدن » قيد لكونهم ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم — جل وعلا — إلا رداء الكبرياء .

وهذا دليل على فضل جنة عدن ، وعلوها ، ومن لازم ذلك علو الله تعالى لأنهم ينظرون إليه تعالى من فوقهم ، وتقدم بحث ذلك بما فيه كفاية .

وأما قول ابن بطال : « لا تعلق به للمجسمة في إثبات المكان ، لما ثبت من استحالة أن يكون جسما ، أو حالا في مكان .

فيكون تأويل الرداء : الآفة الموجودة في أبصارهم ، المانعة لهم من رؤيته ، وسماء رداء لتنزله في المنع منزلة الرداء الذي يحجب الوجه عن رؤيته ، فأطلق عليه الرداء مجازا ، وقوله : « في جنة عدن » راجع إلى القوم»^(١) .

فيقال له : أولا من هم المجسمة ؟ ومعلوم أنه يقصد من أثبت أن الله فوق عرشه ، وأنه يراه أهل الجنة من فوقهم ، ولا شك أن نصوص الكتاب والسنة في إثبات ذلك أكثر من أن يحاط بها .

وعلى اصطلاح ابن بطال وذويه ، كل من أثبت ذلك فهو مجسم .

والله تعالى قد أثبت ذلك لنفسه ، وأثبتته رسوله له ، ونحن نتبع ذلك ، سواء سماه أهل البدع تجسيما وشنعوا على من اعتقده ، أو قاله ، أو لم يسموه ، فإنه هو الحق الذي لا مرية فيه عند أهله .

وأما قوله : « لما ثبت من استحالة أن يكون — سبحانه جسما ، أو حالا في مكان » فكما سبق أن هذه البدعة هي التي عُطل رب العالمين من أسمائه وصفاته بها ، وأنها الصنم الذي عبده المتكلمون ، وصدوا به عباد الله عن معرفته وعبادته بأسمائه وصفاته .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٣٣ .

ثم هذا القول من ابن بطال ومن قال به مجرد دعوى ، لا برهان عليها ، فمن أين لهم استحالة أن يكون الله في مكان ، وكتب الله وسنة رسوله ظاهرة في ذلك جلية تنادى بأن الله فوق عرشه مستو عليه ، عال على خلقه .
أما يستحيون من الدعاوى الكاذبة ، التي يريدون بها التشنيع على أتباع الرسل .

وقد علم أن مقصودهم بالجسم : ما شغل مكانا ، أو ما يصح أن يقال أنه هنا أو هناك ، أو ما صحت الإشارة إليه ، أو ما كان له مقدار .
وتقدم من الأدلة على استواء الله تعالى على عرشه ، وعلوه على خلقه ، وأنه يشار إليه ، ويقال إنه في السماء ما فيه مقنع لمن يريد الحق .
وأما قوله : « في جنة عدن راجع إلى القوم » فمراد : أن القوم في جنة عدن ، وأنه لا يجوز أن يقال : إن الله يرى في جنة عدن ، وإنما معناه الإخبار بأن القوم في جنة عدن .

فيقال : أولا هذا رد صريح لقول رسول الله ﷺ وكفى بذلك ضلالا ،
وبعدا عن سبيل المؤمنين .

ويقال ثانيا : إن هذا من جنس تأويلات أهل البدع الباردة ، التي لا تصدر عن عربى يعرف معنى ما يقول ، فضلا عن رسول الله ﷺ الذي هو أفصح العرب ، وكونهم في جنة عدن قد علم من أول الحديث ، لأنه قال : « جنتان من فضة آيتهما وما فيهما » .. إلخ ، ثم أخبر أن رؤيتهم لربهم قريبة ، ليس دونها إلا رفع الحجاب ، فهم يرونه في جنة عدن من فوقهم ، يوضحه الحديث المتقدم : « إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن » ، ومن أجل ذلك أورده البخارى رحمه الله في هذا الباب مستدلا به على رؤية الله تعالى كما هو واضح وصريح في ذلك .

٧٢ — قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الملك بن أعين ، وجامع بن شداد ، عن أبى وائل ، عن عبد الله — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتطع مال امرىء مسلم يمين كاذبة لقى الله وهو عليه غضبان » .

قال عبد الله : ثم قرأ رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمِنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

قوله : « من اقتطع مال امرىء مسلم يمين كاذبة » « مَنْ » من أدوات العموم ، والأغلب أن تكون لخطاب من يعقل .
و « مال » نكرة ، أضيفت إلى نكرة موصوفة بالإسلام ، فشملت كل مسلم ، وكل ما يسمى مالا ، قليلا كان أو كثيرا .

روى الطبرانى من حديث جابر بن عتيك ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من اقتطع مال امرىء مسلم يمينه حرم الله عليه الجنة ، وأوجب له النار » ، قالوا يا رسول الله : وإن شئ يسير ؟ قال : « وإن كان سواكا » (٢) .

ورواه الحاكم ، ولفظه : « من اقتطع مال امرىء مسلم يمينه حرم الله عليه الجنة وأدخله النار ، قالوا : يا رسول الله وإن كان شيئا يسيرا ؟ قال : « وإن كان سواكا ، وإن كان سواكا » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة (٣) وقال الذهبى : صحيح .

(١) الآية ٧٧ من سورة آل عمران .

(٢) معجم الطبرانى الكبير ج ٢ ص ٢١٠ .

(٣) المستدرک ج ٤ ص ٢٩٥ .

« اقتطع » من القطع لأنه قطعه عن صاحبه ، أو أخذ قطعة من ماله بالحلف الكاذب .

قوله : « لقي الله وهو عليه غضبان » هذا محل الشاهد من الحديث الذى أورده من أجله ، وتقدم أن اللقاء يتضمن النظر والمعينة ، وأن السلف استدلوا بلفظ اللقاء على الرؤية .

قال الحافظ : « فى حديث وائل بن حجر عند مسلم : « لقي الله وهو عنه معرض » .

وفى روايه كردوس ، عن الأشعث ، عند أبى داود : « لقي الله ، وهو أجذم » قال : وفى حديث أبى أمامة عند مسلم ، والنسائى نحو ما فى هذا الحديث : « فقد أوجب الله له النار ، وحرّم عليه الجنة » ، وفى حديث عمران ، عند أبى داود « فليتبوأ مقعده من النار »^(١) .

وهذا وعيد شديد جدا لمن يفعل ذلك ، فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من أموال المسلمين بأى وسيلة كانت ، فإن ذلك من أسباب سخط الله تعالى .

قوله : « مصداقه من كتاب الله جل ذكره » إلى آخره ، أى الذى يصدق هذا الحديث ويوافقه .

قال ابن كثير : « يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدهم عليه من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة ، بالأثمان القليلة الزهيدة — وهى عروض الدنيا الزائلة : ﴿ أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها ، ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ برحمة منه لهم —

(١) الفتح ج ١١ ص ٥٥٩ .

بمعنى : لا يكلمهم كلام لطف بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أى من الذنوب ، والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(١) مؤلم شديد الألم .

قال الحافظ : « يؤخذ من الآية تفسير قوله : « لقي الله وهو عليه غضبان » ، ومقتضاه : أن الغضب سبب لمنع الكلام ، والرؤية ، والرضا سبب لوجودهما ^(٢) .

وفيه وصف الله — تعالى — بالغضب ، وأنه يغضب على بعض عباده بسبب ذنوبهم ، وفيه أن الغضب غير العقاب ، وإذا كان يغضب فهو تعالى يرضى ، والأدلة على ذلك كثيرة .

٧٣ — قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أُعطي وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ، ليقطع بها مال امرئ مسلم ، ورجل منع فضل ماء ، فيقول الله — تعالى — يوم القيامة : اليوم أمنعك فضلى ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله » أى ثلاثة من أجناس الناس ، يعم الذكور والإناث ، والأحرار والعبيد .

وعدم تكليم الله لهم يوم القيامة دليل على غضبه عليهم ، ومقتضاه : أنهم

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١ ط الشعب .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٣٣ .

يذهب بهم إلى النار بدون سؤال ومحاسبة ، لأنهم قد تناهى جرمهم في القبح ، فاستحقوا أليم العذاب ، مع الإعراض عنهم ، وإهانتهم من أول الأمر ، فيكون هذا الحديث مخصصا لحديث عدى السابق ، وهو قوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

وقوله : « ولا ينظر إليهم » نظر الله — تعالى — إلى العبد يقتضى الرحمة ، وهؤلاء فعلوا أفعالا مقتهم الله عليها ، فأعرض عنهم ، ومن أعرض الله عنه فهو هالك ، الهلاك الأكبر .

والمقصود بالنظر المنفى هنا ، نظر خاص يتضمن الإحسان والرحمة ، ويفهم منه نظر العبد إلى الله — تعالى — لأن الله — تعالى — لا يحجب بصره شيء أبدا ، في أى وقت كان .

وهذا القدر من الحديث : أعنى قوله : « لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة » هو محل الشاهد لما مر ، ولأن الكلام والنظر المقيد بيوم القيامة يدل على اللقاء ، واللقاء يتضمن المعاينة .

ثم ذكر أفعالهم التى استحقوا عليها هذا الوعيد الشديد ، وهى ثلاثة أنواع : أحدها : الحلف على السلعة التى يريد بيعها ، أنه أعطى بها أكثر مما يريد المشتري أن يأخذها به ، وهو كاذب فى حلفه ، وذلك لأنه اشترى بيمينه ثمنا قليلا بخسا ، مما يدل على رغبته فى الدنيا وزهده فى الآخرة ، واليمين دين يتعبد الله به ، فمن خاف الله فى يمينه ، فلم يكذب فهو من المتقين فى ذلك . ومن بذل يمينه بعرض من الدنيا ، فهو فاجر يستحق العقوبة ، مستخف بحرمات الله .

والسلعة هى كل بضاعة عرضت للبيع .

والنوع الثانى — وهو أخص من الذى قبله — وهو الحلف على يمين كاذبة

بعد العصر ، ليققطع بها مال امرئ مسلم ، وهذا يكون عند من يحكم بين الحالف والمخلف له ، وهو الحاكم ، لأن المخلف له يلزم بأن هذا المال للحالف بمقتضى يمينه ، وهذا هو معنى الاقتطاع .

وخص المسلم لأن ماله أشد حرمة ، وحقه على أخيه المسلم أعظم ، وإلا فمال الكافر غير المحارب لا يجوز أخذه إلا بحق .

وخص وقت بعد العصر لفضله ، ولأنه آخر النهار الذى أثنى الله على المسبحين فيه لقرب نهاية النهار وختم عمله ، وقرب الليل الذى فيه النوم المذكور بالمصير إلى الله تعالى وهو وقت أصوات الداعين لله والمسبحين .

وهذه اليمين هى الغموس سميت بذلك لأنها تغمس صاحبها فى الإثم فلا يخرج منه إلا أن يشاء الله — تعالى — فإنه يخرج الحى من الميت .

النوع الثالث : منع فضل الماء الذى زاد عن حاجته ، ويحتاج إليه سالك الطريق وذلك لأن الماء يتجدد بدله كلما أخذ منه ، ولا يضر بدله ، فمانعه لا يكون إلا لئىما خبيث النفس ، يقصد الأذى ، وليس لديه رحمة للخلق ، ولا رغبة فى الخير .

وفهم من قوله : « فضل ماء » أن ما يحتاجه لشربه هو ومن يلزمه إعاشته لا يلزمه بدله .

ولكون الماء يتجدد بما أخذ منه ، ولا صنع للإنسان فيه كالطعام مثلا واللباس الذى يحتاج معالجة وعملا ، لأجل ذلك يقول الله — تعالى — يوم القيامة :

« اليوم أمتعك فضلى ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

ومن منع فضل الله فهو الخاسر الخسران الأبدى .

وقوله : « يقول الله » إلى آخره لا يعارض أول الحديث أن هؤلاء

لا يكلمهم الله ، لأنه لا يلزم أن يكون هذا القول مواجهاً به صاحب هذا العمل فقد يكون للملائكة الذين يتولون عذابه ، أو غير ذلك والله أعلم .

٧٤ — قال : « حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا أيوب ، عن محمد ، عن ابن أبي بكرة ، عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ قال : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان . أى شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس البلدة ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فأى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم » — قال محمد : وأحسبه قال : « وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا ، يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا ليلغ الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه » .

فكان محمد إذا ذكره ، قال : صدق النبي ﷺ ثم قال : « ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت » .

هذا الحديث قاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته العظيمة يوم النحر ، في حجة الوداع وفي هذا الحديث بين وجوب الاجتماع على الحق ، والاعتصام بكتاب الله ، وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظم حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ووجوب سلوك طريقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان أن الله — تعالى — أتم عليهم نعمته بنبيه وأخذهم بما جاء به .

وحذرهم من ترك هذا الهدى والرجوع إلى الضلال وكفر النعمة والفرقة الداعية إلى التصادم والقتال ، فإن ذلك من الكفر .

وبين أن الزمان قد عاد كما خلقه الله ، بعد تبديل المشركين الشهور المحرمة بالتقديم والتأخير حسب أهوائهم ، حتى يستحلوا القتال في الأشهر الحرم .

وفيه بيان تأكد حرمة الأشهر الحرم التي حرّمها الله يوم خلق السماوات والأرض ، وحرمة مكة ، وأن هذا التحريم مستمر إلى يوم القيامة لا يستحله إلا من جانب طريق الرسل . وأحل شعائر الله والشهر الحرام والبلد الحرام وذلك من العظام .

قوله : « الزمان قد استدار ، كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » كان المشركون لا يستحلون القتال في الأشهر الحرم ، ولما كان منها ثلاثة متواليات ، طالبت عليهم فتحيلوا على تأخير الحرم وتقديم صفر مكانه ، فيحلون الحرم عاما ويحرمون صفر بدله ويحرمونه عاما فيجعلون الحرم هو صفر في هذا العام مثلا ، وفي العام الآخر يبقون الحرم وصفر على ما هما عليه ، يفعلون ذلك تحيلا على استحلال القتال ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَلتَّسِيءُ زِيَادَةً فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ .

فيستحلون القتال في الشهر الحرام ، ويسمونهم بغير اسمه ، ويحرمونه في

الشهر الحلال ويسمونه محرما ، ليتفق ذلك مع عدة ما حرم الله — تعالى — من الأشهر ، لأن توالى ثلاثة شهور محرمة يطول عليهم ، ففعلوا ذلك لأجل قتال أعدائهم ، ولغير ذلك من أغراضهم .

وفي السنة التي حج فيها النبي ﷺ اتفق أن الأشهر الثلاثة كلها محرمة ، لأنها السنة التي كانوا يحرمون القتال في محرم على ما هو عليه ، ولهذا قال ﷺ : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » أى رجع تحريم الأشهر الحرم في حساب المشركين وعملهم متفقا مع حكم الله وشرعه ، فقد جعل الله السنة اثني عشر شهرا منها أربعة حرم ، يحرم القتال فيها ، والظلم فيها أعظم منه في غيرها .

قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس ، « كان جنادة بن عوف بن أمية الكنانى ، يوافق الموسم في كل عام ، وكان يُكْنَى أبا ثمامة ، فينادى : ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا إن محرم العام الأول هذا العام حلال ، فيحله الناس ، فيحرم صفر عاما ويحرم المحرم عاما .

قال شاعرهم . وهو عمير بن قيس الذى يقال له : جذل الطعان : يفتخر بذلك :

لقد علمت معدُّ بأن قومي كرام الناس إن لهم كراما
ألَسنا الناسِين على معد شهور الحل نجعلها حراما
فأى الناس لم ندرك بوتر وأى الناس لم نعلك لجاما
وقوله : « ورجب مضر » إضافة إليهم لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه
وحرمة القتال فيه ، أكثر من غيرهم ، وكان بعض العرب يعمل فيه ما يعملونه
في محرم حسب حاجتهم إلى القتال .

وقوله : « الذى بين جُمَادَى وشعبان » تأكيد لتعريفه ونص عليه .

والمراد بالزمان فى قوله : « إن الزمان قد استدار » السنة .

قال الخطابي : « كانوا يخالفون بين أشهر السنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير ، لأسباب تعرض لهم .

منها استعجال الحرب ، فيستحلون الشهر الحرام ، ثم يحرمون بدله شهرا غيره ، فتتحول بذلك شهور السنة وتبديل ، فإذا أتى على ذلك عدة من السنين استدار الزمان ، وعاد الأمر إلى أصله ، فاتفق وقوع حجة النبي ﷺ عند ذلك»^(١) .

فعلى هذا يكون المراد بالزمان مطلقه .

قوله : « أى شهر هذا ؟ » إلى قوله : « أليس يوم النحر ؟ » لما كان متقرا عندهم حرمة ذى الحجة وحرمة البلد الحرام ، وحرمة يوم النحر ، أراد ﷺ أن يؤكد تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بالتمثيل البالغ فى الحرمة منهاها .

وفيه تعظيم شأن الدماء والأموال والأعراض وشدة حرمتها ، حيث قال : « فإن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » ، فهذا غاية ما يمثل به شدة حرمة الشيء وتعظيمه .

وقد صح أن أول ما يبدأ به فى المُقاصَّة بين الناس يوم القيامة الدماء .

قوله : « وستلقون ربكم فىسألکم عن أعمالکم » هذا هو المقصود من الحديث ، لأنه ظاهر فى مواجهتهم لله — تعالى — ومخاطبته لهم ، فيدل على أنهم يرونه كما تقدم أن اللقى يتضمن المعاينة والرؤية .

وهذه الجملة تأكيد لما سبق من ذكر حرمة الدماء ، وما عطف عليها ، إذ المعنى : إذا تأكد لديكم شدة حرمة ذلك ، فاحذروا أن تقعوا فيه فإنكم

(١) انظر فتح البارى ج ٨ ص ٣٢٥ .

سوف تلاقون ربكم ، فيسألکم عن أعمالکم ، وهو أعلم بها منكم .
والسؤال يتضمن الجزاء .

وقوله : « فلا ترجعوا بعدى ضلالا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » أى
إياكم أن تعرضوا عما تركتكم عليه ، وحضضتكم عليه ، وهو التمسك بكتاب
ربكم وسنة نبيكم ، فإنه الصراط المستقيم ، الذى يوصلكم إلى الجنة والسعادة
فى الدنيا والآخرة ، فإنكم إن ملتم عن ذلكم ضللتكم الطريق السوى وارتكبتم
أعظم ما حذرتكم منه ، وهو الوقوع فى الدماء فيصبح بعضكم يضرب رقاب
بعض ، وهذا هو الضلال .

قوله : « ألا ليلغ الشاهد الغائب » هذا من الواجب الذى لا يجوز الإخلال
به أو التساهل ، لأن الأمة لا تصلح إلا بمعرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم والعمل به ،
كما قال الإمام مالك : « إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها » .
ولما جهلت الأمة طريق الرسول كثر الضلال فيها ، والتخبط فى ظلمات
الجهل والخرافة ، فظهرت فيها الرافضة والصوفية ، والباطنية ، والملاحدة
والزنادقة وكل منهم يدعى أن الحق معه لا يعدوه ، ومن خالفه فهو ضال أو
كافر حلال الدم والمال ، وغالب ذلك بسبب الجهل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم
وإن كان رؤساء هذه الطرق بالغالب ملاحدة يتسترون بالإسلام ، هدفهم
هدمه من أساسه ، ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ .

قوله : « فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه » .
الوعى : هو الفهم والمعرفة ثم الامتثال ، والمراد تبليغ أقواله صلى الله عليه وسلم المتضمنة
لأحكام الدين الذى جاء به .

وقوله : « فلعل » مشعر بقلة ذلك ، ولهذا جاء فى رواية بدل « فلعل »
« رَبِّ » المفيدة للتقليل .

قال الحافظ : « فيه الحث على تبليغ العلم ، وجواز التحمل قبل كمال الأهلية ، وأن الفهم ليس شرطاً في الأداء ، وأنه يأتي في الآخر من يكون أفهم من بعض من تقدم ولكن بقلة »^(١) .

هذه النصوص التي ذكرها المؤلف - رحمه الله - كلها دلت على أن الله - تعالى - يُرى في الآخرة ، دلالة متنوعة .

منها ما هو نص جلي لا يحتمل أى تأويل مثل قوله ﷺ : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر » .

وقوله : « إنكم سترون ربكم عياناً » .

وقوله جواباً لسؤالهم : « هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ » فقال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا ؟ قالوا : لا . قال : « فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ ، إلا كما تضارون في رؤيتهما » .

وقوله : « فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون .

فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه » .

وقوله في حديث الشفاعة : « فاستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي ، فإذا رأيته وقعت ساجداً » ، كرر ذلك مراراً ، كل هذه الألفاظ صريحة في الرؤية ، غير قابلة لتأويل وصرف عن ظاهرها .

فلا عذر لمن خالفها ، ولا حجة له ، إلا اتباع الهوى ، والتقليد الأعمى أو التعصب ، أو الضلال البعيد ، أو الكفر والجحود .

فقد وضح مراد النبي ﷺ من هذه الأحاديث لكل عاقل ، عارف باللغة ،

(١) الفتح ج ١ ص ١٥٩ .

لا يستريب في ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعاني ؛ أن مراده بهذه الألفاظ المذكورة رؤيتهم إياه بأبصارهم ، وليس في الممكن أوضح من هذه العبارات .

وهناك نصوص كثيرة غير ما ذكره هنا دالة على رؤية الله — تعالى — في الآخرة دلالة ظاهرة ، استقصاها كثير ممن ألف في هذا الموضوع .

قال ابن القيم : « اتفق [على أن الله يُرى في الآخرة] الأنبياء ، والمرسلون وجميع الصحابة ، والتابعون ، وأئمة الإسلام ، على تتابع القرون .

وأنكرها أهل البدع المارقون ، والجهمية المتهاونون ، والفرعونية المعطلون ، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون ، والرافضة الذين هم بجائِل الشيطان متمسكون ، ومن حبل الله منقطعون ، وعلى مَسْبِيَةِ أصحاب رسول الله عاكفون ، وللسنة وأهلها محاربون ، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون .

وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مطرودون ، أولئك أحزاب الضلال ، وشيعة اللعين ، وأعداء الرسول وحزبه »^(١) .

وقال شيخ الإسلام : « والذي يجب على كل مسلم اعتقاده : هو أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة ، في عرصة القيامة^(٢) وبعد ما يدخلون الجنة ، على ما تواترت به الأحاديث ، عن النبي ﷺ عند العلماء بالحديث ، فإنه أخبر أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر ، والشمس عند الظهرية ، لا نُضَام في رؤيته »^(٣) .

(١) حادى الأرواح ص ٢١٢ .

(٢) عرصة القيامة ، أو عرصاتنا : هي مواقفها التي يقف الناس فيها مجتمعين .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٤٨٥ .

واعلم أن الذين أنكروا رؤية الله — تعالى — اعتمدوا على شبه سموها براهين عقلية ، وتعلقوا ببعض الآيات والأخبار ، وهى فى الحقيقة مبطله لقولهم .

ومن أعظم الفرق إنكارا لرؤية الله — تعالى — بالأبصار المعتزلة ، وبنوا إنكارهم لها على التشبيه المستكن فى نفوسهم ، لأنهم بنوا علمهم على الجدل . الذى أصله القياس المبنى على تشبيه الغائب بالمشاهد .

فإذا نظرت فيما ذكروه وجدت ذلك واضحا فى استدلالهم وتعليقاتهم إلى جانب التعصب للآراء .

قال عبد الجبار : « قال أهل العدل بأسرهم ، والزيدية ، والخوارج وأكثر المرجئة : لا يجوز أن يرى الله — تعالى — بالبصر ، ولا يدرك به على وجه ، لا لحجاب ومانع ، لكن لأن ذلك يستحيل »^(١) .

١ — ثم استدل « بأن الرؤية لا تصح إلا بحاسة البصر ، والله لا يجوز أن يوصف بأن له حواس »^(٢) فالله عنده لا يرى ولا يرى — تعالى الله عن ذلك — .

٢ — « ولأن البصر لا يصح أن يرى إلا ما كان مقابلا ، أو فى حكم المقابل ، وهذا لا يكون إلا للجسم ذى الألوان ، وهو محال على الله »^(٣) .

٣ — « ما يصح أن يرى ، لا يجوز أن يختص بصحة رؤيته بعض الرائيين دون بعض ، كما أن ما يصح أن يعلم لا يجوز أن يختص بالعلم به بعض الأحياء دون بعض »^(٤) .

(١) المغنى للقاضى عبد الجبار المعتزلى ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) المصدر المذكور ص ٣٦ .

(٣) المصدر المذكور ص ١٤٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٨٩ .

٤ — « ولأن الموانع من الرؤية لا تختص بشيء تصح رؤيته دون شيء وهي القرب المفرط ، والبعد المفرط ، والحجاب ، واللطافة ، والرقعة ، وأن يكون المرئى في غير جهة محاذاة الرأى ، أو يكون حالا فيما هذا سبيله ، فإذا زالت هذه الموانع ، وجب أن يرى ما صحت رؤيته »^(١) والحجاب عندهم مستحيل على الله كما تقدم .

فهذه جملة من أدلة هذه الفرقة ، التي يسمونها براهين ، إذا تأملها العاقل وجدها مبنية على قياس رب العالمين على المخلوق ، وتحكيم الآراء ، ولهذا ذهب هبة الله وعظمته من قلوبهم ، واستخفوا بكتابه فاجتهدوا في تحريف معانيه وصرفه عما قصد به .

والمقصود ذكر بعض أدلتهم العقلية — كما يقولون — وهي في الحقيقة شبه داحضة ، وضلالات بينة لمن عرف الحق .

وهم لا يقبلون أحاديث رسول الله ﷺ وإن كانت أسانيدھا في غاية الصحة والجودة ، ويقبلون قول فلان وفلان ، لأنهم يزعمون أن ذلك براهين عقلية .

فقوله : « إن الله لا يرى بالبصر ، لا لحجاب يحجبه ، أو مانع يمنع رؤيته لكن لأن رؤيته مستحيلة » فيقال له : هذا مجرد دعوى غير مقبولة وهو في مقابلة قول الله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وقوله في المعذبين : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وفسر رسول الله ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم كما في صحيح مسلم وهو أيضا مصادم لقول

(١) المصدر المذكور ص ١١٦ .

رسول الله ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته » كما سبق .

فأيهما أحق بالاتباع ، قول طائفة الاعتزال ، عباد الآراء والأهواء أم قول الله ورسوله ، إن المقارنة بين هذا وهذا غير سائغة ولا مقبولة ، لولا أن المسلمين قد بلوا بمن يعظم آراء المعتزلة ويرى لها وزنا .

وكل ما أشرنا إليه عن المعتزلة هو في مقابلة النصوص الصحيحة الصريحة ، فلا يسوغ لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر الاعتداد بها ، أو جعلها أدلة على أمر قد بان ووضح غاية الوضوح من كتاب الله وسنة رسوله .

« وقد ثبت اتفاق سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، وثبت في النصوص المتواترة عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته » .

وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب ، وكما ترون القمر صحواً ليس دونه سحاب »^(١) .

وقولهم : « إن ما يرى يجب أن يكون مقابلاً للرأى ، وأن يكون متحيزاً في جهة ، ولا يكون ذلك إلا للجسم ، والله يتعالى عن ذلك — لأن هذا صفة المحدث .

وهذا شيء لازم للرؤية ، ولهذا سخر المعتزلة وغيرهم ، من الأشعرية لما قالوا : إن الله يرى لا من جهة ، لأن هذه رؤية غير معقولة ؛ لإثباتهم الرؤية ونفيهم الجهة .

وأهل السنة يقولون : لا مانع من كون المرئى الذى هو رب العالمين —

(١) نقض التأسيس ج ٢ ص ٤٠٦ .

جل وعلا — فى مقابلة الرائين من عباده المؤمنين ، فهم يرونه من فوقهم ، كما صرحت به النصوص ، ولا محذور فيه .

وأما اللوازم الباطلة ، التى يدعيها المعتزلة وغيرهم ، فهى منتفية عن الله — تعالى — .

ونحن نستفسر منهم : ما هو مرادكم بكونه مقابلا للرأى ؟ هل تريدون أنه لا بد له من مكان يحويه ويحيط به ؟ فإن كان هذا ما أردتم فالله — تعالى — له مكان هو فوق عرشه ، ولا يحيط به شىء ، ولا يحويه شىء — جل وعلا — وهو أكبر من كل شىء وأعظم ، فهو — تعالى — يطوى السماوات كلها بيمينه ، ويقبض الأرض كلها بيده الأخرى ، وتكون كالخردلة فى يد أحدنا — والله المثل الأعلى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) .

وأما التحيز ، فإن أردتم أن الله مختلط بخلقه لئلا يلزم أن يكون متحيزًا ، فنحن نكفر بقولكم هذا ، ونتيقن أنه باطل ، والنصوص من الشرع ترده ، وكذلك العقل يرده .

وإن أردتم أن الله لا حقيقة له تميزه عن خلقه فكذلك هذا كفر وضلال .

وإن أردتم أن الله — تعالى — متميز من خلقه ، وأنه بائن منه فهذا حق والنصوص فيه أكثر من أن تحصي ، وهو ما يعتقدده المسلمون ويؤمنون به ، واتفق عليه سلف هذه الأمة ، وأئمتها قبل ظهور المعتزلة والفرق الضالة ، ومثل ذلك يقال فى الجهة .

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

وتقدم من أدلة الكتاب والسنة ، والعقل ، وإجماع أهل الحق وأدلة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، على أن الله في السماء مستوي على عرشه ، عال على خلقه ما يكفى عن ذكر شيء من ذلك هنا .

قال شيخ الإسلام — رحمه الله تعالى — : « كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله في جهة من الرأى أمر ثبت بالنصوص المتواترة ، كما في قوله : « هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها سحب ولا قتر ؟ »

قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك » . وذكر الحديث بطوله .

قال أبو سعيد : أشهد لحفظته من رسول الله ﷺ .

فهذا فيه مع إخباره أنهم يرونه ، إخبارهم أنه يرونه في جهة منهم من وجوه : أحدها : أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون في جهة منهم ، فأما رؤية ما ليس في جهة فلم يكونوا يتصورونه — فضلا عن أن يكون اللفظ دالا عليه ، بل لا يتصور أحد من الناس وجود موجود في غير جهة .

الثاني : أنه قال : « فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحواً ، وكما ترون القمر صحواً » فشبّه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر ، وهما يريان من جهة . الثالث : أنه قال : « هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحب وهل تضارون في رؤية القمر ليس دونه سحب » .

فشبّه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرأى ، يحول بينه وبين المرئى .

وفي لفظ في الصحيح : « إنكم ترون ربكم عيانا »^(١) .

(١) نقض التأسيس ج ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٥ ملخصا .

« فقد أخبرنا أنا نراه ، وأخبرنا أيضا أنه قد استوى على العرش ، فهذه النصوص يصدق بعضها بعضا ، والعقل أيضا يوافقها ، ويدل على أنه سبحانه مبين لمخلوقاته ، وأنه فوق سماواته ، وأن وجود موجود لا مبين للعالم ، ولا مداخل له ، محال في بديهة العقل .

فإذا كانت رؤيته تعالى مستلزمة هذه المعاني التي شنعتم بها — فهي حق ، وإذا سميتم أنتم هذا قولاً بالجهة والتجسيم ، لم تكن هذه التسمية نافية لما علم بالشرع والعقل .

ثم يقال : ما تعنون بقولكم : إن هذا إثبات للجهة ، والجهة ممنعة على الله ؟ أتعنون بالجهة أمراً وجودياً ، أو أمراً عدمياً ؟ فإن أردتم الأول ، فقد علم أنه ليس هناك موجود إلا الخالق والمخلوق ، والله تعالى فوق مخلوقاته ، بائن منها .

وعليه فليس الله تعالى في جهة موجودة .

وقولكم : إن المرئى لا بد أن يكون في جهة موجودة ، باطل ، فإن سطح العالم مرئى ، وليس هو في عالم آخر .

وإن فسرتم الجهة بأمر عدمى — كما تقولون — : « إن الجسم في حيز ، والحيز تقدير مكان ، وتجعلون ما وراء العالم حيزاً » .

فيقال : الجهة والحيز إذا كانا أمراً عدمياً فهو ليس شيئاً ، وما كان في جهة عدمية ، أو في حيز عدمى فليس هو في شيء .

ولا فرق بين قول القائل : هذا ليس في شيء ، وبين قوله : هو في العدم ، أو أمر عدمى .

فإذا كان الخالق — تعالى — مبيناً للمخلوقات عالياً عليها ، وما ثم موجود إلا الخالق ، أو المخلوق ، لم يكن معه غيره من الموجودات — فضلاً عن أن

يكون هو سبحانه في شيء موجود يحصره ويحيط به»^(١) .

« وقوله ﷺ « هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب وهل تضارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب » تشبيه لرؤيتهم لرؤيتهم برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن بينهم وبينها حجاب منفصل عنهم يحول بينهم وبين المرئى . ومن يقول : إنه يرى في غير جهة يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل ، إذ الحجاب لا يكون إلا للجسم ، ولما يكون في جهة . والحجاب عندهم عدم خلق الإدراك في العين كما تقدم .

الرابع : أنه أخبر أنهم لا يضارون في رؤيته ، وفي رواية « لا يضامون » ، ونفى الضير ، والضم إنما يكون لما يمكن لحوقه للرأى ومعلوم أن رؤية ما ليس بجهة من الرأى ، لا فوقه ، ولا في شيء من جهاته — لا يتصور فيها ضير ، ولا ضم حتى ينفى ذلك .

وقد روى ابن ماجه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم — فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، قال : وذلك قول الله — تعالى — ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ .

قال فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته في ديارهم»^(٢) وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند ، فإن الأدلة الصحيحة تؤيده .

الخامس : أن كون الله — تعالى — يرى بجهة من الرأى ثبت بإجماع السلف . ونصوصهم في ذلك مشهورة .

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ١ ص ١٥٣ — ٢٥٤ ببعض التصرف .

(٢) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ رقم ١٨٤ .

« فسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن الله يرى في الآخرة عيانا كما نرى الشمس والقمر ، وأنه لا يلزم من تعذر رؤية الشيء في حالٍ تعذرُها في حالٍ أخرى ، بل قد يرى الشيء في حال دون حال ، كما أن الأنبياء يرون ما لا يراه غيرهم »^(١) .

السادس : « أن كل موجود قائم بنفسه فلا بد أن يكون في جهة ، والله تعالى هو الحق ، وهو فوق خلقه ، عال عليهم »^(٢) .

وأما ما تعلقوا به من مثل قوله : ﴿ لَنْ تَرِنِي ﴾ وقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ونحو ذلك ، فكله يدل على عكس ما قالوا .

والإدراك المنفى هو الإحاطة ، وليست الرؤية ، كما بين ذلك حبر الأمة ابن عباس ، ومثل ذلك بالسماء ، والشمس حيث قال للسائل : « ألسنت ترى السماء ؟ قال : بلى . فقال : أكلها ترى ؟ قال : لا . قال : فالله أعظم .

وما يذكر عنه أنه فسر الآية بنفى الرؤية كذب عليه .

وقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّآ لَمُدْرِكُونَ ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ^(٣) .

فأثبت الرؤية ونفى الإدراك ، فدل ذلك على أن الإدراك غير الرؤية . وبهذا أجاب العلماء عن استدلالهم بهذه الآية .

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٥ ص ١٣٢ .

(٢) نقض التأسيس ج ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٥ ملخصا .

(٣) الآياتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء .

قال : « باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

الرحمة المضافة إلى الله — تعالى — تكون صفة له ذاتية كقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٤) . ونحو ذلك وهو كثير .

وتكون مفعولا له مخلوقا ، وهي من أثر صفة الرحمة الذاتية ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾^(٥) وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُفْسِقٌ كَافِرٌ ﴾^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾^(٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾^(٨) وهو أيضا كثير .

-
- (١) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .
 - (٢) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام .
 - (٣) الآية ١٤٧ من سورة الأنعام .
 - (٤) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .
 - (٥) الآية ٢١ من سورة يونس .
 - (٦) الآية ٩ من سورة هود .
 - (٧) الآية ٤٨ من سورة الفرقان .
 - (٨) الآية ٦٣ من سورة النمل .

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : « خلق الله مائة رحمة ، فوضع واحدة بين خلقه ، وخبأ عنده مائة إلا واحدة »^(١) .

ومثله ما يأتي من قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء » .

ومراده « بيان أن الرحمة تطلق على المخلوق ، فتكون مخلوقة لله مفعولاً له ، وذلك من آثار رحمته التي هي صفة تعالى كما في قوله ﷺ جواباً لسعد بن عباد ، لما قال له : ما هذا ؟ قال : « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

ولكن أشار إلى هذا اللفظ كعادته بذكره غير الصريح ، والاكتفاء بالتلويح . وفي الآية التي ترجم بها إشارة إلى مراده ، فكأنه لحظ أن الرحمة فيها الجنة ، وهي قريب من المحسنين ، كما في الحديث الجنة أقرب إلى أحدكم من شريك نعله ، والنار مثل ذلك — يعني من المسيئين .

وبذلك تظهر المناسبة بين الآية المترجم بها وأحاديث الباب والله أعلم .
وقال الحافظ : « المراد أنه يدخل من أحسن الجنة التي وعد المتقين برحمته وقد قال للجنة أنت رحمتي ، وقال : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة والعلم عند الله »^(٢) .

وليس هذا من التأويل المذموم ، لأنه من المعنى الذي دلت عليه الآية ضمناً ، وإلا فمنطوقها دال على صفة الرحمة الموصوف بها رب العالمين جل وعلا .

ومما يبين ذلك أن هذه الآية جاءت عقب الأمر بالدعاء تضرعاً وخفية

(١) رواه مسلم انظر ج ١٧ ص ٦٩ بشرح النووي .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٣٧ .

والنهي عن الاعتداء والإفساد في الأرض بالمعاصي ، ثم أمر تعالى بدعائه خوفا وطمعا ، وهذه حال المتقين ، الذين أحسنوا في أعمالهم ، وأحسنوا إلى عباد الله بالنصح لهم ، وإصلاح الأرض بالطاعة والبعد عن مساخط الله التي هي الإفساد في البلاد والعباد ، وهؤلاء هم المحسنون الذين قريبة منهم رحمة الله تعالى ومنها الجنة .

قال ابن جرير : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يقول جل ذكره : إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا قريب منهم ، وذلك هو رحمته لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعد لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم .

ولذلك ذكّر قوله : « قَرِيبٌ » وهو خير عن الرحمة ، والرحمة مؤنثة ، لأنه أريد به القرب في الوقت ^(١) .

وقال ابن كثير : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . أى إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال : « قريب » ولم يقل قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب ، أو لأنها مضافة إلى الله .

وقال مطر الوراق : « استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين » رواه ابن أبي حاتم ^(٣) .

(١) تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٤٨٨ ط المعارف .

(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢ .

٧٥ — قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عاصم ، عن أبي عثمان ، عن أسامة ، قال : كان ابن لبعض بنات النبي ﷺ يقضى ، فأرسلت إليه أن يأتيها ، فأرسل : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل إلى أجل مسمى ، فلتصبر ، ولتحتسب » ، فأرسلت إليه فأقسمت عليه ، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وعبادة بن الصامت ، فلما دخلنا ناولوا رسول الله ﷺ الصبي ، ونفسه تقلقل في صدره حسبته قال : كأنها شنة ، فبكى رسول الله ﷺ فقال سعد بن عبادة : أتبكي ؟ فقال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

تقدم هذا الحديث في باب قول الله — تعالى — : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ .

وتقدم شرحه هناك ، والشاهد منه قوله : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » أى الذين جعل الله في قلوبهم الرحمة ، التى يرحمون بها عباد الله فرحمة الله منهم قريب .

وسبق أن اللفظ الذى تقدم في الباب المشار إليه أوضح وأظهر في الدلالة على مقصوده هنا ، ولكنه عدل عنه كعادته إيثاراً للإشارة على التصريح في العبارة ، حتى يروض ذهن القارئ على التفطن والاستنباط ، ولأن عادته أيضا إذا أعاد الحديث فلا بد أن يختاره بألفاظ غير لفظه المتقدم ما وجد إلى ذلك سبيلا في المتن وفي رجال السند ، أو على الأقل في أحدهما .

هنا السند أكثرهم غير من تقدم ، والمتن فيه تغاير عما سبق .

٧٦ — قال : « حدثنا عبيد الله بن سعد بن إبراهيم ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن صالح بن كيسان ، عن الأعرج ، عن أبى

هريرة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « اختصمت الجنة والنار إلى ربهما ، فقالت الجنة : يا رب . ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار : يعنى أوثرت بالمتكبرين ؟

فقال الله — تعالى — للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار ، أنت عذابي أصيب بك من أشياء ، ولكل واحدة منكما ملؤها .

قال : فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ثلاثا حتى يضع فيها قدمه ، فتمتلىء ، ويردُّ بعضها إلى بعض ، وتقول : قَطُّ قَطُّ . « .

الاختصاص : هو التنازع بين فريقين ، يذكر كل واحد منهما حجته أمام من يحكم بينهما .

وتقدم هذا الحديث في التفسير بلفظ تحاجت الجنة والنار .

وفي صحيح مسلم : « احتجت » ، والمعنى واحد .

قال المهلب : « يجوز أن يكون هذا الخصام حقيقة ، بأن يخلق الله فيهما فهما ، وكلاما ، والله قادر على كل شيء ، ويجوز أن يكون هذا مجازا ، كقولهم : « امتلأ الحوض ، وقال قطنى » ، والحوض لا يتكلم وإنما ذلك عبارة عن امتلائه »^(١) .

قلت : الأول هو المعتمد ، وتقدم الكلام فيه والاستدلال له في شرح حديث أنس : « لا يزال يلقي في النار ، وتقول : هل من مزيد » .

(١) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٣٦ .

وقال النووي : « هذا الحديث على ظاهره ، وأن الله — تعالى — يجعل في النار والجنة تمييزا تدركان له ، فتحاجتا ، ولا يلزم من هذا أن يكون ذلك التمييز دائما »^(١) .

قال الحافظ : « وحاصل اختصاصهما : افتخار أحدهما على الأخرى بمن يسكنها ، فتظن النار أنها بمن ألقى فيها من عظماء الدنيا أبر عند الله من الجنة .

وتظن الجنة أنها بمن أسكنها من أولياء الله — تعالى — أبر عند الله .

فأجيبنا : بأنه لا فضل لإحدهما على الأخرى من طريق من يسكنها ، وفي كلامهما شائبة شكاية إلى ربهما إذ لم تذكر كل واحدة منهما إلا ما اختصت به ، وقد رد الله الأمر في ذلك إلى مشيئته »^(٢) .

قلت : الظاهر أن افتخار النار على الجنة بأنها محل انتقام الله — تعالى — من الطغاة والجرمين الذين عصوا الله وكذبوا رسله ، وسخروا منهم وبارزوا الله بالجرائم والآثام .

وغالب هذا النوع من قادة الناس ورؤسائهم وأغنيائهم ، وأهل السيادة والقيادة فيهم ، وأهل التجبر والتكبر .

وأما الجنة فإنها اشتكت لكون من يدخلها الضعفاء والفقراء وأهل المسكنة غالبا ، ولهذا قالت : « مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم قوله : « قالت الجنة » إلى آخره .

تقدم أن الصحيح أن هذا بلسان المقال أى أنه قول قالته الجنة حقيقة وأن الله جعل لها شعورا وتمييزا ، وعقلا ونطقا ، والله لا يعجزه شيء .

(١) شرح مسلم ج ١٧ ص ١٨١ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٣٦ .

وليس هذا خاصا بالجنة والنار ، فقد ذكر الله — تعالى — أن الجبال كانت تسبح مع نبي الله داود عليه السلام .

وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١) .

وقوله : « فقالت : يا رب مالها » . عدول بالخطاب من المتكلم إلى الغائب كأن الراوى كره أن يأتي به على أصله خشية أن يظن ظان أنه مضاف إليه ، وهذا كثير في روايات الحديث .

والمقصود بضعفاء الناس فقراؤهم ، وأهل المسكنة والتواضع ، الذين لا يبغون في الأرض علوا ولا فسادا ، ولا يترفعون على عباد الله ، بل هم متواضعون لله خاضعون له ، أذلة على المؤمنين ، وإن كانوا عند ذوى السلطان حقيرين ساقطين في أعينهم ، لا يؤبه لهم لديهم ، فهم عند الله عظماء رفعا .
قوله : « قالت النار : يعنى أوثرت بالمتكبرين » أى خصصت بأهل التكبر على عباد الله والتجبر والظلم للناس باحتقارهم ، وغمط حقوقهم .
قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار : أنت عذابي أصيب بك من أشاء » .

هذا هو حكم الله بينهما ، يعنى أن الله تعالى خلق الجنة ليرحم بدخولها من شاء من عباده ، من يتفضل عليه ويجعله مؤهلا لذلك .
وأما النار فخلقها لمن عصاه وكفر به ، وبرسله ، يعذبهم بها .
وذلك كله ملكه يتصرف فيه كيف يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ، ولكن لا يدخل النار إلا من استوجبها بعمله .

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

وهذه الجملة وهى قوله : « فقال الله للجنة : أنت رحمتى » هى الشاهد للباب ، فالجنة قريب من المحسنين ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ثم قال : « ولكل واحدة منكما ملؤها » وهذا وعد من الله — تعالى — لهما بأن يملؤهما بمن يسكنهما ، وفى هذا إشعار بأنهما يرغبان ذلك وقد جاء الطلب من النار صريحا كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾^(١) ، وأقسم الله تعالى لئلا ينزل جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

فهما يمتلآن من بنى آدم ومن الجن .

فمن آمن وعبد الله وحده ، واتبع رسله فمصيره إلى الجنة ، ومن عصى وبعى ، وطغى ، وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى .

قوله : « فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقئهم فيها » ، تقدم حديث أنس فى باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، عن النبى ﷺ قال : « لا يزال يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد بعزتك وكرمك .

ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة »^(٢) .

وفى صحيح مسلم فى هذا الحديث قال : « فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله تقول قط قط فهناك تمتلئ . ، وينزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم ربك من خلقه أحدا .

(١) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الشرح ص ١٥٤ .

وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً»^(١) ، ورواه البخارى بهذا اللفظ فى التفسير^(٢) وبهذا يتبين أن قوله : « وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقبهم فيها » أنه خطأ ، وإنما انقلب على الراوى فصار ما للجنة للنار فإن إنشاء الخلق يكون للجنة ، وأما النار فإن الله تعالى يضع عليها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتتضايق على من فيها وبذلك تمتلئ ولا يظلم ربك أحدا ، ويؤيد ذلك أن هذا الحديث جاء فى التفسير من صحيح البخارى وجاء كذلك فى مسلم على الوجه الصحيح كما ذكرناه آنفا ، وبأنه خطأ قد انقلب على الراوى جزم به شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم ، ويؤيده أيضا قوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى من ذريتك ومن تبعك من بنى آدم . فلو دخلها أحد من غير أتباع الشيطان من ذريته وذرية آدم لم تمتلئ منهم . قال الحافظ : قال أبو الحسن القابسى : « المعروف فى هذا الموضوع أن الله ينشئ للجنة خلقا ، وأما النار فيضع فيها قدمه .

قال : ولا أعلم فى شىء من الأحاديث أنه ينشئ للنار خلقا إلا هذا » انتهى وقد مضى فى تفسير سورة ق . من طريق محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة : « ويقال لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ، فيضع الرب عليها قدمه ، فتقول : قط قط .

ومن طريق همام بلفظ : « فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط ، فهناك تمتلئ ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً»^(٣) .

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٧ رقم ٢٨٤٦ .

(٢) انظر الفتح ج ٨ ص ٥٩٥ .

(٣) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٣٦ — ٤٣٧ .

وقال : « وقد قال جماعة من الأئمة إن هذا الموضع من الحديث مقلوب ، وجزم ابن القيم بأنه غلط ، واحتج بأن الله — تعالى — أخبر بأن جهنم تمتلئ من إبليس وأتباعه من بنى آدم ، وكذا أنكر الرواية شيخنا البلقيني واحتج بقوله : ﴿ وَلَا يَظَلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ . ثم ذكر تأويلات بعيدة جدا ، بل باطلة ، ثم قال : « وفي الحديث دلالة على اتساع الجنة والنار ، بحيث تسع كل من كان ، ومن يكون إلى يوم القيامة ، وتحتاج إلى زيادة ، وقد تقدم أن آخر من يدخل الجنة يعطى مثل الدنيا عشر مرات .

وقال الداودي : يؤخذ من الحديث أن الأشياء توصف بغالبها لأن الجنة يدخلها غير الضعفاء ، والنار قد يدخلها غير المتكبرين ، وفيه رد على من حمل قول النار : ﴿ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴾ على أنه استفهام إنكار ، وأنها لا تحتاج إلى زيادة»^(١) .

وقال شيخ الإسلام قوله : « وأما الجنة ، فيبقى فيها فضل ، فينشئ الله لها خلقا فيسكنهم » : « ووقع في بعض طرق البخارى غلط ، قال فيه : « وأما النار فيبقى فيها فضل ، والبخارى رواه في سائر المواضع على الصواب ليبين غلط هذا الراوى ، كما جرت عادته بمثل ذلك ، إذا وقع من بعض الرواة غلط في لفظ ، ذكر ألفاظ سائر الرواة التى يعلم بها الصواب ، وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب»^(٢) .

وقال ابن القيم : « وأما اللفظ الذى وقع في صحيح البخارى في حديث أبى هريرة : « وأنه ينشئ للنار من يشاء ، فيلقى فيها فتقول : هل من مزيد » فغلط من بعض الرواة ، انقلب عليه لفظه ، والروايات الصحيحة ، ونص القرآن يرده ، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملا جهنم من إبليس وأتباعه ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٣٧ .

(٢) منهاج السنة ج ٣ ص ٢٥ .

فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة ، وكذب رسله قال تعالى : ﴿ كَلَّمَا
الْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (١) ولا يظلم الله أحدا من خلقه (٢) .

٧٧ — قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام ، عن
قتادة ، عن أنس — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « ليصيبن
أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل
رحمته ، يقال لهم : الجهنميون » .

« سفع » بفتح السين ، وسكون الفاء ، هو أثر تغير البشرة من حر النار
أى يصيبهم من لهبها ما يغير ألوانهم ، وتقدم أنهم يحترقون حتى يكونوا فحما .
قوله : « بذنوب أصابوها » أى أن إصابتهم بسفع النار جزاء على ما اقترفوه
من الذنوب عقوبة لهم .

« ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته » أى يرحمهم الله تفضلاً منه وجوداً عليهم
من غير استحقاق للجنة ، وهذا محل الشاهد من الحديث ، ووجهه أن هؤلاء
لما كان معهم شيء من الإيمان صارت رحمة الله قريبة إليهم بالنسبة لمن هو
في النار ، وبقدر ما معهم من إيمان وإحسان .

والجهنميون نسبة إلى جهنم ، لأن أثر إحراقهم ظاهر عليهم .

قوله : « وقال همام : حدثنا قتادة ، حدثنا أنس » إلى آخره : يريد
بيان أن عننة قتادة محمولة على السماع لأنه صرح بالتحديث من هذه
الطريق . والله أعلم .

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة تبارك الذى بيده الملك .

(٢) حادى الأرواح ص ٢٩٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى عن قدرته العظيمة ، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فلا تضطربا عن أماكنهما كما قال تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى لا يقدر على إبقائهما بلا زوال ، واضطراب إلا هو — تعالى — ومع موجب زوالهما واضطرابهما من جرائم بنى آدم أمسكهما ، فحلهم الله الواسع ، ومغفرته العظيمة تدعوه تعالى إلى إمساكهما ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فيحلم ويغفر ، ويستر ، ويصفح عن العظيم مما يبارزه به عباده من الجرائم ، كما ذكر تعالى عن بعض المجرمين ما يقتضى تفطر السماوات ، وتشقق الأرض ، وانهداد الجبال الراسيات منه ، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ (٣) .

(١) الآية ٦٥ من سورة الحج .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٣ ط الشعب .

(٣) الآيات ٨٨ — ٩٢ من سورة مريم .

ومراد البخارى — رحمه الله — من هذا الباب إثبات جنس الفعل لله تعالى لقوله فى الآيه « يمسك » وقوله فى الحديث « يضع السماوات على إصبع » إلى آخره وإن كان تقدم ذكر الأستوى المتضمن للعلو فهو من صفات الذات والفعل ، وأما هذا فهو نوع آخر من صفات الله تعالى الدالة على أنه تعالى فعّال لما يريد ، وهذا ما أنكره أهل الباطل من معتزلة وغيرهم ، فأراد البخارى أن ينبه على بطلان قولهم .

يعنى أن الله تعالى هو المسك للسماوات والأرض بقدرته ، وإذا أراد أن يطوى السماوات ويضعها على إصبع من أصابع يده الكريمة فعل ، ولو أراد زوال السماوات والأرض لترك إمساكهما فزالتا ، فهو — تعالى — يفعل باختياره ما شاء ، وفعله غير خلقه ، وهذا يرد مذهب المعتزلة ومن قال بقولهم حيث قالوا إن أفعال الله تعالى مخلوقة .

قال المؤلف رحمه الله فى كتابه خلق أفعال العباد : « ادعت المعتزلة : أن فعل الله مخلوق ، وأن أفعال العباد غير مخلوقة ، وهذا خلاف علم المسلمين ، إلا من تعلق من البصريين بكلام سنسويه ، كان مجوسيا فادعى الإسلام »^(١) ، يعنى أن المسلمين مجمعون على خلاف ما يقوله المعتزلة من أن فعل الله تعالى مخلوق ، ومراده بذلك أنه لا فرق عندهم بين الفعل والخلق ، فليس لله فعل يفعله باختياره وإرادته ، وإنما يخلق ، والخلق هو المخلوق المفعول .

وقوله : « إلا من تعلق بكلام سنسويه من البصريين » ، يقصد القدرية الذين أنكروا علم الله بالأشياء قبل وجودها ، وتقديره لها ، وخلقها إياها فهؤلاء شذوا عن المسلمين .

وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وأئمتها على أن الله تعالى متصف بصفات

(١) خلق أفعال العباد ص ٧٥ تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة .

الأفعال كما أنه متصف بصفات الذات ، ولم يخالف في ذلك إلا الجهمية
والمعتزلة .

ولا ينبغي أن يعد خلاف هؤلاء خلافا ، لأنهم تركوا صريح الأدلة في ذلك
من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ، ومن العقل أيضا .

وقد علم أن الأفعال نوعان : متعدد ، ولازم ، والله تعالى متصف بالنوعين .

فالمتعدى مثل الرزق ، والإحياء والإماتة ، والخلق ونحو ذلك .

واللازم مثل المحيى ، والنزول ، والإتيان ، والاستوى ونحوه .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾^(١) فجمع النوعين في هذه الآية ، وكل ذلك واقع
بمشيئته تعالى .

وهذا معنى قول أهل السنة : إن الله موصوف بالأفعال الاختيارية ، أى
التي يفعلها باختياره تعالى ، وأدلة ذلك في كتاب الله ، وسنة رسوله كثيرة
جدا وسوف يذكر فيما يأتي طرفا من ذلك .

ومراده بيان أن أفعال الله من صفاته ، وهى ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع
من أهل العلم والإيمان ، وبالعقل السليم ، وسيأتى في الباب بعد هذا التفرقة
بين الفعل والمفعول ، وما يأتي بعده إلى آخر الكتاب تفريع عليه .

٧٨ — قال : « حدثنا موسى ، حدثنا أبو عوانة ، عن الأعمش ،

عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، قال : جاء حبر إلى
رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إن الله يضع السماء على إصبع ،

(١) الآية ٤ من سورة السجدة .

والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر والأنهار على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يقول بيده : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

سبق هذا الحديث في باب قول الله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي ﴾ وذكره هناك من طريقتين ، غير الطريق التي هنا ، وتقدم شرحه هناك ، وجريا على عادته ، إذا أعاد ذكر الحديث فلا بد أن يغير بين لفظه اللاحق وبين السابق ، وبين سنده ، فإن لم يمكن ذلك فعل ما أمكنه منه .

وهنا قد غاير بين لفظه هنا وهناك ، وكذلك في الإسناد .

ففي الباب السابق « أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ » .

وفي الطريق الأخرى : « جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب » .

وهنا : « جاء حبر إلى رسول الله ﷺ » . قال الراغب : « الأثر المستحسن ومنه ما روى (يخرج من النار رجل قد ذهب حبره ، وسبره) أى جماله ، وبهاؤه ومنه سمي الحبر بالكسر ، والحبر العالم ، وجمعه أحبار - سموا بذلك - لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس ، ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدى بها »^(١) وفي القاموس : الحبر : « العام أو الصالح » .

قوله : « ثم يقول بيده : أنا الملك أى أنه تعالى يهزهن ، استخفافا لهذه المخلوقات واستصغارا لها أمام عظمة الله وقوته - جل وعلا - ، وقد جاء مصرحا بذلك في الروايات الأخرى .

قال ابن جرير : « وحدثنا محمد بن الحسين ، قال حدثنا أحمد بن المفضل ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى ، عن منصور ، عن خيشمة بن عبد الرحمن ،

(١) المفردات ص ١٠٦ .

عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ حين جاءه حبر من أحبار اليهود ، فجلس إليه ، فقال له النبي ﷺ : « حدثنا ؟ » قال : إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة جعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والماء والشجر على إصبع ، وجميع الخلائق على إصبع ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك ، قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لما قال ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

ثم رواه من طريق أخرى ، وهو صحيح لا مطعن فيه ، وقد رواه أحمد ، والبخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ولفظه : « قال رسول الله ﷺ : « يطوى الله — عز وجل — السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وهذا لفظ رواية مسلم (٢) .

وقال ابن جرير : « حدثنا الربيع ، قال حدثنا ابن وهب ، قال أخبرني أسامة بن زيد ، عن أبي حازم ، عن عبد الله بن عمر ، أنه رأى رسول الله ﷺ على المنبر ، يخطب الناس ، فمر بهذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يأخذ السماوات والأرضين السبع فيجعلها في كفه ، ثم يقول بهما ، كما يقول الغلام بالكرة : أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز » حتى لقد رأينا

(١) تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٢٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨ وقد تقدم .

المنبر وإنه ليكاد يسقط به»^(١) .

وقال أيضا : « حدثنا علي بن داود ، قال : حدثنا ابن أبي مريم ، قال : أخبرنا ابن أبي حازم ، قال حدثني أبو حازم ، عن عبيد الله بن مقسم ، أنه سمع عبد الله بن عمر ، يقول : رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيديه ، وقبض رسول الله ﷺ يديه ، وجعل يقبضهما ، وييسطهما ، قال : ثم يقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وتمايل رسول الله ﷺ عن يمينه ، وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول : أساقت هو برسول الله ﷺ »^(٢) .

وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث في هذا ، ففي هذه ونحوها أن الرسول ﷺ كان يذكر صفات الله تعالى في الجامع العامة ، ويخطب ببيانها على المنبر ، ويبالغ في إيضاحها ، وتفهم السامعين لها ، حتى إنه يقبض يديه وييسطهما عند ذكره لقبض الله تعالى السماوات والأرض ، خلافا لمن زعم أنه لا ينبغي ذكر صفات الله عند عامة الناس ، وهو زعم باطل مخالف للحق ، وطريق الرسول ﷺ حيث كان يعرف الناس بربهم ، ويذكر لهم صفاته ، وأفعاله وأقواله في كل موطن ، ويكرر ذلك في مجالسه ، وخطبه ، يعرف ذلك من سير حاله ، وتتبع سنته صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الذي فعله رسول الله ﷺ لا يدع مجالاً للشك في أن المراد من هذه النصوص هو ما دلت عليه ظاهرا ، وأن تأويلها وصرفها عن ظاهرها باطل قطعاً ، وتحريف للكلم عن مواضعه .

(١) تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٢٦ ورواه البخاري ج ٦ ص ١٠٤ ومسلم ج ٤ ص ٢١٤٧ رقم

٢٧٨٦ .

(٢) المرجع السابق .

ويزيد ذلك تأكيداً وبيانا أن أحدا من الصحابة لم يسأل رسول الله ﷺ ولم يستفسر عن شيء منها ، لأنهم فهموا المراد من ظاهر الخطاب ونصه .
ومما يزيد ذلك تأكيداً أيضاً ، أن الرسول ﷺ لم يذكر ولا حرفاً واحداً يدل على وجوب التأويل كما يقوله الموجبون للتأويل .

ومعلوم أن بيان ما أنزل الله إلى عباده واجب على رسول الله ﷺ وقد فعل بقوله ، وفعله ، كما كان يقبض يديه ويسطهما عندما ذكر قبض الله — تعالى — لسماواته وأرضه بيديه ، تقريراً منه ﷺ لظاهر النص ، وتأكيداً لما يفهمه كل مخاطب عربي يسمع هذا الكلام ، ولو كان من أبلد الناس .
وهذا الذي فعله رسول الله ﷺ لو فعله أحد أمام من يدعون التحقيق ، وأنهم أهل السنة ، لصاحوا به ، وعدوه مشبهاً مجسماً .

وكان ﷺ يفعل مثل ذلك كثيراً عند ذكر صفات الله تعالى كما سبق أنه ﷺ لما قرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وضع إصبعه على عينه ، والأخرى على أذنه ، زيادة إيضاح وتبيين أنه أراد ظاهر الخطاب ، وكما سبق أيضاً أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحب ولا قتر » ، وغير ذلك .

وفي هذا الحديث ثبوت صفة الكف لله تعالى لقوله : « فيجعلهما في كفه » .

وتقدم أن ضحك الرسول ﷺ لفرحه بما قاله الخبر حيث ذكر ما يصدق ما جاء به ﷺ مما أوحاه الله إليه ، ولهذا قرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) لأن هذه الآية مطابقة لما قاله الخبر ،

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

وهو من العلم الموروث عن الأنبياء الذى أوحاه الله إليهم ، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك ، لأنه إخبار عن شيء لم يقع ، وإنما سيقع كما هو ظاهر .

وقد تقدم ذكر الأدلة فى إثبات يدى الله — تعالى — وأصابه ، وتفيد تأويلات المنكرين لها ، وبيان أن تأويلها من تحريف الكلم عن مواضعه .

قال : « باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض ، وغيرهما من الخلائق » .

« وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره ، فالرب بصفاته ، وفعله وأمره [وكلامه] ، وهو الخالق ، هو المكوّن غير مخلوق ، وما كان بفعله وأمره وتخليقه ، وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكوّن » .

التخليق : مصدر ، والمصدر هو الحدث الذى لم يقترن بزمن ، والحدث لا بد له من محدث ، فتخليق السماوات والأرض هو فعل الله الذى وجدت به ، فالله — تعالى — هو الخالق ، والخلق ، والتخليق فعله الواقع منه على المخلوق فالمخلوقات وجدت بفعل الله .

والمخلوق ليس هو فعل الله ، وإنما هو مفعوله — أى مخلوقه الذى صدر عن تخليقه .

وأفعال الله نوعان ، لازم ، ومتعدى ، فاللازم نحو نزوله ، ومجيئه ، والمتعدى نحو خلقه ورزقه ، ولا بد لهذا النوع من مفعول يتعدى إليه ، وهو المخلوق ، والمرزوق ، بخلاف الأول .

قوله : « وهو فعل الرب — تبارك وتعالى — وأمره » يعنى أن التخليق فعل الرب — تعالى — والمقصود بالأمر هنا قوله للمخلوق : « كن » .

قوله : « فالرب بصفاته وفعله وأمره ، [وكلامه] » يعنى أن صفاته وأمره وفعله ، وكلامه ، داخل فى مسمى اسم الرب — تعالى — لا يكون شيء

منها غيره ، لأن صفة الشيء تقوم به ، وفعله يقوم به — لا غيرهه — وكذا أمره وكلامه .

ولفظة « وكلامه » ثبتت في بعض نسخ الصحيح ، وهى رواية أبى ذر ، أحد رواة الصحيح عن البخارى ، وهو من عطف الخاص على العام .
قوله : « وهو الخالق ، المكوّن غير مخلوق » المكون بكسر الواو المشددة ، وهو بمعنى المصوّر .

قوله : « وما كان بفعله وأمره ، وتخليقه ، وتكوينه ، فهو مفعول مخلوق مكوّن » يعنى أن الفعل غير المفعول ، فالفعل من صفات الفاعل يقوم به . والمفعول هو ما وجد بالفعل ، فهو مفعول له محدث بعد أن لم يكن ، بخلاف الفعل ، فإنه قائم بالفاعل ، فهو صفته ، فالمفعول مخلوق ، مكون — بفتح الواو المشددة — بعد أن لم يكن .

ومراد البخارى — رحمه الله — الرد على من لم يفرق بين الفعل والمفعول ، كما بين ذلك فى كتابه « خلق أفعال العباد » فإنه قال فيه :

« اختلف الناس فى الفاعل ، والمفعول ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ، ليست من الله .

وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله .

وقالت : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا : لـ « كن » مخلوق ، وقال أهل العلم : التخليق فعل الله ، وأفاعيلنا مخلوقة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ آجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾^(١) يعنى السر ، والجهر من القول ، ففعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق »^(٢) .

(١) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة الملك .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١١٤ تحقيق عبد الرحمن عميرة .

وقال أيضا : « وأما الفعل من المفعول ، فالفعل إنما هو إحداث الشيء ، والمفعول هو الحدث ، لقوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (١) ، فالسماوات والأرض مفعولة وكل شيء سوى الله بصفاته — فهو مفعول — فتخليق السماوات فعله ، لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل ، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله ، ففعله من ربوبيته ، حيث يقول : « كن فيكون » ، و « كن » من صفته ، وهو الموصوف به ، كذلك قال : رب السماوات ، ورب الأشياء ، وقال النبي ﷺ : « رب كل شيء ومليكه » (٢) .

وهذا شرح لما ترجم به هنا ، وبيان لمراده ، وهو واضح .

وبه يتبين خطأ ابن بطال في قوله : « غرضه بيان أن جميع السماوات والأرض وما بينهما مخلوق ، لقيام دلائل الحدوث عليها » إلى آخره كما ذكره الحافظ عنه في الفتح (٣) لأن هذا أمر ظاهر ، لا ينكره أحد .

٧٩ — قال : « حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، أخبرني شريك بن عبد الله بن أبي غمرة ، عن كريب ، عن ابن عباس ، قال : بت في بيت ميمونة ليلة ، والنبي ﷺ عندها ، لأنظر كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الأخير ، أو بعضه قعد ، فنظر إلى السماء ، فقرأ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ لِلأُولَى الْأَلْبَسِ ﴾ ، ثم قام فتوضأ ، واستن ،

(١) الآية ٧٦ من سورة الأنعام .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١١٣ تحقيق الدكتور عميرة .

(٣) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٤٠ .

ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال بالصلاة ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى للناس الصبح .

هذا الحديث أكثر البخارى — رحمه الله — من تكراره ، فقد ذكره فيما يقرب من عشرين موضعا ، كما بينته فى دليل القارىء .

وميمونة : أم المؤمنين بنت الحارث الهلالية ، وهى خالة ابن عباس أخت أمه لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب .

وأما هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماسة بن حمير . تزوجها رسول الله ﷺ فى عمرة القضاء ، سنة سبع بسرف ، وهو حلال غير محرم ، وتوفيت — رضى الله عنها — بسرف سنة إحدى وخمسين ، وقيل غير ذلك وصلى عليها ابن عباس ، ودفنت هناك^(١) .

قوله : « بت فى بيت ميمونة » فى رواية مسلم « فرقت رسول الله ﷺ كيف يصلى » ، وفى أخرى له ، قال : « بعثنى العباس إلى النبى ﷺ » . وكان العباس بعثه فى حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا بنى بت عندنا الليلة » ذكره الحافظ ، عن قيام الليل ، لمحمد بن نصر^(٢) ، فانتبهز ابن عباس هذه الفرصة لينظر إلى عمل رسول الله ﷺ فى الليل ، فيتخذه قدوة . قوله : « فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة » كان ﷺ خير الناس لأهله ، فكان يفعل ما يأمنون به من المحادثة ، والتعليم لكل خير ، من أمور الدنيا والآخرة .

(١) انظر الإصابة ج ٨ ص ١٢٦ والاستيعاب ج ٤ ص ١٩١٤ وأسد الغابة ج ٧ ص ٢٧٢ وغيرها كثير .

(٢) انظر فتح البارى ج ٢ ص ٤٨٢ وانظر مختصر قيام الليل ص ١٠٥ وفيه : « بعثنى أبى العباس إلى رسول الله ﷺ بعد العشاء الآخرة فى حاجة له ، فلما بلغته إياها قال لى رسول الله ﷺ : « أى بنى بت عندنا هذه الليلة » .. إلخ .

قوله : « فلما كان ثلث الليل الأخير » يجوز أن يكون التقدير : فلما كان النبي ﷺ في ثلث الليل الأخير ، ويجوز أن تكون كان تامة ، والتقدير فلما جاء ثلث الليل ، وهذا هو الأظهر .

قوله : « أو بعضه » أى بعض الليل ، والبعض يصدق على كل فترة منه . وقد جاء في غير هذا الموضوع : « حتى انتصف الليل ، أو قريبا منه » .

قوله : « قعد ، فنظر إلى السماء ، فقرأ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ ﴾ » إلى آخره ، المعنى : أنه ﷺ حين استيقظ نظر إلى السماء معتبرا بخلقها ، ولهذا قرأ الآيات المذكورات ، وجاء في روايات أنه قرأ العشر آيات من آخر سورة آل عمران ، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب ، لأن فيها قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، مع قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾ ، فالمنظور إليه ، المشاهد ، المشار إليه بقوله : ﴿ مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾ مفعول مخلوق وهو غير الفعل الذى هو صفة الفاعل ، والفعل نتج عنه المفعول المحدث ، هذا هو وجه الاستدلال الذى أراده البخارى — رحمه الله — .

قوله : « ثم قام فتوضأ واستن » أى استاك بالسواك دالكا به أسنانه . وكان ﷺ يفعل ذلك ، ويحث عليه ، وأخبر أنه مطهرة للضم ، ومرضاة للرب تعالى .

قوله : « ثم صلى إحدى عشرة ركعة » هذه سنته ﷺ التى استمر عليها كما أخبرت بذلك زوجه عائشة — رضى الله عنها — أنه ما كان يزيد على إحدى عشرة ركعة في رمضان وغيره .

قوله : « ثم أذن بلال بالصلاة ، فصلى ركعتين » هاتان الركعتان ، غير ما سبق ذكره من أنه صلى إحدى عشرة ركعة ، بل هما سنة الفجر ، لأنه صلاهما بعد الأذان ، وكان ﷺ يصليهما فى بيته ، ويحافظ عليهما حضرا وسفرا .

قوله : « وصلى للناس الصبح » أى صلى بهم إماما كما هو ظاهر ، وقد تقدم شرح بعض هذا الحديث فى باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ .

قال : « باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : « يقول جل ذكره : ولقد سبق منا القول لرسلنا أنهم لهم المنصورون ، أى مضى بهذا منا القضاء ، والحكم فى أم الكتاب ، وهو أنهم لهم النصر والغلبة ، بالحجج » ثم روى عن قتادة : قال : سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم .

ثم ذكر أن بعضهم فسر السبق : بالسعادة ، أى سبق القضاء ، والحكم لهم بالسعادة ، وذكر أنه روى فى قراءة عبد الله ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا عَلَى عِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ فجعلت « على » مكان اللام ، فكأن المعنى : حقت عليهم ولهم ، كما قيل : ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ ، وفى ملك سليمان ، إذ كان المعنى فى ذلك واحداً^(١) .

والسبق هو التقدم على الشيء ، والكلمة المضافة إلى الله — تعالى — هى كلمته الكونية القدرية .

والقدر يتضمن علم الله بالشيء وكتابته لذلك ، ومشيئته له ، ثم إيجاد له وفق تقديره ، وهذا لا بد أن يكون بكلامه .

وقد علم أن كلام الله — تعالى — ينقسم إلى كونى قدرى ، وإلى شرعى أمرى ، وهذا الذى يخالفه أكثر العباد ، ويعصونه .

(١) تفسير الطبرى ج ٢٣ ص ١١٤ .

أما القسم الأول فلا يخالفه أحد ، بل لا بد من وقوعه وحصوله ، وهو قد يكون متفقا مع الكلام الشرعى الأمري ، وقد يكون مخالفا له ، وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله — تعالى — فى موضعه .

ومراد البخارى — رحمه الله — أن كلمة الله — تعالى — سبقت وجود الرسل والمرسل إليهم فهى قبل الخلق الذى هو المخلوق ، وهى غيره ، لأنها صفة الله — تعالى — وأما نصر الرسل وإسعادهم فهو جزاء عملهم وطاعتهم ، فهو من إثابته لهم وفضله عليهم ، فهو مخلوق بكلمته — تعالى — .

وأما قول الحافظ : « أشار به إلى ترجيح القول بأن الرحمة من صفات الذات ، لكون الكلمة من صفات الذات ، فمهما استشكل فى إطلاق السبق فى صفة الرحمة ، جاء مثله فى صفة الكلمة ، ومهما أجيب عن قوله ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ حصل به الجواب عن قوله : « سَبَقَتْ رَحْمَتِي » ، وقد غفل عن مراده من قال : دل وصف الرحمة بالسيف على أنها من صفات الفعل »^(١) .

فهذا بعيد كل البعد عن مراد البخارى وهو مبنى على مذهب الأشعرية القائلين بأن الكلام من صفات الذات ، وهو المعنى القائم بذات الله تعالى ، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، واعتقاد أهل السنة ، وإنما مراده ما ذكرت والله أعلم .

وأما صفة الرحمة فتكون صفة ذات وصفة فعل ، كما سبق الكلام فى ذلك .

وفى كتاب « خلق أفعال العباد للبخارى — رحمه الله — نقلا عن أبى عبيدة ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، فأخبر أن أول خلقه بقوله وأول خلق هو من الشىء الذى قال ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فأخبر

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٤٤١ .

أن كلامه قبل الخلق»^(١) ، وهذا قريب مما ذكره هنا ، وهو يعين على فهم مراده .

قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتى سبقت غضبى » .

تقدم هذا الحديث في باب قول الله تعالى : « ويحذرکم الله نفسه » لكن بلفظ يختلف عما هنا ، فلفظه هناك : « لما خلق الله الخلق كتب في كتابه — وهو يكتب على نفسه — وهو وضع عنده على العرش ، إن رحمتى تغلب غضبى » والمعنى لا يختلف ، والمقصود بالقضاء : التقدير ، ويأتى القضاء ، بمعنى الأمر والحكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾^(٢) ، ويأتى بمعنى : قدر وأمضى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾^(٣) ويأتى بمعنى : فرغ من الشيء وأتقنه نحو قوله تعالى : ﴿ فَكَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾^(٤) والمعنى هنا : لما فرغ من تقدير الخلق ، كما في الرواية الآتية في باب قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ ؛ أن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق .

ومراد البخارى من هذا الحديث ، أن الكتاب الذى كتبه قبل خلق الخلق فيه سبق رحمته لعباده المرسلين ، أى أن كلمته التى سبقت بنصرة عباده المرسلين قبل وجودهم .

(١) خلق افعال العباد ص ٤٤ تحقيق عبد الرحمن عميرة .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٤ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ١٢ من سورة فصلت .

وبهذا يتبين أن قوله غير خلقه ، ونصرته لعباده المرسلين من رحمته التي سبقت غضبه ، وتقدم الكلام على قوله « عنده فوق عرشه » ، وأنه يدل على استوائه على عرشه ، وعلوه على خلقه ، كما تقدم الكلام في صفة الرحمة والغضب .

٨٠ — قال : « حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا الأعمش ، سمعت زيد بن وهب ، سمعت عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثله ، ثم يكون مضغة مثله ، ثم يبعث إليه المَلَك ، فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

علماء الأمة يعدون هذا الحديث أصلا كبيرا من أصول الإسلام ، لأن فيه بيان وجوب الإيمان بالقدر ، وهو أحد أركان الإيمان بالله ورسوله .

قوله : « الصادق المصدوق » وصف للنبي ﷺ مستمر ، أى أنه صادق فيما يخبر به ، وما يفعله ، فلا يخبر إلا بالحق المطابق للواقع .

والصدق يطلق أيضا على الفعل ، يقال : صدق القتال ، وهو صادق فيه . والرسول ﷺ صادق في أقواله وأفعاله .

« المصدوق » فيما يأتيه من الأخبار ؛ لأنه وحى من الله تعالى .

قوله : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة » يعنى

أنه في هذه المدة يكون نطفة داخل بويضة المرأة ، فيستمر هذه المدة ، وتغلب عليه هذه الصفة في الأربعين الأولى — يعنى وصف النطفة — وفي الثانية وصف العلقة ، وفي الثالثة وصف المضغة ، وإن كانت خلقتها قد تمت وتم تصويره .

قوله : « ثم يكون علقة مثله » يعنى بعد مضى أربعين على النطفة في الرحم ، تصير علقة وهى قطعة دم جامد ، فتقلب النطفة بعد دخولها بويضة المرأة ، ومرور أربعين يوما إلى علقة ، بدون تخطيط ولا روح .

« ثم يكون مضغة مثله » يعنى بعد تمام الأربعين الثانية تصير العلقة مضغة .

والمضغة : قطعة لحم على قدر ما يمضغ الإنسان في فمه ، وفي هذا الدور يبدأ تخطيط خلقه .

فالحديث يدل على أن خلق الإنسان يتقلب في مائة وعشرين يوما في ثلاثة أطوار ، في كل أربعين يوما منها يكون في طور ، فهو في الأربعين الأولى نطفة وفي الثانية علقة ، وفي الثالثة مضغة ، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتابة رزقه وأجله ، وشقاوته أو سعادته .

« ثم يبعث إليه الملك » جاء في الحديث الذى رواه مسلم ، عن حذيفة ابن أسيد يبلغ به النبي ﷺ وقال : يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ، أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يا رب أشقى أو سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : أى رب أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله ، وأثره ، وأجله ، ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص^(١) .

وفيه أيضا عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا مر بالنطفة اثنتان

(١) مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٢٦٤٤ .

وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على ما أمر ، ولا ينقص»^(١) .

وقد يبدو أن هذا يخالف حديث عبد الله بن مسعود ، لأن ظاهر حديث عبد الله كما تقدم أنه يبقى أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين أخرى علقة ، ثم أربعين مضغة ، ثم يبعث إليه الملك بعد الأربعين الثالثة .

قال ابن رجب : « ظاهر حديث حذيفة يدل على أن تصوير الجنين ، وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في الأربعين الثانية ، فيلزم أن يكون في الأربعين الثانية لحما وعظاما ، وهذا خلاف ظاهر حديث عبد الله .

وظاهره أنه يصورها ، ويخلق هذه الأجزاء كلها ، وقد يكون خلق ذلك بتصويره وتقسيمه قبل وجود اللحم والعظام ، فلا يكون بين الحديثين اختلاف .

وتأول بعضهم على أن الملك يقسم النطفة إذا صارت علقة إلى أجزاء ، فيجعل بعضها للجلد ، وبعضها للحم ، وبعضها للعظام ، فيقدر ذلك كله قبل وجوده ، وهذا خلاف ظاهر الحديث»^(٢) .

قال ابن رجب : « وقد ذكر علماء الطب ما يوافق الحديث ، قالوا : إن المنى إذا وقع في الرحم حصل له زبدة ورغوة ستة أيام ، أو سبعة أيام ، وفي هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم»^(٣) ثم بعد ذلك تستمد منه .

(١) المرجع المذكور .

(٢) شرح الأربعين ج ١ ص ١١٧ — ١١٨ الطبعة السعدية .

(٣) تبين في الطب الحديث أن نطفة الرجل تحمل حيوانات منوية كثيرة جدا وإذا صادف واحد من هذه الحيوانات بويضة المرأة يكون انعقاد التلقيح .

وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثة أيام ، وقد يتقدم ويتأخر يوما ، ثم بعد ستة أيام ، وهو الخامس عشر من وقت العلق ينفذ الدم إلى الجميع ، فيصير علقة ، ثم تتميز الأعضاء تميزا ظاهرا ، ويتنحى بعضها عن مماسة بعض وتمتد رطوبة النخاع ، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الأصابع [ويتميز] تميزا يستبين في بعض ، ويخفى في بعض .

قالوا : وأقل مدة يتصور فيها الذكر ثلاثون يوما ، والزمان المعتدل في تصوير الجنين خمسة وثلاثون يوما ، وقد يتصور في خمسة وأربعين يوما ، ولم يوجد في الإسقاط ذكر تم قبل ثلاثين يوما ، ولا أثنى قبل أربعين يوما . فهذا يوافق ما دل عليه حديث حذيفة في التخليق في الأربعين الثانية ، ومصيره لحما فيها أيضا ^(١) .

وقال ابن القيم : « إذا اشتمل الرحم على المنى ، ولم يقذف به إلى خارج ، استدار على نفسه وصار كالكرة ، وأخذ بالشدة إلى تمام ستة أيام ، فإذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط ، وهو موضع القلب ، ونقطة في أعلاه ، وهي نقطة الدماغ ، وفي اليمين ، وهي نقطة الكبد ، ثم تتباعد تلك النقط ، ويظهر بينها خطوط حمراء ، إلى تمام ثلاثة أيام آخر ، ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام آخر ، فيصير المجموع سبعة وعشرين يوما ، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجنين ، وذلك في تسعة أيام ، فتصير ستة وثلاثين يوما ، ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهورا بينا في تمام أربعة أيام فيصير المجموع أربعين يوما تجمع خلقه .

وهذا مطابق لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما » واكتفى صلى الله عليه وسلم بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضى أن الله قد جمع

(١) شرح الأربعين ج ١ ص ١١٨ - ١١٩ الطبعة السعدية .

خلقه فيها جمعا خفيا» (١) .

وهذا الذى ذكره ابن رجب وشيخه ابن القيم — رحمهما الله تعالى — يكاد يكون متفقا مع ما يقرره الأطباء حديثا ، وقد أصبحت الأجنة مشاهدة بواسطة آلات التصوير والمناظير فصارت عند علماء الأجنة من الأطباء من الأمور الظاهرة ، وعندهم التخليق يبدأ مبكرا من أيام الأربعين الأولى ، وأحاديث رسول الله ﷺ لا تخالف الواقع ، وإنما يأتى الغلط من عدم فهم مراده ﷺ .

وقد ذكر خلق الإنسان فى مواضع عديدة من القرآن كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٢) وحديث عبد الله يتفق مع هذه الآية الكريمة .

ولدلالة خلق الإنسان على خالقه ، وعظيم قدرته ، وعلى إعادته بعد موته ، وعلى وجوب عبادة الله وحده أكثر الله تعالى من ذكره فى كتابه ، وأمر عباده بالاعتبار به .

والملك الذى يرسل إلى النطفة فى الرحم خلقه الله لذلك وجعل ذلك وظيفته ، وقد جعل الله تعالى لملائكته أعمالا يختص بها كل فريق منهم .
قوله : « فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد » .

(١) التبيان ص ٣٣٧ .

(٢) الآية ١٤ من سور نوح .

(٣) الآيات ١٢ — ١٤ من سورة المؤمنون .

قال الحافظ : « المراد بالكلمات : القضايا المقدرة ، وكل قضية تسمى كلمة »^(١) .

وهذا هو الذى عناه العلماء بقولهم فى هذا الحديث : وجوب الإيمان بالقدر ، فكل ما سيجرى على هذه النطفة التى ذكر تكوينها فى أول بدايتها ، مكتوب مفروغ منه ، قبل وجودها ، فما تأكله مكتوب مسجل ، لا يزيد ولا ينقص ، وما تعمله كذلك ، وبقاؤها حية فى هذه الدنيا كذلك ، ونهايتها ومصيرها مسجل معلوم لله تعالى : فالسعادة ، والشقاوة قد سبق بهما الكتاب ، غير أن ذلك مقدر بحسب الأعمال التى يعملها هذا المخلوق ، ومرتب عليها ، بمعنى أن الله علم ذلك فكتبه ، وكل ميسر لما خلق له .

وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام ، لا يمكن أن يستقيم لأحد دينه إلا بالإيمان به ، وهو محل الشاهد الذى ساقه البخارى من أجله ، فقد سبقت كلمة الله لعباده السعداء بالسعادة قبل وجودهم ، وذلك فضل من الله ورحمة تفضل عليهم بذلك .

وظاهر حديث عبد الله بن مسعود هذا أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأخيرة وحديث حذيفة بن أسيد ظاهر فى أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأولى .

قال ابن رجب : « جمع بعضهم بينهما بأن الكتابة تكون مرتين ، ثم قال : وقد يقال : إن إحداهما فى السماء ، والأخرى فى بطن أمه . والأظهر أنها مرة واحدة .

ولعل ذلك يختلف باختلاف الأجنة ، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين

(١) الفتح ج ١١ ص ٤٨٢ .

الأولى ، وبعضهم بعد الأربعين الثالثة»^(١) .

وقال ابن القيم : « ما في حديث ابن مسعود تقدير ثان بعد التقدير الذى ذكره في حديث حذيفة ، فأول تقدير عند انتقال النطفة إلى أول أطوار التخليق التى هى أول مراتب الإنسان .

والتقدير الثانى : تقدير عند كمال خلقه ، ونفخ الروح ، فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره ، وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره »^(٢) .

قوله : « ثم ينفخ فيه الروح » فى رواية لمسلم : « ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات » . قال الحافظ : « ويجمع بأن هذه الرواية صريحة فى تأخير النفخ ، للتعبير بقوله « ثم » ، والأخرى محتملة ، فترد إلى الصريحة ، ولأن قوله فى رواية مسلم : « ويؤمر بأربع كلمات » معطوفة بالواو ، وهى لا تقتضى الترتيب فيكون عطف جملة على جملة ، والتقدير : « يجمع خلقه فى هذه الأطوار ، ويؤمر الملك بالكتابة » ، وجاء قوله : « ينفخ فيه الروح » متوسطا بين الجمل »^(٣) .

وقال ابن رجب : « إما أن يكون هذا من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذى يفهمونه ، وإما أن يكون المراد ترتيب الأخبار فقط ، لا ترتيب ما أخبر به » .

وعلى كل فحديث ابن مسعود يدل على تأخير نفخ الروح فى الجنين وكتابة الملك [ما أمر به] إلى ما بعد أربعة أشهر ، حتى تتم الأربعون الثالثة .
فأما نفخ الروح فقد روى صريحا عن الصحابة — رضى الله عنهم — أنه

(١) شرح الأربعين ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) التبيان ص ٣٤٥ .

(٣) الفتح ج ١١ ص ٤٨٥ بمعناه ملخصا .

إنما ينفخ فيه الروح بعد أربعة أشهر ، كما دل عليه ظاهر حديث ابن مسعود^(١) .

وقال عياض : « اختلفت ألفاظ هذا الحديث في مواضع ، ولم تختلف أن نفخ الروح فيه بعد مائة وعشرين يوما ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ، وهذا موجود في الشاهد ، وعليه يقول فيما يحتاج إليه من الأحكام ، وقيل إنه الحكمة في عدة الوفاة »^(٢) .

والحديث يدل صراحة أن الملك هو الذى ينفخ في الجنين الروح ، التى تحصل بها الحياة ، وتسرى في الجسد ، وهى سر من الله ، لا يعلم حقيقتها إلا هو تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾^(٣) .

قوله : « فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها » .

هذا مما يدل على ما أراده البخارى - رحمه الله - لأن سبق الكتاب لما سيكون صريح في هذا النص ، وهو دليل على كمال علم الله - تعالى - وكمال قدرته ، وإحاطته بكل شىء ، فهو تعالى ، يعلم الأشياء قبل وجودها ، وكتب كل ما هو كائن ، فكل الحوادث تقع وفق علمه وكتابته .

فإذا وضعت النطفة التى يتكون منها الإنسان في رحم المرأة ، وأراد تعالى تكوينها مخلوقا أمر بكتابة ما يعمله هذا المخلوق ، وما يكون له من رزق ، وما سبيلقيه في حياته ، وما يؤول إليه وينتهى ، من سعادة أو شقاوة .

(١) شرح الأربعين ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) من الفتح ج ١١ ص ٤٨٥ .

(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

وهذه الكتابة غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق ، المذكورة في مثل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (١) .

وقوله ﷺ فيما رواه مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » ونحو ذلك من النصوص .

وليس في كتابة الله تعالى وتقديره كل شيء قبل وجوده منافاة لمشيئة الإنسان واختياره ، كما يتوهمه بعض الناس .

لأن الله تعالى كتب علمه بما يعمله هذا المخلوق ، وما يترتب على عمله ، ولم يجبره على فعل المعاصي ، بل نهاه عنها وزجره وحذره من فعلها وتوعده على ذلك وخلقى بينه وبين نفسه ليختار ما يريد من غير إكراه وإلزام .

والمقصود أن هذا يدل على سبق الرحمة من الله لأهل السعادة قبل وجودهم حيث قدر ذلك وكتبه تفضلا منه وإحسانا ثم هياهم للعمل لذلك ويسره لهم ، فيدخل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ثم هذا يدل على أن الجزاء مرتب على العمل ، فلا يدخل أحد الجنة إلا إذا عمل بعمل أهل الجنة ، ولا يدخل أحد النار إلا إذا عمل بعمل أهل النار .

قال ابن رجب : « فيه أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما ، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال ، وأن كلا ميسر لما خلق له من الأعمال التي هي سبب السعادة أو الشقاوة » (٢) .

(١) الآية ٢٢ من سورة الحديد .

(٢) شرح الأربعين ج ١ ص ١٣٢ .

وفيه أن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة ، وهو في الحقيقة من أهل النار ، فلا بد أن يعمل بعمل أهل النار قبيل موته ، فيختم له بذلك وبالعكس لأن الكتاب سبق بذلك ، والحقيقة أن الذى سبق هو علم الله بأنه سوف يكون كذلك ، وقد كتب الله ذلك .

وهذا هو الذى أزعج كثيرا من السلف ، وأقلقهم .

قال ابن رجب : « بكى أحد الصنحابة عند موته ، فسئل عن ذلك ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين ، فقال : هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار ، ولا أدرى فى أى القبضتين كنت » .

وقال بعض السلف : الذى أبكى العيون أشد البكاء هو الكتاب السابق .
وقال عبد العزيز بن أبى رواد : حضرت رجلا عند الموت يلحن الشهادة لا إله إلا الله ، فقال فى آخر ما قال : هو كافر بما تقول ، ومات على ذلك فسألت عنه ، فإذا هو مدمن خمر .

فكان عبد العزيز يقول : اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته .

وقال سفيان لبعض الصالحين : هل أبكاك قط علم الله فيك ؟ فقال ذلك الرجل : تركتني لا أفرح أبدا .

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق ، والخواتيم ، فكان يبكى ، ويقول : أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقيا ، ويبكى ويقول : أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت .

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضا على لحيته ويقول : يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، ففى أى الدارين منزل مالك ؟
وقال حاتم الأصم : من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار ، فهو مغتر ، فلا يأمن الشقاء :

الأول : خطر يوم الميثاق حين قال : هؤلاء في الجنة ، ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ، ولا أبالي ، فلا يعلم في أى الفريقين كان .

والثانى : لما خلق في الظلمات الثلاث ، حين نادى الملك بالشقاوة أو السعادة ولا يدري ، أمن الأشقياء هو أم من السعداء .

والثالث : ذكر هول المطلع بعد الموت ، فلا يدري أيشتر برضاء الله ، أم بسخطه .

والرابع : يوم يصدر الناس أشتاتا ، فلا يدري مع أى الفريقين يسلك به .

وقال سهل التستري : المرید يخاف أن يتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر .

وكان الصحابة — رضوان الله عليهم — ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ، ويشند قلقهم وجزعهم منه .

فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر .

وقد كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » فقيل له : يا نبى الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟

فقال : « نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن — عز وجل — يقلبها كيف يشاء »^(١) .

وفي الجملة فالخواتم ميراث السوابق ، فكل شيء سبق في الكتاب السابق .

(١) أخرجه أحمد في المسند ج ٣ ص ١١٢ ، ٢٥٦ و ج ٦ ص ٩١ ، ٣١٥ والترمذى من حديث أنس وأم سلمة وعائشة انظر الترمذى ج ٥ ص ٥٣٨ .

وقد قيل : إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتم ، وقلوب المقربين معلقة بالسوابق ، يقولون : ماذا سبق لنا « (١) .

قال : « حدثنا خلاد بن يحيى ، حدثنا عمر بن زر ، سمعت أبا يحدث ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبي ﷺ قال : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » فنزلت : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال كان هذا الجواب لمحمد ﷺ .

المقصود أن كل شيء بتصريف الله وتديره ، فلا أحد يملك معه شيئاً حتى يملكه هو ما يريد ، فله الأمر من قبل وجود الخلق ، ومن بعد وجودهم ، وما بين ذلك فلا يخرج من قبضته شيء ، فإذا وقع في خلقه خير وفضل فبرحمته التى سبقت منه لهم ، وإن وقع غير ذلك ، فبعد له وسبب ذنوب خلقه ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وأمره تعالى غير خلقه وأفعاله ، فلهذا قال ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فالتنزل فعل جبريل ، ولا يقع إلا بأمر الله تعالى فأمره تعالى سابق خلقه وما يفعلونه .

ذكر ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ قال : احتبس جبريل عن النبي ﷺ حتى تكلم المشركون فى ذلك ، واشتد ذلك على نبي الله ، فأتاه جبريل ، فقال : اشتد عليك احتباسنا عنك ، وتكلم فى ذلك المشركون ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، إذا أمرنى بأمر أطعته ، ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ أى بقول ربك ، ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ معناه : له ما بين أيدينا من أمر الآخرة لأن ذلك لم يجيء [وهو

(١) شرح الأربعين ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٩ .

آت] ، فهو بين أيديهم ، وما خلفنا من أمر الدنيا ، وذلك ما قد خلفوه فمضى ، فصار خلفهم بتخليفهم إياه ، وما بين ذلك ما لم يمض من أمر الدنيا إلى الآخرة»^(١) .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى أنه تعالى علم كل شيء فلا يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه صغير أو كبير ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر إلا في كتاب مبين ، قد كتبه قبل وجود خلقه لا من خشية نسيان أو فوات .

ووجه الاستشهاد بهذا الحديث : أن الأمر الذى قال جبريل عنه ﴿ وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ يدخل فيه الأمر الكونى القدرى الذى سبق كل ما هو كائن ، والأمر الشرعى التكليفى ، ونزول جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا بالخير والبركة والنصر والتأييد للمؤمنين فهو مما سبقت به كلمته تعالى لرسوله ومن معه والله أعلم .

وقال البخارى فى كتابه خلق أفعال العباد : « قال الله — عز وجل — عن جبريل : ﴿ وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فبين أن التنزل غير الأمر»^(٢) وتقدم أن أمر الله سابق لخلقه .

٨١ — قال : « حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرث بالمدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، فسألوه ، فقام متوكئا على العسيب ، وأنا خلفه ، فظننت

(١) تفسير الطبرى ج ١٦ ص ٤٠١ — ٤٠٥ بعض التصرف .

(٢) ص ١٨٣ تحقيق بدر البدر .

أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فقال بعضهم لبعض ، قد قلنا لكم لا تسألوه .

قال ابن جرير : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ يعني أنه من الأمر الذى يعلمه الله دونكم ، فلا تعلمونه ، ويعلم ما هو .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . خرج الكلام خطابا لمن خطب به ، والمراد جميع الخلق ، لأن علم كل أحد سوى الله — تعالى — وإن كثرت فهو في علم الله تعالى قليل ، والمعنى : وما أُوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلا من كثير مما يعلم الله ^(١) .

قوله : « في حرث بالمدينة » في رواية لابن أبى مردويه : « في حرث للأنصار » ، وعند مسلم « كان في نخل » وكل هذه الألفاظ تؤكد أن هذه الواقعة كانت في المدينة ، ومعلوم أن سورة الإسراء مكية ، فإما أن يقال : إن هذه الآية مدنية ، وهو الأوجه ، فكثير من السور المكية يكون فيها آيات مدنية ، أو يقال : إنها نزلت مرتين للتأكيد ، كما قيل في الفاتحة ، وغيرها .
وأما كونه صلى الله عليه وسلم لم يجبهم بها من أول وهلة ، فلعله كان ينتظر الأمر يأتيه من الله ، إما بزيادة بيان أو بغير ذلك والله أعلم .

قوله : « وهو متكىء على عسيب » أى معتمد عليه وهو يمشى ، والعسيب بوزن عظيم هو جريد النخل ، بمنزلة الغصن من الشجرة ، ويسمى عسيبا إذا كان فيه خوصه ، فإذا أزيل الخوص فهو جريدة .

قوله : « فظننت أنه يوحى إليه » في الرواية الأخرى « فعلمت أنه يوحى

(١) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ١٥٧ .

إليه « وقد يستعمل الظن بمعنى العلم .

قال ابن كثير : « قوله ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء — تبارك وتعالى — .

والمعنى : أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه — تعالى — .

وقد اختلف في الروح المسئول عنها هنا ، فقيل : المراد أرواح بنى آدم ، قال العوفي : عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الآية ، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التى في الجسد ، وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل فيه شيء فلم يجر إليهم جوابا ، فأتاه جبريل ، فقال له : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فأخبرهم النبي ﷺ بذلك ، فقالوا : من جاءك بهذا ؟ فقال : « جاءنى به جبريل من عند الله » .

وقيل : المراد بالروح هنا جبريل — عليه السلام — قاله قتادة .

وقيل : المراد : ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ يقول : الروح ملك عظيم .

وقيل : المراد طائفة من الملائكة ^(١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١١٢ - ١١٣ طبعة الشعب .

وقال الحافظ : « قال الأكثر : سألوه عن الروح التى تكون بها الحياة فى الجسد ، وقال أهل النظر : سألوه عن كيفية مسلك الروح فى البدن ، وامتزاجه به وهذا هو الذى استأثر الله بعلمه .

وقال القرطبي : الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان ، لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله ، ولا تجهل أن جبريل ملك ، وأن الملائكة أرواح .

وقال الرازى : المختار أنهم سألوه عن الروح الذى هو سبب الحياة ، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه .

وبيانه : أن السؤال عن الروح يحتمل أن يكون عن ماهيته ، أو عن صفته ، أو عن كيفية تعلقه بالبدن ، أو غير ذلك ، وقد سكت السلف عن البحث فى هذه الأشياء»^(١) .

وقال ابن القيم : « فى المراد بالروح فى هذه الآية خلاف بين السلف والخلف .

وأكثر السلف ، بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم ، بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملك عظيم»^(٢) .

قال الحافظ : « الراجح أنها روح الإنسان » . وهذا هو الظاهر أن المراد : الروح الذى تحصل به الحياة ، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين من المتأخرين وشرح الحديث .

وأما قول ابن القيم رحمه الله : « ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف

(١) الفتح ج ٨ ص ٤٠٢ بتصريف .

(٢) الروح ص ٢٣٧ .

إلا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله ، لا يعلمها الناس ، وأما أرواح
بنى آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف من الناس ، من أهل الملل ،
وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة»^(١) .

فيقال : بل الروح من الغيب الذى لا يعلمه الناس ، فإن هذه الروح التى
فى بنى آدم وإن تكلم فيها طوائف من الناس فهى مجهولة الحقيقة ، لا يعلمها
إلا الله ، والذين تكلموا فيها تكلموا بالظنون ، ولم يصلوا إلى معرفة شىء من
حقيقتها .

« قال بعض السلف فى تفسيرها : جرى بأمر الله فى أجساد الخلق ، وبقدرته
استقر ، وهذا بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان»^(٢) .

« قوله : ﴿ قُلِ أَلْرُوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ من المعلوم قطعاً أنه ليس المراد بالأمر
ها هنا الطلب الذى هو أحد أنواع الكلام ، فيكون المعنى : إن الروح كلامه
الذى يأمر به ، بل المراد بالأمر هنا : المأمور ، وهو عرف مستعمل فى لغة
العرب ، وفى القرآن منه كثير ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى مأموره
الذى قدره ، وقضاه وقال له : كين فيكون ، وقوله : ﴿ فَمَا أَعْنَتُ عَنْهُمْ
آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾^(٣) أى
مأموره ، الذى أمر به ، من إهلاكهم»^(٤) .

ومقصود البخارى من الحديث ، قوله : ﴿ قُلِ أَلْرُوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ يعنى
أنها كانت ووجدت بأمر الله ، فأمر الله ليس هو الروح ، وإنما وجدت الروح

(١) كتاب الروح ص ٢٣٧ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الآية ١٠١ من سورة هود .

(٤) المرجع المذكور .

بأمره ، وهو سابق لما وجد به .

٨٢ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلماته ، بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه ، مع ما نال من أجر أو غنيمة » .

« تكفل » معناه ضمن له حصول ما ذكر ، فلا يمكن فواته ، لأن الله — تعالى — إذا ضمن شيئاً فلا بد من حصوله لمن ضمنه له .

وفي رواية بدل « تكفل » « انتدب الله لمن خرج » ، ومعناه سارع بثوابه وحسن جزائه ، وقيل : أجاز إلى المراد ، ففي الصحاح : ندبت فلاناً فانتدبت أى أجاز إليه ، وقيل : معناه تكفل بالمطلوب ، ويدل عليه رواية « تكفل »^(١) .

قلت : المعنى الأخير هو الصواب ، والمعنيان الأولان يدخلان فيه ، وقد جاء في رواية مسلم « تضمن الله لمن خرج في سبيله » ، والمعنى واحد . وهذا من باب التأكيد ، وإلا فوعد الله لا بد من وقوعه ، فإن الله لا يخلف وعده ، والتكفل : وعد وزيادة تأكيد لوقوعه بالضمان .

قوله : « لمن جاهد في سبيله » الجهاد ، والمجاهدة : است فراغ الوسع في مدافعة العدو ، فهو بذل للجهد بالنفس والمال .

قال الراغب : « الجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها في قوله — تعالى — ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾

(١) الفتح ج ١ ص ٩٣ .

فِي اللَّهِ حَقٌّ جِهَادِهِ ﴿١﴾ ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿٢﴾
و ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ﴾ ﴿٣﴾ .

والمجاهدة تكون باليد ، واللسان «(٤)» .

وقال الحافظ : « الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة : المشقة ، يقال : جهدت
جهادا بلغت المشقة . وشرعا بذل الجهد في قتال الكفار ، ويطلق أيضا على
مجاهدة النفس ، والشيطان ، والفساق .

فأما مجاهدة النفس ؛ فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم على
تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان ؛ فعلى دفع ما يأتي به من الشهوات ، وما يزينه من
الشهوات .

وأما مجاهدة الكفار ؛ فيقع باليد ، والمال ، واللسان ، والقلب .

وأما مجاهدة الفساق ؛ فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب «(٥)» .

« سبيل الله » طريقه الذي شرعه لعباده المؤمنين ، وهو دينه وشرعه .

قوله : « لا يخرجهم إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلماته » أى ليس له
أى دافع غير ذلك ، بل الجهاد في سبيل الله ، والإيمان بوعده للمجاهدين في
سبيله هو الحامل له على الخروج ، وهذا هو الإخلاص لله تعالى في الجهاد ،

(١) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤١ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٧٢ من سورة الأنفال .

(٤) المفردات ص ١٠١ .

(٥) الفتح ج ٦ ص ٣ .

والإخلاص هو الذى يجعل العمل القليل كثيرا عظيما ، مع أنه شرط فى قبول العمل .

والتصديق بكلمات الله — تعالى — يشمل الإيمان بكلماته الأمرية الشرعية والعمل بها ، والإيمان بكلماته الكونية القدرية ، وهى التى سبقت بتقدير الأشياء كلها قبل وجودها .

وهذه الجملة هى المقصودة من الحديث هنا ، لهذا المعنى المذكور .

قوله : « بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » هذا هو الذى كفله الله لمن يخرج مجاهدا فى سبيله . وسبيل الله تعالى هو الجهاد لإعلاء كلمته التى هى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أى عبادة الله وحده ، ومتابعة رسوله ﷺ وأن لا يحكم إلا بشرعه ، ولا يتعبد إلا بما جاء به رسوله .

فهذا هو غاية الجهاد فى سبيل الله ، فمن خرج مجاهدا لهذا الغرض ، فإن قتل ، أو مات فى مخرجه ذلك فهو فى الجنة ، وإن فاته ذلك فلا بد أن يصل إلى مسكنه الذى خرج منه بما نال من الأجر ، والغنيمة ، فهو متحصل على إحدى الحسينيين على كل تقدير ، وهذا هو الربح .

٨٣ — « حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن أبى موسى ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل حمية ، ويقاقل شجاعة ، ويقاقل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟

قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .
الحمية : مأخوذة من الحم : وهو الحرارة المتولدة من الجواهر المتوقدة ، كالنار والشمس .

وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية .

وإذا كانت من أجل الباطل ، ومدافعة الحق ، فهي حمية الجاهلية .

والمقصود بالحمية : هنا القتال لأجل القومية ، أو الدنيا من أرض أو ملك أو غير ذلك لا لأجل إعلاء دين الله تعالى .

وأما الشجاعة : فهي الجرأة والإقدام على العدو بقوة ، ودون تهييب ، وهي من الصفات المحمودة ، إذا كانت في الحق ، وهي من المفاخر التي يفتخر بها الناس فقد يقدم المرء على القتال لأجل إظهار شجاعته ، ووجه للقتال فقط .

وأما الرياء ، فهو : مراعاة الناس للأعمال الحسنة ، حتى يثنى عليه أو يجوبه ونحو ذلك ، وهذا كله من الشرك ، فقد يكون شركا أكبر ، وقد يكون أصغر على حسب الدافع وما يقوم بالنفس .

وقوله : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » جواب جامع شامل لما ذكر في السؤال وغيره ، من الأغراض ، والدوافع التي قد تدفع الإنسان إلى القتال ، فمن كان قصده في قتاله ، رفع دين الله وإعزازه ، وأن لا يعبد معه غيره ، ولا يحكم إلا بشرعه ، فهو في سبيل الله ، وإلا فليس في سبيل الله .

والمقصود من الحديث قوله : « لتكون كلمة الله هي العليا » والذي يقابل لذلك هو الذي سبق له كلمة الله الكونية أنه من المنصورين ، لأنه من أتباع المرسلين فهو منهم في هذا الحكم ، وهذا وجه الشاهد ، والله أعلم .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء ، وإنما إذا أمر به مرة واحدة كان من غير تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى

لا يمانع ولا يخالف»^(١) .

قال ابن بطال : « غرضه الرد على المعتزلة ، في زعمهم أن أمر الله مخلوق ، فبين أن الأمر هو قوله للشئ » كن « ، فيكون بأمره له ، وأن أمره ، وقوله بمعنى واحد ، وأنه يقول : « كن » حقيقة ، وأن الأمر غير الخلق ، لعطفه عليه بالواو »^(٢) .

وقال الحافظ : « قال ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية :

حدثنا أبي قال : قال أحمد بن حنبل : دل على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة « أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب » الحديث ، وإنما نطق القلم بكلامه لقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، فكلام الله سابق على أول خلقه ، فهو غير مخلوق .

وعن الربيع بن سليمان ، سمعت البويطي يقول : خلق الله الخلق بقوله : « كن » فلو كان « كن » مخلوقا ، لكان قد خلق الخلق بمخلوق ، وليس كذلك »^(٣) .

وقال البخاري : « قال سفيان إن كل شيء مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه لأنه يقول للشئ » كن « فيكون ، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله »^(٤) .

وقال : « وقيل لأبي عبيد : إن المريسي سئل عن ابتداء خلق الأشياء ، وعن قول الله — عز وجل — ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ

(١) تفسير ابن كثير ملخصا ج ٤ ص ٤٩٠ — ٤٩١ .

(٢) من الفتح ج ١٣ ص ٤٤٣ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤٤٤ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٣٤ .

فَيَكُونُ ﴿؟﴾ فقال : كله صلاة^(١) فمعنى قوله : ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ ﴿صَلَّةٌ﴾ ،
كقوله : قالت السماء فأمطرت ، وكقوله : قال الجدار فمال ، قال
الله — تعالى — : ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾^(٢) والجدار لا إرادة له ،
فمعنى قوله : إذا أردناه كونه ، فكان .

لم يكن عند المريسي جواب أكثر من هذا ، يعنى أن الله — تعالى — لا
يتكلم .

قال أبو عبيد ، القاسم بن سلام : أما تشبيه قول الله — تعالى — : ﴿إِذَا
أَرَدْتَهُ﴾ ، بقوله : قالت السماء فأمطرت ، أو : قال الجدار فمال .

فإنه لا يشبهه ، وهذه أغلوطة أدخلها ، لأنك إذا قلت : قالت السماء ،
ثم سكت ، لم يدر ما معنى « قالت » ، حتى تقول : فأمطرت .

وكذلك إذا قلت : أراد الجدار ، ثم لم تبين ما معنى : أراد ، لم يدر
ما معناه ، وإذا قلت : « قال الله » اكتفيت بقوله « قال » . فقال : كاف ،
لا يحتاج إلى شيء يستدل به على « قال » ، كما احتجت ، « إذا قال الجدار
فمال » ، وإلا لم يكن لقال الجدار معنى .

ومن قال هذا فليس شيء من الكفر إلا وهو دونه .

ومن قال هذا ، فقد قال على الله ما لم يقله اليهود ، والنصارى ، ومذهبه
التعطيل للخالق^(٣) .

يعنى أن القول إذا أسند إلى ما لا يعقل فلا بد أن يقيد بالفعل الذى يصدر
من ذلك المسند إليه ، لأن القول عبارة عن ذلك الفعل .

(١) يعنى زائدا ليس له معنى .

(٢) الآية ٧٧ من سورة الكهف .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٣٥ .

فالمراد بقوله : قال الجدار ، فمال : الإخبار عن ميل الجدار ، وقوله حسب ما يليق به ، أما إذا أسند القول إلى من يتكلم حقيقة فلا يحتاج إلى أى قيد ، بل إذا قلت : قال أبو بكر ، فهم السامع أنه نطق بكلام ينتظر أن نذكره له .
وأراد البخارى أن يبين أن القول غير الشىء الذى أراد الله إيجاده ، فالقول صفة لله — تعالى — وبه يوجد الأشياء التى يريد وجودها ، فإذا قال لها : « كوني » كانت بلا مهلة ولا امتناع ، والقول والأمر سواء .

٨٤ — قال : « حدثنا شهاب بن عباد ، حدثنا إبراهيم بن حميد ، عن إسماعيل ، عن قيس ، عن المغيرة بن شعبة ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين على الناس ، حتى يأتهم أمر الله » .

فى رواية مسلم عن المغيرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يزال قوم من أمتى ظاهرين على الناس حتى يأتهم أمر الله وهم ظاهرون »^(١) .

وفيه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »^(٢) .

وفيه أيضا من حديث جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة »^(٣) .

قوله : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين » أى يستمرون فى الظهور على

(١) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٢٣ رقم ١٩٢١ .

(٢) المرجع المذكور رقم ١٩٢٠ .

(٣) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٢٤ رقم ١٩٢٣ .

الناس يعنى أنهم يكونون على الحق منصورين ظاهرين على عدوهم .
قوله : « حتى يأتيهم أمر الله » أى حكمه وقضائه ، إما بقيام الساعة كما
في حديث جابر : « إلى يوم القيامة » أو بالريح التى يموتون منها ، كما جاء
في الحديث .

قال الحافظ : « أى غالبون من خالفهم ، أو المراد بالظهور أنهم غير
مستترين ، بل مشهورون ، والأول أولى ، لما في مسلم « لن يرح هذا الدين
قائما تقاتل عليه عصابة من المسلمين ، حتى تقوم الساعة » ، وفيه أيضا من
حديث عقبة بن عامر ، « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين
لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة »^(١) . والمراد بالساعة
الريح التى تقبض روح كل مؤمن ، وذلك قبيل الساعة ، فلا يبقى إلا شرار
الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة ، وهذا معنى الذى في
مسلم : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » .

وهذه الطائفة هم أتباع سنة رسول الله ﷺ .

قال البخارى — رحمه الله — : « هؤلاء هم أهل العلم »^(٢) أى العلم
الشرعى الذين علموا ما جاء به الرسول ﷺ وعملوا به .

وقال الترمذى بعد روايته لهذا الحديث : « سمعت محمد بن إسماعيل يقول :
سمعت على بن المدينى يقول : هم أصحاب الحديث »^(٣) .

وقال الحاكم : سمعت أبا عبد الله ، محمد بن على بن عبد الحميد الأدمى
بمكة يقول :

(١) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٢٤ — ١٥٢٥ رقم ١٩٢٢ و ١٩٢٤ .

(٢) انظر الفتوح ج ١٣ ص ٣٩٣ .

(٣) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٠٤ — ٥٠٥ رقم ٢٢٢٩ .

سمعت موسى بن هارون ، يقول : سمعت أحمد بن حنبل ، وسئل عن معنى هذا الحديث ، فقال : « إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم » ، وهذا إسناد صحيح ، قال الحاكم : « فلقد أحسن أحمد ابن حنبل في تفسير هذا الخبر ، أن الطائفة المنصورة ، التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة ، هم أصحاب الحديث »^(١) .

والمقصود من هذا الحديث قوله : « حتى يأتهم أمر الله » وهو أمره الكوني القدرى الذى قضاه ، وكتبه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، فأوحاه الله إلى رسوله ليعلم أمته به فيؤمنوا به ، ويصدقوه ، فإذا وصل وقته قال الله تعالى : كن ، فيكون كما أراد .

ومراد البخارى أن أمر الله من صفاته ، فهو غير المخلوق ، وغير المأمور ، وهو مرادف للقول .

٨٥ — قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر ، حدثنى عمير بن هانىء ، أنه سمع معاوية ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

فقال مالك بن يخامر : سمعت معاذاً يقول : وهم بالشام ، فقال معاوية : « هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول : وهم بالشام » .

« الأمة » تطلق على الجماعة من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتُقُونَ ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) علوم الحديث ص ٣ .

(٢) الآية ٢٣ من سورة القصص .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا ﴿١﴾ .

فالأمة كل جماعة يجمعهم أمر من الأمور ؛ إما دين ، أو زمان ، أو مكان .
ويراد بها الملة والدين كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ (٢) .
ويراد بها الطائفة من الزمان ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ (٣)
أى بعد حين .

ويراد بها الإمام القدوة المتبع كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ (٤) . والمقصود أن جماعة من هذه الأمة تبقى ظاهرة على دين الله ، منصورورة إلى قيام الساعة وهذا من فضل الله تعالى أن جعل الحق باقيا ، لا يذهب ولا يضمحل وإن كثر محاربوه وأعداؤه ، كما هو الواقع والحمد لله على ذلك .

قوله : « لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم » هذا من نصر الله تعالى ، وتأيدته لهذا الدين ، ومن آياته بقاء هذه الأمة ظاهرة ، منصورورة على عدوها ، مع كثرة الأعداء ، ومحاربتهم لها بأنواع الأسلحة المادية والمعنوية ، ومع خذلان من هم على دينها من المسلمين .

فقوله : « من كذبهم » يقصد بهم الكفار من جميع الأجناس ، من ملاحدة ، ويهود ، ونصارى ، ومشركين ، ومرتدين وغيرهم .

وقوله : « ولا من خذلهم » يقصد بهم من قعد عن نصرتهم ممن هو على

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٤٥ من سورة يوسف .

(٤) الآية ١٢٠ من سورة النحل .

دينهم ممن آثر الحياة الدنيا ، وركن إلى الدعة والراحة .

قال النووي : « المراد بقوله : « حتى يأتي أمر الله » الريح التي تأخذ كل مؤمن ومؤمنة ، ورواية « حتى تقوم الساعة » أو « إلى يوم القيامة » ، يعني قريبا وهو خروج تلك الريح .

وأما هذه الطائفة فقال البخارى : هم أهل العلم .

وقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث ، فلا أدرى من هم .
وقال القاضى عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث .

قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف ، وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض .

وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة ، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبى ﷺ إلى الآن ، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور . وفيه دليل لكون الإجماع حجة ^(١) .

روى مسلم فى الصحيح من حديث سعد بن أبى وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق ، حتى تقوم الساعة » ^(٢) .

قال النووي : « قال على بن المدينى : هم العرب ، والمراد بالغرب الدلو

(١) شرح مسلم ج ١٣ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) مسلم ج ٣ ص ١٥٢٥ رقم ١٩٢٥ .

الكبيرة وهي خاصة بهم .

وقال آخرون : المراد الغرب من الأرض . وقال القاضي عياض : المراد بأهل الغرب : أهل الشدة والجلد»^(١) .

قال الحافظ : « ذكر يعقوب بن شيبه ، عن علي بن المديني ، قال : المراد بالغرب الدلو ، أى العرب ، لأنهم أصحابها ، لا يستقى بها أحد غيرهم .

لكن فى حديث معاذ : « وهم أهل الشام » ، فالظاهر أن المراد بالغرب البلد لأن الشام غرب الحجاز ، كذا قال ، وليس بواضح^(٢) .

ووقع فى بعض طرق الحديث « المغرب » وهو يرد التأويل ، ولكن يحتتمل أن يكون بعض الرواة نقله بالمعنى الذى فهمه .

وقيل هم أهل القوة ، والاجتهاد .

ووقع فى حديث أبى أمامة ، عند أحمد أنهم بيت المقدس^(٣) ، وعند الطبرانى نحوه ، وله أيضا فى الأوسط ، عن أبى هريرة : « يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس ، وما حوله ، لا يضرهم من خذلهم ظاهرين إلى يوم القيامة » .

قلت : « ويمكن الجمع بأن المراد ، قوم يكونون ببيت المقدس ، وهى من الشام ويسقون بالغرب ، وتكون لهم قوة فى جهاد العدو » ، ثم ذكر كلام النووى المتقدم ، ثم قال : « ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد ، بل

(١) شرح مسلم ج ١٣ ص ٦٨ ملخصا .

(٢) يعنى أن الشام ليست غرب الحجاز ، وإنما هى شماله كما هو معلوم .

(٣) فى المسند عن أبى أمامة ، قال : لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام ، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق ، وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالشام » المسند ج ٥ ص ٢٤٩ ، فلعل الحافظ لديه نسخة فيها ما ليس فى المطبوعة فإن فيها سقطا .

يجوز اجتماعهم في قطر واحد ، وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد ، وأن يكونوا في بعض منه دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم ، أولاً ، فأولاً ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقضوا جاء أمر الله» (١) .

وقوله : « فإذا انقضوا جاء أمر الله » هذا خلاف ظاهر الحديث ، فإن أمر الله يأتي عليهم .

والمقصود من الحديث قوله : « حتى يأتي أمر الله » أى الأمر الذى يكون بقوله « كن » فأمره هنا مأموره ، الصادر عن قوله ، فقوله الذى هو « كن » يصدر عنه ذلك الأمر الآتى والفرق بينهما واضح فإن قوله صفة له لا يدخل في المخلوقات ، وأما مأموره كالريح التى تقبض كل مؤمن ومؤمنة ، والساعة التى هى النفخ فى الصور فإن ذلك مأموره ، والله أعلم .

٨٦ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن عبد الله بن أبي حسين ، حدثنا نافع بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : وقف النبي ﷺ على مسيلمة فى أصحابه ، فقال : « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فىك ، ولن أدبرت ليعقرنك الله » .

ذكر هذا الحديث فى علامات النبوة ، وفى المغازى بأبسط مما هاهنا ، ولفظه « عن ابن عباس ، قال قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ، وقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبي ﷺ قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : لو

(١) الفتح ج ١٣ ص ٢٩٥ ملخصاً .

سألتنى هذه القطعة ما أعطيتها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت وهذا ثابت يجيبك عنى ، ثم انصرف عنه .

قال ابن عباس : فسألت عن قول رسول الله ﷺ : « إنك أرى الذى أريت فيه ما أريت » فأخبرنى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان بعدى أحدهما العنسى ، والآخر مسيلمة »^(١) .

وهذا كان فى آخر حياة رسول الله ﷺ كان فى سنة عشر من الهجرة وكان مسيلمة مع وفد قومه بنى حنيفة .

قال الواقدى : كانوا بضعة عشر رجلا ، وكان معهم الرحال بن عنقوة ومسيلمة بن حبيب الكذاب ، وكان فى رحالهم ، فلما أسلموا ، وأعطاهم جائزتهم ، ذكروا له أن مسيلمة فى رحالهم ، فقال : « أما إنه ليس بشركم مكانا » يعنى لكونه بقى يرصد رحالهم ، ويخدمهم فى ذلك .

فأخبروه بما قاله رسول الله ﷺ فتعلق بهذه الكلمة ، وقال : إنما قال ذلك لأنه عرف أن الأمرلى من بعده ، واشتدت فتنته لما شهد له الرحال ، بأنه شريك فى النبوة ، وقد كان تعلم شيئا من القرآن ، فكان يلقي على مسيلمة مما يحفظه من القرآن ، فيدعى مسيلمة أنه أوحى إليه ، فعظمت بذلك فتنته »^(٢) .

هذا خلاصة ما ذكره المؤرخون ، عن ابن إسحاق وغيره .

قال الحافظ : « وسياق ما ذكره البخارى يخالف ما ذكره ابن إسحاق :

(١) البخارى ج ٥ ص ١٤٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٥٩ .

أنه قدم مع وفد قومه ، وأنهم تركوه في رحالهم يحفظها لهم ، وذكروه له إلى آخر ما ذكره ، وهذا مع شذوذه ، ضعيف السند لانقطاعه .
وأمر مسيلمة كان عند قومه أكبر من ذلك ، فقد كان يقال له : رحمن الإمامة لعظم قدره عندهم .

وكيف يلتزم هذا الخبر الضعيف مع قوله في هذا الحديث الصحيح أن النبي ﷺ اجتمع به ، وخاطبه ، وصرح له بحضرة قومه أنه لو سأله قطعة الجريد التي كانت بيده ما أعطاه إياها .

ويحتمل أن مسيلمة قدم مرتين ، الأولى كان تابعا ، والرئيس غيره ، ولهذا أقام في رحالهم يحفظها ، ومرة متبوعا ، وفيها خاطبه النبي ﷺ ، أو القصة واحدة ، وكان تخلفه في رحلهم أنفة منه واستكبارا^(١) والظاهر أنها مرة واحدة ، والمعتمد ما ثبت في الصحيحين ، كما ذكر في هذا الحديث .

ولما علم النبي ﷺ أن قصده الرئاسة والعلو ، وأنه ليس أهلا لما يطمع فيه ، وأن ذلك يخالف ما جاء به ﷺ ، فلم يأت لتأسيس حكم يورث من بعده ، وإنما جاء بالنبوة ، كما أخبر أن خلافة النبوة بعده تكون ثلاثون سنة ثم يكون ملكا^(٢) .

ولهذا قال له : « لو سألتني هذه القطعة من الجريد التي لا تساوى شيئا لم أعطكها ، لأنها خير منك ، ولأنك ليس لك من الأمر شيء ولا تستحق ، وما أنت بأهل لذلك .

قوله : « ولن تعدوا أمر الله فيك » يعنى حكمه وقضائه ، من شقاوتك التي حكم بها عليك قبل وجودك ، وأمر الله هنا هو أمره الكوني القدرى

(١) الفتح ج ٨ ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) انظر المسند ج ٥ ص ٤٤ وستن أبى داود رقم ٤٦٣٥ .

وهذه الجملة هي المقصود من الحديث كما مر التنبيه على ذلك .

قوله : « ولئن أدبرت ليعقرنك الله » أى أعرضت عن الحق الذى جاء به رسول الله ﷺ فإنك لا تعجز الله فسوف يأخذك أخذ عزيز مقتدر ، وقد فعل ، فقتل شر قتلة ، فقطع دابر القوم الذين لا يؤمنون والحمد لله رب العالمين .

٨٧ — قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن عبد الواحد ، عن الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة ، عن ابن مسعود ، قال : بينا أنا أمشى مع النبي ﷺ في بعض حرث المدينة ، وهو يتوكأ على عسيب معه ، فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه أن يجيء فيه بشيء تكرهونه .

فقال بعضهم : لنسألنه ، فقام إليه رجل منهم ، فقال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه النبي ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه .

فقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتُوا مِنْ أَعْلَمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قال الأعمش : « هكذا في قراءتنا » .

تقدم أن هذه الواقعة كانت في المدينة ، وفي هذه الرواية نص على ذلك وفي هذا دليل على أن اليهود يعلمون أنه نبي ، لعلمهم أن الروح لا يعلم حقيقتها إلا الله ، ولأنهم قالوا : لا تسألوه أن يجيء فيه بشيء تكرهونه وهذا لا يأتي إلا بالوحى ، والذى منعهم من متابعته الحسد ، والبغى والكبر والعناد ، وقد تقدم شرح هذا الحديث .

والمقصود هنا قوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أى مأموره الذى قال له كن فيكون ، فهو تعالى أوجد الأرواح بقوله ، فقوله غير الذى أوجده به كما تقدم إيضاح ذلك .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (١) .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) سخر ذلك .

هذه ثلاث آيات ، أما الأولى والثانية فمعناها واحد .

قال الحافظ : « جاء في سبب نزولها ما أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح ، عن ابن عباس ، في قصة سؤال اليهود عن الروح ، ونزول قوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، قالوا : كيف وقد أوتينا التوراة .

فنزلت : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق في تفسيره من طريق أبي الجوزاء ، قال : لو كان كل شجرة في الأرض أقلاما ، والبحر مداد ، لنفد الماء ، وتكسرت الأقلام قبل أن تنفد كلمات الله .

(١) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

(٣) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

وعن معمر ، عن قتادة ، أن المشركين قالوا : في القرآن : « يوشك أن
ينفذ فنزلت »^(١) .

وقال ابن جرير : « يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ
مِدَادًا ﴾ للقلم الذي يكتب به « كلمات ربي لنفد » ماء البحر قبل أن تنفذ
كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » يقول : ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من
الماء مددا من قولك : جئتك مددا لك »^(٢) .

وقال في تفسير آية لقمان : « يقول تعالى ذكره : لو أن شجر الأرض
كلها ، برت أقلاما « والبحر يمهده » يقول : والبحر له مداد ، والهاء في قوله
« يمهده » عائدة على البحر ، وقوله : « من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات
الله » في هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة الظاهر عليه عنه ، وهو « يكتب
كلامه بتلك الأقلام ، وبذلك المداد ، لتكسرت تلك الأقلام ، ولنفد ذلك
المداد ولم تنفذ كلمات الله »^(٣) .

وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن عظمته ، وكبريائه ، وكلماته التامة
التي لا يحيط بها أحد ، ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمهده
من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله « أى ولو أن جميع أشجار الأرض
جعلت وجعل البحر مدادا ، ومده سبعة أبحر معه ، فكتب بها كلمات الله
لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مدد ، وإنما ذكرت السبعة
على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ، ولا أن هناك سبعة أبحر تحيط بالأرض .
فليس المراد بقوله : « بمثله » آخر فقط بل بمثله ، ثم بمثله ، ثم بمثله ، ثم

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٤٥ .

(٢) تفسير الطبري ج ١٦ ص ٣٩ .

(٣) المصدر المذكور ج ٢١ ص ٨٠ - ٨١ .

هلم جرا ، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته» (١) .

ففى هاتين الآيتين أكبر دليل على أن كلام الله غير مخلوق ، وأنه من صفاته ، إذ المخلوق لا بد أن يكون له نهاية ونفاد ، فإنه مسبوق بالعدم فلا بد أن يلحقه العدم .

أما كلام الله تعالى فلا نهاية له ، ولا نفاد ، وقد قرب تعالى إلى أفهام المخاطبين بما ضرب من المثل بما ذكر من كون البحار كلها ويزاد معها مثلها مرات كثيرة وكون جميع ما وجد على وجه الأرض من عود أقلاما يكتب بها كلامه تعالى لنفد البحر ، وأمسحت الأقلام ، وكلمات الله كما هي لم تنقص .

وليس معنى قوله : ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ أن كلمات الله لها نهاية ، وأنها يمكن أن تنفد ، بل المعنى أنها لا نهاية لها أبدا ، لأنها من صفاته تعالى .

وليس هذا وصف المخلوق ، وهذا وجه استدلال البخارى بهاتين الآيتين ومراده الرد على القائلين بخلق كلام الله تعالى .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الآية . ففيها يُعْلَمُ تعالى عباده بأنه ربهم ومالكم ، المتصرف فيهم كيف يشاء ، وهو الذى يصلح لهم حياتهم ، ويربيهم بنعمه الظاهرة والباطنة .

وأنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وقد جاء بيانها فى السنة أن أولها الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، وأنه بعد خلقه السماوات والأرض استوى على عرشه ، وهو السرير العظيم ، وهو سقف المخلوقات ، وقد تقدم الكلام فيه .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥١ ملخصا .

ويعلمهم تعالى أنه يدخل الليل في النهار ، والنهار في الليل ، أى يجعل أول هذا متصلاً بآخر هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾^(١) فكل واحد يطلب الثاني أى يتبعه حيثما أى سريعاً .

ويعلمهم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره « أى منقادة طائفة لأمره فجميع الكون بما فيه يسير حسب مشيئته ، فالخلق والأمر له وحده .

وفسر البخارى كلمة « مسخر » بأنه مذل أى هى خاضعة له منقادة لأمره وهو تعالى لا يمتنع عليه شئ فكل شئ من حس وجامد فى الأرض والسموات وما بينهما مسخر لأمره الكونى القدرى .

﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى تعظم وتقدس عن قول الظالمين الذين لم يقدروه حق قدره ، و « العالمين » جميع الخلق ، فكل ما سواه تعالى عالم ، وهو ربهم الذى يتصرف فيهم كيف يشاء .

والمقصود من الآية قوله : « ألا له الخلق والأمر » فهو دليل على أن الخلق غير الأمر ، لعطف الأمر على الخلق ، لأن العطف كما هو معلوم يقتضى المغايرة وبهذه الآية استدل الأئمة على أن الكلام غير الخلق ، وبها وأمثالها ردوا على المعتزلة الذين قالوا بخلق الكلام .

قال البخارى : « والقرآن كلام الله غير مخلوق ، لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ فبين أن الخلائق ، والطلب الحثيث ، والمسخرات ، بأمره ، ثم شرح فقال : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) الآية ٦ من سورة الحديد .

قال ابن عيينة : قد بين الله الخلق من الأمر بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ فالخلق بأمره ، كقوله : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾^(١) وكقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٢) وكقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾^(٣) ولم يقل بخلقها .

حدثنا أصبغ ، أخبرني عبد الله بن وهب ، أخبرني يحيى بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : قلت لعبد الله بن عباس : ما القدر ؟ قال : يا مجاهد ، أين قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾^(٤) .

٨٨ — قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرج منه من بيته إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلمته ، أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى مسكنه ، بما نال من أجر أو غنيمة » .

تقدم هذا الحديث في باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وتقدم شرحه هناك .

والمقصود منه هنا ، قوله : « وتصديق كلمته » إذ هي غير الجهاد في سبيله ، وغير التصديق سواء قيل : هي كلمته الدينية الشرعية ، أو الكونية القدرية ، فكلمته من صفاته كما تقدم ، وهي غير خلقه ، هذا ما أراده البخاري رحمه الله من الحديث ، والله أعلم .

(١) الآية ٤ من سورة الروم .

(٢) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٤٥ .

قال البخارى : قال سفيان فى تفسيره : « إن كل شىء مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه لأنه إنما يقول للشىء كن ، فيكون ، فلا يكون شىء أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله »^(١) .
قال : « باب فى المشيئة والإرادة » .

أى مشيئة الله وإرادته ، وهذا مما يتعلق بربوبيته — تعالى — وهو رب كل شىء وخالقه ومالكة ، يدخل فى ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها مثل أفعال العباد ، فإنه — تعالى — خالق العبد وفعله ، كما سيأتى — إن شاء الله تعالى — بيان ذلك .

وهو سبحانه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون فى الوجود شىء إلا بمشيئته وقدرته ، ولا يمتنع عليه شىء يريد ، بل هو القادر على كل شىء .
كما أنه سبحانه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد ذكر الله — تعالى — مشيئته عامة فى القرآن ، فى ما يقرب من أربعمائة موضع .

كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(٢) وقوله : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾^(٤) .
وقوله : ﴿ تَوَاتَى الْمَلِكُ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكُ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾^(٥)

(١) خلق أفعال العباد ص ٣٤ تحقيق عميرة .

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٤٩ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٩٩ من سورة يونس .

وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴿١﴾ وقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢﴾ وقوله : ﴿ مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٣﴾ وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ﴿٤﴾ وقوله
 تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ ﴿٥﴾ ففى هذه الآيات
 ونحوها الرد على طائفتى الضلال ، نفاة المشيئة بالكلية ، ونفاة مشيئة الله لأفعال
 العباد وحركاتهم ، وهداهم ، وضلالهم ، وهذا هو مراد البخارى من هذا
 الباب وسيذكر تفصيلا لهذا الباب فى الأبواب الآتية .

والله سبحانه وتعالى علق وجود كل شىء وعدمه بمشيئته ، فمرة يخبر أن
 كل ما فى الكون بمشيئته ، وأخرى يخبر أن ما لم يشأه لم يكن ، ومرة يخبر
 أنه لو شاء لكان خلاف الواقع ، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذى قدره
 وكتبه ، وأنه لو شاء ما عصى ، ولو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم
 أمة واحدة .

فكل ما وجد من عين أو حركة ، أو موت أو حياة ، أو مضيئة أو عز
 أو ذل أو غير ذلك فهو بمشيئته ، وكل ما لم يوجد ، ولم يقع فهو لعدم مشيئته
 لوجوده ، وهذا معنى كونه على كل شىء قدير ، وهو حقيقة ربوبيته لكل
 شىء ، ومعنى كونه القيوم بتدبير عباده ، فلا خلق ، ولا رزق ، ولا عطاء
 ولا منع ، ولا قبض ، ولا بسط ، ولا ضلال ، ولا هدى ، ولا سعادة ،
 ولا شقاء إلا بمشيئته وتكوينه ، إذ لا مالك غيره ولا رب سواه ﴿٦﴾ .

-
- (١) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .
 (٢) الآية الأخيرة من سورة التكوير .
 (٣) الآية ٣٩ من سورة الأنعام .
 (٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .
 (٥) الآية ١٣٣ من سورة النساء .
 (٦) انظر شفاء العليل ص ٤٤ .

فمشيئته تعالى تتعلق بخلقه ، وأمره الكوني والشرعي ، بما يجب وما يكره ، كل شيء داخل تحت مشيئته ، فقد شاء وجود إبليس والشياطين ، والكفار والفساق ، وهو يكره ذلك ويغضه .

وكذلك ما يحبه ويرضاه كوجود الرسل والصدّيقين ، والشهداء والصالحين والطاعات ، وأمثال ذلك من امتثال أمره الديني الشرعي فهو أيضا بمشيئته .

وأما الإرادة فقد بين الله تعالى أنها نوعان :

/ أحدهما الإرادة الكونية القدرية ، وهي مرادفة للمشيئة ، وهذه الإرادة تستلزم وقوع المراد ولا بد ، ولا يلزم أن يكون مرادها محبوبا لله مرضيا له . بل قد يكون مكروها مسخوطا له ، ككفر الكافرين ، ومعاصي العاصين ، ووجود المفسدين .

وقد يكون مرادها محبوبا مرضيا لله تعالى كوجود إيمان المؤمنين ، وطاعات الطائعين ووجود رسل الله وعباده المخلصين ، والصدّيقين والشهداء والصالحين .

وهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ

(١) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٣٤ من سورة هود .

من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴿١﴾ ونحو ذلك من الآيات الدالة على عموم إرادته لما يشاء ، وأنه لا اراد لمراده تعالى ، ولهذا صارت هذه الإرادة مرادفة للمشيئة ، فالإرادة الكونية القدرية هي المشيئة ، ولهذا لا بد أن يقع مرادها .

والنوع الثاني : الإرادة الدينية الأمرية الشرعية ، وهي المذكورة في مثل قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴿٤﴾ وأمثال ذلك من الآيات فهذه الإرادة يجب الله مرادها ، ويأمر به ويرضاه ، ولا يلزم أن يقع المراد بها إلا أن يتعلق به الإرادة الكونية .

وقد أشار البخارى — رحمه الله — إلى نوعى الإرادة بالمثال ، فأشار إلى الإرادة الكونية بقوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، لأن الإرادة الكونية هي المشيئة العامة التي لا يخرج عنها شيء . وأشار إلى النوع الثانى من الإرادة بقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٦ من سورة المائدة .

(٤) الآيات ٢٦ — ٢٨ من سورة النساء .

بِكُمْ الْعُسْرُ ﴿﴾ فهذه الإرادة الدينية الأمرية ، التي تتضمن الأمر والمحبة والرضى ، فهذا ما دلت عليه نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومذهب أهل السنة وبه تتفق الدلائل ، وتنحل الإشكالات ، وتفصيل ذلك أن يقال :
الأشياء كلها لا تخرج عن أربعة أقسام :

« أحدها : ما تعلق به الإرادتان ، الكونية ، والدينية ، وهو ما يقع في الوجود من الأعمال الصالحة الموافقة لأمر الله وشرعه ، فإن الله أرادها دينا وشرعا ، فأمر بها ، وأرادها كونا ، وقدرا ، فوجدت ، ولولا إرادته إياها كونا لم توجد ، لأنه لا يوجد ما لا يريد وجوده ، ولا يمتنع عليه ما يريد وجوده كما تقدم .

والثاني : ما تعلق به الإرادة الدينية فقط ، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة ، فعصى أمره فيها الكفار ، والفساق ، فلم يفعلوها ، فتلك الأعمال تعلق بها الإرادة الدينية فقط ، لأنه أمر بها ، وطلب فعلها ، ولم يردها كونا وقدرا ، ولهذا تخلف وجودها ، وإن كان يجب وجودها ، ويرضاه ، ولكن لا يلزم وجود ما يجب ، ويرضى .

ولا يقال : هذا يخالف كونه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لأنه تعالى يريد قدرا وكونا ما لا يجب ويرضى ، كوجود إبليس ، وجنوده المفسدين في الأرض بالمعاصي والكفر والفسوق ، وذلك لحكم عظيمة يعلمها تعالى ، ويطلع على ما يشاء منها من يشاء من عباده .

الثالث : ما تعلق به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها ، كالمباحات والمعاصي ، فإنه لم يأمر بها ، ولم يردها ولم يجبهها ، إذ هو — تعالى — لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولولا إرادته الكونية ، وقدرته ، وخلقته لذلك لما كان شيء منها ، فإنه — تعالى — ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

الرابع : ما لم تتعلق به الإراداتان ، فهذا ما لم يكن ، ولن يكون من الأفعال والأعيان^(١) .

وبهذا البيان والتفصيل تزول الإشكالات التي يوردها أصحاب الشكوك والأهواء ، الذين لم يستنبروا بنور كتاب الله تعالى .

قوله : ﴿ تَوْتِي الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يخبر تعالى أن الملك بيده ، فيعطى ملك الدنيا من يشاء من عباده ، وينزعه ممن يشاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) فبين أن جميع التصرف في الكون ، ومن فيه بيده ، وأنه على كل شيء قدير .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾^(٣) في هذه الآية الكريمة الرد على طائفتي الضلال ، القدرية ، والجبرية ، حيث أثبت — تعالى — للعباد مشيئة تتعلق بأفعالهم ، وأخبر أن مشيئتهم ، وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم ، فلا تحصل لهم المشيئة ، ولا الفعل حتى يشاء تعالى ذلك وسيأتي تفصيل ذلك ، وبيان بطلان قول القدرية الذين يقولون : إن العباد يخلقون أفعالهم ويوجدونها استقلالاً دون مشيئة الله وقول الجبرية ، الذين يجعلون العبد بمنزلة الآلة التي لا تصرف لها ولا خيار .

قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٤) هذه الآية نزلت في عم النبي ﷺ أي طالب ، ففي الصحيحين

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ٨ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٣٠ من سورة هل أتى على الإنسان و ٢٩ من سورة التكوير .

(٤) الآية ٥٦ من سورة القصص .

عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه ، قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال : « أى عم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب — آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب ، وأنى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾^(١) الآية ، وأنزل الله في أبي طالب : وقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٢) .

قال ابن كثير : « يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد « لا تهدي من أحببت » أى ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ أَرَأَىٰ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) .

وهذه الآية أخص من ذلك كله ، فإنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ، أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب «^(٤)» .

(١) الآية ١١٣ من سورة التوبة .

(٢) انظر البخارى ج ٦ ص ٦٥ ومسلم فى الإيمان ج ١ ص ٢٤ .

(٣) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥٧ .

٨٩ — قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الوارث ، عن عبد العزيز ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعوتهم فاعزموا في الدعاء ، ولا يقولن أحدكم : إن شئت فأعطني ، فإن الله لا مستكره له » .

الدعاء عبادة للمدعو بالرغبة والرغبة ، والذل والاستكانة والافتقار ، ولهذا صار صرفه لغير الله شركا أكبر ، لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

والله جل وعلا هو رب الخلق وإلههم ، خلقهم وتعبدهم ، وجعل مصيرهم إليه وهو يملك كل شيء ، حتى أفعالهم الاختيارية لا يمكن أن تقع إلا بمشيئته .

ويملك هداية قلوبهم وإزاعتها ، وهو الذى يجب الإيمان إلى من يشاء ، ويكرهه إلى من يشاء ، ويكره الكفر والفسوق والعصيان إلى من يشاء ، ويجببه إلى من يشاء ، وبهذا يعلم شدة حاجة الإنسان إلى دعاء الله — تعالى — بصدق وإلحاح ، وعزم قوى ، ورغبة شديدة ، لأنه فقير فقرا ذاتيا لا ينفك عنه لحظة واحدة إلى ربه ، ولا خلاص له من العذاب السرمدي إلا إذا من الله عليه وتفضل بهديته ، لذلك وجب أن لا يعلق الدعاء على مشيئته — تعالى — فهذه علة النهى ، والعلة الثانية ما ذكره ﷺ بقوله : « فإنه لا مستكره له » فإن تعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بأن الله تعالى يعطى ما لا يريد ، كما يحصل لابن آدم ، وهذا لا يجوز اعتقاده فى الله .

والمقصود أنه يحرم تعليق الدعاء بالمشيئة لعتلين : إحداهما ، إشعار ذلك باستغناء الداعى عما يدعو ، وهو خلاف الواقع ، وخلاف العبودية الواجبة على العبد .

والثانية ، إشعار ذلك بأن الله قد يعطى ما يكره عطاءه ، فيجب على العبد أن يدعو ربه بعزم لا تردد فيه ، وبرغبة وإلحاح وإظهار الافتقار والفاقة .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « لا يقول أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم في الدعاء ، فإن الله صانع ما يشاء ، لا مكره له . »

وفي رواية : « ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه . »

قال النووي : « قال العلماء : عزم المسألة : الشدة في طلبها ، والجزم من غير ضعف في الطلب ، ولا تعليق على مشيئته ونحوها . »

وقيل : هو حسن الظن بالله — تعالى — في الإجابة .

قال العلماء : سبب كراهته : أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله — تعالى — منزه عن ذلك ، وقيل : لأن في هذا صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه ^(١) .

وكلا المعنيين مشعر به الحديث ، والظاهر منه تحريم ذلك ، فالحديث ظاهر فيه ، ولا صارف له عنه ، والله أعلم .

٩٠ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ،

ح .

وحدثنا إسماعيل ، حدثني أخي عبد الحميد ، عن سليمان ، عن محمد بن أبي عتيق ، عن ابن شهاب ، عن علي بن حسين بن علي ، أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره ، أن رسول الله ﷺ طرده وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة ، فقال لهم : « ألا تصلون ؟ » قال علي :

(١) شرح النووي لمسلم ج ١٧ ص ١٧ .

فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ،
فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئا ،
ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذة ، ويقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ
شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .

على بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ رابع
الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، كان من السابقين إلى
الإسلام ، وعمره لم يجاوز العشر ، وكان في بيت رسول الله ﷺ شهد مع
رسول الله ﷺ سائر مشاهدته مع الكفار ما عدا تبوك ، خلفه ليقوم بمصالح
أهله ، ولما قال المنافقون : إنه استثقله لحق به فقال له : « أما ترضى أن تكون
منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

هلك فيه طوائف من الرافضة ، غلوا فيه بين قائل بألوهيته ، وقائل بأنه
وصى معصوم ، قتل سنة أربعين في رمضان رضى الله عنه وعن سائر صحابة
النبي ﷺ (١) .

« طرفه » أتاه ليلا ، وكل آت ليلا فهو طارق ، وقد يطلق على من يأتي
نهارا كما في قوله ﷺ : « وأعوذ بك من طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق
بخبير » (٢) ولهذا قال : « طرفه وفاطمة بنت رسول الله » ، وهي زوجه لأنهما
كانا نائمين .

« فقل لهم ألا تصلون » الخطاب لعلى وفاطمة ، وقد جمع الضمير العائد
إليهما في قوله لهم : « ألا تصلون » ، وهو سائغ في اللغة .

(١) انظر الرياض المستطابة ص ١٦٣ ، أسد الغابة ج ٤ ص ٩١ ، الإصابة ج ٢ ص ١٠٥ ، تاريخ بغداد
ج ١ ص ١٣٣ ، تاريخ الخلفاء ١٦٦ ، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٠ ، طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١١ .
(٢) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٢٤٤ .

« ألا تصلون » عرض عليهما يدل على أن الأمر غير واجب ، وإنما هو التماس يدل على الاستحباب .

« فقلت : يا رسول الله إنما نفوسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا » إلى آخره .

هذا هو محل الشاهد من الحديث ، وأراد بيان أنه لا يجوز معارضة الأمر الشرعى بالقدر كما صنع سلف القدرية المشركون في قوله : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾^(١) .

ففى هذا الحديث بيان أنه لا ينبغى معارضة الأمر بالقدر ، فإن قوله : « إنما نفوسنا بيد الله » إلى آخره استناد إلى القدر فى ترك امتثال الأمر ، وهذا القول فى نفسه حق ، ولكن لا يصلح لمعارضة الأمر ، بل معارضة الأمر بهذا من باب الجدل المذموم الذى قال الله فيه : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾^(٢) .

ولهذا انصرف عنه النبى صلى الله عليه وسلم كارها لمقاتته ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ، وضربه فخذه يدل على كراهته لذلك أيضا ، وتعجبه من على كيف يعارض قوله له : « ألا تصلون » بتلك المقالة .

ومعلوم أن كل شىء بمشيئة الله ، فلو أن كل من أمر بأمر قال : إذا شاء الله فعلته ، وإذا شاء لم أفعله ، لتعطلت الأوامر كلها ، وساد هوى النفوس قال الحافظ : « فيه أن الإنسان طبع على الدفاع عن نفسه بالقول والفعل ، وأنه ينبغى له أن يجاهد نفسه لقبول النصيحة ولو كان فى غير واجب »^(٣)

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٢٤٤ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣١٤ .

قال : « حدثنا محمد بن سنان ، حدثنا فليح ، حدثنا هلال بن على ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها ، فإذا سكنت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ، ومثل الكافر ، كمثل الأرزة ، صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء » .

قال فى المصباح : « الخامة الغضة من النبات ، والجمع خام ، وخامات ، والخام من الثياب الذى لم يقصر ، وثوب خام أى غير مقصور »^(١) .
وقال الحافظ : « هى الطاقة الطرية اللينة ، أو الغضة ، أو القضية ، قال الخليل : « خامة الزرع : أول ما ينبت على ساق واحد »^(٢) .

قلت : قول الخليل هو الصواب فالزرع فى أول أمره يكون على ساق واحد ، ويكون لينا طيعا للريح ينثنى معها حيث أتت ، ولا تؤثر على صحته واعتداله ، فإذا سكنت رجوع على ساقه قائما كأن لم يصبه شئ ، بل ربما ازداد قوة ونضارة ، وهذا هو المقصود من المثل ، فإن المؤمن تأتبه المصائب من نواح شتى ، ففى كل مرة يقال : هذه تهلكه ، ثم تنجلي ويعود إلى صحة إيمانه قويا سليما ، كأن لم يصب بأذى .

قال البكرى : الخامة الغضة من الزرع ، أول ما تستقل على ساق ، وألفه منقلبة عن ياء ، قال أبو عبيد : هى الغضة الرطبة وأنشد :

إنما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده^(٣)

(١) المصباح ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) الفتح ج ١٠ ص ١٠٦ .

(٣) فصل المقال ص ٧ ، ٨ .

ومعنى « يفيء » يميل مع الريح ثم يرجع إلى اعتداله .
ومعنى « تكفئها » تميل بشدة .

قوله : « ومثل الكافر ، كمثل الأرزة صماء معتدلة » إلى آخره ، في رواية « ومثل المنافق » ، وفي أخرى : « الفاجر » والمثل يصدق على الكافر والمنافق ، والفاجر هو الكافر ، وكلهم أريد بالمثل .

والأرزة هي شجرة الصنوبر ، وهو شجر قوى معتدل ، ولا بد له من نهاية ، فإذا شاء الله قصمه ، وأهلكه ، فإذا اتنى انكسر فلا يعود إلى اعتداله كخامة الزرع . وكذلك الكافر والمنافق غالب حاله أنه معافى من المصائب ، كالمرض وغيره من مصائب المال والولد ، لأنه يعطى نصيبه من السعادة في الدنيا ، ثم يوافي الآخرة مفلسا صفر اليدين ، فتكون حسرته أشد ، وهلاكه أنكى وأعظم ، وقد يصاب أيضا في الدنيا .

أما المؤمن فمن رحمة الله — تعالى — به أن قدر عليه المصائب في الدنيا ، حتى يكتسب بذلك الثواب ، أو يكفر عنه به من ذنوبه ، ليسلم له جزاء عمله في الآخرة .

قال البكري : « الأرزة ، شجرة معروفة ، وهي من أصلب الخشب ، قال أبو عبيد : وأهل العراق يسمونها الصنوبر ، وإنما الصنوبر ثمر الأرز .
ومعنى الحديث والله أعلم : أنه شبه المؤمن بالخامة التي تميلها الريح ، لأنه مرزاً في نفسه ، وأهله ، وماله ، وولده ، وأما الكافر ، فمثل الأرزة التي لا تميلها الريح ، والكافر لا يرز شيئاً حتى يموت ، وإن رزىء لم يؤجر عليه ، فشبه موته بانجفاف تلك [الشجرة] حتى يلقي الله بذنوبه كملا ، والانجفاف السقوط والانقلاب »^(١) .

(١) فصل المقال ص ٨ .

والشاهد قوله : « حتى يقصمها الله إذا شاء » فكل شيء ينتهي إلى مشيئة الله تعالى ، فلا يحدث حدث صغير أو كبير إلا إذا شاء الله ، كما تقدم أن مشيئة الله عامة لكل شيء ، وهو معنى أنه على كل شيء قدير .

٩١ — قال : « حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر ، يقول : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أعطى أهل التوراة التوراة ، فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل ، فعملوا حتى صلاة العصر ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أعطيت القرآن ، فعملتم به حتى غروب الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا ؟ قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا فقال : فذلك فضلى أوتيته من أشياء » .

قوله : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » أى أن نسبة مدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم ، كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس ، إلى بقية النهار ، و « فى » فى قوله « فيما قبلكم » بمعنى إلى .

قوله : « أعطى أهل التوراة ، التوراة » إلى آخره ، شرح وبيان لما تقدم من تقدير مدة بقاء هذه الأمة بالنسبة لبقاء الأمم قبلها .

قوله : « قيراطا قيراطا » كرهه ليدل على تقسيم القراريط على العمال ، لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته ، فيقولون : أقسم هذا المال

على بنى فلان درهما درهما ، أى لكل واحد درهم^(١) .

قوله : « ثم عجزوا » لا يلزم ما نقله الحافظ ، عن الداودى من الإشكال ، فى أنه إذا كان المراد من مات مسلما فلا يوصف بالعجز ، وإن أريد من مات بعد التبديل والتغيير ، فهو كافر لا يعطى أجرا . وهذا غير لازم ولا مراد ، ولا داعى لتكلف الجواب عليه ، لأن المقصود ضرب المثل لهذه الأمة مع أهل الكتاب مجموع هؤلاء مع أولئك ، ولا يقصد كل فرد بعينه ، وهذا واضح .

قال ابن العرى : « المثل بفتح الميم والثاء : عبارة عن تشابه المعانى المعقولة .

والمثل بكسر الميم وإسكان الثاء : عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة ويدخل أحدهما على الآخر^(٢) .

والقيراط النصيب المقدر ، وهو فى الأصل نصف دانق ، والدانق سدس درهم ، وقد يقصد بالقيراط الشيء الكثير ، كما فى الحديث « من شهد الجنزة ، حتى يصلى عليها ، فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان ، قيل وما القيراط ؟ قال مثل الجبلين العظيمين^(٣) .

قوله : « ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس » مثل انتهاء الدنيا باليوم الكامل ، فجعل لليهود من أول النهار إلى صلاة الظهر ، وللنصارى من صلاة الظهر إلى العصر ، ولهذه الأمة من صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو نهاية الدنيا ، فكان نصيب هذه الأمة من الزمن أقل ونصيبهم من الأجر أكثر وأوفر ، وعندما اعترض أصحاب العمل الأكثر على ذلك قال لهم : هل ظلمتكم من عملكم شيئا ؟ قالوا : لا قال : فذلك فضلى أوتيه من أشياء .

(١) الفتح ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) طرح التثريب ج ٨ ص ٢٢١ .

(٣) رواه مسلم ج ٢ ص ٦٥٢ رقم ٩٤٥ والترمذى ج ٢ ص ٣٥٨ رقم ١٠٤٠ .

وهذا هو المقصود من الحديث ، أن مشيئة الله نافذة ، لا يحكمها عرف أو نظر أو غير ذلك ، بل ما شاء فعله فعله ، وما لم يشأ لا يقع .
 وبهذا وأمثاله كثير يتبين ضلال المعتزلة ، ومن سلك طريقهم ، الذين يحكمون على الله بعقولهم القاصرة ، بأنه يجب أن يفعل كذا ، ويمتنع أن يفعل كذا ، كقولهم : يجب أن يعذب العاصي ، ويشيب المطيع بحكم العقل قياسا منهم على المخلوق ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

٩٢ — قال : « حدثنا عبد الله المسندي ، حدثنا هشام ، أخبرني معمر ، عن الزهري ، عن أبي إدريس ، عن عبادة بن الصامت ، قال : بايعت رسول الله ﷺ في رهط ، فقال : « أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فأخذ به في الدنيا فهو كفاراة وطهور ، ومن ستره الله فذلك إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » .

عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم ، الأنصاري ، الخزرجي ، أحد النقباء من أعيان البدرين ، وسادة الصحابة وكبارهم ، شهد مع رسول الله ﷺ غزواته كلها ، وكان من حفظة كتاب الله — تعالى — مات بالرملة سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة رضى الله عنه وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ (١) .

المبايعة عبارة عن المعاهدة على فعل شيء أو تركه ، سميت بذلك تشبيها

(١) انظر سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٥ ، الاستيعاب ج ٢ ص ٨٠٧ ، أسد الغابة ج ٣ ص ١٦ ، تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١١١ ، الإصابة ج ٥ ص ٣٢٢ .

بالمعاوضة المالية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) .

بدأ بما هو أعظم المحرمات ، وهو الشرك بالله بأن يجعل ما هو لله من العبادة لغيره ، أو شيئاً منها ، ولكونه أعظم المحرمات حرمت الجنة على المشرك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ ﴾ (٢) ومنع صاحبه المغفرة إلا إذا تاب منه ، لهذا وجب على العبد أن يهتم بمعرفته حتى لا يقع فيه وهو لا يشعر ، كما هو حال كثير من الناس .

وقوله : « شيئاً » نكرة في سياق النهي فيعم جميع أنواع الشرك ، كبيره وصغيرة فعلا كان أو قولاً .

والسرقة : هي أخذ مال غيره المحرز ، على وجه الخفية ، والخيانة فيه ، وهي من الجرائم الكبيرة ، فقد نفى الإيمان عن السارق .

وأما الزنا فهو أيضاً جريمة شنيعة موجبة لسخط الله تعالى ومقته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجِيَّ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ خص قتل الأولاد لأنه أشنع قتل وأعظمه ذنباً ، ولأن بعض العرب كان يستسيغه ، خوفاً من العار ، أو الفقر ، ولأن الأولاد ليس لهم من يدافع عنهم إذا كان والدهم هو الذى يقتلهم .

والمقصود جميع أنواع القتل بغير حق ، فإنه من أكبر الكبائر ، وفاعله متوعد بالخلود فى النار ، ولعنة الله وغضبه ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا

(١) الفتح ج ١ ص ١٦ .

(٢) الآية ٧٢ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

عَظِيمًا ﴿١﴾ .

وقوله : « ولا تأتوا بهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم » البهتان : الكذب الذى يهت سامعه ، لأنه خلاف الواقع .

قال الحافظ : « وخص الأيدى ، والأرجل بالافتراء ، لأن معظم الأفعال تقع بهما ، إذ هى العوامل ، والحوامل للمباشرة والسعى ، ولذلك يسمون الصنائع ، الأيدى .

وقد يعاقب الرجل بجناية قولية ، فيقال : هذا بما كسبت يداك ، ويحتمل أن يكون المراد : لا تبهتوا الناس كفاحا ، وبعضكم يشاهد بعضا ﴿٢﴾ والأول أولى .

قوله : « ولا تعصوني فى معروف » المعروف : ما عرف حسنه . وما جاء به الرسول وأمر به فهو معروف ، وحسن ، والشرع لا يأتى مخالفا للعقل والفطرة .

والرسول ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف .

قال النووى : « يحتمل أن يكون المعنى : ولا تعصونى ، ولا أحد ولى الأمر عليكم فى المعروف ، فيكون التقيد بالمعروف متعلقا بشيء بعده .

وقال غيره : نبه بذلك على أن طاعة المخلوق إنما تجب فيما كان غير معصية لله ﴿٣﴾ ودخل فى قوله : « ولا تعصونى فى معروف » فعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ﷺ .

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء .

(٢) الفتح ج ١ ص ٦٥ .

(٣) الفتح ج ١ ص ٦٥ .

قوله : « فمن وفى منكم » أى ثبت على العهد الذى أخذ عليه ، ووفى به ، دون وقوع فى مخالفة « وفى » بالتخفيف ، وفى رواية بالتشديد ، وكلاهما بمعنى واحد .

وقوله : « فأجره على الله » أطلق الأجر ، ولم يعينه لتفخيمه ، وجاء فى رواية تعيينه بالجنة ، وهى الغاية التى يتسابق إليها العاملون .

قوله : « ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به فى الدنيا ، فهو كفارة له وظهر » يعنى إذا وقع فى معصية مما ذكر أنه لا يفعله ، ثم أقيم عليه الحد فى الدنيا ، فإن إقامة الحد عليه تكون كفارة له ، ويطهورا يطهره ، وهذا كما قال النووى مخصوص بالشرك ، فإنه لا كفارة له إلا بالتوبة منه .

قال النووى : « فيه تحريم هذه المذكورات ، وما فى معناها ، وفيه الدلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصى غير الكفر ، ولا يقطع لصاحبها بالنار ، إذا مات ولم يتب منها ، بل هو بمشيئة الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه ، خلافا للخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يكفرون بالمعاصى ، والمعتزلة يقولون : لا يكفر ، ولكن يخلد فى النار ، وفيه أن إقامة الحد تكفر »^(١) .

قوله : « ومن ستره الله ، فذلك إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » .

هذا هو محل الشاهد من الحديث ، وهو أن الله يفعل ما يشاء ، لا يحكمه شئ ولا يمنعه عما يريد شئ ، وهو حكيم عليم ، فمن أصاب معصية مما ذكر أو غيره فاستتر ، ولم يؤخذ بها فى الدنيا ثم مات بدون توبة ، فإن أمره إلى الله إن شاء أن يعذبه عذبه ، وإن شاء أن يعفو عنه عفا عنه .

وقد تقدم التنبيه أن هذا فيه رد لمذهب المعتزلة ، مشبهة الأفعال ، نفاة

(١) شرح مسلم ج ١١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

الصفات ، الذين يحكمون على الله بمثل ما يحكمون به على الناس تعالى الله عن قولهم ، وفيه الرد على إخوانهم في الضلالة ، الخوارج الذين يكفرون المؤمنين بالمعاصي .

٩٣ — قال : « حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا وهيب ، عن أبي أيوب ، عن محمد ، عن أبي هريرة أن نبي الله سليمان — عليه السلام — كان له ستون امرأة ، فقال : لأطوفن الليلة على نساءي فلتحملن كل امرأة ، ولتلدن فارسا يقاتل في سبيل الله ، فطاف على نساته ، فما ولدت منهن إلا امرأة ، ولدت شق غلام — قال نبي الله ﷺ : لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن ، فولدت فارسا يقاتل في سبيل الله » .

قال في كتاب الجهاد : « باب من طلب الولد للجهاد » ، ثم ذكر هذا الحديث يعنى أن الذى ينوى عند جماع زوجته حصول الولد لأجل أن يجاهد في سبيل الله يحصل له بذلك أجر نيته ، وإن لم يولد له ، أو ولد له ولم يجاهد . قوله : « كان له ستون امرأة » ، جاء في رواية سبعون ، وفي أخرى : تسعون ، وفي أخرى : تسع وتسعون ، وفي أخرى مائة ، وكلها صحيحة . قال الحافظ : « يجمع بينها بأن له ستين حرائر ، والزائد سرارى ، أو بالعكس وأما السبعون فللمبالغة ، وأما التسعون ، والمائة فما كان دون المائة وفوق التسعون ، فمن قال : تسعون ألغى الكسر ، ومن قال : مائة جبره »^(١) .

قوله : « لأطوفن الليلة على نساءي » يقصد وطأهن ، وقد استدلل المصنف

(١) الفتح ج ٦ ص ٤٦٠ .

به على جواز مثل هذا الكلام أمام الناس .

وفيه : ما أعطى سليمان عليه السلام من القوة .

قوله : « فلتحملن كل امرأة ، ولتلدن فارسا يقاتل في سبيل الله » قال هذا على سبيل التمني للخير ، وإنما جزم به لأنه غلب عليه الرجاء ، لكونه قصد الخير وأمر الآخرة ، لا عرض الدنيا .

قال بعض السلف : نبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث على آفة التمني والإعراض عن التفويض ، ولذلك نُسِيَ الاستثناء ليمضى فيه القدر «^(١) قلت : جاء في رواية ذكرها البخارى في الجهاد والأنبياء ، أن سليمان عليه السلام لما قال ذلك قال له صاحبه : قل : إن شاء الله ، وفي أخرى قال له : الملك ، فلم يقل إن شاء الله ، وهذا يدل على أنه لم ينس ، وأنه جزم بذلك لحسن قصده ، وقيام السبب ، فجوزى بعدم حصول المراد ، وهذه الرواية أظهر في المقصود بهذا الباب ، وجاء في رواية أخرى : ونسى أن يقول : إن شاء الله فيحمل على أن معنى النسيان : تركه مع علمه ، غير قاصد خروج ذلك عن مشيئة الله تعالى .

قوله : « فما ولدت منهن إلا امرأة ولدت شق غلام » الشق : النصف ، أى أنها جاءت بغلام ناقص ، لا يستطيع أن يعمل شيئا . وهذا يدل على أنه ليس لأحد مهما ملك من الأسباب أن يخرج عن مشيئة الله — تعالى — ، سواء كان نبيا ، أو ملكا ، أو غير ذلك ، فمشيئة الله هى النافذة فى كل شىء ، ومشية الخلق مقيدة بها ، لا يعملون شيئا ، ولا يتم لهم إلا بعد أن يشاء الله تعالى .
قوله : « لو كان سليمان استثنى حملت كل امرأة منهن ، فولدت فارسا ، يقاتل في سبيل الله » .

(١) المصدر المذكور ص ٤٦١ .

في رواية : لو قال : « إن شاء الله » فهذا هو الاستثناء المراد هنا .

وفي هذا قدرة الله — تعالى — على تغيير الواقع إلى ضده ، وما علم تعالى أنه لا يكون ، وما يمتنع صدوره عنه فلعدم إرادته ، لا لعدم قدرته عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾^(١) وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(٢) ونحو ذلك مما يبين فيه أنه — تعالى — لو شاء أن يفعل أمورًا لم تكن ، بل كان خلافها لفعل ، فدل ذلك على أنه قادر على ما علم أنه لا يكون .

وإذا قيل : هذا ممتنع ، قيل : امتناعه لعدم مشيئة الرب تعالى له ، لا لكونه ممتنعا في نفسه ، ولا لكون الله تعالى غير قادر عليه . ووجه الاستدلال بالحديث ظاهر .

٩٤ — قال : « حدثنا محمد ، حدثنا عبد الوهاب الثقفي ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعود ، فقال : لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله ، قال : قال الأعرابي : طهور ؟ بل هي حمى تُقوِّرُ ، على شيخ كبير ، تُزيره القبور ، قال النبي ﷺ : نعم إذا » .

كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويتفقد أحوال المؤمنين ، وهذا الأعرابي يجوز أنه مهاجر إلى المدينة فمرض ، أو أنه جاء لحاجة .

والأعرابي : ساكن البرارى ، وأما العربي فهو أعم منه لأنه من ينتسب إلى العرب أو من يتكلم العربية .

(١) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٢) الآية ١١٨ من سورة هود .

قوله : « لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله » أى أن المرض يزول ، ويكون ذلك مكفرا لخطاياك ، أو أنه لا بأس عليك فى مستقبلك ، لأن المرض يطهرك من ذنوبك ، فإن حصلت العافية اكتسب فائدتين ، وإلا حصل له التكفير ، وهذا دعاء خرج مخرج الخبر ، ولهذا علقه بالمشيئة لأنه أمر مستقبل ، وكل ما يأتى يقيد بمشيئة الله — تعالى — أما ما وقع فقد علم أن الله شاءه .

وقول الأعرابى : طهور ؟! ، كأنه رد لقول رسول الله ﷺ واستبعاد له ، ولهذا قال : « بل هى حمى تفور » أى تغلى فى جسمه « على شيخ كبير » والشيخ الكبير يكون ضعيفا لا يتحمل ما يتحملة الشاب القوى « تزيره القبور » أى يموت منها ويذهب به إلى المقبرة .

فلما رد ما قاله رسول الله ﷺ ولم يقبله ، واختار ما ذكره هو ، قال النبى ﷺ « فنعم إذا » أى إذا لم تقبل ما قلت لك ، فالأمر كما تقول أنت .

قال الحافظ : « روى الطبرانى أن الأعرابى أصبح ميتا ، وأن النبى ﷺ قال : « أما إذا أبيت فهى كما تقول ، قضاء الله كائن ، فما أمسى من الغد إلا ميتا »^(١) .

والمقصود من الحديث قوله : « لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله » وقد جاءت النصوص بأن المصائب كفارات للذنوب ، كما جاء ترتيب الجزاء على أعمال معينة ، فكل ذلك يكون مقيدا بمشيئة الله تعالى ، فعلى العبد أن يضرع إلى الله تعالى بذل وافتقار ، ويسأله من فضله أن يهديه لما يرضيه .

والأمور كلها بيده — تعالى — يتصرف فيها كيف يشاء ، والخلق عبيده ، وفقراء إليه ، ولا يظلم ربك أحداً .

(١) الفتح ج ٦ ص ٦٢٥ .

٩٥ — قال : « حدثنا ابن سلام ، أخبرنا هشيم ، عن حصين ، عن عبد الله بن أبي قتادة ، عن أبيه ، حين ناموا عن الصلاة ، قال النبي ﷺ : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردّها حين شاء ، فقبضوا حوائجهم ، وتوضأوا إلى أن طلعت الشمس وابتضت ، فقام فصلى » .

هذا الحديث مختصر ، وقد ذكره في مواقيت الصلاة : باب الأذان بعد ذهاب الوقت ، وقد اختلف في أى مسير كان ذلك .

قال الحافظ : « جزم بعض الشراح بأنه في رجوعه من خير ، معتمداً على ما وقع عند مسلم ، وفيه نظر لما بينه في باب الصعيد الطيب »^(١) .

وقال « في باب الصعيد الطيب » اختلف في تعيين هذا السفر ، ففى مسلم أنه وقع في رجوعهم من خير قريب من هذه القصة .

وفي أبى داود : « أقبل النبي ﷺ من الحديدية ليلا ، فنزل ، فقال : « من يكلؤنا ؟ فقال بلال : أنا » الحديث^(٢) .

وفي الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلا : « عرّس رسول الله ﷺ ليلة بطريق مكة ، ووكل بلالا » الحديث^(٣) .

وفي مصنف عبد الرزاق مرسلا أن ذلك بطريق تبوك ، وفي الدلائل للبيهقى نحوه^(٤) ، وذكر أشياء غير ذلك ومال إلى تعدد القصة كعادته في مثل هذا .

(١) الفتح ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) السنن ج ١ ص ٣١٠ .

(٣) الموطأ ج ١ ص ١٤ .

(٤) الفتح ج ١ ص ٤٨٨ .

ولم أجد في مصنف عبد الرزاق تعيين السفر ، فإنه قال : « أخبرني عطاء أن النبي ﷺ بينا هو في بعض أسفاره » فذكره^(١) .

وكذلك ما في الدلائل ليس فيه ذكر تبوك ، وإنما ذكر ما في الموطأ ، وسنن أبي داود ، ومسلم . والصحيح أن ذلك في مرجعه من خيبر ، كما قال عبد الرزاق : عن معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، قال : « لما قفل رسول الله ﷺ من خيبر ، أسرى ليلة ، حتى إذا كان آخر الليل عدل عن الطريق ، ثم عرس ، وقال : من يحفظ علينا الصلاة ؟ فقال بلال : أنا » وذكر الحديث^(٢) وهذا مرسل .

ورواه أبو داود موصولاً ، عن سعيد ، عن أبي هريرة^(٣) .

ورواه مسلم في صحيحه مطولاً^(٤) .

قوله : « وإن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء » أي إن الله تعالى له ملك كل شيء ، فروح الإنسان التي بها حياته وتصرفه ، هي بيد الله إذا شاء قبضها قبضها من بدنها ، وأصبح الإنسان ميتاً لا يستطيع أي عمل ، وإذا شاء ردها إلى بدنها فاستطاع العمل والتصرف ، وكذلك الإنسان لا يستطيع أن ينام متى شاء ، ويستيقظ متى شاء إلا بمشيئة الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَنِّيكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٥) .

(١) انظر المصنف ج ١ ص ٥٨٨ .

(٢) المصنف ج ١ ص ٥٨٧ .

(٣) انظر السنن ج ١ ص ٣٠٢ .

(٤) انظر مسلم ج ١ ص ٤٧١ رقم ٦٨٠ .

(٥) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

قوله : « فقصوا حوائجهم ، وتوضأوا إلى أن طلعت الشمس وابتضت فقام
فصلى » يعنى أنهم حين استيقظوا مع طلوع الشمس لم يستعجلوا بأداء
الصلاة ، بل قضا حوائجهم مما يحتاجه عادة من يقوم من النوم من بول
ونحوه ، وتوضأوا ثم انتظروا حتى ابضت الشمس ، ومعنى ابضاضها
ارتفاعها عن الأفق ، ثم قام وصلى بهم ، فهذا وقت صلاتهم ، لأن النائم وقت
صلاته إذا استيقظ ، وكذلك الناسى والله أعلم .

٩٦ — قال : « حدثنا يحيى بن قزعة ، حدثنا إبراهيم ، عن ابن
شهاب ، عن أبى سلمة والأعرج .

وحدثنا إسماعيل ، حدثنى أخى ، عن سليمان ، عن محمد بن أبى
عتيق ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، وسعيد بن
المسيب ، أن أبا هريرة قال : « استب رجل من المسلمين ، ورجل
من اليهود ، فقال المسلم : والذى اصطفى محمدا على العالمين ، فى
قسم يقسم به ، فقال اليهودى : والذى اصطفى موسى على العالمين ،
فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهودى ، فذهب اليهودى إلى رسول
الله ﷺ فأخبره بالذى كان من أمره ، وأمر المسلم ، فقال النبى
ﷺ : « لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ،
فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى
أكان فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » .

قال الحافظ : « المسلم هو أبو بكر الصديق ، جاء مصرحا به فيما أخرجه
سفيان بن عيينة فى جامعه ، وابن أبى الدنيا فى كتاب البعث من طريقه ، عن
عمرو ابن دينار ، قال : هو أبو بكر الصديق » (١) .

(١) انظر الفتح ج ٦ ص ٤٥٠ .

ولكن يعارض ذلك ما فى الأنبياء فى هذا الحديث : « قال اليهودى لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فطم وجهه »^(١) .

قوله : « استب » استب : افتعل ، من السب أى كل واحد منهما سب الآخر وهو الشتم وذكر العيوب والمثالب ، أو الدعاء عليه .

وسبب ذلك قول اليهودى حينما كان يعرض سلعته ، فأعطى فيها ما لا يرضى فقال : لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فغضب المسلم ولطمه ، لأنه فهم من كلامه تفضيل موسى على نبينا محمد ﷺ لأنه متقرر عند المسلمين أن محمداً أفضل البشر على الإطلاق .

وجاء فى رواية أبى سعيد أن المسلم لما دعاه النبى ﷺ وقال له : « أضررته ؟ » قال : سمعته بالسوق يحلف : والذى اصطفى موسى على البشر ، قلت : أى خبيث على محمد ﷺ فأخذتنى غضبة اضررت وجهه »^(٢) .

وفهم المسلم أن اليهودى بحلفه ذلك يتنقص محمداً ﷺ فلهذا غضب ، ولطمه ، ولما ذكر قول اليهودى للنبى ﷺ لم يعاقبه ، بل نهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض ، فى مثل هذا المقام الذى يكون فيه الغضب والسب ، لأن ذلك مدعاة إلى هضم حق بعضهم ، أو التنقص لهم ، أو الافتخار وذلك من الكفر .

وأما ذكر الواقع للعلم به ، واعتقاده فلا يدخل فى النبى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

(١) انظر المصدر نفسه .

(٢) الفتح ج ٥ ص ٧٠ .

(٣) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴿١﴾ .

وصح عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » (٢) .

قال البيهقي عن الخطابي : معنى النهى عن التخيير بين الأنبياء ترك التخيير بينهم على وجه الإضرار ببعضهم ، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والإخلال بالواجب من حقوقهم والإيمان بهم .

وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم ، فإن الله — عز وجل — قد أخبر أنه فاضل بينهم فقال : ﴿ تِلْكَ أَلْرُسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ .

وقوله : « أنا سيد ولد آدم » إنما هو إخبار عما أكرمه الله به من الفضل ، والسؤدد ، وتحدث بنعمة الله تعالى عليه ، وإعلام لأمته بعلو مكانه عند ربه ، ليكون إيمانهم بنبوته واعتقادهم لطاعته على حسب ذلك ، وبيان هذا لأمته من اللازم له ، والمفروض عليه » (٣) .

قوله : « لا تخيروني على موسى » أى لا تقولوا أنا خير من موسى ، وجاء النهى عن التخيير بين الأنبياء عامة ، وهذا خاص بموسى ، لأن المقام يقتضى ذلك لأجل ما وقع بين اليهودى والمسلم ، وسبق وجه النهى ثم ذكر ما يقتضى تفضيل موسى فى كونه يجده باطشا بجانب العرش ، فيكون قد أفاق قبله أو لم يصبه الصعق كما سبق بيانه والمقصود هنا قوله : « أو كان ممن استثنى الله ، أى فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ (٤) ففى هذه الآية أن الخلق لا ينجو أحد منهم

(١) الآية ٥٥ من سورة الإسراء .

(٢) رواه مسلم ج ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٨ .

(٣) دلائل النبوة ج ٥ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

(٤) الآية ٦٨ من سورة الزمر .

من صعق نفخة الصور ، إلا من يشاء الله ، فدل على أن مشيئة الله عامة شاملة لكل شيء ، فلا يخرج عنها ما يعم الخلق كنفخ الصور ، ولا ما يخص بعضهم ، ومن أجل ذلك — والله أعلم — جاء قوله في أهل الجنة وأهل النار : ﴿ تَحْلِدِينَ فِيهَا مَا دُمَّتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾^(١) فما شاء الله كان كما يشاء ، وما لم يشأ لم يكن .

واختلف في الذين استثناهم الله تعالى من صعقة الصور .

قال ابن جرير : « قال بعضهم : عنى به جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، ثم روى ذلك عن السدى ، وروى فيه حديثا مرفوعا بسند فيه يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ الآية فقليل له : من هؤلاء الذين استثنى الله يا رسول الله ؟ قال : جبريل وميكائيل وملك الموت » وذكره بطوله ، ثم قال :

« وقال آخرون : عنى بذلك ، الشهداء ، وروى ذلك عن سعيد بن جبير .

واختار أن المستثنى من الفرع الشهداء ، ومن الصعق جبريل وملك الموت ، وحملة العرش ، واستدل لذلك بحديث الصور ، وهو ضعيف . وبأن الصعق في هذا الموضع ، الموت ، والشهداء قد ماتوا فلا يذوقون الموت مرة أخرى ، وذكر أن بعض السلف توقف فيه »^(٢) .

وقال ابن كثير : « قال أبو يعلى : حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا أبو اليمان ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : سألت جبريل عن هذه الآية ﴿ وَنُفِخَ

(١) الآية ١٠٧ من سورة هود .

(٢) انظر تفسير ابن جرير ج ٢٤ ص ٢٩ — ٣٠ .

فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿١﴾ مَنْ الَّذِينَ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ أَنْ يَصْعَقُوا؟ قَالَ: هُمُ الشَّهَدَاءُ، مَقْلُدُونَ أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ عَرْشِهِ، تَتَلَقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْحَشْرِ بِنَجَائِبٍ مِنْ يَاقُوتٍ، نَمَارِهَا أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ، مَدَّ خَطَايَا مَدَّ أَبْصَارِ الرِّجَالِ، يَسِيرُونَ فِي الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ عِنْدَ طَوْلِ النَّزْهَةِ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَبِّنَا — عِزُّ وَجَلُّ — لِنَنْظُرَ كَيْفَ يَقْضَى بَيْنَ خَلْقِهِ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ إلهِي، وَإِذَا ضَحِكَ إِلَى عَبْدٍ فِي مَوْطِنٍ، فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ « قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: رَجَالَهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ إِلَّا شَيْخَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَاشٍ فَهُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ » (١).

٩٧ — قَالَ: « حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ أَبِي عَيْسَى، أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الْمَدِينَةُ يَأْتِيهَا الدَّجَالُ فَيَجِدُ الْمَلَائِكَةَ يَحْرُسُونَهَا، فَلَا يَقْرَبُهَا الدَّجَالُ، وَلَا الطَّاعُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .

تقدم وجه تسمية الدجال .

قال الحافظ: « ومما يحتاج إليه في أمر الدجال ، أصله ، وهل هو ابن صياد ، أو غيره ؟ وإذا كان غيره فهل كان موجودا في عهد النبي ﷺ أو لا ؟ وما الذي يدعيه ؟ وما الذي يظهر عند خروجه ؟ ومتى يخرج ؟ وما سبب خروجه ؟ ومن أين يخرج ؟ وما صفته ؟ وما هي الخوارق التي تظهر على يديه ، حتى يكثر أتباعه ؟ ومتى يهلك ؟ ومن يقتله ؟ » (٢) .

وقد تبين أنه ليس ابن صياد ، لأن ابن صياد قد مات في المدينة ، وقد دخل مكة وولد له ، والدجال لا يولد له ، ولا يدخل مكة ولا المدينة ، ويقتله

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) انظر فتح الباري ج ١٣ ص ٩١ .

عيسى بن مريم عليه السلام ، ويكون رئيسا لليهود ، وله خوارق عظيمة ،
وفتنة هائلة ، ولم يحصل لابن صياد من ذلك شيء .

وحديث الجساسة في صحيح مسلم يدل على ذلك ، وليس الأمر فيه
مشكلا كما قاله النووي — رحمه الله — لأن ابن صياد أول الدجاجة الذين
يتقدمون الدجال الأكبر وأما كونه موجودا في زمن النبي ﷺ فخير تميم
الداري في قصة الجساسة يدل على وجوده .

وأما سبب خروجه ، فجاء في صحيح مسلم ما يدل على أن سبب خروجه
غضبة يغضبها ، وسأذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وخروجه في آخر الزمان إذ خروجه من علامات الساعة الكبار .

وهو خارج من المشرق ، كما سيأتي .

وأما صفته فقد أوضحها رسول الله ﷺ ، وقد تقدم أنه أعور العين اليمنى ،
وأنه مكتوب بين عينيه كافر .

وإذا خرج ادعى أنه مصلح ، ويريد القضاء على الفساد ، كما هي عادة
كل دجال وطاغوت من طواغيت العالم ودجاجلته الموجودين اليوم وقبله ،
ثم يدعى الولاية ، ثم يدعى النبوة ، ثم يدعى أنه رب الخلق المتصرف فيهم .

قال الحافظ : « وأخرج الطبراني من طريق سليمان بن شهاب ، قال : نزل
على عبد الله بن المعتز وكان صحابيا ، فحدثني عن النبي ﷺ أنه قال : « الدجال
ليس به خفاء ، يجيء من قبل المشرق ، فيدعو إلى الدين ، فيتبع ، ويظهر فلا
يزال حتى يقدم الكوفة ، فيظهر الدين ويعمل به ، فيتبع ويحث على ذلك ، ثم
يدعى أنه نبي ، فيفزع من ذلك كل ذي لب ويفارقه ، فيمكث بعد ذلك ،
فيقول : أنا الله ، فتغشى عينه ، وتقطع أذنه ، ويكتب بين عينيه كافر ، فلا يخفى
على كل مسلم ، فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال حبة من خردل

من إيمان» قال : « وسنده ضعيف »^(١) .

وأما ما ثبت في الصحيحين ، عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صياد الدجال ، قلت : تحلف بالله ؟ قال : إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ^(٢) .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر قال : لقيته مرتين ، قال : فلقيته فقلت لبعضهم : هل تحدثون أنه هو ؟ قال : لا والله ، قال : قلت : كذبتني ، والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا ، فكذلك هو — زعموا — اليوم ، قال فتحدثنا ، ثم فارقتنا ، قال : فلقيته لقيه أخرى ، وقد نفرت عينه ، قال : فقلت : متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال : لا أدري ، قال : قلت : لا تدري وهي في رأسك ؟ قال : إن شاء الله خلقها في عصاك هذه ، فنخر كأشد نخير حمار سمعت . قال : فرغم بعض أصحابي أتى ضربته بعضا كانت معي حتى تكسرت ، وأما أنا فوالله ما شعرت .

قال : وجاء حتى دخل على أم المؤمنين ، فحدثها ، فقالت : ما تريد إليه ؟ ألم تعلم أنه قد قال : إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه »^(٣) .

قال النووي : « قال العلماء : قصته مشكلة ، وأمره مشتبه في أنه هو الدجال المشهور ، أو غيره ، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة .

وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يُوحَ إليه بأنه الدجال ، ولا غيره وإنما أوحى إليه بصفات الدجال ، وكان في ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ، ولا غيره »^(٤) .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٩١ .

(٢) البخارى ج ٩ ص ٨٨ ومسلم ج ٤ ص ٢٢٤٣ رقم ٢٩٢٩ .

(٣) مسلم ج ٤ ص ٢٢٤٦ .

(٤) شرح النووي ج ١٨ ص ٤٦ .

قلت : ابن صياد فيه كلام كثير للعلماء ، وفيه أحاديث بعضها في مسلم .
وليس هو الدجال المشهور ، وإنما هو من جملة الدجالين كما سبق ، والله
أعلم .

قوله : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها ، فلا يقربها
الدجال » .

قد أثبت إتيانه إليها ، ولكن لا يستطيع دخولها ، لأن الملائكة تصده عنها
وذلك لأن سلطان المسلمين قد ضعف عن مقاومة الكفر وأهله ، فلهذا جعل
الله تعالى الملائكة هي التي تصد الدجال عن مدينة رسوله وعن مكة .

وفي مسند الإمام أحمد عن محجن بن الأدرع أن رسول الله ﷺ خطب
الناس فقال : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ، يوم الخلاص وما يوم
الخلاص ثلاثا » ، ف قيل له : وما يوم الخلاص ؟ قال : « يجيء الدجال ،
فيصعد أحدا ، فينظر المدينة فيقول لأصحابه : أترون هذا القصر الأبيض ؟
هذا مسجد أحمد ، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكا مصلتا ، فيأتي
سبخة الجرف ، فيضرب رواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقى
منافق ، ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فذلك يوم
الخلاص »^(١) .

قوله : « ولا الطاعون إن شاء الله » الطاعون من الطعن والوخز ، وهو
الوباء ، وهذا من تكريم الله تعالى لرسوله حيث منع الوباء من مدينته ، وجاء
في بعض الرويات أن مكة كذلك لا يدخلها الطاعون .

والشاهد قوله : « إن شاء الله » يعني أن ذلك معلق بمشيئة الله ، فلو شاء
لم يحصل المنع .

(١) انظر المسند ج ٤ ص ٣٣٨ وج ٥ ص ٣١ .

وذكر البخارى هذا الحديث فى فضائل المدينة بأبسط مما هاهنا ، ولفظه :
« ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس له من نقابها نقب
إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات
فيخرج الله كل كافر ومنافق »^(١) .

قال الحافظ : « هذا الخبر على ظاهره وعمومه عند الجمهور ، وشذ ابن حزم
فقال : لا يدخل وجنوده ، وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد
لقصر مدته ، وغفل عما فى صحيح مسلم أن بعض أيامه كسنة »^(٢) .
وقوله : ثم ترجف المدينة ، أى يحصل لها زلزلة بعد أخرى حتى يخرج منها
من ليس مؤمنا ويبقى المؤمنون الصادقون ، فلا يسלט عليهم ولا ينالهم شره
وفتنه .

ولا يعارض هذا ما فى حديث أبى بكر : « لا يدخل المدينة رعب
الدجال » لأن المراد برعبه ما يحدث من الفرع من فعله وعتوه ، لا الرجفة
التي تقع لإخراج المنافقين والكافرين ، وحمل بعض العلماء حديث « إنها تنفى
الخبث » على هذا ، والصحيح أنه خاص بناس ، وبزمان ، فلا مانع أن يكون
هذا الزمان هو المراد ، ولا يلزم من كونه مرادًا ، نفى غيره »^(٣) .

٩٨ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ،
حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أن أبا هريرة قال : قال رسول الله
ﷺ : « لكل نبي دعوة ، فأريد — إن شاء الله — أن أختبىء
دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » .

(١) انظر الفتح ج ٤ ص ٩٥ .

(٢) المصدر المذكور ص ٩٦ .

(٣) المصدر المذكور ص ٩٦ .

أى لكل نبي من أنبياء الله دعوة مستجابة ، كدعوة نوح — عليه السلام — على قومه بقوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (١) فاستجاب الله دعوته فأغرق أهل الأرض عموما ، وكدعوة صالح ، وشعيب ولوط ، وغيرهم مما ذكره الله — تعالى — في كتابه .

والصحيح أن لكل نبي دعوة عامة مستجابة في أمته ، وأما الدعوات غير العامة فكثيرة ، منها ما يستجاب ، ومنها ما لا يستجاب .

قال النووي : « معناه أن لكل نبي دعوة متيقنة الإجابة ، وهو على يقين من إجابتها ، وأما باقى دعواتهم ، فهم على طمع من إجابتها ، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب » (٢) .

قوله : « فأريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » . هذا من رحمة الله — تعالى — بهذه الأمة حيث أهتم رسوله ﷺ أن يجعل دعوته العامة المستجابة في أمته ، شفاعة له فيهم .

وقد بين أنها للموحدين ، فلا نصيب لمشرك في هذه الدعوة العامة ، كما في رواية مسلم « فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا » (٣) .

قال النووي : « فى هذا الحديث كمال شفقة النبى ﷺ على أمته ورأفته بهم ، واعتناؤه بالنظر فى مصالحهم المهمة ، فأخر ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم » (٤) .

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح عليه السلام .

(٢) شرح مسلم ج ٣ ص ٧٥ .

(٣) انظر مسلم ج ١ ص ١٨٩ رقم ١٩٩ .

(٤) المصدر المذكور ج ٣ ص ٧٦ .

وقال في قوله : « إن شاء الله — تعالى — هو على جهة التبرك والامتنال لقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِيَّيَ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (١) .

قلت : ليس كما قال — رحمه الله — إن التعليق للتبرك وامتثال الأمر ، ولكنه تعليق حقيقة إذ لو شاء الله لم يقع ذلك ، غير أنه تعالى شاء وقوعه فأخبر به على لسان رسوله ﷺ وخبره حق ، والمقصود أن كل شيء بمشيئة الله .

٩٩ — قال : « حدثنا بسرة بن صفوان بن جميل اللخمي ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا نائم رأيتني على قلب فنزعت ما شاء الله أن أنزع ، ثم أخذها ابن أبي قحافة ، فنزع ذنوبا أو ذنوبين ، وفي نزعه ضعف والله يغفر له ، ثم أخذها عمر ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا من الناس يفري فرية ، حتى ضرب الناس حوله بعطن » .

هذه رؤيا منام ، ورؤيا الأنبياء نوع من أنواع الوحي ، كما في حديث عائشة : « إن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة » .
والرؤيا : هي ما يراه الإنسان في نومه .

قوله : « بينا » هي بين الظرفية الزمانية ، والألف للإشباع .

« رأيتني على قلب » أي رأيت نفسي على قلب ، وهي البئر المحفورة لاستخراج الماء منها ، وقال النووي : « هي البئر غير المطوية » (٢) .

(١) المصدر السابق . والآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الكهف .

(٢) شرح مسلم ج ١٥ ص ١٥٩ .

قوله : « فنزعت ما شاء الله أن أنزع » النزع هو استخراج الماء من البئر بالدلو ، وهذا محل الشاهد من الحديث حيث أسند كمية النزع إلى مشيئة الله تعالى ، وقد سبق أن مشيئة الله عامة لا يخرج عنها شيء ، والإنسان وإن كان له مشيئة ، فهي داخلة تحت مشيئة الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (١) .

قوله : « ثم أخذها ابن أبي قحافة » أبو قحافة هو عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم ، والد أبي بكر الصديق رضى الله عنهما .
« فنزع ذنوبا أو ذنوبين » الذنوب الدلو المملوء ماء .

« وفي نزعه ضعف والله يغفر له » في رواية مسلم « وفي نزعه والله يغفر له ضعف » (٢) .

وفي رواية له : « بينا أنا نائم أريت أن أنزع على حوضى أسقى الناس ، فجاء أبو بكر ، فأخذ الدلو من يدي ليريجنى ، فنزع دلوين ، وفي نزعه ضعف ، والله يغفر له ، فجاء ابن الخطاب ، فأخذ منه ، فلم أر نزع رجل قط أقوى منه حتى تولى الناس والحوض ملآن ينفجر » وهذا يفسر الرواية المذكورة هنا .

والضعف المذكور إشارة إلى قلة المال من المغام ونحوها في وقته بالنسبة إلى زمن النبي ﷺ وزمن عمر ، وذلك لما حصل من انتكاسة الناس وارتداد أكثر العرب عن الإسلام ، فانشغل في قتالهم ، وإدخالهم في الإسلام مرة أخرى ، وهذا العمل أفضل مما حصل في وقت عمر ومن بعده من الخلفاء ، من الفتوح .

(١) الآية ٣٠ من سورة الإنسان و ٢٩ من سورة التكوير .

(٢) انظر مسلم ج ٤ ص ١٨٦٠ .

وقوله : « والله يغفر له » إشارة إلى أن ما يقع في الأمة من صدود عن الله أو انحراف فإن الإمام قد يكون مسئولاً عن ذلك ، إذ هو القائد الذي يجب أن يقودهم إلى الصلاح والخير ، ويحملهم على طاعة الله وطاعة رسوله ، ولذلك أخبر أن هذه المسئولية مغفورة لأبي بكر ، لأنه بذل جهده في ردهم إلى الإسلام حتى استقاموا على الحق ، والعلم عند الله .

قوله : « ثم أخذها عمر ، فاستحالت غربا » أى الدلو تحولت إلى غرب ، والغرب بفتح الغين المنقوطة وإسكان الراء هى الدلو العظيمة المتخذة من جلود الإبل أو البقر ، والمعنى أن الدلو التى كنت أنزع بها وأخذها منى أبو بكر ، لما أخذها عمر بعد أبى بكر صارت غربا كبيرا يتسع لماء كثير .

« فلم أر عبقرىا من الناس يفرى فرئيه » العبقرى : الكامل من كل شىء .

قال فى القاموس : العبقرى : الكامل من كل شىء ، والسيد من الرجال ، قال الأصمعى : سألت أبا عمرو ابن العلاء ، عن العبقرى ؟ فقال : يقال هذا عبقرى قوم ، كقولك هذا سيد قوم ، وكبيرهم ، وشديدهم ، وقويهم ونحو ذلك .

وقيل العبقرى : الذى ليس فوقه شىء — يعنى من جنسه .

قال أبو عبيد : وأصل هذا فيما يقال أنه نسب إلى « عبقر » وهى أرض يسكنها الجن ، فصارت مثلا لكل منسوب إلى شىء رفيع ^(١) .

وقال الراغب : « عبقر : قيل : هو موضع للجن ، ينسب إليه كل نادر من إنسان ، وحيوان ، وثوب ، ولهذا قيل فى عمر : لم أر عبقرىا مثله ، ﴿ وَعَبْقَرِيٌّ حَسَانٌ ﴾ هو ضرب من الفرش فيما قيل جعله الله تعالى مثلا

(١) تاج العروس جـ ١٢ ص ٥١٤ .

لفرش الجنة»^(١) .

« يفرى فريه » بفتح الياء وإسكان الفاء وكسر الراء وفتح الفاء الثانية وكسر الراء وفتح الياء المشددة ، قال ابن الأثير : « أى يعمل عمله ، ويقطع قطعه ، ويروى « يفرى فَرِيَهُ » بسكون الراء الثانية والتخفيف ، وحكى عن الخليل أنه أنكر التثقيب ، وغلط قائله .

وأصل الفرى : القطع ، يقال : فريت الشيء أفريه فريا ، إذا شققته وقطعته للإصلاح ، فهو مفرى»^(٢) .

وقال النووي : « أما يفرى ، فبفتح الياء ، وإسكان الفاء ، وكسر الراء ، وأما فريه فروى بوجهين ، أحدهما : فريه بإسكان الراء وتخفيف الياء ، والثانية بكسر الراء وتشديد الياء ، وهما لغتان صحيحتان ، وأنكر الخليل التشديد ، وقال : هو غلط واتفقوا على أن معناه : لم أر سيدا يعمل عمله ، ويقطع قطعه ، ثم ذكر ما ذكره ابن الأثير»^(٣) .

والمعنى : فلم أر رجلا كاملا ، قويا يستخرج الدلاء من البئر مثله ، حتى كثر الماء وشرب الناس ، وجلسوا حول الحوض الذى يصب فيه الماء لا حاجة لهم فيه ، وهذا معنى قوله : « حتى ضرب الناس حوله بعطن » كما فى رواية مسلم .

« فلم أر نزع رجل قط أقوى منه ، حتى تولى الناس ، والحوض ملآن ينفجر»^(٤) .

(١) المفردات ص ٣٢٠ .

(٢) النهاية ج ٣ ص ٤٤٢ وانظر الفتح ج ٧ ص ٤٦ ومشارك الأنوار ج ٢ ص ٦٤ .

(٣) شرح مسلم ج ١٥ ص ١٦٢ .

(٤) تقدم تحريجه .

قال النووي : « قال القاضى عياض : ظاهره أنه عائد إلى خلافة عمر خاصة ، وقيل : يعود إلى خلافة أبى بكر وعمر جميعا ، لأن ذلك تم بنظرهما ، وتديرهما ، وقيامهما بمصالح المسلمين ، وضرب الناس بعطن ، لأن أبى بكر قمع أهل الردة وجمع شمل المسلمين ، وألف بينهم ، وابتدأ الفتوح ، ومهد الأمور ، وتمت ثمرات ذلك وتكاملت فى زمن عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما »^(١) .

وقال أيضا : « قال العلماء : هذا المنام مثال واضح لما جرى لأبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — فى خلافتها ، وحسن سيرتهما ، وظهور آثارها ، وانتفاع الناس بهما ، وكل ذلك مأخوذ من النبى ﷺ ، ومن بركته ، وآثار صحبته ، فكان النبى ﷺ هو صاحب الأمر فقام به أكمل قيام ، وقرر قواعد الإسلام ، ومهد أموره وأوضح أصوله وفروعه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأنزل الله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ، ثم توفى ﷺ فخلفه أبو بكر — رضى الله عنه — سنتين وأشهرًا ، وهو المراد بقوله : « ذنوبا أو ذنوبين » وهذا شك من الراوى ، بل هما ذنوبان ، كما صرح به فى الرواية الأخرى .

وحصل فى خلافته قتال أهل الردة ، وقطع دابرهم ، واتساع الإسلام وعودة قوة المسلمين وهيبتهم .

ثم توفى فخلفه عمر — رضى الله عنه — فاتسع الإسلام فى زمنه ، وتقرر لهم من أحكامه ما لم يقع مثله ، فعبر بالقليل عن أمر المسلمين لما فيها من الماء ، الذى به حياتهم وصلاحهم ، وشبه أميرهم بالمستقى لهم ، وسقيه هو قيامه بمصالحهم وتدير أمورهم .

وأما قوله ﷺ فى أبى بكر — رضى الله عنه — : « وفى نزعه ضعف » .

(١) شرح مسلم ج ١٥ ص ١٦٢ .

فليس فيه حط من فضيلته ، ولا إثبات لفضل عمر عليه ، وإنما هو إخبار عن مدة ولايتهما ، وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها ، ولاتساع الإسلام وبلاده وكثرة الأموال ، وغيرها من الغنائم والفتوح ، وتمصير الأمصار ، وتدوين الدواوين .

وأما قوله : « والله يغفر له » فليس فيه تنقيص له ، ولا إشارة إلى ذنب ، وإنما هي كلمة كان المسلمون يقولونها — افعل كذا والله يغفر لك .

قال العلماء : وفي كل هذا إعلام بخلافة أبي بكر وعمر ، وصحة ولايتهما ، وبيان صفتها ، وانتفاع المسلمين بها ^(١) .

أما ما ذكره من أنه إعلام بصحة ولايتهما ، فهو أمر متفق عليه عند أتباع رسول الله ﷺ الذين آمنوا به ، ولم يخالف فيه إلا الذين دخلوا الإسلام تسترا لأجل هدمه ومحاربتة أمثال الرافضة والإسماعيلية والنصيرية وهم ليسوا من المسلمين في شيء ، ومن نظر في كتبهم تيقن أنهم من أبعد الناس عن الإسلام .

وأما ما ذكر من أن قوة نزع عمر لطول مدته ، وضعف نزع أبي بكر لقصر مدته فهو خلاف ظاهر الحديث ، وإنما قوة نزع عمر كناية عن قوته في الحق وصلابته وقوة عزمته ، وضعف نزع أبي بكر كناية عن لينه ورقته ، ولا يلزم من ذلك أن عمر أفضل من أبي بكر إذا فضله في خصلة من الخصال .

وأما المدة ، فعبر عنها بالدلاء ، فأبو بكر لم ينزع إلا ذنوبين ، بينما عمر نزع حتى روى الناس ، وتركوا الحوض ملآن .

١٠٠ — قال : « حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بريد ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى ، قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه

(١) شرح النووي على مسلم ج ١٥ ص ١٦١ .

السائل ، وربما قال : جاءه السائل أو صاحب الحاجة قال : « اشفعوا
فلتؤجروا ويقضى الله على لسان رسوله ما شاء » .

الرسول ﷺ معلم الخير والداعى إليه ، فلم يترك طريقا يوصل الخلق إلى
اكتساب الخير إلا دهم عليهم ، وحضهم على سلوكه ، حتى الأمور التي قد
يظن بعض الناس أنها أمور عادية ، لا تدخل في العبادة مثل ما في هذا الحديث ،
وخصوصا عند رسول الله ﷺ فلا يتصور مسلم أن النبي ﷺ يمنع أحدا
ما يستحقه ، أو يبخسه شيئا من ذلك ومع ذلك أمر بالشفاعة عنده ، وأخبر
أن شفاعتهم لا تأثير لها في مشيئة الله تعالى ، بل المقصود حصول الثواب
للشافع .

وأما ما يقع للمشفوع له فهو ما يقضيه الله تعالى ويشاؤه ، ولهذا قال :
« اشفعوا فلتؤجروا ، ويقضى الله على لسان رسوله ما يشاء » .

والشاهد فيه أن مشيئة الله تعالى لا تؤثر فيها شفاعاة ولا غيرها ، بل ما شاء
فعله ، وما شاء تركه ، تركه ، لاراد لما أراد ، ولا يمنع ذلك فعل
الأسباب ، ولا كون المسببات مرتبة على أسبابها ، فكلها بمشيئة الله .

١٠١ — قال : « حدثنا يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ،
عن همام ، سمع أبا هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا يقل أحدكم :
اللهم اغفر لي إن شئت ، ارحمني إن شئت ، ارزقني إن شئت ،
وليعزم مسألته ، إنه يفعل ما يشاء ، لا مكره له » .

تقدم هذا الحديث من رواية أنس وبيننا الحكمة في النهي عن ذلك .
قال النووي : « قال العلماء : عزم المسألة ؛ الشدة في طلبها ، والجزم من
غير ضعف في الطلب ، ولا تعليق على المشيئة ونحوها .

وقيل : هو حسن الظن بالله تعالى في الإجابة . ومعنى الحديث : استحباب

الجزم في الطلب وكراهة التعليق على المشيئة .

قال العلماء : كراهة ذلك أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله تعالى منزّه عن ذلك ، وهو معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الحديث فإنه لا مكره له .

وقيل : سبب الكراهة أن في هذا اللفظ صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه «^(١)» .

وقال الحافظ : « النهى لأن التعليق بالمشيئة إنما يحتاج إليه إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء ، فيخفف الأمر عليه ، ويعلمه بأنه لا يطلب منه الشيء إلا برضاه ، والله تعالى منزّه عن ذلك ، فلا فائدة للتعليق . وقيل : لأن فيه صورة الاستغناء عن المطلوب ، والمطلوب منه ، والأول أولى «^(٢)» . قلت : كلا الأمرين دل عليهما النهى ، ويدخلان فيه كما تقدم .

وكلام النووى رحمه الله ظاهره أن النهى للكراهة ، وليس للتحريم ومثله كلامه في الأذكار ، فإنه قال : « ويكره أن يقول في الدعاء : اللهم اغفر لى إن شئت ، أو إن أردت ، بل يجزم بالمسألة »^(٣) .

وهذا خلاف ظاهر الحديث ، ولا أدرى ما دليله على ذلك ، وقد جاء في رواية في الصحيحين ، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم في الدعاء فإن الله صانع ما شاء »^(٤) ، وهذا ظاهر في التحريم ، والقاعدة أن النهى يحمل على التحريم ما لم يدل دليل على أنه لكراهة التنزيه .

(١) شرح مسلم ج ١٧ ص ٧ .

(٢) الفتح ج ١ ص ١٤٠ .

(٣) ص ٤٩٦ .

(٤) انظر الفتح ج ١١ ص ١٣٩ ومسلم ج ٤ ص ٢٠٦٣ رقم ٢٦٧٩ .

قال ابن عبد البر : « لا يجوز لأحد أن يقول : اللهم أعطني إن شئت [سواء] من أمور الدين أو الدنيا ، لأنه كلام مستحيل لا وجه له ، إذ لا يفعل إلا ما يشاء » .

قال الحافظ : « وظاهره أنه حمل النهي على التحريم ، وهو الظاهر ، وحمله النووى على كراهة التنزيه ، وهو أولى »^(١) .

قلت : بل الأولى ما دل ظاهر النص عليه ، وهو التحريم .

والمقصود من الحديث هنا قوله : « إنه يفعل ما يشاء لا مكره له » أى أنه تعالى لا يحمله دعاء ولا غيره على فعل ما لا يريد ، فلا يمكن أن يقع في الوجود إلا ما شاء ، أما المخلوق فإنه قد يكره على فعل ما لا يريد .

١٠٢ — قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو حفص عمرو ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا ابن شهاب ، عن عبيد بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى ، فى صاحب موسى ، أهو خضر ، فمر بهما أبى بن كعب الأنصارى ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى ، الذى سأل السبيل إلى لقيه ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : نعم : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملاء بنى إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : هل تعلم أحدًا أعلم منك ؟ فقال موسى : لا ، فأوحى إلى موسى : بلى ، عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل إلى لقيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل : إذا فقدت الحوت

(١) انظر الفتح ج ١ ص ١٤٤ .

فارجع ، فإنك ستلقاه ، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر ، فقال
فتى موسى : أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت وما
أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، قال موسى : ذلك ما كنا نبغي ،
فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص
الله .

المراء : المجادلة ، يقال : ماريته ، أماريه ممرارة ، ومراء ، ولا يكون المراء
إلا اعتراضا بخلاف الجدل ، فإنه يكون ابتداء ، واعتراضا ، فهو أعم ^(١) .
فقوله : « تماريت » أى جادلت معترضا عليه ، وهو كذلك ، فى أن
صاحب موسى هو الخضر ، وكان الحر بن قيس يرى أنه غيره .

قال الحافظ : « لم يذكر ما قال الحر بن قيس ، ولا وقفت على ذلك فى
شئ من طرق الحديث ، والخضر : بفتح أوله ، وكسر ثانيه ، أو بكسر أوله ،
وإسكان ثانيه » ^(٢) .

وفى ذلك جواز المجادلة فى العلم ، إذا كان بغير تعنت وازدراء لغيره .
وفيه إنصاف الصحابة وأديهم فى طلب العلم .

وقد جاء فى بعض طرق الحديث فى الصحيح ، أن ابن عباس لما رأى أيبا
قام إليه وسأله .

وفيه الرجوع إلى العلماء عند التنازع ، وقبول الحق ممن قاله ، وقبول خبر
الواحد الصدوق ، وفضل العلم وأهله .

قوله : « بينا موسى فى ملاء بنى إسرائيل » أى فى أشرافهم ، ورؤسائهم

(١) المصباح ج ٢ ص ٧٨٢ .

(٢) الفتح ج ١ ص ١٦٩ .

قال في المصباح : « الملاء مهموز : أشرف القوم ، سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف ، وجودة الرأي ، لأنهم يملؤون العيون أبهة ، والصدور هيبة »^(١) .

وقال الراغب : « الملاء : جماعة يجتمعون على رأى ، يملؤون العيون ، رواءً ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالا »^(٢) .

وجاء هذا اللفظ في كتاب الله تعالى كثيرا .

« إذ جاءه رجل ، فقال : هل تعلم أحدا أعلم منك » كأن هذا الرجل أعجبه ما سمعه من موسى — عليه السلام — من العلم ، فدعاه ذلك إلى هذا السؤال ، ويدل لذلك ما ذكره في التفسير .

« أن موسى ذكر الناس يوما ، حتى إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب وأبى ، فأدركه رجل فقال : أى رسول الله ، هل فى الأرض أحد أعلم منك »^(٣) .

وفى صحيح مسلم : « بينما موسى عليه السلام فى قومه ، يذكرهم بأيام الله — وأيام الله نعمائوه — إذ قال : ما أعلم فى الأرض رجلا خيرا ، أو أعلم منى »^(٤) .

« فأوحى إلى موسى : بلى عبدنا خضر » قال الحافظ : « ظاهر هذا أن الخضر نبي ، بل نبي مرسل ، إذ لو لم يكن كذلك للزم تفضيل العالى على الأعلى ، وهو باطل » .

(١) جـ ٢ ص ٧٩٧ — ٧٩٨ .

(٢) المفردات ص ٤٧٣ .

(٣) انظر الفتح جـ ٨ ص ٤١١ .

(٤) مسلم جـ ٤ ص ١٨٥٠ .

ثم قال : « والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص ، لقوله بعد ذلك : « إني على علم من علم الله ، علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمك الله ، لا أعلمه » ، والمراد بكون النبي أعلم أهل زمانه — أى ممن أرسل إليهم ، ولم يكن موسى مرسل إلى الخضر ، فلا نقص على موسى ، إذا كان الخضر أعلم منه .

ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ وينبغي اعتقاد كونه نبيا لتلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي ^(١) ، وهذا لا يكفي لاعتقاد كونه نبيا ، بل يجب الاعتماد على الأدلة الشرعية ، وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ دليل على أنه فعله عن أمر الله بالوحي إليه ، ومن يوحى إليه فهو نبي .

« فسأل موسى السبيل إلى لقيه » أى سأل ربه أن يدلّه على الطريق إليه ، ويهينء له أسباب ذلك .

« فجعل له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه » .

جاء بيان ذلك في الرواية الأخرى ، أنه حمل حوتا بمكتل ، ووكل موسى — عليه السلام — ذلك إلى غلامه ، وقال له : إذا فقدته فأخبرني ، فنزلا مكانا فيه صخرة على سيف البحر ، فاضطرب الحوت ودخل البحر ، ونسى الغلام أن يخبر موسى ، حتى تعب ، وقبل ذلك لم ينلهما تعب ، عند ذلك « قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال : أرايت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر سربا » يعنى الحوت كان طريقه يقف الماء عنه فيبقى لا ماء فيه .

(١) الفتح ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

« قال موسى : ذلك ما كنا نبغى » أى هو الذى نريد حيث جعل فقد الحوت علامة لنا على وجود الخضر .

« فارتدا على آثارهما قصصا » أى رجعا يتبعان آثارهما ويقصانها فلما وصلا الموضع الذى فقدا فيه الحوت وجدا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله .
يعنى من خرق السفينة ، وإقامة الجدار بدون أجر ، وقتل الغلام .

وقد اختصر البخارى الحديث ولم يذكر محل الشاهد منه وهو قوله :
« ستجدنى إن شاء الله صابرا » فوعد بأنه يصبر على ما يراه منه ، وأن يطيع أمره وعلق ذلك بمشيئة الله — تعالى — وهو عازم على ذلك ، ولكن الله — تعالى — لم يشأ لموسى الصبر على ما يراه من الخضر ، فلم يصبر .
فمهما كان عند المخلوق من القوة والعزم فإنه لا يستطيع فعل شيء إلا أن يشاء الله تعالى .

١٠٣ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري .

وقال أحمد بن صالح : حدثنا ابن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « نزل غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر يريد المحصب » .

ذكر هذا الحديث فى كتاب الحج بلفظ يوضح ما هنا ، حيث قال : « قال النبى ﷺ من الغد يوم النحر — وهو بمنى — نحن نازلون غدا بخيف بنى كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر — يعنى بذلك المحصب ، وذلك أن قريشا ، وكنانة تحالفت على بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبى ﷺ » .

فهذا هو تقاسمهم على الكفر ، وفى هذا أن هذا القول وهو بمنى فى اليوم

الثاني عشر ، وذلك في حجة الوداع . ويخالفه ما في الفضائل : « قال رسول الله ﷺ حين أراد حنيناً : « منزلنا غداً — إن شاء الله — بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر »^(١) .

وفي أخرى : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله ، الخيف حيث تقاسموا على الكفر » فهذه والتي قبلها صريحتان في أن ذلك في فتح مكة ، ولهذا قال بعض العلماء بتعدد هذا القول منه ﷺ في غزوة الفتح ، وفي حجة الوداع ، فإنه ﷺ نزل هناك بعد ما خرج من منى »^(٢) .

« وكان تقاسمهم على الكفر في أول يوم من محرم السنة السابعة من البعثة كما ذكر ذلك أصحاب المغازي والسير ، وذلك لما رأت قريش أن الصحابة الذين هاجروا قد وجدوا أرضاً آمنوا فيها الافتتان والأذية ، وأن أمر الرسول ﷺ يقوى ويزداد ظهوراً ، فقد دخل في الإسلام عمر بن الخطاب ، وفشا الإسلام في القبائل ، لذلك اجتمع رأيهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ .

فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ، ومنعوه ممن أراد قتله .

لذلك كتبت قريش عهداً بينهم بمقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب بأن لا يبايعوهم ، ولا يناكحوهم ، ولا يتعاملوا معهم ، وكتبوا ذلك في صحيفة ، وعلقوها بالكعبة .

قال ابن اسحاق : فأقاموا على ذلك ثلاث سنين ، حتى اشتد الأمر عليهم ، فسعى في نقض هذا العهد بعض رجالات قريش ، فهذا هو تقاسمهم على

(١) انظر الفتح ج ٧ ص ١٩٢ .

(٢) انظر الفتح ج ٨ ص ١٤ .

الكفر»^(١) .

قال الحافظ : « ويختلج في خاطري أن ما بعد قوله : « يعني المحصب » مدرج من كلام الزهري » .

والخَيْف بسكون الياء : ما ارتفع من الوادى قليلا من مسيل الماء ، ولا يكون إلا بين جبلين ، ومته مسجد الخَيْف بمنى ، لأنه في خيف الجبل ، والأصل : مسجد خيف منى ، فخفف^(٢) .

وكنانة : هو ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ، وهو الجد الرابع عشر للنبي ﷺ ، وأولاد كنانة أربعة ، النضر ، ومالك ، وعبد مناة ، وملكان .

والنضر : هو قريش ، فما كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي ، ولذلك قال في الحديث : « إن قريشا وكنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى عبد المطلب » .

وقيل : قريش هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، فمن كان من ولد فهر فهو قرشي ، وإلا فليس بقرشي ، فالله أعلم^(٣) .

والمقصود من الحديث قوله : « نزل غدا إن شاء الله » حيث علق ما هو عازم على فعله ، وقد توافرت أسباب ذلك لديه على مشيئة الله — تعالى — فإنه لو شاء لجعل الممكن الميسور عسيرا ممتنعا ، وليس قول ذلك لمجرد التبرك ، بل لأن حصول ذلك مشروط بمشيئة الله — تعالى — .

(١) المصدر المذكور ج ٧ ص ١٩٢ .

(٢) انظر المصباح ج ١ ص ٢٥٤ .

(٣) انظر مختصر السيرة لابن هشام ج ١ ص ٩٦ .

١٠٤ — « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا ابن عيينة ، عن

عمرو ، عن أبي العباس ، عن عبد الله بن عمر قال : حاصر النبي ﷺ أهل الطائف فلم يفتحها ، فقال : إنا قافلون غدا إن شاء ، فقال المسلمون : نقفل ولم نفتح قال : فاغدوا على القتال ، فغدوا ، فأصابتهم جراحات ، قال النبي ﷺ : « إنا قافلون غدا إن شاء الله » ، فكان ذلك أعجبهم ، فتبسم رسول الله ﷺ .

الحصار : هو المنع أن يخرج أحد منهم ، أو يدخل إليهم شيء ، والتضييق عليهم . وكان ذلك بعد فراغه ﷺ من غزوة حنين ، وتحصن الكفار بالطائف ، فرأى ﷺ أنهم يحتاجون إلى مطاولة ، وهم أهل رماية ، فقد ينالون من المسلمين ما لا يناله المسلمون منهم ، ورجا أن تفتح عليه بأقل من ذلك العنى ، وأشفق على أصحابه ، فقال : « إنا قافلون غدا إن شاء الله » وهذا عرض عليهم من باب المشاورة وإشراكهم في الرأى كما هى عادته ﷺ . ولهذا لم يلزمهم ، ولما قالوا : نقفل ولما نفتح ؟ قال : اغدوا على القتال » ثم أعاد هذا القول من الغد بعد ما أمضوا يومهم ذلك فى القتال ، ولم يتحصلوا على طائل ، وقد أصابتهم جراحات ، فرحوا بما قال رسولهم ﷺ وعلموا أن الخير والبركة فى رأيه ، عند ذلك تبسم رسول الله ﷺ لما رأى فرحهم ، وقد كانوا بالأمس قد كرهوا ذلك ، تعجبا من سرعة تغير رأيه ، وإلجامهم على تصويب ما رآه ﷺ أولا .

والمقصود منه قوله : « إن شاء الله » فقد أخبر أولا بأنهم قافلون معلقا ذلك بمشيئة الله ، فلم يحصل لأن الله لم يشأ ذلك .

وفى المرة الثانية شاءه فحصل بإيجاد الله له الأسباب التى جعلتهم يفرحون بذلك ، وهكذا كل ما لا يريد الله — تعالى — حصوله لا بد أن يوجد له من الأسباب ما يمنع وجوده ، وبالعكس .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ^(١) ولم يقل ماذا خلق ربكم » .

أخبر تعالى أنه المالك لكل شيء ، وأنه لا يقع لأى فرد من خلقه ضرر أو نفع إلا بإرادته وتدييره ، فهو المالك للشفاعة وغيرها ، فلا تقع الشفاعة لديه إلا بإذنه ، ولا تنفع إلا لمن رضى عمله وقوله ، فهو تعالى لا يأذن فى الشفاعة إلا فىمن رضى عمله ، وهو لا يرضى إلا بعبادته الخالصة .

قال النووى : « أهل السنة متفقون على وقوع الشفاعة ، ودل عليه العقل والسمع ، فقد ثبت ذلك فى كتاب الله وسنة رسوله ، كما فى هذه وغيرها ، والأحاديث فيها بلغت حد التواتر ، وأجمعوا على وقوعها للمؤمنين من أهل التوحيد ، وإنما خالف فيها أهل البدع ، الذين سلكوا غير سبيل المؤمنين » ^(٢) .

قال فى اللسان : « فزع عنه » أى كشف عنه الخوف ^(٣) .

وقال الأزهرى : « اتفق أهل التفسير ، وأهل اللغة أن معنى قوله : « فزع عن قلوبهم » : كشف الفزع عن قلوبهم ، وتأويل الآية : أن ملائكة سماء الدنيا كان عهدهم قد طال بنزول الوحي من السماوات فلما نزل جبريل بالوحي على النبي ﷺ أول ما بعث نبيا ، ظنت الملائكة الذين فى السماء الدنيا أن جبريل نزل لقيام الساعة ، ففزعوا له ، فلما تقرر عندهم أنه نزل لغير ذلك ، كشف الفزع عن قلوبهم ، فأقبلوا على جبريل ومن معه من

(١) الآية ٢٣ من سورة سبأ .

(٢) انظر شرح مسلم للنووى ج ٣ ص ٣٥ .

(٣) ج ٨ ص ٢٥٣ .

الملائكة ، وقالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : ﴿ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾^(١)
والذين فزع عن قلوبهم هاهنا ملائكة السماء الدنيا .

وقيل : إن ملائكة كل سماء ، فزعوا لنزول جبريل ، ومن معه من الملائكة ،
فقال كل فريق منهم لهم : « ماذا أنزل ربكم ؟ »^(٢) .

وهذه الآية لها تعلق بما قبلها وهى قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ
فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ^(٣) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ^(٤) ﴾ الآية .

قال ابن كثير : « بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد الذى لا نظير له ، ولا
شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ، ولا منازع ، ولا
معارض ، فقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من الآلهة
التي عبدت من دونه ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾
كما فى الآية الأخرى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾^(٥) .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ ﴾ أى لا يملكون شيئاً استقلالاً ، ولا
على سبيل الشركة : ﴿ وَمَالُهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى ليس لله من هذه الأنداد
من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه^(٦) .

والمقصود أن الملائكة الذين سمعوا كلام الله يفزعون له خوفاً ، ولم يفهموا
كلامه من شدة فزعهم ، فإذا ذهب فزعهم ، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون
ماذا قال ربكم ؟ فيجيب المسئولون ، بأنه تعالى : قال الحق ، فيقولون كلهم :
قال الحق ، وهو العلى الكبير ، كما وضح ذلك فى الأحاديث التى ذكر هنا بعضها .

(١) تهذيب اللغة ج ٢ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) الآية ٢٢ من سورة سبأ .

(٣) الآية ١٣ من سورة فاطر .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٠١ طبعة الشعب .

ومراد البخارى — رحمه الله — من الآية أنها تدل على أن الله كلاما يتكلم به ويقولوه بصوته ، وأنه يسمع منه كما هو ظاهر الآية ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَلْحَقَّ ﴾ ، وأن قوله صفة له تعالى ، لا يكون مخلوقا ، كما زعم الضالون ، ولهذا ذكر الأحاديث التى فيها التصريح بأن الله ينادى بصوت كما يأتى وفى ذلك أبلغ دليل على بطلان قول المعتزلة ، ومن تابعهم على أن الله لا يتكلم بكلام يسمع منه ، وإنما كلامه ما يخلقه فى غيره ، أو هو المعنى القائم فى نفسه — تعالى الله عن قولهم — وأنه لا يكون بحرف وصوت يسمع ، « وكل ذى لب صحيح يعرف بالحس ، والمشاهدة قبل الاستدلال أن القرآن العربى ، حروف ، ولا فرق بين منكر ذلك ومنكر الحواس ، وأنها من مبادئ العلم وأسباب المدارك »^(١) .

وما نقله الحافظ عن ابن بطلال : من أن مراد البخارى أن قول الله قديم لذاته قائم بصفاته ، لم يزل موجودا به^(٢) ، ولا يزال ، كلامه لا يشبه [كلام] المخلوقين^(٣) إلى آخره .

فهو بعيد كل البعد عن مراد البخارى ، بل هذا القول يدخل فى قول من قصد البخارى الرد عليهم ، ولكن ابن بطلال يريد من البخارى أن يكون متفقا معه فى العقيدة ، وبينهما مثل ما بين المشرق والمغرب .

قوله : « ولم يقل ماذا خلق ربكم » يشير بذلك إلى الرد على القائلين بخلق القرآن وغيره من كلام الله — تعالى — فالآية صريحة فى إبطال قولهم .

قال الحافظ : « هذا أول باب تكلم فيه البخارى على مسألة الكلام ، وهى

(١) درء تعارض العقل ج ٢ ص ٩٢ نقله عن أبى نصر السجزى .

(٢) هكذا فى النسخة التى عندى وأظن الصواب « موصوفا به » .

(٣) الفتوح ج ١٣ ص ٤٥٣ .

طويلة الذبول»^(١) .

قال : « وقال جل ذكره : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

وهذا استفهام إنكار ، ينكر تعالى على من يزعم أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه ، كما هو المعهود في الدنيا لدى العظماء ، فإن الشفاعة عندهم تحصل بدون إذنه .
أما رب العالمين فلعظمته وتما ملكه ، لا يستطيع أحد أن يقدم على الشفاعة عنده مهما كان مقامه حتى يأذن له كما تقدم في حديث الشفاعة قوله ﷺ : « فاستأذن على ربي ، فإذا رأيته خرت له ساجدا ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ويفتح على من المحامد والثناء ، ثم يقول : ارفع رأسك وقل يسمع ، واشفع تشفع » وفيه : « فيحد لي حدا ، فيقول : هؤلاء اشفع فيهم » ، فعاد الأمر كله لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ أَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴿٢﴾ .

والشاهد من الآية للباب قوله : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فإن الإذن يكون بالقول المسموع ، الذي يسمعه المأذون له على الأقل .

وأما قول الحافظ فيما ظنه : « أن البخارى أشار بهذه الآية إلى ترجيح أن الضمير في قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ « للملائكة »^(٣) إلى آخره وأن فاعل الشفاعة في قوله : « ولا تنفع الشفاعة عنده » هم الملائكة فهو بعيد عن مراد البخارى ، وإن كان هذا الذى ذكره هو الصواب في كون الضمير للملائكة ، وفاعل الشفاعة هم .

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٤ .

(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر .

(٣) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٥٦ .

« قال مسروق : عن ابن مسعود ، إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات شيئا ، فإذا فزع عن قلوبهم ، وسكن الصوت ، عرفوا أنه الحق ، ونادوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق . »

قال الحافظ : رواه أحمد موصولا ، ولفظه : « إن الله — عز وجل — إذا تكلم بالوحي ، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء ، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا جاءهم جبريل ، فزع عن قلوبهم ، قال : ويقولون : يا جبريل ماذا قال ربكم ؟ قال : فيقول : الحق ، قال : فينادون : الحق ، الحق »^(١) .

ورواه البخارى موصولا في خلق أفعال العباد^(٢) .

وقال أبو داود : « حدثنا أحمد بن أبي سريح الرازى وعلى بن الحسين بن إبراهيم ، وعلى بن مسلم ، قالوا : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تكلم الله بالوحي ، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم ، قال : فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق ، فيقولون : الحق ، الحق »^(٣) .

وقال ابن جرير : « حدثني زكريا بن أبان المصرى ، قال : حدثنا نعيم ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبي زكريا ، عن جابر بن حيوة ، عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٥٦ .

(٢) انظر ص ١٩٣ مجموع عقائد السلف .

(٣) سنن أبي داود ج ٥ ص ١٠٦ كتاب السنة .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إذا أراد الله أن يوحى بالأمر ، تكلم بالوحي ، أخذت السماوات منه رجفة ، أو قال : رعدة شديدة ، خوف أمر الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا ، وخرروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحق وهو العلي الكبير ، قال : فيقولون كلهم : مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله » (١) .

وهذه الأحاديث يتبين معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أن هذا الفزع الذى يصيبهم من شدة خوفهم من الله تعالى عندما يسمعون صوت السماء ، ويعلمون أن ذلك الصوت الذى هو كجر السلسلة على الصفاء هو رعدة السماوات ، وخوفها من الله لما سمعت كلامه بالوحي ، فعند ذلك تصعق الملائكة خوفا أن يكون الله تعالى أمر بقيام الساعة التى يجازى عز وجل فيها كل عامل بعمله هذا مع قيامهم بأمر الله وطاعته ، وعظيم عبادتهم له ، يخافون هذا الخوف الشديد ، فكيف بمن يبارز الله تعالى بالمعاصى .

وفى هذه الأحاديث ونحوها الدلالة الواضحة بأن الله يتكلم بكلام تسمعه السماوات ومن فيهن ، من الملائكة ، وأن كلامه لا يشبه كلام خلقه وأن من أنكر كلام الله ، فليس معه إلا مجرد الوهم وشبه الشيطان الباطلة .

وفى إثبات الصوت لله تعالى . وأن صوته لا يشبه صوت العباد كما سيأتى .

١٠٥ — قال : « ويذكر عن جابر ، عن عبد الله بن أنيس ،

قال : سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : « أنا الملك ، أنا الديان » .

(١) تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٩١ . وقال ابن كثير : رواه ابن أبى حاتم وابن خزيمة انظر تفسير ج ٦ ص ٥٠٤ .

هذا الحديث ذكره في مواضع من صحيحه ، مرة بصيغة الجزم ، ومرة بصيغة التمريض ، وقد رواه في الأدب المفرد مسندا مرفوعا حيث قال : « حدثنا موسى ، قال : حدثنا همام ، عن القاسم بن عبد الواحد ، عن ابن عقيل ، أن جابر بن عبد الله حدثه ، أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ فابتعت بعيرا ، فشددت إليه رحلي شهرا ، حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فبعثت إليه ، أن جابرا بالباب ، فرجع الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج فاعتقني . قلت حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت .

قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يحشر الله العباد — أو الناس — عراة ، غرلا ، بهما قلنا : ما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد — أحسبه — قال : كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة ، قلت : وكيف وإنما نأتى الله عراة بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات »^(١) .

قوله : « يحشر الله العباد » الحشر : الإخراج والجمع . قال الراغب : « الحشر : إخراج الجماعة عن مقرهم ، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها ، وروى « النساء لا يحشرون » أى لا يخرجون إلى الغزو ، ويقال ذلك في الإنسان وغيره ، ولا يقال : الحشر إلا في الجماعة ، قال تعالى : ﴿ وَأَبَعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ .

(١) انظر الأدب المفرد ص ٣٣٧ ، ورواه الحاكم في المستدرک ج ٣ ص ٤٣٨ و ج ٤ ص ٥٧٤ و ٥٧٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وصححه الذهبي ورواه أحمد في المسند ج ٣ ص ٤٩٥ والخطيب في الرحلة ص ١٠٩ — ١١٧ قال الحافظ وأخرجه الطبراني وأبو يعلى انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٥٧ وأخرجه غيرهم وهو حديث صحيح بمجموع طرقه .

وقال تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ ، ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ ، ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ وسمى يوم القيامة يوم الحشر ، كما سمي يوم البعث ، ويوم النشر ^(١) .

لأن الله تعالى يحيى كل من مات من خلقه فيجمعهم في مكان واحد ليحاسبهم فيجزئهم بعملهم .

قوله : « فيناديهم بصوت » النداء لا يكون إلا بصوت ، ولا يعرف الناس نداء بدون صوت ، فذكر الصوت هنا لتأكيد النداء ، وهذا في غاية الصراحة والوضوح في أن الله يتكلم بكلام يسمع منه تعالى ، وأن له صوتا ، ولكن صوته لا يشبه أصوات خلقه ، ولهذا قال :

« يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » فهذه الصفة تختص بصوته تعالى وأما أصوات خلقه فيسمعها القريب منها فقط حسب قوة الصوت وضعفه وقد كثرت النصوص المثبتة لذلك ، منها ما ذكره البخارى — رحمه الله — في هذا الباب ، ومنها ما ذكره الله تعالى في كتابه في أكثر من عشرة مواضع بلفظ النداء الذى لا يكون إلا بصوت .

منها قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَدِينُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ آتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ^(٤) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ

(١) المفردات ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٥٢ من سورة مريم .

(٤) الآية ١٠ من سورة الشعراء .

حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَمْوَسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
يعنى أن المنادى هو الله العزيز الحكيم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) أى ناداه
تعالى بهذا القول : « يا موسى إني أنا الله رب العالمين » .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴾ (٢) .

وقوله فى السورة أيضا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ
شَهِيدٍ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ
طُوًى ﴾ (٦) فهذه عشرة مواضع كلها صريحة فى أن الله ينادى منها ما وقع
فى الدنيا ومنها ما سيقع يوم القيامة .

وليس مع من ينكر نداء الله ، وأنه تعالى يسمع من يشاء من خلقه نداءه

(١) الآيات ٨ ، ٩ من سورة التل .

(٢) الآية ٣٠ من سورة القصص .

(٣) الآية ٦٢ من سورة القصص .

(٤) الآية ٧٤ من سورة القصص .

(٥) الآية ٦٥ من سورة القصص .

(٦) الآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٧) الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة النازعات .

إلا مجرد الوهم والقياس الفاسد ، الناتج عن الأفكار المضللة .

قال البخارى رحمه الله : « ويذكر عن النبي ﷺ أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض الصوت ، ويكره أن يكون رفيع الصوت ، وأن الله — عز وجل — ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب .

،فليس هذا لغير الله — جل ذكره — وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن صوت الله — جل ذكره — يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته ، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا . وقال — عز وجل — : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾^(١) فليس لصفة الله ند ، ولا مثل ، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين »^(٢) .

« قال الخلال : وأخبرنا المروذى : سمعت أبا عبد الله ، وقيل له : إن عبد الوهاب قد تكلم ، وقال : من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمى عدو لله ، وعدو للإسلام ، فتبسم أبو عبد الله ، وقال : ما أحسن هذا عافاه الله »^(٣) .

و « قال الخلال فى السنة : أخبرنا على بن عيسى أن حنبلا حدثهم ، قال : إن أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى ، فقد كفر بالله ، وكذب القرآن ورد على رسول الله ﷺ أمره ، يستتاب من هذه المقالة ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

قال : وسمعت أبا عبد الله قال : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى ﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال يؤكد كلامه ﴿ تَكَلِيمًا ﴾ .

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .

(٢) خلق أفعال الخلق ص ١٩٢ مجموع عقائد السلف .

(٣) شرح الأصفهانية رسالة دكتوراة ص ١٩٣ .

قلت لأبي عبد الله : « الله عز وجل يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال : نعم ، فمن يقضى بين الخلائق إلا الله — عز وجل — ؟ يكلم عبده ، ويسأله . الله متكلم لم يزل يأمر بما يشاء ، ويحكم ، وليس له عدل ولا مثل كيف شاء ، وأنى شاء .

أخبرنا محمد بن علي بن بحر ، أن يعقوب بن بختان حدثهم ، أن أبا عبد الله سئل عن من زعم أن الله لم يتكلم بصوت فقال : بلى تكلم بصوت ، وهذه الأحاديث كما جاءت نرويهما ، لكل حديث وجه ، يريدون أن يوهوا على الناس ، من زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر .

قال شيخ الإسلام : قلت : وهذا الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من العبد ، بل ذلك صوت العبد كما هو معلوم لعامة الناس .

وقد نص على ذلك الأئمة أحمد ، وغيره ، فالكلام المسموع من العبد حال تلاوته القرآن هو كلام الله ، لا كلام غيره كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾^(١) .

وقال النبي ﷺ : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قرشنا منعوني أن أبلغ كلام ربي » رواه أبو داود وغيره^(٢) .

وقال : « زينوا القرآن بأصواتكم »^(٣) ، وقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »^(٤) .

(١) الآية ٦ من سورة التوبة .

(٢) انظر السنن ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٣) انظر سنن أبي داود ج ٢ ص ٩٩ والنسائي ج ٢ ص ١٣٩ وابن ماجه ج ٢ ص ٢٤٦ والدارمي ج ٢ ص ٤٧٤ وأحمد في المسند ج ٤ ص ٢٨٣ و ٢٨٥ .

(٤) درء تعارض العقل ج ٢ ص ٣٨ — ٤٠ .

« وقال أبو نصر السجزي : « فأما الله — تعالى — فإنه متكلم فيما لم يزل ، ولا يزال إذا شاء ذلك ، ويكلم من يشاء تكليمه بما يعرفه [المخاطب] ولا يجهره ، وكلامه أحسن الكلام ، وفيه سور ، وآى ، وكلمات ، وكل ذلك حروف ، وهو المسموع منه على الحقيقة سماعا يعقله الخلق ، وجائز وجود أعداد من المكلمين يكلمهم في حال واحدة ، بما يريد من كل واحد منهم ، من غير أن يشغله تكليم هذا عن تكليم هذا »^(١) .

وقال أيضا : « لما وجدنا أحكام الشريعة المتعلقة بالكلام منوطة بالنطق الذى هو حرف وصوت ، دون ما فى النفس ، علمنا أن حقيقة الكلام هو الحرف والصوت .

فلو حلف امرؤ أنه لا يتكلم ساعة من النهار ، فأقام فى تلك الساعة يحدث نفسه بأشياء ، ولا ينطق بها ، كان بارا ، غير حانث .

ولو كان الكلام هو ما فى النفس حنث فى أول ما يحدث به نفسه^(٢) .

وقال أيضا : « فالله تعالى قد بين فى كتابه ما كلامه ، وبين ذلك رسوله ﷺ واعترف به الصدر الأول والسلف الصالح ، فقال الله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾^(٣) وقال : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾^(٤) والمستجير لا يسمع إلا كلاما ذا حروف ، والقارىء لا يقرأ إلا كلاما ذا حروف .

ولما سمى تعالى هذا القرآن كلامه ، علم أن كلامه حروف ، وقد أكد ذلك بذكر الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ﴿ كهيعص ﴾ ونحوها .

(١) المصدر المذكور ص ٨٨ ملخصا .

(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت لأبى نصر ، رسالة ما جستير ص ١٧٦ .

(٣) الآية ٦ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

فمن زعم أن هذه الحروف ليست من القرآن فهو كافر ، ومن قال : إنها من القرآن ، والقرآن ليس كلام الله ، فهو كافر ، ومن زعم أنها عبارة عن الكلام الذى لا حروف فيه ، فهو جهل وغباء ، لأن ذلك لا يعرف والنبي ﷺ قال : « من قرأ القرآن ، فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول : « الم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، وبهذا يتبين أن القرآن سور ، وآيات ، وحروف ، وهكذا كلام الله »^(١) .

وقال أيضا : « الأصل الذى يجب أن يعلم ، أن اتفاق التسميات لا يوجب اتفاق المسمين بها ، فنحن إذا قلنا : إن الله موجود ، رؤف ، واحد ، حى ، عليم ، سميع ، بصير ، متكلم ، وقلنا : إن النبي ﷺ كان موجودا حيا عالما ، سميعا بصيرا ، متكلما ، لم يكن ذلك تشبيها ، ولا خالفنا به أحدا من السلف ، والأئمة .

بل الله موجود لم يزل ، واحد ، حى ، قديم ، قيوم ، عالم ، سميع ، بصير ، متكلم فيما لم يزل ، ولا يجوز أن يوصف بأضداد هذه الصفات .
والموجود منا إنما وجد عن عدم ، وحين ينقضى أجله ثم يصير ميتا يزول ذلك المعنى ، وعلم بعد أن لم يعلم ، وقد ينسى ما علم ، وسمع وأبصر وتكلم بجوارح تلحقها الآفات .

فلم يكن فيما أطلق للخلق تشبيهه بما أطلق للخالق — سبحانه وتعالى — وإن اتفقت مسميات هذه الصفات »^(٢) .

« وقد بين الله فى كتابه أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحروف ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ ، والعرب لا تعرف نداء إلا صوتا .

(١) الرد على من انكر الحرف والصوت ص ١٨٦ رسالة ما جستير .
(٢) درء تعارض العقل والنقل ج ٢ ص ٨٩ — ٩٠ .

وقد جاء عن موسى تحقيق ذلك ، فإن أنكروا الظاهر كفروا ، وإن قالوا إن النداء غير صوت خالفوا لغات العرب .

وإن قالوا : نادى الأمير إذا أمر بالنداء ، دفعوا فضيلة موسى صلى الله عليه وآله المختصة به من تكليم الله إياه بذاته ، من غير واسطة ، ولا ترجمان .

وليس في وجود الصوت من الله تعالى تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق ، كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه ، وكلام الله حروف ، وأصوات بحكم النص ^(١) .

« والله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ، وإذا شاء تكلم بصوت يسمع ، وبحروف ، وكل ما قام بذات الله — تعالى — فليس بمخلوق ، سواء كان قديما أو حادثا ، وكلامه — تعالى — وفعله متعلق بمشيئته وإرادته ، هذا قول أهل السنة والجماعة .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : « سألت أبا عن قوم يقولون : لما كلم الله موسى ، لم يتكلم بصوت ؟ فقال أبا : بلى تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نروها كما جاءت .

وقال أبا : حديث ابن مسعود : « إذا تكلم الله سمع له صوت كججر السلسلة على الصفوان » .

قال أبا : وهذا الجهمية تنكره ، قال أبا : وهؤلاء كفار ، يريدون أن يموهوا على الناس ، من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر ^(٢) .

وقال أيضا : « حدثني أبا ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، عن

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) كتاب السنة ص ٧٠ .

الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله : « إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء فيخرون سجدا ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قال : سكن عن قلوبهم ، نادى أهل السماء : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، قال : كذا وكذا »^(١) .

وقال أبو يعلى بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : « اعلم أن هذه الأخبار تدل على أن كلام الله — تعالى — بحرف وصوت ، لا بحروف الآدميين وأصواتهم ، كما أن له علما وقدرة لا تشبه صفات الآدميين ، وقد نص أحمد في رواية الجماعة على إثبات الصوت »^(٢) ، وكلام أهل العلم من السلف وأتباعهم في هذا كثير .

قوله : « أنا الملك أنا الديان » يعنى أن النداء الذى يسمعه أهل الموقف كلهم يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب هو بهاتين الكلمتين : « أنا الملك أنا الديان » فهو تعالى الملك الذى بيده ملك السماوات والأرض ، ومن فيهن ، وهو الديان الذى يجازى عباده بعملهم ، من عمل خيرا جزاه بأفضل مما عمل ، ومن عمل شرا جزاه بما يستحق .

وفى هذا الحديث دليل على أن بعض أهل الموقف أقرب إلى الله من بعض . ودل على هذا المفهوم آيات من كتاب الله ، وأحاديث ثابتة عن رسوله ﷺ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ ونحو ذلك ، وعند الذين ضلوا فى هذا الباب ، الخلق بالنسبة إلى الله سواء بالقرب والبعد ، وكفى بذلك ضلال أنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، وللفطر والعقول .

(١) المصدر المذكور ٧١ ورواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ١٩٤ مجموع عقائد السلف .

(٢) إبطال التأويل مخطوط ص ٣٠٤ .

١٠٦ — قال : « حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان » .

قال علي : وقال غيره : صفوان ، ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير » .
قوله : « إذا قضى » المراد بالقضاء هنا ، الأمر بالشيء والحكم ، بأن يتكلم أمرا ملائكته ، كما في حديث ابن مسعود المتقدم ، وحديث النواس بن سمعان : إذا تكلم الله بالوحي .

قوله : « ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله » صريح بأن الملائكة تسمع قوله ، ولا يعقل شيء يدركه السمع إلا ما كان بصوت وحروف . هذا هو مراد البخارى — رحمه الله — أن كلام الله يسمع منه ، لأنه يتكلم حقيقة والكلام الحقيقى الذى يسمع لابد أن يكون بصوت وحروف ، وهذا الذى فهمه صحابة رسول الله ﷺ منه ، وهو الذى أراد منهم فهمه ، وكذا فهمه أتباعه إلى اليوم .

« خضعانا » مصدر لخضع ، كغفران مصدر لغفر ، والمعنى أن الملائكة تخضع لله عند سماع كلامه ، وتستكين ، فتضرب بأجنحتها من الخضوع . والصفوان هي الحجارة الكبيرة الصلبة .

قوله : « ينفذهم ذلك » يعنى أن الصوت المذكور يبلغهم كلهم ويسمعونه .

قوله : « قال سفيان ، قال عمرو : سمعت عكرمة ، حدثنا أبو هريرة بهذا ، قلت لسفيان : قال سمعت عكرمة » إلى آخره يقصد بيان أن عكرمة قد صرح بالتحديث فينتفى احتمال التدليس .

قوله : « فرغ » قال سفيان هكذا قرأ عمرو ، فلا أدري سمعه هكذا أم لا .
قال سفيان : وهي قراءتنا « هذه القراءة بضم الفاء وبالراء المهملة المشددة ،
وبالغين المعجمة ، قال في إتحاف فضلاء البشر : « هي قراءة الحسن »^(١) .
وعمره المذكور هو ابن دينار .

قوله : « فلا أدري سمعه هكذا أم لا » أى سمعه من عكرمة ، أو قرأها
كذلك من قبل نفسه بناء على أنها قراءته .
وقول سفيان : هي قراءتنا ، يريد نفسه ، ومن تابعه^(٢) .

قال الحافظ بعد أن ذكر عدة روايات تتعلق بهذا الحديث ، سجود الملائكة
عند سماعهم صوت الوحي من الله ، قال : « فهذه الأحاديث ظاهرة جدا في
أن ذلك وقع في الدنيا ، بخلاف قول بعض المفسرين الذين أقدموا على الجزم
بأن الضمير في قوله : « عن قلوبهم » للكفار ، وأن ذلك يقع يوم القيامة ،
مخالفين لما صح من الحديث النبوى ، من أجل خفاء معنى الغاية في قوله :
« حتى إذا فرغ عن قلوبهم » .

وما قاله هو الذى يجب أن يعتمد ، ولا يلتفت إلى غيره ، لأن الأحاديث
أوضحته غاية الإيضاح .

١٠٧ — قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن
عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي
هريرة ، أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما أذن الله لشيء
ما أذن للنبي يتغنى بالقرآن » وقال صاحب له : يريد يجهر به .

(١) انظر ص ٣٦٠ والحسن هو البصرى .

(٢) انظر الفتح ج ٣ ص ٤٥٩ .

قال ابن كثير : « معناه : أن الله — تعالى — ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها ، وذلك أنه يجمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم ، وتمام الخشية ، وذلك هو الغاية في ذلك ، وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلهم ، برهم وفاجرهم كما قالت عائشة — رضى الله عنها — : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات » .

ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم ، كما قال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (١) ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم .

ومنهم من فسر الإذن هاهنا بالأمر ، والأول أولى ، لقوله : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن » أى يجهر به ، فالإذن : الاستماع لدلالة السياق عليه ، وكما قال تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ فالإذن هنا الاستماع ، ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند جيد ، عن فضالة بن عبيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد إذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن ، من صاحب القينة إلى قبنته » .

وقول سفیان بن عيينة إن المراد بالتغنى : يستغنى به ، فإن أراد أنه يستغنى به عن الدنيا — وهو الظاهر من كلامه — فبخلاف الظاهر من مراد الحديث ، لأنه فسره بعض رواه بالجهر ، وهو تحسين القراءة ، والتحزين بها « (٢) .

ثم قال : « والمراد من تحسين الصوت بالقرآن ، تطريه ، وتحزينه ، والتخشع به ، كما رواه بقى بن مخلد ، عن أبى موسى ، قال : قال لى رسول الله

(١) الآية ٦١ من سورة يونس .

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ص ١١٦ .

صلى الله عليه وآله ذات يوم : « يا أبا موسى لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة » قلت :
أما والله لو علمت أنك تسمع قراءتى لحبرتها لك تحبيرا^(١) .

ومن تأمل الأحاديث الواردة فى ذلك تبين له أن معنى قوله : « يتغنى
بالقرآن » تحسين الصوت وتزيينه بما يستطيع القارئ ، والتغنى لا يكون إلا
بالكلام ذى الحروف ، كما أن الاستماع لا يكون إلا للكلام المصوت به ، وهذا
هو وجه استدلال البخارى بهذا الحديث .

فالقرآن الذى يجب الله من عبده أن يتغنى به ، ويجب استماعه إليه فى ذلك
ينطق به بالحروف ويصوت به .

والله تعالى قد تكلم به بصوت نفسه ، وبهذه الحروف المكتوب بها .

« وذكر الطبرى » عن الشافعى ، أنه سئل عن تأويل ابن عيينة : التغنى
بالاستغناء « فلم يرتضه ، وقال : لو أراد الاستغناء ، لقال : يستغنى » ، وإنما
أراد تحسين الصوت « ، ويؤيده ما فى رواية الطبرى « ما أذن لنبى فى الترنم
فى القرآن » .

وفى رواية عبد الرزاق : « ما أذن لنبى حسن الصوت » ، وهو عند
مسلم .

وفى رواية للطحاوى : « حسن الترنم بالقرآن » .

قال الطبرى : الترنم لا يكون إلا بالصوت ، إذا أحسنه القارئ ، وطرب
به ، ولو كان معناه : الاستغناء لما كان لذكر الصوت والجهر معنى .

ولا نعلم فى كلام العرب « تغنى بمعنى استغنى ، ولا فى أشعارهم » .

(١) المصدر المذكور ص ١٢٢ .

ومثل ذلك قال الإسماعيلي ، وقال : الاستغناء لا يحتاج إلى استماع لأن الاستماع أمر خاص ، زائد على الاكتفاء به ، والاكتفاء به عن غيره أمر واجب على الجميع ، ومن لم يفعل ذلك خرج عن الطاعة .

وقال عمر بن شبة : ذكرت لأبي عاصم النبيل : تفسير ابن عيينة — يعنى يستغنى به — فقال : لم يصنع شيئا ، حدثني ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد ابن عمير ، قال : كان داود — عليه السلام — يتغنى — يعنى حين يقرأ — ويكى ويكى .

وظواهر الأخبار ترجح أن المراد تحسين الصوت بالقراءة ، ويؤيده قوله « يجهر به » فإن كان ذلك مرفوعا قامت الحجة ، وإن كان غير مرفوع ، فالراوى أعرف بمعنى الخبر من غيره ، ولا سيما إذا كان فقيها .

وقد جزم الحلیمی بأن ذلك من قول أبي هريرة ، والعرب تقول : سمعت فلانا يتغنى بكذا ، أى يجهر به ، قال ذو الرمة :

أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم
يعنى أجهر بذكر اسم حبيبتى من غير تورية .

والحاصل : أنه يمكن الجمع بين أكثر التأويلات المذكورة .

وهو أنه يحسن به صوته ، جاهرا به ، مترنما ، على طريق التحزن ، مستغنيا به عن غيره من الأخبار ، طالبا به غنى النفس ، راجيا به غنى اليد^(١) .

قلت : فى هذا الجمع نظر ، فإن الرسول ﷺ أراد بذلك معنى معيناً وظواهر أقواله فى ذلك أنه أراد تحسين الصوت به والترنم يكون بتحسين الصوت ، وكذا التحزن الذى يستجلب به الخشوع ومحبة القرآن والإقبال إلى استماعه .

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٧٢ .

ولا يلزم الجمع بين التأويلات ، بل كل تأويل خالف النص يجب رده على من قاله .

قال الحافظ : « ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم ، لأن للتطريب تأثيرا في رقة القلب ، وإجراء الدمع . ولا خلاف بين السلف في استحباب تحسين الصوت بالقراءة ، وتقديم حسن الصوت على غيره .

وإنما اختلفوا في التلحين ، بين مانع ومجيز .

والذى يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقراءة مطلوب ، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع ، كما قال ابن أبي مليكة ، أحد رواة الحديث ، أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح .

ومن جملة تحسينه أن يراعى فيه قوانين النغم ، فإن الحسن الصوت يزداد بذلك حسنا ، وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه .

وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها ، ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات ، فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء .

ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام ، لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعى الأداء ، فإن وجد من يراعيهما معا ، فلا شك أنه أرجح من غيره ، لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ، ويتجنب الممنوع من حرمة الأداء والله أعلم^(١) .

١٠٨ — قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبي سعيد الخدرى ، قال ،

(١) الفتح ج ٩ ص ٧٢ .

قال النبي ﷺ : « يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك ، وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار » .

قال محب الدين الطبري : « لبيك : مصدر مثنى للتكثير والمبالغة ، ومعناه : إجابة بعد إجابة ، ولزوما لطاعتك .

وتثنيته للتوكيد ، لا تثنية حقيقة ، قال ابن الأنباري : ثنوا لبيك ، كما ثنوا حنانيك ، أي تحننا بعد تحنن^(١) .

وقال ابن الأنباري : « سمعت أبا العباس يقول : معنى قولهم : لبيك : أنا مقيم على طاعتك ، وإجابتك ، من قولهم : قد لبَّ الرجل في المكان وألبَّ ، إذا أقام فيه ، قال الشاعر :

محل الجهر أنت به مقيم ملب ما يزول ولا يريم

وقال الفراء : معنى لبيك : إجابتي لك يا رب ، ونصب على المصدر ، وثنى لأنه أراد إجابة بعد إجابة .

وقال آخرون : معناه : اتجأه إليك ، مأخوذ من قولهم : دارى تلبُّ دارك ، أي تواجهاها .

وقال آخرون : معناه : محبتي لك ، من قولهم : امرأة لبَّة ، إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه^(٢) ، وذكر مثل ذلك الجوهري^(٣) .

(١) الفرى ص ١٤٥ .

(٢) الزاهر ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٨ ملخصا .

(٣) انظر الصحاح ج ١٥ ص ٣٣٦ .

وقال الزمخشري : « معنى لبيك : دواما على طاعتك ، وإقامة عليها مرة بعد أخرى ، من ألب بالمكان إذا أقام به ، وألب على كذا إذا لم يفارقه ، ولم يستعمل إلا على لفظ التثنية في معنى التكرير ، ولا يكون عامله إلا مضمرا ، كأنه قال : ألب إلبا بعد إلباب .

والتلبية من لبيك ، بمنزلة التهليل من لا إله إلا الله»^(١) .

« وقال الخليل : هي من قولهم : دار فلان تلب داري ، أى تواجهها .

فيكون معناه : اتجأ وقصدى إليك يا رب ، مرة بعد أخرى .

وقيل : هنى من قولهم حب لباب ، إذا كان خالصا محضا ، ومنه لب الطعام ولبابه ، فعلى هذا معناه : إخلاصى لك يا رب مرة بعد أخرى .

وقيل : هو من الإلباب ، أى القرب ، أى قربنى منك ، وقيل : من قولهم : أنا ملب بين يديك أى خاضع»^(٢) .

قوله : « فينادى بصوت » قال الحافظ : « أكثر الرواة ، روهه بكسر الدال — يعنى رواية صحيح البخارى — قال : وفى رواية أبى ذر بفتحتها على البناء للمجهول ، ولا محذور فى رواية الجمهور ، فإن قرينة قوله : إن الله يأمرك تدل ظاهرا على أن المنادى ملك يأمره الله بأن ينادى بذلك»^(٣) .

قلت : هذا بجانب للإيضاح ، ويبعد عن ظاهر قول رسول الله ﷺ ، بل الظاهر أن المنادى هو الله تعالى .

والنداء صفة كمال ، لا محذور فيه كما توهمه أهل التأويل الباطل .

(١) الفائق ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) الفرى ص ١٤٥ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤٦٠ .

وقد ثبت بالنصوص الكثيرة اتصاف الله تعالى بالكلام ، والنداء منه .

وأى محذور يخشاه هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم لتحريف كلام الله وكلام رسوله ، وصرفه عن الظاهر المراد منه ، حتى عطلوه — تعالى — عما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله من الكلام ، والنداء ، وما ذاك إلا لسوء ظنهم بالله تعالى حتى جعلوا المخلوق أكمل منه ، ولذلك قالوا : المنادى ملك يأمره الله أن ينادى آدم ، هذا مع وضوح الكلام وكونه بأبى هذا التحريف ، فإنه قال : « يقول الله يا آدم فينادى بصوت » فقلوه : فينادى بصوت تفسير لقلوه : يقول الله يا آدم » ، وبيان له ، ولكن الذين تأثروا بأصول الجهمية ظنوا أن اتصاف الله تعالى بالكلام حقيقة والنداء من التشبيه ، فنفوا ذلك عن الله — تعالى — ظانين أن هذا هو قول أهل السنة ، فصار الأخذ بظاهر هذا النص ونحوه لا يجوز ، لأنه عندهم على خلاف أصولهم التي منها نفى حقيقة الكلام عن الله — تعالى — ، فوجب تأويله — كما زعموا — ، والحق خلاف ظنهم .

ثم نقول : إذا كان الله تعالى ليس هو المنادى ، وإنما يأمر ملكا ينادى ، نقول بأى شيء يأمر الملك ، وأنتم تقولون : لا يتكلم بكلام يسمع منه أيكون أمره بالإشارة ؟ وبذلك يكون الملك أكمل من رب العالمين .

أم يكون الأمر بأن يخلقه بقلبه ، فإن قالوا ذلك فيلزم أن يكون الأمر صفة للملك لأن ما كان مخلوقا فيه فهو صفة له .

فالحق أن الله يتكلم بصوت مسموع يسمعه من شاء من عباده ، وليس الصوت الذى يتكلم الله به قديما كما يقوله بعض أهل البدع ، بل لم يزل يتكلم متى شاء ، وسيكلم عباده يوم القيامة ويحاسبهم ، كما فى حديث عدى بن حاتم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

ولما علم أئمة الأشعرية القدماء أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين ، لم يمكنهم أن يقولوا : القديم هو الحروف ، والأصوات ، لأنها لا تكون إلا متعاقبة .

والصوت عرض ، لا يبقى زمانين إلا بواسطة ما يمسه كشريط التسجيل ونحوه ، فلذلك قالوا : القديم معنى واحد ، لامتناع معانٍ لا نهاية لها عندهم ، وهذا هو أصلهم الذى بنوا عليه مذهبه الباطل .

« والاختلاف فى القرآن ، والكلام ، هل هو حرف وصوت أو غير ذلك ؟ محدث حدث فى حدود المائة الثالثة ، وانتشر فى المائة الرابعة .

فإن ابن كلاب والأشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة فى إثبات الصفات ، وأن القرآن ليس مخلوقا ، وأنه لا يمكن أن يكون قديما إلا أن يكون معنى قائما بنفس الله ، كعلمه .

وزادوا : إن الله لا يتكلم بصوت ، ولا لغة ، لا قديم ولا غير قديم ، لما رأوا امتناع قيام أمر حادث به ، وخالفوا فى ذلك جمهور المسلمين .

والآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت ، ولهذا جعل الإمام أحمد من أنكر ذلك جهميا .

قال عبد الله : قلت : لأبى : إن قوما يقولون : إن الله لا يتكلم بصوت ؟ فقال : هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل»^(١) .

قال شيخ الإسلام : « السلف والأئمة يقولون : إن لله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه تعالى قديم النوع ، بمعنى أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء فإن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته ، ومن لا يزال متكلمًا بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعا»^(٢) .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٥٧٩ .

(٢) المصدر السابق ج ١٢ ص ٣٧٢ .

وقال أيضا : « والصواب أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأن كلماته لا نهاية لها ، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حتى أتى ، لم يناده قبل ذلك ، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم »^(١) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : « حدثنا أبي ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن المعتمر ، عن هلال بن يسار ، عن فروة بن نوفل الأشجعي ، قال : كنت جارا لخباب ، فخرجنا يوما من المسجد ، وهو آخذ بيدي فقال : يا هناه : تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لئن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه يعني القرآن » .

وروى بسند حسن ، عن جبير بن نفيير ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعني القرآن .

وقال : « حدثني أبو معمر ، حدثنا وكيع ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : « كأن الناس إذا سمعوا القرآن من في الرحمن يوم القيامة فكأنهم لم يسمعه قبل ذلك » .

وحدثني أبي ، سمعت عبد الرحمن بن مهدي ، يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

سألت أبي عن قوم يقولون : لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت ؟ فقال أبي : بلى تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نروها كما جاءت »^(٢) .

يعني أنها لا تؤول بل يجب الإيمان بها على ما يدل عليه ظاهرها ، من أن الله يتكلم ، وأن كلامه بصوت .

(١) المصدر ج ١٢ ص ٥٩٨ .

(٢) كتاب السنة من ص ٢٦ — ٧١ .

ولو كان ما يفهم من ظاهرها باطل لبينه رسول الله ﷺ لأن الله تعالى كلفه بيان ما نزل إليه .

ثم قال : « سمعت أبا معمر الهذلي يقول : من زعم أن الله لا يتكلم ، ولا يسمع ولا يبصر ، ولا يغضب ، ولا يرضى ، وذكر أشياء من هذه الصفات ، فهو كافر بالله » .

حدثني أبي ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله : إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء ، فيخرون سجدا ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قال : سكن عن قلوبهم ، نادى أهل السماء ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ، قال كذا وكذا ورواه مرفوعا ^(١) .

وفي الترمذي ، عن عمران بن حصين ، قال كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير ، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطى ، وعرفوا أنه عنده قول يقوله ، فقال : هل تدرون أى يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذاك يوم ينادى الله فيه آدم ، فيناديه ربه ، فيقول : يا آدم ابعث بعث النار إلى آخر الحديث ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » ^(٢) .

فهذا ظاهر جدا في أن المنادى هو الله تعالى ، والنداء لا يكون إلا بصوت يسمع من بعد عن المنادى ، فله تعالى صوت يليق به ، فصوته لا يشبه أصوات خلقه ، كصفاته .

(١) كتاب السنة ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) جامع الترمذي ج ٥ ص ٣٢٤ .

ولشئوت ذلك بالأدلة التى ذكر شئء منها فى هذا يتعين على المؤمن الإيمان بأن الله تعالى يتكلم بكلام يُسْمِعُهُ من يشاء من خلقه ، وأنه بصوت ، إذا شاء صوت به .

فتبين أن قول الحافظ : « إن المنادى ملك يأمره الله بأن ينادى بذلك » باطل إذ هو خلاف الحق ، وأن المنادى هو الله .

وإذا كان الله — تعالى — لا يتكلم بكلام مسموع منه ، فكيف يأمر الملك ؟ وكيف يرسل الرسل ، أوليس الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم وينادى أكمل ممن لا يقدر على ذلك ، فما هو المسوغ لتحريف كلام الله وكلام رسوله مع أن السلف وأهل السنة مجمعون على وصف الله بالكلام ، وأن من نفى ذلك ضال سالك غير سبيل المؤمنين .

قال الألوسى : « الذى انتهى إليه كلام أئمة الدين كالما تريدى ، والأشعرى وغيرهما من المحققين أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت ، كما تدل عليه النصوص التى بلغت فى الكثرة مبلغا لا ينبغى معه تأويل ، ولا يناسب فى مقابلته قال ، وقيل ، بل قدورد فى إثبات الصوت لله تعالى أحاديث لا تحصى »^(١) .

١٠٩ — قال : « حدثنا عبيد بن إسماعيل ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت فى الجنة » .

تقدم هذا الحديث فى الفضائل ، والنكاح ، والأدب ، وفى ألفاظ متنه وفى

(١) روح المعانى ج ١ .

إسناده اختلاف عما هنا ، وقد بينت عائشة رضى الله عنها سبب غيرتها أنه كثرة ذكر النبي ﷺ لها ، وثناؤه عليها ، وجاء في رواية « لما كنت أسمعها يذكرها ، وأمره ربه أن يبشرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيهدى في حلائلها منها ما يسعهن »^(١) .

والغيرة عند النساء جبلة لا يستطيعن التخلي عنها ، ولهذا لم ينكر النبي ﷺ على عائشة ، وفي هذا الحديث فضل خديجة رضى الله عنها .

والمقصود من الحديث هنا قوله : « ولقد أمره ربه أن يبشرها » لأن الأمر عند الإطلاق لا يكون إلا بالكلام ، فلذلك قال العلماء : إن من نفى الكلام عن الله تعالى فقد نفى الرسالة ، والشرائع كلها ، لأنها أمر ونهى .

« قال الخلال في السنة : أخبرني علي بن عيسى ، أن حنبلا حدثهم ، قال : سمعت أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى ، فقد كفر بالله ، وكذب بالقرآن ، ورد على رسول الله ﷺ أمره ، يستتاب من هذه المقالة فإن تاب وإلا ضربت عنقه » .

قال : وسمعت أبا عبد الله ، قال : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى ﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال — تعالى — يؤكد كلامه : ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ .

قلت لأبي عبد الله : الله تعالى يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال : نعم ، فمن يقضى بين الخلائق إلا الله عز وجل ، يكلم الله عبده ويسأله ، لم يول الله يأمر بما يشاء ويحكم ، وليس له عدل ، ومثل ، كيف شاء ، وأنى شاء »^(٢) .

(١) انظر الفتح ج ٩ ص ٣٣٦ و ج ٧ ص ١١٣ و ج ١٠ ص ٤٣٥ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ج ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .

قال : « باب كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة » .

يريد بهذا تنويع الأدلة ، وأن الله يتكلم متى شاء ، ويكلم من يشاء من ملائكته في أى وقت أراد ، وسبق الكلام في النداء .

« وقال معمر : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ ﴾ أى يلقى عليك ، وتلقاه أنت — أى وتأخذه عنهم — ومثله ﴿ فَتَلْقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ ﴾ .

قال الحافظ : « معمر ، هذا يتبادر أنه ابن راشد ، شيخ عبد الرزاق ، وليس كذلك ، بل هو أبو عبيدة ، معمر بن المثنى اللغوى .

قال أبو ذر الهروى : وجدت ذلك فى كتاب المجاز له ، فقال فى تفسير سورة النمل فى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ ﴾ أى تأخذه عنه ، ويلقى عليك .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ فَتَلْقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ ﴾ أى قبلها ، وأخذها عنه ، قال أبو عبيدة : وتلا علينا أبو مهدى آية ، فقال : تلقيتها من عمى ، تلقاها عن أبى هريرة ، تلقاها عن النبى ﷺ .

وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى لا يوفق لها ، ولا يرزقها ولا يلقيها .

وحاصله : أنها تأتى بالمعاني الثلاثة ، وأنها هنا صالحة لكل منها .

وأصله : اللقاء ، وهو استقبال الشئ ومصادفته ^(١) .

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٦١ ، وانظر مجاز القرآن ج ١ ص ٣٨ و ج ٢ ص ٩٢ ، ١١١ .

ومقصوده بالمعاني الثلاثة ، تأخذها ، وتقبلها ، وتوفق لها وترزقها ،
وبعضها قريب من بعض .

وقال ابن جرير : « وإنك يا محمد لتحفظ القرآن ، وتعلمه »^(١) .

وقال : ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قيل : إنه أخذ وقبل ، وأصله :
التفعل من اللقاء ، كما يتلقى الرجل مستقبله عند قدومه من غيبته ، أو سفره .
فكأنه استقبله ، فتلقاه بالقبول حين أوحى إليه ، أو أخبره ، ومعناه فلقي الله
آدم كلمات توبة ، فتلقاها آدم من ربه ، وأخذها عنه تائباً »^(٢) .

١١٠ — قال : « حدثني إسحاق ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا

عبد الرحمن — هو ابن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن أبي صالح ،
عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ إن الله تبارك وتعالى إذا
أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه
جبريل ، ثم ينادى جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ،
فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في أهل الأرض » .

قال الحافظ : « وقع في بعض طرقه بيان سبب هذه المحبة والمراد بها ، ففي
حديث ثوبان : « أن العبد ليلتمس مرضاة الله — تعالى — فلا يزال كذلك
حتى يقول يا جبريل : إن عبدى فلانا يلتمس أن يرضيني ، ألا وإن رحمتي
غلبت عليه »^(٣) .

يعنى أن المراد بالمحبة هي الرحمة ، كما يقوله الأشاعرة ، وليس كذلك ،

(١) تفسير الطبرى ج ١٩ ص ١٣٢ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١ ص ٥٤١ تحقيق محمود شaker .

(٣) الفتح ج ١٠ ص ٤٦٢ وقال : أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط .

بل المحبة صفة الله تعالى غير صفة الرحمة ، ورحمة الله تعالى لعبده من لوازم محبته له ، وقد تقدم تقرير ذلك ، والرد على المحرفين من الأشاعرة وغيرهم^(١) .

وأسباب محبة الله تعالى لعبده متعددة ، حسب ما دلت عليه النصوص في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منها : التوبة فالله تعالى يحب التوابين ومنها : التطهر من الأنجاس الحسية والمعنوية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ومنها : الثبات أمام العدو صفوفًا كالبنين المرصوص .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرصُوصٌ ﴾ .
وفي الحديث الصحيح « لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به » الحديث .

قوله : « إن الله تبارك وتعالى » قال ابن عباس : تبارك تفاعل من البركة ، وهو كقول القائل : تقدس ربنا^(٢) .

وقال الأزهرى : « أخبرني المنذرى عن أبى العباس ، أنه سئل عن تفسير « تبارك الله » فقال : ارتفع ، والمتبارك المرتفع ، ومعنى البركة الكثرة فى كل خير وتبارك تعالى وتعظيم ، وقال ابن الأنبارى : تبارك الله : أى يتبرك باسمه فى كل أمر ، وقال الليث : « تبارك الله تمجيد وتعظيم » .

وقال أبو بكر تبارك : تقدس — أى تطهر ، والمقدس المطهر^(٣) .

وقال : « عن الليث « تعالى » هو العلى المتعالى « العالى الأعلى ، ذو العلاء والعلا والمعالى ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وهو الأعلى — سبحانه —

(١) انظر ص ٦٤ من الجزء الأول من هذا الشرح .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج ١٨ ص ١٧٩ .

(٣) تهذيب اللغة ج ١٠ ص ٢٣٠ ملخصا .

بمعنى العالى ، وتفسيره « تعالى » : جل عن كل ثناء ، فهو أعظم وأجل وأعلى مما يشئى عليه ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له »^(١) .

يعنى أن ثناء الخلق عليه — تعالى — لا يبلغ ما يستحقه من الثناء ، ولا قريبا من ذلك ، بل هو كما أثنى على نفسه ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا أحصى ثناء عليك ، بل أنت كما أثنت على نفسك »^(٢) .

قال الأزهرى : « وتفسير هذه الصفات لله تعالى يقرب بعضها من بعض فالعلى : الشريف ، فعيل من علا يعلو ، وهو بمعنى العالى ، وهو الذى ليس فوقه شئ ، ويقال هو الذى علا الخلق فقهرهم بقدرته .

وأما المتعالى : فهو الذى جل عن إفك المفتريين ، وتنزه عن وساوس المتحيرين ، وقد يكون المتعالى بمعنى العالى .

والأعلى هو الله الذى هو أعلى من كل عال ، واسمه الأعلى أى صفته أعلى الصفات »^(٣) .

وقال ابن القيم : « الرب تعالى يقال فى حقه تبارك ، ولا يقال : مبارك .

ثم قالت طائفة منهم الجوهرى : إن تبارك بمعنى بارك ، مثل قاتل وتقاتل إلا أن فاعل يتعدى ، وتفاعل لا يتعدى . وهذا غلط عند المحققين ، وإنما تبارك تفاعل من البركة ، وهذا الثنى فى حقه — تعالى — إنما هو لوصف رجع إليه ، كتعالى ، فإنه تفاعل من العلو ، ولهذا يقرن بين هذين اللفظين فيقال : تبارك وتعالى ، وهو سبحانه أحق بذلك وأولى من كل أحد ، فإن الخير كله بيده ،

(١) المرجع المذكور ج ٣ ص ١٨٦ .

(٢) رواه أبو داود فى السنن ج ٢ ص ١٣٤ والترمذى رقم ٣٥٦١ والنسائى ١٧٤٨ وابن ماجه رقم ١١٧٩ .

(٣) تهذيب اللغة ج ٣ ص ١٨٦ .

وصفاته كلها صفات كمال ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة ، وخيرات لا شروء فيها .

وهذا ثناء يشعر بالعظمة والرفعة والسعة ، كما يقال : تعظيم ، وتعالى ونحوه ، فهو دليل على عظمته ، وكثرة خيره ، ودوامه ، واجتماع صفات الكمال فيه ، وأن كل نفع في العالم كان ويكون فمن نفعه — سبحانه — وإحسانه .

ويدل هذا الفعل أيضا في حقه على العظمة ، والجلال وعلو الشأن^(١) .

قوله : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل » .

صريح في أن الله — تعالى — يحب من يشاء من عباده من أهل الطاعة له والتقوى ، كما هو صريح أيضا في أنه — تعالى — يتكلم وينادى متى شاء لمن يشاء ، وفي هذا الحديث النداء لجبريل خاصة ، وتقدم أن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع ، وأن مثل هذه النصوص من أبلغ الأدلة على إثبات صفة الكلام لله — تعالى — وهذا القدر من الحديث هو المقصود إذ هو محل الشاهد وفيه أن جبريل عليه السلام بمجرد إخبار الله له بأنه تعالى يحب العبد يحبه ، وأنه هو سفير الله تعالى إلى الملائكة ، كما أنه سفيره إلى الرسل من البشر ، ولهذا قال : « ثم ينادى جبريل في السماء » مما يعجب له العاقل أن جميع شراح الحديث الذين اطلعت على أقوالهم يقولون إن هذا الندى من جبريل نداء حقيقي يسمع منه بصوته ، تسمعه ملائكة السماء ، وأكثرهم يقول : إن النداء المسند إلى الله تعالى ليس حقيقيا ، وإنما معناه : أمره لمن ينادى ، أو إعلام جبريل بما يفهم منه أن الله يحب ذلك العبد .

(١) جلاء الافهام ص ٢٠٦ — ٢٠٧ وانظر بقية الكلام فيه .

وهكذا يتلاعبون بكلام الله وكلام رسوله مما سبب ضلال كثير من الخلق .

والله جل وعلا سوف يسألهم عن ذلك ، وسوف يعلمون حين يقفون بين يديه أى جناية جنوها عليه وعلى أنبيائه ، وعلى شرعه ، وعلى عباده . والمراد بالسماء هنا الجنس ، أى السماوات ، ونداؤه فيهم يقول : « إن الله قد أحب فلانا ، فأحبوه » .

« فيحبه أهل السماء » أى أن ملائكة السماوات بمجرد إخبار جبريل وأمره يحبونه ، لأنهم يحبون الله ويحبون ما يحبه ، ومن ثمرات ذلك استغفارهم لهذا العبد ، وموالاتهم له ، وهذا فى الحقيقة هو الشرف والرفعة ، وبه تحصل السعادة بمشيئة الله تعالى .

« فيوضع له القبول فى أهل الأرض » أى تقبله قلوبهم وتحبه ، لأن الله تعالى يحبه ، ومن أحبه الله — تعالى — حبه إلى عباده فى السماوات والأرض . فشاهدوا له بالخير ورجوا له الفلاح لما وقع فى قلوبهم له .

١١١ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، عن مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟

فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

تقدم هذا الحديث وشرح فى باب قوله — تعالى — ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ والمقصود منه فى هذا الباب قوله : « فيسألهم — وهو أعلم

بهم — كيف تركتم عبادى ؟ » لأن الظاهر من السؤال أنه بالكلام وسماع صوت السائل .

وملائكة الله لكل منهم مقام معلوم لا يتجاوزه ، وأعلامهم مقاما جبريل عليه السلام وقد سبق أنه تعالى يناديه ، فهؤلاء أولى بالمناداة ، لأنهم أنزل مقاما منه .

وفي الأنبياء « الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار » فعلى هذه لا يكون فيه شاهد لما يسمى بلغة « أكلوني البراغيث » .
وفي سؤال الله تعالى عن عباده ، مباحاة بهم ، وإظهارا لفضلهم عند الملائكة ، وبياننا لشيء من عظيم كرم الله تعالى ، وإحسانه .

١١٢ — قال : « حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن واصل ، عن المعرور ، قال : سمعت أبا ذر ، عن النبي ﷺ قال : « أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : وإن سرق ، وإن زنى » .

قوله : « أتاني جبريل » يعنى بالوحي من الله ، فهو لا يأتي إلا بأمر الله — تعالى — له .

« فبشرني » . البشرى : هى الإخبار بما يسر ، لأن ذلك يغير بشرة الوجه ، لأن النفس إذا سرت انتشر الدم فى الجسم كانتشار الماء فى عروق الشجرة فيظهر ذلك على وجه المبشر .

وقد تستعمل البشارة فيما يسوء من باب النكايه والتهكم والإيأس من الخير^(١)

(١) انظر المفردات للراغب ص ٤٨ .

« من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » يعنى وإن حصل منه تقصير بالواجبات ، وفعل لبعض المحرمات غير الشرك ، فإن من مات على ذلك دخل الجنة ، ولا ينافى هذا حصول العذاب له ، بل قد يعذب في قبره ، وبعد ما يبعث ، وقد يدخل النار ، ثم يخرج منها بعدما يطهر من الخطايا التي تلتطخ بها في الدنيا ، وقد يعفو الله عنه فيدخله الجنة بلا عذاب ، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جدا .

فكل عاص لله تعالى من الموحدين لا بد من دخوله الجنة وإن أصابه ما أصابه ، وإنما الشأن في اجتناب الشرك ، فهو أمر صعب إلا على من هدى الله قلبه ، وهو أنواع منها الجلى والخفى .

فقوله : « لا يشرك بالله شيئاً » يعم أنواع الشرك كلها ، لأنه نكرة بعد النفى ، فيدخل فيه الأصغر ، والقليل ، والله المستعان .

« قلت : وإن سرق ، وإن زنى » كأنه فهم من هذا الإطلاق أن ما عدا الشرك من الذنوب يحصل دخول الجنة مع وجوده ، فأراد أن يثبت عن هذا المفهوم ، فأخبره أن ذلك صحيح . وأن من اجتنب الشرك دخل الجنة ، وإن تفاوت دخول العصاة غير المشركين الجنة في الوقت والمكان أعنى تقدم الدخول والمنزلة .

والشاهد منه قوله : « فبشرنى أنه من مات » إلى آخره ، لأن هذه البشارة لا بد أن تكون من الله أرسل جبريل بها إلى محمد ﷺ ، والرسالة لا تكون إلا بالكلام ، والنداء داخل فيه ، فالله تعالى قد نادى جبريل أن يذهب بهذا الأمر إلى محمد ﷺ ، والله أعلم .

قال : باب قول الله — تعالى — ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكَةَ يَشْهَدُونَ ﴾ .

الضمير في « أنزله » يعود إلى القرآن ، كما هو واضح من الآية وهي قوله تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكَةَ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . ﴿ لَكِنَّ ﴾ للاستدراك مما سأله اليهود فيما ذكره الله عنهم بقوله : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ ، فهم يرون أن مجيء الوحي إليه بواسطة جبريل غير كاف في الدلالة على نبوته ، وأنه إذا كان صادقا فليأت بكتاب من السماء ، كما جاء موسى — عليه السلام — بالتوراة مكتوبة ، ثم ذكر تعالى أنهم سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك ، سألوه أن يورهم الله جهرة ، وعدد تعالى ما فعلوه من الظلم ، والتعنت ، والبهتان العظيم ، والكفر ، ورميهم مريم بالزنا ، ومحاولتهم. قتل رسول الله عيسى ، وأكلهم الربا ، وذكر ما أصابهم بسبب ذلك ، ثم ذكر تعالى أن منهم راسخين في العلم ، ومؤمنين بما أنزل الله من كتاب ، ثم أخبر تعالى أنه أوحى إلى محمد كما أوحى إلى النبيين من قبله ، وعدد بعضهم ، وبعضا منهم لم يذكره ، وأنه تعالى خص موسى بتكليمه ، ثم ذكر الحكمة من إرسال الرسل ، لئلا يكون للناس على الله حجة ثم قال تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية .

قال ابن جرير : « يعني بذلك — جل ثناؤه — إن يكفر بالذى أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، وقالوا لك : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فكذبوك » وليس الأمر كما قالوا ، « لكن الله يشهد بتنزيله إليك من الكتاب ، والوحي ، أنزل ذلك إليك ، بعلم منه بأنك خيرته من خلقه ، وصفيه من عباده ، ويشهد لك بذلك الملائكة ، فلا يحزنك تكذيب من كذبك ، وخلاف من خالفك ، وحسبك بالله شاهدا على

صدقك ، فإنه لا يضرك مع ذلك تكذيب من كذبك» (١) .

ومراد البخارى بهذه الترجمة أن يبين أن القرآن من علم الله تعالى وصفة له فليس مخلوقا ، فكأنه يقول : أنزله فيه علمه أى هو من علمه ، وقد احتج الإمام أحمد على كفر من قال : القرآن مخلوق ، بأن القرآن من علم الله ، فمن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر ، واستدل على ذلك بنحو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (٢) .

وتقدم الكلام على هذه الآية وذكر أقوال المفسرين فيها (٣) .

قوله : « قال مجاهد : ﴿ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ بين السماء السابعة ، والأرض السابعة » .

مقصوده أن الله تعالى أخبر بأنه خلق السماوات السبع ومن الأرض مثلهن ثم ذكر أن الأمر ينزل بينهن أى بين السماوات وبين الأرضين فالأمر غير الخلق ، ثم قال تعالى : ﴿ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فأمره تعالى الذى ينزل بين السماوات والأرض بعلمه ، وأمره ، وعلمه من صفاته .

فأمر الله تعالى ، وعلمه ، وحكمه ، وتصرفه ينفذ فى السماوات السبع والأرضين السبع ، لا يمتنع عليه شيء ، ولا يخفى عليه فيهن شيء ، فالكل فى قبضته وتحت تصرفه ، وفى علمه واطلاعه جل وعز .

وما يذكره كثير من المفسرين عند هذه الآية من أن الأرضين سبع طبقات

(١) تفسير الطبرى ج ٩ ص ٤٠٩ تحقيق محمود شاكر .

(٢) انظر السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٩ - ١٠ .

(٣) انظر الجزء الأول من هذا الشرح من ١٠٥ - ١٠٦ .

منفصل بعضها عن بعض ، وبين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وبعضهم يذكر أن في كل أرض أنبياء مثل الذين ذكروا في القرآن وعلى أسمائهم إلى آخر ما ذكروه مما يشبه هذيان المجانين . كل ذلك خرافات مصدرها زنادقة اليهود وإخوانهم من كل شيطان رجيم .

قال القرطبي : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى سبعا ، واختلفوا فيهن على قولين أحدهما قول الجمهور ، أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض ، وأرض مسافة كما بين السماء والسماء ، وفي كل أرض سكان من خلق الله .

وقال الضحاک : « ومن الأرض مثلهن » أى سبعا من الأرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السماوات .
والأول أصح ، لأن الأخبار دالة عليه ^(١) .

قلت : بل قول الضحاک هو الصواب ، والأول باطل قطعاً بدون شك وما زعمه من أنه قول الجمهور ، وأن الأخبار دالة عليه ليس كما زعم .

نعم قد روى عن ابن عباس ، فإن صح فهو مما تلقاه من أهل الكتاب ممن هو متهم بالكذب منهم ، وأما دلالة الأخبار عليه فليس فيه أخبار صحيحة صريحة في الدلالة عليه ، بل نقطع أن الأخبار عن الله ورسوله لم تدل عليه ، لأن كلام الله وكلام رسوله حق ، لا يؤيد الباطل ولا يدل عليه ، بل الأخبار دلت على أن الأرضين سبع فقط ، بدون فتوق ، كما في الصحيحين « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » ونحوه من الأحاديث .

فيتعين حملها على أنها طبقات غير مفتوقة ، كما قاله الضحاک .

(١) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

وفي هذا الوقت أمكن الدوران على الأرض في وقت وجيز جدا مما يبين بالحس والمشاهدة بطلان ما رجحه القرطبي .

١١٣ — قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا أبو الأحوص ، حدثنا أبو إسحاق الهمداني ، عن البراء بن عازب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنيك الذي أرسلت ، فإنك إن مت في ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيرا » .

البراء بن عازب بن الحارث بن عدي الأنصاري ، الأوسي ، استصغره رسول الله ﷺ يوم بدر هو وابن عمر فردهما ، وشهد أحدا وما بعدها من الغزوات ، وروى عنه أنه غزا مع النبي ﷺ أربع عشرة غزوة ، وفي رواية خمس عشرة ، قال الحافظ : إسناده صحيح .

وقال : سافرت مع رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفرا ، أخرجه أبو ذر الهروي^(١) .

وكان يقول : أنا الذي أرسل معه النبي ﷺ السهم إلى قلب الحديبية فجاش بالرى .

قال الذهبي فيه : « الفقيه الكبير ، من أعيان الصحابة ، نزل الكوفة ، توفي سنة اثنتين وسبعين أو إحدى وسبعين ، عن بضع وثمانين سنة^(٢) .

(١) الإصابة ج ١ ص ٢٧٨ وانظر أسد الغابة ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٩٤ .

قوله : « يا فلان » جاء في الروايات الأخرى أن المخاطب هو البراء بن عازب ففي الدعوات عند المؤلف : « عن عبيدة قال : حدثني البراء بن عازب ، قال : قال لي رسول الله ﷺ وذكر الحديث^(١) ، وفيه : « إذا أتيت إلى مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة » . قال الحافظ : ظاهره استحباب تجديد الوضوء لكل من أراد النوم ، ولو كان على طهارة .
ويحتمل أن يكون مخصوصا بمن كان محدثا^(٢) .

« إذا أويت إلى فراشك » أوى إلى المكان إذا أقام فيه ، ورجع إليه والمعنى :
إذا جئت إلى فراشك تريد النوم .

« فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك » قال الحافظ : على رواية فتوضأ
« الأمر فيه للندب ، وله فوائد : منها أن يبيت على طهارة ، لئلا يبغته الموت
فيكون على هيئة كاملة ، ويؤخذ منه الندب إلى الاستعداد للموت بطهارة
القلب ، لأنه أولى من طهارة البدن .

وقد أخرج عبد الرزاق ، عن مجاهد قال : قال لي ابن عباس : « لا تنامن
إلا على وضوء ، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه » .

وروى عن أبي مرثد العجلي ، قال : من أوى إلى فراشه طاهرا ونام ذاكرا
كان فراشه مسجدا ، وكان في صلاة ، وذكر حتى يستيقظ ، ومن أوى إلى
فراشه غير طاهر ، ونام غير ذاكرا كان فراشه قبرا ، وكان جيفة حتى
يستيقظ^(٣) .

ويتأكد ذلك في حق الجنب ، وإن اغتسل قبل نومه فهو أفضل .

(١) انظر الفتح ج ١١ ص

(٢) الفتح ج ١ ص ٣٥٨ .

(٣) المصنف ج ١١ ص ٣٧ و ٧٩ .

« ومنها أن يكون ذلك أبعد عن تلاعب الشيطان ، وأصدق للرؤيا »^(١) .
وقوله : « اللهم أسلمت نفسى إليك » أى استسلمت لك ، نفسى منقادة
مدعنة لك ، راضية بك ربا ، وبدينك شرعا ، وبنيك رسولا ، ومنقادة
لحكمتك وقضائك . لا إله إلا أنت .

« ووجهت وجهى إليك » أى جعلت قصدى ومرادى إليك ، راجيا ثوابك
خائفا من عقابك .

« وفوضت أمرى إليك » أى توكلت عليك مستكفيا بك ، فأمرى كله
إليك تتصرف فى كيف تشاء ، ورغبتى فى جودك وفضلك .

« وألجأت ظهرى إليك » أى أنت عمادى ، وعليك استنادى ، فأعتمد
عليك بأن تكفينى كل ما أهمنى ، وتحمينى من كل ما يؤذينى .

« رغبة ورهبة إليك » أى أفعل ذلك راغبا فى فضلك وإحسانك وراهما
من عقابك ، وعذابك بسبب ذنوبى .

« لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك » أى لا مهرب ينجى من هرب منك
ولا نجاة لمن أوردته بعذابك إلا بالرجوع إليك ، والاستسلام لك ، والإجابة
إليك .

« آمنت بكتابك الذى أنزلت » أى أتوسل إليك بأنى أصدق وأوقن بأن
الكتب التى أنزلتها على رسلك هى قولك حقا ، وفيها الهدى والنور ، الذى
هو شرعك ، ولمن اتبعها السعادة ، ومن أعظمها القرآن الذى أنزلته على عبدك
ورسولك محمد خاتم الرسل ﷺ فأنا أوؤمن بذلك ، وأرغب إليك بأن
تستجيب دعائى لذلك .

(١) الفتح ج ١١ ص ١١٠ .

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد ، فإن كتاب الله هو كلامه وفيه علمه ، كما قال الزجاج : ﴿ أَنْزَلَهُ يَعْلَمِهِ ﴾ أى أنزل القرآن الذى فيه علمه «^(١)» .

فمن زعم أن القرآن مخلوق ، لزمه أن يكون علم الله مخلوقاً ، وهذا كفر كما قاله الأئمة أحمد وغيره .

« ونيك الذى أرسلت » أى أتوسل إليك بإيماني واتباعى لنيك محمد ﷺ الذى أرسلته إلينا ليلغنا كلامك ، وأمرك ونهيك كما أو من بكل نبي لك أوحيت إليه وأرسلته إلى عبادك .

« فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة » يعنى إن كانت نومتك تلك فيها قبض روحك ، وفراقها لبدنك ، فإنك تموت على السنة التى جاء بها نبيك ، ومن مات عليها فهو السعيد .

« وإن أصبحت أصبت خيراً » أى إن ردت روحك بعد النوم إلى جسمك وأصبحت حياً . نلت بهذا الدعاء أجرا عند الله .

١١٤ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن أبى أوفى ، قال : قال رسول الله يوم الأحزاب : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، وزلزلهم .

زاد الحميدى : حدثنا ابن أبى خالد ، سمعت عبد الله ، سمعت
النبي ﷺ » .

(١) انظر معانى القرآن وإعرابه ج ٢ ص ١٤٧ .

عبد الله بن أبي أوفى ، واسم أبي أوفى علقمة بن خالد الأسلمى ، هو وأبوه صحابيان ، شهد الحديبية ، وباع بيعة الرضوان ، وقال غزوت مع رسول الله ﷺ : ست غزوات نأكل الجراد^(١) .

لما قبض النبي ﷺ ذهب عبد الله إلى الكوفة وهو آخر من توفى فيها من الصحابة ، ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » توفى رضى الله عنه سنة ست وثمانين ، أو ثمان وثمانين^(٢) .

قوله : « يوم الأحزاب » يدل على أن هذا الدعاء كان في غزوة الأحزاب ، وجاء في روايات : « أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التى لقي العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام فى الناس فقال : « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وهو يدل على أنه يدعو بذلك عند لقاء العدو .

« اللهم منزل الكتاب » هذا توسل إلى الله تعالى بفضله على عباده من إنزاله الكتاب الذى فيه حياة القلوب ، والاعتصام من الضلال ، وفيه وعده الكريم لعباده بالنصر والتأييد ، كقوله تعالى : ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾^(٣) .

« سريع الحساب » قال ابن جرير : « إنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب لأنه جل ذكره يحصى ما يحصى من أعمال عباده بغير عقد أصابع ،

(١) انظر تحفة الأحوذى ج ٥ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ .

(٢) انظر الإصابة ج ٤ ص ١٨ وأسد الغابة ج ٣ ص ١٨٢ سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٢٨ .

(٣) الآية ١٤ من سورة التوبة .

ولا فكر ، ولا روية — فعل العجزة الضعفة من الخلق ، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما .

ثم هو — تعالى — مجازٍ عباده على كل ذلك ، فلذلك امتدح نفسه — جل ذكره — بسرعة الحساب ، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمثل ، فيحتاج في حسابه إلى عقد كف أو وعى صدر^(١) .

وقال على قوله : ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴾ أى أسرع من حسب عددكم ، وأعمالكم وآجالكم ، وغير ذلك من أموركم — أيها الناس — وأحصاها ، وعرف مقاديرها ومبالغها ، لأنه لا يحسب بعقد يد ، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية ، ﴿ لَا يَعُزُّبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذِرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾^(٢) .

وهو جل ذكره سريع محاسبة عباده يوم القيامة حيث لا يشغله محاسبة واحد عن الآخر .

« اهزم الأحزاب وزلزلهم » الهزيمة هي القهر والإذلال ، والزلزلة : الاضطراب ، وعدم الثبات ، فهو يدعو عليهم بأن يقهرهم ، ويذلهم بأيدي المسلمين ، وأن ينزل عليهم الرعب والخوف الذى يزلزل قلوبهم وأجسامهم قوله : « زاد الحميدى » إلى آخره : مراده به التصريح بالسماع ، بخلاف قتيبة ابن سعيد فإنه عنعن السند .

والمقصود من الحديث قوله : « اللهم منزل الكتاب » فإنه تعالى أنزله منه فهو قوله ووصفه ، ولو كان مخلوقا كما يقوله الضالون ، ما احتاج إلى إنزال بل يخلقه فى أى مكان ، فهو تعالى أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله

(١) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) المصدر المذكور ج ١١ ص ٤١٣ .

شهيدا ، ونحن نشهد بذلك ، ونرجو من منزل الكتاب ، وسريع الحساب
وهازم الأحزاب ومزلزمهم أن يثبتنا على هذه الشهادة ويثينا عليها خير ثواب .

١١٥ — قال : « حدثنا مسدد ، عن هشيم ، عن أبي بشر ، عن
سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ
بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا ﴾ . قال : أنزلت ورسول الله ﷺ متوار
بمكة ، فكان إذا رفع صوته سمع المشركون فسبوا القرآن ، ومن أنزله ،
ومن جاء به ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ
بِهَا ﴾ لا تجهر بصلاتك حتى يسمع المشركون ، ولا تخافت بها عن
أصحابك فلا تسمعهم ﴾ وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أسمعهم ولا تجهر
حتى يأخذوا عنك القرآن » .

المراد بالصلاة في الآية القراءة ، وقد قال ابن جرير — رحمه الله — « لولا
أننا لا نستجيز ، مخالفة أهل التفسير فيما جاء عنهم ، لاحتمل أن يكون المراد :
﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى بقراءتك نهارا ، ﴿ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا ﴾ أى
ليلا ، وكان ذلك وجهها لا يبعد في الصحة »^(١) .

وقد جاء ذلك مفسرا كما في هذا الحديث أن المراد القراءة وهو يصلى ،
فكان صلوات الله وسلامه عليه يرفع صوته في القراءة رجاء أن يؤثر فيمن
يسمعه من كفار قومه فيسلموا ، ويسمعه من معه من المسلمين فيحفظوا وكان
للقرآن وقع عظيم في قلوبهم وأثر بالغ في نفوسهم ، ولذلك منعه الملائمة من الكفار
خوفاً أن يتأثر به بعضهم فيسلموا كما جربوا ذلك وقالوا : إن رفعت صوتك
به هجونك ، وهجوننا من قاله ، ومن جاء به ، فأمره الله تعالى أن لا يرفع

(١) انظر تفسير الطبرى ج ١٥ ص ١٨٨ .

صوته ، وألا يخافت به بحيث لا يسمعه من عنده من المسلمين ، بل يبتغى بين الجهر والإخفات سيلا ، فيكون وسطا بين الجهر والإخفات .

والمقصود قوله : « أنزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة » والإنزال غير الخلق ، بل هو كلامه نزل بعلمه — تعالى — فهو صفته .

فلا يجوز أن يعطى حكم المخلوق المفعول ، كما أن المخلوق لا يجهر به ولا يخافت وكون الرسول ﷺ وغيره ممن يقرؤه ، يرفع صوته به أو يخفضه لا يخرج من كونه كلام ، بل هو دليل على أنه كلام الله تعالى قرأه عبده .
فرفع به صوته أو خفضه ، لأن الكلام لمن قاله مبتدئا ، لا لمن قاله مبلغا مؤديا كما سيأتى بيان ذلك .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُدَّوِّنُوا كَلِمَةَ اللَّهِ ﴾ ،
﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ حق . ﴿ وَمَا هُوَ بِأَنْهَزَل ﴾ باللعب .

قال الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا ذُرُوتَنَا تَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُدَّوِّنُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

قال ابن جرير : « يقول — تعالى ذكره — لنبيه محمد ﷺ سيقول لك المخلفون في أهلهم ، عن صحبتك إذ سرت معتمرا ، تريد بيت الله الحرام ، إذا انطلقت ، أنت ومن صحبتك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك ، وعليهم من الغنيمة ﴿ لِتَأْخُذُوا ﴾ ، وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من مغام خير . ﴿ ذُرُوتَنَا تَتَّبِعُكُمْ ﴾ إلى خير ، فنشهد معكم قتال أهلها : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُدَّوِّنُوا كَلِمَةَ اللَّهِ ﴾ ، يقول : أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية ،

(١) الآية ١٥ من سورة الفتح .

وذلك أن الله — تعالى — جعل مغام خبير لهم ، ووعدهم ذلك ، عوضا من غنائم أهل مكة ، إذ انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئا^(١) . ثم روى ذلك عن مجاهد ، وقتادة ، ومقسم .

قال الحافظ : « قال ابن بطلال : أراد بهذه الترجمة ، وأحاديثها ، ما أراد في الأبواب قبلها — أن كلام الله تعالى — صفة قائمة به ، وأنه لم يزل متكلمًا ولا يزال .

والذى يظهر أن غرضه أن كلام الله ، لا يختص بالقرآن ، فإنه ليس نوعا واحدا وأنه وإن كان غير مخلوق ، وهو صفة قائمة به ، فإنه يلقيه على من يشاء من عباده بحسب حاجتهم في الأحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم ، وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد^(٢) .

قال في : خلق أفعال العباد : « باب ما كان النبي ﷺ يذكر ويروى عن ربه — عز وجل — » ثم ذكر نحو ما ذكره هنا من الأحاديث .

ويمكن أنه أراد بيان أن كلام الله يكون بأمره وشرعه ، ووعدته وجزائه بخلاف خلقه ، فإنه الصادر عن قوله « كن » ، وخلق الله لا يبدل ، كما قال — تعالى — ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، أما قوله فيمكن أن يبدل ، أو يحرف .

وقد تبين بما ذكره ابن جرير — رحمه الله — أن معنى قوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ هو خروج المتخلفين عن الحديبية إلى خيبر ، لأن الله تعالى ووعدهم مغام خبير خاصة بهم .

والقول الثاني : في الآية أن المراد تبديله هو قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ . غير أن ابن جرير رد هذا القول .

(١) تفسير الطبرى ج ٢٦ ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٦٧ .

وسياق الآية يؤيد هذا القول ، فإنه تعالى قال : ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ . والله أعلم .

قال البغوى : ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ لَقَوْلُ فَصْلٌ ﴾ حق ، وجد ، يفصل بين الحق والباطل .

﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ باللعب ، والباطل «^(١)» .

١١٦ — قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، قال : قال النبى ﷺ : « قال الله — تعالى — يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل ، والنهار » .

قال ابن كثير : « معناه أنهم يقولون : ياخيبة الدهر ، فعل كذا وكذا فيسندون أفعال الله — تعالى — إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل هو الله — عز وجل — فهى عن ذلك هكذا قرره الشافعى ، وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء »^(٢) .

وقال شيخ الإسلام : « للناس فى هذا الحديث قولان ، أحدهما . قول أبى عبيد وأكثر العلماء : أنه خرج الكلام فيه لرد ما يقوله أهل الجاهلية ، ومن أشبههم : فإنهم إذا أصابتهم مصيبة ، أو منعوا أغراضهم ، أخذوا يسبون الدهر ، والزمان ، يقول أحدهم : قبح الله الدهر الذى شنت شملنا ، ولعن الله الزمان الذى جرى فيه كذا وكذا ، وما يقع كثيرا من الشعراء ، وأمثالهم ، كقولهم يا دهر فعلت كذا ، وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور ويضيفونها إلى الدهر ، فيقع السب على الله — تعالى وتقدس — لأنه هو الذى

(١) تفسير البغوى على هامش الخازن ج ٧ ص ٢٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥١٧ .

فعل تلك الأمور ، وأحدثها ، والدهر مخلوق له ، هو الذى يصرفه ، ويقبله .
والتقدير : أن ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور ، وأنا فعلتها فإذا سب
الدهر فمقصوده سب الفاعل ، وإن أضاف الفعل إلى الدهر ، فالدهر لا فعل
له ، وإنما الفاعل هو الله وحده .

وهذا كرجل قضى عليه قاض بحق ، أو أفتاه مفت بحق ، فجعل يقول :
لعن الله من قضى بهذا ، أو أفتى بهذا ، ويكون ذلك من قضاء النبي ﷺ
وفتياءه ، فيقع السب عليه ، وإن كان السب لجهله أضاف الأمر إلى المبلغ ،
وهو ليس له إلا فعل التبليغ .

وأما الزمان ، فلا فعل له ، وإنما الله هو الذى يقبله ويصرفه .
والقول الثانى : قول نعيم بن حماد ، وطائفة معه : أن الدهر من أسماء الله ،
ومعناه : القديم الأزلى .

وهذا المعنى صحيح لأن الله — تعالى — هو الأول الذى ليس قبله شيء ،
وهو الآخر الذى ليس بعده شيء ، ولكن لا يسمى بالدهر ، الذى هو
الزمان ، أو ما يجرى مجرى الزمان ^(١) .

وقال ابن قتيبة : « معناه : أن العرب فى الجاهلية يقولون : أصابنى الدهر
فى مالى ، ونالتنى قوارع الدهر ، وبوائقه ، ويقول الهرم : حنانى الدهر .
فينسبون كل شيء تجرى به أقدار الله — عز وجل — عليهم من موت ، أو
سقم ، أو ثكل ، أو هرم إلى الدهر ، ويلعنونه ، ويسمونهم : المنون ، كما ذكر
الله عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ والمنون : المنية ،
قال أبو ذؤيب :

(١) مجموع الفتاوى ج ٢ ص ٤٩٣ — ٤٩٤ .

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الدهر ، إذا أصابتكم المصائب ولا
تنسبوا إليه ، فإن الله — عز وجل — هو الذى أصابكم بذلك ، لا
الدهر »^(١) .

وهذا هو ما ذكره شيخ الإسلام عن جمهور العلماء .

وكثير من الناس واقعون في هذا المنكر . وتقدم الكلام فيه .

والمقصود هنا : قوله : « قال الله : يؤذيني ابن آدم » . وهذا خبر يتضمن
النهي ، والله — تعالى — يتأذى من فعل بنى آدم ، ولكن لا يضره شيء تعالى
وتقدس ، ووجه الشاهد منه أن هذا القول صدر من الله فيه إخباره
— تعالى — عما يقع له من بنى آدم ، وهو بمعنى النهي والزجر ، ومعلوم أنه
لا يقع شيء إلا بإذنه وإرادته ، ومن يسب الدهر كأنه يريد تبديل حكم الله
وأمره الذى وجدت به الكائنات .

وقوله : « وأنا الدهر » لا يدل على أنه تعالى اسمه الدهر ، لأنه فسره بقوله :
« بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » فكونه تعالى بيده الأمر يقلب الليل والنهار
هو معنى قوله : « أنا الدهر » .

١١٧ — قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن أبي
صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله — عز
وجل — الصوم لى ، وأنا أجزى به ، يدع شهوته ، وأكله وشربه
من أجلى ، الصوم جنة ، وللصائم فرحتان ، فرحة حين يفطر ، وفرحة
حين يلقي ربه ، ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٥١ .

« الصوم لى » يعنى أن الصوم غالباً يكون خالصاً لله — تعالى — سالماً من شوائب الشرك ، من إرادة غير الله — تعالى — لأنه أمانة بين العبد وربّه لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، فإنه يجوز أن يظهر للناس أنه صائم ، وهو فى حقيقة الأمر غير صائم .

فإذا امتنع من شهوته وأكله وشربه دل ذلك على أنه أراد ما عند الله تعالى . وقد فسره بقوله : « يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى » .

قوله : « وأنا أجرى به » يعنى أن جزاء الأعمال قد أخبر الله تعالى عباده بها ، أن الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، أما الصوم فالله يجزى به بدون تقدير لعظيم جزائه ، وهذا يدل على فضل الصوم إذا كان خالصاً لله تعالى . « يدع شهوته ، وأكله وشربه من أجلى » هذا هو السبب فى كونه لله ، وأنه يتولى جزاءه بغير تقدير ، وفسرت الشهوة بالجماع ، والأولى أن تكون عامة فى كل ما يشتهى ، ويكون عطف الأكل والشرب من عطف الخاص على العام .

« الصوم جنة » فى رواية سعيد بن منصور : « جنة من النار » ، ومثله عند النسائى .

وفى رواية له من حديث عثمان بن أبى العاص : « الصيام جنة كجنة أحدكم من القتال » .

والجنة : بضم الجيم : الوقاية ، والستر ، وهذا أولى ما فسر به متعلق الجنة . واختار النووي : أنه جنة من جميع الشرور .

وفى رواية لأحمد : « الصيام جنة ما لم يخرقها » ، زاد الدارمى : « بالغيبة »^(١) .

(١) انظر الفتح ج ٤ ص ١٠٤ .

« وللصائم فرحتان فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقي ربه » يعنى أنه يفرح إذا كمل يومه صائماً فيؤمل ثواب ذلك عند الله ، ويتناول طعامه وشرابه الذى أحله الله له بعد ما منعه منه لأجل صومه .

ويفرح إذا لقي ربه عندما يجزيه أعظم جزاء ، وهذه أعظم فرحة وأحلى .
« ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » الخلوف هو تغير الفم من أثر خلو المعدة من الطعام ، فيتصاعد منها أبخرة تغير رائحة الفم .
ولما كان ذلك بسبب الطاعة ، كان عند الله طيباً ، كدم الشهيد ، فإنه يأتي يوم القيامة لونه لون الدم ، ورائحته رائحة المسك » .

والمقصود من الحديث قوله : « يقرأ الله تعالى — الصوم لى » إلى آخره كالذى قبله . ووجه الشاهد منه : أن الله يقول هذا القول الذى فيه حث العباد وترغيبهم فى الصوم ، فهو مما شرعه الله تعالى لعباده ، ورضيه لهم بقوله وأمره .

١١٨ — قال : « حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « بينا أيوب يغتسل عريانا ، خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » .

« بينا أيوب يغتسل عريانا » يعنى وهو خالٍ . استدل به البخارى على جواز الغسل عريانا فى الخلوة فقال : باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ومن تستر ، فالستر أفضل^(١) .

(١) انظر الصحيح ج ١ ص ٥٣ الباب رقم ٢٠ .

« خر عليه رجل جراد من ذهب » رجل الجراد ، القطعة من الجراد ، كما قال الأزهري : « الرجل : القطعة من الجراد »^(١) .

وهذا جراد على خلاف المعهود ، وإنما هو ذهب أنزله الله على نبيه أيوب ، على صور الجراد ، وذلك من جزاء صبره على البلاء ، ورضاه بما قدره الله . « فجعل يحنى في ثوبه » أى يجمع من ذلك الذهب بيديه جميعا ، ويضعه في ثوبه .

« فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيك » هذا النداء يجوز أن يكون بواسطة ، ويجوز أن يكون بدون واسطة على ظاهره ، لأنه تجرد عن قرينة تعين ذلك . وقوله : « ألم أكن أغنيك » يدل على أن الله — تعالى — قد أعطاه من المال قبل هذا ما فيه غناه ، ولهذا قال : « بلى يا رب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » سمي هذا الذهب بركة لأنه أرسل عليه بدون صنع آدمى أو كده ، بل هو من عند الله تعالى ، ففي ذلك طلب الزيادة من الخير . وفيه ما جبل عليه الإنسان من حب المال .

والمقصود منه قوله : « فناداه ربه : ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ » إذ هو من كلام الله تعالى لنبيه أيوب ، المتضمن إفضاله عليه ، وتكريمه له بما أعطاه بدون حساب .

١١٩ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن ابن شهاب ، عن أبي عبد الله الأغر ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « ينتزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني ، فأستجيب له ، من يسألني ،

(١) تهذيب اللغة ج ١١ ص ٣٠ .

فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له .

هذا الحديث له طرق متعددة ومستفيضة ، قال ابن عبد البر : « هذا الحديث منقول من طرق متواترة ، ووجوه كثيرة ، من أخبار العدول ، عن النبي ﷺ »^(١) .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ، في كل زمان ، على الإيمان بهذا الحديث وتلقيه بالقبول ، كما أراد رسول الله ﷺ فإنه قاله علانية .

وبلغه الأمة تبليغا عاما ، لم يخص به واحدا دون الآخرين .

وكان الصحابة وأتباعهم يذكرونه ، ويروونه ، ويبلغونه تبليغا عاما .

ولهذا ثبت في عامة كتب الإسلام ، فمن أنكره ، أو زعم أنه لا يجوز ذكره عند عامة الناس ، أو تأوله على غير ظاهره ، فهو ضال ، سالك غير سبيل المؤمنين ، في ذلك .

ومن زعم أنه يدل على ما يجب أن ينزه الله عنه ، من النقص المنافي لكماله ، فقد أتى من فهمه الخاطيء ، وسوء ظنه بالله العظيم .

فإن وصف الله — تعالى — بالنزول كوصفه بغيره من الصفات ، مثل الاستواء والفوقية ، والمجىء ، والرضا والغضب ، وغير ذلك مما وصف تعالى به نفسه وصفته به رسله ، يجب أن يؤمن به كله على وتيرة واحدة ، إيمانا بلا تمثيل ، ولا تعطيل ، ولا تحريف ولا تأويل .

ولا يجوز للإنسان مهما كان من العلم أن ينصب نفسه مستدركا على الله ورسوله : ﴿ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

(١) انظر التمهيد ج ٧ ص ١٢٨ .

قال ابن عبد البر : « إن من نظر إلى إسلام أبن بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن ، وسائر المهاجرين والأنصار ، وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجا ، علم أن الله عز وجل لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة ، ودلائل الرسالة ، لا من قبل حركة ، ولا من باب الكل والبعض ولا من باب كان ويكون .

ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبا [أو النظر] في الجسم ونفيه ، والتشبيه ونفيه لازما ما أضاعوه ، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمتهم ، ولا أطب في مدحهم وتعظيمهم .

ولو كان ذلك من عملهم مشهورا ، أو من أخلاقهم معروفا لاستفاض عنهم ، ولشهروا به ، كما شهروا بالقرآن .

وقول رسول الله ﷺ : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » عندهم مثل قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ ، ومثل قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ كلهم يقول : ينزل ، ويتجلى ، ويجيء بلا كيف ، ولا يقولون كيفى يجيء ؟ وكيف يتجلى ؟ وكيف ينزل ؟ ولا من أين جاء ، ولا من أين يتجلى ؟ ولا من أين ينزل ؟ ، لأنه ليس كشيء من خلقه — تعالى — عن الأشياء ، لا شريك له .

وفي قول الله — عز وجل — ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجليا للجبل ، وفي ذلك ما يفسر معنى حديث النزول ومن أراد أن يقف على أقاويل العلماء في قوله — عز وجل — ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فلينظر في تفسير بقى بن مخلد ، ومحمد بن جرير ، وليقف على ما ذكرنا ، ففي ما ذكرنا منه كفاية ، وبالله العصمة والتوفيق »^(١) .

(١) التمهيد ج ٧ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

وما ذكره الحافظ في شرح هذا الحديث من كلام أهل التأويل ، فإن كل من آمن بأن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به البلاغ المبين وآمن بأنه ﷺ أفصح الناس ، وأقدرهم على البيان ، وأنصحهم للخلق ، من آمن بهذا علم أن ما ذكره كله باطل ، وتغيير في وجه الحق وزيد يذهب جفاء أمام نور النبوة .

فقوله : إن الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم المشبهة .

يقال له : بل الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم الصحابة عموما وأتباعهم إلى يوم الدين ، ولا تستطيع أن تأتي بكلمة واحدة عن الرسول ، أو عن أصحابه تؤيد قول أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم أهل السنة .

قال شيخ الإسلام : « والصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة ، لم يقل أحد من الصحابة شيئا منها ، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان ، وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة ، يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمة ، وتكون إما غلطا ، أو محرفة ، كقول الأوزاعي في النزول : « يفعل الله ما يشاء » فسرهم بعضهم بأن النزول مفعول مخلوق ، وليس الأمر كذلك »^(١) .

وقال أبو عثمان الأنصاري : « ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ، ولا تمثيل ولا تكيف ، بل يثبتون ما أثبتته رسول الله ﷺ وينتهون فيه إليه ، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ، ويكفون علمه إلى الله ، وكذلك يثبتون ما أنزله الله — عز اسمه — في كتابه من ذكر الجيء والإتيان المذكورين

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٤٠٩ .

في قوله — عز وجل — ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةِ ﴾ (١) .

وقوله — تعالى — : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ﴿ نؤمن بذلك كله
على ما جاء بلا كيف ، فلو شاء أن يبين لنا كيفية ذلك لفعل ، فأتينا إلى
ما أحكمه ، وكفنا عن الذى يتشابه .

ثم روى بسنده عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلى ، قال : قال لى الأمير
عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ، هذا الحديث الذى تروونه عن رسول الله
ﷺ « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا ، كيف ينزل ؟ قال : قلت : أعز
الله الأمير : لا يقال لأمر الرب : كيف ، إنما ينزل بلا كيف .

ثم روى عن أحمد بن سعيد الريايطى ، قال : حضرت مجلس الأمير عبد الله
ابن طاهر ، ذات يوم ، وحضر إسحاق بن راهويه ، فسئل عن حديث النزول
أصحح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب أتزعم
أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال : كيف ينزل ؟ فقال له إسحاق :
أثبتته فوق ، حتى أصف لك النزول ، فقال الرجل : أثبتته فوق؟! .

فقال إسحاق : قال الله — عز وجل — : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا
صَفًّا ﴾ ، فقال الأمير عبد الله : يا أبا يعقوب ، هذا يوم القيامة ، فقال
إسحاق : أعز الله الأمير ، ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟ (٢)

وقوله : « ويكلون علمه إلى الله » يعنى علم الكيفية ، لا يبحث فيها ، لأن
الكيفية تتوقف على المشاهدة ، والله تعالى لا يرى فى الدنيا ، وكذا قول إسحاق
ابن راهويه : « إنما ينزل بلا كيف » ، يعنى بلا كيف يعلمه العباد وإلا ففى

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) عقيدة أصحاب الحديث مجموعة الرسائل المنبرية ج ١ ص ١١٢ ملخصا .

حقيقة الأمر له كيف يعلمه الله تعالى .

قال أبو سعيد الدارمي — رحمه الله : « فمن ما يعتبر به من كتاب الله عز وجل في النزول ، ويحتج به على من أنكره قوله — تعالى — : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَأِكَةِ ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، وهذا يوم القيامة ، فالذى يقدر على النزول يوم القيامة من السماوات كلها ، للفصل بين عباده ، قادر أن ينزل كل ليلة من سماء إلى سماء .

فإن ردوا قول رسول الله ﷺ في النزول ، فماذا يصنعون بقول الله عز وجل^(٢) .

ثم ذكر بعض أحاديث النزول ، ثم قال : « فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب — تبارك وتعالى — وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا ، لا ينكرها منهم أحد ، ولا يمتنع من روايتها ، حتى ظهرت هذه العصابة ، فعارضت آثار رسول الله ﷺ بردها وتشمروا لدفعها بجد ، فقالوا : كيف نزوله ؟ قلنا : لم نكلف كيفية نزوله في ديننا ، ولا تعقله قلوبنا ، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعلا أو صفة بفعالهم ، وصفتهم ، ولكن ينزل بقدرته ، ولطف ربوبيته كيف يشاء .

فالكيف منه غير معقول ، والإيمان بقول رسول الله ﷺ في نزوله واجب ، ولا يسأل الرب عما يفعل ، كيف يفعل ، وهم يسألون ، لأنه القادر على ما يشاء ، وإنما يقال لفعل المخلوق الضعيف ، الذى لا قدرة له إلا ما أقدره الله — تعالى — عليه كيف يصنع ، وكيف قدر .

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) رد عثمان بن سعيد على الجهمية ص ٦٣ .

ولو قد آمنتم بإستواء الرب على عرشه ، وارتفاعه فوق السماء السابعة بدءاً
إذ خلقها كإيمان المؤمنين به ، لقلنا لكم : ليس نزوله من سماء إلى سماء بأشد
عليه ولا أعجب من استوائه عليها إذ خلقها بدءاً ، فكما قدر على الأولى كيف
يشاء يقدر على الأخرى كيف يشاء .

وليس قول رسول الله ﷺ في نزوله بأعجب من قول الله — تبارك
وتعالى — ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةِ ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٢) فلما قدر على هذا
يقدر على ذاك ، فهذا الناطق من قول الله — عز وجل — وذاك المحفوظ من
قول رسول الله ﷺ بأخبار ليس عليها غبار .

فإن كنتم من عباد الله المؤمنين لزمكم الإيمان بها كما آمن بها المؤمنون ،
وإلا فصرحوا بما تضمرون ، ودعوا هذه الأغلوطات ، التي تلوون بها
ألسنتكم ، فلئن كان أهل الجهل في شك من أمركم ، فإن أهل العلم من أمركم
لعلى يقين ﴿^(٣) .

وقال أبو عمرو ، الطلمنكى : « أجمعوا — يعنى أهل السنة والجماعة —
على أن الله يأتي يوم القيامة ، والملائكة صفا صفا ، لحساب الأمم وعرضها ،
كما يشاء وكيف يشاء ، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ
مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا
صَفًّا ﴾^(٢) وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، على ما أتت

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمى ص ٧٩ — ٨٠ .

به الآثار ، كيف شاء ، لا يجدون في ذا شيئاً»^(١) .

ولا يعرف عن السلف وأهل العلم المقتدى بهم من أنكر النزول ، أو تأوله ، فإنه مثل صفات الله الأخرى ، كالأستواء ، والجميء ، والرضا ، والغضب ، بل والخلق ، والرزق ، والإحياء والإماتة ، فمن آمن بشيء من ذلك لزمه الإيمان بالباقي ، لأن الباب واحد ، ولا يجوز فيه قياس أو تمثيل — تعالى الله عن قول أهل الباطل من المخرفين بالتأويلات الفاسدة ، والمعطلين .

وما ذكره الحافظ في شرحه لهذا الحديث عن البيضاوى من قوله :

« لما ثبت بالقواطع أنه سبحانه منزه عن الجسمية ، والتحيز ، امتنع عليه النزول ، على معنى الانتقال من موضع إلى موضع ، أخفض منه .

فالمراد : نور رحمته — أى ينتقل من مقتضى صفة الجلال التى تقتضى الغضب والانتقام ، إلى مقتضى صفة الإكرام التى تقتضى الرأفة والرحمة»^(٢) .

فهذا من كلام أهل البدع الذين اعتاضوا عن كلام الله ورسوله بنحاة أفكار أهل الاعتزال ، والتجهم ، الذين لم يعرفوا من أوصاف الله — تعالى — إلا ما يعرفونه من أنفسهم ، ففاسوا نزول الله ، واستواءه على عرشه ، ومجيئه يوم القيامة على نزولهم ، من أعلى إلى أسفل ، واستوائهم على ما هو مرتفع ، ومجيئهم من مكان إلى آخر .

ولهذا قال : منزه عن الجسمية ، والتحيز ، لأنه اعتقد أن هذه الصفات لا تثبت إلا للجسم ، والمتحيز ، مع أن الجسمية والتحيز من الألفاظ الجملة

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥٧٨ .

(٢) الفتح ج ٣ ص ٣١ .

التي تحتل حقا وباطلا .

فإن كان يريد بالجسمية : القائم بنفسه البائن عن غيره ، فالله تعالى قائم بنفسه ، وبائن من خلقه ، وإن كان يريد بالجسمية الذى تصح الإشارة إليه ، ويكون فى مكان فالله تعالى يشار إليه وتتوجه قلوب عباده إليه من فوقهم وهو فوق عرشه مستوٍ عليه كما علم المؤمنون .

وإن كان يريد بالجسمية البدن ، والجسد المركب من الأعضاء واللحم والدم ونحو ذلك ، فالله تعالى ليس كمثلته شئ ، وهو منزه عن ذلك ، ولم تدل النصوص على هذا .

وإن كان يريد بالمتحيز الذى تحوزه الأشياء وتحيط به ، فالله تعالى أجل وأعظم من أن يحيط به شئ مخلوق .

وإن كان يريد أنه تعالى منحاز عن خلقه فلا يحيطون به ، وليس حالا فيهم ، ولا شئ من مخلوقاته فيه — تعالى وتقدس ، فالله تعالى كذلك ، وقد علم أن مراد هؤلاء تعطيل الله تعالى عما وصف به نفسه وعما وصفه به رسوله ، ولكنهم لم يجرؤا على رد ذلك صراحة ، فجاءوا بمثل هذه الألفاظ المجملة ، التي يظنها من لا يعرف مرادهم مرادا بها التنزيه ، وهم يريدون تعطيل الله من أوصافه .

ولا يجوز أن يرد كلام رسول الله ﷺ بمثل هذه الأغلوطات التي يزعم البيضاوى وفريقه أنها أدلة قطعية ، والحقيقة أنها شبهات تقطع المفتون بها عن سبيل الهدى .

ثم نقول لهؤلاء : أنتم أعلم بالله من الله ؟ أم أنتم أعلم بالله من رسوله ؟ أم أنتم أعظم تنزيها لله من رسوله ؟ أم أنتم أقدر على البيان من رسوله ؟ أم أنتم أحرص على هداية الأمة ، وسلامة عقيدتها من رسول الله ﷺ ؟ أم أنتم أشد غيرة على الله من رسول الله ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

قال شيخ الإسلام : « إذا قال [أهل التأويل] : النزول ، والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل النزول ، والاستواء إلا لجسم مركب ، والله منزّه عن هذه اللوازم ، فيلزم تنزيهه من ذلك .

أو قالوا : هذه حادثة ، والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب .

وكذلك إذا قالوا : الرضا والغضب ، والفرح ، والمحبة ، ونحو ذلك هو من صفات الأجسام .

فيقال لهم : وكذلك الإرادة ، والسمع والبصر ، والعلم ، والقدرة ، من صفات الأجسام ، فكما لا يعقل ما يسمع ، ويبصر ، ويريد ، ويعلم ، ويقدر إلا جسم .

وإن قالوا : سمعه ليس كسمعنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وإرادته وعلمه وقدرته .

قيل : وكذلك نزوله ، واستواؤه ، ورضاه ، وغضبه ، وفرحه ، ليس كنزولنا واستوائنا ، ورضانا وغضبنا ، وفرحنا .

فإن قالوا : لا يعقل في الشاهد نزول إلا انتقال ، فيقتضى تفرغ مكان ، وشغل آخر .

قيل : كذلك لا يعقل في الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه المرید وينفعه ، وفي ذلك فقره إلى ما سواه ، ودفع ما يضره .

والله أخبرنا كما في الحديث الإلهي بقوله : « إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعوني ولن تبلغوا ضرى فتضروني » . فهو منزّه عن الإرادة التي لا يعقل في الشاهد إلا هي ، وكذا السمع لا يعقل إلا بدخول صوت في الصماخ ، وذلك لا يكون إلا في جوف ، والله منزّه عن ذلك ، فهو أحد صمد ، كما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهما من السلف : « الصمد » الذي لا جوف

له «(١)» .

والمقصود أن هؤلاء المؤولة ، أهل التحريف يلزمهم على أصلهم أن لا يثبتوا لله صفة ، وكفى بذلك ، ضلالا وكفرا .

أو أن يؤمنوا بصفات الله — تعالى — كلها ، على ما جاءت بها النصوص بلا تحريف ، ولا تمثيل ، على ما يليق بعظمة الله وجلاله ، كما أخبر تعالى بأنه لا سمي له ، ولا ند له ، ولا مثل له ، فإن الباب واحد .

ويجب أن يؤمن بصفات الله تعالى على وتيرة واحدة ، وأن يطرح القياس وتوهم التمثيل ، ويسلم للنص .

وما ذكره الحافظ ، عن ابن العربي ، أنه اختار التأويل ، وأن النزول راجع إلى أفعاله ، لا إلى ذاته ، بل ذلك عبارة عن ملكه الذى ينزل بأمره ونهيه إلى آخر كلامه المتهافت .

فيقال : أولا بئسما اخترت ، فإنك اخترت الباطل ، ثم يقال له : أيضا أخبرنا من أين ينزل أمره ونهيه ؟ وأنت وقبيلك تنكرون أن يكون الله فوق مخلوقاته ؟

أينزل أمره ونهيه من العدم ؟ ويلزمكم أن يكون الملك الذى ينزل بأمره ونهيه — كما تزعمون — أكمل من رب العالمين ، لأنه كان عاليا ، ومن يكون أعلى فهو أكمل ممن هو أسفل منه .

ثم يقال له أيضا : الملائكة لا تنزل إلى الأرض ، وإلى السماء الدنيا وغيرها بأمر الله ، بالليل والنهار ، فما بال هذا النزول يتجدد له ثلث الليل الآخر ؟

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٣٥٢ ملخصا .

ويقال له أيضا : إن في الحديث قوله — تعالى — : « من يسألني فأعطيه ؟ من يدعوني فأستجيب له ؟ من يستغفرني فأغفر له » وهذا لا يجوز أن يقوله إلا رب العالمين ، وهل يجوز أن الملك يقول من يستغفرني وهذا كاف في إبطال قول المتأولين ، كما يبطل قول الحافظ : « مما يقوى التأويل ما رواه النسائي في بعض طرق الحديث : « ينادى مناد ، هل من داع فيستجاب له » الحديث ، وزعم القرطبي أن هذا يزيل الإشكال .

ونحن نقول لهؤلاء : إن الإشكال لازم لمذهبكم ولن ينفك عنه ، ولن تجدوا ما يؤيده وإن أجهدتم أنفسكم ، فهذه الرواية لا تخالف اللفظ الصريح الواضح الذي ضيق خناقكم ، وقد جاء في بعض طرقه عند النسائي وابن ماجه قوله : « لا أسأل عن عبادي غيري » .

مع أنه يجوز أن الله تعالى مع قوله ذلك يأمر من ينادى ، ولكن المنادى لا يقول : « من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » .

ومن زعم أن النبي ﷺ قال : أن الله يأمر مناديا يقول ذلك ، فهو كاذب لأنه خلاف المستفيض المتواتر عنه أن المنادى هو رب العالمين .

وأما قول البيضاوي : « إن ذلك عبارة عن نور رحمته » إلى آخر ما قال . فيقال : رحمة الله — تعالى — تنزل كل وقت وآن ، لا يختص نزولها بوقت معين ، ونور الرحمة لا يقول : من يسألني فأعطيه إلى آخره . « والأمر والرحمة إما أن يراد بهما أعيان قائمة بنفسها كالملائكة ، أو يراد بها صفات ، وأعراض .

فإن أريد الأول ، فالملائكة تنزل كل وقت ، والنزول المذكور في الحديث خص بجوف الليل ، وجعل منتهاه السماء الدنيا ، ومعلوم أن الملائكة نزولهم لا يختص لا بهذا الزمن ، ولا بذلك المكان .

وإن أريد صفات ، وأعراض ، مثل ما يحصل في قلوب العابدين في وقت
السحر من الرقة ، والتضرع ، وحلاوة العبادة ، ونحو ذلك ، فهذا حاصل
في الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا .

ونزول أمره ورحمته لا يكون إلا منه ، وحينئذ فهذا يقتضى أنه فوق العالم ،
فنفس تأويلهم يبطل مذهبهم .

وكذلك يبطله ما جاء من ألفاظ الحديث ، مثل قوله : « ثم يعرج » وفي
لفظ « ثم يصعد » .

يضاف إليه قوله : « ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : من ذا الذى يدعوني
فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر
له ، حتى يطلع الفجر » .

ومعلوم أنه لا يجيب الدعاء ، ويغفر الذنوب ، ويعطى كل سائل سؤاله
إلا الله ، وأمره ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك ^(١) .

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمى : لما أول بشر الحديث بمثل ما ذكره
الحافظ . « فيقال : هذا من حجج النساء والصبيان ، ومن ليس عنده بيان ،
ولا لمذهبه برهان ، لأن أمر الله ورحمته ينزل في كل ساعة ، ووقت ، وأوان ،
فما بال النبي ﷺ يجد لنزوله الليل دون النهار ، ويوقت من الليل شطره ،
أو الأسحار ، فأمره ورحمته يدعوان العباد إلى الاستغفار أو يقدر الأمر والرحمة
أن يتكلما دونه ، فيقولان : هل من داع فأجيبه ؟ هل من مستغفر فأغفر
له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟

فإن قررت مذهبك لزمك أن تدعى أن الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٤١٥ - ٤١٦ بتصرف .

إلى الإجابة والاستغفار ، بكلامهما ، وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء .
وقد علمتم ذلك ولكن تكابرون ، وما بال رحمته وأمره ينزلان عند شطر
الليل ثم لا يمكنان إلا إلى طلوع الفجر ثم يرفعان»^(١) .

وليس نزوله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلثه الآخر كنزول
المخلوق الذى يتخيله الجاهل ، حتى يلزم منه أنه دائم النزول ، وأنه تحت
السموات ، وفوق السماء الدنيا مقدار ثلث الليل على كل بلد ، ولو كان
كما يتخيله الجاهل لكان النزول ممتنعا وذلك لوجوه .

أحدها أنه لا يكون فوق العرش أبدا ، بل لا يزال نازلا .

الثانى : أنه على هذا التقدير يلزم أن يكون الزمان بقدر ما هو عليه مرات
كثيرة ، ليقع النزول فى ثلث ليل كل بلد ، مع أن الليل يختلف طوله وقصره
باختلاف عرض البلاد ، واختلاف الأوقات .

الثالث : أنه لو كان كما تخيله الجاهل ، فكيف يبقى عند هؤلاء إلى طلوع
فجرهم ، ويكون نازلا عند من هم غربهم ولم يطلع فجرهم وهلم جرا .
والحق أن نزول الله — تعالى — الذى أخبر به الصادق المصدوق ليس
كنزول المخلوق كما يتخيله الجاهل بالله — تعالى — وأوصافه ، بل يمكن أن
يكون نزوله فى وقت واحد لخلق كثير ، ويمكن أن يكون قدره لبعض الناس
أكثر ، ولا يمتنع على الله — تعالى — أن يقرب إلى بعض عباده دون بعض ،
فيقرب إلى داعيه دون من لم يدعه .

وهذا كما أنه تعالى يحاسب عباده يوم القيامة كلهم فى ساعة واحدة وكل
واحد منهم يخلو به ، فيقرر به بذنوبه ، وذلك المحاسب لا يرى أنه يحاسب غيره .

(١) رد غثان بن سعيد على بشر الميسى ص ٣٧٨ مجموع عقائد السلف .

وكما أنه سبحانه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

والمقصود من الحديث قوله : « فيقول : من يدعوني فأستجيب له » إلى آخره لأن هذا من كلام الله الذي يحض به عباده المؤمنين بنزوله إلى التعرض إلى فضله وكرمه ، فيستجيب للداعى ، ويعطى السائل سؤله ، ويغفر لمستغفر ذنبه ، فما أكرم هذا الرب ، وأقربه ممن يؤمن بقربه ، وما أوسع عطاءه ، ولكن أهل التعطيل والتحريف من أبعد الناس عنه ، تعالى وتقدس عما تتصوره أفكارهم المنحرفة .

وقوله وكلامه — تعالى — غير خلقه ، فأهل التأويل والتعطيل يريدون أن يبدلوا كلامه ذلك ، وقوله . وأما خلقه فإنه لا يبدل . ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ .

١٢٠ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، أن الأعرج حدثه ، أنه سمع أبا هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ، وبهذا الإسناد ، قال الله : أنفق أنفق عليك » .

قوله : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » يعنى أن هذه الأمة آخر الأمم في الدنيا وعليها تقوم الساعة ، وهم أول الأمم دخولا الجنة ، ويحاسبون قبل الناس كلهم .

والمقصود قوله : « قال الله : أنفق أنفق عليك » إذ هو قول الله رواه رسوله عن ربه — تبارك وتعالى — وفي هذا القول أمره لنبيه بالإنفاق في سبيل الله والدعوة إلى دينه ، ووعدته — تعالى — أن ينفق عليه — أى يعطيه ما يحتاجه لذلك وغيره .

وهذا القول يضاف إلى الله تعالى قولاً له حقيقة وليس هو من القرآن ،
وقول الله — تعالى — غير خلقه ، وتقدم هذا الحديث .

١٢١ — قال : « حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن فضيل ، عن
عمارة ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة — فقال : « هذه خديجة أتتك
بإناء فيه طعام ، أو إناء فيه شراب ، فأقرئها من ربها السلام ، وبشرها
ببيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » .

قوله : « فقال : هذه خديجة » القائل هو جبرائيل ، كما صرح به في باب
تزويج خديجة .

قوله : « أتتك » في رواية تأتيك .

قوله : « بإناء فيه طعام ، أو إناء فيه شراب » شك من أحد الرواية ، وفي
بعض نسخ البخارى حدثت « فيه » الثانية .

قوله : « فأقرئها من ربها السلام » أى أخبرها . قال الحافظ : « زاد
الطبراني في الرواية المذكورة : فقالت : هو السلام ، ومنه السلام ، وعلى
جبرائيل السلام .

قال العلماء : في هذه القصة دليل على وفور فقهها ، لأنها لم تقل : وعليه السلام
عرفت أن الله لا يرد عليه السلام ، كما يرد على المخلوقين ، لأن السلام اسم من
أسمائه — تعالى — وهو دعاء بالسلامة ، وذلك لا يصلح أن يرد به على الله .
ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام ، وعلى من بلغه .

واستدل بهذه القصة على أن خديجة أفضل من عائشة ، لأن الله أرسل إليها
السلام ، وأما عائشة فأرسل إليها السلام جبرائيل^(١) .

(١) الفتح ملخصاً ج ٧ ص ١٣٩ .

قوله : « وبشرها بيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » تقدم معنى البشارة والقصب هو قصب اللؤلؤ كما جاء مفسرا في الحديث .

قال الحافظ : « عند الطبراني في الأوسط ، عن ابن أبي أوفى « يعنى قصب اللؤلؤ » وفي الكبير من حديث أبي هريرة : « بيت من لؤلؤة مجوفة » وأصله في مسلم .

وفي الأوسط من حديث فاطمة : قلت يا رسول الله : أين أمى خديجة ؟ قال : في بيت من قصب ، قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت »^(١) .

والصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت . والنصب : التعب . قال السهيلي : مناسبة نفى هاتين الصفتين : أنها أجابت النبي ﷺ طوعا ، ولم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ، ولا تعب في ذلك ، بل أزالته عنه كل نصب ، وأنسته من كل وحشة ، وهونت عليه كل عسير ، فناسب أن يكون بيتها الذى بشرها به ربهما بالصفة المقابلة لفعالها »^(٢) .

والمقصد من الحديث قوله : « فأقرئها من ربهما السلام » إلى آخره ، لأن الله — تعالى — خاطب جبريل بذلك حينما أرسل معه السلام إليها ، والبشارة فهذا من كلام الله المتضمن الإكرام والإفضال على زوج سيد المرسلين ﷺ ورضى الله عنها وعن سائر أزواجه وأصحابه أجمعين ، وهذا من كلام الله المتعلق بمشيئته الذى أكرم به من شاء من خلقه وهو غير القرآن ، وغير خلقه فإن الخلق لا يرسل به .

١٢٢ — قال : « حدثنا معاذ بن أسد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا

(١) المصدر من ١٣٨ ملخصا .

(٢) الفتح ج ٧ ص ١٣٨ .

معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن
النبي ﷺ قال : قال الله : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين
رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (١) .
فلا يعلم بما أعد الله لهم من الكرامة والنعيم إلا الله تعالى الذى خلقه ولذلك
قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا
خطر على قلب بشر » فلا أحد يستطيع وصفه لأنه لم يره ، ولم يسمع بمثله ،
ولا يتصوره أحد ، وإنما يعلمه الله وحده .

روى مسلم فى صحيحه ، من حديث المغيرة بن شعبه ، يرفعه ، قال :
« سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما
أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أى رب كيف وقد
نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل
ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : هذا لك ومثله ومثله
ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول هذا لك ، وعشرة
أمثاله ولك ما اشتيت نفسك ، ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب .

قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم
بيدى ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب
بشر قال : ومصادقه فى كتاب الله — تعالى — ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ
لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (١) .

قال القرطبي : « وهذه الكرامة إنما هى لأعلى أهل الجنة منزلا ، كما بينه

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١٧٦ .

هذا الحديث»^(١) .

والمقصود قوله : « أعددت لعبادى الصالحين » إلى آخره ، فهو من قول الله تعالى الذى خاطب به عباده ، مخبرا إياهم بما أعده — تعالى — لعباده الصالحين .

والصالح : هو الذى يفعل ما أمره الله به ، ويجتنب ما نهاه عنه ، وإن فرط منه معصية ، يبادر بالتوبة والإنابة إلى ربه .

وقول الله وكلامه لا يختص بالكتب المنزلة على رسله كهذه الأحاديث فهى من كلام الله ، وكلامه غير خلقه .

١٢٣ — قال : « حدثنا محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرني سليمان الأحول ، أن طاووسا أخبره ، أنه سمع ابن عباس يقول : كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال : « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » .

تقدم شرح هذا الحديث فى باب قول الله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ ، وبعض ألفاظه تختلف عما سبق ، كما هى عادته إذا أعاد الحديث ،

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٠٤ .

وسبق التنبيه عليه .

وفي هذا الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من المداومة على قيام الليل لأن لفظة « كان » تدل على ذلك غالباً .

وفيه إيجابته ﷺ في قيامه ، واجتهاده في الدعاء والتضرع ، والإخلاص ، والثناء على الله — تعالى — والتوسل إليه تعالى بالإيمان بوعده ووعيده ، وقوله ، والتسليم له .

والإنابة : الرجوع إلى الخير خاصة ، أما الرجوع إلى الشر فلا يكون إنابة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾^(١) أى عودوا إلى ما يرضى به عنكم من التوبة والانقياد لأوامره ، والانتفاء عن زواجه .

والمراد من الحديث قوله : « وقولك الحق » أى الثابت الذى فيه الهدى والعدل ، فمحاولة المنافقين والكافرين والمفسدين تبديله ، عدول منهم عن الحق ، ولا يضررون بذلك إلا أنفسهم ، كما أن من زعم أن الله لا يقول ولا يتكلم قد جانب الحق واستبدل به الباطل ، وكلام الله تعالى لانفاد له ، وهو غير خلقه .

١٢٤ — قال : « حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا عبد الله بن عمر النخعي ، حدثنا يونس بن يزيد الأيلي ، قال : سمعت الزهري ، قال : سمعت عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله ، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوا ، وكل حديثي طائفة من الحديث الذى حدثني ، عن عائشة ، قالت : ولكن والله

(١) الآية ٥٤ من سورة الزمر .

ما كنت أظن أن الله ينزل ببراءتى وحيًا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها ، فأنزل الله — تعالى — ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ العشر الآيات .

« الإفك » : أبلغ ما يكون من الكذب ، والافتراء ، وقيل هو البهتان ، لا تشعر به حتى يفجأك ، وأصله : الإفك ، وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه .

فبرأها الله مما قالوا ، أى بين براءتها من ذلك الإفك ، الذى قاله المنافقون وروجوه فى مجتمع المدينة ، فأذوا به رسول الله ﷺ وأهل بيته وأصحابه . ولا يزال إلى اليوم فريق ممن يتستر بالإسلام — وهو يحاربه — ينمى ذلك الإفك ، ويشيعه ، ويلفق الكذب والزور ، ويحاول أن يلبس على السذج والمغفلين .

ولا شك أن من يفعل ذلك أنه معاند لله ورسوله ، وسالك غير سبيل المؤمنين ، ومؤذن لله ورسوله والمؤمنين بالحرب ، وليس هو من الإسلام فى شىء ، بل هذا من أعظم الكفر والتكذيب لله ورسوله .

قال الزمخشري : « نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به فلم تمجده أذناه ، وعدة أطفاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية ، وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها »^(١) .

(١) الكشف ج ٣ ص ٥٣ .

وقال أيضا : « ولو قلبت القرآن كله ، وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله — تعالى — قد أغلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة — رضوان الله عليها — ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد ، والعتاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفننة كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى ، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأن ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب^(١) الذي هم أهله^(٢) .

وقال ابن القيم : « فإن قيل : فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها ، وسأل وهو أعلم بالله ، وبمنزلته عنده ، هلا قال : سبحانك هذا بهتان عظيم » .

فالجواب : أن هذا من تمام الحكم التي جعل الله هذه القصة سببا لها ، وابتلاءً لرسوله ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة ، ليرفع بها أقواما ، ويضع آخرين .

ومن تمام الابتلاء أن تأخر الوحي ، ليزداد المؤمنون إيمانا ، والمنافقون إفكا ، ونفاقا ، وليظهر لرسوله والمؤمنين من سرائرهم ، وتمم العبودية والمنة على الصديقة وأبويها .

(١) قوله الواجب إشارة إلى أن نفاذ الوعيد واجب ، كما هو مذهب المعتزلة ، وهو غير مسلم ، فإن الله تعالى أخبر أنه يغفر الذنوب ما عدا الشرك لمن يشاء ، فلا يجوز الحكم على الله تعالى بأنه يجب أن يعذب العصاة .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٥٦ — ٥٧ .

والرسول ﷺ كان هو المقصود بالأذى ، فلذلك تولى الله تعالى الدفاع عنه ، والرد على أعدائه ، وذمهم ، وتوعدهم بالعذاب العظيم»^(١) .

قولها : « ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحيًا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم فى - بأمر يتلى » كانت رضى الله عنها فى نفسها صغيرة ، ولكنها عند الله ، وعند المؤمنين عظيمة كبيرة ، لأنها زوج رسول الله ﷺ وحييته ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه — حينما سئل أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، فقال السائل : ومن الرجال ؟ قال : أبوها ، قلت ثم من ؟ قال : عمر»^(٢) .

وقال ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » أخرجاه فى الصحيحين^(٣) .

وهكذا أهل الفضل يحترقون أنفسهم ، ويزدرونها فى حق الله — تعالى — وذاك مما يعلى منازلهم عند الله — تعالى — .

وفيه التصريح بأن الله يتكلم بما يوحىه إلى نبيه ، وكلامه تعالى منه ما يتعبد بتلاوته كالقرآن ، وغيره كهذه الأحاديث التى ذكر البخارى شيئًا منها ، وفيه أن كلامه ينزل من الله فالله فوق خلقه ، وكلامه غير مخلوق ، وغير محصور فى الكتب المنزلة ، وهذا هو وجه الدليل منه وقولها : « ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يروى الله بها » وذلك ليقينها ببراءتها ، وثقتها بأن ذلك سوف يظهر لرسول الله ﷺ فكانت تطمع

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٦١ — ٢٦٣ ملخصا .

(٢) رواه مسلم ج ٧ ص ١٠٩ .

(٣) البخارى ج ٥ ص ٣٦ ومسلم ج ٧ ص ١٣٨

وترجو الله — تعالى — أن يرى نبيه في المنام ما يكون فيه براءتها ، ولكن الله بر كريم ، وعدل حكم ، له فيما يشرعه من الحكم والمنن على خلقه ما لا يحاط به ، ومن ذلك ما أنزله على نبيه براءة زوجته أم المؤمنين ، مما رماها به أهل النفاق والبهت ، فحصل بذلك سروره ، وسرور زوجته ووالديها والمؤمنين إلى يوم القيامة .

كما حصل بذلك فضيحة المنافقين وخزيهم وبيان كذبهم ، وظهور نياتهم الخبيثة ، وانكشاف شيء من مؤامراتهم ضد نبي الله ، وما جاء به من هذا الدين العظيم ، وغير ذلك من الحكم .

قوله : « فَأَنْزَلَ اللَّهُ — تعالى — ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ العشر الآيات الذى نزل فى هذه الواقعة ثمانى عشرة آية ، كما سبق فى كلام الرّمحشرى رحمه الله .

والمقصود من الحديث كما سبق قريبا قولها : « ما كنت أظن أن الله ينزل براءتى وحيًا يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى » لأن فيه التصريح بأن الله يتكلم بأمره ، وما يشرعه لعباده ، وما يحكم به بينهم ، وما يعدهم ، أو يتوعدهم به ، على أعمالهم ، وينزل ذلك منه على نبيه ، الذى يبلغ عنه .

ولا يمكن أن يأمر وينهى ويحكم ، ويعد ، ويتوعد ، ويجزى إلا بقوله الذى يتكلم به ، وليس قوله محصورا فى كتبه التى تعبد عباده بتلاوتها ، فى الصلاة وغيرها ، ولكن كل ما يحكم به بين خلقه ، وما يشرعه لعباده ، وعده ووعيده كله بكلامه .

والمنافقون والكفار يريدون أن يبدلوا كلام الله الذى هو شرعه ، ودينه فيخالفونه ، أو لا يمتثلونه ، والله يجزيهم بما يستحقون ولا يظلمهم .

ولا أحد يستطيع تغيير خلق الله تعالى .

وبهذا وأمثاله يتضح أن قول أهل الاعتزال ومقلديهم من الروافض وغيرهم من يزعم أن قول الله تعالى مخلوق قول خطل ، بعيد عن الصواب كل البعد .

١٢٥ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجل فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها ، فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة » .

الإرادة : هى العزم على الشئ ، وقد جاء فى رواية ابن عباس بلفظ « الهم » وهو : ترجيح قصد الفعل على الترك ، تقول هممت بكذا ، أى قصدته بهمتى ، وهو فوق خطور الشئ فى القلب .

وقد يطلق الهم على الإرادة .

وهذا الخطاب من الله — تعالى — للملائكة الموكلين بحفظ عمل الإنسان وكتابته وهو يدل على فضل الله على الإنسان ، وتجاوزه عنه .

قوله : « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة ، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها » .

قد تكون الإضافة فى قوله : « عبدى » بمعنى العابد المطيع ، أى عابدى ،

وقد تكون بمعنى المعبد المدلل ، والظاهر أنه مقيد بالمؤمن .

والعمل قد يراد به عمل القلب والجوارح ، وهو الظاهر ، لأنه قد جاء

ما يدل على أن عمل القلب يؤاخذ به ، ويجزى عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

(١) الآية ٢٥ من سورة الحج .

وفي الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان بسيفيما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل أخيه »^(١) .

وقد جاء قيد الهمم بالعزم الجازم ، ففي المسند من حديث خريم بن فاتك : « من هم بحسنة يعلم الله أنه قد أشعر بها قلبه ، وحرص عليها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ، لم تكتب عليه ، ومن عملها كتبت واحدة ، ولم تضاعف عليه »^(٢) .

فهذه النصوص تصلح لتخصيص عموم قوله : « إذا أراد أن يعمل سيئة فلا تكتبوها حتى يعملها » وهذا لا يخالف قوله في السيئة « لم تكتب عليه » لأن عزم القلب وتصميمه عمل . قوله : « فإن عملها فاكتبوها بمثلها » . يعنى سيئة واحدة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٤) .

قوله : « فإن تركها من أجل فاكتبوها له حسنة » قيد تركها بأنه من أجل الله — تعالى — أى خوفا منه ، وحياءً ، أما إذا تركها عاجزا ، أو خوفا من الخلق ، أو لعارض آخر ، فإنها لا تكتب له حسنة ، بل ربما كتبت عليه سيئة .

(١) رواه البخارى فى الإيمان وغيره انظر الفتح ج ١ ص ٨٤ ومسلم رقم ٢٨٨٨ ج ٤ ص ٢٢١٣ ، ٢٢١٤ .

(٢) المسند ج ٤ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٢٢ .

(٣) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٤٠ من سورة غافر .

وفى حديث ابن عباس : « ومن هم بسيئة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة »^(١) فأكدتها بقوله : « عنده » ، وبقوله : « كاملة » ، وهو مقيد بما فى هذا الحديث يعنى أن يكون عدم عملها من أجل الله تعالى .
 قوله : « وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاعتبها له حسنة » إلى آخره .
 جاء وصفها فى حديث ابن عباس المشار إليه ، بأنها كاملة ، وهذا تفضل من الله تعالى الكريم المنان على عباده ، فله الحمد والمنة ، فأى كرم أعظم من هذا ، المهم بالحسنة يكتب الله به حسنة كاملة ، وعمل الحسنة يكتب به عشر حسنات إلى سبعمائة حسنة ، وفى حديث ابن عباس المشار إليه : « إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة » يعنى أكثر من سبعمائة ، فالحمد لله ذى الطول والكرم فلن يهلك على الله إلا من لا يصلح للتفضل ، وليس هو أهل لذلك .

والمقصود من الحديث كما تقدم فى نظائره السابقة ، قوله : « يقول الله : إذا أراد عبدى » فأسند القول إلى الله ، واصفا له بذلك ، وهذا القول من شرعه الذى فيه وعده لعباده ، وتفضله عليهم ، وهو غير القرآن ، وليس مخلوقا فقوله تعالى غير خلقه .

١٢٦ — قال : « حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى سليمان ابن بلال ، عن معاوية بن أبى مزرد ، عن سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم ، فقال : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . »

(١) رواه البخارى فى الرقاق الباب ٣١ وانظر الفتح ج ١١ ص ٣٢٣ ، ومسلم رقم ١٣١ ج ١ ص ١١٨ .

فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟
قالت : بلى يارب ، قال : فذلك لك .

ثم قال أبو هريرة : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

« أل » في الخلق تدل على الشمول ، فهي عامة لجميع الخلق ، ويدل عليه
قوله : « فلما فرغ » أى انتهى من خلق المخلوقات ، وهو يدل على أن ذلك
وقع في وقت محدد ، وإن كان الله — تعالى — لا حد لقدرته ، ولا يشغله
شأن عن شأن ، ولكن اقتضت حكمته أن يجعل لفعله ذلك وقتا معيناً ، وهذا
من الأدلة على أن أفعاله تتعلق بمشيئته ، فمتى أراد أن يفعل شيئاً فعله .

وليس معنى قوله : « لما فرغ » أنه تعالى انتهى من خلق كل شيء ، بل
مخلوقاته — تعالى — لا تزال توجد شيئاً بعد شيء ، ولكن سبق علمه بها ،
وتقديره لها وكتابته إياها ، ثم هى تقع بمشيئته ، فلا يكون إلا ما سبق به
علمه ، وتقديره وكتابته ، وشاءه فوجد .

قال ابن أبي جمرة : « ظاهر الحديث الإخبار بعظم ما جعل الله — تعالى —
لرحم من الحق ، وأن وصلها من أكبر أفعال البر ، وأن قطعها من أكبر
المعاصي »^(١) .

قوله : « قامت الرحم ، فقال : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من
القطيعة » .

هذه الأفعال المسندة إلى الرحم ، من القيام ، والقول ، ظاهر الحديث أنها
على ظاهرها حقيقة ، وإن كانت الرحم معنى يقوم بالناس ، ولكن قدرة الله —

(١) بهجة النفوس ج ٤ ص ١٤٦ .

تعالى - لا تقاس بما يعرفه عقل الإنسان ، ولا داعى أن يقال : إن الله -
تعالى - جعلها في جوهر ، وجعل لها حياة ، وأنطقها بعد ذلك ، فقد جاء
أن أعمال العبد تأتيه ، وتخطبه ، وتجادل عنه ، وهذا من جنسه ، والله أعلم .
وقيام الرحم قيام مخصوص ، غير القيام المتبادر من لفظه ، وقد جاء إيضاحه
في الرواية التي ذكرها في التفسير : وفيه : « قامت الرحم فأخذت بحقو
الرحمن »^(١) .

قال الحافظ : قال القاسبي : « أبى أبو زيد المروزى أن يقرأ لنا هذا
الحرف ، لإشكاله ، ومشى بعض الشراح على الحذف ، فقال : « أخذت
بقائمة من قوائم العرش » .

وقال عياض : الحقو معقد الإزار ، وهو الموضع الذى يستجار به ، على
عادة العرب ، لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع ، كما قالوا : تمنعه مما تمنع
منه أزرنا ، فاستعير ذلك مجازا للرحم في استعادتها بالله من القطيعة . انتهى ،
وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه ، كما في حديث أم عطية : « فأعطاها حقوه ،
فقال : أشعرنها إياه ، يعنى إزاره ، وهو المراد هنا ، وهو الذى جرت العادة
بالتمسك به عند الإلحاح فى الاستجارة ، والطلب ، وهذا المعنى صحيح مع
اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة »^(٢) .

قلت : هذا على مذهب أهل التأويل المذموم ، والصواب عدم حمل كلام
الله ورسوله على الاصطلاحات الحادثة بعد مضى عصر الصحابة وأتباعهم ،
لأن الله تعالى ورسوله ﷺ خاطب الناس بلغة العرب ، والمخاطبون فهموا
مراده ، وما كانوا يفرقون بين الحقيقة والمجاز ، وتقدمت الإشارة إلى ذلك .

(١) البخارى مع الفتح ج ٨ ص ٥٧٩ .

(٢) الفتح ج ٨ ص ٥٨٠ .

قال شيخ الإسلام — رحمه الله — في رده على الرازي في زعمه أن هذا الحديث يجب تأويله .

قال : « فيقال له : بل هذا من الأخبار التي يقرها من يقر نظيره ، والنزاع فيه كالنزاع في نظيره .

فدعواك أنه لا بد فيه من التأويل بلا حجة تخصه ، لا تصح »^(١) .

وقال : « وهذا الحديث في الجملة من أحاديث الصفات ، التي نص الأئمة على أنه يمر كما جاء ، وردوا على من نفى موجهه ، وما ذكره الخطابي وغيره أن هذا الحديث مما يتأول بالاتفاق ، فهذا بحسب علمه حيث لم يبلغه فيه عن أحد من العلماء أنه جعله من أحاديث الصفات التي تمر كما جاءت .

قال ابن حامد : ومما يجب التصديق به : أن الله حقوا .

قال المروزي : قرأت على أبي عبد الله كتابا ، فمر فيه ذكر حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « إن الله خلق الرحم حتى إذا فرغ منها أخذت بحقو الرحمن » ، فرفع المحدث رأسه ، وقال : أخاف أن تكون كفرت . قال أبو عبد الله : هذا جهمي .

وقال أبو طالب : سمعت أبا عبد الله يسئل عن حديث هشام بن عمار ، أنه قرئ عليه حديث الرحم : تجيء يوم القيامة فتعلق بالرحمن — تعالى — فقال : أخاف أن تكون قد كفرت ؟ فقال : هذا شامي ما له ولهذا ؟ قلت : فما تقول : قال : يمضي كل حديث على ما جاء »^(٢) .

وقال القاضي أبو يعلى : « اعلم أنه غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره ،

(١) نقض التأسيس ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) المصدر المذكور ص ١٢٨ — ١٤١ ملخصا .

وأن « الحقو » و « الحجة » صفة ذات ، لا على وجه الجارحة ، والبعض ، وأن الرحم آخذة بها ، لا على وجه الاتصال ، والمماسة ، بل نطلق ذلك تسمية كما أطلقها الشرع . وقد ذكر شيخنا أبو عبد الله — رحمه الله — هذا الحديث في كتابه ، وأخذ بظاهره ، وهو ظاهر كلام أحمد^(١) .

قلت : قوله : « لا على وجه الجارحة ، والبعض » وقوله : « لا على وجه الاتصال والمماسة » قول غير سديد ، وهو من أقوال أهل البدع ، التي أفسدت عقول كثير من الناس .

فمثل هذا الكلام المجمل لا يجوز نفيه مطلقا ، ولا إثباته مطلقا ، لأنه يحتمل حقا وباطلا ، فلا بد من التفصيل في ذلك ، والاعراض عنه أولى ، لأن كلام رسول الله ﷺ خال منه وليس هو بحاجة إليه فهو واضح . وليس ظاهر هذا الحديث أن لله إزارا ورداء من جنس الأزرق والأردية التي يلبسها الناس ، مما يصنع من الجلود والكتان والقطن وغيره ، بل هذا الحديث نص في نفي هذا المعنى الفاسد . فإنه لو قيل عن بعض العباد : إن العظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه لكان إخباره بذلك عن العظمة والكبرياء ، اللذين ليسا من جنس ما يلبس من الثياب .

فإذا كان هذا المعنى الفاسد لا يظهر من وصف المخلوق ، لأن تركيب اللفظ يمنع ذلك ، وبين المعنى المراد ، فكيف يدعى أن هذا المعنى ظاهر اللفظ في حق الله تعالى ، فإن كل من يفهم الخطاب ، ويعرف اللغة يعلم أن الرسول ﷺ لم يخبر عن ربه بلبس الأكسية والثياب ، ولا أحد ممن يفهم الخطاب يدعى في قوله ﷺ في خالد بن الوليد « إنه سيف الله » أن خالدا حديد ، ولا في قوله ﷺ في الفرس : « إنا وجدناه بحرا » أن ظاهره أن الفرس ماء

(١) إبطال التأويل ص ٢٣٢ مخطوط .

كثير ، ونحو ذلك»^(١) .

قوله : « مه » هي كلمة ردع وزجر ، أو استفهام .

قوله : « هذا مقام العائذ بك من القطيعة » الإشارة إلى ما ذكر في الرواية التي أشرت إليها وهي قوله : « قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن » ، وهذا أعظم مقام ، والعائذ به استعاذ بأعظم معاذ ، وهو دليل على تعظيم صلة الرحم ، وعظم قطيعتها .

والقطيعة عدم الوصل ، والوصل : هو الإحسان إلى ذوى الرحم ، والتودد له والقرب منه ، ومساعدته بإسعافه بما يرضيه ، ودفع ما يؤذيه ، والحرص على جلب ما ينفعه في الدنيا والآخرة .

قوله : « ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : فذلك لك » من وصله الله ، وصل إلى كل خير ، وسعادة في الدنيا والآخرة ، ولا بد أن تكون نهايته مجاورة ربه في الفردوس لأن الوصل لا ينتهى إلا إلى هناك فينظر إلى وجه ربه الكريم .

ومن قطعه الله فهو المبتوت المقطوع مع عدو الله الشيطان الطريد الرجيم ولو أراد الخلق كلهم صلته ونفعه ، لم يفده ذلك .

فأى تحذير وتهديد أعظم من هذا ، وأى وعد وثواب أكبر من ثواب صلة الرحم ، ولهذا قرأ أبو هريرة الآية مستشهداً بها ، وفيها أن قطيعة الرحم مجلبة للعنة الله وغضبه وشديد عقابه .

والمقصود من الحديث ما فيه من مخاطبة الله — تعالى — للرحم ، بقوله : « مه » وقوله : « ألا ترضين » إلى آخره ، وهو خطاب كريم يجب أن يؤمن

(١) نقض التأسيس ج ٣ ص ١٥٧ ببعض التصرف .

به على ظاهره ، وما فيه من وعده ، ووعيده ، وحكمه وشرعه ، وخطابات
الله تعالى وكلامه غير محصور في كتبه المنزلة على رسله ، وكلامه تعالى غير
مخلوقاته كما سبق التنبيه عليه مرارا والله أعلم .

١٢٧ — قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ، عن صالح ، عن
عبيد الله ، عن زيد بن خالد ، قال : مطر النبي ﷺ فقال : « قال
الله : أصبح من عبادى كافر بى ، ومؤمن بى » .

زيد بن خالد الجهنى ، صاحب لوا جهينة يوم فتح مكة ، من أهل بيعة
الرضوان ، قال ابن عبد البر : اختلف في سنة وفاته ، وفي وقتها ومكانها ،
اختلفا كثيرا ف قيل توفي في المدينة سنة ثمان وستين ، وقيل بمصر سنة خمسين ،
وقيل بالكوفة في آخر خلافة معاوية ، رضى الله عنه وعن سائر الصحابة
أجمعين^(١) .

قوله : « مطر » أى نزل عليه المطر ليلا ، وذلك في الحديبية ، كما جاء مبينا
في هذا الحديث ، ولكن المؤلف — رحمه الله — اختصره هنا ، واقتصر على
محل الشاهد منه .

قوله : « كافر بى ، ومؤمن بى » جاء بيان ذلك في نفس الحديث ، حيث
قال : « أما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ، مؤمن
بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر
بالكوكب » .

(١) الاستيعاب ج ٢ ص ٥٤٩ ، أسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٤ ، الإصابة ج ٢ ص ٦٠٣ .

ومعنى الإيمان هنا : الاعتراف بفضل الله ، ونسبة النعم وإنزال المطر والتصرف فى الكون إلى الله — تعالى — لأنه هو مالك كل شىء ، وخالقه والمدبر شئون خلقه .

ومعنى الكفر فى هذا الحديث : نسبة النعم ، وإنزال المطر ، والتأثير فى الكون إلى غير الله — تعالى — كقولهم : مطرنا بالنوء الفلانى . والنوء هو النجم الذى ينزله القمر ، وغيره .

قال ابن عبد البر : « النوء فى كلام العرب : واحد أنواء النجوم ، يقال : ناء النجم ينوء ، إذا نهض للطلوع ، وقد يكون يميل للمغيب »^(١) .

فلا يجوز نسبة نزول المطر ، وغيره إلى النجم ، وإن لم يكن ذلك عن اعتقاد ، فإن النجوم لا تفعل شيئاً ، وليس لها تأثير ، وتصريف لأحوال الجو وغيره .

أمياً من اعتقد أنها تفعل شيئاً من ذلك حقيقة ، فهو مشرك الشرك الأكبر . قال ابن عبد البر : « معنى نسبة المطر إلى النوء هو عندى على وجهين : أحدهما : اعتقاد أن النوء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله — تعالى — فذلك كافر كفرة صريحاً ، يجب استتابته عليه وقتله لنبذه الإسلام ، وردة القرآن .

الثانى : أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء ، وأنه سبب الماء ، على ما قدره الله ، وسبق فى علمه ، فهذا وإن كان وجهها مباحاً — فإن فيه أيضاً كفرة بنعمة الله — عز وجل — وجهلاً بلطيف حكمته ، لأنه ينزل الماء متى شاء .

قال الشافعى : لا أحب لأحد أن يقول : مطرنا بنوء كذا ، وإن كان النوء

(١) التمهيد ج ١٦ ص ٢٨٧ .

عندنا : الوقت ، والوقت مخلوق ، لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ، ولا يجس شيئا من المطر ، وإنما يقول : مطرنا : وقت كذا ، كما يقول : بشهر كذا ومن قال : مطرنا بنوء كذا ، وهو يريد أن النوء أنزل الماء ، فهو كافر حلال دمه إن لم يتب .

وسمع الحسن رجلا يقول : طلع سهيل ، وبرد الليل ، فكره ذلك ، وقال : إن سهيلا لم يأت قط بحر ولا برد .

وكره مالك أن يقول الرجل للغميم ، أو السحابة : ما أخلقها للمطر . وهذا يدل على أنهم احتاطوا ، فمنعوا الناس من الكلام بما فيه أدنى متعلق من أمر الجاهلية ^(١) .

والمقصود من الحديث هنا : إسناد القول إلى الله تعالى ، وهو قول حقيقة يخاطب به رسوله من الملائكة والبشر ، ويبين فيه حكمه وشرعته ، وما يثيب عليه وما يعاقب عليه ، وأنه يقول ، ويأمر ، وينهى متى شاء -- جل وعلا ، وأن قوله غير مخلوق ، وغير محصور في القرآن ونحوه ، وقوله غير مفعولاته .

١٢٨ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه ، وإذا كرهه لقائى ، كرهت لقاءه » .

« إذا » هنا ظرف للزمن المستقبل ، وفيها معنى الشرط .

وتقدم الكلام في صفة محبة الله تعالى وأنه تعالى يحب أهل طاعته من عباده ، وأن ذلك ثابت بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وأدلته لا تكاد تنحصر ، ومنكره

(١) التمهيد ج ١٦ ص ٢٨٥ — ٢٨٧ ملخصا .

ضال عن طريق المنعم عليهم ، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ،
سالك طريق أهل الضلال والتحرّيف والتبديل .

وتقدم كذلك الكلام على حب العباد لله — تعالى — وأن ذلك أصل
الدين . ومعنى لا إله إلا الله ، وأن من لم يحب الله — تعالى — حب ذل
وخضوع وتعظيم أنه ليس بمسلم ولا يعرف الإسلام .

قال ابن عبد البر : « هذا خبر عن حال الطائفتين عند لقاء ربهم ، فمن
أحب لقاء الله ، فهو الذى يحب لقاءه ، ومن كره لقاء ربه عند الموت ،
فذاك الذى يكره لقاءه »^(١) .

وفى هذا الحديث وصف الله — تعالى — بأنه يكره بعض عباده ، وبعض
الأعمال كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ آيِعَاتِهِمْ ﴾^(٢) ، وقال جل
وعلا : ﴿ كُلُّ ذَلِكُمْ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾^(٣) .

وفى صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل حرم عليكم
عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعاً وهات ، وكره لكم ثلاثاً ، قيل وقال ،
وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »^(٤) .

وفيه عن أبى هريرة مرفوعاً : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم
ثلاثاً » إلخ^(٥) .

(١) من الفتح ج ١١ ص ٣٥٨ بالمعنى .

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٣٨ من سورة الإسراء .

(٤) مسلم ج ٣ ص ١٣٤١ .

(٥) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٤٠ .

وجاء في الرواية التي ذكرها في الرقاق بعد قوله : « كره الله لقاءه » قالت عائشة ، أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت ؟ « قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله ، وأحب لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله ، وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه . » .

قال الزرقاني : « عند حضور أجله إن عين ما يجب أحب لقاء الله ، وإن عين ما يكره لم يجب الخروج من الدنيا ، هذا معناه كما تشهد به الآثار المرفوعة ، وذلك حين لا تقبل التوبة ، وليس المراد الموت ، لأنه لا يخلو من كراهته أحد ، ولكن المكروه من ذلك إثارة الدنيا ، وكرهه أن يصير إلى الله — تعالى — قاله ابن عبد البر »^(١) .

والمقصود من الحديث الجملة المذكورة هنا ، إذ فيها قول الله — تعالى — أنه يجب لقاء بعض عباد ، ويكره لقاء بعضهم .

فالملقى يجب لقاء ربه عند انقطاع عمله ، وانقضاء أجله ، فيحب ربه لقاءه ليكرمه ، ويجزيه فوق ما يتصوره ، فضلا من ربه تعالى .

وأما الفاجر فإنه عند معاينة رسل الله إليه ، وإخبارهم إياه بعذاب الله يكره عند ذلك ملاقاته الله ، فيكره الله لقاءه ، فأخبر تعالى عباده بهذا قولا منه على لسان رسوله وقوله غير خلقه ، وأقواله تعالى غير محصورة في كتبه .

وتقدم أن لقاء الله يتضمن معاينته ورؤيته ، وكل أحد من عباد الله سوف يلاقى ربه ، فيسأله عن عمله ، كما في حديث عدى المتقدم ، والله أعلم .

(١) شرح الموطأ للزرقاني ج ٢ ص ٨٥ .

١٢٩ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله — تعالى — : أنا عند ظن عبدي بي . »

هذا الحديث تقدم في باب قول الله تعالى ﴿ وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ . والمقصود منه هنا واضح كما تقدم في الأحاديث قبله ، وهو أن الله — تعالى — تكلم بهذا القول مخاطبا عباده بما يريد منهم أن يفعلوه فيشبههم عليه . وبما يريد منهم أن يجتنبوه ، حتى لا يعاقبهم ، وتقدم أن الكلام صفة كمال ، وأن الله تعالى متصف بها ، وأن كلامه يتعلق بمشيئته ، فمتى شاء أن يتكلم تكلم ، وكما أنه تعالى في الأزل يتكلم بما يشاء ، فكذلك في المستقبل ، وفي كل وقت إذا أراد أن يتكلم ، وكلام الله غير محصور ولا نفاذ له ، وهو غير خلقه .

١٣٠ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنا مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « قال رجل لم يعمل خيرا قط إذا مات فحرقوه ، وأذروا ، نصفه في البر ، ونصفه في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذابا لا يعذبه أحدًا من العالمين ، فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك ، وأنت أعلم ، فغفر له . »

الظاهر أن هذا الرجل من بنى إسرائيل ، ولهذا أورده المصنف رحمه الله في أحاديث بنى إسرائيل .

وقوله : « لم يعمل خيرا قط » الظاهر أن المقصود عمل الجوارح ، وأن عنده أصل الإيمان في قلبه ، فهو مؤمن بالله ، وبالجزاء والحساب ، وهذا واضح

من قوله : « فعلت ذلك من خشيتك وأنت أعلم » .

وفي الرواية التي في أحاديث الأنبياء : « وكان رجل يسرف على نفسه »^(١) .

قوله : « إذامات فحرقوه » عدل عن خطاب المتكلم إلى الغائب كراهية إسناد هذه الأفعال المخبر عنها ، وهذا أسلوب معروف في كلام العرب ، إذا كرهوا العمل المخبر عنه ، ذكروه بلفظ خطاب الغيبة كراهة إضافته إلى المتكلم لفظاً .

وقد جاء على الأصل في الرواية المذكورة في أحاديث بنى إسرائيل ، من حديث أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وحذيفة ، كلهم بلفظ المتكلم « إذا مت فأحرقوني ثم اطحنوني » .

قوله : « وأذروا نصفه في البر ، ونصفه في البحر » أى فرقوا أجزائه المسحوقة في الريح ، التي تبعثر ذراته بعد التحريق والطحن ، إمعاناً في تفرقة أجزائه ، حتى لا تجتمع ، ظاناً أن الله لا يقدر على جمعه وبعثه ولهذا قال : « فوالله لئن قدر الله عليه » أى قدر على جمعى ، وبعثنى حياً بعد الموت ، وفي الرواية المشار إليها : « فوالله لئن قدر الله على » .

وهذا هو ظاهر الروايات جميعها ، بل هو صريحها ، وما ذكر من التمحلات والتكلفات من كثير من الشراح ، لا داعى لها ، وهى خلاف صريح اللفظ كقولهم : « قدر » من التقدير ، وهو التضييق ، أو قدر على العذاب ونحو ذلك مما يجزم المتبع لروايات الحديث والناظر في السياق أنه خطأ محض .

فهو شك في قدرة الله على جمعه ، وإحيائه بعد ذلك ، ومع هذا عذره

(١) انظر الفتح ج ٦ ص ٥١٤ .

الله تعالى بجهله ، وحسن قصده ، وهذا يدل على أن الجاهل قد يغفر الله له
وإن عمل ما يدل على كفره لو كان عالما .

قال شيخ الإسلام : « فهذا رجل شك في قدرة الله ، وفي إعادته إذا ذرى ،
بل اعتقد أنه لا يعاد ، وهو كفر باتفاق المسلمين »^(١) .

وقال : « وهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل بقدرة الله تعالى على
إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذرى ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل
به ذلك »^(٢) .

وقال أيضا : « فهذا شك في قدرة الله ، وفي المعاد ، بل ظن أنه لا يعود ،
وأنه لا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، وقد غفر الله له »^(٣) .

وهذا هو المتبادر من الحديث ، فلا يعدل عنه إلا بدليل يوجب ذلك ،
وليس هناك ما يوجب صرفه عن ظاهره .

وقال أيضا : « فهذا الرجل اعتقد أن الله لا يقدر على جمعه إذا فعل ذلك
أو شك أنه لا يبعثه ، وكل من هذين الاعتقادين كفر ، يكفر من قامت عليه
الحجة ، لكنه كان يجهل ذلك ، ولم يبلغه العلم بما يرد عنه من جهله .

وكان عنده إيمان بالله ، وبأمره ونبيه ووعده ووعيده ، فخاف من عقابه
فغفر الله له بخشيته »^(٤) .

قوله : « فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه » الروايات
التي اطلعت عليها كلها بلفظ الماضى الذى وقع وانتهى :

(١) مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٢٣ ص ٣٤٧ .

(٤) الاستقامة ج ١ ص ١٦٤ .

قال الحافظ : « هذا جميعه كما قال ابن عقيل : إخبار عما سيقع له يوم القيامة وليس كما قال بعضهم : إنه خاطب روحه ، فإن ذلك لا يناسب قوله : « فجمعه الله » ، لأن التحريق ، والتفريق إنما وقع على الجسد ، وهو الذى يجمع ، ويعاد عند البعث »^(١) .

وأقول : ليس هناك ما يمنع أن يكون ذلك وقع ، بل هذا هو الظاهر من الحديث برواياته المتعددة ، وهو الظاهر من صنيع البخارى رحمه الله حيث أورده فى أحاديث بنى إسرائيل التى وقعت لهم ، وأورده فى هذا الباب مستشهدا به على أن الله — تعالى — خاطب هذا الرجل ، كما فى سائر أحاديث الباب ، فيكون الله — تعالى — قد أحياه ، وخاطبه ، ثم مات أخزى كما حصل لقتيل بنى إسرائيل ، الذى أمر الله — تعالى — أن يضرب بجزء من البقرة فحىي .

أو تكون حياته بعد جمعه حياة برزخية ، يخاطب فيها ويحيب ، ويدرك ويعرف ، كما خاطب الله تعالى والد جابر بعدما قتل ، قال النبي ﷺ لجابر : « ألا أبشرك عما لقي أبوك ؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب ، فقال له : عبدى سلنى » الحديث^(٢) ، وعلى كل ففقدرة الله — تعالى — صالحة لما ذكر وغيره ، والله أعلم .

قوله : « فقال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم فغفر له » .
أى لماذا أمرت أولادك بأن يحرقوك ، ويذروك . فى يوم عاصف ، نصفك فى البر والنصف الآخر فى البحر .

وهذا يدل على أن من أمر بشيء ، ففعل حسب أمره ، أنه هو المسئول

(١) الفتح ج ٦ ص ٥٢٣ .

(٢) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

عن ذلك وعليه تبعته ، ولا يرفع ذلك المسئولية عن المباشر للفاعل ، ولا سيما إذا كان فيه معصية لله تعالى ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق تعالى .

والله تعالى يسأله ، وهو أعلم بقصده ، وما أَرادَه ، وإنما ذلك لتقريره بذنبه ، حتى يتم الجزاء ، فلما كان الدافع له على ما أقدم عليه هو خوف الله بقصد حسن ، غفر الله له ، وإن كان فعله خطأ ، وجهلاً بقدرة الله — تعالى — ومع ذلك عذره الله ، وغفر له .

والشاهد منه قوله : « ثم قال : لم فعلت ؟ » لأنه خطاب من الله — تعالى — لهذا يسأله عن فعله ، الذى خالف فيه مقتضى الإيمان بكمال قدرة الله — تعالى — وقول الله — تعالى — وخطابه غير ما يخلقه ، ويفعله مفعولاً له ، وكلام الله — تعالى — داخل فى أفعاله الاختيارية ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا نفاذ له ، ولا يجوز قصر كلام الله على كتبه .

١٣١ — قال : « حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، حدثنا إسحاق بن عبد الله ، سمعت عبد الرحمن ابن أبى عمرة ، قال : سمعت أبا هريرة ، قال : سمعت النبي ﷺ قال : « إن عبداً أصاب ذنباً — وربما قال : أذنب ذنباً — فقال : رب أذنبت ذنباً — وربما قال : أصبت ذنباً — فاغفر لى ، فقال ربه : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ .

غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً ، أو أذنب ذنباً — فقال : رب أذنبت — أو أصبت آخر ، فاغفره ، فقال : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى .

ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً — وربما قال : أصاب ذنباً — فقال : رب أصبت — أو أذنبت — آخر فاغفره لى ، فقال : أعلم

عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى ثلاثا ،
فليعمل ما شاء » .

قوله : « إن عبدا أصاب ذنبا » هذا جنس يعم كل من كان بهذه الصفة
— أى من أذنب ، ثم رجع إلى ربه هاربا من عذابه ، طالبا المغفرة تائبا .
قوله : « أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به » أى أنه حقق هذا
العلم باعترافه بالذنب ، وإنابته إلى ربه راغبا فى مغفرته ، خائفا من عقوبته ،
فلذلك غفر له ، ثم قال فى الثالثة : « فليعمل ما شاء » يعنى — ما دام يذنب
ثم يستغفر ويتوب ، فإن ربه — تعالى — يغفر ذنبه .

ولا يدل ذلك على أنه مصر على الذنب ، فإن الإصرار على الذنب أعظم
منه ، ولكنه يتوب ويستغفر ، ثم يغلبه الطبع ، وهوى النفس ، وتزيين
الشياطين فيواقع الذنب ، ثم يفر بعد ذلك إلى ربه تائبا نادما ، راجيا خائفا ،
فشروط التوبة متحققة فيه ، وهى الإقلاع عن الذنب ، والندم على الوقوع
فيه ، والعزم على أن لا يعاوده .

قال القرطبي فى المفهم : « يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار
وعلى عظيم فضل الله ، وسعة رحمته ، وحلمه ، وكرمه .

لكن هذا الاستغفار ، هو الذى ثبت معناه فى القلب مقارنا للسان لينحل
به عقد الإصرار ، ويحصل معه الندم ، فهو ترجمة للتوبة ، ويشهد له حديث :
« خياركم كل مفتن تواب » ، ومعناه : الذى يتكرر منه الذنب والتوبة ، فكلما
وقع فى الذنب ، عاد إلى التوبة .

لا من قال : أستغفر الله بلسانه ، وقلبه مصر على تلك المعصية ، فهذا الذى
استغفاره يحتاج إلى استغفار .

قلت : ويشهد^(١) له ما أخرجه ابن أبي الدنيا ، من حديث ابن عباس ، مرفوعا : « التائب من الذنب ، كم لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب ، وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » . والراجح أن قوله : « والمستغفر » إلى آخره موقوف . وأوله عند ابن ماجه ، والطبرانى ، من حديث ابن مسعود ، وسنده حسن . وحديث : « خياركم كل مفتن تواب » ذكره في مسند الفردوس ، عن علي .

قال القرطبي : « وفائدة هذا الحديث ، أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه ، لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة ، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم ، والإلحاح في سؤاله ، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه »^(٢) .

والمقصود من الحديث : وقوع كلام الله — تعالى — مخاطبا هذا العبد المذنب ، وإن كان العبد لا يسمع ذلك الخطاب ، ولم يعلم به ، فهو مما أوحاه الله — تعالى — إلى رسوله ﷺ وهو واقع من الله تعالى ، فهو دال على مراد الإمام البخارى رحمه الله من أن الله يتكلم متى شاء ، بما يشاء من أمره ، وشرعه ، وتدييره لخلقه ، وتصريفه ملكه جل وعلا — وكلامه لا حصر له ولا نفاذ ، وهو غير مخلوق ؛ لأن الكلام صفة المتكلم متعلق به وقائم به ، وأما خلقه فهو مفعول له ، ليس من صفاته ، وإنما هو من مفعولاته . والله أعلم .

١٣٢ — قال : « حدثنا عبد الله بن أبي الأسود ، حدثنا معتمر ، سمعت أبا ، حدثنا قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ : « أنه ذكر رجلا فيمن سلف — أو فيمن كان

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر رحمه الله .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

قبلكم — قال كلمة — يعنى أعطاه الله مالا وولدا ، فلما حضرت
الوفاة ، قال لبنيه : أى أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب ، قال :
فإنه لم يبتسر — أو لم يبتز — عند الله خيرا ، وإن يقدر الله عليه
يعذبه ، فانظروا إذا مت ، فأحرقونى ، حتى إذا صرت فحما
فاسحقونى — أو قال : فاسحكونى — فإذا كان يوم ريح عاصف
فأذورنى فيها .

فقال نبي الله ﷺ فأخذ موثيقهم على ذلك — وربى — ففعلوا ،
ثم ذروه فى يوم عاصف .

فقال الله — عز وجل — : كن فإذا هو رجل قائم ، قال الله :
أى عبدى ما حملك على أن فعلت ما فعلت ؟ قال : مخافتك — أو
قال : فرق منك — قال : فما تلافاه أن رحمه عندها .

وقال مرة أخرى : « فما تلافاه غيرها » ، فحدثت به عثمان ،
فقال : سمعت هذا من سفيان : غير أنه زاد فيه : « أذرونى فى البحر »
أو كما حدث .

« حدثنا موسى ، حدثنا معتمر ، وقال : لم يبتسر . »

« وقال لى خليفة : حدثنا معتمر ، وقال : لم يبتز — فسره
قتادة — لم يدخر . »

هذا هو الحديث المتقدم قريبا أعاده من طرق أخرى من حديث أبى سعيد
الخدري .

وفيه من الزيادة قوله : « فيمن سلف — أو فيمن كان قبلكم » وتقدم
أن الإمام البخارى — رحمه الله — أورده فى أحاديث بنى إسرائيل ، من كتاب
الأنبياء مما يدل على أنه منهم والله أعلم .

وفيه أن وصيته وأمره لأولاده كانت عند وفاته ، بقوله : « أى أب كنت لكم » ليكون ذلك أدمى إلى تنفيذ أمره ، فكأنه يقول : ما دمت تعرفون أنى كنت لكم خير أب ، فمن جزائى عليكم أن تفعلوا ما أمركم به .

وفيه أن سبب أمره لأبنائه بذلك أنه مسرف على نفسه ولم يقدم خيرا فقلوه : « لم يبتئز خيرا عند الله » معناه لم يقدم عملا صالحا ، وفسره قتادة بأنه لم يدخر عند الله خيرا .

والمقصود أنه لم يعمل خيرا يرجو به النجاة .

وفيه قوله : « حتى إذا صرت فحما فاسحقونى — أو قال فاسحكونى — فإذا كان يوم عاصف فأذرونى فيها » وقد فهم هذا كله من الحديث السابق ، والسحق ، والسحك ، كلاهما بمعنى واحد — وهو أن يطحن حتى يصير ذرات صغيرة جدا ، ولهذا أمرهم أن يذروه فى اليوم الذى تكون الرياح فيه عاصفا — أى شديدة إمعانا فى تفريق أجزائه ، ظنا منه أن الله لا يقدر على إعادته بعد ذلك ، وهذا هو مقصده .

وفيه قول النبى ﷺ : « فأخذ موثيقهم على ذلك — وربى — » ففيه مشروعية القسم على الأمر المؤكد تقوية وتأكيذا للسامع حتى لا يرتاب فى ذلك ، والرسول ﷺ هو الصادق المصدوق فيجب تصديق خبره بدون أى تردد ، أو شك ولو لم يقسم ، ولكنه يشرع لأمة صلوات الله وسلامه عليه .

والموئيق جمع ميثاق ، وهى العهود ، والأيمان المؤكدة على أن يفعلوا ما أمرهم به .

وفيه أن الله — تعالى — قال له : « كن فإذا هو رجل قائم » وهو ظاهر فيما قلنا أنه واقع فى الدنيا ، وسبق أن حديث جابر يدل على ذلك ، ولفظه : « قال جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — : قال النبى ﷺ : « ألا أبشرك عما لقى أبوك ؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب ، فقال له : عبدى سلتنى ،

فقال : يا رب ردنى إلى الدنيا حتى أقتل فيك ، قال : فإنى قد قضيت عليهم
ألا يرجعوا ، قال : يا رب فأبلغهم عنا ، فأنزل — عز وجل — ﴿ وَلَا
تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ ﴾ (١) .

وفيه : أن الله — تعالى — قال له : « أى عبدى ما حملك على أن فعلت
ما فعلت » وهو بمعنى ما تقدم .

وقوله : « مخافتك — أو فرق منك » الفرق : هو الخوف ، وهو بمعنى
ما تقدم من قوله « خشيتك » .

وفيه قوله : « فما تلافاه أن رحمه عندها — وقال مرة أخرى : فما تلافاه
غيرها » . يعنى أنه تعالى عندما قال هذه الكلمة ، رحمه دون إمهال ، بل أسرع
إليه برحمته ، فغفر له ، فما أعظم هذا الكرم ، وأوسع هذا الحلم والرحمة ،
هذا مع شك هذا الرجل فى قدرة الله ، وعدم إيمانه بما يجب عليه بأنه تعالى
على كل شىء قدير ، ولكن رحمة الله تغلب غضبه .

وتقدم بيان الشاهد منه ، وهو قول الله تعالى وخطابه لهذا الرجل مما يدل
على أنه تعالى يقول ويتكلم متى شاء ، ويكلم من يشاء ، وكلامه تعالى
لا حصر له ولا نفاذ ، وهو غير خلقه لأن الكفار والمنافقين يريدون أن يبدلوا
كلام الله ، وذلك قد يقع ، وأما خلق الله تعالى فلا تبديل له .

كما فى هذه النصوص إثبات الصفات الاختيارية لله — تعالى — وهى من
تمام حمده ، فمن لم يقر بها لم يمكنه الإقرار بأن الله محمود ، ولا أنه رب
العالمين .

(١) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٤٢ ، ورواه الإمام أحمد ولفظه : « أعلمت أن الله أحيا
أباك ، فقال له : تمن ، فقال له : أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى ، قال : إني قضيت أنهم إليها
لا يرجعون » انظر المسند ج ٣ ص ٣٦١ .

فإن الحمد ضد الذم ، وهو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له ، كما أن الذم هو الإخبار بمساوىء المذموم مع بغضه ، وجماع المساوىء فعل الشر ، كما أن جماع المحاسن فعل الخير .

فمن كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد ، ومن لم يكن له فعل اختياري يقوم به ويفعله بمشيئته وقدرته لا يكون خالقا ولا ربا للعالمين .

وقد علم بالاضطرار أن الله — تعالى — هو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده وهو المحيي المميت وحده ، وهذا هو الفعل الاختياري فوجب إثباته لله — تعالى — .

وكذلك اتصافه بالصفات مثل الرحمن الرحيم ، فإن الرحمن الرحيم الذى يرحم العباد بمشيئته وقدرته ، وكذلك يعذب من عصاه بمشيئته وقدرته فتصرفه فى ملكه دلت عليه أسماؤه وصفاته تعالى ، فمن أنكر صفاته لزمه تعطيله عن تصرفه فى ملكه .

قال تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ ﴾^(١) فعلق الرحمة والعذاب بمشيئته .

وهو — تعالى — لم يزل بصفاته يفعل ما يشاء له الكمال المطلق فى كل وقت فى الأزل وفى الأبد ، وهذا مما أراده البخارى — رحمه الله — بذكر هذه النصوص خلافا لما يقوله أهل البدع .

(١) الآية ٥٤ من سورة الإسراء .

قال : « باب كلام الرب — عز وجل — يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم » .

هذا هو الباب الثامن مما يستدل به الإمام البخارى — رحمه الله — على إثبات الكلام لله — تعالى — .

فذكر أولا قوله : تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ثم بوب على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ ، ثم على قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ الآيات ، ثم ذكر المشيئة والإرادة إشارة منه إلى أن كلامه — تعالى — بمشيئته وإرادته ، وأنه إذا شاء أن يتكلم تكلم ، ثم ذكر ما بين الله من حال الملائكة عند سماعهم صوت الله تعالى بالكلام ، وأنهم يصعقون ، فإذا أفاقوا قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ، وفيه إثبات الصوت لله تعالى ، وأن كلامه بصوت ، وهذا من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام لله حقيقة ، ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ يريد بذلك إبطال قول من يزعم أن كلام الله مخلوق ، لأن الخلق لا يبدل بخلاف الكلام ، فإنه يمكن تبديله ، أو يريد أن الأحاديث القدسية من كلام الله حقيقة ، وأن كلامه تعالى لا ينحصر في كتبه المنزلة ، ثم ذكر هذا الباب الذى نحن فى صدد شرحه ، وهو كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، يقصد بذلك أن كلامه تعالى لا انقطاع له ولا نهاية بل متعلق بمشيئته متى شاء تكلم ، فكما أنه تعالى تكلم فى الأزل ، وبعده كلما أراد ، فهو يتكلم فى المستقبل وفى الحال حسب إرادته . ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ليبين أن كلامه حقيقة ، وأنه يكون خاصا وعاما ، ولهذا أعقبه بقوله : باب كلام الرب مع أهل الجنة ، ثم ذكر مسألة خلق أفعال العباد ، والفرق بين فعل الله تعالى وفعل العبد ، ووجوب عدم مشابهة الرب فى ذلك وغيره ، ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ثم بين الفرق بين فعل العبد وما هو صفة لله مثل القراءة والمقروء ، وغير ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى ، وكل ما ذكره أدلة واضحة صريحة ومخالفتها ضلال بين .

١٣٣ — قال : « حدثنا يوسف بن راشد ، حدثنا أحمد بن عبد الله ، أبو بكر بن عياش ، قال : سمعت أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إذا كان يوم القيامة شفعت ، فقلت : يارب أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء ، فقال أنس : كأني أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ » .

هذا مختصر من حديث الشفاعة ، وتقدم شرحه .

قوله : « شفعت » مبنى للمجهول ، ومعلوم أنه لا يُشْفَعُ في ذلك الموقف إلا الله — جل وعلا — ولا تقع الشفاعة إلا بكلام الله وأمره ، وبهذا يُردُّ قول ابن التين ، الذى نقله الحافظ : « أنه قال : هذا فيه كلام الأنبياء مع الرب ، ليس كلام الرب مع الأنبياء »^(١) ، وكذلك قوله : « ثم أقول : أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء » يدل على أن الله يكلمه .

والمراد بالشئ : الإيمان ، ويصدق على ما يسمى شيئا ، وهو أقل جزء من الإيمان ، وهذا دليل واضح على تفاوت الإيمان بين الناس ، كما دلت عليه النصوص الكثيرة .

قوله : « كأني أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ » يعنى أنه كان يشير بأصابعه يصف قلة ما عند هذا المخرج من النار من الإيمان .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٧٥ .

١٣٤ — قال : « حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزي ، قال : اجتمعنا ناس من أهل البصرة ، فذهبنا إلى أنس ، وذهبنا معنا بثابت البناني إليه ، يسأله لنا عن حديث الشفاعة ، فإذا هو في قصره ، فوافيناه يصلي الضحى ، فاستأذنا ، فأذن لنا ، وهو قاعد على فراشه .

فقلنا لثابت : لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة ، فقال : يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة ، جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة .

فقال : حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس في بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الرحمن ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى فإنه كلم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم فيأتوني ، فأقول : أنا لها ، فاستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، ويلهمني محمد أحمده بها لا تحضرنى الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرج له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان

في قلبه مثقال ذرة ، أو خردلة من إيمان ، فأنتلق فأفعل ، ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرج له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقول : انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ، فأخرجه من النار ، من النار ، من النار ، فأنتلق فأفعل » .

فلما خرجنا من عند أنس ، قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن ، وهو متوار في منزل أبي خليفة ، فحدثنا بما حدثنا أنس بن مالك ، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة .

فقال : هيه ، فحدثناه بالحديث ، فأنتهى إلى هذا الموضوع ، فقال : هيه ، فقلنا : لم يزد لنا على هذا ، فقال : لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة ، فلا أدري أنسى ، أم كره أن تتكلموا .

فقلنا : يا أبا سعيد فحدثناه ، فضحك ، وقال : خلق الإنسان عجولا ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم .

حدثني كما حدثكم به ، قال : « ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك ، ثم أخرج له ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أئذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي ، وكبريائي ، وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله » .

تقدم شرحه ، والمقصود منه هنا إثبات كلام الله تعالى لرسولنا محمد ﷺ

في الموقف ، فإن فيه محاورة بين رب العالمين جل وعلا ، وبين عبده ورسوله محمد ﷺ .

وهو واضح الدلالة على المراد ، من أنه تعالى يتكلم ويخاطب من يشاء من عباده يوم القيامة ، وإذا ثبت ذلك دل على أن كلامه بمشيئته ، وأنه متى شاء تكلم ، يوم القيامة ، وقبلها .

وهذا أمر من ضروريات دين الإسلام ، لا ينكره إلا من هو دخيل فيه ، أو زنديق قد تلبس بثوب الإسلام لأجل النيل منه ، والإجهاز عليه إذا واته الفرصة ، أو ضال لعبت به الأهواء ، واجتالته شياطين الإنس والجن ، بعيداً عن الحق والهدى .

ولا يضر ما في هذه الخطابات الكريمة من الأفعال المبنية للمجهول كقوله : « فاستأذن فيؤذن لي » ، وقوله : « فأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك » لأنه قد علم أنه لا يقول ذلك إلا رب العالمين ، وليس مخلوق في ذلك الموقف العظيم أن يأمر ، وينهى ، ويتصرف في الخلق ، بإدخال بعض العباد النار ، وإخراج البعض منها ، وإنما الفاعل لذلك كله ، والآمر به هو رب العباد — عز وجل — .

وهو الذى يقول لرسوله : « يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع » ، وهو — تعالى — القائل له : « انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان » .

ودل صراحة على تفاوت هؤلاء المخرجين من النار في الإيمان ، وقد تكاثرت النصوص على ذلك .

كما دل على أن من معه أصل الإيمان ، ولم يخرج منه بمكفر أنه لا يخلد في النار ، وإن عظمت ذنوبه ، وإن ضعف إيمانه .

قال القرطبي : « المراد بالإيمان هنا أعمال الإيمان التي هي أعمال الجوارح

فيكون دليلا على أن الأعمال الصالحة من الإيمان .

وقد قيل : إن المراد أعمال القلوب ، ويجوز أن يراد به رحمة لمسلم ، رقة على يتيم ، خوفا من الله ، رجاء له ، توكلأ عليه ، ثقة به مما هو أفعال القلوب دون الجوارح ، وسماها إيمانا لكونها في محل الإيمان»^(١) .

والظاهر أن المراد أصل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، إذ هو الباعث على عمل ما ذكر ، ولكن قد يكون الإيمان ضعيفا فلا يقوى على دفع صاحبه إلى العمل .

ودل على تكرار الشفاعة مرات متعددة ، وذلك من رحمة الله بعباده ولهذا يفتح الله — تعالى — على نبيه من المحامد والثناء ما يرضى به عنه ويأذن له بالشفاعة ، وما لم يكن ﷺ يعرفه من قبل .

واستدل بهذا على أن أسماء الله — تعالى — لا حصر لها ، لأن الثناء على الله — عز وجل — يكون بأسمائه الحسنی وصفاته .

وفي الحقيقة الشفاعة لله — تعالى — فهو الذي يأمر بها فيقول لنبيه « اشفع » ويشفعه ، وتقدم أن حقيقة الشفاعة : رحمة الله تعالى للمشفوع فيه ، وإظهار كرامة الشافع .

ودل الحديث على شفقة النبي ﷺ على أمته .

وقد جاء أن الأنبياء والملائكة والمؤمنين يشفعون ، وتقدم بيان ذلك في باب قول الله — تعالى — ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

ودل الحديث على عظم ذلك اليوم ، إذ إن أفضل الرسل تحجم عن الشفاعة ، ويعتذرون بأنهم قد أصابوا ذنوبا ، تابوا منها وقبلت توبتهم ،

(١) التذكرة ج ٢ ص ٤١٨ .

ولكنهم يستحيون من الله .

وفيه دليل على جواز وقوع الذنوب في الجملة من الرسل ، ولكنهم يوفقون إلى التوبة ، والرجوع إلى الله — تعالى — وسبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « من كان في قلبه أدنى ، أدنى مثقال حبة خردل من إيمان » التكرار للتأكيد ، أو التوزيع على الحبة والخردلة ، أى أقل حبة من أقل خردلة من الإيمان » قاله الحافظ^(١) .

وقوله : « من النار ، من النار ، من النار » هو للتأكيد والمبالغة .
وتقدم ما في هذا الحديث من الإشكال ، لأن أوله غير متصل بآخره ،
والجواب عنه .

ويستفاد منه أن الشفاعة لا تطلب إلا ممن يملكها .

كما يستفاد أنه لا يطلب من الشافع أن يشفع إلا إذا كان يقدر على الشفاعة بأن يكون حيا حاضرًا ، قادرا على ذلك ، ففيه بيان ضلال الذين يتعلقون بالموتى ، ويطلبون منهم التوسط لهم عند الله ، وهذا عين شرك المشركين الذين أرسلت إليهم الرسل ، ينهونهم عن ذلك ، وينذرونهم عذاب الله إن لم يتوبوا منه .

ودل صراحة على أن الشفاعة لا تنال إلا من أمر الله الشافع أن يشفع فيه ، ولهذا ذكر أنه في كل مرة يحد الله له حدا فيقول له : اشفع فيهم ، فهو — تعالى — يعين له نوعًا متميزًا فيأمره أن يشفع فيهم بحيث لا يمكن دخول من ليس منهم معهم ، ولذلك قال في الأولى : « من في قلبه مثقال شعيرة من إيمان » ، وفي الثانية : « من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل » ، وفي الرابعة :

(١) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٧٥ .

« من قال لا إله إلا الله » ، وهذا يعطى بظاهره أنه ولو لم يكن في قلبه شيء من الإيمان ، وقد تؤول بأن المقصود الإيمان الزائد على أصل الإيمان الذي يحصل به الخروج من الكفر ، وادعى بعض العلماء الإجماع على ذلك .
والذي يظهر من هذا الحديث ، وغيره مما جاء في معناه أنه لا يشترط ذلك فالله أعلم .

١٣٥ — قال : « حدثنا محمد بن خالد ، حدثنا عبید الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا من النار ، رجل يخرج حبوا ، فيقول له ربه : ادخل الجنة ، فيقول : رب الجنة ملأى ، فيقول له ذلك ثلاث مرات ، فكل ذلك يعيد عليه الجنة ملأى ، فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرار » .

قوله : « إن آخر أهل الجنة دخولا » هذا على إطلاقه ، يعنى أنه لا يدخلها بعده أحد ، حيث لم يبق في النار من يخرج منها ، وهذا أقل المؤمنين إيمانا وأكثرهم معاصى ، ويجوز أن يكون واحدا بعينه وهو الظاهر ، ويجوز أن يكون نوعا ، أو جنسا من هذا النوع ، وقد تقدم في باب قوله — تعالى — ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أنه بعد إخراج من يخرج من النار يبقى رجل مقبل بوجهه إلى النار فيدعو ربه رب اصرف وجهي عن النار ويقسم لله أنه لا يسأله غير ذلك ثم إذا صرف وجهه عن النار يسأل ربه يارب قربني إلى الجنة ويقسم لربه ألا يسأله غير ذلك فإذا رأى ما في الجنة سأل ربه أن يدخله الجنة ، فإذا أدخله الجنة قال له : تمنّ ، فإذا انقطعت أمنيته قال الله له : لك ذلك وعشرة أمثاله معه .

فقد يقال إن ذاك هو المراد هنا ، وقد يكونان اثنين أو نوعين فالله أعلم .

قال عياض : « جاء نحو هذا في آخر من يجوز على الصراط ، فيحتمل أنهما اثنان إما شخصان وإما جنسان ، وعبر فيه بالواحد عن الجماعة لاشتراكهم في الحكم الذى كان سبب ذلك ، ويحتمل أن يكون الخروج هنا بمعنى الورد وهو الجواز على الصراط ، فيتحد المعنى إما في شخص واحد أو أكثر .

قال الحافظ : « قلت وقع عند مسلم ما يقوى الاحتمال الثانى ، وهو أن المراد بالخروج معنى الورد ، ولفظه : « وآخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ، ويكبو مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى نجاني منك » . «^(١) .

قلت : الظاهر أنه رجل واحد ، لا جنس ولا نوع ، فالأحاديث تدل على ذلك ، مثل الخطاب الذى يجرى بينه وبين رب العالمين ، وكل سياق الحديث بألفاظه تدل على ذلك .

وقد ذكر القرطبى فى التذكرة ما يؤيد هذا حيث قال : « قال ابن عمر ، عن النبى ﷺ آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة ، يقال له جهينة ، تقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين » ، ذكره المياوشى أبو حفص عمر بن عبد المجيد ، فى كتاب « الاختيار فى المملح من الأخبار والآثار » .

ورواه الخطيب ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة ، فيقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين ، سلوه هلى بقى من الخلائق أحد » ورواه الدارقطنى انتهى^(٢) .

وعند تأمل النصوص يتبين عدم الاتحاد ، فيجوز أن يكون هذا المذكور فى رواية مسلم آخر من يدخل الجنة ممن لا يلقى فى النار ، وإنما ييطىء به

(١) الفتح ج ١١ ص ٤٤٣ .

(٢) التذكرة ج ٢ ص ٥١٥ .

عمله على الصراط فيجبو مرة ، ويزحف أخرى حتى يجاوز النار .

والمذكور في هذا الحديث المشروح هنا آخر من يدخل الجنة ممن يلقي في النار من أهل الإيمان ، وبذلك تتفق النصوص ، والله أعلم .

قوله : « آخر أهل النار خروجاً من النار » يعنى بأهل النار من الموحدین الذين يدخلون النار بذنوبهم ، أما أهل النار الذين ماتوا على الكفر فهم لا يخرجون منها أبد الآباد ، كما قال تعالى : ﴿ تَحْلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ تَحْلِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾^(٢) والآيات في ذلك كثيرة .

قوله : « يخرج حبوا » يعنى يمشى على ركبتيه ويديه ، لا يستطيع الاعتماد على رجليه والمشى عليهما يسمى حبواً ، قال في اللسان : « حبا حبواً : مشى على يديه وبطنه ، وحبا الصبي حبواً مشى على استه ، وأشرف بصدره »^(٣) .

وقال النووى : « قال أهل اللغة : الحبو : المشى على اليدين والرجلين ، وربما قالوا على اليدين والركبتين ، وربما قالوا : على يديه ومقعدته .

وأما الزحف ، فقال ابن دريد ، وغيره : هو المشى على الاست مع إفراشه بصدره ، فحصل من هذا ، أن الحبو ، والزحف متماثلان ، أو متقاربان ، ولو ثبت اختلافهما حمل أنه في حال يزحف ، وفي حال يجبو والله أعلم »^(٤) .

(١) الآية ١٠٧ من سورة هود .

(٢) الآية ٦ من سورة البينة .

(٣) انظر اللسان ج ١ ص ٥٦٠ المرتب .

(٤) شرح مسلم ج ٣ ص ٣٩ .

قوله : « فيقول له ربه : ادخل الجنة ، فيقول : رب الجنة ملائى ، فيقول له ذلك ثلاث مرات ، وفي كل ذلك يعيد عليه الجنة ملائى ، فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرار » هذا هو محل الشاهد من الحديث ، لما فيه من كلام الله تعالى ومخاطبته لهذا الرجل ، الذى هو آخر من يدخل الجنة ، وهو دليل أيضا على جواز تكليم الله تعالى لمن هو أعلى منزلة منه ، كما جاءت النصوص فى ذلك ، وتقدم بعضها .

وهذا الحديث اختصره هنا ولفظه كما فى كتاب الرقاق ، قال : قال النبى ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا ، رجل يخرج من النار حبوا ، فيقول الله : اذهب فادخل الجنة ، فيأتها ، فيخيل إليه أنها ملائى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملائى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فيأتها ، فيخيل إليه أنها ملائى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملائى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها — أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا ، فيقول : تسخر منى أو تضحك منى وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة » (١) .

وواضح من هذا أن الله يكلمه بدون واسطة ، وأن ذلك يتكرر ، ثم يقول له فى النهاية : إن لك مثل الدنيا عشر مرات ، ولهذا بهت الرجل من ذلك ورأى أنه لا يستحق ولا قريبا من ذلك ، فقال : أتسخر منى — أو قال : أتضحك منى وأنت الملك ؟ .

ففيه إثبات الضحك لله تعالى ، وأنه يسخر من بعض خلقه ، ومثل هذه الأفعال الصادرة من الله تعالى يجب أن تثبت له — تعالى — على ما يليق بعظمته

(١) انظر البخارى ج ٨ ص ٩٩ .

وفق ما جاء النص بها ، فلا يجوز تأويلها بما يغير معناها ، ولا تعطيلها ، بل يؤمن بها على ما جاءت ، وكما أخبر بها رسول الله ﷺ فهو أعلم بالله من غيره ، وأحرص على هداية الأمة ، وإبعادها عن الضلال ، وهو أقدر الخلق على البيان ، وإيضاح الحق .

١٣٦ — قال : « حدثنا على بن حجر ، أخبرنا عيسى بن يونس ، عن الأعمش ، عن خيثمة عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

تقدم هذا الحديث في باب قول الله — تعالى — ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿ وفيه : « ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا حاجب يحجبه » وهو واضح الدلالة على عموم كلام الله — تعالى — للمؤمنين ، لأن قوله : « ما منكم من أحد » نكرة سبقت بالنفي فهي من صيغ العموم ، غير أن قوله : « منكم » يجوز أن يكون قيذا في المؤمنين ، ويخرج من ذلك العموم الكفار لأنهم ليسوا منا .

وقوله : « سيكلمه ربه » السين للاستقبال من الزمان ، لأن هذا التكليم لا يكون إلا يوم القيامة ، والترجمان : هو الوساطة التي تنقل الكلام من المتكلم إلى المكلم ، سواء اختلفت اللغة ، أو لم تختلف .

قال في اللسان : « التَّرْجُمَانُ ، والتَّرْجَمَانُ : المفسر للسان ، وهو الذي يترجم الكلام أى ينقله من لغة إلى لغة »^(١) وليس هذا من تمام التعريف ، بل

(١) اللسان ج ١ ص ٣١٦ .

لا يلزم أن يكون نقله من لغة إلى أخرى .

ومعنى ذلك أن العبد سيقف بين يدي الله — تعالى — يوم القيامة ، فيحاسبه على ما كلفه به من دينه هل قام به ، أو أهمله ، ويحاسبه على أعماله . وكل تصرفاته ، وذلك بدون واسطة من خلقه ، بل هو جل جلاله يتولى ذلك بنفسه ، فيكلم عبده ويسأله .

وقوله : « فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم » أى أن أعماله تكون حاضرة عن يمينه ، وعن شماله ، فالحسنات عن يمينه ، والسيئات عن شماله ، لا يغادره في ذلك الموقف شيء منها ، ولهذا قال : « فلا يرى إلا ما قدم » ، وقد يكون كما قال ابن هبيرة : إنه ينظر عن يمينه وعن شماله كحالة الذى دهمه أمر عظيم ، فهو يتلفت يطلب النجاة ، أو الغوث .

قوله : « وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه » وذلك أن النار في ذلك الموقف حائلة بين الناس وبين الجنة ، فلا بد من ورودها لكل أحد ثم ينجي الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا .

ولهذا قال : « فاتقوا النار ولو بشق تمرة » يعنى نصفها ، والمقصود تقديم العمل الصالح الذى يكون واقيا لصاحبه من النار ، وساترا له منها ، وهذا يدل على وجوب تقديم العمل الصالح ، المنبعث عن تقوى الله — تعالى — والإيمان به ، وبملاقاته ومحاسبته ، ويدل على نفع العمل الصالح ولو قل .

قوله : « قال الأعمش » إلى آخره يقصد بذلك بيان صحة السند لأن الأعمش قد صرح بالتحديث ، فأمن التدليس بذلك .

١٣٧ — قال : « حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله — رضى الله عنه — قال : جاء حبر من اليهود ، فقال : إنه إذا كان يوم القيامة ، جعل

الله السماوات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، والخلائق على أصبع ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، فلقد رأيت النبي ﷺ يضحك ، حتى بدت نواجذه ، تعجبا ، وتصديقا لقوله ، ثم قال النبي ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ .

تقدم هذا الحديث في باب قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وتقدم الكلام عليه هناك .

والمقصود منه هنا قوله : « ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك » فإنه خطاب لخلقه ولا سيما الذين كانوا ينازعونه في ملكه في الدنيا من الجبارين ، والمتكبرين ، ولهذا جاء فيه بعد قوله : « أنا الملك » قوله : « أين ملوك الدنيا » كما تقدمت الإشارة إليه .

١٣٨ — قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة ، عن قتادة عن صفوان بن محرز ، أن رجلا سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : يدنو أحدكم من ربه ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرره ، ثم يقول : إني سترت عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

النجوى هي المحادثة بين اثنين أو أكثر سرا ، بحيث لا يسمع حديثهم من قرب منهم والمقصود هنا : كلام الرب — تعالى — مع عبده سرا .

قال في اللسان : « نجاه نجوًا ، ونجوى : ساره ، النجوى ، والتنجي : السر ، والنجوى ، السر بين اثنين ، يقال : نجوته نجوًا ، أى ساررته ، وكذلك

ناجيته ، والاسم النجوى»^(١) .

قال الحافظ : « المراد من النجوى في الحديث : المناجاة التي تقع من الرب — سبحانه وتعالى — يوم القيامة مع المؤمنين »^(٢) .

قوله : « يدنو أحدكم من ربه » في الرواية الأخرى . « يدنو المؤمن من ربه » .

والله — تعالى — وصف نفسه بأنه يدنو ، ويقرب من بعض عباده ، دون بعض ، وقد تكاثرت النصوص في ذلك ، حتى بلغت ما يقرب من خمسمائة آية في كتاب الله — تعالى — كلها تدل على أنه — تعالى — يقرب من بعض خلقه ، ويدنو إليهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٣) .

وقوله — تعالى — ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ ﴾^(٤) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾^(٥) ، وقوله — تعالى — ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾^(٦) ، وقوله : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ﴾^(٧) والآيات في هذا كثير جدا .

وكذلك ما تقدم من الأدلة على علو الله — تعالى — واستوائه على العرش ، تدل على ذلك ، فإنه إذا كان الله — تعالى — على العرش أمكن القرب منه

(١) اللسان ج ٣ ص ٥٩٢ المرتب .

(٢) الفتوح ج ١٠ ص ٤٨٨ .

(٣) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٧ من سورة الزمر .

(٦) الآية ١٥٦ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٣٩ من سورة النور .

بالصعود إليه والعروج ، كما عرج بالنبي ﷺ إليه ، وكذا الملائكة وبعض الأرواح وغير ذلك ، وبعض هذه النصوص الكثيرة يحصل العلم الضرورى ، لمن آمن بها ، وبما دلت عليه ، من أن الله — تعالى — يقرب إلى عباده ، ويقربون إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١) .

ودلالة النصوص الشرعية على هذا من أعظم المتواترات ، والعلم بها مستقر فى فطر المسلمين ، عامتهم ، وخاصتهم ، كما أنه مستقر فى فطرهم أن الله فوقهم . وليس من الخلق أحد إلا ويعلم أن عباد الله منهم المقرب إلى الله — تعالى — ومنهم المبعد الملعون المطرود ، وكلهم يسمون الطاعات قربات ، يتقرب بها العبد إلى الله — تعالى — ، وكلهم يرفعون أيديهم إلى الله ، وكونه تعالى فوقهم يستلزم أنه يقرب إليه بالعلو والصعود ، كما رفع عيسى بن مريم إليه ، والملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم إذا صعدوا إليه سألهم ، كيف تركتم عبادى . والأدلة على هذا الأصل العظيم لا حصر لها ، واتفق السلف الصالح ، ومن تبع كتاب الله ، وسنة نبيه وآمن بهما على القول بذلك ، والإيمان به .

« قال الخلال فى السنة : أخبرنا جعفر بن محمد الفريانى ، حدثنا أحمد بن محمد المصرمى ، حدثنا سليمان بن حرب ، قال : سأل بشر بن السرى حماد ابن زيد ، فقال : يا أبا إسماعيل الحديث الذى جاء . « ينزل الله إلى السماء الدنيا » ، يتحول من مكان إلى مكان ؟

فسكت حماد . ثم قال : « هو فى مكانه ، يقرب من خلقه كيف شاء » (٢) .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) بيان تلبس الجهمية جـ ٣ ص ١٨٤ المخطوط .

وقال شيخ الإسلام : « أهل السنة يثبتون أن الله على عرشه ، وأن حملة العرش أقرب إليه ممن دونهم ، وأن ملائكة السماء العليا أقرب إلى الله من ملائكة السماء الثانية ، وأن النبي ﷺ لما عرج به إلى السماء صار يزداد قربا إلى ربه بعروجه ، وصعوده . وعروجه إلى الله — تعالى — لا إلى مجرد خلق من خلقه ، وأن روح المصلى تقرب إلى الله في السجود ، وإن كان بدنه متواضعا ، وهذا هو الذى دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة »^(١) .

فالله — تعالى — يقرب بنفسه إلى من يشاء من خلقه ، وهو فوق عرشه ، عال على خلقه ، ولا يجوز تأويل النصوص في ذلك مثل قوله ﷺ : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه » .

ولا يلزم أن يكون كل نص في القرب يراد به قرب الله تعالى بنفسه ، بل ينظر في النص الوارد في ذلك ، فإن دل على قربيه بنفسه حمل عليه كما في هذا الحديث ، وإن دل على قرب ملائكته ورسله حمل عليه ، كقوله — تعالى — ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٣) .

وهذا الحديث ظاهر في أن العبد يدنو من ربه ، بل هو نص صريح في ذلك ، فصرفه عن ظاهره تحريف لكلام رسول الله ﷺ وتلاعب به ، يعد من عظام الذنوب ، يجب على المؤمن التحرز منه .

وما نقله الحافظ عن ابن التين أنه قال : « يعنى يقرب من رحمته ، وهو

(١) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٧ .

(٢) الآية ١٦ من سورة ق .

(٣) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

سائغ في اللغة ، يقال : فلان قريب من فلان ، ويراد الرتبة «^(١)» . فهو تأويل الجهمية المعروف الذى ذكره السلف عنهم ، وردوه ، وبينوا أنه مخالف لقول الله — تعالى — ولقول رسوله ﷺ ولعقيدة أهل العلم والإيمان ، وهو سلوك غير سبيل المؤمنين .

قال شيخ الإسلام : « بيان بطلان هذا التأويل من وجوه :

أحدها أن ما يدنو إليه العبد من الرحمة ، والإيمان ، وغير ذلك ، إما أن تكون أعيانا قائمة بأنفسها ، أو صفات قائمة بغيرها ، فإن كانت صفات ، فمعلوم أن القرب إلى الصفة لا يكون إلا بالقرب إلى الموصوف نفسه .

فأما قربه من صفته القائمة به دون قربه من نفسه ، فظاهر البطلان والفساد ، ولهذا لم يقله أحد من العباد ، بل الذى يحيل القرب إلى نفسه هو للقرب إلى صفاته أشد إحالة ، إن كان يثبت له صفة .

ومن المعلوم أن قوله : « يدنو العبد من ربه ، حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه — أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : أعرف رب » وقوله : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه » ، وقوله : « فيدنيه الله منه فيضع عليه كنفه » ، [وقوله : « يدنو أحدكم من ربه فيضع عليه كنفه »^(٢)] ، كل هذه الألفاظ صريحة واضحة ، كل من سمعها علم بالاضطرار أن الذى يدنى العبد ، ويضع عليه كنفه ، ويقرره بذنوبه ، ويغفرها له هو الله ، لا أحد من خلقه ، فكيف يجوز أن يقال : لا يدنو العبد من ربه ، وإنما يدنو من بعض مخلوقاته^(٣) . وهل ذلك إلا بمثابة من يقول إن من يقرره بذنوبه هو بعض مخلوقاته . كما يقوله الجهمية ، القائلون بأن الله — تعالى — لا يقوم به كلام ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٧٧ .

(٢) هذا لفظ الحديث المشروح هنا ولم يذكره الشيخ .

(٣) لأن الرحمة التى فسروا بها دنو العبد هو الثواب والالطف والإحسان ، فهى إذا مخلوقة .

وإنما الكلام يقوم ببعض مخلوقاته ، وهو أيضا بمنزلة أن يقال : إن الله لا يغفر له ، وإنما يغفر له بعض مخلوقاته .

وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خلاف ما أخبرت به الرسل ، وأنه شرك صريح في إلهية الله وربوبيته ، ولهذا قال بعض السلف : إن من زعم أن قوله لموسى ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ مخلوق ، فهو كافر ، لأنه جعل هذا الكلام قائما بمخلوق يلزم أن يكون هو الرب ، وسائر تأويلات الجهمية وأهل الباطل من هذا الجنس .

الثاني : أن هذا الدنو ، ووضع الكنف ، والمخاطبة تكون وقت السؤال ، والعبد خائف غير آمن ، ولا ظهر له أنه يغفر له ، ويرحم ، كما هو صريح الحديث الصحيح بقوله : « يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى رب ، حتى إذا قرره ، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

فإذا كان العبد حين هذا الدنو من الله ، والمخاطبة ، والتقرير بذنوبه يرى أنه قد هلك قبل أن يذكر له الرب — تعالى — أنه غفر له ، امتنع أن يكون ما ذكره من دنوه من الله ، هو دنوه من رحمته ، وأمانه وتعطفه .

الثالث : أن الرحمة والعطف ، والأمان ، إن كانت صفات لله تعالى كان القرب إليها قربا إلى الموصوف ، كما تقدم ، وإن كانت أعيانا قائمة بنفسها مخلوقة لله — تعالى — فمن المعلوم أن حين الحساب في عرصات القيامة لا يكون هناك أجسام مخلوقة من الرحمة التي أعدها الله — تعالى — لعباده .

ولكن هو يحكم بالعمو والمغفرة ، ثم ينقلون إلى دار الرحمة . فامتنع أن يكون أحد حال المحاسبة مقربا إلى أجسام هي رحمة قبل أن يؤذن لهم في دخول الجنة .

الرابع : أن يقال : من المعلوم أن الله تعالى أخبر في كتابه بأصناف ما ينعم

به على عباده من المآكل والمشرب ، والملابس ، والمناكح والمساكن ، وقد أجمل ما لم يفصله في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وهذه الأمور يباشرها المؤمن مباشرة ، لا يكون جزاؤه مجرد قربه منها دون مباشرتها ، بل ذلك يكون حسرة وعذابا ، فدعوى الإكرام بمجرد التقريب من هذه الأمور ، دون مباشرتها كلام باطل ، لا حقيقة له .

الخامس : أن المؤمن لم يزل في رحمة الله في الدنيا ، والآخرة ، فلا يجوز تخصيص حال السؤال بقربه من رحمته ، دون ما قبل ذلك وما بعده ، بل هو ما زال مباشرا لما يرحمه الله به قبل وبعد ، فأى فائدة في أن يوصف بالقرب من شيء ما زال مباشرا له ، لا ينفصل عنه .

السادس : أنه في العرض على الله يظهر له من الأهوال والشدة ما يكون أعظم عليه وأشد لرهبه وألمه من كل ما كان قبل ذلك وبعده ، فكيف يجوز تخصيص أشد الأحوال عليه بأنه يقرب فيه مما يرحم به ، مع أن ما قبلها وما بعدها كان ما يرحمه به إليه أقرب ، وهو له أعظم مباشرة ونيلا .

السابع : أن قولهم : « يقرب من رحمة الله ، وأمانه ولطفه ، ونحو ذلك » من تأويلهم ، لا ريب أنه من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . ومن المعلوم في اللغة العربية أن هذا لا يجوز إلا إذا اقترن بالكلام ما يبين المحذوف ، فلا يقال : جاء زيد والمقصود غلامه ، أو رسوله^(١) .

والحديث نص في أن الله — تعالى — هو الذى يدنى عبده من نفسه ، ولهذا لا يسمع أحد هذا الكلام ، فيفهم أن الله يدنيه من شيء آخر ولا يحظر هذا ببال المستمع ، فكيف يجوز أن يكون الرسول ﷺ أراد الباطل الذى قالوه .

(١) وهذا يرد ما نقله الحافظ عن ابن التين أن ذلك سائغ في اللغة كما تقدم ذكره .

الثامن : أن قوله : « فيدينه منه ، فيضع عليه كنفه ، ثم يقرره بذنوبه »
الجمع بين الإدناء ووضع الكنف ، وتقريره بذنوبه قرينة تعين أن الله تعالى
هو الذى يدنى إليه عبده ، ويضع عليه كنفه ، فيستره من الناس ، كما صرح
به فى الحديث .

التاسع : أن هذا الحديث دل على ما دل عليه القرآن من وقوف العباد
على الله ، وخطابه لهم ، ومن المعلوم بالاضطرار من رسالات الرسل ، ومن
دين الإسلام أن هذا إنما هو يوم القيامة ، وأن أحوال العباد مع الله يوم القيامة
غير أحوالهم فى الدنيا ، وعلى قول هؤلاء المؤولة لا فرق بين الدنيا والآخرة ،
فإن الله لا يقرب إليه شىء لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يقفون على ربهم ،
لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، ولا يصيرون إليه ، وإنما ذلك كله إلى بعض
مخلوقاته ، ومقدوراته ، كما أن خطابه لهم عند الجهمية وأتباعهم «^(١) معناه أنه
يخلق كلاما فى بعض مخلوقاته يكلمهم منها ، وعند الأشاعرة الذين هم فرع
عن الجهمية يخلق إدراكا فى العباد يفهمون به المعنى الواحد القائم بذاته
— تعالى — وهذا تكذيب لكتاب الله ولرسوله ، ومناقضة لدين الإسلام الذى
فطر على قبوله العباد .

قوله : « حتى يضع كنفه عليه » جاء الكنف مفسرا فى الحديث بأنه
« الستر » ، والمعنى : أنه — تعالى — يستر عبده عن رؤية الخلق له لئلا
يفتضح أمامهم ، فيخزى ، لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله ،
ويظهر على وجهه الخوف الشديد ويتبين فيه الكرب والشدة .

قال الأزهرى : « قال الليث : الكنفان : الجناحان ، وأنشد :

سِقْطَانِ مِنْ كَنْفَى نَعَامِ جَافِلِ .

(١) انتهى من بيان تلبس الجهمية جـ ٢ ص ١٧٧ المخطوطة .

وكنفا الإنسان : جانباه ، وناحيتا كل شيء كنفاه .

وقولهم : في حفظ الله وكنفه أى في حرزه وظله ، يكنفه بالكلاءة وحسن الولاية وقال ابن المبارك « يضع عليه كنفه » يعنى ستره^(١) .

« قال الخلال في كتاب السنة باب يضع كنفه على عبده ، تبارك وتعالى . أخبرني محمد بن أبي هارون ، ومحمد بن جعفر ، أن أبا الحارث حدثهم قال : قلت لأبي عبد الله : ما معنى قوله : إن الله يدنى العبد يوم القيامة ، فيضع عليه كنفه ؟ قال هكذا نقول : يدنيه ويضع كنفه عليه ، كما قال ، يقول له : أتعرف ذنب كذا .

قال الخلال : أنبأنا إبراهيم الحرني قال : قوله : فيضع عليه كنفه ، يقول : ناحيته .

قال إبراهيم : أخبرني أبو نصر ، عن الأصمعي ، يقال نزل في كنف بنى فلان ، أى في ناحيتهم^(٢) .

قوله : « فيقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ، ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرره » هذا هو المقصود من إيراد الحديث هنا لأن فيه مخاطبة الله لعبده وتقريره بذنوبه ، ثم يقول له : « أنا سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » وهو واضح جدا في أن الله يكلم عباده يوم القيامة ، ويخاطبهم مخاطبة فيها محاسبتهم وتقريرهم بنعم الله عليهم ، وبذنوبهم ، ويخاطبهم في غير ذلك كما تقدم .

فمنكر هذا ضال وسالك غير سبيل المؤمنين ، وسوف يوليه الله تعالى ما تولى ويسلك به غير سبيل المؤمنين في الآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

(١) تهذيب اللغة ج ١٠ ص ٢٧٤ وقول ابن المبارك رواه البخارى في خلق أفعال العباد .

(٢) نقض التأسيس ج ٢ ص ١٨٥ .

قوله : « ثم يقول : إني سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم »
هذا أيضا صريح في أنه تعالى يكلم عباده بذلك ممثنا عليهم بأنه قد ستر عليهم
في الدنيا حيث كانوا يبارزون الله بالذنوب ، فيستر عليهم مع عصياتهم له ،
ثم غفرها لهم في الآخرة .

فهذا الكرم العظيم ، والحلم الواسع ، والفضل الجزيل .

والمغفرة : هي محو الذنب ووقاية تبعته .

وعلى كل فالدلالة من هذا الحديث ظاهرة جدا وصریحة فيما ذكره من
أجله ، وهو كونه تعالى يتكلم إذا شاء بما شاء ، ويكلم من يشاء من عباده ،
إما إكراما له ، أو امتنانا عليه ، أو تهديداً له وتوبيخاً ، أو غير ذلك .

فمن نفى ذلك عن الله — تعالى — فقد قال خلاف قول الله ورسله
وأتباعهم ممن فهم مراد الله ورسوله ، وسوف يجزيه الله تعالى بما يستحق .

وقد جاء ما يدل على أن الله تعالى يكلم بعض أهل النار ، كما في
الصحيحين ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى لأهون أهل
النار عذابا : لو كانت لك الدنيا ، وما فيها ، ومثلها معها أكنت مفتديا بها ؟
فيقول : نعم .

فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك
بني ، فأبيت إلا الشرك»^(١) .

(١) البخارى انظر الفتح ج ٦ ص ٣٦٣ وج ١١ ص ٤١٦ ومسلم ج ٤ ص ٢١٦٠ .

قال : « باب ما جاء في قوله عز وجل : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ .

« قال الأئمة هذه الآية أقوى ما ورد في الرد على المعتزلة .

قال النحاس : أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازا ، فإذا قال : « تكليما » وجب أن يكون كلاما على الحقيقة التي تعقل ^(١) .

« وقد استقر مذهب أهل السنة والجماعة وأعلام الملة ، وجماهير الأمة في شرق الأرض وغربها ، على أن الله يتكلم حقيقة ، متى شاء ، وأن القرآن ، والتوراة والإنجيل كلام الله — تعالى — وأن كلامه صفة له ، لا يكون منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه قائما بغيره ، ومعلوم بالحس أن الكلام لا يقوم بنفسه ، ومن قال إن كلام الله منفصل عنه ، أو أنه يقوم بغيره فإنه بذلك ينكر كلامه الذي هو رسالته ، ويدفع حقيقة ما أنبأت به الرسل ، وأعلمته أممهم ، ويلحد في أسماء الله وآياته ، ويجعله مثلا للميت ، والمعدوم . وهذا كله كفر وضلال ، ومن أجل ذلك كفر أئمة الإسلام من يقول : إن كلام الله مخلوق .

والكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام الله ليس بائنا منه بل أسمعهم لجبريل ونزل به على محمد ﷺ كما قال — تعالى — ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(٢) .

ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره ، بل يقال

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٧٩ .

(٢) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فقولهم منه بدأ رد على من قال : إنه مخلوق في بعض الأجسام ، ومن ذلك المخلوق بدأ .
 فبينوا أن الله هو المتكلم به ، فمنه بدأ ، لا من غيره ، وإليه يعود — أى لا يبقى في الصدور منه شيء ، ولا في المصاحف حرف في آخر الزمان ، إذا ترك العمل به وعطل ، رفع إلى قائله رب العالمين ، أو أنه إليه يعود صفة له «^(١) .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : « سمعت أبا يقول : من قال : القرآن مخلوق فهو عندنا كافر ، لأن القرآن من علم الله — عز وجل — .
 قال الله — عز وجل — : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَادِي وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٤) ، وقال عز وجل : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾^(٥) والخلق غير الأمر «^(٦) .

« والوصف بالتكلم كمال ، وضده نقص ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٥٦١ .

(٢) الآية ٦١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٤٥ من سورة البقرة .

(٥) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

(٦) كتاب السنة ج ١ ص ١٠٣ .

وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴿١﴾ فكان عباد العجل مع كفرهم أعرف بالله من المعتزلة ، فإنهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (٢) .

فعلم أن عدم رجوع القول ، ونفى التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهة النفاة أنهم يقولون : يلزم من إثبات الكلام ، التشبيه والتجسيم ، لأنهم توهموا أن كلام الله يلزم له من اللوازم ما لكلام المخلوق .

ونحن نقول : إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله ، وبذلك تنتفى شبهتهم .

وقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) فهذا كما هو ظاهر ، كلام حقيقي ، يسمع من هذه الأعضاء ، فالمؤمنون يؤمنون بذلك مع عدم علمهم بكيفيته .

فإذا كان هذا في مخلوق ، فكيف الخالق جل وعلا ؟ ومثل ذلك تسبيح الأشياء التي تسبح بحمد الله تعالى ، ومنه تسبيح الطعام بين يدي رسول الله ﷺ والصحابة ، وتسبيح الحصا ، وسلام الحجر عليه ، كل ذلك حق على ظاهره ، قد سمعه المؤمنون ، وآمنوا بما لم يسمعه ، ولم يعلموا كيفيته ، وهو كلام بصوت يسمع ، وهذه ليس لها أفواه يخرج منها الكلام والصوت الصاعد المعتمد على مقاطع الحروف (٤) .

وقد سمع موسى عليه السلام كلام الله منه — تعالى — بدون واسطة ،

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٨٩ من سورة طه .

(٣) الآية ٦٥ من سورة يس .

(٤) شرح الطحاوية بتصرف ص ١٨١ .

وكذلك جبريل — عليه السلام — يسمع كلام الله بدون واسطة ، فيبلغه الرسل بأمر الله له ، هذا ما يعتقدوه المسلمون من دينهم ، وهو أمر ظاهر .
« وحقيقة كلام الله — تعالى — الخارجية : هي ما يسمع منه ، ومن المبلغ عنه .

فإذا سمعه السامع ، علمه وحفظه ، فكلام الله مسموع ، معلوم ، محفوظ .
فإذا قرأه السامع ، فهو مقروء له ، متلو ، فإن كتبه ، فهو مكتوب له مرسوم وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها ، لا يجوز نفيه ، فلا يكون مجازا فيها ، إذ المجاز يجوز نفيه ، وأن يقال : ليس في المصحف كلام الله ، ولا قرأ القارئ كلام الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾^(١) وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله — تعالى — وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول : إن المسموع عبارة عن كلام الله .

[والحق] أن المسموع هو كلامه ، وليس عبارة عنه ، كما تزعمه الأشعرية ومن جعل ما في المصحف عبارة عن كلام الله ، فقد خالف ما أنزل الله على رسوله ، وسلك غير سبيل المؤمنين ، وكفى بذلك ضلالا^(٢) .

والكلام اسم للفظ والمعنى جميعا ، لأن النبي ﷺ قال : « إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن »^(٣) .

(١) الآية ٦ من سورة التوبة .

(٢) شرح الطحاوية ص ١٩٤ .

(٣) رواه النسائي ج ٣ ص ١٣ والإمام أحمد المسند ج ٥ ص ٤٤٧ .

وقال : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة »^(١) .

واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته ، كما اتفقوا على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لها ، وما أشبه ذلك لا يبطل الصلاة ، وإنما يبطلها الكلام المفلوظ به ، فعلم بذلك بطلان قول من يجعل كلام الله معنى قائما بالنفس .

وفي الحديث المتفق عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم ، أو تعمل »^(٢) ففرق بين حديث النفس فجعله معفوا عنه ، وبين الكلام ، فدل على أن حديث النفس لا يسمى كلاما حتى ينطق به ويتلفظ به ، وهذا باتفاق من يعتد بقوله من العلماء .

وعلى كل فإنكار كلام الله ضلال وكفر ، وإنكار للرسالة ، والشرع ، لأن الشرع أمر ، ونهى ، فإذا لم يكن الله يأمر وينهى ، فليس له شرع ولا رسالات وقد أوجد هذا القول لهدم الإسلام ، والعلماء عرفوا ذلك ، ولهذا يقول الإمام البخارى فى مبدأ كتابه « خلق أفعال العباد » : باب ما ذكر أهل العلم للمعطللة الذين يريدون أن يبدلوا كلام الله — عز وجل — ثم روى ، عن عبد الله بن إدريس ، أن رجلا جاء إليه ، فقال : يا أبا محمد ما تقول فى قوم يقولون : القرآن مخلوق ؟ فقال : أمن اليهود ؟ قال : لا ، قال : فمن النصرارى ؟ قال : لا ، قال : فمن الجوس ؟ قال : لا ، قال : ممن .. ؟ قال : من أهل التوحيد .

(١) روه أبو داود ج ١ ص ٥٦٧ والنسائى ج ٣ ص ١٩ والإمام أحمد ج ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ .

(٢) انظر الفتح ج ٥ ص ١٦٠ ومواضع أخر ولكن بلفظ « ما وسوست به صدورها » ومسلم ج ١ ص ١١٦ .

قال : ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء زنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم فالله لا يكون مخلوقا ، والرحمن لا يكون مخلوقا ، والرحيم لا يكون مخلوقا وهذا أصل الزندقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله»^(١) .

قال شيخ الإسلام : « القول بأن القرآن مخلوق معناه أن الله لم يصف نفسه بالكلام أصلا بل حقيقته أن الله لم يتكلم كما أفصح به رأسهم الأول ، الجعد ابن درهم ، حيث زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، لأن الخلقة إنما تكون من المحبة ، وعنده أن الله لا يحب شيئا في الحقيقة ولا يحبه شيء في الحقيقة ، فلا يتخذ شيئا خليلا .

وكذلك الكلام يمتنع عنده على الرب — تعالى — وكذلك نفت الجهمية والمعتزلة ، وغيرهم أن يكون لله كلام قائم به ، أو إرادة قائمة به ، وادعوا ما باهتوا به صريح العقل المعلوم بالضرورة ، أن المتكلم يكون متكلما بكلام يكون في غيره .

وقالوا أيضا — يكون مريدا بإرادة ليست فيه ، ولا في غيره ، أو الإرادة وصف عدمي ، أو ليست غير المرادات المخلوقة ، وغير الأمر وهو الصوت المخلوق في غيره .

فكان حقيقة قولهم التكذيب بحقيقة ما أخبرت به الرسل ، من كلام الله ومحبه ومشيئته ، وإن كانوا قد يقرون بإطلاق الألفاظ التي أطلقتها الرسل [تسترًا] وهذا حال الزنادقة ، والمنافقين»^(٢) .

والبخارى — رحمه الله — أراد بهذا الباب الرد على هؤلاء ونحوهم ، الذين

(١) خلق أفعال العباد ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢) التسعينية ص ٤٢ .

ينكرون كلام الله حقيقة ، وإذا وصفوا الله بالكلام فمرادهم أن الله خلق كلاما في غيره ، إما في الهوى ، أو بين ورق الشجرة التي كلم منها موسى ، أو في غير ذلك .

ولا يشك من عرف ما جاءت به الرسل أن هذا تبديل للحق بالباطل ، وللحقيقة التي فطر الله عليها عباده واللغة التي اتفق عليها بنو آدم إلا من اجتالته الشياطين فغيرت فطرته .

فالتكلم هو الذى يقوم به الكلام ، ويتصف به ويصدر منه ، كما أن المحب من يقوم به الحب ، والقادر من تقوم به القدرة ، والعالم من يقوم به العلم .

وعلى قول أولئك الضلال الذين يرد عليهم الإمام البخارى فى هذا الباب وغيره أن الذى قال لموسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ^(١) أنه الشجرة ، وهذا الكفر ما وراءه كفر .

ويلزم على قولهم أن كل كلام خلقه الله هو كلامه ، والله خالق كل شيء فيدخل فى ذلك أفعال العباد ، وحركاتهم ، وكلامهم ، فيلزم أن يكون كلامهم كلاما له بما فيه من الكذب والكفر وقول الزور ، وغير ذلك ، حتى نباح الكلاب ، فأى قول أفسد من قول هذا لازمه ، وأى ضلال أبعد منه .

وكلام أئمة الإسلام فى بيان بطلان هذا القول كثير جدا .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله : « وأما قوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ فإنه يعنى بذلك — جل ثناؤه : وخاطب الله بكلامه موسى خطابا .

وقد حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا نوح

(١) الآية ١٤ من سورة طه .

ابن أبي مریم ، وسئل كيف كلم الله موسى تكليما ؟ فقال : مشافهة ^(١) .
وذكر البخارى عن ابن عباس قال : لما كلم الله موسى كان النداء في
السماء ، وكان الله في السماء ^(٢) .

ولهذه الخصوصية التي خص الله موسى بها ، صار له بذلك شرف وفضل
على غيره من الأنبياء ، ولهذا يذكر الناس له هذه الفضيلة في الموقف إذا طلبوا
منه الشفاعة .

١٣٩ — قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، حدثنا
عقيل ، عن ابن شهاب ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة
أن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم
الذى أخرجت ذريتك من الجنة ، قال آدم : أنت موسى الذى
اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، ثم تلومنى على أمر قدر على قبل أن
أخلق فحج آدم موسى » .

اختصر الإمام البخارى — رحمه الله — هذا الحديث ، وفي بعض ألفاظه
الثابتة في الصحيحين قوله : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم
أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ،
فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟

فقال له آدم : أنت موسى الذى كلمك الله تكليما ، وكتب لك التوراة ،
فكم تجد فيها مكتوبا ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ قبل أن أخلق ؟
قال : « بأربعين سنة ، قال : فحج آدم موسى » . يعنى غلبه بالحجة .

(١) تفسير الطبرى ج ٩ ص ٤٠٣ تحقيق محمود شاكر .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٤١ .

قال شيخ الإسلام : « قد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر على نفي الملام على الذنب ، ثم صاروا لأجل هذا الظن ثلاثة أحزاب :

فريق كذبوا بهذا الحديث كأبي على الجبائي ، وغيره ، لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل ، ولا ريب أنه يمتنع أن يكون هذا مراد الحديث ، ويجب تنزيه النبي ﷺ بل جميع الأنبياء ، وأتباعهم أن يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله .

وفريق تأولوه بتأويلات معلومة الفساد ، كقول بعضهم : حجه لأنه أبوه ، والابن لا يلوم أباه .

وقول بعضهم : حجه لأن الذنب كان في شريعة ، واللام في أخرى .

وقول بعضهم : لأن الملام كان بعد التوبة ، وقول بعضهم : لأن هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة .

وفريق ثالث جعلوه عمدة في سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله . والصواب : أن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل ، لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص ، ولهذا قال : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، ولم يقل : لماذا خالفت الأمر ولماذا عصيت ؟

والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس ، أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر ، وشهود الربوبية كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ (١) قال ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم (٢) .

(١) الآية ١١ من سورة التغابن .

(٢) في الدر المنثور أخرجه سعيد بن منصور انظر ج ٨ ص ١٨٤ .

وفي الصحيح ، عن النبي ﷺ : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا يعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت ، لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » (١) فأمره بالحرص على ما ينفعه ، وهو طاعة الله ورسوله ، فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله ، وأمره إذا أصابته مصيبة أن لا ينظر إلى تقدير ما لم يقع ، وهو قوله : لو أنى فعلت كذا وكذا ، لكان كذا وكذا ، فإن هذا ليس فيه إلا التحسر ، والمضرة ، ولكن لينظر إلى الواقع ، ويوقن بأنه بقدر الله تعالى وقضائه ، ولا بد من وقوعه ، فلا مخلص منه ، فيرضى به ويسلم لقدر الله تعالى — وقضائه ، كما قال بعضهم : الأمر أمران :

أمر فيه حيلة ، فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه ، فلا تجزع منه .

وما زال أئمة الهدى يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ، ويترك المحذور ، ويصبر على المقدور ، وإن كانت المصيبة بفعل آدمي ، فلو أن رجلا أنفق ماله في المعاصي ، ومات ولم يخلف لأولاده مالا ، أو ظلم الناس بظلم صاروا ييغضون أولاده من أجل ظلمه فلا يعطونهم ما يعطون أمثالهم ، فهذه مصيبة في حق الأولاد حصلت بسبب أبيهم .

فإذا قالوا لأبيهم : أنت فعلت بنا هذا ، قيل لهم : هذا كان مقدرًا عليكم ، وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم ، والأب عاص لله فيما فعل من الظلم ، أو الإنفاق في المعصية ، ملوم على ذلك ، لا يرتفع عنه الذم والعقاب بالقدر السابق .

فإن تاب توبة نصوحا ، وقبل الله توبته ، وغفر له لم يجز ذمه حينئذ ولومه بحال ، لا من جهة حق الله ، ولا من جهة المصيبة التي حصلت لغيره بفعله ،

(١) رواه مسلم ج ٤ ص ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤ .

إذ لم يكن هو ظالماً لأولئك ، فإن تلك المصيبة مقدره عليهم ، وهذا مثل قصة آدم ، فإنه لم يظلم أولاده ، وإنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وهبط هو وحواء ، ولم يكن معهما أولاد ، فلم يظلم أولاده ظلماً يستوجب ملامه منهم ، وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمر مقدر عليهم .

وهو قد تاب من ذنبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ آجَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١) .

وموسى أعلم من أن يلومه على ذنب قد علم أنه تاب منه ، وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن الذنب لا ملام عليه ، وقد علم أن لعن إبليس بسبب ذنبه ، وهو مقدر عليه .

ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعا من الذنب لفعله آدم ، ولكنه تاب من الذنب واستغفر ربه « (٢) .

فتبين أن آدم حج موسى لما قصد موسى لوم آدم على ما كان سببا في مصيبة أبنائه ، وأن آدم احتج بأن هذه المصيبة سبق بها القدر ، ولا بد من وقوعها كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٤) .

وسواء في ذلك المصائب التي تحصل بأفعال العباد ، أو غيرها ، فإن على

(١) الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ من سورة طه .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٣٠٣ — ٣٢٢ ملخصا .

(٣) الآية ١١ من سورة التغابن .

(٤) الآية ٢٢ من سورة الحديد .

العبد الصبر والتسليم ، ولا يسقط بذلك لوم الجانى وعقابه .

قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾^(١) ، وحكم الله نوعان : خلق ، وأمر ، فالأول ؛ ما يقدره من المصائب .

والثانى؛ ما يأمر به وينهى عنه ، وهو شرعه ودينه ، والعبد مأمور بالصبر على النوعين ، فعليه أن يصبر على فعل المأمور ، وترك المحذور ، وعلى ما قدره الله وقضاه^(٢) .

« فالمصائب الحاصلة بقدر الله التى لم يبق فيها حق يؤخذ ، أو ذنب يعاقب عليه ، ليس فيها إلا التسليم للقدر ، وقصة آدم من هذا القبيل ، فإن موسى لأمه من أجل ما أصابه وذريته .

وآدم قد تاب من الذنب الذى هو سبب المصيبة ، وغفر له ، والمصيبة كانت مقدره ، فلا حيلة أمامها إلا التسليم والرضى .

ولهذا قال : « أنت موسى ، الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، ثم تلومنى على أمر قد قدر على قبل أن أخلق » .

وقوله : « احتج آدم وموسى » . أى كل واحد منهما ذكر حجته أمام الآخر ، وهذا يجوز أن يكون بعد وفاة موسى ، أو أنه فى الرؤيا ، فإن رؤيا الأنبياء وحى .

« وقال ابن عبد البر : « مثل هذا يجب فيه التسليم ، ولا يوقف فيه على تحقيق لأننا لم نؤت من جنس هذا العلم إلا قليلا »^(٣) .

(١) الآية ٤٨ من سورة الطور .

(٢) الفتح ج ١١ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ملخصا .

(٣) الفتح ج ١١ ص ٥٠٧ .

والمقصود هنا قوله : « أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه »
والاصطفاء هو الاختيار والتفضيل ، وفرق بين الرسالة والتكليم ، فهو قدر
زائد على الرسالة ، لأنها تحصل بإرسال ملك إليه أو بالوحي .

وأما التكليم فهو بإسماعه كلامه ، وهذا الذى اختص به موسى من بين
الرسل ، فدل هذا على أن الله تعالى كلمه بدون واسطة ، بل أسمعته كلامه
منه إليه ، وهو أمر واضح .

وجاء فى رواية ذكرها الحافظ : « قال : أنت كلمك الله من وراء حجاب
ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه »^(١) .

« قال ابن عبد البر : هذا الحديث أصل فى إثبات القدر ، وأن الله قضى
أعمال العباد ، فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق فى علم الله تعالى ، وليس
فيه حجة للجبرية »^(٢) .

وقال الخطابى — رحمه الله تعالى — « قد يحسب كثير من الناس أن معنى
القدر من الله والقضاء منه ، معنى الإيجاب ، والقهر للعبد على ما قضاه وقدره
ويتوهم أن فلج آدم فى الحجرة على موسى إنما كان من هذا الوجه ، وليس الأمر
فى ذلك على ما يتوهمونه .

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد
وأكسابهم ، وصدورها عن تقدير منه ، وخلق لها ، خيرها وشرها ، والقدر :
اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر ، كما أن الهدم ، والقبض ، والنشر أسماء
لما صدر عن فعل الهادم ، والقباض ، والناشر .

يقال : قَدَّرْتُ الشيء ، وقدرته ، خفيفة وثقيلة ، بمعنى واحد .

(١) الفتح ج ١١ ص ٥٠٨ .

(٢) المرجع المذكور ص ٥٠٩ .

والقضاء في هذا معناه الخلق ، كقوله — تعالى — ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(١) أى خلقهن .

وإذا كان الأمر كذلك : فقد بقى عليهم من وراء علم الله فيهم ، أفعالهم وأكسابهم ومباشرتهم تلك الأمور ، وملاستهم إياها عن قصد وتعمد ، وتقديم إرادة واختيار ، فالحجة إنما تلزمهم بها ، واللائمة تلحقهم عليها .

وجماع القول في هذا الباب : أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس ، والآخر بمنزلة البناء ، فمن رام الفصل بينهما رام هدم البناء ونقضه^(٢) .

وإنما كان موضع الحججة لآدم على موسى — صلوات الله وسلامه عليهما — أن الله — سبحانه — إذا كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها ، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه .

وبيان هذا في قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فأخبر قبل كون آدم أنه إنما خلقه للأرض ، وأنه لا يتركه في الجنة ، حتى ينقله عنها إلى الأرض ، وإنما كان تناوله من الشجرة سببا لوقوعه إلى الأرض التي خلق لها وليكون فيها خليفة ، وواليا على من فيها ، وإنما أدلى آدم عليه السلام بالحجة على هذا المعنى ، ودفع لائمة موسى عن نفسه على هذا الوجه ، ولذلك قال : « أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق » .

فإن قيل : على هذا يجب أن يسقط اللوم أصلا .

(١) الآية ١٢ من سورة فصلت .

(٢) يعنى تقدير الله للأشياء ، وسبق علمه بها ، وأفعال العباد وأكسابهم وإرادتهم واختيارهم ، فالقدر بمنزلة الأساس ، وأفعال العباد مبنية عليه .

قيل : اللوم ساقط من قبل موسى ، إذ ليس لأحد أن يعير أحدا بذنب كان منه ، لأن الخلق كلهم تحت العبودية أكفاء سواء .

وقد روى : « لا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا إليها كأنكم عبيد » .

ولكن اللوم لازم لآدم من قبل الله — سبحانه — إذ كان قد أمره ونهاه فخرج إلى معصيته ، وباشر المنهى عنه ، والله الحجة البالغة — سبحانه — لا شريك له .
وقول موسى وإن كان في النفوس منه شبهة ، وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذى جعل أمانة لخروجه من الجنة .

فقول آدم في تعلقه بالسبب الذى هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوم والفلج فيه قد يقع مع المعارضة بالترجيح كما يقع بالبرهان الذى لا معارض له والله أعلم^(١) .

فحجة آدم عليه السلام ظهرت لأن ما قدر عليه أمر لا يمكن تغييره ولا رده بل هو قدر قدره العليم القدير ، فلا يمكن دفعه ، ولا رفعه بعد وقوعه فليس أمامه إلا التسليم ، ومع ذلك لا يكون القدر حجة فيما لم يقع لأن الإنسان مأمور بفعل الطاعة ، واجتناب المعصية ، وهو لا يعلم ما هو المقدر عليه حتى يقع ، فإذا وقع الأمر ، وتعذر دفعه هناك يسلم للقدر ، ويقول قدر الله وما شاء فعل ، ويستغفر من ذنبه ويتوب إلى ربه .

١٤٠ — قال : « حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيريحنا

(١) معالم السنن ج ٧ ص ٦٩ — ٧٢ .

من مكاننا هذا ، فيأتون آدم ، فيقولون له : أنت آدم أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك الملائكة وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا .

فيقول : لست هناك ، فيذكر لهم خطيئته التي أصاب .

تقدم الكلام على هذا الحديث ، والمراد منه هنا قوله فيه : « ولكن اتنوا موسى ، عبدا آتاه الله التوراة ، وكلمه وقربه نجيا » . فهذا واضح كل الوضوح في الدلالة على ما أراده من إثبات كلام الله حقا ، والرد على من ينكر ذلك إما صراحة كفعل الجهمية والمعتزلة ، أو مراوغة كالأشعرية أو بعضهم وكلهم ضالون في هذا الباب .

١٤١ — قال : « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني سليمان ، عن شريك بن عبد الله ، أنه قال سمعت ابن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا إيمانا وحكمة ، فحشا به صدره ولغاديدته . — يعنى عروق حلقة — ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب بابا من أبوابها ، فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : معي محمد ، قال : وقد بعث ؟ قال : نعم .

قالوا : فمرحبا به وأهلا ، فيستبشر به أهل السماء ، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم .

فوجد في السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك فسلم عليه ، فسلم عليه ، ورد عليه آدم ، وقال : مرحبا ، وأهلا يا بني ، نعم الابن أنت .

فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان ، فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟

قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما .

ثم مضى به في السماء ، فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا مسك أذفر ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي خبا لك ربك .

ثم عرج إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى ، من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحبا به وأهلا . ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، وقالوا له مثل ما قالت الأولى ، والثانية .

ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السادسة ، فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء

فيها أنبياء قد سماهم ، فوعيت منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة بفضل كلامه لله ، فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحدا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمتك ، كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة .

قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل صلى الله عليه وسلم كأنه يستشيريه في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم ، إن شئت ، فعلا به إلى الجبار ، فقال : وهو مكانه يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه .

فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا ، وأبدانا وأبصارا وأسماعا ، فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل ، فرفعه عند الخامسة ، فقال : يارب : إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم ، وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا .

فقال الجبار — جل جلاله — : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك ،
فقال : إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك في أم الكتاب ،
قال : فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب ، وهي
خمس عليك ، فرجع إلى موسى ، فقال : كيف فعلت ؟
فقال : خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها .

قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك
فتركوه ، ارجع إلى ربك ، فليخفف عنك أيضا .

قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحيت من ربى مما
اختلفت إليه ،

قال : فاهبط باسم الله .

قال : واستيقظ وهو في مسجد الحرام .

« الإسرائ » ، من سرى ، وأسرى ، إذا سار ليلا .

والصواب أن الإسرائ وقع له ﷺ مرة واحدة وكذا المعراج ، وهو في
مكة قبل الهجرة ، وأنه يقظة لامناما ، وأنه بروحه وجسده .

قوله : « ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة ، أنه جاءه ثلاثة
نفر قبل أن يوحى إليه » ، ذكر البيهقي بسنده من طريق موسى بن عقبة ،
عن ابن شهاب قال : « أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه
إلى المدينة سنة » .

ثم قال : « وكذلك ذكره ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة بن
الزبير ، وروى السدى ، قال : « فرض على رسول الله ﷺ الخمس في بيت

المقدس ليلة أسرى به ، قبل مهاجره بستة عشر شهرا»^(١) .

قوله : في بيت المقدس — يعنى أن أول صلاة صلاها بعد فرض الصلوات في بيت المقدس ، وهى صلاة الفجر ، فعلى قول الزهرى ، وعروة يكون الإسراء في ربيع الأول ، وعلى قول السدى يكون في ذى القعدة ، ومن زعم أنه في رجب فليس له مستند ، قال ابن كثير : لا أصل لذلك^(٢) .

قوله : « أنه جاءه ثلاثة نفر » قال فى اللسان : « النفر بالتحريك : ما دون العشرة من الرجال ، وقالوا : النفر ، والقوم ، والرهط : جموع لا واحد لها من لفظها »^(٣) .

وجاء أن منهم جبريل ، وهذا ظاهر من الحديث لا خفاء فيه ، وميكائيل .
قوله : « قبل أن يوحى إليه » هذه الجملة مما أنكره العلماء على شريك ، وخططوه فيها ، منهم الخطابى ، وابن حزم ، والقاضى عياض والنوى .

وخرجها ابن كثير على أن المجيء مرتين ، الأولى قبل أن يوحى إليه ، فكانت تلك الليلة ولم يكن فيها شيء ، والثانية وهى التى حصل فيها شق الصدر ، ثم الإسراء ، والعروج إلى السماء . وعبارته :

« وفى سياق حديث شريك غرابة من وجوه ، منها قوله : « قبل أن يوحى إليه » والجواب أن مجيئهم أول مرة كان قبل أن يوحى إليه ، فكانت تلك الليلة ، ولم يكن فيها شيء ، ثم جاءه الملائكة ليلة أخرى ، ولم يقل فى ذلك « قبل أن يوحى إليه » ، بل جاءوه بعد ما أوحى إليه ، فكان الإسراء قطعاً بعد الإيحاء ، إما بقليل كما زعمه طائفة ، أو بكثير نحو عشر سنين كما زعمه

(١) دلائل النبوة ج ٢ ص ١٠٧ .

(٢) انظر السيرة له ج ٢ ص ٩٤ .

(٣) اللسان ج ٣ ص ٦٨٧ المرتب .

آخرون وهو الأظهر»^(١) .

قال الحافظ : « وصرح الخطابي ، وابن حزم ، والقاضى عياض ، والنووى بأن شريكا انفرد بهذه اللفظة ، وفي دعوى التفرد نظر ، فقد وافقه كثير بن خنيس ، عن أنس أخرجه سعيد بن يحيى الأموى فى كتاب المغازى من طريقه »^(٢) .

ثم قال : « قوله : « فلم يرههم » أى بعد ذلك ، « حتى أتوه ليلة أخرى » ، ولم يعين المدة التى بين المجيئين ، فيحمل على أن المجيء الثانى كان بعد أن أوحى إليه ، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج »^(٣) ، أى بعد النبوة والوحى .

ويجوز أنه يقصد بقوله « قبل أن يوحى إليه » أى فى شأن الإسراء والمعراج ، أى أنهم فاجئوه بدون سابق إعلام له بذلك .

قوله : « وهو نائم فى المسجد » وفى آخره « واستيقظ وهو فى المسجد » وبهذا ونحوه تعلق من يقول : إن الإسراء والمعراج وقعا مناما .

والحق أنهما وقعا يقظة لا مناما ، وأن ذلك بيدنه وروحه ، وهو قول جمهور أهل السنة ، والدليل قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ والتسيح إنما يكون عند الأمور العظيمة والآيات الباهرة ، ولو كان مناما لم يكن فيه كبير أمر ، لأنه لا يستنكر .

ومما يدل على ذلك إنكار كفار قريش له ، وتعظيمهم إياه ، واستبعادهم وقوعه ، حتى ارتد بسبب ذلك بعض من أسلم ، ولو كان مناما لم ينكره

(١) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٨٠ .

(٣) المرجع .

أحد ، وأيضاً فالعبد اسم لمجموع الروح والبدن .

ودلالة الأحاديث على ذلك ظاهرة ، فعلى هذا يكون قوله ، « وهو نائم في المسجد » يعنى ذلك المجيء الأول الذى لم يحصل فيه الإسراء ، ثم المجيء الثانى كان يقظان .

ويحمل ما فى آخر الحديث على الإفاقة مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الآيات العظيمة والملكوت ، وقد ينشغل الإنسان بما يقع له من أمر مهم ، فإذا انجلى عنه ذلك الأمر كأنه أفاق من نوم ، كما جاء فى قصة ذهابه إلى الطائف ، وفيها : « فلم أفرق إلا وأنا بقرن الثعالب » .

ويجوز أنه نام بعد رجوعه ، وكان إذا أوحى إليه يستغرق قلبه فى الوحي ، فإذا انقطع الوحي سرى عنه ، فيجوز أن يكون هذا مثله .

قوله : « فقال أولهم : أيهم هو » يدل على أنه كان نائماً مع جماعة . قال الحافظ : « قد جاء أنه كان معه عمه حمزة ، وجعفر بن أبى طالب »^(١) .

« فقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة » كانت هنا تامة والتقدير : وجدت تلك الليلة ، ولم يحصل فيها شيء من الإسراء ، وذهبوا ولم يرههم .

« حتى أتوه ليلة أخرى » بعد زمن طويل ، كما تقدم ، وبهذا يرتفع الإشكال فى قوله : « قبل أن يوحى إليه » وقوله : « وهو نائم » .

قال الحافظ : « وبه يسقط تشنيع الخطأى ، وابن حزم وغيرهما بأن شريكا خالف الإجماع فى دعواه أن المعراج كان قبل البعثة »^(٢) .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٨٠ .

(٢) المصدر .

ومما يدل على ذلك قوله لما استفتح جبريل باب السماء : « أبعث إليه ؟ » قال نعم ، يعنى أنه أرسل إلى الناس .

قوله : « فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء » . هذا من الخصائص التي خص بها الأنبياء ، ومعنى يقظة القلب أنه يدرك الحسيات المتعلقة به ، كالألم والحدث ونحو ذلك ، لا ما يتعلق بالعين من رؤية الأشياء ، قاله النووي^(١) .

قوله : « فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم » هذا يختلف مع رواية الزهري ، عن أنس ، عن أبي ذر ، أنه قال : « فرج سقف بيتي وأنا بمكة » وفي رواية الواقدي بأسانيده ، أنه أسرى به من شعب أبي طالب ، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني : « أنه بات في بيتها ، ففقدته من الليل ، فقال : إن جبريل أتاني » .

قال الحافظ : « والجمع بين هذه الأقوال : أنه نام في بيت أم هانئ ، وبيتها عند شعب أبي طالب ، ففرج سقف بيتها ، وأضافه إليه لكونه يسكنه ، فنزل منه الملك ، فأخرجه إلى المسجد ، فكان به مضطجعا ، وبه أثر النعاس ، ثم أخرجه إلى باب المسجد ، فأركبه البراق »^(٢) .

قوله : « فتولاه منهم جبرائيل ، فشق ما بين نحره إلى لبتة » يعنى أن جبريل شق صدره ، وبطنه ، فاستخرج قلبه وأحشائه فغسلها بماء زمزم بيده حتى أنقاه من كل ما فيه من دخل ، ثم أتى بطست من ذهب ، وفيه تور من ذهب ، وهو إناء صغير ، قد يكون من صفر ، أو من حجر ، والبطست مملوء إيمانا وحكمة ، فحشا به صدره ، ولغاديدته — يعنى عروق حلقه ثم أطبقه فخاطه ،

(١) نقله الحافظ في الفتح ج ١ ص ٤٥٠ .

(٢) الفتح ج ٧ ص ٢٠٤ .

ولم يتألم من ذلك أو يتأثر ، وقد جاء أن أثر الشق بقى فيه واضحا .
و « اللبة » هى موضع القلائد فى أعلى الصدر ، وهى التى ينحر البعير
منها .

وتكرر شق صدره ﷺ .

قال الحافظ : « ثبت ذلك فى غير رواية شريك فى الصحيحين ، من حديث
أبى ذر ، ووقع أيضا له ذلك عند البعثة ، كما أخرجه أبو داود الطيالسى فى
مسنده ، وأبو نعيم فى الدلائل ، ووقع أيضا فى حديث أبى هريرة — وهو
ابن عشر سنين ، كما فى المسند من زيادات عبد الله »^(١) .

قوله : « ثم عرج به إلى السماء الدنيا » حذف قبل هذا جملة من الحديث
مما هو ثابت فى الروايات الأخرى ، لأن القصة واحدة ، وتقدير المحذوف :
ثم أتى بالبراق ، فركبه ، فأسرى به إلى المسجد الأقصى ، فربط البراق وصلّى
ركعتين تحية المسجد ، ثم عرج به .

والعروج هو الصعود ، والارتقاء ، وعروجه ﷺ هذا آية باهرة من آيات
الله العظيمة ، التى لا يدرك حقيقتها العقل البشرى ؛ لأن ارتفاع السماء عن
الأرض ارتفاع هائل ، لا يعلم قدره إلا الله — تعالى — ، وقد تبين للناس اليوم
أن الإنسان إذا ارتفع عن الأرض إلى حد قريب ينعدم الأكسجين الذى به
الحياة فيختنق ويموت فى لحظات ، وما فوق السماء الدنيا إلى التى تليها مسافة
بعيدة جدا ، لو قدرت بسير الإنسان ، وما يستخدمه من آلات حديثة لكانت
بمئات السنين ، وربما بآلاف السنين ، وهكذا كل ما بين سماء وأخرى ، ومع
هذا كله يذهب الرسول ﷺ ببدنه وروحه ويجاوز السماوات السبع بارتفاع

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٨١ .

لا يعلم قدره إلا الله — تعالى — في ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة ، ثم يعود ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

والتسيح يكون عند الأمور العظيمة الدالة على قدرة الله ، كما سبق .
فإن قيل : لماذا لم يذكر المعراج في القرآن ، مع أنه آية عظيمة دالة على عظيم قدرة الله — تعالى — قيل : لأن الإسراء قد ذكر ، وهو من جنسه من حيث قطع المسافة الشاسعة في الوقت القصير ، ولأنه يدل عليه .

ولأن إخبار الرسول ﷺ به ، وبما وقع فيه كاف عن ذكره في القرآن .
قوله : « فضرب بابا من أبوابها » يدل على أن السماء مبنية بناء محكما ولها سمك وكثافة ، وأنها لا تدخل إلا من أبوابها .

قوله : « فناداه أهل السماء ، من هذا ؟ » يدل على سماكة السماء وكثافتها وأن من فيها لا يرى من يأتي من أسفلها ، فدل على بطلان قول أهل الهيئة قديما بأن السماء شفافة ، لا تستر من فوقها ، ولا من تحتها وهذا من خرصهم الذي لا يستند إلى برهان .

ودل أيضا على بطلان قول ملاحدة هذا العصر الذين ينكرون وجود السماء المبنية المحكمة ، ويقولون إنما هو فضاء تسيح فيه الكواكب ، وهذا خلاف نصوص الشرع ، وخلاف الواقع ، وهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس .

قوله : « فقال : جبريل » يدل على أن المسئول عند الاستئذان يسمى نفسه العلم حتى يعرف ، ولا يأتي بكلام مبهم مثل قوله : « أنا » ونحوه مما لا يعين المستأذن .

« قالوا : ومن معك ؟ قال : معي محمد ، قال : وقد بعث إليه ؟ » مقتضى السياق أن تكون « قال » الأخيرة للجمع .

وهذا يدل على حراسة السماء ، وأنه لا يدخلها أحد إلا من أمر الله
بإدخاله .

وقولهم : « وقد بعث إليه » يعنى بعث نبيا ، فهو يدل على أنهم لم يعلموا
ذلك والظاهر كما قال القسطلانى أن المعنى : أبعث إليه فى الجىء إلى السماء ،
لأن البعثة لا تخفى عليهم . وعلى كل فهو يدل على أن معراجة صلى الله عليه وسلم بعد النبوة
وهو أمر ظاهر .

« فقالوا : فمرحبا ، وأهلا » أى أتيت مكانا رحبا واسعا ، وفيه لك أهل
يفرحون بقدمك ، وهذا كلام مشهور ، تقوله العرب لمن يستضيفها ولن
تكرمه ، ومعناه : أنك حللت فى مكان رحب ، سهل واسع ، لا ضيق عليك
فيه ، وأنت عند من هو مثل أهلك ، يفرح بك ويكرمك .

قوله : « فيستبشر به أهل السماء » يدل على أن عندهم علما بأنه سيبعث
نبيا ويعرج به ، ويدل على حبهم له وفرحهم برؤيته صلى الله عليه وسلم .

« لا يعلم أهل السماء بما يريد به فى الأرض حتى يعلمهم » لأنهم لا يعلمون
الغيب ، وهو يرد قول بعضهم أنه مرسل حتى إلى الملائكة ، لأنهم ليسوا
بحاجة إلى رسالته ، ولو أرسل إليهم رسولا لكان من جنسهم ، كما جرت سنة
الله فى خلقه ، وكيف يرسل لمن فى السماوات !؟

« فوجد فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هنا أبوك ، فسلم عليه »
وهكذا فى كل سماء يجد فيها أنبياء ، فيعلمه جبريل من هم ، ويأمره بالسلام
عليهم ، وهم فى السماوات حسب منازلهم عند الله ، فمن هو أفضل فمنزلة
أرفع ، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعرفهم حتى يعلمه جبريل بهم مما يدل على أنه لم
يرهم قبل هذا اللقاء .

« فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان ، فقال ما هذان النهران يا جبريل ؟
قال : هذا النيل والفرات — عنصرهما » أى أصلهما ، أو ما يمدان منه ،

وهذا يدل على أن ذينك النهرين ليسا النيل والفرات ، لأن النيل والفرات في الأرض وذانك النهران في السماء .

وفي حديث مالك بن صعصعة أنه رأى في أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار وذكر منها النيل والفرات ، فيجوز أن يكون ذلك مثل ، والله أعلم بذلك . « ثم مضى به في السماء ، فإذا بنهر عليه قصر من لؤلؤ ، وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر ، قال ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك » وهذا مما استشكل في هذا الحديث ، لأنه ثبت أن الكوثر في الجنة ، والجنة في السماء السابعة ، كما جاء في المسند من حديث أنس « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافته خيام اللؤلؤ ، فضربت يدي في مجرى مائه فإذا مسك أذفر ، فقال جبريل هذا الكوثر الذى أعطاك الله تعالى »^(١) .

قال الإمام أحمد : « حدثنا محمد بن فضيل ، عن المختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله ﷺ إغفاء ، فرفع رأسه متبسما ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ إنه أنزلت على آنفا سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر » حتى ختمها ، فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هو نهر أعطانيه ربي — عز وجل — في الجنة ، عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب : إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك »^(٢) .

يجوز أن يكون رآه في السماء الدنيا وأصله في الجنة ، أو أنه مثل له والله على كل شيء قدير .

(١) انظر المسند ج ٣ ص ١٠٣ ، ١١٥ ، ٢٦٣ .

(٢) المسند ج ٣ ص ١٠٢ .

وقال القرطبي : « والصحيح أن للنبي ﷺ حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والثاني في الجنة ، وكلاهما يسمى كوثرًا ، والكوثر في كلام العرب : الخير الكثير »^(١) .

قال الحافظ : « فيه نظر ، لأن الكوثر نهر داخل الجنة ، وماؤه يصب في الحوض ، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه »^(٢) .

وظاهر الأحاديث مثل قوله ﷺ : أنا فرطكم على الحوض ، وقوله لأنس لما طلب منه أن يشفع له يوم القيامة وقال : أنا فاعل ، قال : أين أجذك قال : « اطلبني أول ما تطلبني على الصراط ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الحوض »^(٣) وغير ذلك ظاهرها أن الحوض في الموقف ، وفي حديث لقيط ما يدل على أنه بعد الصراط فإن فيه « فينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون ، فيسلكون جسرا من النار ، يطأ أحدكم الجمرة فيقول : حس ، فيقول ربك : أوانه ، ألا فيطلعون على حوض الرسول على أظماً والله ناهلة رأيها أبدا »^(٤) .

« قال القرطبي في المفهم تبعا للقاضي عياض : مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله — سبحانه وتعالى — قد خص نبيه محمدا ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته ، وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة ، التي يحصل بمجموعها العلم القطعي »^(٥) .

قوله : « ثم عرج إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت في الأولى » .

(١) التذكرة ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) الفتح ج ١١ ص ٤٦٦ .

(٣) رواه أحمد والترمذي انظر المسند ج ٣ ص ١٧٨ والترمذي .

(٤) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند ج ٤ ص ١٣ وفي السنة ج ٢ ص ٤٨٥ .

(٥) الفتح ج ١١ ص ٤٦٧ .

يعنى أن جبريل استفتح ، فقالوا من ؟ فأخبرهم كما مضى .

قوله : « كل سماء فيها أنبياء ، قد سماهم فأوعيت منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة ، لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة » قال الحافظ : « كذا في رواية شريك ، وفي حديث الزهرى عن أنس ، عن أبى ذر ، فذكر أنه وجد في السماوات آدم ، وإدريس ، وعيسى ، وإبراهيم ، ولم يثبت منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة « وهو موافق لرواية شريك ، والأكثرون خالفوا ذلك ، فذكروا أن موسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ، كما في رواية قتادة ، وسياق روايته يدل على رجحانها ، فإنه ضبط اسم كل نبي ، والسماء التى هو فيها »^(١) .

وقد حاول الحافظ أن يجمع بين الروايات بأن موسى كان وقت العروج في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ثم انعكس الأمر عند هبوطه .

وهذا جائز ، ولكن يحتاج إلى دليل ، قال : ويحتمل أنه لقى موسى في السادسة ثم صعد معه إلى السابعة ، لأنه هو الذى صارت المحاورة بينه وبينه من أجل تخفيف الصلوات فالله أعلم »^(٢) .

والراجح ما صرح به في هذه الرواية ، وقد نص على أن سبب رفعه إلى السابعة ما خصه الله به من التكريم بكلامه ، كما قال :

« وموسى في السابعة بتفضيل كلامه لله » وفي بعض النسخ « بتفضيل كلام الله » وهى أظهر على المراد ، لأن المقصود إثبات تكليم الله تعالى لموسى ، وليس تكليم موسى لله تعالى .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٢ .

(٢) المرجع .

وهذا هو محل الشاهد من الحديث ، وإن كان بقية الحديث فيه دلالة واضحة على تكليم الله — تعالى — لمحمد ﷺ ويجوز أن البخارى أراد ذلك أيضا فكأنه يقول : كما أن الله تعالى قد كلم موسى تكليما وموسى فى الأرض فقد كلم عز وجل محمدا وهو فوق سبع سماوات .

قوله : « فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحدا » وفى رواية : « أن يرفع » بالياء ، قال ابن بطلال : « فهم موسى من اختصاصه بكلام الله — تعالى — فى الدنيا دون غيره من البشر كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾ ^(١) أن المراد بالناس البشر كلهم ، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحدا ، فلما رفع محمدا ﷺ علم أنه فضل عليه ، ومن ذلك قال هذا القول ^(٢) .

قوله : « ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى » .

قال الحافظ : « هذا مما خالف فيه شريك غيره ، فإن الجمهور على أن سدرة المنتهى فى السابعة ، وعند بعضهم فى السادسة ، ولعل فى السياق تقدما وتأخيرا ، وأن ذكر سدرة المنتهى قبل قوله : « ثم علا به فوق ذلك » وفى رواية أبى ذر : « ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوا أسمع فيه صريف الأقلام » ^(٣) أى صوت كتابة الأقلام ، التى تكتب ما أمر الله به من تقديز ، وأمر ونهى .

ثم قال الحافظ : « وفى رواية ميمون بن سياه عن أنس عند الطبرى بعد ذكر إبراهيم فى السابعة ، فإذا هو بنهر » فذكر أمر الكوثر .

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٨٣ بتصرف .

(٣) المصدر نفسه .

قال : ثم خرج إلى سدره المنتهى ، وهذا موافق للجمهور ، ويحتمل أن يكون المراد بما تضمنته هذه الرواية من العلو البالغ لأعلى سدره المنتهى وما تقدم لأصلها»^(١) .

قوله : « ودنا الجبار ، رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » .

وفي رواية ميمون بن سياه ، عن أنس « فدنا ربك — عز وجل — فكان قاب قوسين أو أدنى » .

وفي رواية البيهقي من طريق ثابت البناني ، عن أنس قال : « فدنا فتدلى فأوحى إلى عبده ما أوحى »^(٢) .

وفي رواية أبي سعيد التي رواها البيهقي وغيره : « وكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى »^(٣) .

وذكر السيوطي أن ابن مردويه أخرج حديث أنس من طريق كثير بن خنيس وفيه « فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى »^(٤) .

قال الخطابي : « ليس في هذا الكتاب — يعنى صحيح البخارى — حديث أشنع ظاهرا ، ولا أشنع مذاقا من هذا الفصل ، فإنه يقتضى تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما ، هذا إلى ما في التدلى من التشبيه والتمثيل له بالشىء الذى تعلق من فوق إلى أسفل .

(١) المصدر .

(٢) دلائل النبوة ج ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) المصدر المذكور ج ٢ ص ٣٩٥ .

(٤) الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٠ .

ثم اختار أن هذا الحديث رؤيا منام ، أو أن أنسًا حكاها من تلقاء نفسه لم يعزه إلى النبي ﷺ» (١) .

أقول : أما كون هذا الفصل شنيعا ظاهرا ومذاقا ، فذلك في نظر الجهمية الذين يزنون كلام الله وكلام رسوله بما يظنونه براهين عندهم ، وهى مجرد شبهات وأوهام ، أو يزنون كلام الله ورسوله بأذواقهم .

وهذه الشناعة التى يظنها الخطائى — عفا الله عنا وعنه — قد ترد لو كان ما يختص الله به من الأفعال والصفات على وفق مذاق أهل التعطيل ومذهبهم ، وقياساتهم الفاسدة .

أما إذا كان العبد منقادا لما جاء به الرسول ﷺ وموقنا بأن رسول الله ﷺ أعلم بالله ، وأخشى له من كل الناس قاطبة ، وأنه أقدرهم على البيان والإفصاح عما يريد ، وهو أيضا أنصحهم للأمة ، وأحرصهم على هدايتها ، إذا كان العبد موقنا بذلك كله ، فلن يكون هذا الفصل وأمثاله مما جاء به الرسول ﷺ شنيعا لا ظاهرا ولا مذاقا كما زعم الخطائى .

وأما محاولته الطعن فى راوى الحديث — أنس بن مالك — رضى الله عنه ، وأنه إنما حكى هذا القول من عند نفسه ، وقد سبق أن قال فى عبد الله بن مسعود مثل هذا ، وهذا زلة منه عظيمة ، وخروج عن نهج أهل الحق ، وهذا ما يتمناه كل زنديق ، ورافضى خبيث ، حتى يتسنى لهم إبطال الشرع كله ، لأن كل أحد يمكنه أن يقول ما شاء إذا انفتح هذا الباب ، وهو الطعن فى الصحابة بأنهم لم يفهموا ما يقولون ، وينقلون الباطل ، والضلال كما هو مقتضى قول الخطائى .

مع أن قوله هذا خلاف ما اتفق عليه أئمة الإسلام من المحدثين والفقهاء ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٨٣ .

وأن مرسل الصحابي له حكم الاتصال ، لأنه لا يخلو إما أن يكون رواه عن صحابي أو سمعه من الرسول ﷺ .

وكذلك طعنه في شريك بن عبد الله غير مقبول ، بل هو خلاف الحق .

« قال أبو الفضل ابن طاهر : « تعليل الحديث بتفرد شريك ، ودعوى ابن حزم أن الآفات منه شيء لم يسبق إليه ، فإن شريكا قبله أئمة الجرح والتعديل ووثقوه ، ورووا عنه ، وأدخلوا حديثه في تصانيفهم ، واحتجوا به ، وروى عبد الله بن أحمد الدورقي ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وعباس الدوري ، عن يحيى بن معين : لا بأس به »^(١) .

وقال ابن عدى : « مشهور من أهل المدينة ، حدث عنه مالك وغيره من الثقات ، وحديثه إذا روى عنه ثقة لا بأس به ، إلا أن يروى عنه ضعيف » .

قال ابن طاهر : « وحديثه هذا رواه عنه ثقة وهو سليمان بن بلال »^(٢) .

ثم إن شريكا لم ينفرد بهذا اللفظ كما تقدم .

وأما قول الخطابي : « إن ذلك يقتضى تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما » .

فجوابه أن كثيرا من النصوص في كتاب الله وسنة رسوله تقتضى ذلك بل تدل عليه نصا ، وقد سبق في باب قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ من ذكر بعض النصوص في ذلك ، وبعض أقوال أئمة السلف ما فيه مقنع لمن يريد الحق .

وأما المكابر والضال فلا حيلة فيه إلا طلب الهداية له من الله تعالى .

(١) إذا قال يحيى بن معين : لا بأس به ، فمعناه عنده ثقة .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٨٥ .

ثم مفهوم هذا القول من الخطأى أنه لا تمييز بين مكان الخالق والمخلوق ولا مسافة ، ولا تحديد ، وهذا لا يعدو أمرين لا ثالث لهما :

إما أن يكون الرب — تعالى — حالا في الخلق ، ومداخلا لهم ، فهو في كل مكان ، لا يختص به مكان دون آخر ، حتى أجواف الحيوانات والناس والأمكنة الخبيثة ، وهذا مذهب الحلولية الذين هم من أضل خلق الله وأبعدهم عن معرفة الله والتمييز بينه وبين خلقه ، وهذا غاية الكفر ومنتهاه .

الثاني أنه لا مكان لله أصلا ، ومن ليس له مكان بمعنى أنه ليس في جهة فهو عدم لا وجود له ، والعدم هو إله المعطلة والملاحدة .

ومعلوم ثبوت وصف الله تعالى بالقرب ، والدنو ، من بعض خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١) .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى لما رفعوا أصواتهم بالتكبير قال لهم النبي ﷺ : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذي تدعون سميع بصير قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد تقدم والنصوص في هذا كثيرة .

قال شيخ الإسلام : « قرب الله سبحانه ودنوه من بعض مخلوقاته ، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال ذلك من قاله من السلف .

وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، وقال تعالى : ﴿ وَتَدْنِينَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (٢) .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥٢ من سورة مريم .

والنداء هو رفع الصوت ، والنجى هو القريب لمن يكلمه ويناجيه ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ ، والمنادى لموسى هو ربه — تعالى — وهو المناجى له أيضا ، ونداؤه ومناجاته قائمة به — تعالى — ليست مخلوقة منفصلة عنه ، ووقعت مناداته ومناجاته لرسوله موسى في وقت واحد معين .
وفي الصحيحين من حديث أبي موسى ، أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وفيها « يقول الله تعالى : من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتاني يمشى أتيته هرولة »^(١) .

« والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته ، وهو القول المعروف للسلف والأئمة ، وهو قول الأشعري ، وغيره من الكلائية ، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته ، وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته ونحو ذلك ، ولكنهم يقولون الاستواء فعل يفعل في العرش ، فصار مستويا عليه .

وأما دنوه وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبت من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله ، واستواءه على العرش ، وهذا مذهب أئمة السلف ، وأئمة الإسلام المشهورين ، وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر .

وأول من أنكر هذا في الإسلام الجهمية ، ومن وافقهم^(٢) .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر قال : سمعت النبي ﷺ

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ ملخصا .

(٢) المصدر ص ٤٦٦ .

يقول : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ثم يقول إني سترت عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .
وسبق الكلام عليه قريبا .

وفي لفظ : « يُؤتى بالمؤمن يوم القيامة فيدنيه الله منه فيضع عليه كنفه » .
قال أبو يعلى : « غير ممتنع حمله على ظاهره ، وأنه دنو من ذاته ، وقد أخذ أحمد بظاهره ، في رواية أبي الحارث ، وقد سأله : ما معنى قول النبي ﷺ إن الله يدني العبد يوم القيامة ، فيضع عليه كنفه ؟ قال : هو كما قال ، ونقول به ، فقد نص أحمد على الأخذ بظاهره »^(١) .

قوله : « فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط بهم حتى بلغ موسى ، فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد : ماذا عهد إليك ربك ؟

قال : « عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة » .

استدل بذلك على عظيم قدر الصلاة عند الله ، والاهتمام بها ، وأنها من أفضل ما تفضل الله به على هذه الأمة ، لأنها صلة بين العبد وربّه وقرب منه ، فينبغي للمسلم أن يهتم بها ويجتهد في أدائها في خشوع وحضور قلب .

وقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾^(٣) .

(١) إبطال التأويل ص ١٥٥ مخطوط .

(٢) الآية ١٥٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٤٥ من سورة البقرة .

ومما يزيد في أهميتها أن الرسول ﷺ لم يذكر أنه فرض عليه في ذلك الموقف القريب إلى الله تعالى إلا الصلاة .

وقد علم موسى ﷺ أن الله سوف يفرض عليه فروضا ، ولهذا استوقفه .
وفي ذلك بيان نصحه وشفقته على هذه الأمة ، فصلاة الله وسلامه عليه
وجزاه الله خير الجزاء حيث جعله الله سببا لتخفيف الواجب على هذه الأمة .

قوله : « إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ،
فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيريه في ذلك ، فأشار إليه جبريل
أن نعم إن شئت » وهذا كله بإرادة الله ، فهو — جل وعلا — الذى ألهم موسى
ﷺ أن يسأل نبينا ﷺ وأن يأمره بالرجوع إلى الله ليطلب التخفيف ،
فالحمد لله الذى أتم نعمته على عباده وأظهر فضل أوليائه من رسله .

قوله : « فعلا به إلى الجبار » فيه دلالة صريحة واضحة على علو الله
— تعالى — وأن الذى يصعد فى العلو ، يقرب من الله ، وأن الذى فى السماء
أقرب إليه من فى الأرض ، وأن من فى السماء السابعة أقرب إليه من هو تحتها ،
وهذا أمر فطر الله عليه عباده ، لا ينكره إلا الجهمية والمعتزلة ، ومن سلك
نهجهم ممن اجتالهم الشياطين فغيرت فطرهم ، وزينت لهم تعطيل الله تعالى
مما وصف به نفسه ، وقد سبق الكلام فى ذلك .

قوله : « فقال وهو مكانه » الضمير عائد إلى الرسول ﷺ أى وهو فى
مكانه الذى أوحى الله إليه فيه قبل نزوله إلى موسى .

« يا رب خفف عنا ، فإن أمتى لا تستطيع هذا » إلى آخره استدل بهذا
أهل الأصول على جواز النسخ قبل التمكن من العمل ، وعلى كل ففى هذا
عظيم فضل الله ومنته على عباده ، حيث أمر وأوجب ثم لطف فخفف ورحم .
قوله : « ثم احتبسه موسى عند الخمس ، فقال : يا محمد والله لقد راودت

بنى إسرائيل قومي » إلى آخره ، هذا يدل على كمال نصح نبي الله وكتيمه موسى ﷺ لهذه الأمة ، ويدل على أن بنى إسرائيل قد فرض عليهم صلوات هي أقل مما فرض على هذه الأمة ، كما يدل على أن الخلق يضعفون كلما تأخروا في الزمن ضعفوا في جميع خلقهم وقواهم .

« فقال الجبار : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك ، قال : إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك في أم الكتاب ، قال : فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب ، وهي خمس عليك » هذا المقطع من الحديث صريح في أن الله — تعالى — كلم نبينا ﷺ بلا واسطة ، وأنه سمع كلامه ، وخطابه بقوله : « يا محمد » وأجابه النبي ﷺ بقوله : لبيك وسعديك .

وهذا ما قصد البخارى رحمه الله إثباته وإيضاحه ، ولا يخفى وضوحه .

وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه كل ما هو كائن .

وجعل الله إعطاء هذه الأمة بالحسنة عشر حسنات تخفيفا .

ثم أمسكه موسى وأمره بالرجوع ، وطلب التخفيف شفقة منه على هذه الأمة أن تعجز عن أمر الله فتهلك ، فجزاه الله أعظم ما يجزى به أوليائه .

ما أعظم نصحه وشفقته ﷺ .

« قال رسول الله ﷺ يا موسى قد — والله — استحييت من ربى مما اختلفت إليه » أى من كثرة التردد إليه ، وفيه دليل على أن هناك مكانا معيناً كان يتردد إليه هو أقرب إلى الله تعالى من المكان الذى فيه موسى ﷺ .

لما قال لموسى ذلك قال له : فاهبط باسم الله متبركا به ومستعينا .

قوله : « واستيقظ وهو فى المسجد الحرام » تقدم الكلام على هذه الفقرة .

« قال القرطبي : يحتمل أن يكون استيقاظا من نومة نامها بعد الإسراء ،

لأن إسراءه لم يكن طول ليلته ، وإنما كان فى بعضها .

ويحتمل أن يكون المعنى : أفقت مما كنت فيه مما خامره من مشاهدة الملائكة الأعلى لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (١) .

قال ابن كثير بعد ما ذكر روايات الإسراء والمعراج : « إذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها ، وحسنها ، وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه ، أو زاد بعضهم فيه ، أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء ، عليهم السلام .

ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب ، وقد صرح بعض المتأخرين بأنه أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ، ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ، ورأى أنه ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات .

وهذا بعيد جدا ، ولم ينقل عن أحد من السلف .

ولو حصل هذا التعدد لأخبر به الرسول ﷺ أمته ، ولنقله الناس .

والحق أنه أسرى به مرة واحدة ، يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين .

ثم أتى بالمعراج ، وهو كالسلم ذو درج يرقق فيها ، فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٨٧ .

الأنبياء الذين في السماوات بحسب مراتبهم ، حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة ، ثم جاوز منزلتهما صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف أقلام القدر بما هو كائن ، وغشى سدرة المنتهى من أمر الله فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ورأى جبريل على هيئته التي خلق عليها ، له ستائة جناح ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم مسندا ظهره إليه ، ورأى ما يدخله من الملائكة كل يوم سبعون ألف ، لا يعودون إلى مثلها أبدا .

ورأى الجنة والنار ، وفرضت عليه الصلوات ، ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء ، فصلى بهم فيه ، يحتمل أنها صلاة الصبح .

ثم خرج راكبا البراق ، وعاد إلى مكة بغلس^(١) .

والمقصود أن الله موصوف بالتكلم في الماضي والحاضر والمستقبل ، وأنه يكلم من يشاء من عباده بما يشاء ، وأى وقت شاء ، وقد كلم الله — تعالى — موسى كلاما حقيقيا سمعه موسى من الله ، وموسى في الأرض ، والله في السماء ، وكذلك كلم محمدا وهو في السماء كما في هذه القصة ، قال — تعالى — مخاطبا موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾^(٢) ، وهذا بيان أوضح من النهار في أن الله — تعالى — خص موسى في الدنيا من بين الناس بكلامه ، وفيه الدليل على أنه تعالى إذا شاء أن يكلم أحدا من خلقه لم يمنعه مانع ، وأنه متصف بالكلام المتعلق بمشيئته دائما .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

قال : « باب كلام الرب مع أهل الجنة » .

مراده بيان أن الله — تعالى — متصف بالكلام في كل وقت إذا شاء لأن الكلام متعلق بمشيئته — تعالى — فأى وقت شاء أن يتكلم تكلم ، وقد سبق أن الكلام صفة كمال ، وفقده نقص يتقدس الله عنه ، وسبق ذكر أنواع من كلام الله تعالى .

١٤٢ — قال : « حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثني ابن وهب ، قال : حدثني مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — قال : قال النبي ﷺ : « إن الله — تعالى — يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

الظاهر أن هذا الخطاب الكريم من الله تعالى لعموم أهل الجنة ، وأنه بعد استقرارهم فيها .

وأما قول الحافظ في استظهاره ، أن هذا يقال للذين يخرجون من النار ، بناء على أن هذا الحديث مختصر من الحديث الطويل السابق — الذى فيه المرور على الصراط ، وفيه رؤية المؤمنين لربهم في الموقف كما تقدم في باب قوله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فليس فيه ما ذكر هنا ، فيحتاج إلى دليل ، وقد دل هذا الحديث بظاهره على أن هذا القول من الله تعالى لعموم أهل الجنة .

قال الحافظ : « هذا الخطاب غير الخطاب الذى لأهل الجنة كلهم ، وهو فيما أخرجه مسلم ، وأحمد ، من حديث صهيب ، رفعه : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى نادى مناد ، يا أهل الجنة ، إن لكم موعدا عند الله ، يريد أن ينجزكموه » الحديث .

وفيه : « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » ، وفيه : « فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه »^(١) .

وسبق معنى لبيك ، وسعديك .

قوله : « والخير فى يديك » أى أن الخلق لا يملكون لأنفسهم ، ولا لغيرهم نفعا حتى تمن به عليهم ، فكل خير مصدره منك ، وكل شر فهو من المخلوق .

قوله : « فيقول : هل رضيتم » هو جل وعلا يعلم أنهم قد رضوا ، ولا يخفى عليه شىء فى صدورهم ، ولكن يريد تقريرهم بالمنة والفضل الذى يسديه إليهم ، وكل فضل نالهم ، فهو — تعالى — ابتدأهم به من غير استحقاق له ، ولا حق لهم عليه بل بمحض فضله ، ومنته ، وأول ذلك أن جعلهم مسلمين ، ثم يسر لهم العمل الصالح الذى كان سببا لدخولهم الجنة ، ثم ثبتهم على الهدى حتى وافوه مؤمنين فما أعظم منته عليهم .

قوله : « فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك » .

ولا يحسن أن يقولوا غير هذا ، وقد أعطاهم فوق ما يتصورون ، فلا بد من الرضا ولهذا لما قال : « ألا أعطيتكم أفضل من ذلك » يقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فهم يستبعدون أن يكون شىء أفضل مما هم فيه .

(١) الفتح ج ١١ ص ٤٢٢ .

قوله : « فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .
 قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

فرضوان الله تعالى عليهم أكبر من الجنة وما فيها ، وبذلك تمت سعادتهم ،
 وكملت حياتهم ، وطابت لذتهم لما رضى سيدهم عنهم .

والحديث واضح الدلالة على مقصود الترجمة ، ففيه التصريح بأن الله تعالى
 يقول لأهل الجنة ، فيسمعون قوله ، ويجيبونه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وقد علم
 أن ذلك يتكرر ، وسبق أن كلام الله تعالى بمشيئته ، فكلما شاء أن يتكلم
 تكلم ، ويكلم من يشاء من خلقه .

١٤٣ — قال : « حدثنا محمد بن سنان ، حدثنا فليح ، حدثنا
 هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ كان
 يوما يحدث ، وعنده رجل من أهل البادية ، أن رجلا من أهل الجنة
 استأذن ربه في الزرع ، فقال : أو لست فيما شئت ؟ قال : بلى ولكن
 أحب أن أزرع ، فأسرع ، وبذر فتبادر الطرف نباته ، واستواؤه ،
 واستحصاده ، وتكويره ، أمثال الجبال ، فقال الله — تعالى —
 « دونك يا ابن آدم ، فإنه لا يشبعك شيء ، فقال الأعرابي : يا رسول
 الله لا تجد هذا إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب الزرع ، فأما
 نحن فلسنا بأصحاب زرع .

فضحك رسول الله ﷺ » .

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة .

أهل البادية ، خلاف الحاضرة ، لعدم الساتر فيها من المباني ونحوها وغالبا يكون عندهم جرأة على الكلام ، وعدم مجاملة ، ولذلك كان الصحابة — رضوان الله عليهم — يحبون أن يكون معهم عند رسول الله ﷺ الرجل العاقل من أهل البادية ، حتى يسأل رسول الله ﷺ فيستفيدوا من جوابه .

قوله : « إن رجلا من أهل الجنة » إنلخ قد فهم الأعرابي أن هذا الرجل كان في الدنيا زراعا ، ففيه دليل على إلف النفوس لما تزاوله من الأعمال ، حتى تحبه ، ويصير من مشتبهاتها ، ويكون لها فيه متعة وراحة ، وهذا الرجل بقيت معه هذه المحبة إلى الجنة .

وفيه أن ما يشتهيه أهل الجنة من أمور الدنيا يمكن حصوله لهم ، وأنهم يطلبون ما أرادوا من ربهم تعالى .

قوله : « أولست فيما شئت ؟ » يعنى لست بحاجة إلى الزرع ، فكل ما تريده من مأكول ، أو مشروب ، أو غير ذلك بين يديك .

وقوله : « بلى ، ولكن أحب أن أزرع » يعنى أن ذلك ليس عن حاجة ، وإنما هو مجرد محبة للزرع الذى كان يزاوله فى الدنيا .

قوله : « فأسرع ، وبذر ، فتبادر الطرف نباته ، واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال » يعنى أن الله أذن له فبذر ، وخرج الزرع فاستوى وانحصد ، واجتمع حبا متراكما أمثال الجبال فى لحظة واحدة ، لأن الجنة ليس فيها نصب وكد وتعب ، وإنما فيها تنعم وراحة ، وما يشتهون .

وهذا من عجائب قدرة الله القادر على كل شىء .

« فيقول : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شىء » دونك منصوب على الإغراء ، أى خذ ثمار الزرع الذى طلبت .

ولا يفهم من قوله : « فإنه لا يشبعك شىء » أن الجنة يحصل فيها حاجة

وجوع ، ولكن يدل على أن نفس الإنسان فيها من الشره فوق ما تحتاجه ، وقول الأعرابي : لا نجد هذا إلى آخره ، من باب المزاح ، والاعتزاز بأن هذا الرجل ليس من الأعراب ، وإنما هو من أهل الزرع في الدنيا وهم الحاضرة وفيه تعريض بذلك الرجل حيث طلب من الله ما لا يحسن طلبه ، لأنه لا حاجة له فيه .

والشاهد من الحديث واضح جدا ، فإن هذا الرجل خاطب ربه فكلمه ، وتكرر كلامه معه ، وهو من الأدلة الدالة على اتصاف الله تعالى بالكلام ، وتعلقه بمشيئته ، فمتى شاء الكلام تكلم .

قال : « باب ذكر الله بالأمر ، وذكر العباد بالدعاء والتضرع ، والرسالة ، والبلاغ ، لقوله : ﴿ فَأذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّأْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ غمة : هم وضيق .

قال مجاهد : اقضوا إلى ما في أنفسكم ، افرق : اقض .

وقال مجاهد : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ إنسان يأتيه ، فيستمع ما يقول ، وما أنزل عليه ، فهو آمن حتى يأتيه فيسمع كلام الله ، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء .

والنبا العظيم : القرآن ، صوابًا : حقًا في الدنيا وعمل به .

مقصوده بهذا ، بيان الفرق بين فعل الله وما هو صفة له ، وبين فعل العبد

وما هو صفة له ، والرد على الذين لم يفرقوا بين ذلك ، كما أوضح ذلك في كتابه « خلق أفعال العباد » قال — رحمه الله — بعد ما ذكر حديث أبي هريرة : « يقول العبد الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله حمدنى عبدى » الحديث قال : « فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة »^(١) .

وقال : « وأما قوله : فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذى تلفظ به .

فإن كان الذى تلفظ به قرآنا فهو كلام^(٢) .

قيل له : ما قولك تلفظ به ؟ فإن اللفظ غير الذى تلفظ به ، لأنك تلفظت بالله ، وليس الله هو لفظك ، وكذلك تلفظ بصفة الله بقول الله ، وليس قولك : الله : هو الصفة ، وإنما تصف الموصوف ، فأنت الواصف ، والله الموصوف بصفته ، وكلامه ، فهو الله^(٣) .

يعنى أن اللفظ غير المتلفظ به ، فإذا قرأ القرآن فاللفظ هو فعل العبد وصوته بحركة لسانه وما يلزم للتلفظ ، وأما الملفوظ به فهو كلام الله — تعالى — وكذلك إذا وصفت الله بقوله — تعالى — الذى وصف به نفسه ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فلفظك بهذه الآية ليست هى الصفة ولكن لفظك بها فعلك ، تصف الله بما قاله — تعالى — واصفاً به نفسه هذا معنى قوله « وليس قولك : الله هو الصفة ، وإنما تصف الموصوف فأنت الواصف ، والله الموصوف بكلامه » ثم قال :

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٥ تحقيق عبد الرحمن عميرة .

(٢) هذا قول من يقول : اللفظ هو الملفوظ ، وهو قول باطل بين بطلانه البخارى بهذا الكلام .

(٣) خلق أفعال العباد ص ١٠٨ .

« كالواصف الذى يصف الله بكلام غير الله » يعنى أن العبد إذا وصف الله بكلام الله الذى وصف به نفسه ، فالوصف فعل العبد ، والكلام الذى وصف به الله هو كلامه — تعالى — وصفته ، وهو — تعالى — الموصوف ، وهذا معنى قوله : « وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله » . ثم قال :

« ففى قولك : تلفظ به ، وتقرأ القرآن ، دليل بين أنه غير القراءة ، كما تقول : قرأت بقراءة عاصم ، وقراءتك على قراءة عاصم ، لا أن لفظك وكلامك ، كلام عاصم بعينه ، ألا ترى أن عاصما لو حلف أن لا يقرأ اليوم ثم قرأت أنت على قراءته لم يحث عاصم »^(١) .

يعنى أن قولك : تلفظت به ، كقولك : قرأت القرآن ، فالتلفظ مثل القراءة وهما غير المتلفظ به ، والمقروء ، كما تقول قرأت بقراءة عاصم ، يعنى قرأت على قراءة عاصم ، أما قراءة عاصم فهى فعله . ثم قال :

« وقال أحمد رحمه الله : لا يعجبني قراءة حمزة ، ولا يقال : لا يعجبني القرآن »^(٢) ، وهذا واضح ، فإن المراد فعل حمزة ، وما فيه من المد الطويل ، فأحمد كره فعل حمزة ، لا ما يقرأ حمزة ، ثم قال :

« واعتل بعضهم »^(٣) فقال : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ . قيل له : إنما يقال حتى يسمع كلام الله ، لا كلامك ، ونعمتك ولحنك ، لأن الله — عز وجل — فضل موسى بكلامه ، ولو كنت تسمع الخلق كلام الله ، كما أسمع الله موسى ﷺ لم يكن لموسى عليك فضل ، إذا سمعت كلام الله وسمع موسى كلام الله ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾^(٤) .

(١) خلق أفعال العباد ص ١٧٢ تحقيق بدر .

(٢) المصدر .

(٣) يعنى بعض الذين يرون أنه لا فرق بين اللفظ والملفوظ .

(٤) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن شريك بن عبد الله ، عن أنس رضى الله عنه أن النبي ﷺ ليلة أسرى به قال : « رأيت موسى في السماء السابعة بتفضيل كلام الله » (١) .

يعنى أن استدلال من يزعم أن لا فرق بين اللفظ والمفوض ، بقوله تعالى : ﴿ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ — استدلال باطل ، لأن السامع لذلك يسمع كلام الله بصوت المبلغ ولفظه ، لا بصوت الله — تعالى — ولفظه ، ولو كان الأمر كما زعم هذا المستدل ، لم يكن هناك فرق بين موسى حين كلمه الله ، وبين من يسمع كلام الله ممن يتلوه ، ويقرؤه ، ثم استدل بالحديث حيث رأى موسى في السماء السابعة بتفضيله بكلام الله له ، ولهذا قال :

« وإن ادعيت أنك تسمع الناس كلام الله ، كما أسمع الله كلامه لموسى [لما] قال له : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ فهذه دعوى الربوبية ، إذ لم تميز بين قراءتك ، وبين كلام الله ، فإن الله تعالى قال : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَدِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ﴾ [وهذا] يشرح أن ذكر العبد ربه غير ذكر الله عبده ، لأن ذكر العبد الدعاء والتضرع ، وذكر الله الإجابة ، كما قال الله عز وجل ، وقال النبي ﷺ : « إني لا أقول إلا ما في القرآن » .

حدثنا ضرار ، حدثنا صفوان بن أبي الصهباء ، عن بكير بن عتيق ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . وقال النبي ﷺ : « بينا أنا في الجنة ، سمعت صوت رجل بالقرآن » . فبين أن الصوت غير القرآن .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن سليمان ، عن موسى بن عقبة وابن

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٨ .

أبى عتيق ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا أمشى فى الجنة ، سمعت صوت رجل بالقرآن ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا حارثة بن النعمان ، فذلكم البر ، فذلكم البر » ، وكان حارثة من أبر الناس .

ويقال له : أصفه الله — جل ذكره — وعلمه ، وكلامه ، وأسمائه ، وعزته ، وقدرته ، بائن من الله — تعالى — أم لا ؟
أو قولك وكلامك بائن من الله أم لا ؟ ^(١) .

يعنى أن كلام الله مثل صفاته الأخرى ، من العزة والقدرة ، لا يكون شىء منها مفارقا لله — تعالى — وبائنا منه ، بخلاف كلام الخلق ، وأقوالهم فإنها بائنة من الله ، وليست من صفاته ، بل صفات لمن قالها ، وتكلم بها ثم قال :

« وقال الله — تعالى — : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ ^(٢) وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ ^(٣) فالإبلاغ ، والإنذار من نوح ، وهو نذير مبين ، يأمرهم بطاعة الله ، وأما الغفران ، فإنه من الله ، لقوله — عز وجل — : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ .

فذكر الدعاء سرا وعلانية من نوح ، وذكر فعل نوح بقومه . ثم قال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، فذكر خلق القوم طورا بعد طور .

وقال عز وجل : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

(١) المصدر .

(٢) الآية ٣٩ ، ٤٠ من سورة النجم .

(٣) الآية ١ من سورة نوح .

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١﴾ .

حدثنا موسى ، حدثنا سليمان ، عن ثابت ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : لما نزلت ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت ، فجلس في بيته ، وقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول ، وقد حبط عملى ، وأنا من أهل النار ، ففقدته النبى ﷺ فأتاه رجل فقال : إنه يقول : كذا وكذا ، فقال النبى ﷺ هو من أهل الجنة وكنا نراه يمشى بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

فلما كان يوم اليمامة كان من بعضنا بعض الانكشاف ، فأقبل وقد تكفن وتحنط ، وقال : بئس ما تعودون أقرانكم ، فقاتل حتى قتل ﴿٢﴾ .

وقد سمي ابن عمر الصوت بالقرآن عبادة .

حدثنى أبو يعلى محمد بن الصلت ، حدثنا أبو صفوان ، عن يونس ، عن الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه قال : « أول ما ينقص من العبادة التهجد بالليل ، ورفع الصوت فيها بالقراءة » .

وقال النبى ﷺ : « لا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة » .

وقال ابن مسعود : قال النبى ﷺ لقوم كانوا يقرأون القرآن فيجهرون به : « خلطتم على » ، يقول : علت أصواتكم فشغلتمونى برفعها فوق صوتى ، فخلطتم على ، فهى النبى ﷺ أن يرفع بعضهم على بعض صوته ، ولا يخلطون على الناس فى جهرهم ، وأصواتهم ، ولم ينه عن القرآن ، ولا عن كلام الله الذى كلم به موسى قبل أن يخلق هذه الأمة .

(١) الآية ٢ من سورة الحجرات .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير بأسانيد عدة ، انظر ج ٢ ص ٥٦ — ٦٠ .

حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية ، عن ربيعة بن زيد ، عن إسماعيل بن عبيد الله ، عن أم الدرداء ، أنها قالت : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، وإن صليت فهو من ذكر الله ، وكل خير عمله ، فهو من ذكر الله ، وكل شر تجنبه فهو من ذكر الله ، وأفضل ذلك تسييح الله .

وقال موسى : ﷺ : ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ ^(١) .
وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مَثَلِ مَا أَنْكُم تَنْطِقُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال بعضهم في قوله عز وجل : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ قال : الصوت الحسن .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ فيين أن التنزل غير الأمر .
وقال بعضهم : إن أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه ، الذين لم يعرفوا المجاز من التحقيق ، ولا الفعل من المفعول ، ولا الوصف من الصفة .

ولم يعرفوا الكذب لم صار كذبا ؟ ولا الصدق لما صار صدقا ؟
فأما بيان المجاز من التحقيق ، فمثل قول النبي ﷺ للفرس : « وجدته بحرا » . وهو الذي يجوز بين الناس . وتحقيقه أن مشيه حسن .

ومثل قول القائل علم الله معنا ، وفينا ، وأنا في علم الله ، إنما المراد من ذلك أن الله يعلمنا ، وهو التحقيق ، وأشباهه في اللغات كثيرة .

وأما الفعل من المفعول : فالفعل إنما هو إحداث الشيء ، والمفعول هو الحدث ، لقوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ^(٣) .

(١) الآية ٢٧ من سورة طه .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الذاريات .

(٣) الآية ٣٢ من سورة إبراهيم .

فالسماوات ، والأرض مفعوله ، وكل شيء سوى الله ، بقضائه فهو مفعول
فخلق السماوات فعله ، لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل
الفاعل ، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله .

ففعله من ربوبيته حيث يقول : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ و « كن » من صفته ،
وهو الموصوف به ، كذلك قال رب السماوات ، ورب الأشياء .

وقال النبي ﷺ : « رب كل شيء ومليكه » .

وكذلك مؤدى جميع لغات الخلق ، من غير اختلاف بينهم ، وإنما هو الفاعل
والفعل ، والمفعول .

فالفعل صفة ، والمفعول غيره ، وبيان ذلك في قوله — تعالى — ﴿ مَا
أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) .

ولم يرد بخلق السماوات نفسها ، وقد ميز فعل السماوات ، من السماوات
وكذلك فعل جملة الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فقد ميز الفعل والنفس ، ولم يصرف فعله
خلقا .

وأما الوصف من الصفة : فالوصف إنما هو قول القائل ، حيث يقول :
هذا رجل طويل ، وثقيل ، وجميل ، وحديد ، فالطول ، والجمال ، والحدة ،
والثقل إنما هو صفة الرجل ، وقول القائل وصف .

كذلك إذا قال : الله رحيم ، والله عليم ، والله قدير ، فقول القائل وصف
وهو عبادة ، والرحمة ، والعلم ، والقدرة ، والكبرياء ، والقوة كل هذا
صفاته (١) .

(١) خلق أفعال العباد ص ١١٤ .

يعنى أن فعل الواصف الذى هو قوله يصف الموصوف إذا تكلم بذلك ونطق به ، يسمى وصفا ، وهو عبادة إذا كان يصف الله — تعالى — لأنه يثنى عليه بذكر صفته .

وأما الصفة : فهي قائمة بالموصوف ، لا تفارقه ، مثل رحمة الله ، وعلمه وقدرته ، وقوته ، وعزته ، وكبريائه ، وغير ذلك من أوصافه .

ثم قال : « وأما الكذب من الصدق : فقول القائل : فلان ها هنا وهو غائب ، فهو كذب .

فلو كان حاضرا لكان صدقا ، والكلمة واحدة ، وإنما صار كذبا وصدقا لحال المعنى .

وكذلك لو أن رجلا قال : إن الله رحيم ، ويرحم ، والله عليم ويعلم ، والله قدير ويقدر ، والله سميع ويسمع ، ولم يكن لقوله معنى كما وصفنا فى شأن الكذب والصدق ، لكان قوله كذبا ، وإنما صار هذا القول صدقا وعبادة وطاعة لحال المعنى .

واختلف الناس فى الفاعل والمفعول ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ، ليست من الله .

وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله .

وقالت الجهمية : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا : « كن » مخلوق .

وقال أهل العلم : التخليق فعل الله ، وأفاعيلنا مخلوقة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ۗ ﴾^(١) يعنى السر والجهر من القول .

(١) الآية ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

ف فعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق .

ويقال لمن زعم أني لا أقول : القرآن مكتوب في المصحف ، ولكن القرآن بعينه في المصحف ، يلزمك أن تقول : إن ما ذكر الله في القرآن من الجن ، والإنس ، والملائكة ، والمدائن ، ومكة ، والمدينة ، وغيرهما ، وإبليس ، وفرعون ، وهامان ، وجنودهما ، والجنة ، والنار : عاينتهم بأعيانهم في المصحف ، لأن فرعون مكتوب فيه ، كما أن القرآن مكتوب فيه .

ويلزمك أكثر من هذا ، حين تقول في المصحف [الله لأنه مكتوب فيه ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ . وهذا أمر بين ، لأنك تضع يدك على هذه الآية ، وتراها بعينك ^(١) .

فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود ، وقوله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ ^(٢) هو قرآن .

وكذلك جميع القرآن هو قوله — تعالى — والقول صفة القائل ، موصوف

به .

فالقُرآن قول الله عز وجل .

والقراءة ، والكتابة ، والحفظ للقرآن ، هو فعل الخلق ، وهو طاعة الله ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ ^(٤) .

(١) ما بين الحاصرتين تصرفت فيه بالتقديم والتأخير ؛ لأن فيه ارتباكاً وتعقيداً والمقصود منه واضح ، وأظن أنه حصل فيه الاضطراب من النسخ .

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة و ٢ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٢٩ من سورة فاطر .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾^(١) وقال عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾^(٢) فذلك كله مما أمر الله به .
ولذلك قال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فالصلاة بجملتها طاعة الله ، وقراءة القرآن من جملة الصلاة .

فالصلاة طاعة لله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهو مكتوب في المصحف ، محفوظ في الصدور ، مقروء على الألسن .

والقراءة ، والحفظ ، والكتابة مخلوق ، وما قرئ ، وحفظ ، وكتب ليس بمخلوق .

ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون الله ، ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق ، ولا شك فيه .
والخالق الله بصفته .

ويقال له : أترى القرآن في المصحف ؟ فإن قال : نعم ، فقد زعم إن من صفات الله ما يرى في الدنيا ، وهذا رد لقول الله عز وجل : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾^(٣) في الدنيا ، وإن قال : يرى كتابة القرآن فقد رجع إلى الخلق .

ويقال له : هل تدرك إلا اللون ؟ فإن قال : لا ، قيل له : وهل يكون اللون إلا في الجسم ؟ فإن قال : نعم فقد زعم أن القرآن جسم يرى^(٤) .

يعنى أن الذى فى المصحف هو كتابة القرآن ، والكتابة فعل العباد ، أما القول فلا يرى ، وإنما يسمع ، وهو صفة القائل قائم به .

(١) الآية عدد من آيات سورة اقتربت الساعة .

(٢) الآية جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) جزء من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٤) خلق أفعال العباد ص ١١٤ - ١١٦ .

والمقصود أن وجود القرآن في المصحف ليس كوجود الأعيان المشاهدة ، وإن كان له وجود حقيقي ، فقد اتفق المسلمون على أن القرآن في المصحف قال ابن القيم : « من المعلوم بالفطرة المستقرة عند العقلاء قاطبة أن الكلام يكتب في المحال من الرق ، والخشب وغيرهما ويسمى محله كتابا ، ويسمى نفس المكتوب كتابا .

فمن الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ . ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ .

والقول بأن الكلام في الصحيفة من العلم العام الذى لم ينازع فيه أحد من العقلاء إذا سلمت الفطرة من الانحراف ، وقد قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾^(١) وفي حديث ابن عمر : نبى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو^(٢) ، ومعلوم بالضرورة أنه لا محذور في السفر إلى أرض العدو بالمداد والورق ، وإنما المحذور أن يسافر بالكلام الذى تضمنه الورق^(٣) . وسيأتى مزيد لهذا في موضعه .

وقد أطلت النقل عن البخارى رحمه الله لأن ذلك مراد فيما ترجم به ، فهو كالشرح له ، وبذلك وضع مقصده وضوحا جليا .

فقوله : « ذكر الله بالأمر » أى أمره الذى يأمر به عباده ، وهو صفته ، فإذا أمرهم فقد ذكرهم ، وكذلك إذا رحمهم وأنعم عليهم ، فقد ذكرهم . « وذكر العباد بالدعاء والتضرع ، والرسالة والبلاغ » أى ذكرهم الله بأن

(١) الآية ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج .

(٢) رواه مسلم رقم ١٨٦٩ ج ٣ ص ١٤٩٠ — ١٤٩١ والإمام أحمد في المسند ج ٢ ص ٧ ،

٦٣ ، ١٢٨ وغيرهما ورواه البخارى . ج ٤ ص ٤٥ باب السفر بالمصاحف إلى أرض العدو .

(٣) مختصر الصواعق ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ملخصا .

يدعوه ، ويتضرعوا إليه ، ويفعلوا ما أمرهم به ، ودعأؤهم بذكر أسمائه وصفاته
وثناؤهم عليه بها .

وكذلك القيام بإبلاغ رسالته ، التي أرسل بها رسله .

قوله : « لقوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ قال الحسن : اذكروني فيما
افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي » . وقال سعيد بن جبير :
« اذكروني بطاعتي ، أذكركم بمغفرتي » وفي رواية « برحمتي » (١) .

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوْحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِنْ كُنَّ عَلَيكُمْ مَقَامِي
وَتَذَكِيرِي بِنَايَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اذكر لقومك ، وقص عليهم
خبر نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم حين قال لقومه يبلغهم رسالة ربه إليهم ، وذلك من
ذكره لربه ، إن كان عظم عليكم ، وشق بكم قيامي فيكم أذكركم بنعم الله
وأخوفكم نقمه ، وأدعوكم إلى طاعته وتوحيده بالعبادة والطاعة ، إن كان ذلك
عظم عليكم فتهيئوا واستعدوا لما تريدون أن تصنعوه بي ، فإنى توكلت على الله
لا على غيره فسوف يكفينى ويحمينى ، أما أنتم فأجمعوا قوتكم ، واستعينوا
بمعبوداتكم من دون الله ، واحذروا أن يكون أمركم عليكم وبالأ وعذاباً
ونكالاً ، وهماً وضيقاً ، لأنكم تحاربون الله ورسوله ومن كان حرباً لله
ورسوله ، فهو مخذول ، ومرذول ومقهور .

﴿ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى عجلوا إلى بما تريدون أن تصنعونه
بي ، ولا تؤخروني ساعة ، فهو صلى الله عليه وسلم يتحداهم بذلك لأنه واثق بالله تمام الثقة ،
فلم يستطيعوا أن ينالوه ، وهذا من علامات نبوته ، كيف رجل واحد ، لا
جنود معه ولا سلطة ، يقف أمام هذه الأمة العظيمة يتحداهم بأن ينزلوا به
كل ما يستطيعون من عذاب ، ويستحثهم على ذلك فلا يستطيعون أن يصلوا
إليه بأذى مع عداوتهم الشديدة له .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٦ .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى إن أعرضتم عما أدعوكم إليه ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ولم أطلب منكم على ذلك شيئا من أموالكم ، ولكن أجرى على ربي ، فهو الذى سيجزىنى على إبلاغ رسالته إليكم ، وهذا كله من ذكر نوح عليه السلام لربه .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى أمرنى ربي أن أسلم له وأنقاد لأمره ، مدعنا ، خائفا من عذابه ، راجيا ثوابه ، وهذا من ذكر الله تعالى لعبده ورسوله نوح عليه السلام .

« افرق » اقص . كلمة افرق فى آية أخرى ، ولكن عادة البخارى رحمه الله أنه يذكر النظم مع نظيره ، لاجتماعهما فى المعنى ، ولهذا ذكر قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ الْعَظِيمِ ﴾ لمناسبته مع قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ . وما ذكره عن مجاهد فى الآية واضح ، ومراده أن المستجير يسمع كلام الله من المبلغ بصوت المبلغ ، ونطقه ، وصوته ونطقه من فعله ، وهو مخلوق ، أما المبلغ المنطوق به ، فهو كلام الله — تعالى — وصفته ، كما تقدم بيان ذلك من كلام البخارى — رحمه الله .

وقوله : « صوابا : حقا فى الدنيا وعمل به » . قال ابن بطال : « يريد قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى حقا فى الدنيا وعمل به ، فهو الذى يؤذن له فى الكلام ، بين يدى الله بالشفاعة لمن أذن له . قلت^(١) : وهذا وصله الفريابى ، عن مجاهد ، بالسند المذكور .

قال الكرماني : عادة البخارى أنه إذا ذكر آية لمناسبة الترجمة يذكر معها ما يتعلق بتلك السورة ، التى فيها تلك الآية مما ثبت عنده من تفسير ، ونحوه على سبيل التبعية ، وكأنه لم يظهر له وجه مناسبة هذه الآية الأخيرة بالترجمة .

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر رحمه الله .

والذى يظهر فى مناسبتها أن تفسير قوله ﴿صَوَابًا﴾ يقول الحق والعمل به فى الدنيا يشمل ذكر الله باللسان ، والقلب مجتمعين ، ومنفردين ، فناسب قوله : « ذكر العباد بالدعاء والتضرع » انتهى^(١) .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ وقوله جل ذكره : ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ .

قال فى اللسان : « الند بالكسر : المثل والنظير ، وهو مثل الشيء الذى يضاده فى أموره ، ويناده — أى يخالفه .

قال الأخفش : الند : الضد ، والشبه ، وقوله : « يجعلون لله أندادا » أى أضدادا ، وأشباها ، قال : حسان :

أتهجوه ولست له بند فشركا لخير كما الفداء

أى لست له بمثل فى شيء من معانيه^(٢) .

وقال ابن جرير فى قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ : الأنداد جمع ند ، والند العدل ، والمثل ، كما قال حسان ، ثم ذكر البيت . ثم قال : يعنى بقوله : ولست له بند : لست له بمثل ، ولا عدل ، وكل شيء كان نظيرا لشيء وشبيها فهو له ند ، ثم ذكر بسنده إلى قتادة ، قال : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أى عدلاء ، وعن مجاهد : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أى عدلاء .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٩٠ .

(٢) اللسان ج ٣ ص ٦٠٧ المرتب .

وعن ابن عباس وابن مسعود : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله .

وعن ابن أبى زيد : الأنداد : الآلهة التى جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له ، وعن ابن عباس : أشباها .

وعن عكرمة : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى تقولوا : لولا كلبنا لدخل علينا اللص الدار ، ولولا كلبنا صاح فى الدار ، ونحو ذلك ، ففهم الله — تعالى — أن يشركوا به شيئاً ، وأن يعبدوا غيره ، أو يتخذوا له ندا ، وعدلا فى الطاعة ، فقال : كما لا شريك لى فى خلقكم ، وفى رزقكم الذى أرزقكم ، وملكى إياكم ، ونعمتى التى أنعمتها عليكم ، فكذلك فأفردوا لى الطاعة ، وأخلصوا لى العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكاً وندا من خلقى ، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم منى ^(١) .

وفى الدر المنثور : « أخرج الطستى ، عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق . قال له : أخبرنى عن قول الله — عز وجل — ﴿ أَنْدَادًا ﴾ ؟ قال : الأشباه والأمثال ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

أحمد الله فلا ند له بيديه الخير ماشا فعل

وأخرج ابن أبى شيبه ، وأحمد ، والبخارى فى الأدب المفرد ، والنسائى وابن ماجه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن ابن عباس قال : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، فقال : جعلتنى لله ندا ، ما شاء الله وحده .

وأخرج ابن أبى شيبه ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ،

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ تحقيق محمود شاكر .

والبيهقي عن حذيفة بن اليمان ، عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء الله وفلان ، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » وذكر أحاديث في ذلك^(١) .

وهذا يدل على أن جعل الند لله عام في الأفعال ، والأقوال ، والنيات ، ويكون في الشرك الأكبر ، والأصغر ، كما في الرواية عن عكرمة : هو قول الرجل : لولا كلبنا لدخل علينا اللصوص .

وكذلك في كل ما هو لله فشرک المخلوق فيه ، مثل أن يجعل كلامه تعالى ككلام عباده ، أو صفة من صفاته ، كصفة عباده ، فيكون بذلك جعل لله ندا ، وهذا مراد البخارى رحمه الله من الاستدلال بهذه الآيات التي ذكرها هنا .

قال ابن كثير : « وقال ابن إسحاق : حدثني محمد بن محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه ، وهكذا قال قتادة .

ثم ذكر عن ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ .

قال : الأنداد : هو الشرك أخفى من ديب التمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا ، لأتانا اللصوص ، البارحة ، ولولا البط في الدار ، لأتى اللصوص .
وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : « لولا الله

(١) الدر المنثور ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ .

وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك»^(١) .

وهذا تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعظم ، وذلك أن الشرك أن يجعل المخلوق مشاركا لله في شيء من خصائص الله مطلقا ، كما سبق قريبا فالخلف بغير الله شرك ، سواء كان المخلوق به معظما كالنبي والكعبة ، أو غير معظم ، ويدخل في ذلك مراد البخارى كما أشرت إليه .

« قال ابن بطال : غرض البخارى في هذا الباب ، إثبات نسبة الأفعال كلها لله — تعالى — سواء كانت من المخلوقين خيرا أو شرا ، فهي لله — تعالى — خلق وللعباد كسب ، ولا ينسب شيء من الخلق لغير الله — تعالى — فيكون شريكا ونادا ، ومساويا له .

وقال الكرماني : الترجمة مشعرة بأن المقصود إثبات نفى الشريك عن الله سبحانه — تعالى — فكان المناسب ذكره في أوائل كتاب التوحيد .

لكن ليس المقصود هنا ذلك ، بل المراد بيان كون أفعال العباد بمخلوق الله — تعالى — إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا أندادا لله ، وشركاء له في الخلق ولهذا عطف ما ذكر .

وتضمن الرد على الجهمية في قولهم : لا قدرة للعبد أصلا ، وعلى المعتزلة ، حيث قالوا : لا دخل لقدرة الله — تعالى — فيها .

والمذهب الحق : « أن لا جبر ولا قدر ، بل أمر بين أمرين »^(٢) .

يعنى لا جبر كما تقوله الجهمية الذين جعلوا العبد كآلة ، لا قدرة له ولا اختيار .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٩١ . .

ولا ينفي تقدير الله تعالى لأفعال العباد في الأزل ، وخلقها ، كما تقوله المعتزلة ، بل الحق إثبات قدرة العبد ، وأنه يفعل باختياره ، وإرادته لا أحد يجبره على الفعل ، والله — جل وعلا — خلقه وخلق أفعاله ، وقدر عليه كل ما يجرى عليه قبل إيجاده ، وكتب ذلك ، وعلمه تعالى محيط بكل شيء ونفس فعل العبد ، وإن كان الله خالقه ، فالعبد هو الفاعل لفعله حقيقة فهو المتحرك بالأفعال ، باختياره ، وبه قامت أفعاله ، ومنه صدرت والله خالقه ، وخالق أفعاله .

قال الحافظ : « غرضه هنا الرد على من لم يفرق بين التلاوة والتملؤ ، ولذلك أتبع هذا الباب بالتراجم المتعلقة بذلك مثل باب : ﴿ لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وباب ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ ، وغيرهما . وهذه المسألة هي الشهورة بمسألة اللفظ ، ويقال لأصحابها اللفظية . وقد ظن بعضهم أن البخارى خالف أحمد — فيها ، وليس كذلك — بل من تأمل كلامه لم يجد فيه خلافا معنويا . لكن العالم من شأنه إذ ابتلى في رد بدعة يكون أكثر كلامه في ردها ، دون ما يقابلها .

فلما ابتلى أحمد بمن يقول : القرآن مخلوق ، كان أكثر كلامه في الرد عليهم حتى بالغ ، فانكر على من يقف ، ولا يقول : مخلوق ، ولا غير مخلوق ، وعلى من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، لئلا يتذرع بذلك من يقول : القرآن بلفظي مخلوق ، مع أن الفرق بينهما واضح لا يخفى عليه ، لكنه قد يخفى على البعض^(١) .

(١) قوله : « حتى بالغ فأنكر على من يقف » إلى آخر كلامه عن أحمد ، كلام غير سديد ، بل إنكار أحمد رحمه الله ذلك ، لأن الواصف لم يفرق بين الحق والباطل ، والواجب أن يعرف الحق ويقول به ، ولا يقف مترددا ، لأن وقوفه يوهم باطلا .

وأما البخارى ، فابتلى بمن يقول : أصوات العباد غير مخلوقة ، حتى بالغ بعضهم ، فقال : والمداد ، والورق بعد الكتابة .

فكان أكثر كلامه فى الرد عليهم ، وبالغ فى الاستدلال بأن أفعال العباد مخلوقة بالآيات والأحاديث ، وأطنب فى ذلك حتى نسب أنه من اللفظية»^(١) .

وقال أبو بكر الضبعى : « لم يزل الله متكلماً ، ولا مثل لكلامه ، لأنه نفى المثل عن صفاته ، كما نفى المثل عن ذاته ، ونفى النفاذ عن كلامه ، كما نفى الهلاك عن نفسه ، فقال : ﴿ لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي ﴾ وقال : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾^(٢) .

فيجب التفرقة بين ما هو لله صفة وفعلاً ، وبين ما هو للمخلوق صفة وفعلاً وأن يوحد الله فى خصائصه وحقوقه ، وأن لا يجعل لأحد من الخلق شركة فى صفات الله وأفعاله ، ومن ذلك الفرق بين أفعال التالى لكتاب الله ، وما هو صفة لله وهو كلامه المتلو .

ومذهب أهل السنة أن الله خالق كل شىء . وهو ربه ومالكه ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شىء قدير ، وأنه خلق العبد هلوفاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .

وإن العبد فاعل لأفعاله حقيقة ، وله مشيئة وقدرة حقيقة كما قال تعالى :

= وكذلك قوله : لفظى بالقرآن مخلوق ، أو غير مخلوق ، يوهم باطلاً ، لأنه قد يراد باللفظ ، الملفوظ وهو القرآن ، وإذا قال غير مخلوق : يدخل فيه فعل القارئ من حركات لسانه ، وصوته ، وفعل القارئ مخلوق ، فهذا هو مراد أحمد رحمه الله ، ولدقته قال البخارى رحمه الله : أنهم لم يفهموا كلام أحمد ، ولذلك أنكروه ابن قتيبة .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٢ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٩٢ .

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢) فبين تعالى أن العباد لهم مشيئة يفعلون
بها إذا شاؤا ، وأنها تابعة لمشيئة الله لأنه المالك لكل شيء المتصرف فيه .
وزعمت المعتزلة أن أفعال العباد القبيحة ، من الكفر والمعاصي غير داخلة
في مشيئة الله ، وتقديره ، لأن الله منزّه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين .
وقالت الجبرية : ليس للعبد فعل في الحقيقة ، والأفعال كلها لله ، والعبد
كاسب لا فاعل ، وقدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ، غير أن الله —
تعالى — أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها ، فيكون الفعل خلقا من
الله ، وإبداعا وإحداثا منه تعالى ، وكسبا من العبد لوقوعه مقارنا لقدرته ،
والعبد ليس محدثا لأفعاله ، ولا موجدا لها ، وهذا قول الأشعرية . ومع ذلك
ينكرون أن يكونوا جبرية ، لأنهم يقولون : نحن نثبت للعبد قدرة حادثة ،
والجبرية لا تثبت ذلك .

وفرقوا بين الكسب الذى أثبتوه للعبد ، وبين الخلق الثابت لله بأن
الكسب : عبارة عن اقتران قدرة العبد الحادثة بالمقدور ، والخلق هو المقدور
بالقدرة القديمة .

وبأن الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج
عن محل القدرة عليه .

وهذا فرق لا حقيقة له ، فإن كون المقدور في محل القدرة ، أو خارجا

(١) الآيتان ٢٨ و ٢٩ من سورة التكوير .

(٢) الآيتان ٢٩ و ٣٠ من سورة الإنسان .

عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه .

والصواب أنه لا فرق بين كون العبد فاعلا للفعل ، أو كاسبا له ، فإن الكسب مرادف للفعل والعمل ، فيقال : فعل وعمل ، وكسب وأوجد ، وأحدث ، وصنع كلها بمعنى واحد .

وعمل العبد ، وصنعه ، وإحداثه ، وكسبه ، مقدور له بقدرته الحادثة وهو قائم في محل القدرة .

والاقتران الذى ذكروه ، لا يكون كسبا ، ولا فعلا ، وإنما هو تخيل لا حقيقة له .

وأصل خطيئهم من عدم التفريق بين الخلق والمخلوق ، والفعل والمفعول وزعمهم أن الله — تعالى — ليس له أفعال تقوم به ، وأن فعله للشئ هو عين المفعول .

ومن المستقر فى الفطر والعقول أن فاعل الإيمان هو العبد المؤمن ، وفاعل الكفر هو العبد الكافر ، وفاعل الصدق هو الصادق ، وفاعل الكذب هو الكاذب ، وفاعل الظلم هو الظالم ، كما أن فاعل الأكل هو الآكل وفاعل الشرب هو الشارب .

وهكذا كل فعل لابد أن يقوم بالفاعل ، كما أن العالم من قام به العلم والحى من قامت به الحياة ، وكل صفة تقوم بالمتصف بها .

والقرآن مملوء بما يدل على هذا كقوله — تعالى — ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١) .

وقوله : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾^(٢) وقوله : ﴿ إِنَّ

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة التوبة .

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١﴾ وأمثالها كثير جدا .

واتفق العقل مع الشرع على أن العبد يحمد ، ويدم على فعله .

قال شيخ الإسلام : « قول القائل هذا فعل هذا ، وعمل هذا ، لفظ فيه إجمال ، فإنه تارة يراد بالعمل نفس الفعل ، وتارة يراد مسمى المصدر ، فيقول : فعلت هذا ، أفعله فعلا ، وعملت هذا أعمله عملا ، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذى هو مسمى المصدر ، كصلاة الإنسان ، وصيامه ، ونحو ذلك ، فالعمل هنا هو المعمول ، وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل .

وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب ، وبناء الدار ، ونحو ذلك فالعمل هنا غير المعمول ، قال الله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ (١) فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإنه فى أصح القولين « ما » بمعنى الذى ، والمراد به ما تحتونه من الأصنام ، كما قال تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) أى والله خلقكم ، وخلق الأصنام التى تحتونها ، ومنه حديث حذيفة ، عن النبى ﷺ : « إن الله خالق كل صانع وصنعه » (٣) .

لكن قد يستدل بالآية على أن الله خالق أفعال العباد من وجه آخر ، فيقال : إذا كان خالقا لما يعملون من المنحوتات ، لزم أن يكون هو الخالق لتأليف

(١) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٣) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة الصافات .

(٤) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ٣٩ .

الذى أحدثوه فيها ، فإنها إنما صارت أوثانا بذلك التأليف ، وإلا فهى بدون ذلك ليست معمولة لهم .

وإذا كان خالقا للتأليف كان خالقا لأفعالهم .

والمقصود أن لفظ الفعل ، والعمل ، والصنع ، وأنواع ذلك كلفظ البناء والخيطة والنجارة ، تقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى المفعول .

وكذلك لفظ التلاوة والقراءة ، والكلام ، والقول ، يقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول ، والكلام .

فيراد بالتلاوة ، والقراءة نفس القرآن ، المقروء المتلو ، كما يراد به مسمى المصدر ، فإذا قال القائل : هذه التصرفات فعل الله ، أو فعل العبد ، فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر ، فهذا باطل باتفاق المسلمين ، وبصريح العقل ، وإن أراد أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات ، فهذا حق^(١) .

فالذين أنكروا أن يكون لله تعالى فعل يقوم به ، لم يفرقوا بين فعله ومفعوله ، وخالقه ، ومخلوقه .

والفرق واضح ، فأعمال العباد مخلوقة لله — تعالى — مفعولة له ، ليست هى نفس فعله ، وإنما هى فعل العباد ، قائمة بهم ، وهى أيضا مفعولة لهم إذا أريد بالفعل المفعول .

وخلق الله تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته كما تقدم التنبيه على ذلك . فأفعال العباد مخلوقة لله كسائر مخلوقاته ، ومفعولة له ، وهى فعل العباد حقيقة ، وقائمة بهم حقيقة .

فالكفر ، والكذب ، والظلم ، ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من قامت

(١) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ١٢١ — ١٢٢ .

به وفعالها ، ولا يتصف بها من خلقها ، وجعلها صفة لغيره .

فكما أن الله — تعالى — لا يكون متصفا بما خلقه في خلقه من الألوان والروائح ، والطعوم ، فكذلك لا يكون متصفا بالفعل الذى خلقه في عباده ، وجعله وصفا لهم .

وهذا تزول شبهة المعتزلة ومن وافقهم ، في نفهم الأفعال القبيحة أن تدخل تحت مشيئة الله وخلقته محتجين بأنه تعالى منزه عن القبيح والله أعلم .

قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أول الآية : ﴿ قُلْ إِيَّاكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

ينكر تعالى على المشركين الكافرين به ، الذين يعبدون معه غيره ، من الأوثان التى لا تملك لهم ، ولا لنفسها نفعا ، ولا ضرا ، ومع ذلك يجعلونها نظراء وشبهاء لله رب العالمين ، فى التوجه إليها بالعبادة ، يطلبون منها أن تتوسط لهم عند الله وتشفع لهم ، وهى ملك لله يتصرف فيها كيف يشاء .

والمقصود من الآية أن من سوى المخلوق بالله فى صفة من الصفات ، أو فعل من الأفعال ، أو فى ما يجب له من الحق فقد جعل لله ندا ، وأشرك بالله غيره .

فقول الله ، وكلامه ، لا يشبه قول عباده وكلامهم ، فمن زعم أن قول العباد يشبه قول الله فقد جعل لله ندا ، وكذلك سائر أوصافه .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

(١) الآية ٩ من سورة فصلت .

قال ابن جرير : « يقول تعالى لنبيه ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل لئن أشركت ليحبطن عملك يقول : لئن أشركت بالله شيئا يا محمد ليبطلن عملك ، ولا تنال به ثوابا ، ولا تدرك به جزاء إلا جزاء من أشرك بالله .

وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم أى أوحى إلى الذين من قبلك من الرسل مثل الذى أوحى إليك ، فاحذر أن تشرك بالله شيئا فهلك^(١) .

وفى هذه الآية تعظيم أمر الشرك لأن الله تعالى وجه الخطاب إلى رسوله ﷺ بأنه لو أشرك لحبط عمله ، وأصبح من الخاسرين ، فكيف بغيره من سائر الناس ، ومثلها قوله — تعالى — بعد ما ذكر فضل الأنبياء ونعمته عليهم : ﴿ وَوَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) .

ووجه الاستدلال بالآية التحذير من الوقوع فى أى نوع من أنواع الشرك مثل أن يعتقد أن صفة الله كصفات الخلق ، أو كلامه ككلامهم ، فمن وقع فى ذلك ، فقد وقع فى الشرك المحبط للأعمال ، وصاحبه من الخاسرين .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ هذه الآية فى سياق ثناء الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين يخشونه ، ولا يخشون أحدا غيره ، ويتجهون إليه بالدعاء والعبادة وحده ، ويبيتون ليلهم سجدا لله وقياما ، رجاء ثوابه ، وخوفا من عقابه .

وهذه الآية بمعنى الحديث الآتى ، وقد جاء فى رواية ، أن ابن مسعود لما ذكر الحديث عن النبى ﷺ قال : فنزل تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الآية .

(١) تفسير الطبرى ج ١١ ص ١٦ طبعة بولاق .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الأنعام .

والمقصود الثناء على المؤمنين الذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر غيره ، ومثل ذلك الابتعاد عن القول بأن شيئًا من أوصاف الله وأفعاله يكون مثل أوصاف المخلوقين وأفعالهم ، تعالى الله وتقدس .

فمن ابتعد عن الشرك كله بأنواعه ، فهو المستحق لثناء الله ، وهو عبد الله المستوجب لوعده بقوله : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (١) .

ولكون الشرك يقع من الناس كثيرا ، وأكثرهم يجهل أنواعه ، ذكر قول عكرمة : « ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ﴾ ، و ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، فذلك إيمانهم ، وهم يعبدون غيره . . يعني أن إيمانهم هو إقرارهم بتوحيد الربوبية وعلمهم بأن الله هو المتفرد بالخلق .

روى ابن جرير ، عن عكرمة ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ قال : هو قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، فإذا سئلوا عن الله ، وعن صفته ، وصفوه بغير صفته ، وجعلوا له ولدا ، وأشركوا به » (٢) .

قوله : « وما ذكر في خلق أفعال العباد وأكسابهم » يعني أن أفعالهم ، وأكسابهم مخلوقة لله تعالى ، وإن كانت فعلا لهم حقيقة ، ولا فرق بين الفعل ، والكسب كما قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ فالكسب هو العمل .

والذين يجعلون أفعال العباد ، وأكسابهم فعلا لله تعالى مشركون ،

(١) الآيات ٧٥ ، ٧٦ من سورة الفرقان .

(٢) انظر تفسير الطبري ج ١٦ ص ٢٨٧ تحقيق محمود شاكر .

لأنهم جعلوا له ما للمخلوق .

كما أن الفريق الضال الآخر الذين يجعلون العباد خالقين لأفعالهم ، وموجدين لهم مشركون بذلك . وهذا وجه إيراد البخارى رحمه الله للآيات التى سبق ذكرها . وتقدم الكلام على أفعال العباد .

ثم استدل على دخول أفعال العباد فى مخلوقات الله — تعالى — بقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ فدخلت أفعالهم فى عموم ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، ودل قوله : ﴿ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ على أنه تعالى : أتقن ذلك ، غاية الإتقان حيث خلقها وجعلها مفعولة للعباد ، واقعة منهم ، بإراداتهم ، واختيارهم ، لم يرغبوا عليها ، بل فعلوها راغبين فى فعلها ، مختارين لها ، ولذلك استحقوا عليها الثواب ، والعقاب .

قوله : « وقال مجاهد : ﴿ مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ يعنى بالرسالة ، والعذاب .

يعنى أن تنزل الملائكة هو فعلهم بأمر الله تعالى لهم طائعين ممثلين أمر ربهم فالنزول منهم فعل لهم يستوجبون به الثناء من الله لأنهم أطاعوه بذلك فأفعالهم قائمة بهم يفعلونها باختيارهم ، كبنى آدم .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فهو فعل الله ، والضمير فى ﴿ لَهُ ﴾ عائد إلى الذكر . فى قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ .

وقوله : ﴿ عِنْدَنَا ﴾ أراد به بيان أن هذا فعل الله الخاص به .

وبين ذلك بقوله : ﴿ لَيْسَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ « المبلغين المؤدين من الرسل » أى المؤدين الرسالة ، كما أمرهم الله .

فالصدق : فعل الصادقين ، والصادق ، هو المتصف بالصدق ، الذى قام به الصدق فعلا له ، فالصدق فعلهم وعملهم ، والله تعالى يسألهم عن عملهم .

والسؤال من الله فعله — تعالى — وقوله ، يسأل به الرسل ، عن تبليغهم ما أمرهم بإبلاغه لعباده ، وزاد ذلك إيضاحاً بقوله :

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ الْقُرْآنُ : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ الْمُؤْمِنُ ، يقول يوم القيامة : « هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه » .

فبين أن القرآن — الذي فسر به الصدق — غير التصديق ، بل التصديق فعل المصدق — وهو المؤمن ، أو الرسول — وهو عمله الذي يثاب عليه .

ولهذا يجيب ربه إذا سأله يوم القيامة : « ماذا عملت بما علمت ؟ » قائلاً : هذا الذي أعطيتني — يعنى القرآن — عملت بما فيه ، فبين أن القرآن غير عمل القارئ ، فتحريك اللسان ، والشفقتين ، ورفع الصوت ، ورفعته ، وخفضه ، هو عمل الرجل الذى يقرأ ، وأما المقروء المتلفظ به . فهو القرآن كلام الله ، وكلام الله غير عمل القارئ ، ولهذا قال : هذا الذى أعطيتنى عملت بما فيه مجيباً ربه .

١٤٤ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل ، عن عبد الله ، قال : سألت النبى ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندا ، وهو خلقك » ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تزانى بحليلة جارك » .

الذنوب تتفاوت فى العظم ، فبعضها أعظم من بعض ، فيكون ما يترتب عليها من العقوبات كذلك .

وأعظم الذنوب الشرك بالله تعالى ، قال تعالى عن لقمان : ﴿ يَبْنَىٰ »

لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ فالشرك أعظم الذنوب عند الله ،
فلذلك حرم على صاحبه الجنة ، وأخبر أن مأواه النار ، وأنه لا يخرج منها ،
كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ﴿٣﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ
وَيَعْفُرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ﴿٤﴾ .

فلذلك يتعين على المرء أن يجتهد غاية وسعه في التعرف على أنواع الشرك ،
حتى يجتنبها ، لأنه إذا لم يعرفها يوشك أن يقع فيها وهو لا يشعر ، فيكون
في ذلك هلاكه الأبدى . وتقدم القول في الند .

قوله : « أن تجعل لله ندا وهو خالقك » أسند الجعل إلى العبد لأنه فعله
ولهذا استحق عليه عقاب الله وعذابه .

وقوله : « وهو خالقك » يعنى أن الدلائل على وجوب عبادة الله وحده ،
وإخلاص العبادة له واضحة جلية ، مثل كونه تعالى هو المتفرد بالخلق ،
والإيجاد من العدم وبالرزق ، فهو المستحق للعبادة وحده .

وقول عبد الله : « إن ذلك لعظيم » يعنى أن عظمه وقبحه مستقر في نفوس
العقلاء ، والناظرين في شرع الله ، ودلائل وجوب عبادته .

قوله : « قلت : ثم أى ؟ » يعنى ما هو الذنب الذى يلى الشرك فى العظم
عند الله .

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان .

(٢) جزء من الآية ١٦٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١١٦ من سورة النساء .

« قال : « أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك » . قتل النفس بغير حق عمدا عظيم جدا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وفي الحديث الذي رواه أبو داود ، عن عبادة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما ، فإذا أصاب دما حراما بَلَّحَ » (٢) أى لا يزال مسرعا في سيره إلى الله ، وإنما يجسسه ويمنعه من السير إصابته الدم الحرام ، ومعنى « بلح » انقطع من العجز والإعياء ، فلم يستطع المشى . وهذا جزء من حديث طويل ، ولفظه :

« عن أم الدرداء ، قالت : سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره ، إلا من مات مشركا ، أو مؤمنا قتل مؤمنا متعمدا » .

فقال هانى بن كلثوم سمعت محمود بن الربيع يحدث ، عن عبادة بن الصامت أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قتل مؤمنا فاعتبط بقتله ، لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » ، قال لنا خالد : ثم حدثنى ابن أبى زكريا عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما ، فإذا أصاب دما حراما بَلَّحَ » (٣) .

وعن البراء بن عازب ، أن رسول الله ﷺ قال : « لزوال الدنيا أهون

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء .

(٢) سنن أبى داود ج ٤ ص ٤٦٤ .

(٣) انظر السنن ج ٤ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ رقم ٤٢٧٠ .

على الله من قتل مؤمن بغير حق»^(١) ، والأحاديث في هذا فيها كثرة .

والقتل مع عظمه يتفاوت ، فبعضه أعظم من بعض ، وأعظمه أن يقتل الرجل ولده ، لأن الله جعل له من الشفقة ، والحنو ، والحب ما لا ينكر ، وأمر الله تعالى بمراعاة حقه ، فإذا بدل مكان الإحسان الواجب له أعظم إساءة وهي القتل استحق على ذلك أعظم العقوبة ، فكيف إذا كان الباعث على القتل خوف الفقر ، وأن يشاركه في مأكله ، فإنه ينضاف إليه بذلك جرائم أخرى قوله : « قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بحليلة جارك » ، الزنا جريمة نكراء ويتفاوت جرمه حسب قرب المزنى بها وبعدها عنه ، وحسب الحقوق التي تجب مراعاتها أكثر في الشرع .

فإذا كانت ذات قرابة من جهة النسب فالزنا بها أعظم ، وكذلك إذا كانت زوجة قريب منه ، أو زوجة من له حق الجوار ، فإن جريمة ذلك أعظم مما لو زنا بمن هي بعيدة عنه قرابة وجوارا .

قوله : « أن تزانى » يدل على المفاعلة ، ومعنى ذلك أن تطاوعه المرأة على الفاحشة ، وفي ذلك دليل على أنها إذا لم تطاوعه فالذنب أعظم .
والحليلة : هي التي يحل وطؤها ، وتحل معه في فراش واحد .
والشاهد من الحديث قوله : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » .

فالإنسان هو الذى يجعل الند ، ويفعل ذا حقيقة ، فهو فعله الذى يبشره ويقوم به ، ويتصف به ، فإذا فعل ذلك فهو المشرك ، ولذلك استحق العذاب العظيم ، وأضيف إليه الذنب لأنه صدر منه .

(١) رواه ابن ماجه فى السنن ج ٢ ص ٨٧٤ رقم ٢٦١٩ قال المنذرى : إسناده حسن ورواه النسائى رقم ٣٩٨٧ .

فتبين الفرق بين قول الله — تعالى — وفعله ، وبين قول العبد وفعله ، وهو ما أراده المؤلف .

فإذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت الرب تعالى ، وما نقرؤه من القرآن فهو كلام الله — تعالى — مبلغا عنه ، لا مسموعا منه ، وإنما سمعه منه جبريل ، ونحن نقرؤه بحركاتنا ، وأصواتنا .

فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارىء . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ ، فهو يسمع كلامه ممن يقرؤه عليه ويبلغه إياه ، لا من الله تعالى . قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

روى مسلم ، عن أنس ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : « أتدرون مم أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب : ألم تجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهدا مني ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال : لأركانه انطقى ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام قال : فيقول : بعدا لكن ، وسحقا ، فعنكن كنت أناضل »^(١) .

« قال ابن بطال : غرض البخارى في هذا الباب إثبات السمع لله ، وأطال في تقرير ذلك وتقدم في أوائل التوحيد في قوله : ﴿ وَكَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ . والذي أقول : أن غرضه في هذا الباب إثبات ما ذهب إليه أن الله يتكلم

(١) مسلم ج ٨ ص ٢١٧ .

متى شاء»^(١) .

والظاهر أن غرضه في هذا الباب قريب من الذى قبله ، وهو بيان أن أعمال العباد واقعة بفعلهم ، وأن الكلام يكون صفة لمن تكلم به ، فالأعضاء حين تشهد على صاحبها تنطق بكلام لها حقيقة ، مضاف إليها على الحقيقة فهو صفة لها لأنه قام بها ، فكذلك كل متكلم فكلامه فعله ووصفه .

وهذا يدل على أن المتكلم بكلام لغيره لا يكون ذلك الكلام مضافا إليه وصفا له ، بل هو ناقل أو مبلغ ، وأما حركة لسانه وشفتيه ، وتصويته به فهى أفعاله ، والمصوت به الذى تحرك اللسان والشففتان به هو كلام ذلك الغير ، كما تقدم .

وأعمال العباد كلها مخلوقة محدثة .

قال البخارى رحمه الله : « وكل من لم يعرف الله بكلامه ، أنه غير مخلوق فإنه يُعَلِّمُ ، ويُرَدُّ جهله إلى الكتاب والسنة ، فمن أبى بعد العلم به كان معاندا ، لقوله : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(٢) .

فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد^(٣) ، ويدعيه كل لنفسه ، فليس بثابت كثير من أخبارهم ، وربما لم يفهموا دقة مذهبه ، بل المعروف عن أحمد ، وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق ، وما سواه مخلوق ، وأنهم كرهوا البحث ، والتنقيب عن الأشياء الغامضة ، وتجنبوا أهل الكلام ، والخوض ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٩٦ .

(٢) الآية ١١٥ من سورة النساء .

(٣) يعنى : الذين يقولون : ألفاظنا ، وتلاوتنا للقرآن مخلوقة ، فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن مخلوق ، والفريق الثانى الذين يقولون : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة .

والتنازع ، إلا فيما جاء فيه العلم ، وبينه رسول الله ﷺ .

حدثنا إسحاق ، أنبأنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، قال : سمع النبي ﷺ قوما يتدارعون فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه بعضا ، ما علمتم منه فقولوا وما لا ، فكلوه إلى عالمه » .

وكل من اشتبه عليه شيء فأولى أن يكله إلى عالمه ، كما قال عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ ولا يدخل في التشابهات إلا ما بين له .

حدثنا أحمد بن أشكاب ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ثم ذكر حديث ابن مسعود الآتى :

ثم قال : حدثنا موسى ، عن وهيب ، عن داود ، عن الشعبي ، في بيع المصاحف « أنه لا يبيع كتاب الله ، وإنما يبيع عمل يديه » .

ثم ذكر آثاراً في ذلك ، وذكر قول النبي ﷺ في أبي موسى : « أوقى مزمارا من مزامير آل داود » ، وقوله : « زينوا القرآن بأصواتكم » ثم قال :

« وعامة هذه الأخبار مستفيضة عند أهل العلم ، ولا ريب في تخليق مزامير آل داود ، وندائهم ، لقوله عز وجل : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ، ثم قال : « فبين أن التلاوة من النبي ﷺ وأصحابه ، وأن الوحي من الرب » . ثم ذكر أحاديث وآيات وآثاراً كثيرة ، ثم قال : « ومما يقوى قول الشعبي في بيع المصاحف أنه إنما يبيع عمل يديه ، قول زياد بن لبيد — رضى الله عنه — للنبي ﷺ :

« كيف يرفع العلم وقد ثبت ووعته القلوب »^(١) فهذا الذى ذكره يبين ما أراده هنا ، وهو ظاهر من الآية التى ترجم بها ، عند التأمل ، لأنها فى سياق ما ذكره الله عن أهل النار ، من كلام أعضائهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ ﴾ الآية .

قال ابن كثير : « أى تقول لهم الأعضاء والجلود ، حين يلومونها على الشهادة عليهم : « ما كنتم تكتمون منا الذى كنتم تفعلون ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر ، والمعاصى ، ولا تبالون منه فى زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم »^(٢) .

وبهذا يتبين أن هذا قول الأعضاء ذكره الله عنها على ما سيقع يوم القيامة . ولهذا لا يقال : إن هذا ليس كلام الله ، بل هو كلام الأعضاء حكاة الله عنها ، لأن الأعضاء لم تتكلم إلى الآن ، وإنما ستتكلّم يوم القيامة ، والله عز وجل علم ما سيكون وما تتكلم به ، فذكره لعباده ليحذروا الوقوع فيما يوجب شهادة الأعضاء عليهم ، فهو كلام الله تكلم به ، وأخبر به عما سيقع وحتى الكلام الذى وقع وذكره تعالى عنمن قاله ، فإن ذلك يكون كلامه كما حكى عن الأنبياء وقومهم وغيره .

والمقصود أن الاستدلال بالآية المذكورة على أن أعمال الإنسان وأقواله — ومن ذلك قول الأعضاء — تقع منه على الحقيقة ، وتقوم بهم ، وعليها

(١) انظر كتاب خلق أفعال العباد ص ٧٠ — ١٠٥ تحقيق بدر .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٦ طبعة الحلبي .

يستحقون الجزاء ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وأن أعمال العبد مخلوقة لله تعالى لأن الله هو الخالق وحده ، وجعلهم عاملين لها حقيقة ، وتقدم بيان ذلك .

١٤٥ — قال : « حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن عبد الله — رضى الله عنه — قال : اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشى ، أو قرشيان وثقفى — كثيرة شحم بطونهم ، قليلة فقه قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إذا جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا ، فإنه يسمع إذا أخفينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ الآية .

قوله : « كثيرة شحم بطونهم » كثيرة صفة لشحم وأنته لأن شحم مضاف إلى البطون ، وكذا صفة القلوب ، والمعنى أن هؤلاء كبار الجسوم لكن فقههم قليل ، ولهذا صدرت منهم تلك المقالة الدالة على قلة فهمهم .

والشاهد من الآية لمقاتلهم هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كما في قول أحدهم : إن جهرنا سمع ، وإن أخفينا لم يسمع ، والآخر الذى هو أفقه من هذا علق علم الله بذلك بقوله : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا فهو شك في ذلك ، ولهذا وصفهم عبد الله — رضى الله عنه — بقلة الفقه ، وتقدم وجه استدلال المؤلف بذلك .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين ، لقوله

تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وقال ابن مسعود عن النبي ﷺ : « إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » .

يريد بهذا بيان أن الله — تعالى — يحدث ما يريد إحداثه ، في أى وقت أراد ، وأن إحداثه ذلك من أفعاله التى هى أوصاف له ، فيحدث الأمر من أمره — تعالى — والكلام ويطلق عليه أنه حدث ، ومحدث ، لأنه وجد بعد ما قبله ويسمى كلامه حديثا ، ويطلق عليه أنه حادث ، ومحدث بمعنى الجديد الذى تكلم به بعد كتبه السابقة له ، ولهذا قال : وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين .

فمن ذلك كلامه ، ومخاطبته لمن يريد أن يخاطبه من خلقه ، وأمره لمن يأمره ، ونهيه ، وإجابته لمن يدعو ، وإحياءه لمن يريد حياته وإمامته لمن يريد أن يميتها ، وإذلال من يريد ذله ، وإعزاز من يشاء ، وهدايته من يشاء ، وإضلال من يشاء ، وتصرفه فى خلقه وملكه كيف يشاء .

« قال عبيد بن عمير : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال : من شأنه أن يجيب داعيا ، ويعطى سائلا ، أو يفك عانيا ، أو يشفى سقيما » .

وقال مجاهد : « كل يوم يجيب داعيا ، ويكشف كربا ، ويجيب مضطرا ، ويغفر ذنبا » .

وقال قتادة : « لا يستغنى عنه أهل السماوات ، والأرض ، يحيى حيا ، ويميت ميتا ، ويرى صغيرا ، ويفك أسيرا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريحهم ، ومنتهى شكواهم » .

وقال سويد بن جبلة : إن ربكم كل يوم فى شأن ، فيعتق رقابا ، ويعطى

رغابا ، ويقحم عقابا»^(١) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن ميثب الأزدي ، قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فقلنا : يا رسول الله وما ذلك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ويضع آخرين »^(٢) وعلقه البخارى جازما به ، عن أبى الدرداء ، موقوفًا^(٣) ، ورواه ابن ماجة مرفوعًا^(٤) .

ونقل الحافظ فى كلامه على هذه الترجمة قول ابن بطلال ، وقول الكرماني وغيرهما ، وأطال فيما هو بعيد عن مراد البخارى ، لأنهم يحاولون شرح ما ذكره على ما يتفق مع عقيدة الأشاعرة ، مع أنه مبين لها .

قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ قيل هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ أى دنت القيامة وقربت ، والناس عنها غافلون لا هون فى دنياهم .

وإذا جاءهم ذكر من الله جديد ، قريب العهد بالله ، فيه تذكيرهم وأمرهم بالأخذ لما فيه سعادتهم ، وفيه عظمتهم عن التشاغل بالدنيا ونسيان الآخرة استمعوه سماع غافل لاه لالعاب .

قال ابن كثير : « أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحى الذى أنزل الله على رسوله . فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ أى جديد إنزاله »^(٥) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٧٠ طبعة الشعب .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٧٩ .

(٣) انظر البخارى ج ٦ ص ١٨١ .

(٤) انظر السنن ج ١ ص ٧٣ رقم ٢٠٢ ورواه ابن حبان فى صحيحه ، عن أبى الدرداء ، مرفوعا قال : « من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » الإحسان ج ٢ ص ٣٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٢٥ .

وقال أبو جعفر بن جرير — رحمه الله — « يقول — تعالى ذكره — : ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس ، ويذكرهم به ، ويعظهم إلا استمعوه ، وهم يلعبون »^(١) .

وقوله : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » لما ذكر الله — جل وعلا — حكمه في المطلقة ، وأمره بأن تطلق لعدتها ، وأمر بإحصائها ، ونهى عن إخراجها من بيت زوجها ، مادامت في العدة ، وأنها لا تخرج منه إلا أن تأتي بفاحشة مبينة ، وأخير — تعالى — أن هذا من حدوده التي حدها ، ونهى عن تعديها ، وأن من تعداها فقد ظلم نفسه . بعد ذلك قال تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » .

يعنى يحدث للزوجين حالا غير ما كانا عليه وقت الطلاق ، بأن تتبدل الكراهية رغبة ، والبغض حبا ، وأن يراجع الرجل نفسه فيندم على ما حصل منه ، والزوجة كذلك .

قال ابن جرير : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ : يقول — جل ثناؤه — : لا تدري ما الذى يحدث ، لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة^(٢) .

والمقصود الذى أراد المؤلف — رحمه الله — من هاتين الآيتين ، أن الله تعالى يتكلم بعد أن لم يكن تكلم بذلك الكلام بعينه ، ويأمر ، وينهى بعد أن لم يكن أمر بذلك المأمور ، وذلك المنهى عنه بعينه لمن وجه إليه الأمر والنهى ، وهذا هو معنى الحدث الذى أراد بيانه ، وهو الفعل المتجدد الذى يتعلق بمشيعته تعالى سواء كان كلاما ، أو أمرا ، أو نهيا ، أو إحياء لميت ، أو إماتة لحى ، أو هداية ضال ، أو ضلال غاوي ، أو تغيرا لحكم شرعه قبل

(١) جـ ١٧ ص ٢ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٨٧ .

ذلك ، أو إذن به ، أو تغيير ما في نفوس بعض خلقه ، أو غير ذلك مما يشاؤه ويريده — جل وعلا — ، كما تقدم في معنى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُّحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُّعْرِضِينَ ﴾ . قال شيخ الإسلام : « هذا يدل على أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ، لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتي من رجل مسلم إلا أكرمه ، وما آكل إلا طعاما حلالا ، ونحو ذلك .

ويعلم أن المحدث في الآيتين ليس هو المخلوق ، الذي يقوله الجهمية .

ولكنه الذي أنزل جديدا ، فإن الله كان ينزل من القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا ، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب ، كما قال : ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ وقال : ﴿ تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾^(١) .

ومراد الإمام البخارى — رحمه الله — من هاتين الآيتين الرد على من ينكر أفعال الله تعالى من القول ، والفعل ونحوهما مما يتعلق بمشيئته وإرادته وقدرته ، فإن هذا الأصل أنكرته الجهمية ، والمعتزلة ومن تشعب عنهما ظانين أنه لا يمكن إثبات حدوث العالم وإثبات وجود الخالق له — تعالى — إلا بإثبات حدوث الأجسام ، ولا يمكن إثبات حدوث الأجسام إلا بإثبات حدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال المتعاقبة ، التي يسمونها الحوادث ، فلذلك قالوا : كل من قامت به الحوادث أو كان محلا لها فهو حادث .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٥٢٢ .

وهذا الذى حدا بهم إلى إنكار صفات الله ، وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته .

وعليهم توجه رد الإمام البخارى — رحمه الله — فى هذا الكتاب ، كما قال : « باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض وغيرهما من الخلائق ، وهو فعل الرب ، وأمره ، فالرب — تعالى — بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون ، غير المخلوق ، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه ، فهو مفعول مكون مخلوق » .

ثم بعد ذلك قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ إِذْنَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ولم يقولوا : ماذا خلق ربكم » .

ثم ذكر قول عبد الله بن مسعود : « إذا تكلم الله بالوحى » إلى آخره ، وذكر حديث عبد الله بن أنيس وفيه : « فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » .

وذكر حديث أبى هريرة : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها » إلى آخره ، وحديث أبى سعيد الخدرى : « يقول الله يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار » إلى آخر ما ذكره من الأبواب التى من تدبرها ، وتأمل ما تحتها من النصوص تبين له دقة فهمه رحمه الله ، وتبين له بطلان مذهب أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم .

ولكن المشكلة أننا لم نعثر على شرح لكتابه ، على نهجه ، يوضح مراده ويسلط حججه ، ويبينها إلى الآن ، بل كل الشروح التى وصلت إلينا تقرر عكس مراده ، والله المستعان .

والمقصود أن الإمام البخارى رحمه الله يرى أن الله تعالى يوصف بأنه يحدث

ما يشاء من القول ، والأمر ، والفعل ، وهذا ما دل عليه العقل والفطرة وكتب الله ، ولهذا قال : « وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ » .

فكما أنه تعالى لا مثل له في ذاته ، كذلك في أفعاله ، وأوصافه وأحداثه التي يحدثها مما يتعلق بمشيتته ، وهي أفعاله ، وهذا هو الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

قوله : « وقال ابن مسعود ، عن النبي ﷺ إن الله عز وجل يحدث من أمره ما شاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » .

هذا طرف من حديث رواه أبو داود ، وأحمد ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحه وصححه ، من طريق عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ، قال :

« كنا نسلم في الصلاة ، ونأمر بحاجتنا ، فقدمت على رسول الله ﷺ وهو يصلي ، فسلمت عليه فلم يرد على السلام ، فأخذني ما قدم وما حدث ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : « إن الله — عز وجل — يحدث من أمره ما يشاء ، وإن الله — تعالى — قد أحدث أن لا تكلموا في الصلاة ، فرد على السلام »^(١) .

وفي رواية النسائي : « وإن مما أحدث » ، وأصل القصة في الصحيحين . فقوله ﷺ : « إن الله يحدث ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » موافق لقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٌ ﴾ ولا يصف الله — أعلم من — تعالى — ولا أعلم من رسوله بعده ، ومن لم يرض بما قاله الله ورسوله فبعدا له .

١٤٦ — قال : « حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا حاتم بن

(١) انظر سنن أبي داود ج ١ ص ٢١٢ باب رد السلام في الصلاة وانظر المسند ج ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ وانظر الإحسان ج ٤ ص ٧ وانظر النسائي ج ٣ ص ١٩ رقم ١٢٢١ .

وردان ، حدثنا أيوب ، عن عكرمة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدا بالله ، تقرأونه محضا لم يشب » .

يعنى أن الله قد أغناكم بما جاءكم به نبيكم ﷺ فقد أنزل الله عليه آخر الكتب التى قضى الله — تعالى — أن تنزل إلى الأرض من عنده ، فهو أحدثها بالله ، وأقربها عهدا به ، وقد وصل إلينا خالصة ، ليس فيه ما يداخله من غيره ، فكيف بعد ذلك يسوغ للمسلم أن يذهب يسأل اليهود ، أو النصارى عما فى أيديهم من كتبهم .

وقد أعلمنا الله — تعالى — أنهم حرفوها ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، ثم كذبوا على الناس بأن قالوا : هذا من عند الله ، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) إلى غير ذلك مما ذكره الله تعالى عنهم من الكذب ،

(١) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة آل عمران .

والتزوير ، وتحريف كلام الله عن مواضعه ، وتغييره وتبديله .
والشاهد فيه قوله : « وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدا بالله » . وهذا
معنى كونه محدثا ، يعنى أنه قريب عهده بالله تعالى بأن تكلم به وأنزله بعد
الكتب السابقة ، بل تكلم به تعالى في مناسبات تعرفون كثيرا منها .
ومعنى قوله : « محضا لم يشب » : يعنى أنه لم يخالطه شيء من غيره .
١٤٧ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ،
أخبرني عبيد الله بن عبد الله ، أن عبد الله بن عباس قال : يا معشر
المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي
أنزل الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، محضا لم يشب ، وقد
حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله ، وغيروا فكتبوا
بأيديهم ، قالوا : هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمنا قليلا ، أو لاينهاكم
ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم
عن الذي أنزل عليكم » .

هذا يدل على أنه كان من المسلمين في عهد ابن عباس من يسأل أهل
الكتاب ويكتب أخبارهم وذلك في آخر عهد الصحابة ، وكان الصحابة ينهون
عن ذلك ، ويحذرون منه ، لأنهم يعرفون كذبهم ، وتحريفهم لكتاب الله ،
ولاستغنائهم بما جاء به نبيهم ﷺ .

وقد روى البخارى أن أمير المؤمنين معاوية — رضى الله عنه — أنه كان
يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار ، فقال : إن كان من
أصدق هؤلاء المحدثين ، الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك
نلبو عليه الكذب «^(١) أى نجرب عليه الكذب في أخباره .

(١) انظر الفتح ج ١٣ ص ٣٣٣ .

« روى الإمام أحمد ، وابن أبى شيبة من حديث جابر ، أن عمر أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو باطل ، فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » ورجاله ثقات إلا أن مجالدا فيه ضعف »^(١) .

ولهذا نهى ابن عباس عن سؤالهم ، وبين أنه ليس هناك ما يدعو إلى سؤالهم وقد أغنى الله المسلمين بكتابه الذى تولى حفظه بنفسه ، فلا يقدر أحد على تغييره وتبديله ، وهو أيضا آخر الكتب نزولا من عند الله فهو أحدثها به نزل عليكم بعد كل الكتب التى يحدثونكم عنها .

مع أن الذى عندهم قد اختلط الحق فيه بالباطل ، فلا يتميز ، وما كان فيه من حق فهو منسوخ بالقرآن الذى جاء به خاتم النبیین ﷺ .

ومما يدل على أن أهل الكتاب لا يريدون الحق كونهم لا يسألون المسلمين عما جاء به نبيهم ، وهذا مما يمنع من سؤالهم . وقد سبق ذكر بعض الآيات التى تنص على تحريفهم وتبديلهم الكتاب بما يكذبونه ليشتروا به من حطام الدنيا ما استطاعوا ، فمثل هؤلاء حرام سؤالهم ، لأنهم يضلون من سألهم . والشاهد قوله : « وكتابكم الذى أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله » ، والحديث هو الجديد ، ضد القديم ، وهذا معنى قوله فى الآية ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ أى جديد وقوله : « محضا لم يشب » أى خالصا ، لم يخالطه شيء من غيره .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانِكَ ﴾ وفعل النبى ﷺ حين ينزل عليه الوحي » .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٣٤ .

يقصد بهذا التمييز بين فعل العبد ، وفعل الرب تعالى وصفاته .

فتحرك النبي ﷺ لسانه بالوحي هو فعله ، ولكن المحرك به اللسان هو كلام الله وصفته ، ولهذا قال :

« وفعل النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي ، يعنى أنه كما قال ابن عباس : يعالج من الوحي شدة ، وكان يحرك شفثيه بالقرآن ، وذلك عندما يتلوه عليه جبريل ، فيحرك لسانه وشفثيه بما يقرؤه جبريل خوفا من أن يفوته شيء منه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك حيث يقول :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أى تستعجل بحفظه مخافة أن يفوتك فلا تحفظه .

وتكفل الله له بأن يحفظه إياه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ يقول تعالى لنبيه : لا تستعجل إذا سمعت جبريل يقرأ عليك القرآن فتحرك به لسانك وشفثيك مخافة أن لا تحفظه ، بل أنصت ، واستمع لما يقرأه جبريل ، فنحن نجمعه ، فلا يذهب منه شيء .

و « قرآنه » يعنى قراءته التى يقرأها عليك جبريل ، فإذا قرأه فاتبع قرآنه » فكان ﷺ يستمع لما يقرؤه عليه جبريل ، فإذا انتهى قرأه النبي ﷺ .

وهذا الذى كان النبي ﷺ يفعله من تحريك شفثيه ولسانه وما يعالج من الشدة ، كل ذلك فعله وعمله ، وهو مخلوق .

أما ما يحرك به لسانه وشفثيه ، فهو كلام ربه جل وعلا ، ومثل ذلك جبريل .

قال المؤلف فى بدء الوحي — بسنده عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل

شدة ، وكان مما يحرك شفثيه ، فقال ابن عباس : فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفثيه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال : جمعه لك في صدرك ، وتقرأه . ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ قال : فاستمع له وأنصت . ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه ^(١) ، وسيأتي قريبا .

وقال في خلق أفعال العباد : « سمعت عبد الله بن سعيد يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة ، — يعني حرركاتهم ، وأصواتهم ، واكتسابهم ، وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف ، المسطور ، المكتوب ، الموعى في القلوب ، فهو كلام الله ، ليس بمخلوق ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ، فذكر أنه يحفظ ويسطر ^(٢) .

وقال أيضا : « فأما المداد ، والرق ، ونحوه فإنه مخلوق ، كما أنك تكتب « الله » ، فالله في ذاته هو الخالق ، وخطك ، واكتسابك من فعلك خلق ، لأن كل شيء دون الله بصنعه ، وهو خلق ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ ^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ^(٥) .

وقال أيضا : « وقال النبي ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان ، قال : أن

(١) البخارى ج ١ ص ٤ .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٧ .

(٣) الآية ٢ من سورة الفرقان .

(٤) الآية ٤ من سورة الزخرف .

(٥) خلق أفعال العباد ص ٤٩ .

تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟
قال : نعم ، ثم قال : ما الإسلام ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى
رسول الله .

فذكره ، قال : إذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم .

فسمى الإيمان ، والإسلام ، والشهادة ، والإحسان ، والصلاة بقراءتها وما
فيها من حركات الركوع ، والسجود فعلا للعبد ^(١) .

وقال : « قال الله عز وجل : ﴿ لئن آجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا
بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ، ولكنه
كلام الله تلفظ به العباد ، والملائكة ، وبين ذلك ما حدثنى به عبد العزيز
ابن عبد الله — وذكر سنده — إلى النبي ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدا ،
نادى جبريل : يا جبريل أحب فلانا ، فينوه بها جبريل فى حملة العرش ، فيحبه
أهل العرش ، فيسمع أهل السماء السابعة لفظ أهل العرش — وذكره ^(٢) .
فحب جبريل ، ونداؤه لأهل العرش وأهل السماوات هو فعل جبريل ،
وهو مخلوق .

وأما حب الله للعبد ونداؤه لجبريل فهو فعله تعالى .

وقال أيضا : « قال معاوية : لو شئت أن أحكى لكم قراءة رسول الله
ﷺ لفعلت .

وسئل النبي ﷺ : أى الناس أحسن قراءة ؟ قال : « الذى إذا سمعته رأيت
عليه أنه يخشى الله عز وجل » .

(١) المصدر ص ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢ — ٧٣ .

ويذكر عن سعد — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ خير الذكر الخفى .

وقال تعالى : ﴿ اذْعُوا رَبُّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (٢) .

وسمع معاذًا قارئًا يرفع صوته بالقرآن ، فقال : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ .

حدثنا مسدد ، حدثنا معتمر ، سمعت أبا عثمان يقول : ما سمعت صنجا قط ، ولا بربطا ، ولا مزمارًا أحسن صوتًا من أبا موسى ، إلا فلانا ، إن كان ليصلي بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته .

ويذكر عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ أنه قال : يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ، ويكتب علينا ؟ قال : وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم .

فبين النبي ﷺ أن أصوات الخلق ، وقراءتهم ، ودراستهم وتعليمهم ، وألسنتهم مختلفة ، بعضها أحسن ، وأزين ، وأحلى ، وأصوت ، وأرتل ، وألحن ، وأعلى ، وأخف ، وأغض ، وأخشع .

وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (٣) ، وأجهر ، وأخفى ، وأمد ، وأمهر ، وألين ، وأخفض من بعض (٤) .

(١) الآية ٥٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٠٨ من سورة طه .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٧٢ — ٧٣ .

قوله : « وقال أبو هريرة : عن النبي ﷺ : « قال الله — تعالى — أنا مع عبدى إذا ذكرنى ، وتحركت بى شفتاه » .

هذا التعليق وصله المؤلف فى خلق أفعال العباد^(١) .

ومراده من الحديث أن قوله : « وتحركت بى شفتاه » وكذا قوله : « إذا ذكرنى » أنه فعل العبد وعمله الذى يجازيه الله عليه ، والشفتان واللسان تتحرك بذكر الله واسمه وصفته ، لا بذاته تعالى .

فمثل ذلك قراءة القرآن ، فإن اللفظ والصوت والحركة فعل العبد ، وهو مخلوق ، وأما ما يلفظ به ويقرؤه فهو كلام الله تعالى ، وقد تكرر هذا لأن المؤلف يكرره ، لأنه قد بلى بمن يقول قراءة العباد غير مخلوقة .

قال رحمه الله : « القراءة هى التلاوة ، والتلاوة غير المتلو ، وقد بينه أبو هريرة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : اقرءوا إن شئتم : يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » ، فيقول الله : حمدنى عبدى ، يقول العبد : « الرحمن الرحيم » ، فيقول — عز وجل — أثنى على عبدى ، يقول العبد : « مالك يوم الدين » فيقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد : « إياك نعبد ، وإياك نستعين » ، فيقول الله : هذه بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل » .

فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء ، والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

ثم روى عن أبى الدرداء : « سئل رسول الله ﷺ أفى كل صلاة قراءة ؟ قال : « نعم » ، فقال رجل من الأنصار : وجبت هذه ، قال النبي ﷺ : « اقرءوا إن شئتم » .

(١) ص ١٤١ تحقيق بدر .

فالقراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه .

وسئل النبي ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » فذكر النبي ﷺ أن بعض الصلاة أطول من بعض ، وأخف وأن بعضهم يزيد على بعض في القراءة ، وبعضهم ينقص ، وليس في القرآن : زيادة ولا نقصان ، فأما التلاوة فإنهم يتفاضلون في الكثرة والقلة والزيادة والنقصان .

وقد يقال : فلان حسن القراءة ، وردىء القراءة ، ولا يقال : حسن القرآن ، وردىء القرآن .

وإنما نسب إلى العباد القراءة ، لا القرآن ، لأن القرآن كلام الرب جل ذكره .

والقراءة فعل العبد ، لا يخفى معرفة هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه ، ولم يوفقه ، ولم يهده سبيل الرشاد .

وليس لأحد أن يشرع في أمر الله — عز وجل — بغير علم ، كما زعم بعضهم : أن القرآن بألفاظنا ، وألفاظنا به شيء واحد ، التلاوة هي المتلو ، والقراءة هي المقروء .

فقليل له : إن التلاوة فعل التالى ، وعمل القارئ ، فرجع ، وقال : ظننتهما مصدرين .

فقليل له : هلا أمسكت ، كما أمسك كثير من أصحابك ؟ . ولو بعثت إلى من كتب عنك ، فاسترددت ما أثبت ، وضربت عليه ؟

فزعم أن كيف يمكن هذا وقد قلت ، ومضى ؟

فقليل له : كيف جاز لك أن تقول في الله — عز وجل — شيئاً لا يقوم به شرح وبيان ، إذ لم تميز بين التلاوة والمتلو ؟

فسكت إذ لم يكن عنده جواب» (١) .

١٤٨ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا أبو عوانة ، عن موسى بن أبي عائشة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ قال : كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال لي ابن عباس : أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، فقال سعيد : أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ، قال : جمعه في صدرك ، ثم تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ، قال : فاستمع له وأنصت ، ثم إن علينا أن تقرأه ، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه . » .

قوله : ﴿ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ أى لا تحرك بالقرآن لسانك ، فدل على أن المحرك به غير الحركة والتحريك ، فذلك فعل العبد ، بخلاف المحرك به فإنه القرآن .

قوله : « يعالج من التنزيل شدة » أى أنه كان يتحملهما ، ويعانى كربا وخوفا من أن يذهب عنه ما يلقيه جبريل إليه ، فلذلك كان يحرك لسانه وشفتيه بترديد ما يقوله جبريل ، لعله يثبت معه ، وقد وصف ابن عباس لسعيد بالتمثيل مما يدل على أن ابن عباس قد شاهد رسول الله ﷺ في تلك الحالة .

(١) خلق أفعال العباد ص ١٠٤ — ١٠٥ والظاهر أن هذه المحاورة بين البخارى وبعض من خالفه في ذلك .

فلما نهاه ربه تعالى : عن ذلك الفعل ، وأخبره أنه سوف يثبت في صدره .
وإنما عليه أن يستمع إلى جبريل ، وأن الله يتولى جمعه في صدر النبي ﷺ
وحفظه ترك ما كان يفعله وهذا من الحفظ للقرآن الذي أخبر تعالى أنه يحفظه ،
كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

فكان النبي ﷺ يستمع إلى جبريل ، فإذا انتهى قرأه النبي ﷺ كما قرأه
جبريل .

قوله : « لتعجل به » أى إن تحريكه لسانه به ليتعجل بحفظه خوفا من فواته
عليه أو نسيانه ، فقال الله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ قال ابن عباس : في
صدرك ثم تقرؤه كما كان جبريل يقرؤه .

قوله : ﴿ وَقُرْآنُهُ ﴾ يعنى قراءته ، والمقصود قراءة جبريل له ، وبهذا سميت
القراءة قرآنا .

قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أى إذا قرأه عليك جبريل الذى أمره
الله بذلك ، فاتبع قراءته ، فإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم ، الذى هو
الله — تعالى — لأنه جل وعلا هو الأمر ، وهو المتكلم به وجبريل رسوله
إلى محمد ﷺ والرسول يبلغ رسالة من أرسله .

قال في خلق أفعال العباد : « حدثنا عبيد الله بن موسى ، وذكر سنده إلى
سعيد بن جبیر أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ؟ فقال :
قال ابن عباس : كان يحرك لسانه إذا نزل عليه ، فقليل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ
لِسَانَكَ ﴾ يخشى أن يتفلت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أى جمعه في صدرك
﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أن تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ ﴾ يقول : أنزل عليه ، ﴿ فَاتَّبِعْ
قُرْآنَهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أن تثبته على لسانك «^(١) وفي رواية : « قال :

(١) ص ٨٤ ورواه في الصحيح ج ٦ ص ٢٠٣ .

علينا أن نجمعه في صدرك ﴿ وَفُرَّأَنَّهُ ﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ ﴾ علينا أن نبينه بلسانك ، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله ﴿^(١) .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله : « يقول جل ثناؤه : أخفوا قولكم ، وكلامكم أيها الناس ، أو أعلنوه وأظهروه ، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ يقول : إنه ذو علم بضمائر الصدور التي لم يتكلم بها ، فكيف بما نطق به وتكلم به ، أخفى ذلك أو أعلن ، لأن من لم تخف عليه ضمائر الصدور ، فغيرها أخرى أن لا يخفى عليه .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ ﴾ الرب جل ثناؤه ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ من خلقه ، يقول : كيف يخفى عليه خلقه الذي خلق ، ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ بعباده ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بهم وبأعمالهم ﴿^(٢) .

قال الحافظ : « أشار بهذه الآية إلى أن القول أعم من أن يكون بالقرآن أو بغيره .

فإن كان بالقرآن ، فالقرآن كلام الله ، وهو من صفات ذاته فليس بمخلوق لقيام الدليل القاطع بذلك ، وإن كان بغيره فهو مخلوق ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ بعد قوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

قال ابن بطال : « مراده إثبات العلم لله صفة ذاتية ، لاستواء علمه بالجهر

(١) انظر الصحيح ج ٦ ص ٢٠٣ .

(٢) تفسير الطبري ج ٢٩ ص ٥ طبع بولاق .

من القول والسر»^(١) .

قلت كلا القولين لم يردهما البخارى ، أما قول ابن بطلال ، فلا يتفق مع أحاديث الباب ، وظاهر أنه لم يرد ما زعمه ابن بطلال .

وأما قول الخافظ : فينطبق على مذهب الأشاعرة الذين يجعلون كلام الله صفة ذاتية — يعنى أنه معنى قائم بذات الله تعالى ، والبخارى — رحمه الله — من أبعد الناس عن مثل هذا القول الباطل ، المتناقض .

والصواب أنه أراد بيان أن أفعال الله وأوصافه لا تشتهه بأفعال العباد وأوصافهم ، فإن أقوال العباد الموصوفة بأنهم يجهرون بها أو يسرونها هى أقوالهم وأعمالهم التى يجازيهم ربهم عليها بالثواب أو العقاب .

أما كلام الله تعالى وفعله فلا يكون وصفا للعباد ، بأنه قول لهم أو فعل لهم .

وقد بين مراده هذا فى كتابه خلق أفعال العباد ، فقال : « فأما المتلوقول الله الذى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾^(٣) وقال عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ : « يمثل القرآن يوم القيامة رجلا ، فيشفع لصاحبه » ، وهو اكتسابه وفعله .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٤) ، قال صعصعة ، عم الفرزدق لما سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية : حسبى قد علمت فيم الخير ، وفيم الشر .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٠١ .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .

(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

وقد دخل في ذلك قراءة القرآن ، وغيرها .

وقد بين الله ذلك قولاً للمخلوقين حين قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١) .

فأخبر أن العمل من الحياة ، ثم بين خلقه فقال : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِاجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿ (٢) .

مع أن الجهمية ، والمعطلة إنما ينازعون أهل العلم على قول الله ، أن الله يتكلم ، وإن تكلم فكلامه مخلوق ، فقالوا : إن القرآن بعلم الله مخلوق ، فلم يميزوا بين تلاوة العباد ، وبين المقروء .

وقد رفع أبو بكر صوته بقوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (٣) (٤) .

يعنى أن الصوت الذى صوت به أبو بكر ورفعته هو من عمله وصفته ، أما المصوت به فهى آية من كتاب الله ، وهو كلام الله ، فيجب التفريق بين ما هو من فعل العبد وصفته ، وبين ما هو من فعل الرب وصفته .

وبهذا يتضح مراد البخارى ، وأنه ليس كما ذكر الحافظ ، وابن بطلال ، والغريب أنه ذكر عن ابن المنير ما هو الصواب ، ولم يقتنع به فيما يظهر . قال ابن المنير : « قصد البخارى الإشارة إلى النكتة التى كانت سبب محنته حيث قيل عنه : أنه قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، فأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الخلق تتصف بالسر والجهر ، وذلك يستدعى كونها مخلوقة » .

(١) الآية ٢ من سورة الملك .

(٢) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة الملك .

(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة غافر .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٧٤ — ٧٥ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ ثم قوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ تنبيه على أن قولهم مخلوق ، وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ يعنى بقراءتك دل على أنها فعله ، وقوله : « من لم يتغن بالقرآن » فأضاف التغنى إليه دل على أن القراءة فعل القارئ » (١) .

قوله : « يتخافتون » : يتسارون ، بيان لقوله تعالى : ﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ (٢) بأن المخافتة من الإسرار ، وذلك من أعمالهم .

١٤٩ — قال : « حدثنى عمرو بن زرارة ، عن هشيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : نزلت ، ورسول الله مختلف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فقال الله لنبىه ﷺ : ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ، ﴿ وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

فقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ واضح فى أن المقصود القراءة ، وأن الجهر فعل النبى ﷺ ، وكذا الإخفات الذى نهى عنه ، ومثلهما التوسط بينهما كل ذلك فعله ، ولذلك صح أن ينهى عنه ، ولا يقول أحد بأن النهى عن القرآن ، أو عن الصلاة .

وبينه بقوله : « فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ، ومن جاء به » ، فهناك الله تعالى عن رفع الصوت به لئلا يسبه المشركون ، كما نهاه عن الإسرار به لئلا يخفى على أصحابه ، وأمره بأن يقرأه قراءة يسمع بها أصحابه الذين معه ، ولا يسمعه المشركون الذين

(١) الموارى ص ٤٢٨ .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة طه .

خارج البيت الذى هو فيه ، وهذا معنى قوله : وابتغ بين ذلك سبيلا .
 فتبين بهذا أن القراءة غير المقروء ، وأن الصوت غير المصوت به ، وأن
 الجهر والإسرار ، والتوسط بينهما كل ذلك فعل القارئ ، التالى ، وهو من
 عمله الذى يؤمر به ، أو ينهى عنه ، ويجازى عليه .
 أما المقروء ، والمصوت به فهو قول من كان ذلك القول له ، وصفته .
 فإن كان من القرآن فهو قول الله — تعالى — وإن كان من غيره فهو قول
 ذلك الغير الذى قاله مبتدئا .

وقول عائشة فى الآية المذكورة : أنها نزلت فى الدعاء ، لا يخالف ما ذكره
 ابن عباس ، لأن الآية تنزل فى سبب معين ويدخل فى معناها غير ذلك المعين
 الذى نزلت من أجله .

وقد أمر الله تعالى بإخفاء الدعاء بقوله تعالى : ﴿ اذْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا
 وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ
 تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِّنَ
 الْغَافِلِينَ ﴾^(٢) مع أن القراءة والصلاة من دعاء العبادة .

ووجه الدليل من الآية واضح وبين فيما سبق .

١٥٠ — قال : « حدثنا إسحاق ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا ابن
 جريج ، أخبرنا ابن شهاب ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال :
 قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ، وزاد غيره
 « يجهر به » .

« ليس منا » يعنى من المسلمين ، وهو وعيد لمن لم يفعل ذلك .
 والأولى أن لا يتعرض لمثله بالتأويلات التى تخرج الكلام عن مراد المتكلم .
 وسبق القول بأن الصواب فى التغنى أنه تحسين الصوت وتزيينه بالقرآن .

(١) الآية ٥٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف .

وجاء الأمر به كما رواه المؤلف رحمه الله في خلق أفعال العباد ورواه غيره قال : « حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي عن الأعمش ، سمع طلحة ، عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « زينوا القرآن بأصواتكم »^(١) .

وتفسير التغنى بالجهر لا ينافى ما ذكرته ، لأن السلف يفسرون الكلام ببعض ما دل عليه ، ومقصودهم بهذا التفسير أن لا يدخل فيه ما يشبه الغناء فإنه مكروه كراهة شديدة ، أو محرم .

قال الكرمانى : « لم يتغن به » أى يجهر بقراءة القرآن ، وقيل يستغنى به . وأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الناس تتصف بالجهر ، والإسرار ، وذلك يدل على أنها مخلوقة لله تعالى ، وكذا قوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ دليل على أن قولهم مخلوق ، وكذا قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى بقراءتك يدل على أنها فعله ، وكذا قوله : « من لم يتغن بالقرآن » أضاف الفعل إليه^(٢) .

وقال أيضا : « يجهر به » يتغنى ، ومعناه يجهر به بتحسين الصوت ، وتحزينه وترقيقه ، ويستحب ذلك ما لم تخرجه الألحان عن حد القراءة ، فإن أفرط حتى زاد حرفا ، أو أخفى حرفا فهو حرام^(٣) .

وقال الخطابى : « أن العرب كانت تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أحوالها فلما نزل القرآن أحب أن يكون هجيراهم مكان الغناء ، فقال : ليس منا من لم يتغن بالقرآن »^(٤) .

والشاهد من الحديث أن التغنى ، والجهر فعل العبد ، وهو مخلوق .
وأما المتغنى به المجهور به فهو كلام الله تعالى .
فتبين بذلك الفرق بين أفعال العباد ، وأوصافهم ، وأوصاف أعمالهم وبين فعل الله ، ووصفه ، ومرادنا بفعله الذى هو وصفه ، لامفعوله كما هو اصطلاح الأشاعرة .

(١) ص ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ من طرق عدة وأحمد ج ٤ ص ٢٨٣ وابن أبى شيبه ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) شرح الكرمانى ج ٢٥ ص ٢١٩ .

(٣) المصدر ج ١٩ ص ٣٠ .

(٤) المصدر ج ١٩ ص ٣١ .

قال : « باب قول النبي ﷺ : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل .

فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله » .

هذه الترجمة كالتي قبلها ، وكذا الأبواب الآتية كلها في بيان أن أعمال العباد منوطة بهم يفعلونها باختيارهم ، وأنها مخلوقة مثلهم .

وذلك مثل أصواتهم وتحريك ألسنتهم وشفاههم ، وحفظهم ودعائهم ، وتبليغهم ، وصلاتهم ، وكون الإنسان خلق هلوعا جزوعا منوعا ، فهذه أوصاف الإنسان ، والله خلقه كذلك .

وكذا روايتهم ، وبيانهم عن معاني كلام الله ، وأصواتهم حسننا وقبيحها ، ومهارتهم بالقرآن وغيره ، وكتابتهم ، وأدواتهم التي يكتبون بها ، وغير ذلك كلها عمل لهم ، وهم وأعمالهم مخلوقون .

فقوله : « آتاه الله القرآن » يعنى يسر له حفظه ، وأقدره عليه ، فحفظه وعمل به .

« فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار » أى يتلوه ويتعهد به فى الصلاة وخارجها أوقات الليل والنهار ، وهذا من أفضل الأعمال التى يؤجر عليها العبد .

فدل ذلك على أن تلاوته القرآن من عمله وعمله مخلوق ، فلزم أن تكون غير المتلو .

فالتلاوة عمل العبد ، وفعله ، والمتلو قول الرب تعالى وصفته كما تقدم .

« ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل » . هذا يبين أن التلاوة ، والقيام بالقرآن فعل التالى ، وعمله كما هو واضح .

ولهذا قال : « لو أوتيت مثل ما أوتى هذا فعلت كما يفعل » . قال البخارى رحمه الله : « فيين أن قيامه بالكتاب هو فعله » .

وذكر ما ذكره هنا فى كتابه خلق أفعال العباد بنصه^(١) ثم ذكره بسنده قال ابن المنير : « ثبت عن البخارى أنه قال : من نقل عنى أنى قلت لفظى بالقرآن مخلوق فقد كذب ، وإنما قلت : إن أفعال العباد مخلوقة ، قال : وقد قارب الإفصاح فى هذه الترجمة بما رمز إليه فى التى قبلها »^(٢) .

قوله : « وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتَلَفَ الْأَلْوَانُ وَاللُّغَاتُ وَالْوَنُكُتُ ﴾ .

أى من الدلالات الواضحة على وحدانية الله ، ووجوب عبادته ورجوعكم إليه للحساب والجزاء ، وأن الأمر والملك كله له ، خلق السماوات والأرض ، وما فىهما من العجائب ، والآيات الدالة على الله ، ومن ذلك اختلاف ألستكم ، أى أصواتكم بحيث لا يلتبس صوت واحد بآخر على كثرتهم ، وكذا اختلاف اللغات ، واختلاف الألوان ، فهذا بشرته بيضاء ، وهذا سوداء ، وبين ذلك .

والمقصود أن إضافة الألسنة إلى الناس يدل على أنها أعمالهم وأوصافهم فإذا قرأ القارئ كلام الله — تعالى — فالصوت صوت القارئ والكلام كلام البارى .

فكما أن الألوان صفتهم فكذلك النطق ، والتكلم ، والتصويت .

قال فى خلق أفعال العباد ، بعد أن ذكر هذه الآية : « فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان ، وهو كلام العباد » .

(١) ص ١١٨ تحقيق عميرة و ص ١٩٦ بدر .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِيْ عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

قوله : « وقال جل ذكره : ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ » .

قال الحافظ : « الآية الأولى : المراد منها اختلاف ألسنتكم » لأنها تشمل الكلام كله ، فتدخل القراءة ، وأما الثانية فعموم فعل الخير يتناول قراءة القرآن والذكر ، والدعاء ، وغير ذلك ، فدل على أن القراءة فعل القارئ » (٢) .
وقال المصنف في خلق أفعال العباد : ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ . فأثبت الخير منهم فعلا (٣) .

يعنى أن الله — تعالى — أمر عباده أن يفعلوا الخير ، فدل على أن ذلك فعلهم ومن فعل الخير قراءتهم القرآن ، وذكرهم لله تعالى ، ودعائهم إياه ، والقراءة والذكر والدعاء فعل لهم يثابون عليه كما تقدم .

١٥١ — قال : « حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فهو يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا ، لفعلت كما يفعل ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في حقه فيقول : لو أوتيت مثل ما أوتى عملت فيه مثل ما يعمل » .

قد ذكر هذا الحديث في فضائل القرآن بأتم من هذا اللفظ ، ونصه :

(١) ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٢ .

(٣) ص ١٩٧ .

« أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتنى أوتيت مثلما أوتى فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا ، فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل . »

وترجم له هناك بقوله : « باب اغتباط صاحب القرآن » فجعل هذا من الغبطة ، وليس من الحسد ، وتسميته حسدا من باب التجوز .

قال الحافظ : « معنى قوله : « لا تحاسد إلا في اثنتين » أى لا رخصة في الحسد إلا في خصلتين ، أو لا يحسن الحسد — إن حسن — ، وأطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين »^(١) .

وقال النووي : قال العلماء : الحسد قسمان : حقيقى ، ومجازى ، فالحقيقى : تمنى زوال النعمة عن صاحبها ، وهذا حرام بإجماع الأمة ، مع النصوص الصحيحة .

وأما المجازى : فهو الغبطة ، وهو أن يتمنى مثل النعمة التى على غيره ، من غير زوالها عن صاحبها ، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة ، وإن كانت طاعة فهى مستحبة ، والمراد من الحديث ، لا غبطة محبوبة إلا فى هاتين الخصلتين ، وما فى معناهما »^(٢) .

قوله : « آتاه الله القرآن » أى منّ عليه بحفظه ، وهى من أعظم المنن ، فإذا انضم إلى ذلك العمل به تمت عليه نعمة الله ، وذلك الذى قصد بقوله : « فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار » ومعنى : يتلوه : يقرؤه ، ويعمل به .

(١) الفتح ج ٩ ص ٧٣ .

(٢) شرح مسلم ج ٦ ص ٩٧ .

وآناء الليل والنهار : ساعاتهما ، يعنى أنه يلازم ذلك فى غالب أوقاتها .
قوله : « فهو يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا لفعلت كما يفعل » هذا
هو الذى أطلق عليه بأنه حسد ، وهو حسد جائز ، لأنه يتمنى الخير من غير
ضرر بالغير .

فهو لم يتمن زوال ما أوتى صاحب النعمة ، كما يفعل إخوان الشياطين ،
ولكنه تمنى أن يكون مثله ، قد أوتى القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار .
وكذلك الآخر الذى تمنى أن يكون له من المال مثل ما للمنفق ماله فى
وجوه الخير .

ولم يرد زوال النعمة عن ذلك المنفق .

والشاهد من الحديث قوله : « آناه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل وآناء
النهار » فحفظ القرآن ، وتلاوته ، والقيام به كل ذلك عمل الإنسان ، وهو
مخلوق أما القرآن المحفوظ فى الصدور ، والمتلو المقوم به فهو كلام الله جل
وعلا .

١٥٢ — قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال
الزهري ، عن سالم ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « لا حسد
إلا فى اثنتين : رجل آناه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء
النهار ، ورجل آناه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » .

هذا الحديث كالذى قبله فنكتفى بما تقدم .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

قال الكرماني : « لابد فى الرسالة من ثلاثة أمور ، المرسل ، والمرسل إليه ،

والرسول ، ولكل منهم أمرٌ ، للمرسل الإرسال ، وللرسول التبليغ ، وللمرسل إليه القبول والتسليم»^(١) .

قلت بقى أمر رابع ، وهو الرسالة التى يرسل بها الرسول ، وهى أوامر الله. ونواهيه ، وحكمه لمن أرسل إليهم ، أما الإرسال فهو تكليف الرسول بالرسالة واكتفى عن ذلك بقوله : « وللمرسل إليه القبول والتسليم » لأن القبول والتسليم يكون للرسالة .

قال ابن جرير : « أمر الله نبيه بإبلاغ أهل الكتاب والمشركين ما أنزل الله عليه فيهم ، من معاليهم ، وما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، وأن لا يشعر نفسه حذرا منهم أن يصيبوه بمكروه إذا قام فيهم بأمر الله ، وأن لا يتقى إلا الله ، فإنه كافيهم كل أحد ، ودافع عنه كل مكروه .

وأعلمه أنه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزله إليه فيهم فهو من عظيم ما ارتكب من الذنب بمنزلة ما لو لم يبلغ من الرسالة شيئا » ثم روى عن ابن عباس : « إن كتمت آية مما أنزل عليك من ربك لم تبلغ رسالاتي »^(٢) .

ومقصوده بهذا الباب أن إبلاغ الرسالة من الرسول فعل له يشبهه الله عليه ، وأن الكلام الذى جاء به يبلغه صفة لربه ، وأنه ليس فيما بلغه ما يدل على قول الذين يقولون بخلقه ، أو خلق شيء منه .

قال فى خلق أفعال العباد ، بعد ما ذكر قوله ﷺ : « ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قریشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » .

فبين النبى ﷺ أن الإبلاغ منه ، وأن كلام الله من ربه ، ولم يذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان خلاف ما وصفنا ، وهم

(١) شرح الكرماني للبخارى ج ٢٥ ص ٢٢١ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٠ ص ٤٦٧ ملخصا .

الذين أدوا الكتاب والسنة بعد النبي ﷺ قرنا بعد قرن»^(١) يعنى أنه ليس فيما بلغه النبي ﷺ شىء مما يقوله الجهمية وأشباههم .

وقال : « ما جاء فى قول الله عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ، وقول النبي ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية » ، « وليبلغ الشاهد الغائب » ، وأن الوحى قد انقطع ، ثم ذكر حديث عائشة « من زعم أن محمدا كتم شيئا من الوحى ، فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

وقال صالح : ﴿ يَقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾^(٢) وقال شعيب : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾^(٤) .

فبين أن الرسالة من الله ، والإبلاغ من الرسل ، ثم روى خطبته ﷺ يوم النحر ، وفيها : « اللهم هل بلغت ، فليبلغ الشاهد الغائب ، ولا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض » .

وقال ابن عباس : « والذي نفسى بيده إنها الوصية إلى أمته » .

وروى عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جئتمكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولكن بعثنى الله إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت

(١) خلق أفعال العباد ص ٦٠ .

(٢) الآية ٧٩ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٩٣ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢٨ من سورة الجن .

لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه إلى أجل لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم»^(١) .

وذكر أحاديث فى هذا المعنى .

وقال أيضا : « وقال الله عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فذلك كله مما أمر به ، ولذلك قال : « وأقيموا الصلاة » فالصلاة بجملة طاعة الله ، وقراءة القرآن من جملة الصلاة ، فالصلاة طاعة الله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهو مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور ، مقروء على اللسان ، والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق ، وما قرئ وحفظ وكتب ليس بمخلوق . ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون « الله » ويحفظونه ، ويدعونه ، فالدعاء والحفظ ، والكتابة من الناس مخلوق ، ولاشك فيه .

والخالق الله بصفته .

ويقال له : أترى القرآن فى المصحف ؟ فإن قال نعم ، فقد زعم أن من صفات الله ما يرى ، وهذا رد لقول الله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ فى الدنيا . ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ ﴾ .

وإن قال : يرى كتابة القرآن ، فقد رجع إلى الحق .

ويقال له : هل تدرك الأبصار إلا اللون ؟ فإن قال : لا^(٢) . قيل له : وهل يكون اللون إلا فى الجسم ؟ فإن قال : نعم ، فقد زعم أن القرآن جسم يرى^(٣) .

وقال أيضا : « قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ

(١) خلق أفعال العباد ص ١٢٥ — ١٣٨ .

(٢) أى اعترف بأن الأبصار لا تدرك إلا اللون .

(٣) خلق أفعال العباد ص ١١٥ — ١١٦ .

رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿١﴾ ، فذكر
إبلاغ ما أنزل إليه ، ثم ذكر فعل تبليغ الرسالة ، فقال : إن لم تفعل فما بلغت
رسالته « فسمى تبليغه الرسالة وتركه فعلا .

فلا يمكن لأحد أن يقول على الرسول : « إنه لم يفعل ما أمر به من
الرسالة » .

ثم روى عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ خطب الناس يوم النحر ثم رفع
رأسه إلى السماء فقال : « اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل
بلغت ؟ » .

قال ابن عباس والذى نفسى بيده إنها الوصية إلى أمته ، فليبلغ الشاهد
الغائب ، وذكر حديث أبي الأحوص ، عن النبي ﷺ قال : « وأتنتى رسالة
من ربي ، فضقت بها ذرعا ، ورأيت أن الناس سيكذبوننى ، فقيل لى :
لتفعلن ، أو لتفعلن بك »^(١) يعنى أنه إذا بلغ فقد فعل ما أمر به وتلاوته
ما أنزل عليه من تبليغه ، وذلك فعله .

ومقصوده من الآية أن تبليغ الرسالة ، وعدمه كلاهما فعل للعبد وهو
مخلوق ، والرسالة هى أمر المرسل ، ونبيه وقوله ، وهو الله تعالى وذلك ليس
بمخلوق .

وقوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ﴾ أى تفعل التبليغ لعموم ما أنزله الله إليك ،
ولا تذر منه شيئا ، وهذا يدل على بطلان ما لم يبلغه من الأعمال ،
والاعتقادات وغيرها ، لأنه ﷺ بلغ كل ما أنزله الله عليه .

وقال الحافظ : « احتج أحمد بهذه الآية على أن القرآن غير مخلوق . لأنه

(١) المرجع نفسه ص ٧٥ - ٧٦ .

لم يرد في شيء من القرآن ، ولا من الأحاديث أنه مخلوق ، ولا ما يدل على ذلك .
وذكر عن الحسن البصرى أنه قال : « لو كان ما يقول الجعد^(١) حقا
لبلغه النبي ﷺ »^(٢) .

قوله : « وقال الزهرى : من الله — عز وجل — الرسالة ، وعلى
الرسول ﷺ البلاغ ، وعلينا التسليم » .

يعنى أن الرسالة من الله أمرا وقولا له ، وذلك مما يضاف إليه فعلا ووصفا ،
وعلى الرسول البلاغ ، وهو : إيصال أمر الله وقوله إلى الناس ، وإفهامهم إياه ،
وأمرهم بقبوله ، وترغيبهم على ذلك ، وتخويفهم من عذاب الله إن لم يقبلوا
رسالاته ويمثلوا أمره ويجتنبوا نهيه ، وهذا عمل الرسول ، وفعله الذى يشبهه
الله عليه ، أو يعاقبه على تركه .

« وعلينا التسليم » أى التسليم للرسالة بقبولها والانقياد لها ، وعدم
المعارضة ، والعمل بفعل المأمور ، واجتناب المحذور ، وهذا فعل العباد الذى
عليه يترتب الثواب ، أو العقاب عند المخالفة .

قال الحافظ : « أخرجه الحميدى فى النوادر ، ومن طريقه الخطيب^(٣) قال
الحميدى : « حدثنا سفيان ، قال : قال رجل للزهرى : يا أبا بكر ، قول النبي
ﷺ : ليس منا من شق الجيوب ، ما معناه ؟ فقال الزهرى : من الله العلم ،
وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم » . وأخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب
الأدب^(٤) ورواه ابن أبى عاصم فى الزهد ، ولفظه : « أخبرنا دحيم ، أخبرنا

(١) هو الجعد بن درهم أول من أنكر صفات الله تعالى ومحبه لعباده فقتله خالد بن عبد الله القسرى
أحد قواد بنى أمية سنة ٣٢ .

(٢) فى الجامع .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٤ .

الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، قال الأوزاعي قلت للزهري : يا أبا بكر ما هذا الحديث ؟ قال : فقال : من الله العلم ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم »^(١) .

قوله : « وقال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَلَتِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قال ابن الجوزي فيه خمسة أقوال :

أحدها : ليعلم محمد ﷺ أن جبريل قد بلغ إليه ، قاله ابن جبير .

الثاني : ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغوا رسالات ربهم ، وأن الله قد حفظهم ، ودفع عنهم ، قاله قتادة^(٢) .

الثالث : ليعلم مكذبو الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، قاله مجاهد .

الرابع : ليعلم الله — عز وجل — ذلك موجودا ظاهرا يجب به الثواب ، فهو كقوله : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾^(٣) .

الخامس : ليعلم النبي ﷺ أن الرسل قد أتته ، ولم تصل إلى غيره ذكره الزجاج^(٤) .

قلت : هذا بمعنى الأول ، ومعناه ! ليعلم محمد ﷺ أن الملائكة التي تنزل بالوحي أو يحرسون من ينزل به من استراق الشياطين . أنهم جاءوه بما أرسلوا به كاملا .

(١) كتاب الزهد لابن أبي عاصم ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) اختار هذا القول ابن جرير .

(٣) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

(٤) زاد المسير ج ٨ ص ٣٨٦ .

والقول الثاني هو الأولى ، والأقرب ، ويليهِ الرابع ، ولكن وجوب الثواب وجوب تفضل وكرم من الله تعالى ، والقول الثالث داخل في معنى الآية ، فإن الله تعالى يؤيد رسله بالآيات الدالة على صدقهم ، حتى يتيقن قومهم صدقهم .

والمراد من الآية هو ما دلت عليه الآية الأولى ، فإن الرسل لهم أفعال وأعمال يعملونها ، وتطلب منهم ، وتضاف إليهم على أنها أعمالهم حقيقة ولا تشبه أعمالهم ، وأفعالهم بأفعال الله ، وأوصافه تعالى .

قوله : « وقال تعالى : ﴿ أبلغكم رسالتِ ربي ﴾ .

المراد منها ظاهر مما سبق قبلها كما أوضحناه .

قوله : « وقال كعب بن مالك حين تخلف عن النبي ﷺ : ﴿ فسيري الله عملكم ورسوله ﴾ .

قال الحافظ تقدم هذا مسندا في تفسير براءة في حديثه الطويل ، وفي آخره . قال الله تعالى : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيري الله عملكم ورسوله ﴾ ومراد البخاري تسمية ذلك عملا^(١) .

قال الكرمانى : « ومناسبته للترجمة : التفويض ، والانقياد ، والتسليم ، ولا ينبغي لأحد أن يزكى عمله ، بل يفوض إلى الله سبحانه وتعالى »^(٢) .

قال بعض المتأخرين : موضع احتجاج البخاري « وقال كعب حين تخلف » لأن القول والتخلف فعل كعب » وهذا غير صحيح لأنه لا خصوص لقول

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٤ .

(٢) شرح الكرمانى ج ٢٥ ص

كعب ، بل مثل كل قول ، وإنما احتج بقوله : ﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ فهو نص في أن لهم عملا يجازون عليه بالثواب أو العقاب .
قوله : « وقالت عائشة : إذا أعجبك حسن عمل امرئ ، فقل :
﴿ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولا
يستخفك أحد » .

مقصوده أن العمل يضاف إلى العامل فعلا له ، مثل الصلاة ، والقراءة ،
والصوم ، والحفظ وهو مخلوق لأنه عمل مخلوق .

أما الأمر بالصلاة والصوم فهو من الله ، وليس بمخلوق .

وكذا القراءة هي فعل القارئ وفعله مخلوق ، وما يقرؤه ليس مخلوقا ،
بل هو كلام الله تعالى .

ومعنى قولها : « ولا يستخفك أحد » أي لا تغتر بعمل أحد يظهر لك
منه الخير والصلاح ، فتثني وتمدح ، فإنه عرضة للانتكاس ، ما لم تره واقفا
عند حدود الشرع متأشيا بالأبرار ، متبعا لسنة رسول الله ﷺ .

وقد روى المؤلف هذا الأثر مبسوطا في كتابه خلق أفعال العباد . حيث
قال : « حدثني يحيى بن بكير ، حدثني الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ،
عن عروة ، عن عائشة رضی الله عنها وذكرت الذي كان من شأن عثمان
ابن عفان : « وددت أني كنت نسيا منسيا ، فوالله ما أحببت أن ينتهك من
عثمان أمر قط إلا وقد انتهك مني مثله ، حتى والله لو أحببت قتله ، لقتلت ،
يا عبيد الله بن عدى لا يغرنك أحد بعد الذي تعلم ، فوالله ما احتقرت أعمال
أصحاب النبي ﷺ حتى تهجم نفر الذين طعنوا في عثمان فقالوا قولا لا
يُحسّن مثله ، وقرعوا قراءة لا يُحسّن مثلها ، وصلوا صلاة لا يصلي مثلها ،
فلما تدبرت الصنيع إذاهم والله ما يقاربون أعمال أصحاب النبي ﷺ .

فإذا أعجبك حسن قول امرئ فقل ﴿اعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ﴾ فلا يستخفك أحد^(١) .

يعنى أن أولئك الخوارج كانوا يجتهدون اجتهادا فى العبادة ما اجتهده أصحاب
النبي ﷺ . ولكنهم يرتكبون العظام والجرائم ، وهذا بمعنى قول الرسول ﷺ
فى وصفهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصومه مع صومهم » .

قال الحافظ : « وأخرجه ابن أبى حاتم ، من رواية يونس بن أبى يزيد ،
عن الزهرى أخبرنى عروة ، أن عائشة كانت تقول : « احتقرت أعمال
أصحاب النبي ﷺ حين نجم القراء الذين طعنوا على عثمان ، فذكر نحوه وفيه :
« فوالله ما يقاربون عمل أصحاب رسول الله ﷺ فإذا أعجبك حسن عمل
امرئ منهم فقل : اعملوا » إلخ^(٢) .

والمراد بالقراء : الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان ، وأنكروا
عليه أشياء الحق فيها معه ، وبعضها هو معذور فيها ، فافتحموا عليه بيته
فقتلوه ، وفتحوا بذلك على الأمة فتنة لا تزال الأمة تصلى نارها .

قوله : « وقال معمر : ﴿ذَلِكَ أَلَكْتُبُ﴾ هذا القرآن : ﴿هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة ، كقوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ هذا
حكم الله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك .

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعنى هذه أعلام القرآن ، ومثله : ﴿حَتَّى
إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِهْمُ﴾ يعنى بكم .

معمر هو ابن المشى ، أبو عبيدة ، قال الحافظ : « ومناسبة الآية لما تقدم ،

(١) خلق أفعال العباد ص ٥٦ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٥ .

من جهة أن الهداية نوع من التبليغ»^(١) يعنى الهداية المضافة إلى الرسول ﷺ في مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

وأقول : يجوز أنه أراد أن الهدى فى القرآن ، وما خالفه فهو ضلال .

وأن المتقين إذا حصل بينهم خلاف يرجعون إلى القرآن ، فيحصلون على الهدى ، وقد أوضح الله تعالى فى القرآن أن أعمال العباد مخلوقة ، فمن خالف ذلك ضل فى هذه المسألة ، كما أن هذا القرآن مما جاءنا به الرسول ﷺ وبلغنا إياه .

ولهذا قال فى تفسيره : « بيان ودلالة » أى مبين للحق ، ودال عليه ، كما أنه مبين للباطل ، ومحذر منه .

وقوله : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ . يعنى هذا الكتاب الذى بين أيديكم تقرأونه ، فيه الهدى لمن اتبعه واتقى ، وبين أن الإشارة المستعملة للبعيد ، قصد بها القريب ، على خلاف المعتاد فيها .

وبين أن هذا يستعمل أحيانا ، فمثل له بقوله : ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ أى هذا حكم الله الذى حكم به بينكم .

ثم فسر قوله : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأنه : لاشك فيه ، أى فى هدايته ودلالته على الحق ، فمن اهتدى به فهو المهتدى ، ومن جانبه وترك ما دل عليه فهو الضال .

ثم ذكر ما هو نظير ذلك فى الإشارة إلى البعيد ، والمراد القريب . وهو قوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ . قال : يعنى هذه أعلام القرآن ، أى دلائله وبيناته الدالة على الصراط المستقيم ، وهى الفارقة بين الحق والباطل ، ثم قال :

(١) الفتح ج ٣ ص ٥٠٦ .

« ومثله » أى ومثل هذا الاستعمال بالإشارة إلى القريب بما هو للبعيد .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَّيْنٰ بِهِمْ ﴾ يعنى بكم ، أى أن الضمير الذى جعل للغائب ، قصد به فى هذه الآية الحاضر ، فيكون مثل الإشارة للقريب بما هو موضوع للبعيد ، وهذا سائغ فى اللغة .

وعلماء البلاغة يقولون : إذا خرج اللفظ عما وضع له فمقصود به نكتة بيانية ، فالإشارة التى للبعيد إذا استعملت للقريب ، دل على علو مكانة المشار إليه ورفعته .

قوله : « وقال أنس : بعث النبى ﷺ خاله حراما إلى قوم .
وقال : تؤمنونى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم » .

هذا طرف من حديث أخرجه فى عدة أماكن من كتابه الصحيح . منها فى الجهاد فى أبواب متعددة ، وفى أحدها قال : « بعث النبى ﷺ أقواما من بنى سليم إلى بنى عامر ، فى سبعين ، فلما قدموا قال لهم خالى : أتقدمكم ، فإن أمنونى حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم منى قريبا ، فتقدم فأمنوه ، فبينما يحدثهم عن النبى ﷺ إذ أومئوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه ، فقال : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة ، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أخرج صعد الجبل ، فأخبر جبريل — عليه السلام — النبى ﷺ أنهم قد لقوا ربهم ، فرضى عنهم ، وأرضاهم ، فكنا نقرأ : بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ، وأرضانا ، ثم نسخ بعد ، فدعا عليهم أربعين صباحا ، على رعل ، وذكوان ، وبنى لحيان ، وبنى عصية ، الذين عصوا الله ورسوله »^(١) .

(١) انظر البخارى ج ٤ ص ٢٢ .

والمقصود أن تبليغ الرسالة عمل الرسول ، ونقل قول المرسل إلى المرسل إليه فلذلك قال : « أتؤمنوني بأبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم » فحديثه إياهم عن رسول الله ﷺ هو إبلاغهم الرسالة ، وهو ما فيه أمره ونهيه مما هو شرع لله الذى كلف العباد به .

والله تعالى كلف رسله إبلاغ قومهم ، وعلى ذلك يجزيهم ما يستحقون من الأجر ، والجزاء يكون على عمل العامل .

١٥٣ — قال : « حدثنا أبو الفضل بن يعقوب ، حدثنا عبد الله ابن جعفر الرقى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، حدثنا سعيد بن عبيد الله الثقفى ، حدثنا بكر بن عبد الله المزنى ، وزياى بن جبىر بن حية ، عن جبىر بن حية ، قال المغيرة : أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا ، أنه من قتل منا صار إلى الجنة » .

هذا قطعة من حديث طويل يخاطب به المغيرة بن شعبة — رضى الله عنه — ترجمان عامل كسرى ، لما سأله : ما أنتم ؟ قال : « نحن أناس من العرب كنا فى شقاء شديد ، وبلاء شديد ، نمص الجلد والنوى من الجوع ، ونلبس الوبر ، والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ، فبينما نحن كذلك ، إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين — تعالى ذكره وجلت عظمتة — إلينا نبيا من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا ، رسول ربنا أن نقاتلكم ، حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة ، فى نعيم لم ير مثلها ، ومن بقى منا ملك رقابكم »^(١) .

والمقصود قوله : « أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا » ، فهذا من الإبلاغ الذى

(١) انظر الصحيح ج ٤ ص ١١٨ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب .

أبلغهم ، وكل ما أخبرهم به من أمر ، أو نهي ، أو وعد ، أو وعيد ، أو قصص ، عن الأنبياء وأممهم ، أو غيرهم ، وغير ذلك ، فإنه من إبلاغ الرسالة التي أرسل بها .

ودل قوله : « عن رسالة ربنا » أن الرسالة تكون بالكلام الذى يخاطب به المرسل الرسول ، وإبلاغ المرسل إليهم ذلك الكلام هو إبلاغ الرسالة ، وإبلاغ الرسالة فعل الرسول وقوله وعمله ، وهو غير الرسالة ، وهو مخلوق . فالرسالة قول المرسل ، وأمره ونهيه ، ووعدته ووعيده ، وإخباره عن جزائه وغير ذلك ، وهذا ليس فعلا للرسول ، بل كلام الله بأمره ونهيه .

١٥٤ — قال : « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا .

— وقال محمد : حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنا شعبة ، عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : من حدثك أن النبى صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحي ، فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

هذا الحديث تقدم بعضه فى باب قوله تعالى : ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ ﴾ .
وقولها « فلا تصدقه » يعنى أن من زعم ذلك فهو كاذب ، ولا يكفى أنه لا يصدق بل لا يصح إسلامه ، ويجب تعريفه أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ رسالة ربه فإن اعترف بذلك وآمن به وإلا قتل مرتدا .

ومقصودها — رضى الله عنها — أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما يلزم الأمة فى دينها ، وما يصلحها وينفعها ، ولم يترك شيئا مما ينبغى العمل به أو علمه

واعتقاده إلا وأخبر به وبلغه كما أمر .

فكل ما لم يخبر به أو يأمر به أمته فليس من رسالته ، وهو بدعة منكرة .
فيجب الوقوف مع ما جاء به من الكتاب والسنة ، ولا بد أنه ﷺ امثل
ما أمره الله به من إبلاغ الرسالة قولاً وعملاً ، فبلغها على الوجه الأتم الأكمل .
وسبق أن إبلاغ الرسالة من فعله وقوله وعمله وفعله وعمله ومخلوق فلا
يلتبس ذلك بقول الله وكلامه الذى هو الرسالة ، فهذا صفة الله والإبلاغ فعل
الرسول ، وهذا التفريق هو ما قصده الإمام البخارى رحمه الله .

١٥٥ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن
الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل ، قال : قال
عبد الله : قال رجل : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله تعالى ؟
قال : أن تدعو الله ندا وهو خلقك ، قال : ثم أى ؟ قال : ثم أن
تقتل ولدك أن يطعم معك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حليلة
جارك .

فأنزل الله تصديقها : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ الآية .

تقدم الكلام على هذا الحديث ، ومقصوده هنا أن ما بلغه الرسول ﷺ
أمته سواء كان من قوله الذى هو سنته ، أو مما أنزله الله عليه قولاً لله تعالى
فإن ذلك كله من تبليغ الرسالة ، فحين أخير السائل بما هو أعظم الذنوب ،
أنزل الله عليه تصديق ما قاله من كلام الله الذى تعبد عباده بتلاوته ، مع
أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وإنما عن الوحي الذى يوحيه الله إليه .

قال الحافظ^(١) : « مناسبة هذا الحديث للترجمة أن التبليغ على نوعين .
أحدهما ، وهو الأصل أن يبلغه بعينه ، وهو خاص بما يتعبد بتلاوته ، وهو
القرآن .

وثانيهما : أن يبلغ ما يستنبط من أصول ما تقدم إنزاله ، فينزل عليه موافقته
فيما استنبطه ، إما بنصه ، وإما بما يدل على موافقته بطريق الأولى ، كهذه
الآية ، فإنها اشتملت على الوعيد الشديد في حق من أشرك ، وهي مطابقة
للنص ، وفي حق من قتل النفس بغير حق ، وهي مطابقة للحديث بطريق
الأولى ، لأن القتل بغير حق وإن كان عظيما لكن قتل الولد أشد قبحا من
قتل من ليس بولد للقاتل ، وكذا القول في الزناة ، فإن الزنا بحليلة الجار أعظم
قبحا من مطلق الزنا .

ويحتمل أن يكون نزول هذه الآية سابقا على إخباره ﷺ بما أخبر به لكن
لم يسمعها الصحابي إلا بعد ذلك .

ويحتمل أن يكون كل من الأمور الثلاثة^(٢) نزل تعظيم الإثم فيه سابقا
ولكن اختصت هذه الآية بمجموع الثلاثة في سياق واحد مع الاقتصار عليها ،
فيكون المراد بالتصديق الموافقة في الاقتصار عليها .

فعلى هذا فمطابقة الحديث للترجمة ظاهرة جدا والله أعلم^(٣) .

« واستدل أبو المظفر ابن السمعاني بآيات الباب وأحاديثه على فساد طريقة
المتكلمين في تقسيم الأشياء إلى جسم وجوهر وعرض ، وقالوا : الجسم
ما اجتمع من الافتراق ، والجوهر : ما حمل العرض ، والعرض ما لا يقوم

(١) أصل الكلام للكرماني انظر شرحه ج ٢٥ ص ٢٢٤ ولكن الحافظ تصرف فيه .

(٢) يعنى المذكورة في الحديث ، وهى الشرك وقتل الولد خشية الفقر والزنا بحليلة الجار .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٧ .

بنفسه ، وجعلوا الروح من الأعراض ، وردوا الأخبار في خلق الروح قبل الجسد ، والعقل قبل الخلق^(١) ، واعتمدوا على حدسهم ، وما يؤدي إليه نظرهم ، ثم يعرضون عليه النصوص ، فما وافقه قبلوه ، وما خالفه ردوه ، ثم ساق الآيات ونظائرها مما فيه الأمر بالتبليغ .

قال : وكان مما أمر بتبليغه التوحيد ، بل هو أصل ما أمر به ، فلم يترك شيئا من أمور الدين أصوله ، وقواعده ، وشرائعه إلا بلغه ، ثم لم يدع إلى الاستدلال بما تمسكوا به من الجوهر والعرض ، ولا يوجد عنه ولا عن أحد من أصحابه من ذلك حرف واحد فما فوقه .

فعرف بذلك أنهم ذهبوا خلاف مذهبهم ، وسلكوا غير سبيلهم ، بطريق محدث مخترع ، لم يكن عليه رسول الله ﷺ ، ولا أصحابه رضى الله عنهم . ويلزم من سلوكه العود على السلف بالطعن ، والقدح ، ونسبتهم إلى قلة المعرفة ، واشتباه الطرق .

فالخذر من الاشتغال بكلامهم ، والاكتراث بمقالاتهم ، فإنها سريعة التهافت ، كثيرة التناقض ، وما من كلام تسمعه لفرقة منهم إلا وتجد لخصومهم عليه كلاما يوازنه ، أو يقاربه ، فكل بكل مقابل ، وبعض ببعض معارض ، وحسبك من قبيح ما يلزم من طريقتهم أنا إذا جرينا على ما قالوه ، وألزمنا الناس بما ذكروه ، لزم من ذلك تكفير العوام جميعا لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد .

ولو عرض عليهم هذا الطريق ما فهمه أكثرهم ، فضلا عن أن يصير منهم صاحب نظر .

(١) لم يصح بذلك خير عن رسول الله ﷺ بل الأخبار تدل على نقيضه .

وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه أئمتهم في عقائد الدين والعض عليها بالنواجذ ، والمواظبة على وظائف العبادات ، وملازمة الأذكار ، بقلوب سليمة طاهرة عن الشبه والشكوك .

فتراهم لا يجيدون عما اعتقدوه ، ولو قطعوا إربا إربا ، فهنيئا لهم هذا اليقين ، وطوبى لهم هذه السلامة .

فإذا كفر هؤلاء ، وهم السواد الأعظم ، وجمهور الأمة فما هذا إلا طى بساط الإسلام ، وهدم منار الدين ، والله المستعان»^(١) .

وتقدم بعض ما يتعلق بذلك في أول الكتاب .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ﴾ .
وقول النبي ﷺ : « أعطى أهل التوراة ، التوراة ، فعملوا بها ، وأعطى أهل الإنجيل ، الإنجيل ، فعملوا به ، وأعطيتم القرآن ، فعملتم به » .

قال الحافظ : « مراده بهذه الترجمة أن يبين أن المراد بالتلاوة : القراءة ، وقد فسرت التلاوة بالعمل ، والعمل من فعل العامل»^(٢) .

أقول : مراده بيان أن التلاوة والقراءة فعل العباد ، وأن المتلو غير التلاوة ، والمقروء غير القراءة ، كما سبق بيانه .

وهو ينوع الأدلة على ذلك ويكررها ليتضح الأمر ، ويتبين الحق لأنه — رحمه الله — قد ابتلى بمن يقول : التلاوة هي المتلو ، والقراءة هي المقروء ،

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٧ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٥٠٨ .

وذلك غير مخلوق ، ورمى بأنه يقول : لفظي بالقرآن مخلوق . وقد صرح بأن ذلك كذب عليه .

قال شيخ الإسلام : « إذا قرأ الناس كلام الله ، فكلام في نفسه غير مخلوق ، إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج بذلك عن كونه كلام الله ، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئاً ، أمراً يأمر به ، أو خبراً يخبره ، وليس هو كلام المبلغ له عن غيره ، إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين .

وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله ، فيقال : هذا كلام الله ، مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم ، وقد يشار إلى نفس صفة العبد ، كحركته ، وصوته ، وقد يشار إليهما .

فالشار إليه الأول غير مخلوق ، لأنه كلام الله ، والشار إليه الثاني مخلوق ، لأنه صفة العبد ، والشار إليه الثالث منه ما هو مخلوق ، ومنه ما ليس بمخلوق . وما يوجد في كلام الآدميين من نظير هذا ، هو نظير صفة العبد ، لا نظير صفة الرب .

وإذا قال قائل : القاف في قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ كالكاف في قول الشاعر « قفا نيك من ذكرى حبيب ؟ » .

قيل : ما تكلم الله به ، وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين .

ولكن إذا بلغنا كلام الله ، فإنما نبغاه بصفاتنا ، وصفاتنا مخلوقة والمخلوق يماثل المخلوق .

وكلام المتكلم في نفسه واحد ، فإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به فإذا أنشد منشداً قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه ، مع أن أصوات المنشدين له تختلف ، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد .

وكذلك من روى حديث النبي ﷺ بلفظه ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » كان هذا كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه ، وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول .

فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه ، وإذا قرأه القراء فإنما يقرءونه بأصواتهم .

ولهذا قال الإمام أحمد ، وغيره من أئمة السنة : من قال : اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا ، وذلك فعل العبد ويراد به القول الذي يلفظ به الالفاظ ، وذلك كلام الله ، لا كلام القارئ فمن قال : إنه مخلوق فقد قال : إن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وإن هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله .

ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول .
وأما صوت العبد فهو مخلوق ، وقد صرح أحمد وغيره أن الصوت المسموع صوت العبد ، ولم يقل قط : إن من قال صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي وإنما قال : من قال : لفظي بالقرآن ، والفرق بينهما واضح .
والفرق بين لفظ الكلام ، وصوت مبلغه فرق واضح .

فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الغير ، فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو إنما بلغه بصوت نفسه ، لا بصوت ذلك الغير .

واللفظ ، والقراءة ، والتلاوة ، والكتابة ، ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات العباد ، وما يحدث عنها من أصواتهم ، وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذي يقرأه التالى ، ويتلوه ، ويلفظ به ، ويكتبه منع أحمد وغيره من إطلاق النفي والإثبات الذى يقتضى جعل صفات الله مخلوقة ، أو جعل

صفات العباد ومدادهم غير مخلوق»^(١) .

ومما يدل على أن التلاوة فعل التالى ، وأنها غير المتلو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾^(٢) . أى وأمرت أن أتلو القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾^(٣) وغير ذلك من الآيات فقد أمر الله عبده ورسوله بالتلاوة ، كما أمره بالعبادة ، فدل ذلك على أن التلاوة من العبادة التى يفعلها العبد ، وتضاف إليه فعلا له ، ويثاب عليها ، والأدلة على أن التلاوة غير المتلو كثيرة قد ذكر المؤلف رحمه الله جملة كبيرة منها فى كتابه خلق أفعال العباد ، بالإضافة إلى ما ذكره فى هذا الكتاب . فمن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « زينوا القرآن بأصواتكم »^(٤) وتقدم .

وحديث الرء بن عازب ، سمعت النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ فى العشاء « بالتين والزيتون » ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ، أو قراءة منه .

فالقارئ يكون حسن الصوت وقبيح الصوت ، لأنه فعله ، وقد جعل الله اختلاف ألسنة الناس وألوانهم من الآيات الدالة عليه — تعالى — وعلى وجوب عبادته وحده ، ولهذا اتفق العلماء على أنه لا يجوز الحلف بكلام أحد من الخلق ، لأنه لا يجوز الحلف بالخلق ، وكلامهم مخلوق .

قال البخارى رحمه الله تعالى : « وليس لأحد أن يحلف بالخلقين ، ولا بأعمالهم ولا بكلامهم ، ولا كلام الكفار والمنافقين ، ولا بقول إبليس .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٧١ — ٧٥ ملخصا .

(٢) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة التمل .

(٣) الآية ٢٧ من سورة الكهف .

(٤) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد ص ١٥٩ — ١٦٠ .

فمن حلف بقول المجوس أو نحوهم لم يلزمه حنث .
وإنما يذكر عن ابن مسعود ، وإبراهيم ، وعن النبي ﷺ مرسلًا « من حلف
بسورة من القرآن فعليه بكل آية منها كفارة » ، فأما أصوات المخلوقين فليس
فيها كفارة «^(١) .

وقال : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر
رضى الله عنهما كان في خاتم رسول الله ﷺ : « محمد رسول الله » .
وقد كتب النبي ﷺ كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه ترجمان
قيصر ، على قيصر وأصحابه .

ولا نشك في قراءة الكفار ، وأهل الكتاب أنها أعمالهم ، وأما المقروء فهو
كلام الله العزيز المنان ، ليس بمخلوق ، فمن حلف بأصوات قيصر ، وبنداء
المشركين الذين يقرون بالله لم يكن عليه يمين دون الحلف بالله ، لقول النبي
ﷺ : « لا تحلفوا بغير الله » .

وليس لأحد أن يحلف بالخواتيم ، والدراهم البيض^(٢) ، وألواح الصبيان
التي يكتبونها ، ثم يمحوها مرة بعد مرة ، وإن حلف ، فلا يمين عليه ، لقوله
عز وجل : « فلا تجعلوا لله أندادا »^(٣) .

وقال : « فإن احتج محتج فقال : قد روى « إن فضل كلام الله على سائر
الكلام كفضل الله على خلقه » . قيل له : لو صح هذا الخبر لم يكن لك
فيه حجة ، لأنه قال :- « كلام الله » ، ولم يقل : قول العباد المؤمنين
والمنافقين ، وأهل الكتاب الذين يقرعون بسم الله الرحمن الرحيم ، وهذا واضح
بين عند من كان عنده أدنى معرفة ، أن القرآن غير المقروء .

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٦ عقائد السلف .

(٢) يعني التي كتب عليها اسم الله أو شيء من القرآن .

(٣) خلق أفعال العباد ١٩٧ عقائد السلف .

وليس لكلام الفجرة وغيرهم فضل على كلام غيرهم ، كفضل الخالق على المخلوق وتبارك ربنا وتعالى ، وعز وجل عن صفة المخلوقين .

وإن قال قائل : فقد روى عن النبي ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » .

قيل له : أليس القرآن خرج منه ، فخروجه منه ليس كخروجه منك ، إن كنت تفهم ، مع أن هذا الخبر لا يصح ، لإرساله وانقطاعه .

فإن قال : فإن لم يكن الذى يتكلم به العبد قرآنا ، لِمَ تُجزِهُ صلاته ؟ قيل له : قال النبي ﷺ : « لا صلاة إلا بقراءة » .

وقال أبو الدرداء : سئل النبي ﷺ : أفى كل صلاة قراءة ؟ فقال : « نعم » .

والقراءة هى التلاوة ، والتلاوة غير المتلو ، وقد بينه أبو هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « اقرءوا وإن شئتم ، يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » فيقول الله : حمدنى عبدى ، يقول العبد : « الرحمن الرحيم » يقول الله — عز وجل — : « أثنى على عبدى » ، يقول العبد : « مالك يوم الدين » يقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد : « إياك نعبد وإياك نستعين » ، يقول الله : هذه بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سألت » .

فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

وسئل النبي ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » .

فذكر النبي ﷺ أن بعض الصلاة أطول من بعض ، وأخف ، وأن بعضهم يزيد على بعض فى القراءة ، وبعضهم ينقص ، وليس فى القرآن زيادة ولا نقصان ، وأما التلاوة فإنهم يتفاضلون فى الكثرة والقلة ، والزيادة

والنقصان ، وقد يقال : فلان حسن القراءة ، أو ردىء القراءة ، ولا يقال حسن القرآن ، أو ردىء القرآن ، وإنما نسب إلى العباد القراءة ، لا القرآن ، لأن القرآن كلام الله عز وجل ، والقراءة فعل العبد ، ولا يخفى هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه^(١) .

قال : « وأما قوله : « فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذى تلفظ به »^(٢) فإن كان الذى تلفظ به قرآنا فهو كلام الله ؟ قيل له : ما قولك تلفظ به ؟ فإن اللفظ غير الذى تلفظ به ، لأنك تلفظت بالله ، وليس الله هو لفظك ، وكذلك تلفظ بصفة الله ، تقول : الله ، وليس قولك : الله هو الصفة ، وإنما تصف الموصوف ، فأنت الواصف ، والله الموصوف بكلامه ، كالواصف الذى يصف بكلام غير الله وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله »^(٣) .

يعنى أن الذى يقرأ كلام الله ، فما يلفظ به هو كلام الله ، وليس هو كلام القارئ وإنما للقارئ حركة لسانه وشفثيه وصوته ، وذلك فعلة . وإذا قرأ صفة الله فى القرآن التى وصف الله بها نفسه ، فليس القارئ هو الواصف لله — تعالى — وإنما يتلفظ بصفة الله التى قالها الله — تعالى — واصفا بها نفسه .

« قال الضحاك : لم يحرم الله على بنى إسرائيل طعاما ، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعا لأبيهم ، ثم أضافوا تحريمه لله — عز وجل — فكذبهم الله — تعالى — فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ ﴾ أى قل يا محمد لهم : اتنوا بالتوراة ، التى فيها التحريم والتحليل ﴿ فَأَتْلُوهَا ﴾ أى فاقروها حتى يتبين

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٢) يعنى المحتج بقوله ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه والعبد لا يرجع إلى الله إلا بعمله ، فيكون لفظه بالقرآن عمله » .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٠٤ .

ما قلتم ، ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، فيما ادعيتم ، فلم يأتوا بها خوفا من الفضيحة ^(١) .

فالتلاوة في هذه الآية هي القراءة ، وهي فعل العبد وعمله ، والمتلو كتاب الله وكلامه .

قوله : « وقول النبي ﷺ : « أعطى أهل التوراة التوراة » إلى آخره معنى أعطى هنا : أنزل عليهم ، أى أنزل الله التوراة على موسى ، فعمل بها قومه ، باتباعها وتلاوتها للتفهم والتعبد .

وأنزل الله الإنجيل على عيسى ، فعمل به من شاء الله أن يعمل من النصارى بأن آمنوا به واتبعوه ، وقرعوه للتفهم والعبادة .

ومثل ذلك أهل القرآن ، ففي ذلك دليل على أن التلاوة من عمل العباد ، وكسبهم ، وأنها غير المتلو ، كما تقدم إيضاح ذلك .

قوله : « وقال أبو رزين : يتلونه حق تلاوته : يعملون به حق عمله » .

أبو رزين هو مسعود بن مالك الأسدي الكوفي ، من كبار التابعين . ومعنى ذلك أن التلاوة ، يراد بها القراءة كما سبق ، ويراد بها الاتباع والعمل .

قال الراغب : « التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة ، تارة بالقراءة ، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى ، وترغيب وترهيب ، وهو أخص من القراءة ، فكل تلاوة قراءة ، وليس كل قراءة تلاوة ^(٢) .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٣٨٢ .

(٢) المفردات ص ٧٥ .

وقال الأزهرى : « قال الليث : يقال : تلا يتلو ، يعنى قرأ ، قراءة ، وتلا إذا تبع ، فهو تال أى تابع »^(١) .

« وقال أبو زيد فى قوله — عز وجل — يتلونه حق تلاوته » قال : يتبعونه حق اتباعه .

وقال مجاهد : يعملون به حق عمله .

وقال ابن عباس : يتبعونه حق اتباعه ، فيعملون به حق عمله .

وقال أبو عبيدة فى قوله : ﴿ وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ ﴾ قال : ما تتكلم به ، كقولك : يتلو فلان كتاب الله أى يقرؤه ، ويتكلم به .

وقال عطاء : ﴿ مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ ﴾ : ما تحدث ، وما تقص «^(٢) .

فتبين بهذا أن التلاوة تطلق على القراءة ، وعلى الاتباع ، وإذا قيل : تلاه حق تلاوته — يكون المعنى — عمل به حق عمله — يعنى — العمل الكامل والاتباع فى كل ما جاء به .

قوله : « يقال : يتلى : يقرأ » هذا تفسير لقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يقرأ عليهم .

قال ابن جرير : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يقرأ عليهم ، وذكر بسنده إلى يحيى بن جعدة أن ناساً من المسلمين ، أتوا نبي الله ﷺ بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما نظر فيها ألقاها ، ثم قال : « كفى بها حماقة قوم ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، إلى قوم غيرهم » فنزلت : ﴿ أَوْلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

(١) تهذيب اللغة ج ١٤ ص ٣١٦ .

(٢) المصدر المذكور ج ١٤ ص ٣١٩ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى النِّسَاءِ ﴾ ، والذي يتلى عليهم هو آيات الفرائض من الموارث وغيرها .

قال الحافظ : « هذا الذي ذكر البخارى هو كلام أبى عبيدة فى كتاب مجاز القرآن . ﴿ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ يقرأ عليهم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ ما كنت تقرأ كتابا قبل القرآن » (١) .

أقول : الآية التى ذكرها البخارى لم يتكلم عليها أبو عبيدة فى كتابه مجاز القرآن وهذه التى ذكرها غير تلك ، فكيف يقال إن ما ذكره البخارى هو كلام أبى عبيدة ، وإن كان نظيرا له فليس هو (٢) .

قوله : « حسن التلاوة : حسن القراءة للقرآن » ، يعنى أن التلاوة فعل العباد وليس هى المتلو ، ولهذا يوصف التالى بأنه حسن التلاوة ، أو سيئها ، ولا يجوز أن يوصف القرآن بذلك .

قال البخارى — رحمه الله — : « القراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه .

وسئل النبى ﷺ أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » ثم ذكر ما تقدم قريبا (٤) .

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٧ وقال السيوطى : أخرجه الدارمى ، وأبو داود فى المراسيل وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والإسماعيلى . انظر الدر المنثور ج ٦ ص ٤٧١ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٩ .

(٣) انظر مجاز القرآن ج ٢ ص ١١٦ .

(٤) انظر خلق أفعال العباد ص ١٦٦ تحقيق بدر .

قوله : « لا يمسه » لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن ، لقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

يعنى أن الطهارة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ هي الطهارة من الشرك ، والكفر ، والغفلة والإعراض ، ويتبع ذلك الذنوب . قال الفراء : « ويقال : لا يمسه : لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون ، من آمن به » (٢) .

« وهذا من باب الاعتبار والقياس ، لأنه إذا كان ورق المصحف لا يمسه إلا المطهرون ، فمعانيه لا يهتدى بها إلا القلوب ، الطاهرة .

ومثل هذا قول النبي ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » فإذا كان الملك لا يدخل البيت الذى فيه كلب ، فكذلك المعانى التى تحبها الملائكة لا تدخل القلب الذى فيه أخلاق الكلاب » (٣) .

قال الحافظ : « حاصل هذا التفسير ، أن معنى : لا يمسه القرآن . لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به ، وأيقن بأنه من عند الله ، فهو المطهر من الكفر ، ولا يحمله بحقه إلا المطهر من الجهل والشك . لا الغافل عنه الذى لا يعمل [به] فيكون كالحمار الذى يحمل ما لا يديره » (٤) .

« وعلى القول بأن المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ هو

(١) الآية ٥ من سورة الجمعة .

(٢) معانى القرآن ج ٣ ص ١٣٠ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥٥١ - ٥٥٢ بتصريف .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٩ .

اللوح المحفوظ ، أو المصحف ، فكما أن اللوح المحفوظ الذى كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر ، فكذلك معانى القرآن لا يذوقها إلا القلب الطاهر ، وهو قلب المتقى . وهذا قول طائفة من السلف»^(١) .

« والصحيح أنه يجب الوضوء لمس المصحف ، وهو مذهب الأئمة الأربعة لما فى الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ لعمر بن حزم ، وفيه « وأن لا يمسه القرآن إلا طاهر » . قال الإمام أحمد : لا شك أن النبى ﷺ كتبه له . وهذا هو المعروف عن الصحابة ، سعد ، وسلمان ، وابن عمر»^(٢) .

واختلفت أقوال السلف فى المراد بالكتاب ، وبالمطهرين . فقيل : الكتاب هو ما بأيدي الملائكة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِى صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ ، وهذا اختيار الإمام مالك ، فعلى هذا يكون المراد بالمطهرين الملائكة .

وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى كتب فيه القرآن . قال القرطبي : وهو الأظهر ، واستدل بما فى كتابه ﷺ لعمر بن حزم ، وبحديث ابن عمر : أن النبى ﷺ قال : « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » ، ويقول أخت عمر له ، لما دعا بالصحيفة قبل أن يسلم : « لا يمسه إلا المطهرون»^(٣) .

وقال ابن كثير : « وقال آخرون : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ من الجنابة والحدث فلفظ الآية خبر ، ومعناها الطلب » .

والمراد بالقرآن ها هنا : المصحف . كما روى مسلم ، أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو . واحتجوا

(١) مجموع الفتاوى ج ١٣ ص ٢٤٢ .

(٢) المرجع قبله ج ٢١ ص ٢٨٨ و ٢٦٦ ببعض التصرف .

(٣) انظر تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

بما في كتاب عمرو بن حزم ، وبما روى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري ، قال : قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يمسن القرآن إلا طاهر » . وهذه وجادة جيدة ، ومثل هذا ينبغي الأخذ به .

وقد أسنده الدارقطني ، عن عمرو بن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان ابن أبي العاص ، ، وفي إسناد كل منها نظر ^(١) .

« قال ابن عبد البر : كتاب ابن حزم روى مسندا من وجه صالح ، وهو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم ، معرفة يستغنى بها في شهرتها عن الإسناد » ^(٢) .

قوله : « وسمى النبي ﷺ : الإسلام والإيمان ، والصلاة عملا » .

قال الحافظ : « أما تسمية الإسلام عملا ، فاستنبطه من حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام ، فقال النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسوله ، وقال عن الإسلام : أن تسلم وجهك لله وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » الحديث .

فسمى الإيمان ، والإسلام ، والصلاة بقراءتها ، وما فيها من حركات الركوع والسجود فعلا » ^(٣) .

قلت : الظاهر أن مراده ما ذكره في خلق أفعال العباد ، حيث قال :

حدثنا أبو إيمان ، أنبأنا شعيب ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : سئل النبي ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٢ ملخصا .

(٢) انظر الموطأ ج ١ ص ١٩٩ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥٠٩ .

قال : « إيمان بالله ، وجهاد في سبيله » ورواه في الصحيح من حديث أبي ذر في العتق في باب أى الرقاب أفضل ، ورواه في كتاب الإيمان : باب من قال : إن الإيمان هو العمل لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وفي أماكن أخر وسيأتى في آخر الكتاب .

وقال بعد ما ذكره في خلق أفعال العباد : « فجعل النبي ﷺ الإيمان والتصديق ، والجهاد ، والخير عملا »^(١) .

وهذا واضح جدا ، ولم يختلف فيه أهل السنة ، وهو دليل على أن القراءة ليست هي المقروء ، لأنها من عمل القارئ الذى يؤجر عليه .

وإذا ثبت أن الإيمان من عمل المؤمن ، فمثله الإسلام ، لأن الرسول ﷺ جعل الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت .

وأما كون الصلاة عملا فهو ظاهر جدا .

قوله : « وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ لبلال : « أخبرني بأرجى عمل عملته في الإسلام ؟ قال : ما عملت عملا أرجى عندي أنى لم أتطهر إلا صليت » . ذكر هذا الحديث بسنده موصولا في مناقب بلال ، ووجه الدلالة منه أنه سمي الصلاة عملا ، مع ما فيها من القراءة والتكبير ، والتسبيح والتحميد ، وغير ذلك .

قوله : « وسئل : أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله ، ثم جهاد ، ثم حج مبرور » تقدم قريبا ، والاستدلال به واضح ، فإنه جعل الإيمان والجهاد والحج عملا .

(١) انظر خلق أفعال العباد ص ٤٨ - ٥٣ .

١٥٦ — قال : « حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهري ، أخبرني سالم ، عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتي أهل التوراة ، التوراة ، فعملوا بها حتى انتصف النهار ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أوتي أهل الإنجيل ، الإنجيل ، فعملوا به حتى صليت العصر ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطا قيراطا ، ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس ، فأعطيتم قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتاب : هؤلاء أقل منا عملا ، وأكثر أجرا ؟ قال الله : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . فقال : فهو فضلي أوتيته من أشياء . »

تقدم هذا الحديث في باب المشيئة والإرادة ، ومعنى قوله : « إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم » أن بقاء هذه الأمة في الدنيا كنسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بالنسبة لليوم .

فالمعنى : أن مدة هذه الأمة بالنسبة إلى من سبقها من الأمم قليلة .

وإذا كان مدة مجموع الأمة قليلة لزم أن يكون عمر كل فرد منها قصيرا ، وكان الحديث قصد به الإخبار بقلة بقاء هذه الأمة في الدنيا ، وبكثرة أجرها ، وفضلها ، ولذلك ضرب المثل لها ولأهل الكتاب ، لأن اليهود والنصارى ، وهذه الأمة كلهم أعطوا كتباً جاءتهم من الله ليعملوا بها ، ورواية الترمذى توضح ذلك ونصها :

« إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس ، وإنما مثلكم ، ومثل اليهود والنصارى ، كرجل استعمل عمالا ، فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود ، على قيراط قيراط .

ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين ،
فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا نحن أكثر أعمالا ، وأقل عطاء ؟

قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : فإنه فضل أوتيته
من أشياء « هذا حديث حسن صحيح »^(١) .

ففى هذا أنه ﷺ أخبر عن شيئين : أحدهما : مدة بقاء هذه الأمة فى الدنيا
بالنسبة لمن سبقها من الأمم ، وأنه مثل نسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب
الشمس بالنسبة لليوم الكامل .

والثانى مثُل هذه الأمة ، ومثل اليهود والنصارى . « فعلى هذا لا يكون
قوله : أوتى أهل التوراة » إلى آخره شرح ، وتفصيل لما تقدم كما قاله الحافظ ،
وإنما هو كلام مستأنف ، أريد به بيان فضل هذه الأمة على اليهود والنصارى ،
وكثرة أجورها .

قوله : « أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ، ثم
عجزوا » كأنه أريد منهم أن يعملوا جميع النهار ، ولهذا قال : « ثم عجزوا »
أى عن العمل بقية النهار .

قوله : « فأعطوا قيراطا قيراطا » أى كل فرد منهم أعطى قيراطا .

قوله : « ثم أوتى أهل الإنجيل » إلى آخره ، مثل سابقه .

« ثم أوتيت القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس » أى أن هذه الأمة أكملت
العمل الذى طلب من اليهود والنصارى فعجزوا عن أدائه ، فلذلك أعطوا
ضعفى ما أعطى من قبلهم من الأجر .

ويفهم منه أن هذه الأمة يستمر عملها بالقرآن إلى قيام الساعة ، لأنه

(١) جامع الترمذى ج ٥ ص ١٥٣ .

قال : « فعملتم به حتى غربت الشمس » . كما يدل على حسد اليهود والنصارى للمسلمين على ما هم عليه من الحق ، ويدل على عظم فضل الله على هذه الأمة .

والمقصود منه في هذا الباب قوله : « أوتى أهل التوراة التوراة » إلى آخره . فإنه يدل على أن العمل فعل العباد ، ومن ذلك قراءة الكتاب الذى أوتوه ، وتلاوته ، وأن ما يعطيه الله العبد غير عمله ، بل هو جزاء عمله .

وكذلك الكتاب الذى آتاه الله اليهود والنصارى ، والمسلمين ليس هو عملهم وتلاوتهم ، فالذى أوتوه وحى أنزله الله على رسله إليهم ، وعملهم به هو فعلهم من تلاوته ، وامتنال أوامره ، والانتها عن مناهيه .

قال فى خلق أفعال العباد : « باب قول الله عز وجل : ﴿ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفَ اللِّسِنَاتِ وَالْوَنُكُم ﴾ فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان وهو كلام العباد ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا لفعلت كما يفعل » .
فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرِ ﴾ . فأثبت الخير منهم فعلا^(١) .
معنى قيام العبد بالكتاب هو فعل العبد الذى يجازى عليه ، وليس هو الكتاب وبهذا يتضح مراده بهذه النصوص .

(١) خلق أفعال العباد ص ١٩٥ - ١٩٧ ملخصا .

قال : « باب : وسمى النبي ﷺ الصلاة عملا . وقال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

يعنى أن الصلاة فعل من أفعال العباد ، وفيها قراءة القرآن ، وأقل ذلك قراءة الفاتحة ، لأن الصلاة لا تصح بدون قراءة الفاتحة ، فتبين بذلك أن القراءة ليست هى المقروء ، وإنما هى عمل العبد وفعله وكسبه ، فالقراءة من جملة الصلاة ، وقد سمي النبي ﷺ الصلاة كلها عملا .

١٥٧ — قال : « حدثنى سليمان ، حدثنا شعبة ، عن الوليد .

وحدثنى عباد بن يعقوب الأسدى ، أخبرنا عباد بن العوام ، عن الشيبانى ، عن الوليد بن العيزار ، عن أبى عمرو الشيبانى ، عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أن رجلا سأل النبي ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، ثم الجهاد فى سبيل الله » .

الرجل السائل هو ابن مسعود كما صرح به فى الرواية الأخرى .

وهو يدل على حرص الصحابة على فعل الأفضل ، وتحريم الأعمال الفاضلة فى التقديم ، لأن عمر الإنسان قصير ، وربما شغل عن كثير من العمل ، وفى كثير من الأوقات .

قال ابن دقيق العيد : « سؤاله عن أفضل الأعمال طلبا لمعرفة ما ينبغى تقديمه ، وحرصا على معرفة الأصل ليتأكد القصد إليه ، وتبشداً للمحافظة عليه ، ولعله أراد بالأعمال هنا ، الأعمال البدنية ، كما قال الفقهاء : « أفضل عبادات البدن الصلاة » ، فلا تكون أعمال القلوب داخلة فيه ، فعلى هذا لا تعارض بينه وبين حديث أبى هريرة ، أفضل الأعمال إيمان بالله »^(١) .

(١) شرح العمدة ج ١ ص ١٣١ — ١٣٢ ملخصا .

وقال الحافظ : « محصل ما أجاب به العلماء عن الأحاديث التي اختلفت فيها الأجوبة ، بأن كل واحد منها أفضل الأعمال ، أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائق بهم .

أو كان الاختلاف ، باختلاف الأوقات ، بأن يكون العمل في وقت أفضل منه في غيره ، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال ، أو أن « أفضل » ليست على بابها ، بل المراد بها الفضل المطلق »^(١) .

« الصلاة لوقتها » يعنى في الوقت الذى عينه الشارع ، وهو وقت الاختيار .

وبر الوالدين : التوسع في الإحسان إليهما ، وضده العقوق .

ويراد بالر أيضا التوسع في فعل الطاعة كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ إلى آخر الآية^(٢) .

والجهاد : استفراغ الوسع وبذل الجهد في قتال العدو ومدافعتة وهو ثلاثة أنواع : جهاد العدو الظاهر من الكفار وغيرهم .

وجهاد العدو الخفى ، وهو الشيطان ، وجهاد النفس ، وكلها يشملها الحديث ، وتدخلى في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وغير ذلك من النصوص الآمرة بالجهاد .

والمقصود من الحديث هنا : تسمية الصلاة عملا ، حيث أجاب النبي ﷺ

(١) الفتح ج ٢ ص ٩ ملخصا .

(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

السائل الذى قال : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة لوقتها » فجعلها عملاً ، ومعلوم أن الصلاة فيها قراءة القرآن ، فدل على أن القراءة من عمل العبد لأنها فعل القارئ كما سبق .

وتقدم نقل كلام البخارى فى هذا وقوله : « قد بين النبي ﷺ أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد ، وأن قول العبد غير كلام الله ، هذا من العبد الدعاء والتضرع ، ومن الله الأمر والإجابة .

والقراءة لا تكون إلا من الناس ، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه »^(١) .

يعنى أنه جعل القراءة إلى إرادة المخاطبين فى قوله : « إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين » قال الله حمدنى عبدى ، وقول العبد : الحمد لله « إنخ هي قراءته فهو يقرأ الفاتحة ، وهي من كلام الله تعالى .

وقوله : « وقد تكلم الله بالقرآن من قبل ، وكلامه قبل خلقه » يعنى جنس الكلام لأن الكلام هو الذى يوجد به الخلق عندما يقول الله له كن يكون موجودا ولا يدل ذلك على أن القرآن قديم كما يقوله أهل البدع ، فالله تكلم بالقرآن ثم أنزله على رسوله ﷺ .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ .

قال ابن جرير : « الهلع : شدة الجزع ، مع شدة الحرص والضجر ، وروى بسنده عن ابن عباس : الهلوع هو الجزوع الحريص ، وعن سعيد بن جبير : هلوعا : شحيجا جزوعا .

(١) انظر خلق أفعال العباد ص ١٦٤ .

وعن عكرمة : ضجورا ، وقال الضحاك : بخيل منوع للخير ، جزوع إذا نزل به البلاء»^(١) .

وقال الفراء : « الهلوع : الضجور ، وصفته كما قال الله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ فهذه صفة الهلوع . ويقال منه : هلع ، يهلع هلعًا مثل جزع ، يجزع جزعًا»^(٢) .

وقال المبرد : « الهلع : من الجين عند ملاقاته الأقران ، يقال : نعوذ بالله من الهلع . ويقال : رجل هلوع ، إذا كان لا يصبر على خير ، ولا شر ، حتى يفعل في كل واحد منهما غير الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾»^(٣) .

وكل هذه الأقوال متفقة في المعنى ، والمعنى : أن هذه الأوصاف المذكورة خلقت في الإنسان ، ولكنها فعله الذى يصدر منه عن إرادته فيلام عليها أو يثنى عليه بها ، فهو ضجور غير ثابت ، قليل الصبر ، ومنوع هلوع ، فإذا أصابه الخير منع ، وإذا وقع في شدة جزع ، وذلك كله فعله المضاف إليه فعلا له على الحقيقة ، والله خلقه على ذلك ، فدل هذا على أن الله تعالى خالق أفعال الإنسان كما أنه خالقه .

قال الحافظ : « مقصود البخارى : أن الصفات المذكورة بخلق الله تعالى في الإنسان ، لا أن الإنسان يخلقها بفعله»^(٤) .

(١) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ٧٨ .

(٢) معانى القرآن ج ٣ ص ١٨٥ .

(٣) الكامل ج ٣ ص ١٠٩٢ .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٥١١ .

١٥٨ — قال : « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا جرير بن حازم ، عن الحسن ، حدثنا عمرو بن تغلب ، قال : أتى النبي ﷺ مال فأعطى قوما ، ومنع آخرين فبلغه أنهم عتبوا ، فقال : إني أعطى الرجل ، وأدع الرجل ، والذي أدع أحب إلى من الذى أعطى ، أعطى أقواما لما فى قلوبهم من الجزع والهلع وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب ، فقال عمرو : ما أحب أن لى بكلمة النبي ﷺ حمر النعم » .

عمرو بن تغلب ، التمري ، من التمر بن قاسط ، ويقال : العبدى من عبد القيس من أهل حوثا ، قرية من قرى البحرين ، صحابى جليل القدر .
روى عنه الحسن البصرى ، ولم يرو عنه غيره فيما قاله غير واحد .

وقال ابن عبد البر : روى عنه أيضا الحكم بن الأعرج ، وعداده فى أهل البصرة وهو كغيره من كثير من الصحابة الذين لم تعرف أخبارهم ، ولم تدون مآثرهم ، فعليهم رضوان الله ورحمته أجمعهم»^(١) .

قوله : « أتى النبي ﷺ مال » إنلخ هذا المال إما من الخمس الذى أفاءه الله على رسوله ، أو من الغنائم ، أو من الزكاة .

وفى الرواية التى ذكرها البخارى فى الجمعة : « أتى بمال — أو سبى»^(٢) .

وكانت سنته ﷺ أنه إذا جاءه شيء من المال وزعه فى مصالح الإسلام ولا يدخر شيئا ، ومن المصالح إعطاؤه من لم يتمكن الإسلام من قلوبهم فيؤثروا

(١) انظر تهذيب الكمال ج ٢ ص ١٠٢٧ مخطوط ، ورجال البخارى للكلاباذى ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) انظر الفتح ج ٢ ص ٤٠٣ .

الآخرة على الدنيا — يعطيهم خوفا عليهم من الجزع ، وعدم الصبر ، فيتزعزع إيمانهم ، فهذا الذى جعله يعطى قوما ، ويمنع آخرين ، يمنع كَمَلَّ الإيمان الذين ذاقوا طعمه وحلاوته ، التى لا تعادها الدنيا بأسرها ، بل ولا شيئا منه ، ولهذا قال : ﷺ : « وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » .

« فبلغه أنهم عتبوا » . قال الأزهرى : « قال ابن شميل ، وابن المظفر : العتب : الموجدة ، تقول : عتب فلان على فلان ، إذا وجد عليه » (١) .

والمعنى : أنه صار فى نفوسهم عليه شيء بسبب منعهم من هذا المال ، لأنهم يرون أنهم أحق من غيرهم ، وذلك لخفاء الأمر عليهم ، وإلا فالتعنين الرضا بما يفعله الرسول ﷺ والتسليم لأمره وفعله ، وهذا شأن الصحابة رضوان الله عليهم غالبا .

« فقال : إني أعطى الرجل ، وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى » إلخ .

يعنى أن تخصيصه بعض الناس بالعطاء ليس دليلا على أنه ﷺ يجب المعطى أكثر من غيره ، بل يعطيه خوفا عليه من الجزع ، وعدم الصبر على بلوى الإعواز ، وقلة ذات اليد ، فإذا لم يحصل لهؤلاء ما يتطلعون إليه من العطاء كان ذلك عوناً للشيطان عليهم ، فى إرجاعهم عن الإسلام ، أو اعتراضهم على النبى ﷺ فى ذلك هلاكهم .

أما الذين أودع الله فى قلوبهم الخير والغنى بالإسلام ومحبته والرغبة فيه ، والرجاء لما أعد الله لهم فى الآخرة ، فإنهم أحب إلى رسول الله ﷺ ممن أعطاهم من ذلك المال وغيره ، ولم يشنه عن عطائهم إلا ما علمه من الغنى فى قلوبهم ، وثقتهم بوعد الله لهم ، وإيمانهم الذى لا يتزعزع ، وحبهم لله ورسوله ، بحيث يحبون ما أحبه الله ورسوله ، فلا يرون أن غير ما فعله أحسن مما فعله .

(١) تهذيب اللغة ج ٢ ص ٢٧٧ .

قال الحافظ : « وفيه أن الرزق في الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق في الآخرة ، ففي الدنيا تقع العطية والمنع بحسب السياسة الدنيوية ، فكان ﷺ يعطى من يخشى عليه الجزع ، والهلع لو منع ، ويمنع من يثق بصبره واحتماله ، وقناعته عنه بثواب الآخرة .

وفيه أن البشر جبلوا على حب العطاء ، وبغض المنع ، والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة في عاقبته إلا من شاء الله .

وفيه أن المنع قد يكون خيرا للمنع ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ، ومن ثم قال الصحابي : « ما أحب أن لي بتلك الكلمة حمر النعم » ، وآلباء في قوله : « بتلك » للبدلية ، أى ما أحب أن لي بدل كلمته [النوق الحمر] لأن الصفة المذكورة تدل على قوة إيمانه المفضى به إلى دخول الجنة ، وثواب الآخرة خير وأبقى .

وفيه استتلاف من يخشى جزعه ، أو يرجى بسبب إعطائه طاعة من يتبعه ، والاعتذار إلى من ظن ظنا ، والأمر بخلافه ^(١) .

والمقصود من الحديث قوله ﷺ : « لما في قلوبهم من الجزع ، والهلع » ، وقوله : « وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير » ، فإن الهلع والجزع ، وكذلك غنى القلب والإيمان ، كل ذلك وصف للإنسان ، وهو فعله وعمله ، والله خالقه .

فإن الله خلق الإنسان وخلق أفعاله ، فجعله فاعلا لهذه الأشياء .

قال الكرمانى : « الغرض من هذا الباب إثبات أن أخلاق الإنسان ، من الهلع ، وضده ، والضعف ، وعدمه ، والانقياد ، والامتناع وغيرهما بخلق الله تعالى ^(٢) .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥١١ .

(٢) انظر شرح الكرمانى ج ٢٤ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

قال : « باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه » .

قال العينى : « أى هذا باب فى ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه — أى بدون واسطة جبريل ﷺ — ويسمى بالحديث القدسى »^(١) .

وكذا قال أكثر الشراح .

وقال الحافظ : « يحتمل أن تكون الجملة الأولى محذوفة المفعول ، والتقدير : ذكر النبي ﷺ ربه عز وجل .

ويحتمل أن يكون ضمَّن الذكر معنى التحديث ، فعدها بعن ، فيكون قوله : « عن ربه » متعلق بالذكر والرواية معًا ، وقد ترجم هذا فى كتاب خلق أفعال العباد بلفظ : ما كان النبي ﷺ يذكر ويروى عن ربه » . وهو أوضح »^(٢) .

وأقول : إن مراده أن الرسول ﷺ يروى عن ربه ما قاله — تعالى — وأنزل عليه ، فالرسول ﷺ يذكر بلفظه الذى هو فعله كلام ربه تعالى وكلام الله تعالى غير فعل الرسول ولفظه ، فاللفظ للرسول والملفوظ به هو كلام الله ، فهذا الباب كسابقه مما فيه التفريق بين فعل العبد المخلوق ، وبين ما هو وصف لله غير مخلوق ، وهذا هو الذى تتفق معه الأحاديث التى ذكرها ، والله أعلم .

١٥٩ — قال : « حدثنى محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع الهروى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل : « قال : إذا تقرب العبد إلى شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا أتانى مشيا أتيتته هرولة » .

(١) عمدة القارى ج ٢٥ ص ١٨٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥١٢ .

قال شيخ الإسلام : « ظاهر الخطاب أن أحد التقديرين من جنس الآخر ،
وكلاهما مذكور بلفظ المساحة .

فلا يخلو إما أن يكون ظاهر اللفظ في تقرب العبد إلى ربه هو تقرب
بالمساحة المذكورة ، أو لا يكون .

فإن كان ذلك هو ظاهر ذلك اللفظ ، فإما أن يكون ممكنا ، أو لا يكون .
فإن كان ممكنا ، فالآخر أيضا ممكن ، ولا يكون في ذلك مخالفة للظاهر .
فإن لم يكن ممكنا فمن أظهر الأشياء للإنسان علمه بنفسه وسعيه ، فيكون
قد ظهر للمخاطب معنى قربه بنفسه .

وقد علم أن قرب ربه إليه من جنس ذلك ، فيكون الآخر أيضا ظاهرا
في الخطاب ، فلا يكون ظاهر الخطاب هو المعنى الممتنع ، بل ظاهره هو المعنى
الحق .

ومن المعلوم أنه ليس ظاهر الخطاب أن العبد يتقرب إلى الله بحركة بدنه
شبرا ، وذراعا ، ومشيا وهرولة»^(١) .

وبهذا يظهر معنى الحديث ، وأنه ليس المراد منه التقرب إلى الله تعالى بحركة
البدن بهذه المقادير ، والهيفة ، وإنما المقصود التقرب إلى الله تعالى بالإجابة
والرجوع وإقبال القلب ، وفعل الطاعات التي تقرب العبد إلى ربه ، وقد قال
الرسول ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٢) .

وتقدم أن قرب الله تعالى ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم خلوه من
فوق عرشه ، بل يقرب إلى من يشاء من عباده وهو فوق عرشه ، لا يكون

(١) نقض التأسيس ج ٣ ص ٢١ - ٩٢ مخطوط .

(٢) سبق ترجمته في الجزء الأول ص ٢٦٨ .

شيء من خلقه فوقه أبدا ، ولما قرب كلمه موسى إليه نجيا كان — جل
وعلا — فوق عرشه ، وكذلك غير موسى إذا قربه إليه ، فإنه يقرب إليه وهو
فوق عرشه — تعالى وتقدس — ، وسبق الكلام على هذا الحديث^(١) .

والشاهد من الحديث قوله : « يرويه عن ربه — عز وجل — قال إذا
تقرب » إلى آخره فالرسول ﷺ يروى عن ربه هذا الكلام ، الذى تكلم
الله به فرواه عنه ، سواء كان ذلك بواسطة جبريل — وهو الظاهر — أو بغير
واسطة والصحابة سمعوا هذا الكلام بلفظ الرسول ﷺ وصدقوا بأنه كلام
الله رواه رسوله عنه .

١٦٠ — قال : « حدثنا مسدد ، عن يحيى ، عن التيمي ، عن
أنس بن مالك ، عن أبي هريرة قال : « ربما ذكر النبي ﷺ » قال :
« إذا تقرب العبد منى شبرا تقربت منه ذراعا ، وإذا تقرب منى ذراعا
تقربت منه باعا ، أو بوعا » .

الباع معروف ، وهو قدر مد اليدين ، من أطراف أصابع اليد إلى أطراف
الأصابع الأخرى ، والبوع بفتح الباء مصدر باع ، وبالضم جمع باع .
قوله : « وقال معتمر : سمعت أبى ، سمعت أنسا ، عن أبى هريرة ، عن
ربه — عز وجل — قصده التصريح بأنه مرفوع ، وأن النبي ﷺ رواه عن
ربه عز وجل .

١٦١ — قال : « حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا محمد بن
زياد ، قال : سمعت أبا هريرة ، عن النبي ﷺ يرويه عن ربكم ،
قال لكل عمل كفارة ، والصوم لى ، وأنا أجزى به ، ولخولوف فم

(١) تراجع الجزء الأول ص ٢٦٧ .

الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

قوله : « لكل عمل كفارة » يعنى جزاء وثوابا معنا ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ولكن الصوم يضاعف بدون حساب .

والسبب أنه يكون خالصا لأنه سر بين العبد وربّه ، فإنه يمكنه أن يظهر للناس أنه صائم وهو يأكل في الخفاء ، فإذا التزم العبد الصوم دل على خوفه من الله ، ورجائه لثوابه . وتقدم شرح الحديث والمقصود منه ظاهر ، وهو كالذى قبله .

١٦١ — قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة

ح .

وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبى العالفة ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه ، قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول : إنه خير من يونس بن متى » ، ونسبه إلى أبيه .

يونس بن متى ، هو نبى كريم من أنبياء الله — تعالى — الذين جاءوا بالهدى والنور لإخراج الناس به من الظلمات .

« قال العلماء : إنما قال ﷺ ذلك تواضعا إن كان قاله بعد أن علم أنه أفضل الخلق ، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال .

وقيل : خص يونس عليه السلام بهذا القول لما يخشى على من سمع قصته أن يقع فى نفسه تنقص له ، فبالغ ﷺ فى ذكر فضله لسد هذه الذريعة .

وقد روى قصته السدى بأسانيده ، عن ابن مسعود وغيره : أن الله بعث يونس إلى أهل نينوى — وهى من أرض الموصل — فكذبوه ، فوعدهم بنزول

العذاب في وقت معين ، وخرج عنهم مغاضبا لهم ، فلما رأوا آثار ذلك خضعوا لله ، وتضرعوا ، وآمنوا ، فرحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب ، وذهب يونس ، وركب سفينة فلدّجت به ، فاقترعوا فيمن يطرحونه فوَقعت القرعة عليه ثلاثا ، فطرحوه ، فالتقمه الحوت «^(١) ﴿ فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾﴾ فاستجاب الله له ، وأمر الحوت بطرحه على ساحل البحر ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين تظله « والظلمات هي ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل .

وما ذكره من أنه خص بالذكر إلى آخره هو المناسب لما جاء من النهي عن المفاضلة بين الأنبياء لثلا يفضى ذلك إلى تنقص أحد منهم .

ولهذا جاء في رواية لهذا الحديث ذكرها البخارى في الأنبياء . بلفظ « ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس » .

وفي أخرى : « لا يقولن أحدكم : إني خير من يونس »^(٢) .

قال الحافظ : « وعند الطبراني : « لا ينبغي لأحد أن يقول » إلى آخره .

وفي أخرى : « عنده ما ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس » . وهذا يؤيد أن المراد تفضيله على النبي ﷺ «^(٣) .

وهذا يدل على أن المقصود النهي عن المفاضلة بين أنبياء الله ، لثلا يكون ذلك طريقا إلى تنقص أحد منهم .

والمراد من الحديث قوله : « فيما يرويه عن ربه » فهذا لفظ الرسول ﷺ يروى هذا الكلام عن ربه ، يعنى أن الله تكلم به فرواه لنا عنه رسوله ﷺ بلفظه الذى هو فعله ، وهو مخلوق ، وما رواه فهو كلام الله غير مخلوق .

(١) الفتح ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٢) الفتح ج ٦ ص ٤٥١ .

(٣) الفتح ج ٦ ص ٤٥١ .

« ونسبه إلى أبيه » يعنى أن « متى » هو أبوه وليس ذلك اسم أمه ، وأراد به الرد على من زعم أن « متى » اسم أمه كما روى عن كعب الأحبار .

١٦٢ — قال : « حدثنا أحمد بن أبي سريج ، أخبرنا شبابة ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قره المزني ، عن عبد الله بن المغفل المزني قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقه له يقرأ سورة الفتح — أو من سورة الفتح ، قال : فرجع فيها .

قال : ثم قرأ معاوية يحكى قراءة ابن مغفل ، وقال لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكى النبي ﷺ ، فقلت لمعاوية : كيف كان ترجيعه ؟ قال : آ آ ثلاث مرات .

عبد الله بن مغفل بن عبد غنم المزني أبو سعيد ، ذكر البخارى عن يحيى ابن معين أنه كان يكنى أبا زياد ، وهو من مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم وهو أحد البكائين في غزوة تبوك ، أسفا على فوت تلك الغزوة عليهم ، وشهد بيعة الرضوان وهو أحد العشرة الذين بعثهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليفقهوا الناس بالبصرة وهو أول من دخل من باب مدينة تستر ، توفى في البصرة سنة تسع وخمسين أو سنة ستين ، أو إحدى وستين رضى الله عنه ، وعن جميع إخوانه صحابة رسول الله ﷺ (١) .

« يوم الفتح » هو فتح مكة ، وكان في رمضان ، من سنة ثمان من الهجرة . وسورة الفتح نزلت في غزوة الحديبية ، وكانت في ذى القعدة سنة ست في قول الجمهور ، نزلت في مرجعه منها ، والفتح المذكور في السورة هو صلح الحديبية على قول أكثر المفسرين من الصحابة وغيرهم ، ولا ينافى ذلك دخول

(١) انظر الإصابة ج ٤ ص ٢٤٢ ، والاستيعاب ج ٣ ص ٩٩٦ .

فتح مكة فيه وقراءته ﷺ سورة الفتح في ذلك اليوم يدل على أن فتح مكة داخل في قوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ .

« فرجع فيها » بتشديد الجيم ، أى ردد الصوت في حلقه ، وجهر به مكررا بعد إخفائه .

قال المؤلف في فضائل القرآن : « باب الترجيع ، ثم ذكر هذا الحديث — وفيه — قال : رأيت النبي ﷺ يقرأ ، وهو على ناقته — أو جملة — وهي تسير به وهو يقرأ سورة الفتح — أو من سورة الفتح ، قراءة لينة ، يقرأ وهو يرجع »^(١) .

قال الحافظ ابن كثير : الترجيع : هو التردد في الصوت ، كما جاء أنه يقول : آ آ آ ، وكأن ذلك صدر من حركة الدابة تحته ، فدل على جواز التلاوة عليها ، وإن أفضى إلى ذلك ، ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف ، بل هو مغتفر للحاجة ، كما يصل على الدابة حيث توجهت به مع إمكان تأخير ذلك والصلاة إلى القبلة^(٢) والصواب أنه قصد الترجيع وليس ذلك من حركة الدابة كما زعم ابن كثير ، وكثيرا ما كان ﷺ يقرأ في أسفاره ، ولم يذكر ذلك عنه إلا في هذه الواقعة ، فدل على قصده ذلك .

قال الحافظ : « الترجيع : هو تقارب ضروب الحركات في القراءة ، وأصله التردد وترجيع الصوت ، ترديده في الحلق ، وقد فسره بقوله : آ آ آ ثلاث مرات » بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ، ثم همزة أخرى . قالوا : يحتتمل أمرين : احدهما أن ذلك حدث من هز الناقة . والآخر أنه أشبع المد في موضعه فحدث ذلك ، وهذا أقرب ، لأنه قال :

(١) انظر الفتح ج ٩ ص ٩٢ و ج ١٣ ص ٥١٥ .

(٢) فضائل القرآن في آخر تفسير ابن كثير ج ٤ ص

« لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت » .

وقد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع ، كما في الشمائل للترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن أبى داود ، واللفظ له من حديث أم هانئ « كنت أسمع صوت النبى ﷺ وهو يقرأ ، وأنا نائمة على فراشى يرجع القرآن » .

والذى يظهر أن في الترجيع قدرًا زائدًا على الترتيل ، فعند ابن أبى داود عن علقمة ، قال : بت مع عبد الله بن مسعود في داره ، فنام ، ثم قام ، فكان يقرأ قراءة الرجل في مسجد حيه ، لا يرفع صوته ، ويسمع من حوله ، ويرتل ولا يرجع .

قال ابن أبى جمرة : معنى الترجيع تحسين التلاوة ، لا ترجيع الغناء ، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافى الخشوع الذى هو مقصود التلاوة .

قال : « وفي الحديث : ملازمته ﷺ للعبادة ، لأنه حالة ركوبه وهو يسير لم يترك العبادة بالتلاوة ، وفي جهره في ذلك إرشاد إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون في بعض المواضع أفضل من الإسرار ، مثل إرادة التعليم ، وإيقاظ الغافل ، ونحو ذلك »^(١) .

والمقصود أن الترجيع فعل الرسول ﷺ بحركة لسانه وشفثيه يرجع كلام ربه الذى أبلغه الأمة عن الله تعالى .

فالمسموع بصوته هو كلام الله ، والصوت هو صوت المبلغ ، ولهذا يرفعه إن شاء ، ويخفضه ، ويرجعه إن شاء ولا يرجعه ، لأنه فعله يتعلق بإرادته ، وهو يبلغ كلام الله بأى وجه كان من أوجه التبليغ بصوته الذى يؤدى به

(١) الفتح ج ٩ ص ٩٢ ببعض التصرف .

عن الله سواء رجع الكلام ، أو لم يرجع ، فلا يخرج ذلك عن كونه كلام الله ، أبلغه إلى أمته عن ربه بصوته وروايته ولكن هو يتصرف بصوته فيرفعه تارة ، ويخفضه أخرى ، ويرجع الكلام مرة ، ويترك الترجيع أخرى إذ ذلك فعله الذى يفعله إذا شاء .

قال : « باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه الآية ، ومراده أن التفسير والإيضاح والتفهم لكلام الله من فعل المفسر ، والمبين الموضح لمن لا يفهم ذلك الكلام ، وهذا كله فعل العباد وهو مخلوق ، كما أن القراءة ، والكتابة ، والحفظ فعل العبد وهو مخلوق . وأما المكتوب المقروء والمحفوظ إذا كان من كتب الله ، فهو كلام الله . وكذلك التفسير ، والتبليغ ، والتبيين ، فعل العبد المفسر المبين ، وهو مخلوق وأما المفسر المبين المبلغ فهو كلام الله .

ومثل ذلك الترجمة من لغة إلى أخرى ، فإن الترجمة فعل المترجم ، ولهذا استدل في كتابه خلق أفعال العباد ، على أن كلام العباد مخلوق ، وهو من أفعالهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوِينِكُمْ ﴾ ثم قال : « فمنها العربى ، ومنها العجمى ، فذكر اختلاف الألسنة والألوان ، وهو كلام العباد »^(١) .

وروى عن حماد بن زيد أنه قال : « من قال : كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر »^(٢) .

(١) انظر ص ١٩٦ .

(٢) المصدر ص ١٩٣ .

وقال أيضا : « وقد كتب النبي ﷺ كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم »
 وقرأه ترجمان قيصر ، على قيصر وأصحابه ، ولا نشك في قراءة الكفار ، وأهل
 الكتاب أنها أعمالهم ، وأما المقروء ، فهو كلام الله العزيز المنان ، ليس بمخلوق
 فمن حلف بأصوات قيصر ، وبنداء المشركين الذين يقرون بالله لم يكن عليه
 يمين دون الحلف بالله ، لقول النبي ﷺ : « لا تحلفوا بغير الله »^(١) .
 يعنى أن الصوت الذى تكون به القراءة ونحوها فعل ذلك المصوت ، وفعل
 العبد مخلوق .

قال الحافظ : « وجه الدلالة من الآية ، أن التوراة بالعبرانية ، وقد أمر الله
 تعالى أن تتلى على العرب ، وهم لا يعرفون العبرانية ، فقضية ذلك الإذن بالتعبير
 عنها بالعربية »^(٢) . وتقدم وجه مراده بالباب .

قوله : « وقال ابن عباس : أخبرني أبو سفيان بن حرب أن هرقل دعا
 ترجمانه ثم دعا بكتاب النبي ﷺ فقرأه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد
 عبد الله ورسوله ، إلى هرقل ، و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية .

أبو سفيان كنية ، ويكنى أيضا بأبى حنظلة ، واسمه صخر بن حرب بن
 أمية مشهور باسمه وكنيته ، أسلم عام الفتح وكان رئيسا لقومه قبل ذلك ،
 وشهد مع النبي ﷺ حنيناً والطائف ، وروى أن عينه أصيبت يوم الطائف ،
 فقال له رسول الله ﷺ إن شئت دعوتُ فردت عليك ، وإن شئت فالجنة ،
 قال : الجنة ، مات فى خلافة عثمان سنة أربع وثلاثين ، وقيل غير ذلك ، رضى
 الله عنه وعن أصحاب رسول الله جميعاً^(٣) .

هرقل : هو ملك الروم : هذا اسمه وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون

(١) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥١٦ .

(٣) انظر الإصابة ج ٣ ص ٤١٢ والاستيعاب ج ٢ ص ٧١٤ .

القاف ، ولقبه قيصر ، وهو لكل من ملك الروم كما أن كسرى لقب لمن ملك
الفرس .

وهذا جزء من الحديث الطويل المذكور في بدء الوحي وغيره .

قال الحافظ : « ووجه الدلالة منه أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل باللسان
العربي ، ولسان هرقل رومي ، ففيه إشعار بأنه اعتمد في إبلاغه ما في الكتاب
على من يترجم عنه بلسان المبعوث إليه ليفهمه ، والمترجم المذكور هو
الترجمان » .

واستدل في خلق أفعال العباد بقصة هرقل على أن القراءة فعل القارئ .

فقال : قد كتب النبي ﷺ إلى قيصر : « بسم الله الرحمن الرحيم » وقرأه
ترجمان قيصر على قيصر وأصحابه ، ولا يشك في قراءة الكفار أنها أعمالهم ،
وأما المقروء فهو كلام الله — تعالى — ليس بمخلوق ، ومن حلف بأصوات
الكفار ونداء المشركين لم يكن عليه يمين ، بخلاف ما لو حلف
بالقرآن ^(١) .

وتقدم نقل هذا ، والحافظ تصرف فيه .

وفيه دليل على جواز إرسال الكتب التي فيها شيء من القرآن إلى الكفار ،
وفيه كتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » في أول الكتب ، وبداءة صاحب الكتابة
بنفسه ، وفيه قرن العبودية بالرسالة .

١٦٣ — قال : « حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عمر ،
أخبرنا علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن
أبي هريرة ، قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥١٦ .

ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، و ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ ﴾ الآية .

المقصود بأهل الكتاب هنا اليهود ، والعبرانية لغتهم التي أنزلت التوراة بها ، وقد أخبر الله تعالى أنهم تعمدوا تحريفها ، والزيادة فيها والنقصان منها ، لتتفق مع أهوائهم ، وما يريدون ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يوثق بترجمتهم وتفسيرهم لها ، مع أن الله تعالى قد أغنانا عما في أيديهم بما أنزل علينا من كتابه المهيمن على جميع الكتب قبله ، وبما جاء به نبينا ﷺ من الحكمة التي تفسر القرآن وتبينه .

روى الإمام أحمد ، وابن أبي شيبة من حديث جابر أن عمر أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو يباطل فتصدقوا به ، والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » قال الحافظ : « رجاله موثقون إلا أن مجالدا فيه ضعف » (١) .

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ * فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ (١) .

وكان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقرأ هذه الآية ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا ﴾ والآية التي في سورة آل عمران ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٣٤ .

(٢) الأيتان ١٣٦ و ١٣٧ من سورة البقرة .

الآية^(١) في ركعتي الفجر .

وفي الدر المنثور : « أخرج ابن أبي حاتم ، عن معقل بن يسار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن »^(٢) .

قوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » . قال الحافظ : أى إذا كان ما يخبرونكم به محتملا ، لئلا يكون في نفس الأمر صدقا ، فتكذبه ، أو كذبا فتصدقه فتقعوا في الحرج ، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، نبه على ذلك الشافعى رحمه الله .

ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات ، والجزم فيها بما يقع في الظن ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك^(٣) .

والمقصود أن الترجمة والتفسير ليست هى ذلك الكتاب المترجم أو المفسر ، ولا تسمى الترجمة أو التفسير قرآنا ، أو إنجيلا ، أو تورا .

« بل اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير ، واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره ، وكذلك ترجمته بغير العربية عند عامة أهل العلم ، وتجويز إقامة الترجمة مقامه في بعض الأحكام لا يقتضى تناول اسمه لها ، كما أن القيمة في الزكاة إذا أخرجت عن الإبل أو البقر أو الغنم لم تسم إبلا ولا بقرا ، ولا غنما ، بل تسمى باسمها كائنة ما كانت »^(٤) .

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران .

(٢) ج ١ ص ٣٣٨ .

(٣) الفتح ج ٨ ص ١٧٠ .

(٤) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٥٤٢ .

« مع أن أكثر المنتسبين إلى العلم من المسلمين لا يستطيعون القيام بترجمة معاني القرآن ، وتفسيره ، وبيانه ، فلأن يعجز اليهود عن ترجمة ما عندهم ، وبيانه أولى .

لأن عقل المسلمين أكمل ، وكتابهم أقوم قيلا ، وأحسن حديثا ، ولغتهم أوسع ، لا سيما إذا كانت تلك المعاني غير محققة بل فيها باطل كثير ، فإن ترجمة المعاني الباطلة وتصويرها صعب ، لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه »^(١) .

والمقصود أنه إذا ترجم كتاب الله من لغة إلى أخرى فإن الترجمة ليست هي كلام الله ، وإنما هي ترجمة لكلامه تعالى ، وهي غير المترجم بل هي عمل المترجم ، ومعلوم أن عمل الإنسان مخلوق مثله .

وليس الأمر كما تقوله الأشعرية إن كلام الله لا يختلف باختلاف اللغات ، فبأى لسان قرئ فهو كلام الله .

بل إذا ترجم من لغة إلى أخرى ، لم يكن هو كلام الله تعالى ، وهذا هو ما أراد البخارى بيانه فيما يظهر والله أعلم .

١٦٤ — قال : « حدثنا مسدد ، حدثنا إسماعيل ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أتى النبي ﷺ برجل ، وإمرأة من اليهود ، قد زنيا ، فقال : ما تصنعون بهما ؟ قالوا : نسخم وجوههما ، ونخزيهما ، قال : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فجاءوا فقالوا للرجل ممن يرضون : يا أعور اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها ، فوضع يده عليه ، قال : ارفع يدك فإذا

(١) المرجع ج ٤ ص ١١٧ .

فيه آية الرجم تلوح ، فقال : يا محمد : إن عليهما الرجم ، ولكننا نتكأته بيننا ، فأمر بهما فرجما ، فرأيته يجأنيء عليهما الحجارة » .

قد أمر الله نبيه أن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله عليه أو أن يعرض عنهم ، فإنهم لا يضرونه شيئا .

وأخبر تعالى أنهم إذا جاءوه ليحكم بينهم ليس قصدهم حكم الله ، فإنهم يعلمونه في كتابهم ، وإنما يحكمونه رجاء أن يحكم بينهم بما يهونه ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِمُمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّر قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فنبى الله — تعالى — رسوله أن يحزن على المسارعين في الكفر من أهل الكتاب وأهل النفاق ، الخارجين عن طاعة الله ، وطاعة رسله ، المقدمين لآرائهم وأهوائهم على شرائع الله تعالى ، ومن الذين أظهروا الإيمان بألستهم ، وقلوبهم خاوية منه منطوية على الكفر بالله ورسله وعبادة الشهوات ، وهم ما بين يهودى قد نصب العداء لله ولدينه ومن اتبعه ، فهو يجهد نفسه في محاربتة ، أو زنديق كره الحق ومن جاء به ومن اتبعه ، وكل منهم قد أكل قلبه الحقد على هذا الدين ، وعلى من اتبعه ، وكل منهم سماع للكذب يقوله ،

(١) الآيات ٤١ — ٤٣ من سورة المائدة .

وينميه ، ويسمعه ويقبله ، وأكال للسحت غير مبال بعاقبته ، وهم مع ذلك أهل تحريف ، وتزيف اتباعا لأهوائهم وبعدا عن الحق ، ومحاربة له ، يوصى بعضهم بعضا بعدم قبول ما يخالف أهواءهم وأنظمتهم التي وضعوها ، ووفق ما يشتهون ، وما توحيه إليهم شياطينهم أولئك الذين أراد الله تعالى فتنهم ، فلا أحد يملك هدايتهم ، لأن قلوبهم نجسة فلا تقبل طهارة الإيمان ، وإنما هي محل للكفر وكل خلق خبيث .

وقد خير الله رسوله بين الحكم بينهم وبين الإعراض عنهم ، وأمره إن حكم أن يحكم بينهم بالعدل ، وإن كانوا أعداء لله ورسوله ، فإن الله حكم عدل يحب العدل وأهله .

وأخبر تعالى أن أمر هؤلاء عجيب ، كيف يحكمونك وعندهم كتاب الله التوراة فيها حكمه واضح لهم ، ولكنهم يعرضون عنه طلبا لما يهونونه ، وليس هذا شأن المؤمنين ، ولكنه نهج الكافرين .

روى أبو داود من حديث أبي هريرة قال : « زنى رجل من اليهود ، وامرأة ، فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبي ، فإنه نبي بعث بالتخفيف ، فإن أفتانا بفتياً دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، قلنا : فتيا نبي من أنبيائك .

قال : فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه ، فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة زنيا ؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم ، فقام على الباب ، فقال : « أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ قالوا : يحمم ويجه — والتجبيه : أن يحمل الزانيان على حمار ، وتقابل أفقيتهما ، ويطاف بهما — قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبي ﷺ سكت أظ به النشدة ، فقال : اللهم إذ نشدنا فإننا نجد في التوراة الرجم .

فقال النبي ﷺ : فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟

قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا ، فأخر عنه الرجم ، ثم زنى رجل في امرأة من الناس ، فأراد رجمه ، فحال قومه دونه ، وقالوا : لا يرحم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه ، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم .

فقال النبي ﷺ : « فإني أحكم بما في التوراة » فأمر بهما فرجما .

قال الزهري : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ كان النبي ﷺ منهم ^(١) .

فهذه القصة تبين سبب مجيئهم إلى النبي ﷺ وأن الذي جاء بالزانيين هم اليهود ، رجاء أن يحكم عليهما بغير ما أتى في التوراة من الرجم ، ولكنه ﷺ أحيا حكم الله فيها بعد ما أماتوه .

قوله : « ما تصنعون بهما ؟ » يعني ما هو حكم الله فيهما الذي في كتابكم ، فكنتموه ، وقالوا : « نسخم وجوههما ، ونخزهما » أى نسود وجوههما بالفحم ، ويركبان على حمار يطاف بهما في الطرق ، قفا كل واحد إلى قفا الثاني ، وهذا هو الخزى الذي يفعلونه بهما .

فقال لهم النبي ﷺ : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن ما ذكرتم هو حكم الله فيهما الذي في التوراة .

ومعلوم أنهم ينقلون ما فيها بالعربية كما هو ظاهر لأن الرسول ﷺ لا يعرف العبرانية .

« فقالوا لرجل ممن يرضون : يا أعور اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه » يرضون — يعنى يثقون به ، وأنه موافق لهم على كتان

(١) السنن ج ٤ ص ٥٩٨ رقم ٤٤٥٠ وفيه رجل مجهول .

آية الرجم ، ويحتمل أن الكتاب الذى يقرأ بغير العربية ، وأنه يقرأه ويترجمه ، ويحتمل أنه قد ترجم إلى العربية ، فعلى الأول وضعه يده على الموضع الذى فيه آية الرجم لإخفائها عن من يعرف لغتهم ممن أسلم ، أو لا يوافقهم ، وعلى الثانى ظاهر .

قوله : « ارفع يدك ، قيل : إن القائل عبد الله بن سلام ، كما فى بعض الروايات ، وهذا يؤيد الاحتمال الأول .

« تلوح » يعنى أنها واضحة لمن يقرأ ذلك الكتاب .

« نتكأته فيما بيننا » يعنى يتواطفون على كتأته ، وعدم إظهاره لأحد .

« يجانىء عليها الحجارة » يعنى أنه يقبها بنفسه عن الحجارة .

والمقصود أن الأمر بتلاوة التوراة على من لا يعرف اللغة التى كتبت بها لابد أن يكون ذلك عن ترجمة لها ، ثم اعتماد تلك الترجمة مما يقتضى الاكتفاء بترجمة المترجم وإن كان واحدا .

والترجمة ليست هى المترجم ، وإنما هى فعل المترجم وعمله .

وفعله وعمله مخلوق ، وهذا هو المراد بالاستدلال بهذه القصة .

وفيه دلالة ظاهرة فى أن اليهود كانوا ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها . وأنهم يعرفون الحق ، ولا يتبعونه ، بل يتعمدون تركه .

قال : « باب قول النبى ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة البررة ، وزينوا القرآن بأصواتكم » .

قصد البخارى — رحمه الله — بهذا الباب زيادة إيضاح ما سبق فى الأبواب قبل هذا ، من أن التلاوة فعل التالى ، فهى داخلة فى أفعال العباد ، ولهذا

توصف بالمهارة ، وهي جودة الحفظ ، وعدم التردد في التلاوة ، وتوصف بالحسن والمد ، والترتيل ، والتطريب ، وتحسين الصوت ، وبأضداد ذلك ، كما سبق وصفها بالترجيع ، والخفض ، والرفع ، ومد الصوت .

وهذا كله يحقق أن التلاوة فعل القارئ الذى يقرأ القرآن .

قوله : « الماهر » قال الأزهرى : « الماهر : الحاذق بكل شيء ، وأكثر ما يوصف به السابح ، يقال مهرت بهذا الأمر أمهر به مهارة ، إذا صرت به حاذقا »^(١) .

قال الحافظ : « الماهر : هو الحاذق ، والمراد به هنا جودة التلاوة مع حسن الحفظ .

والمراد بالسفرة : الكتبة جمع سافر ، مثل كاتب وزنه ومعناه ، وهم هنا الذين ينقلون من اللوح المحفوظ^(٢) وصفوا بالكرام لكثرة طاعتهم ، وبعدهم عما يشين .

والبررة : المكثرون فى الطاعة ، المبالغون فيها .

وقال الحافظ : « المطيعون ، المطهرون من الذنوب ، والكرام : المكرمين عند الله »^(٣) .

ومعلوم أن إكرام الله لهم لطاعتهم ، وبرهم .

ورواية مسلم : « الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران »^(٤)

(١) تهذيب اللغة ج ٦ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥١٨ .

(٣) المصدر المذكور .

(٤) انظر مسلم ج ١ ص ٥٤٩ — ٥٥٠ رقم ٧٩٨ .

فالمهارة بالقرآن : جودة الحفظ ، وجودة التلاوة ، من غير تردد فيه ، لأن الله تعالى يسره عليه كما يسره على الملائكة الكرام البررة ، فكان مثلهم في قراءة القرآن ومعهم في الدرجة عند الله تعالى .

وتقدم الكلام على معنى قوله : « زينوا القرآن بأصواتكم » ، وأن المراد به تحسين الصوت حتى يجذب المستمع إلى الإصغاء إليه ، ويجد به لذة ، وينفتح له قلبه وتحسين الصوت فعل العبد ، ووصفه ، ولهذا قال في خلق أفعال العبد : « فبين النبي ﷺ أن أصوات الخلق ، وقراءتهم ، ودراساتهم وتعليمهم ، وألستهم مختلفة ، بعضها أحسن ، وأزين ، وأحلى ، وأصوت وأرتل ، وأعلى ، وألحن ، وأخف ، وأغض ، وأخشع ، قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ، وأجهر ، وأخفى ، وأمهر ، وأمد ، وألين ، وأخفض من بعض ، ثم ذكر بسنده عن عائشة رضی الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يشتد عليه له أجران »^(١) .

١٦٥ — قال : « حدثني إبراهيم بن حمزة ، حدثني ابن أبي حازم ، عن يزيد ، عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : « ما أذن الله لشيء ، ما أذن لنبى حسن الصوت بالقرآن ، يجهر به » .

رواية مسلم : « ما أذن الله لشيء ، ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به »^(٢) .

وكانه قوله « يجهر به مدرج في الحديث ، ومعنى « ما أذن » ما استمع

(١) خلق أفعال العباد ، ص ٩٣ — ٩٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٥ .

لشيء كاستماعه لنبي حسن الصوت ، يتغنى بالقرآن ، فالله تعالى يحب حسن الصوت فيمن يتلو كتابه ويستمتع لذلك الصوت أكثر من غيره ، وإلا فهو تعالى لا يفوت سمعه صوت .

والقرآن هنا اسم جنس لكل كتاب أنزله الله تعالى على نبي من أنبيائه .

وقوله يجهر به تفسير لقوله يتغنى به ، وهو كلام لأحد رواة الحديث وتقدم شرح هذا الحديث في باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ إِذْنًا لَهُ ﴾ .

والمقصود منه هنا قوله : « ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن » فأضاف حسن الصوت إلى النبي ، لأنه فعله وعمله ، وبين أنه مطلوب منه ، ومحجوب لله تعالى فتبين بهذا أن التلاوة وتحسين الصوت بها ، والجهر بها وخفض الصوت كله فعل العبد ، والعبد وأفعاله مخلوق .

وأما القرآن الذى يحسن صوته به ، ويرفعه أو يخفضه ، فهو كلام الله غير مخلوق .

١٦٦ — قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، أخبرني عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله ، عن حديث عائشة ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، وكل حدثني طائفة من الحديث قالت : فاضطجعت على فراشى ، وأنا حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله يبرئني ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأنى وحياً يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى أمرٍ يتلى ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ عشر الآيات كلها » .

« الإفك » هو الكذب الظاهر البين ، وهو من عظام الذنوب .
« طائفة من الحديث » أى قطعة منه ، وهو جمع حديثهم ، ولم يكونوا
متفقين على جميعه ، والقائل هو ابن شهاب الزهري .

« وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة » يعنى أن ما قاله أهل الإفك بعيد عنها ،
وليست من أهله ، فهى أعلم بنفسها ، وعلى يقين من أن الله سيظهر براءتها
لنبيه وعباده ويجزى الأفاكين ، الذين آذوا رسول الله ﷺ وأهله والمؤمنين .
قال أبو بكر ابن العربى : « كل من سب عائشة — رضى الله عنها —
بما برأها الله منه فهو مكذب لله ، ومن كذب الله ، فهو كافر ، وهذا قول
مالك ، وهو أمر واضح لأهل البصائر »^(١) .

وقال القاضى أبو يعلى : « من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر ، بلا
خلاف .

وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد ، وصرح غير واحد من الأئمة
بهذا الحكم .

فروى عن مالك : من سب أبا بكر جلد ، ومن سب عائشة قتل ، قيل
له : لم ؟ قال : من رماها فقد خالف القرآن ، لأن الله تعالى قال : ﴿ يَعْظُمُ
اللَّهُ أَنْ بَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال أبو بكر بن زياد النيسابورى : سمعت القاسم بن محمد يقول :
لإسماعيل بن إسحاق : أتى أمير المؤمنين بالرقعة برجلين شتم أحدهما فاطمة ،
والآخر عائشة فأمر بقتل الذى شتم فاطمة ، وترك الآخر ، فقال إسماعيل :
ما حكمهما إلا أن يقتلا ، لأن الذى شتم عائشة رد القرآن ، وعلى هذا مضت
سيرة أهل الفقه والعلم ، من أهل البيت وغيرهم .

(١) أحكام القرآن ج ٣ ص ١٣٥ .

وقال أبو السائب القاضى : كنت يوما بحضرة الحسن بن زيد الداعى ، وكان بحضرتة رجل ، فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة ، فقال : يا غلام اضرب عنقه ، فقال له العلويون : هذا رجل من شيعتنا ، فقال : معاذ الله هذا رجل طعن على النبي ﷺ قال الله تعالى : ﴿ اَلْحَبِيَّتُ لِلْحَبِيَّتِ وَالْحَبِيَّتُونَ لِلْحَبِيَّتِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبِ اُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ، فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي ﷺ خبيث ، فهو كافر فاضربوا عنقه ، فضربوا عنقه وأنا حاضر ، رواه اللالكائى ، وروى عن محمد بن زيد ، أخى الحسن بن زيد ، أنه قدم عليه رجل من العراق ، فذكر عائشة بسوء ، فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله ، فقيل له : هذا من شيعتنا ، ومن بنى الآباء ، فقال : هذا سمي جدى — يعنى رسول الله ﷺ — قرنان^(١) ومن سمي جدى قرنان استحق القتل فقتله .

وأما سب غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيه قولان : أحدهما أنه كساب غيرهن من الصحابة .

والثانى وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين ، فهو كقذف عائشة رضى الله عنها .

وذلك لأن هذا فيه عضاضة على رسول الله ﷺ وأذى له أعظم من أذاه بنكاحهن بعده ، وهذا ظاهر^(٢) .

« وأن الله يبرئنى » أى أنها على علم ويقين بأن الله تعالى سيظهر براءتها لنييه ، بأمر يطلعه عليه إما رؤيا يريها إياه ، أو غير ذلك ، غير أنها ما كانت تنتظر أن ينزل فى شأنها وحيا من كلامه تعالى يتلى إلى يوم القيامة كما وقع

(١) قال الليث : القرنان نعت سوء فى الرجل ، الذى لا غيره له ، قال الأزهري : هذا من كلام حاضرة العراق ، ولم أر البوادى لفظوا به ، ولا عرفوه « تهذيب اللغة ج ٩ ص ٩٣ .

(٢) من الصارم المسلول ص ٥٦٥ — ٥٦٧ .

لأنها في نفسها أقل قدرا من أن تتطلع إلى هذا الأمر العظيم .

فأنزل الله — عز وجل — في براءتها بضعة عشر آية .

والمقصود قولها : « والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيا يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى » ، فبينت أن التلاوة غير المتلو المنزل ، فالتلاوة فعل العباد ، والإنزال والإيحاء والتكلم فعل الله وصفته ، كما قال المؤلف في خلق أفعال العباد : « فبينت بقولها » ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيا يتلى « إن الإنزال من الله ، وإن الناس يتلونه »^(١) .

قال العيني : « مطابقتها للترجمة في قوله : « بأمر يتلى » أى بالأصوات في المحاريب والمحافل »^(٢) وتقدم شرح الحديث في باب قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ .

١٦٧ — قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا مسعر ، عن عدى بن ثابت ، أراه عن البراء ، سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴾ فما سمعت أحدا أحسن صوتا — أو قراءة منه » .

ذكر هذا الحديث في كتاب الصلاة ، وفيه أنه كان في سفر ، وذكر الحافظ في شرحه أن في رواية النسائي ، أنها في الركعة الأولى ، وذكر في تفسير سورة ﴿ وَالَّتَيْنِ ﴾ أن في كتاب الصحابة لأبي علي ابن السكن في ترجمة زرعة بن خليفة ، رجل من أهل الإمامة ، أنه قال : سمعنا بالنبي ﷺ فأتيناه ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، وأسهم لنا ، وقرأ في الصلاة بـ ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴾ و ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .

(١) خلق أفعال العباد ص ٨٦ .

(٢) عمدة القارى ج ٢٥ ص ١٩٣ وأخذه من الكرماني انظر شرحه ج ٢٥ ص ٢٣٤ .

ثم قال : « فيمكن أن تكون هي الصلاة التي عين البراء بن عازب أنها العشاء ، ويقوى ذلك أنا لا نعرف في خبر أنه قرأ بالتين ، إلا في حديث البراء ابن عازب ، ثم حديث زرعة المذكور »^(١) .

وفيه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الصلاة أحياناً بقصار المفصل .
وفيه استحباب تحسين الصوت بالقرآن في الصلاة وغيرها .

والمقصود قوله : « فما سمعت أحداً أحسن صوتاً — أو قراءة منه » فجعل الصوت والقراءة له ، فدل على أن الصوت ، والقراءة ليست هي المصوت به ، المقروء ، وهو واضح ، والإمام البخارى رحمه الله يكرر ذلك ، وينوع عليه الأدلة ، لأنه قد خفى على بعض العلماء ، ولأنه قد ابتلى بمن يقول : إن القراءة هي المقروء ، والتلاوة هي المتلو ، ونسب إليه زوراً أنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق ، وهو برىء من ذلك .

١٦٨ — قال : « حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا هشيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : كان النبي ﷺ متوار بمكة ، وكان يرفع صوته ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ، ومن جاء به ، فقال الله — عز وجل — لنبيه : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا ﴾ .

تقدم شرح هذا الحديث ، والشاهد منه هنا قوله : « يرفع صوته ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن » وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا ﴾ وَآتَبَعَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿ ويعنى بالصلاة القراءة ، فالصوت له — أى للقارىء — ورفعه وخفضه وصف للصوت ، وهو الذى إن شاء رفعه ، وإن

(١) الفتح ج ٢ ص ٢٥٠ وج ٨ ص ٧١٣ — ٧١٤ .

شاء خفضه ، فذلك فعله ، وهو وفعله مخلوق ، أما القرآن الذى يسر به صوته ، أو يخافت به ، أو يبتغى به بين ذلك سبيلا ، فهو كلام ربه غير مخلوق ، بل هو وصف له .

١٦٩ — قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، عن أبيه ، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال له : إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك ، أو باديتك فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا أنس ، ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ » .

« تحب الغنم والبادية » محبته للبادية تابعة لمحبة الغنم ، لطلب المراعى لها وذلك لا يكون إلا فى البادية غالبا ، والبادية خلاف الحاضرة التى فيها البناء والمدن .

وهى مأخوذة من البدو والظهور ، لأنها ليس فيها ما يسترها من المباني والحيطان فهى صحراء ، لا عمارة فيها .

« فأذنت للصلاة » الأذان : هو الإعلام بدخول وقت الصلاة ، وطلب حضور المصلين لأدائها جماعة ، ولا يسمى أذانا إلا إذا كان برفع الصوت . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذِّنْ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ (٢) ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ

(١) الآية ٧٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الحج .

مَنْ اللَّهُ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴿١﴾ أمر رسول الله ﷺ برفع الصوت بهذه البراءة في ذلك اليوم ، قال أبو هريرة : كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فكننا ننادى : أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله — أو أمده — إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر ، فإن الله برىء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك ، قال : فكنت أنادى حتى صحل صوتي ﴿٢﴾ . أى بحج صوته لشدة رفعه .

« فارفع صوتك بالنداء » أى اجتهد في رفع صوتك ، ولا تألوا ، وإلا فأصل الأذان لا يكون إلا برفع الصوت .

قال الحافظ : « فيه إشعار بأن أذان من أراد الصلاة كان متقرا عندهم ، لاقتصاره على الأمر بالرفع دون أصل التأذين .

واستدل به الرافعي على استحباب الأذان للمنفرد ، وهو الراجح عند الشافعية ﴿٣﴾ .

« فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ، ولا إنس ، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » .

مدى الصوت نهايته ، وأقصى ما يبلغه ، والمعنى أن كل من سمع صوته من عاقل وغيره ، من البهائم والجمادات — فإن لها سماعا يعلمه الله تعالى — فإنها تشهد للمؤذن بالتوحيد عند الله يوم القيامة ، وهذه فضيلة عظيمة

(١) الآية ٣ من سورة براءة .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) الفتح ج ٢ ص ٨٨ .

للأذان ، فينبغي أن يحافظ على ذلك ويحرص عليه .

وفي سنن أبي داود ، والنسائي عن أبي هريرة : « المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس » ، قال الخطابي : « المعنى أنه يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسعه في رفع الصوت ، فيبلغ الغاية من المغفرة ، إذا بلغ الغاية من الصوت ، وقيل المعنى : لو قدر أن المكان الذي يصل إليه صوته لو كان له ذنوب تملؤه لغفرت »^(١) .

« وقال النوربشتي : المراد من هذه الشهادة ، اشتها المشهود له يوم القيامة بالفضل وعلو الدرجة ، كما يفضح بالشهادة قوما ، فكذلك يكرم بالشهادة آخرين »^(٢) .

وقال الكرماني : « رفع الصوت بالقرآن ، أحق بالشهادة ، وأولى »^(٣) .

يعنى أن ذلك مراد البخارى من الحديث .

والظاهر أن مراده : أن أصوات العباد من أفعالهم التي يثابون عليها . أو يعاقبون ، ومن ذلك القراءة ، والتلاوة ، فهي فعل التالى الذى يثاب عليها .

١٧٠ — قال : « حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن أمه ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : كان النبي ﷺ يقرأ القرآن ، ورأسه فى حجرى ، وأنا حائض » . ترجم لهذا الحديث فى الحيض : باب قراءة الرجل فى حجر امرأته وهى حائض . وكان أبو وائل يرسل خادمه ، وهى حائض إلى أبى رزين فتأتيه بالمصحف ، فتمسكه بعلاقته ، ثم ذكر الحديث بلفظ : « كان يتكىء فى حجرى ، وأنا

(١) معالم السنن ج ١ ص ٣٥٤ والنسائي ج ٢ ص ١٣ .

(٢) الفتح ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) انظر شرحه للبخارى ج ٢٥ ص ٢٣٥ .

حائض ، ثم يقرأ القرآن » وفعل أبي وائل يدل على جواز حمل الحائض المصحف ، ولكن من وراء حائل ، وكذا أبو رزين لو كان ذلك غير جائز عنده لم يمكنها من حملها ، إلا أن يقال : إنه لم يعلم بحالها .
والحجر بفتح الحاء وسكون الجيم وكسرهما ، هو حضن الإنسان ما بين يديه من ثوبه .

قال ابن دقيق العيد : « فيه إشارة إلى أن الحائض لا تقرأ القرآن ، لأن قولها : « فيقرأ القرآن » إنما يحسن التنصيص عليه إذا كان ثمة ما يوهم منعه ، ولو كانت قراءة القرآن للحائض جائزة لكان هذا الوهم منتفياً ، أعنى توهم قراءة القرآن في حجر الحائض ، ومذهب الشافعي الصحيح امتناع قراءة الحائض القرآن »^(١) .

والمقصود من الحديث هنا أن القراءة غير القرآن ، إذ لو كانت القراءة هي القرآن لما جاز أن يقرأ ورأسه في حجر عائشة ، وهي حائض .
« قال ابن المنير : ظن الشارح^(٢) أن غرض البخاري إثبات جواز قراءة القرآن بتحسين الصوت ، وليس كذلك .

وإنما غرضه الإشارة إلى ما تقدم من وصف التلاوة بالحسن ، والتحسين ، والترجيح ، والرفع ، والخفض ، ومقارنة الحالات البشرية ، كقولها « يقرأ القرآن في حجرى وأنا حائض .

فكل ذلك يحقق : أن القراءة فعل القارى ، وأنها متصفة بما تتصف الأفعال به ، ومتعلقة بالظروف المكانية ، والزمانية »^(٣) .

(١) شرح العمدة ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) هو ابن بطال .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥١٩ وانظر المنوارى لابن المنير ص ٤٣١ .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ .

أمر الله تعالى عباده أن يقرءوا ما تيسر من القرآن ، وهذا من اليسر عليهم إذ قيد ذلك بما تيسر ولم يكلفهم قراءته كله .

والقراءة التى أمر الله عباده بها هى فعلهم ، ومعلوم أنهم يتفاوتون فى القراءة ، وفى الحفظ والتحصيل ، وفى جودتها والمهارة فى القرآن ، وفى الفهم ومعرفة المراد من الخطاب ، وغير ذلك . وهذا كله فعلهم وعملهم ، الذى يجازون عليه ويشئى عليهم به ، ويمدحون ، وهذا مراد البخارى رحمه الله تعالى من ترجمته بالآية وسواء أريد بالقراءة الصلاة ، أو نفس القراءة ، فإن القراءة ركن فى الصلاة ، وقد يعبر عن الشئ بركنه .

قال الخازن : « فيه قولان : أحدهما أن المراد بهذه القراءة ، القراءة فى الصلاة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة ، فأطلق اسم الجزء على الكل .

الثانى أن المراد بما تيسر منه دراسته ، وتحصيل حفظه ، فيقرأ ما سهل عليه حفظه »^(١) .

وقال الحافظ : « المراد بالقراءة الصلاة ، لأن القراءة بعض أركانها »^(٢) .

قال ابن جرير : « يقول : فاقرأوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن فى صلاتكم ، وهذا تخفيف من الله — عز وجل — عن عباده فرضه الذى كان فرض عليهم ، بقوله : ﴿ قُمْ آئِلًا إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾^(٣) .

وقال القرطبى : « فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة أى فاقرأوا فيما تصلون به بالليل ما خف عليكم .

(١) تفسير الخازن ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٢٠ .

(٣) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١٤١ .

والثاني : « فاقرأوا ما تيسر منه » أى فصلوا ما تيسر عليكم ، والصلاة تسمى قرآنا ، كقوله : ﴿ وَرُقْرُقَانَ الْفَجْرِ ﴾ أى صلاة الفجر^(١) .

١٧١ — قال : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، حدثني عروة أن المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه ، أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلبتته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تنأرا ؟ . قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت : كذبت ، أقرأنيها على غير ما قرأت .

فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التى سمعته ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرأ يا عمر » ، فقرأت ، فقال : كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه .

هشام بن حكيم بن حزام الأسدى ، هو وأبوه صحابيان ، ممن أسلم يوم الفتح له فضائل جمّة ، وكان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، فلذلك كان

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٥٣ — ٥٤ .

عمر رضى الله عنهما إذا بلغه الشيء المكروه يقول : أما ما عشت أنا وهشام فلا يكون ذلك .

قال الحافظ : « تأخر موته إلى خلافة على بن أبى طالب ، ووهم من زعم أنه استشهد في خلافة أبى بكر ، وتوفى قبل والده رضى الله عنهما ، وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ^(١) قال ابن سعد توفى أول خلافة معاوية »^(٢) .

قوله : « فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة » إلخ ، يعنى أن قراءة هشام تختلف عما قرأه عمر عن رسول الله ﷺ في ألفاظ كثيرة ، فلذلك ظن عمر رضى الله عنه أن ذلك غلط من هشام .

« فكدت أساوره » بالسین المهملة ، أى أوثبه وأجرره قال النابغة :

« فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع »

أى واثبتنى ، وفى رواية مالك : « أن أعجل عليه » .

ومعنى كدت : قربت من أن أفعل فيه ذلك .

« فتصبرت » أى حملت نفسى على الصبر ، حتى ينتهى من صلاته ، وفى رواية مالك : « ثم أمهلت حتى انصرف » يعنى من صلاته كما قال هنا : « حتى سلم » .

« فلبيته بردائه » أى أدرت رداءه على رقبته ، وجمعت طرفيه عند لفته وأمسكته خشية أن ينفلت ، ولهذا قال : « فانطلقت به أقوده » يعنى بردائه « فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ » ظن عمر — رضى الله

(١) انظر الفتح ج ٩ ص ٢٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٥٢ وانظر الاستيعاب ص ١٥٣٨ والإصابة الترجمة رقم ٨٩٦٥ وأسد الغابة ج ٥ ص ٣٩٨ .

عنه — أن هشاماً أخذ هذه السورة عن غير رسول الله ﷺ فأخطأ الذى أقرأه ، أو أنه لم يتقنها فوقع فى مخالفة ما تلقاه عمر من رسول الله ﷺ ، ولهذا لما قال هشام أقرأنيها رسول الله ﷺ قال له عمر : كذبت أقرأنيها على غير ما قرأت « وكان عمر رضى الله عنه شديداً فى أمر الله تعالى ، ولهذا ذهب به يقوده بردائه حتى دخل به على رسول الله ﷺ فقال له : « إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان » إلى آخره ، وقد علم أن من قرأ القرآن على غير ما أنزله الله تعالى فقد ارتكب جرماً يستحق العقاب عليه ، وهذا هو الذى حمل عمر على ما فعله رضى الله عنه .

« فقال : أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التى سمعته » يؤخذ من هذا مشروعية التثبيت فى الأمور ، ووقوف الحاكم بنفسه على الحقائق ، وإن كان المخبر موثقاً به .

« فقال رسول الله ﷺ : « كذلك أنزلت » يعنى أنزلت من عند الله على ما قرأه هشام ، ولم يكن مخطئاً كما ظنه عمر رضى الله عنه .

« ثم قال رسول الله ﷺ اقرأ يا عمر ، فقرأت ، فقال : كذلك أنزلت » يعنى أن الله أنزل هذه السورة على ما قرأه عمر ، فعمر وهشام كلاهما مصيب فى قراءته ، لأن القرآن نزل على أكثر من حرف ، بل على سبعة أحرف . وأما قول الحافظ : « وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة من رسول الله ﷺ قديماً ثم لم يسمع ما أنزل فيها . بخلاف ما حفظه وشاهده .

ولأن هشاماً من مسلمة الفتح ، فكان النبى ﷺ أقرأه ما نزل أخيراً فنشأ اختلافهما من ذلك»^(١) . ففيه نظر إذ لو كان الأمر على ما ذكره لقال

(١) الفتح ج ٩ ص ٢٦ .

الرسول ﷺ لعمر: إن هذه الأحرف التي سمعتها من هشام نزلت بعد ما قرأت هذه السورة ، ولكنه قال بعد ما سمع قراءة كل واحد منها كذلك أنزلت ، فبين أن كلا من الحروف التي قرأها هشام ، والحروف التي قرأها عمر نزلت من عند الله .

وليس في قراءة هشام زيادة عما عند عمر في الآيات ، وإنما هناك اختلاف في الحروف فقط ، ومن أجل ذلك قال لكل واحد منهما بعد ما سمع قراءته « كذلك أنزلت » ويوضح ذلك قوله « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منه » أى لا تتكلفوا التزام حرف واحد ، فإن الله تعالى قد أوسع عليكم ، ويسر لكم قراءة القرآن على سبعة أحرف ، رحمة منه وفضلا فله الحمد والمنة .

قال الجزرى : « نزل القرآن على سبعة أحرف للتخفيف على هذه الأمة واليسر بها ، والتهوين عليها شرفا لها وتوسعة ورحمة ، لأن العرب الذين نزل القرآن بلغاتهم ، لغاتهم مختلفة ، ويعسر على أحدهم انتقاله من لغته إلى غيرها ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج ، لاسيما الشيخ والمرأة الكبيران ، ومن لا يقرأ كتابا ، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله : « بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ الفاني ، والعجوز الكبيرة »^(١) .

ومعنى الحرف كما قال أهل اللغة : حرف كل شيء طرفه وحافته ، وأحد حروف التهجي كأنه قطعة من الكلمة^(٢) .

وقد اختلف العلماء في تعيين الحروف السبعة اختلافا كثيرا ، وأشكلك ذلك على كثير من العلماء .

(١) النشر ج ١ ص ٧١ - ٧٢ ملخصا .

(٢) سيأتي معنى الحرف أيضا في كلام ابن قتيبة .

فقليل الحروف السبعة : سبع لغات من لغات العرب مفرقة في القرآن ، ورد هذا القول ابن جرير ، وابن عبد البر ، وغيرهما ، ودل على عدم صحته هذا الحديث ، لأن هشاما وعمر كلاهما قرشي ، فلغتهما واحدة ، ولا يعقل أن الرسول ﷺ يعلم الرجل القرآن بغير لغته .

وقيل المراد بها : تأدية المعنى الواحد باللفظ المرادف ، ولو كان من لغة واحدة ، لأن هشاما وعمر لغتهما واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما .

اختار هذا القول ابن جرير الطبري ، وابن عبد البر ، وقال : إنه قول أكثر العلماء وهذا هو الصواب كما يأتي بيانه .

« وقال الداني : معنى نزول القرآن على سبعة أحرف يحتمل وجهين ، أحدهما أنه نزل على سبعة أوجه من اللغات متغايرة في القرآن. » .

الثاني أنها قراءات سميت أحرفا لعادة العرب في تسمية الشيء باسم ما هو منه .

وقد أجمع العلماء على أنه لم يقصد أن كل حرف يقرأ على سبعة أوجه إذ لا يوجد ذلك إلا في كلمات معدودة نحو « أف » و « جريل » و « أرجه » و « هيات » و « هيت » .

كما أجمعوا أنه ليس المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة الذين اشتهروا بذلك ، لأن أول من جمع قراءاتهم ابن مجاهد في أثناء المائة الرابعة . وأكثر العلماء على أنها لغات ، كما قال أبو عبيد إنها سبع لغات متفرقة في القرآن^(١) .

وهذا خلاف ما قاله ابن عبد البر إن أكثر أهل العلم على أن المراد تأدية

(١) النشر ج ١ ص ٧٤ - ٧٥ ملخصا .

المعنى الواحد بالفاظ مترادفة ، وإن كان ذلك في لغة واحدة كما سبق قريبا ،
وتقدم أن هذا الحديث يؤيد صحة هذا القول ، ويرد ما قاله الداني إنه قول
أكثر العلماء .

قال الجزرى — رحمه الله — « مازلت أستشكل هذا الحديث ، وأفكر فيه ،
وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله على بما يمكن أن يكون صوابا
إن شاء الله تعالى .

وذلك أنى تتبعت القراءات صحيحها وشاذها ، وضعيفها ، ومنكرها فإذا
هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف ، لا يخرج عنها .

(١) إما في الحركات بلا تغيير في المعنى والصورة نحو « البخل » بأربعة ،
و « يحسب » بوجهين .

(٢) أو بتغيير في المعنى فقط ، نحو ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾^(١) ،
﴿ وَأَذَكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ و « أمه »^(٢) .

(٣) وإما في الحروف بتغيير المعنى ، لا الصورة نحو « تبلوا » و « تتلوا »
﴿ تُنْحِيكَ بِبَيْدِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ ﴿ تُنَجِّيكَ بِبَيْدِكَ ﴾^(٣) .

(٤) أو عكس ذلك [أى بتغيير الحروف مع اتفاق المعنى] نحو « بصطة »
و « بسطة » و « الصراط » و « السراط » .

(٥) أو بتغيرهما نحو « أشد منكم » و « أشد منهم » ، و « يأتل » و
« يتأل » و ﴿ فَاْمُضُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ و ﴿ فَاسْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

(١) يعنى بنصب آدم ورفع كلمات عكس القراءة المشهورة .

(٢) بالتاء المربوطة ، وبالهاء .

(٣) الأولى بالحاء المهملة ، والثانية بالجيم المشددة .

(٦) أو بالتقديم والتأخير نحو ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و ﴿ وَيُقْتَلُونَ فَيَقْتُلُونَ ﴾ و ﴿ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِأَلْمُوتِ ﴾ .

(٧) أو في الزيادة والنقصان نحو « وأوصى » و « وصى » و ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ و « والذكر والأنثى » .

وأما اختلاف الإظهار ، والإدغام ، والروم والإشمام ، والتفخيم ، والترقيق والمد والقصر ، والإمالة والفتح ، والتخفيف والتسهيل ، والإبدال والنقل ، ونحو ذلك مما يعبر عنه بالأصول ، فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فيه اللفظ والمعنى ^(١) .

وقال ابن قتيبة — رحمه الله — « وقد غلط في تأويل هذا الحديث قوم ، فقالوا : السبعة الأحرف : وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

وقال آخرون : هى سبع لغات فى الكلمة ، وليس شىء من ذلك لهذا الحديث بتأويل .

ومن قال : فلان يقرأ بحرف « أبى عمرو » ^(٢) أو بحرف « عاصم » ^(٣) ، فإنه لا يريد شيئاً مما ذكر ، وليس يوجد فى كتاب الله تعالى حرف قرئ على سبعة أوجه يصح فيما أعلم .

وإنما تأويل قوله ﷺ : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . على سبعة أوجه من اللغات ، متفرقة فى القرآن ، يدلك على ذلك قول رسول الله ﷺ :

(١) النشر ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار المازنى المقرئ أحد الأئمة السبعة توفى سنة ١٥٤ هـ .

(٣) هو عاصم بن أبى النجود المقرئ المشهور توفى سنة ١٢٧ هـ .

« فاقراءوا كيف شئتم » ، وقصة عمر مع هشام ، وقوله ﷺ : « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، فاقراءوا ما تيسر منه » .

فمن قرأه ، قراءة عبد الله بن مسعود ، فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبي بن كعب ، فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد بن ثابت ، فقد قرأ بحرفه .
والحرف يطلق على أحد حروف المعجم ، وعلى الكلمة الواحدة ، وعلى الكلام المؤلف في معنى ، أو معان كثيرة ، كما يقال : قال الشاعر في كلمته —
يعنى قصيدته .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾^(٣) ، أراد سبحانه وتعالى من يعبد الله على الخير يصبه ، من تثير المال ، وعافية البدن ، وإعطائه السؤال ، فهو مطمئن مادام ذلك له .

وإن امتحنه الله تعالى بالأواء في عيشه ، والضراء في بدنه وماله ، كفر به .
فهذا عبد الله على وجه واحد ، وهو معنى الحرف ، ولو عبد الله على الشكر للنعمة ، والصبر للمصيبة ، والرضا بالقضاء ، لم يكن عبد الله على حرف .

وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات ، فوجدتها سبعة أوجه .

أولها : الاختلاف في إعراب الكلمة ، أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ هُوَ لَأِ بَنَاتِي هُنَّ ﴾

(١) الآية ٧٤ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٣) الآية ١١ من سورة الحج .

أَطْهَرُ لَكُمْ ﴿﴾ و ﴿﴾ أَطْهَرَ لَكُمْ ﴿﴾^(١) ﴿﴾ وَهَلْ نُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورَ ﴿﴾ ﴿﴾ وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الْكُفُورَ ﴿﴾ ، و ﴿﴾ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴿﴾ و الْبَحْلِ ﴿﴾^(٢) ﴿﴾ فَنَظَرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴿﴾ « ميسرة »^(٣) .

الوجه الثاني : أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة ، وحركات بنائها بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها في الكتابة ، نحو قوله تعالى : ﴿﴾ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا ﴿﴾ و « رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا »^(٤) وقوله تعالى : ﴿﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتِّكُمْ ﴿﴾ وَتَلَقَّوْنَهُ^(٥) و ﴿﴾ آذَكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴿﴾ وبعد أمه^(٦) .

الوجه الثالث : أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها ، بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿﴾ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ آلِ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴿﴾ ونشرها ، وقوله : ﴿﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴿﴾ وفرغ .

الوجه الرابع : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿﴾ وقوله : « الازقية واحدة » وقوله : ﴿﴾ كَالْعَيْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿﴾ و « كالصوف المنقوش » .

الوجه الخامس : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ، ومعناها ، نحو قوله : « وطلع منضود » في موضع و ﴿﴾ وَطَلَحَ مَنَّضُودٍ ﴿﴾ في موضع آخر .

(١) الثانية بنصب الراء .

(٢) بفتح الحاء .

(٣) بضم السين .

(٤) الأولى بفتح الباء على صورة الدعاء ، والثانية بضم الباء وفتح العين والذال خبر .

(٥) بفتح التاء ، وكسر اللام ، وضم القاف من اللوق ، وهو الكذب .

(٦) أى بعد نسيان له .

الوجه السادس : أن يكون الاختلاف في التقديم ، والتأخير ، نحو ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ وفي موضع آخر « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

الوجه السابع : أن يكون الاختلاف بالزيادة ، والنقصان ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ و « إن [الله] الغنى الحميد » .

وكل هذه الحروف كلام الله تعالى أنزل به الروح الأمين ، على رسوله ﷺ وكان يعارضه في كل سنة ، في شهر رمضان ، وفي السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ عارضه مرتين ، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء ، وينسخ ما يشاء ، وييسر على عباده ما يشاء ، فكان من تيسيره أن أمره أن يقرئ كل قوم من العرب بلغتهم ، وما جرت عليه عادتهم .

فالهدلى يقرأ « عتى حين » يريد ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، لأنه هكذا ينطق بها . والأسدى يقرأ « تَعْلَمُونَ » و « تَعْلَم » و « يَسْوَدُ وَجوه » و « الم إِعْهَدُ إِلَيْكُمْ » .

والتيمي يهمز ، والقرشى لا يهمز ، فلو أمر كل واحد أن يلتزم لغة غيره لصعب عليه مفارقة ما جرت عليه عادته ، وما نشأ عليه ، ولم يمكنه ذلك إلا بمشقة ، وبعد رياضة طويلة .

فأراد الله رحمة منه ، ولطفا بعباده أن يجعل لهم متسعا في لغاتهم يناسب تيسيره عليهم في الدين .

فإن قيل : أليس هذا اختلافا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ .

قيل : الاختلاف نوعان : اختلاف تضاد ، وهو الذى نفاه الله تعالى عن

كتابه ، مثل أن ينهى عن شى ، ويأمر به فى مكان آخر ، أو ينفى الشىء ، ويثبت فى مكان آخر ، ونحو ذلك ، وهذا لا وجود له فى كتاب الله تعالى .

الثانى : اختلاف تنوع وتغاير ، وهو جائز فى الكلام ، وكثير ، لأن كل واحد لا ينافى الآخر ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بفتح التاء من « علمت » وضمها ، لأن موسى عليه السلام خاطب فرعون بهذا ، وهذا ، فأُنزل الله المعنيين جميعا .

ومثلها قوله تعالى : « ننشرها » و « ننشرها » فالانتشار : الإحياء ، والإنشاز : هو التحريك ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك « فرغ عن قلوبهم » و « فرغ » ، لأن فرغ : خفف عنها الفرغ ، وفرغ أزيل ، وأخليت منه ، وكل ما فى القرآن من تقديم وتأخير ، أو زيادة ، أو نقصان فعلى مثل هذه السبيل .

فإن قيل : هل يجوز أن نقرأ بجميع هذه الأوجه ؟

قيل : كل ما كان منها موافقا لرسم المصحف [وقرأ به الأئمة ، ونقل نقلا متواترا] جاز لنا أن نقرأ به ، لأن الصحابة قد أجمعوا على ما فعله أمير المؤمنين ، وحرقوا ما خالف المصحف الإمام ، فلا يجوز لأحد أن يخالف المصحف الذى أجمع عليه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، كما لا يجوز أن نكتب مصحفاً مخالفاً له^(١) .

وقال الحافظ : « اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة ، أبلغها أبو حاتم ابن حبان إلى خمسة وثلاثين قولاً .

وقوله : ﴿ فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، يدل على التوسعة فى القراءة ،

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٣٤ — ٤٢ ببعض التصرف والتلخيص .

والتيسير ، وهذا يقوى قول من يقول : المراد بالأحرف تأدية المعنى باللفظ المرادف ، ولو كان من لغة واحدة لأن هشاما ، وعمر لغتهما واحدة ، ونقل ابن عبد البر عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة .

وذهب أبو عبيد ، وآخرون إلى أن المراد اختلاف اللغات ، واتفقوا على أنه ليس المقصود أن كل كلمة تقرأ بسبع لغات .

ولا يقصد أن التوسعة في القراءة تقع بالتشهي حسب مراد المتكلم ، إذا أراد أن يغير الكلمة بمرادفها ، بل لا بد في ذلك من السماع من الرسول ﷺ . ولهذا جاء أن كل واحد من المختلفين الذين على عهد النبي ﷺ يقول : أقرأني النبي ﷺ ، وإن كان وجد من كان يقرأ بذلك وإن لم يكن مسموعا من النبي ﷺ مثل قراءة ابن مسعود ﴿ عَتَّى حِينَ ﴾ بلغه هذيل ، وقد أنكر عليه عمر بن الخطاب -- رضى الله عنه -- وكتب إليه : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وهذا قبل أن يجمع أمير المؤمنين عثمان -- رضى الله عنه -- الناس على مصحف واحد ، بقراءة واحدة .

وحاصل ذلك أن معنى قوله : « انزل القرآن على سبعة أحرف » أنه أنزل موسعا على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه ، بأن يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من الآخر ، وذلك لتسهيل قراءته ، إذ لو أخذوا بأن يقرأوه على حرف واحد لشق عليهم»^(١) .

وقال ابن عبد البر : « وفي حديث عمر مع هشام رد لقول من قال : إنها سبع لغات لأن عمر قرشى عدوى ، وهشام بن حكيم بن حزام قرشى أسدى ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، كما أنه محال أن يقرئ رسول الله ﷺ واحدا

(١) الفتح ج ٩ ص ٣٠ .

منها بغير ما يعرفه من لغته .

والأحاديث الصحاح المرفوعة كلها تدل على نحو ما يدل عليه حديث عمر هذا .

وقالوا : إنما معنى السبعة الأحرف ، سبعة أوجه من المعاني ، المتفقة المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقبل ، وتعال ، وهلم ، وعلى . وعلى هذا الكثير من أهل العلم^(١) .

وهذا هو الصحيح والأخبار الصحيحة ، والآثار عن علماء الأمصار تدل على صحة هذا القول ، وأنه الصواب ، مثل ما رواه الإمام أحمد ، وابن جرير ، وابن عبد البر ، عن أبي بكر ، قال : قال رسول الله ﷺ : قال جبريل : اقرأوا القرآن على حرف ، فقال مكائيل : استزده ، فقال : على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يختم آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب ، كقولك : هلم ، وتعال ، وفي رواية ابن عبد البر : « فقال مكائيل استزده ، حتى بلغ إلى سبعة أحرف ، فقال : اقرأه فكل شاف كاف ، إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ، وعلى نحو : هلم ، وتعال ، وأقبل ، واذهب ، وأسرع ، وعجل^(٢) .

وروى الإمام أحمد ، والطبري من حديث أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، غفورا رحيفا ، عزيزا حكيفا ، عليما حكيفا ، وربما قال : « سميعا بصيرا^(٣) . قال ابن عبد البر :

(١) التمهيد ج ٨ ص ٢٨١ .

(٢) المسند ج ٥ ص ٥١ والطبري ج ١ ص ٢٣ والتمهيد ج ٨ ص ٢٩٠ .

(٣) المسند ج ٢ ص ٣٣٢ وتفسير الطبري ج ١ ص ٢٢ .

« وقوله : سميعا عليما ، وغفورا رحيفا ، وعليما حكيما ، أراد به ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها ، وأنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها لا يكون في شيء منها معنى ، وضده ، وما أشبه ذلك ، وهذا كله يعضد قول من قال : إن معنى السبعة الأحرف ، سبعة أوجه من الكلام المتفق معناه ، المختلف لفظه ، نحو هلم ، وتعال ، وعجل ، وأسرع ، وانظر ، وآخر »^(١) .

وذكر عن الزهري أنه قال : « إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ، ليس تختلف في حلال ، ولا حرام »^(٢) .

وذكر عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ ﴿ كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ « مروا فيه ، سعوا فيه » كل هذه الأحرف كان يقرأها أبي بن كعب ، فهذا معنى الحروف المراد بهذا الحديث^(٣) .

وروى ابن جرير أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا ﴾ فقال بعض القوم : يا أبا حمزة إنما هي « وَأَقْوَمُ » فقال : أقوم ، وأصوب وأهيا واحد^(٤) .

وروى عن سعيد بن المسيب : أن الذي ذكر الله — تعالى ذكره — أنه قال : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرًا ﴾ إنما افتتن أنه كان يكتب الوحي ، فكان يملئ عليه رسول الله ﷺ : سميع علم ، أو عزيز حكيم ، أو غير ذلك من خواتم الآي ، ثم يشتغل عنه رسول الله ﷺ وهو على الوحي فيستفهم رسول الله ﷺ ؟ فيقول : أعزير حكيم ؟ أو سميع علم ؟ أو عزيز علم ؟ فيقول له رسول الله

(١) التمهيد ج ٨ ص ٢٨٤ .

(٢) التمهيد ج ٨ ص ٢٩١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٥٢ .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أى ذلك كتبت ، فهو كذلك ، ففتنه ذلك ، فقال : إن محمدا وكل ذلك إلى فاكذب ما شئت ، وهو الذى ذكر لى سعيد بن المسيب من الحروف السبعة^(١) .

ومما يستل عنه ، هل هذه الحروف السبعة موجودة فى المصحف الذى بين أيدي المسلمين ؟ أو إنها كانت زمن الرسول ﷺ ، والخليفين بعده ، وصدرا من خلافة عثمان — رضى الله عنهم — ثم لما جمع عثمان الناس على مصحف واحد ، تركت تلك الحروف الستة ، أو بعضها ؟

قال الحافظ : « قال أبو شامة : وقد اختلف السلف فى الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، هل هى مجموعة فى المصحف الذى بأيدي الناس اليوم ، أو ليس فيه إلا حرف واحد منها ؟

مال ابن الباقلاانى إلى الأول ، وصرح الطبرى ، وجماعة بالثانى ، وهو المعتمد .

وقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف ، عن أبى الطاهر بن أبى السرح ، قال : سألت ابن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين ، والعراقيين . هل هى الأحرف السبعة ؟ قال : لا ، وإنما الأحرف السبعة مثل : هلم ، وتعال ، وأقبل ، أى ذلك قلت أجزاءك » قال : وقال لى ابن وهب مثله .

والحق أن الذى جمع فى المصحف هو المتفق على إنزاله ، المقطوع به ، المكتوب بأمر النبى ﷺ وفيه بعض الأحرف التى اختلف فيها من الأحرف السبعة ، لا جميعها ، كما وقع فى المصحف المكي ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فى آخر براءة ، وفى غيره بحذف « من » .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٥٤ تحقيق محمود شاكر .

وكذا ما وقع من اختلاف مصاحف الأمصار في عدة واوات ، ونحو ذلك وهو محمول على أنه نزل بالأمرين معا ، وأمر النبي ﷺ بكتابته لواحد ، أو اثنين ، [وعلمه بعض الصحابة] ، وما عدا ذلك من القراءات مما لا يوافق الرسم ، فهو مما كانت القراءة جائزة به توسعة على الناس ، وتسهيلا ، فلما آل الأمر إلى ما وقع من الاختلاف في زمن عثمان — رضى الله عنه — وكفر بعضهم بعضا ، اختار الصحابة — رضى الله عنهم — الاقتصار على اللفظ المأذون في كتابته ، وتركوا الباقي .

قال : الطبرى : وصار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار على حرف واحد ، كمن اقتصر مما خير فيه على خصلة واحدة ، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة ، لم يكن على سبيل الإيجاب ، بل على سبيل الرخصة .

قلت : ويدل عليه قوله ﷺ في حديث الباب ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ وقال أبو العباس ابن عمار : أصح ما عليه الخذاق أن الذى يقرأ الآن بعض الحروف السبعة المأذون في قراءتها ، لا كلها ، [فما وافق رسم المصحف من تلك الحروف جازت القراءة به مع التواتر] ، وما خالفه مثل : « أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج » ، وتمثل : « إذا جاء فتح الله والنصر » فهو من تلك القراءات التى تركت ، إن صح سندها ، ولا يكفى صحة سندها فى إثبات كونها قرآنا ، ولا سيما والكثير منها مما يحتمل أن يكون من التفسير الذى قرن إلى التزيل ، فصار يظن أنه منه ^(١) .

وقال البغوى فى شرح السنة : « المصحف الذى استقر عليه الأمر هو آخر العرض على رسول الله ﷺ فأمر عثمان — رضى الله عنه — بنسخه فى المصاحف وجمع الناس عليه ، وأذهب ما سوى ذلك قطعاً مادة الخلاف ،

(١) الفتح ج ٩ ص ٣٠ .

فصار ما يخالف خط المصحف في حكم المنسوخ ، والمرفوع ، كسائر ما نسخ ، ورفع ، فليس لأحد أن يعدو في اللفظ إلى ما هو خارج عن الرسم»^(١) .

قال ابن عبد البر : المصحف الذى بأيدي الناس اليوم هو منها حرف واحد وعليه أهل العلم .

ثم ذكر عن مالك أنه سئل عمن يقرأ بمثل ما قرأ عمر بن الخطاب ، « فامضوا إلى ذكر الله ؟ » فقال : ذلك جائز ، قال رسول الله ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فاقروا منه ما تيسر » ، مثل « تعلمون ، ويعلمون لا أرى في اختلافهم في مثل هذا بأسا .

ثم قال : قال ابن وهب : أخبرني مالك بن أنس ، قال : أقرأ عبد الله بن مسعود رجلا : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ فجعل الرجل يقول : طعام الأثيم ، فقال له ابن مسعود : طعام الفاجر ، فقلت لمالك : أترى أن يقرأ كذلك ؟

قال : نعم ، أرى ذلك واسعا .

قال : معناه عندى أن يقرأ به في غير الصلاة^(٢) ، وإنما ذكرنا ذلك عن مالك تفسيرا لمعنى الحديث ، وإنما لم نجز القراءة به في الصلاة ، لأن ما عدا مصحف عثمان فلا يقطع عليه ، وإنما يجرى مجرى السنن ، التى نقلها الآحاد ، لكن لا يقدم أحد على القطع في رده .

وذكر عن ابن القاسم أنه قال : أرى أن على الإمام أن يمنع من بيع مصحف ابن مسعود ، وأن يضرب من قرأ به ، ويمنعه .

(١) الفتح ج ٩ ص ٣٠ وانظر شرح السنة ج ٤ ص ٥١١ وقد تصرف الحافظ فيه .

(٢) الظاهر أن ابن مسعود أراد أن يفسر الأثيم ويبين معناه له .

وقد قال مالك : من قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود ، أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف ، لم يصل وراه .

وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك ، ألا قومًا شذوا ، لا يعرج عليهم . وهذا كله يدل على أن السبعة الأحرف التي أشير إليها في الحديث ليس بأيدي الناس منها إلا حرف زيد بن ثابت الذي جمع عليه عثمان — رضى الله عنه — المصحف .

وذكر بسنده إلى أبي الطاهر ، قال سألت سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين ، والعراقيين هل تدخل في السبعة الأحرف ؟ فقال : لا . وإنما السبعة الأحرف كقولهم : هلم ، أقبل ، تعال ، أى ذلك قلت أجزاءك . قال أبو طاهر : وقاله وهب .

قال أبو بكر محمد بن عبد الله الأصبهاني المقرئ : ومعنى قول سفيان هذا أن اختلاف العراقيين ، والمدنيين ، حرف واحد ، من الأحرف السبعة ، وبه قال محمد بن جرير الطبرى .

وقال أبو جعفر الطحاوى : كانت هذه السبعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها ، لأنهم كانوا أميين ، لا يكتبون إلا القليل منهم ، فكان يشق على كل ذى لغة منهم أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتبأ له ، إلا بمشقة عظيمة ، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ ، إذا كان المعنى متفقاً ، فكانوا كذلك حتى كثر من يكتب منهم ، وحتى عادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ فقرأوا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها .

وبان بما ذكرناه أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة

الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد»^(١) .

فإن قيل : هذه الأحرف أنزلها الله ، وعلمها الرسول ﷺ الصحابة فثبت لديهم من كلام الله ، وتركها ، وعدم الاعتناء بها وحفظها ونقلها يكون تفریطاً من الأمة بما كلفت بحفظه .

قيل : الأمر كذلك أن الله أنزلها قرآناً ، والرسول ﷺ علمها الصحابة ، وحفظهم إياها ، ولكن الأمة لم تفرط بحفظها ، ولم تضيع ما كلفت به ، وإنما جعل الأمر إليها ، فخبرت في قراءة القرآن بأى حرف من الأحرف السبعة شاءت ، مثل تخييرها في كفارة اليمين بين ثلاثة الأشياء ، المذكورة في الآية ، إما عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، فلو أجمعوا على التكفير بواحدة من الثلاث دون حضر التكفير بأى واحدة من الثلاث شاء المكفر لكان ذلك صواباً ، مؤدياً للواجب من حق الله تعالى فكذلك مسألة الأحرف السبعة ، فإن الله خيرهم فيها توسعة لهم وتسهيلاً عليهم ، فإذا رأت الأمة الاقتصار على حرف واحد ، من الأحرف السبعة ، لأمر أوجب ذلك ، من خوف الاختلاف ، والكفر الذى قد يكون من بعضهم لبعض بسبب القراءة بالأحرف السبعة . كان الصواب ، بل الواجب هو الاقتصار على حرف واحد منها ، مع أمن الاختلاف ، والتفرق . وهذا ما أدركه الخليفة الثالث ، ووافقته عليه أصحاب الرسول ﷺ فكان فيه الخير ، والرشد ، والهدى وقد أوضح ذلك الإمام ابن جرير في مقدمة التفسير^(٢) .

ومقصد البخارى قوله : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ فأسند القراءة إليهم مما يدل على أنها فعلهم ، ولما فيها من وصف التيسير ، فإنهم يختلفون في ذلك ،

(١) التمهيد ج ٨ ص ٢٩١ — ٢٩٤ .

(٢) انظر ج ١ ص ٥٨ بتحقيق محمود شاكر .

فمنهم من ييسر له أكثر مما ييسر لغيره ، ولما فيه من اختلاف قراءتهم ، فكل واحد منهم قرأ بغير قراءة الآخر ، فالاختلاف وصف لقراءتهم ، لا للقرآن ، وهذا كله يدل على أن ذلك فعلهم ، وهو المقصود .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

وقال النبي ﷺ : « كل ميسر لما خلق له » . يقال : ميسر : مهياً .

وقال مجاهد : يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ بِلِسَانِكَ ، هَوَّنَا قِرَاءَتَهُ عَلَيْكَ .

وقال مطر الوراق : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ قال : « هل من طالب علم فيعان عليه » . قال العيني : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أى سهلناه للادكار والاتعاظ .

﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ ، وأصل « مدكر » مفتعل من الذكر ، قلبت التاء دالا ثم أدغمت في الأخرى^(١) .

قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ولقد سهلنا القرآن ، بيناه ، وفصلناه للذكر ، لمن أراد أن يتذكر ، ويعتبر ، ويتعظ ، وهوناه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال : هوناه ، وعن ابن زيد ، قال : بيناه .

ثم قال : وقال بعضهم : هل من طالب علم ، أو خير فيعان ، وهو قريب المعنى مما قلناه^(٢) .

وقال ابن كثير : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلنا لفظه ، ويسرناه معناه ، لمن أراد أن يتذكر الناس ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا

(١) عمدة القارئ ج ٢٥ ص ١٩٥ .

(٢) تفسير الطبري ج ٢٧ ص ٩٦ .

لِيَذَّبَرُوا عَائِيَّتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ
بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ (٢) ، وقال مجاهد : يعنى هونا
قراءته .

وقال السدى : يسرنا تلاوته على الألسن .

وقال الضحاك : عن ابن عباس : « لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ،
ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله — عز وجل » (٣) .

﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ استفهام أريد به الحض على التذكر ، ولا بد قبل
التذكر من التعلم ، فالله تعالى قد سهل طريق حفظ القرآن ، وفهمه ، وثمره
ذلك العمل به ، والاتعاظ بمواعظه .

قال ابن كثير ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أى فهل من متذكر بهذا القرآن الذى
يسر الله حفظه ومعناه ، وقال محمد بن كعب القرظى : فهل من منزجر عن
المعاصى؟ (٤) .

وقال القسطلانى : « ولقد سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ،
فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ، ويروى أن كتب أهل الأديان كالتواراة
والإنجيل ، لا يتلوها أهلها إلا نظرا ، ولا يحفظونها ظاهرا كالقرآن » (٥) .

وقول مجاهد ، تقدم أن ابن جرير رواه بسنده عنه ، وقال الحافظ : رواه
الفريابى فى تفسيره بسنده .

(١) الآية ٢٩ من سورة ص .

(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٥٣ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) إرشاد السارى ج ١٠ ص ٤٦٩ .

وقوله : « هونا قراءته عليك » لا يريد اختصاص النبي ﷺ بذلك ، فإن ظاهر الآية يدل على العموم ، ولهذا قال : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ، وإنما يريد تهوين قراءته على كل من أقبل عليه صادقا ، ويدخل في ذلك فهم معانيه ، فإن الله تعالى قد يسرها لمن تدبره .

وقول مطر الوراق ، سبق أن ابن جرير رواه بسنده ، وقال : إنه قريب المعنى مما قلناه ، يعنى فصلناه ، وبيناه ، لمن أراد الفهم والتذكر ، والاتعاظ ، وذلك لما في لفظ التيسير مما يدل على التسهيل ، والإعانة ، وما يدل عليه الاستفهام من إرادة ذلك ، والله أعلم .

ومقصود البخارى أن حفظ كتاب الله ، وفهمه ، والتذكر به والاتعاظ ، وكذلك تلاوته وقراءته كل ذلك عمل العبد الذى يطلب من ربه أن يعينه عليه ، ويسهله له ، وقد وعد بذلك جل وعلا .

أما المفهوم المحفوظ المتلو فهو غير فعل العبد المخلوق ، بل هو كلام الله وصفته .

١٧٢ — قال : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، قال : حدثنا يزيد ، حدثنى مطرف بن عبد الله ، عن عمران ، قال : قلت : يا رسول الله فيما يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له . »

هذا السؤال تكرر لرسول الله ﷺ من عدد من أصحابه ، فبين لهم أن الله تعالى قد علم أهل الجنة وأهل النار قبل وجودهم ، وأنه تعالى قد كتب ذلك فى الأزل ، ونهاهم ﷺ أن يتكلموا على ذلك الكتاب ، ويدعوا العمل . وكأنه عرض لهم إنه إذا كان أهل الجنة قد علموا ، وكتبوا وكذلك أهل

(١) إرشاد السارى ج ١٠ ص ٤٦٩ .

النار ، فلا فائدة في العمل والاجتهاد ، فإنه لا بد من حصول المكتوب فأجابهم عن ذلك بقوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، يعني أن الذي كتب من أهل الجنة سوف يهيء الله له أسباب عمل أهل الجنة ، ويسرها له فيعملها ، فتكون سببا لدخوله الجنة .

وكذلك الذي كتب من أهل النار ، لا بد أن يعمل عملا يستحق به دخول النار ، وقد أوضح ذلك النبي ﷺ إيضاحا تاما .

ففي سنن أبي داود ، والترمذي أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : « إن الله — عز وجل — خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، ويعمل أهل النار يعملون .

فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله — عز وجل — إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار »^(١) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين

(١) انظر السنن لأبي داود ج ٥ ص ٧٩ — ٨٠ ، والترمذي ج ٥ ص ٢٦٦ رقم ٣٠٧٥ وقال : حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر . ورواه الإمام أحمد في المسند ج ١ ص ٤٤ ، ٤٥ ، وابن وهب في كتاب القدر ص ٧٣ .

ألف سنة ، قال : وكان عرشه على الماء» (١) .

وفيه أيضا عن أبى الأسود الدَّيْلَمِيُّ ، قال : قال لى عمران بن الحصين :
أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه أشياء قضى عليهم ومضى عليهم
من قدر ما سبق ؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة
عليهم ؟

فقلت : بل شيء قضى عليهم ، ومضى عليهم .

قال : فقال : أفلا يكون ظلما .

قال : ففزع من ذلك فزعا شديدا ، وقلت : كل شيء خلق الله ، ومملك
يده فلا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

فقال لى : يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا حزر عقلك ، إن رجلين
من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله : أرأيت ما يعمل الناس
اليوم ، ويكدحون فيه ، أشياء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ،
أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟

فقال : لا بل شيء قضى عليهم ، ومضى فيهم ، وتصديق ذلك فى كتاب
الله — عز وجل — ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٢) .

وروى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو ، قال خرج علينا رسول الله ﷺ
وفى يده كتابان ، فقال : « هل تدرون ما هذان الكتابان ؟ » فقلنا : لا ، إلا
أن تخبرنا يا رسول الله ، فقال : للذى بيده اليمنى ، « هذا كتاب من رب
العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، وأجمل على آخرهم
فلا يزداد فيهم ، ولا ينقص منهم أبدا .

(١) انظر ج ٤ ص ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤١ رقم ٢٦٥٠ .

ثم قال للذى فى شماله : هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، وأجمل على آخرهم ، فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا .

فقال أصحابه : فقيم العمل يا رسول الله ؟ إن كان الأمر قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « سدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أى عمل .

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه ، فبئدهما ، ثم قال : فرغ ربكم من العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ^(١) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، ففى ذلك أن الله تعالى علم أهل الجنة ، وكتبهم وأرادهم كونا من أهلها ، وكذلك أهل النار ، قبل وجودهم بزمن طويل جدا وقبل أن يعملوا ما يستحقون عليه دخول الجنة أو النار ، وهذا من كمال علم الله تعالى ، وهو مما يجب الإيمان به ، وقد نص الأئمة على كفر من جحدته . قال اللالكائى : « روى عن مالك بن أنس ، والأوزاعى ، وعبيد الله بن الحسن العنبرى يستتابون ، فإن تابوا وإلا قتلوا .

وعن سعيد بن جبير : القدرية يهود ، وعن الشعبي : القدرية نصارى . وعن نافع مولى ابن عمر : القدرية يقتلون ، وحكى المزنى عن الشافعى : أنه كفرهم ، وعن إبراهيم بن طهمان : القدرية كفار .

(١) رواه الترمذى ج ٤ ص ٢٤٩ ، وابن وهب فى كتاب القدر ص ٨٣ - ٨٧ والآجرى فى الشريعة ص ١٧٣ ، وابن جرير فى التفسير من طريق ابن وهب ج ٢٥ ص ٩ ، وهذان الكتابان اللذان أخذهما رسول الله ﷺ ليسا هما الكتابان اللذان كتب الله فيهما أسماء أهل الجنة وأهل النار ، وإنما ذلك تمثيل من رسول الله ﷺ وتقريب إلى أفهام الناس بأن الله تعالى علم كل شىء مما سيكون وما يصير إليه العباد وكتبه تأكيدا لعلمه تعالى ، فلا يتغير ولا يتبدل .

وعن أحمد بن حنبل مثل قول مالك ^(١) .

وفي هذه الأحاديث بيان أن كل أحد لابد له من عمل يكون سببا لدخوله الجنة أو النار .

فالنبي ﷺ بين أن الله — تعالى — علم أهل الجنة ، وأهل النار ، وأنه كتب ذلك ، ونهى الناس أن يتكلموا على ما سبق في الكتاب عليهم ، ويدعوا العمل ، كما يفعله الملحدون ، وقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فأهل السعادة سوف تهيأ لهم من الأسباب ما تمكنهم من عمل أهل السعادة . وكذلك أهل الشقاء ، لابد أن يعملوا الأعمال التي يشقون بها ، ويستحقون النار عليها .

فالله — تعالى — يعلم كل شيء على ما هو عليه ، وقد جعل لكل شيء سببا ، وجعل العبد قادرا على العمل الذي كتب عليه ، فيفعله مختارا ، راغبا ، غير مجبر عليه ، ولا ملزم به .

ولهذا يجب على العبد ، مع الإيمان بالقدر ، الاجتهاد في العمل ، والأخذ بأسباب النجاة ، والالتجاء إلى الله تعالى بأن ييسر له أسباب السعادة ، وأن يعينه عليها .

والله — تعالى — مع غناه عن الخلق كلهم ، خلقهم ، وأرسل إليهم الرسل تبين لهم ما يسعدهم ، وما فيه شقاؤهم ، وهدى عباده المؤمنين لما خلقوا له ، وهداهم لما اختلف فيه من الحق ، فمنَّ عليهم أن حبيب إليهم الإيمان ، والعمل الصالح ، ويسر ذلك لهم ، وأعانهم عليه ، وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم ضده من الكفر والمعاصي ، والفسوق ، وجعلهم راشدين ، وكل ذلك فضل منه

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج ٢ ص ٧٠٦ — ٧٠٧ .

وكرم من غير استحقاق لهم عليه ، فإيجادهم من العدم فضل منه ، وإرسال الرسل إليهم تدلهم على الحق فضل منه ، وهدايته لهم فضل منه ، وجميع ما ينالون به الخير من قواهم وغيرها بفضله ، وكذلك إثابته لهم على أعمالهم الصالحة فضل منه وكرم ، وإن كان أوجب ذلك على نفسه ، كما حرم على نفسه الظلم قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو واجب بإيجابه ووعدته ، وهو لا يخلف وعده . وكل ذلك بفضله ومنته والخلق لا يوجبون على الله شيئا ، ولا يجرمون عليه شيئا ، بل هم أعجز من ذلك ، وأقل .

فكل ما يصيب الخلق من النعم فهي من فضل الله ، وكرمه ، وكل ما يصيبهم من النقم فهي بعدل ، وهم يستحقونها جزاءً لأعمالهم ويعفو الله عن كثير .

ولابد للعبد أن يجمع بين أمر الله وقدره ، ووعدته ، ووعيدته ، لأن من أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد معتمدا على القدر ، فهو ضال ، ومن حاول القيام بالأمر والنهي ، وأعرض عن القدر ، فهو أيضا ضال ، ولهذا أمر الله عباده أن يعبدوه مستعينين به على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

فيعبدونه اتباعا لأمره ، ويستعينونه إيمانا بالقدر ، وذلك أنه لا يقع شيء إلا بعد مشيئته ، وهو الخالق لكل شيء ومن ذلك أفعال العباد ، وإن كانت تقع باختيارهم ، وقدرتهم فهو الخالق لها ، ولا تقع إلا إذا شاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) وإذا لم يعن الله العبد على الفعل لم يستطعه .

(١) الآية آخر سورة التكوير .

فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته كما تزعم القدرية المجوسية فهو جاحد لقدرة الله التامة ، ومشيعته الشاملة لكل شيء ، وخلقه لكل شيء .

ومن ظن أنه إذا أعين على ما يريد ، ويسر له ذلك كان محمودا ، محبوبا ، سواء وافق ذلك الأمر الشرعى أو خالفه ، فقد جحد دين الله وكذب كتبه ورسله ، ووعد ، ووعيده ، واستوجب غضب الله وعقابه ، وصار من الذين قال الله عنهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ^(١) .

قوله : « فيم يعمل العاملون ؟ » أى أعمال العباد ، هل قدرها الله عليهم وسبق علم الله بها ، وكتابته لها ، فهم يعملون فى أشياء قضاها الله وفرغ منها ، فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما قدره ، وقضاه ؟ وهذا هو الواقع .

أو أنهم يعملون فى شيء لم يقدر ، ولم يكتب عليهم ، بل هو موكل إليهم ؟

وذكر هذا الحديث فى القدر بلفظ : « قال رجل : يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم ، قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له ، أو لما يسر له » ^(٢) .

فقوله : « فيم يعمل العاملون » ، مرتب على قول النبى ﷺ أنه قد علم أهل الجنة ، من أهل النار ، فكأنه وقع فى نفسه أنه مادام قد فرغ من ما يصير إليه العباد ، وعلم الله أهل السعادة ، وأهل الشقاء قبل وجودهم ، فلماذا العمل ، والإنسان لا بد أن يصير إلى ما كتب عليه ، فهى أمور منتبهة ، ولا بد من حصولها .

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٢) البخارى ج ٨ ص ١٠٤ .

فأجابه النبي ﷺ بما أزال هذا الإشكال بقوله : « كل يعمل لما خلق له »
يعنى أن أهل الجنة لا بد أن يعملوا أعمالا يستحقون بها دخول الجنة ، وأهل
النار لا بد أن يعملوا أعمالا يستحقون بها دخول النار .

وقد علم الله أن من يكون من أهل الجنة يعمل عملهم ، ويسر ذلك له ،
ويتفضل عليه فيحبب إليه الإيمان ، ويزينه في قلبه ، ويكره إليه الكفر والفسوق
والعصيان ويجعله راشدا مطيعا مهتديا ، وهذا كله فضل الله ومنته ، وهو معنى
تيسره لليسرى ، وأما أهل النار فقد علم الله — تعالى — أنهم يكفرون ،
ويغضون الإيمان ، ويأبونه ويفعلون ذلك اختيارا منهم ، وحبا له بعكس أهل
الإيمان ، وهو معنى تيسيرهم لليسرى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ
وَأْتَقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ وهو معنى قوله ﷺ « كل ميسر
لما خلق له » .

ووجه الاستدلال من الحديث أن قوله : « كل ميسر لما خلق له » يدل
على أن العبد له عمل يسر له فيعمله ، فيستحق عليه الجزاء ، وذلك الجزاء
هو الذى خلق العبد له ، إما الجنة وإما النار ، فالعبد فاعل على الحقيقة ، فهو
المؤمن ، والمصلئ ، والعامل حقيقة ، وهو الكافر ، والمنافق ، والعاصئ ،
والسارق ، والزانى حقيقة ، ولذلك استحق العذاب ، أو الثواب .

وكذلك هو القارئ إذا قرأ كتاب الله تعالى ، فالقراءة فعله ، وكسبه ،
وعمله ، والمقروء كتاب الله وصفته التى تكلم به ، وقاله ، وأنزله على رسوله
ﷺ ، وقد يسر الله القرآن للذكر ، فإذا تذكره العبد ، وقرأه ، وعمل به
فذلك عمله ، يضاف إليه ، ويجزئ عليه .

قال الإمام البخارى رحمه الله : « ويقال لمن زعم أنى لا أقول القرآن
مكتوب فى المصحف ، ولكن القرآن بعينه فى المصحف ، يلزمك أن تقول :

إن ما ذكره الله في القرآن من الجن ، والأنس ، والملائكة والمدائن ، ومكة ،
والمدينة ، وغيرها ، وإبليس ، وفرعون ، وجنودهما ، والجنة والنار ، عاينتهم
بأعيانهم في المصحف ، لأن فرعون مكتوب فيه ، كما أن القرآن مكتوب فيه .

ويلزمك أكثر من ذلك ، حين تقول : الله في المصحف ، وهذا أمر بين
لأنك تضع يدك على هذه الآية ، وتراها بعينك ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ
الْقَيُّومُ ﴾ فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود ، وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ هو قرآن ، فالقرآن قول الله — عز وجل — والقراءة ،
والكتابة ، والحفظ للقرآن هو فعل المخلوق ، لقوله ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾
وقوله : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ .

والقراءة فعل الخلق ، وهى طاعة الله ، والقرآن ليس هو بطاعة ، إنما هو
الأمر بالطاعة ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى
مُكْثٍ ﴾^(١) وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ
يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾^(٣) ، وقال عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فذلك كله مما أمر به ، ولذلك قال : ﴿ أَقِيمُوا
الصَّلَاةَ ﴾ والصلاة بجملتها طاعة لله ، والأمر بالصلاة قرآن ، وهو مكتوب
في المصاحف ، محفوظ في الصدور مقروء على اللسان .

والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق ، وما قرئ ، وحفظ ، وكتب ليس

(١) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٢٩ من سورة فاطر .

(٣) الآية ١٧ من سور القمر .

بمخلوق ، ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون « الله » ويحفظونه ، ويدعونه ،
فالدعاء والحفظ ، والكتابة من الناس مخلوق ، ولاشك فيه ، والخالق الله
بصفته^(١) .

١٧٣ — قال : « حدثني محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا
شعبة ، عن منصور ، والأعمش ، سمعا سعد بن عبيدة ، عن أبي
عبد الرحمن ، عن علي — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ « أنه كان
في جنازة ، فأخذ عودا فجعل ينكت في الأرض ، فقال : ما منكم
من أحد إلا كتب مقعده من الجنة ، أو من النار ، قالوا : ألا نتكل ؟
قال : اعملوا ، فكل ميسر ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ
بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ الآية .

« أنه كان في جنازة » قال الأزهرى : « قال أبو العباس : الجنازة بالكسر
السريـر ، وبالفتح الميت ، وقال الليث : الإنسان الميت ، والشئ الذى قد ثقل
على قوم ، واغتموا به ، هو جنازة ، وعن الأصمعى : الجنازة بالكسر هو الميت
نفسه^(٢) .

وفي المصباح : « جنزت الشئ أجنزه ، من باب ضرب ، سترته ، ومنه
اشتقاق الجنازة ، وهى بالفتح والكسر ، والكسر أفصح ، وقال الأصمعى وابن
الأعرابى : بالكسر الميت نفسه ، وبالفتح السريـر ، وروى أبو عمر الزاهد ،

(١) خلق أفعال العباد ص ٨٨ — ١٩٠ .

(٢) تهذيب اللغة ج ١٠ ص ٦٢٢ .

الأعرابي : بالكسر الميت نفسه ، وبالفتح السرير ، وروى أبو عمر الزاهد ،
عن ثعلب عكس هذا فقال : بالكسر السرير ، وبالفتح الميت نفسه «^(١) .
« فأخذ عودا فجعل يتكت في الأرض » أى يضرب فيها بذلك العود ،
ويكون ذلك عادة من فعل المفكر المهموم .

« فقال : ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار » الخطاب
وإن كان موجها إلى الحاضرين ، فالمقصود به عموم الخلق من الإنس والجن .
ومعنى كتابة مقعده : أن الله علم مصيره ، ومستقره في الجنة أو في النار
وكتبه ، وذلك قبل وجوده ، كما سبقت الإشارة إليه .

« قالوا : ألا نتكل ؟ » أى ندع العمل اعتمادا على ما كتب لنا ، وقدر ،
فإننا لا بد صائرين إليه ، فلا يكون في العمل تغيير لما كتب ، وهذا الإشكال
يعرض لكثير من الناس ، وقد أزاله رسول الله ﷺ بقوله : « اعملوا فكل
ميسر » أى ميسر لما خلق له من الجنة أو النار ، فإن كان العبد خلق للجنة
والسعادة ، فسوف يهيء الله له من أسباب السعادة ، ويسرها له ويسهلها
عليه حتى يتمكن من العمل الذى يكون سببا لذلك ، وإن كان من أهل
الشفاء ، فلا بد أن يقبض له من الأسباب ما يتمكن به من العمل للشفاء .

فالله — تعالى — لا يظلم أحدا ، وقد حرم الظلم على نفسه — تعالى —
وجعله بين عباده محرما ، ولكن لكمال قدرته خلق العبد فاعلا مختارا ، فإما

(١) المصباح المنير ج ١ ص ١٥٣ .

أن يختار طريق الهدى ، أو طريق الردى ، وكل واحد من الفريقين يجد نفسه غير مدفوع إلى ذلك ، بل يفعله عن رغبة منه ، واختيار ، ولو حيل بينه وبين ما يريده لربما قاتل من يحاول أن يصدّه عن مراده ، والله — تعالى — يسر للعبد من العمل ما يستحق به ما كتب عليه وقدر ، قبل أن يخلق ، ولهذا قرأ النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .

وتقدم وجه الدلالة من الحديث لمراد البخارى فى الحديث الذى قبله ، وهو أن التيسير يدل على أن العبد الذى يسر له العمل عامل حقيقة ، ويدخل فى ذلك قراءة القرآن ، فهى عمل القارئ ، وأما المقروء فهو كتاب الله تعالى كما سبق .

قال ابن المنير : « ما ذكره البخارى فى هذا الباب راجع إلى ما تقدم من وصف القراءة بالتيسير ، وهذا يدل على أنها فعل [العبد] ، ويشهد [له] قوله : كل ميسر لما خلق له ، ومما خلق له التلاوة ، والله أعلم »^(١) .

قوله : « ومما خلق له التلاوة » يعنى أنها عمل الإنسان الذى يترتب عليه مصيره الذى كتب له ، كما مر فى الحديث .

ذكر شيخ الإسلام أن الجهمية افتقرت على ثلاث فرق ، فرقة تقول : القرآن مخلوق ، وفرق تقول : كلام الله وتسكت ، وفرقة تقول : الفاظنا

(١) المتوارى ص ٤٣٢ .

وتلاوتنا للقرآن مخلوقة .

وحقيقة قول هؤلاء أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد مخلوق لم يتكلم الله به ، وشبهتهم أن أفعالنا ، وأصواتنا مخلوقة ، ونحن إنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا . ثم قابل هؤلاء قوم أرادوا ، رد باطلهم ، فوقعوا فى باطل آخر ، حيث قالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة^(١) لأن هذا هو القرآن ، وهو غير مخلوق .

ولم يفرقوا بين الاسم المطلق ، والاسم المقيد بالدلالة ، فأنكر الإمام أحمد على هؤلاء وبدعهم ، وأحمد ، وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شئ من كلام الله مخلوقا ، حروفه أو معانيه ، وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله ، كما ينكرون على من يجعل شيئا من أفعال العباد ، أو أصواتهم غير مخلوق .

وكلام أحمد فى مسألة التلاوة ، والقراءة ، والإيمان من نمط واحد ، منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق ، لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق ، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضا إطلاق القول بأنه غير مخلوق ، لما فيه من البدعة والضلال .

وذلك أن التلاوة ، والقراءة ، واللفظ ، قد يراد به مصدر تلا يتلو تلاوة ، وقرأ يقرأ ، قراءة ، ولفظ ، يلفظ ، لفظا ، ومسمى المصدر هو فعل العبد ، وحركاته ، وذلك مخلوق ، ليس هو القول المسموع المتلو .

وقد يراد بالتلاوة ، والقراءة ، واللفظ ، المتلو ، المقروء ، المتلفظ به ، وهو المسموع ، وهذا هو كلام الله — تعالى — ليس بمخلوق .

(١) ممن يقول بذلك محمد بن داود المصيصى ، وأبو حاتم الرازى ، وأبو عبد الله بن حامد ، وأبو نصر السجزي ، وأبو عبد الله بن منده ، وأبو إسماعيل الهروي وأبو العلاء الهمداني ، وأبو الفرج المقدسى انظر مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٣٦١ .

وقد يراد مجموع الأمرين ، فلا يجوز إطلاق القول بأنه مخلوق ، ولا نفى الخلق عن الجميع^(١) .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

أى : ليس الأمر ، كما قال المكذبون لرسول الله ﷺ أن ما يقوله شعر ، أو كهانة ، أو أساطير الأولين اكتتبت ، ليس الأمر كذلك ، بل هو قرآن مجيد » قال البغوى : كريم ، شريف ، كثير الخير ، ليس كما زعم المشركون ، أنه شعر ، أو كهانة .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ نافع بالرفع ، على أنه نعت للقرآن ، فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير ، والتحريف ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وقرأ الباقون بالجر ، على أنه نعت للوح ، وهو الذى يعرف باللوحة المحفوظ ، وهو أم الكتاب ، ومنه تنسخ الكتب ، محفوظ من الشياطين ، ومن الزيادة فيه ، والنقصان^(٢) .

و « المجيد » الكريم ، واسع الخير ، كثير الصفات الحميدة .

قال ابن القيم : « المجد مستلزم للعظمة ، والسعة والجلال ، كما يدل عليه موضوعه فى اللغة ، فهو دال على صفات العظمة والجلال »^(٣) .

والقرآن عظيم ، واسع المعاني ، وكثير الخير ، وفيه الهدى والنور ، وهو جليل القدر ؛ إذ هو كلام رب العالمين .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٣٥٩ — ٣٧٤ ملخصا .

(٢) تفسير البغوى على هامش الخازن ج ٧ ص ٢٣٢ .

(٣) جلال الأفهام ص ٢١٦ .

قوله : « ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ » ، قال قتادة : مكتوب .

قال ابن كثير — رحمه الله — : « يقسم تعالى بمخلوقاته ، الدالة على قدرته العظيمة ، أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع له عنهم ، فالطور : هو الجبل ، الذى يكون فيه أشجار ، مثل الذى كلم الله عليه موسى ، وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر ، لا يسمى طورا ، وإنما يقال له جبل .

﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قال قتادة : مكتوب ، قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة ، التى تقرأ على الناس ، جهارًا ، ولهذا قال : ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾^(١) .

قال البخارى — رحمه الله — : « وقال إسحاق بن إبراهيم : فأما الأوعية ، فمن يشك فى خلقها ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ وقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ذكر أنه يحفظ ، ويسطر . قال : ﴿ وما يسطرون ﴾ .

ثم روى عن قتادة قال : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قال : المسطور . المكتوب ، ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ وهو الكتاب ، وروى عن مجاهد : ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ وصحف مكتوبة ، ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فى صحف^(٢) .

« قال أبو عبد الله : فأما المداد ، والرق ، ونحوه ، فإنه خلق ، كما أنك تكتب « الله » ، فالله فى ذاته هو الخالق ، وخطك واكتسابك من فعلك خلق ؛ لأن كل شيء ، دون الله ، صفة ، وهو خلق ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٠٣ .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٣ .

شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿١﴾ وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٢﴾
﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (١) .

قوله : « ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ . يَخْطُونَ » .

تفسير لقوله تعالى : ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ الظاهر أنه جنس القلم ، الذى يكتب به ،
كقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فهو قسم منه تعالى ،
وتبنيه لخلقه ، على ما أنعم به عليهم ، من تعليم الكتابة ، التى بها تنال العلوم .
ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى :
وما يكتبون ، وقال أبو الضحى : عن ابن عباس ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : وما
يعملون ، وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعنى : الملائكة ، وما تكتب
من عمل العباد (٢) .

قوله : « فى أم الكتاب ، جملة الكتاب وأصله » .

قال ابن كثير : « قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾
يبين شرفه ، فى الملاء الأعلى ، ليشرفه ويعظمه ، ويتبعه أهل الأرض ، فقال
تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ أى : اللوح المحفوظ ،
قاله ابن عباس ، ومجاهد ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى : عندنا ، قاله قتادة وغيره ،
﴿ لَعَلَىٰ ﴾ أى : ذو مكانة عظيمة ، وشرف ، وفضل ، قاله قتادة .

﴿ حَكِيمٍ ﴾ أى : محكم ، برىء من اللبس والزيغ ، وهذا كله ، تنبيه
على شرفه وفضله (٣) .

(١) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٣) المصدر المذكور ج ٧ ص ٢٠٥ .

« ما يلفظ من قول ، ما يتكلم من شيء إلا كتبت عليه ، وقال ابن عباس : يُكْتَبُ الخير والشر . »

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿^(١) . قال ابن كثير : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ * يعني : الملائكة ، أقرب إلى الإنسان ، من حبل وريده ، ومن تأويله على العلم ؛ فإنما فر لثلا يلزم حلول ، أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، كما قال في المختصر : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ * . يعني : ملائكته ، وكما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ * فالملائكة نزلت بالذكر ، وهو القرآن ، بإذن الله — عز وجل — وكذلك الملائكة ، أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله لهم على ذلك .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ * يعني : الملكين ، اللذين يكتبان عمل الإنسان . ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ * أى : واحد عن يمينه ، والآخر عن شماله ، مترصد لما يقوله أو يفعله .

﴿ مَا يَلْفِظُ ﴾ * أى : ابن آدم ﴿ مِنْ قَوْلٍ ﴾ * أى : ما يتكلم بكلمة ، « إلا لديه رقيب عتيد ﴾ * إلا ولها من يراقبها ، معتد لذلك فيكتبها ، ولا يترك له كلمة ، ولا حركة إلا كتبها «^(٢) .

وقول ابن عباس ، يفيد أنهما لا يكتبان إلا الحسنات والسيئات ، وظاهر

(١) الآيات من ١٦ — ١٨ من سورة ق .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٦ .

الآية أنهما يكتبان ، كل ما نطق به الإنسان أو عمله ، لأنه قال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ .

قال مجاهد : الذى يكتب الحسنات عن يمينه ، والذى يكتب السيئات عن شماله .

وقال أيضا : مع كل إنسان ملكان ، ملك عن يمينه ، وملك عن يساره .
قال : « فأما الذى عن يمينه ، فيكتب الخير ، وأما الذى عن يساره ، فيكتب الشر » .

وقال قتادة : تلا الحسن : ﴿ عَنِ الَّيْمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ فقال : يابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك ، فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك ، فيحفظ سيئاتك ، فاعمل بما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت ، طويت صحيفتك ، فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فيقال لك : ﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، عدل والله فيك من جعلك ، حسيب نفسك ^(١) .

« يجرِّفونَ » يُزِيلون ، وليس أحدٌ يزِيلُ لفظَ كتابٍ من كتب الله — عز وجل — ولكنَّهم يُحَرِّفونَه : يتأولونه عن غير تأويله .

قال الحافظ : « لم أر هذا موصولا من كلام ابن عباس ، من وجه ثابت ، مع أن الذى قبله ، من كلامه ، وكذا الذى بعده ، وهو قوله : « دراستهم : تلاوتهم » ، وما بعده ، وأخرج ذلك ابن أبى حاتم ، وتقدم فى باب قوله

(١) روى هذه الآثار ابن جرير فى تفسيره ج ٢٦ ص ١٥٩ .

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ عن ابن عباس ، ما يخالف ما ذكر هنا ، وهو تفسير ﴿ يُحَرِّفُونَ ﴾ بقوله : يزيلون .

وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن ، في قوله يحرفون الكلم عن مواضعه قال : يقلبون ويغيرون .

وقال الراغب : « التحريف : الإمالة ، وتحريف الكلام : أن يجعله ، على حرف من الاحتمال ، بحيث يمكن حمله على وجهين ، فأكثر »^(١) .

وقال : « صرح كثير من أصحابنا ، بأن اليهود ، والنصارى بدلوا التوراة ، والإنجيل .

وذكر بعض الشراح ، أن في هذه المسألة ، أربعة أقوال :

أحدها : أنها بدلت كلها ، وينبغي حمل هذا الإطلاق على أكثرها ؛ لأن الآيات والأخبار الكثيرة ، تدل على بقاء شيء منها لم يبدل ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾^(٢) ، ومنه قصة رجم اليهوديين ، وفيها وجود آية الرجم ، في التوراة ، ويؤيد ذلك ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الثاني : أن التبديل وقع في معظمها ، وأدلة ذلك كثيرة ، وينبغي حمل القول الأول عليه .

الثالث : وقع التبديل في اليسير منهما ، ومعظمهما باق على حاله ، قال : ونصره الشيخ تقي الدين ابن تيمية في الجواب الصحيح .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٢٣ .

(٢) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

الرابع : « إنما وقع التبديل والتغيير ، فى المعانى ، لا فى الألفاظ ، وهو ما ذكره البخارى هنا »^(١) .

والصحيح ، أن التبديل والتحريف ، وقع فى كثير من ألفاظهما ومعانيهما ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾^(٣) .

قال شيخ الإسلام : « علماء المسلمين ، وعلماء أهل الكتاب ، متفقون على وقوع التحريف ، فى معانى وتفسير الكتب السابقة ، وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هى التى حرقت المعانى .

وأما ألفاظ الكتب ، فقد ذهب طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظهما لم تبدل ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب .

وذهب كثير من علماء المسلمين ، وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها .

وهذا هو المشهور عن كثير من علماء المسلمين ، وقاله أيضا كثير من علماء أهل الكتاب ، حتى فى صلب المسيح ، ذهب طائفة من النصارى إلى أنه لم يصلب ، وإنما صلب الذى شبه بالمسيح ، كما أخبر به القرآن فإنه لما ألقى شبهه على المصلوب ، ظنوا أنه هو المسيح ، أو تعمدوا الكذب .

ثم هؤلاء ، منهم : الذين يقولون : إن فى ألفاظ الكتب ما هو مبدل .

(١) الفتح بتصرف جـ ١٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٤٦ من سورة النساء ، والآية ١٣ من سورة المائدة .

ومنهم : من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثيرا منهما ، وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما ، لاسيما الإنجيل ، فإن الطعن فيه أكثر ، وأظهر منه في التوراة .

ومن هؤلاء ، من يسرف ، حتى يقول : إنه لا حرمة لشيء منهما ، بل يجوز الاستنجااء بهما .

ومنهم من يقول : الذى بدلت ألفاظه ، قليل منهما ، وهذا أظهر ، والتبديل في الإنجيل أظهر ، بل كثير من الناس يقول : هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله ، إلا القليل ، والإنجيل الذى هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل .

والصحيح ، أن هذه التوراة ، والإنجيل ، الذى بأيدي أهل الكتاب ، فيه ما هو حكم الله ، وإن كان قد بدل ، وغير بعض ألفاظهما ، لقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾^(١) فعلم ، أن التوراة التى كانت موجودة ، بعد خراب بيت المقدس ، بعد مجيء بختنصر ، وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فيها حكم الله .

والتوراة التى كانت عند يهود المدينة ، على عهد رسول الله ﷺ وإن قيل : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك ، فإن هذا غير معلوم لنا ، وهو متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ ، وإشاعة ذلك عند الاتباع ، حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير ، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب ، وإنما تختلف في اليسير من ألفاظها .

(١) الآيات ٤١ — ٤٣ من سورة المائدة .

فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ ، بعد مبعث الرسول ﷺ ممكن ، لا يمكن
أحدًا أن يجزم بنفيه ، ولا يقدر أحد من اليهود ، والنصارى أن يشهد بأن
كل نسخة في العالم من الكتابين ، متفقة الألفاظ ؛ إذ لا سبيل إلى علم ذلك .
وذلك أن اليهود قبل مبعث النبي ﷺ وعلى عهده ، وبعده ، منتشرون
في مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة .

وكذلك النصارى ، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها ، ولو
كان هذا ممكنا ، وواقعا ، لكان من الوقائع العظيمة ، التي تتوافر الدواعى على
نقلها .

ومثل التوراة ، الإنجيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِيُحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزِلَ
اللَّهُ فِيهِ ﴾^(١) فعلم ، أن في الإنجيل حكما ، أنزله الله — تعالى — لكن الحكم
من باب الأمر والنهى ، ولا يمتنع أن يكون التغيير والتبديل في باب الإخبار ،
وهو الذى وقع فيه التبديل لفظا .

وأما الأحكام التى فى التوراة ، فما يكاد أحد يدعى التبديل فى
ألفاظها^(٢) .

وبهذا يتبين ، أن ما ذكره البخارى — رحمه الله — أحد أقوال العلماء ،
وهو أن ألفاظ كتب الله السابقة للقرآن ، لم تغير ولم تبدل ، وإنما حرفت
معانيها ، وأولت على غير تأويلها ، فيكون معنى التحريف ، الذى ذكره الله
— تعالى — عنهم : هو تحريف المعانى ، وصرفها عن مراد الله بها ، إلى
ما تهوى نفوسهم ، وما يريدون حسب رغباتهم .

(١) الآية ٤٧ من سورة المائدة .

(٢) الجواب الصحيح ج ١ ص ٣٧٩ — ٣٨١ .

ولكن يبقى أن يقال : هل التوراة التي بأيدي اليهود ، والنصارى ، هي التي أنزل الله على موسى وعيسى ، لم يذهب منهما شيء ، ولم يزد عليهما شيء ؟ هذا الذي لا يستطيع أحد أن يجزم به ، فالصحيح ، أنه حصل في ألفاظهما التبديل والتغيير ، وأن بعض ألفاظها أزيل ، ووضع بدله غيره ، لا كما يقول البخارى — رحمه الله — .

فإن كانت التوراة هذه « الموجودة اليوم بأيدي الناس ، فلا شك في تغيير وتبديل بعض ألفاظها حسب الترجمة العربية .

فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر ، من سفر التكوين ، من التوراة ، قوله : « صعد لوط من زغر ، وسكن في الجبل ، وابتناه معه إذ خاف من المقام في زغر ، وسكن في مغارة هو وابتناه معه ، فقالت الكبيرة للصغيرة : أبونا شيخ ، وإنسان ، ليس في الأرض للدخول علينا كسبيل كل الأرض . تعالى نسقى أبانا خمرا وننضج معه ، ونبقى من أيننا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة »^(١) إلى آخر الكلام ، وهو باطل قطعاً ، وقد نزه الله نبيه لوطاً — عليه السلام — أن يقع على ابنتيه ، فتحبلان منه ، وإنما هذا من وضع اليهود أعداء الله تعالى .

فقوله : « وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله — عز وجل — » غير مسلم ، بل بدل بعض ألفاظها ، كما سبق في كلام شيخ الإسلام أنه الصحيح .

« قال الزركشى : اغتر بعض المتأخرين ، بما قاله البخارى ، فقال : إن في تحريف التوراة خلافاً ، هل هو في اللفظ والمعنى ، أو في المعنى فقط ، ومال إلى الثانى ، ورأى جواز مطالعتها ، وهو قول باطل ، ولا خلاف أنهم حرفوا ، وبدلوا .

(١) انظر التوراة السامرية ص ٥٩ .

والاشتغال بنظرها ، وكتابتها ، لا يجوز بالإجماع ، وقد غضب النبي ﷺ حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة ، وقال : « لو كان موسى حيا ، ما وسعه إلا اتباعي » ولولا أنه معصية ما غضب .

ونظراً الحافظ بهذا الكلام ، وقال : « الظاهر ، أنه مكروه كراهة تنزيه ، وقال : الأولى ، التفرقة بين من لم يتمكن ، ويصر من الراسخين من الإيمان ، فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك ، بخلاف الراسخين ، فيجوز لهم ، ولاسيما عند الاحتجاج ، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديما وحديثا من التوراة »^(١) .

وتحريف معانيها وتفسيرها بغير المراد ، فهذا ظاهر جدا ، ولا ينبغي أن يكون فيه خلاف ، وكثير من آيات القرآن صريحة في هذا ، وهو مراد البخارى بقوله : « ولكنهم يحرفونه : ويتأولونه عن غير تأويله » أى : يحرفون معانيه ، ويفسرونه بما لم يرد المتكلم ، اتباعا لأهوائهم .

قال ابن القيم : « التأويل : تفعيل من آل يؤول إلى كذا ، إذا صار إليه ، فالتأويل التصيير ، وأولته تأويلا ، إذا صيرته إليه »^(٢) .

وتسمى عاقبة الشيء تأويلا ؛ لأن الأمر يصير إليها ، وكذلك حقيقة الشيء المخبر به ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾^(٣) .

وعند المتأخرين ، التأويل : هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه ، إلى ما هو أخفى منه ، لدليل يقترن بذلك ، والدليل قد يكون عقليا ، وقد

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٢٥ .

(٢) انظر الصواعق ج ١ ص ٧٧ .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

يكون شرعياً ، ويسمى التفسير تأويلاً .

قوله : « دراستهم : تلاوتهم » .

قال الحافظ : وصله ابن أبي حاتم ، من طريق علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس^(١) .

وهذا جزء من قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾^(٢) .

وفى اللسان : « درست الكتاب ، أدرسه ، درسا أى : ذلته بكثرة القراءة حتى خف حفظه على »^(٣) ، والمقصود أن الدراسة هى التلاوة ، وهى فعل التالى .

قوله : « واعية : حافظة » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَعَا أَلْمَاءُ حَمَلْنَكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ والجارية ، هى السفينة ، التى صنعها نبي الله نوح عليه السلام وهو أبو البشر الثانى ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ ، فتكون السفينة ، تذكرة لما وقع لقوم نوح ، لما عصوا رسولهم ، فيتعد المتذكر عن معصية الله ؛ لئلا يصيبه ما أصابهم ، وهذه العظة والتذكرة تعيها الأذن الواعية ، المتيقظة ، المتنبية .

ومراده ، أن الحفظ والنهم فعل العبد الذى يقرأ ويحفظ ، ويفهم .
قوله : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به : يعنى أهل مكة ومن بلغ هذا القرآن ، فهو له نذير » .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٢٥ .

(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأنعام .

(٣) لسان العرب ج ١ ص ٩٦٨ .

الوحي من الله — تعالى — وهو الإعلام بخفية ، والإنذار فعل الرسول ﷺ ، وإنذاره بالقرآن ، أن يقرأه على الناس ، وقراءته هي فعله ، وهو وفعله مخلوق ، وهذا وجه الاستدلال من الآية .

« ومن بلغ » أى : من بلغه هذا القرآن ، فهو له نذير ، والذي يبلغه ، يسمعه من المبلغ له بصوت ذلك المبلغ ، والصوت من فعل المبلغ ، وهو مخلوق ، والقرآن المبلغ بالصوت كلام الله تعالى غير مخلوق .

وقد أكثر البخارى — رحمه الله — من الاستدلال لهذه المسألة ، لأنه قد بلى بمن يقول : القراءة هي المقروء ، ونسب إليه ، أنه يقول : لفظى بالقرآن مخلوق .

وهو برىء من ذلك .

قال الحافظ : « هذا الذى ذكره البخارى ، هو قول ابن عباس ، رواه ابن أبى حاتم عنه ، وقال أخرج ابن أبى حاتم فى كتاب الرد على الجهمية ، عن عبد الله بن داود الخرسى قال : ما فى القرآن آية أشد على أصحاب جهم من هذه الآية ﴿ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ . فمن بلغه القرآن ، فكأنما سمعه من الله تعالى » (١) .

١٧٤ — قال : « وقال لى خليفة بن خياط : حدثنا معتمر ، سمعت أبى ، عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده ، غلبت — أو قال : سبقت رحمتى غضبى ، فهو عنده فوق العرش » .

« حدثنى محمد بن أبى غالب ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٢٦ .

معتمر ، سمعت أبي يقول : حدثنا قتادة ، أن أبا رافع حدثه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي ، فهو مكتوب عنده فوق العرش .

الكتابة ، هي إثبات الكلام المكتوب ، في محل الكتابة ، والله سبحانه ، كتب ذلك الكتاب في شيء تثبت فيه الكتابة ، وبثبت الكلام في ذلك الشيء بالكتابة ، سواء كان اللوح المحفوظ أو غيره ، فالمقصود إثبات الكتابة للكلام ، وأن كون الكلام في الكتاب ، ليس ككون الماء في الإناء ، والعرض بالجواهر ، والرجل في البيت ، بل هو قسم غير هذا ، وهو معقول يدركه الناس ، ويفهمون معنى كون الكلام في الكتاب ، وهذا الحديث تقدم شرحه ، وغرضه من الطريق الأخرى ، تصریح أبي رافع ، وقتادة بالتحديث ، فيزول احتمال التدليس .

وقوله : « قبل أن يخلق الخلق » لا يعارض قوله في الرواية قبلها « لما قضى » لأنه يجوز أن يراد بالخلق ، التقدير والفراغ منه ، وهو غير الإيجاد ، ومعلوم أن خلق الله تعالى لا نهاية له .

وتبين ، أن مقصود البخارى — رحمه الله — بهذا الباب ، أن يبين معنى كون القرآن في المصحف ؛ أنه مكتوب مسطور فيه ، مثل ما أن اسم الله في المصحف ، فإن القرآن كلام الله ، والكلام يقوم بالمتكلم صفة له ، قال شيخ الإسلام : ليس معنى قول السلف : القرآن كلام الله ، منه بدأ ، ومنه خرج ، أنه فارق ذاته ، وحل في غيره ، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به ، لا يفارق ذاته ، ويحل بغيره ، فكيف يكون كلام الله ؟ قال تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

فقد أخبر ، أن الكلمة تخرج من أفواههم ، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم^(١) .

فالقرآن كلام الله ، ويحفظ في القلوب ، كما يحفظ الكلام ، ومذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة ، وهو مكتوب في المصحف ، والأوراق ، كما أن الكلام يكتب في الكتاب والورق .

والكلام هو مجموع اللفظ والمعنى ، فاللفظ يطابق المعنى ويدل عليه .

ولا يجوز أن يقال : إن القرآن محفوظ ، كما أن الله معلوم ، وهو متلو ، كما أن الله مذكور ، ومكتوب ، كما أن الرسول مكتوب ، فهذا خطأ ، وضلال .

فليس وجود الأعيان القائمة بأنفسها ، كوجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها ، والفرق ظاهر بين قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ ﴾ فإن القرآن ، لم ينزل على نبي قبل محمد ﷺ وإنما الذى فى زبر الأولين ذكره ، والخبر عنه ، كما أن محمدا ﷺ مكتوب عندهم فى التوراة ، والإنجيل فالله ورسوله معلوم بالقلوب ، مذكور بالألسنة مكتوب فى المصحف ، كما أن القرآن معلوم لأهل الكتاب قبلنا ، مكتوب عندهم ، وذلك ذكره والخبر عنه .

ولكن الذى فى المصحف عندنا ، هو نفس القرآن .

ولهذا يجب أن يفرق بين قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فإن كون الأعمال

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٥١٧ - ٥١٨ .

في الزبر ، مثل كون القرآن ، والرسول محمد ﷺ في زبر الأولين .
وأما الكتاب المسطور في الرق المنشور ، فهو كما يكتب الكلام نفسه في
الكتاب .

فأين هذا من هذا ؟

وذلك أن كل شيء ، له في الوجود أربع مراتب ، وجود في الأعيان ،
ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في الكتاب .

والكلام وجوده في اللسان ، وليس بينه وبين الخلق المكتوب فيه ، مرتبة
أخرى ، بل نفس الكلام يثبت في الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ
كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ
مَّحْفُوظٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ وقال
تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مَّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ
مُّطَهَّرَةٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ .

وليس في المصحف من الأعيان إلا ذكرها ، ووصفها ، والخبر عنها .

والكلام في الكتاب ، ليس هو فيه ، كما تكون الصفة بالموصوف ، والعرض
بالجوهر والجسم بالمكان ، وما هو بمنزلة الدليل على المدلول ، كالخلق الدال
على الخالق . بل هو قسم آخر ، معقول بنفسه ، والناس بفطرتهم ، يفهمون
معنى كون كلام الله في المصحف ، وأن كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ،
ويحل في غيره ، ويعلمون أن الذي في المصحف ، ليس مجرد دليل ، على معنى
قائم في نفس الله ، بل الذي في المصحف كلام الله ، مطابق للفظه ، ولفظه .
مطابق لمعناه ، ومعناه مطابق لما في الخارج ، وهو كلام الله حقيقة لا مجازا .

وهذه مسألة عظيمة ، ضل فيها طوائف من الناس ، والبخارى رحمه الله
من ابتلى فيها بمن لم يفهم الحق فيها ؛ فارتكب شططا ، ونسب البخارى فيها

إلى الباطل ، ولهذا أكثر من البيان لها كما سبق ، ومنشأ الاختلاف فيها ، يعود إلى أصليين^(١) :

أحدهما : مسألة تكلم الله تعالى بالقرآن ، وغيره .

والثاني : تكلم العباد بكلام الله ، وقد حاولت بيان الحق ، في كلا المسألتين فيما سبق ، قدر ما أوتيت من بيان ، والله المستعان .

قال : باب قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يريد رحمه الله بهذا الباب بيان أن الله — تعالى — هو الخالق لكل شيء ، وحده لا شريك له في ذلك ، فيدخل فيه ، أعمال العباد وأفعالهم ، والآية نص فيه ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سواء كانت « ما » موصولة أو مصدرية ، فعلى التقديرين ، فالآية دالة على أن أفعال العباد مخلوقة ؛ لأن آلتهم التي يعبدونها صارت على شكل معين ، وهيئة خاصة بعملهم وصنعهم .

وقد أطالوا الكلام في إعراب « ما » في هذه الآية ، وادعى بعضهم إجماع أهل السنة على أنها مصدرية ، وشنعوا على المعتزلة ، في دعواهم : أنها موصولة ، ظانين أنها إذا كانت موصولة ، صارت دليلا على أن العباد يخلقون أفعالهم .

والصواب ، أنها موصولة ، وأنها لا تدل على أن العباد يخلقون أفعالهم ، كما زعم القدرية من المعتزلة .

قال الإمام ابن جرير : « وفي قوله : « وما تعملون » وجهان : أحدهما : أن يكون « ما » بمعنى المصدر ، فيكون معنى الكلام حينئذ : والله خلقكم وعملكم .

(١) لخصت هذا الفصل من المجلد الثاني عشر من مجموع الفتاوى .

والآخر : أن يكون بمعنى « الذى » ، فيكون معنى الكلام حينئذ : والله خلقكم والذى تعملونه . وذكر عن قتادة أنه قال : والله خلقكم وما تعملون بأيديكم^(١) فهذا يدل على أنها موصولة عنده .

وقال شيخ الإسلام : قال الله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ « فما » بمعنى « الذى » ، ومن جعلها مصدرية ، فقد غلط ، ولكن إذ خلق [الله] المنحوت ، كما خلق المصنوع ، والملبوس ، والمبنى ، دل على أنه خالق كل صانع وصنعه^(٢) .

والمعنى ، أن الآية فيها التصريح ، بأن أصنامهم من مخلوقات الله ، وإن كان شكلها ، ووضعها ، على صفة معينة من صنعهم ، فإن الله هو الذى أقدرهم على ذلك ، ويسر لهم أسبابه ، ولهذا أخبر تعالى بأنه هو الذى خلق الفلك ، وهى مصنوعة لبني آدم . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴾^(٤) وهذه كلها مصنوعة لبني آدم ، وهذا يبين وجه دلالة الآية ، المترجم بها ، على أن الله هو خالق أفعال بني آدم ، فهم وأفعالهم من خلق الله تعالى . وإن كانت « ما » فى الآية موصولة ، فلا داعى للتعسف والتكلف لجعلها مصدرية ، حتى لا يكون فيها متعلق ، للقدرية المعتزلة ، القائلين بأن العبد يخلق فعله بنفسه ، فهذا قول ظاهر البطلان ، وكل باطل لا يؤيده كتاب الله تعالى ، بل يدل على بطلانه .

(١) تفسير الطبرى ج ٢٣ ص ٧٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٨٩ .

(٣) الآية ٤٢ من سورة يس .

(٤) الآية ٨٠ من سورة النحل .

فقد ضل من أخرج أفعال العباد عن مخلوقات الله تعالى كما ضل من قابلهم ،
وقال : إن العباد مجبورون على أعمالهم ، فلا اختيار لهم ولا قدرة .

والحق وسط بين هاتين الضلالتين . وهو أن الله تعالى خلق العباد ، وخلق لهم قدرة ، واختيارا بهما يفعلون ما يريدون فعله ، ويتركون ما يريدون تركه .
وسبب الضلال في هذه المسألة ، عدم التفريق بين خلق الله ومخلوقه .

« فخلق الله صفته التي يخلق بها الخلق . وأما مخلوقه فهو أثر الصفة ، وهو مفعوله ، وخلق الله — تعالى — لمخلوقاته ، ليس هو نفس مخلوقاته ، بل خلقه فعله المتصف به ، ومخلوقاته مفعولاته التي يفعلها ويوجدتها إذا شاء ، وأفعال العباد مخلوقة له تعالى كسائر المخلوقات ، ومن جملة مفعولاته ، وليست هي نفس فعل الرب ، بل هي نفس فعل العبد ، فالكذب والظلم ، ونحوهما من القبائح ، يتصف بها من كانت فعلا له ، قائمة به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له ؛ لأنه — تعالى — جعلها صفة لغيره ، كما أنه — تعالى — لا يتصف بما خلقه في غيره ، من الطعوم ، والألوان ، والروائح ، والأشكال ، وغير ذلك .

فإذا خلق الإنسان أبيض ، أو أسود ، لم يكن ذلك اللون وصفا له ، وكذلك إذا خلق هذا الشيء مرًا ، أو حلواً ، أو على صورة قبيحة مذمومة ، لم يكن تعالى متصفاً بذلك ، بل المتصف بها من قامت به وفعلها^(١) .

وقال أيضا : « القرآن دل على أن مفعولات العباد ، الخارجة عن أنفسهم ، مصنوعة لهم ، وما كان مصنوعا لهم ، فهو من فعلهم ، ومقدورهم بالضرورة ، والاتفاق .

(١) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ١٢٣ بتصرف .

قال الله تعالى : لنوح عليه السلام : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾^(٢) ، وقد أخبر — تعالى — أن الفلك مخلوقة من مخلوقاته ، مع كونها مصنوعة لبني آدم ، وجعلها من آياته ، فقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَّا تَرْكَبُونَ ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . فجعل الأصنام معمولة لهم ، وأخبر أنه خالقهم ، وخالق معمولهم ، فإن « ما » هنا بمعنى الذى ، والمراد ، خلق ما يعملونه من الأصنام ، وإذا كان خالقا للمعمول ، وفيه أثر فعلهم ، دل على أنه خالق لأفعال العباد .

وأما قول من قال : إن « ما » مصدرية فضعيف جدا^(٦) .

وفى قوله تعالى : ﴿ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تنبيه لعباد الأصنام ، على فساد ما صاروا إليه من عبادتها ، مع نحتهم إياها بأيديهم ، فكيف تعبدون أصناما تعملونها بأيديكم ؟ والله خالقكم وما تعملونه ، فأوجدكم ، بعد أن لم تكونوا شيئا ، وخلق لكم ما تصلح به حياتكم ، وخلق ما تحتونه ، فهو الخالق لكل شيء ، فالواجب عليكم أن تعبدوه ، وحده لا شريك له ، فهو المتفرد بالخلق ، والمالك لكل شيء ، فمن

(١) الآية ٣٧ من سورة هود عليه السلام .

(٢) الآية ٣٨ من سورة هود عليه السلام .

(٣) الآية ٤١ من سورة يس .

(٤) الآية ٦٥ من سورة الحج .

(٥) الآية ١٢ من سورة الزخرف .

(٦) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ١٦ — ١٧ .

السفاهة ، أن تعبدوا تلك الصور ، التي نحتموها بأيديكم ، ثم سميتوها كذبا
وبهتاناً آلهة ، وقد علمتم ، أنها ما صارت صوراً ، إلا بنحتكم إياها وعملكم ،
والله هو الذى أقدركم على عملها ، ومكنكم من ذلك ، فهو الخالق لكم ولما
تعملونه بأيديكم .

قال ابن القيم : ما المصدرية وما الموصولة ، يتعاقبان غالباً ، ويصلح أحدهما
فى الموضع الذى يصلح فيه الآخر ، وربما احتملها كلام واحد ، ولا يميز
بينهما إلا بنظر وتأمل ، فإذا قلت : يعجبني ما صنعت ، فهى صالحة لأن
تكون مصدرية ، أو موصولة ، وكذلك : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾
﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فتأمله تجده كذلك .

وللدخول إحداهما على الأخرى ؛ ظن كثير من الناس ؛ أن قوله تعالى :
﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنها مصدرية ، واحتجوا بها على خلق
الأعمال ، وليست مصدرية ، وإنما هى موصولة .

والمعنى : والله خلقكم ، وخلق الذى تعملونه ، وتحتونه من الأصنام ،
فكيف تعبدونها ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ؟

ولو كانت مصدرية ، لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم^(١) أقرب من
أن يكون حجة عليهم ؛ إذ يكون المعنى : أتعبدون ما تحتون ، والله خلقكم
وخلق عبادتكم لها ، فأى معنى فى هذا ؟ وأى حجة عليهم؟^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

يخبر تعالى عباده ، أن كل شئ خلقه ، وحده لا شريك له ، فلا خالق

(١) أى : القدرة الذين ينكرون خلق الله لأفعال العباد .

(٢) بدائع الفوائد ج ١ ص ١٦٢ .

غيره ، وأنه خلقه ، بقدر قدره وقضاه ، فلا يتعداه ولا يقصر دونه ، فيدخل في هذا العموم أفعال العباد ، فهي داخله في خلقه وتقديره .

قال ابن جرير : « يقول — تعالى ذكره — إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه ، وفي هذا بيان ، أن الله — جل ثناؤه — توعد هؤلاء المجرمين ، على تكذيبهم بالقدر ، مع كفرهم به . ثم روى عن ابن عباس أنه كان يقول : إني أجد في كتاب الله قوما يسحبون في النار على وجوههم ، يقال لهم : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ؛ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر ، وإني لا أراهم ، فلا أدري ، أ شيء كان قبلنا ، أم شيء فيما بقى ؟^(١) .

وذكر آثارا بهذا المعنى .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ وكقوله : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ أى قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة ، أئمة السنة على إثبات قدر الله ، السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية ، وبما شاكلها من الآيات ، وماورد في معناها ، من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدريّة ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة^(٢) ثم ذكر جملة من الأحاديث المثبتة للقدر ، والتي فيها وعيد من أنكروه .

قوله : « ويقال للمصوّرين : أحيوا ما خلقتم » .

يقال لهم ذلك يوم القيامة ، تبكيها وتعذيبها لهم ، بتكليفهم ما لا يقدرّون عليه ، حيث كانوا في الدنيا ، يضاؤون الله فيما يختص به ، وهو الخلق

(١) تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ١١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٢ .

والتصوير — وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

المقصود من الآية هنا ، التفرقة بين الخلق والأمر ، فإن الخلق هو أثر الأمر ، الكائن به الخلق ، فإن الله — تعالى — إذا أراد شيئا ، قال له كن ، فيكون ، فالقول وصفه — تعالى — والخلق الذى هو المخلوق مفعوله المكون المخلوق الموجد بالقول ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ فعطف الأمر على الخلق ؛ لأنه غيره ، وهو — تعالى — مختص بذلك وحده ، فلا أحد يشاركه فيهما ، وكلاهما عام شامل ، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق ، ومن ذلك أفعال العباد .

وأمره — تعالى — يتناول الأمر القدرى ، والأمر الدينى الشرعى .

قال ابن كثير — رحمه الله تعالى — « يخبر — تعالى — بأنه خلق هذا العالم : سمواته ، وأرضه ، وما بين ذلك ، فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن .

والستة الأيام هى : الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم .

قوله : ﴿ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أى : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، أى : سريعا ، لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا^(١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٢ .

فالليل بأثر النهار ، والنهار يطرد الليل دائما ، حتى يأذن الله بانقضاء هذا العالم ، وهناك يبدأ اختلال توازنه ، بطلوع الشمس من مغربها .

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : أنها مخلوقة لله ، مقهورة مسخرة ، لا تخالف أمر خالقها ، الذى سخرها لكم ، فاعبدوه ، فإنه هو المستحق للعبادة دون سواه ، وهو الذى له الخلق والأمر وحده .

﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن الأنبارى : « تبارك » فيه قولان : أحدهما : أن معناه : تقدس ، أى تطهر ، والقدس عند العرب : الطهر ، والماء المقدس : هو الماء المطهر ، والقدوس : الذى طهر من الأولاد ، والشركاء ، والصاحبة .

والثانى : تفاعل من البركة ، أى : البركة تكتسب ، وتنال بذكر اسمه تعالى^(١) .

وقال الأزهرى : « أخبرنى المنذرى ، عن أبى العباس ، أنه سئل عن تفسير ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ فقال : ارتفع ، والمتبارك المرتفع .

وقال الزجاج : تبارك : تفاعل من البركة ، كذلك يقول أهل اللغة .
وقال : تبارك : تعالى وتعظيم . وقال ابن الأنبارى : تبارك الله ، أى : يتبرك باسمه فى كل أمر . ومعنى تبارك : تقدس ، أى : تطهر ، والمقدس : المطهر .

وقال الليث : تبارك : تمجيد وتعظيم^(٢) .

وهذه الأقوال متقاربة ، وكلها حق ، يدل عليها هذا اللفظ ، فهو — تعالى — عال على خلقه ، فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وهو القدوس المنتزه عن كل عيب ، أو نقص يلحق خلقه ، أو لا يليق بعظمته ، وكبريائه ،

(١) الزاهر ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) تهذيب اللغة ج ١٠ ص ٢٣٠ .

وهو الذى يبارك على ما يشاء من خلقه ، فيجعله مباركا ، وبذكر اسمه يكثر الخير ، وتحل البركة ، وهو أهل المجد والتعظيم .

قوله : « قال ابن عيينة : بين الله الخلق من الأمر ، بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ .

قال الحافظ : « روى هذا الأثر ابن أبى حاتم ، موصولا ، فى الرد على الجهمية .

ولفظه : قال : كنا عند سفيان بن عيينة ، فقال : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ فالخلق : هو المخلوقات ، والأمر : هو الكلام .

وفى رواية من طريق حماد بن نعيم : « سمعت سفيان بن عيينة ، وسئل عن القرآن : مخلوق هو ؟ فقال : يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ألا ترى كيف فرق بين الخلق ، والأمر ، فالأمر : كلامه ، فلو كان كلامه مخلوقا لم يفرق »^(١) .

وقال البخارى : « والقرآن كلام الله غير مخلوق لقول الله — تعالى — : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ فبين أن الخلاق ، والطلب الحثيث ، والمسخرات بأمره ، ثم شرح فقال : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال ابن عيينة : قد بين الله الخلق من الأمر ، بقوله : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ، فالخلق بأمره ، كقوله : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾^(٢) وكقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٣) .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٢ — ٥٣٣ .

(٢) الآية ٤ من سورة الروم .

(٣) الآية ٨٢ من سورة يس .

وكقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ (١) ، ولم يقل بخلقه (٢) .

والأدلة كثيرة ، في التفرقة بين الخلق والأمر ، والمخلوقات وجدت بالأمر ، كما أشار إلى ذلك الإمام البخارى ، بما استدل به من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . فبين أن تكوين الأشياء وإيجادها ، بقوله ﴿ كُنْ ﴾ ، وأنه يوجد عقب قوله ﴿ كُنْ ﴾ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ . فالسما والارض ، مخلوقات بأمره ، الذى هو قوله لها « كوني » ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٣) ، وكل شىء غير الله ، مخلوق بقوله — تعالى — ومن ذلك أفعال العباد ، فمن أخرج أفعال العباد من خلق الله ، فقد ضل وأشرك فى ربوبية الله تعالى .

قال عبد العزيز الكنانى : « قال الله — تعالى — ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤) ، وقال سبحانه : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥) فدل — عز وجل — بهذه الأخبار ، وأشباهاها فى القرآن كثيرة ، على أن كلامه ، ليس كالأشياء ، وأنه غير الأشياء ، وأنه خارج عن الأشياء ، وأنه يكون الأشياء ، ثم أنزل — عز وجل — خبرا مفردا ، ذكر فيه خلق الأشياء كلها ، فلم يدع منها شيئا ، إلا ذكره ، وأدخله فى خلقه ،

(١) الآية ٥٢ من سورة الروم .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٣٧ — ٣٨ .

(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٤) الآية ٤٠ من سورة النحل .

(٥) الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق ، وفصله منها ، ليدل على أن كلامه غير الأشياء المخلوقة ، وخارج عنها ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الآية .

فجمع في قوله ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ ﴾ جميع ما خلق ، فلم يدع شيئا ، ثم قال : ﴿ وَالْأَمْرُ ﴾ . يعني : والأمر ، الذى كان به الخلق خلقا ، فرقا بين خلقه ، وأمره ، فجعل الخلق خلقا ، والأمر أمرا ، وجعل هذا غير هذا ^(١) .

قوله : « وسمى النبي ﷺ الإيمان عملا » .

يعنى ، في جوابه ﷺ السائل : « أى الأعمال أفضل ؟ » فقال : « إيمان بالله » كما سيأتى ، فالإيمان ، هو عمل القلب وتصديقه ، وقول اللسان ، والعمل بالبدن التابع لذلك من الصلاة ، والحج ، والصوم ، والجهاد في سبيل الله ، وامتنال أوامر الله — تعالى — والانتهاى عما نهى عنه ، فهذا كله هو الإيمان بالله ، وهو عمل الجوارح الباطنة والظاهرة .

قال في خلق أفعال العباد : « وقال النبي ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان قال : « تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله » . قال : « فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ » قال : « نعم » . ثم قال : « ما الإسلام ؟ » قال : « تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » فذكره قال : « إذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ » قال : « نعم » .

فسمى الإيمان والإسلام ، والشهادة ، والإحسان ، والصلاة بقراءتها ، وما فيها ، من حركات الركوع والسجود ، فعلا للعبد ^(٢) .

(١) الحيدة ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) ص ٦٠ .

وقال في الصحيح : « باب من قال : إن الإيمان هو العمل ، لقول الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْتَنَّهُمُ الْجَمْعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم ذكر حديث أبي هريرة الآتي .

وإطلاق العمل على الإيمان ، وكون الإيمان يشمل التصديق ، والقول ، والعمل ، الأدلة عليه كثيرة ، وكلام السلف فيه كثير واضح ، والخلاف فيه واقع من أهل البدع ، كالمرجئة من الجهمية وغيرهم .

قال : « قال أبو ذر ، وأبو هريرة : « سئل النبي ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ » قال : « إيمان بالله ، وجهاد في سبيله » .

ذكر حديث أبي هريرة ، موصولا في كتاب الإيمان^(١) ، وفي كتاب الحج بأتم مما هنا ، وذكر حديث أبي ذر في العتق ، ولفظه : « سألت النبي ﷺ أى العمل أفضل ؟ » قال : « إيمان بالله ، وجهاد في سبيله » ، قلت : « فأى الرقاب أفضل ؟ » قال : « أغلاها ثمنا » . وهو صريح ، في أن الإيمان يسمى عملا ، لأنه صادر من العبد ، وعمل العبد مخلوق ، وهذا هو مراد البخارى ، وقد تقدم مرارا ، الفرق بين عمل العبد ، وكلام الله تعالى إذا قرأه العباد .

ولا يدل عطف الجهاد على الإيمان ، أن الجهاد ليس منه ، بل الأعمال الصالحة ، المعطوفة على الإيمان ، داخلة فيه ، وعطفها عليه ، إما من عطف الخاص على العام ، أو لأن الأعمال لازمة للإيمان ، فإذا لم يأت بها العبد ، دل ذلك على أنه ليس عنده إيمان ، لأن انتفاء اللازم ، يقتضى انتفاء الملزوم . ولذلك صارت الأعمال ، في عرف الشرع ، داخلة في اسم الإيمان .

(١) انظر كتاب الإيمان من الصحيح ج ١ ص ١٨ .

وأيضاً فعطف الأعمال على الإيمان ، لرفع توهم أن مجرد الإيمان ، بدون الأعمال اللازمة له ، يوجب الثواب الموعود به في الآخرة ، وهو الجنة بلا عذاب ، فعطفت عليه تخصيصاً ، وتنصيماً ، ليعلم ذلك . هذا هو قول أهل السنة ، وهو الذى دلت عليه نصوص كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ .

بقى أن يقال : إذا كان الإيمان من عمل العباد ، وأعمال العباد مخلوقة ، كما تبين لنا ، فهل الإيمان مخلوق ؟

فالجواب : أنه لا بد من التفصيل ، والبيان فى ذلك ؛ لأن هذا السؤال فيه إجمال وإيهام ، فإن أريد بالإيمان ، أعمال العباد ، وتصديقاتهم ، فأعمال العباد كلها مخلوقة .

وإن أُريد بالإيمان ، شىء من صفات الله وكلامه ، وشرعه الذى هو أمره ونهيه ، ووعدته ، ووعيده ، وقدره الذى هو علمه ومشيتته وكلامه ، فهو غير مخلوق .

وأما الأفعال المأمور بها والمنهى عنها ، والمقدرات من الآجال ، والأرزاق والأعمال ، فهى مخلوقة محدثة .

قال شيخ الإسلام : « إذا قال : الإيمان مخلوق ، أو غير مخلوق ؟ قيل له : ما تريد بالإيمان ؟ أتريد به شيئاً من صفات الله وكلامه ، كقوله : لا إله إلا الله ، وإيمانه الذى دل عليه اسمه « المؤمن » ؟ فهو غير مخلوق . أو تريد شيئاً من أفعال العباد ، وصفاتهم ؟ فالعباد كلهم مخلوقون ، وجميع أفعالهم ، وصفاتهم مخلوقة ، ولا يكون للعباد المحدث المخلوق ، صفة قديمة غير مخلوقة ،

ولا يقول هذا من يتصور ما يقول ، فإذا حصل التفصيل ظهر الهدى ، وبان السبيل»^(١) .

وقال أيضا : « الشرع الذى هو أمر الله ونهيه غير مخلوق ، وأما الأفعال المأمور بها ، والمنهى عنها ، فلا ريب أنها مخلوقة ، وكذلك القدر ، الذى هو علمه ومشيتته وكلامه غير مخلوق ، وأما المقدرات من الآجال ، والأرزاق ، والأعمال ، فكلها مخلوقة »^(٢) .

واتفق أئمة المسلمين ، على أن جميع أفعال العباد مخلوقة ، كما ذكر البخارى — رحمه الله — عن يحيى بن سعيد القطان ، قال : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة^(٣) .

قوله : وقال : « جزاء بما كانوا يعملون » .

العمل الذى جوزوا عليه الجنة ، يشمل الطاعات كلها ، واجتناب المناهى كلها ، فدخل فيه الإيمان ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والصلاة ، وأداء الزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة .

و « ما » فى قوله : « بما » يجوز أن تكون موصولة ، أى : بالذى كنتم تعملونه ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى : بعملكم .

والباء سببية ، أى : دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة ، وأما الحديث

(١) مجموع الفتاوى ج ٧ ص ٦٦٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٧ ص ٦٦١ .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » فالبراء فيه للعرض والمقابلة ، فالجنة ليست عوضا للعمل ، وإنما هي فضل من الله ، والأعمال الصالحة سبب لدخولها ، كما هو قول أهل السنة ، وكما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة ، بخلاف المعتزلة ، أهل القياس الفاسد ، فإنهم يرون الجنة عوضا للعمل .

والمقصود ، أن الآية تدل على أن العمل ، الذي أدخل المؤمنون بسببه الجنة ، فعل لهم يتعلق باختيارهم ، ولهذا جوزوا عليه ، والعباد وأعمالهم خلق لله تعالى . قوله : « وقال وفد عبد القيس للنبي ﷺ مرنا بجمل من الأمر ، إن عملنا بها دخلنا الجنة ، فأمرهم بالإيمان ، والشهادة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . فجعل ذلك كله عملا » .

سيأتي الحديث بطوله ، والدلالة منه ظاهرة ، لأنهم قالوا : « نعمل بها » فأمرهم بالإيمان ، والشهادة ، إلى آخر ما ذكر ، فدل ، على أن المذكور كله ، عمل لهم ، ومعلوم أنهم مخلوقون ، فكذلك عملهم مخلوق ، وهو المراد .

١٧٥ .— قال : « حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا أيوب ، عن أبي قلابة ، والقاسم التميمي ، عن زهَدَم ، قال : كان بين هذا الحي من جُرم ، وبين الأشعريين وُدٌ وإخاءٌ ، فكنا عند أبي موسى الأشعري ، فقُرَّبَ إليه الطعامُ ، فيه لحمٌ دجاج ، وعندَه رجلٌ من بني تميم الله ، كأنه من الموالي ، فدعاه إليه ، فقال الرجل : إني رأيتَه يأكل شيئاً فقدِرتُه ، فحلفتُ لا آكلُه ، فقال : هلم فأحدِّثك عن ذلك ، إني أتيتُ النبي ﷺ في نفر من الأشعريين نستَحمله ، قال : والله لا أحملكم ، وما عندي ما أحملكم ، فأتَى النبي ﷺ بنهب إبل ، فسألَ عنا ، فقال : أين النفرُ الأشعريون ؟ فأمر لنا بخمس ذؤودٍ عُرِّ الدُّرى .

ثم انطلقنا ، قلنا ما صنعنا ؟ ! حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا ، وما عنده ما يحملنا ، تَعَفَّلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يمينه ، والله لا نفلحُ أبداً . فرجعنا إليه ، فقلنا له ، فقال : لست أنا أحملكم ، ولكنَّ الله حملكم ، إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيتُ الذى هو خير ، وتحملتُها » .

« زهدم » هو ابن مضرَّب بتشديد الراء الجرمى ، نسبة إلى جرْم بن زياد بطن من قضاة ، « والأشعري » نسبة إلى الأشعر بن سبأ ، أبى قبيلة من اليمن .

« ود وإخاء » الود : صافى الحب ، وأما الإخاء : فمن الأخوة ، والمصاحبة ، المقتضية للعطف ، والود ، والنصرة . وهذا تعليل لقوله : « فكنا عند أبى موسى الأشعري » ؛ لأن زهدم من جرْم .

« فقُرب إليه الطعام » : يؤخذ منه ما كان عليه الصحابة ، ومن سلك طريقهم ، من عدم التكلف لمن يحضر مجالسهم ، وأنهم إذا حضر وقت طعامهم ، قدم على ما هو عليه ، سواء كثر الحضور أو قلوا ، وفيه تهيئة الطعام وإعداده لصاحب البيت ، وفيه دخول الرجل على صديقه ، وعرض الطعام على من حضره ، ولو كان قليلاً .

« فيه لحم دجاج » قال الحافظ : « الدجاج : اسم جنس مثلث الدال ، والواحدة دجاجة ، دخلتها الهاء للوحدة ، قاله الجوهري . سُمى بذلك لإسراعه فى الإقبال ، والإدبار »^(١) .

وفيه جواز أكل الدجاج ، وأن الحيوان إذا كان فى جنسه ما يأكل الجلة ،

(١) من الفتح ملخصاً ج ٩ ص ٦٤٥ .

لم يلتفت إلى ذلك .

« وعنده رجل من بنى تيم الله ، كأنه من الموالي » بين الحافظ ، أن هذا الرجل هو زهدم ، وذكر رواية الترمذى ، وفيها : « عن زهدم ، قال دخلت على أبى موسى ، وهو يأكل دجاجا ، فقال : ادن فكل ، فإني رأيت رسول الله ﷺ يأكله » .

وفي رواية البيهقى ، عن زهدم ، قال : رأيت أبا موسى يأكل دجاجا ، فدعاني ، فقلت : إني رأيته يأكل نتنا ، قال : ادن فكل «^(١)» .

ومن أجل ذلك ، جزم الحافظ بأنه زهدم الراوى ، لكن كيف يقول عن نفسه : « كأنه من الموالي » . ويعنى بذلك : العجم ، أطلق عليهم « موالي » ؛ لأن من أسلم على يديه أحد ، دعوه مؤلّى له ، وهم أسلموا على أيدي الصحابة — رضى الله عنهم — .

« فدعاه إليه » أى : إلى الأكل . « فقال الرجل : إني رأيته يأكل شيئا فقَدِرْتُهُ » أبهم المأكول لكراهة ذكره ، كما هى عادتهم فى ما هو مستقذر ، يكون عنه .

ومعنى « قدرته » استقدرته ، فصار عندى قدرا .

« فحلفت لا آكله » أى : من أجل ما رأى ، لأنه كرهه .

« هلم فلأحدثك عن ذلك » هلم : أقبل ، وتعال ، أخبرك عن حلفك ، وأنه لا يمنع من أكله ، لأن الله — تعالى — جعل له كفارة ، تخرج بها من حرج اليمين .

« إني أتيت النبى ﷺ فى نفر من الأشعرين » نفر : هم الجماعة من

(١) الفتح ج ٩ ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

الناس القليلة ، من الثلاثة إلى العشرة ، لا واحد له من لفظه .

« نستحمه » أى : نطلب منه أن يحملنا ، أى : يعطينا من الإبل ما يحملنا ، ويحمل متاعنا ، وذلك فى غزوة العُسرة « غزوة تبوك » .

قال : « والله لا أحملكم ، وما عندى ما أحملكم » جاء فى رواية فى الصحيح : قال : « فوافقته وهو غضبان » ولهذا أخبره بأنه لا يحملهم ، وأكد ذلك بالقسم ، لأنه بنى على الحال التى هو فيها ، ولم يكن عنده شئ يحملهم عليه ، ولهذا قال : « وما عندى ما أحملكم » .

« فأتى النبى صلى الله عليه وسلم بنهب إبل » النهب : الغنيمة ، وهو مصدر ، بمعنى المنهوب ، كالخلق بمعنى المخلوق .

« فسأل عنا ، فقال : « أين النفر الأشعريون » ؟ : فأمر لنا بخمس ذؤودٍ » الذؤود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع ، وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر ، وهو لفظ مؤنث ، لا واحد له من لفظه .

« غر الذرى » أى : بيضُ الأَسْنِمَةِ ، فذروة البعير : سنامه ، لأنه أعلى ما فيه ، إما أنه أراد أنها سمان ، فى أسنمتها الشحم الأبيض ، أو أن شعور أسنمتها بيض .

« ثم انطلقنا ، فقلنا ما صنعنا ؟ حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحملنا ، وما عنده ما يحملنا ، ثم حملنا » يعنى : أن صنعنا هذا ليس من البر ، بل هو مما يخاف عقباه ، حيث حملنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مخالفة ما حلف عليه ، فأوقعناه فى الحنث ، ولهذا قال : « والله لا نفلح أبدا » أى : لا يحصل لنا الفلاح ، وهو الفوز بالخير والسعادة الدنيوية والأخروية .

« تغفلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه » . أى : أخذنا ما أعطانا فى حالة غفلته عن يمينه ونسيانه لها .

« فرجعنا إليه فقلنا له ، فقال : لست أنا أحملكم ، ولكن الله حملكم »
هذه الجملة من الحديث هي محل الشاهد ، فإن الله — تعالى — هو المتصرف
في عباده ، وعملهم يقع بخلقه — تعالى — ومشيئته ، فكما أنه — تعالى —
خالق العبد ، فهو خالق أفعاله .

ولهذا أسند النبي ﷺ حملهم إلى الله ، مع أنه هو الذى أعطاهم الإبل
لأن إعطائهم إياها ، بعد إرادة الله وخلقها .

« قال الماوردي : معناه : أن الله — تعالى — آتاني ما أحملكم عليه ، ولولا
ذلك لم يكن عندي ما أحملكم عليه^(١) .

قال الحافظ : « المراد منه نسبة الحمل إلى الله — تعالى — وإن كان الذى
بأشرك ذلك النبي ﷺ فهو كقوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَىٰ ﴾^(٢) .

« إني والله ، لا أحلف على يمين ، فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى
هو خير منه وتحملتها » ، فى هذا دلالة ، على أن من حلف على فعل شئ أو
تركه ، فرأى أن مخالفة يمينه ، خيراً له فى دينه أو دنياه ، فإن المشروع فى
حقه أن لا يمتضى فى يمينه ، بل يفعل الذى هو خير ، ويكفر عن يمينه .

١٧٦ — قال : « حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا
قُرَّةُ بن خالد ، حدثنا أبو جمرَةَ الضبعيِّ ، قلت لابن عباس : فقال :
قدم وفد عبد القيس ، على رسول الله ﷺ فقالوا : إن بيننا وبينك
المشركين من مُضَرِّ ، وإنا لا نصل إليك إلا فى أشهر حُرْم ، فمُرْنَا
بجُمَل من الأمر ، إن عملنا به دخلنا الجنة ، وندعوا إليها من وراءنا ،

(١) شرح مسلم للنووى ج ١١ ص ١١٠ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٤ .

قال : « أمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : أمركم بالإيمان ، وهل تدرون ما الإيمان ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وتعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاكم عن أربع : لا تشربوا في الدُّبَاءِ ، والتَّقْيِيرِ ، والظُّروفِ الْمُزَفَّةِ ، والختمة » .

قوله : « قلت لابن عباس » لم يذكر مقول القول ، وقد بينه في آخر المغازى في باب وفد عبد القيس^(١) وفيه « عن أبي جهمرة ، قلت لابن عباس — رضى الله عنهما — : إن لى جرة ينتبذ لى نببذ فأشربه حلوا فى جرة ، إن أكثرت منه فجالست القوم ، فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح ، فقال : قدم » إلى آخره .

قال الحافظ : فى قوله : « خشيت أن أفتضح » أى : لأنى أصير فى مثل حال السكارى^(٢) .

ويجوز أنه يحدث له تسهلا ، أو رياحا فى بطنه ، ويخشى أن يغلبه شىء من ذلك فيفتضح . والله أعلم .

والوفد : الجماعة المختارة للقاء العظماء ، وعبد القيس قبيلة كبيرة ، كانت مساكنهم فى شرق الجزيرة العربية ، قرب الأحساء ، والقطيف ، وكانت تسمى البحرين^(٣) قال الحافظ : « الذى تبين لنا ، أنه كان لعبد القيس وافدتان : أحدهما : قبل الفتح ، ولهذا قالوا : بيننا وبينك كفار مضر وكان ذلك إما فى سنة خمس أو قبلها ، وكان عددهم ثلاثة عشر رجلا

(١) انظر صحيح البخارى ج ٥ ص ١٣٨ .

(٢) الفتح ج ٨ ص ٨٦ .

(٣) قال ياقوت : « البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر النهر بين البصرة وعمان » معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٧ .

وثانيتها : كانت سنة الوفود ، وكان عددهم أربعين رجلا^(١) وذكر أدلة ذلك .

ومُضَرُّ أبو القبيلة المشهورة ، وهو مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
« فقالوا : إن بيننا وبينك المشركين من مضر » يعنى : أن بلادهم بعيدة عن رسول الله ﷺ وفي طريقهم إليه ، المشركون الذين هم أعداء لهم ، فإذا تمكنوا منهم قتلوهم ، وهم بحاجة إلى التعلم من رسول الله ﷺ ولهذا قالوا : « فمرنا بجمل من الأمر » وفي الرواية الأخرى « بأمر فصل » أى بين جامع ، لا نحتاج معه إلى غيره ، وفاصل بين الحق والباطل ، ولهذا قالوا : إن عملنا به دخلنا الجنة .

« وندعو إليها من وراءنا » أى : الأوامر التى تأمرنا بها ، نعمل بها ، وندعو قومنا إلى العمل بها .

« وإنا لا نصل إليك إلا فى أشهر حرم » دليل على تعظيم الأشهر الحرم ، حتى عند المشركين ، حيث لا يتعرضون لأعدائهم فى الأشهر الحرم .

وقد نوه الله تعالى عن حرمتها فى كتابه حين قال : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

« قال : أمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع » أى : أربع جمل كما فى سؤالهم ، أو أربع خصال « أمركم بالإيمان بالله » ثم فسر ذلك بقوله : « وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة ألا إله إلا الله » أى : أن تشهدوا أن الله هو الإله الحق . المستحق أن يؤله ، ويعبد وحده ، وأن تفعلوا ذلك مخلصين له التأله ، وأن تشهدوا أن كل ما لوه غيره باطل وضلال ، من توجه إليه بالعبادة ، فهو

(١) الفتح ج ٨ ص ٨٥ .

من أصحاب النار ، الذين لا يخرجون منها أبدا ، إذا ماتوا على ذلك . هذه الكلمة أصل وأساس ما بعدها ، بل هي أصل الإسلام ، فلا يدخل الإسلام أحد إلا بها ، وبمعرفة العمل بها ، تتفاوت درجات الناس عند الله تعالى ، وهي تشمل معرفة القلب وعمله ، وعمل الجوارح ، ولهذا جعلها النبي ﷺ الإيمان ، وأما الإشكالات التي ذكرها الحافظ عن شرح هذا الحديث ، والتفديرات المبنية عليها^(١) فهي غير واردة على الحديث أصلا .

ومن تلك الإيرادات ، أن ذكر الشهادة للتبرك ، وليست مرادة لنفسها ، وعليه فأول الخصال : الأمر بالصلاة ، وذلك أن القوم كانوا مؤمنين ، مقرين بالشهادتين ، فلا وجه لذكرها . وهذا من الكلام الباطل لمخالفته لنص الحديث ، والذي حملهم عليه ، مذهبهم بأن الإيمان مجرد التصديق والمعرفة ، وهو مخالف لنصوص الكتاب والسنة ، فإذا لم يقترن بالتصديق عمل صالح ، فلا اعتبار له في الشرع ، كما أن الإيمان يتجدد ، ويزداد ، والأعمال من الإيمان ، بها يزيد ، وبتركها أو نقصها ينقص .

« وإقام الصلاة » أى : تصلون الصلوات الخمس مقيمين لها ، بأن تأتوا بها قائمة غير ناقصة ، بشرائطها ، وواجباتها ، وما يلزم لها .

« وإيتاء الزكاة » أى : أن تؤتوها من فرضها الله لهم ، ممثلين أمر الله ، خائفين من عقابه لو منعتموها ، راجين ثوابه في أدائها ، طيبة بها نفوسكم ، محبين لذلك مغتبطين به .

« وتعطوا من المغنم الخمس » أى : خمس ما غنمتم فإنه لله ورسوله ، وهو بمنزلة الزكاة في الوجوب ، فتعطوه من هو له ، ممثلين أمر الله في ذلك ، كما في الزكاة .

(١) انظر الفتح ج ١ ص ١٣٢ وما بعدها .

وهذه الأوامر الأربع : وهى الإيمان ، وفسره بشهادة أن لا إله إلا الله .
والثانية : إقام الصلاة ، والثالثة : إيتاء الزكاة ، والرابعة : إعطاء خمس
المغنم .

وأما النواهى : فهى أن لا يشربوا فى الدُّبَاء ، وهى ثمر اليقطين إذا يبس
فإنه يكون كالجرار ، وإذا وضع فيه نبيذ التمر ، أو غيره أسرع إليه الغليان ،
فيكون خمرا ، وكذلك بقية الأوعية المذكورة .

والنَّقِير : وعاء يتخذ من جذوع النخل ، ينقر وسطه حتى يصير شبه
الجرة .

والمَزْفَت : هو المظلى بالزفت ، وهو المُقَيَّر .

وأما الحَنْتَم فقال فى النهاية : هى جرار مدهونة خضر ، كانت تحمل الخمر
فيها إلى المدينة ، ثم توضع فيها ، فقبل للخزف كله حنتم ، واحدها حنتمة .
وإنما نهى عن الانتبأذ فيها ؛ لأنها تسرع الشدة فيها لأجل دهنها .

وقيل : لأنها كانت تعمل من طين يعجن بالدم والشعر ، فنهى عنها ليمتنع
من عملها ، والأول أوجه «^(١) بل هو المتعين .

والمراد من الحديث قوله : « فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة ،
وندعو إليها من وراءنا ، قال أمركم بأربع » فعملهم الذى بسببه يدخلون الجنة ،
هو فعل لهم ، يضاف إليهم حقيقة ، وهم يباشرونه ، ويعملونه حقيقة
باختيارهم وإرادتهم ، ومع ذلك هو من خلق الله تعالى ، فهو داخل فى عموم
خلقه ، وعموم إرادته ومشيئته ؛ لأنه تعالى هو خالقهم وخالق أعمالهم ، كما
فى الحديث الذى رواه البخارى فى خلق أفعال العباد حيث قال : « فأما أفعال

(١) النهاية ج ١ ص ٤٤٨ .

العباد : فحدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا مروان بن معاوية ، حدثنا أبو مالك ، عن ربي بن خراش ، عن حذيفة — رضى الله عنه — قال : قال النبي ﷺ : « إن الله يصنع كل صانع وصنعتة » فأخبر أن الصناعات ، وأهلها مخلوقة .

حدثنا محمد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة — رضى الله عنه — « إن الله خلق كل صانع وصنعتة ، إن الله خالق صانع الخُزمِ ، وصنعتة »^(١) .

حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : « العجز والكيس من القدر . وذكر أحاديث بهذا المعنى ثم قال : سمعت عبيد الله بن سعيد يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة .

قال أبو عبد الله : حركاتهم ، وأصواتهم ، واكتسابهم ، وكتابهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو ، المبين ، المثبت فى المصحف ، فهو كلام الله ليس بخلق »^(٢) .

١٧٧ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن نافع ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله ﷺ قال : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

١٧٨ — « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال النبي

(١) قال الأزهرى : قال ابن الأعرابى : الخُزمُ : الخرازون . ثم ذكر هذا الحديث جـ ٧ ص ٢١٧ تهذيب اللغة .

(٢) خلق أفعال العباد ص ٤١ — ٤٢ .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

قال في اللسان : « في أسماء الله الحسنى : « المصور » ، وهو الذى صور جميع الموجودات ورتبها ، فأعطى كل شىء منها صورة خاصة ، وهيئة مفردة بها ، على اختلافها وكثرتها — قال : « والصورة فى الشكل »^(١) .

وفى متن اللغة : « الصورة : الشكل ، والهيئة ، والحقيقة »^(٢) .

وتقدم أن « المصور » من أسماء الله الحسنى ، وأن التصوير ، بمعنى إعطاء كل شىء شكله ، الذى هو عليه ، من خصائص الله — تعالى — ولهذا من تشبه به تعالى فى ذلك ، وصور صور الأحياء ، فإن الله يعذبه أشد العذاب . وقد تكاثرت النصوص الدالة على شدة عذاب المصورين ، كما فى هذين الحديثين .

قال عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ نزلت فى المصورين^(٣) .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ، قال : سمعت النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون »^(٤) وفى رواية لمسلم : « إن من أشد أهل النار ، يوم القيامة عذابا المصورين .

وروى مسلم إلى ابن عباس ، قال جاءه رجل ، فقال : إني رجل أصور هذه الصور ، فأفتنى فيها ، فقال له : ادن منى ، فدنا منه ، ثم قال ادن منى ،

(١) لسان العرب ج ٤ ص ٤٧٣ .

(٢) متن اللغة ج ٤ ص ٥١٤ .

(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره ج ٢٢ ص ٤٤ .

(٤) انظر الفتح ج ١٠ ص ٣٨٢ ومسلم ج ٣ ص ١٦٧٠ رقم ٢١٠٩ .

فدنا حتى وضع يده على رأسه .

قال : أنبتك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم »^(١) .
وفي روايه له « من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ » والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة .

قوله : « ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » يقال لهم ذلك تعجزوا لهم وتعذبا ، يعنى : أوجدوا فيه الروح ، التى بها الحياة ، وليس ذلك بطاقة أحد غير الله — جل وعلا — وهذا لأنهم ذهبوا يتشبهون بالله تعالى في التصوير والخلق ، فطغوا بذلك وجاوزوا حدَّهم ، لأن الله تعالى وحده ، هو المصور الذى يصور كل حى ، ويوجد فيه الروح ، فصار جزاء هؤلاء ، أن يعذبوا بما لا يطاق ، ولا يستطيع نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

والمقصود من الحديث ، نسبة الخلق إليهم في قوله : « أحيوا ما خلقتم » فالتصوير فعلهم وعملهم ، الذى استحقوا عليه العقاب ، لأنهم فعلوه بطوعهم ، واختيارهم ، فهو فعلهم حقيقة ، والله خالقهم ، وخالق أفعالهم ، كما تقدم ، ومن أجل أن ذلك فعلهم حقيقة جوزوا عليه .

١٧٩ — قال : « حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا ابن فضيل ، عن عُمارة ، عن أبى زُرعة ، سمع أبا هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « قال الله — عز وجل — ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، ليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو شعيرة » .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٧١ الحديث رقم ٢١١٠ .

هذا من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي ﷺ عن ربه — جل وعلا — عن طريق الإلهام ، أو المنام ، أو بواسطة الملك ، وهي مضافة إلى الله — تعالى — قولاً له ، ويختلف عنها القرآن ، بأنه كلام الله المنزل على محمد ﷺ نزل به الروح الأمين ، المتحدى به ، أو بسورة منه ، المتعبد بتلاوته .

قوله : « ومن أظلم » يعنى : أن فاعل ذلك ، ظالم ظلماً لم يبلغه أحد ، فهو استفهام يفيد كثرة الظلم ، وعظمه ، وإنكاره .

ومعنى « ذهب » : قصد وفعل ذلك .

وقوله : « كخلقى » يعنى : فى الصورة فقط ، وإلا فلا أحد من الخلق ، يقدر أن يوجد حياة فيما يصوره ، مهما أوتى من الفكر ، والإمكانات المادية ، وغيرها فلن يستطيع ذلك ، ولهذا قال : « فليخلقوا ذرة » أى ليجدوا فيها الحياة أو ليجدوها من العدم ، وليجعلوا فيها روحاً تحيا بها ، وليس هذا بمقدور الخلق ولو اجتمعوا له .

ثم انتقل بهم إلى ما هو أسهل من ذلك ، وهو الحبة التى تكون بها حياة النبات ، فإذا وضعت فى الأرض ، وسقيت بالماء نبتت بإذن الله ، ولن يستطيع المصورون أن يخلقوا تلك الحبة ، بل ذلك ليس فى مقدور الخلق كلهم .

ثم قال : « وليخلقوا شعيرة » ، والشعيرة أقل قيمة من الحبة ، ولكن فيها من الحياة ما فى الحبة ، فإذا كان المصورون ، وغيرهم الذين يضاهئون الله فى خلقه ، عاجزين عن خلق الحبة والشعيرة ، فضلاً عما فيه روح ، فكيف يذهبون يصورون الصور التى فيها مضاهاة لخلق الله تعالى ؟ ولعظيم جرمهم ، استحقوا من العذاب ، ما لا يكون لسائر أهل الكبائر .

والمقصود بالأمر فى قوله : « فليخلقوا ذرة » إلى آخره ، التعجيز وإذلالهم بذلك ، وتعذيبهم .

ومراد البخارى — رحمه الله — نسبة الخلق إليهم فعلا لهم حقيقة ، مع أنهم مخلوقون لله — تعالى — فالله خالقهم ، وخالق أفعالهم ، ولكنه جعلهم فاعلين قادرين على فعلهم ، باختيارهم وقدرتهم التى خلقها الله فيهم ، ولهذا عذبهم على ذلك ، ولو لم يكن فعلا لهم حقيقة ما عذبوا عليه .

قال الحافظ : « الذى يظهر ، أن مناسبة ذكر حديث المصورين ، لترجمة هذا الباب ، من جهة أن من زعم أنه يخلق فعل نفسه ، لو صحت دعواه لما وقع الإنكار على هؤلاء ، فلما كان أمرهم بنفخ الروح فيما صوروه ، أمر تعجيز ، ونسبة الخلق إليهم ، إنما هى على سبيل التهكم والاستهزاء ، دل على فساد قول من نسب خلق فعله إليه استقلالا »^(١) .

والصواب ما تقدمت الإشارة إليه من مراد البخارى — رحمه الله — أن الأفعال المسندة إليهم ، أفعال لهم حقيقة ، وهى مخلوق لله — تعالى — فإن الله خالق كل فاعل وفعله ، وهو خالق كل شيء فلا يكون العباد خالقين لأفعالهم استقلالا وإيجادا ، وإنما هم فاعلون لها ، بجعل الله لهم فاعلين ، وإقداره لهم على ذلك ، فجعل القدرة لهم على فعلها ، وأوجد فيهم الإرادة لها والاختيار ، فصاروا فاعلين لها بذلك ، حيث بأشروا الفعل بأنفسهم ، فهو فعلهم حقيقة ، ولذلك استحقوا عليها الثواب أو العقاب .

وقال الكرماني : « لعل غرض البخارى ، فى تكثير هذا النوع ، فى هذا الباب وغيره ، بيان جواز ما نقل عنه أنه قال : لفظى بالقرآن مخلوق — إن صح عنه »^(٢) .

قال الحافظ : « قلت : قد صح عنه أنه تبرأ من هذا الإطلاق ، فقال :

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٥ .

(٢) شرح الكرماني ج ٢٥ ص ٢٤٤ .

« كل من نقل عنى أنى قلت : لفظى بالقرآن مخلوق ، فقد كذب علىّ ، وإنما قلت : أفعال العباد مخلوقة . أخرج ذلك غنجار ، فى ترجمة البخارى ، من تاريخ بخارى بسند صحيح إلى محمد بن نصر المروزى ، الإمام ، المشهور ، أنه سمع البخارى يقول ذلك »^(١) ومن طرق أخرى .

قال ابن القيم — بعد ما ذكر — ما ذكره البخارى : « وقال جابر بن عبد الله : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور ، كما يعلمنا السورة من القرآن . يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ، ولا أقدر ، وتعلم ، ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فيسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، قال : ويسمى حاجته » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح^(٢) .

فقوله : « إذا هم أحدكم بالأمر » صريح فى أنه فى الفعل الاختيارى ، المتعلق بإرادة العبد ، وإذا علم ذلك ، فقوله : « أستقدرك بقدرتك » أى : أسألك أن تقدرنى على فعله ، بقدرتك ، ومعلوم أنه لم يسأله القدرة المصححة [للفعل] ، التى هى سلامة الأعضاء ، وصحة البنية . وإنما سأل القدرة التى توجب الفعل . فعلم أنها مقدورة لله ، ومخلوقة له .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٥ .

(٢) هو مخرج فى الصحيحين ، وتقدم فى هذا الكتاب .

وأكد ذلك بقوله : « فإنك تقدر ولا أقدر » أى : تقدر أن تجعلنى قادرا ، فاعلا ، ولا أقدر أن أجعل نفسى كذلك ، وكذلك قوله : « تعلم ولا أعلم » أى : حقيقة العلم بعواقب الأمور ، ومآلها ، والنافع منها والضار عندك ، وليس عندى .

وقوله : « يسره لى » أو « اصرفه عنى » ، فإنه طلب من الله تيسيره إن كان له فيه مصلحة ، وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة ، وهذا التيسير والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل فى القلب ، أو إلقاء داعية الترك فيه ، ومتى حصلت داعية الفعل ، حصل الفعل ، [وإذا حصلت] داعية الترك امتنع الفعل .

وعند القدرية ، ترجيح فاعلية العبد على الترك ، ليس للرب فيه صنع ، ولا تأثير ، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم ، فإن تيسير الأسباب التى لا قدرة للعبد عليها موجودة ، ولو لم يسألها العبد .

وقوله : « ثم رضنى به » يدل على أن حصول الرضا ، وهو فعل اختيارى من أفعال القلوب — أمر مقدور للرب تعالى — وهو الذى يجعل نفسه راضية .

وقوله : « فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه » صريح فى أنه سبحانه هو الذى يصرف عبده عن فعله الاختيارى ، إذا شاء صرفه عنه ، كما قال تعالى فى حق يوسف : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ وصراف السوء والفحشاء : هو صرف دواعى القلب ، وميله ، فينصرفان عنه بصرف دواعيهما .

وقوله : « واقدر لى الخير حيث كان » يعم الخير المقدور للعبد من طاعته وغير المقدور له .

فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير ، أمر مقدور لله — تعالى — إن لم يقدره الله لعبده ، لم يقع من العبد .

ففى هذا الحديث الشفاء فى مسألة القدر ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم الداعى به أن يقدم بين يدى هذا الدعاء ركعتين ، عبودية منه بين يدى نجواه ، وأن يكونا من غير الفريضة ، ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب .

ولما كان الفعل الاختيارى متوقفا على العلم ، والقدرة ، والإرادة ، لا يحصل إلا بها ، توسل الداعى إلى الله — تعالى — بعلمه ، وقدرته ، وإرادته التى يفعل بها من فضله .

وأكد هذا المعنى بتجرده ، وبرأته من ذلك . فقال : « إنك تعلم ، ولا أعلم وتقدر ، ولا أقدر » ، وأمر الداعى أن يعلق التيسير بالخير ، والصرف بالشر ، وهو علم الله سبحانه تحقيقا للتفويض إليه ، واعترافا بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه .

« ففى هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها ، وإعطاء الربوبية حقها ، والله المستعان »^(١) .

(١) شفاء العليل ص ١١٠ — ١١١ .

قال : « باب قراءة الفاجر ، والمنافق ، وأصواتهم ، وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم » .

الفاجر هو الخارج عن الطاعة ، فيشمل الكافر والفاسق .
وأما المنافق ، فهو الذى يظهر خلاف ما يبطن ، وأعظم ذلك الكفر والتكذيب ، فمن أبطن الكفر والتكذيب ، فهو المنافق النفاق الأكبر ، وإن تنوع ذلك .

وقوله : « وتلاوتهم » مبتدأ ، وخبره جملة « لا تجاوز حناجرهم » والجملة من المبتدأ والخبر حال .

وهذا الباب كسابقه مما مر ذكره ، يريد به التفرقة بين التلاوة والمتلو ، وأن التلاوة من عمل التالى ، وعمل العباد متفاوت ، فمنه المقبول المرفوع إلى الله تعالى ، ومنه المردود الذى لا يجاوز فم قائله ، وعمل البر المتقى ليس كعمل الفاجر ، والمنافق ، وعمل الشيطان الذى يسترق السمع من الملائكة ، وأخيه الكاهن ليس كعمل الملك .

فهذا التفاوت يدل على أنه عملهم ، وعملهم كله مخلوق . ولهذا قال — رحمه الله — فى خلق أفعال العباد : « وذكر النبى ﷺ قراءة المنافقين والفجار ، فبين ما يتآكلون بقراءتهم . فلا يرتابن أحد فى خلق المنافقين وأصحاب الجحيم وأعمالهم .

حدثنا عبيد الله — هو أبو قدامة — ابن سعيد ، حدثنا حماد بن زيد ، قال : من قال : كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر .

حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثنى بشير بن أبى عمرو الخولانى أن الوليد بن قيس التجيبى حدثه ، أنه سمع أبا سعيد الخدرى — رضى الله عنه — يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخلف قوم من بعد ستين سنة ، أضعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا .

ثم يكون خلف يقرءون القرآن ، لا يعدو تراقيهم . ويقرأ ثلاثة :
« مؤمن ، ومنافق ، وفاجر » . فقال بشير : « فقلت للوليد : ما هؤلاء
الثلاثة ؟ قال المنافق كافر به ، والفاجر يتآكل به ، والمؤمن يؤمن به » .
ثم قال : « ومما يدل على أصوات العباد^(١) قول النبي ﷺ وأكثر منافقى
أمتى قرآؤها » . فقد قراءة المعطلة ، والجهمية ، وأهل الأهواء ، وغيرهم .
وقال النبي ﷺ : « يقرأ القرآن رجال ، يرقون من الدين ، لا يجاوز
حلوقهم ، هم شر الخلق والخليقة » .
وقال : « يتعجلونه ، ولا يتأجلونه »^(٢) . وهذا يبين مراده من هذا الباب
هنا .

قال الحافظ : « التلاوة متفاوتة بتفاوت التالى ، فيدل على أنها من
عمله »^(٣) .

١٨٠ — قال : « حدثنا هُدبة بن خالد ، حدثنا همام ، حدثنا
قتادة ، حدثنا أنس ، عن أبي موسى — رضى الله عنه — عن النبي
ﷺ قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كالتُرْجَة طعمها طيب
وريحها طيب ، والذى لا يقرأ كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل
الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ،
ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن ، كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح
لها » .

(١) يعنى أنها مخلوقة لله تعالى مثل سائر المخلوقات .

(٢) خلق أفعال العباد ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٦ .

ضرب الأمثال يراد به تقريب المعنى إلى الفهم .

والمقصود بالمثل هنا : الوصف والحال ، فالمؤمن طيب في نفسه ، وما يصدر منه من عمل يكون طيبا ، فلهذا جعل صلى الله عليه مذاقه طيبا ، ورائحته التي تتعدى إلى من حوله طيبة ، وإن كان المقصود بهذا الحديث من يحمل القرآن ويقرؤه ، فغير القراءة من الأعمال يلتحق بها .

فإذا كان حامل القرآن مؤمنا ، عاملا به ، صادف محلا قابلا ، فأثمر .
والأترجة ، تجمع طيب المذاق ، وطيب الرائحة ، وحسن المنظر ، وطيب نكهتها وجودة الهضم ، وفيها منافع أخرى فناسب تمثيل المؤمن القارئ للقرآن بها .

قال الحافظ : « وقع في رواية شعبة ، عن قتادة « المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به » وهى زيادة مفسرة للمراد ، وأن التمثيل وقع بالذى يقرأ القرآن ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ، ونهى . لا مطلق التلاوة »^(١) .

قوله : « والذى لا يقرأ القرآن كالتمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها » يعنى بالمؤمن الذى لا يقرأ القرآن هو الذى لا يحفظه ، ولا يتلوه ، فالإيمان بالله ورسله وما جاءت به طيب ، ومذاقه حلو ، ولكن إذا آمن بالقرآن ، وعمل به ، وهو لا يقرؤه فاتته الرائحة الطيبة ، والله تعالى يجمع الطيبين فيسكنهم دار الطيبات ، كما يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه فيجعلهم في جهنم .

قال الحافظ : « قيل : خص صفة الإيمان بالطعم ، وصفة التلاوة بالريح ، لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن ، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة »^(٢) .

(١) الفتح ج ٩ ص ٦٧ .

(٢) الفتح ج ٩ ص ٦٦ .

قوله : « ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كممثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر » .

الفاجر أصله ومذاقه مر خبيث ، وإذا قرأ القرآن كان ما يصدر منه من القراءة طيب ، ولكن مصدر القراءة خبيث ، ومثل القراءة بالرائحة التى يدركها من حوله فلما كان هذا العمل طيبا ، صار مثل الرائحة الطيبة ، الصادرة من محل خبيث مؤذ ، ضار ، وإن كان ينتفع برائحته .

قوله : « ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كممثل الخنظلة ، طعمها مر ، ولا ريح لها » يعنى : اجتمع فيه خبث الأصل ، وخبث العمل ، فلا نفع فيه لنفسه ولا لغيره ، بل هو ردىء مؤذ فى نفسه ، ولا عمل له ينتفع به . قال النووى : « فيه فضيلة حافظ القرآن ، واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد »^(١) .

« والمقصود بقارئ القرآن ، من حفظه ، وتعاهده بكثرة التلاوة ، للوقوف على أسرار معانيه ، والعمل بأوامره ، والانتفاء عن مناهيه ، والانعاط بمواعظه ، والتأدب بآدابه ، لا مجرد الحفظ والتلاوة .

وكلام الله تعالى له تأثير فى باطن العبد ، وظاهره ، إذا كان مؤمنا به ، والعباد متفاوتون فى ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك ، وهو المؤمن المتقى التالى له ، ومنهم من لا نصيب له البتة ، وهو المنافق ، ومن تأثر ظاهره دون باطنه فذلك المرأى »^(٢) .

والمراد منه للباب ، أن هذا التفاوت ، فى وصف المؤمن القارئ ، وغير القارئ ، والفاجر والمنافق ، يدل على أن ذلك عملهم ، تفاوت بالإيمان مع

(١) شرح مسلم ج ٦ ص ٨٣ .

(٢) مكمل إكمال الإكمال ملخصا ج ٢ ص ٤١٥ .

القراءة وعدمها ، وبالفجور والنفاق مع القراءة وعدمها ، فإذا كان ذلك بعملهم ، فأعمالهم كلها مخلوقة كما تقدم إيضاح ذلك .

١٨١ — قال : « حدثنا علي ، حدثنا هشام ، أخبرنا معمر ، عن

الزهرى . ح

وحدثني أحمد بن صالح ، حدثنا عَنبَةَ ، حدثنا يونس ، عن ابن شهاب أخبرني يحيى بن عروة بن الزبير ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة رضی الله عنها : سألت أناسَ النبي ﷺ عن الكهان ؟ فقال : « إنهم ليسوا بشيء » فقالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدّثون بالشيء يكون حقا ، قال : فقال النبي ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فيقرؤها في أذن وليه ، كقرقرة الدجاجة ، فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة » .

قوله : « سألت أناسَ النبي ﷺ عن الكهان » جاء في صحيح مسلم ، عن عائشة رضی الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله إن الكهان كانوا يحدّثوننا بالشيء فنجده حقا قال : « تلك الكلمة الحق ، يخطفها الجنى ، فيقدفها في أذن وليه ، ويزيد فيها مائة كذبة »^(١) .

فالسؤال وقع عما يخبرون به ، فلماذا قال : « ليسوا بشيء » أى : أخبارهم باطلة وكذب ، ليست شيئا واقعا ، فلما قالوا : إنهم يصدقون أحيانا ، أخبر ، أن ذلك الصدق ، هو القليل الذى يخطفه الشيطان ، المسترق للسمع ، من الملك الذى يتكلم بالوحى ، فيلقيه في أذن وليه من الإنس ، الذى هو الكاهن ، ويكذب معها مائة كذبة .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٥٠ رقم ٢٢٢٨ .

ويجوز أنهم سألوا عن حكمهم ، وعن إتيانهم ، كما في صحيح مسلم ، أن معاوية ابن الحكم قال : يا رسول الله ، كنا نأتى الكهان قال : « فلا تأتوا الكهان »^(١) .

والكهان : هم الذين يخبرون عن المستقبل غالبا ، استنادا إلى أسباب خفية ، من اتصا لهم بالجن ، الذين يسترقون السمع من الملائكة ، وهو الأصل عندهم ، وقد تكون أخبارهم وهمية .

ويطلق اسم الكاهن على كل من يتعاطى علم الغيب ، أو يحكم بغير ما أنزل الله^(٢) .

وفي كليات أبي البقاء : « الكاهن : هو من يخبر بالأحوال الماضية ، والعرّاف : من يخبر بالأحوال المستقبلية »^(٣) .

وقال الخطابي : « الكهنة ، قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ؛ فألقتهم الشياطين ، لما بينهم من التناسب في هذه الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل إليه قدرتهم . وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية ، خصوصا في العرب ، لانقطاع النبوة فيهم ، وهى على أصناف : منها ، ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن يركب بعضهم بعضا ، إلى أن يسمع أعلاهم شيئا من كلام الملائكة ، كما وصف ذلك في الحديث ، وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدا ، كما في أخبار شق ، وسطيح ، وغيرهما من كبار الكهان ، وأما في الإسلام ، فقد ندر ذلك جدا حتى يكاد يضمحل .

ومنها ، ما يخبر الجنى به من يواليه ، مما غاب عن غيره ، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قرب منه .

(١) المصدر المذكور ج ٤ ص ١٧٤٩ رقم ٢٢٢٧ .

(٢) انظر الفتح ج ١٠ ص ٢١٦ .

(٣) كليات أبي البقاء ج ٤ ص ١٢٩ .

ومنها ، ما يستند إلى التجربة ، والعادة ، فيستدل على الحادث ، بما وقع قبل ذلك ، وقد يكون ذلك بنوع من السحر ، أو بنوع يضاهاى السحر ، مثل : الزجر ، والطرق ، والنظر فى النجوم .

ومنها ، ما يستند إلى ظن وتخمين وحس ، وقد يتلى الله — تعالى — بهذا النوع ، بعض الناس ، فيقع له ماظنه ، فيكون ذلك فتنة له ، ولغيره مع كثرة الكذب فيه^(١) .

قوله : « فقالوا : يا رسول الله . فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا » أى : إن الكهان يخبرون بالأمر ، فيقع مثل ما أخبروا به . فالحق : هو الخبر المطابق للواقع ، يعنى : الصدق .

فقال النبى ﷺ جوابا عن هذا الإيراد : « تلك الكلمة من الحق ، يخطفها الجنى » أى : أن الحق الذى يقع فى خبر الكاهن ، يكون مما خطفه الجنى ، الذى هو الشيطان مسترق السمع ، من الملائكة الذين يكونون فى السحاب ، فيتحدثون بينهم فيما أوحاه الله إليهم ، فيخطف الجنى الكلمة منهم .

« فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة » أى : يرددها مثل ترديد الدجاجة صوتها ، بترجيع ، وزمزمة ، ولهذا صارت أخبار الكهان كذلك .

وهو يرددها لتستقر فى ذهنه ويحفظها ، هذا إذا لم يصبه الشهاب ، الذى يرسله الله عليه ، فأحيانا يقتله الشهاب ، وقد يذهب بعقله ، وقد يسلم .

وسمى الكاهن وليا للشيطان ؛ لأنه يطيعه ويتولاه ، أو أراد العموم فى الكاهن والمنجم ، والعراف ، ونحوهم ممن يتولى الشياطين .

قال الخطابى : « بين ﷺ أن إصابة الكاهن أحيانا ، إنما هى لأن الجنى

(١) الفتح مع بعض التصرف ج ١٠ ص ٢١٧ .

يلقى إليه الكلمة ، التي يسمعا استراقا من الملائكة ، فيزيد عليها أكاذيب ،
يقيسها على ما سمع ، فرما أصاب نادرا ، وخطؤه الغالب^(١) .

« فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة » أى : الشياطين يخلطون مع الكلمة
الواحدة من الحق ، التي سمعوها من الملائكة ، أكثر من مائة كذبة ، ومع ذلك
يصدقهم الناس ، من أجل أنهم يصيبون فى واحد من أخبارهم ، البالغة أكثر
من مائة ، والباقي كله كذب ، وهذا من العجائب ، ومما يدل على حب
النفوس للباطل ، وإلا كيف يصدق ، وهو إذا صدق مرة واحدة ، كذب
أكثر من مائة مرة !؟

قال الحافظ : « والذي يظهر لى من مراد البخارى ، أن تلفظ المنافق بالقرآن
كما يتلفظ به المؤمن ، فتختلف تلاوتهما ، والمتلو واحد ، فلو كان المتلوعين
التلاوة ، لم يقع فيه تخالف ، وكذلك الكاهن ، فى تلفظه بالكلمة من الوحي ،
التي يجبره بها الجنى ، مما يختطفه من الملك تلفظه بها ، وتلفظ الجنى مغاير لتلفظ
الملك ؛ فتفاوتا »^(٢) .

قلت : هذا بعض ما أراده البخارى — رحمه الله — وتماه ، أن هذا
التفاوت المذكور بينهم ، يدل على أن التلفظ عمل لهم ، وهم وأعمالهم
مخلوقون ، كما تقدم إيضاح ذلك . والله أعلم .

١٨٢ — قال : « حدثنا أبو النعمان ، حدثنا مهدي بن ميمون ،
سمعت محمد بن سيرين يحدث ، عن معبد بن سيرين ، عن أبى سعيد
الخدري — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « يَخْرُجُ ناس
من قبل المشرق ، ويقرءون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يَمْرُقُونَ من

(١) الفتح ج ١٠ ص ٢٢٠ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٦ .

الدين كما يَمْرُق السَّهْم من الرَّمِيَّة ، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه » .

قيل : ما سيماهم ؟ قال : « سيماهم التَّحْلِيْق — أو قال : التَّسْبِيْد » .

هذا الحديث تقدم في باب قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ، وتقدم شرحه هناك ، إلا أن هذه الرواية فيها ما ليس في تلك ، فنين ما لم يتقدم ، فمن ذلك قوله : « يخرج ناس من قبل المشرق » . المراد : مشرق المدينة ، وهو العراق أو قربه ، وقد خرجوا فيه كما هو معلوم ، وقاتلهم على ابن أبى طالب — رضى الله عنه — وقتل معظمهم ، ولكنهم لم يزل يخرج منهم طوائف ، حتى صار لهم أسوأ الأثر على الأمة الإسلامية .

ومن ذلك قوله : « ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه » أى المكان الذى خرج منها لَمَّا رمى به ، ومعنى ذلك : أنهم لا يعودون إلى الإسلام أبدا ، وهذا شأن أهل الأهواء ، والبدع ، لأنهم يرون أن ما هم عليه هو الحق ، ومن عداهم فهو على الباطل ، فهم الذين زين لهم سوء أعمالهم فأروها حسنة .

وقوله : « سيماهم التحليق » أى : علامتهم أنهم يخلقون رؤوسهم . « والتسبيد » : هو التحليق ، أو المبالغة فيه ، وقيل : هو ترك غسل الشعر ودهنه ، وقال الكرمانى هو : استئصال الشعر^(١) .

وقد ذكروا ، أن السلف لم يكونوا يخلقون رؤوسهم إلا فى النسك ، أو الحاجة .

ولا يلزم أن يكون الحلق علامة على الخوارج فى جميع الأزمنة ، فإن عادات

(١) انظر شرحه ج ٢٥ ص ٢٤٨ .

الناس تتغير ، وتختلف .

والمراد من الحديث : أن قراءة هؤلاء لا تجاوز تراقيهم — والترقوة : هي العظم الناقء في أعلى الصدر ، وأسفل الرقبة ، ولكل واحد ترقوتان .

والمعنى : أن القرآن لا يصل إلى قلوبهم ، فلا يفقهونه ، ولا يؤثر فيهم ، مع أنهم يحفظونه ، ويتلونه ، فتلاوتهم لا تنفعهم ، بخلاف المؤمنين المتقين ، فإنهم إذا تلاوا آيات الله زادتهم إيمانا ، فهم يزدادون إيمانا بعملهم ، ثم يجزيهم الله على ذلك أفضل الجزاء ، لأن ذلك عملهم ، أما المذكورون في هذا الحديث ، فلم ينتفعوا بفهم كتاب الله ، فدخل الإيمان في قلوبهم ، وإنما يتلونه بألسنتهم ولا يصل إلى القلوب ، فلم يتأثروا بآيات الله تقي ، ولا علما ولا إيمانا ، فعملهم مردود ؛ لأنه لا أثر له في نفوسهم ، فلم يمثلوا أمر الله وما أريد منهم ، ولم ينتفعوا بعملهم ، وهذا يدل على أن التلاوة التي انتفع بها المتقون ، ولم تنفع هؤلاء ، أنها عملهم الذى يجزون عليه ، وأعمالهم مخلوقة لله من سائر المخلوقات . وهذا المطلوب .

قال : « باب قول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ . وأن أعمال بنى آدم ، وقولهم يوزن » .

معنى وضع الموازين : إحضارها ، والقسط : العدل .

قال الكرمانى : « القسط : مصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، أى : الموازين العادلات . وجمع باعتبار العباد ، وأنواع الموزونات .

﴿ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ أى : فى يومها . وقال الزجاج : أى : نضع الموازين ذوات القسط ، وفائدة ذلك إظهار العدل ، والمبالغة فى الإنصاف ، والإلزام ، قطعاً لأعداء العباد »^(١) .

وقال الخازن : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ أى : « ذوات العدل ، وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيماً ، وقد يكون بخلافه ، فبين أن تلك الموازين تجرى على حد العدل »^(٢) .

« وقال الزجاج : المعنى : ونضع الموازين ذوات القسط ، والقسط العدل ، وهو مصدر يوصف به ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط »^(٣) .

قال ابن كثير : « الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة »^(٤) .

قال الحافظ : « اختلف فى ذكر الميزان بلفظ الجمع ، هل المراد ، أن لكل شخص ميزاناً ، أو لكل عمل ميزان ، فيكون الجمع على ظاهره ، أو ليس هناك

(١) شرح الكرمانى ج ٢٥ ص ٢٤٨ .

(٢) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٩٦ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٣٩ .

إلا ميزان واحد ، والجمع باعتبار تعدد الأعمال ، والأشخاص ، والذي يترجح ، أنه ميزان واحد ، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله ، لأن أحوال يوم القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا»^(١) .

« قال أبو اسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان ، وكفتان ، ويميل بالأعمال .

وأنكرت المعتزلة الميزان . وقالوا : « هو عبارة عن العدل .

فخالفوا الكتاب ، والسنة ، لأن الله — تعالى — أخبر أنه يضع الموازين ، لوزن الأعمال ، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ، ليكونوا على أنفسهم شاهدين»^(٢) .

قلت : وإنكار المعتزلة ونحوهم للميزان ، وأن الأعمال توزن يوم القيامة ، هو سبب النص ، على وجوب الإيمان به ، في عقائد أهل السنة ، وإلا فهو من جملة ما اشتمل عليه اليوم الآخر ، والإيمان به ركن من أركان الإيمان ، لا يتم لأحد إيمان إلا به .

قوله : « وأن أعمال بنى آدم وقولهم يوزن » يعنى : أن كل ما يصدر من بنى آدم ، ويترتب عليه الجزاء ، فهو يوزن ، لأنهم متعبدون لله مكلفون بما أرادهم منهم ، فراقبهم الله على ذلك ، فإذا حضروا لديه يوم القيامة ، جازاهم أتم الجزاء ، وأظهر عدله في حكمه عليهم ، حتى يعذروا من أنفسهم .

ومراد البخارى — رحمه الله — أن أعمال بنى آدم وأقوالهم ، مخلوقة لله

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٧ — ٥٣٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٨ .

تعالى ؛ فلهذا توزن ، فيجازون عليها ، ومن ذلك قراءتهم القرآن ، وذكرهم لله تعالى — بالتسبيح والتحميد والتهليل ، كما يأتي في الحديث .
قال ابن المنير : « جمع البخارى في هذه الترجمة بين فوائد : منها ، وصف الأعمال بالوزن .

ومنها ، ادراج الكلام في الأعمال ، لأنه لما وصف الكلمتين بالخفة على اللسان والتقل في الميزان ، دل أن الكلام عمل يوزن .

ومنها ، أنه ختم كتابه بهذا التسبيح ، وقد ورد في الحديث ما يدل على استحباب ختم المجالس بالتسبيح ، وأنه كفارة لما لعله يتفق في أثناء الكلام ، مما ينبغي هجره ، وهذا نظير كونه بدأ كتابه بحديث « الأعمال بالنيات » ، فكأنه تأدب في فاتحته وخاتمته ، بأداب السنة والحق .

فالأدب في الابتداء : إخلاص القصد والنية ، وفي الانتهاء : مراقبة الخواطر ومناقشة النفس على الماضى ، والاعتدال في تكفير ما لعله يحتاج إلى تكفير ، بما جعله الشرع مكفرا للهفوات^(١) .

قال الحافظ : « الظاهر أن أعمال بنى آدم ، وأقوالهم كلها توزن ، لكن خص من ذلك طائفتان : الكفار الذين ليس لهم حسنات ، فهم يقعون في النار من غير حساب ولا ميزان ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ .

الثانية : المؤمنون الذين لاسيئات لهم ، ولهم حسنات كثيرة ، فهم يدخلون الجنة بغير حساب كما في حديث السبعين ألفا ، وهم الذين يبرون على الصراط كالبرق الخاطف أو كلمح البصر ، أو كالريح^(٢) .

(١) المتوارى ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الكهف .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥٣٨ .

قوله : « وقال مجاهد : القسطاسُ : العَدْلُ بالرُّومِيَّةِ » .

يعنى : أن هذه عرّبت فصارت عربية وأنكر بعض العلماء ، أن يكون في القرآن شيء من غير العربية ، وهذا حق ، لأن ما عرب ، وأدخل في اللغة يكون منها .

قال الإمام الطبرى : « كل ما ذكر عن أهل التفسير من الكلمات ، أنها بلسان الحبشة ، أو الروم ، أو الفرس ، أو غيرهم ، معناه اتفاق اللسانين فيها »^(١) .

« ويقال : القسط : مصدر المقسط ، وهو العادل » .

قال الأزهرى : « قال الليث : القِسْطُ بكسر القاف : العدل ، والفعل منه ، أقسط بالألف .

والقَسْطُ : بفتح القاف : الجور . يقال قَسَطَ يَقْسِطُ قَسْطًا ، وَقُسُوطًا .
والقِسْطُ بكسر القاف : النصيب ، وقال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ ، قال الفراء : هم الجائرون ، الكفار .
وأما المقسطون : [فهم] العادلون ، المسلمون »^(٢) .

قال الحافظ : « وقد اعترض على البخارى فى قوله : « القسط مصدر المقسط » لأن مصدر المقسط : الاقساط ، قال ابن بطال ، والكرمانى : إنه أراد بالمصدر ما حذف زوائده كقول الشاعر : وإن أهلك فذلك قدرى .
يقصد : تقديرى ، فرد إلى أصله »^(٣) .

(١) انظر مقدمة تفسيره .

(٢) تهذيب اللغة ج ٨ ص ٣٨٨ وانظر معانى القرآن للفراء ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٥٤٠ .

وقيل : إن قسط من الأضداد ، أى : يأتي للعدل ، وللجور .
« وأما القاسطُ فهو الجائر » .

تقد كلام الفراء فيه .

١٨٣ — قال : « حدثنا أحمد بن إشكاب ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عُمارة بن القعقاع ، عن أبي زُرعة ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال النبي ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

المراد بالكلمتين : الجملتان ، « فسبحان الله وبحمده » جملة تامة ، « وسبحان الله العظيم » كذلك . ففيه إطلاق الكلمة على الكلام ، وهو كثير .
وقوله : « حبيبتان إلى الرحمن » فيه أن الله تعالى يحب بعض الكلام ، وبعض العمل أكثر من غيره ، ومحبة الله من صفاته ، التى يجب أن تثبت له ، على ما يليق بعظمته ، ولا يجوز تأويل محبته ، وتحريف الكلم فيها عن مواضعه ، كفعل أهل البدع .

وقد مضى القول فى ذلك .

« خفيفتان على اللسان » أى : عند النطق بهما لا تتقلان اللسان ولا تكلفه ، لسهولة حروفهما ، وخفتها على اللسان ، مع ما فيهما من الثواب العظيم ، ومحبة الرحمن — جل وعز — لهما ، فخليق بالعبد أن يكثر منهما ، وهذا يوضح مراد المؤلف — رحمه الله — وهو أن تكلم العبد ، وتلفظه ، ونطقه بالكلام ، من عمله الذى يجزى عليه ، وعمله كله مخلوق ، مع أنه لا يجوز أن يقال : إن هاتين الكلمتين :

« سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » أنهما مخلوقتان ، وإنما المخلوق
فعل العبد وعمله ، وكذا تلاوة التالى ، هى فعله وعمله يجازى عليها ، وتوضع
فى الميزان ، أما المتلو ، فهو كتاب الله وكلامه ، وهو غير مخلوق .

فهاتان الكلمتان توزنان ، ويثقل بهما الميزان ، وهذا دليل واضح ، على
أن تكلم العبد بالذكر وبالقرآن ، عمل له يثاب عليه ، ويوضع فى ميزانه ،
ليعطيه الله أجره عليه وافرا غير منقوص ، ونحن نردد هذا المعنى ونكرره لأن
المؤلف — رحمه الله — صنع ذلك كما سبق أن ذكرناه .

وقد أجمع السلف على أن أعمال العباد مخلوقة ، كما سبق ، وهذا هو المقصود
من الحديث الذى أراداه المؤلف ، لأن ما يوضع فى الميزان فهو مخلوق ، لأنه
من عمل العبد ، وما يتلمس من مقاصد غير هذا ، هى تابعة لهذا ، وليست
مقصودة لذاتها .

قوله : « ثقيلتان فى الميزان » قال الحافظ : « هو موضع الترجمة ، لأنه
مطابق لقوله : « وأن أعمال بنى آدم توزن »^(١) . وما يوزن ، فهو عمل
للعبد وهو مخلوق .

« سبحان الله وبحمده » قال الأزهرى : « قال الليث : سبحان الله ، تنزيه
الله ، عن كل ما لا ينبغى له أن يوصف به [ونصب على المصدر] . تقول :
سبحت الله تسبيحا ، أى : نزهته تنزيها ، وكذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الزجاج : سبحان فى اللغة : تنزيه لله — عز وجل — عن السوء .

قلت : وهذا قول سيبويه . يقال : سبحت الله تسبيحا وسبحانا بمعنى
واحد ، فالمصدر تسبيح ، والأسم سبحان يقوم مقام المصدر .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٤٠ .

قلت : ومعنى تنزيه الله من السوء : تبعيده منه ، وكذلك تسييحه : تبعيده ، من قولك : سبحت في الأرض ، إذا أبعدت فيها . ومنه قوله — جل وعز — ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴾ هي النجوم تسبح في الفلك — أى تذهب فيه بسطا ، كما يسبح السابح في الماء .

وكذلك السابح من الخيل ، يمد يديه في الجرى سبحا ، كما يسبح السابح في الماء . وجماع معناه : بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد ، أو ند «^(١)» .

وقال الحافظ : « معنى التسييح : تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص . فيلزم نفى الشريك ، والصاحبة ، والولد ، وجميع الرذائل ، ويطلق التسييح ، ويراد به جميع ألفاظ الذكر .

ويطلق ، ويراد به صلاة الناظلة . وسبحان : اسم مصدر منصوب على أنه واقع موقع المصدر ، لفعل محذوف ، تقديره : سبحت الله سبحانا ، كسبحت الله تسييحا ، ولا يستعمل غالبا إلا مضافا »^(٢) .

قوله : « وبجمده » . قيل : الواو للحال ، والتقدير : أسبح الله متلبسا بجمدى له ، من أجل توفيقه . وقيل : عاطفة ، والتقدير : أسبح الله ، وأتلبس بجمده ، ويحتمل أن تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم ، والتقدير : وأثنى عليه بجمده ، فتكون سبحان الله جملة مستقلة ، وبجمده ، جملة أخرى . قال الخطابي في حديث : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أى : بقوتك

(١) تهذيب اللغة ج ٤ ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٢) الفتح ج ١١ ص ٢٠٦ .

التي هي نعمة ، توجب على حمدك ، سبحتك ، لا بحولى ، وقوتى «^(١) .
قوله : « سبحان الله العظيم » أعاد التسييح للتكرير والمبالغة في تنزيهه
تعالى ، والإكثار من ذكره تعالى ، وهو من أفضل الأعمال .
ووصفه بالعظمة ، ليستحضر أنه أهل التسييح ومستحقه دائما ، وأن العبد
لن يؤدي حقه ، مهما أكثر من تسييحه ، وعبادته .

« قال ابن بطال : هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر ، إنما هي لأهل
الشرف في الدين ، والكمال ، كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام ، فلا تظن
أن من أدمن الذكر ، وأصر على ما شاء من شهواته ، وانتهك دين الله تعالى
وحرماته ، أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين ، ويبلغ منازلهم ، بكلام أجراه على
لسانه ، ليس معه تقوى ، ولا عمل صالح »^(٢) .

قال الكرمانى : « هذا الكلام من جوامع الكلم ، وفيه امثال لقوله تعالى :
﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، وتفسير له ، ولما كان ذلك مندوبا إليه ، عند أواخر
المجالس ، جعل البخارى — رحمه الله تعالى — كتابه كمجلس علم ؛ فختم
به .

وذكر هذا الباب هنا ليس مقصودا بالذات ، بل هو لإرادة أن يكون آخر
كلامه تسييحا وتحميدا^(٣) .

قلت : بل الظاهر ، أنه مقصود بالذات ، مع ما أشار إليه الكرمانى ، وتقدم
بيان ذلك .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٤١ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٤١ .

(٣) شرح الكرمانى ج ٢٥ ص ٢٥١ .

قال الحافظ نقلا عن شيخه البلقيني : « لما كان أصل العصمة أولا وآخرا ، هو توحيد الله — تعالى — ختم بكتاب التوحيد ، وكان آخر الأمور ، التي يظهر بها المفلح من الخاسر ، ثقل الموازين وخفتها ، جعله آخر تراجم الكتاب ، فبدأ بحديث : « إنما الأعمال بالنيات » وذلك في الدنيا ، وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة ، وأشار إلى أنه إنما يثقل منها ، ما كان بالنية الخالصة لله — تعالى — .

وفي الحديث الذي ذكره ، ترغيب وتخفيف ، وحث على الذكر المذكور ، لمحبة الرحمن له .

والخفة بالنسبة لما يتعلق بالفعل ، والثقل بالنسبة لإظهار الثواب . وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم ، وهو أن حب الرب سابق ، وذكر العبد ، وخفة الذكر على لسانه تالٍ ، ثم بين ما فيها من الثواب العظيم ، النافع يوم القيامة » انتهى^(١) .

قال الحافظ : « والذي يظهر ، أنه قصد ختم كتابه ، بما دل على وزن الأعمال ، لأنه آخر آثار التكليف ، فإنه ليس بعد الوزن ، إلا الاستقرار في إحدى الدارين ، إلى أن يريد الله — تعالى — إخراج من قضى بتعذيبه من الموحدين ، فيخرجون من النار بالشفاعة ، كما تقدم .

قال الكرماني : وأشار أيضا ، إلى أنه وضع كتابه قسطاسا ، وميزانا يرجع إليه ، وأنه سهل على من يسره الله — تعالى — عليه .

وفيه إشعار ، بما كان عليه المؤلف في حالتيه ، أولا وآخرا ، تقبل الله تعالى منه ، وجزاه أفضل الجزاء »^(٢) .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٥٤٢ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٥٤٢ .

قلت : كل هذه الأمور ، إن كانت مقصودة للبخارى — رحمه الله تعالى — فإنها جاءت تبعاً لما ذكر ، من أن مراده ، بيان خلق أفعال العباد ، وأصواتهم وكلامهم ، فإنها توزن ، فيجوزون عليها ، وأن تلفظهم بالقرآن ، والذكر والتسبيح ، من أعمالهم ، والعباد وأعمالهم من مخلوقات الله — تعالى — فإنه خالق كل شيء . والله أعلم . وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد ، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين .

انتهيت من تسويده بعد العصر ، من يوم الأحد ، الموافق التاسع ، من الحادى عشر ، من سنة سبع وأربعمائة وألف ١٤٠٧/١١/٩ هـ .

وانتهيت من تبييضه ، صباح يوم السبت ، الموافق السابع ، من الشهر الرابع ، من سنة ثمان وأربعمائة وألف ١٤٠٨/٤/٧ هـ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	باب قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾
٥	حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألف سنة »
٨	الأحاديث في رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة
١٠	حديث : « إنكم سترون ربكم »
٣٢	ذكر طرق الحديث « خلق الله آدم على صورته » ، ورواياته
٣٩	الفصل الثاني في معنى الصورة في اللغة
٤٢	الفصل الثالث في المعنى المراد من حديث الصورة
٤٦	الفصل الرابع في بيان بطلان قول أهل التأويل الفاسد
٩٨	العبور إلى الجنة من فوق جهنم على الصراط
١٠٢	آخر أهل الجنة دخولا فيها
١٠٤	إثبات الضحك لله تعالى وإبطال قول المؤولين
١٠٩	حديث أبي سعيد الطويل في الشفاعة والموقف والعبور على الصراط
١١٧	مناقشة شيخ الإسلام لأبي سعيد الدارمي في حديث الموقف
١٣٠	هل الذين يدخلون النار من الموحدين يموتون فيها ؟
١٣٧	الإشكال في حديث الشفاعة المشهور والجواب عنه
١٣٩	أقوال العلماء في المقام المحمود وذكر القول الصحيح
١٤٢	لقاء الله تعالى : يتضمن الرؤية

- ١٥٣ إنكار أهل البدع حجاب الله تعالى ، وشبهتهم في ذلك ، والرد عليهم
- ١٥٩ حديث أبي موسى « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » إلخ وشرحه وصف الله — تعالى — بأن رداء الكبرياء على وجهه ، وتخطب أهل التأويل في معناه
- ١٦٠ حديث ابن مسعود : « من اقتطع مال امرئ مسلم . إلخ ، ودلالته على رؤية المؤمنين ربهم .
- ١٦٥ حديث أبي هريرة : « ثلاثة لا يكلمهم الله » إلخ ودلالته على رؤية الله تعالى
- ١٦٧ حديث أبي بكر : « الزمان قد استدار » إلخ ، ودلالته على الرؤية
- ١٧٠ عظم حرمة دماء المسلمين ، وأموالهم ، وأعراضهم
- ١٧٣ ذكر بعض شبه المنكرين للرؤية ، والرد عليها
- ١٧٧ الرحمة المضافة إلى الله تعالى ، تكون صفة له ، وتكون مفعولا له
- ١٨٥ مراد البخارى بقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾
- ١٨٦ حديث أبي هريرة : « اختصمت الجنة والنار » إلخ ، والكلام عليه
- ١٨٩ حديث أنس : « ليصين أقواما سفح من النار » وشرحه
- ١٩٥ معنى قوله تعالى : ﴿ أن يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ ومراد البخارى بذلك
- ١٩٦ حديث ابن مسعود : « أن خبرا جاء إلى النبي ﷺ » إلخ
- ١٩٨ كان رسول الله ﷺ يبلغ الناس صفات الله ويخطب بها ، ويذكر في مجامع الناس
- ٢٠١ الفرق بين فعل الله — تعالى — ومفعوله
- ٢٠٣ حديث ابن عباس في مبيته عند خالته زوج النبي ﷺ ، والكلام عليه
- ٢٠٥

- ٢٠٨ كلام الله ينقسم إلى قدرى ، وشرعى ، والفرق بينهما
حديث ابن مسعود : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه » إلخ ،
٢١١ والكلام عليه
- ٢١٢ الجمع بين حديث ابن مسعود في التخليق وحديث حذيفة فيه
معنى قوله تعالى : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا
٢٢٢ وما خلفنا ﴾
- ٢٢٣ حديث ابن مسعود في السؤال عن الروح
٢٢٨ معنى قوله ﷺ : « تكفل الله لمن خرج في سبيله » إلخ
٢٣١ معنى قوله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾
- ٢٣٤ قوله ﷺ : « لا يزال من أمتي قوم ظاهرين »
٢٤٠ قول النبي ﷺ لمسيلمة الكذاب : « لن نعدو أمر الله فيك »
صفات الله لا تشبه صفات خلقه ، وبطلان قول من يقول : كلام
الله مخلوق
- ٢٤٤ إثبات مشيئة الله ، وإرادته ، والفرق بينهما
٢٤٩ قوله : « إن الله قبض أرواحكم حيث شاء » لما ناموا عن صلاة
الفجر
- ٢٧٢ قوله ﷺ : « لا تخبروني على موسى »
٢٧٤ رؤيا النبي ﷺ لخلافة أبي بكر وعمر ، وضرب المثل لذلك
٢٨٤ إذا دعا فليعزم ، ولا يعلق المطلوب بالمشيئة
٢٩٠ الخضر نبي مرسل ، والأنبياء يحتاجون إلى التنبيه من الله تعالى
٢٩٤ تقاسم بني كنانة على الكفر
٢٩٦ إثبات كلام الله صفة له ، وأنه يسمعه من يشاء من خلقه
٣٠٠ وصف الله تعالى بأنه ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه
من قرب
- ٣٠٦

- ٣١٦ معنى قوله : « ما أذن الله لشيء ، ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن »
- ٣٢١ معنى « لييك » ، ونداء الله آدم بأن يخرج بعث النار من ذريته
قول عائشة رضی الله عنها : ما غرت على امرأة ما غرت على
خديجة
- ٣٢٧
- ٣٢٩ كلام الله تعالى مع الملائكة
- ٣٣١ معنى تبارك الله ، وتعالى
القرآن كلام الله تعالى — منزل منه — كما قال تعالى : ﴿ أنزله
بعلمه ﴾
- ٣٣٧
- ٣٣٨ الأرضون سبع كالسماوات في العدد ، لا في الانفصال والتباين
- ٣٤٩ قول الله تعالى : « يؤذيني ابن آدم بسب الدهر ، وأنا الدهر »
- ٣٥١ فضل الصوم
- ٣٥٥ نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا آخر كل ليلة ، وإبطال قول المؤولة
تفضيل خديجة رضی الله عنها بإرسال السلام مع جبريل من الله
إليها
- ٣٦٩ كفر من يرمى زوج النبي ﷺ بالفاحشة ، وما له من عظيم
العذاب
- ٣٧٤ إذا هم العبد بالحسنة كتبت له حسنة ، وأما السيئة فلا تكتب حتى
يعملها
- ٣٧٨ قيام الرحم واستجارتها بالله من القطيعة ، ومعنى إضافة الحقو إلى
الله تعالى
- ٣٨١
- ٣٨٦ من الكفر نسبة نزول المطر إلى الكواكب ونحوها
- ٣٩٧ ، ٣٩١ حديث الرجل الذي أمر أولاده أن يحرقوه
- ٣٩٦ التائب من الذنب كمن لا ذنب له

- ٤٠٢ كلام الله تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم
- ٤٠٩ آخر من يخرج من النار من الموحدين
- ٤١٥ مناجاة الله تعالى لعبده يوم القيامة ، ودنوه منه ، ووضع كنفه عليه من أدلة ثبوت الكلام لله تعالى حقيقة كلامه لموسى بدون واسطة
- ٤٢٥ ولمحمد ليلة المعراج
- ٤٣١ احتجاج آدم وموسى ، وظهور آدم على موسى بالحجة
- حديث شريك في الإسراء والمعراج ، وذكر الجواب عما اعترض عليه فيه
- ٤٤٠
- ٤٦٥ كلام الله تعالى مع أهل الجنة
- الفرق بين فعل الله تعالى وأفعال عباده ، والفرق بين اللفظ والمفهوم
- ٤٦٩ جعل الند لله تعالى يكون في عبادته ، وفي أوصافه وأفعاله وخصائصه
- ٤٨٥
- ٥٠١ شهود أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة
- الله تعالى يحدث ما يشاء مما يريد إحداثه ، وذلك من فعله الذي يوصف به
- ٥٠٥
- ٥١٥ التمييز بين فعل العبد ، وما هو صفة لله في مثل قراءة القرآن
- الله تعالى خالق أفعال العباد
- ٥٢٣
- ٥٢٩ قول النبي ﷺ : « رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به »
- معنى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ وما تدل عليه من إبطال البدع
- ٥٣٤
- ٥٥٠ اللفظ غير المفهوم به ، والتلاوة غير المتلو
- ٥٦٠ معنى قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾

- ٥٦٩ خلق الإنسان هلوعا
قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « لا ينبغي لعبد أن
- ٥٧٧ يقول : أنا خير من يونس »
- ٥٨٦ الترجمة غير الكلام المترجم
- ٥٩٥ كفر من رمى واحدة من أمهات المؤمنين بالفاحشة
نزول القرآن على سبعة أحرف ، واختلاف العلماء في معناه ،
- ٦٠٤ والقول الراجح
قول الله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ؟
- ٦٢٣ ودلالة ذلك على خلق أعمال العباد
- ٦٢٥ كتابة الله لمقادير كل شيء في الأزل لا تنافي الأمر والنهي ، والعمل
اختلاف العلماء في المراد بالتحريف لكتب الله هل هو لألفاظها
- ٦٤٢ أو لمعانيها ؟
- ٦٥١ معنى كون الكلام في الكتاب
- ٦٥٤ الله الخالق لكل شيء ، فيدخل في ذلك أعمال العباد
- ٦٦٦ دخول الأعمال في مسمى الإيمان ، وأن أعمال العباد كلها مخلوقة
- ٦٧٧ شدة عذاب المصورين لأنهم تشبهوا بالله في الخلق
من أدلة البخارى — رحمه الله — على خلق أعمال العباد ، أن
- ٦٨٥ قراءة المنافق والفاجر لا تجاوز حناجرهم
- ٦٩٥ معنى قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾

فهرست الآيات التي استدلت بها البخارى حسب ترتيبه

الصفحة	الآية	
٥	١ - ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ الآيتان ٢٢ ،	٢٣ من سورة القيامة
١٨٥	٢ - ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ الآية ٥٦ من	سورة الأعراف
١٩٦	٣ - ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ الآية	٤١. من سورة فاطر
٢٠٨	٤ - ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ الآية ١٧١	من سورة الصافات
٢٣١	٥ - ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾	الآية ٤٠ من سورة النحل
٢٤٤	٦ - ﴿ قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل	أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ الآية ١٠٩ من سورة
٢٤٤	٧ - ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض ﴾ الآية	٩٤ من سورة الأعراف
٢٥٢	٨ - ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ الآية ٣٠ من سورة	الإنسان
٢٥٢	٩ - ﴿ تؤتى الملك من تشاء ﴾ جزء من الآية ٢٦ من سورة	آل عمران

- ١٠ - ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ الآية ٢٣ من سورة الكهف ٢٥٢
- ١١ - ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ الآية ٥٦ من سورة القصص ٢٥٢
- ١٢ - ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ الآية ١٨٥ من سورة البقرة ٢٥٢
- ١٣ - ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ الآية ٢٣ من سورة سبأ ٣٠٠
- ١٤ - ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ٣٠٣
- ١٥ - ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ الآية ٦ من سورة النمل ٣٢٩
- ١٦ - ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ الآية ٣٧ من سورة البقرة ٣٢٩
- ١٧ - ﴿ أنزله بعمله والملائكة يشهدون ﴾ جزء من الآية ١٦٦ من سورة النساء ٣٣٧
- ١٨ - ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ جزء من الآية ١٢ من سورة الطلاق ٣٣٨
- ١٩ - ﴿ يريدون أن يدلوا كلام الله ﴾ الآية ١٥ من سورة الفتح ٣٤٧
- ٢٠ - ﴿ إنه لقول فصل * وما هو بالهزل ﴾ الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الطارق ٣٤٧
- ٢١ - ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ جزء من الآية ١٦٤ من سورة النساء ٤٢٥

- ٢٢ - ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ جزء من الآية ١٥٢ من سورة البقرة
٤٦٩
- ٢٣ - ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم افضوا إلى ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة يونس
٤٦٩
- ٢٤ - ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ الآية ٦ من سورة التوبة
٤٦٩
- ٢٥ - ﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا ﴾ الآية ٢٢ من سورة البقرة
٤٨٣
- ٢٦ - ﴿ وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين ﴾ الآية ٩ من سورة فصلت
٤٨٣
- ٢٧ - ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ بعض الآية ٦٨ من سورة الفرقان
٤٨٣
- ٢٨ - ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة الزمر
٤٨٣
- ٢٩ - ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ الآية ١٠٦ من سورة يوسف
٤٩٥
- ٣٠ - ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ الآية ٨٧ من سورة الزخرف
٤٩٥
- ٣١ - ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ الآية ٣٨ من سورة الزمر
٤٩٥

- ٣٢ - ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ الآية ٢ من سورة الفرقان
٤٩٦
- ٣٣ - ﴿ ما تنزل الملائكة إلا بالحق ﴾ الآية ٨ من سورة الحجر
٤٩٦
- ٣٤ - ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ من الآية ٨ من سورة الأحزاب
٤٩٦
- ٣٥ - ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من الآية ٩ من سورة الحجر
٤٩٦
- ٣٦ - ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ من الآية ٣٣ من سورة الزمر
٤٩٧
- ٣٧ - ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ الآية ٢٢ من سورة فصلت
٥٠١
- ٣٨ - ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ الآية ٢٩ من سورة الرحمن
٥٠٥
- ٣٩ - ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ الآية ٢ من سورة الأنبياء
٥٠٥
- ٤٠ - ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ من الآية ١ من سورة الطلاق
٥٠٥
- ٤١ - ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ الآية ١١ من سورة الشورى
٥٠٦
- ٤٢ - ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ... ﴾ الآية ٢٣ من سورة سبأ
٥١٠
- ٤٣ - ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ الآية ١٦ من سورة القيامة
٥١٤
- ٤٤ - ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك
٥٢٣

- ٤٥ - ﴿ يتخافتون ﴾ من الآية ١٠٣ طه والآية ٢٣ من
 سورة القلم
 ٥٢٦
- ٤٦ - ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف
 ألستكم وألوانكم ﴾ الآية ٢٢ من سورة الروم
 ٥٣٠
- ٤٧ - ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ من الآية ٧٧ من
 سورة الحج
 ٥٣١
- ٤٨ - ﴿ يَأَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ
 تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ من الآية ٦٧ من سورة المائدة
 ٥٣٣
- ٤٩ - ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ من الآية ٢٨
 من سورة الجن
 ٥٣٩
- ٥٠ - ﴿ أَبْلَغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي ﴾ من الآيتين ٦٢ ، ٦٨ من
 سورة الأعراف
 ٥٤٠
- ٥١ - ﴿ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ ﴾ من الآية ٩٤ من
 سورة التوبة
 ٥٤٠
- ٥٢ - ﴿ اعْمَلُوا فِسِيرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾
 الآية ١٠٥ من سورة التوبة
 ٥٤١
- ٥٣ - ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ... ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ من الآية
 من سورة البقرة
 ٥٤٢
- ٥٤ - ﴿ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ﴾ الآية ٩٣ من سورة آل
 عمران
 ٥٥٠
- ٥٥ - ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا *
 وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة المعارج
 ٥٦٩
- ٥٦ - ﴿ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الآية
 من سورة آل عمران
 ٥٨٢

- ٥٧ - ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ من الآية ٢٠ من سورة
المزمل
٦٠٣
- ٥٨ - ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ الآية
١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ من سورة القمر
٦٢٣
- ٥٩ - ﴿ بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ ﴾ الآيتان ٢١ ،
٢٢ من سورة البروج
٦٣٨
- ٦٠ - ﴿ والطور * وكتاب مسطور ﴾ الآيتان ١ ، ٢ من
سورة الطور
٦٣٩
- ٦١ - ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ الآية
١٩ من سورة الأنعام
٦٤٩
- ٦٢ - ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ الآية ٩٦ من سورة
الصفات
٦٥٤
- ٦٣ - ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ الآية ٤٩ من سورة
القمر
٦٥٨
- ٦٤ - ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة
أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس
والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله
رب العالمين ﴾ الآية ٥٤ من سورة الأعراف
٦٦٠
- ٦٥ - ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ الآية ٤٧ من سورة
الأنبياء
٦٩٥

فهرست للأحاديث المشروحة في هذا الجزء

الصفحة	الحديث
١٠	١ - حديث جرير بن عبد الله البجلي في رؤية المؤمنين ربهم
	٢ - حديث أبي هريرة في الرؤية والحشر ، والوقوف ، ومجيء
١٥	الله للفصل بين العباد ، والشفاعة ، ونصب الصراط وغير ذلك
١٠٩	٣ - ومثله حديث أبي سعيد الخدري
١٣٣	٤ - ومثله حديث أنس وفيه تعدد الشفاعة . وهو مكرر
	٥ - حديث أنس ، وفيه قول النبي ﷺ : « اصبروا حتى
١٤٠	تلقوا الله ورسوله »
	٦ - حديث ابن عباس : كان إذا تهجد يقول : « ربنا لك
١٤٩	الحمد ... الخ » . وهو مكرر
	٧ - حديث عدى بن حاتم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه
١٥٠	ربه »
	٨ - حديث أبي موسى الأشعري : « جنتان من فضة ...
١٥٩	الخ »
	٩ - حديث ابن مسعود : « من اقتطع مال امرئ مسلم ..
١٦٥	الخ »
١٦٧	١٠ - حديث أبي هريرة : « ثلاثة لا يكلمهم الله ... الخ »
١٧٠	١١ - حديث أبي بكر : « الزمان قد استدار ... الخ »
	١٢ - حديث أسامة بن زيد : « كان ابن لبعض بنات النبي
١٨٨	يقضى » وهو مكرر
١٨٨	١٣ - حديث أبي هريرة : « اختصمت الجنة والنار ... الخ »

- ١٩٥ - ١٤ - حديث أنس : « ليصيين أقواما سفع من النار ... الخ »
- ١٥ - حديث ابن مسعود : « جاء حبر فقال يا محمد إن الله يضع السماوات على أصبع » . وهو مكرر
- ١٩٨ - ١٦ - حديث ابن عباس : « بت في بيت ميمونة لأنظر كيف يصلى ... الخ » مكرر
- ٢٠٥ - ١٧ - حديث أبي هريرة : « لما قضى الله الخلق كتب عنده ... الخ » مكرر
- ٢١٠ - ١٨ - حديث ابن مسعود : « إن خلق أحدكم يجمع ... الخ »
- ٢١١ - ١٩ - حديث ابن عباس : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا »
- ٢٢٢ - ٢٠ - حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح . مكرر
- ٢٢٣ - ٢١ - حديث أبي هريرة : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله »
- ٢٢٨ - ٢٢ - حديث أبي موسى : « الرجل يقاتل حمية ... الخ »
- ٢٣٠ - ٢٣ - حديث المغيرة : « لا يزال من أمتي قوم ظاهرين »
- ٢٣٤ - ٢٤ - حديث معاوية : « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله »
- ٢٣٦ - ٢٥ - حديث ابن عباس في قصة مسيلمة وقول النبي له : « لو سألتني هذه القطعة ... الخ »
- ٢٤٠ - ٢٦ - حديث ابن مسعود في الروح . مكرر
- ٢٤٣ - ٢٧ - حديث أبي هريرة : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله »
- ٢٤٨ مكرر

- ٢٨ - حديث أنس : « إذا دعوتم الله فاعزموا في الدعاء » .
- ٢٥٦ مكرر
- ٢٩ - حديث علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ طرده وفاطمة
- ٢٥٧ فقال : « ألا تصلون »
- ٣٠ - حديث أبي هريرة : « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع »
- ٢٦٠
- ٣١ - حديث ابن عمر : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم »
- ٢٦٢
- ٣٢ - حديث عبادة في المباينة على أن لا يشركوا بالله شيئاً »
- ٢٦٤
- ٣٣ - حديث أبي هريرة أن نبي الله سليمان قال لأطوفن الليلة
- ٢٦٨ على نسائي »
- ٣٤ - حديث ابن عباس : دخل على أعرابي يعودُه فقال :
- ٢٧٠ « لا بأس »
- ٣٥ - حديث أبي قتادة : « إن الله قبض أرواحكم حين
- ٢٧٢ شاء »
- ٣٦ - حديث أبي هريرة : « استب رجل من المسلمين ورجل
- ٢٧٤ من اليهود » مكرر
- ٣٧ - حديث أنس : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة »
- ٢٧٨
- ٣٨ - حديث أبي هريرة : « لكل نبي دعوة »
- ٢٨٢
- ٣٩ - حديث أبي هريرة : « بينا أنا نائم رأيتني على قلب
- ٢٨٤ فنزعت »
- ٤٠ - حديث أبي موسى : « اشفعوا فلتؤجروا »
- ٢٨٩
- ٤١ - حديث أبي هريرة : « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لي
- ٢٩٠ إن شئت »
- ٤٢ - حديث ابن عباس في قصة موسى والخضر
- ٢٩٢

- ٢٩٦ ٤٣ - حديث أبي هريرة : « نزل غدا إن شاء الله بخيف بنى كنانة »
- ٢٩٩ ٤٤ - حديث ابن عمر في غزوة الطائف وقوله : « إنا قافلون غدا إن شاء الله »
- ٣٠٤ ٤٥ - حديث قول ابن مسعود إذا تكلم الله بالوحى .. الخ
- ٣٠٥ ٤٦ - حديث عبد الله بن أنيس : « يحشر العباد فيناديهم بصوت ... الخ »
- ٣١٥ ٤٧ - حديث أبي هريرة : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة »
- ٣١٦ ٤٨ - حديث أبي هريرة : « ما أذن الله لشيء ما أذن للنبي يتغنى بالقرآن »
- ٣٢٠ ٤٩ - حديث أبي سعيد : « يقول الله يا آدم ، فيقول لبيك وسعديك ، فينادى بصوت »
- ٣٢٧ ٥٠ - حديث عائشة : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة
- ٣٣٠ ٥١ - حديث أبي هريرة : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل »
- ٣٣٤ ٥٢ - حديث أبي هريرة : « يتعاقبون فيكم ملائكة »
- ٣٣٥ ٥٣ - حديث أبي ذر : « أتاني جبريل فبشرني ... الخ »
- ٣٤٠ ٥٤ - حديث البراء : « إذا آويت إلى فراشك فقل »
- ٣٤٣ ٥٥ - حديث ابن أبي أوفى : « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب »
- ٣٤٦ ٥٦ - حديث ابن عباس أنزل قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ والنبي متوار

- ٥٧ - حديث أبي هريرة : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر » .
٣٤٩ مكرر
- ٥٨ - حديث أبي هريرة : « يقول الله الصوم لى وأنا أجزى
٣٥١ به »
- ٥٩ - حديث أبي هريرة : « بينما أيوب يغتسل عريانا »
٣٥٣
- ٦٠ - حديث أبي هريرة : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة »
٣٥٤
- ٦١ - حديث أبي هريرة : « نحن الآخرون السابقون يوم
٣٦٨ القيامة »
- ٦٢ - حديث أبي هريرة : هذه خديجة أتتك بإناء فيه طعام
٣٦٩
- ٦٣ - حديث أبي هريرة : « أعددت لعبادى الصالحين »
٣٧٠
- ٦٤ - حديث ابن عباد : كان إذا تهجد من الليل . مكرر
٣٧٢
- ٦٥ - حديث عائشة فى قصة الإفك
٣٧٣
- ٦٦ - حديث أبي هريرة : « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة ...
٣٧٨ انلخ »
- ٦٧ - حديث أبي هريرة : « خلق الله الخلق فلما فرغ منه
قامت الرحم »
٣٨٠
- ٦٨ - حديث زيد بن خالد : « أصبح من عبادى كافر بى
٣٨٦ ومؤمن »
- ٦٩ - حديث أبي هريرة : « إذا أحب عبدى لقائى أحببت
٣٨٨ لقاءه »
- ٧٠ - حديث أبي هريرة : « أنا عند ظن عبدى بى »
٣٩١
- ٧١ - حديث أبي هريرة : قال رجل إذا أنا مت فحرقونى .
٣٩١ مكرر
- ٧٢ - حديث أبي هريرة : « إن عبدا أصاب ذنبا فقال : رب
٣٩٥ أصبت ذنبا »

- ٧٣ - حديث أبي سعيد في قصة الرجل الذي أمر أولاده أن
يحرقوه ٣٩٧
- ٧٤ - قطعة من حديث أنس في الشفاعة . مكرر ٤٠٣
- ٧٥ - حديث أنس في الشفاعة . مكرر ٤٠٤
- ٧٦ - حديث ابن مسعود في آخر من يدخل الجنة ٤٠٩
- ٧٧ - حديث عدى بن حاتم : ما منكم من أحد إلا سيكلمه
ربه ٤١٣
- ٧٨ - حديث ابن مسعود : جاء خبر من اليهود ٤١٤
- ٧٩ - حديث ابن عمر في النجوى ٤١٥
- ٨٠ - حديث أبي هريرة في محاجة موسى وآدم ٤٣٢
- ٨١ - حديث أنس في الشفاعة . مكرر ٤٣٩
- ٨٢ - حديث أنس في قصة المعراج ٤٤٠
- ٨٣ - حديث أبي سعيد في قول الله تعالى لأهل الجنة : هل
رضيتم ٤٦٥
- ٨٤ - حديث أبي هريرة في الرجل الذي يطلب من ربه أن
يأذن له في الزرع في الجنة ٤٦٧
- ٨٥ - حديث ابن مسعود : « قلت أي الذنب أعظم » ٤٩٧
- ٨٦ - حديث ابن مسعود : « اجتمع عند البيت ثقفيان
وقرشي » ٥٠٥
- ٨٧ - حديث ابن عباس : « كيف تسألون أهل الكتاب » ٥١٣
- ٨٨ - حديث ابن عباس في قوله : « لا تحرك به لسانك » ٥٢١
- ٨٩ - حديث ابن عباس في قوله : « ولا تجهر بصلاتك »
مكرر ٥٢٦

- ٩٠ - حديث أبي هريرة : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .
 مكرر ٢٢٧
- ٩١ - حديث أبي هريرة : « لا تحاسد إلا في اثنتين » ٥٣١
- ٩٢ - حديث أبي سالم : « لا حسد إلا في اثنتين » ٥٣٣
- ٩٣ - حديث المغيرة بن شعبة : « أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا » ٥٤٥
- ٩٤ - حديث عائشة : من حدثك أن محمداً كتم شيئاً . مكرر ٥٤٦
- ٩٥ - حديث ابن مسعود : أى الذنب أعظم . مكرر ٥٤٧
- ٩٦ - حديث ابن عمر : « إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم » ٥٦٤
 مكرر
- ٩٧ - حديث ابن مسعود : قلت أى الأعمال أفضل ٥٦٧
- ٩٨ - حديث عمرو بن تغلب : أعطى قوماً ومنع آخرين ٥٧١
- ٩٩ - حديث أنس : إذا تقرب العبد إلى شيراً .. الخ . مكرر ٥٧٤
- ١٠٠ - حديث أبي هريرة مثله ٥٧٦
- ١٠١ - حديث أبي هريرة : الصوم لى وأنا أجزى به . مكرر ٥٧٦
- ١٠٢ - حديث ابن عباس : لا ينبغي لعبد أن يقول إنه خير ٥٧٧
 من يونس
- ١٠٣ - حديث عبد الله بن المغفل فى الترجيع بالقراءة ٥٧٩
- ١٠٤ - حديث أبي هريرة : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا ٥٨٤
 تكذبوهم
- ١٠٥ - حديث ابن عمر فى اليهوديين اللذين زنيا ٥٨٧
- ١٠٦ - حديث أبي هريرة فى التغنى بالقرآن . مكرر ٥٩٣

- ١٠٧ - قطعة من حديث الإفك . مكرر ٥٩٤
- ١٠٨ - حديث البراء : سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء ٥٩٧
- ١٠٩ - حديث ابن عباس في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ مكرر ٥٩٨
- ١١٠ - حديث أبي سعيد : إذا أذنت فارفع صوتك ٥٩٩
- ١١١ - حديث عائشة كان يقرأ القرآن ورأسه في حجرى ٦٠١
- ١١٢ - حديث قصة عمر مع هشام بن حكيم واختلاف ٦٠٤
- القراءة
- ١١٣ - حديث عمران : كل ميسر لما خلق له ٦٢٥
- ١١٤ - حديث على أنه كان في جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت به الأرض ٦٣٤
- ١١٥ - حديث أبي هريرة : لما قضى الله الخلق كتب . مكرر ٦٥٠
- ١١٦ - حديث أبي موسى وذهابه إلى النبي لطلب الحملان وقوله والله لا أحملكم ٦٦٨
- ١١٧ - حديث ابن عباس في وفد عبد القيس ٦٧٢
- ١١٨ - حديث عائشة في المصورين ٦٧٧
- ١١٩ - حديث ابن عمر فيهم ٦٧٧
- ١٢٠ - حديث أبي هريرة فيهم ٦٧٩
- ١٢١ - حديث أبي موسى في مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ٦٨٦
- ١٢٢ - حديث عائشة في الكهان ، وأنهم ليسوا بشيء ٦٨٩
- ١٢٣ - حديث أبي سعيد في الخوارج ٦٩٢
- ١٢٤ - حديث أبي هريرة كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ٦٩٩

تصويبات واستدراكات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	١٧	عننى	عنى
٩	١٠	ليست	ليس
١٦	١١	؟	تحذف علامة الاستفهام
١٦	١٣	؟	تحذف علامة الاستفهام
٢٢	١٩	يتأتينا	يأتينا
٢٣	٤	؟	تحذف علامة الاستفهام
٢٨	١٦	تعيين المراد من الحديث	معنى الصورة في اللغة
٣١	٦	عزيراً بن الله	عزيراً ابن الله
٣٧	٣	نترأى	نترأنا
٤٣	١٢	أحمد بن حنبل يقول : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم	ابن راهوية يقول : قد صح عن النبي ﷺ أنه نطق به
٦٨	٢٣	فقوما	قوما
٧١	٣	وجهه	وجهك
٨١	٢	منع من منع بالاحتجاج	من منع من الاحتجاج
٩٤	١٧	فصوره الله	فصورة الله
١٠٩	١	أبو هريرة	أبو سعيد
١٣٢	١٨	عليهم	عليه
١٤٢	٩	لقاكم	لقياكم
١٤٤	٢	إلا	ألا
١٤٥	١٧	أحدهما	أحدها
١٦٤	١٠	فمراد	فمراده
١٦٦	٨	روايه	رواية
١٨١	١٠	أنه	أنهم
١٩٦	١	بسم الله الرحمن الرحيم	تحذف
١٩٩	١١	قال الراغب : « الأثر	قال الراغب : « الحبر الأثر
١٩٩	١٥	العالم	العالم
٢٠٥	١٣	غمرة	عمرة
٢٠٩	١٢	بالسيف	بالسبق
٢١٨	٥	يقول	يعول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٢	٣	سقط رقم الحديث «٨٠»	فستعدل الأرقام بعده
٢٤٤	٩	ذلك	ذلل
٢٧٣	٦	ليلة	ليله
٣٢١	١٨	القرى	القرى
٣٢٢	٢٠	القرى	القرى
٣٢٨	٥	وثنائه	وثناؤه
٣٣٥	٨	وإظهارا	وإظهار
٣٣٥	٩	وبيانا	وبيان
٣٦٤	١٩	يتجدد	يتحدد
٤٠١	٦	بالاضطرار	بالاضطرار
٤١٦	١٤	كثير	كثيرة
٤١٩	٢٣	هو	هي
٤٣٤	٢	يعجزن	تعجزن
٤٥٩	٩	وفيها	وفيها
٤٨٦	٤	المخلوق	المخلوف
٤٩٦	٢	لهم	لها
٥٠٤	٢٠	منه	منهم
٥٠٩	١	إذن	أذن
٥٣٦	٢	أجل لأمر الله	اصبر لأمر الله
٦٠٧	٢	منها	منهما
٦٠٩	١١	فتلقى آدم من ربه كلمات	فتلقى آدم من ربه كلمات
٦١٥	١٠	بلغه	بلغه
٦١٦	١	منها	منهما
٦١٩	١٥	مثل	مثل
٦٢٠	١١	اليثيم	اليثيم
٦٢١	٣	ألا	إلا
٦٢١	١٠	وقاله وهب	وقاله وهب
٦٤١	٧	ومن تاويله	ومن تاوله
٦٤١	١٠	المختصر	المختصر
٦٦١	٨	الماء المطهر	ماء المطر
٦٧٢	١٢	خير	خييرا
٦٨٣	٨	وإذا حصلت	وإذا حصل